الأمانة العامة للندوة
الحديث الشريف

كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي

الندوة العلمية الدولية الخامسة
بعنوان:

الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية



عقدت في رحاب كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

١٦-١٧ جمادى الأول ١٤٣٢ هـ ١٩-٢٠ أبريل ٢٠١١م

بحوث الندوة محكمة

قواعد النشر

١- ألا يكون البحث قد نُشر من قبلُ أو قُدِّم للنشر إلى جهة تحكيميّة، أو نال به صاحبُه درجة علميّة، وعلى الباحث أن يقدّم تعهّداً خطيّاً بذلك.

٢- أن يكون البحث واضح الصلة بالأهداف المعلنة للندوة، ضمن محور من محاورها.

٣- أن تكون الأدلةُ المذكورة موثّقةً بالتخريج من المصادر الأصليّة، ومبيّناً درجةُ قبولها، إذا كانت من غير الصحيحين.

٤- أن يتسم البحث بالجدة والأصالة والعمق والسلامة اللغوية والالتزام بالشروط الأكاديمية المتبعة في الأبحاث العلمية، مع تجنب الاستطراد والخروج عن الموضوع.

٥- عدم استعمال مصطلحات غير عربية إلا في حدود الضرورة مع توضيحها في الحاشية عند أول ذِكْرٍ لها.

٦- عدم التكلف في الاستدلال بالنص على ما هو بعيد الصلة به وتوضيح وجه الدلالة منه.

٧- أن تُثْبَتَ قائمةُ المصادر والمراجع مستوفاةً في آخر البحث مرتبةً على حروف المعجم.

٨- أن يقدَّم اسمُ الكتاب على اسم مؤلفه عند توثيق النصوص في الحواشي، وكذلك في ثبت المصادر والمراجع.

٩- ألا يشار في الحواشي إلى المعلومات المتعلقة بطبعة الكتاب المحال إليه إلا في حال اعتماد الباحث أكثرَ من طبعةٍ للكتاب الواحد.

١٠- ذكرُ خلاصة نتائج البحث وتوصياته.

١١- أن يكون حجم الخط في كتابة البحث (١٦)، وأما الحواشي فتكون بحجم (١٤). على نظام ويندوز بخط (Traditional Arabic)، مع ترك مسافة ٢,٥ سم في جوانب الصفحة الأربعة، وأن يتراوح البحث ما بين (٣٠) إلى (٤٠) صفحة.

١٢- يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي تطلبها لجنةُ التحكيم على بحثه وإرسالِها في الموعد المحدد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي بعث النبيين مبشرين ومنذرين، والصلاة والسلام على خير خلقه للعالمين، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه بإحسان إلى يوم الدين أما بعد،،،

فها هي ندوة الحديث المباركة تخط بأحرف من نور سفرها الخامس، بهمة وقّادة، وعزم لا يلين، فقد انجلت فعاليات الندوة العلمية الدولية الخامسة التي احتضنتها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، بعد يومين من العمل كان آخرها٢٠ / ٤ / ٢٠١١م، وتميزت في دورتها هذه بموضوعها الذي حظي بسرور الكثيرين من أهل العلم والمعرفة؛ ألا وهو:

«الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية»

وها نحن اليوم نقدم للمكتبة الإسلامية والعربية أثرًا مهماً من آثار هذه الندوة، حتى لا تندثر فعالياتها، ويغيب عن النُظَّارِ نتاجها، فجاء هذا الكتاب جامعاً أعمالها، راصداً نتائجها، مدوناً توصياتها.

لقد حرصت الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف، على أن تتميز أبحاث هذه الدورة بالجدة والأصالة والإضافة المعرفية، لأجل ذلك خضعت الأبحاث المقدمة للندوة لمراحل متعددة من التقييم، حتى استقر بها المقام بين دفتي هذا الكتاب؛ فكان النظر في الملخصات، ثم التحكيم الأولي لها، ثم التحكيم النهائي، كل ذلك جاء على أيدي أهل الخبرة والدراية والعلم، ثم عقدت الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف اجتماعها للنظر في تقارير المحكمين، سعياً لأفضل الأبحاث، بمنهجية

موضوعية، تراعي أصول التحكيم، وقواعده المعتمدة في أرقى المجلات العلمية، كل ذلك يحاط بالسرية التامة في التعامل مع الأبحاث والباحثين، ثم لتُراجَع الأبحاثُ المقبولة المرة تلو الأخرى على ضوء تقارير المحكمين، وتُدَقَّق لغوياً وطباعياً. وكنا نتمنى أن نثبت التعقيبات والمداخلات التي جرت بين يدي الجلسات، لكنّ حائلاً فنياً حال دون ذلك، فاكتفينا بإثباتها في التسجيلات المرئية للندوة.

جاء هذا السفر العظيم ضاماً بين دفتيه ستة عشر بحثاً، عُرِضت ملخصاتُها في الجلسات العلمية التي امتدت على مدار يومين كاملين. وتأتي أهميته من الحاجة الماسة لموضوعاته التي طرحها؛ فالأمة التي لا تستشرف مستقبلها، وتخطط له، أمة تعيش في حالة من المعاناة والتخلف. من هنا نجد أن أبحاث هذه الدورة أثبتت أهمية الاستشراف والتخطيط المستقبلي، متناولة تأصيل مفهومه، وبيان أهميته وفقهه، وضوابط العمل به، وكشفت أن المسلم الحق صاحب نظرة إيجابية في التعامل مع المستقبل، يهتم بالتنمية البشرية والاقتصادية والاجتماعية، ويطور وسائلَ رُقِيها، كما أنه يتعامل مع الأزمات بمنهجية متزنة، لا تؤدي إلى مفاقمتها، بل تسعى لحلها، والخروج منها بأقوى ما يمكن. كل ذلك سعياً لبناءٍ حضاري متين، يهتم بالعمران البشري، ويسعى لأن يقدم النموذج الحضاري المَنشود.

كل ذلك محوط بإطار من الهداية النبوية الراشدة، فالنبي صلى الله عليه وسلم؛ خير من استشرف وخَطَّطَ، وواجه الأزمات، فهو صلى الله عليه وسلم يعلمنا التخطيط في كل شؤوننا.

من هنا، فإن الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف تأمل أن يقدم هذا الكتاب إضاءة مهمة على هذا الجانب من السنة النبوية. وهي لا تدعي أن الأبحاث استوعبت الموضوع، إنما جاءت لتفتح أمام الباحثين آفاق انطلاقة جديدة لأبحاث تزيد ثمار النظر في هذا الموضوع الحيوي.

وأخيراً فإنه لا يسعنا إلا أن نتقدم بالشكر والتقدير لمن استشرف المستقبل، وخطط له؛ منذ أكثر من ربع قرن، فأنشأ صرحاً علمياً مميزاً؛ هو كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي، واستشرف وخطط منذ عشرة أعوام، فكانت ندوة الحديث الشريف. فالشكر كل الشكر لمعالي جمعة الماجد؛ مؤسس الكلية، ورئيس مجلس أمنائها.

والشكر موصول لسعادة مدير الكلية الدكتور محمد عبد الرحمن، على كل ما بذله من جهد في دعم الندوة وأمانتها بكل ما تحتاج، فما قَبِلَ إلا التميز في العطاء، والجدَّ في الأداء، فكان خير ناصح وموجه، ذلل أمام العمل كل الصعاب. ومن خلاله نشكر كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي؛ عميداً ووكيلاً وأعضاء هيئة تدريس ولجاناً فرعية على كل ما بُذِلَ ويُبْذَلُ خدمة للسنة النبوية المطهرة وندوتها.

ونعجز في هذا المقام عن شكر الجهات الداعمة: من الرعاة، والمؤسسات الحكومية على دعمهم المتواصل لإنجاح فعاليات هذه الندوة.

وللباحثين منا كل ثناء عطر، فبمداد فكرهم، وعطاء صبرهم، كانت أبحاث هذا الكتاب.

والحمد لله رب العالمين.

مكتب الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف

د. عبد السلام أحمد أبو سمحة

مساعد الأمين العام

يوم الثلاثاء ١٦/ جمادى الأول/١٤٣٢هـ الموافق ١٩/٤/٢٠١١م

الجلسة الافتتاحية:

- كلمة السيد جمعة الماجد رئيس مجلس أمناء كلية الدراسات العربية والإسلامية ١٣
- كلمة الأستاذ الدكتور حمزة بن عبدالله المليباري / الأمين العام للندوة ١٥
- كلمة الأستاذ الدكتور علي أبو المكارم / ضيف الندوة العلمية الدولية الخامسة ٢٠
- قصيدة الطالبة نوف أحمد الزدجالي ٢٣

الجلسات العلمية:

الجلسة الأولى

- التخطيط الاستراتيجي في السنة المشرفة: أسسه العامة، أدواته، وخصائصه-د. حسام أحمد قاسم -جامعة أوساكا / اليابان ٢٥
- الائتمان على المستقبل في السنة النبوية، نحو حداثة إنسانية جديدة د.محمد عبد الفتاح الخطيب-جامعتي الأزهر الشريف و الإمارات العربية المتحدة ٩٧
- أهمية استشراف المستقبل وضوابطه دراسة تأصيلية في ضوء السنة النبوية-د. محمد بشير البشير-كلية التربية-جامعة جازان / السعودية ١٦٧

الجلسة الثانية

- فقه التخطيط للمستقبل في ضوء السنة والسيرة - د.محمد إبراهيم العشماوي- جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة وكلية الإمام مالك للشريعة والقانون بدبي ٢٢١
- الاستشراف الإيجابيّ للمستقبل في ضوء السّنّة النّبويّة- د. الذّوّادي بن بخّوش قوميدي-جامعة باتنة / الجزائر ٢٩١
- النظرة الإيجابية للمستقبل في السنة النبوية وأثرها في تقدم الفرد والمجتمع -أ.د. محمد زرمان-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-جامعة باتنة / الجزائر ٣٥١

يوم الأربعاء ١٧/ جمادى الأول/١٤٣٢هـ الموافق ٢٠/٤/٢٠١١م

الجلسة الأولى

- استشراف المستقبل والتخطيط له وحاجة الدعوة والداعية إليه، دراسة تأصيلية في بيان أهميته ووسائل معرفته من خلال نصوص السنة النبوية-د. علي بن محمد عبد الله الطالب الأمين الشنقيطي-كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة / المدينة المنورة، السعودية ٤١٧
- الموارد البشرية في السنة النبوية، منهج نحو استشراف المستقبل- د. حكيمة حفيظي-كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية- جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية / قسطنينة،الجزائر....... ٤٧٩
- اهتمام السنة بالاستشراف والتخطيط في التنمية الاقتصادية والاجتماعية - أ.د. كايد يوسف قرعوش - كلية الآداب والعلوم الإنسانية-جامعة العلوم التطبيقية الخاصة / الأردن............................ ٥٢٥

- السنة النبوية ورسم أحوال العمران البشري، استشراف المستقبل من منظور الرؤية الكونية التوحيدية «إحالة خاصة إلى بعض معالم منهجية ابن خلدون» -د. صالح بن طاهر مشوش -كلية علوم الوحي والعلوم الإنسانية -الجامعة الإسلامية العالمية / ماليزيا ٥٦٩

الجلسة الثانية(١٢-٢) (الصباحية)

- التدبير الوقائي في السنة النبوية، نحو منهج مناسب لفهم الأحاديث الواردة في موضوع الفتن -د. محمد البشير ناصيري -مؤسسة دار الحديث الحسنية / الرباط، المملكة المغربية ٦٣٧
- نصوص قواعدية في السنة النبوية لإدارة الأزمات عرضا وتطبيقا -د. يحيى بلال -جامعة الطائف، باحث بمعلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية سابقا / السعودية ٦٩٩
- استراتيجيات النبي ﷺ في إدارة أزمة الحصار العسكري واستشراف المستقبل، عزوة الأحزاب أنموذجا -د. محمود أحمد يعقوب رشيد - كلية الشريعة -الجامعة الأردنية / الأردن ٧٥٥

الجلسة الثالثة

- استشراف أسرار تغير الظاهرة الحضارية من خلال الحديث النبوي الشريف -أ.د. أحمد عثمان رحماني - كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي وجامعة باتنة / الجزائر ٨١١
- إدارة الأزمات والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية الهجرة وبناء الدولة الإسلامية الأولى: أنموذجاً -د. نوال بنت عمر بن عبد الله باسعد - جامعة الملك عبد العزيز فرع كلية البنات / جدة، السعودية ٨٨٤

- التخطيط الصحي في الهدي النبوي-د.رابح دفرور-جامعة أدرار / الجزائر ٩٢٩

الجلسة الختامية

- كلمة الأستاذ الدكتور أحمد حساني / عميد كلية الدراسات العربية والإسلامية ٩٩٣
- كلمة الأمانة العامة أ.د. أحمد معبد عبد الكريم ٩٩٧
- قراءة توصيات الندوة العلمية الدولية الخامسة / د. عبد السلام أبو سمحة-مساعد الأمين العام للندوة ....
- قصيدة شعرية بعنوان: «سنن الهدى» - تأليف أ.د.محمد عبدالله سعادة / مساعد عميد كلية الدراسات العربية والإسلامية للدراسات العليا ١٠٠٢

الجلسة الافتتاحية

كلمة السيد جمعة الماجد

رئيس مجلس أمناء كلية الدراسات العربية والإسلامية

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة،

ضيوفي الأكارم،

أبنائي وبناتي من الطلبة،

أيها الحضور الكريم،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد،،

فيسعدني أن أرحب بكم جميعا في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بمناسبة افتتاح الندوة العلمية الدولية الخامسة التي تناقش موضوع الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية. كما يسعدني أن أثمن حضوركم لافتتاح فعاليات هذه الندوة تلبية لدعوتنا، وأقدر جهود الباحثين الذين حضروا هنا من مختلف الأقطار الإسلامية والعربية، لتقديم بحوثهم ودراساتهم حول موضوع الندوة، كما أثمن نشاط أعضاء الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف في إعداد ندوات علمية دولية في الكلية، واختيار موضوعات تخدم المجتمع، وأشكرهم على ما بذلوه من جهود كبيرة في إنجاح الندوات.

أيها الحضور الكريم،

إن الرسالة التي يحملها العلماء الباحثون والأساتذة الجامعيون في خدمة الدين والمجتمع أعظم مما يتصورون، وأشرف مما يتوقعون. وإن أداء هذه الرسالة يقتضي منهم الاهتمام بالاستشراف والتخطيط المستقبلي واضعين أمام أعينهم تجارب الماضي،

وطبيعة التغيرات التي يشهدها العصر الحاضر اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وأنتم تعلمون إن الإنسان بفطرته يحب أن يكون غده أفضل، ويكره أن يضيع جهده سدى. جاء الإسلام لترسيخ هذه الفطرة وتنميتها في نفوس الإنسان، من خلال تشريعاته التي تربي في النفوس حب الاستشراف والتخطيط.

لقد عاش صلى الله عليه وسلم في مكة بعد بعثته ثلاث عشرة سنة، وكان يستقبل الكعبة المشرفة في صلاته، ويطوف بها، وفيها أصنام تعبد، دون أن يستعجل في إزالتها عن الكعبة بالقوة، كما صبر ثماني سنوات أخرى في المدينة حتى جاء فتح مكة ليطهر الكعبة من الأصنام بأمن وإيمان، ويكمل بناء الدولة والأمة، ويحول أعداءه الذين حاربوه وآذوه، إلى أحبابه الذين يحمونه بالنفس والنفيس. ومن يحلل هذا الموقف من النبي صلى الله عليه وسلم يرى فيه عظمة الاستشراف وعبقرية التخطيط. ولنا في رسول الله أسوة حسنة ؛ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

وأخيرا لا يسعني في هذه المناسبة إلا أن أشكر صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان حفظه الله رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، وصاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم رعاه الله نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وسمو الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التعليم العالي والبحث العلمي على جهودهم ودعمهم لمسيرة الكلية.

كما أشكر جميع الإخوة الذين قدموا للندوة رعاية مادية ودعما معنويا. وشكري موصول أيضا إلى إدارة الكلية، واللجان الفرعية، وغيرهم ممن له إسهام في إنجاح هذه الندوة العلمية الدولية الخامسة.

وأشكركم جميعا. والله تعالى يوفقنا وإياكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الأستاذ الدكتور حمزة بن عبدالله المليباري / الأمين العام للندوة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد،،

سعادة جمعة الماجد مؤسسَ الكلية، ورئيسَ مجلس أمنائها

أصحابَ المعالي والفضيلة والسعادة

الأساتذة الباحثون

أيها الحفل الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،،

بادئ ذي بدء، يطيب لي أن أرحب بكم في مناسبة افتتاح الندوة العلمية الدولية الخامسة نيابة عن الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف، وأقول لكم بكل وفاء وحفاوة: حللتم أهلا ونزلتم سهلا.

لا شك أن حضوركم افتتاح هذه الندوة يضفي مصداقية كبيرة على جهود الأمانة العامة في إقامة ندوات علمية دولية حول الحديث الشريف، كما أنه يعطي للأمانة العامة دعما قويا في مواصلة جهدها في خدمة السنة النبوية.

أيها الحفل الكريم،

هذه الندوة العلمية الدولية الخامسة التي يشارك فيها ستة عشر باحثا من تسع دول عربية وإسلامية، بدأ تحضيرها قبل أكثر من سنة، وأن معظم مراحل التحضير كانت منصبة فيما يخص الجوانب العلمية للندوة، وهي تتمثل في تشجيع الباحثين على كتابة بحوث حول موضوع الندوة، تتميز بالجدة والأصالة

والإضافة المعرفية، ثم في تحكيم البحوث على مراحل شتى من التدقيق والتنقيح. وذلك احتراما لمكانة السنة النبوية عامة، واعتبارا لخطورة موضوع الندوة خاصة.

ولذا، لم يكن بوسع الأمانة العامة إلا أن ترشح ستة عشر بحثا من مجموع سبعين بحثا، في ضوء تقارير المحكمين، بعد مناقشة هذه التقارير ومقارنتها. وكانت الأمانة العامة حريصة كل الحرص على أداء مهمتها بنزاهة تامة وإنصاف كامل.

هذا، ولم تكتف الأمانة العامة بذلك القدر من مراحل التنقيح، بل كانت تسعى للمزيد؛ فوزعت الأبحاث على الأساتذة المعقبين الذين تم اختيارهم، ليطلعوا عليها قبل الندوة، وذلك من أجل إثراء فعاليات الندوة، عوضا عن التعقيبات الارتجالية.

ومهما كان العمل والسعي في هذه الجوانب العلمية فإنه يبقى ناقصا، ليس فقط بالنسبة للعمل على أن نرضي جميع الفئات من الباحثين، ولكن وهو الأهمُّ أن تحقِّقَ أهدافَ البحث في السنَّة النبويَّة. وحسبنا أننا سعينا من أجل أداء رسالة الندوة بعدل وإنصاف، وليس لنا إلا أن نشكر الله على توفيقه لهذا السعي، ونتضرع إليه أن يتقبل منا الجهد بقبول حسن، ويجعل ذلك مفتاحا لكل خير لدى اللاحقين.

أيها الحضور الكريم،

تناقش هذه الندوة في جلساتها العلمية موضوع الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية متزامنا مع حلول الذِّكْرى الخامسةِ والعشرين على تأسيس كليَّة الدراسات الإسلاميَّة والعربيَّة بدبي.

وحُقَّ للكلية أن تحتضن ندوة الاستشراف والتخطيط في السنة النبوي

لتزامنها مع هذه الذكرى التي تعبر بذاتها عن استشراف مؤسسه وتخطيطه؟

إن الإنسان بفطرته يحب الاستشراف والتخطيط حين يهتم بأمره مهما كان هذا الأمر، ويكون حريصا على تحقيقه، وإذا لم يهتم به فإنه يكون مهملا للاستشراف والتخطيط، ومغامرا في القيام بذلك الأمر. ولذا يحتاج الإنسان إلى من يرشده، ويربيه مبكرا على ثقافة الاستشراف والتخطيط في كل صغير وكبير وفق سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، حتى يتعود على الاستشراف والتخطيط في كل عمل يقوم به، متوكلا على الله ومؤمنا بالقضاء والقدر.

انظروا إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ. وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. وَلاَ تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَىْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

وما أعظم هذا الحديث إذ يتضمن صورة متكاملة للاستشراف والتخطيط.

وما أعظم عبارته (احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ. وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ. وَلاَ تَعْجِزْ) حين توضع في سياق موضوع الندوة !!

فما من مصطلح حضاري أو ثقافي يستجد في الغرب أو الشرق مثل مصطلح الاستشراف والتخطيط إلا وقد أسهم ذلك في كشف ما يكمن في سنة النبي صلى الله عليه وسلم من درر علمية تفتقر إليها الأمة لمعالجة قضاياها العالقة.

فهذا الحديث ينبغي أن يُكتب بماء الذهب، ويجعله كلُّ فردٍ منطلقَ حياته اليومية. فالمؤمن القويُّ إذن هو الذي يكون حريصا على ما ينفعه في المستقبل ولا يقف عاجزا، وهذا يقتضي منه أن يستشرف ويخطط حسب إمكانيته، ولا يكون مغرورا بما يصنعه بل يتوكل على الله ويستعين به، ثم إذا لم يحقق شيئا بعد جهده

واستشرافه وتخطيطه فإنه لا يكون قلقا، بل يواجه ذلك بقوة وشجاعة قائلا: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، وأما المؤمن الضعيف فهو الذي يجلس عاجزا يقول أنا توكلت على الله، وإذا لم يحقق ما كان ينتظره يكون قلقا ومضطربا.

وكلما كان الشخص مستشرفا ومخططا كما يرشدنا إليه نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم كان أكثر الناس قوة وشجاعة وطمأنينة وتحملا وصبرا ورزانة وتسامحا، وأبعدهم من القلق والاضطراب والاستعجال والانفعال والغضب والعجز. هذا هو الذي نقرأه في قَصَصِ الأنبياء عامة، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم خاصة.

والذي قرأ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بتمعن وتفحص وجد أنه صلى الله عليه وسلم بلغ رسالته وبنى دولته وأمته واقتصاده، وأدار الأزمات وعالج النزاعات بعد الاستشراف والتخطيط المستقبلي، بل إنه صلى الله عليه وسلم لم يعالج شيئا صغيرا ولا كبيرا إلا في ضوء الاستشراف والتخطيط مع كونه نبيا مؤيدا بالمعجزات ومع كونه أكثر الناس توكلا على الله، وأكمل الناس إيمانا بالقضاء والقدر، وتلك هي الخلاصة التي تتفق عليها جميع البحوث التي ستقدم في الجلسات العلمية القادمة.

وعلى كل، فالاستشراف والتخطيط مع الاستعانة بالله والتوكل عليه سنة من أبرز سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولا ينبغي لأحد أن يتساهل فيهما بحجة القضاء والقدر، ولا يستقيم التوكل على الله ولا الإيمان بالقضاء والقدر إلا مع الاستشراف والتخطيط الذين يشكلان عنصرين بارزين لكل عمل متقن، وبدون الاستشراف والتخطيط لا يكون العمل مُتْقَنا.

وأخيرا لا يسعني إلا أن أشكر الله سبحانه أولا وآخرا على توفيقه لخدمة السنة من خلال هذه الندوات، كفانا ذلك شرفا وكرامة وعزة. ثم أشكر سعادة جمعة

الماجد مؤسس الكلية ورئيس مجلس أمنائها على عنايته الخاصة بالندوة، وسعادة الدكتور محمد عبد الرحمن مدير الكلية على دعمه للأمانة العامة وتفانيه لإنجاح الندوة.

كما أشكر زملائي الأساتذة الباحثين، بل أشكر جميع الباحثين الذين أرسلوا إلينا الأبحاث، وجميع اللجان الفرعية، ودائرة الشؤون الإسلامية والأعمال الخيرية بدبي، وكل من أسهم في إنجاح هذه الندوة.

والشكر موصول إلى رعاة الندوة: بنك دبي الإسلامي، ومصرف الإمارات الإسلامي، وشركة حسيب رسول أصحاب الرعاية الذهبية، وإلى قرية بوم السياحية وفندق داو بالاس الراعيتين الفضيتين، والماجد للسفريات ودائرة الأوقاف وشؤون القصر، ودائرة السياحة حكومة دبي وجمعية الاتحاد التعاونية أصحاب الرعاية البرونزية، وإلى جميع المساهمين في رعاية الندوة.

وأزف إليكم جميعا تحيات الأمانة العامة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الأستاذ الدكتور علي أبو المكارم/ضيف الندوة العلمية الدولية الخامسة

ايها الإخوة الأعزاء

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد ، ، ،

فأحمده سبحانه أن يسّر لنا جميعا هذا المكان الكريم في هذه البقعة الطيبة التي تحف بها البركات وتهطل عليها الرحمات، ويتآزر فيها وبها رِضى الله جل شأنه ورضوانه، ومردّ ذلك أيها السادة إلى أنه لقاء ينطلق من الحديث الشريف ويمتد منه وبه، وهو بذلك يبدأ من خير ما يمكن أن يشغل أهل العلم في حياتهم الدنيا، فليس ثمة أفضل من علم يشتغل بالقرآن والسنة وينشغل بهما، فهما نبع المعرفة الحقة ومصدر اليقين المطلق ووهج الإيمان الكامل. وحسب هذا الملتقى أن تجتمع فيه هذه الصفوة المتألقة من العلماء الذين يقدمون في أفكارهم وسلوكهم معا نماذ ج طيبة جديرة بالتقدير، حقيقة بالتجلية والاحترام، فأهل العلم في كل عصرهم أهل الاجتهاد من أجل معرفة الحقيقة وجلاء أبعادها وتبيان ملامحها وصورها، والحقيقة هي الغاية الكبرى للبحث الإنساني وإطاره الكلي، ولقد يختلف المجتهدون في مقوماتها وخصائصها وأنماطها، ولكن من الثابت أن الاختلاف في الحقيقة ضرب من الحقيقة، وأن التفاوت في تحديد عناصرها نمط من أنماط التعبير عنها وشكل من أشكال إدراكها، فهم وإن اختلفوا ليسوا عنها ببعيدين ولا منها بنائين.

ومن فضل الله على هذا الملتقى أن يجتمع فيه هذه الصفوة المختارة من أهل العلم الذين ينتمون إلى بقاع العالم الإسلامى ومناهجه ومذاهبه، وإذا كان أصحاب المذهب الواحد حين يلتقون يتآلفون فإن أصحاب المذاهب المختلفة حين يتقابلون يتعارفون، والتعارف فضل من الله ونعمة واجبة الثناء والحمد، فالتعارف مدخل للتعرف، والتعرف باب المعرفة، والمعرفة سبيل إلى الإحسان، والذين يحسنون يضيفون ما به يُذكرون وما له يُحمدون. وإن مما يلفت النظر في

هذا الملتقى العلمي أمور جديرة بالاعتبار، يأتي في طليعتها عندي أربعة:

الأمر الأول: هو هذه القدرة على اختيار الموضوعات، التي تعبر عن أصالة الفكر الإسلامي من ناحية، وعن قدرته على تقديم إضاءات في حياتنا المعاصرة من ناحية أخرى، ففكرة التخطيط للمستقبل واستشراف آفاقه قد تبدو فكرة متصلة بالجانب العلمي العملي، لكننا نجدها هنا من خلال هذه الدراسات الخصبة والواعية والمتنوعة، نجدها قادرة على أن تقدم لنا جانبًا من الفكر الإسلامي من خلال حياة الرسول ﷺ، ومن خلال ما قدمه لأمته مما سيظل مثلاً أعلى للسلوك الإنساني وللفكر الإنساني معًا.

الأمر الثاني: الذي يلفت النظر أيضًا هذا التنوع في النظر إلى المستقبل وأنه ليس مقتصرًا على الجانب المادي وحده، ولا على الجانب الروحي وحده، ولا على الجانب الأخلاقي وحده، ولكنه يقدم لنا رؤية شاملة كاملة، تقدم رؤية من خلالها تبين لنا إمكانية أن نحدث في حياتنا المعاصرة ما يؤهلنا لأن نكون في الموقع الذي نتطلع إليه.

الأمر الثالث: أيضًا الذي يلفت النظر هو هذه القدرة على أن تجمع أبناء العالم الإسلامي من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، فهناك بحوث تمتد إلى اليابان وماليزيا شرقًا إلى أن تصل إلى الجزائر والمغرب غربًا، ومعنى هذا ببساطة أن المسلمين أو ذوي الثقافة الإسلامية من الممكن أن يتعارفوا ويتآلفوا، ويقدموا كل ما عندهم من أجل تطوير الحياة بالرغم من تباعدهم في المواقع والأماكن والبقاع، وهذا شيء يدل على إمكانية تطوير المجتمع الإسلامي، وإمكانية الوصول به إلى آفاق جديدة قد نبدو في الوقت الحاضر بعيدين عنها.

آخر ما يلفت النظر أيضًا في هذه الندوة أيها السادة أن العنصر النسائي قد شارك فيها، وهذا أمر جيد لأنه يكشف للذين يرفعون شعارات مختلفة حول حقوق الإنسان وحقوق النساء، أنهم يتحدّثون دون إدراك حقيقي لطبيعة

العناصر المشكلة للمجتمع الإسلامي، ومن خلالها للمجتمع الإنساني.

أهمية موضوع الندوة وأهمية المشاركين فيها، وتآلف هؤلاء المشاركين هذا كله دليل على أن الإسلام يجمع ولا يفرق، يصون ولا يبدد، يقدم لنا في كل حين وفي كل وقت ما نستطيع أن نتخذه سبيلاً من أجل بناء المستقبل، وحتى نبني المستقبل لابد أن نعرف الحاضر جيدًا وحتى نعرف الحاضر جيدا لابد أن نعرف الماضي جيدًا، ومن خلال كل هذه المراحل الثلاث نستطيع أن نقول:

«من نحن، وماذا نريد، وما هي وسائلنا لتحقيق ما نريد»

اسمحوا لي أيها السادة أن أشكر الأعزاء الذين تفضلوا بدعوتي إلى هذه الندوة، وأنا حين أشكرهم، إنما أشكرهم من جانبين:

الجانب الأول: أنني قد أفدت حقيقةً من بحوث هذه الندوة، وستظل في مكتبتي دليلاً على تفوق الباحثين هنا، ودليلاً على ما تقدمه هذه الكلية العريقة، هذه الكلية التي قدمت بالفعل جانبًا في البحث العلمي لم يفطن إليه غيرها بالرغم من وجود عناصر كثيرة في العالم الإسلامي لكن هذه الكلية قد استفادت من هذه الخصوبة في الإدارة، وهذه العلاقات الطيبة بين علمائها وهو أمر جدير بالتحية.

اسمحوا لي أيضًا أن أشكر مؤسس هذه الكلية وراعي تقدمها سعادة جمعة الماجد لأنه يبذل من أجل العلم ما يمكن أن يقال إنه عمل مثالي ورائع وهو بهذا يسير على الدرب الذي وضعه النبى ﷺ والذي آمل أن يكون خطوة يتحرى القياس عليها والعمل في سبيلها يتحرى هذا إخواننا الذين أفاء الله عليهم حتى يمكن أن يقدموا لمجتمعاتهم ما ينبغي أن تتقدم به، وهو الحرص على سنة رسول الله وكتاب الله سبحانه وتعالى.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

قصيدة الطالبة نوف أحمد الزدجالي

يا مـن يضيء البـدر حين يراك ماذا سنفعل ياترى لولاك
أنـت الـذي علمتنـا وأخذتنـا نحـو الجهـاد فبوركـت يمنـاك
أنـت الـذي ربيتنـا وهديتنـا نحـو الهدايـة مـا أعـز هداك
وأعيـد قـولا قلتـه وأعيـده مـاذا سنفعـل ياتـرى لـولاك
أنـت الـذي أسعدتنـا ووهبتنا عقـلا رفيعـا والسـلام رجاك
فالعلم بـين ذويك يـروي قصة حتـى نعطـر ذكرنـا بشـذاك
والـروح ظمـأى والجوانح غلة والـروح تنشـد أننـي أهـواك
وأعيـد في قلبـي سؤالك حائرا مـاذا سنفعـل يـا تـرى لـولاك
فالعقـل بـين يديك يبـدو واثقا والحلـم أصبـح واقعـا يهـواك
والقـول قولـك يـا نبيـا أزهرا والفعـل فعلك نهتـدي بخطاك
عصفـورة بـين الغصـون تغرد تعلـو وتشـدو في سمـاء علاك
فسألت نفسي عن جواب سارب مـاذا سنفعـل سيـدي لـولاك
ونـردد الأنغـام نهتـف عاليـا أنـت الحبيـب ولا نريـد سواك
بيديـك تبني الخير عنـدك سره يـا سعد عمـري مـا أرق سناك
ولكـي أقول بـأن هديك ملهمي لابـد أن أروي شـذا ذكـراك
وأكـرر القـول الـذي قـد قلته لا خـير أن نحيـا بـدون لقـاك

التخطيط الاستراتيجي في السنة المشرفة:
أسسه العامة، أدواته، وخصائصه

د. حسام أحمد قاسم
جامعة أوساكا، اليابان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أ- موضوع البحث وأهدافه:

المقصود بالتخطيط الاستراتيجي التخطيط طويل الأمد، الذي يستهدف تحقيق غاية كبرى، من خلال وضع الوسائل المناسبة اعتمادا على قراءة دقيقة للواقع، تحدد ما فيه من معوقات وفرص، على نحو يحقق له الكفاءة في استخدام الإمكانيات المتاحة لتحقيق رسالته، وهو تخطيط يتصف بالمرحلية والمرونة، ووضع البدائل المتعددة. والتخطيط الاستراتيجي بهذا المعنى جزء من علم الإدارة المعاصر، بدأ الاهتمام به وإفراده بالتأليف منذ حوالي خمسين عاما، غير أن الممارسة التطبيقية له كانت ممتدة عبر التاريخ؛ حيث إنه كان الأداة التي استخدمها القادة العظام لإنجاز أهدافهم؛ إذ ليس من طبيعة العمل العشوائي أو العمل المعتمد على ردود الأفعال أن يحقق إنجازات كبيرة.

وقد نشأت فرضية هذا البحث منذ أول دراسة نظرية منظمة تلقيتها في علم التخطيط، ومؤدى هذه الفرضية أن الطريق الأفضل للتنظير لعملية التخطيط الاستراتيجي هو تتبع سلوك القادة العظام ودراسة قراراتهم، لفهم كيفية تحقيقهم لأهدافهم، ووسائل تجاوزهم للعقبات التي اعترضت طريقهم، ذلك أن القدرة على التخطيط الاستراتيجي إنما هي في الأساس ملكة وطبيعة عقلية تتميز بها بعض العقول المتصفة بالإبداع والفراسة والدقة والمثابرة. ومن خلال تتبع أعمال هؤلاء نستطيع أن نكشف عن صفات تخطيطهم، ووسائله، وعن مجمل القضايا النظرية المتصلة به، ثم نقدم هذه المعرفة بعد ذلك للموهوبين فتزيد قدرتهم وكفاءتهم، فالدرس النظري للتخطيط قد يصقل القدرة عليه، ويساعد في التعبير عن الخطة،

وصياغتها، لكنه لا يصنع مخططا، فعلى سبيل المثال ليس معنى أن يتعلم المخطط أن عليه أن يبدأ بدراسة الواقع، ويدرك ما فيه من صعوبات و فرص - أنه أصبح قادرا على القيام بذلك، وهكذا مع بقية عناصر التخطيط.

ولما كان النبي ﷺ أعظم العظماء في تاريخ البشرية بشهادة الآخرين، كما أوضح مايكل هارت في كتابه: (الخالدون مئة: أعظمهم محمد)[1] حين استخدم مجموعة من المعايير أهمها درجة التأثير في التاريخ الإنساني، ودرجة النجاح التي حققها القائد بنفسه - فقد كان من الطبيعي أن تُدْرَسَ السنة والسيرة بوصفهما مصدرا للتوصل إلى خصائص التخطيط وأسسه ووسائله، لاسيما مع ما يلاحظه الدارس للوهلة الأولى من التشابه الواضح جدا بين نتائج الدرس الإداري المعاصر، وعدد كبير من نصوص السنة النبوية المشرفة، وأحداث السيرة العطرة.

غير أن هناك حقيقة مهمة تجب الإشارة إليها ابتداء، وهي خطورة الانطلاق من نتائج العلم المعاصر لدراسة التراث الديني، لأن ذلك يعني في التحليل النهائي سحب القيمة الذاتية عن تراثنا بربط قيمته بموافقته لهذه النتائج وجعلها معيارا لتقويمه، وهو ما تقع فيه أكثر الدراسات التي تُعْنَى بالمقارنة عندما تركز على أوجه الشبه، ولا تتساءل عن أوجه الاختلاف، رغم وجودها، ورغم كونها الأهم؛ حيث تمثل الخصوصية والضوابط، ومن شأن إهمالها تكريس التبعية، وعدم القدرة على تقديم نتائج ملائمة يمكن استخدامها في علاج مشكلات الواقع، وإسباغ قيمة دينية على ما قد يكون في بعض نظريات العلم من أخطاء، مما يضر بصورة الدين نفسه عندما تثبت هذه الأخطاء.

ويعني هذا أننا يجب ألا ننسى ونحن نتحدث عن النبي ﷺ بوصفه مخططا عظيما أنه مخطط نبي، وأن صفة النبوة تنعكس بالضرورة على صفة المخطط،

١- انظر: "الخالدون مئة: أعظمهم محمد"، لمايكل هارت، ص: ١٤، ١٩.

ومن ثم يصبح الأفضل لمثل هذا النوع من الدراسات التي تُنَظِّرُ لموضوع معاصر في السنة المشرفة أن تنطلق من خلفية شرعية كبيرة، بل قد يكون من الأفضل أن ينجزها دارس متعمق في العلوم الشرعية أساسا، مستقرئ للسنة، مُلِمٌّ في الوقت نفسه بمنجزات العلم المعاصر، وبمشكلات الواقع، فيكون قادرا على الفصل بين دور الوحي، ودور اجتهاد النبيﷺ، فالتخطيط صفة بشرية يتصف بها من لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير وما مسه السوء.

وتأسيسا على ما سبق يفترض هذا البحث وجود مخطط استراتيجي كانت السيرة العطرة تطبيقا له، كما كانت السنة المشرفة تعبيرا عنه، ويستهدف جمع لبنات هذا المخطط ودراسته، وتحديد أهدافه الكبرى وأهدافه المرحلية، ووسائل تحقيقها، وكيفية التعامل مع العوائق، وكيفية استثمار الفرص المتاحة وتعظيمها، كما يستهدف تحديد مجالات هذا المخطط، والكشف عن الأسس العامة التي بني عليها، والتعرف على أدواته وخصائصه، وبيان كيف وضع هذا المخطط على أساس إدارك فذ للواقع بفرصه المتاحة وعوائقه. ويتم ذلك من خلال استقراء السنة النبوية المشرفة وسبر سياقاتها، وأسباب ورودها، ومن خلال دراسة السيرة العطرة دراسة تحليلية دقيقة، تربط الأحداث بعضها ببعض، وتربطها بأهدافها وأسبابها ونتائجها.

ب- مادة البحث ومنهجه:

من الطبيعي أن يحتاج مثل هذا البحث إلى استقراء مصادر الحديث النبوي الشريف والسيرة النبوية المباركة، بل تتبع سياقاتها وأسباب ورودها، ورغم الصعوبة النظرية لذلك فإنه ممكن في إطار كون كتابة هذا البحث تُمَثِّلُ مرحلة من مراحل اهتمام الباحث به منذ فترة طويلة، بحيث كانت مادته تجمع على هامش أبحاث تمت قبل ذلك على معظم دواوين السنة المشرفة، بل كان بعضها

تمهيدا مباشرا لإنجاز هذا البحث، فتجمعت مادة كبيرة مناسبة. وعندما فرغت لإنجاز هذا البحث آثرت تحقيقا للضوابط الأكاديمية أن تكون هناك مادة أساسية مناسبة، وقد تمثلت هذه المادة التي قمت باستقرائها بدقة في مرحلة جمع المادة في الصحيحين بوصفهما أصح دواوين السنة، والمسند بوصفه أوسعها. أما فيما يتصل بالسيرة فقد تمثلت في سيرتي ابن إسحق وابن هشام وشرح السهيلي الموسوعي لها، ومباحث السيرة في بعض كتب التاريخ وأهمها تاريخي الطبري و ابن خلدون، وقد اختيرت عند التوثيق الروايات الأقوى.

أما في مرحلة كتابة البحث والتحقق من نتائجه فقد تَوَسَّعْتُ في البحث عن النصوص المرتبطة بالموضوع في أغلب دواوين السنة وكتب السيرة والمغازي والتاريخ. ويتيح هذا النهج درجة جيدة من الاستقراء، دون التفريط في شروط الصحة عند الاحتجاج، كما يتيح درجة جيدة من الملاءمة بين الرغبة في أن يكون الاستقراء تاما، وهو أمر تفرضه طبيعة البحث وأهدافه، والرغبة في تحقيق الشروط الأكاديمية للدراسة العلمية التي تتطلب وجود مادة مناسبة يتم استيعابها والعودة دائما إليها لاختبار الفروض والنتائج. ويعني هذا أن البحث لا يقتصر على المادة الأساسية، وإنما يلتزم باستقرائها، ثم يوسع المادة كلما تطلب الأمر ذلك، كما يوسعها عند التوثيق لاختيار الروايات الأقوى، حيث يُحِيلُ على الرواية الأوثق دون الالتزام بإثبات المصدر الأول الذي نُقِلَ النص عنه في مرحلة جمع المادة.

وفيما يتصل بالدراسات السابقة كان من الطبيعي أن يفيد البحث من الأعمال المعاصرة في السيرة المشرفة، لاسيما بعض الأعمال غير التقليدية التي تنبهت إلى الطبيعة الاستراتيجية للتفكير النبوي، مثل أطلس تاريخ الإسلام للدكتور حسين مؤنس، وكذلك كتابات الإداريين المسلمين التي تنبهت إلى الصلة بين عدد كبير من الأفكار الإدارية المعاصرة والحديث النبوي، وبعض البحوث

التي اهتمت بالفكر المستقبلي في السنة المشرفة، نحو دراسة الدكتور إلياس بلكا عن قيمة المستقبلية في الحديث النبوي. وبشكل عام كانت خطة البحث هي ارتياد المناطق الجديدة، وذكر نتائج الدراسات السابقة والبناء عليها، مع الاكتفاء بالإحالة عليها، دون العودة إلى بحث الموضوع من جديد، رغبة في الاختصار من ناحية، وفي بركة العلم من ناحية ثانية، فإن من بركة العلم نسبته إلى أهله.

ويعتمد منهج هذا البحث على استقراء المصادر لتحديد النصوص المتصلة بموضوعه، وتصنيفها على كل المحاور الممكنة للتصنيف، وتتبع أفعال النبي ﷺ وتحليلها بغية الوقوف على أسبابها وغاياتها ونتائجها، ودراسة علاقة هذه الأفعال بعضها ببعض، وعلاقتها بأهداف الرسالة، وصولا إلى المخطط العام الذي يربط الأهداف الصغرى بالرسالة العظمى، والنتائج بالأسباب، والإجراءات بالأسس التي تنطلق منها، وبالعقبات التي تعالجها، محددا مراحل التنفيذ وأدوار المنفذين وكيفية اختيارهم.

وتأسيسا على الأهداف السابقة ينقسم البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث: تُعَرِّفُ المقدمة بموضوع البحث وأهدافه ومادته ومنهجه، ويخصص المبحث الأول للأسس العامة للتخطيط الاستراتيجي في السنة المشرفة، ويضطلع المبحث الثاني بدراسة خصائص التخطيط النبوي، أما المبحث الثالث فيتكفل بتقديم مختصر للمخطط العام للسيرة النبوية، بوصفها مشروعا متكاملا لتحقيق رسالة سامية، استخدمت في تحقيقها أدوات كثيرة ملائمة.

المبحث الأول: الأسس العامة للتخطيط.

المقصود بالأسس العامة مجموعة المبادئ والأفكار العامة التي يستند إليها الاهتمام بالتخطيط المستقبلي، بحيث يؤدي الإيمان بهذه المبادئ إلى الإيمان بضرورة التخطيط الاستراتيجي، ويؤدي تحقيقها إلى استخدامه والاعتماد عليه.

ولكي يصح وصف فكرة ما بأنها تمثل مبدأ عاما للتخطيط فإنها يجب أن تكون فكرة مؤدية إلى هذا النمط من أنماط التفكير المستقبلي، كما يجب أن تكون فكرة مستقرة مستندة إلى الخصائص العامة للدين من ناحية، ومدعومة بنصوص جزئية صحيحة صريحة من ناحية ثانية، مما يجعلها قاعدة كلية ذات حجية غير مشكوك فيها؛ بحيث يجوز الاستناد إليها، والثقة في حجية الأفكار التي تعتمد عليها.

وبطبيعة الحال لن يستطيع البحث في ضوء مساحة النشر التي تخصص لدراسة أكاديمية محكمة تفصيل الحديث حول هذه الأسس العامة، فهي تحتاج لأن تفرد بدراسة مستقلة كبيرة؛ لاسيما أنها لم تدرس من قبل من هذه الزاوية؛ ولذلك فسوف أكتفي بالحديث عن بعضها، والإشارة الموجزة إلى بعضها الآخر، على نحو يؤكد أن موضوع التخطيط للمستقبل البعيد مؤصل في الفكر النبوي.

١- علاقة التخطيط بضرورة الأخذ بالأسباب:

تمثل قاعدة الأخذ بالأسباب قاعدة أساسية في الفكر الإسلامي بشكل عام، وهي قاعدة منتجة للعديد من الأفكار والتصورات، ومن ثم فإن البحث في حجيتها يجب ألا يقتصر على الاستناد إلى الأدلة الجزئية نحو قوله ﷺ: «اعقلها وتوكل»[١]، أو قوله ﷺ: «يا عباد الله تداووا»[٢]، أو أنه ﷺ كما يقول ابن حجر: «ظاهر بين درعين يوم أحد، ولبس على رأسه المغفر، وبني له العريش يوم بدر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وادخر لأهله قوتهم»[٣]، فرغم أهمية هذه الأدلة فإن الاقتصار على الاعتماد عليها أدى في أحيان كثيرة إلى

١- رواه الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، الحديث رقم: ٢٤٤١. وقال: هذا حديث غريب، ورواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه، الباب الثاني عشر من شعب الإيمان، باب في الرجاء، الحديث رقم: ١١٥٥.

٢- رواه الترمذي في كتاب الطب، من حديث أسامة بن شريك، رقم: ١٩٦١، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه، في كتاب الطب، الحديث رقم: ٣٣٠٦٧.

٣- فتح الباري، شرحه لحديث البخاري "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأمم" كتاب الطب، باب من لم يرق، رقم: ٥٣١١.

عدم إدراك الأهمية الحقيقية لفكرة الأخذ بالأسباب ضمن الفلسفة الإسلامية، ومن هنا أمكن في بعض اتجاهات الفكر الإسلامي حمل مثل هذه النصوص على الإباحة، وبيان أن الأخذ بالأسباب جائز وإن كان خلاف الأولى، رغم أن هذا التأويل يناقض عددا كبيرا من الأدلة الجزئية التي ترتب عقابا أو زجرا شديدا على تجاوز الأسباب كما نجد في أحاديث النبي ﷺ:

- «من بات فوق بيت ليس له أجار [سور] فوقع فمات فبرئت منه الذمة، ومن ركب البحر عند ارتجاجه فمات فقد برئت منه الذمة»[1].

- قال رسول الله ﷺ في مسير له: «إنا مدجون فلا يدلج مُصْعِبٌ ولا مُضْعِفٌ،[أي: صاحب ناقة صعبة أو ضعيفة]، فأدلج رجل على ناقة صعبة فاندلقت فخذه فمات، فأمر الرسول ﷺ بالصلاة عليه، ثم أمر مناديًا ينادى في الناس: «إن الجنة لا تحل لعاص»[2].

وعندما نحاول التنظير لفكرة الأخذ بالأسباب تنظيرا يوضح موضعها الحقيقي من الإسلام نلاحظ أن مبدأ ضرورة الأخذ بالأسباب يتأسس على ثلاث أفكار مهمة جِدًّا، الأولى هي الموقف الإسلامي من المعجزة، والثانية هي فكرة كون الإنسان مختارا مكلفا، والثالثة هي فكرة كون النبي ﷺ خاتم النبيين.

أما الموقف الإسلامي من المعجزة فهو موقف واضح، إذ يرى فيها خطورة لا مصلحة؛ لأن هناك قانونا عاما مؤداه أن عاقبة عدم الطاعة بعد المعجزات

١- رواه أحمد في مسنده في غير موضع من حديث رجل من الصحابة رضي الله عنهم، منها الحديث رقم: ٢٠٦٢٦ بإسناد صحيح، قال المحقق: رجاله ثقات مشاهير. وهو عند أبي داود في الأدب من حديث علي بن شيبان رضي الله عنه، رقم: ٥٠٤١ بلفظ من بات على ظهر بيت ليس له حجار، ورواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث زهير بن عبد الله رضي الله عنه، رقم: ٣٤٩٥، بإسناد حسن. والمعنى: لا حقوق له. لكن مع درجة كبيرة من الزجر والتوبيخ.

٢- رواه أحمد من حديث ثوبان رضي الله عنه، بإسناد حسن، الحديث رقم: ٢٢٢٦٤، وقد صححه الحاكم في المستدرك، كتاب الإمامة، باب التأمين، رقم: ٢٥٧٠، قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

أليمة، ومن ثم فعلى المسلم عدم طلبها، والسعي لتحقيق أهدافه عن طريق الأخذ بالأسباب، اتساقا مع خصوصية هذه الأمة التي رُحِمَتْ من الاعتماد على خوارق العادات في مقابل أن يُمَدَّ لها باب التوبة. وهذا هو ما صُرِّحَ به في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «قال: قالت قريش للنبيﷺ: ادع لنا ربك يصبح لنا الصفا ذهبة، فإن أصبحت ذهبة اتبعناك، وعرفنا أن ما قلت كما قلت، فسأل ربه عز وجل، فأتاه جبريل فقال إن شئت أصبحت لهم هذه الصفا ذهبة، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحنا لهم أبواب التوبة، قال: يا رب، بل افتح لهم أبواب التوبة»[1].

ولذلك جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] أن الرحمة تشمل الجميع: البر والفاجر، «فأما البر فرحمته إياهم في الدنيا والآخرة، وأما الفاجر فإنهم أمنوا من الخسف والغرق وإرسال حاصب عليهم من السماء»[2] نتيجة التكذيب بالمعجزات، وقد رَجَّحَ الطبري في تفسيره للآية هذا المعنى بعد أن رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما[3].

والذي يدعو أن تخرق من أجله نواميس الطبيعة فيغتني وهو قاعد في بيته، أو ينتصر دون أن يعد للانتصار عدته، طالب لهذا النمط من المعجزات، الذي يَصْعُبُ أداء شكره، وهو من المعتدين في الدعاء، قال ﷺ: «يكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء»[4] ومن الاعتداء في الدعاء، طلب المعجزات، وعدم العمل، وتمني الأماني.

١- رواه أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما رقم: ٣٢٢٣ بإسناد صحيح رجاله ثقات، على شرط مسلم.

٢- الروض الأنف: السهيلي: ج٣/ ص: ١٣٥.

٣- تفسير الطبري: ١٨ / ٥٥٢.

٤- رواه أحمد من حديث سعد رضي الله عنه، رقم: ١٦٧٤٠ بإسناد صحيح، وهو عند أبي داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء رقم: ١٢٦٥، ورواه أيضا عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه، وحديث عبد الله بن مغفل: صححه الحاكم في المستدرك [رقم: ١٩١٥].

أما السبب الثاني الذي يجعل من الأخذ بالأسباب جزءا مهما من فلسفة الإسلام، فهو أن ذلك مرتبط بفكرة الاختيار؛حيث إن الاختيار يعني عدم سوق الناس إلى الإيمان ولو بآية ملزمة، وعدم سوقهم إلى الكفر أيضا بإلجائهم إليه. ومعنى هذا أن الاختيار الحر يتنافى مع أمرين: الأول هو أن يُعْطَى غير المؤمنين كل ما يريدونه في هذه الحياة، لأن هذا سيكون تحسينا للكفر في أعين البشر، وقد أخبرنا الله أنه لولا ذلك لأعطى الكفار كل ما يريدون في الدنيا، والثاني هو أن يختص المؤمنون بأن يحقق الله لهم كل شيء، بدون عمل منهم، لأن هذا يشبه إجبار غير المؤمنين على الإيمان، وهذا ما لا يريده الله، ولذلك لم يكن الحساب والجزاء في هذه الحياة، وإنما كان بعد الموت، ومن هنا جعل الله تحقيق الإنسان لحاجاته في الحياة مرتبطا بأسبابٍ، من يأخذ بها يحصل على نتائجها. وبهذا التصور نعرف أن الأخذ بالأسباب مكوِّن أساسي في الفكر الإسلامي.

أما الفكرة الثالثة التي يستند إليها التنظير لأهمية الأسباب فهي كون النبي ﷺ هو خاتم النبيين، وأمته آخر الأمم. ويعني كون محمد ﷺ آخر الأنبياء انتقال وظيفة الأنبياء في التعليم والبلاغ إلى العلماء، وقد تطلب هذا أن يكون النبي ﷺ لخاتم مبلغا ومحققا لرسالته في إطار الأخذ بالأسباب، وإلا لرفضت قيادة العلماء من بعده، ما دام التدليل على الصدق وتحقيق الأهداف لا يكون إلا بخرق نواميس الطبيعة، كما كان الحال في النبوات السابقة.

وفي إطار هذا الفهم للفلسفة الإسلامية العامة نكون في مأمن من حمل النصوص المرتبطة بالأخذ بالأسباب على الإباحة أو الندب، حيث ستبدو هذه النصوص تجليات لذلك لمبدأ الأساسي فتأخذ حقها من الاهتمام، وتفهم الأوامر الجزئية السابقة بالأخذ بالأسباب في ضوء دلالتها الحقيقية التي هي الوجوب، دون تأويل يحملها على الإباحة أو الندب.

ولا تحتاج العلاقة بين التخطيط الاستراتيجي وفكرة الأخذ بالأسباب إلى إيضاح، فهذا النمط من التخطيط يعتمد على فكرة الأخذ بالأسباب اعتمادا رئيسيا في محوريه الأساسيين، وهما: محور التوقع، حيث إن مصدر التوقع هو استشراف نتائج أسباب من شأنها أن تؤدي إلى هذه النتائج، ومحور استهداف غاية معينة عن طريق الإتيان بالأسباب التي تحققها. وتأسيسا على ما سبق يمكن تأكيد أن فكرة الأخذ بالأسباب فكرة جوهرية في التخطيط الاستراتيجي وفي السنة المشرفة على السواء.

٢- نظرية الفتن في الفكر الإسلامي:

يعني مصطلح الفتنة في الفكر الإسلامي كل ما من شأنه أن يضطر الإنسان أو يقوده إلى عدم التمسك بدينه أو ببعض قواعده، أو تسهيل ذلك أو تقريبه أو الدعوة إليه. ويعنى هذا التعريف أمرين: الأول أن الفتن درجات، وتتفاوت درجتها بحسب مستوى الإجبار فيها، وبحسب خطورة ما تدعو إليه، والثاني: اتساع دائرة الفتن اتساعا شديدا كما هو واضح في الحديث الشريف، فالفقر فتنة والغنى فتنة، وعدم الاستقرار السياسي فتنة، والزوجات والأبناء قد يكونون فتنة، ومصاحبة السلطان فتنة، وإطالة الإمام في الصلاة فتنة، وكل ما يصيب الإنسان من بلاء أو نعماء قد يكون فتنة.

وثم تفصيلات كثيرة جدا ترتبط بنظرية الفتن في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ما يهمنا منها في هذا السياق هو الحرص الشديد في الحديث النبوي على ضرورة أن يضع المسلم نفسه في ظروف مناسبة تيسر له الحفاظ على دينه، وتدعم استمرار إيمانه وزيادته، ومقاومة نقصه، بدءا من التحذير من الأوضاع الجسمية والنفسية غير المواتية للعبادة، كما نجد في أحاديثه ﷺ: «لا صلاة

بحضرة طعام»[1]. و«لا يأتي أحدكم الصلاة وهو حاقن»[2]، و«لا يقضي الحاكم بين اثنين وهو غضبان»[3]، وغيرها كثير. - مرورا بضرورة مراعاة الظروف المادية المحيطة كما نجد في قوله ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا وكيف يذل نفسه؟ قال يتعرض من البلاء لما لا يطيق»[4]. ومن أشهر تطبيقات ذلك في السيرة العطرة: اقتراح النبي ﷺ في غزوة الأحزاب مصالحة (غطفان) على ثلث ثمار يثرب حتى يخفف عن المسلمين وطأة اجتماع العرب عليهم، لكن السَّعْدَيْنِ رفضا ذلك، عندما علما أن دافع النبي ﷺ كان الإشفاق على قومهما[5].

ومما يؤكد أهمية أن تكون الظروف المحيطة بالإنسان مناسبة جمع النبي ﷺ بين الكفر والفقر في الاستعاذة منهما دبر كل صلاة، كما كان يستعيذ من الكفر والدين، بقوله: «أعوذ بالله من الكفر والدَّين، فقال رجل يا رسول الله: أيعدل الدَّين بالكفر؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم»[6]، وتفسير ذلك جاء في حديث آخر يربط بين الدَّيْنِ وبعض أخلاقيات النفاق حيث قال ﷺ: «إن الرجل إذا غرم،

١- رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم: ٥٦٠.

٢- رواه أحمد من حديث صدي بن عجلان رضي الله عنه، رقم: ٢٢١٤٢ بإسناد صحيح. وعند الترمذي عن ثوبان رضي الله عنه، رقم: ٣٢٥: "ولا يقوم إلى الصلاة وهو حَقِن"، وعند أبي داود في الطهارة، حديث رقم: ٨٣، "لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلي وهو حقن".

٣- متفق عليه من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، رواه البخاري في كتاب الأحكام، رقم: ٦٦٢٥، ومسلم في كتاب الأقضية رقم: ٣٢٤١.

٤- رواه الترمذي في كتاب الفتن عن حذيفة رضي الله عنه، رقم: ٢٢٥٤، قال ابن حجر في الأمالي المطلقة [١٥٢] هذا حديث حسن، ورواه ابن ماجه كذلك عن حذيفة في كتاب الفتن، رقم[٤٠٠٦]، وأخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضي الله عنهما بإسناد حسن، الحديث رقم: [٥٥٠٣].

٥- سيرة ابن هشام، ج٢: ٢٢٧. والحديث مرسل عند ابن إسحق، وهو كذلك في مصنف ابن أبي شيبة رقم: ٣٦١٢٣، وفي معرفة السنن والآثار للبيهقي، رقم: ٤٨٥٦، لكن وصله أبو نعيم في معرفة الصحابة من حديث أبي هريرة بإسناد حسن رقم: ٢٨٧٩، وكذلك الدولابي في الكنى والأسماء عن أبي هريرة بإسناد حسن، رقم: ٢١٤٩.

٦- رواه أحمد من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، رقم: ١١٢٧٢ بإسناد حسن، وهو عند النسائي في الاستعاذة رقم: ٥٤٧٣، وهو في صحيح ابن حبان في كتاب الرقائق باب الاستعاذة أيضا، رقم: [١٠٣٨]. وقد صححه الحاكم [١٨٨٣] ووافقه الذهبي.

حدث فكذب ووعد فأخلف»[1].

إذن وفقا للتصور السابق للفتن لا يجوز إهمال أثر الظروف التي يتعرض الإنسان لها على قضية الإيمان، وهو ما تغفل عنه دراسات كثيرة تقيس الأمور على درجة الاكتمال الإيماني التي لا يضر معها شيء، وهي درجة نادرة لا يصل إليها إلا القليل، ولا تبنى الحسابات والتوقعات على أساسها.

وثم عنصر بالغ الأهمية من عناصر النظرية الإسلامية في الفتن، يشير قوله جل شأنه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾[الزخرف: ٣٣]، هو أن من بين الفتن التي قد تؤثر على إيمان بعض المؤمنين اختصاص غير المؤمنين بمظاهر القوة المادية. والفهم السديد للآية يوضح أن المقارنة بين حال المؤمنين وحال غيرهم قد تكون مصدرا لفتنة الناس، وهو المعنى الذي أكده النبي ﷺ في حديث البخاري عن إسلام عدي بن حاتم رضي الله عنه، حين ذكر له أن ما أبعده عن الإيمان هو ما رآه من فقر المؤمنين وخوفهم وكون الملك في غيرهم، وأخبره أن كل ذلك سوف يتغير، فآمن عدي رضي الله عنه[2].

وتمثل هذه الفكرة مصدرا من أهم مصادر الفتنة، حيث إن تخلف الأمة من الناحية الحضارية عن غيرها في الآونة الأخيرة على نقيض ما كان في ألفيتها الأولى قد أدى إلى فتن كثيرة، من أهمها فقدان حالة التوازن النفسي لبعض أبنائها، بسبب كثرة الهزائم على المستويات المادية والثقافية، ومن شأن ذلك أن يشكك الإنسان العادي في ثوابته، وأن يقربه من ثقافة المنتصر؛ إذ إن المغلوب

١- متفق عليه من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، رواه البخاري في كتاب الاستقراض رقم: ٢٢٦٧ ورواه مسلم في باب ما يستعاذ منه في الصلاة رقم: ٥٨٩.

٢- حديث عدي رضي الله عنه رواه البخاري في كتاب الحج رقم: ٣٣٥١، والشاهد أكثر وضوحا في زيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم وغيرهم جاء فيها: "إني أرى أن مما يمنعك خصاصة تراها بمن حولي، وأن الناس علينا ألب واحد" المسند رقم: ١٨٩٤٩، بإسناد حسن رجاله ثقات غير أبي عبيدة ابن حذيفة وهو صدوق حسن الحديث، وصحيح ابن حبان رقم: ٦٨٣٥، والحاكم في المستدرك رقم: ٨٧٠٠، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

كما يقرر ابن خلدون «مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه»[1]. وهذا قانون من أهم قوانين علم الاجتماع. ولقد خسرت الأمة بسبب هذه الحالة قطاعًا من أذكى أبنائها، صاروا أعداءً لحضارتها من أنفسها.

إن هذا الفهم لفكرة الفتن يوجب على الأمة أن تكون في طليعة الأمم على المستويات كافة، مما يعني أنه يوجب عليها الحصول على القوة بمعناها الشامل، وهو حصول يؤدي إلى ضرورة إنجاح التنمية الدائمة للأمة في الميادين كافة، وذلك من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أو من باب أن الوسائل تأخذ حكم الغايات والمقاصد كما هو مقرر في علم الأصول.

وفي الظروف المعاصرة يستحيل إنجاز مثل هذه التنمية الشاملة دون تخطيط استراتيجي يحشد كل طاقات الأمة ويديرها بكفاءة بحيث يحصل منها على أفضل النتائج، مراعيا حتمية شمولها كل جوانب الحياة، فإعداد القوة العسكرية المأمور بها يستحيل الآن دون القوة الاقتصادية التي تستحيل بدورها دون القوة العلمية، حيث لم يعد الغنى مرتبطا بالمادة الخام بقدر ما أصبح مرتبطا بالقيمة المضافة التي تضيفها العقول إلى المادة الخام، فاختراع دواء واحد قد يدر أضعاف ماتدره مناجم الذهب أو آبار البترول، وقد تضاءلت قيمة المادة الخام في المنتجات الصناعية حتى وصلت في أشباه الموصلات المتناهية الصغر إلى واحد في المئة[2]. إضافة إلى أن القوة العسكرية المأمور بإعدادها تعتمد على العلم اعتمادا رئيسا، والعلم بدوره يحتاج إلى إنفاق كبير جدا على التعليم والبحث العلمي، وهكذا دواليك.

وإذا علمنا أنه من الثابت في العلوم الإدارية والاقتصادية استحالة تحقيق تقدم دائم كبير دون تخطيط استراتيجي، وعلمنا أن تحقيق هذا التقدم واجب لمنع

١- مقدمة ابن خلدون ص: ١٠٤

٢- الرأسمالية تجدد نفسها، فؤاد مرسي، ص: ٤٨.

الفتنة، وأنه وسيلة لغاية واجبة، وأن الوسائل تأخذ حكم الغايات- تأكدت صحة البرهان القائل بوجوب التخطيط الاستراتيجي الذي يحافظ للأمة على مكانتها بين الأمم، دعما لثبات أبنائها الذي يتأثر بولع المغلوب بتقليد الغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله كما ذكر ابن خلدون.

٣- فلسفة العمل في الحديث النبوي الشريف:

يمثل العمل كما أوضح النبي ﷺ مكونا من مكونات الإيمان، فالإيمان مفهوم مركب يتكون من عدد كبير من العناصر يجمعها أنها إما من باب التصديق بالمفاهيم الإسلامية الكبرى، وأهمها لا إله إلا الله، أو من باب الأعمال التي تعد ثمرة لهذا التصديق، ودليلا عليه. ومن المهم أن نلاحظ أن الإسلام لا يفرق بين أنواع العمل في كونها مطلوبات مأجورا عليها، وفي كونها أجزاء من الإيمان، وإن تفاوتت أهميتها، فإماطة الأذى عن الطريق جزء من الإيمان، كما أن إقامة الصلاة جزء من الإيمان. وتدعم نظرية الإسلام في العمل فكرة التخطيط عن طريق أمرين:

الأول هو دعم فكرة العمل من أجل المستقبل في ذاتها، فالمسلم يُعَوِّدُهُ الإسلام على أن يعمل الآن وينتظر الحصاد غدا، ويتعب في العاجل من أجل الفوز في الآجل، وهذه فكرة جوهرية في الإسلام وفي موضوع التخطيط الاستراتيجي لا تحتاج إلى تدليل أو بيان.

والثاني ما هو معلوم من أن الأعمال لا تتساوى في الأجر، فهناك معايير تحدد درجة الأجر على العمل، ومن هذه المعايير معياران مهمان يرتبطان بموضوع التخطيط الاستراتيجي ارتباطا مباشرا، المعيار الأول: هو نتائج العمل ومآله، والمعيار الثاني هو عموم نفعه واستمراره.

ومعيار البحث في نتائج العمل يعد شرط جواز للعمل، فلا يجوز عمل يؤدي

إلى ضرر، كما يُعَدُّ هذا المعيار محددا لأجر العمل في الوقت ذاته، فالعمل يكون أكثر أجرا إذا كان أكثر إفادة. ويدعم هذا ضرورة النظر في الواقع وتوقع النتائج قبل الفعل، وهذه الفكرة هي جوهر عملية التخطيط الذي يبدأ بوضع الهدف ويأتي من الأعمال ما من شأنه أن يحقق ذلك الهدف في ضوء الوعي بالواقع.

ويدعم المنظرون لأهمية اعتبار المآلات في الأعمال منذ الشاطبي الذي نَظَّرَ لضرورة البحث في المآلات، هذه الأهمية بحديثي النبي ﷺ الصحيحين عن عدم بنائه الكعبة على قواعد إبراهيم عليه السلام خوفا من حدثان عهد قريش بالكفر، ورفضه اقتراح عمر رضي الله عنه بقتل المنافقين خوفا من أن يقول الناس إن محمدا يقتل أصحابه فيضر ذلك بصورة الدين. غير أن الأمر أبعد من ذلك، حيث قد يُفْهَمُ من المثالين السابقين أن مراعاة المآلات مندوبة، بينما الحقيقة أن النظر في المآلات قد يكون واجبا، وذلك عندما يتصل الأمر بمصالح الأمة، ويتأكد هذا عندما نتخلص من عادة الاقتصار على الشواهد التي ذكرها أول من نَظَّرَ للموضوع، وعندئذ سيتضح أن هناك حالات يأثم فيها من أغفل اعتبار المآلات.

من أدلة ذلك قوله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل يا رسول الله: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه»[1]، ونحو ذلك قوله ﷺ: «إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته»[2]. ولا شك أن عمدة هذا الباب هو قوله جل شأنه: قالى تعالى ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، ولذلك تزداد دهشتي من قطاع من المسلمين يسهم في تشويه صورة الدين بربطه بما هو مرفوض، وقد أمروا أن يحببوا الله إلى عباده.

١- رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، في كتاب الأدب رقم: ٥٥١٦.
٢- رواه البخاري من حديث سعد رضي الله عنه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، الحديث رقم: ٦٧٤٥.

وعندما يكون الأمر متعلقا بمصالح المسلمين لا يقال: إن النظر في المآلات موهبة لم يؤتاها كل أحد، وإن الإنسان لا يمكنه أن يضمن النتائج، وذلك لأن الشرع يمنع أن يتصدى الإنسان لما لا يحسن. والقدرة على توقع المآلات ومعرفة نتائج الأعمال من أهم الصفات اللازمة للتصدي للإدارة. وإذا كان من أفتى بغير علم يأثم، ولذلك قال ﷺ عندما أفتى بعض المسلمين جريحا بضرورة الاغتسال فمات: «قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا»[1] فكذلك يأثم من أدار دون القدرة على الإدارة، ومن أهم عناصرها توقع المآلات. وفكرة التوقع هي في التحليل النهائي قلب مبدأ سد الذرائع، وهو مبدأ جوهري من مفاخر الفقه الإسلامي، وهي كذلك قلب عملية التخطيط.

أما المعيار الثاني من المعايير التي تفسر درجة الأجر على العمل فهو معيار عموم النفع، حيث يكون العمل أعلى أجرا بقدر ما يكون عدد المستفيدين منه أكثر، وإنما يكون ذلك بعموم الفائدة في المكان، أو في الزمان، أو فيهما معا. ويهمنا هنا فكرة العموم في الزمان التي تعني أن الإنسان يظل يحصد أجر عمله بعد الموت، ما دام لعمله هذا أثر بعده، يفيد منه إنسان أو طائر أو حيوان، وهي فكرة عظيمة الأثر في دعم العمل المستقبلي والتخطيط للزمن البعيد.

ويؤكد حديث أحمد رضي الله عنه عن بداية زراعة الجوز في منطقة (الدينباذ)[وهي منطقة بمرو] أهمية هذه الفكرة في العمل ذي الهدف المستقبلي؛ حيث إِنَّ مَنْ زَرَعَ هذا الجوز [وهو تابعي اسمه فَنَّجُ] رفض في بداية الأمر زراعته؛ لأنه شجر معمر بطيء الإنتاج، ربما لا يرى الزارع ثمرته، وقال: «ما ينفعني ذلك؟ قال فقال الرجل: سمعت رسول الله ﷺ يقول بأذني هاتين: من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة

١- رواه أبو داود من حديث جابر رضي الله عنه، كتاب الطهارة، رقم: ٢٨٤، ورواه أحمد عن ابن عباس بسند صحيح على شرط الشيخين البخاري ومسلم وإن لم يخرجاه، رقم: ٢٨٩٨.

عند الله، فقال له فَنَّجُ: أنت سمعتَ هذا من رسول الله؟ فقال: نعم، فقال: فأنا أضمنها، فمنها جوز الدينباذ»[1].

لقد أثمر هذا المفهوم في الثقافة الإسلامية عن أهمية خاصة للأعمال التي يعم أثرها وتعطي في المستقبل أكلها، كما في الصدقة الجارية، والعلم الذي ينتفع به، والسنة الحسنة المتبعة، وفي الحث على كل ذلك أحاديث صحيحة، نحو حديثي مسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[2] «ومن سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[3].

وقد دعم النبي ﷺ هذا الفكر بتشريعين كان لهما أكبر الأثر في الحضارة الإسلامية ولا يزالان قادرين على أداء دور كبير، هما تشريعا الوقف والوصية، مما يجعل فكرة مؤسسات المجتمع المدني ابتكارا إسلاميا. ففكرة الوقف تحول الصدقة إلى صدقة جارية تدر ريعا مستمرا ينفق منه على أعمال الخير. أما تشريع الوصية فيقوي احتمال الوقف، حيث يتيح للإنسان [وهو مُدْبِرٌ عن الدنيا، مقبل على الآخرة، وقد هان ماله عليه] أن يستخدم ثلثه في تعويض ما فاته، ولذا قال النبي ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله قالوا يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر»[4] وعندما يجعل الإنسان وصيته وقفا يتمكن من أن يجعل لنفسه شيئا مستمرا بعد موته، فيخطط لنفسه ولمجتمعه حتى بعد موته. وهكذا لا تعد فلسفة العمل في الإسلام دعما للتخطيط للمستقبل البعيد فقط، وإنما لتعليم حسن الإدارة في هذا التخطيط، حيث يجب التخطيط للحصول على أكبر نفع من الإنفاق، ما دام الأجر على الأعمال ليس متساويا، وما دام مرتبطا بعموم الفائدة.

١- رواه أحمد في أول مسند المدنيين، الحديث رقم: ١٥٩٩١، وفي باقي مسند الأنصار، رقم: ٢٢٠٩٢.
٢- رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الوصية، رقم: ٣٠٤٨.
٣- رواه مسلم من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه: كتاب الزكاة، رقم: ١٦٩١.
٤- رواه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، كتاب الرقاق، رقم: ٥٩٦١.

٤- التواصل والأمل:

يعني التواصلُ وَضْعِيَّةَ الأمَّةِ إزاء الأزمنة السابقة واللاحقة. ووجهة نظر الإسلام التي ذكرها القرآن الكريم وأفاض الحديث النبوي الشريف في شرحها هي أن الأمة الإسلامية تمثل حلقة من حلقات أمة الإيمان التي قبلت دعوة الرسل إلى التوحيد. إن الإسلام يرى أن التوحيد ليس منجزا بشريا كما يزعم عدد من المؤرخين الوضعيين، وإنما بدأ الإنسان موحدا، ثم كان يحيد عن التوحيد فيرد إليه بنبوة جديدة، ومن ثم كانت دعوة الأنبياء واحدة، وكانت دعوة الإسلام مكملة ومتممة للبناء، وكان أتباع محمد ﷺ أولى بكل نبي من الأنبياء من الخلائف الذين جاؤوا بعده، ورفضوا دعوة الإسلام. والأدلة على هذه المعاني في القرآن والسنة كثيرة مشهورة.

لكن عنصر التواصل مع أمة الإيمان لا يعني امتداد الإسلام في التاريخ فقط وإنما يعني امتداده في المستقبل أيضا، فالنبي ﷺ آخر الأنبياء، والقرآن الكريم آخر رسائل السماء، ولذا تعهد الله بحفظه حتى تبقى حجته قائمة على خلقه، مما يعني تواصل الأمة واستمرارها ما دامت الحياة على الأرض كما قال النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[1]. وأحاديث النبي ﷺ الداعمة للأمل في مستقبل الأمة كثيرة جدا، مما يجعل منها المصدر الأساسي للأمل ببقاء أمة الإسلام وتجددها مهما ادلهمت الظروف. وقد أَفْرَدْتُ هذا الموضوع من قبل بدراسة مستقلة، كما كتب فيه غير واحد من العلماء لأهميته.

ومن هنا يمثل الحديث الشريف دِعَامَةً أساسية من دعائم التخطيط الاستراتيجي، حيث إن هذا النمط من أنماط التخطيط مرتبط بالمستقبل البعيد، ومن ثم فهو غير

١- رواه مسلم من حديث ثوبان رضي الله عنه، كتاب الإمارة، الحديث رقم: ٣٥٤٤.

متصور في حالات التشاؤم العام والقلق على الوجود. فالقائمون بالتخطيط يجب أن يكونوا ممن يعملون لدنياهم كأن أمتهم تعيش أبدا، لأن صفة المرحلية تعني أن المخططين والمنفذين يبذلون جهدا هائلا في عمل لا تظهر نتائجه إلا بعد فترة طويلة. ولذلك يربط دارسو التخطيط وعلماء الاجتماع بين العمران والأمل منذ ابن خلدون الذي صرح أن: «الاعتمار إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط»[1].

٥- التوقع في ضوء السنن الكونية:

يمثل التوقع دعامة أساسية من دعائم التخطيط للمستقبل البعيد، حيث تبنى الخطط على أساس فروض واحتمالات، وتكون هذه الخطط دقيقة بمقدار الدقة في وضع هذه الفروض، واتساقها مع الواقع والخبرة والعلم، ورغم أن الحديث النبوي الشريف قد وقف موقفا حاسما من كل أضرب التنجيم والكهانة، فإنه قد دعم الفراسة المبنية على الخبرات والحكمة، كما دعم التوقع المبني على إدراك سنن الله في الخلق. وهذه السنن نوعان: النوع الأول هو السنن الكونية التي تمثل قوانين الطبيعة التي نكتشفها باستقراء العلاقات بين ظواهرها، كأن ندرس العلاقة بين الحرارة والمعادن لنعرف أن المعادن تتمدد بالحرارة، وعندئذ يجب علينا أن نتوقع أن أي معدن يتعرض للحرارة سوف يتمدد. ويدخل في هذا النوع وإن بشكل أقل اطرادا توقع سلوك الظواهر الطبيعية من خلال استقراء أحوالها، نحو: توقع المطر من خلال استقراء سلوك السحب، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة»[2] أي إذا ظهرت سحابة من

١- المقدمة: ١٠٤.

٢- المعنى "فسوف تكون سحابة ممطرة مطرا غزيرا"، وهذا الحديث أحد بلاغات مالك في الموطأ، كتاب الاستسقاء رقم: ٤٤٩، وقد وصله ابن الصلاح عن عائشة، في وصله لبلاغات مالك، الحديث الرابع، وضعف إسناده بسبب الواقدي، وأخرجه الطبراني في الأوسط عن عائشة أيضا، رقم: ٧٩٦، بإسناد ضعيف، وهو عند الشافعي مرسلا: الأم الحديث رقم: ٤٣٥. وانظر روايات أخرى وتحليل لعلاقة الحديث بالتوقع، والتوقع بالمستقبلية: قيمة المستقبلية في الحديث النبوي: ص: ١١. من البحث.

ناحية البحر ثم اتجهت شمالا فإنها ستكون مطيرة. كما يدخل فيها رصد علاقة المحاصيل بالتغيرات المناخية المصاحبة لأوقات بعينها، وقد ورد عن النبيﷺ أنه قال: «إذا طلع النجم ذا صباح رفعت العاهة»(١). أي إذا طلعت الثريا ظهر صلاح الثمار فيجوز بيعها وشراؤها. وربما يحمل على هذا النوع، وإن كان بدرجة أقل في القوة التوقع الناتج عن الخبرة المباشرة المجربة، مثل خَرَص النخل [أي تقدير محصوله وتحديد خراجه قبل نضجه]، وقد صح أن النبي ﷺ «بعث ابن رواحة إلى خيبر يخرص عليهم، ثم خيرهم أن يأخذوا أو يردوا، فقالوا هذا الحق. بهذا قامت السموات والأرض»(٢). ومشروعية الخرص تعني دون شك مشروعية التوقع المرتبط بالخبرة المجربة.

والنوع الثاني هو السنن الإلهية التي تتحكم في حركة المجتمعات البشرية، وهي سنن نكتشفها برصد ما جاء في القرآن والحديث منها، وكذلك بدراسة التاريخ للكشف عن قواعد العمران البشري. ويجب أن نحدد التوقعات في إطار هذه السنن، فإذا رأينا الفاحشة تنتشر في قوم، توقعنا أن تنتشر فيهم الأمراض التي لم تكن فيمن قبلهم، وهكذا. وقد سبق غير واحد من الباحثين إلى الكشف عن أهمية التعرف على هذه السنن، وتوضيح أن فائدة هذا التعرف هي استشراف المستقبل والعمل على أساسه(٣)، ولذلك استحق العقاب من لم يدرك هذه السنن فيعرف مآل فعله، قال تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ

١- رواه أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رقم: ٨٢٩١، لكن إسناده فيه ضعف، وله روايات أخرى كثيرة بألفاظ متقاربة، ولا يصل أيٌّ منها إلى درجة الصحة، غير أن ما يقويه جدا هو حديث أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين، عن ابن عمر رضي الله عنهما: "نهى رسول الله ﷺ عن بيع الثمار حتى تذهب العاهة، قلت ومتى ذاك؟ قال حتى تطلع الثريا». باقي مسند المكثرين، الحديث رقم: ٤٩٦٠.

٢- رواه أحمد عن ابن نمير عن عبيد الله عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وهذا إسناد متصل رجاله ثقات على شرط الشيخين البخاري ومسلم، مسند المكثرين، الحديث رقم: ٤٥٤٨.

٣- انظر على سبيل المثال: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، في الشريعة الإسلامية، لعبد الكريم زيدان. وكذلك: قيمة المستقبلية في الحديث النبوي الشريف لإلياس بلكا.

يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٣ – ٤٤].

وسوف يأتي في الحديث عن خصائص التخطيط النبوي كيف وضع النبي ﷺ الأمة في الإطار الذي يجعلها مستحقة للنصر في ضوء سنن النصر.

المبحث الثاني: خصائص التخطيط النبوي ومجالاته.

تمهيد: يحاول هذا المبحث أن يقدم وصفا عاما للتخطيط النبوي محددا أهم خصائصه سواء الخصائص المرتبطة بهذا النوع من أنواع التخطيط للمستقبل البعيد، أو الخصائص المتصلة بصفة النبوة التي هي الصفة الأساسية لأحمد ﷺ. وكما جاء في المقدمة فإن طبيعة التخطيط النبوي محكومة بأمرين، الأول: هو طبيعة النبوة وجوهرها الذي يعني تلقي إنسان مختار لوحي السماء، والثاني: هو طبيعة هذا النمط من أنماط التخطيط للمستقبل البعيد وصفاته، من حيث هو تخطيط مرحلي، مرن، يعتمد على دراسة الواقع واستشراف حركته، وتحويل هذه الحركة في اتجاه هدف بعينه، عن طريق الإفادة من كل ما هو متاح من الأدوات، وصنع ما هو ضروري إذا لم يكن متاحا.

وبطبيعة الحال نستطيع أن نقول إنه لولا الطبيعة الخاصة للإسلام بوصفه الدين الخاتم الذي قدم النموذج النهائي لحركة الإنسان في الكون محكومة بوحي السماء [مما قلل الاعتماد على المعجزات، ولم يتناسب معه التوقف في كل التفاصيل انتظارا للاطلاع على الغيب من خلال الوحي كما نجد في التاريخ الديني لليهودية] – لولا ذلك لما أمكن الحديث عن تخطيط استراتيجي عند النبي ﷺ، فهو متصل بالله سبحانه، وهو الخالق العليم بكل شيء، والقدير على كل شيء، الذي يستحيل وصفه بصفة التخطيط، وإنما بصفات: العليم، القدير، المدبر، اللطيف لما يشاء، الفعال لما يريد، مما يجعل فكرة الاحتمال مستحيلة عليه سبحانه.

غير أن الأسس العامة للتخطيط التي عرضنا لها في المبحث السابق والمستمدة من خصوصيات الإسلام وطبيعته قد جعلت النبيﷺ قائدا يتحرك في مساحة كبيرة جدا داخل دائرة الاجتهاد البشري، والعمل المحكوم بطبيعته الإنسانية التي لا تعلم الغيب، والتي يمكن أن يمسها السوء، حتى إن بعض العلماء قد أفرد موضوع الاجتهاد النبوي ببحث مستقل[1]. لكن هذا لا يعني في الوقت نفسه أننا إزاء تخطيط يقوم به بشر عادي، وإنما بشر نبي موفق مبارك، مُوَجَّهٌ بشكل مباشر في بعض الأحيان من ناحية، ومتصف بصفات نبوية أخلاقية تحكم اختياراته كلها من ناحية ثانية، **وفيما يلي عرض لخصائص التخطيط النبوي** يوضح كيف أن بعضها متصل بطبيعة النبوة، وكيف أن بعضها متصل بالصفات العامة للمخطط الاستراتيجي مع مراعاة خصوصيات النبيﷺ في كل الحالات.

١- الواقعية والكفاءة:

المقصود بالكفاءة القدرة على إدارة الإمكانات المتاحة لتحقيق أكبر النتائج الممكنة، بحيث نستطيع أن نقول إنه لم يكن من الممكن في ظل ظروف الواقع تحقيق نتيجة أفضل، والمقصود بالواقعية الانطلاق من الواقع ودراسته دراسة دقيقة تحدد ما فيه من فرص يجب استغلالها، وما به من معوقات يجب تجاوزها، كما تعني ضرورة الاعتماد على أدوات ملائمة ممكنة كافية لتحقيق الأهداف المرجوة. وبالنسبة للنبي ﷺ لم تتحكم صفة الواقعية في تحديد الرسالة أو الغاية العظمى لعمله، فالرسالة محددة سلفا، وعليه السعي لتحقيقها، وتحديد خطواته التنفيذية، وقد حددها على أساس واقعي؛ مما استلزم صفتين أخريين من صفات التخطيط، هما صفتا المرحلية والمرونة.

والمتأمل لسيرة النبي ﷺ يدرك بوضوح أمرين أساسيين ستشرحهما

١- انظر: اجتهادات الرسول للشيخ: عبد الجليل أبو النصر، الطبعة الثانية، مكتبة الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣.

الصفحات التالية، الأول: هو أن حركته قد اعتمدت على قراءة دقيقة للبيئة المحيطة بالدعوة، سواء البيئة الداخلية أو الخارجية، وقد أدت هذه القراءة إلى تحديد متميز للإمكانيات والفرص المتاحة التي يجب استغلالها، وللمعوقات التي يجب التغلب عليها. و الأمر الثاني هو أن النبي ﷺ قد اعتمد على عدد كبير من الوسائل لتحقيق أهدافه كلها كانت واقعية ممكنة، وأنه استخدمها بكفاءة منقطعة النظير للوصول بها إلى أفضل النتائج، بحيث لم يتغلب على المعوقات فحسب بل تمكن من تحويلها إلى إيجابيات وفرص.

إن الوسيلة المتاحة أمام الباحث المعاصر للكشف عن هذه الحقيقة في ظل عدم وجود تنظيرات سابقة تشرح تخطيط النبي ﷺ هي أن يقوم بإجراءين: الأول هو تتبع قرارات النبي ﷺ أو بتعبير أدق ما يعزى إلى اجتهاده منها، وليس ما يعزى إلى الوحي، ثم محاولة فهم أسباب هذه القرارات، والإجراء الثاني هو أن يقوم الباحث بنفسه بتحليل البيئة الخارجية والداخلية للدعوة الإسلامية، ورصد المعوقات والفرص القائمة ثم دراسة علاقة قرارات النبي ﷺ بها.

وعندما نتتبع المشهد الجاهلي في صدر البعثة النبوية سنكتشف بوضوح شديد أن العناصر الأساسية المكونة له هي:

- سيطرة القبلية على الثقافة والسياسة الجاهلية، حيث يعيش العرب في قبائل متنافسة متصارعة.

- الاعتماد على التجارة اعتمادا رئيسيا في جوانب مهمة بحيث لا يمكن الاستغناء عنها، وقد فرض هذا الاعتماد في أحيان كثيرة نوعا ما من السلام الداخلي، أو درجة من الإيلاف بسبب الحاجة إلى تأمين رحلات التجارة حيث يمكن لأي مجموعة من الخارجين على التحالف قطع طريقها، وحيث يجب أن تكون رحلات كبيرة يشترك فيها عدد كبير عن طريق توكيل القافلة

بالبيع والشراء لكل من يريد، وهو الإيلاف الذي أشارت إليه سورة قريش.

- وجود إمبراطوريتين كبيرتين تسيطران سياسيا على الأجزاء العربية المتاخمة لهما، وتتبعهما دولتان عربيتان قويتان متصارعتان، هما دولتا الغساسنة والمناذرة اللتان كانتا تمثلان الثقل السياسي العربي حينئذ، إضافة إلى سيطرة الفرس على اليمن بعد انتهاء سيطرة الأحباش عليها. وقد كان الثقل السكاني العربي موجودا بالشام، ومرتبطا بالروم، بدليل أن جموع الروم في مؤتة قد اشتملت على مائة ألف من العرب من لخم وجذام وبهراء وبَلِيّ، يقودهم رجل من بلي اسمه مالك بن زافلة[1]، وهذا عدد من العرب لم يكن متخيلا في الحجاز ونجد في ذلك الوقت.

- ومن الناحية الدينية كان العرب على وثنية غير كتابية، أهم العناصر المكونة لديانتها هي بقايا دين إبراهيم عليه السلام، حيث الحج أقدس الشعائر، والبيت والأشهر الحرم أهم المقدسات، وهو ما أعطى لقريش أهمية دينية كان النبي ﷺ على وعي كامل بها. وقد جعل هذا الوضع إسلام العرب أمرا مرتبطا بأمرين: الأول هو إزالة الأسباب السياسية والاقتصادية لرفض الدين، والثاني هو إسلام قريش مما يعني تبعية البيت الذي هو عماد دين العرب للإسلام.

وقد كان النبي ﷺ يدرك هذه الحقيقة عن العرب وصرح بها في حواره مع عدي بن حاتم حين حدد له في حديث البخاري أسباب هروبه من الإسلام، وهي ما عليه المسلمون من خوف وفقر، وكون الملك في غيرهم. كما كان يدركها حين ذكر خصوصية لمن يسلم من أهل الكتاب بأن له أجرين، وذلك لأن له تراثا دينيا وثقافيا قد يحول بينه وبين الإسلام، بينما ليس للعرب مثل ذلك التراث الذي

١- رواه ابن إسحق مرسلا، سيرة ابن هشام: ج٣، ص: ٣٧٥. وتاريخ الطبري: ٣ / ٣٧.

يحول بينهم وبين هذا الدين، فهو دينهم الحقيقي، كما أن النبي ﷺ حفيد إبراهيم عليه السلام هو حظهم من الأنبياء.

وفي ضوء ما سبق سنفهم خطة النبي ﷺ لإسلام العرب، التي اعتمدت على محورين، الأول: إنهاك قريش حتى تسلم فيكون في إسلامها إسلام العرب، والثاني: إفقاد العرب الدافعية لاستمرار المقاومة والعناد. وفي ضوء ذلك أيضا سنفهم كيف كان العرب رغم كل ما كابده النبي ﷺ معهم من أكثر الأمم استجابة لنبيهم؛ فقد أسلمت قبائل بأكملها في ليلة واحدة كما حدث مع همدان، ومع قوم ضمام رضي الله عنه، كما أسلم العرب جميعا في سنوات معدودة، هي زمن البعثة المباركة، ولم يعش النبي ﷺ معهم ألف سنة إلا خمسين عاما.

وعندما نتأمل سيرة النبي ﷺ سنفهم بجلاء كيف صدرت كل أعماله عن قراءة دقيقة لهذا الواقع، كما يبدو في الملاحظات الآتية:

أ- في مفاوضات الهجرة كان النبي ﷺ يعرض نفسه على وفود القبائل العربية، ويرفض العروض التي لا تتناسب مع الوضع السياسي للجزيرة، كما حدث مع وفد بكر بن وائل، حين رفض عرضهم بحمايته من العرب، حيث لم يكونوا قادرين على حماية الدعوة من الفرس، قائلا لهم: «إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه»[1].

ب- كانت سياسة النبي ﷺ مع القبائل توصل لهم رسالة قوية بأنه لا خسائر من إسلامهم، فهم يحوزون أرضهم، بل تُحْمَى لهم، والنبي ﷺ يتعامل مع قبائلهم بوصفها وحدات إدارية مستقلة، ما دامت قد قبلت الإسلام وأدت فرائضه، ولا يُوَلِّي على القبيلة إلا أحد أبنائها، و يحتفي بالوفود ويجيزها. بل كان النبي

١- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، للسهيلي، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، ٤ / ٦٤.والحديث إسناده حسن رجاله ثقات عدا ابن إسحاق القرشي وهو صدوق مدلس، رجاله رجال البخاري ماعدا ابن إسحاق القرشي روى له البخاري تعليقًا.

ﷺ يراعي هذا الواقع في اختيار القادة كما حدث مع عمرو بن العاص رضي الله عنه؛ إذ وجهه فور إسلامه إلى أخواله من قضاعة، فهم جديرون بالقبول منه لا من غيره، فابن أخت القوم منهم. كما أولى النبي ﷺ علاقة المصاهرة أهمية كبيرة في تحقيق أهدافه كما حدث في مصاهرته بني المصطلق، فغير من تحالفهم عليه مع قريش إلى تحالفهم معه على قريش، فكانوا إحدى أهم الأدوات التي أوصلت قريشا إلى الحالة التي وصفها النبي ﷺ عام الحديبية بقوله: «إن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاؤوا مادتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس»[1]، مما اضطرهم في البداية إلى توقيع الهدنة التي كانت سببا أساسيا في انتشار الإسلام انتشارا اضطرت معه قريش للتسليم عام الفتح.

ج- أولى النبي ﷺ أهمية كبيرة لشيوخ القبائل، فتألف بعضهم، لتحييده عن الإضرار بالمسلمين، واهتم بدعوة بعضهم، مما أدخل قبائلهم في الإسلام جملة، وتسامح مع بعضهم وأقال عثراتهم، وعفا عنهم فكان لإسلامهم أثر كبير كما حدث مع ثمامة بن أثال، كما جاء في الصحيحين[2].

د- في بدايات الدعوة أقر النبي ﷺ الاعتماد في حماية المسلمين على التقاليد العربية التي تُلْزِمُ القبيلة بحماية أبنائها، وتجعل تسليمهم عارا، وهو ما جعل المسلمين الأوائل يتمتعون بدرجة ما من الحماية في بداية قلتهم وضعفهم. كما استخدم المسلمون فكرة حاجة قريش إلى غيرها من أجل التجارة، كما في قصة قراءة ابن مسعود للقرآن على قريش، حيث منعهم من قتله مرور قوافلهم على قومه، وكما في قصة ثمامة، حيث أنقذه العباس رضي الله عنه من بين أيديهم بالحجة نفسها.

١- رواه البخاري من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه، كتاب الشروط، الحديث رقم ٢٥٢٩.

٢- انظر حديث إسلام ثمامة: البخاري، كتاب الصلاة، رقم ٤٤٢، ومسلم كتاب الجهاد والسير، رقم: ٣٣١٠.

هـ- في الغزوات اهتم النبي ﷺ أكبر الاهتمام بجبهة الشمال حيث الخطر الحقيقي الأكبر على الدولة. ويفسر هذا الاستجابة السريعة القوية لتهديد أكيدر دومة، نظرا لخطورة جبهة الشمال، والاهتمام بفتح خيبر للسبب نفسه، فلم تكن هناك جبهة تمثل خطرا على وجود المدينة ذاته إلا جبهة الشمال كما سأوضح فيما بعد.

وترتبط صفة الواقعية بما عرف عنه ﷺ من تقدير قدرات الناس وعدم تحميلهم فوق طاقتهم، كما تؤكده مفاوضاته مع غطفان في غزوة الأحزاب ليرحلوا في مقابل ثلث ثمار يثرب[1]، فلما أكد له الأنصار قدرتهم على الصمود لم يعقد الاتفاق، كما كانت هذه الصفة مرتبطة بموقفه من جيش مؤتة حيث صوب انسحابهم، واعتبرهم الْكُرَّارَ في مقابل من اعتبرهم فرارا، وقد كثر لُوَّامُهُمْ من المسلمين حتى إن سلمة ربيب النبي ﷺ ظل حبيس بيته فترة خوفا من تعيير المسلمين[2].

وبشكل عام نستطيع أن نقرر أن النبي ﷺ كان يرفض دائما استهداف ما هو غير واقعي، كما حدث ورفض اقتراح بن الأكوع في غزوة ذي قرد بالسير وراء كتيبة عيينة التي استولت على لقاح المدينة؛[3] لأن اللحاق بها كان مستبعدا، وكان ذلك الموقف هو موقفه الدائم ﷺ.

١- سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٢٣. وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى مرسلا عن سعيد بن المسيب، رقم: ١٦٤١، بإسناد حسن.

٢- سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٨، وحديث تعيير العائدين من مؤتة أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق، رقم: ٦٣٢٥، والذهبي في تاريخ الإسلام مرسلا عن عروة، رقم: ١١٥٤..

٣- انظر في حديث غزوة ذي قرد، كتاب الجهاد والسير في الصحيحين، كلاهما عن سلمة رضي الله عنه، البخاري رقم: ٢٨١٤، ومسلم رقم: ٣٣٧١.

٢- المرحلية:

ترتبط بصفة الواقعية صفة أخرى هي صفة المرحلية، حيث يتم التوصل إلى الهدف عبر مراحل، يعد كل منها خطوة في الطريق إلى الهدف وسببا في تحققه. لقد سبق أن الرسالة العامة للنبي ﷺ هي رسالة محددة من السماء، لكن الأهداف المرحلية ترك أغلبها له ﷺ، وحين نتأمل السيرة النبوية ندرك أن النبي ﷺ لم يسع أبدا لتحقيق هدف مرحلي لا تتوفر أسبابه ولا تتحقق أدواته.

من ذلك صبره ﷺ الطويل على يهود خيبر رغم خطورتهم، فقد كانوا العامل الرئيسي في تحزيب الأحزاب، وفي غدر بني قريظة، لكن الخروج إلى خيبر لم يكن ممكنا قبل أن يأمن النبي ﷺ قريشا بشكل نسبي، كما حدث بعد صلح الحديبية، وقبل أن تزداد قوة المدينة على مواجهة عدو قوي متحصن، ومدد كبير محتمل من غطفان.

ومن ذلك أيضا تأجيله ﷺ إخراج اليهود من جزيرة العرب، فقد اتخذ القرار وأوصى بتنفيذه بعد وفاته، وذلك لأن الظرف المناسب لهذا الإخراج لم يكن قد حان بعد، حيث كانت العدالة تقتضي إخراجهم إلى مكان يسيطر عليه المسلمون خارج الجزيرة، ولم يكن المسلمون قد فتحوا الشام بعد، كما كانت الحكمة تقتضي تأخير إخراجهم حتى لا يكونوا [وهم الخبراء بالمسلمين] أعوانا للرومان، فاتخذ النبي ﷺ القرار وأرجئ تنفيذه إلى أن تصبح الظروف مواتية.

والحق أن القارئ العادي للسيرة المباركة يستطيع أن يدرك صفة المرحلية هذه، حيث يتضح أنه ﷺ رغم كثرة أعداء المدينة لم يفتح جبهتين في آن واحد مختارا أبدا، أما الدارس المدقق فإنه يستطيع تأكيدها تماما، نحو ما فعل الدكتور حسين مؤنس في دراسته للسيرة، حين أوضح مراحل توسيع دولة المدينة، وكيف أن هذا التوسيع تم في تسع مراحل متعاقبة، قام بتوضيحها، ورسم خرائطها، مما

يجعل الإحالة عليه في هذا الجانب أكثر علمية من إعادة تلخيص نتائج دراسته[1].

٣- المرونة:

المرونة صفة أخرى من صفات التخطيط الاستراتيجي والتخطيط النبوي على السواء، وهي تعني القدرة على تغيير الاتجاه وعدم التصلب أو الاستسلام لفكرة ما. وهذه الصفة مرتبطة أيضا بصفة الواقعية؛ فالقرار المتخذ قد يكون متخذا على أساس معلومات غير دقيقة عن الواقع، وحينئذ يجب تعديله بمجرد ظهور المعلومات الأدق، ما دام ذلك ممكنا، كما قد يحدث تغير في عنصر من عناصر الواقع الذي وضعت الخطة على أساسه، وعندئذ تجب مراعاة الواقع الجديد، ما دام ذلك ممكنا.

في غزوة ثقيف صعب الأمر على المسلمين لشدة تحصنها، فقرر النبي ﷺ الارتحال دون الفتح، إذ لا خطورة من ثعلب في جحر لن يستطيع أن يغادره، و لن يستطيع أن يستمر في المقاومة بمفرده، بينما في الإقامة عليه ضرر، لكن هذا القرار لم يلق ترحيبا عند المسلمين أول الأمر، جاء في الصحيحين: «حاصر النبي ﷺ أهل الطائف فلم يفتحها فقال إنا قافلون غدا إن شاء الله، فقال المسلمون: نقفل ولم نفتح؟ قال: فاغدوا على القتال، فغدوا، فأصابتهم جراحات، قال النبي ﷺ: إنا قافلون غدا إن شاء الله، فكأن ذلك أعجبهم، فتبسم رسول الله ﷺ»[2].

وروى مسلم أن النبي ﷺبعث أبا هريرة مبشرا بالجنة من يلقاه يشهد ألا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه، فمنعه عمرﷺ من التبشير جبرا، وأعاده إلى النبي ﷺ باكيا، إذ خشي عمر ﷺ أن يتواكل الناس، وقال يا رسول الله»فَخَلِّهِمْ يَعْمَلُونَ،

١- أطلس تاريخ الإسلام، ص: ٨٧، وما بعدها.

٢- متفق عليه، واللفظ للبخاري، كتاب التوحيد، الحديث رقم: ٦٩٢٦، وهو عند مسلم في كتاب الجهاد والسير، الحديث رقم: ٣٣٢٩.

قال رسول الله ﷺ فَخَلِّهِمْ»[1]، وعند كتابة وثيقة الحديبية أصر سهيل بن عمرو على عدم وصفه ﷺ بالرسالة وأصر على محو الصفة، فأبى عَلِيٌّ مَحْوَهَا، فمحاها النبي ﷺ بنفسه، وأثبت اسمه فقط[2].

ولا نحتاج إلى الإكثار من الأمثلة، فكل قارئ للسيرة العطرة يدرك كيف أن النبي ﷺ لم يستمر على رأي يظهر أن غيره أفضل منه أبدا، كما غير نزله يوم بدر بمشورة الحباب بن المنذر، بل لقد كان يعلن تقويمه لما اتخذه من آراء بعد تنفيذه قائلا: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما فعلت كذا وكذا. وقد بوب المحدثون لمثل هذه التصريحات تحت عنوان ما يجوز من «اللو»، تفريقا بين لو التي يقصد بها التندم على الماضي فَتَحْرُمُ؛ لأنها من عمل الشيطان، والتي يقصد بها استفادة الخبرة من الماضي من أجل المستقبل فتجوز[3].

غير أن صفة المرونة كانت تتحقق فيه ﷺ بالكيفية التي يتصف بها نبي، من حيث إنه أصبر الناس على الحق فهو القائل والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه[4]، فالمرونة إنما تكون في دائرة ما هو جائز شرعا، كما أنه ﷺ أصبر الناس على المصلحة، فالمرونة تكون فيما ليس فيه مصلحة ضرورية، فقد صعب فتح خيبر كما صعب فتح الطائف، وتأخر كما تأخر، لكن الأمر كان مختلفا، فقد كان فتح خيبر تأمينا لوضع المدينة من الشمال، وتأمينا لعمرة القضاء فلا يخرج إليها النبي ﷺوفي الشمال عدو قوي حانق متربص، وعقابا طال انتظاره لمن ألب الأحزاب ودعم جيش أحد، ولمن يمكن أن يكون قاعدة الانطلاق لأي جيش غَسَّانيٍّ يأتي من

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الإيمان، الحديث رقم: ٤٦

٢- متفق عليه من حديث البراء، البخاري في كتاب الصلح، رقم: ٢٥٠٠، ومسلم في الجهاد، رقم: ٣٣٣٥.

٣- انظر في هذه التفرقة وأهميتها في سياق الفكر المستقبلي: قيمة المستقبلية، لإلياس بلكا ص: ١٣ من البحث.

٤- سيرة ابن هشام: ١ / ٢٦٦. وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة، بسند ضعيف رقم: ٥٢٢، وكذلك ابن قدامة في الرقة والبكاء مرسلا. الحديث رقم: ٩.

الشمال، حيث الملوك الأقوياء الذين يتوعدون المدينة. ومن ثم كان الإصرار على الفتح الذي حققه الله بعد الثبات والصبر، ولم يكن التراجع ممكنا، إذ إن المرونة والواقعية لا تكون إلا فيما يتصل بدائرة الفسحة المقيدة بالحق والمصلحة.

٤- التروي والمراجعة والمعالجة:

التروي في اتخاذ القرار، ومراجعته قبل تنفيذه، بل بعد تنفيذه للتقليل من آثاره- صفة مهمة من صفات النبي ﷺ، وهي صفة أساسية من صفات المخطط الذي يصنع تخطيطا استراتيجيا، ويتخذ قرارات ذات طبيعة استراتيجية. وفي كتب الأحاديث والسيرة أمثلة كثيرة صدرت عن هذه الصفة،وذلك أمر طبيعي منه ﷺ فقد مدح الأناة، وذكر أنها خصلة يحبها الله[١]، وصرح بأنه هَمَّ بأمور عدل عنها بعد التدبر فيها، من ذلك ما رواه مسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنه قال»: لقد هممت أن أنهى عن نكاح الغيلة، حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم»[٢] ومن ذلك أنه أمر فاطمة بنت قيس أن تعتد في بيت أم شريك، فقالت سأفعل، ثم قال لها: «لا تفعلي إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان»[٣]، ومن ذلك أنه أمر سرية إذا لقيت رجلين من قريش أن تحرقهما، فلما تجهزت نهى رجال السرية عن حرقهما، حيث رأى ﷺ أن النار لا يعذب بها إلا الله عز وجل[٤].

أما إعلان النبي ﷺ لمراجعة رأيه في بعض أعماله بعد تنفيذها فمن ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: «خرج رسول الله ﷺ من عندي وهو قرير العين طيب النفس، ثم رجع إلي وهو حزين القلب، فقلت يا رسول الله: خرجت من عندي وأنت كذا وكذا، فقال: «إني دخلت الكعبة وودت أني لم أكن فعلت، إني

١- رواه مسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، كتاب الإيمان، الحديث رقم: ٢٥.
٢- رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، كتاب النكاح، الحديث رقم: ٢٦١٢، ٢٦١٣.
٣- رواه مسلم من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم: ٥٢٣٥.
٤- رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الجهاد والسير، رقم: ٢٧٩٣.

أخاف أن أكون أتعبت أمتي من بعدي»[1].

وخلاصة القول أن التقويم الدائم للأعمال صفة أساسية من صفات المخطط، وقد كانت صفة أساسية من صفات النبي ﷺ في أموره كلها. ومن باب أولى أن يكون كذلك في تخطيطه المستقبلي ومتابعة تنفيذه، وقد مكن ذلك النبي ﷺ من معالجة كل ما يمكن أن يكون المنفذون قد وقعوا فيه من أخطاء. وتحفل السيرة بالكثير من المواقف التي تؤكد الكفاءة الكبيرة في معالجة مثل هذه الأخطاء إدراكا لخطورة تأثيرها، ومن ثم كان النبي ﷺ في بعض الأحيان يبالغ في استرضاء من وقع في حقه بعض الأخطاء حتى يزيل آثارها تماما، حيث كان تقديم الأسوة والقدوة لدولة العدل وسيلة من وسائل الدعوة، فأمنه الناس وركنوا إليه. من ذلك: إرسال عَلِيٍّ ﷺ ليدي قوما قتلهم خالد بن الوليد ﷺ بعد الفتح تأولا، فأرسل عليا ﷺ وأمره أن يجعل أمر الجاهلية تحت قدميه، «فودى لهم الدماء، وما أصيب من الأموال، حتى إنه ليدي لهم ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال، فقال لهم علي رضي الله عنه: هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود لكم، قالوا لا، قال فإني أعطيكم هذه البقية من المال احتياطا لرسول الله ﷺ.

٥- الاستخارة والاستشارة، وتقديم المشيئة، واستجلاب البركة والنصر:

هذه صفات نبوية تميز تخطيط النبي ﷺ، فقد كان ﷺ يستخير الله في الأمور كلها ويعلم المسلمين الاستخارة والدعاء قبل العزم على كل أمر من الأمور، كما كان يكثر من استشارة أصحابه حتى قال أبو هريرة: «ما رأيت أحدا قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»[2]، وكان دائما ما يحلل المعلومات المتاحة في

١- رواه الترمذي من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، كتاب الحج، رقم: ٧٩٩، وقال حسن صحيح.

٢- رواه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الجهاد، باب ما جاء في المشورة، رقم: ١٦٣٦، بسند رجاله ثقات إلا أنه منقطع وهو كذلك عند أحمد في مسنده رقم: ١٨١٦٦. لكن أخرجه البيهقي في السنن الكبرى بسند متصل رجاله أثبات ثقات، كتاب الوصايا، رقم: ١٢٣١٤.

وجودهم وفي ضوء آرائهم.

كان النبي ﷺ يبدأ الإعداد لكل أمر من الأمور بجمع المعلومات، وكان يفيد من الروح الاستشهادية عند المسلمين في الحصول على المعلومات إذا كان الحصول عليها متعذرا، فثم سرايا وأشخاص ذهبوا في ظروف خطرة للحصول على معلومات، نحو سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة لاستطلاع أخبار قريش[1]، ونحو ذهاب حذيفة إلى معسكر الأحزاب يوم الخندق[2].

وبعد وضوح الصورة كان ﷺ يحلل المعلومات في وجود أصحابه ومشورتهم، وفي ضوء خبراته الكبيرة وحنكته، فإنه لما أرسل لاستطلاع أخبار قريش يوم بدر جاؤوا بأسير، فسأله عن عددهم فلم يعرف، فعرف العدد من خلال ما ينحرون من الإبل، فكان كما قال ﷺ، ثم حدد موقع المعسكر في ضوء مشورة الحباب، ثم كان النبي ﷺ بعد ذلك يضع خطة التنفيذ مهتما بأدق التفاصيل وباختيار الرجال المناسبين للتنفيذ، ثم يقدم المشيئة ويتوكل على الله ولا يركن إلى الأسباب، وإنما إلى عون الله وتوفيقه، فالأسباب قد لا تعمل، أو قد يوجد ما يعطل عملها.

ولم يكن استجلاب النبي ﷺ للعون والبركة بالاستخارة والدعاء فحسب، وإنما كان كذلك عن طريق الوعي بسنن الله في الأرض، والدخول تحت قواعد البركة والنصر والتأييد، فعون الله لا يأتي مصادفة، وإنما في ضوء سنن معروفة، فالبركة لها ما يجلبها كالصدق، والتوكل، والصدقة، والعدل، وتطبيق حدود الله، والتناهي عن المنكر، والجماعة، ولها ما يمحقها كالفرقة، والبخل، والحلف. ونصر

١- انظر في سرية عبد الله، سيرة ابن هشام ج ١، ص: ٦٠٢. قال ابن حجر في مقدمة فتح الباري في باب ما يذكر في المناولة: "وهو صحيح، وقد وجدته من طريقين، إحداهما مرسلة ذكرها ابن إسحق في المغازي،... والأخرى موصولة أخرجها الطبراني من حديث جندب البجلي بإسناد حسن، ثم وجدت له شاهدا من حديث ابن عباس رضي الله عنه عند الطبري، فبمجموع هذه الطرق يكون صحيحا".

٢- حديث ذهاب حذيفة إلى معسكر قريش رواه عنه مسلم في كتاب الجهاد والسير، رقم: ٣٣٤٣.

الله مبذول وفق قانون لا يتخلف: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[الحج: ٤٠].

فمن أراد النصر من الله فإن عليه أن يضع نفسه تحت هذا القانون فيحصل على النتائج، وسنن الله لا تتخلف أبدا، غير أن بعض من لم يحسن فهم القانون السابق ربما يتحير عندما يظن أن الآية تتحدث عن الذين يقيمون الصلاة، والأمر ليس كذلك؛ فهي تتحدث عن الذين إن انتصروا أقاموا وصلوا وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولا يكون ذلك إلا لمجموعة تجرد جهادها للحق، فالذين إن انتصروا فعلوا ذلك، ولم يستطيلوا على الخلق، ولم ينشغلوا بما أحرزوه من الدنيا فيتنافسوا عليه هم قوم على درجة عالية ونادرة من الإيمان والتجرد والإخلاص.

كان النبي ﷺ يعرف سنن الله في خلقه، ويعد الجماعة المؤمنة لاستحقاق النصر والبركة، ويحول بينها وبين الدخول تحت سنن العقاب، فهناك حالات تقتضي السنن أن يعاقب من يصل إليها، كان يوضحها لهم، ويحول يبنهم وبينها، ويحذرنا جميعا منها كما نجد في قوله ﷺ: «يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»[1].

١- رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب الفتن باب العقوبات، رقم: ٤٠١٩، وأخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، رقم: ٨٧٤٤، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٦- الفراسة وإدارة الرجال:

تعد هذه سمة أساسية من سمات التخطيط، ذلك أن كون الخطة جيدة قابلة للتنفيذ لا يكفي لتحقيقها، فالخطط مهما عظمت، والنظريات مهما كانت دقيقة لا تنفذ نفسها، إنما ينفذها الرجال، ومن هنا كان اختيار المنفذ أساسيًّا؛ لاسيما أنه قد يتعرض لمواقف جديدة تحتاج إلى قرارات أو تعديلات في وقت يستحيل فيه الاتصال بمصدر الخطة. ولذلك أولى النبي ﷺ مسألة اختيار العمال أهمية كبرى، واعتبر التقصير فيها ذنبا عظيما، فقال: «من ولي من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم محاباة فعليه لعنة الله»[١]، وقال: «من ولي من أمر المسلمين شيئا، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمؤمنين منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»[٢]. وقد اعتمد شيخ الإسلام ابن تيمية على رواية الحاكم لهذين الحديثين وجعل تولية الأصلح واجبة[٣].

وقد تبدو هذه الأحاديث مدهشة لمنحها هذا العمل [ذا الطبيعة الإدارية لا العبادية] قيمة دينية كبرى، لكن الدهشة تزول تماما في ضوء معرفتنا بأن عموم النفع وعموم الضرر من محددات الأجر والوزر في الإسلام كما سبق، وفي ضوء معرفتنا بنظرية الفتن التي سبق شرحها، والتي تكشف عن أن تخريب دنيا المسلمين فتنة لهم في دينهم.

وعن طريق تكليف الأصلح كان النبي ﷺ يضمن كفاءة التنفيذ، والقدرة على تجاوب المنفذ مع الظروف، لاسيما أن معيار الاختيار عند النبي ﷺ كان

١- رواه أحمد من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، الحديث رقم: ٢١. وفي إسناده ضعف لوجود راو مجهول، لكن أخرجه الحاكم من طريق آخر، عن الصديق أيضا، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. المستدرك، كتاب معرفة الصحابة، رقم: ٧٠٩١.

٢- أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كتاب معرفة الصحابة: رقم: ٧٠٩٠، والبيهقي في السنن الكبرى من طريق آخر عن ابن عباس رضي الله عنه أيضا، الحديث رقم: ١٨٧٤٧.

٣- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية: ابن تيمية، ص: ١٤.

معيارا مزدوجا، يشمل القوة والكفاءة بقدر ما يشمل الدين والأمانة، بل لعله يعطي الكفاءة أولية، كما أوضح ابن القيم ودلل بكثير من الأحاديث والقصص على أن «هديه ﷺ كان تولية الأنفع للمسلمين، وإن كان غيره أفضل منه في الدين والورع والتقوى»[1]. وأنه [كما جاء في تاريخ الطبري] «طلب للأعمال أهل الجزاء عن المسلمين ولم يطلب أهل الاجتهاد»[2] أي طلب أهل الكفاءة والقوة لا أهل الاجتهاد في العبادة.

وتحتوي السيرة على قصص كثيرة توضح كيف أن هذه السياسة كانت مدهشة وغير مفهومة للناس في ذلك الزمان، فعندما اختار النبي ﷺ أحد أصحابه ليعطيه سيفه يوم أحد ورفض طلب الزبير رغم أنه سبق إلى الطلب [وهو من هو دينا وكفاءة وقرابة] وأعطاه لأبي دجانة، - أدهش ذلك الحواري رضي الله عنه، وجعله يجد في نفسه، حتى قال: «والله لأنظرن ما يصنع» فلما رأى أعاجيب ما صنع قال الله ورسوله أعلم[3]. وفي غزوة قضاعة عاد عمرو بن العاص رضي الله عنه يسأل النبي ﷺ عن أحب الناس إليه، بعد أن ولاه القيادة على كتيبة فيها الصفوة الكبار، فلما أجابه النبي ﷺ عرف أن هؤلاء هم الأحب، لكن الاستعمال له معايير أخرى[4]، فقد أرسله إلى أخواله لأنهم أقرب انقيادا إليه.

ولا تقتصر الكفاءة الإدارية للنبي ﷺ على حسن الاختيار ووضع كل من أصحابه في مكانه، وإنما تتعدى ذلك إلى دقة المتابعة والتأديب على الخطأ، والتشجيع وإثارة التنافس المحمود، وإقالة عثرات الكرام، كي لا يفقد المسلمون شيئا من أسباب قوتهم، والقصص على كل ذلك في السيرة كثيرة جدا، حتى

١- أعلام الموقعين: ١/ ٨٣.
٢- تاريخ الرسل والملوك للطبري، ٤/ ٢٣١..
٣- سيرة ابن هشام: ٣/ ٦٦.
٤- حديث غزوة ذات السلاسل وارتباطها بسؤال عمرو رضي الله عنه متفق عليه، البخاري في المناقب رقم: ٣٣٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة رقم: ٤٣٩٦.

نستطيع أن نقرر أنه كان يستخرج من الجميع أقصى ما عندهم. وعن طريق هذه الصفة حقق النبي ﷺ تخطيطا مرنا، لا يفتقر إلى الإبداع، ولا يُلْزِمُ بخطة تفصيلية مكتوبة، وإنما يختار كفاءات ويحدد لها الأهداف، والقواعد العامة التي تنظم الحركة، مع ترك مساحة كبيرة لإبداعها، فنحن لسنا إزاء ردود أفعال دون خطة، كما أننا لسنا إزاء تفاصيل دقيقة مُقَيِّدَةٍ.

٧- الشمول:

صفة الشمول صفة أساسية من صفات التخطيط؛ ذلك أن مجالات الحياة كلها يتصل بعضها ببعض ويؤثر بعضها في بعض، فلا توجد مشكلة كبيرة في مجال من المجالات إلا وهي تؤثر في غيره، ولا توجد محاولة لتحسين مجال من المجالات دون حاجة للاعتماد على غيره، ومن ثم كان الاهتمام بكل المجالات وإدراجها جميعا في إطار الخطة العامة أمرا لازما. غير أننا عندما نتحدث عن صفة الشمول يجب أن نكون على وعي بأننا لا نتحدث عن محمد ﷺ بوصفه قائدا مخططا فقط بل بوصفه نبيا، فالشمول صفة من صفات الشريعة الإسلامية التي هي وحي السماء، تلك الشريعة التي لا تفرق بين ما هو مادي وما هو معنوي، مدركة علاقة التأثير والتأثر المتبادلة؛ ولذا فهي لا تكلف الإنسان فوق طاقته، كما تجعل من أهدافها تحقيق كل ما من شأنه أن يجعل الإنسان قادرا على واجبات دينه، فتهتم بكل الجوانب التي تعطي القوة للفرد وللمجتمع، ولذا كان «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»[١].

وكان من آثار هذا المنهج الاهتمام بكل جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وبكل دوائر الوجود الإنساني في الأسرة، والجماعة الصغيرة والمجتمع، وبكل مراحله طفلا وشابا وشيخا، وقد أوضحت في دراسة سابقة

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب القدر، رقم: ٤١٦.

كيف اهتم الحديث الشريف بكل هذه الجوانب اهتماما واسعا وعالجها في عدد كبير جدا من نصوصه. وأشير هنا إلى أننا نجد في كل هذه المجالات والدوائر نصوصا توصي بالتفكير في المستقبل البعيد، وصناعة السياق الذي يحافظ على الإنسان ويحقق متطلباته، فالطفل يصان حقه في اسم حسن لا يسبب له ألما عندما يكبر، وفي أم صالحة تحسن تربيته، وفي تعليمه ما يفيده عند الكبر، بل يكون أبوه مدعوا لأن يترك له ما يكفيه إذا مات ولا يتركه عالة على أحد. والشيخ يحفظ له حقه المستقبلي في حياة آمنة عن طريق إيجاب بر الوالدين، فثم من يعوله ويرعاه عند الكبر. وقد قلت ذات مرة في بلد غير إسلامي إن فكرة بر الوالدين تمثل أهم مصدر للضمان الاجتماعي، حيث قد يضمن التأمين المعاصر الاحتياجات المادية للكبار، لكنه لا يمكن أن يضمن الحاجات النفسية لهم، وقد وافق الحاضرون على ذلك متذكرين وفاة آلاف من كبار السن في فرنسا منذ سنوات بسبب موجة حر شديدة حيث لم يوجد من يهتم بهم.

ولا شك أن اطمئنان الإنسان على مستقبله يمثل مصدرا للسلامة النفسية، وللانتماء للمجتمع الذي يعيش فيه ويشجع على خدمته. بل إن غياب فكرة بر الوالدين تمثل سببا من أسباب العزوف عن الإنجاب في عدد من المجتمعات الصناعية، ويمثل هذا العزوف مشكلة كبرى في بعض الدول.

وقد رصد الدكتور إلياس بلكا في دراسته عن المستقبلية في السنة عددا من مجالات الاهتمام بالتخطيط للمستقبل على مستوى الأسرة والمجتمع، كإباحة ادخار القوت سنة أو أكثر حتى يكون ذهن الإنسان متفرغا، وكالعزل بوصفه نمطا من أنماط التخطيط للمستقبل الأسري، وكالأمر بالإحصاء، وهو أداة رئيسية لتمكين من يخطط للمجتمع من التخطيط على أساس وعي سليم بالواقع المخطط له[1]. ولن يتطرق هذا البحث إلى هذه الجوانب التي سبقت دراستها والتدليل

١- قيمة المستقبلية، ص: ١٦ وما بعدها.

عليها، وإنما سيحاول أن يرتاد أرضا جديدة لدراسة صفة الشمول في السنة المشرفة، هي دراسة مدى تنوع الأدوات التي استخدمها النبي ﷺ لتحقيق أهدافه.

ورغم أن صفة الشمول لا تنسب للنبي كما سبق إلا من حيث هو مبلغ لدين عظيم هذه طبيعته فإن ذلك لا ينفي خصوصية العبقرية المحمدية في التطبيق، وفي استخدام كل الإجراءات المناسبة وجميع الأدوات المتاحة، فثمة قدرة عجيبة على استنهاض كل جوانب القوة في الجماعة المؤمنة دون إغفال لأي مصدر من مصادر القوة، وعند هذه النقطة سنكتشف مدى تنوع الأدوات التي استخدمها النبي ﷺ لتحقيق أهدافه. فلم يكن الأمر أمر غزوات فقط . وسوف يفرد المبحث التالي مطلبا للحديث عن الوسائل والأدوات التي استخدمت لتحقيق هذه الأهداف في السنة المشرفة.

المبحث الثالث: المخطط العام للسيرة النبوية المشرفة: الأهداف والواقع والإجراءات.

جرى العرف عندما تقوم الهيئات المسؤولة عن التخطيط الاستراتيجي لدولة من الدول أو لمؤسسة من المؤسسات أن تضع الخطة في مخطط عام يوضح رسالة المؤسسة وأهدافها الجزئية، ويشرح الفرص المتاحة، والعقبات المواجهة، والإجراءات التنفيذية التي تستثمر الفرص، وتعالج العقبات، وتحقق الغايات، بحيث تبدو الخطوات كلها واضحة مترابطة مبررة. وسوف تحاول السطور التالية تقديم هذا المخطط العام للسيرة المباركة، الذي يظهر العلاقات السببية بين القرارات ونتائجها وأسبابها ودورها في تحقيق الأهداف الجزئية والرسالة العامة، وسوف أحاول أن يكون ذلك واضحا دون حاجة إلى إطالة الشرح الذي لا تتيحه ضوابط النشر.

١- الرسالة:

كانت رسالة النبي ﷺ محددة من السماء، وهي تبليغ دعوة الحق، والتمكين لها من النصر والانتشار، بحيث لا يعيق تبليغها عائق ولا يمنع من الاستجابة الطوعية لها مانع .

٢- الأهداف العامة:

استلزم تحقيق هذه الرسالة إنجاز عدد كبير من الأهداف التي تجب من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ومن ثم فهي أهداف يتولد بعضها عن بعض، مثل:

- حماية المؤمنين والدعاة ودعمهم وتوفير احتياجاتهم التي لا تجعلهم تحت ضغط الضرورة.
- إنشاء الدولة التي تتولى هذه الحماية، وتسهم في الدعوة والتحبيب فيها بتقديم القدوة والنموذج.
- تأمين هذه الدولة من أعدائها ورعايتها حتى تشب وتكون قادرة على القيام بوظائفها.
- تجميع المؤمنين تقوية لدولة الإسلام وتسهيلا لحمايتهم. ولذلك كانت الهجرة أول الأمر واجبة.
- تقوية هذه الدولة ودعم قدراتها على المستويات كلها الاقتصادية والعسكرية والعلمية، حتى تكون قادرة على القيام بوظائفها ويستوجب ذلك أهدافا أخرى، مثل: حماية تجارة المدينة، وتعليم أبنائها، وزيادة حلفائها، وتقليل أعدائها من حيث الكم، وتقليل عداوتهم من حيث الدرجة.

- إعداد عدد كبير من العلماء القادرين على فهم الرسالة وتبليغها.
- تطهير البيت من عبادة الأوثان تمكينا للإسلام بين العرب، حيث الكعبة العنصر الأساسي في دينهم.
- إعداد المسلمين لحمل الدعوة، ولمنع قوى الفتنة من ممارسة نفوذها على الناس.

٣- واقع الدعوة: الخارجي والداخلي: الفرص والعقبات:

أ- الفرص:

- معجزة الإسلام وهي القرآن الكريم، وحلاوته التي يصعب مقاومة العرب لها.
- طبيعة الإسلام ومبادئه البسيطة المطابقة للفطرة، ولكثير من المثل الأخلاقية للعرب، ولذلك كان أكثر قادتهم يستحسنون دعوته، ويعيبون على قريش حربها، قبل أن يسلموا.
- طبيعة النظرية الإسلامية في نجاة الإنسان وفلاحه ودرجته في الجنة التي ترتبط بالعمل، مما أدى إلى تفان في العمل كان من نتيجته أن يكون عدد محدود من الأغنياء كافيا لتحمل التبعات، فعثمان ﷺ

ب- العقبات:

- طبيعة التنافس بين القبائل وتنازع الشرف بين بطونها، مما أبعد الملأ بمكة عن الدين، وكان سببا من أسباب النفاق بالمدينة.
- الثقافة الجاهلية وما فيها من وثنية تغيب عنها أفكار إسلامية أساسية مثل فكرة البعث، وتسيطر عليها فكرة تقليد الآباء والأجداد.
- طبيعة العلاقات الدولية وسيطرة الإمبراطوريتين على قطاع كبير من العرب.
- الوضع الاقتصادي بعد الهجرة مباشرة، حيث استولت قريش على أموال المهاجرين، وكانت تحالفاتها

يجهز جيش العسرة، والصديق ﷺ يتصدق بكل ماله، إضافة إلى الروح الاستشهادية والمكاسب التي حققتها.

- علاقة الإسلام بالعرب بوصفه دين إبراهيم عليه السلام، ودينهم الحقيقي الذي حادوا عنه، ولا تزال بقاياه ماثلة في ثقافتهم.

- العصبية العربية التي ترفض أن تسلم القبيلة أحد أبنائها، كما تتيح لكل منهم إجارة من يحب. والعصبية كانت فرصة وعائقا في الوقت نفسه.

- علاقة العرب بالبيت وبقريش التي جعلت من إسلام قريش وتبعية البيت للمسلمين وسيلة لإسلامهم، وقد كانت مكانة قريش عائقا فحولها النبي ﷺ إلى فرصة، فلم يستغرق إسلام العرب بعد إسلامها وقتا طويلا.

- موقع المدينة على طرق التجارة، وموقعها بعيدا عن نفوذ تحاصر حركتهم، فقد كان بعض حلفائها على تخوم المدينة، مثل بني كنانة الذين أرسل إليهم النبي ﷺ أولى الغزوات.

- التاريخ الصراعي بين الأوس والخزرج الذي كاد يشتعل غير مرة.

- اليهود وإصرارهم على مقاومة الإسلام ومحاولاتهم المستمرة لضربه، مع وجودهم بالمدينة، وعدم قدرة المعاهدات على تحييدهم لعدم احترامهم لها. ونجاحهم في توسيع دائرة التحالف ضد المدينة، عن طريق الدعم المالي، والسفارة بين القبائل.

- حركة النفاق، وصعوبة مقاومتها، نظرا لطبيعة وجودها داخل الدولة نفسها، والصلات التي تجمعها بالمسلمين.

- التشويش على الدعوة بمنع وصولها إلى الناس، أو بتوصيل الأكاذيب والافتراءات كما فعل

الإمبراطوريات الكبيرة، وكونها واحة ذات قدرة نسبية على الاستقلال الاقتصادي.

- التنوع الشديد بين المسلمين في الانتماءات القبلية والعرقية، وقد استخدم النبي ﷺ هذا العنصر كثيرا، كما سيأتي.

- نتائج الصراع بين الأوس والخزرج التي أنهكت الفريقين، وما حدث يوم بعاث من فقدان الملأ من قادة المدينة، وانتقال القيادة إلى شباب أكثر مرونة في تقبل الدين الجديد.

شعراء قريش، و ابن الأشرف.

- اتخاذ الإمبراطوريتين المجاورتين موقفا عدائيا مُصرًّا على مقاومة الدين الجديد، تَمَثَّلَ من كسرى في أمره لعامله على اليمن أن يقبض له على النبي ﷺ، ومن قيصر في جمعه الجموع وفتنة من آمن من عرب الروم، مثل قتله لحاكم مَعَان.

- الاتساع الهائل لمدى الرسالة التي تشمل الناس كافة في مقابل قصر فترة التبليغ.

٤- الوسائل والإجراءات:

عندما نتأمل سيرة النبي ﷺ في ضوء التحديد السابق للأهداف، والإمكانيات والعقبات سنجد مثالا رائعا للتخطيط الاستراتيجي الذي يفيد من كل الفرص المتاحة، ويعظمها، ويعالج العقبات بوسائل كثيرة يكتشف مَنْ يدرس علاقة نتائجها بأهدافها كم كانت إبداعية مؤثرة.

فعلى سبيل المثال كان أول ما فعله النبي ﷺ بعد قدوم المدينة أن آخى بين المؤمنين. وقد عالجت هذه المؤاخاة مشكلة كبيرة جدا هي صعوبة الموقف الاقتصادي للمهاجرين الذين تركوا أموالهم وكانت حركتهم مقيدة في البداية بسبب قريش وحلفائها. وإضافة إلى ذلك دعمت المؤاخاة أواصر القربى بين

أفراد المجتمع ، وأعطت الدين مكانته بوصفه محددا لهوية الأمة في تطبيق عملي للقطيعة المعرفية مع الثقافة الجاهلية.

ومن المهم ملاحظة أن المؤاخاة قد أدت كل ذلك دون أن تكون مرهقة للأنصار، ودون أن ترتب حقوقا غير معلومة وغير مقننة وغير منظمة في أموالهم، فقد وزعت المتطلبات توزيعا بالغ السهولة والإمكانية، بل إنها قدمت للأنصار مكسبا كان العربي يحرص عليه دائما، هو الحصول على حليف متميز يعين على النوائب، وهو أمر تدعو ثقافة العربي وخبرته إلى بذل كل شيء من أجله، وقد شجع هذا الوضع دون شك على تلبية متطلبات الجهاد، إذ أوجد لكل مؤمن أخا يَتَوَلَّى مَنْ وَرَاءَهُ إذا تطلب الأمر ذلك. وكان هذا مصدرا من مصادر تمكن المدينة رغم كثرة من حاربها على الصمود دون إنهاك، في مقابل قريش التي نهكتها الحرب رغم كثرة حلفائها ورغم أنها لم تحارب غير المدينة، ولكن مَنْ لِقريش بمثل أحمد ﷺ؟!!

وسوف تحاول الصفحات التالية أن تذكر بعض الوسائل التي استخدمها النبي ﷺ لتحقيق غايته مبرزة دورها في تجاوز العقبات واستخدام الفرص، وموضحة مدى كفاءتها وكفايتها في تحقيق أهدافها. ولا ينفي هذا بطبيعة الحال عنصر البركة والنصر الإلهي، لكن يجب أن نذكر حتى ونحن نتحدث عن التأييد والبركة الدور النبوي في الوصول إلى حالة استحقاق التأييد والبركة، بفهم سنن الله في الأرض، وإعداد المسلمين لكي تكون منطبقة عليهم.

[أ]– الهجرة:

كانت الهجرة أداة مهمة لحماية المؤمنين في بداية الأمر، ثم كانت أداة لحمايتهم ولتكوين أمة الإيمان التي تسعى لنشره والتمكين له بعد ذلك، وقد هاجر المسلمون في البداية إلى الحبشة مرتين. وكان هدف هذه الهجرة حماية المؤمنين،

لكنها أدت دورا مهما في الدعوة بعد ذلك. ويدل اختيار الحبشة على وعي كامل عند النبي ﷺ بالخريطة السياسية العالمية في ذلك الوقت، ليس فقط لاختياره ملكا عادلا، وإنما لاختياره ملكا شبه مستقل، قادر على تنفيذ قراره رغم تحالفه الواضح مع الروم، وقد كان ما توقعه النبي ﷺ من تحقيق الحماية للمسلمين.

وقد أدت هذه الهجرة دورا مهما في الدعوة أولا لأن النجاشي قد أسلم، وثانيا لأن حديثه عن الإسلام قد وصل إلى قريش، وحديث مثله لا شك يزلزل القناعات الوثنية عندهم، وقد كان سببا في إيمان عمرو بن العاص رضي الله عنه بشكل مباشر فيما بعد، وفي المساعدة على إقناع ابني الجلندي: [ملكي عمان] بالإسلام، فأسلما وأسلم قومهما[1]، وثالثا لأن الهجرة مثلت درجة من التشهير بقريش التي لم تتحمل بعض خيرة أبنائها وألجأتهم إلى ترك بلادهم، وهو أمر كان عجيبا عند عدد من عقلاء العرب، تماما كما أحدثت المقاطعة الاقتصادية وعزل بني هاشم في شعب عبد المطلب أثرا نفسيا في نفوس عدد من قادة قريش فسعوا في نقضها. ومثل هذه الآثار النفسية قد تؤدي إلى إيمان من يتعرض لها بشكل مباشر مثلما حدث مع عمر رضي الله عنه بعد ضربه لأخته، وقد تقربه من الإيمان فحسب، وحينئذ لا يرصد أثرها، لكن هذا لا ينفي وجود هذا الأثر، الذي يمثل في حد ذاته خطوة إلى الأمام.

إن إسلام قريش الذي فتح الباب لإسلام العرب عن بكرة أبيهم لا يجب أن يُنْظَرَ إليه على أنه نتيجة لفتح مكة فحسب، وإنما نتيجة لتراكم عدد كبير من العوامل التي شككت قريش في مسلماتها، ودعمت على نحو تدريجي قضية الإيمان، وجعلت عددا كبيرا من أبنائها يؤمن قبل الفتح ويكتم إيمانه، لكن عندما

١- حديث إسلام عمرو بناء على نصيحة النجاشي، رواه أحمد عنه في مسنده، رقم: ١٧١٠٩،بسند حسن رجاله ثقات عدا ابن إسحق وهو حسن الحديث وانظر في استخدام قصة إسلام النجاشي في إقناع ابني الجلندي: ملكي عمان بالإسلام: إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين لابن طولون، الحديث رقم: ٢٣. وزاد المعاد لابن القيم: ٣/ ٦٩٤، وعيون الأثر لابن سيد الناس: ٢ / ٣٣٥. وتفسير المنار،لرشيد رضا: ٧ / ٣.

تغيب التحليلات الدقيقة التي تحدد نتائج مجمل سياسات النبي ﷺ تأخذ الغزوات دورا أكبر من دورها، وَتُنْسَى وسائل كثيرة كان لها في الحقيقة الدور الأكبر في نشر الإسلام والتمكين له.

أما الهجرة إلى المدينة فتمثل حدثا مهما جدا في هذا السياق، فهي حادثة نموذجية توضح خصوصية السيرة، من حيث إنها تَجْمَعُ بين التخطيط الدقيق الذي يأخذ بالأسباب، والعون الإلهي الذي يبارك في الأسباب فتؤتي أكلها، ويمحق أسباب معاندي الحق فلا ينتصرون. وهي كذلك مثال فذ على أهمية الأخذ بالأسباب حتى مع المعرفة المسبقة بالنتائج، وهي المعرفة التي يؤكدها رباط جأش النبي ﷺ في كل الأوقات، وثقته في انتصار اثنين الله ثالثهما، ومع ذلك فقد بذل جهده، وفعل كل ما من شأنه أن يؤدي إلى النجاح، تماما كما حدث يوم بدر فقد كان يعلم النتيجة بعد أن وُعِدَ إحدى الطائفتين وقد أفلتت العير، ولم يبق إلا النفير، ومع ذلك أخذ بكل الأسباب، واهتم بكل التفاصيل.

ولا تتسع المساحة في هذا البحث المبني على الإيجاز للحديث التفصيلي عن الهجرة المشرفة كمثال على التخطيط الفذ، ولذلك فسوف أكتفي ببعض الملاحظات المتصلة بهذا السياق. من هذه الملاحظات أن الإعداد للهجرة قد استغرق فترة طويلة، شَمِلَتْ بيعتي العقبة: الأولى والثانية، وقبلهما استغرق اختيار يثرب فترة عرض النبي ﷺ فيها الأمر على القبائل، وقد كان لهذا العرض أثر مهم لصالح الدعوة فيما بعد، فبعض القبائل اقترب من الموافقة، وبعضها وافق بشروط لم يقبلها النبي ﷺ، وبعضها عرض أن تقتصر حمايته للدعوة على الحماية من العرب فقط، كما فعلت بكر بن وائل فلم يقبل النبي ﷺ كما سبق. وقد كان لهذا بدون شك أثر في قبول القبائل للإسلام بعد ذلك. ويهمنا الآن ملاحظة أن ما اتخذه النبي ﷺ من أسباب للهجرة كان من شأنه أن يؤدي للنجاح، حيث قام

النبي ﷺ بما يلي[1]:

- وضع الخطة على أساس أن يتحرك بعد أن يخف الطلب، فمكث في الغار ثلاثة أيام، وهو أكثر الأمور مناسبة، مراعاة لصعوبة السير في طريق مكشوفة لفترة طويلة مما يجعل الاختفاء فيها مستحيلا.

- تأمين مصدر يأتيه بالمعلومات، هو عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، وتأمين مصدر للطعام غير لافتٍ هو أغنام أبي بكر، التي كان عامر بن فهيرة يريحها ليلا عليهما لينالا حاجتهما من لبنها.

- الحرص على سرية المعلومات، فقد جاء النبي ﷺ أبا بكر في وقت لم يتعود أن يأتيه فيه، وطلب منه إخراج من عنده فقال له: إنما هم أهلك.

- أَمْره ﷺ عَلِيًّا رضي الله عنه بالنوم في فراشه مما ضلل قريشا عنه طوال فترة الليل.

- إسناد جانب من المهمة إلى حكيم موثوق في قدراته هو الصديق الذي جهز المطلوب بكفاءة.

- الاستعانة بأهل القوة والكفاءة؛ حيث استخدم النبي ﷺ عبد الله بن أريقط دليلا، وكان على شركه، كما كان حليفا للعاص بن وائل، غير أنه كان مأمونا ذا كفاءة.

إن تأمل الخطوات السابقة يوضح كيف اهتم النبي ﷺ بكل التفاصيل، وبدقة التنفيذ رغم معرفة النتيجة مسبقا، وكيف أن الخطة كانت مناسبة تماما، ثم كان التوكل على الله الذي يعطي البركة في الأسباب، ويعوض ما تعجز الأسباب عنه، كما يعطل أسباب المعاندين عندما يكون الأمر لازما.

١- انظر عرضا مفصلا لأحداث الهجرة في: الروض الأنف، ٤ / ٦٠ وما بعدها. وانظر ملخصا لأحداثها في: سيرة ابن خلدون، ص: ٢٧، ٢٨. وشرحا للتخطيط بها في: إدارة الأزمات في الإسلام، لسوسن الشيخ ص: ٨٦.

[ب]– الشعر والخطابة:

كان الشعر علم العرب الذي لا علم لهم سواه، وكان ديوان مآثرهم، وسجل حكمتهم، يرفع أناسا ويخفض آخرين، ولذلك كان ظهور شاعر في القبيلة حدثا مجيدا تحتفل به، وتهنئها القبائل عليه؛ ومن هنا مَثَّلَ الشعر أداة لا يمكن لصاحب دعوة في البيئة العربية أن يغفلها، فكان طبيعيا أن يهتم به النبي ﷺ بوصفه أداة للدفاع عن المسلمين، ولنشر مبادئ الدين الجديد، فالشعر بين العرب سريع الانتشار شديد الاستمرار، كما كان الشعراء الجاهليون يرددون في قصائدهم.

ولا شك أن اهتمام النبي ﷺ بالشعر كان طبيعيا بعد أن حاولت قريش أن تبعد الناس عن الإسلام عن طريقه، ولذلك فلا تُنْسَبُ الكفاءة الإدارية للنبي ﷺ لمجرد أنه اهتم بالشعر، فلم يكن ثَمَّ عربي لا يهتم به، ولكن لأمر آخر يزيد عما هو معتاد، هو الإدارة المتميزة للمعركة الشعرية التي انتهت بانتصار الإسلام، وساعدت على انتشاره بين العرب.

والعنصران الإداريان اللذان استخدمهما النبي ﷺ في إدارة هذه المعركة هما التشجيع وإسناد الأمر لأهله، أما التشجيع فقد أكثر منه، ومن ذلك قوله لحسان: «هاجهم أو اهجهم وجبريل معك»[1]، وقوله عن ابن رواحة: «لكلامه أشد عليهم من وقع النبل»[2]، وقوله لكعب: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه»[3] إلى آخر هذه النصوص وهي كثيرة. وأما إسناد الأمر لأهله فقد اختار النبي ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه فحل شعراء عصره ليكون المتحدث الرسمي باسم دولة الإسلام، رغم الأهمية الدينية لعبد الله ابن رواحة وكعب بن مالك رضي الله عنهما، فأسند الأمر

١- متفق عليه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، البخاري، في كتاب بدء الخلق، رقم: ٢٩٧٤، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، رقم: ٤٥٤١.

٢- رواه النسائي والترمذي من حديث أنس رضي الله عنه، وقال هذا حديث حسن صحيح. واللفظ للنسائي، الترمذي في كتاب الأدب، رقم: ٢٧٧٤، والنسائي في مناسك الحج، رقم: ٢٨٤٤.

٣- رواه أحمد من حديث كعب بن مالك رقم: ٢٦٥٤٠، بإسناد متصل رجاله ثقات على شرط الشيخين البخاري ومسلم، وهو عند ابن حبان في سننه، رقم: ٥٩٠٥، بإسناد حسن.

لمن هو أقدر عليه، وقد بز حسان ﷺ قرناءه، وملأ شعره بثقافة الإسلام الجديدة وَعَرَّفَ بِهَا على نطاق واسع. وليس معنى اختيار النبي ﷺ لحسان ﷺ أن الأمر قد اقتصر عليه، فقد شارك فيه شعراء المسلمين جميعا، غير أن حسان كان صاحب الوظيفة الرسمية، وقد أعانه النبي ﷺ بالصديق رضي الله عنه ليدله على مثالب قريش مما جعلهم يتعجبون لما سمعوا شعره، وكان الصديق رضي الله عنه أعلم الناس بأنساب العرب.

ومن الأخبار التي تؤكد الدور الكبير الذي اضطلع به الشعر والخطابة في ترجيح كفة المسلمين قصة وفد بني تميم، فقد جاؤوا يفاخرون النبي ﷺ بشاعرهم وخطيبهم، فأمر حسان فأنشدهم، وأمر قيس بن ثابت فخطبهم، فقالوا «إن هذا الرجل لَمُؤَتًّى لَهُ، خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا...، فلما فرغ القوم أسلموا»[1] والقصة غنية عن التعليق.

[ج]– توظيف العلاقات الاجتماعية للمسلمين وحلفائهم:

تميز مجتمع المدينة بأنه مجتمع شديد التنوع، فهو مجتمع يجمع الدين بين أعضائه لا العصبية، ومن ثم فقد ضم أعضاء من كل القبائل ومن أكثر البلاد، فبلال حبشي، وصهيب رومي، وسلمان فارسي، وقد رأينا أن صفة المشاورة قد صهرت خبرات هؤلاء جميعا في بوتقة واحدة لتكون عصارة القوة للمجتمع المدني، ونضيف هنا أداة أخرى استخدمها النبي ﷺ في تحقيق مصالح كثيرة هي توظيف العلاقات الاجتماعية لكل أبناء المجتمع وللمتحالفين معهم لصالح خدمة الإسلام والمسلمين، وتتضح هذه الصفة في مواطن كثيرة جدا، ففي غزوة أحد استطاع النبي ﷺ أن يُفَوِّتَ على قريش فرصة مهاجمة المدينة بعد الخسارة الكبيرة التي حققوها في جيش المسلمين حين انحاز إلى صخرة عالية وظل يقاتلهم منها

١- رواه ابن إسحق مرسلا،سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٦٧. ودلائل النبوة للبيهقي، جُمَّاع أبواب غزوة تبوك، رقم: ٢٠٧٠. وانظر تاريخ دمشق لابن عساكر، حرف الباء من اسمه بشر، الحديث رقم: ٣٨٧٩.

حتى المساء فشغلهم عن فكرة مهاجمة المدينة. غير أنهم أرادوا أن يتداركوا الأمر بعد ذلك، وشعروا أنهم لم يحققوا شيئا ذا قيمة؛ لأنهم لم يهاجموا المدينة، وعندئذ خرج النبي ﷺ لملاقاتهم في اليوم الثاني بالمسلمين بعدما أصابهم القرح، حتى تحامل كثير من الجرحى على نفسه وخرج جريحا، لكن النبي ﷺ في حقيقة الأمر لم يكن يريد قتالا، فقد كان مشفقا على المسلمين، فاستخدم معبد الخزاعي لإثناء قريش عن تكرار المحاولة، وكانت خزاعة أميل للنبي ﷺ حتى من كان مشركا منها، فقابلهم وخوفهم من المسلمين تخويفا كبيرا، حتى عادوا إلى مكة مسرعين، وكانوا قد عزموا على مهاجمة المدينة[1].

وفي موقعة الأحزاب لما آمن نعيم بن مسعود رضي الله عنه، وجاء إلى النبي ﷺ في موقف عصيب وقد غدرت قريظة، قدر النبي ﷺ أنه رجل واحد وأن قوته لن تضيف إلى المسلمين كثيرا، بينما استخدام علاقته بقريظة وقريش قد يُخَذِّلُهُمْ عن المسلمين، فوظفه لإنجاز هذه المهمة، فقام بها خير قيام، على نحو ما هو معروف مما لا يتسع حجم البحث لسرده[2].

والنماذج المشابهة لهذين المثالين كثيرة فقد كان النبي ﷺ يراعي على نحو دائم في اختيار مبعوثيه خصائصهم القبلية التي تخفف دون شك من مدى معاندة من أرسلوا إليهم، فعمرو بن العاص رضي الله عنه يقود الجيش المرسل إلى قضاعة فهم أخواله وفي الثقافة العربية: «ابن أخت القوم منهم»كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم حنين[3]، والمغيرة بن شعبة يذهب لهدم اللات[طاغية ثقيف]؛ لأنه ثقفي وانقيادهم له أيسر وأسهل، وهكذا كان النبي ﷺ يحيد العصبية، أو يضعفها إلى أكبر حد ممكن، وقد كانت العصبية السبب الأساسي في رفض العرب للإسلام، وفي إضعاف آثار

١- سيرة ابن هشام: ١/ ١٠١.

٢- سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٢٩.

٣- متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه، رواه البخاري، في كتاب المناقب، رقم: ٣٢٦٥، ومسلم في كتاب الزكاة، رقم: ١٧٥٤.

العصبية دعم لفرصة إسلامهم، وفي تحييدها تجاوز لواحدة من أكبر العقبات.

[د]– المعاهدة والتحالف والسفارة:

لم يترك النبي ﷺ أداة مشروعة لخدمة هدفه دون أن يستخدمها، ومن هذه الأدوات التحالف والتعاهد والموادعة، والسفارة عن طريق رسل أكفاء أدخلوا دولا كالبحرين وعمان في دولة الإسلام. لقد بدأ النبي ﷺ إجراءات إقامة الدولة بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، والمؤاخاة عبارة عن تحالف كما ذكر أنس رضي الله عنه في حديث البخاري، لكنه تحالف من نوع خاص. وهو إجراء مهم لم يكن ممكنا أن يحل غيره محله أبدا كما سبق، ثم عاهد النبي ﷺ اليهود في وثيقة فذة تدعم الوضع الداخلي، ووفي لمن حافظ على عهده منهم حتى غدر، فغير سياسته معه، ثم بدأ في إرسال البعوث لتجوب المنطقة المحيطة بالمدينة، وتوادع الكثير من قبائلها، وكثير من هذه العهود ظل ساريا حتى دخل أهله في الإسلام، نحو عهد بني ضمرة الذي عقد في غزوة ودان بُعَيْدَ الهجرة، والذي حافظ قائدهم: مخشي بن عمرو الضمري عليه حتى في ظل ما حدث للمسلمين بعد أحد[1].

ولا شك أن أكثر العهود أهمية كان عهد الحديبية الذي حَيَّدَ قريشا فلم تعد تصد عن الدين، ومنح فرصة لأن يستمع الناس ويتفكروا، فدخل في دين الله في عامين أكثر ممن كان فيه، كما لاحظ الزهري، قال: «ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس كلّهم بعضهم بعضا، فالتقوا وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر»[2]. وتتأكد ملاحظة الزهري هذه إذا علمنا أن عدد المسلمين في فتح مكة كان سبعة أضعاف عددهم في الحديبية.

١- سيرة ابن هشام: ٣/ ٢١٠.

٢- تاريخ الطبري، ٢/ ٦٣٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١٦/ ٢٦٥. وسيرة ابن هشام: ٤/ ٢٩١.

وصلح الحديبية نستطيع أن ننسبه إلى جهد النبي ﷺ بقدر ما نستطيع أن ننسبه إلى الوحي، يخص الوحي فيه المنع من دخول مكة عنوة، سواء كان هذا منعا مباشرا عن طريق الوحي، أو كان تأويلا لموقف القصواء بعد أن توقفت، فقال النبي ﷺ: حبسها حابس الفيل. أما إجراءات التفاوض وشروط التعاهد فكانت اجتهادات للنبي ﷺ بدءًا من تحديد هدفه الذي صرح به، وهو تحييد قريش حتى تُخَلِّي بينه وبين العرب، وصولا إلى خطة التفاوض وإجبار قريش على عقد الاتفاق، بعد تقويم فذ للشروط التي بدت قاسية على المسلمين، غير أنها لم تكن كذلك في حقيقة الأمر، كما اكتشفوا فيما بعد.

إن الحقيقة التي لا تشيع بين الدارسين هي أن قريشا قد قبلت هذا الصلح مضطرة بعد أن أحدث النبي ﷺ أثناء المفاوضات شرخا هائلا في تحالفاتها لم يكن جبره ممكنا، إن الدارس لعلم التفاوض يقف الآن معجبا بل مشدوها أمام موقف النبي ﷺ عندما أرسلت قريش (الحُلَّيْسَ): [سيد الأحابيش] ليلقى النبي ﷺ، فأمر الصحابة أن يستقبلوه بالهدي؛ لأنه من قوم يعظمون الهدي، فما كان من الرجل إلا أن عاد رافضا لموقف قريش منسحبا من التحالف، قائلا: "أبى الله أن تحج لخم وجذام وكندة وحمير ويمنع ابن عبد المطلب. هلكت قريش، إن القوم إنما أتوا عمارا"[1]. وكذلك فعل عروة بن مسعود بعد أن جاء بمن أطاعه من ثقيف لنصرة قريش، فإذا به يعود من عند رسول الله ﷺ منسحبا من التحالف قائلا: «رأيت الهدي معكوفا وما أراكم إلا ستصيبكم قارعة»[2]. لقد فَكَّ النبي ﷺ تحالفات قريش، وَشَهَّرَ بها، فألجأها إلى عقد هذا الاتفاق، الذي كان كما سبق الوسيلة الأهم لإسلام العرب.

١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، في شرح ابن حجر لحديث البخاري رقم: ٢٥٢٩. والنص رواه ابن إسحق مرسلا. سيرة ابن هشام: ٤ / ٢٨٥.

٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، في شرح ابن حجر لحديث البخاري رقم: ٢٥٢٩. وقد عزاه إلى مرسل علي بن زيد عند ابن أبي شيبة. ووجدته مرسلا في مسند أبي يعلى الموصلي، ٣/ ١٧٤، الحديث رقم: ١٥٩٨

وهكذا كانت معاهدات النبي ﷺ أداة فاعلة من أدوات الدعوة إلى الله عز وجل حققت أهدافا كثيرة منها المساهمة في حماية المدينة وتقليل أعدائها، ومنها تحقيق مصالحها الاقتصادية ومحاصرة قريش، وتأمين حركة الدعاة بشكل نسبي، والمساعدة النسبية أيضا في حرب أعداء المسلمين.

[هـ] (الدفع بالتي هي أحسن): المبادرة النفسية تجاه العدو:

بطبيعة الحال لا نستطيع أن نزعم أن هذه التقنية إنجاز نبوي، فهي أمر إلهي قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، ومع ذلك فإن التطبيق النبوي الفذ لسل سخائم القلوب ووقف حالة العداء بل تحويلها إلى حالة ود يظهر عبقرية نادرة تحسن استغلال كل المواقف والإمكانيات، وتؤكد وعيا رائعا بطبائع الأفراد وعادات المجتمع. وقد كانت هذه الأداة جزءا مهما من سياسة النبي ﷺ للعرب ووسيلة من وسائل دعوتهم إلى الإسلام.

ومصطلح المبادرة النفسية مصطلح معاصر في دراسة الأبعاد النفسية في السياسة الدولية، صاغه بعض الباحثين في علم النفس الاجتماعي في دراسته عن إدارة كندي للحرب الباردة والصراع الأمريكي السوفييتي حول الصواريخ الكوبية، وهي الأزمة التي كادت تؤدي إلى حرب عامية ثالثة، حيث بدأ كندي بشكل مفاجئ في استخدام خطاب تصالحي يحمل تحية للسوفييت وإكبارا لهم، ثم أتبعه ببعض الخطوات الرمزية التي لم تكن تحمل أي تنازل حقيقي، وقد لاحظ الباحث أن كل خطوة كان يتخذها الرئيس الأمريكي كانت تُتْبَعُ بخطوة سوفيتية أكثر جدية، حتى انتهى المطاف إلى أن أصبح الوضع بعد الأزمة أفضل منه قبلها، ونتج عن ذلك أن وقعت أول اتفاقية لخفض التسلح(١).

١- أميتاي أتزوني: تجربة كندي: ضمن: سيكولوجية العدوان، ترجمة عبد الكريم ناصيف: ص: ٣٥.

وحين ننظر في السيرة النبوية سنجد أفضل استخدام على مدار التاريخ لفكرة محاولة اقتلاع العداوة من قلوب الأعداء، وتليين قلوبهم، وسل سخيمتهم بالدفع بالتي هي أحسن، وقد كانت هذه التقنية جزءا أساسيا من السياسة النبوية التي أوصلت للجميع رسالة واضحة مفادها: أنه لا داعي لاستمرار عداوة النبي ﷺ. ومن هنا تعددت مظاهر هذه المبادرات النفسية تجاه الخصوم والأعداء.

وتحتاج هذه المظاهر إلى أن تفرد بدراسة مستقلة لكثرتها وكثرة نتائجها. من هذه المظاهر: **العفو**، وقد صرح ثمامة بن أثال في حديث البخاري أن العفو أحال كرهه للنبي ﷺ حبا في ساعة واحدة، ومنها: **العطاء**، وقد قال صفوان «أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الخلق إلي فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي»[١]، ومنها: **الإهداء**، وقد أهدى النبي ﷺ وقبل الهدية، وتوسع في ذلك، ومنها: **المصاهرة**، وقد صاهر النبي ﷺالحارث بن ضرار فأسلم وقومه، وصاهر أبا سفيان، ولا شك أن ذلك قد خفف من عداوته وسهل إسلامه، وقد كان إسلامه مهما لإسلام قريش. ومنها: **إكبار الناس ومراعاة الحيثيات الاجتماعية لهم**، وقد جعل لأبي سفيان ما يفخر به عام الفتح، بَدَلا من أن يُصَغِّرَه، مما جعل الجميع يدرك أنه لا خسارة في الإسلام، كما صلى النبي ﷺ على ابن سلول تألفا لقومه، وهو يعلم أن ذلك غيرُ مُغْنٍ عنه شيئا، ولذلك رُوِيَ عنه ﷺ أنه قال: «وما يغني عنه قميصي من الله. وإني لأرجو أن يسلم بذلك ألف من قومه»[٢].

وبشكل عام أولى النبي ﷺ الجوانب النفسية للصراع أهمية كبرى، ليس فقط بتألف الأعداء، وإنما بتيئيسهم من أن يكسروا إرادة المسلمين، حتى إن هذا الغرض كانت من أجله تشريعات خاصة كتشريع الرَّمَل في الطواف، بل

١- رواه الترمذي، في كتاب الزكاة رقم: ٦٠٢، بإسناد صحيح.
٢- فتح الباري، شرح حديث البخاري: "أتصلي عليه وقد نهاك ربك" كتاب التفسير، رقم: ٤٣٠٢. وتحفة الأحوذي شرح حديث الترمذي رقم: ٣٠٣٣: "أليس قد نهى الله أن تصلي على المنافقين"، وأصل الحديث رواه الطبري مرسلا من طريق سعيد عن قتادة، ١٤ / ٤٠٩، الحديث رقم: ١٧٠٥٨.

غزوات كغزوة حمراء الأسد بُعَيْدَ أحد. وكذلك بدعم صمود المسلمين عن طريق المساعدة النفسية والتبشير إذا ادلهمت الأمور. ويلاحظ القارئ المدقق للسيرة أن أكثر معجزات النبي ﷺ وبشاراته إنما كان هدفها التثبيت في الأوقات الصعبة كيوم الخندق، حيث كسر لهم بنفسه الصخرة الكأداء التي لم يقدروا عليها فضربها فصارت كثيبا مهيلا[1]، وبشرهم بالفتوح كلها، وأطعمهم جميعا من شويهة لجابر رضي الله عنه[2].

[و]– البعثات الدعوية، والغزوات:

كان النبي ﷺ يعرف جيدا أن سلاحه الأمضى في الدعوة إلى الله هو كتاب الله وما فيه من حجج ومعجزات، ومن ثم كان هدفه هو أن يُخَلَّى بين الناس وبين كتاب ربهم، فيزيل العقبات التي تقف في طريقه سواء كانت خارجية بالمنع المباشر والتشويش[3] عليه، أو داخلية من عصبية مفرطة وعناد جاهلي سببه التنافس بين القبائل، ومن ثم كان توصيل القرآن وشرحه للناس هدفا كبيرا يسعى لتحقيقه بكل الوسائل، ولذا كان يقبل كل العروض التي تُقَدَّمُ لإرسال من يشرح الإسلام كما فعل مع عضل والقارة، ومع أبي براء سيد بني عامر. وقد تسبب ذلك أحيانا في الغدر ببعض المسلمين، وليس هذا الغدر ناتجا عن قلة احتياط النبي ﷺ، وإنما عن شدة الحقد على الإسلام وشدة العداوة له التي أخرجت العرب عن طَوْرِهِمْ وعاداتهم، فها هي قريش تصد المسلمين عن البيت وما كان أحد يصد عنه، وها هو عامر بن الطفيل يَخْفِرُ جِوَارَ عمه أبي البراء: [ملاعب الأسنة، سيد بني عامر] ولم يكن جوار من هو أقل من أبي براء يُخْفَرُ أبدا، ومن هنا حاول أبو البراء قتل عامر، ثم انتحر، فلم يكن ما فعله عامر متوقعا، بل لم يكن متخيلا وفق عادات العرب.

١– رواه البخاري من حديث جابر رضي الله عنه، كتاب المغازي: رقم: ٣٧٩٢.
٢– حديث شاة جابر متفق عليه، البخاري في المغازي رقم: ٣٧٩٣، ومسلم في الأشربة، رقم: ٣٨٠٠.
٣– فصيحة كما ذكر الجوهري، وإن قال أبو منصور إنها من كلام المولدين، لكنها معبرة في موقعها.

ولأنه لم يكن من الممكن أن يتوقف النبي ﷺ عن محاولة إرسال الدعاة، فقد اعتمد بعد ذلك على الفرق المسلحة التي تخرج للدعوة ولا تؤمر بقتال، لكنها تكون قادرة على الدفاع عن نفسها إذا هوجمت، استجابة لهذا الوضع الجديد الذي يوجد فيه من لا يرقب في المسلمين إلا ولا ذمة، على خلاف ما اعتادت عليه العرب من قبل، وقد كان لهذه البعوث دور كبير في الدعوة إلى الإسلام.

ومن أنجح هذه البعوث سرية علي رضي الله عنه إلى همدان فقد آمنت همدان كلها دون قتال وفتح ذلك الطريق إلى إسلام اليمن كلها دون قتال، وقد كانت خطة النبي ﷺ التي خطها للجيش الداعي إلى الله خطة فذة، إذ أمرهم ألا يبدؤوا القتال، وألا يقاتلوا حتى يُقْتَلَ منهم، فيكون قتالهم قصاصا واجبا، ثم ألا يقاتلوا للقصاص حتى يبينوا لأعدائهم أنهم سيتركون حقهم في القصاص إذا أسلموا، وسيكون لهم بعد إسلامهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. وهذه سِيَاسَةٌ مؤكدة النتائج.

جاء في الثقات لابن حبان أن عليا رضي الله عنه ذهب قائدا على هذه السرية مكان خالد رضي الله عنه الذي ظل يقودها ستة أشهر، وأنه «قال يا رسول الله: كيف أصنع بهم؟ قال إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلا، فإن قتلوا منكم قتيلا فلا تقاتلوهم حتى تريهم إياه، ثم تقول لهم: هل لكم إلى أن تقولوا لا إله إلا الله؟ فإن قالوا نعم فقل: هل لكم إلى أن تصلوا؟ فإن قالوا نعم فقل لهم: هل لكم إلى أن تخرجوا من أموالكم الصدقة، أي الزكاة، فإن قالوا نعم: فلا تبغ منهم غير ذلك. والله لأن يهدي الله على يديك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»[1]. وتلك خطة جديرة بأن تكتب بماء الذهب.

١- ابن حبان: الثقات، الحديث رقم ٢٦، آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع. حوادث السنة العاشرة من الهجرة. شرح السير الكبير للسرخسي: ١ / ٨٧. والنص بتمامه في مغازي الواقدي، ٣/ ٥٨٠.

أما الغزوات القتالية فقد كان لها أدوار مهمة، منها حماية المدينة ممن قصد مهاجمتها، مثل أحد والأحزاب، أو ممن هدد بغزوها، مثل غزوة دومة الجندل، أو تعاون مع أعدائها مثل غزوة قريظة، ومنها حماية اقتصاد المدينة ممن تعرض له، مثل غزوة ذي قرد، وغزوة زيد بن حارثة إلى جذام، بعد أخذهم تجارة دحية، ومنها إنهاك قريش وحصارها، حتى تخلي بين الناس والإسلام، وعلى رأس غزوات هذا القسم تأتي بدر الكبرى. وأخيرا استهدف النبي ﷺ حماية من يسلم من أن يفتن في دينه وهو في بلده، وكان ذلك في آخر الأمر، بعد أن قويت الدولة، بينما كان الواجب في أول الأمر على من يسلم أن يهاجر. وأهم الغزوات المرتبطة بهذا الهدف غزوتا مؤتة وتبوك، وبهما بدأ غزو عرب الروم.

وتؤكد الغزوات الطابع الاستراتيجي للفكر النبوي، وقد سبق الدكتور حسين مؤنس لشرح ذلك والتدليل عليه، حين انطلق من ملاحظة صائبة مفادها قلة عدد الغزوات، وعظم النتيجة التي ترتبت عليها، وهي ملاحظة صحيحة تتأكد أيضا في ضوء ما أثبته محمد عمارة من قلة عدد القتلى والشهداء الذين بلغوا في كل الغزوات [٣٨٦] ثلاثمئة وستة وثمانين من الجانبين، باستثناء الذين حكم عليهم بالإعدام من بني قريظة؛ نتيجة ثبوت تهمة الخيانة العظمى للدولة أثناء الحرب[١].

وقد عزا الدكتور حسين مؤنس هذه النتيجة إلى سببين جعلهما الله بتوفيقه مصدرا لذلك النجاح[٢]:

- الأول: هو إدراك النبي ﷺ لطبيعة التنظيم السياسي العربي قبل الإسلام الذي كان يضم كل مجموعة من القبائل في حلف كبير يدافع عن منطقة نفوذها حتى لو كانت متصارعة فيما بينها، وقد كان من نتيجة ذلك الوضع

١- انظر: الإسلام والآخر لمحمد عمارة: ص: ٦٥، وهو يعتمد على الدرر في المغازي والسير لابن عبد البر.
٢- أطلس تاريخ الإسلام: ص: ٩٨-١٠٦.

عدم الحاجة إلى حرب كل القبائل العربية لإخضاعها، حيث يكفي أن تخضع بعض القبائل الرئيسية في الحلف لتنضم إليها تلقائيا كل قبائله، وقد قدم أمثلة توضح كيف بنى النبي ﷺ خطته على هذا الأساس وشرحها، على نحو يوضح كيف أمكن أن يخضع عدد محدود جدا من الغزوات عددا كبيرا جدا من القبائل.

- الثاني: هو إدراك النبي ﷺ للطبيعة الاقتصادية في شبه الجزيرة التي جعلت من طرق التجارة شرايين حياة للعرب؛ حيث كانوا يعتمدون عليها في استيراد سلع أساسية لا تقوم حياتهم بدونها، وحين رسم الدكتور حسين مؤنس طرق التجارة وحدد مواضع الغزوات، أصبح واضحا كيف أنهكت الغزوات أعداء المدينة على نحو صعب معه عليهم استمرار الصراع. لقد استبان للنبي ﷺ الدافع الاقتصادي للكفر، فحول هذا الدافع تحويلا عبقريا إلى فرصة؛ حين أثبت لهم أنهم إن لم يتبعوا الهدى معه يُتَخَطَّفُوا من أرضهم، وليس عكس ذلك كما زعموا، بينما يعني اتباعهم الهدى الأمن وحرية الحركة للجميع.

ورغم الأهمية الكبيرة للسببين المذكورين، فليس صحيحا أن ننسب للغزوات الدور الرئيس في إسلام العرب، فلم تكن الغزوات سوى وسيلة من وسائل كثيرة، ولولا كونها جزءا من خطة عامة لما حققت كل ذلك النجاح، فقد أسلم العرب جميعا لا قبائل الحجاز فقط في فترة قياسية، ولم تكن القبائل الشمالية تحت ضغط تجاري أو عسكري، وقد أسلمت عبد القيس من ربيعة وبينهم وبين النبي ﷺ كفار مضر، لا يصلون إليه كما قالوا إلا في شَهْرٍ حَرَام، وقد كانت البحرين تابعة للفرس وهم أقرب إليها من المسلمين، وقد كانت لدى الكثير من أحلاف العرب فرصة للمقاومة لسنوات عدة، لاسيما إذا تحالفوا مع أي

من الإمبراطوريتين المجاورتين اللتين كانتا سترحبان بذلك دون شك، أو هاجروا إلى أماكن مناسبة وفق خطة الأعشى التي ذكرها لكسرى في قصيدته الدالية، شارحا كيف أنها تمنعه من السيطرة عليهم، وهي أنهم ليسوا مثل إياد التي احترفت الزراعة فاضطرت للإقامة، وإنما مالهم في إبلهم التي ترحل معهم، لكن أيا من ذلك لم يحدث، لأن الغزوات كانت في حقيقة الأمر جزءا من استراتيجية عامة للدعوة جعلها الله بكل عناصرها أسبابا لإسلام العرب.

لقد أدار النبي ﷺ خطته مع خصوم الدعوة على نحو أوصل للجميع رسالة أدت إلى إسلامهم، تحتوي هذه الرسالة على معلومتين أساسيتين:

- الأولى أنهم لن يستطيعوا الانتصار على المسلمين في الميادين كافة، بل لا قبل لهم بهم، وقد كان هذا المعنى حجة أبي سفيان رضي الله عنه عندما طالب قريشا بالاستسلام يوم الفتح. وحجة وفد ثقيف عندما أوصوا قومهم بمبايعة النبي ﷺ.

- والثانية أنه لا مصلحة لهم في مقاومة الإسلام، بل إن مصلحتهم في الانضمام إليه، وتلك كانت الحجة الأهم في إعادة عدد كبير من صناديد العرب إلى بيت الإسلام، وضمهم لكتيبته، ووَأد فكرة الاستعانة بغير العرب كما حدث مع عدي بن حاتم، ومع صفوان بن أمية، ومع عكرمة بن أبي جهل، فالحجة التي استخدمها محاوروهم جميعا لإعادتهم بعد أن قرروا الهروب هي أنهم لن يضيعوا في كنف النبي ﷺ أبدا، وهو أحلم الناس، وأوصل الناس، حتى إذا كان ملكا فحسب، فملكه ملكهم، فما الداعي لحربه. وقد آمنوا جميعا لما تخلصوا من غشاوة العناد، وحسن إيمانهم، وأبلوا بعد ذلك بلاء عظيما لصالح المسلمين. لا يشك أي دارس للعلوم السياسية أن تولي خالدا لقيادة جيش المسلمين بمجرد إسلامه في إطار سياسة الاهتمام بالكفاءة بعد ما كان

منه في أُحُدٍ قد مَثَّلَ رسالة لصناديد العرب أن هلموا إلى الإسلام، حيث لن يضيع على ذي فضل فضله، وحيث لا انتقام من أحد بسبب ماضيه فالإسلام يَجُبُّ ما قبله، وربما كان العفو عن وحشي أقوى من ذلك أثرا، فلا جرم أكبر من جرمه، ولا قيمة له يُتَأَلَّفُ بسببها. ولا قرابة له كقرابة الطلقاء. لقد غَيَّرَ النبي ﷺ قواعد الحرب والسلم عند العرب كما جاءت في أمثالهم، [حرب مجلية أو سلم مخزية]فلم تعد الحرب مُجْلِيَةً، ولم تعد السلم مُخْزِيَةً، بل أصبحت حالة السلم نافعة مُكْرِمَةٌ هادية، وهذا هو السبب الحقيقي في النجاح.

لقد أدرك النبيﷺ أسباب عدم إيمان العرب وعالجها، وأثبت لهم على نحو عملي أن الإسلام خير لهم في الدنيا والآخرة، وأنه هو دينهم الحقيقي، كما أن النبي ﷺ حظهم من النبيين، بل وضعهم [بعد تطهير البيت من الأوثان] في وضع لا يستطيعون فيه أن يمارسوا دينهم إلا إذا كانوا على الإسلام.

والحق أن غزوات النبي ﷺ شأنها شأن السيرة كلها تحتاج إلى أن تعاد كتابتها بشكل غير خطي، فلا تكتب الأحداث وفق زمنها، بل وفق هدفها وأسبابها، بينما تدرس التفاصيل في علاقتها بالأسباب والأهداف والنتائج وفي هذه الحالة ستتأكد نتائج كثيرة جدا، أذكر منها في هذا السياق الآتي:

١- أن الغزوات لم تكن ردود فعل مباشرة بل حددتها طبيعة الظروف والأهداف، فعلى سبيل المثال نجد النبي ﷺ يؤخر كثيرا غزو بني لحيان رغم فداحة جرمهم الذي سبب له ألما شديدا، كما أخّر الرد على يهود خيبر رغم خطورتهم بعد أن انتقل إليهم قادة بني النضير، ورغم دورهم في معركتي أحد والأحزاب، ومع ذلك أخر النبي ﷺ موضوع إخضاع خيبر حتى يحين الظرف المناسب؛ إذ لم يكن الخروج إليهم ممكنا قبل أن يأمن قريشا، فلما كان صلح الحديبية جاء دور خيبر، حتى يُؤَمِّنُ النبي ﷺ أيضا ظهره عندما يخرج لعمرة القضاء.

وفي مقابل ذلك التأخير نجده ﷺ يستجيب في بعض الحالات استجابة سريعة على ما قد يبدو بسيطا، نحو خروجه المبكر جدا إلى دومة الجندل في أقصى الشمال عندما سمع أن ملكها يفكر أن يغزو المدينة فخرج إليه وعبأ كل المسلمين، وذلك نظرا لحساسية جبهة الشمال من حيث وجود أعداء أقوياء كخيبر من ناحية، ومن حيث وجود ملوك غسان المتحالفين مع الروم والمتوعدين للمدينة من ناحية ثانية، ومن حيث إن التهديد التاريخي والواقعي للمدينة كان من الشمال؛ فمنذ فترة طويلة كانت السيطرة على طرق التجارة إلى اليمن هدفا إمبراطوريا. ورغم أن الحجاز ظل غالبا بعيدا عن السيطرة المباشرة، بسبب الطبيعة الصحراوية لطرقه، غير أنه كانت هناك إمكانية للوصول إلى المدينة من الشمال، وهذا ما أدركه من قبل الملك البابلي نبونيد، ومهد له وبدأ في تنفيذه، حين قرر أن يسيطر على طرق التجارة وأن يصل إلى اليمن فالمحيط برا، فغزا شمال الحجاز، ونقل عاصمة ملكه إلى تيماء، ثم توغل في شبه الجزيرة، وأقام مجموعة من الممالك الموالية له، نقل إليها عددا من يهود السبي البابلي بفدك وخيبر ووصل باليهود إلى يثرب قبل الأنصار[1]. ورغم أن نبونيد لم يجاوز يثرب جنوبا، إلا أنه قدم سابقة مهمة في حركة الجيوش الكبيرة من الشمال إلى المدينة، وسهل هذه الحركة عن طريق إعمار هذه الحواضر على الطريق، وزرع اليهود فيها.

إن استيلاء هذا الملك على دومة الجندل وتيماء وخيبر وفدك ويثرب، ونقله يهود السبي البابلي إليها أمر مؤكد تاريخيا بعد اكتشاف نصوص من عهده تشرح ما قام به، وتوضح الطريق التي سلكها، وهي كما يقول الدكتور جواد علي في كتابه المهم عن تاريخ العرب قبل الإسلام عين طريق حجاج الشام إلى مكة[2]. وفي ضوء هذا نفهم سبب اهتمام النبي ﷺ الكبير بجبهة الشمال فقد كانت من

١- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١/ ٣١١.
٢- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١/ ٣١٤.

الناحية العسكرية الجبهة الوحيدة التي يمكن أن يأتي منها خطر وجودي بالمعنى الاستراتيجي للخطر الوجودي، وليس مجرد معارك يمكن التعامل مع نتائجها كائنة ما كانت. ويفسر هذا حديث البخاري عن عمر رضي الله عنه أنه لما طرقه أحد الصحابة بقوة ليعلمه بفراق النبي ﷺ لنسائه فزع، وقال: «أجاء الغساني»[١].

٢-أن طبيعة كل غزوة وخطة تنفيذها كانت متناسبة تماما مع أهدافها ومع مجمل الظروف المحيطة بها، لاسيما تحالفات الأعداء وأمدادهم المتوقعة، ففي غزوة خيبر على سبيل المثال قام النبي ﷺ بسلوك طريق غير متوقع على الإطلاق إذ جاء خيبر من الشمال رغم أن الطبيعي أن يأتيها من الجنوب؛ فالمدينة جنوب خيبر، لكنه قرر أن يحول بين خيبر وبين عون غطفان وقائدهم عيينة بن حصن الذي استعد بالفعل لإمداد خيبر، لكنه كما تروي كتب السيرة سمع صوتا شديدا فتراجع[٢]. فلما تم إخضاع خيبر لم يجد عيينة مناصا من التحالف مع المسلمين، فخيبر كانت الظهير الحضري الذي تعتمد عليه غطفان. وبفتح خيبر أصبح الخروج إلى مكة لعمرة القضاء أو للفتح بعد ذلك آمنا.

وعندما لا يتم الربط بين أحداث الغزوة وطبيعة الهدف منها، ولا ينظر إلى هذا الهدف بوصفه جزءا من إستراتيجية الدعوة تحدث أخطاء كثيرة في الفهم، من ذلك ما نراه من خلاف فقهي حول جواز الغزو دون سبق الدعوة استنادا إلى حديث غزوة بني المصطلق الذي يشير إلى أن النبي ﷺ قد بيتهم، وهو خلاف ناتج عن تجاهل ربط الغزوات بأسبابها وأهدافها ونتائجها، وهو ربط لم يكن كُتَّابُ السيرة يقومون به، ومن هنا تحدثوا عن غزوة بني المصطلق دون أن يُذَكِّرُوا بأنهم كانوا أهم الأحابيش، والأحابيش كانوا أخلص حلفاء قريش الذين لم تخلوا منهم غزوة من غزواتهم، فلم يكن غزوهم غزوا جديدا وإنما كان جزءا من الحرب مع

١- رواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، كتاب اللباس، الحديث رقم: ٥٣٩٥.
٢- سيرة ابن خلدون، ص: ٦٥.

قريش، كما كانوا يقيمون بين مكة والمدينة في موقع استراتيجي لا يمكن تركه في حالة عداء، كما عُرِفَ عنهم أنهم أعز العرب فلا يكون من الحكمة ترك ثارات فيهم، أو محاولة إذلالهم، لأن ذلك سيجعل صراعهم مع المدينة صراعا دائما، وفي إطار هذه المعلومات سنفهم طبيعة الخطة النبوية في مهاجمة بني المصطلق، على نحو لا يؤدي إلى وقوع عدد كبير من القتلى، فلم يمت في الواقعة أحد وفقا لابن عبد البر، ولم يمت غير ثلاثة نفر وفقا لابن إسحق، ولذلك بَيَّتَهُمْ النبي ﷺ، فأسر ولم يقتل، ثم أعاد لهم أسراهم، بل أصهر إليهم، فغير تحالفات القبيلة لتصبح سندا للمدينة، وليكون لها دور كبير في حصار قريش وثقيف بعد ذلك. وعندما نعرف أن الهدف هو تغيير تحالفات القوم سنفهم أن المعركة لم يكن ممكنا أن تدار إلا على هذا النحو.

خاتمة

حاول هذا البحث أن يقدم دراسة علمية عن التخطيط الاستراتيجي في السنة المشرفة مفترضا أن النجاح الهائل الذي تحقق في السيرة العطرة [في ضوء الفلسفة الإسلامية بضرورة الأخذ بالأسباب وتجنب طلب المعجزات] كان مرتبطا بوجود فكر استراتيجي يقف وراءه دلت عليه كذلك كثير من النصوص التي تتحدث عن العمل من أجل المستقبل البعيد وأخذ الاحتياط والحذر. وأحسب أن البحث قد أثبت أن حركة السيرة المباركة كانت تتم في إطار وجود هذا الفكر الاستراتيجي، وأن هذه الحركة قد انطلقت من قراءة دقيقة للواقع حددت ما فيه من معوقات وفرص، وفي إطار هذه القراءة وضعت الأهداف الجزئية المرحلية وحددت الوسائل الكافية لتحقيقها.

وقد انقسم البحث إلى ثلاثة مباحث تشتمل على مطالب كثيرة، خُصِّصَ الأول لدراسة الأسس العامة للتخطيط، مؤصلا له عن طريق ربطه بالمبادئ المنتجة له، وموضحا أن هذه المبادئ تمثل أفكارا إسلامية مهمة؛ ومن ثم فلا يمكن الادعاء بهامشية التخطيط عن طريق تأويل النصوص الجزئية التي تدعو إليه وحملها على الإباحة. وقد تكفل المبحث الثاني بدراسة خصائص التخطيط النبوي وبيان اتصالها بطبيعة هذا النمط من التخطيط من ناحية، وبطبيعة النبوة من ناحية ثانية. واضطلع المبحث الثالث بمحاولة صياغة المخطط العام للسيرة المباركة كما تصاغ الخطط المعاصرة، محددا رسالة السيرة العامة، وأهدافها الجزئية وطبيعة البيئة الخارجية والداخلية للدعوة، وبيان ما احتوت عليه من معوقات وفرص، ومحددا الوسائل التي استخدمها النبي ﷺ لإنجاز أهدافه ومدى مناسبتها لتحقيق هذه الأهداف.

وقد كتب هذا البحث بلغة شديدة الاختصار، بل اعتمد أحيانا على الإحالة على ثقافة القارئ بالنصوص كما كان يفعل علماؤنا الأقدمون؛ ليتلاءم مع شروط

النشر الأكاديمي على نحو لا يجعلني في حاجة إلى إعادة اختصار نتائجه، فلم تُكْتَبْ سوى هذه النتائج، لكنني أشير هنا إلى الأهمية العملية لدراسة السيرة العطرة والسنة المشرفة على هذا النحو حفزا للباحثين على مواصلة إعادة كتابة السيرة وتصنيفها، ليس على أساس تعاقب الأحداث، وإنما على أساس فهم علاقة الأحداث بالأهداف، وعلاقة الأهداف بالوسائل والخطط، وعلاقة كل ذلك بالواقع، وأحسب أن البحث قد أوضح أن هناك نتائج عملية كثيرة لهذا النهج أذكر منها:

١- إثبات خطورة غياب هذا النمط من التخطيط المستقبلي عن الواقع المعيش، مع كل ما ترتب على هذا الغياب من إخفاق شامل يعم الميادين كافة. وذلك عن طريق بيان أصالته وأهمية دوره في السيرة.

٢- تفسير جوانب من سيرته ﷺ ربما لا تكون واضحة عند من لا يعي أن الحركة في السيرة لم تكن مجرد ردود أفعال، وإنما كانت تتم وفق خطة مرحلية متكاملة.

٣- تصحيح فهم بعض جوانب سيرته ﷺ، وما ينتج عن ذلك من تصويب بعض المواقف الفقهية التي نتجت عن عزل بعض الأحداث عن أسبابها وأهدافها ووسائل تحقيقها، كما حدث مع غزوة بني المصطلق على نحو ما سبق إيضاحه.

٤- توضيح سبب عدم نجاح كثير من محاولات الإصلاح التي قادها بعد ذلك أناس جديرون من الناحية الدينية بكل نجاح، حيث بدا واضحا أن طريق النجاح قد اعتمد على تخطيط محكم معتمد على وسائل متعددة، غابت في حقيقة الأمر عن أكثر المحاولات بعد ذلك، فغاب عنها النجاح.

٥- بيان أهمية إعادة كتابة السيرة العطرة وفهرسة السنة المشرفة على نحو يحقق دورهما التربوي التعليمي التنموي المنشود، وهو هدف يختلف عن الهدف الذي كُتِبَتِ السيرة قديما من أجله، وهو تسجيل الأحداث، وبيان المآثر والفضائل، إذ في ضوء استهداف بيان المآثر أخذت بعض الأمور أهمية تتجاوز دورها، كما هو الحال مع الغزوات، وما قيل فيها من أشعار، وما كان فيها من بطولات، ومن استشهد بها، وأهملت أمورا أخرى كان لها آثار بالغة الأهمية كما هو الحال مع سياسة النبي ﷺ النفسية للعرب، وسياسته الإعلامية، وإدارته للأزمات، ومع الوسائل الدعوية الكثيرة التي استخدمها. وإذا كان استهداف بيان المآثر والفضائل هدفا مناسبا للقارئ الذي كُتِبَتْ له السير المتقدمة فإنه لم يعد هدفا مناسبا للقارئ المعاصر الذي يحتاج إلى أن تصبح السيرة والسنة أداة لتحقيق حياة أفضل بالنسبة له على الأصعدة كلها، وإنما يكون ذلك بفهم كل عوامل النجاح على نحو ما سبق.

المصادر والمراجع

أولا مصادر الحديث النبوي الشريف:

- صحيح البخاري (لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل) ط٣، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٠.
- صحيح مسلم بشرح النووي، للحافظ: (يحيي بن شرف النووي) دار الفتح، الإسكندرية، د.ت.
- عارضة الأحوذي بشرح سنن الترمذي، لابن العربي المالكي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، قرأه الشيخان: عبد العزيز بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي، ط ٣، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٤٠٧هـ.
- المسند: (للإمام أحمد بن حنبل) تحقيق: أحمد شاكر، وحمزة الزين، ط١، دار الحديث، القاهرة: ١٩٩٥.
- الموطأ للإمام مالك بن أنس، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، ط٥، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٩٦.
- موسوعة الحديث النبوي الشريف: الإصدار (١)، شركة حرف لتقنية المعلومات القاهرة، د.ت.

ثانيا: المراجع:

- إدارة ومعالجة الأزمات في الإسلام، سوسن سالم الشيخ، ط١، دار النشر للجامعات، القاهرة، ٢٠٠٣.

- الإسلام والآخر، محمد عمارة، ط٣، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٢.
- أطلس تاريخ الإسلام، حسين مؤنس، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧.
- أعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية (أبي عبد الله محمد بن أبي بكر)، رتبه وضبطه: محمد عبد السلام إبراهيم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١.
- تاريخ الرسل والملوك، للطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٤، دار المعارف د. ت.
- تجربة كندي: أميتاي أتزوني، في: سيكولوجية العدوان، ترجمة عبد الكريم ناصيف، دار منارات، عمان ١٩٨٦.
- التخطيط الاستراتيجي: مفهومه وإطاره ومراحله، تركي عبيدات، نسخة إلكترونية.
- الثقات لابن حبان، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند / ١٩٧٨.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للطبري، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠١.
- اجتهادات الرسول للشيخ: عبد الجليل أبو النصر، ط٢، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٣.
- الخالدون مئة: أعظمهم محمد، مايكل هارت، ترجمة أنيس منصور، المكتب

المصري الحديث، القاهرة.

- دلائل النبوة، للبيهقي، ط١، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٨ هـ.

- الرأسمالية تجدد نفسها، فؤاد مرسي، سلسلة عالم المعرفة، العدد: ١٤٧، الكويت، ١٩٩٠.

- الروض الأنف: شرح سيرة ابن إسحاق للسهيلي، تحقيق طه عبد الرؤوف، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة. د.ت.

- السنة مصدرا للمعرفة والحضارة، للدكتور: يوسف القرضاوي: ط٣،دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢.

- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، في الشريعة الإسلامية، لعبد الكريم زيدان. مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣.

- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية: شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، دار الفكر الحديث،لبنان، د.ت.

- سيرة ابن خلدون: تحقيق: سعيد هارون عاشور، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٩.

- السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام: تحقيق: مصطفي السقا، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧١.

- فقه السيرة، محمد الغزالي، ط٣، دار القلم، دمشق، ١٤٠٧.

- قيمة المستقبلية في الحديث النبوي، إلياس بلكا، ضمن بحوث الندوة الدولية الثالثة للحديث النبوي الشريف، كلية الدراسات العربية والإسلامية، دبي، ٢٠٠٧.

- ما شاع ولم يثبت في السيرة النبوية، محمد بن عبد الله الغوشن، دار طيبة، ١٤٢٨هـ.
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، دار النفائس بيروت، ١٩٨٥.
- المغازي: محمد بن عمر الواقدي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، د.ت.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي. دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٦.
- المقدمة، لابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد)، دار ابن خلدون، الإسكندرية د. ت.
- الموافقات في أصول الأحكام، للشاطبي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د ت.

الائتمان على المستقبل في السنة النبوية

نحو حداثة إنسانية جديدة

د. محمد عبد الفتاح الخطيب
جامعتي الأزهر الشريف و الإمارات العربية المتحدة

بسم الله الرحمن الرحيم

أَسْتَفْتِحُ بِمَا كَانَ يَسْتَفْتِحُ بِهِ شُيُوخُنَا - رَحِمَهُمُ اللَّهُ- كَانُوا يَقُولُونَ أَوَّلَ كَلامهم: اللَّهُمَّ احْفَظْ أَلْسِنَتَنَا مِنْ فُضُولِ الْبَاطِلِ، واغْسِلْ قُلُوبَنَا وَعُقُولَنَا مِنْ غَبَاوَةِ الْجَهَالَةِ، وَخَطَلِ الضَّلالَةِ، وَمِنْ تَرْكِ مَخَافَتِكَ، وَمِنَ الْعُجْبِ الْمُتْلِفِ، وَمِنَ التَّكَلُّفِ فِي الْعَمَلِ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِيْنَ. وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ الطَّيِّبِيْنَ الطَّاهِرِيْنَ، مَصَابِيحِ الْهُدَى، وَقُدْوَةِ الأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الدِّيْنِ، اللَّهُمَّ آمِينَ. وَبَعْدُ،،،،

تمهيد: الحداثة ومنهجية الإسلام في «تحريك الحياة».

فهذه الدراسة تنطلق من افتراضية مفادها: أنه إذا اعتبرنا أن الحداثة «**مشروع**» يحرك الحياة من خلال رؤية للكون و الإنسان وتعامله مع عالم الأشياء، حاضرًا ومستقبلًا، وأن هناك «**حداثة**» غير إسلامية، فلابد من أن تكون هناك «**حداثة**» إسلامية، لها مقولاتها ومفاهيمها الخاصة بها في «**تحريك الحياة**»، ونابعة من «**رؤية**» الإسلام المتميزة للإنسان والكون والحياة، بل إننا نرى، من وجهة نظرنا، أن وجود هذه «**الحداثة الإسلامية**» في «**تحريك الحياة**» وكونها «**حداثة**» للإنسانية جميعًا، نرى ذلك أمرًا لازمًا بالإسلام، مرتبطًا به أشد الارتباط باعتباره الدين الخاتم؛ ومن ثم فهو ليس «**مشروع**» ترقية للوجود الإسلامي فحسب، بل للإنسانية كلها على امتداد أزمانها[1]، يعمل على «**ترقية وجودها**»، والارتقاء بها في «**مدارج الكمال**» مادة وروحًا، خَلقًا وخُلُقًا، حالًا ومآلًا، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى

١- إذ من المقرر في العقيدة الإسلامية، أن زمان هذا الدين "الإسلام" ليس كمثله زمان؛ إذ هو الدين الخاتم، فلا ينحصر في زمن البعثة النبوية، ولا في الفترة التي استغرقتها حضارتها، وإنما يمتد ليشمل كل زمان يأتي بعده حتى تنتهي الحياة. ينظر في تقرير هذه الحقيقة، وشرح أبعادها الفلسفية: الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، د. طه عبد الرحمن، صـ١٥ وما بعدها.

ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴾ (البقرة: ١٤٣) فـ «الشهادة» معنى يقتضي كون الأمة،من خلال إسلامها وأنساقه المعرفية وقيمه في «تحريك الحياة»، هي المرجعَ والميزان، الذي تتطلع إليه البشرية، حينماتفقد «المعنى»، وتضل «المقصد»، وتبتعد عن «المرجعية».

ولعل من أهم قيم الإسلام في هذا السياق مفهوم:«**الائتمان على المستقبل**» بما يضيفه هذا المفهوم من وعي حضاري في «تحريك الحياة»؛ ذلك أن المسلم، في المنظور الحضاري الإسلامي، ليس مطالبًا باستشراف المستقبل رؤية وتخطيطًا فقط، بل هو مؤتمن عليه أيضًا!! قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (الحشر: ١٨) ففي قوله تعالى: «**وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**» أمر بالنظر إلى ما يقدمه الإنسان لبناء مستقبله «**لغد**» ذلك «**الغد**» الذي قد يكون قريبًا، وقد يمتد حتى اليوم الآخر، في حركة مستقبلية موصولة[١]. ولعل في حديث النبي ﷺ : «إن قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فإن اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حتى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ، وفي رواية: فَلْيَغْرِسْهَا»[٢] خيرَ دليل على الشعور بالمسؤولية تجاه حركة المستقبل، يقول الإمام المُناوي في شرح الحديث، بعد أن ذكر خفاء الحكمة منه على بعض من الأئمة الأعلام: «والحاصل: أنه مبالغة في الحث على غرس الأشجار وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها، فكما غرس لك غيرك، فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدك لينتفع ، وإن لم يبق من الدنيا إلا صبابة»[٣]، وكذلك الإشارة النبوية الدقيقة، حينما جاءه رجل فسأله: «متى

١- الدراسات المستقبلية في عالم المسلمين، د. سيف الدين عبد الفتاح، ص٤٤٨.

٢- رواه الإمام أحمد في المسند، من حديث أنس بن مالك، ٣/ ١٩١، حديث رقم: ١٣٠٠٤. والإمام البخاري في الأدب المفرد، ١/ ١٨٦، حديث رقم: ٤٧٩. وابن الأعرابي في معجمه ١/ ٢١ عن هشام بن زيد عنه . وهذا سند صحيح على شرط مسلم. وقال الإمام العيني في عمدة القاري ج١٢/ ص١٥٥: «وذكره علي بن عبد العزيز في المنتخب بإسناد حسن عن أنس رضي الله تعالى عنه».

٣- أي: بقية لا قيمة لها.

السَّاعةُ؟»، فقال النبي ﷺ: «وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لها؟»[1]، ففي ذلك إشارة إلى أن العناية بالمستقبل، إنما تكون بالإعداد والعدة له، وأن الإنسان المسلم مؤتمنٌ على ذلك، بل إن السنة النبوية لَتؤكد أن المسلم قادر على تشكيل مستقبله وامتداد فعله حتى بعد الموت، وذلك بالولد الصالح، نبت المستقبل، والصدقة الجارية، استمرار الامتداد والفعل والأثر بعد الموت، والعلم المستدام الدائم العطاء، فقال ﷺ: «إذا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنه عَمَلُهُ إلا من ثَلَاثَةٍ: إلا من صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له»[2].

ومن ثم يأتي هذا البحث محاولًا -من خلال استقراء نصوص الوحي، قرآنًا وسنة-:

- تحليل مفهوم «**الائتمان على المستقبل**»، وما يتيحه من معان ودلالات، وتوضيح قيمته في البناء الحضاري الإسلامي؛ حيث يضيف بعدًا رابعًا في الفقه الحضاري، بعد فقه النص، وفقه الواقع، وفقه تنزيل النص على الواقع، ثم فقه الائتمان على المستقبل، وتحليل ما يرتبط بهذا المفهوم من مقولات، وما يتعالق معه من مفاهيم أخرى، مثل: «**العون الرباني**» و«**التوفيق الإلهي**» و«**الإيثار الكوني**» و«**الاستخلاف**» و«**السعي الحي**» و«**الحركة المسؤولة**» و«**اعتبار المآل**» و«**التدبر والاعتبار**» و«**فقه السنن**» و«**الشهود الحضاري**»...الخ (هذا من باب التفسير الموضوعي للسنة).
- بناء مفهوم حضاري إسلامي، ليست الحضارة العالمية بأصوليتها المادية بأقل احتياجًا إليه من الحضارة الإسلامية، بعد أن ارتفعت صيحات تنبئ بأن

١- متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر بن الخطاب، ٣/ ١٣٤٩، حديث رقم: ٣٤٨٥. وصحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: المرء مع من أحب، ٤/ ٢٠٣٢، حديث رقم: ٢٦٣٩.

٢- رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ٣/ ١٢٥٥، حديث رقم: ١٦٣١.

العالم قد استنفد طاقات الحياة بصورة قد لا تدع للمستقبل شيئًا، في دعوة إلى «**حداثة إنسانية جديدة**»، لاشك أن الإسلام، لو أحسنا التعامل مع الوحي، سيكون هو فارس حلبتها.

وفي هذا السياق تأتي هذه الدراسة، لا لتثبت أن الإسلام يملك في أنساقه المعرفية، نموذجًا قيميًّا ذا طبيعة خاصة في «**تحريك الحياة**» و «**بناء المستقبل**» يهدف إلى «**ترقية الوجود**»، ويبلغ الغاية في وصل الإنسان بربه، تعبدًا وتعقلًا وتخلقًا، كما يبلغ الكمال في وصل الإنسان بأخيه الإنسان، تعارفًا وتراحمًا وإحسانًا، كما يبلغ المنتهى في التعامل مع مفردات الكون، انتفاعًا واستثمارًا وائتمانًا، فلا تأتي هذه الدراسة لتثبت ذلك فحسب، بل لتثبت، من خلال التحليل والمقارنة وبناء المفاهيم والمقولات الحضارية، أننا نملك نموذجًا قيميًّا في «**تحريك الحياة**» حاضرها ومستقبلها، يمثل «**خطابًا حداثيًّا**» جديدًا، تحتاجه البشرية كلها[1]، إذا فعَّلناه في حياتنا، ثم أحسنا تقديمه، والتعريف به؛ بعيدًا عن الحداثة الغربية، وأزماتها، وتطرفاتها في التعامل مع الإنسان ومع الأشياء (**بدءًا من المحيط/ المجال الصغير، بأزهاره وثماره، وانتهاء إلى الكون/الفضاء الكبير، ببحاره وأفلاكه وطبيعته وكل شيء فيه**). وهذا مُلاحظٌ فيما تعانيه الأرض اليوم من التلويث والتخريب والعبث، و فقدان «**التوازن**» و «**التناغم**» بسبب الممارسات الخاطئة، التي يقوم بها إنسان منظومة «**القيم الكونية**»حيث أطلقت «**قيم العولمة**»و«**منظومات**» الإنتاج والربح والاستهلاك، يد الشركات العملاقة، التي تستثمر وتسوق، حيثما شاءت وكيفما أرادت، بعيدًا عن قيمة «**الائتمان على المستقبل**» وتحت مسلمة: **أن الإنسان يسود الطبيعة، و يملك الأرض،**

١- وإن كانت هذه "الحداثة "من جذور حضارة غير غربية، وليس في ذلك سعي لإحلال المركزية الإسلامية محل المركزية الغربية، أي: إعادة إنتاج لمركزية معكوسة، تدعو إليها حداثة جديدة، كما يتوهم البعض؛ لأن في حداثة الإسلام من قيم: العدل والإحسان والتعارف والتراحم والمجاهدة، ما يمنع من هذه المركزية.

وأن الطبيعة أَمَة للإنسان، وليست أُمًّا له، فكان ما كان من الأخطار التي تهدد الحياة والبيئة الطبيعية والأرض جميعًا؛ حيث تتقلص يومًا بعد يوم فرص حياة الكائنات الحية، بعدما عبثت التقنية بالإنسان، وأفسدت الطبيعة[1]. يقول آل جور نائب الرئيس الأمريكي الأسبق في كتابه الأرض في الميزان[2]: «يتعرض النظام الإيكولوجي (البيئي) لكوكب الأرض لصدام عنيف مع الحضارة الصناعية الحديثة بوضعها التنظيمي الراهن، إن الشراسة التي يتم بها عدوان هذه الحضارة على ظ الأرض يدعو إلى الهلع، والنتائج الرهيبة المترتبة على ذلك تحدث بسرعة بالغة، تتحدى قدرتنا على إدراكها على الهيمنة على عالم الطبيعة، واستغلاله لتحقيق مكاسب على المدى القصير، فإن هذه القوة التدميرية الماحقة ستظل تلحق الخراب بالأرض». وبذلك يكون «**الائتمان على المستقبل**» مفهومًا حضاريًّا إسلاميًّا، نحتاج إلى الوعي به وتفعيله في سعينا لتحريك الحياة، بعد أن ارتفعت صيحات تنبئ بأن العالم قد استنفد طاقات الحياة بصورة قد لا تدع للمستقبل شيئًا، وبعد أن ارتفعت صيحات تمهد لنا، والله أعلم.

***

١- ينظر في أزمة الأرض في منظومة "القيم الكونية" والتحليل النقدي لها: ما كتبه آل جور، نائب الرئيس الأمريكي في كتابه القيم: الأرض في الميزان، الإيكولوجيا وروح الإنسان، وقد تحدث فيه عن "القيم النشاز التي تقيمها الحضارة الغربية المعاصرة مع الكون بكل ما فيه"، و "الغطرسة الفكرية التي لا ترى في الموارد الطبيعية للكون سوى أنها سلع مجانية غير محدودة"، و "العدوان الحضاري غير المسبوق على عالم الطبيعة" ذاكرًا أنها قيم أدت إلى: التلاعب بالطبيعة، والتدمير المتسارع للبيئة، وإدمان الاستهلاك، وتدمير قدرة الأرض على العطاء في المستقبل، فأصبحنا في النهاية نعيش على "الأرض الخراب"، ويؤكد ذلك الدراسات التي ظهرت في أواخر السبعينات من القرن العشرين، ثم امتدت حتى وقتنا هذا على يد الفلاسفة الغربيين، من أمثال: هايدغر، وهابرماس، وجوناس، وبول ريكور، وكاترين لارير...الخ وكلها جاءت لتدعو إلى هجر التصورات المفقرة عن الطبيعة التي أورثنا إياها التراث الغربي، وأن نقيم حوارًا بنَّاءً مع الطبيعة (الأخلاقية التواصلية مع البيئة)، وأن يعيش كل منا بالطريقة التي يتيح بها أن تستمر الحياة من بعده، وألا تكون نتائج أعماله مدمرة لهذه الحياة الإنسانية في المستقبل.

٢- صـ٢٦٩

المحور الأول: الائتمان على المستقبل... الدلالة وبناء المفهوم.

شاع في الدراسات الحضارية، في الآونة الأخيرة، مصطلح: «**استشراف المستقبل**» للدلالة على وجوب مراعاة المستقبل، والنظر في مآلات الأفعال، والتخطيط الواعي للحركة الحضارية. وقد آثرت التعبير عن ذلك بـ «**الائتمان على المستقبل**»؛ إذ إن كلمة «**الائتمان**» تحمل في طياتها من الدلالات ما لا تحمله كلمة «**الاستشراف**» فالأخيرة في بنائها المعجمي تدل على معاني: النظر إلى الشيء، والبصر به، والتطلع إليه، والدنو منه، وتوقعه[1]. أما كلمة «**الائتمان**» فهي مأخوذة من «**الأمانة**» أي: ما يؤتمن عليه الإنسان، وما يقتضيه ذلك من الحفاظ عليه، والقيام بحقه حتى يتم تأديته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾(النساء: ٥٨)، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(الأنفال: ٢٧)، فهي مادة تتعلق في حقلها الدلالي، بعدة معان، تدور في غالبيتها حول: **الحفاظ على الشيء، والقيام بحقه، وحسن تأديته.**

وتأسيسًا على ذلك يمكن القول: إن مفهوم: «**الائتمان على المستقبل**» في بنائه التنظيري، يعد «**مفهومًا منظومةً**»[2] يحرك في إطاره مجموعة من الدلالات المحورية، أهمها ثلاثة:

أولًا: وجوب النظر إلى المستقبل والوعي به، وهو ما يحمله مصطلح «**استشراف المستقبل**» بالإضافة إلى ما يزيد عليها من معاني: «**الفاعلية**» و«**المسؤولية**» و«**المحاسبة**» التي يقتضيها لفظ «**الائتمان**»، ولا شك أن هذه المعاني لها دلالتها

١- ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس، للإمام الزبيدي، ٢٣ / ٥٠٥ وما بعدها.

٢- "المفهوم المنظومة "مصطلح يشير إلى أن "المفهوم" ليس مفردًا، بل يستبطن في بنائه "منظومة "متكاملة من المفاهيم والدلالات، بحيث لا يمكن فهمه أو تلمس قيمته في بنية العلم إلا من خلال تحليل ما يرتبط بهذا المفهوم من "مقولات" وما يتعالق معه من مفاهيم. ينظر: العلاقات الدولية في الإسلام، د. سيف الدين عبد الفتاح، صـ٦١١.

في الحركة الحضارية، فيكون مصطلح «**الائتمان على المستقبل**» أكثر ارتباطًا بـ «**منظومة المفاهيم الإسلامية**» من مصطلح «**استشراف المستقبل**» الخالي من معاني: «**الفاعلية**» و «**المسؤولية**» و «**المحاسبة**» مما يعني أن المستقبل في المنظور الإسلامي وديعة، يحاسب حاملها على التفريط فيها!!.

ثانيًا: وجوب الالتزام في الوعي بهذا المستقبل المؤتمن عليه المسلم، بالمعايير والموازين الموجهة لحركة الإنسان، والضابطة والحاكمة للفعل الحضاري، بكل تنوعاته وامتداداته، وهذا هو ما يقتضيه لفظ «**الائتمان**» إذ يقتضي أن يعمل المسلم على أن تكون حركة المستقبل وفق رؤية الإسلام ومقاصده في «**تحريك الحياة**» من خلال فقه إسلامي شغوف بـ «**التوازن والتجرد**»، و«**أداء الحقوق**»، و «**مراعاة الحرمات، ورفيع الأذواق**»، و «**أخلاق البذل و الإيثار**»، و «**اصطناع المعروف**»، و «**ابتغاء الفضل وبذله**»، و «**محاربة الطغيان الحضاري**»، و «**الاستئثار العمراني**»، و **بعيدًا عن ألوان التضليل والبغي الحضاري، وأخلاقياته المدمرة للحياة في حاضرها ومستقبلها**»؛ فالمسلم ليس بالسائب، و لا يستشرف مستقبله عبر عقلانية محضة، وإنما هو محكوم، بعد نصوص القرآن الكريم، بالحديث، يخضع للصحيح منه، ولابد، ذلك...أو التخبط كما قال مالك بن أنس رحمه الله: «ما قلت الآثار في قوم إلا كثرت فيهم الأهواء»[1]، ويجمع ذلك كله حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[2] أي: لا يكون العبد مؤمنًا حتى يخرج عن داعية هواه في كل حركة يحياها في الحياة، حالًا ومآلًا؛ ليكون «عبدًا لله اختيارًا، كما هو عبد لله اضطرارًا»[3]، فما من شيء -كما يقول الراغب الأصبهاني-: «إلا وإذا تعاطاه

١- الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي، ١ / ٣٨٣.
٢- قال ابن حجر (فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ١٣ / ٢٨٩): "أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات، وقد صححه النووي في آخر الأربعين".
٣- الموافقات في أصول الشريعة، للإمام الشاطبي، ٢ / ١٦٨.

الإنسان على ما يقتضيه حكم الله تعالى، كان الإنسان في تعاطيه عابدًا لله، مستحقًا لثوابه، كما قال النبي ﷺلسعد: "إنَّكَ لَتُؤْجَرُ في كلِّ شيءٍ حتى اللقمةُ تَضَعُها في فِي امرأتِك[1]»، ومخاطبته ﷺ لسعد بذلك لما عَرَف منه أنه يراعي في أفعاله حكم الله تعالى. وعلى هذا الوجه قالﷺ : «ما من مُسْلِمٍ غَرَسَ غَرْسًا، ثُمَّ يُؤكل منه شيءٌ إلا كان له صَدَقَةٌ [2]»[3].

ثالثًا: لا يتسم الوعي بالمستقبل، والتخطيط له بسمة الإسلام، ولا يأخذ مشروعيته منه، إلا إذا التزم بـ«**المعيار**» و «**الإطار المرجعي**» الذي يتم من خلاله «**تحريك الحياة**» في مسيرتها وصيرورتها، حالًا ومآلًا. والإسلام، في هذا المجال، يقدم ثلاثة مفاهيم، تمثل المعيار والإطار المرجعي لكل حركة في الحياة، حاضرًا ومستقبلًا، وهي:

- **مفهوم «الاستخلاف»** الذي يحدد مسار هذه الحركة، وفق مراد الله في أمره ونهيه.
- **مفهوم «التزكية»** المتحكمة في وسائل هذه الحركة، بحيث يُراعى فيها: «حق النفس» و«حق الغير».

١- ورد الحديث بروايات مختلفة، منها: ما في البخاري من حديث سَعْد بن أبي وَقَّاصٍ ﷺ: "أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: إنَّك لَنْ تُنْفقَ نَفَقَةً تَبْتَغي بها وَجْهَ الله إلا أجرْتَ عليها، حتى ما تجعَل في فيِّ امْرَأتك" (صحيح البَخاري، كتَاب: الإيمَان، باب: مَا جاء أن الأعمَال بالنَية والحسبة، ١ / ٣٠، حديث رقم: ٥٦ وفي صحيح مسلم، كِتاب: الوصية، باب: الوصية بالثلث، ٣ / ١٢٥٠، حديث رقم: ١٦٢٨، وروايته: "إنَّك إن تَذَرَ وَرَثَتكَ أغْنيَاءَ خَيْرٌ من أنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ الناس، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بها وَجْهَ الله إلاّ أجِرْتَ بها حتى اللُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا في فِيِّ امْرَأتك".

٢- ورد الحديث في صحيح البخاري، في موضعين، كتاب: المزارعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أُكل منه، ٢ / ٨١٧، حديث رقم: ٢١٩٥، ولفظه: "مَا من مُسْلم يَغْرسُ غَرْسًا، أو يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأكُل منه طيْرٌ، أو إنْسَانٌ، أو بَهيمَةٌ، إلا كان له به صَدَقَة"، وكتاب الأدب، باب: رحمة الناس بالبهائم، ٥ / ٢٢٣٨، حديث رَقم: ٥٦٦٦. وأخرج نحوه الإمام مسلم، كتاب: المساقاة، باب: فضل الغرس والزرع، ٢ / ١١٨٨، حديث رقم: ١٥٥٢، ولفظه: لا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا، ولا يَزْرَعُ زَرْعًا، فيأكُل منه إنْسَانٌ، ولا دَابَّةٌ، ولا شَيْءٌ، إلا كانت له صَدَقَةٌ".

٣- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، للراغب الأصبهاني، صـ١٥٥.

- **مفهوم «الاستقامة»** التي هي انضباط حركة المسلم في هذه الحياة وفق منهج الله وشرعته، فتكون حركته، علمًا وعملًا،حالًا ومآلًا، منطلقة من معارف الوحي، ومنضبطة بمقاصده، ومناهج الاستمداد منه، **فتكون كل أقواله وأفعاله، وأحواله ونياته، واقعة لله، وبالله، وعلى أمر الله.**

فهي مفاهيم ثلاثة: «**الاستخلاف**» و«**التزكية**» و«**الاستقامة**»، جميعها يشكل معيارًا وإطارًا مرجعيًّا تنشد بحركة المسلم في وعيه المستقبلي، كما تمثل «**ضوابط أساسية**» لاستمرار الحضارة الإنسانية،في عطاء لا ينضب، وفاعلية لا تموت. ويتأسس على ذلك أن مرجع الوعي «**بالمستقبل**» في التصور الإسلامي، إذن، ليس إلى «**الرأي والهوى**» وليس إلى «**العقل البشري**» بلا قاعدة ولا ضابط، وليس إلى «**المصلحة**» كما يتصورها الناس غير محكومة بأصل من دين الله، وليس إلى أي اعتبار آخر، غير اعتبار واحد هو «**الوحي**» المعصوم، قرآنًا وسنة، بما يضعه من ضوابط وموازين تتحكم في كل شأن من شؤون الحياة، حالًا ومآلًا والله أعلم.

***

ومما يجب التنبه إليه هنا أن مسؤولية المسلم تجاه حركة المستقبل، استشرافًا وائتمانًا، ليست رجمًا بالغيب المنهي عنه، ولا مؤسَّسة على عناصرَ معاندة للقدر، ولا خرقًا للزمن والواقع، كما قد يُظن، بل هي مسؤوليةُ تَحَمُّلٍ، في جوهرها عناصر حركة تفكيرية وعملية، تنطلق من الوعي بالسنن الفاعلة، والحاكمة لحركة الحياة والأحياء، تدبرًا واعتبارًا، إلى السعي لتشكيل المستقبل، وفق «**رؤية**» الإسلام للعالم، و«**مقاصده**» في عمارة الكون، و«**قيمه**» في تحريك الحياة، على امتدادها في الأزمان، عبادةً لله، وتعبيدَ الدنيا له. ولتأكيد ذلك نحتاج إلى أن نقف عند مفهومي: «**الغيب**»و«**القدر**»:

أولًا: مفهوم الغيب:

إن «**الغيب**» في أصل بنائه المعجمي يدل على: **كل ما غاب عن العيون واستتر**[1]، وفي بنائه العقدي يطلق على ما يقابل عالم «**الشهادة**»كما جاء في آيات كثيرة من القرآن الكريم، نحو قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(التوبة: ١٠٥) وقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾(الرعد: ٨ – ٩). وإذا كان عالم «**الشهادة**» يطلق على: ذلك الوجود المادي، الواقع تحت الإدراك الحسي للإنسان، أو الذي يمكن أن يقع تحته، ومن خصائصه أنه معقول الذات، قابل للشهود الإنساني إذا توافرت أسباب الشهود، فإن المراد بالغيب: «ما غاب عن الحواس مما لا يوصل إليه إلا بالخبر دون النظر، كوجوب البعث، ووجود الجنة، ونعيمها وعذابها والحساب، أما ما يدرك بصحيح النظر فلا يكون غيبًا حقيقة، فالغيب هو الذي أخبر به الرسول عليه السلام، مما لا تهتدي إليه العقول»[2].

ومعنى ذلك: أن «**الغيب**»في بنائه العقدي يطلق حقيقة على: ما لا يمتلك الإنسان أدواته المعرفية، فهو عالم ذو طبيعة معنوية متعالية عن المادة، إذ يمتد إلى ما وراء علم الإنسان وإلى شهوده، فلا يمكن أن يقف عليه العقل إلا بخبر من الوحي «على لسان رسل الله من: أمور المعاد وتفصيله، والجنة والنار، وما قبل ذلك من الصراط والميزان والحساب، وما قبل ذلك من تشقق السماء وانفطارها، وانتثار الكواكب، ونسف الجبال، وطي العالم وما قبل ذلك من أمور البرزخ ونعيمه وعذابه»[3]، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ

١- ينظر مادة: (غيب) في: لسان العرب، لابن منظور، ١ / ٦٥٤، ومقاييس اللغة، لابن فارس، ٤ / ٤٠٣، وتاج العروس، للزبيدي، ٣ / ٤٩٧.
٢- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي،١ / ١٥-١٦.
٣- مدارج السالكين، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، ٢ / ٤٠٢.

عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾(الجن: ٢٦). أما ما يدرك بالحواس، أو بصحيح النظر، بحيث يمكن «**استشرافه**»، و«**إدراك غاياته ومآلاته**» فإنه يُعد من عالم «**الشهادة**» وإن كان غائبًا مستترًا عن الإنسان في بعض أزمانه[١]. وما كان من «**عالم الشهادة**» فليس ثمة، في منظومة القيم الإسلامية، ما يمنع من التفكير فيه، وتدبر أموره، والتخطيط لما يُستقبل منه، بل إن «**نصوص الوحي**» تبيِّن وجوب هذا التفكير، وعيًا وسعيًا، والتقاط العبرة، وتدبر المآلات، وامتلاك القدرة على التعامل مع المستقبل، وحسن بنائه، وفق «**مقاصد الإسلام**».

وأما ما جاء في الإسلام من تحريم «**الكهانة**»و«**العرافة**»و«**والتنجيم**»مثل قوله ﷺ: «**من أتى عَرَّافًا أو كَاهِنًا،فَصَدَّقَهُ بِمَا يقول، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ على مُحَمَّد**»[٢] فالتحريم في هذا، ونحوه، إنما هو تحريم لكل حركة «**عبثية**»أو«**أية قراءة خرافية**» تتعامل مع المستقبل، كذبًا وتخليطًا وتمويهًا، وخروجًا عن أطر المنهاجية وقواعدها. أما التعامل مع المستقبل من خلال: «**التفاعل مع الكون**» اعتبارًا وتدبرًا في خط العبودية لله تعالى، و«**قراءة الواقع**»، و«**فقه السنن**»، و«**إدراك العواقب والمآلات**»و«**إعمال القرائن وتحكيمها**» فهو تعامل واع وفعال، باعتبارها سننًا شرطية، يتحرك فيها الفعل بشرطه، وكذلك يتحقق الجواب، وما ينتج عن ذلك من «**قواعد**»و«**موازين**»لفهم جريان الحياة، وضوابط العمران في كل زمان ومكان.

فالوعي بالمستقبل، إذن، والاندفاع إلى بنائه، ليس رجمًا بالغيب، ولا يتأس

١- ينظر حديث الإمام ابن تيميَّة عن "الغيب المطلق "وهو ما لا يتعلق به علم أحد، ولا يمكن الاطلاع عليه إلا بوحي من الله سبحانه، و "الغيب المقيد "وهو "ما علمه بعض المخلوقات من الملائكة أو الجن أو الإنس وشهدوه، فإنما هو غيب عمن غاب عنه، و ليس هو غيبًا عمن شهده، والناس كلهم قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا، فيكون غيبا مقيدًا أي: غيبًا عمن غاب عنه من المخلوقين، لا عما شهده، ليس غيبًا مطلقًا غاب عن المخلوقين قاطبة. مجموع الفتاوى، ١٦/ ١١٠.

٢- رواه الحاكم في المستدرك، ١/ ٤٩، حديث رقم: ١٥، وقال: "هذا حديث صحيح على شرطهما جميعًا، من حديث ابن سيرين، ولم يخرجاه".

على عناصر مصادفة، كما أنه ليس فعل الأماني الهائم في خيالاته وتهويماته، كما أنه ليس فعل التقليد للآخر، بل هو فعل يقوم على حسن قراءة الواقع، والتدبر فيه، وقراءة التاريخ والاعتبار به، والبصر من وراء ذلك كله، بالمستقبل، والعمل له.

ثانيًا: مفهوم القدر:

إن «**القدر**» في مفهومه العقدي لا يخرج عن معنى: أن كل شيء في الكون، أسبابًا ومسببات، إنما هو مخلوق الله ﷻ، وواقع بإرادته، ومعلوم له سبحانه جملة وتفصيلاً، ومكتوب عنده في أم الكتاب قبل وقوعه[1] يقول رسول الله ﷺ: «كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قبل أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»[2].

وإذا كان كل شيء في الكون، أسبابًا ومسببات، إنما هو من الله ﷻ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾(القمر: ٤٩)، فإن علاقة الإنسان المكلف بالكون إنما هو تعاطي الأسباب فيه، وعيًا وسعيًا، فإن كان تعاطيه لها وفق منهج الله في أمره ونهيه، كان طائعًا، وإن كان خلاف منهج الله كان عاصيًا؛ ومن ثم خرجت «المسببات» عن خطاب التكليف؛ لأنها ليست من مقدور العباد، وإنما الذي عليهم إنما هو «التسبب» أي: تحصيل الأسباب، وتعاطيها وفق منهج الله؛ ليسعد من يسعد، ويشقى من شقي. «**واستقراء هذا المعنى من الشريعة مقطوع به**» كما قال الإمام الشاطبي[3]، وهو ما عليه إجماع الأمة يقول الإمام ابن القيم: «إن الله سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها شرعًا وقدرًا، وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي، وأمره الكوني القدري، ومحل ملكه وتصرفه؛ فإنكار

١- ينظر: الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، تأليف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، ١ / ١٤١ وما بعدها، وفتح الباري، ١١ / ٥٠٩.

٢- رواه مسلم في صحيحه، كتاب: القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٤ / ٢٠٤٤، حديث رقم: ٢٦٥٣.

٣- الموافقات، ١ / ١٩١ وما بعدها.

الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات، وقدح في العقول والفطر، ومكابرة للحس، وجحد للشرع والجزاء، فقد جعل سبحانه مصالح العباد، في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة، كل ذلك مرتبطًا بالأسباب قائمًا بها»[1].

ومعنى ذلك: أن الكون بكل ما فيه من سنن تتحكم في سيرورة الحياة، ليس إلا قدرًا من أقدار الله، وضمن مشيئته الإلهية الشاملة التي بنت الكون كله على حكمة، وجعلته على سنن وعلل وأسباب، فهي من تدبير الله ﷻ، وليست استقلالاً عن هذا التدبير، وما على الإنسان إلا التعامل مع هذه الأسباب، و«**دفع الأقدار بعضها ببعض**»، و»«**مغالبة قدر بقدر**»، و«**الفرار من قدر الله إلى قدر الله**»[2] مما يمنحنا القدرة على حسن التعامل مع المستقبل استشرافًا وائتمانًا، والعبور نحو عناصر الفاعلية والتمكين، يقول ابن القيم، موضحًا المنهجية الإسلامية الصحيحة في التعامل مع القدر: «والرجل من يكون منازعًا للقدر لا من يكون مستسلمًا مع القدر، ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض، فكيف في معادهم؟! والله تعالى أمر أن تدفع السيئة، وهي من قدره، بالحسنة وهي من قدره، وكذلك الجوع من قدره وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره، ولو استسلم العبد لقدر الجوع مع قدرته على دفعه بقدر الأكل حتى مات، مات عاصيًا، وكذلك البرد والحر والعطش كلها من أقداره، وأمر بدفعها بأقدار تضادها، والدافع والمدفوع والدفع من قدره، وقد أفصح النبي عن هذا المعنى كل الإفصاح؛ إذ قالوا يا رسول الله: أَرَأَيْتَ أَدْوِيَةً نَتَدَاوَى بها، وَرُقًى نَسْتَرْقِي بها،

١- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ص١٨٨.

٢- وتلك هي المقولة المشهورة لعمر بن الخطاب ﷺ، حينما أراد أن يخرج إلى الشام، وقد وقع بها الطاعون، فأفل راجعًا، فقال أبو عُبَيْدَةَ بن الجرَّاح ﷺ: "أفرارًا من قَدَرِ الله؟!! فقال عُمَرُ لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ، نعم نَفِرُّ من قَدَرِ الله إلى قَدَرِ الله" متفقٌ عليه، رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الطب، باب: ما يذكر في الطاعون، ٥ / ٢١٦٣، حديث رقم: ٥٣٩٧، ومسلم في صحيحه، كتاب: السلام، باب: الطاعون والطيرة والكهانة، ٤ / ١٧٤٠، حديث رقم: ٢٢١٩.

وتقىً نتَّقِيهَا، هل ترُدُّ من قَدَرِ اللَّهِ شيئًا؟ قال: هِيَ من قَدَرِ اللَّهِ[1]، ودفع القدر بالقدر نوعان، أحدهما:

- دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه ولما يقع بأسباب أخرى من القدر تقابله، فيمتنع وقوعه كدفع العدو بقتاله ودفع الحر والبرد ونحوه.
- الثاني دفع القدر الذي وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله، كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان، فهذا شأن العارفين.

وشأن الأقدار لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة، فإنه عجز، والله تعالى يلوم على العجز، فينازع قدر الله بقدر الله بالله لله، كما يستعيذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته ويستعيذ به منه»[2].

ثم بين ابن القيم أن مغالبة الأقدار، ليست من باب اختيار الإنسان لنفسه خلاف ما يختاره الرب له؛ شارحًا في تفصيل دقيق، أن اختيار الرب تعالى لعبده نوعان، أحدهما:

- **اختيار ديني شرعي** (كل قدر يُحرَّك من خلاله الحياة وفق منهج الله)، فالواجب على العبد ألا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له الله.
- والنوع الثاني: **اختيار كوني قدري لا يسخطه الرب**، كالمصائب التي يبتلي الله بها عبده، فهذا لا يضره فراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه ويدفعها ويكشفها، وليس في ذلك منازعة للربوبية، وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر. أما القدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه،

١- رواه ابن ماجه في سننه، ٢ / ١١٣٧، والحاكم في المستدرك، ٤ / ٢٢١، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد".

٢- مدارج السالكين، ١ / ١٩٩-٢٠٠.

كأنواع الظلم والفسوق والعصيان، فحرام عليه الرضا بها، بل يعاقب في الدنيا والآخرة، إن هو لم يفرَّ منها، ويعمل جاهدًا على تغييرها[1].

فليس، إذن، ثمة ما يدعو الإنسان المسلم إلى التنحي عن الفعل، والاستقالة الحضارية، وتحويل الفعل الحضاري إلى عجز، وتكريس عقلية اللامسؤولية، واللامبالاة، والعجز والقعود عن التفكير في المستقبل والتخطيط له؛ تحججًا بالقدر، أو بالغيب؛ ففي ذلك امتهان لمعاني: **الاستخلاف، والمسؤولية، والتزكية، والاستعمار الإيماني للأرض، وبناء الدنيا للآخرة**، كما أن فيه مخالفة لتعاليم الوحي، قرآنًا وسنة، كما بيَّنا وكما سيأتي بيانه، والله أعلم.

***

المحور الثاني: من مظاهر «الائتمان على المستقبل» في السنة النبوية:

يمكن لنا أن نؤصل مظاهر «**الائتمان على المستقبل**» في السنة النبوية المشرفة، من خلال مقولات ثلاثة، لها أثرها الكبير في تأطير سعي المسلم في تحريك الحياة، وقراءة المستقبل، والوعي به، وهي: «**السعي الحي**»، و«**الائتمان الكوني**»، و«**البعد السُّنَني**»، فمن خلال هذه المقولات يمنح الإسلام المسلمَ منهجية صادقة وراقية وفاعلة في التعرف على المستقبل، والوعي بحركته، والمشاركة في صنعه، دافعًا إياه نحو «**رؤية**» مستقبلية شديدة العمق والفاعلية، حيث القدرةُ على «**استشراف المستقبل**» و«**فقه المآلات**» التي سوف يصير إليها، و«**مغالبة الأقدار**»، و تحصيل «**المعية الإلهية**» في حركته المستقبلية التي تعني: «**التوفيق الإلهي**» في صحة المقاصد، و«**العون الرباني**» في نجاعة الوسائل. وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

١- المرجع السابق، ٢ / ١٩١-١٩٤.

أولًا: السعي الحي:

والمراد بـ «**السعي الحي**»، في الأداء الحضاري، كل سعي في الكون موجهًا بقصد التعرف على المكوِّن أفعالًا وأوصافًا، حريصًا على «**التوفيق الإلهي**» و«**العون الرباني**»، متخذًا «**المنظومة القيمية الإيمانية**» وسيلة، فيصل العلم بالأخلاق، والعقل بالغيب، والدنيا بالآخرة، وصلًا حقيقيًّا، في عبودية شاملة لله تعالى، وهذا ما وضحه النبيﷺ لصحابته رضوان الله عليهم أجمعين، حينما مر عليهم رجل، فرأوا من «جَلَده وَنَشَاطه، فَقَالُوا يا رَسُولَ اللَّه، لو كان هذا في سَبيلِ اللَّه؟! فقال رسول الله ﷺ: إنْ كان خَرَجَ يَسْعَى على وَلَده صغَارًا فَهُوَ في سَبيلِ اللَّه، وَإنْ كان خَرَجَ يَسْعَى على أَبَوَيْنِ شَيْخَيْن كَبيرَيْن فَهُوَ في سَبيلِ اللَّه، وَإنْ كانَ يَسْعَى على نَفْسه يُعِفُّهَا فَهُوَ في سَبيلِ اللَّه، وَإنْ كَان خَرَجَ رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً فَهُوَ في سَبيلِ الشَّيْطَان»، وهو مقتضى قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾(الإسراء: ١٩).

والسعي الحي في هذا السياق هو كل حركة مستقبلية يُعنى بها:

- «**تحصيل المعية الإلهية**» وهو ما يعني: الانضباط بمعيار الدين، والعمل على «**مقتضى الشرع الإلهي**»، فيؤمن المسلم بوجود الألوهية وراء كل شيء، فيعلم أن الحق يخاطبه في كل شيء، وأن هذه المخاطبة مستمرة استمرار الحياة، فحيثما توجه وجد ربه،مراعيًا أمره ونهيه.ويعلم أن رؤية الله له لا تنقطع ؛ ومن ثم فهو في كل أعماله مطالب بأن يراقب نفسه، ويراقب ربه، فهو دائر بين «**تلقي الخطاب**»من الله في كل شؤون حياته، و«**تحمل الرؤية**»من الله في كل أعماله.

- «**ترسيخ الذات الإنسانية**»**من خلال: ترقية الذات، والترقي بها في مدارج الكمال العقلي والخُلُقي، وذلك بـ** «**مراعاة حق النفس**» تزكية لها،

و«**تصحيح السلوك**»، أصلًا، ومقصدًا، ووسيلة، والعمل على «**مراعاة حق الغير**» إنسانًا وحيوانًا ونباتًا وجمادًا؛ إذ الأصل في منهج البناء الحضاري الإسلامي، أن نمنح الحقوق لا أن نسلبها، وأن ندع المقابل يرضى لا أن يسخط؛ ومن ثم فإن الواحد من أبناء الأمة الإسلامية لا هم له إلا الأدب مع مَن سواه!!

- **الاستقامة في التعامل مع مفردات الكون وعطاءاته، انتفاعًا واستثمارًا وائتمانًا**، وذلك بإصلاح الأرض وعمارتها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق التمكين عليها، وتعبيد الفعل البشري فيها لله سبحانه، بحيث تكون جميع فعاليات الكون، حالًا ومآلًا، متجهة إلى الله(عبادةً كما شرع، وعمارةَ الأرض كما أمر). يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «إن من أكبر مقاصد الشريعة: الانتفاعَ بالثروة العامة بين أفراد الأمة على وجوه جامعة، بين رعي المنفعة العامة، ورعي الوجدان الخاص، وذلك بمراعاة العدل مع الذي كَدَّ لجمع المال وكسبه، ومراعاة الإحسان للذي بطَّأ به جُهده. وهذا المقصد من أشرف المقاصد التشريعية»[1]. ويقول الشيخ علال الفاسي: «المقصد العام للشريعة الإسلامية هو: عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، وصلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع »[2].

وهذا «**المقصد التشريعي**» في الحضارة الإسلامية، يوضحه النهي النبوي عن: «**كلالة النفس**»[3]، فقد روي عن النبيﷺ: «لَيْسَ بخيرِكُم مَن تركَ دنياه

١- التحرير والتنوير،٢ / ٤٤٩.

٢- مقاصد الشريعة ومكارمها، ص٤١-٤٢.

٣- وما أكثر مظاهر هذه "الكلالة "في حياة الأمة الآن، بعد أن تنكبت منهج الوحي في سيرها الحضاري. ينظر في تعدادها في حياة الأمة: الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، فقه التحضر الإسلامي، د. عبد المجيد النجار، ١ / ٧٦.

لآخرته، وَلا آخرَتَهُ لدُنياه، حَتَّى يُصيبَ منهما جميعًا؛ فإنَّ الدنيا بلاغٌ إلى الآخرةِ، ولا تكونوا كلًّا عَلى النَّاسِ»[1]. وعن محمد بن ثور، قال: «كان سفيان الثوري يمر بنا في المسجد الحرام، ونحن جلوس، فيقول لنا: ما يجلسكم؟ قلنا: فما نصنع؟. فقال: قوموا، واطلبوا من فضل الله عز وجل، وتسلحوا -يعني للعمل- ولا تكونوا كلًّا ولا عيالاً على المسلمين»[2]، قال الإمام الزمخشري: «كلٌّ، أي: ثِقَلٌ وعِيالٌ عَلى مَن يلِي أمرَه ويَعُولُه»[3].

فـ «**الكَلُّ**» من الناس، هو العاجز، الذي يثقل عليه الأمر، فلا ينبعث فيه، بل يتكل على غيره في تحقيق شؤون نفسه، وفي قوله ﷺ فيما روي عنه: «ولا تكونوا كلًّا عَلى النَّاسِ» لمسة حضارية في غاية الأهمية؛ إذ يشير إلى وجوب أن تشارك هذه الأمة في حركة الحياة مشاركة الأقوياء، ولا تكون عالة على غيرها، فتكون أداة طيعة في يد غيرها يوجهها إلى الوجه الذي يريده هو، وليس على الوجه الذي تريده هي، وهذا القول من علامات النبوة؛ إذ تتأمل حولك، فترى كيف ضاع بالغفلة، وكلالة النفس، ما فُتح علينا، فأفضت بنا كلالة النفس إلى ما أفضت بنا إليه، وطمع عدونا في بلادنا، وكاد لنا، وغفلنا بل كللنا، فكان ما كان.

فلا ينبغي للمؤمن أن يترك عمارة الأرض، فيصبح عالة على غيره، متكلًا عليه، عاجزًا عن نفع نفسه، متكاسلًا في صنع حياته ومستقبله، منزويًا منكفئًا على نفسه، فيتغلب عليه الغير، ويستلبه استلابًا، فيفقد ذاته ومبرر بقائه؛ لما في ذلك من الوهن في النفس والمعاش، و«**الانحسار الحضاري**» للفرد والأمة، بل ولما في ذلك من الوهن في العبادة نفسها؛ إذ إن الفقر في أغلب أحواله، يلهي

١- رواه ابن عساكر عن أنس بن مالك، (تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، ٦٥/ ١٩٧، ٩)، وفي التيسير بشرح الجامع الصغير للسيوطي، للمُناوي، رمز له بالضعف، ٢/ ٣٢٣، وينظر في تخريجه: كشف الخفاء للعجلوني، ٢/ ٢٢٠، وكنز العمال، ٣/ ٨٩. وذكر الألباني أن إسناده باطل، ينظر: السلسلة الضعيفة، ١/ ٧١٥، حديث رقم: ٥٠٠.

٢- المجالسة وجواهر العلم، أحمد بن مروان الدينوري المالكي، ١/ ١٩٠.

٣- الكشاف للزمخشري، ٢/ ٥٨١-٥٨٢.

عن العبادة، بالإضافة إلى أن كثيرًا من عبادات الإسلام تحتاج إلى المال الذي هو عصب كل عمران، كالصدقة، والحج، والجهاد، والبر والإحسان إلى الغير؛ ومن ثم قال علماء الإسلام: «نعم العون على تقوى الله الغنى»[1]، كما جاء في الحديث الشريف: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هل تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا؟»[2]، أي: «جاعل صاحبه مدهوشًا، ينسيه الطاعة، من الجوع والعري والتردد في طلب القوت»[3]، إضافة إلى ما يجلبه الفقر من حرمان، وانحراف للنفوس، قد ينهدم معه بنيان الأمة، يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ إذا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ»[4]؛ ومن ثم أوجب فقهاؤنا وجوب سعي الدولة نحو الغنى وكفاية الخلق، لما له من آثار إيجابية في أخلاقهم، وهذا ما بينه الإمام الماوردي، في تحليل نفسيّ يعد من الوثائق الفقهية عالية المستوى، في بيان طبيعة النفس الإنسانية ومحركاتها، وأسباب انحطاطها أو مدارج سلامتها، يقول في بيان القواعد التي تقوم عليها الدولة: «خصب دائم، أي: الوفرة في نتاج الأرض، والممتلكات والأموال، فبها يقل في الناس الحسد، وينتفي عنهم تباغض العدم، وتتسع النفوس، وتكثر المواساة والتواصل، وذلك من أقوى الدواعي لصلاح الدولة وانتظام أحوالها؛ لأن الخصب يؤول إلى الغنى، والغنى يورث الأمانة والشجاعة»[5].

فهذا واضح في أن «**اليسر المادي**»الذي يحققه نمو الإنتاج، واستثمار موارد الحياة، هدف يسعى إليه مجتمع المتقين، وتفرضه النظرية التي يتبناها هذا المجتمع

١- وقد نسبه الإمام الذهبي إلى التابعي الجليل: محمد بن المنكدر، ينظر: سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، ٥ / ٣٥٥.

٢- رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في المبادرة بالعمل، ٤ / ٥٥٢، حديث رقم: ٢٣٠٦، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، ورواه الحاكم في المستدرك، ٤ / ٣٥٦، حديث رقم: ٧٩٠٦.

٣- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، للمباركفوري، ٦ / ٤٨٨.

٤- متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب: الاستقراض، باب: من استعاذ في الدين،٢ / ٨٤٤، حديث رقم: ٢٢٦٧، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: ما يستعاذ منه في الصلاة، ١ / ٤١٢، حديث رقم: ٥٨٩.

٥- أدب الدنيا والدين، صـ١٢٧.

ويسير على ضوئها في الحياة، بعيدًا عن أخلاقيات الفقر، ومقتضيات الحاجة والعوز؛ ولعل ذلك كان هو السر في كثرة تعوذه ﷺ من «الكسل ورفاقه»، كما يقول الصحابي الجليل أنس ابن مالك رضي الله عنه: «كُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُلَّمَا نَزَلَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: اللهم إني أَعُوذُ بِكَ من الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ»[1]، ولعل ذلك كان هو السر أيضًا، في كثرة نهيه ﷺ عن «**التبطل و سؤال الناس**»، ودعوته إلى «**السعي**»في ساحات الحضارة، و«**الاحتطاب**» من قيمها وأخلاقها وعلومها ومدنيتها ومعاشها، ففي صحيح البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بيده لَأَنْ يَأْخُذَ أحدكم حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ على ظَهْرِهِ خَيْرٌ له من أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أو مَنَعَهُ»[2]، وفيه أيضًا عن الزُّبَيْرِ بن الْعَوَّامِ عن النبي ﷺ قال: «لَأَنْ يَأْخُذَ أحدكم حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ على ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ الله بها وَجْهَهُ خَيْرٌ له من أَنْ يَسْأَلَ الناس أَعْطَوْهُ أو مَنَعُوهُ»[3]، وفيه عن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ وَسَعِيد بن الْمُسَيَّبِ، أَنَّ حَكِيمَ بن حِزَامٍ رضي الله عنه قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قال: يا حَكِيمُ إِنَّ هذا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ له فيه، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لم يُبَارَكْ له فيه، وكان كَالَّذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ من الْيَدِ السُّفْلَى»[4]، وقوله عليه السلام: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ من الْيَدِ السُّفْلَى»، جملة بوركت في أمته ﷺ، وهي تزهِّد في المسألة، ومد اليد بالأخذ، ثم هي ترغِّب في الثروة، التي يتحقق فيها مد اليد بالعطاء، وحسب المال فضلًا أن تكون اليد به أعلى.

وبذلك يأخذ السعي الحي لبناء المستقبل- عبر التفاعل مع الكون اعتبارًا

١- صحيح البخاري، كتاب: الدعوات، باب: التعوذ من غلبة الرجال ٥ / ٢٣٤٠.حديث رقم: ٦٠٠٢.
٢- صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، ٢ / ٥٣٥،حديث رقم: ١٤٠١.
٣- صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، ٢ / ٥٣٥، حديث رقم: ١٤٠٢.
٤- صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، ٢ / ٥٣٥، حديث رقم: ١٤٠٣.

وتعميرًا في خط العبودية لله تعالى - يأخذ، في المفهوم الإسلامي، **صفة الواجب، ومفهوم العبادة، ويصير إرادة ربانية ينبغي أن يجري معها المسلم، وينحدر في تيارها، إعمالاً لمقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر، وتفعيلاً لمقاصد الشريعة في إعمار الكون، وتحقيقًا لمهام استخلاف الإنسان في الأرض.**

وفي ذلك دليل على فساد ما يذهب إليه البعض من الركون والدعة والبعد عن عمران الحياة، بدعوى «**الزهد**» متذرعين في ذلك بأحاديث من نحو حديث النبي ﷺ : «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ»[١]، وحديث: «أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ ما فيها، إلا ذِكْرُ اللهِ وما وَالَاهُ، وَعَالِمٌ أو مُتَعَلِّمٌ»[٢]. والحقيقة أنهم فهموا معنى الزهد فهمًا سلبيًّا، وهو ترك إعمار الحَياة، والسعي في الأرض، وهذا مناف لكل حقائق الإسلام، بل المراد من الزهد هنا كما هو واضح «**الزهد الإيجابي**» الذي يدعو المرء إلى إعمار الدنيا، والسعي فيها، وفق منهج الله في أمره ونهيه، ووفق قيم الإسلام الحاكمة والضابطة لسعي المسلم في الحياة، فلا يمتلك المرءَ مخيلةٌ ولا بطرٌ،ولا يتحكم فيه إسراف و لا

١- سنن ابن ماجه، ٢ / ١٣٧٣ كتاب: الزهد، باب: الزهدِ في الدنيا، رقم: ٤١٠١. والحاكم في المستدرك، ٤ / ٣٤٨، رقم: ٧٨٧٣، وروايته: "وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ"، قال: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه".

٢- رواه الترمذي في سننه، ٤ / ٥٦١، حديث رقم: ٢٣٢٢، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، ورواه ابن ماجه في سننه، ٢ / ١٣٧٧، حديث رقم: ٤١١٢. أما ما يذهب إليه بعضهم من أن النبي ﷺكان يأتي عليه أوقات يجوع فيها، ولا يجد فيها مالا؛ مما يعني أنه كان فقيرًا، فهذا يحتاج إلى مراجعة؛ إذ الحق أنه ﷺ كان غنيًّا، وقد أحصى الإمام السيوطي في تفسيره الدر المنثور، سورة الحشر، مصادر ثروة النبي ﷺ فظهر أنها كبيرة جدًا من الفيء والغنائم وغير ذلك، بيد أنه ﷺكان يدخر منها القليل وينفق الباقي على المسلمين، بل كان في غالب أمره لا يبيت منها شيء عنده، كما جاء في صحيح البخاري ج١ / ص٢٩١ عن عُقْبَةَ قال: "صَلَّيْتُ وَرَاءَ النبي ﷺ بِالْمَدِينَةِ الْعَصْرَ فَسَلَّمَ، ثُمَّ قام مُسْرِعًا، فَتَخَطَّى رِقَابَ الناس إلى بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ الناس من سُرْعَتِهِ فَخَرَجَ عليهم، فَرَأَى أَنَّهُمْ عَجِبُوا من سُرْعَتِهِ، فقال ذَكَرْتُ: شيئًا من تِبْرٍ عِنْدَنَا فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ". وفي صحيح ابن حبان،٢ / ٤١٩: "اشْتَدَّ وَجَعُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ سَبْعَةُ دَنَانِيرَ أَوْ تِسْعَةٌ، فقال يَا عَائِشَةُ مَا فَعَلَتْ تلك الذَّهَبُ؟ فَقُلْتُ هِيَ عِنْدِي، قال: تَصَدَّقِي بِهَا، قالَتْ: فَشُغِلْتُ بِهِ، ثُمَّ قَالَ يَا عَائِشَةُ: مَا فَعَلَتْ تِلْكَ الذَّهَبُ؟ فَقُلْتُ هِيَ عِنْدِي، فَقَالَ ائْتِنِي بِهَا، قَالَتْ: فَجِئْتُ بِهَا فَوَضَعَهَا فِي كَفِّهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟ مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟".

ترف، ولا يغتر بالدنيا وزينتها فيسيرَ فيها ظلمًا وطغيانًا وفسادًا، وبعيدًا عن كل ما من شأنه «أن يميت في النفس الاهتمام بالأعمال الصالحة، والمنافسة لاكتسابها، فينحدر به التوغل في الإقبال على اللذات إلى حضيض الإعراض عن الكمال النفساني، والاهتمام بالآداب الدينية»[1]، بل يكون سيدًا للدنيا لا عبدًا لها، ومالكًا للطيبات لا مملوكًا لها، مسخرًا الدنيا لنفسه وفق منهج ربه، وقد كان ذلك منهج نبيناﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم أجمعين، فقد كانﷺ يأكل من طيبات هذه الحياة، ولكنه لم يجعلها شغله الشاغل، ولا محور همومه،و كان من دعائهﷺ «اللهم إني أَعُوذُ بِكَ من الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ»[2]، كما كان منه أيضًا: «وَأَعُوذُ بِكَ من فِتْنَةِ الدُّنْيَا»[3]. فالمسلمون الذين يمارسونَ إعمار الأرض بوصفها جزءًا من السماء التي يتطلعون إليها، ويساهمون في تنمية الثروة باعتبارهم خلفاء عليها، أبعد ما يكونون عن «**الزهد السلبي**»الذي يقعد بالإنسان عن دوره في الخلافة، وأقرب ما يكونون إلى «**الزهد الإيجابي**»الذي يجعل منهم سادة للدنيا لا عبيدًا لها، ويحصنهم ضد التحول إلى طواغيت لاستغلال الآخرين، ونهب خيراتهم، فيكون سعيهم الحضاري في الحياة مؤطرًا بمبادئ الإسلام.

ثم إن هذا السعي في الفقه النبوي مشدود إلى مجموعة من القيم التي تتحكم فيه، أبرزها قيمتان:

١- التحرير والتنوير، ٢٠ / ١٧٨.

٢- سنن النسائي، باب: التعوذ في دبر الصلاة، ٣ / ٧٣، حديث رقم: ١٣٤٧. ورواه الحاكم في المستدرك ١ / ٩٠، حديث رقم: ٩٩)عن أبي بكرة قال: "سمعت رسول الله ﷺ، يقول: اللهم أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر "قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه "، وهو في صحيح ابن حبان،٣ / ٣٠٢، حديث رقم: ١٠٢٦، وروايته عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه "عَنْ رَسُولِ الله ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَيَعْتَدِلانِ؟! قَالَﷺ: نَعَمْ".

٣- صحيح البخاري، كتاب: الدعوات، باب: التعوذ من فتنة الدنيا، ٥ / ٢٣٤٧، حديث رقم: ٦٠٧٢.

١. **إحسان السعي**، وذلك بإتقان الصنعة، وصلاحها، وحسن بقائها، مع نهاية في تجويدها وإحكامها، وهي قيمة ذات بعد مستقبلي، على معنى أن هذا «**الإحسان الحضاري**»ليس من مطلوبات الدين، باعتبار ما يتحقق به للإنسان من منفعة آنية ظاهرة فحسب، بل هو مقتضى من مقتضيات الأمر الإلهي؛ **إذ العبد مسؤول عن إحسان سعيه أمام ربه يوم القيامة**، وهذا مقتضى قول النبيﷺ: «إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ على كل شَيْءٍ»[1]، وقولهﷺ: «إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يحبُّ إذا عَمِلَ أحدُكم عملًا أن يُتقنَه»[2]، قال الإمام المُناوي: «أي يحكمه، كما جاء مصرحًا به في رواية؛ وذلك لأنّ الإمداد الإلهي ينزل على العامل بحسب عمله، فكل من كان عمله أتقن وأكمل فالحسنات تضاعف أكثر ،وإذا أكثر العبد أحبه الله تعالى»[3]، وقال أيضًا في موضع آخر: «فعلى الصانع الذي استعمله الله في الصور والآلات والعُدد مثلًا أن يعمل بما علمه الله عمل إتقان وإحسان، بقصد نفع خلق الله الذي استعمله في ذلك، ولا يعمل على نية أنه إن لم يعمل ضاع، ولا على مقدار الأجرة، بل على حسب إتقان ما تقتضيه الصنعة، فمتى قصر الصانع في العمل لنقص الأجرة، فقد كفر ما علمه الله، وربما سُلب الإتقانَ»[4].

وفي حديث ذي دلالة ولمسة حضارية رائعة في أهمية تجويد العمل وتحسينه باعتباره مقتضى إلهيًّا، بعيدًا عن النفع الآني المشهود، يقول عاصم بن كليب الجرمي : «حدثني أبي كليب أنه شهد مع أبيه جنازة شهدها رسول الله ﷺوأنا

١- رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الصيد والذبائح، باب: الأمر بإحسان الذبح، ٣/ ١٥٤٨، حديث رقم: ١٩٥٥.

٢- رواه البيهقي في شعب الإيمان، ٤/ ٣٣٤، حديث رقم: ٥٣١٢. وهو في المعجم الأوسط، ١/ ٢٧٥، حديث رقم: ٨٩٧، في مجمع الزوائد ج٤/ ص٩٨: "رواه أبو يعلي، وفيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة". وقد صححه الألباني، ذاكرًا شواهد تقويه، ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٣/ ١٠٦، حديث رقم: ١١١٣.

٣- التيسير بشرح الجامع الصغير، ١/ ٢٦٩.

٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، ٢/ ٢٨٦-٢٨٧.

غلام أعقل وأفهم، فانتهى بالجنازة إلى القبر، ولم يُمكَّن لها، قال: «فَجَعل رسولُ الله ﷺ يقول: سَوُّوا لحدَ هذا، حتى ظنَّ الناسُ أنه سُنةٌ، فالتفتَ إليهم، فقال: أَمَا إنَّ هذا لا ينفعُ الميتَ ولا يَضُرُه، ولكنَّ اللهَ يحبُّ مِن العامِلِ إذا عَمِل أن يُحسنَ»[1]، لأن الفعل الحسن الصالح هو وحده القادر على تشييد وعمارة الحياة التي يريدها خالق الحياة والأحياء، وهذا الفقه من النمط العالي الذي ينبغي أن تُربى عليه الأمة في بناء مستقبلها.

٢. **السماحة والصدقة**، فينبغي للمسلم في سعيه الحضاري، وتعميره الأرض، أن يكون سمحًا، مكثرًا من الصدقة؛ شُكرًا للمنعم الذي وهب، ورحمة بعباده الذين خلق، وأن تكون نفسه يقظة واعية في مباشرتها وتعاملها مع ما يفيض عليها ربها من نعم، حتى تزداد هذه النعم ثراء، ويزداد حسنها حسنًا، ويزداد عطاؤها عطاء، وهذا معنى جيد وتوجيه بالغ الوعي في «**تحريك الحياة**» فقد قال ﷺ : «إنَّ هذا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِم ما أَعْطَى منه الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وابن السَّبِيلِ، أو كما قال النبي ﷺ، وَإِنَّهُ من يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عليه يوم الْقِيَامَةِ»[2]، ووراء جملة المدح هذه، «فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِم ما أَعْطَى منه الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وابن السَّبِيلِ «معنى أنه: بئس المال صاحبًا، إذا ضُيِّع فيه حق اليتيم والمسكين وابن السبيل، وكأنه سلاح ذو حدين، قال الشيخ أبو حامد: مثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع، وسم ناقع، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز من شرها، وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة، وإن أصابها

١- رواه البيهقي في شعب الإيمان، ٤ / ٣٣٥، حديث رقم: ٥٣١٥. وروى نحوه الطبراني في المعجم الكبير، ١٩ / ١٩٩.

٢- متفق عليه، واللفظ للبخاري، صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الصدقة على اليتامى، ٢ / ٥٣٢، حديث رقم: ١٣٩٦. وصحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، ٢ / ٧٢٨، حديث رقم: ١٠٥٢

السوادي الغبي فهي عليه بلاء مهلك»[1]. وما أكثر السوادي الغبي في أيامنا هذه، وإذا كان هذا الحديث يعلمنا «**سخاوة العطاء**»فإن هناك حديثًا مكملًا له، يعلمنا «**سخاوة الأخذ**»، فعن حَكيم بن حزَام ﷺقال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ فَأَعْطَاني ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَاني، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَاني، ثُمَّ قال: يا حَكيمُ إنَّ هذا الْمَالَ خَضرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بسَخَاوَة نَفْس بُورِكَ له فيه، وَمَنْ أَخَذَهُ بإِشْرَاف نَفْس لم يُبَارَكْ له فيه، وكانَ كَالَّذي يَأْكُلُ ولاَ يَشْبَعُ الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ منَ الْيَد السُّفْلَى»[2]. وكأن «**السخاء**»في التوجيه النبوي الشريف ملازم للمال، لمعطيه ولآخذه، وإذا تعاملنا مع الثروة بسخاء عطاء، وسخاء أخذ، أي: من غير استشراف، ولا تطلع، ولا حرص، كانت نعم الصاحب، وكانت موضع البركة، وهذا معنى: «**بُورك له فيه**». وقد قال علماؤنا[3]: إن البركة خلق من خلق الله، يعني حقيقة من حقائق خلقه سبحانه، يعمل بها الدرهم عمل الدينار، وبدونها لا يعمل الدينار عمل الدرهم، والكلام النبوي الشريف يقرن البركة بالسخاوة، وأن المال يسخو، أي: يزيد مع النفس السخية، التي لا تستشرف إليه، ولا تدعه يدب إلى جوهرها، فيكون سعيها في تحريك الحياة قائمًا على «السماحة في المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم»[4].

وهكذا، فحينما يلتقي الأمران- «**صواب التعامل مع الثروة**»على الوجه الذي يجلب نفعها ويكف ضررها، ثم «**ضبط إحساس النفس**»وكف جماحها حتى لا تفترسها هذه «**الخضرة الحلوة**»- ترى الثروة تنمو وتتكاثر، وتنفع وتكون

١- عمدة القاري، شرح صحيح البخاري٩ / ٤١.
٢- صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف في المسألة، ٢ / ٥٣٤، حديث رقم: ١٤٠٣.
٣- فتح الباري، ٣ / ٣٢٧، وعمدة القاري، ٩ / ٥٣.
٤- فتح الباري، ٤ / ٣٠٧.

ثروة برَّةً بالمسكين واليتيم وابن السبيل؛ ومن ثم حرم الإسلام كل سعي في الحياة، يكون قائمًا على استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، أيًّا كان.

***

ثانيًا: الائتمان الكوني

وهذا أصل الأصول، والقيمة الجامعة التي تتحكم في كل سعي المسلم، في إطار جدلية الإنسان والطبيعة من منظور كوني استخلافي؛ فالإنسان، وفق المنظور الإسلامي، إذ سخر الله له الكون، واستخلفه فيه، فهو مؤتمن عليه، وعلاقته بالكون، في جوهرها، ليست علاقة مالك بمملوك، وإنما هي علاقة أمين على أمانة استؤمن عليها، وفق مفهوم التسخير، ومقتضيات الاستخلاف.

و«**الائتمان الكوني**»مفهوم حاولنا تركيبه؛ لما يحمله من معان ودلالات مستبطنة في تعاليم الوحي قرآنًا وسنة، من حيث وجوب التزام الإنسان، ماديًّا وأخلاقيًّا، نحو كل الموجودات والأشياء في الكون، فيما له هو منها، وما لها هي منه، ولما يضيفه هذا المفهوم من وعي حضاري في «**تحريك الحياة**»وفقًا للمبدأ الإسلامي: «**أن المخلوقات كلها، على تفاوتها، بعضها قريب لبعض**»، و«**أن لكل خَلق حقًا أو حقوقًا تخصه**»، فيأتي فعل الإنسان الحضاري معها متصفًا بـ «**مشروعية المنطلقات**»و«**سلامة المآلات**».

وهذا المفهوم «**الائتمان الكوني**»في بنائه الإسلامي، بما يفيده من «**حفظ الحقوق**»و«**مراعاة الأخلاق**» يقوم على أبعاد ثلاثة في غاية الأهمية، تمثل قيمًا تليق بعالم صادر عن الله، ومتجه إلى الله، وصائر إلى الله في نهاية المطاف (**وهو ما يلخص جدلية الإنسان والطبيعة من منظور كوني استخلافي**)، وهذه الأبعاد هي:

١. **التفاعل الإيجابي مع مفردات الكون ومعطياته**[١]، تفاعلًا يكون للقيم الأخلاقية فيه النصيب الوفير في توجيه حركة الإنسان في تعامله مع الكون المؤتمن عليه، انتفاعًا بالمقدرات المودعة فيه، ورفقًا به، وحفاظًا له من أن يناله فساد، وبعيدًا عن أي معنى من معاني القهر والصراع «بحيث تنتفي منه معاني الاستهتار واللامبالاة، كما تنتفي معاني الأنانية والأثرة، ومعاني الحقد والتسلط والاحتقار»[٢].

وفي سياق هذا البعد «**التفاعل الإيجابي مع مفردات الكون و معطياته**»:

- نهى الإسلام عن استخدام معطيات الكون في غير ما هي له، أو إتيانها في غير مآتيها، مما يعطل منافعها، ويبدد مقدراتها في غير وجه، ففي إشارة تمثل أصلًا جامعًا من أصول الفقه الحضاري في الإسلام، يقول النبيﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ على بَقَرَة، الْتَفَتَتْ إليه، فقالت: لم أُخْلَقْ لِهَذَا؛ خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَة»[٣]، وفي رواية: «بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً، قد حَمَلَ عليها، فَالْتَفَتَتْ إليه، فَكَلَّمَتْهُ، فقالت: إني لم أُخْلَقْ لِهَذَا وَلَكِنِّي خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ»[٤]، قال العلامة ابن حجر: «استدل به على أن الدواب لا تستعمل إلا فيما جرت العادة باستعمالها فيه»[٥]؛ إذ لو عوملت الأشياء من غير وجهها فإنها لا تعطي شيئًا، بل أحيانًا تنتقم لنفسها فتعطي ضرًا من حيث أريد منها النفع .

١- "التفاعل الإيجابي"جزء من السعي الحي للإنسان، فإن كان "السعي الحي"مصطلحا اشتققناه لكل حركة صالحة في الحياة تعاملا مع الإنسان وغيره من مقدرات الحياة، فإن "التفاعل الإيجابي"مصطلح اشتققناه لكل حركة صالحة في التعامل مع المكونات البيئية المحيطة بالإنسان، وجوديًا وأخلاقيًا. وقد أردناه مصطلحًا إسلاميًا يكون بديلًا عما شاع في الآونة الأخيرة من مصطلح "الفلسفة البيئية وأخلاق الأرض"إذ إنه أكثر دلالة منه في نفي معاني العبثية في التعامل مع مفردات الكون وعطاءاتها، بالإضافة إلى ما يفيده هذا المصطلح من "حسن الصحبة". والله أعلم.

٢- قضايا البيئة من منظور إسلامي، د. عبد المجيد النجار، صـ١٩٧.

٣- صحيح البخاري، كتاب: المزارعة، باب: استعمال البقر للحراثة،٢ / ٨١٧، حديث رقم: ٢١٩٩.

٤- صحيح البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل حديث رقم: ٣٤٦٣.

٥- فتح الباري، ٦ / ٥١٨.

- كما نهى الإسلام عن تعطيل أيٍّ من ثروات الكون، وسحبها عن مجالات الانتفاع والاستثمار، واعتبر الإسلام فكرة تعطيل هذه الثروات أو إهمالها، لونًا من ألوان الجحود، وكفرانًا بالنعمة التي أنعم الله بها على عباده، فقرر أن الأرض لمن يزرعها ويقوم باستثمار منافعها، وهو ما يعرف في الفقه الإسلامي بـ «**إحياء الموات**» أي: خدمة الأرض وبناؤها، فقد جاء في صحيح البخاري : «بَاب من أَحْيَا أَرْضًا مَوَاتًا، وَرَأَى ذلك عَلِيٌّ في أَرْضِ الْخَرَابِ بِالْكُوفَةِ مَوَاتٌ، وقال عُمَرُ: من أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ له، وَيُرْوَى عن عمرو بن عَوْفٍ عن النبي»[1]. قال ابن حجر: «**الموات**» الأرض التي لم تعمَّر، شبهت العمارة بالحياة، وتعطيلها بفقد الحياة، و«**إحياء الموات**» أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم ملك عليها لأحد، فيحييها بالسقي، أو الزرع، أو الغرس، أو البناء، فتصير بذلك ملكه، سواء كانت فيما قرب من العمران أم بعد، سواء أذن له الإمام في ذلك أم لم يأذن. وهذا قول الجمهور[2]. وفي هذا يقول الإمام ابن حزم: «كُلُّ أَرْضٍ لاَ مَالِكَ لها، وَلاَ يُعْرَفُ أنها عُمِّرَتْ في الإِسْلاَمِ، فَهِيَ لِمَنْ سَبَقَ إلَيْهَا وَأَحْيَاهَا»[3].

- جعل ﷺ تعطيل ثروات الأرض، أو إهمالها، سببًا في نزعها من صاحبها، فقال ﷺ: «من كانت له أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، فَإِنْ لم يَزْرَعْهَا فَلْيُزْرِعْهَا أَخَاهُ»[4]، ومن ذلك ما ورد أن رسول الله ﷺ أقطع بلال بن الحارث أرضًا، فاحتجرها ولم يُعمِّرها، فلما كانت خلافة عمر ؓ، قال له : «يا بلال، إنك استقطعت رسول الله ﷺ أرضًا طويلة عريضة فقطعها لك، وإن رسول الله ﷺ لم يكن يمنع شيئًا يُسأله، وأنت لا تطيق ما في يديك. فقال: أجل. فقال: فانظر ما

١- صحيح البخاري، ٢ / ٨٢٣.
٢- فتح الباري، ٥ / ١٨.
٣- المحلى، ٨ / ٢٣٣.
٤- متفق عليه، واللفظ لمسلم، كتاب: البيوع، باب: كراء الأرض، ٣ / ١١٧٦، حديث رقم: ١٥٣٦. وصحيح البخاري، كتاب: الهبة وفضلها، باب: فضل المنيحة، ٢ / ٩٢٧، حديث رقم: ٢٤٨٩.

قويت عليه منها فأمسكه، وما لم تطق وما لم تقو عليه فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين، فقال: لا أفعل، هذا شيء أقطعنيه رسول الله ﷺ، فقال عمر: والله لتفعلن، فأخذ منه ما عجز عن عمارته، فقسمه بين المسلمين»[1].

- ومن ثم نهى الإسلام عن «**الحِمى**»، وهو اكتناز أرض وحيازتها بالقوة، بلا أية حركة لإحيائها واستثمارها، فقال ﷺ: «لا حِمَى إلا لِلهِ وَرَسُولِهِ». وفي حديث ذي دلالة موحية على منع كل حركة في الحياة تؤدي إلى تعطيل ثرواتها، أو منع نمائها، فقد روي عن عبد الله بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، قوله: «نهى رسول اللَّه ﷺ عن إِخْصَاءِ الْخَيْلِ وَالْبَهَائِم، وقال ابن عُمَرَ: فيها نَمَاءُ الْخَلْقِ»[2]، ومن ذلك قول النبي ﷺ لمضيفه الأنصاري الذي أراد إكرامه بذبح شاة: «إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ»[3]؛ لما في ذلك من قطع للانتفاع بحليبها، مع أن في ذبح غير الحلوب ما يغني عن ذبحها، وفي ذلك كله، دلالة على أنه لا يجوز أن تعطل معطيات الكون عن: «دورها الإيجابي في الإنتاج، بل يجب أن تظل دائماً عاملاً قوياً يساهم في رخاء الإنسان، ويُسرِ الحياة، فإذا حال الحق الخاص دون قيامها بهذا الدور، أُلغي هذا الحق، وكيفت بالشكل الذي يتيح لها الإنتاج»[4].

٢. **القوامة وضرورتها في تنظيم علاقة الإنسان بالكون المسخَّر له**، وهذا هو البعد الثاني في مفهوم «**الائتمان الكوني**»، فعلاقة الإنسان بالكون وما فيه من

١- الخراج، ليحيى بن آدم القرشي، صـ١١٠. والحديث في سنن البيهقي الكبرى،٦/ ١٤٩، حديث رقم: ١١٦٠٥.

٢- رواه الإمام أحمد في مسنده، ٢/ ٢٤، حديث رقم: ٤٧٦٩.قال في تحفة الأحوذي٤/ ١٧٠: "رواه أحمد والطحاوي بإسناد ضعيف"، قال الألباني: "لكن للحديث طرق أخرى تجعله بمجموع طرقه بمرتبة الحسن على أقل الدرجات".ينظر: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، صـ٢٨٠، حديث رقم: ٤٨٢.

٣- صحيح مسلم،كتاب: الأضاحي، باب: جَوَازِ اسْتِتْبَاعِهِ غَيْرَهُ إلى دَارِ من يَثِقُ بِرِضَاهُ بِذَلِكَ، ٣/ ١٦٠٩، رقم: ٢٠٣٨.

٤- ينظر: مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، د. عبد المجيد النجار، صـ٢٣١، ودور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، صـ١٦١، وما بعدها.

عالم الأشياء، وفق المنظور الإسلامي، هي علاقة «**قوامة**». و«**القوامة**»مفهوم إسلامي يدل في بنائه على «**آداب سلوكية**» تقوم على: «**الرعاية والإشراف**» و«**المحافظة والإصلاح**» و«**اتقاء عناصر التهديم والتدمير**»[1]. ووفق هذا المفهوم «**القوامة**»فإن علاقة المسلم بالكون، باعتباره قيِّمًا عليه، مؤطرة بأصول وقيم، مشتقة من الفطرة الإنسانية في خيريتها، ومحددة بتعاليم الشريعة في مسالكها، على النحو الآتي:

- **الرفق والرحمة**، فالتراحم، في المنظور الإسلامي، لا يقوم بين الإنسان وأخيه الإنسان فحسب، بل يقوم أيضًا بينه وبين الأشياء من حوله، فينبغي أن تكون أخلاق الإنسان مع الكون بكل مظاهره غاية الرحمة، رحمة الإنسان بأخيه الإنسان نوعًا وقدرًا؛ ليس حفظًا لقيمة الوجود، واحترامًا لوحدة الأصل، فحسب، بل أيضًا لأن الكون لا ينفك يبادلنا هذه الرحمة، وقد غمرنا بعطاءاته ورحماته، وما يزال يغمرنا، وقاعدة الإسلام الكبرى في ذلك: قول النبي ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكُمْ من في السَّمَاءِ»[2]. قال العلامة المُناوي: «بصيغة العموم، يشمل جميع أصناف الخلائق، فيرحم البر والفاجر، والناطق والمبهم، والوحش والطير»[3]. وفي هذا السياق يأتي حديث عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه، قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَته، فَرَأَيْنَا حُمَرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتْ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ، فَجَاءَ النبي ﷺ فقال: من فَجَعَ هذه بوَلَدِهَا؟! رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا، وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قد حَرَّقْنَاهَا، فقال: من حَرَّقَ هذه؟! قُلْنَا: نَحْنُ. قال: إنه لَا يَنْبَغِي أَنْ

١- لسان العرب، مادة (قوم).

٢- رواه الترمذي في سننه، ٤ / ٣٢٣، حديث رقم: ١٩٢٤، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ثم قال: "هذا حديث حسن صحيح".

٣- فيض القدير، ١ / ٤٧٣.

يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إلا رَبُّ النَّارِ»[1]؛ ولهذا قرر علماؤنا أن «الرفق بالدواب في ركوبها والحمل عليها، وكذلك سائر الموجودات، واجب، وهذه مسألة عظيمة الأجر والعقاب، وكذا تحميل الدواب أكثر مما تقدر عليه بحسب العادة، وغير ذلك. وذلك كله من نزع الرحمة من القلوب»[2].

وفي هذا قد جاءت أحاديث شتى، منها: حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺقال: «بيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عليه الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ منها ثُمَّ خَرَجَ، فإذا هو بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى من الْعَطَشِ، فقال لقد بَلَغَ هذا مِثْلُ الذي بَلَغَ بي، فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ الله له فَغَفَرَ له، قالوا يا رَسُولَ اللَّه: وَإِنَّ لنا في الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟! قال: في كل كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[3]، وعن أبي هُرَيْرَةَ قال: «قَال رسول الله ﷺ بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ، قد كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ من بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا(أي: خفها) فَاسْتَقَتْ له به، فَسَقَتْهُ إِيَّاهُ فَغُفِرَ لها به»[4]، وعن عبد اللَّه بن عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قال: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ في هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حتى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فيها النَّارَ، قال فقال: وَاللَّهُ أَعْلَمُ، لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا ولا سَقَيْتِهَا حين حبستها، ولا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ من خَشَاشِ الأرض»[5]، وعن سَهْلِ بن الْحَنْظَلِيَّةِ، قال: «مَرَّ رسول اللَّه ﷺ بِبَعِيرٍ قد لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ، فقال: اتَّقُوا اللَّهَ في هذه الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا

١- سنن أبي داود، ٣/ ٥٥، حديث رقم: ٢٦٧٥. وهو حديث صحيح، ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، ١/ ٦٤، حديث رقم: ٢٥.

٢- التراتيب الإدارية لنظام الحكومة النبوية، للشيخ عبد الحي الكتاني، ٢/ ١٥٢-١٥٣.

٣- متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب: المساقاة والشرب، باب: فضل سقي الماء، ٢/ ٨٣٣، حديث رقم: ٢٢٣٤. وصحيح مسلم، كتاب: السلام، باب: فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، ٤/ ١٧٦١، حديث رقم: ٢٢٤٤.

٤- متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، ٣/ ١٢٧٩، حديث رقم: ٣٢٨٠، و صحيح مسلم، كتاب: السلام، باب: فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، ٤/ ١٧٦١، حديث رقم: ٢٢٤٥.

٥- المرجع السابق، حديث رقم: ٢٢٣٦

صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً»[1].

- **المحافظة والحماية، فـ«قوامة»** الإنسان على الكون تقتضي الاجتهاد في نماء مفرداته، وتثميرها، وإيصال المنافع إليه، وصيانته، والحفاظ عليه من كل حركة تعبث بمعطياته، أو تستهتر بمقدراته، أو تعطل منافعه، وقد قرر علماء الإسلام «أن مقصد الشريعة من التشريع: حفظ نظام العالم، وضبط تصرف الناس فيه، على وجه يعصم من التفاسد والتهالك»[2]؛ ومن ثم جعل الإسلام تنمية الكون بالعطاء فيه من أوكد العبادات، حتى وإن قامت الساعة لا يتخلى عنها الإنسان، كما جاء في حديثه ﷺ: «إن قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فإن اسْتَطَاعَ أَلّا يَقُومَ حتى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ، وفي رواية: فَلْيَغْرِسْهَا»[3]، كما جعل «إماطة الأذى عن الطريق «عبادة، وشعبة من شعب الإيمان، كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إلا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ»[4]، وهذا يؤسس لفقه شغوف بـ«حسن المجاورة والصحبة لنعم الله تعالى، ووجوب حراستها». ومن التوجيهات النبوية ذات الدلالة في هذا الشأن ما روي عن أمنا عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «دخل رسول الله ﷺ يومًا، فرأى كسرة ملقاة، فمشى إليها فأخذها فمسحها ثم أكلها، ثم قال: يا عائشة، أحسني جوار نعم الله؛ فإنها قلما تزول

١- رواه أبو داود في سننه، ٣ / ٢٣، حديث رقم: ٢٥٤٨. قال الحسيني في البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث: ١ / ٢٤: "أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن خزيمة في صحيحه وابن حبان عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه، قال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح، وقال النووي في الرياض بعد عزوه لأبي داود: إسناده صحيح،ورمز السيوطي لصحته "وقد وروى أحمد وأبو يعلى في مسندة والطبراني والحاكم عن معاذ بن أنس: "اركبوا هذه الدواب سالمة، وابتدعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق؛ فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكر الله منه".

٢- مقاصد الشريعة الإسلامية، للشيخ الطاهر بن عاشور، صـ٢٣٠.

٣- سبق تخريجه.

٤- كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان، ١ / ٦٣، حديث رقم: ٣٥.

عن أهل بيت، فكادت أن تعود إليهم»[1]، وقوله ﷺ، فيما يرويه أنس رضي الله عنه: «إذا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيُمِطْ عنها الْأَذَى، وَلْيَأْكُلْهَا ولا يَدَعْهَا للشَّيْطَان، وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْلُتَ الْقَصْعَةَ (تتبع ما بقي فيها من الطعام)، قال: فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ في أَيِّ طَعَامِكُمْ الْبَرَكَةُ»[2]. فهذان الحديثان، وغيرهما كثير، يدلان على وجوب «حسن المجاورة لنعم الله، من تعظيمها، و تعظيمها شكرها. و أن الرمي بها من الاستخفاف بها، و ذلك من الكفران، و الكفور ممقوت مسلوب، فارتباط النعم في شكرها، و زوالها في كفرانها، ومن عظمها فقد ابتدأ في شكرها، و من صغرها أو استخف بها فقد تعرض لزوالها»[3].

- **الزهد أو«الإيثار الكوني»**، وليس المراد هنا الزهد بمفهومه السلبي، الذي يُعنى به: الاستقالة من دور التعمير في الكون، و الهروب من السعي الحضاري في الحياة، بل المراد: «الزهد الإيجابي» القائم على «**التقلل**»و«**الاعتدال**»في التعامل مع مقدرات الكون، وموارده، تعامل القيِّم الراعي المحكوم بمقاصد الشرع، لا تعامل الشهواني المستهتر، المحكوم بمقتضيات الشهوة. فينتفع بعطاءات الكون وفق ماتقتضيه وظيفته الاستخلافية من جهة، وتتحمله مقدرات الكون من جهة ثانية، ووفق رؤيةٍ لا تكون فيها هذه الحياة الدنيا هي كل الحياة، لا من حيث الوجود، ولا من حيث الأثر المترتب على الدور الوظيفي، وإنما ستتلوها حياة أخرى بعدها أعلى منها شأناً من جهة ثالثة، مما يضمن الحفاظ على مقدرات الكون ومعطياته، و تواصل عطائها، وسيرورة نموها وإثمارها. وقد تراوحت تعاليم الإسلام في ذلك، بين أمرين، يضبطان الكم والكيف، هما:

١- رواه الطبراني في المعجم الأوسط، ٦/ ٢٩٣، حديث رقم: ٦٤٥١، وللحديث روايات ذكرها الإمام العجلوني في كشف الخفاء، ١/ ٢٨٠. وهو حديث ضعيف الإسناد، ينظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، للكناني، ٤/ ٣١.

٢- صحيح مسلم، كتاب: الأشربة، باب: استحباب لعق الأصابع والقصعة، ٣/ ١٦٠٧، حديث رقم ٢٠٣٣.

٣- نوادر الأصول في أحاديث الرسول، للحكيم الترمذي، ٢/ ٢٦٤.

أولًا: الدعوة إلى الانتفاع(١) بمعطيات الكون وفق الحاجة، وعلى مقتضى التقلل والاعتدال، مما يحفظ توازنه، ويصون كفاءته في إعالة الحياة، قال تعالى، في صفات عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾(الفرقان: ٦٧)، و«قَوَامًا»أي: معتدلًا في النفقة، «فأدب الشرع فيها: ألّا يفرط الإنسان حتى يضيع حقًا آخر أو عيالًا ونحو هذا، و ألّا يضيق أيضًا ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح. والحسن في ذلك هو القوام، أي: المعتدل. والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب، أو ضد هذه الخصال، وخير الأمور أوسطها»(٢)، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾(الإسراء: ٢٩)، ومن مداد ذلك قوله ﷺ: «مَا ملأ آدميٌّ وعَاءً شَرًّا من بَطْنٍ، حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ غَلَبَتْ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ، فَثُلُثٌ للطَّعَامِ، وَثُلُثٌ للشَّرَابِ، وَثُلُثٌ للنَّفَسِ»(٣)؛ ومن ثم كان من دعائه ﷺ: «اللهم ارْزُقْ آلَ مُحَمَّدٍ قُوتًا»(٤)، وكان يقول ﷺ: «قد أَفْلَحَ من أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا،

١- نستخدم مصطلح "الانتفاع "لبيان علاقة الإنسان بمقدرات الكون ومعطياته، وهو مفهوم قرآني، مشتق من "النفع "قال الإمام الراغب(المفردات، ٥٠٢): "النفع ما يستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يتوصل به إلى الخير فهو خير "فهو مفهوم في بنائه يدل على: طلب ما فيه خير من الكون، والسعي في الانتفاع به، دون الإضرار به. بخلاف مصطلح "الاستهلاك "فهو مشتق من "هلك "و "استهلك الشيء "بمعنى: أنفقه وأنفده (لسان العرب، مادة: هلك)، وهو بهذا مفهوم يخالف الطبيعة التي ينبغي أن يكون التعامل بها مع معطيات الكون، وهو الانتفاع بها وخيراتها، لا إهلاكها وإنفادها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فهو مصطلح خدّاع، كما يقول آل جور(الأرض في الميزان، صـ١٥١)؛ إذ يفترض أن المواد التي يتم استهلاكها على اختلاف أنواعها يختفي آثارها تمامًا، ومن ثم لا يُعبأ بآثارها، والحقيقة أن الأمر ليس كذلك، بل يترتب عليها ألوان كثيرة من الفضلات، التي لم يكن يُلتفت إليها، حتى أصبحت تشكل أزمة وجزءًا لا يتجزأ من أزمة الحضارة الصناعية بصفة عامة.

٢- المحرر الوجيز، في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، ٤ / ٢٢٠.

٣- رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل، ٤ / ٥٩٠، حديث رقم: ٢٣٨٠، وقال: "هذا حديث حسن صحيح "ورواه ابن ماجه في سننه، باب: الاقتصاد في الأكل وكراهية الشبع، ٢ / ١١١١، حديث رقم: ٣٣٤٩.

٤- متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب: الرقاق، باب: كيف كان عيش النبيﷺ وأصحابه، ٥ / ٢٣٧٣، حديث رقم: ٦٠٩٤، وصحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة،٢ / ٧٣٠، حديث رقم: ١٠٥٥.

وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»[1]، قال العلامة ابن حجر: «والكفاف: الكفاية بلا زيادة ولا نقصان، وقال القرطبي: هو ما يَكُفُّ عن الحاجات، ويَدفع الضرورات، ولا يُلحق بأهل الترفهات . ومعنى الحديث: أن من اتصف بتلك الصفات حصل على مطلوبه، وظفر بمرغوبه في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال ﷺ: اللهم ارْزُقْ آلَ مُحَمَّد قُوتًا، أي: اكفهم من القوت بما لا يرهقهم إلى ذل المسألة، ولا يكون فيه فضولٌ تبعث على الترفه، والتبسط في الدنيا»[2]. وقد بين النبي ﷺ أن «**الأمن**»و«**العافية**»و«**الكفاية**»هي جماع أمور الدنيا، فقال: «مَن أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا في سِرْبِهِ، مُعَافًى في جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ له الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»[3].

ثانيًا: النهي عن الإسراف والتبذير[4]، فالمسلم إذا كان مطالَبًا، في إطار قوامته على الكون، واستنفاعه بمقدراته، بالقصد والاعتدال، فهو مطالَبٌ أيضًا، في إطار هذه القوامة، بعدم الإسراف والتبذير في التعامل مع ما عطاءاته، وذلك بألا يكثر مما لا خير فيه، وألا ينفقه في غير حقه، أو في غير ما تلبية لحاجة من حاجاته الحقيقية، بل يضيق منافذ الانتفاع بعطاءات الكون، وفق مقاصد الشرع، ناظرًا إليها على أنها «نعمة لا يجوز إهدارها، مع تحديد حاجات الإنسان، والقضاء على المبالغة في الاستخدام والتلذذ بالأشياء، مما يضعف مفهوم «**تعدد الحاجات**»الذي روجت

١- صحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: في الكفاف والقناعة،٢ / ٧٣٠، حديث رقم: ١٠٥٤.
٢- فتح الباري، ١١ / ٢٧٥.
٣- رواه البخاري في الأدب المفرد، ١ / ١١٢، حديث رقم: ٣٠٠، ورواه الترمذي في سننه، واللفظ له، ٤ / ٥٧٤، حديث رقم: ٢٣٤٦، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، وابن ماجه في سننه، ٢ / ١٣٨٧، حديث رقم: ٤١٤١.
٤- الإسراف والتبذير لفظان مترادفان عند جمهور أهل اللغة، بمعنى: مجاوزة الحد في الاعتدال، كما جاء في تاج العروس، ٢٢ / ٤٢٨. وقد حاول الإمام الماوردي التفرقة بينهما، فقال: "اعْلَمْ أَنَّ السَّرَفَ وَالتَّبْذِيرَ قَدْ يَفْتَرِقُ مَعْنَاهُمَا، فَالسَّرَفُ : هُوَ الْجَهْلُ بِمَقَادِيرِ الْحُقُوقِ، وَالتَّبْذِيرُ: هُوَ الْجَهْلُ بِمَوَاقِعِ الْحُقُوقِ، وَكِلَاهُمَا مَذْمُومٌ، وَذَمُّ التَّبْذِيرِ أَعْظَمُ؛ لِأَنَّ الْمُسْرِفَ يُخْطِئُ فِي الزِّيَادَةِ، وَالْمُبَذِّرُ يُخْطِئُ فِي الْجَهْلِ، وَمَنْ جَهِلَ مَوَاقِعَ الْحُقُوقِ وَمَقَادِيرَهَا بِمَالِهِ وَأَخْطَأَهَا، فَهُوَ كَمَنْ جَهِلَهَا بِفَعَالِهِ فَتَعَدَّاهَا، وَكَمَا أَنَّهُ بِتَبْذِيرِهِ قَدْ يَضَعُ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَهَكَذَا قَدْ يَعْدِلُ بِهِ عَنْ مَوْضِعِهِ". أدب الدنيا والدين، صـ١٨٧.

له وسائل الدعاية والإعلان، إلى حد جعل الإنسان في خدمة «**الاستهلاك**»أي أن يكون «**الاستهلاك**»أصبح غاية أو نقطة جذب يسعى إليها الإنسان، رغم أنه قد لا يكون محتاجًا إليها»(١)؛ومن ثم كان تهذيب النفس، وترويضها على التقلل والاعتدال، وعدم التبذير والسرف، في المأكل والمشرب و والملبس والبنيان وسائر مظاهر الحياة، أصلًا من أصول الفقه الحضاري في الإسلام، وشرطًا من شروط تحريك الحياة في كل مظاهرها، حالًا ومآلًا، ولعل من أبرز الدلالات على نهي الإسلام عن «**الإسراف**»ما رواه ابن ماجه من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ من السَّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ ما اشْتَهَيْتَ»(٢)، وكذلك ما رواه أيضًا من طريق عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِسَعْدٍ، وهو يَتَوَضَّأُ، فقال: ما هذا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟! فقال: أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ؟ قَال: نعم، وَإِنْ كُنْتَ على نَهَرٍ جَارٍ»(٣)، وقوله ﷺ: «وَإِنْ كُنْتَ على نَهَرٍ جَارٍ»يدل على أن نهي الإسلام عن «الإسراف»في التعامل مع موارد الحياة،إجراء إسلامي ممتد في حياة المسلم، ولا يتعلق بـ «الوفرة في هذه الموارد أو بالقلة، ولا بالصفة المالية أو عدمها، وإنما كان إجراء عامًّا في كل الأحوال والأوضاع، سواء كانت الموارد وفيرة أو ضئيلة، أو كانت مالًا أو ليست بمال، ومقياسه الوحيد هو حد الكفاية في قيام الإنسان بوظيفته التعميرية في يسر، وذلك هو الحد الذي ينخرط به في دورة البيئة انخراطًا لا يسبب لها إرهاقًا، وهو حد «**الاقتصاد**»وما تجاوزه من استهلاك فهو «**الإسراف**» الذي جاء التغليظ في النهي عنه، والابتعاد منه(٤).

١- الإسلام في معركة الحضارة، منير شفيق، صـ٦٦.

٢- سنن ابن ماجه، ٢ / ١١١٢، حديث رقم: ٣٣٥٢. قال صاحب مصباح الزجاجة في إسناد هذا الحديث: ٤ / ٣١: "هذا إسناد ضعيف تقدم الكلام عليه قبل هذا الحديث، رواه بن أبي الدنيا في كتاب الجوع، والبيهقي، وقد صحح الحاكم إسناده لمتن غير هذا، وحسنه غيره، وأورده بن الجوزي في الموضوعات من طريق يحيى بن عثمان عن بقية بن الوليد به، وضعفه بنوح بن ذكوان".

٣- رواه الإمام أحمد في مسند،٢ / ٢٢١، حديث رقم: ٧٠٦٥، ورواه ابن ماجه في سننه ، ١ / ١٤٧، حديث رقم: ١٤٧ .قال ابن حجر في تلخيص الحبير١ / ١٤٤: "رَوَاهُ بن ماجة وَغَيْرُهُ وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ".

٤- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، د. عبد المجيد النجار، صـ٢٢٥.

وبهذا يتبين أن مفهوم: «**الزهد**»أو«**الإيثار الكوني**»في المنظومة الإسلامية، مناقض تمامًا لمفهوم التقدم المستمر واللانهائي، في منظومة الحضارة الغربية، القائمة على «**الاستنزاف**»المدمر لموارد الحياة، والنهب الأهوج المرهق لخيرات الأرض ومواردها، والتبذير المتلف لما لا يعوض منها، بدافع الأنانية والأثرة، وتضخم الذات، بل بدافع اللعب واتباع الهوى في إنتاج واستهلاك لا يقوم على مقاصد محددة، ولا يبالي إن كان فيه منفعة للإنسانيةً، أو لم تكن فيها، بل لا يراعي إن كانت تتحمله مقدرات الكون أم لا، وفق رؤية تؤمن بأن هذه الحياة هي كل الحياة، ينتهي بانتهائها كل وجود للإنسان، وينتهي أيضًا كل أثر لدوره الوظيفي فيها، فلا يبقى إذن إلا أن تكون العلاقة بالكون وما فيه من عالم الأشياء هي علاقة استهلاك بالقدر الأكبر من الاستهلاك، وذلك لإشباع الشهوات في أقصى حد ممكن من الإشباع، وهو نموذج انتهى إلى نوع جديد من «**الإدمان**»كما يقول آل جور: «**إنني أعتقد أن حضارتنا الحديثة، في الواقع، أدمنت استهلاك الأرض ذاتها**»، وتلهينا هذه العلاقة القائمة على الإدمان، عن الشعور بالألم من جراء ما فقدناه..إن السطحية والسعار اللذين يميزان الحضارة الصناعية، يحجبان إحساسنا المرير بالوحشة، إزاء صلة حميمة تربطنا بالعالم...**إن حضارتنا تتشبث بطريقة أكثر إحكامًا، بعادتها في استهلاك كميات أكبر وأكبر كل عام**، من الفحم، والنفط، والهواء النقي، والماء، والأشجار، والطبقة السطحية للتربة، وألف مادة أخرى نقتطعها من قشرة الأرض، **لتحويلها جميعًا، ليس إلى ما يقيم أودنا، ويوفر لنا المأوى الذي نحتاجه**، ولكن بدرجة أكبر إلى ما لا نحتاجه: كميات هائلة من التلوث، ومنتجات ننفق المليارات في الإعلان عنها لنقنع أنفسنا بأننا نريدها..**ويبدو أننا نزداد شغفًا بفقدان ذواتنا في الأشكال المختلفة للثقافة والمجتمع والتكنولوجيا ووسائل الإعلام وطقوس الإنتاج والاستهلاك، إلا أن الثمن الذي ندفعه هو ضياع حياتنا**، إن النشاز في علاقتنا

بالأرض، والذي يرجع في جزء منه إلى إدماننا لنمط من الاستهلاك يقوم على استنفاد كميات أكبر وأكبر من موارد الأرض الطبيعية، أصبح يعلن عن نفسه الآن من خلال الأزمات المتتالية، **وكل منها ينطوي على تصادم مدمر بين حضارتنا وعالم الطبيعة**»[1]. ومن ثم لا يحتاج العالم اليوم إلى شيء حاجته إلى أن يحيي هذا المفهوم الإسلامي: «**الزهد**»أو «**الإيثار الكوني**»، وأن يخرج الإنسان، في سعيه الحضاري، من طلب حظوظ السيادة على الكون، إلى أداء حقوق العبودية لسيد الكون سبحانه، فيكون انتفاعه به، وفق منهج الله في أمره ونهيه، والمنظومة الإسلامية في ذلك يمكن أن تشكل نقطة انطلاق للوقوف ضد «**السعار الاستهلاكي**»و«**التكالب على كل شيء**» و«**اللاعقلانية في التعامل مع الكون ومقدراته**»الذي ثبت أنه سيودي بالعالم، ويدمر نفسه بنفسه!!

***

٣. **المسؤولية والمحاسبة**، وهذا هو البعد الثالث الذي يقوم عليه مفهوم «**الائتمان الكوني**»، بل يُعد من القيم المحورية التي يدور عليها منهج الإسلام في «**تحريك الحياة**»؛ إذ الإنسان، وفق المنظور الإسلامي كما تقدم، ليس بالسائب، بل مسؤول مسؤولية كاملة عن مصيره، ومصير الكون المؤتمن عليه، **فهو يحمل مسؤولية استخدام مقدراته وعطاءاتها، وهذا الإحساس بالمسئولية من شأنه أن يجعل الجميع يحافظون على الكون، بالقصد في الانتفاع، وبالصيانة من الخراب على حد سواء**، وهذا هو المعنى المستبطن في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(الزلزلة: ٦ - ٨)، كما أنه المعنى المستبطن في كل الآثار الشرعية التي أوردناها في نهي الإسلام عن أي حركة تؤدي إلى إتلاف مقدرات الكون

١- الأرض في الميزان، صـ٢٢٣-٢٢٥.

بغير حق ،مثل قوله ﷺ: «من قتل عصفورًا فما فوقها بغير حقها، سأل الله ﷻ عنها يو م القيامة، قيل: يا رسول الله، فما حقها؟ قال: حقها أن تذبحها فتأكلها، ولا تقطع رأسها فيرمى بها، وفي رواية: من قتل عصفورًا عبثًا عجل إلى الله ﷻ يوم القيامة، يقول: يا رب، إن فلانًا قتلني عبثًا ولم يقتلني لمنفعة»[١]، وقوله ﷺ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ في هرَّة حَبَسَتْهَا حتى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فيها النَّارَ، قال فقال: وَاللهُ أَعْلَمُ، لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا ولا سَقَيْتِهَا حين حبستها، ولا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ من خَشَاشِ الأَرض»[٢]، وذلك كله داخل في عموم قوله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسؤول عن رَعِيَّته»[٣]، وقوله ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يوم الْقِيَامَةِ حتى يُسْأَلَ عن: عُمُرِه فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِه فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ من أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِه فِيمَ أَبْلَاهُ؟»[٤].

ثم إن هذه «**المسؤولية**»تقتضي المحاسبة والمجازاة، عن كيفية استخدام مفردات الكون وعطاءاتها، واستغلالها، وإعمار الكون بها، وفق منهج الله في أمره ونهيه، في وجوب «الانتفاع بنفع النافع، وإزالة ما في بعض النافع من الضر، وتجنب ضر الضار، بالتهذيب أو بالإزالة..فإذا غير ذلك النظام، فأفسد الصالحُ، واستُعمل الضار على ضره، أو استبقي مع إمكان إزالته، كان إفسادًا بعد إصلاح»[٥] يتحمل الإنسان مسؤوليته، ويحاسب عليه، يقول رسول الله ﷺ: «لَا حَقَّ لابنِ آدمَ إلا في ثَلاثٍ: طَعامٌ يُقيمُ صُلبَهُ، وَثوبٌ يُوارِي عَوْرَتَهُ، وَبيتٌ يُكِنُّه،

١- رواه النسائي في سننه الكبرى، ٣ / ٧٣، حديث رقم: ٤٥٣٤، و٤٥٣٥.

٢- متفق عليه، رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم، ٢ / ١٢٠٥، حديث رقم: ٣١٤٠. ورواه مسلم، باب: في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، ٤ / ٢١١٠، حديث رقم: ٢٦١٩.

٣- متفق عليه، واللفظ للبخاري(وقد رواه في مواضع من صحيحه، حديث رقم: ٨٥٣، باب: الجمعة في القرى والمدن، ورقم: ٢٢٨٧، باب: العبد راع في مال سيده، ورقم: ٤٩٠٤،باب: المرأة راعية في بيت زوجها. ورواه مسلم في باب: فضيلة الإمام العادل، حديث رقم: ١٨٢٩).

٤- رواه الترمذي، وقال: "هذا حديث حسن صحيح "(سنن الترمذي، ٤ / ٦١٢، حديث رقم: ٢٤١٧).

٥- التحرير والتنوير، ٨ / ١٧٣- ١٧٤.

فَمَا زَادَ فَهُو حِسابٌ»[1] أي: أن الإنسان إذا أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب، وفيما زاد عليه، إن لم يعص الله متعرض للحساب، وإن عصى الله فهو متعرض للعقاب[2]، ليس في الآخرة فحسب، بل يناله شقاء ما كسبت يداه في الدنيا، قبل أن يجازى على فساده في الآخرة، وهذا هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: ٤١).

ومن الأمور المقررة أن هذه «**المسؤولية**» وما يترتب عليها من «**محاسبة**» تتعلق بالفرد وبالجماعة على حد سواء، فالحفاظ على الكون ومفرداته، والترفق بمعطياته، لا يُسأل ويُحاسب عليه الفرد وحده، بل إنه يمتد إلى دائرة الجماعة والأمم، فهناك كتاب يحصي على الأمة عملها: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجاثية: ٢٨ - ٢٩)، كما كان هناك كتاب يحصي على الفرد عمله ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء: ١٣ - ١٤)، فهذا كتاب لكل فرد، وذاك كتاب لكل أمة، وبين الكتابين فرق كبير، وهذا المفهوم يعطي قيمة أكثر فاعلية في الممارسة والصيانة والحماية لمفردات الكون ومعطياتها، فيكون الفرد مسؤولًا في الحفاظ عليها أمام الأمة بل والإنسانية جميعًا، كما أن الأمة مسؤولة عنها أمام الفرد، بل والإنسانية جميعًا!!

إن مفهوم «**المسؤولية**» و«**المحاسبة**» عن الكون المؤتمن عليه الإنسان، التي ربى عليها الوحيُ المسلمَ، من القيم التي لابد من شيوعها بين العالم، في مقابل انعدام المسؤولية غير المسبوقة التي يشهدها العالم الآن في التعامل مع معطيات

١- قال الإمام العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: "أخرجه الترمذي من حديث عثمان بن عفان، وقال: "وجلف الخبز والماء "بدل قوله: "طعام يقيم صلبه"، وقال: صحيح "إحياء علوم الدين، ٤/ ٢٠٩. ورواية الترمذي: "ليس لابن آدَمَ حَقٌّ في سوَى هذه الخِصَال بَيْتٌ يَسْكُنُهُ وَثَوْبٌ يُوَارِي عَوْرَتَهُ وَجِلْفُ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ "سنن الترمذي، ٤ / ٥٧١، حديث رقم: ٢٣٤١، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

٢- إحياء علوم الدين، ٤/ ٢٠٩.

الكون وعطاءاتها، غرورًا واستكبارًا[1]؛ إذ تمكن هذه القيمة الإنسان من مزيد المراقبة لأفعاله، وتعقب آثارها، والنظر في مآلاتها، فينهض إلى نقد نفسه، وتحمل مسؤولياته إزاء الأحياء والأشياء على الوجه الذي ينبغي، مؤديًا حقوقها بما يحفظ كيانها، ويضمن استمرار عطائها، و ديمومتها و تمتع الأجيال من بعده بها، فيأتي بكل فعل من أفعاله وهو يعي، على أكمل وجه، أن آثار فعله ومسؤوليته فيه، لا تقف عند جيله وذريته، بل تتعداهما، لا إلى الأجيال والذريات من بعده، وإنما إلى مستقبل يمتد إلى الأبد؛ ومن ثم يعلم أنه بتقصيره في أداء حقوق الكون، حماية وحفظًا، إنما يقصر في أداء حقوق نفسه هو أولًا، ثم في حقوق غيره ثانيًا؛ إذ إن تبعات أفعاله الحالية غير محدودة الآثار في القادم من أجيال الإنسان، وفي المكنون من عالم الأشياء[2].

وهكذا، فإن الإسلام بهذا الأصل الذي يضبط علاقة الإنسان بالكون: «**الائتمان الكوني**» وما تولد عنه من جملة القيم(التفاعل الإيجابي مع مفردات الكون وعطاءاتها والقوامة الكونية والمسؤولية والمحاسبة) يؤسس لفقه «الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا»، كما يرتقي بالمسلم في منهجية تحريكه للحياة، وتعامله مع الكون وعالم الأشياء من حولنا، استنفاعًا واستثمارًا، وتحقيقًا للتوازن والعدل في الأرض، فلا يسعى جيل بعينه للتمتع والاستفادة، أو الاستئثار

١- يقول آل جور، في الأرض والميزان، صـ١٧٤: "إننا نلاحظ انعدامًا للمسؤولية، يدعو للدهشة في مواجهة الأزمات الخطيرة غير المسبوقة.. وبدلًا من تحمل المسؤولية عن اختياراتنا، فإننا ببساطة نحيل تلالًا ضخمة من الديون، وأسباب التلوث إلى الأجيال القادمة "ثم أردف قائلا: "إن أملنا كحضارة، قد يكمن في قدرتنا على أن نتكيف مع إحساس صحي إزاء أنفسنا، بوصفنا نشكل حضارة عالمية بحق، حضارة تتسم بإحساس ناضج بالمسؤولية نحو صنع علاقة جديدة، ومثمرة، بيننا وبين كوكب الأرض "صـ٢١٦ فبدلًا من التماهي مع أنانيتنا ينبغي علينا أن نتحمل المسؤولية، ونتماهى مع الكون الذي نعيش.

٢- أشار الصندوق العالمي لحماية البيئة في تقريره لعام ٢٠٠٦م، الذي حمل عنوان: "الكوكب الحي"إلى أن مستوى استهلاك البشرية للموارد الطبيعية يفوق بنسبة ٣٠٪ ما تستطيع الطبيعة تجديده، وإذا ما استمر الوضع على هذه الوتيرة، فإن سكان المعمورة في عام ٢٠٥٠م الذين سيصل عددهم قرابة ٩ مليارات نسمة، سيحتاجون لضعف الإنتاج الذي يمكن للكوكب الأرضي أن يوفره!! وهو ما يهدد قدرة الأرض على العطاء، كما يهدد مستقبل الأجيال القادمة، وقدرتها على الحياة والبقاء.

بكل طاقات الكون، على حساب آخر؛ إذ هي أصول كلها تقضي بإيجاد عالم تكون فيه العلاقات بين الأحياء والأشياء علاقات بين أقرباء، أقرباء فيما بينهم، وأقرباء من الرحمن الذي يتجلى عليهم، لا بقهره، وإنما برحمته، فيصير تعامله معها تعامل قوامة وتراحم، لا تعامل عداء ومغالبة، فيؤدي حقوقها أداء القريب لحقوق قريبه[1]؛ رفقًا بها، وتلطفًا في كيفية استثمارها، و حفاظًا عليها وصيانة مقدراتها، وذلك بحفظها من الفساد أولًا، وبالاقتصاد في الانتفاع بخيراتها ثانيًا، وبتنميتها ثالثًا. والله أعلم.

***

ثالثًا: البعد السُّنَنِي:

«**السُّنَّة**» مفهوم يدور في معانيه المعجمية حول: «**الأمر المطرد**»، و«**الطريقة الدائمة**»، و«**القانون الثابت**»[2]، والمراد بـ «**البعد السُنَنِي**»: هو ذلك البعد الذي يراعي «عادات» الله المألوفة، و«قوانينه» الثابتة التي تتحكم في حركة الحياة والأحياء، والاعتبار بها، والتجانس معها؛ إذ إن ما وقع منها في الماضي يقع في الحاضر، ويُتوقع حدوثه في المستقبل، إذا تشابهت الأحوال[3] قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النساء: ٢٦).

١- ينظر: روح الحداثة، د. طه عبد الرحمن، ص٢٥٣.

٢- يقول ابن فارس(معجم مقاييس اللغة، ٣/ ٦٠): "السين والنون: أصل واحد مطرد، وهو: جريان الشيء واطراده في سهولة".

٣- ولا شك في أن المراد هنا: "السنن التاريخية"أو "الاجتماعية"التي تقف وراء الأحداث والظواهر العمرانية، والمرتبطة بحركة البشر والأمم في الحياة، صعودًا وهبوطًا، بقاء وزوالًا، مثل: سنن النصر والهزيمة، وسنن الابتلاء، والسنن التحذيرية،وغالبًا ما يختص هذا المفهوم في الفكر الإسلامي بـ "السنن الإلهية". بخلاف: "السنن الكونية"التي لا يملك الإنسان أن يغير ظروفها، أو يعدل من شروطها، أو يمنع من وقوعها، فهي تجري عليه شاء أم أبى، مثل: "الموت" و "الحياة"... ومثل: "مسخرات الكون"التي يستفيد منها الناس، كل وفق جهده وسعيه في اكتشافها، والاستفادة من تسخيرها.

إن «**السنن**» وفق هذا المفهوم تمثل «**تحليلًا إيمانيًّا**» لحركة الحياة، و«**قيمًا**» مطردة تتحكم في مسارات الأفعال فيها، كما أنها من أهم أبواب الفقه الحضاري لفهم الأفعال الحضارية، على تنوع تلك الأفعال وتداخلها وتفاعلها، فهي تقدم أصولًا لحركة الاستخلاف، ومسارات العمران البشري؛ ومن ثم تمكننا من:

- **التعرف على ذاكرة الأمة وتواتر أحداثها**، وهذا أمر ضروري في بناء المستقبل؛ إذ النظر المستقبلي إلى الأمام يلزمه نوعٌ من إدارة الرأس إلى الوراء، ورؤية الماضي، والتدقيق فيه، واستنباط دروسه ومفادها، وفقه العواقب والمآلات، وامتلاك الرؤية على تصويب الخلل وتجنب الإصابات؛ فمن خلال قراءة هذه السنن والتبصر فيها، يجمع المسلم عقولًا في عقله، وتجارب في تجربته، ويضيف أعمارًا إلى عمره، مبصرًا العلل التي لحقت بالأمم السابقة، متقيًا الإصابات المحتملة؛ وفقًا للقاعدة الحضارية: إن للعمران طبائع معروفة لو كشفناها لأمكننا تقدير المآلات، يقول تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧ – ١٣٨).

- **قراءة مستقبل الأمة، ومعرفة حركته في ضوء المدخل السنني**؛ إذ الاعتبار يرشد إلى الصوابية في بناء الحاضر، ويمنح القدرة على عبور الماضي والحاضر إلى «**استشراف المستقبل**»، ثم التمكن من تشكيل المستقبل والمداخلة في بنائه، في إطارٍ تتواصل فيه حلقات الزمان، وتتفاعل ضمن مناهج التفكير والاعتبار؛ ذلك أن السنن هي «**كليات مرجعية**» تحكم الحركة الحضارية عامة للناس كافة، فهي فاعلة على المسلم والكافر، لا تحابي أحدًا في محك التعامل معها، بعيدًا عن أي وهم أو ادعاء كاذب يحاول تفسير قيام الحضارات أو انهيارها، أو يحاول ربط سنن التغيير أو التقدم أو العمارة أو البناء بدور «**العرق**» **أو**

«**اللون**»[1]، وبذلك يمتلك المسلم «**المعيار**» الذي «**يُقَوِّمُ**» به حركته الحضارية، تفسيرًا وتقويمًا، فيحاكم فعله الحضاري إلى «**السنن الإلهية**»وعيًا بها، وسعيًا إلى الاستثمار الإيجابي لها، والعبور من خلالها نحو عناصر الفاعلية والتمكين، فإذا كان تشابهٌ بين أمة اليومَ، ووضع أمم سابقة عليهم، فعلينا أن نعلم أن «**سنة الأولين**» قد انطبقت أو لابد أن تنطبق يومًا عليهم، ففي حديث زياد بن لبيد، قال: «ذَكَرَ النبي ﷺشَيْئاً، فقال وَذَاكَ عِنْدَ أوان ذَهَابِ الْعِلْمِ، قال: قُلْنَا يا رَسُولَ اللَّهِ: وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ وَنَحْنُ نقرأُ الْقُرْآنَ، وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا، ويقرئه أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟! قال: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا ابن أُمِّ لَبِيدٍ، إِنْ كنتُ لأَرَاكَ من أفقه رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ؛ أوليس هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يقرؤون التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ لاَ يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فيهما بشيء؟!»[2]. فقوله ﷺ: «أوليس هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يقرؤون التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ لاَ يَنْتَفِعُونَ مِمَّا فيهما بشيء؟!» مفسرًا بها واقعًا في المستقبل، يدل على أنه ﷺكان يرى المستقبل من خلال السنن التي تعم الجميع ، فالذي انطبق على أهل الكتاب السابقين، سينطبق على أمة القرآن،إذا ما تشابهت الأفعال[3]، مما يجعل «**السنن**» أهم عمليات «**أصول الفقه الحضاري**» في المنظور الإسلامي، بما تمثله من «**معيار**» علمي سديد منضبط يتفهم عناصر الظاهرة الإنسانية في تشابهاتها وخصوصياتها، كما يجعلها «**ناظمًا معرفيًّا**» للجمع بين قراءة «**الوحي**» وقراءة «**الكون**»؛ إذ مدخل «**السنن**»في «**الاستعمار الإيماني للأرض**»يجعل قراءة «**الوحي**»موصولة بالكون وواقعه، فهمًا وتنزيلًا؛ إذ إنها تستوعب جملة الأفعال الحضارية في امتدادها وتراكمها، كما يجعل قراءة «**الكون**»موصولة بالوحي وضوابطه، رصدًا وتقويمًا، وسيرورة ومآلًا،

١- مدخل القيم، د. سيف الدين عبد الفتاح، صـ١٩٢.

٢- رواه الإمام أحمد في المسند، ٤ / ١٦٠، حديث رقم: ١٧٥٠٨، وروى نحوه الإمام الحاكم في المستدرك، ٣ / ٦٨١، حديث رقم: ٦٥٠٠، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه".

٣- حتى يغيروا ما بأنفسهم، بحث في سنن تغيير النفس والمجتمع، جودت سعيد، دمشق، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، صـ١٢٠.

وهذا الجمع هو الذي يفهم من قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٢٤)[١].

ويعتبر ما صح من «**باب الفتن**» و«**النبوءات**» في كتب السنة النبوية، والتي تتناول «**سنن ظهور الإسلام**» و «**سنن غربته**» و «**أسباب نصر المسلمين**» و «**أسباب ضعفهم**» و«**شبكة العلاقات الاجتماعية**» من المفاتيح العظيمة لفهم هذه السنن التحذيرية؛ إذ موضوعاتها متعلقة بمستقبل الأمة، ومواجهتها لتغيرات شاملة، وتحذيرها من أن تكون هذه التغيرات، والمتغيرات، سبيلاً إلى تفريطها في شيء من شريعتها، ومنهاجها الذي جعلها الله لها، كما أنها تحذر من الوقوع في براثن تلك الفتن، أو الرضا بها، مثل قوله ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ، فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أو يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ من الدُّنْيَا»[٢]، وقوله ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ من كان قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حتى لو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ قُلْنَا يا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قال فَمَنْ؟!»[٣]، وقوله ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كما تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا، فقال قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قال: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ الله من صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ الله في قُلُوبِكُمْ الْوَهَنَ، فقال قَائِلٌ: يا رَسُولَ اللَّهِ، وما الْوَهْنُ؟ قال: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[٤]، ونحو قوله ﷺ: «إذا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ،

١- بخلاف فلسفة "استشراف المستقبل" في الفكر الغربي؛ إذ إنها وإن كانت لا تُحرم "منطق الواقع" وحسن قراءته، فهي محرومة من التدبر والاعتبار بآيات الله، وإنما تنظر في تطور الإنسانية من خلال منظار واحد، وفكرة بعينها، هي فكرة التقدم المادي، المنقطع عن الغيب، وعن قيم الوحي المعصومة.

٢- رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، ١ / ١١٠، رقم: ١١٨.

٣- رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ من كان قَبْلَكُمْ»، ٦ / ٢٦٦٩، حديث رقم: ٦٨٨٩.

٤- رواه أبو داود في سننه، ٤ / ١١١، حديث رقم: ٤٢٩٧، وروى نحوه الإمام أحمد في مسنده، ٥ / ٢٧٨، حديث رقم: ٢٢٤٥٠. وإسناده صحيح، ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، ٢ / ٦٤٧، حديث رقم: ٩٥٨.

وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حتى تَرْجِعُوا إلى دِينِكُمْ»[1]. ومنَ ذلك، أيضًا: ما جاء من عد النبي ﷺ عجز الأمة عن مجابهة الظالم وطغيانه دليلًا على «**عطالتها الحضارية**»، فقال: «إذا رَأَيْتُمْ أمتي تَهَابُ الْظَالِمَ، أن تَقُولَ له: إنك أنت ظَالِمٌ فَقَدْ تُوُدِّعَ منهم»[2]. قال المُناوي في معنى قوله ﷺ: «فَقَدْ تُوُدِّعَ منهم»: أي: استوى وجودهم وعدمهم، أو تركوا وأسلموا ما استحقوه من النكير عليهم واستريح منهم، وخُذلوا وخلي بينهم وبين ما يرتكبون من المعاصي؛ ليعاقبوا عليها»[3].

فإن هذه الأحاديث، وغيرها من بابها، يمكن قراءتها على أنها تنبيه للمسلمين من أن يقعوا في مثل هذه الأفعال الدالة على فساد الزمان، بل يجب تتبعها بالمواجهة والإصلاح، أي: أنها «**منبهات**»و«**محفزات**»حضارية، تبصر بالمصائر التي سوف يصير إليها من يعيشون بعيدًا عن الهدي الإلهي، فهي تقدم نقدًا لواقع سيكون؛ تحذيرًا وتخويفًا من الوقوع في براثن ذلك الواقع أو الرضا به، و تحفيزًا للمسلمين، وإثارة لفاعليتهم؛ للاستعداد للتعامل مع هذا الواقع، وتحقيق مقتضى الاعتبار من «**الإنذار النبوي**»[4]، فلا تنزلق حركة المسلم مستقبلًا إلى انحراف، أو تتوه عن الطريق؛ ذلك أن التعرف على «**الفتن**»لا يمنح الإنسان القدرة على

١- رواه أبو داود في سننه، ٣ / ٣٧٤، حديث رقم: ٣٤٦٢، والبيهقي في سننه الكبرى، ٥ / ٣١٦، حديث رقم: ١٠٤٨٤، وروى نحوه الإمام أحمد في مسنده، ٢ / ٢٨، حديث رقم: ٤٨٢٥. وقد صححه الألباني، ينظر: غاية المرام، صـ١٢٠، حديث رقم: ١٦٠.

٢- رواه الإمام أحمد في مسنده، ٢ / ١٦٣، حديث رقم: ٦٥٢١، ورواه الحاكم في المستدرك، ٤ / ١٠٨، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه".

٣- فيض القدير، ١ / ٣٥٤.

٤- وذلك في إطار وظائف النبوة الأربعة: "وظيفة الشهادة"، و"وظيفة البشارة" و"وظيفة النذارة" و"وظيفة الدعوة". قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا" (الأحزاب: ٤٥ – ٤٦)، والفهم الصحيح لهذه الوظائف، وتنزيل أحاديث النبي ﷺ عليها، هو العاصم من الخلل؛ إذ "فهم وظيفة البشارة؛ لحفز الفعل الحضاري للإنسان لئلا ييأس، وفهم وظيفة النذارة؛ لدافعية الفعل الحضاري، لئلا يركن أو يغفل، وفهم وظيفة الدعوة التي تحرك فاعليات الإنسان المسلم في كل علاقاته وفاعلياته"، الدراسات المستقبلية في عالم المسلمين، د. سيف الدين عبد الفتاح، صـ٤٤٣.

تمييزها فحسب، وإنما يمنحه قدرًا كبيرًا من التحكم فيها، والتخفيف من آثارها السلبية، ومغالبة قدر بقدر، والفرار من قدر إلى قدر، وإلا كان الوقوع فيها، أو بمعنى آخر: إن هذه الأحاديث، إذا أحسنا قراءتها بأبجدية صحيحة، فسوف تشكل لنا المناعة، وامتلاك الإمكان الحضاري، والعصمة من الوقوع مستقبلًا في هذه الفتن، والقدرة على المواجهة والإصلاح، وفي ظني أن هذا هو الغرض الأكبر منها.

وفي هذا السياق يستطيع العقل المسلم الواعي أن يقرأ أحاديث «**الفتن**» و«**أشراط الساعة**» و«**التنبؤات**» واستخلاص مجموعة من الصفات والأفعال الحضارية، في دلالاتها المباشرة وغير المباشرة، لحالة «**القوة**» و«**الوهن**» و«**النصر**» و«**الهزيمة**»وغيرها، وبذلك نشكل رؤية كلية لمنظومة التحديات الحضارية، مما يمكننا من رؤية الخريطة المستقبلية، وفقًا لأقوال الصادق المصدوقﷺ، بعيدًا عن مواقف اليأس والقنوط، وبعيدًا عن القراءات المتأزمة، الصادة عن الفعل، المعطلة للفاعلية، والتي تقرأ هذه الأحاديث بأبجدية تقلب المعاني، فلا ترى فيها تحذيرًا من براثن واقع ينبغي لنا أن نبصره ونجاهده، بل إخبارًا عن وقائع حادثة لا محالة، وما علينا إلا انتظار وقوعها، ولو كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن الإنسان مسير، وليس مخيرًا، وهذا هو المعنى الذي قصده علي بن أبي طالب، حين قال: «ويحك لعلك ظننته قضاء لازمًا، وقدرًا حاتمًا، لو كان ذلك لسقط الوعد والوعيد، ولبطل الثواب والعقاب، ولا أتت لائمة من الله لمذنب، ولا محمدة من الله لمحسن، ولا كان المحسن أولى بثواب الإحسان من المذنب، ذلك مقال إخوان عبدة الأوثان، وجنود الشيطان، وخصماء الرحمن»[1].

١- رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، ٤٢/ ٥١٢.

وبذلك ندرك أن البعد السنني، لا يشير إلى معايرة الحاضر بمعايير السنن الإلهية رصدًا وتحليلًا وتفسيرًا وتقويمًا، فحسب، بل يتطلب، أيضًا، تصويب التوجه إلى المستقبل، بإدراك الغايات والمآلات، أي: العبور بالفعل إلى دائرة أكثر فهمًا ووعيًا وسعيًا، فينظر المسلم- بمقتضى «**السنن الإلهيَّة**» و «**المنظومة الحركيَّة**» المرتبطة بها- في «**المآلات**»و«**عواقب الأمور**»، وكلها عناصر من أصول التفكير في «**المستقبل**»، فيبني حركته الحضارية من خلالها، فلا يكفي المسلمَ النظرُ، من خلال السنن، في عوامل الفساد المؤدية إلى «**وهن الأمم**»و«**غُثائيتها**»ومن ثم انهيارها، وعوامل الصلاح والقوة المؤدية إلى الحركة الفاعلة فيها، ومن ثم بقاؤها وامتدادها، بل يجب أن يُتبع ذلك سعيًّا وحركةً حضارية فاعلة بناءة، فيكون تدبر السنن فعلاً مستقبليًّا، يقدر للفعل عواقبه، ويبحث عن سننه الفاعلة، وعيًا وسعيًا. والله أعلم..

***

المحور الثالث: تفعيل قيمة «الائتمان على المستقبل»في حياة الأمة:

لا شك في أن تفعيل قيمة «**الائتمان على المستقبل**»وتنزيلها في حياة الأمة، يقتضي حركة واعية، ويتطلب فقها ومراقبة، في «منهاجية» تقوم على أمور، أهمها:

١. **تجديد خطابنا**: «**العقدي**»و«**الفقهي**»[١]، فيُدخَل فيهما الحديث عن القيم المحركة للحياة، مثل قيم: «**الاستخلاف**»، و«**التزكية**»، و«**الاستعمار الإيماني للأرض**»، و«**فقه السنن**»، و«**الشهود الحضاري للأمة**» و«**الائتمان على المستقبل**» و كذلك قيم **الائتمان الكوني**«وما تحمله من معان ودلالات مستبطنة في تعاليم الوحي قرآنًا وسنة، **من حيث وجوب التزام الإنسان، ماديًّا وأخلاقيًّا، نحو كل الموجودات والأشياء في الكون، فيما له هو منها، وما لها هي منه**، فلابد من اعتبار ذلك كله من صميم العقيدة الإسلامية، ومن المفردات التي ينبغي إدخالها في «**الخطاب العقدي**»؛ حتى يشعر المسلم أنه إذا أخل بتفعيل تلك القيم في حياته، جهلًا أو تقصيرًا، فقد أخل بواجب من واجبات عقيدته، ومتطلب من متطلباتها، وأهمل مفردة من مفرداتها!! كما لابد من إنتاج «**خطاب فقهي**» يكون من مفرداته التأصيل لفقه يُعنى بقضايا الأمة كِيانًا وبناءً واستمرارًا، والنظر في واقعها حالًا ومآلًا، والتعامل مع المستقبل استشرافًا وائتمانًا، كما يكون من مفرداته تكييف هذه القيم التي تمثل روح حضارتنا الإسلامية، على أنها دينٌ، وأن التمثُّل بها، وترجمتها إلى سلوك، والحركة بمقتضاها هو«**مناط الشرعية**»، وأن

١- لا يفهم من مصطلح "التجديد"هنا ما شاع في الآونة الأخيرة، وخاصة بعد أحداث أيلول (سبتمبر)، من ضرورة: "تجديد الخطاب الديني"للمسلمين، ويُعنى به غالبًا: عرض الإسلام وقيمه وفق منطق الآخر، ومقتضيات خطابه هو، لا وفق منطق الإسلام، وحقائقه، بل نستخدم مصطلح "التجديد"هنا بالمفهوم الإسلامي له، والذي يعنى به: فاعلية الأمة، ورجوعها إلى أصل دينها، وتحريك الحياة وفق قيمه ومقتضياتها، بعيدًا عن دعاوى الانفصال بين علوم الدين والنص المؤسس كتابًا وسنة من جهة، وبينها وبين حركة المجتمع في البناء والعمران، من جهة ثانية. والتجديد بهذا المفهوم جزء لا يتجزأ من البنية المعرفية في الإسلام، ومدخل من مداخل الائتمان على المستقبل؛ إذ هو السبيل لامتداد مظلة الإسلام، وثوابته إلى الميادين الجديدة، والضمان لبقاء أصوله وقيمه صالحة دائمًا لكل زمان ومكان، وذلك كله ضمن قوله،ﷺ: "إنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذه الأُمَّة على رَأس كل مائَة سَنَة من يُجَدِّدُ لها دينَهَا". رواه أبو داود في سننه، ٤/ ١٠٩، حديث رقَم: ٤٢٩١، والحاكم في المَستدرَك، ٤/ ٥٦٨، حديث رقم: ٨٥٩٣. ففكرة التجديد في الحديث النبوي الشريف حركة تحمل في جوهرها معاني مستقبلية؛ للخروج من وضع غير مرغوب فيه(جمود الحال) إلى تشكيل وضع مرغوب فيه(بناء حركة المستقبل على صحيح الدين).

حملها في حركة الحياة، والالتزام بها، و السعي إلى ترجمتها إلى برامج، و إيجاد «**الآليات**»لتنزيلها على الواقع، والتبصر الواعي بمآلات تنزيلها، واتخاذها منهجًا في «**تحريك الحياة**»من الفروض الواجبة على الأمة، وأن التفريط في تمثلها في حركة الحياة حرام، والدفاع عنها جهاد، وحراستها مسؤولية، يقول الإمام القرافي: «أحوال الأمة، والنظر في مصالح الملة، فإنه من أعم فروض الكفايات»[1].

«**فقه الواقع الحضاري**» الذي يحتوي الوجود الدنيوي للأمة، بكل أسئلته، و سماته، وبكل امتداداته التاريخية والمستقبلية، وبكل تنوعاته، بالغة التعقيد والتركيب والتشابه، والاجتهاد في تطوير «**آليات**»يتم من خلالها تفعيل قيم الإسلام في تقويم ذلك الواقع، وتزكيته، والارتقاء به إلى «**الحياة الطيبة**»والاجتهاد في تنزيل هذه القيم تنزيلًا صحيحًا، بـ«**نفَسٍ مقاصدي**»يروم الموازنة بين الأفعال، والترجيح بين المصالح والمفاسد، وفي ضوء وعي شديد بوجوب «**اعتبار الواقع لا تحكيمه، ورده الرد الجميل إلى قيم الإسلام**»[2]، ووجوب «**اعتبار الأولويات واستصحابها في عملية تنزيل القيم**»، ووجوب «**اعتبار مآلات تنزيل هذه**

١- الفروق مع هوامشه، ٢ / ٢٧٦. وينظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ١ / ٤٣.

٢- بعيدًا عما اشتهر في الآونة الأخيرة، في "خطابنا الثقافي" من مفهوم: "الواقعية" وهو مفهوم ليس في المفاهيم أشد مخالفة لمقتضى التغيير والنهوض، ولا أقوى على جلب الضرر لأهله منه؛ إذ يراد به: بسط هيمنة الواقع بكل انحرافات، والإكراه على قبوله. أما المقصود بـ "فقه الواقع" في "خطابنا الشرعي"، فهو: الاشتغال بوصف الواقع، ونقده، والتعامل معه، والعمل الدؤوب على تغيره، إن عاجلا وإن آجلا، والاجتهاد في رده إلى قيم الإسلام، وتحكيمها فيه، إذا ما انحرف عن المعيار، من خلال حركة واعية متبصرة، بالحال والمآل، دائمة الارتباط بالواقع، غير غافلة عنه، ولا عن ضروراته وإكراهاته. يقول الإمام ابن القيم: "وَلَا يَتَمَكَّنُ الْمُفْتِي، وَلَا الْحَاكِمُ من الْفَتْوَى وَالْحُكْم بِالْحَقِّ، إلَّا بِنَوْعَيْنِ من الْفَهْم، أَحَدُهُمَا: فَهْمُ الْوَاقِعِ وَالْفِقْه فيه وَاسْتِنْبَاطُ عِلْم حَقِيقَة ما وَقَعَ بِالْقَرَائِنِ وَالْأَمَارَات وَالْعَلَامَات؛ حتَى يُحيطَ به علمًا. وَالنَّوْعُ الثَّانِي: فَهْمُ الْوَاجِب فِي الْوَاقِع، وهو فَهْمُ حُكْمِ الله الذي حَكَمَ به في كِتَابه، أو عَلَى لِسَانِ رسوله في هذا الْوَاقِعِ، ثُمَّ يُطَبِّقُ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ"، إعلامَ الموقعين، ١ / ٨٨-٨٩. ويَقول في موضع آخر: "وَالْفَقِيهُ من يُطَبِّقُ بين الْوَاقِعِ وَالْوَاجِب، وَيُنَفِّذُ الْوَاجِبَ بِحَسَب اسْتِطَاعَته، لَا من يُلْقِي الْعَدَاوَةَ بين الْوَاجِبِ وَالْوَاقِعِ؛ فَلِكُل زَمَانٍ حُكْمٌ، وَالنَّاسُ بِزَمَانِهِمْ أَشْبَه منهم بِآبَائِهِمْ"، إعلَام الموقعين، ٤ / ٢٢٠.

القيم وعواقبها»، وهذا يقتضي اجتهادًا مفتوحًا على «الواقع» حالًا واستقبالًا؛ وهو ما انتبه له الإمام بديع الزمان النورسي، فقال في اللمعات: «التفكير بالعقبى ليس هو بجلب المستقبل إلى الحاضر خيالًا، بل الذهاب فكرًا من الحاضر إلى المستقبل، ومشاهدة المستقبل من خلال الحاضر الواقع في الحقيقة»[1].

٢. «**فقه التوجه إلى السلوك الحضاري**»للأمة، ومراقبته، وتوجيه انحرافاته، ورده إلى المعيار، والمثابرة على هذا التوجه، وهذه المراقبة، فمما لا شك فيه أن «**معاودة إخراج الأمة**»و «**استرداد فاعليتها**»و «**شهودها الحضاري**» منوط بالتوجه نحو سلوكها ومراقبته، ومعايرته بقيم دينها، وهذا يقتضي أن تكون الأمة المسلمة، في حالة مراقبة دائمة لذاتها، ولأعمالها، في حركة ذات اتجاهين متوازيين متكاملين، حركة في داخل الأمة نفسها من أجل تنميتها وتطهيرها والصعود بها في مراتب الكمال ومدارج الخير، وحركة في الكون، من أجل النظر في مفرداته وعطاءاتها؛ لاستثمارها والتفاعل معها، وهذا يعني:

- «**تعميق الإحساس بالمسؤولية**»مسؤولية المسلم عن الأمة بل عن الإنسانية كلها، وكذلك مسؤولية الأمة عن الفرد، بل عن الإنسانية كلها،و عن وجوب «**تنزيل هذه القيم**»في الحياة، والعمل على حراستها، **أولا**: «**من جانب الوجود**» وذلك من خلال: الاجتهاد في إيجاد «**الآليات**»و«**البرامج**» **الفردية والمؤسساتية، والتي من خلالها يتم تنزيل هذه القيم في حياة الفرد والأمة. وثانيًا**: مراعاة هذه القيم «**من جانب العدم**»وذلك من خلال: الاجتهاد في إيجاد «**الآليات**»، و«**وسائل الرقابة العامة**»، و«**تطوير الأساليب والأوعية الشرعية**»التي «**تصوب المسيرة**»وتمنع من الاختلال في «**تنزيل هذه القيم**». وهذا ما يجعل النفس أبدًا قلقة متحفزة لبذل

١- صـ٢٤٦.

جهد مع الباذلين، وفي حالة الاستنفار والاستعداد للدفاع عن هذه القيم، وحراستها، والوعي المستمر بتجديد «**برامج**» و «**آليات**» تنزيلها، بما يحفظ كيانها، ويعمل على استمرارها.

- «**ضرورة المناصحة والمراجعة**» أمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وتحديدًا لمواطن الخلل والتقصير، ووقوفًا على الانحرافات التي تقع فيها الأمة في أثناء سعيها لـ «**تحريك الحياة**» وما يقتضيه ذلك من «**التفاعل**» و «**الحوار المفتوح**»و «**التجديد المستمر**» الذي ينفي «**نوابت السوء**»، ويعيد للقيم عطاءها، وتفعيلها؛ ولذلك جعل الإسلام، «**المناصحة**»و «**المراجعة**» أحد المظاهر الدائمة للحفاظ على «**القيم**» وحراستها، على مدى التاريخ، فقال رسول اللهﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ. قُلْنَا لِمَنْ؟ قال لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، ولأئمة الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[١]. إنه «**التناصح**» المتبادل بين الجماعة المؤمنة في أجواء الإيمان، حكامًا ومحكومين، تعاونًا على البر والتقوى؛ إذ الأمة المسلمة لا يكون المرء فيها صالحاً في نفسه، منصرفاً عن غيره، مشتغلاً بحاله، بل هو صالح في نفسه، ومصلح لما حوله: إنساناً وكوناً،، فإذا غابت عن المجتمع هذه «**المناصحة**» و «**المراجعة**» كان ذلك مدعاة لانهيار المجتمع «**الفتنة الحضارية**» يقول رسول اللهﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بيده لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عن الْمُنْكَرِ، أو لَيُوشِكَنَّ الله أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا منه، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»[٢].

١- متفق عليه، واللفظ للإمام مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة، ١ / ٤٧، حديث رقم: ٥٥. وصحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: قول النبيﷺ: الدين النصيحة، ١ / ٣٠، حديث رقم: ٤٠.

٢- رواه الإمام الترمذي في سننه، ٤ / ٤٦٨، حديث رقم: ٢١٦٩، وقال: "هذا حديث حسن"، وروى نحوه الإمام أحمد في مسنده، ٥ / ٣٨٨، حديث رقم: ٢٣٣٧٥، وفي روايته: "أو لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْكُمْ قَوْمًا، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَكُمْ".

٣. الكف عن الاستمرار في الحديث عن استيراد «**قيم النموذج الغربي**»، وتكرار ما قال به بعض علمائنا ومفكرينا من أن «**مشروع الحداثة الإسلامي**» هو بعينه مشروع «**الحداثة الغربية**» بعد إضافة بعض القيم إليه، بعد أن توهم هؤلاء أن «**الحداثة الغربية**» واقع لا يزول، وأنها نافعة لا ضرر منها، وكاملة لا نقص فيها!! وكذلك الكف عن البحث عن «**الآخر**» بقيمه ومقولاته، في قيمنا ومقولاتنا؛ لتأكيد أنها موجودة في الإسلام، بل وسبق الإسلام إليها، وكأنه «**المعيار**» لكل حركات الحياة، وكأننا لا نجد صورتنا إلا فيه!! بل أصبح من المتعين على مفكرينا وعلمائنا، بعد أزمة «**الحداثة الغربية**»، أن يأتوا بمشروعهم «**الحداثي**»وفق رؤية الإسلام الشاملة، ومقاصده التي تربط الإنسان بخالقه، من جهة، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان من جهة ثانية، كما تربطه بالكون ومفرداته من جهة ثالثة، ومن هنا يأتي الحديث عن الإنتاج والإبداع، بدلًا من التلقي والتقليد؛ إذ لا تنمية بغير تميُّز، ولا إبداع بغير خصوصية.

٤. **الانخراط الواعي في قضايا الأمة، بل في قضايا الإنسانية** كلها، والعمل على إبداع قيم جديدة، تعالج هذه القضايا وفق رؤية الإسلام، ومقاصده في «**تحريك الحياة**» حالًا ومآلًا، بل أن نعيد إبداع قيم نافعة تم تناسيها(مثل قيم: **الزهد والإيثار الكوني، والتعارف والتراحم، والائتمان على المستقبل**...الخ) فمثل هذه القيم- والتي لا نجد لها مثيلًا في القيم الكونية المزعومة- يمكن أن تكون بمنزلة «**المقاصد الإنسانية**» الكبرى، التي ينبغي أن يسترشد بها العالم في سعيه نحو«**تحريك الحياة**»، والتي إن فعَّلها أدّى ذلك إلى دفع «**الآفات**» التي دخلت على اختياراته الحضارية، من جهة، وأدّى إلى تغيير حركة الحياة على وجه الأرض، صلاحًا في الحال، وفلاحًا في المآل، من جهة ثانية. وهذا يدفعنا إلى أن ننشئ من المفاهيم الحضارية

ما لم تنشئه الحضارة الغربية، وأن نوفر لها «**المشروعية**» عن طريق إسنادها إلى أدلة صحيحة من ثقافتنا الإسلامية، وإشاعتها في مجالنا التداولي، وأن نوفر لها «**الإنتاجية**» عن طريق تفعيلها، ومحاكمة حركة الحياة والأحياء من منظورها، واستخراج نتائج مثمرة منها، وبيان نفعها في تحريك الحياة، وهذا كله طموح مشروع من أجل معانقة المستقبل.

***

الخاتمة

وبعد، فمن الجدير بالاعتبار هنا أن مفهوم «**الائتمان على المستقبل**»يَعِدُ- إن أحسنا تمثله وتنزيله في تحريك حياتنا، والحياة من حولنا- بنتائج من شأنها أن تغير وجه الحياة؛ إذ ثمة يقين في أن تضمين هذه المفهوم في خطابنا الإسلامي، وتشغيله في الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها واقع العالم الآن، وتفعيله في مواجهة المشكلات التي يعاني منها إنسان «**منظومة الحداثة الغربية**»لا يمثل إمكانًا لنقد قيم الآخر في «**تحريك الحياة**»بعد أن أدخلت «**منظومة الحداثة**»الغربية الإنسان في أزمة مع الكون ومستقبله ،فحسب، بل يقدم أيضًا نقدًا لواقع المسلمين، ومدى تفريطهم حينما غيبوا في خطابهم، بوعي أو من دون وعي، هذه القيم التي تقدم رؤية معرفية «**شاملة**»و «**راشدة**»لـ «**تحريك الحياة**».

هذا، ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال تناول هذا المفهوم في السنة المشرفة، ما يأتي:

أن الإسلام ليس «**مشروع**» ترقية للوجود الإسلامي فحسب، بل للإنسانية كلها على امتداد أزمانها، يعمل على «**ترقية وجودها**»، والارتقاء بها في «**مدارج الكمال**»مادة وروحًا، خَلقًا وخُلُقًا، حالًا ومآلًا؛ ومن ثم فقد آن الأوان لكي نعيد الاعتبار إلى قيم الإسلام، وتفعيلها في حياتنا، تنزيلًا، وحراسة، وتنمية،، وأن نصوغ، في ضوء هذه القيم، خطابًا إسلاميًّا يكون على مستوى سؤالات الإنسان المعاصر. وبذلك، وحده، تحقق الأمة «**شهودها الحضاري**»بعيدًا عن أي شعور بـ «**الانسحاق الداخلي**»أمام أية إرادة بشرية أخرى، كما تحفظ لقيم دينها كيانها واستمرارها، ليس فقط في النظر، بل في الممارسة والحركة، لا أن نترك قيمنا تعاني غربة الزمان والمكان، ثم نجعل الإشكال فيها، والحقيقة أن هذا إشكال المسلم، لا إشكال قيمه.

أن المسلم، في المنظور الحضاري الإسلامي، ليس مطالبًا باستشراف المستقبل رؤية وتخطيطًا فقط، بل هو مؤتمن عليه أيضًا!! ولعل في حديث النبي ﷺ: «إِن قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فإن اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حتى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ، وفي رواية: فَلْيَغْرِسْهَا» خيرَ دليل على الشعور بالمسؤولية تجاه حركة المستقبل، بل إن السنة النبوية لَتؤكد أن المسلم قادر على تشكيل مستقبله وامتداد فعله حتى بعد الموت، ومن ثم يضيف هذا المفهوم بعدًا رابعًا في الفقه الحضاري، بعد فقه النص، وفقه الواقع، وفقه تنزيل النص على الواقع، ثم فقه الائتمان على المستقبل.

أن مفهوم: «**الائتمان على المستقبل**» في بنائه التنظيري، يعد مفهومًا «**منظومةً**» يحرك في إطاره مجموعة من الدلالات المحورية، أهمها: وجوب النظر إلى المستقبل والوعي به، وهو ما يحمله مصطلح «**استشراف المستقبل**» بالإضافة إلى ما يزيد عليها من معاني: «الفاعلية» و «**المسؤولية**» و «المحاسبة»التي يقتضيها لفظ «**الائتمان**»، ولا شك أن هذه المعاني لها دلالتها في الحركة الحضارية، فيكون مصطلح «**الائتمان على المستقبل**» أكثر ارتباطًا بـ «**منظومة المفاهيم الإسلامية**»من مصطلح «**استشراف المستقبل**»الخالي من معاني: «**الفاعلية**» و «**المسؤولية**» و «**المحاسبة**»، **مما يعني أن المستقبل، في المنظور الإسلامي، وديعة يحاسب حاملها على التفريط فيها!!**

أن المسلم ليس بالسائب، و لا يستشرف مستقبله عبر عقلانية محضة، وإنما هو محكوم، بعد نصوص القرآن الكريم، بالحديث، يخضع للصحيح منه، ولابد، ذلك...أو التخبط؛ ويتأسس على ذلك أن مرجع الوعي «**بالمستقبل**» في التصور الإسلامي، إذن، ليس إلى «**الرأي والهوى**» وليس إلى «**العقل البشري**» بلا قاعدة ولا ضابط، وليس إلى «**المصلحة**»كما يتصورها الناس غير محكومة بأصل من دين الله، وليس إلى أي اعتبار آخر، غير اعتبار واحد هو «**الوحي**» المعصوم، قرآنًا وسنة،

بما يضعه من ضوابط وموازين تتحكم في كل شأن من شؤون الحياة، حالًا ومآلًا. وهذا هو ما يقتضيه لفظ «**الائتمان**»إذ يقتضي أن يعمل المسلم على أن تكون حركة المستقبل وفق رؤية الإسلام ومقاصده في «**تحريك الحياة**»من خلال فقه إسلامي شغوف بـ «**التوازن والتجرد**»، و«**أداء الحقوق**»و«**مراعاة الحرمات ورفيع الأذواق**»، و«**أخلاق البذل و الإيثار**»، و«**اصطناع المعروف**»، و«**ابتغاء الفضل وبذله**»، و«**محاربة الطغيان الحضاري**»، و«**الاستئثار العمراني**»، وبعيدًا عن ألوان التضليل والبغي الحضاري، وأخلاقياته المدمرة للحياة في حاضرها ومستقبلها.

أن مسؤولية المسلم تجاه حركة المستقبل، استشرافًا وائتمانًا، ليست رجمًا بالغيب المنهي عنه، ولا مؤسَّسة على عناصرَ معاندةٍ للقدر، ولا خرقًا للزمن والواقع، كما قد يُظن، بل هي مسؤولية تحمل، في جوهرها، عناصر حركة تفكيرية وعملية، تنطلق من الوعي بالسنن الفاعلة، والحاكمة لحركة الحياة والأحياء، تدبرًا واعتبارًا، فليس، إذن، ثمة ما يدعو الإنسان إلى التنحي عن الفعل، والاستقالة الحضارية، وتحويل الفعل الحضاري إلى عجز، وتكريس عقلية اللامسؤولية، واللامبالاة، والعجز والقعود عن التفكير في المستقبل والتخطيط له؛ تحججًا بالقدر، أو بالغيب؛ ففي ذلك امتهان لمعاني: **الاستخلاف، والمسؤولية، والتزكية، والاستعمار الإيماني للأرض، وبناء الدنيا للآخرة**، كما أن فيه مخالفة لتعاليم الوحي، قرآنًا وسنة».

أن الإسلام بهذا المفهوم «**الائتمان على المستقبل**» وما تولد عنه من جملة القيم: (**السعي الحي/والائتمان الكوني/والمسؤولية والمحاسبة**) يؤسس لفقه «**الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا**»، كما يرتقي بالمسلم في منهجية تحريكه للحياة، وتعامله مع الكون وعالم الأشياء من حولنا، استنفاعًا واستثمارًا، وتحقيق التوازن والعدل في الأرض، فلا يسعى جيل بعينه للتمتع والاستفادة، أو الاستئثار

بكل طاقات الكون، على حساب آخر؛ إذ هي أصول كلها تقضي بإيجاد عالم تكون فيه العلاقات بين الأحياء والأشياء علاقات بين أقرباء، أقرباء فيما بينهم، وأقرباء من الرحمن الذي يتجلى عليهم، لا بقهره، وإنما برحمته، فلا يتصارع مع الكون، ولا يتسلط عليه، وإنما يخاطبه، بل يتوادد معه وتراحمه، حتى يبوح لها بأخباره وأسراره !!

أن «**السُّنَن الإلهية**» وفق المنظور الإسلامي تمثل «**تحليلًا إيمانيًّا**» لحركة الحياة، و«**قيمًا**» مطردة تتحكم في مسارات الأفعال فيها، وفي هذا السياق يمكن أن يعتبر ما صح من «**باب الفتن**» و «**النبوءات**» في كتب السنة النبوية، والتي تتناول «**سنن ظهور الإسلام**» و«**سنن غربته**» و«**أسباب نصر المسلمين**» و«**أسباب ضعفهم**» و«**انهيار شبكة العلاقات الاجتماعية**» من المفاتيح العظيمة لفهم هذه السنن التحذيرية؛ إذ موضوعاتها متعلقة بمستقبل الأمة، فهي تمثل «**منبهات**» و«**محفزات**» حضارية، تبصر بالمصائر التي سوف يصير إليها من يعيشون بعيدًا عن الهدي الإلهي، كما تقدم نقدًا لواقع سيكون؛ تحذيرًا وتخويفًا من الوقوع في براثن ذلك الواقع أو الرضا به، و تحفيزًا للمسلمين، وإثارة لفاعليتهم؛ للاستعداد للتعامل مع هذا الواقع، فإذا أحسنا قراءتها بأبجدية صحيحة، فسوف تشكل لنا المناعة، وامتلاك الإمكان الحضاري، والعصمة من الوقوع في الفتن، والقدرة على المواجهة والإصلاح.

وأخيرًا، فإني أتوجه إلى هذه «**الندوة المباركة**» بهاتين التوصيتين:

أولًا: الاستمرار في اختيار مثل هذه المواضيع، التي تعنى بـ «**تقويم المشكلات والمتغيرات العالمية**» ومساءلتها ومحاكمتها بقيم الإسلام، ومقاصده، في «**تحريك الحياة**»، وخاصة «**مشكلة البيئة**»، و«**علاقة الإنسان بالأرض**» وما تعانيه الأرض اليوم من: «**التلويث**»، و«**التخريب**»، و«**العبث**»، وفقدان «**الرشد و التوازن**»، وسيادة «**منطق القوة**»، و«**الجشع**» في التعامل مع معطيات الكون (**من خلال**

عملية غزو إمبريالية للكون تتم لحساب الإنسان الغربي وحده، وإن كان يتأثر بنتائجها كل سكان الأرض، حتى أصبحت البشرية اليوم، أكثر فاعلية وقدرة في مجالات التدمير منها مجتمعة في كل العصور التي مضت، وكانت النتيجة أن بدأت الأرض تموت. **بالإضافة إلى ما يسود العالم الآن من علاقات، تحكمها مقولات من نحو: «نهاية التاريخ» و«صراع الحضارات» و«النظام العالمي الجديد»... إلخ وهي مقولات تحمل في طياتها ما يمكن أن نسميه بـ «صناعة العدو» و«البغي الحضاري» الذي يعمل على «استلاب الآخر» من قيمه وذاته، استتباعًا وتنميطًا، أو تخريبًا وتدليسًا**؛ إذ في هذا السياق يبرز أن «**منظومة القيم**» في الوحي قرآنًا وسنةً، تمتلك برنامجًا كاملًا، وقادرًا على أن يسهم بقوة في علاج كثير من مشكلات الحضارة الإنسانية المعاصرة، التي تنكبت طريق الوحي، وتمركزت حول ذاتها، تدمرها ومن حولها، إنسانًا وطبيعة، فالإسلام قادر على إحلال عامل «**الرشد**» في مسير الحضارة الإنسانية، بدل عامل «**البغي**»، وما أحوجه البشرية إلى ذلك.

ثانيًا: التأكيد على ضرورة بناء مفاهيم حضارية مستقاة من الوحي، قرآنًا وسنة؛ واعتبار «**منظومة المفاهيم الإسلامية**» تشكل «**القبلة الفكرية**» التي يجب التوجه إليها، فالوحي يشكل مصدرًا هائلًا لمفاهيم تشكل نماذج معيارية وقياسية، تتميز بكونها منظومة متكاملة للحكم على الأشياء والوقائع والمستقبل، **وبهذا يصير الوعي بالقرآن وتدبره، وقراءة السنة وفقهها، له قيمة لدى الدارسين و الباحثين، وله قيمة في مواجهة الفتنة بالمناهج الشائعة في الغرب، حيث تتأكد الرؤية الإسلامية واقعًا وممارسة، اقتداء واستمدادًا.**

ولله الأمر من قبل ومن بعد،،،

***

أهم المراجع

- إحياء علوم الدين، للإمام أبو حامد الغزالي،دار المعرفة، بيروت، د ت.
- أخلاق الصيرورة، د. عبد الوهاب المسيري، موقع الجزيرة نت، ٣ مارس، ٢٠٠٥م.
- الأرض في الميزان، الإيكولوجيا وروح الإنسان، آل جور، ترجمة: عواطف عبد العزيز، ط الأهرام، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- الإسلام بين الشرق والغرب، عزت بيجوفيتش، ترجمة: محمد يوسف عدس، مجلة النور الكويتية، ومؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات، ط١، ١٤١٤ / ١٩٩٤م.
- الإسلام دين المستقبل، روجيه غارودي، ترجمة: عبد المجيد بارودي، دار الإيمان، بيروت، د ت.
- الإسلام في معركة الحضارة، منير شفيق، دار الكلمة للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- الإسلام وأزمة الحضارة، في ضوء الفقه الحضاري، عمر بهاء الدين الأميري، مؤسسة الشرق للنشر والترجمة، ط١، ١٩٨٣م.
- الإسلام وأزمة الغرب، ترجمة: د. رفيق المصري، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٨٣م.
- الإسلام والحداثة، رجاء غارودي، ترجمة: د. العربي كشاط، ضمن بحوث: الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

- الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط٩، ١٩٨٨م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، للإمام ابن القيم، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت – ١٩٧٣م.
- الآفاق الحضارية للوجود الإسلامي بالغرب، د. عبد المجيد النجار، المعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية، باريس، ط١، ٢٠٠٥م.
- الإنسان ذلك المجهول، ألكسي كاريل، تعريب: شفيق أسعد فريد، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٧٤م.
- الإنسان ذو الوجه الواحد،هربرت ماركوز، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الساقي، بيروت، ط١٩٨٨،١م.
- البنيوية، فلسفة موت الإنسان، روجيه غارودي، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط١٩٨٥،٣م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، للإمام الزبيدي، تحقيق مجموعة من الباحثين، د ت.
- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، تأليف: الحافظ ابن عساكر، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر،بيروت،١٩٩٥م.
- تاريخنا المفترى عليه، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٦.
- التراتيب الإدارية (نظام الحكومة النبوية)، العلامة الشيخ عبد الحي الكتاني، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت.

- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين،للراغب الأصبهاني، تقديم وتحقيق د. عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط١، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- الثقافة المطلوبة حتى نكون في مستوى إسلامنا، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- حفارو القبور، رجاء غارودي، تعريب: رانيا الهاشم، منشورات عويدات، بيروت- باريس،ط١، ٢٠٠٠م.
- الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- الدراسات المستقبلية في عالم المسلمين، د. سيف الدين عبد الفتاح، ضمن ملفات الأمة في قرن، عدد خاص من مجلة أمتي في العالم، يصدرها مركز الحضارة والدراسات السياسية، القاهرة، ٢٠٠م / ٢٠٠١م.
- دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، القاهرة،ط١، ٢٠٠٧م.
- الرخاء المفقر،التبذير والبطالة والعوز، تأليف: كارل غيورك تسين، ترجمة: د. عباس عدنان علي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبوظبي، ط١، ٢٠٠٦م.
- روح العولمة وأخلاق المستقبل، د. طه عبد الرحمن، مجلة إسلامية المعرفة، السنة السابعة، العدد السادس والعشرون، خريف ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

- سؤال الأخلاق، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، الشيخ الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض،١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م.
- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، محمد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر، الرياض، ١٨٩٤م.
- السيطرة الصامتة، الرأسمالية العالمية وموت الديمقراطية، نورينا هرتس، ترجمة: صدقي حطاب، عالم المعرفة، الكويت، ع٣٣٦، فبراير، ٢٠٠٧م.
- الشهود الحضاري للأمة الإسلامية: فقه التحضر الإسلامي،د. عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط١، ١٩٩٩م.
- صحيح مسلم بشرح النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢- ١٣٩٢م.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، للإمام ابن القيم، تحقيق: د. محمد جميل غازي، مطبعة المدني، القاهرة، د ت.
- العلاقات الدولية في الإسلام-مدخل القيم، د. سيف الدين عبد الفتاح، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- العلم في منظوره الجديد، وروبرت أم. أغروس، وجورج ن. ستانسيو، ترجمة: د. كمال خلايلي،، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع١٤٣.
- العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د. عبد الوهاب المسيري، دار الشروق،

القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

- العمل الديني وتجديد العقل، د. طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، بيروت،ط٤، ٢٠٠٦م.

- عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، جان ماري بيلت، ترجمة السيد محمد عثمان، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع١٨٩.

- العولمة والإرهاب، حرب أمريكا على العالم، نعوم تشومسكي، ترجمة: د. حمزة المزيني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

- العولمة والإسلام، رؤيتان للعالم، د. سيف الدين عبد الفتاح، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

- غياث الأمم والتياث الظلم، للإمام الجويني، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم، و د. مصطفى حلمي، دار الدعوة، الإسكندرية، ط١، ١٩٧٩م.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، د ت.

- الفروق، أو أنوار البروق في أنواء الفروق (مع الهوامش)، للإمام القرافي، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية - بيروت - ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

- الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ.

- فهم القرآن ومعانيه، للإمام المحاسبي، تحقيق: حسين القوتلي: دار الكندي

- دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ.

- في الاقتصاد، البواعث الإيمانية والضوابط الشرعية، للشيخ عبد السلام ياسين، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٥م.

- في الحداثة والخطاب الحداثي، د. منير شفيق، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٩م.

- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للإمام عبد الرؤوف المناوي،المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١٣٥٦،١هـ.

- قضايا البيئة من منظور إسلامي، الدكتور عبد المجيد النجار طبعته وزارة الأوقاف، قطر، ١٩٩٩م.

- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز ابن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت.

- الله ليس كذلك، زيجرد هونكه، ترجمة: د. غريب محمد غريب، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

- المتلاعبون بالعقول، تأليف: هربرت أ. شيللر، ترجمة: عبد السلام رضوان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ع ٢٤٣.

- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد العاصمي النجدي، وابنه محمد، مطابع دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ.

- مدارج السالكين، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، تحقيق:

محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ.

- مراجعات في الفكر الإسلامي، د. عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠٠٨م.

- مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، عمر عبيد حسنة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- مصالح الإنسان، مقاربة مقاصدية، عبد النور برزا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

- مصير الإنسان، لكونت دي نوي،ترجمة: خليل الجر، ط جونيه، د ت.

- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل، لأبي الحسن الحرالي المراكشي، تقديم وتحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياطي،مطبعة النجاح، الدار البيضاء- المغرب، ط١٤١٨،١هـ/ ١٩٩٨م.

- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، د ت.

- مقاصد الشريعة الخاصة بالتصرفات المالية، د. عز الدين بن زغيبة، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، د. عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

- مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط٥، ١٩٨٤م.

- المنثور في القواعد الفقهية، الزركشي، تحقيق: أحمد فائق، ومراجعة الشيخ أبو غدة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط٢، ١٩٨٥م
- الموافقات في أصول الشريعة، للإمام الشاطبي، تحرير وتحقيق الشيخ عبد الله دراز، دار المعرف، بيروت،د ت.
- وعود الإسلام، رجاء غارودي، ترجمة: د. ذوقان قرقوط، دار الرقي، بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١٩٨٥،٢م.

أهمية استشراف المستقبل وضوابطه
دراسة تأصيلية في ضوء السنة النبوية

د. محمد بشير البشير
كلية التربية، جامعة جازان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد،،

فإن السنة النبوية المطهرة التي تعد المصدر الثاني للتشريع الإسلامي وأساس نهضتنا وعماد معرفتنا قد ندبت إلى استشراف المستقبل، ورغبت في التخطيط المستقبلي، وأكدت دوره في صنع القرار، وتطوير مجالات الحياة المختلفة، وكان لنظرة النبي ﷺ المستقبلية وإعداده العدة لكثير من الأحداث أثر كبير في تطور الدولة الإسلامية، واستكمال نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فانتشر الإسلام، واتسعت رقعته الجغرافية، ولم يكن ازدهار الحضارة الإسلامية والنهضة العلمية والتطور العمراني الذي شهده العالم الإسلامي خلال العصور الذهبية إلا أثراً لاستشراف المستقبل في العهد النبوي، وثمرة من ثمرات العناية المتوازنة بحاضر الأمة ومستقبلها، ومن الشواهد العملية على استشراف الأمة الإسلامية المستقبل ما قام به المسلمون في القرون الأولى من تمصير الأمصار، وجمع القرآن الكريم، وتدوين السنة النبوية، وتخطيط المدن، وتدوين الدواوين.

ومن المؤكد أن العناية باستشراف المستقبل واستكشاف اتجاهاته تعتبر في العصر الحاضر من القضايا الملحة، والمطالب العاجلة، وقد أصبح من البديهيات في ظل المعطيات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الحاضرة أن دراسة المستقبل تعزز كفاءة المؤسسات المعنية بعملية التنمية، وإدارة الأزمات، وتطوير الموارد البشرية والطبيعية، ومن أجل ذلك فقد عملت الدول المتقدمة على تلمس احتمالات مستقبلها، وترتيب أولوياته، ورسم صورته، منطلقة من الاعتبار بالماضي، وتحليل

الحاضر، ومعرفة سنن التغيير، وإعمال الفكر لمعرفة الممكن، والمحتمل، والمفضل.

ويعود ذلك بشكل كبير إلى الأحداث الاقتصادية والعسكرية والمعرفية التي شهدها العالم خلال القرن العشرين، والتي أدت إلى انتشار الفقر، وانخفاض معدلات التنمية، وإذكاء التنافس، وتسارع وتيرة الأحداث، فازداد الاهتمام بدراسة المستقبل واستكشاف اتجاهاته لمواجهة هذه التحديات، والتغلب على المشكلات الناجمة عنها، وتطوير الموارد البشرية والطبيعية، وإدارة العلاقات الدولية.

وهذا الواقع يطرح تحديات فكرية متعددة أمام أمتنا الإسلامية، فنحن نعيش في عصر تعددت فيه مناهج استشراف المستقبل، وكثرت مراكزه ودراساته، وتداعت الأمم للعناية به. ولا تتمثل هذه التحديات في بيان منهج الإسلام في العناية بالمستقبل وضبط وسائل دراسته، وتأصيل ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية فحسب؛ بل في زيادة الوعي بأهميته، وتطبيقه في حياتنا العملية، وتحديد موقعه في التنشئة الاجتماعية والمناهج التعليمية والنظم الإدارية.

ومما يجب التأكيد عليه هنا أن عالمية الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان تحتم على المسلمين أن يبرزوا عناية دينهم باستشراف المستقبل، ويوضحوا ضوابطه المتميزة لاستشراف المستقبل، وأثرها في توجيهه إلى تحقيق الخير ودرء الشر، ويعملوا على تنقيته مما علق به من الشوائب العقدية والفكرية، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، قال الرازي: «وذلك لأن النبي الذي يكون بعده نبي إن ترك شيئاً من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده، وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم

وأجدى، إذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد»[1]، والعلماء هم ورثة الأنبياء عليهم السلام في الشفقة على الأمة، ونصحها.

وقد رأيت أن أشارك في هذه الندوة الطيبة ببحث وسمته: (بأهمية استشراف المستقبل وضوابطه ـ دراسة تأصيلية في ضوء السنة النبوية)، وهو محاولة جادة لتأصيل مفهوم استشراف المستقبل في السنة النبوية، وبيان أثرها في تقرير أهميته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهو يهدف من ناحية أخرى إلى إيضاح ضوابط استشراف المستقبل في السنة النبوية التي تميز منهج الإسلام عن المناهج الأخرى، وكذلك تعريف النظرة الإيجابية، وبيان الوسائل القرآنية والحديثية المعززة لها في حياة المسلم، وتأكيد أثرها في تحقيق نهضة الأمة الإسلامية.

الدراسات السابقة:

هناك عدد من الدراسات التي تناولت موضوع استشراف المستقبل في السنة النبوية، ومنها على سبيل المثال:

١. بحث بعنوان: (الدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية)، وهو رسالة ماجستير تقدم بها الباحث: عبدالله بن محمد المديفر، إلى كلية الدعوة ـ بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالمدينة -سابقاً- جامعة طيبة حالياً، وقد تحدث فيها عن ملامح المنهج الإسلامي في استشراف المستقبل، والقواعد المستقبلية في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وفي القواعد الأصولية والفقهية، وخلص الباحث إلى نتائج متعددة من أهمها: أن للدراسات المستقبلية وأساليبها فوائد كثيرة تعود بالنفع على المؤسسة الإسلامية، والعلماء، والداعي، والمدعو، ووسائل الدعوة، وهذه الرسالة تناولت موضوع استشراف المستقبل من منظور دعوي.

١- التفسير الكبير ـ الرازي ـ ج ٢٥ ص ١٨٥.

٢. رسالة علمية أخرى بعنوان: (استشراف المستقبل في الأحاديث النبوية)، تقدم بها الباحث: عبد الرحمن عبد اللطيف قشوع، قدمت إلى كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، وقد ركز الباحث على بيان مجالات الدراسات المستقبلية في السنة النبوية، حيث تحدث عن استشراف المستقبل في السنة النبوية في المجالات التشريعية والاجتماعية والتربوية والدعوية، وكذلك في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية.

٣. كتاب: (استشراف المستقبل في الحديث النبوي)، للدكتور إلياس بلكا، وقال عنه: «إن غاية هذا الكتاب هي الكشف عن المستقبلية في السنة النبوية، باعتبارها قيمة حضارية كبيرة، ومؤثرة في تطور الأفراد والمجتمعات. وكذا تقديم نموذج للتعامل مع الحديث يجمع بين احترام أصول الحديث ومراعاة القواعد الفنية للصنعة الحديثية من جهة، وبين استفتاء السنة في قضايا العصر والعالم وربطها بها من جهة أخرى. كذلك يندرج هذا الكتاب في محاولة وضع ما أسميه بـ: الشرح الموضوعي للسنة، على غرار التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، بحيث نفقه الحديث النبوي باعتباره كلًّا موضوعيًّا، لا أخبارًا جزئية متناثرة، لذا سيلاحظ القارئ كيف أن هذا البحث نَظَم عشرات الأحاديث في سلك واحد، وبين وحدتها وخدمتها لموضوع واحد، هو هنا: المستقبل، وما يتعلق به من الاستشراف، والتخطيط، والإخبار»[1].

ويتميز بحثي هذا عن الدراسات السابقة بأنه يتناول استشراف المستقبل في السنة النبوية بصفة عامة، ويعمل على تأصيل مفهوم استشراف المستقبل في السنة النبوية، وبيان أثرها في تقرير أهميته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهو يهدف من ناحية أخرى إلى إيضاح ضوابط استشراف المستقبل في السنة النبوية التي تميز منهج الإسلام عن المناهج الأخرى، وكذلك تعريف النظرة الإيجابية،

١- استشراف المستقبل في الحديث النبوي - د إلياس بلكا - ص ٢٨.

وبيان الوسائل القرآنية والحديثية المعززة لها في حياة المسلم، وتأكيد أثرها في تحقيق نهضة الأمة الإسلامية.

المبحث الأول: تأصيل مفهوم استشراف المستقبل وأهميته في ضوء السنة النبوية.

المطلب الأول: مفهوم استشراف المستقبل، وتأصيله في السنة النبوية.

- **مفهوم الاستشراف والكلمات ذات الصلة:**

قال ابن منظور: «الاستشراف: أن تضع يدك على حاجبك وتنظر، وأصله من العلو، كأنه ينظر إليه من موضع مرتفع فيكون أكثر لإدراكه»[١]، وجاء في المعجم الوسيط: «(استشرف) انتصب وعلا، و للشيء: تعرض، والشيء: رفع بصره، ينظر إليه»[٢]، وهذا التعريف يبين أن الاستشراف كان موضع عناية في الثقافة العربية، ويفيد أنه سلوك يتطلب معرفة ومهارة، ويستلزم عزيمة وإرادة، ويهدف إلى جلب خير أو دفع ضر.

وهناك كلمات مرادفة للاستشراف في اللغة العربية، ومن ذلك الطموح، قال الفيومي: «طمح ببصره نحو الشيء (يطمح) ـ بفتحتين ـ (طموحاً)، استشرف له»[٣]، ومنه أيضاً التطلع، قال الفيروز أبادي: «وتطلع إلى وروده: استشرف»[٤].

- **تأصيل كلمة الاستشراف في الحديث النبوي:**

وردت كلمة الاستشراف في بعض الأحاديث النبوية، ومن ذلك حديث حذيفة رضي الله عنه قال: "جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ، فقالوا: ابعث لنا رجلاً

١- لسان العرب ـ ابن منظور ـ ج ٩ ص ١٧١ ـ وانظر: تهذيب اللغة ـ الأزهري ـ ج ١١ ص ٢٣٥.
٢- المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية ـ ج ١ ص ٤٧٩.
٣- المصباح المنير ـ الفيومي ـ ج ٢ ص ٣٧٨.
٤- القاموس المحيط ـ الفيروز أبادي ـ ج ١ ص ٩٦١.

أميناً، فقال: لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف لها الناس...»[1]، قال ابن حجر: «أي تطلعوا إليها، ورغبوا فيها»[2]، وحديث علي رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺأن نستشرف العين والأذنين»[3]، قال السندي: «أي نبحث عنهما، ونتأمل في حالهما؛ لئلا يكون فيهما عيب، قال السيوطي في حاشية الترمذي: اختلف في المراد به هل هو من التأمل والنظر، من قولهم استشرف إذا نظر من مكان مرتفع؛ فإنه أمكن في النظر والتأمل، أو هو تحري الأشرف، بأن لا يكون في عينه أو أذنه نقص»[4].

وقد بينت السنة أن الاستشراف - من حيث المبدأ - كما يكون في الخير فإنه يكون في الشر، وكما يكون مأموراً به فإنه يكون منهياً عنه في بعض الأحيان، وقد جاء ذلك في حديث أبي هريرة قال: «قال رسول الله ﷺ: ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه...»[5]، قال ابن حجر: «أي تطلع لها؛ بأن يتصدى ويتعرض لها، ولا يعرض عنها... وقوله: تستشرفه، أي تهلكه، بأن يشرف منها على الهلاك»[6].

١- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب المغازي - باب قصة أهل نجران - ص ٣٥٩.
٢- فتح الباري - ابن حجر - ج ١٣ ص ٢٣٨.
٣- أخرجه أبو داود في سننه - كتاب الضحايا - باب ما يكره من الضحايا - ص ١٤٣٣ - والترمذي في سننه - أبواب الأضاحي - باب ما يكره من الأضاحي - ص ١٨٠٥ - و الدارمي في سننه - كتاب الأضاحي - باب: ما لا يجوز في الأضاحي - ج ٢ ص ٧٧ - قال الألباني: "ضعيف إلا جملة الأمر بالاستشراف" - انظر: سنن أبي داود - أبو داود - حكم وتعليق العلامة الألباني - ص ٤٩٨.
٤- حاشية السندي على سنن النسائي - السندي - ج ٧ ص ٢١٦ - وانظر: عون المعبود - محمد شمس الحق - ج ٧ ص ٢٥٩.
٥- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الفتن - باب: تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم - ص ٥٩٠ / ٥٩١ .
٦- فتح الباري - ابن حجر - ج١٢ ص ٣١.

- **مفهوم المستقبل والألفاظ ذات الصلة، وتأصيله في السنة النبوية:**

يتمثل مفهوم المستقبل من حيث الجملة فيما: «يترقب وجوده بعد زمانك الذي أنت فيه، يسمى به لأن الزمان يستقبله»[1]، كما أن الحال في اللغة يعني: «نهاية الماضي، وبداية المستقبل»[2].

وقد استخدم القرآن الكريم مصطلح الاستقبال في سياق الحديث عن عذاب الأمم السابقة للدلالة على التوجه والمقابلة، وذلك في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾[الأحقاف: ٢٤]، قال الألوسي: «أي متوجه أوديتهم وفي مقابلتها»[3]، وكذلك استخدمت السنة النبوية كلمة المستقبل، ومن أمثلة ذلك الحديث الذي روته عائشة رضي الله عنها، قالت: «قال رسول الله ﷺ: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي، ولحللت مع الناس حين حلوا»[4]، وهذا الحديث يبين أن استشراف المستقبل يكون عبر تصور الماضي، ويؤصل هذا الجانب في السنة النبوية ما قاله ابن حجر عن جواز قول: (لو) إذا تعلقت به فائدة في المستقبل: «فإن مثل هذا لا يختلف في جواز إطلاقه، وليس فيه فتح لعمل الشيطان، ولا ما يفضي إلى تحريم»[5].

ومن شواهد كلمة المستقبل في السنة النبوية أيضاً حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب ماله إليه بير حاء، وكانت مستقبل المسجد»[6].

١- التعريفات ـ الجرجاني ـ ج ١ ص ٢٧٢ ـ وانظر: التعاريف ـ المناوي ـ ج ١ ص ٦٥٤.
٢- المصدر السابق ـ ج ١ ص ١١٠.
٣- روح المعاني ـ الألوسي ـ ج ٢٦ ص ٢٦.
٤- أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التمني ـ باب قول النبي ﷺ: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت) ـ ص ٦٠٢.
٥- فتح الباري ـ ابن حجر ـ ج ١٣ ص ٢٢٨.
٦- أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الأشربة ـ باب استعذاب الماء ـ ص ٤٨١.

ومن الألفاظ ذات الصلة بالمستقبل كلمة (الغد)، قال الفيومي: «(الغد) اليوم الذي يأتي بعد يومك على أثره، ثم توسعوا فيه حتى أطلق على البعيد المترقب»[1]، وقال العيني: «يتجوز عن الزمان المستقبل القريب بلفظ الغد، كما يتجوز بالأمس عن الماضي»[2].

وقد عبر القرآن الكريم عن المستقبل بالغد في مواطن كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [يوسف: ١٢]، قال الزمخشري: «وغداً يقال لليوم الذي يلي يومك الذي أنت فيه»[3].

وأما السنة فقد ورد التعبير بالغد عن المستقبل في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: مفاتح الغيب خمس: (... وما تدري نفس ماذا تكسب غداً...)»[4].

وهناك عدد من المصطلحات الشرعية التي تدل على ما يدل عليه استشراف المستقبل لجلب خيره ودرء شره، ومن ذلك مصطلح الرجاء الذي يعني: «استشراف القلب لنيل ما يرجوه؛ فيكون العبد دائماً مستشرفاً بقلبه، سائلاً بلسانه، طالباً لفضل ربه»[5]، وقال الجرجاني: «الرجاء في اللغة الأمل، وفي الاصطلاح تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل»[6]، ومنه أيضاً الخشية التي تدل على: «تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل»[7].

١- المصباح المنير - الفيومي - ج ٢ ص ٤٤٣.
٢- عمدة القاري - العيني - ج ٩ ص ٢٣١.
٣- الكشاف - الزمخشري - ج ١ ص ٣٥٨.
٤- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب التفسير - باب: (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) - ص ٣٨٢.
٥- مدارج السالكين - ابن القيم - ج ٢ ص ٤٧.
٦- التعريفات - الجرجاني - ج ١ ص ١٤٦.
٧- المصدر السابق - ج ١ ص ١٣٣.

ومما يتصل بذلك أن الإسلام نفى عن المؤمنين صفة الخوف في الدنيا والآخرة وهو يعني: «توقع مكروه في المستقبل، وضده الأمن»[1]، ووجود هذه المصطلحات ذات الصلة باستشراف المستقبل من الجوانب الإيجابية والسلبية في مباحث العقيدة والشريعة يدل على أهمية استشراف المستقبل ابتغاء لخيره واتقاء لشره، وحرص القرآن الكريم والسنة النبوية على تربية المسلم على ذلك.

- **مفهوم استشراف المستقبل في الاصطلاح:**

لم يتفق الباحثون على تعريف محدد لاستشراف المستقبل، ولعل من أهم أسباب ذلك اختلاف منطلقات الباحثين الذين تناولوه، فقد تمت مناقشته من الجوانب التربوية والتعليمية والسياسية والاقتصادية، وغير ذلك، ومن الأسباب كذلك حداثة هذا الفن الذي ما زال الناس يسبرون غوره، ويستكشفون آفاقه.

وهناك عدة آراء في تعريف استشراف المستقبل بصفة عامة أو الدراسات المستقبلية بصفة خاصة، ومن هذه الآراء أنه: «جهد علمي منظم، يرمي إلى صياغة مجموعة من التنبؤات المشروطة، عبر مدة زمنية معينة، تمتد لأكثر من عشرين عاماً، وذلك عن طريق التركيز على المتغيرات التي يمكن تغييرها بواسطة القرارات، أو التي قد تتغير بفعل أحداث غير مؤكدة»، ومنها تعريف الدراسات المستقبلية بأنها: «فن وعلم يدرس من خلاله الباحث كيف يعالج الواقع المعاصر، بناء على مآلات ممكنة ومستقبلات تراد، وكذلك هي نوع من التخمين المبني على دراسة الماضي والحاضر، لما سيقع في الثلاثين سنة المقبلة»[2].

ومن الآراء التي قيلت في تعريف علم المستقبل: (Futurology) أنه: دراسة التطورات المحتملة أو التنبؤ بها في المجالات العلمية والتكنولوجية والاجتماعية،

١- التبيان في تفسير غريب القرآن - شهاب الدين - ج ١ ص ٨٠.
٢- انظر هذه الآراء وغيرها في رسالة: استشراف المستقبل في الأحاديث النبوية - ص ٨ / ١١ - إعداد: عبد الرحمن عبد اللطيف قشوع.

واعتبار الأوضاع والاتجاهات الحالية نقطة انطلاق[1].

ونخلص مما تقدم إلى تعريف مختار لعلم المستقبل يجمع الآراء السابقة، يتمثل في أنه «فن التفكير في الاتجاهات المستقبلية المحتملة، ومحاولة استكشافها، والسعي لقراءة عواقبها، ورصد تأثيرها على القرار، في مجالات الحياة المختلفة، على المدى القريب أو المتوسط أو البعيد، وذلك من خلال تحليل معطيات الواقع المعاصر، وفهم سنن التغيير».

المطلب الثاني: أهمية استشراف المستقبل في ضوء السنة النبوية.

ينطلق استشراف المستقبل في المنهج الإسلامي من مرتكزات شرعية، ويقوم على أسس دينية، وقيم خلقية؛ لأن الشريعة الإسلامية التي جاء بها نبينا محمد ﷺ وضعت لجلب المصالح ودرء المفاسد، قال الشاطبي: «وقصد الشارع إلى مصالح الخلق بالتكليف في العاجلة والآجلة»[2]، وهو مؤسس كذلك على ثوابت عقدية تتمثل في وجوب العناية بالمستقبل، وضرورة الاستعداد لليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ [الحشر: ١٨]، قال الشوكاني: «أي لتنظر أي شيء قدمت من الأعمال ليوم القيامة، والعرب تكنى المستقبل بالغد»[3]، ومن هذه المقدمة يتبين حرص الإسلام على تربية الفرد المسلم على العناية بمستقبله عناية لا تقل عن العناية بحاضره، وحثه على أن يكون استشراف المستقبل على الصعيد الدنيوي أو الأخروي قيمة من قيمه الحضارية، ومقوماً من مقومات شخصيته.

وربما يظن بعض الناس أن النبي ﷺ لم يستشرف المستقبل؛ لأنه مؤيد من ربه تبارك وتعالى، ولم يكن بحاجة إلى أن يجر نفعاً أو يدفع ضراً، في دينه أو في

١- http://www.thefreedictionary.com/futurologist

٢- الموافقات - الشاطبي - ج ٢ ص ١٢٦.

٣- فتح القدير - الشوكاني - ج ٥ ص ٢٠٥.

دنياه، فالصلة بين السماء والأرض كانت قائمة غير منقطعة، وكان محاطاً برعاية الله، محروساً بعينه التي لا تنام، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

- قوله تعالى في شأن النبي ﷺ: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، قال ابن كثير: «أي بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك، ومؤيدك على أعدائك، ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك»[١]، وقوله في شأنه وشأن أصحابه رضي الله عنهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤]، قال ابن كثير: «يخبرهم أنه حسبهم، أي كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم؛ وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين»[٢].
- أن الله تبارك وتعالى خير نبيه ﷺ بين أن يعطيه خير الدنيا ونعيمها وكنوزها وأعراضها وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، وقد جاء ذلك في حديث أبي سعيد الخدري: «أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر، فقال: إن عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده...»[٣].
- ما جاء في حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: «قال رسول اللَّه ﷺ: بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أنا نَائِمٌ أُتِيتُ مَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأرض فَوُضِعَتْ في يَدَيَّ»[٤]، قال ابن بطال: «كانت العرب أقل الأمم أموالاً، فبشرهم أنها ستصير أموال كسرى وقيصر إليهم، وهم الذين يملكون الخزائن»[٥]، فهذه الأدلة تثبت أن الله تبارك وتعالى قد كفى نبيه ﷺ ما أهمه في الحاضر والمستقبل.

١- تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٧٩.
٢- المصدر السابق - ج ٢ ص ٣٢٥.
٣- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب مناقب الأنصار - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة - ص ٣١٧.
٤- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب التعبير - باب المفاتيح في اليد - ص ٥٨٥.
٥- شرح صحيح البخاري - ابن بطال - ج ٥ ص ١٤٢ / ١٤٣.

وعلى الرغم من صحة ما تقدم إلا أنه لا يتعارض مع استشراف النبي ﷺ مستقبل الإسلام وتخطيطه له في مجالات الحياة المختلفة؛ لأن النبي ﷺ كان مأموراً باتخاذ الأسباب، وكان يبين للناس ما نزل إليهم، ويعلمهم أمور دينهم، لتتأسى به أمته، وتقتدي بهديه.

وغير خاف أن استشراف المستقبل يهدف فيما يهدف إلى الحذر من مكروه محتمل وتجنب شر قادم كما أنه يهدف إلى الحصول على منفعة من المنافع، ومن هذه الحيثية فإنه لا يتعارض مع التوكل المأمور به بل يدخل في الاحتياط الذي أمر به المسلم؛ لأنه من أعمال الفكر وأنشطة العقل التي لا تتعارض مع أعمال القلب، قال ابن عقيل: «يظن أقوام أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكل، وأن التوكل هو إهمال العواقب واطراح التحفظ، وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط الذي يقتضي من العقلاء التوبيخ والتهجين، ولم يأمر الله بالتوكل إلا بعد التحرز واستفراغ الوسع في التحفظ فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]»[١].

وفي السنة النبوية تأصيل لاستشراف المستقبل، وبيان لأثره البالغ في نهضة الأمة الإسلامية، ودوره العظيم في تحقيق قوتها، وبلوغها أهدافها، فمن أعمل فكره في السنة النبوية المطهرة وأجال نظره في صفحات السيرة النبوية فإنه سيجد نماذج متعددة وصوراً مختلفة لاستشراف المستقبل الديني والدنيوي، والفردي والجماعي، ومن ذلك:

- استشراف المستقبل السياسي في حديث محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك؟ - كأنها تقول الموت - قال ﷺ: إن لم تجديني فأتي أبا بكر»[٢].

١- تلبيس إبليس - ابن الجوزي - ج ١ ص ٣٤٢ / ٣٤٣.
٢- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ - باب: حدثنا الحميدي ومحمد بن عبد الله قالا: - ص ٢٩٧.

- استشراف المستقبل الاجتماعي في حديث أنس رضي الله عنه قال: «أراد رسول الله ﷺ أن يقطع من البحرين، فقالت الأنصار: حتى تقطع لإخواننا من المهاجرين مثل الذي تقطع لنا، قال: سترون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني»[1].

- استشراف المستقبل المعيشي؛ لتدبير حياة الأسرة، وتلبية مطالبها، وذلك في حديث عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ النبي ﷺ: «كان يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ»[2].

- استشراف مستقبل الأبناء من أجل تحقيق مطالب حياتهم في قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ ورثتك أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ من أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ الناس»[3]، وهذا الحكم يؤكد ضرورة استشراف مصالح الأبناء، ووجوب تدبير أمرهم، قال ابن حجر: «وفيه النظر في مصالح الورثة، وأن خطاب الشارع للواحد يعم من كان بصفته من المكلفين؛ لإطباق العلماء على الاحتجاج بحديث سعد هذا؛ وإن كان الخطاب إنما وقع له بصيغة الأفراد، ولقد أبعد من قال إن ذلك يختص بسعد ومن كان في مثل حاله ممن يخلف وارثاً ضعيفاً أو كان ما يخلفه قليلاً»[4].

والنماذج التي قدمتها السنة النبوية في مجالات متعددة تبين أن هناك قيماً حضارية متعددة تتحقق في استشراف المستقبل، وهي تتمثل فيما يلي:

١- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب المساقاة - باب القطائع - ص ١٨٦.
٢- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب النفقات - باب حبس الرجل قوت سنة على أهله، وكيف نفقات العيال؟ - ص ٤٦٢.
٣- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب المغازي - باب حجة الوداع - ص ٣٦١.
٤- فتح الباري - ابن حجر - ج ٥ ص ٣٦٨ / ٣٦٩.

- **قيمة الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية التي تكسب الأمة الإسلامية قوة ومنعة:**

أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بأن يأخذ بالأسباب في أمور الدين والدنيا، واستشراف المستقبل بصوره المختلفة يدخل في ذلك، فالتعلق بالأسباب في إصلاح الحاضر أو استشراف المستقبل سواء أكان ذلك على الصعيد المادي أم الأدبي يعد من الأمور الجائزة، ولا ينافي التوكل، قال ابن العربي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨]: «دل على أن تعلق القلب بالأسباب في الرزق جائز، وإن كان الرزق مقدوراً، وأمر الله وقسمه له مفعولاً؛ ولكنه علقه بالأسباب لتعلم القلوب التي تتعلق بالأسباب من القلوب التي تتوكل على رب الأرباب»[1].

ومن أبرز صور تعلق النبي ﷺ بالأسباب ما جرى في الهجرة النبوية المباركة حين خرج من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ولم يستسلم للعدو، فاستشرف مستقبل الدين الإسلامي بذلك، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، قال ابن العربي: «ولو شاء ربكم لعصمه مع كونه معهم؛ ولكنها سنة الأنبياء وسيرة الأمم، حكم الله بها لتكون قدوة للخلق، وأنموذجاً في الدين، وعملاً بالأسباب»[2].

واستشراف المستقبل لا ينافي ما يجب أن يكون عليه المؤمن من اليقين بوعد ربه، والثقة في رحمته وسعة رزقه، وقد استنبط ابن العربي ذلك مما جاء على لسان يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، قال ابن العربي: «فيها جواز التعلق بالأسباب وإن

١- أحكام القرآن ـ ابن العربي ـ ج ٢ ص ٤٧١.
٢- المصدر السابق ـ ج ٢ ص ٥١٤.

كان اليقين حاصلاً؛ لأن الأمور بيد مسببها؛ ولكنه جعلها سلسلة، وركب بعضها على بعض»[1].

- **قيمة استشعار المسؤولية وأداء الأمانة:**

إن استشراف المستقبل وقراءة اتجاهاته والتطلع إلى تحقيق الأهداف المستقبلية يعد من الأمانة التي أُمر الإنسان بأدائها، فالإنسان مؤتمن على ماضيه وحاضره ومستقبله، ومن المقرر أن الأمانة في الإسلام كلمة واسعة الدلالة يندرج تحتها تقويم الماضي والاعتبار بما جرى فيه، وتجويد الحاضر وتحسين جوانبه المختلفة، وكذلك استشراف المستقبل وقراءة مجالاته المختلفة، والمسلم حينما يُعمل عقله ويستفرغ جهده في استشراف المستقبل ودراسة اتجاهاته إنما يؤدي ما كلف به، ويستجيب لما أمر به، فهو مكلف بعمارة الأرض، ومأمور باستغلال مواردها، وتنمية خيراتها، ومستخلف فيها، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١] .

وقدرة الإنسان على استشراف المستقبل، ورغبته في ذلك، وإدراكه لأهميته يعد من الشواهد على تكريمه وتفضيله على كثير من الخلق، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]، قال الزمخشري: «قيل في تكرمة ابن آدم: كرّمه الله بالعقل، والنطق، والتمييز، والخط، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد. وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم»[2]، وما قاله الزمخشري فيه ربط لتكريم الإنسان باستشراف المستقبل وتأكيد لصلة التفضيل بالتخطيط المستقبلي؛ لأن استشراف المستقبل سواء على الصعيد الفردي أم على الصعيد الجماعي يعتبر من الأنشطة الذهنية، وهو تدبير لأمر المعاش من الناحية

١- أحكام القرآن - ابن العربي - ج ٣ ص ٥٥.
٢- الكشاف - الزمخشري - ج ٢ ص ٦٣٥ / ٦٣٦.

التربوية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، وهو كذلك وسيلة للانتفاع بالخيرات المادية والمعنوية التي سخرها الله للإنسان.

والاستشراف المستقبلي يعني التفكير في أمر المعاش والمعاد، والتدبر في سنن التغيير، وهو بذلك يعتبر من الاجتهاد الذي رغب فيه الإسلام، وحث عليه، وجعله من مصادر التشريع الإسلامي، ومن المؤكد أن الشرع لا يستحسن جمود العقل، ولا تعطيل التفكير في تدبير أمر المعاش والمعاد وتنمية الموارد البشرية عبر التخطيط المستقبلي، قال ابن الجوزي: «الحركة للذب عن النفس استعمال لنعمة الله تعالى...، وقد جعل الله تعالى للطير والبهائم عدة وأسلحة تدفع عنها الشرور كالمخلب والظفر والناب، وخلق للآدمي عقلاً يقوده إلى حمل الأسلحة ويهديه إلى التحصين بالأبنية والدروع، ومن عطل نعمة الله بترك الاحتراز فقد عطل حكمته، كمن يترك الأغذية والأدوية ثم يموت جوعاً أو مرضاً»[1].

ومن جانب آخر فإن الحاكم لا يبذل الوسع في استشراف مستقبل رعيته والتخطيط لذلك إلا إذا استشعر عظم المسؤولية التي أنيطت به، وكذلك الأب الذي يستشرف مستقبل أبنائه الصغار، ويتطلع إلى ازدهار مستقبلهم إنما يستجيب في ذلك لما جاء في حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: كُلُّكُمْ رَاعٍ و مسؤول عن رَعِيَّتِه، فَالْأَمِيرُ الذي على الناس فهو رَاعٍ عليهم وهو مسؤول عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ على أَهْلِ بَيْتِه وهو مسؤول عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ على بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِه وَهِيَ مسؤولة عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ على مَالِ سَيِّدِه وهو مسؤول عنه، ألا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسؤول عن رَعِيَّتِه»[2]، قال ابن حجر: «والراعي هو الحافظ المؤتمن، الملتزم صلاح ما اؤتمن على حفظه، فهو مطلوب بالعدل فيه،

١- تلبيس إبليس - ابن الجوزي - ج ١ ص ٣٤٣.
٢- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب العتق - باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي أو أمتي - ص ٢٠١ .

والقيام بمصالحه»[1]، وهذا الحديث يدل على أن استشراف المستقبل يجب أن يتحمل الجميع مسؤوليته، حكاماً ومحكومين، ويجب أن يكون ثقافة مشتركة بين الناس يدلي كل فرد فيها بدلوه، قال النووي: «ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته»[2].

فمن استرعاه الله تبارك وتعالى رعية، ثم لم يستشرف مستقبلهم ولم يهتم به، أو بدد ثروتهم وأهلكها ظلماً وعدواناً، وقصد تضييع من يعول وإفساد مستقبل من استرعاه الله فإنه يدخل في الوعيد الذي جاء في حديث مَعْقِل بن يَسَار رضي الله عنه: «سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: ما من أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لهم وَيَنْصَحُ إلا لم يَدْخُلْ مَعَهُمْ الْجَنَّةَ»[3]، وفي رواية أخرى تفيد العموم: «إني سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: ما من عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً، يَمُوتُ يوم يَمُوتُ وهو غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ إلا حَرَّمَ الله عليه الْجَنَّةَ»[4]، قال القاضي عياض: «معناه بين في التحذير من غش المسلمين لمن قلده الله تعالى شيئاً من أمرهم، واسترعاه عليهم، ونصبه لمصلحتهم في دينهم أو دنياهم؛ فإذا خان فيما اؤتمن عليه فلم ينصح فيما قلده، إما بتضييعه تعريفهم ما يلزمهم من دينهم وأخذهم به، وإما بالقيام بما يتعين عليه من حفظ... فقد غشهم»[5]، فيجب على الحاكم أن يقوم بكل ما يتعين عليه القيام به سواء أتعلق هذا بإدارة الحاضر أم باستشراف المستقبل والتخطيط له.

وقد كانت هجرة النبي ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة من أبرز تطبيقات استشراف الراعي لمستقبل رعيته ونصحه لهم وتطلعه إلى تحقيق قوتهم وعزتهم ووحدة صفهم وتعزيز إيمانهم، فهي معلم بارز في تاريخ الإسلام و المسلمين،

١- فتح الباري - ابن حجر - ج ١٣ ص ١١٢.
٢- شرح النووي على صحيح مسلم - النووي - ج ١٢ ص ٢١٣ .
٣- أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار - ص ٧٠٢.
٤- أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار - ص ٧٠١.
٥- شرح النووي على صحيح مسلم - النووي - ج ٢ ص ١٦٦.

جاء في حديث ابن عَبَّاس رضي الله عنهما قال: «بُعِثَ رسول اللَّه ﷺ لأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَمَكُثَ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إليه، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ، فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ...»[1]، وعن عائشة رضي الله عنهما قالت: «فقال النبي ﷺ للمسلمين: «إني أريت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين». وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة»[2].

والهجرة النبوية المباركة دليل على أن النبي ﷺ أدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، واستشرف مستقبل الأمة الإسلامية، فأخرجها من الذل إلى العز، ومن الضيق إلى السعة، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلف إلى الحضارة، وقد أدرك المسلمون أهمية هذه الهجرة، وأثرها في مستقبل الإسلام، قال الغزالي: «وقد تنادى المسلمون من كل مكان: هلموا إلى يثرب !!، فلم تكن الهجرة تخلصاً فقط من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاوناً عاماً على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن»[3].

- **قيمة إحسان العمل وتجويد الأداء:**

استشراف المستقبل يعد من قبيل النصح الذي بايع بعض الصحابة - رضي الله عنهم - عليه رسول الله ﷺ، وهو من آكد قواعد الإسلام التي يجب أن تبنى عليها العلاقات الإنسانية، وقد جاء في حديث جرير بن عبد الله قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»[4]، قال الخطابي: «النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له»[5]، ومن أعظم

١- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب مناقب الأنصار - باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة - ص ٣١٧.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب مناقب الأنصار - باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة - ص ٣١٨.

٣- فقه السيرة - محمد الغزالي - ص ١٥٠.

٤- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب مواقيت الصلاة - باب البيعة على إقامة الصلاة - ص ٤٤.

٥- فتح الباري - ابن حجر - ج١ ص١٣٨.

صور النصح على صعيد العلاقات الإنسانية استشراف الأب مستقبل أولاده، وإعدادهم ليكونوا أعضاء صالحين في مجتمعاتهم، فيحسن تربيتهم وتعليمهم، ويهذب أخلاقهم، واستشراف الحاكم مستقبل رعيته، ونظرته المستقبلية لمطالب حياتهم.

ولا شك في أن استشراف المستقبل بضوابطه العلمية والشرعية يعد من الإحسان المأمور به، والإتقان المندوب إليه، فالذي يستشرف المستقبل يبتغي من وراء ذلك تحديد الهدف، والعمل على أن يكون الوصول إليه ممكناً، ويرمي إلى التعرف على المخاطر المحتملة والمشكلات المنتظرة؛ ليتم تفاديها على بصيرة، ويسعى إلى إيجاد عدد من الخيارات التي تعين على اتخاذ القرار الصائب، ومن هذه الحيثية يدخل استشراف المستقبل في الإحسان الذي أمر الله به في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

واستشراف المستقبل يعد من تطبيقات قيمة الإحسان التي أبرزت السنة أهميتها، وبينت أثرها في حياة المسلم، وذلك في حديث شَدَّادِ بن أَوْس قال: «اثنتان حَفظْتُهُمَا عن رسول الله ﷺ: قال: إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ على كل شَيْء، فإذا قَتَلْتُمْ فَأَحْسنُوا الْقتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحدَّ أحدكم شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[١]، وبذلك يتبين أن المسلم يجب عليه أن يتوخى الإحسان في استلهام العبر من الماضي، وتدبير أمره في الحاضر، واستشراف المستقبل.

- **قيمة الاستكثار من الخير وتحقيق التنمية:**

يحقق استشراف المستقبل مقصداً من مقاصد الدين الإسلامي الذي جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويعم الخير، ويكثر البر، ويزداد الفضل،

١- أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الصيد - باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة - ص ١٠٢٧.

وتتحقق التنمية المستدامة في ميادين الحياة كافة، فالمرء حينما يستشرف المستقبل يهدف إلى الزيادة، ويبتغي النماء، ويسعى إلى الاستكثار من الخير، وهذا في حد ذاته يتفق مع خصيصة من خصائص الإسلام الدينية والدنيوية التي تجلت في سؤال هرقل لأبي سفيان: «ثُمَّ قال لِتَرْجُمَانه: سَلْهُ... أَيَتَّبِعُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قال: قلت: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قال: يَزِيدُونَ أو يَنْقُصُونَ؟ قال: قلت: لَا، بَلْ يَزِيدُونَ»[١]، قال ابن حجر: «وكذا جرى لأتباع النبي ﷺ لم يزالوا في زيادة، حتى كمل بهم ما أراد الله من إظهار دينه، وتمام نعمته»[٢]. وكان من هدي النبي ﷺ أن يسأل الله تبارك وتعالى إتمام النعمة وزيادة الخير له ولأمته ليغرس في نفوسهم حب ذلك، فعن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «اللهم! إني أسألك الهدى، والتقى والعفاف والغنى»[٣]، قال المباركفوري في مفهوم طلب الزيادة الذي ورد في بعض الأدعية النبوية: «أي من الخير والترقي، أو كثرنا ولا تنقصنا، أي خيرنا ومرتبتنا وعددنا»[٤]، فالأصل في المسلم أن يسلك كل السبل المؤدية للاستكثار من الخير والزيادة من النعم.

ولاستشراف المستقبل والتخطيط له صلة وثيقة بالازدياد من الخير والتنمية البشرية والاقتصادية والاستكثار من النعم الذي جبلت عليه النفوس، ويتجلى ذلك في الصور التالية:

- **الصورة الأولى**: أن الذي يستشرف المستقبل إنما يهدف فيما يهدف إلى تحقيق الأمن الاقتصادي والاستقرار السياسي، ويسعى كذلك إلى أن ينعم بمستقبل مزدهر سواء أكان ذلك على الصعيد التربوي أم التعليمي أم الاجتماعي،

١- أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله) ـ ص ٣٧٤.
٢- فتح الباري ـ ابن حجر ـ ج ١ ص ٣٦.
٣- أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الذكر والدعاء ـ باب: في الأدعية ـ ص ١١٥٠.
٤- تحفة الأحوذي ـ المباركفوري ـ ج٩ ص ١٣.

ويعمل على تحقيق التواصل بين الأجيال المختلفة، وهذه الأهداف تعزز أهمية استشراف المستقبل وتثبت قوة صلته بمقاصد الإسلام وأهدافه المنصوص عليها في كتاب الله وسنة رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه، جاء في حديث سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي، عن أبيه - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: «من أصبح منكم آمنا في سربه، معافىً في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»[1]، وعلى ذلك فإن استشراف المستقبل يستمد أهميته من أهمية الأمن بمفهومه الشامل، والذي يعد ركيزة التقدم، وعماد الاستقرار.

- **الصورة الثانية**: أن استشراف المستقبل يعني في جانبه الآخر الحذر من شر مرتقب، ودرء خطر متوقع، وهذا يدخل في باب الحذر والحيطة التي أمر الله بها عباده المؤمنين، فالمؤمن يجب أن يكون متيقظاً في كل الأمور، وكيساً فطناً، متحفزاً متأهباً، ولا يليق به أن يكون غافلاً ساذجاً، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾ [النساء: ٧١]، قال الزمخشري: «يقال: أخذ حذره إذا تيقظ واحترز من المخوف»[2].

وبهذا يتبين أن استشراف المستقبل يعتبر وسيلة من الوسائل التي تحقق ما وعد الله به عباده المؤمنين من الأمن والطمأنينة ورغد العيش، والتمكين والاستخلاف في الأرض، وقد جاء هذا الوعد في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا ﴾ [النور: ٥٥]، قال ابن كثير: «هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم

١- أخرجه الترمذي في سننه - كتاب الزهد - باب [في الوصف من حيزت له الدنيا] - ص ١٨٨٧. حسنه الألباني - انظر: سنن الترمذي - محمد بن عيسى بن سورة - حكم وتعليق العلامة: الألباني - ص ٥٢٩.

٢- الكشاف - الزمخشري - ج ١ ص ٥٦٤.

العباد، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنة»[1].

المبحث الثاني: ضوابط استشراف المستقبل وأثر النظرة الإيجابية في النهوض بالأمة الإسلامية.

المطلب الأول: ضوابط استشراف المستقبل في السنة النبوية.

لاستشراف المستقبل ضوابط متعددة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تهدف إلى ألا يتعارض هذا العلم مع أصول الإيمان بالله تعالى، ولا يناقض مقاصد التشريع الإسلامي التي تنص على حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وبهذه الضوابط يصبح استشراف المستقبل على صعيد الأفراد أو على صعيد الأمة قربة يتقرب بها المؤمن لخالقه عز وجل، وطاعة يتعبد بها مولاه، وهي تميز المنهج الإسلامي عن غيره من المناهج التي خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فأصبح استشراف المستقبل يعني الرجم بالغيب والتكهن والتطير، وصار وسيلة للإلحاد والفساد في الأرض.

ومن حيث المبدأ فإن المعطيات التاريخية تبين أن بعض الأمم الغابرة استشرفت المستقبل، وسعت لمعرفة اتجاهاته، وتطلعت إلى معرفة ما في الغد من خير، وإدراك ما يحمله من شر، ودفعها إلى ذلك الرغبة في تذليل صعاب الحياة، واستكشاف المجهول؛ ولكنها استشرفته بطرق شركية، ووسائل باطلة، فقد ظن بعض الناس حينذاك أن الطريق إلى معرفة الغيب يتمثل في التنجيم الذي يعني: «دراسة كيفية الارتباط المفترض للشمس والقمر والكواكب والنجوم بالحياة والأحداث على الأرض، ويعتمد على زعم أن الأجسام السماوية تشكل نماذج يمكنها كشف

١- تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٣ ص ٣٠١.

شخصية الفرد أو مستقبله»[1]، وقد ذهب ابن خلدون إلى أن هذا العلم وما أشبهه: «قد اشتهر في بابل ومصر القديمة وعند قدماء الإغريق والرومان»[2].

وقد بين القرآن الكريم أن من الأمم الغابرة من كان يهتم بالنجوم، ويهتدي بها، ويتخذها ذريعة لاستشراف المستقبل، قال تعالى: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٨٨ – ٨٩]، قال القرطبي: «قال ابن زيد عن أبيه: وكان علم النجوم مستعملاً عندهم منظوراً فيه، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وأراهم من معتقدهم عذراً لنفسه، وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يحتاج فيهما إلى نظر في النجوم»[3]، وقال الله تعالى: ﴿ وَعَلَامَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[النحل: ١٦]، قال الزمخشري: «كأنه أراد قريشاً: كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم»[4].

ولكن الإسلام فرق بين وسائل استشراف المستقبل الصحيحة ووسائله الفاسدة، فأقر الأول وحث عليه، وحرم الثاني ونهى عنه، قال ابن الأثير: «وعلم النجوم المنهي عنه هو ما يدل عليه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع كمجيء الأمطار وتغير الأسعار، وأما ما يعلم به أوقات الصلاة وجهة القبلة فغير داخل فيما نهي عنه»[5].

وهذه الضوابط تتمثل بصفة تفصيلية فيما يلي:

- **اليقين بأنه لا يعلم الغيب إلا الله:**

يجب على كل من يستشرف المستقبل السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي

١- الموسوعة العربية العالمية - ج٧ ص ١٧٠.
٢- مقدمة ابن خلدون - ابن خلدون - ص ٤٤٥.
٣- الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج ١٥ ص ٩٢.
٤- الكشاف - الزمخشري - ج ٢ ص ٥٦٠.
٥- عون المعبود على سنن أبي داود - العظيم أبادي - ص ١٦٦٩.

أو العسكري أن يعتقد جازماً أنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى، فإذا أصاب في استشرافه ووافق الصواب فلا يدعوه ذلك إلى أن ينازع الله تبارك وتعالى علم الغيب، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، قال الزمخشري: «أراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره، كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها، فهو المتوصل إلى ما في المخازن»[١].

وقد أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يبين للناس أنه لا يعلم الغيب، وذلك في سياق الحديث عن استشراف المستقبل الاقتصادي والاستكثار من الخير، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، قال الشوكاني: «أمره الله سبحانه بأن يخبرهم لما كثر اقتراحهم عليه وتعنتهم بإنزال الآيات التي تضطرهم إلى الإيمان أنه لم يكن عنده خزائن الله حتى يأتيهم بما اقترحوه من الآيات، والمراد خزائن قدرته التي تشتمل على كل شيء من الأشياء، ويقول لهم إنه لا يعلم الغيب حتى يخبرهم به، ويعرفهم بما سيكون في مستقبل الدهر»[٢].

وكذلك أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، قال القرطبي: «قال ابن عباس: لو كنت أعلم سنة الجدب لهيأت لها في زمن الخصب ما يكفيني، وقيل: المعنى لو كنت أعلم التجارة التي تنفق لاشتريتها وقت كسادها»[٣]، فهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن استشراف المستقبل الديني والاقتصادي والسياسي والعسكري.

وقد أكد القرآن الكريم أن المستقبل بيد الله وحده دون سواه، يصرفه كيف

١- الكشاف ـ الزمخشري ـ ج ٢ ص ٣٠ / ٣١.
٢- فتح القدير ـ الشوكاني ـ ج ٢ ص ١١٨.
٣- الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ـ ج ٧ ص ٣٣٦.

يشاء، وذلك في معرض الحديث عن الكسب، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤]، قال الشوكاني: «وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ ٱلنَّهَارِ» من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة والأنبياء والجن والإنس «مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ٱلنَّهَارِ»، من كسب دين أو كسب دنيا[1] .

ومما يجب بيانه أن عدم علم الإنسان الغيب وعجزه عن الاطلاع على ما في اللوح المحفوظ المستفاد من الأدلة السابقة لا يناقض الدعوة إلى استشراف المستقبل وفق أسس علمية؛ لأن هذه الآيات لا تدل على تحريم استشراف الغيب، ولا تفيد أن استئثار الله تعالى بعلم الغيب يوجب على المسلم أن ينصرف عن استشراف المستقبل والتطلع إليه؛ ولكنها تفيد أن استشراف المستقبل يجب ألا يكون أمراً يقينياً؛ بل يكون أمراً ظنياً، واجتهاداً بشرياً، قد يخطئ وقد يصيب.

وقد ذم الله تبارك وتعالى الكفار الذي يخططون لمستقبلهم المالي والاجتماعي، ويستشرفونه في هذه المجالات وهم يكفرون بآيات الله تعالى، ويشركون بعالم الغيب، فقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: ٧٧ – ٨٠]، قال الشوكاني: «وقد ذهب الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد بقوله لأوتين مالاً وولداً أنه يؤتي ذلك في الدنيا»[2].

- **عدم استشراف المستقبل بما حرم الله تعالى:**

الضابط الثاني من ضوابط استشراف المستقبل في السنة النبوية ألا يستشرف المستقبل بمحرم من المحرمات، ولا يصل إلى استكشافه بوسيلة من الوسائل التي

١- فتح القدير - الشوكاني - ج ٤ ص ٢٤٥.

٢- المصدر السابق - ج ٣ ص ٣٤٩.

تناقض العقيدة الإسلامية، فعلى من يستشرف المستقبل أن ينطلق من تصور محكم للحاضر بجوانبه المختلفة، أو أن يستقرئ معطيات الماضي والحاضر معاً ليخلص إلى تحديد اتجاهات المستقبل، وكل ذلك وفق أسس علمية، وجهود منظمة، ترتكز على خبرات تراكمية، ورغبة في التطوير والإصلاح، وحدس يعتمد على تحليل شامل ودقيق.

ومن الطرق المحرمة في استشراف المستقبل الكهانة التي كانت سائدة في الجاهلية قبل الإسلام، وقد عصم الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ منها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢]، قال القرطبي: «لأنه ورد بسب الشياطين وشتمهم؛ فلا ينزلون شيئاً على من يسبهم»[١]، و قال البيهقي: «ومعلوم أنه ﷺ كان لا يعلم النجوم، ولا الكهانة، ولا يجالس أهلها»[٢]، و قال ابن حزم: «وأما الكهانة فقد بطلت بمجيء النبي ﷺ، فكان هذا من إعلامه وآياته»[٣]، ومن طرقهم المحرمة لاستشراف المستقبل الاستقسام بالأزلام، قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣]، قال الرازي: «فمعنى الاستقسام بالأزلام طلب معرفة الخير والشر بواسطة ضرب القداح»[٤].

وهذه الأحاديث تبين حرص العرب في الجاهلية على الكهانة، وقوة إيمانهم بتأثيرها في مجريات الأحداث، قال السيوطي: «الكاهن هو الذي يدعي مطالعة علم الغيب، ويخبر الناس عن الكوائن، وكان في العرب كهنة يدعون أنهم يعرفون كثيراً من الأمور، فمنهم من كان يزعم أن له رئياً من الجن وتابعاً يلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يدعي أنه يستدرك الأمور بفهم أعطيه»[٥]، قال النووي:

١- الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ـ ج ١٨ ص ٢٧٥.
٢- شعب الإيمان ـ البيهقي ـ ج ١ ص ١٥٩.
٣- الفصل في الملل ـ ابن حزم ـ ج ٥ ص ٢٥.
٤- التفسير الكبير ـ الرازي ـ ج ١١ ص ١٠٧.
٥- تهذيب الأسماء ـ السيوطي ـ ج ٣ ص ٢٩٩.

«وقد أكذبهم كلهم الشرع، ونهى عن تصديقهم وإتيانهم»[١] .

وقد حذر النبي ﷺ من إتيان الكهان، وتصديقهم، ونهى عن اتخاذ الكهانة سبيلاً لمعرفة الغيب، وبين أنها من عقائد الجاهلية الفاسدة، وقيمهم الباطلة، وذلك في حديث مُعَاوِيَةَ بن الْحَكَم السُّلَمِيِّ قال: «قلت: يا رَسُولَ اللهِ أُمُورًا كنا نَصْنَعُهَا في الْجَاهِلِيَّةِ كنا نَأْتِي الْكُهَّانَ، قال: فلا تَأْتُوا الْكُهَّانَ، قال: قلت: كنا نَتَطَيَّرُ، قال: ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أحدكم في نَفْسِه، فلا يَصُدَّنَّكُمْ»[٢]، وفي حديث عَائِشَةَ قالت: «قلت: يا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّ الْكُهَّانَ كَانُوا يُحَدِّثُونَنَا بِالشَّيْءِ فَنَجِدُهُ حَقًّا، قال: تِلْكَ الْكَلِمَةُ الْحَقُّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقْذِفُهَا في أُذُنِ وَلِيِّهِ، وَيَزِيدُ فيها مِائَةَ كَذْبَةٍ»[٣].

واستشراف المستقبل الذي رغبت فيه السنة النبوية ليس من قبيل الكهانة لأن الغرض منه نفع الناس وجلب الخير إليهم، وتحقيق التقدم والازدهار، وأما الكهانة فإنها على النقيض من ذلك، قال ابن حجر: «قال الخطابي: الكهنة قوم لهم أذهان حادة، ونفوس شريرة، وطباع نارية، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه»[٤].

ونخلص مما تقدم إلى أن الراعي والرعية والحكام والمحكومين والعلماء والمحتسبين يجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في حماية المجتمع من التنجيم والكهانة والعرافة، وتطهيره من كل ما من شأنه أن يجعل استشراف المستقبل وسيلة من وسائل الشرك، قال الماوردي: «ويمنع المحتسب الناس من التكسب بالكهانة واللهو، ويؤدب عليه الآخذ والمعطي»[٥].

١- شرح النووي على صحيح مسلم ـ النووي ـ ج ١٤ ص ٢٢٣.
٢- أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب السلام ـ باب الطيرة والفأل، وما يكون فيه من الشؤم ـ ص ١٠٧٣.
٣- أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب السلام ـ باب الطيرة والفأل، ،ما يكون فيه من الشؤم ـ ص ١٠٧٤.
٤- فتح الباري ـ ابن حجر ـ ج ١٠ ص ٢١٧.
٥- الأحكام السلطانية ـ الماوردي ـ ج١ ص ٢٩٠ / ٢٩١.

- **الاعتقاد بأن مشيئة الله تعالى نافذة:**

ومن أهم الضوابط العقدية التي يجب العمل بها عند استشراف المستقبل أن يعتقد المستشرف أن المشيئة لله تبارك وتعالى وحده دون خلقه، فهو الذي بيده الأمر كله، ماضيه وحاضره ومستقبله، ولا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، فالذي يستشرف المستقبل يجب عليه أن يقر بعجزه وقلة حيلته، فما هو إلا مجتهد قد يصيب وقد يخطئ، وقد تأتي الأمور حسب ما فكر وقدر، ووفق ما خطط ودبر، وتصدق نبوءته؛ ولكنها في نفس الوقت قد تخطئ، وتطيش سهامها، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، قال ابن كثير: «أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان، ولا يجر لنفسه نفعاً»[١].

وقد أرشد القرآن الكريم في مواضع عديدة إلى وجوب تعليق استشراف المستقبل بمشيئة الله تبارك وتعالى الذي يمحو ما يشاء، ويثبت، وعنده أم الكتاب، ومن النماذج التطبيقية ما جاء في سياق استشراف المستقبل الديني في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧]، قال الشوكاني: «وقوله: (إن شاء الله) تعليق للعدة بالمشيئة؛ لتعليم العباد لما يجب أن يقولوه»[٢].

ومن جانب آخر فقد أمر الله تبارك وتعالى من يستشرف المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله تعالى، فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣ – ٢٤]، قال ابن كثير: «هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب،

١- تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ ج ٤ ص ٤٥٩.
٢- فتح القدير ـ الشوكاني ـ ج ٥ ص ٥٥.

الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون»[1]، وقال الجصاص: «أمره الله تعالى بأن لا يطلق القول على فعل يفعله في المستقبل إلا مقروناً بذكر مشيئة الله تعالى»[2].

وقد ضرب النبي ﷺ المثل بسليمان عليه السلام في وجوب وضع الحاضر والمستقبل وكل شيء تحت المشيئة الإلهية، وعدم الاتكال على القوة العقلية أو البدنية عند استشراف المستقبل، فقال في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين، كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[3]، قال ابن بطال: «قال المهلب: في هذا الحديث أن من قال: إن شاء الله. وتبرأ من المشيئة لله، ولم يعط الخاصة لنفسه في أعماله، أنه حرى بأن يبلغ أمله، ويعطى أمنيته، ألا ترى أن سليمان لما لم يرد المشيئة إلى الله، ولم يستثن ما لله، فمن ذلك حرم أمله، ولو استثنى لبلغ أمله، كما قال ﷺ، وليس كل من قال قولاً ولم يستثن فيه المشيئة فواجب ألا يبلغ أمله؛ بل منهم من يشاء الله إتمام أمله، ومنهم من يشاء ألا يتم أمله بما سبق في علمه»[4]، وقال في موضع آخر: «وقوله: (فلو قال إن شاء الله لقاتلوا فرسانًا أجمعون)، فوجهه أنه لما نسى أن يرد الأمر لله الخالق العليم، ويجعل المشيئة إليه كما شرط في كتابه، إذ يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ [الكهف: ٢٣]. فأشبه قوله: (لأطوفن الليلة) قول من جعل لنفسه الحول والقوة؛ فحرمه الله تعالى مراده وما

١- تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ ج ٣ ص ٧٩.
٢- أحكام القرآن ـ الجصاص ـ ج ٥ ص ٤٢.
٣- أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الجهاد ـ باب من طلب الولد للجهاد ـ ص ٢٢٧.
٤- شرح صحيح البخاري ـ ابن بطال ـ ج ٥ ص ٤٢.

أمله»[1]، وقال النووي: «وفيه فوائد: منها: أنه يستحب للإنسان إذا قال: سأفعل كذا أن يقول إن شاء الله تعالى»[2]، قال ابن حجر: «قول ذلك يرجى فيه النجح ووقوع المطلوب غالباً، وقد يتخلف ذلك إذا لم يقدر الله وقوعه»[3].

وقد عضد النبي ﷺ ما جاء في القرآن الكريم وامتثل أمره في تعليق استشراف المستقبل بمشيئة الله عز وجل، والتجرد من الحول والقوة، ومن ذلك ما جاء في حديث أبي هُرَيْرَةَ عن رسول اللَّه ﷺ قال: «نَنْزِلُ غَدًا إن شَاءَ الله بِخَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ، حَيْثُ تَقَاسَمُوا على الْكُفْرِ»يُرِيدُ الْمُحَصَّبَ[4]، قال العيني: «ذكره للتبرك والامتثال لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ [الكهف: ٢٣]»[5].

وفي بعض الأحاديث ما يؤكد حرص النبي ﷺعلى تربية أصحابه رضي الله عنهم على هذا الهدي عبر حوار تربوي متميز، يردد فيه المشيئة أكثر من مرة حتى ترسخ في الأذهان، وقد جاء ذلك في حديث عبد اللَّه بن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: «حَاصَرَ النبي ﷺ أَهْلَ الطَّائِف فلم يَفْتَحْهَا، فقال: إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إن شَاءَ الله، فقال الْمُسْلِمُونَ: نَقْفُلُ ولم نَفْتَحْ، قال: فَاغْدُوا على الْقِتَالِ، فَغَدَوْا، فَأَصَابَتْهُمْ جِرَاحَاتٌ، قال النبي ﷺ: إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إن شَاءَ الله؛ فَكَأَنَّ ذلك أَعْجَبَهُمْ، فَتَبَسَّمَ رسول اللَّه ﷺ»[6]، فهذا الحديث يعد تطبيقاً عملياً من جانب النبي ﷺ، وتربية لأصحابه رضي الله عنهم على التجرد من الحول والقوة، ورد الأمر كله وجله لله رب العالمين.

وهذه الضوابط التي سبق ذكرها تبين لنا أن استشراف المسلم للمستقبل يختلف عن استشراف غيره، فهو يستشرفه بنفس مطمئنة بذكر الله، ويتطلع إليه

١- شرح صحيح البخاري - ابن بطال - ج ١٠ ص ٤٢.
٢- شرح النووي على صحيح مسلم - النووي - ج ١١ ص ١١٨.
٣- فتح الباري - ابن حجر - ج ١٣ ص ٤٥٢.
٤- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب التوحيد - باب في المشيئة والإرادة - ص ٦٢٣.
٥- عمدة القاري - العيني - ج ٩ ص ٤٥٢.
٦- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب التوحيد - باب في المشيئة والإرادة - ص ٦٢٣.

بقلب يثق بوعد ربه، ولا يلهيه استشراف المستقبل عن ذكر الله، فهو لا بيأس على ما فاته، ولا يفرح فرح بطر وأشر بما آتاه الله تعالى، وهذه الوسطية تتجلى في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]، قال الطبري هي: «القناعة، وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، ولم يعظم فيها نصبه، ولم يتكدر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها، وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها»[1].

والمؤمن في ظل هذه الضوابط لا يدفعه القلق إلى استشراف مستقبله، ولا يحفزه الخوف من المجهول إلى التطلع إلى المستقبل كما يفعل غيره، فهو يسعد باستشراف المستقبل ولا يشقى، ويزداد هداية ولا يضل، ويتعبد به الله تبارك وتعالى، قال الله تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[طه: ١٢٣ – ١٢٤]، قال الشوكاني: «ومعنى الآية أن الله عز وجل جعل لمن اتبع هداه وتمسك بدينه أن يعيش في الدنيا عيشاً هنيئاً، غير مهموم ولا مغموم، ولا متعب نفسه، وجعل لمن لم يتبع هداه وأعرض عن دينه أن يعيش عيشاً ضيقاً، وفي تعب ونصب»[2].

المطلب الثاني: أثر النظرة الإيجابية في العناية بالاستشراف والتخطيط المستقبلي.

تعد النظرة الإيجابية من أهم دوافع استشراف المستقبل والتخطيط له، فمن كانت نظرته سلبية لا يهتم بحاضره فضلاً عن مستقبله؛ ولذلك فإن نظرة الفرد المسلم إلى المستقبل وتفاعله مع الواقع المحيط به يجب أن تكون إيجابية، ولا يليق به أن يكون سلبياً تجاه نفسه ولا تجاه غيره من الناس، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين.

١- جامع البيان ـ الطبري ـ ج ١٤ ص ١٧٢.
٢- فتح القدير ـ الشوكاني ـ ج ٣ ص ٣٩١.

وقد كانت الإيجابية من شمائل النبي ﷺ، ومن أبرز صورها أنه دل أمته على كل خير، ونهاها عن كل شر، جاء في حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: إنما مَثَلِي وَمَثَلُ الناس كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فلما أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ التي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فيها، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ، وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فيها، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عن النَّارِ، وأنتم تقحمون فيها»[1]، قال ابن حجر: «وفي الحديث ما كان فيه ﷺ من الرأفة والرحمة والحرص على نجاة الأمة»[2].

والإيجابية من الصفات التي يجب أن تلازم المسلم في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، فهي أساس نظرته المستقبلية، وعماد تفاعله مع البيئة التي تحيط به، فقد جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله، فلا يجد أحداً يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»[3]، ومن الشواهد على ذلك أيضاً ما جاء في حديث خباب بن الأرت قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، قال»... والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[4]، ففي هذا الحديث النبوي يحرص النبي ﷺ على التحلي بالنظرة الإيجابية في العهد المكي، حين كان المسلمون قليلين مستضعفين في الأرض.

١- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الرقاق - باب الانتهاء عن المعاصي - ص ٥٤٤.
٢- فتح الباري - ابن حجر - ج ١١ ص ٣١٨.
٣- أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الزكاة - باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها - ص ٨٣٧.
٤- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الإكراه - باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر - ص٥٧٩.

وفي السنة النبوية ما يؤكد أن الإيجابية يجب أن تكون هدي المسلم في حياته كلها، وأنها تشمل أمور الدنيا كما تشمل أمور الدين، وأنها من القيم التي يجب أن تتواصى بها الأمة الإسلامية جيلاً بعد جيل، جاء في حديث أنس بن مَالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: إن قَامَت السَّاعَةُ وَفي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ؛ فإن اسْتَطَاعَ أن لاَ تقُومَ حتى يَغْرِسَهَا، فليغرسها»[1]، قال المناوي: «فيه مبالغة في الحث على غرس الأشجار وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها، فكما غرس لك غيرك فانتفعت به فاغرس لمن يجيء بعدك لينتفع؛ وإن لم يبق من الدنيا إلا صبابة»[2].

وسأبين أثر النظرة الإيجابية في الاستشراف والتخطيط المستقبلي من خلال النقاط التالية:

- **أولاً: أهمية النظرة الإيجابية في بناء الشخصية المسلمة وآلية تعزيزها:**

بين القرآن الكريم أن نظرة المسلم إلى المستقبل الديني والدنيوي يجب أن تكون إيجابية، وأن الأصل في حياته أن يكون حاضره أفضل من الماضي ومستقبله خير من حاضره، وأن يظل في تقدم مطرد، وازدهار مستمر؛ وذلك لأن الله تبارك وتعالى بين أنه ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، قال ابن كثير: «أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها، بحريها وبريها، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها، أي يعلم أين منتهى سيرها في الأرض،

١- أخرجه أحمد في مسنده - حديث رقم ١٣٠٠٤- مسند العشرة المبشرين بالجنة - ج ٣ ص ١٩١ - قال الألباني: "هذا سند صحيح على شرط مسلم، وتابعه يحيى بن سعيد عن أنس". سلسلة الأحاديث الصحيحة، وشيء من فقهها وفوائدها - محمد ناصر الدين الألباني - المجلد الأول - القسم الأول / ص ٣٨.

٢- فيض القدير - المناوي - ج ٣ ص ٣٠.

وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها»[1].

وقد أزال القرآن الكريم كل المعوقات التي تجعل المسلم يحجم عن التقدم والتطور، ويمسك عن العطاء الفكري والعلمي والعمراني، ومن أجل ذلك قال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٦٠]، قال الطبري: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله من أصحاب محمد ﷺ هاجروا، وجاهدوا في الله أيها المؤمنون أعداءه، ولا تخافوا عيلة ولا إقتاراً، فكم من دابة ذات حاجة إلى غذاء ومطعم ومشرب لا تحمل رزقها ـ يعني غذاءها ـ لا تحمله فترفعه في يومها لغدها؛ لعجزها عن ذلك، الله يرزقها وإياكم يوماً بيوم»[2].

ومن المؤكد أن الإيجابية تعد من أهم سمات المسلمين التي تميزهم عن غيرهم، فهم خير الناس للناس، وأنفع الأمم قاطبة، وهذه هي الإيجابية في أجل معانيها، وقد اختصهم الله تبارك وتعالى بالخيرية في القرآن الكريم حين قال: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، قال الشوكاني: «فيه دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق، وأن هذه الخيرية مشتركة ما بين أول هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم؛ وإن كانت متفاضلة في ذات بينها، كما ورد في فضل الصحابة على غيرهم»[3].

وقد عضدت السنة النبوية هذه الإيجابية في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «(كنتم خير أمة أخرجت للناس)، قال: خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم، حتى يدخلوا في الإسلام»[4]، قال ابن حجر: «أي خير بعض الناس

١- تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ ج ٢ ص ٤٣٧.
٢- جامع البيان ـ الطبري ـ ج ٢١ ص ١١.
٣- فتح القدير ـ الشوكاني ـ ج ١ ص ٣٧١.
٤- أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ـ ص ٣٧٥ .

لبعضهم، أي أنفعهم لهم، وإنما كان ذلك لكونهم كانوا سبباً في إسلامهم»[1]، وبهذا يتبين أن هذه الأمة يجب أن تكون أصلاً لكل خير، وسبب كل إصلاح، وأن تقود البشرية إلى النهضة، وتتقدمهم إلى ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم.

- **ثانياً: مقومات النظرة الإيجابية في القرآن الكريم والسنة النبوية:**

إذا تدبرنا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسيرة النبي ﷺ فإننا سنجد أن الإيجابية في الإسلام سواء في التعاطي مع الحاضر أم النظر إلى المستقبل واستشراف اتجاهاته إنما تقوم على دعائم وتبنى على مقومات تحث على الإيجابية، وأخرى تنهى عن السلبية، وهي كما يلي:

- المقومات الإيجابية: وتتمثل في أن الإسلام وضع للشخصية الإسلامية سمات يجب أن تتصف بها، وقيماً حضارية يجب أن تتحلى بها، ومن ثم تكون إيجابية في العلاقة مع البيئة المحيطة بها، ومن ذلك:

١. أن الله تبارك وتعالى وصف المسلم بالاستبشار عند زيادة الخيرات، ورفع الدرجات، وتمام النعمة، والسعادة عند حصول المراد، فقال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨]، فالمؤمن لا تكدر الشدة غبطته، ولا يغير العسر إيجابيته وحبه للخير؛ لأن الله تبارك وتعالى وعده باليسر بعد العسر، والفرج بعد الشدة، قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥ – ٦]، قال السعدي: «بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب، لدخل عليه اليسر، فأخرجه»[2].

٢. أن الله تبارك وتعالى جعل انشراح الصدر من صفات الشخصية المسلمة،

١- فتح الباري - ابن حجر - ج٨ ص ٢٢٥.

٢- تيسير الكريم الرحمن - السعدي - ج ١ ص ٩٢٩.

فقال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، قال ابن كثير: «أي ييسره له، وينشطه، ويسهله لذلك، فهذه علامات على الخير»[١].

وانشراح الصدر من صفات المسلم التي تدعوه إلى عمل الخير، قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٢٢]، قال الشوكاني: «أي وسعه لقبول الحق، وفتحه للاهتداء إلى سبيل الخير»[٢]، ووصف نبيه ﷺ بانشراح الصدر الذي يدل على الإقبال على كل خير، والإعراض عن كل شر، فقال: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١]، قال السعدي: «أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات. فلم يكن ضيقاً حرجاً»[٣].

٣. أن الله تبارك وتعالى جعل طمأنينة القلب ثمرة من أعظم ثمرات ذكر الله تعالى، وذلك في قوله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ٢٨]، قال ابن كثير: «أي تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً»[٤]، وطمأنينة القلب من الصفات النفسية التي تعين على التحلي بالإيجابية في التفكير والسلوك.

٤. أن الله تبارك وتعالى أمر المسلم بأن يتحلى بقوة الإرادة، وحسن التدبير، واليقظة، فقال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، قال القرطبي: «أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوة للأعداء، بعد أن أكد تقدمة التقوى، فإن الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل في وجوههم وبحفنة من تراب، كما فعل رسول الله ﷺ؛ ولكنه أراد أن يبتلي بعض الناس ببعض، بعلمه السابق

١- تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ ج ٢ ص ١٧٥.
٢- فتح القدير ـ الشوكاني ـ ج ٤ ص ٤٥٨.
٣- تيسير الكريم الرحمن ـ السعدي ـ ج ١ ص ٩٢٩.
٤- تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ ج ٢ ص ٥١٣.

وقضائه النافذ، وكلما تعده لصديقك من خير أو لعدوك من شر فهو داخل في عدتك»[1].

٥. أن السنة النبوية ندبت المسلم إلى التخطيط المستقبلي لاستشراف المستقبل، ونهته عن العشوائية وارتجال الأمور، وترك التدبر، وعدم الإتقان، وذلك عبر نماذج عملية يجدها المسلم في قصص الأنبياء الذين يجب التأسي بهم، والاعتبار بسيرتهم، ويعود تأصيل ذلك إلى أحاديث منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟، فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[2]، وتتجلى حكمة ذلك في: «التمرن لهم برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم»[3]، ونجد ذلك أيضاً في تهيئة النبي ﷺ لاستقبال الوحي، وذلك في حديث عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أنها قالت: «أَوَّلُ ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ في النَّوْمِ... ثُمَّ حُبِّبَ إليه الْخَلَاءُ... حتى جَاءَهُ الْحَقُّ وهو في غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ...»[4]، قال ابن حجر: «وبدئ بذلك ليكون تمهيداً وتوطئة لليقظة»[5].

● **الصفات السلبية المنهي عنها**: وتتمثل هذه الصفات في عدد من الأخلاق الذميمة التي حذر القرآن منها ؛ لأنها تحمل صاحبها على السلبية في التفكير والسلوك، وعدم التطلع إلى الأفضل، ومن هذه الصفات:

١. الخوف والحزن، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٣]، ففي هذه

١- الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبي ـ ج ٨ ص ٣٥.
٢- أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الشفعة ـ باب رعي الغنم على قراريط ـ ص ١٧٥.
٣- فتح الباري ـ ابن حجر ـ ج ٤ ص ٥١٦.
٤- أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب بدء الوحي ـ باب: كيف كان بدء الوحي ـ ص ١.
٥- فتح الباري ـ ابن حجر ـ ج ١ ص ٢٣.

الآيات يبين الله تبارك وتعالى أن عدم الخوف وانتفاء الحزن يجعل الشخصية المسلمة تتميز بصدر منشرح، وجوارح نشطة، وقلب مسرور، وهي دعائم النظرة الإيجابية، ودوافع استشراف المستقبل، ومحفزات التخطيط المستقبلي، قال الشوكاني: «والمراد بنفي الخوف عنهم أنهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم؛ لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم، وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم، وحسن ظن بربهم، وكذلك لا يحزنون على فوت مطلب من المطالب؛ لأنهم يعلمون أن ذلك بقضاء الله وقدره، فيسلمون للقضاء والقدر، ويريحون قلوبهم عن الهم والكدر فصدورهم منشرحة، وجوارحهم نشطة، وقلوبهم مسرورة»[1].

٢. الضيق الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧]، وفي هذه الآية يتبين أن وسطية المسلم تجعله إيجابياً محباً للخير، قال الرازي: «وذلك لأن إقدام الإنسان على الانتقام، وعلى إنزال الضرر بالغير لا يكون إلا عند هيجان الغضب، وشدة الغضب لا تحصل إلا لأحد أمرين: أحدهما: فوات نفع كان حاصلاً في الماضي، وإليه الإشارة بقوله: (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ثُمَّ). والسبب الثاني لشدة الغضب: توقع ضرر في المستقبل، وإليه الإشارة بقوله: (وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ثُمَّ)»[2].

٣. النهي عن الوهن والضعف الذي ينافي ما يجب أن تكون عليه الشخصية المسلمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ففي هذه الآية يستشرف القرآن الكريم المستقبل الديني والسياسي والعسكري للأمة الإسلامية، وينطلق في ذلك

١- المصدر السابق - ج ٢ ص ٤٥٧.
٢- التفسير الكبير - الرازي - ج ٢٠ ص ١١٤.

من الاعتبار بالماضي وتصور معطياته، وبيان أهمية النظرة الإيجابية وانشراح الصدر والثقة بوعد الله تبارك وتعالى، قال الرازي: «كأنه قال: إذا بحثتم عن أحوال القرون الماضية علمتم أن أهل الباطل وإن اتفقت لهم الصولة، لكن كان مآل الأمر إلى الضعف والفتور، وصارت دولة أهل الحق عالية، وصولة أهل الباطل مندرسة، فلا ينبغي أن تصير صولة الكفار عليكم يوم أحد سبباً لضعف قلبكم ولجبنكم وعجزكم، بل يجب أن يقوى قلبكم فإن الاستعلاء سيحصل لكم والقوة والدولة راجعة إليكم»[١].

٤. النهي عن التنازع الذي يؤدي إلى الفشل وذهاب الريح، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، قال الشنقيطي: «نهى الله جل وعلا المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن التنازع، مبيناً أنه سبب الفشل، وذهاب القوة»[٢]، وقال ابن كثير في أثر الالتزام بهذه السمات في تحقيق النظرة الإيجابية للمستقبل والتطلع إليه بهمة عالية: «وقد كان الصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم؛ فإنهم ببركة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالية والبربر والحبوش وأصناف الودان والقبط وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين»[٣].

١- المصدر السابق ـ ج ٩ ص ١٢.
٢- أضواء البيان ـ الشنقيطي ـ ج ٢ ص ١٠٢.
٣- تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ـ ج ٢ ص ٣١٧.

٥. ذم النبي ﷺ العجز والكسل في أحاديث متعددة، وجاء ذلك في سياق الحديث عن الآخرة في حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[١]، قال المباركفوي: «قوله: (الكيس) أي العاقل المتبصر في الأمور الناظر في العواقب... (والعاجز) المقصر في الأمور»[٢]، وقال النووي: «العجز على ظاهره هو عدم القدرة، وقيل: هو ترك ما يجب فعله والتسويف به وتأخيره عن وقته، قال: ويحتمل العجز عن الطاعات، ويحتمل العموم في أمور الدنيا والآخرة، والكيس ضد العجز، وهو النشاط، والحذق بالأمور»[٣]، وهذا الحديث يبين أن المسلم يجب عليه أن ينشط في تدبير أمره، واستشراف مستقبله، ونظرته الإيجابية.

ومن جانب آخر فقد استعاذ النبي ﷺ بالله تعالى من العجز والكسل، لأنهما صفتان ذميمتان، وخلتان قبيحتان، لا يليق بمسلم أن يتصف بهما؛ بل يجب عليه أن يكون عالي الهمة، شريف النفس، وقد جاء ذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل...»[٤]، قال ابن حجر الفرق بين الكسل والعجز: «أن الكسل ترك الشيء مع القدرة على الأخذ في عمله، والعجز عدم القدرة»[٥]، وهذه الأحاديث تثبت أن الأصل في المسلم علو الهمة واستشراف المستقبل وحب معالي الأمور، وأنه يجب عليه أن يتصور المستقبل بصدر منشرح، ونظرة إيجابية.

١- أخرجه الترمذي في سننه ـ كتاب صفة القيامة ـ باب حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ـ ص١٨٩٩ ـ وأخرجه ابن ماجه في سننه ـ كتاب الزهد ـ باب ذكر الموت والاستعداد له ـ ص ٢٧٣٥ ـ ضعفه الألباني ـ انظر: ضعيف سنن ابن ماجه ـ الألباني ـ ص ٣٤٩.

٢- تحفة الأحوذي ـ المباركفوري ـ ج٧ ص١٣٢.

٣- شرح النووي على صحيح مسلم ـ النووي ـ ج١٦ ص٢٠٥.

٤- أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الجهاد ـ باب ما يتعوذ من الفتن ـ ص ٢٢٧ .

٥- فتح الباري ـ ابن حجر ـ ج ٦ ص ٣٦.

فهذه هي الصفات الإيجابية التي يجب أن يتحلى بها المسلم، والصفات السلبية التي يجب أن ينأى عنها، وهي التي تجعل نظرة المسلم إيجابية، وتغرس فيه حب الخير، والحرص على نفع الناس، وتجعل تفاعله مع الآخرين مثمراً، وتدل على وسطيته وتوازنه النفسي والفكري.

- **ثالثاً: أثر التفاؤل في تعزيز النظرة الإيجابية:**

نهى النبي ﷺ المسلم عن التشاؤم الذي يجعل الإنسان سلبياً، ويحول بينه وبين الإيجابية واستشراف المستقبل، واستحسن الفأل الحسن الذي يعزز النظرة الإيجابية، ويكسب القلب طمأنينة، والصدر انشراحاً، والبال راحة، وذلك في حديث مُعَاوِيَةَ بن الْحَكَم السُّلَمِيِّ: «قال: قلت: كنا نَتَطَيَّرُ، قال: ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أحدكم في نَفْسِهِ، فلا يَصُدَّنَّكُمْ»[1]، قال النووي: «نهاهم ﷺ عن العمل بالطيرة، والامتناع من تصرفاتهم بسببها، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة في النهي عن التطير والطيرة، وهي محمولة على العمل بها، لا على ما يوجد في النفس من غير عمل على مقتضاه عندهم»[2].

وقد كان التشاؤم من عادات الجاهلية الذميمة التي تصد الناس عن استشراف المستقبل، وتصيبهم بالتبلد والتردد، والحيرة والارتباك، قال البغوي: «الطيرة أن يخرج لأمر، فإذا رأى ما يحب، مضى، وإن رأى ما يكره انصرف، فأما ما يقع في قلبه من محبوب ذلك ومكروهه، فليس بطيرة، إذا مضى لحاجته، وتوكل على ربه»[3].

ولذا فقد استحسن النبي ﷺ الفأل الحسن، وحث عليه، وقد جاء في حديث أَنَسِ بن مَالِكٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَا عَدْوَى، ولا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي

١- أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب السلام - باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان - ص ١٠٧٣..
٢- شرح النووي على صحيح مسلم - النووي - ج ٥ ص ٢٣.
٣- شرح السنة - البغوي - ج ١٢ ص ١٧٠.

الْفَأْلُ، قالوا: وما الْفَأْلُ؟، قال: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ»[1]، قال الخطابى: «الفرق بين الفأل والطيرة أن الفأل إنما هو من طريق حسن الظن بالله تعالى، والطيرة إنما هي من طريق الاتكال على شيء سواه»[2]، و قال ابن قتيبة: «والسامع لهذا يعلم أنه لا يقدم ولا يؤخر، ولا يزيد ولا ينقص، ولكن جعل في الطباع محبة الخير، والارتياح للبشرى، والمنظر الأنيق، والوجه الحسن، والاسم الخفيف»[3]، وقال الطيبي: «معنى الترخص في الفأل والمنع من الطيرة هو أن الشخص لو رأى شيئاً فظنه حسناً محرضاً على طلب حاجته فليفعل ذلك، وإن رآه بضد ذلك فلا يقبله؛ بل يمضي لسبيله، فلو قبل وانتهى عن المضي فهو الطيرة التي اختصت بأن تستعمل في الشؤم والله أعلم»[4].

وللفأل أثر عظيم في تقوية العزائم، وإعلاء الهمم لاستشراف المستقبل ومعرفة اتجاهاته، فهو من مقومات استشراف المستقبل بنظرة إيجابية، قال الحاوي: «وَأَمَّا الْفَأْلُ فَفِيهِ تَقْوِيَةٌ لِلْعَزْمِ، وَبَاعِثٌ عَلَى الْجِدِّ، وَمَعُونَةٌ عَلَى الظَّفَرِ. فَقَدْ تَفَاءَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَوَاتِهِ وَحُرُوبِهِ، فَيَنْبَغِي لِمَنْ تَفَاءَلَ أَنْ يَتَأَوَّلَ الْفَأْلَ بِأَحْسَنِ تَأْوِيلَاتِهِ، وَلَا يَجْعَلَ لِسُوءِ الظَّنِّ عَلَى نَفْسِهِ سَبِيلًا»[5].

ومن الأمثلة التطبيقية للتفاؤل في السنة النبوية وأثره العظيم في استشراف المستقبل الديني ما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعاً وبدا له أحد، قال: هذا جبل يحبنا ونحبه...»[6]، وقال السهيلي: «كان ﷺ يحب الفأل الحسن، والاسم الحسن، ولا اسم أحسن من اسم مشتق من الأحدية، قال: ومع كونه مشتقاً من

١- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الطب - باب: لا عدوى - ص ٤٩٣.
٢- شرح صحيح البخاري - ابن بطال - ج ٩ ص ٤٣٦ - وانظر: فتح الباري - ابن حجر - ج ١٠ ص ٢١٥.
٣- تأويل مختلف الحديث - ابن قتيبة - ج ١ ص ١٠٨.
٤- فتح الباري - ابن حجر - ج ١٠ ص ٢١٥.
٥- أدب الدنيا والدين - الماوردي - ٣٢٤.
٦- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب الجهاد - باب فضل الخدمة في الغزو - ص ٢٣٢.

الأحدية فحركات حروفه الرفع، وذلك يشعر بارتفاع دين الأحد وعلوه، فتعلق الحب من النبي ﷺ به لفظاً ومعنى، فخص من بين الجبال بذلك، والله أعلم»[١]، وقال ابن بطال: «كان النبي عليه السلام يستحب الاسم الحسن، والفأل الصالح، وقد جعل الله في فطرة الناس محبة الكلمة الطيبة، والفأل الصالح، والأنس به، كما جعل فيهم الارتياح للبشرى، والمنظر الأنيق، وقد يمر الرجل بالماء الصافي فيعجبه، وهو لا يشربه، وبالروضة المنثورة، فتسره، وهي لا تنفعه»[٢].

وقد كان النبي ﷺ يغلب جانب التفاؤل والسلامة من كل سوء على جانب التطير والهلاك، فقد جاء في حديثه مع سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه: «قلت: يا رَسُولَ اللَّه أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابي، قال: إنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغي به وَجْهَ اللَّه إلا ازْدَدْتَ به دَرَجَةً وَرِفْعَةً، وَلَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حتى يَنْتَفِعَ بكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بكَ آخَرُونَ، اللهم أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ، ولا تَرُدَّهُمْ على أَعْقَابِهِمْ»[٣]، فقد فسح النبي ﷺ له في العمر، قال ابن حجر: «وفيه تسلية من فاته أمر من الأمور، بتحصيل ما هو أعلى منه، لما أشار ﷺ لسعد من عمله الصالح بعد ذلك»[٤].

وفي ختام هذا البحث أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع به، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

١- فتح الباري - ابن حجر - ج ٧ ص ٣٧٨.
٢- شرح صحيح البخاري - ابن بطال - ج ٩ ص ٤٣٧.
٣- أخرجه البخاري في صحيحه - كتاب المغازي - باب حجة الوداع - ص ٣٦١.
٤- فتح الباري - ابن حجر - ج ٥ ص ٣٦٨.

الخاتمة

توصلت في ختام هذا البحث إلى عدد من النتائج العلمية المثمرة النافعة، التي أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بها، ومن أهمها:

أن النصوص الشرعية قد رغبت في تربية الفرد المسلم على العناية بمستقبله عناية لا تقل عن العناية بحاضره، وحثه على أن يكون استشراف المستقبل على الصعيد الدنيوي أو الأخروي قيمة من قيمه الحضارية، ومقوماً من مقومات شخصيته.

أن أحاديث النبي ﷺ اشتملت على نماذج لاستشراف المستقبل السياسي والاجتماعي والتربوي والتعليمي والأسري.

أن السياق اللغوي لكلمة الاستشراف يدل على عناية الثقافة العربية باستشراف المستقبل ووضوحه في العقل المسلم.

أن استشراف المستقبل في المنهج الإسلامي يجب أن ينطلق من ثوابت دينية ومرتكزات شرعية وقيم خلقية.

أن هجرة النبي ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة تعتبر من تطبيقات استشراف الراعي لمستقبل رعيته، ونصحه لهم، وتطلعه إلى تحقيق قوتهم وعزتهم، ووحدة صفهم، وتعزيز إيمانهم.

أن استشراف المستقبل سواء على الصعيد الفردي أم على الصعيد الجماعي يعتبر من الأنشطة الذهنية، وهو تدبير لأمر المعاش من الناحية التربوية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، وهو كذلك وسيلة للانتفاع بالخيرات المادية والمعنوية التي سخرها الله للإنسان.

أن في استشراف المستقبل والتخطيط له تنشيطاً للعقل البشري؛ لأنه يبذل وسعه لمعرفة اتجاهات المستقبل، وهو صورة من صور الاجتهاد الذي يعد قيمة حضارية وفريضة شرعية حرص النبي ﷺ على تربية أصحابه رضي الله عنهم عليها.

أن استشراف المستقبل يهدف فيما يهدف إلى الحذر من مكروه محتمل وتجنب شر قادم كما أنه يهدف إلى الحصول على منفعة من المنافع، ومن هذه الحيثية فإنه لا يتعارض مع التوكل المأمور به؛ بل يدخل في الاحتياط الذي أمر به المسلم، لأنه من أعمال الفكر وأنشطة العقل التي لا تتعارض مع أعمال القلب.

أن الباحثين لم يتفقوا على تعريف محدد لاستشراف المستقبل، ولعل من أهم أسباب ذلك اختلاف منطلقات الباحثين الذين تناولوا هذا الجانب، فقد تمت مناقشته من الجوانب التربوية والتعليمية والسياسية والاقتصادية، وكذلك حداثة هذا الفن الذي ما زال الناس يسبرون غوره، ويستكشفون آفاقه.

السياق اللغوي والشرعي لكلمة الاستشراف يدل على أنه سلوك يتطلب معرفة ومهارة، ويستلزم عزيمة وإرادة، ويهدف إلى جلب خير أو دفع ضر.

أن السنة النبوية قد دعت المسلم إلى الاستشراف للتخطيط المستقبلي، ونهته عن العشوائية، وارتجال الأمور، وترك التدبر، وذلك عبر نماذج عملية يجدها المسلم في قصص الأنبياء الذين يجب التأسي بهم، والاعتبار بسيرتهم.

أن استشراف المستقبل يحقق مقصداً من مقاصد الدين الإسلامي الذي جاء ليعم الخير، ويكثر البر، ويزداد الفضل، وتتحقق التنمية المستدامة في ميادين الحياة كافة.

أن الذي يستشرف المستقبل إنما يهدف إلى تحقيق الأمن الاقتصادي والاستقرار السياسي، ويسعى كذلك إلى أن ينعم بمستقبل مزدهر سواء كان ذلك

على الصعيد التربوي أم التعليمي أم الاجتماعي، ويعمل على تحقيق التواصل بين الأجيال المختلفة، وهذه الأهداف تعزز أهمية استشراف المستقبل في الإسلام.

أن لاستشراف المستقبل ضوابط متعددة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تهدف إلى ألا يتعارض هذا العلم مع أصول الإيمان بالله تعالى، ولا يناقض مقاصد التشريع الإسلامي الضرورية المتمثلة في حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، ومن ذلك أن يعتقد جازماً أنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى، و ألا يستشرف المستقبل بوسيلة من الوسائل التي تتعارض مع العقيدة الإسلامية، وأن يعتقد أن المشيئة لله تبارك وتعالى وحده دون خلقه.

أن من يستشرف المستقبل يجب عليه أن ينطلق من تصور محكم للحاضر بجوانبه المختلفة، أو أن يستقرئ معطيات الماضي والحاضر معاً ليخلص إلى تحديد اتجاهات المستقبل، وكل ذلك وفق أسس علمية، وجهود منظمة، ترتكز على خبرات تراكمية، ورغبة في التطوير والإصلاح، ومهارات عقلية متميزة.

أن نظرة الفرد المسلم إلى المستقبل وتفاعله مع الواقع المحيط به يجب أن تكون إيجابية، ولا يليق بالمسلم أن يكون سلبياً تجاه نفسه ولا تجاه غيره من الناس، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، فالإيجابية سمة من سمات المسلمين التي تميزهم عن غيرهم، فهم خير الناس للناس، وأنفع الأمم قاطبة.

أن الإيجابية في الإسلام سواءً في التعاطي مع الحاضر أم النظر إلى المستقبل، واستشراف اتجاهاته إنما تقوم على دعائم وتبنى على مقومات متعددة تتمثل في فعل الخير، والاستبشار، والحرص على نفع الناس، ونفي الوهن والعجز والكسل.

التوصيات:

ومن خلال هذه الندوة العلمية المباركة أطالب بما يلي، وأرجو أن يكون

ضمن توصياتها العامة:

دعوة الحكومات في العالم العربي والإسلامي إلى إنشاء وزارات ومراكز تعنى بصناعة المستقبل واستشراف آفاقه عبر وسائل علمية دقيقة.

الدعوة إلى إنشاء مراكز أكاديمية تشرف عليها وزارات التعليم العالي لاستشراف المستقبل الصحي والتعليمي والتربوي والاقتصادي، وتزويدها بالكوادر الفنية اللازمة.

مناشدة الجامعات العربية والإسلامية عبر اتحاداتها المختلفة لتصميم مقررات دراسية جامعية تعنى باستشراف المستقبل في الإسلام، وجعلها من متطلبات الجامعة.

العمل على أن يكون استشراف المستقبل ثقافة وطنية عامة يشترك كل أفراد المجتمع في معرفتها واستشعار أهميتها.

الحث على إثراء التأليف والكتابة في موضوع استشراف المستقبل ومقارنة المنهج الإسلامي في هذا الموضوع بالمناهج الغربية، وذلك من خلال أقسام الدراسات العليا والجوائز الإسلامية العالمية.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثراً

فهرس المصادر

- أحكام القرآن، محمد بن عبد الله ابن العربي، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

- أحكام القرآن، أحمد بن علي الرازي الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، تحقيق: محمد الصادق القمحاوي.

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، علي بن محمد الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ ١٤٠٥هـ.

- أدب الدنيا والدين، علي بن محمد الماوردي، دار اقرأ، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ، شرح وتعليق: محمد كريم راجح.

- استشراف المستقبل في الحديث النبوي، د.إلياس بلكا، كتاب الأمة، العدد: ١٢٦، ١٤٢٩هـ.

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ـ محمد الأمين الشنقيطي ـ دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.

- تأويل مختلف الحديث، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الجيل ـ بيروت، ١٣٩٣هـ، تحقيق: محمد زهري النجار.

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.

- التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر بن أيوب، دار الفكر.

- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتاب العربي، لبنان، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: إبراهيم الأبياري.

- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
- تلبيس إبليس، عبد الرحمن بن علي بن محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. السيد الجميل.
- تهذيب الأسماء واللغات، محي الدين بن شرف النووي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.
- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، تحقيق: محمد عوض مرعب.
- التوقيف على مهمات التعريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، دار الفكر المعاصر، دار الفكر، بيروت، دمشق، ١٤١١هـ، الطبعة الأولى، تحقيق: د. محمد رضوان الداية.
- تيسير الكريم المنان في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ، تحقيق: ابن العثيمين.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، دار الشعب، القاهرة.
- حاشية السندي على النسائي، نور الدين بن عبد الهادي السندي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- سلسلة الأحاديث الصحيحة، وشيء من فقهها وفوائدها. محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - طبعة جديدة ومنقحة ومزيدة - ١٤١٥هـ.

- السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى / ١٤١١هـ، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداوي، سيد كسروي حسن.

- سنن الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار الكتاب العربي، بيروت، نشرته: دار إحياء السنة.

- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه العلامة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه العلامة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ.

- شرح صحيح البخاري، علي بن خلف بن بطال، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ، تحقيق: ياسر بن إبراهيم.

- شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، محمد زهير الشاويش.

- شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، تحقيق: محمد السعيد زغلول.

- صحيح مسلم بشرح النووي، يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

- ضعيف سنن ابن ماجه، الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم أبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥م - وطبعة بيت الأفكار الدولية - الطبعة الخامسة.

- فتح الباري، شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر، دار المعرفة، بيروت، تحقيق:محب الدين الخطيب.

- الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن حزم، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- فقه السيرة، محمد الغزالي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، دار الكتاب، العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ، تحقيق: محمد حامد الفقي.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.
- المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد، دار المعرفة، لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ .
- الموافقات في أصول الفقه، إبراهيم بن موسى المالكي، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: عبد الله دراز.
- موسوعة الحديث الشريف ـ الكتب الستة ـ [صحيح البخاري ـ صحيح مسلم ـ سنن أبي داود ـ جامع الترمذي ـ سنن النسائي الصغرى ـ سنن ابن ماجه] ـ دار السلام للنشر والتوزيع ـ الطبعة الثالثة ـ محرم ١٤٢١هـ.
- http://www.thefreedictionary.com/futurologist.
- القاموس المجاني.كوم. المستقبليات.

فقه التخطيط للمستقبل في ضوء السنة والسيرة

د. محمد إبراهيم العشماوي
جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة
وكلية الإمام مالك للشريعة والقانون بدبي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الرؤية المستقبلية ليست جديدة ولا بعيدة عن الإسلام، بل هي جزء من جوهر هذا الدين، الذي يمثل المستقبل لجميع الأديان الماضية، إذ كانت كلها تمهد له، وتبشر بقدومه، حتى بزغ فجره، وسطعت شمسه، ثم هو في كل تعاليمه يدعو أتباعه إلى الأخذ بالأسباب التي تجعلهم يحيون مستقبلاً أفضل في دنياهم وفي أخراهم. ولعل هذا هو سر الكتابات التي تتحدث عن الخطر الأخضر، ومستقبل الإسلام خارج أرضه، والمستقبل لهذا الدين، وعن كونه قوة الغد العالمية!

وفي ظل هذا الترنح الذي تعاني منه الدول الإسلامية الآن في مواجهة التحديات القائمة والقادمة بات من الواجب على كل مُهْتَمٍّ بقضايا أمته أن يبحث عن حلول حقيقية وعملية لمواجهة تلك التحديات على هدي الكتاب والسُّنة، وبعيداً عن الحلول المستوردة التي جنت على أمتنا!

وهذا ما نبهنا إليه صاحب السنة المعصوم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حينما وجَّه الأفكار، ولفت الأنظار إلى مكانة السنة النبوية في حياة الأمة، وكونها – مع القرآن – المخرج الوحيد المضمون النتائج مما تعانيه الأمة في وضعها الراهن أو المستقبل، إذا أحسن فهمها وتوجيهها، وتنزيلها على الواقع، وذلك في خطابه الذي خاطب به الأمة الإسلامية في الماضي والحاضر والمستقبل: «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ

الْحَوْضَ»[1]، وقوله: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»[2].

واستجابة لهذا التوجيه النبوي الكريم المستنهض لهمم العلماء والمفكرين لتجلية هذا الخطاب النبوي في صورة واقعية، وتلبية لدعوة الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف، أحببت أن أشارك بهذا الطرح المتواضع في تجلية ملامح الفقه المستقبلي -كما أسميه- في ضوء السنة النبوية والسيرة المحمدية، ليضاف هذا النوع من الفقه إلى قائمة الفقه الجديد الذي تمخضت عنه ظروف العصر، وسميته «فقه التخطيط للمستقبل في ضوء السُنة والسيرة»، وقد اشتمل على مبحث تمهيدي وأربعة مباحث وخاتمة.

والجديد فيه: هو محاولة التأصيل لفقه المستقبل نظرياً وعملياً، والكشف عن منهج النبي ﷺ في هذا الجانب، من خلال استلهام النصوص القولية في السنة النبوية، والبحث في خبايا زواياها عن المعاني الكامنة لفقه المستقبل، وتعضيد ذلك بنماذج عملية من السيرة النبوية المطهرة، لاسيما مع قلة المكتوب في هذا المجال من الناحية الشرعية، وقد وجدت بالفعل بعض الكتابات في هذا المجال، لكنها جهود تحتاج إلى استكمال[3].

١- المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب: العلم ١ / ١٧٢ ح (٣١٩) عن أبي هريرة.
٢- سنن الترمذي، كتاب: العلم، باب: الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٥ / ٤٤ ح (٢٦٧٦)، وقال: حديث صحيح.
٣- ومنها:
- "الدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية" رسالة ماجستير للباحث عبدالله بن محمد المديفر، تقدم بها إلى كلية الدعوة بجامعة طيبة بالمدينة المنورة، ينظر: الملخص المنشور بتاريخ: ١٨ / ١١ / ٢٠٠٩ على الرابط: http://islamtoday.net/nawafeth/artshow-100-122228.htm، موقع: «الإسلام اليوم».
- «استشراف المستقبل في القرآن والسنة» بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير، للباحث فهمي إسلام جيوانتو، تقدم بها إلى كلية الدعوة بجامعة الإيمان باليمن، ينظر: الملخص المنشور بتاريخ: ٤ / ١٠ / ٢٠٠٤ على الرابط: http://www.jameataleman.org/unv/magster/dawa/dawa/dawa1.htm. موقع: «جامعة الإيمان».
- «الأساس الشرعي والنظري لاستشراف المستقبل» بحث للدكتور إلياس بلكا. وينظر له أيضا: مقال =

فأكثر الكاتبين - باستثناء بعضهم - إنما اقتصروا فقط على ذكر بعض النماذج العملية دون التنظير لها من الأحاديث القولية أو العكس،كما أنهم في الغالب لم يتعرضوا لبحث الموضوع كمنهج متكامل للتخطيط قابل للتنفيذ، وهو ما أنجزته -بفضل الله تعالى- في هذا البحث، مستعيناً ببعض الكتابات العصرية تدعيماً وتأكيداً للجانب الشرعي، وقد حاولت أن أقدِّم رؤية إسلامية خالصة عن منهج السُّنة في التخطيط للمستقبل، بعيداً عن الإغراق في الكتابات العصرية المتخصصة في هذا المجال.

ومما شجعني على الكتابة في هذا الموضوع أنه من الموضوعات الحيوية الهامة التي تؤكد على صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، والتي تكشف عن جوهر رسالته، والتي تردُّ على الشبهات المثارة حوله، وتنفي عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. كما أن فيه قدراً كبيراً من إعمال الفكر في النصوص الشرعية بغية استخراج الدلالة منها على المعنى المراد، وهو -لعمري- أمر جليل، بيد أنه هو الذي ينبغي أن تتجه إليه الآن أنظار أهل التخصص، وفاء بحق البيان، ورعاية لمقتضى حال العصر، وحاجة أبنائه.

والله أسأل أن يوفقني لإتمام هذا البحث على الوجه المرضي، وأن يجعله قربة لي إليه، وعملاً صالحاً بين يديه، إنه سميع مجيب. .

= بعنوان «تجديد علوم الفقه والمقاصد في ضوء المستقبل»، منشور على اطلعت عليه بتاريخ ١٠ / ١ / ٢٠١١ على الرابط: http://www.altasamoh.net/Article.asp?Id=476 موقع «مجلة التسامح».

- مشروع مقرر استشراف المستقبل في قسم السياسة الشرعية بالمعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، للدكتور سعد بن مطر العتيبي، منشور بتاريخ ١٨ / ١١ / ٢٠٠٩ على الرابط: http://www.alukah.net/articles/1/6299.aspx، موقع «الألوكة».

مبحث تمهيدي

مفهوم المستقبل وقيمته في حياة الرسول ﷺ

ينطلق مفهوم المستقبل في السنة النبوية من نظرتها إلى المدى الزمني لحياة الإنسان، ولما كانت الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف بالنسبة لرحلة الإنسان إلى الله -كما هو التصور المادي لها- كانت نظرة السنة إلى المستقبل تمتد إلى ما بعد الحياة الأولى، حيث يواجه الإنسان مستقبلاً آخر لا نهاية له ولا حدود، وهذا أمر تفتقده كل النظم الحديثة التي تتسم نظرتها إلى المستقبل بالمحدودية بناء على عملية الفصل بين الحياتين الأولى والآخرة، بل نجد هذا الأمر أيضاً في بعض الكتب المقدسة[1]. لكن الدنيا والآخرة عند المسلم حياة ممتدة، وهو يعمل لهما معاً جاعلاً نظره دوماً ينطلق إلى حياة أفضل هنا وهناك.

ومن هنا يمكن تقسيم المستقبل في حياة المسلم إلى نوعين متصلين وإن كانا في الظاهر منفصلين، وهما: المستقبل القريب أو الحياة الدنيا، والمستقبل البعيد أو الحياة الأخرى، وقد جمع النبي ﷺ بينهما وسأل الله صلاحهما في نحو قوله: «اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لي دِينِيَ الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لي في كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»[2]، وقوله في دعاء من أيس من حياته: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِى مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِى وَتَوَفَّنِى إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِى»[3]. ولعل في تعبير القرآن عن المستقبل بالنسبة للمسلم بالغد في نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (سورة

١- ومن ذلك ما جاء في إنجيل متى (٦: ١١) "خبزنا كفافنا، أعطنا اليوم"، (٦: ٢٤) "لا تهتموا بأمر الغد، فإن الغد يهتم بأمر نفسه، يكفي كل يوم ما فيه من سوء".

٢- صحيح مسلم،كتاب: الذكر والدعاء، باب: التعوذ من شر ما عمل وما لم يعمل ٨/ ٨١ ح (٧٠٧٨).

٣- صحيح مسلم،كتاب: الذكر والدعاء، باب: كراهة تمني الموت لضر نزل به ٨/ ٦٤ ح (٦٩٩٠) عن أنس.

الحشر: ١٨) لدليلاً واضحاً على هذا الامتداد الفسيح في زمان المستقبل بالنسبة للمسلم. فالغد هنا في قول جمهور المفسرين هو يوم القيامة، وقد عبَّر عنه بالغد لقرب مجيئه «فسمي ما قدر كونه وينتظر وقوعه وإن بعد وقته باسم غد، وهو ثاني يومك، لأن مرور الأيام يدنيه، وهذا وشبهه يتصرف في أكثر كلام العرب، وبهذا أخرجوا المستقبل من الأفعال الذي وقع الوعد به مخرج الماضي الذي قد تصرم وقته. وقال ابن عرفة في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ (سورة النحل:١) «إن معناه: أتى أمر الله وعداً فلا تستعجلوه وقوعاً»[1]. قال الشنقيطي:«والمراد بالغد ما يستقبل من الزمان لا خصوص الغد، ومن أساليب العربية إطلاق الغد على المستقبل من الزمان، ومنه قول زهير:

وأعلمُ علمَ اليومِ والأمسِ قبله ولكنَّني عن علمِ ما في غدٍ عَمِ»[2]

يريد باليوم زمان الحال، وبالأمس ما مضى، وبالغد ما يستقبل[3]. وعلى هذا يكون ابتداء المستقبل بالنسبة للمسلم من اللحظة التي تلي اللحظة التي يعيشها، وانتهاء باليوم الآخر وهو يوم القيامة الخالد الأبدي.

وهذه القسمة الثنائية للمستقبل، أو بعبارة أخرى القسمة الواحدة ذات الوجهين قد أكدتها السنة النبوية كثيراً في غير موضع، ولفتت الأنظار إلى ضرورة العمل للمستقبل الممتد الخالد الذي لا ينقطع بموت الإنسان. ومن ذلك قوله ﷺ: «إذا مَاتَ ابْن آدم انْقَطع عمله إلاّ من ثلاث: صَدَقَة جَارِيَة، أَو علم ينْتَفع به، أَو ولد صَالح يَدْعُو لَهُ»[4]، وقوله: «مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حَسَنَة فَلَهُ أَجْرهَا وَأَجْر مَنْ عمل بهَا (مِنْ) بعده، مِنْ غير أَن (ينقصَ) من أُجُورهم شَيْء، ومَنْ سَنَّ

١- أمثال الحديث للرامهرمزي ص ٢١ بتصرف تعليقا على قول كعب الغنوي"...وإن الذي يأتي غدا لقريب".
٢- أضواء البيان ٢ / ٣٧٣.
٣- التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦ / ١٠١.
٤- صحيح مسلم، كتاب: الوصية، باب: ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ٥ / ٧٣ ح (٤٣١٠).

في الإسلام سُنَّةً سَيِّئَة كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُها وَ وِزْرُ مَنْ عملَ بهَا مِنْ بعده من غير أن (ينقصَ) مِنْ أوزارهم شَيْء»[١]، وقوله: «لَنْ يَشْبَعَ الْمُؤْمِنُ مِنْ خَيْرٍ يَسْمَعُهُ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الْجَنَّةُ»[٢].

وقد كان نظر النبي ﷺ يتجه دائماً نحو المستقبل، ولم يكن ينظر إلى الماضي أو الحاضر إلا بقدر ما يفيده في سعيه نحو المستقبل، ويرجع اهتمام النبي ﷺ بالمستقبل إلى أنه الوعاء الزمني لمنجزات الإنسان وأعماله المرجوة.

والمتأمل في أدعية النبي ﷺ وأذكاره، يشعر فيها بظلال الأمل الفسيح في رحمة الله وكرمه أن يهيئ له مستقبلاً خالياً من العوائق والمنغصات؛ ليتمكن من تحقيق آماله في تبيلغ الرسالة، وأداء الأمانة على الوجه الذي يرضي ربه سبحانه، وتأمل في دعواته ﷺ في نحو قوله:»اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ العَجْزِ والكَسَلِ، والجُبْنِ والهَرَمِ، و أَعُوذُ بكَ من فتْنَة المَحْيَا والمَمَات، و أَعُوذُ بكَ مِنْ عذَاب القَبْر»[٣]، وقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ إني أَعُوذُ بكَ مِنْ زَوَال نعْمَتكَ، وَتَحويل عَافيَتكَ، وَفُجَاءَة نقْمَتكَ، وَجَميع سَخَطكَ»[٤]، وقولهﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ مِنْ الْبَرَص وَالْجُنُونَ وَالْجُذَام، وَمِنْ سَيِّئِ الْأَسْقَام»[٥]، وقوله ﷺ عند رؤية الهلال: «اللهمَّ أَهلَّهُ عَلَيْنَا بِالْأَمْنِ وَالإيمَان وَالسَّلَامَة وَالإسْلَام، هلالَ رُشد وخير، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ»[٦]، وقوله ﷺ كل ليلة: «أَسْأَلُكَ من خَيْرِ هَذه اللَّيْلَة وخيرِ ما بَعْدَهَا وأَعُوذُ بك مِنْ شرِّ هَذه اللِّيلة وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا»[٧].

١- صحيح مسلم، كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة ٨/ ٦١ ح (٦٩٧٥) عن جرير بن عبدالله.
٢- سنن الترمذي، كتاب: العلم، باب: فضل الفقه على العبادة ٥/ ٥٠ ح (٢٦٨٦)، وقال: حسن غريب.
٣- صحيح البخاري، كتاب:الجهاد والسير،باب: ما يتعوذ من الجبن ٣/ ١٠٣٩ ح (٢٦٦٨) عن أنس.
٤- صحيح مسلم، كتاب: الرقاق، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء... ٨/ ٨٨ ح (٧١٢٠) عن ابن عمر.
٥- سنن أبي داود،كتاب:الوتر، باب:في الاستعاذة١/ ٥٦٩ ح (١٥٥٦) وصححه المناوي في الفيض ٢/ ١٩٠.
٦- سنن الترمذي،كتاب: الدعوات، باب: ما يقول عند رؤية الهلال ٥/ ٥٠٤ ح (٣٤٥١) وقال:حسن غريب.
٧- صحيح مسلم،كتاب: الذكر والدعاء، باب:التعوذ من شر ما عمل وما لم يعمل ٨/ ٨٢ح (٧٠٨٢).

وفي إشارة واضحة إلى اهتمام النبي ﷺ بالمستقبل أكثر من غيره من الأزمنة نقرأ دعاءه الشريف الذي كان يستفتح به كل صلاة: «اللَّهُمَّ باعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنْ الدَّنَسِ اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ»[1]. فالدعوات الثلاثة إشارة إلى الأزمنة الثلاث: فالمباعدة للمستقبل، والغسل للماضي، والتنقية للحال، وكأن تقديم المستقبل للاهتمام بدفع ما سيأتي قبل دفع ما حصل[2]. ففيها إشارة إلى أهمية المستقبل في حياة المسلم أكثر من أي زمن آخر.

إن السنة النبوية في جُلِّها دعوة إلى المستقبل، وذلك أنها جاءت بأوامر ونواه، ورتبت عليها جزاء عاجلاً أو آجلاً، فلفتت الأنظارَ إلى ضرورة النظر للمستقبل والعمل له سواء كان قريباً أم بعيداً، ومن ثم قيل: إن التشريعات العقابية قائمة على النظرة المستقبلية من حيث إنها تدابير واقية للمنع من الجريمة قبل وقوعها، وهو ما أشار إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٧٩ سورة البقرة)، ويعبر عنه الفقهاء بقولهم عن الحدود إنها «زواجر»، ولا شك أن هذه التدابير إحدى وسائل التخطيط لمستقبل الأمن الاجتماعي.

بل إن حديث السنة النبوية عن أخبار الأمم الماضية في الغالب، إنما هو في حقيقته من وسائل التخطيط للمستقبل، وذلك عن طريق الاستفادة من تجارب تلك الأمم. ومن ذلك قوله ﷺ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»[3]، وقوله ﷺ: «لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ،

١- صحيح البخاري، كتاب: صفة الصلاة، باب: ما يقول بعد التكبير ١ / ٢٥٩ ح (٧١١) عن أبي هريرة.
٢- فيض القدير للمناوي ٢ / ١٦١.
٣- صحيح مسلم، كتاب: الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر ٤ / ١٠٢ ح (٣٣٢١) عن أبي هريرة.

فَضَربَ اللهُ قُلُوبَ بَعضِهِمْ ببعْضٍ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسانِ دَاوُد وعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ذلكَ بما عَصَوا وَكَانُوا يَعتَدُونَ»، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وكَانَ مُتَّكئاً، فَقَالَ: «لا، والَّذي نَفْسي بيَدِهِ حَتَّى تَأطُرُوهُمْ عَلَى الحَقِّ أطْراً»[1]، وقوله ﷺ: «واتَّقُوا الشُّحَّ، فَإنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ. حَمَلَهُمْ عَلَى أنْ سَفَكُوا دِمَاءهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»[2]، وقوله ﷺ في حديث المخزومية: «إنَّمَا أهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَأيْمُ اللهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحمّد سَرَقَتْ لَقَطَعتُ يَدَهَا»[3]، وقوله ﷺ: «فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاء، فإنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إسرائيلَ كَانَتْ في النِّسَاءِ»[4].

إن أمثال تلك التوجيهات النبوية الكريمة تضع المعالم الهادية للتخطيط الجيد لمستقبل الأمن الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للأمة، لو أحسن فهمها وتطبيقها كما ينبغي.

ومن ملامح اهتمام النبي ﷺ بالمستقبل أنه دعا إلى تناسي الماضي المؤلم إذا كانت ذكراه تعوق الإنسان عن السعي للمستقبل، وتجلب له الهم والغم المانعين من التخطيط السليم، المشوشين للفكر بكثرة الافتراضات التي لا تغني من قدر الله سبحانه شيئاً، وفي ذلك يقول ﷺ: «المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرصْ على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزْ، وإن أصابك شيء فلا تَقُل: لو أنّي فعلْتُ لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّر الله وما شاءَ فَعَل، فإن «لو» تفتحُ عَمَلَ الشيطان»[5]. وقد طبّق النبي ﷺ هذا المبدأ على

١- سنن الترمذي، كتاب: التفسير، باب: من سورة المائدة ٥ / ٢٥٢ ح (٣٠٤٧)، وقال: حسن غريب.
٢- صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الظلم ٨ / ٨ ح (٦٧٤١) عن جابر بن عبد الله.
٣- صحيح البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم... ٣ / ١٢٨٢ح (٣٢٨٨).
٤- صحيح مسلم، كتاب: الرقاق، باب: أكثر أهل الجنة الفقراء... ٨ / ٨٩ ح (٧١٢٤) عن أبي سعيد.
٥- صحيح مسلم، كتاب: القدر، باب: الأمر بالقوة ٨ / ٥٦ ح (٦٩٤٥) عن أبي هريرة. وهذا ليس على إطلاقه، فقد يكون تذكر الماضي حافزاً قوياً على العمل للمستقبل، وقد ترجم البخاري في صحيحه من كتاب التمني، باب «ما يجوز من اللو». وقال ابن حجر في الفتح (١٣ / ٢٢٨): « وليس المراد ترك النطق=

نفسه أولاً، فنراه وقد مكَّنه الله يوم الفتح من رقاب أهل مكة الذين آذوه وأصحابه وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، نراه والقوم ينظرون إليه في حذر وترقب خشية أن تقفز إلى ذاكرته صورة ذلك الماضي الحزين، وتعتمل في نفسه عوامل التشفي والانتقام، فإذا به يفاجئهم قائلاً: «لا أقول لكم إلا كما قال أخي يوسف: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (سورة يوسف: ٩٢)»[١]. لقد كان يطل على المستقبل من أفق بعيد لا يراه غيره متناسياً أحداث الماضي الأليم وذكرياته السيئة، وقد كان لبعد نظره، ودقة تخطيطه أثر كبير في دخول الناس في دين الله أفواجاً .

وهذا النظر المستقبلي تكرر معه قبل، وذلك في بعض مواقفه الدعوية التي تعرض فيها للأذى من قومه فيما وصفه بأنه أشد من يوم أحد، وعرض عليه في ذلك اليوم على لسان ملك الجبال أن ينتقم منهم بإطباق الجبلين عليهم فكان جوابه: «لا، إنِّي لأَرْجُو الله أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[٢].

إن التخطيط لمستقبل الإسلام يقتضي أحياناً الكف عن بعض مناوئيه من باب

= بـ «لو» إذ قد نطق النبي ﷺ بها في عدة أحاديث، ولكن محل النهي عن إطلاقها إنما هو فيما إذا أطلقت معارضة للقدر مع اعتقاد أن ذلك المانع لو ارتفع لوقع خلاف المقدور، لا ما إذا أخبر بالمانع على جهة أن يتعلق به فائدة في المستقبل، فإن مثل هذا لا يختلف في جواز إطلاقه، وليس فيه فتح العمل الشيطان ولا يفضي إلى تحريم" .

١- السنن الكبرى للبيهقي، كتاب: السير، باب: فتح مكة ٩ / ١٨ عن أبي هريرة وله طرق يصح بمجموعها وتنظر في: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزيلعي ٢ / ١٧٨. وقد علق بعض المستشرقين على هذا الموقف قائلا: "... ولا ريب في أن هذا التسامح أو هذه الفطنة السياسية التي اتصف بها كرجل دولة كانت غريبة على العرب الذين كانت صفة الانتقام من خصائصهم ومزاياهم، وقد حقق النصر الكبير سياسية ودبلوماسية أكثر من تعجله العسكري". الرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقية المنصفة لمحمد شريف الشيباني ص٢٠٣ "بتصرف".

٢- صحيح البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم: آمين، ٣ / ١٨٠. وعلق بعضهم بأن النبي ﷺ رفض منهج الاستئصال وامتنع عن فكرة الاعتزال أو الهجرة المستمرة، ونظر إلى المستقبل بنور الإيمان، وقرر الدخول إلى مكة الكافرة ليواصل جهاده الميمون أي أنه كان يريد أن يتخذ من أصلاب الكافرين مصانع بشرية تُخرج أجيالاً من المسلمين المقاتلين في سبيل الله، فالنظر النبوي هنا مصوَّب نحو المستقبل بصورة جلية، ولم يكن يعني الانسحاب من الحاضر. انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، للتجاني عبد القادر، ص ١٧٦ "بتصرف".

السياسة؛ لما يرجى منهم من الهداية والتوفيق والمعونة والنصرة، فعسى أن تتحول تلك القوى المعادية إلى دروع بشرية تدافع عن الإسلام في يوم من الأيام، وهذا وحشيٌّ بن حرب ادخره القدر لقتل مسيلمة الكذاب[1]. ولعل هذا سر من أسرار التشريع الإسلامي في إعطاء سهم المؤلفة قلوبهم من الزكاة!

ولقد حرصَ النبي ﷺ أن يوجه أصحابه إلى تناسي الماضي المؤلم والتطلع إلى المستقبل المشرق حتى لا تضيع أعمارهم في البحث عن السراب. فهذه السيدة أم سلمة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ لما استشهد أبو سلمة أرشدها النبي ﷺ إلى أرشد أمرها معلِّماً إياها هذا الدعاء المبارك: «اللهم أَجِرْني في مُصِيبَتي، وأَخْلِفْ لي خَيْراً مِنْهَا»[2]، فاستجاب الله دعاءها، وأخلف لها خيراً من أبي سلَمة، رسول الله ﷺ. كما نهى النبي ﷺ أن يتمنى الإنسان الموت لضر أصابه و ليقل: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي مَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»[3].

ومما يؤكد قيمة المستقبل في حياة الرسول ﷺ ما نراه من شدة حرصه على أن يرسخ في أذهان أصحابه مفهوم النظر إلى المستقبل، حتى وهُم في أحرج لحظات الحياة، ودعوته إياهم إلى استشراف المستقبل والتخطيط له، تارة بالأسلوب المباشر، وأخرى عن طريق ضرب المثل وحكاية القصة.

فمن الأسلوب المباشر: قوله لسعد بن أبي وقاص وقد عاده في مرض موته فسأله سعد عن الوصية بماله، فأفتاه بجوازها فيما لا يزيد عن الثلث، لافتاً نظره إلى ضرورة تأمين مستقبل الورثة من بعده قائلاً: «إِنَّك إن تذر وَرثتك أَغْنيَاء خيرٌ أَنْ تذرهم عَالَة يَتَكَفَّفُونَ الناسَ»[4]، وكقوله ﷺ لخبَّاب بن الأرَتِّ وهو يشكو إليه

١- تنظر القصة بتمامها في: الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم ح (٤٨٢)، ومسند الطيالسي ح (١٤٣١٤)، والمعجم الكبير للطبراني ح (٢٩٤٧)، والسنن الكبرى للبيهقي ٩ / ٩٧.

٢- صحيح مسلم، كتاب: الجنائز، باب: ما يقال عند المصيبة ٣ / ٣٧ ح (٢١٦٥) عن أم سلمة رضي الله عنها.

٣- صحيح البخاري، كتاب: المرضى، باب: نهي تمني المريض الموت ٥ / ٢١٤٦ ح (٥٣٤٧) عن أنس.

٤- صحيح البخاري، كتاب: الوصايا، باب: رثي النبي ﷺ سعد ١ / ٤٣٥ ح (١٢٣٣) عن سعد .

الإيذاء: «وَالله، لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِه، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[١]، وفي قوله ﷺ في حديثه المعجز لكل أنظمة التخطيط عند البشر: «إِنْ قَامَتْ السَّاعةُ وَفي يَدِ أَحَدِكُم فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَها فَلْيَفْعَلْ»[٢]. إلى هذا الحد يكون التخطيط للمستقبل!

ومن الأسلوب غير المباشر قوله ﷺ «قَالَ رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَة، فَخَرَجَ بِصَدَقَته فَوَضَعَهَا في يَدِ سَارِق» وفيه «فَأُتِيَ فَقيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِق فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَته، وَأَمَّا الزَّانيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ»[٣]. والظاهر أن النبي ﷺ يحكي لأصحابه تلك القصة لبيان نفاذ الصدقة وإن أخطأ صاحبها مصرفها، وللفقهاء كلام في هذا[٤]، بَيْدَ أن من وراء القصة معنى آخر ينبغي أن يلحظ، وهو كيف يُسْهِم المسلم في التخطيط لبناء مستقبل راشد، ويكون له دور فاعل في منع الجريمة وتأمين المجتمع عن طريق تهيئة الأجواء المناسبة لتحقيق هذا الهدف المنشود، ويقي المجتمع بذلك من أزمات أخلاقية واجتماعية خطيرة تطيح به كثيراً.

ومن القصص العجيبة التي ترسخ مفهوم العمل للمستقبل ما قصّه الرسول ﷺ على أصحابه قائلاً: «اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَاراً، فَوَجَدَ الَّذي اشْتَرَى العَقَارَ في عَقَاره جَرَّةً فيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذي اشْتَرَى العَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ وَلَمْ أَشْتَرِ الذَّهَبَ، وَقَالَ الَّذي لَهُ الأَرْضُ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ الَّذي تَحَاكَمَا إِلَيْه: أَلَكُمَا وَلَدٌ ؟ قَالَ أَحَدُهُما: لي غُلامٌ،

١- صحيح البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة ٣ / ١٣٢٢ ح (٣٤١٦) عن خباب.
٢- مسند أحمد ٣ / ١٩١ح (١٣٠٠٤)، وعزاه الهيثمي في المجمع ٤ / ١٠٨ إلى البزار وقال: رجاله أثبات ثقات.
٣- صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: إذا تصدق على غني وهو لا يعلم ٢ / ٥١٦ ح (١٣٥٥).
٤- ينظر: اللباب في الجمع بين السنة والكتاب للمنبجي١ / ٣٧٩، وشرح البخاري لابن بطال ٣ / ٤٢٢- ٤٢٣.

وقالَ الآخَرُ: لي جَارِيَةٌ قال: أَنْكِحُوا الغُلاَمَ الجَارِيَةَ، وأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا»[1].

إن هذه القصة تحمل في طياتها دروساً تربوية عظيمة لعل أهمها ما يمكن أن نسميه «فقه إدارة الأزمات»[2]. و الأسلوب الذي اعتمد عليه هذا الحَكَم في حكمه أسلوب معروف في علم الإدارة الحديث باسم «التفكير الإبداعي»[3]، وفي حكاية النبي ﷺ هذه القصة إشارة إلى أهمية التخطيط المبني على الحكمة في إدارة الأزمات وفض المنازعات.

ولقد عقل الصحابة رضوان الله عليهم عن النبي ﷺ هذه التوجيهات، فظهرت آثارها في حياتهم العملية، فها هو ابن مسعود كان يُذَكِّر أصحابه في كل خميس مرة ، فقال له رجل – بحسب رواية أبي وائل -: يا أبا عبد الرحمن، لوددْتُ أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: «أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ، وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكُمْ بِالْمَوْعِظَةِ، كَمَا كَانَ رسول الله ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِهَا مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا»[4]. إن هذا الأسلوب في التخطيط الذي يتَّسم ببعد النظر وعمق الفكر يحتاج إليه المعلم في إدارة التعليم، ورجل الاقتصاد في السوق، والمفاوض على مائدة المفاوضات، فليس من شك أن الإلحاح المستمر في أي أمر قد يؤدي إلى نتائج عكسية، ومن هنا فإن الحكمة التخطيطية تقتضي مراعاة الأوقات المناسبة لتنفيذ الخطط وتحقيق الأهداف.

وهذا عبد الله بن سلام تعلم من درس الفسيلة فقال فيما يروى عنه: «إن سمعتَ بالدجال وأنت على وَدِيَّة تغرسها فلا تعجل أن تُصلحها، فإن للناس بعد

١- صحيح البخاري،كتاب:الأنبياء، باب: أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ٣ / ١٢٨١ ح (٣٢٨٥).
٢- ينظر: إدارة الأزمات للدكتور نعيم الظاهر ص ٢٤٤.
٣- ويعرف بأنه "العملية الذهنية التي نستخدمها للوصول إلى الأفكار والرؤى الجديدة أو التي تؤدي إلى الدمج والتأليف بين الأفكار والأشياء التي يعتبر سابقاً أنها غير معقولة ".لمحات عامة في التفكير الإبداعي للدكتور عبد الإله بن إبراهيم الحيزان ص ٢٤، ويقارن بإدارة الأزمات لنعيم الظاهر ص ٢٤٢.
ومن النماذج النبوية لهذا النوع من التفكير طريقه حله ﷺ لمشكلة وضع الحجر الأسود، وهي طريقة مبتكرة لم تعهدها العرب من قبل.
٤- صحيح البخاري، كتاب: العلم، باب: من جعل لأهل العلم أياما معلومة... ١ / ٧٩ ح (٧٠).

ذلك عيشاً»[1]. وهذا يعني أن التخطيط للمستقبل لابد أن يكون في ذاكرة المسلم ما دامت قد بقيت في الحياة لحظة، كما يعني أن التخطيط للمستقبل قيمة في حد ذاته!

وقد كان من آثار هذا التوجيه الذهني إلى ضرورة العمل للمستقبل أن كان الصحابة رضوان الله عليهم يبادرون رسول الله ﷺ بالسؤال عما يتوقعونه من حوادث المستقبل، كما يسألونه وضع الخطط المناسبة للتعامل معها، مستغلين فرصة حياته الشريفة قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وناهيك بخطة يضعها النبي المعصوم ﷺ!

فهذا سلمة بن يزيد الجُعْفِيّ- كما يَروي وائل بن حُجْر - يقول:يَا نَبِيَّ الله، أرأيتَ إنْ قامَت عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسأَلُونَا حَقَّهُم، وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ فَأَعْرَضَ عنه، ثُمَّ سَأَلَهُ، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «اسْمَعْوا وَأَطِيعُوا، فإنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حملْتُمْ»[2]. إنه فقه الموازنة بين المصالح، وهو مما يحتاج إليه في فن التخطيط، ولعل هذا يفسر لنا سر صدام الحكومات مع بعض الطوائف المخالفة لها في الأفكار والتوجهات في بعض البلاد الإسلامية!

«والعجيب أن بعض الناس يبحث هذه النصوص ونحوها من نصوص الإخبار عن المستقبل من زاوية واحدة فقط، وهي أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، وأن هذا من الغيب الذي أظهره الله عليه تأكيداً لنبوته ورسالته، وواجبنا التسليم والتصديق، وهذا حق بلا ريب، ولكن لهذه النصوص زوايا وأبعاد كثيرة من أجلِّها: أن رسول الله ﷺ وضع بين عينيه أهدافاً جليلة بعيدة المدى، استحثَّ النفوس الحية والهمم العالية للوصول إليها دون أن تصاب بالإحباط أو اليأس

١- الأدب المفرد للبخاري، باب: اصطناع المال ص١٦٩ ح (٤٨٠) وصححه الألباني في الصحيحة١ / ٣٨ ح(٩).

٢- صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: في طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق ٦ / ١٩ ح (٤٨٨٩).

لعارض طارئ من العوارض القريبة، فهي دعوة لتوسيع الأفق وتعميق النظر، والانطلاق إلى تلك الرحاب بواسطة استشراف آفاق المستقبل غير المنظور، ومن ثَمَّ السعي الحثيث لاستثمار الحاضر بكل إمكاناته، لبناء المستقبل وترسيخه وإزالة عوائقه ومشكلاته»[1].

المبحث الأول: فقه التخطيط ومجالاته وتطبيقاته.

يستعمل البعض في التنظير لهذا الحقل بعض المصطلحات مثل: علم المستقبل، أو استشراف المستقبل، أو التنبؤ بالمستقبل، وكل هذه التسميات من وجهة نظري إما قاصرة عن الوفاء بالمعنى المراد، وإما تقف دونها محاذير شرعية[2]. ولعل تسميته بـ «التخطيط للمستقبل» هي الأدق والأليق بمضمون هذا الحقل وسيلة وغاية، ويراد به: «التصور المستقبلي المبني على الدراسة والتحليل والإحصائيات الثابتة للعمليات المستقبلية، ويتم عادة قبل العمل والتنفيذ»[3]، ويمكن التعبير عنه بأنه:محاولة التعرف على صورة المستقبل، والمشاركة في صياغتها، بناء على تصور سابق محفوف بالقرائن، ومقدمات تؤدي إلى نتائج معينة في الغالب. فقد اشتمل هذا التعريف المستنبط من واقع التأمل الذاتي على أركان التخطيط إجمالا، بدءا من التصور، ومرورا بالخطة، وانتهاء بالهدف. وهو بهذا المعني يتفق مع منهج السنة النبوية الذي ألمحنا إليه، ونزيده بيانا في المباحث الآتية إن شاء الله تعالى.

١- دراسة المستقبل مدخل تأصيلي لأحمد بن عبد الرحمن الصويان، مقال منشور بمجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، عدد (٨٦)، ص ٥٥ شوال ١٤١٥هـ، الموافق مارس ١٩٩٥م، السنة التاسعة.

٢- ينظر للمزيد: مقال بعنوان " علم تخطيط المستقبل " بتاريخ ٢٤/ ١٠/ ٢٠١٠م على موقع "سراج الأقصى": http://www.siragpal.com/vb/104370-1-post.html

٣- دراسة المستقبل، مدخل تأصيلي لأحمد عبد الرحمن الصويان مقال بمجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلام، عدد (٨٦) ص ٥٥ شوال ١٤١٥هـ مارس ١٩٩٥م السنة التاسعة، وقال الكاتب بعد أن ذكر هذا التعريف: "وبهذا يتبين أن دراسة المستقبل أحد العناصر الرئيسة لنجاح التخطيط حتى إن الكاتب "فايول" اختزل علم الإدارة كله في هذا العنصر تأكيداً لأهميته وحيويته، فقال في تعريف علم الإدارة: إنه النظر إلى المستقبل"!

وعلى ضوء هذا التعريف فإن دائرة التخطيط للمستقبل هي دائماً دائرة الممكنات. وأما دائرة الواجبات والمستحيلات فلا يشملها التخطيط. وَلْنَدَعْ أحد علمائنا القدامى يكشف لنا عن تلك الحقيقة قائلاً: «الحزن على ما فات لا يَلُمُّ ما تشعَّث، و لا يُبرم ما تنكَّث كما قيل: «وهل جَزعٌ مُجْدٍ عليَّ فأَجْزَعا»؟! فأما غمُّه على المستقبل فإمَّا أن يكون في شيء ممتنع كونُه، أو واجب كونه، أو ممكن كونه، فإن كان على ما هو ممتنعٌ كونه فليس من شأن العاقل، وكذا إن كان من قبيل الواجب كونُه كالموت، فإن كان ممكناً كونه، فإن كان لا سبيل إلى دفْعه كإمكان الموت قبل الهَرَم فالحزن له جهل واستجلاب غمٍّ إلى غم، فإن كان ممكناً دفْعه احتال لدفعه بفعلٍ غير مَشُوبٍ بحزن، فإن دفَعه وإلا تلقاه بصبر»(١).

وهذا الذي يؤكد عليه علماء الإسلام هو ما ينبغي أن يضعه المخططون في حسابهم نظراً لوجود قوانين إلهية تحكم المستقبل فمثلاً: استمرار الصراعات والخلافات بين الأمم، والذي يعني أن الحروب لن تتوقف كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(١١٩ سورة هود)، وأيضاً التفاوت بين الأفراد والدول فيما يملكون، أي الاختلاف في الرزق كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾(٧١ سورة النحل).

وهذا التفاوت يعني أن لا يخطط المخطط الاقتصادي لإحداث المساواة التامة بين الناس في الرزق لأنها محالة. وقل مثل ذلك في التخطيط لإدخال

١- من كلام الراغب الأصفهاني كما في فيض القدير للمناوي ٦ / ٧٩. ولتوضيح الأمر نقول: «دائرة الممكنات ـ بالمعنى الكلامي ـ وهي الأمور التي تقبل الثبوت وتقبل النفي، أو التي يجوز وقوعها وعدمه. وأما دائرة الواجبات ـ وهي الأمور التي تقبل الثبوت فقط، أو لا يُصدِّق العقل انتفاءها أو عدمها، والمستحيلات ـ وهي الأمور التي تقبل النفيَ فقط، فلا يُصدِّق العقل وجودها، أو لا يَتصوَّر العقل وجودها فلا يشملها التخطيط».

العالم كله في دين الإسلام ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٣)، أو التخطيط لأن يكون جميع الناس أصحاء، أو شباباً لا يهرمون، أو تأخير الموت عنهم إذا حان وقته ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأعراف: ٣٤)، وقديماً حاول الشيوعيون أن تعم النظرية الشيوعية أرجاء الكون، وخططوا لأن تكون الدولة التي ينتهي عندها التاريخ وتكون نهاية العالم هي الدولة الشيوعية، والحمد لله ذهبت وقضي عليها! إذن فالتخطيط للمستقبل من وجهة نظر الإسلام إنما يكون داخل دائرة الممكن وجوداً وعدماً، فأما المستحيل والواجب فينبغي أن يخلي المسلم ذهنه من مجرد التفكير فيه، بَلْهَ العملِ له!

ودائرة الممكن تشمل كل مناحي الحياة الدنيا التي يعيشها المسلم، بل تمتد إلى الحياة الأخرى لتشمل مصيره النهائي في ذلك اليوم، فإنه أيضاً داخل في دائرة الممكنات. على أن المستقبل أو الواجب إنما هو بالنسبة لما في علم الله لا علم البشر، فلا يعني كون الموت واجب الوقوع ألا يتعاطى الإنسان أسباب البقاء وحفظ الصحة، كيف وقد قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٥)، وقال ﷺ: «تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً إِلَّا الْمَوْتَ وَالْهَرَمَ»؟![١] فإنه لا تعارض بين سعي الإنسان وبين قدره المحتوم لأنه لا علم له بقدره، وقد تداوى النبي ﷺ وتخفف من ألم المرض[٢]، وأخذ بأسباب النجاة في الحرب، ورجع عمر عن أرض الطاعون ناجياً بنفسه ومن معه قائلاً: «نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ اللهِ»[٣].

والناظر في سيرة رسول الله ﷺ وسُنته العملية يدرك تمام الإدراك أنه لم يدع مجالاً من مجالات التخطيط المشروعة والممكنة إلا وسعى فيه، واستعان

١- مسند أحمد ٤ / ٢٧٨ ح (١٨٤٧٨) و صححه ابن حبان في: الطب، باب: الشيئين اللذين لا دواء لهما ١٣ / ٤٢٨ ح (٦٠٦٤) عن أسامة بن شريك بهذا الفظ.

٢- ينظر: زاد المعاد لابن القيم ٤ / ٥.

٣- صحيح البخاري، كتاب: الطب، باب: ما يذكر في الطاعون ٥ / ٢١٦٣ ح (٥٣٩٧) عن ابن عباس.

عليه بكل الوسائل والأدوات المتاحة حتى ولو صدرت عن عقول وتجارب غير مسلمة:كأخذه بنظام حفر الخندق وهى وسيلة حربية مأخوذة عن الفرس، وكأخذه بنظام ختم الكتب والرسائل لما قيل له: «إن الملوك لا يقبلون الكتاب إلا مختوماً»[١]، وذلك حينما وجَّه رسله وكتبه إلى الملوك والأمراء في خطته لتوسيع رقعة الدولة الإسلامية عن طريق سفراء الدعوة. وكان شعار النبي ﷺ في ذلك كله «الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المؤمن، فحيثُ وجدَها فهو أحقُّ بها»[٢].

وفي ضوء هذا الفهم المستنير لحقيقة التخطيط المستقبلي ومجالاته في ضوء السُّنة ينطلق الإبداع العقلي في: استحداث مصادر جديدة للطاقة، والبحث عن أراض جديدة صالحة للحياة ولو كانت فوق سطح القمر أو في أعماق الأرض، واكتشاف أدوية جديدة للأمراض التي عجزت الأدوية القديمة عن علاجها.

ولعل في قوله ﷺ: «تَدَاوَوْا عبَادَ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً إِلَّا الْمَوْتَ وَالْهَرَمَ»، توجيهاً مستقبلياً للعقول البشرية إلى السعي لاكتشاف مثل هذا النوع من الأدوية الذي يجنب البشرية مخاطر الآلام والأسقام، ويحد من انتشارها بقدر الله أيضاً ما دام ذلك داخل إطار ضوابط وأخلاقيات الإسلام.

ولنضرب بعض الأمثلة التي توضح مسيرة التخطيط المستقبلي في بعض المجالات الحياتية التي دعا فيها النبي ﷺ المخططين للأخذ بمختلف الوسائل الممكنة للوصول إلى الأهداف المنشودة. ففي مجال الحفاظ على البيئية تضع السُنة النبوية عدة تدابير وقائية لتجنب المشاكل الصحية والبيئية بما يعد سبقاً حضارياً و زمانياً في مجال التخطيط المستقبلي لهذين الحقلين، وتتمثل تلك التدابير في:

أ- الحفاظ على موارد البيئة الطبيعية: واستخدامها الاستخدام الأمثل،

١- صحيح البخاري، كتاب: العلم، باب: ما يذكر في المناولة ١ / ٣٦ ح (٦٥) عن أنس.
٢- سنن الترمذي، كتاب: العلم، باب: فضل الفقه على العبادة ٥ / ٨٣ ح (٢٦٨٧). وقال: «غريب من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه». وحسنه السيوطي كما في الفيض ٥ / ٨٣ كأنه لشواهده.

وحمايتها من سوء الاستخدام الذي تنجم عنه مشاكل عديدة يختل معها التوازن الصحي والبيئي، ومن ذلك: نهيه عن قطع الأشجار المثمرة والظليلة[1]، ونهيه عن الإسراف في الماء[2]، ونهيه عن قضاء الحاجة في موارد المياه وطريق الناس وظلهم[3]، ونهيه عن قتل الحيوانات والطير إلا لمنفعة، والإبقاء عليها، وإنقاذها من الهلاك، وعدم إرهاقها فيما لم تخلق له من المنافع[4]، والرفق بها فيما خلقت له[5]، وأمره بدفن فضلات الإنسان وتغييب الأذى في باطن الأرض، وقد بوَّب البخاري في صحيحه «باب دفن النخامة في المسجد»، وأمر ﷺ بصب الماء على البول، وبه بوَّب البخاري أيضاً، وإماطته عن الطريق[6].

١- في مثل قوله ﷺ: «مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ» رواه أبو داود في: الأدب، باب: في قطع السدر ٤ / ٥٣٠ (٥٢٤١) عن عبد الله بن حُبْشِيٍّ، وحسنه ابن القطان كما في الفيض ٦ / ٢٦٧.

٢- في مثل قوله ﷺ لسعد «لا تُسْرِفْ في الماء وإن كنتَ على نهر جار» رواه ابن ماجه في: الطهارة ١ / ١٤٧ ح (٤٢٥) عن عبد الله بن عمرو، وضعفه في الزوائد. ويشهد له عموم قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٣١) وقوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ (سورة الإسراء: ٢٦).

٣- ومن ذلك قوله ﷺ: «اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَالظِّلِّ». رواه أبو داود في: الطهارة ١ / ١١ ح (٢٦) عن معاذ، وحسنه النووي، ووافقه الولي العراقي، وأشار إلى أن تحسينه بالشواهد. ينظر: فيض القدير ١ / ١٧٨.

٤- في مثل قوله ﷺ: «لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً». رواه مسلم في: الصيد والذبائح ٦ / ٧٣ ح (٥١٧١) عن ابن عباس. ومن النصوص الداعية إلى الحفاظ على الثروة الحيوانية النافعة وعدم التعرض لها إلا لمنفعة مقصودة أو مضرة متحققة قوله ﷺ: «لَوْلَا أَنَّ الْكِلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَا فَاقْتُلُوا مِنْهَا كُلَّ أَسْوَدَ بَهِيمٍ». رواه الترمذي في: الأحكام، باب: قتل الكلاب ٤ / ٧٨ ح (١٤٨٦) عن عبد الله بن مغفل وقال: حسن صحيح. وقوله: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتِ النَّارَ». قال: فقال والله أعلم: «لم تُطْعِمْهَا ولم تَسْقِهَا حين حَبَسَتْهَا ولم تُرْسِلْهَا فتأكل من خَشَاشِ الأرض». رواه البخاري في: المساقاة، باب: فضل سقي الماء ٢ / ٨٣٤ ح (٢٢٣٦) عن ابن عمر. ومن النصوص الداعية إلى استخدام الحيوان فيما خلق له فقط قوله: «بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا؛ إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ». رواه البخاري في: الأنبياء ٣ / ١٢٨٠ ح (٣٢٨٤) عن أبي هريرة، ونهيه عن التحريش بين البهائم رواه أبو داود في: الجهاد ٢ / ٣٣١ ح (٢٥٦٤) والترمذي فيه ٤ / ٢١٠ ح (١٧٠٨) عن ابن عباس، وأشار المناوي في الفيض ٦ / ٣٩٤ إلى تحسين السيوطي له بناء على تحسين الترمذي وتصحيحه، وقوله: «وَلَا تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيَّ لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطُّرُقِ وَالْأَسْوَاقِ». رواه أحمد في المسند ٣ / ٤٣٩، ٤ / ٢٣٤، قال الهيثمي ٨ / ١٩٩: «أحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح عدا سهل بن معاذ وثقه ابن حبان وفيه ضعف». المجمع.

٥- كقوله ﷺ - وقد مرَّ ببعير قد لحق ظهرهُ ببطنه -: «اتَّقُوا اللهَ في هذه البهائم المُعْجَمَة: فاركبوها صالحة، وكُلُوهَا صالحة». رواه أبو داود في: الجهاد ٢ / ٣٢٨ ح (٢٥٥) عن سهل بن الحنظلية، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٧ / ٣٠١ وكقوله لعائشة رضي الله عنها - وقد ركبت بعيراً فيه صعوبة فجعلت تُرَدِّدُه -: «عليكِ بالرفق». رواه مسلم في: البر والصلة، باب: فضل الرفق ٨ / ٢ ح (٦٧٦٨) عن شريح بن هانيء.

٦- في نحو قوله "وتميط الأذى عن الطريق صدقة"، رواه البخاري في: الجهاد والسير ٣ / ١٠٩٠ ح (٢٨٢٧).

ب – تنمية موارد البيئة: ومن ذلك دعوته ﷺ إلى التشجير، والغرس، وحفر الآبار، وشق الأنهار، وتربية الحيوانات النافعة،كالخيل والأنعام، لما في ذلك من النفع العام للناس في أوقات السلم والحرب(١). ويمكن الاستئناس بتلك التوجيهات النبوية المعجزة في أبحاث علم الهندسة الوراثية التي تسعى إلى تحسين وتطوير وزيادة الإنتاج الزراعي والحيواني.

ج – استغلال كل الموارد البيئية المتاحة وعدم إهدارها: فلفت ﷺ النظر بذلك إلى ضرورة التخطيط للاستفادة من كل ما خلق الله عز وجل على اعتبار أنه سبحانه سخر لنا ما في السماوات والأرض، وأنه لا شيء إلا وفيه مصلحة للإنسان من وجه، وإن كان الظاهر خلاف ذلك. ومن ذلك دعوته إلى الانتفاع بإهاب الميتة إذا دبغ(٢)، وبالسمن الجامد إذا وقعت فيه نجاسة(٣)، وباللقمة إذا أصابها أذى(٤)، وبما في الإناء من طعام وشراب إذا وقع فيه الذباب(٥)، أو ولغت فيه الهرة(٦)،

١- كقوله ﷺ: «مَنْ أحْيا أرضاً ميتةً فهي له»، رواه الترمذي في: الأحكام ٣ / ٦٦٣ ح (١٣٧٩)، وقال: حسن صحيح. وقوله: «مَا منْ مُسْلم يَغْرسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيأكُل منْهُ طَيْرٌ أَوْ إنْسَانٌ أَوْ بَهيمَةٌ إلاَّ كَانَ لَهُ به صَدَقَةٌ»، رواه البخاري في: المزارعة ٢ / ٨١٧ ح (٢١٩٥)، وكقوله: «أفضَلُ الصَّدقَة سقْيُ الماء»، رواه أبو داود في: الزكاة، باب: فضل سقي الماء ٢ / ٣٦٦ ح (١٦٨١)، وصححه الألباني في صحيح السنن ٥ / ٣٦٦، وكقوله: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»، رواه البخاري في: الجهاد، باب: الخيل معقود ٣ / ١٠٤٧ح (٢٦٩٤)، وكقوله: «الإبل عزٌّ لأهلها، والغنمُ بركةٌ»، رواه ابن ماجه في: التجارات، باب: اتخاذ الماشية ٢ / ٧٧٣ ح (٢٣٠٥)، وقال في الزوائد: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٢- في نحو قوله ﷺ ـ وقد مَرَّ بشَاة لمَوْلاَة لمَيْمُونَةَ ـ: "أَلاَّ انْتَفَعْتُمْ بإهَابهَا"، رواه مسلم في: الطهارة، باب: طهارة جلود الميتة ١ / ١٩١ح (٨٣٢) عن ابن عباس.

٣- في نحو قوله ﷺ ـ وقد سُئل عن فأرة سقطتْ في سمن ـ: "أَلْقُوها وما حَوْلَهَا فاطْرَحُوه وكُلُوا سَمْنَكُمْ"، رواه البخاري في: الوضوء، باب: ما يقع من النجاسات في السمن والماء ١ / ٩٣ ح (٢٣٣) عن ميمونة رضي الله عنها.

٤- في نحو قوله ﷺ: "إذَا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُمطْ مَا كَانَ بهَا منْ أَذًى وَلْيَأْكُلْهَا"، رواه مسلم في: الأشربة ٦ / ١١٤ ح (٥٤٢١) عن جابر.

٥- في نحو قوله ﷺ: «إذا وقَعَ الذُّبَابُ في شَراب أَحَدكُمْ فَلْيَغْمسْهُ ثُمَّ ليَنْزعْهُ، فَإنَّ في إحْدَى جنَاحَيْه داءً والأُخْرَى شفَاءً»، رواه البخاري في: بدء الخلق ٣ / ١٢٠٦ح (٣١٤٢) عن أبي هريرة.

٦- عن عائشة رضي الله عنها أنها أكلتْ منْ حَيْثُ أكَلَت الْهرَّةُ فَقَالَتْ: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: "إنَّهَا لَيْسَتْ بنَجَس إنَّمَا هي منَ الطَّوَّافينَ عَلَيْكُمْ"، وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَتَوَضَّأُ بفَضْلهَا. رواه أبو داود في: الطهارة، باب: سؤر الهرة ١ / ٢٩ح (٧٦) وصححه الألباني في صحيح أبي داود ١ / ١٣٣ وفي الباب أحاديث أخر.

وباستعمال التراب في غسل الإناء الذي ولغ فيه الكلب[1]، وهو – أي التراب – وأحد جناحي الذباب يعتبران مضاداً حيوياً للقضاء على البكتريا والجراثيم التي توجد في الجناح المصاب بها من الذباب، وفي لعاب الكلب أيضاً، وهذا أمر لم يكتشف إلا حديثاً، وقد سبقت السُنة النبوية إليه على هذا النحو المعجز[2]، وكذا إصلاحه للأواني المنكسرة التي تلفت بعض أجزائها، وإعادة استعمالها من جديد[3]. ويعم ذلك كله نهيه ﷺ من إضاعة المال.

ولا ريب أن هذه التوجيهات النبوية المستقبلية تفتح الآفاق أمام الباحثين والمخططين إلى ارتياد العوالم البرية والبحرية والجوية لاستثمار ما فيها مما يعود نفعه على الإنسان، واستخراج الأدوية النافعة من الأجسام الضارة، وإعادة استخدام المواد المستهلكة في صور أخرى، والبحث في مهملات الطبيعة التي لا يلتفت إليها كثير من الناس، والانتفاع بها في ضوء هذه التوجيهات النبوية الحكيمة المعجزة!

١- في نحو قوله ﷺ: "طُهُورُ إِنَاءِ أَحَدِكُمْ إِذَا وَلَغَ فِيهِ الْكَلْبُ أَنْ يَغْسِلَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ أُولاَهُنَّ بِالتُّرَابِ"، رواه مسلم في: الطهارة ١ / ١٦٢ح (٦٧٦) عن أبي هريرة .

٢- ينظر: الرسول ﷺ لسعيد حوى ص ٣٨-٤٢، ص ٤٦-٤٧.

٣- في نحو ما رواه أنس: «أن قَدَحَ النبي ﷺ انكسرَ، فاتَّخذ مكان الشَّعْب سَلْسَلةً من فضَّة»، رواه البخاري في: الخمس، باب: ما ذكر من درع النبي ...ﷺ ٣/ ١١٣١ح (٢٩٤٢).

المبحث الثاني: موانع التخطيط[1]

ولم تُغْفِل السنة النبوية الإشارة إلي الأسباب التي تمنع بعض الناس من التخطيط للمستقبل، ويأتي علي رأس هذه الموانع:

غياب الإحساس بمعنى المسؤولية: إن التخطيط للمستقبل ينبع أولاً من إحساس الفرد بمسؤوليته تجاه من هو مسؤول عنهم، وهذا الإحساس الذي يدفعه إلى السعي إلي تحقيق الإنجازات وإثبات الذات، وبدون ذلك لن تكون لديه أية رغبة في التخطيط للمستقبل، فهذه المسؤولية هي التي تدفع الراعي إلى النظر لمستقبل الرعية، فهي التي تجعل الوالدين يسعيان لمستقبل أولادهما، والطالب يسعى لمستقبله العلمي والوظيفي، والحاكم يسعى لمستقبل بلده وشعبه، وفي غياب الإحساس بالمسؤولية تغيب كل معاني العمل للمستقبل. وقد أكد النبي ﷺ هذا بقوله «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه»[2]، وقوله «إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، حَفِظَ أم ضَيَّع حتى يُسأَلَ الرجلَ عن أهل بيْتِه»[3].

ومنها الجمود والتقوقع على الذات: وهما آفتان كبيرتان تجعلان الشخص المصاب بهما محدود الفكر والنظر، ضيق الرؤية، منطويا على نفسه، وقد بيَّنت السيرة العملية للرسول ﷺ أنه كان من أكثر الناس انفتاحاً على العالم من حوله، ودراية بأحوال الأمم والشعوب. فاختياره ﷺلأرض الحبشة والطائف والمدينة للهجرة إليها مثلاً، تعني درايته الجيدة بأحوال الأمم من حوله، وحسن دراسته للواقع وهو يخطط لمستقبل الإسلام[4]، وعقده الأحلاف مع قبائل العرب في

١- (ينظر للمزيد عن تلك الموانع: مقال بعنوان «التخطيط للمستقبل» بتاريخ٢٨ / ١٢ / ٢٠٠٩ على الرابط: http; / / magdah.maktoob.com / vb / magdah9304، موقع «منتديات ماجدة».

٢- صحيح البخاري، كتاب: الصلاة، باب: الجمعة في القرى والمدن ١ / ٣٠٤ ح (٨٥٣)عن ابن عمر.

٣- صحيح ابن حبان، كتاب: السير، باب: في الخلافة والإمارة ١٠ / ٣٤٤ح (٤٤٩٢) عن أنس.

٤- ينظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية للدكتور محمد رواس قلعجي ص٥٧، ص ١٣٠-١٣٤.

مواجهة معسكر الشرك[1]، ورسله وبعثاته التعليمية والدبلوماسية إلى الملوك والأمراء في الداخل والخارج يؤكد مدى أهمية الانفتاح والمرونة وأثرها في نجاح عملية التخطيط[2]، وقد أصَّل النبي ﷺ لهذا المبدأ بقوله: «الحكمةُ ضالَّةُ المُؤْمنِ حيثُ وجدَها فهُو أحقُّ بها»[3].

ومنها افتقاد الوعي بقضية التغير: فالظروف تختلف، والأمور تتغير، وما كان بالأمس لا يكون اليوم، ولن يكون غداً، فالحياة متجددة دائماً، وإدراك الإنسان لهذه الحقيقة هو الذي يدفعه إلى التخطيط بما يناسب الأمور المستجدة، وقد لفت النبيﷺ إلى تغير الزمان وتقلبه في نحو قوله في خطبة الوداع: «اسمعُوا فإنِّي لا أَدْرِي لَعلِّي لا أَلْقاكُم بعد عَامِي هذا»[4]، وقوله: «خيرُ الناسِ قَرْني، ثم الذين يلُونهم، ثم الذين يلُونهم»[5]، وعن أنس ـ وقد شُكِي إليه ما يلقى النَاسُ من الحَجَّاج ـ: «اصبرُوا فإنَّه لا يأتي على الناسِ زمانٌ إلاَّ و الذي بعده شرٌّ منه حتى تَلْقَوا ربَّكم، سمعتُه من نبيِّكم ﷺ»[6].

كما لفت النظر أيضاً إلى تغير الحال تبعاً لتغير الزمان مما يستدعي التخطيط المبكر لهذا التغير، ووضعه في الاعتبار في نحو قوله: «خير الصِّدقة أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحيحٌ شَحيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغنَى، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغْت الحُلْقُومَ، قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا، وَلِفُلاَنٍ كَذَا، وَقَد كَانَ لِفُلاَنٍ»[7]، وقوله لأصحابه: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ

١- ينظر: الرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقية المنصفة، مصدر سابق ص ١٧٦-١٧٧، و ص ٢١٣-٢١٨.
٢- ينظر: الرسول ﷺ لسعيد حوى ص ١٠٣-١١٠ وقراءة سياسية للسيرة النبوية ص ٢٢٩-٢٣٠ والرسولﷺ في الدراسات الاستشراقية المنصفة ص ٢١٨-٢٢٣ وسفراء النبي ﷺ للواء الركن محمود شيت خطاب ١ / ٤٢-٣٠.
٣- سبق تخريجه.
٤- المعجم الكبير للطبراني٢٤ / ٣٠٧ح (٧٧٧). وقال الهيثمي في المجمع٣ / ٥٩٨: "رجاله ثقات".
٥- صحيح البخاري، كتاب: الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور٢ / ٩٣٨ح (٢٥٠٩) عن ابن مسعود.
٦- صحيح البخاري، كتاب: الفتن، باب: لا يأتي على الناس زمان إلا الذي بعده شر منه ٦ / ٢٥٩١ح (٦٦٥٧).
٧- صحيح البخاري،كتاب: الزكاة، باب: أي الصدقة أفضل... ٢ / ٥١٥ح (١٣٥٣) عن أبي هريرة.

بَعْدي أَثَرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْني عَلَى الْحَوْض»[1]، وقوله: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْس: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[2]، وقوله: «بادِرُوا بالأَعْمَال سَبْعاً، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلاَّ فَقراً مُنسياً، أَوْ غنىً مُطغياً، أَوْ مَرَضاً مُفسداً، أَوْ هَرَماً مُفْنداً، أَوْ مَوتاً مُجْهزاً، أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ فالسَّاعَةُ أدهَى وَأَمَرُّ»[3]، ولعل في تمهيد النبي ﷺ للهجرة عن طريق لقائه بقبائل الأنصار في بيعتي العقبة تطبيقاً عملياً لهذا المبدأ، حيث علم أن الحال في مكة سيتغير إلى الأسوأ، وسيشتد الحصار في مواجهة الدعوة الإسلامية، لذا كان لابد من البحث عن أرض جديدة تحتضن هذه الدعوة لتنطلق منها إلى أراض أخرى[4].

ومنها: غياب الهدف: فإنه يجعل الإنسان يعيش لحظته الآنية فقط، ولا يفكر في المستقبل، بخلاف الإنسان الطموح الذي يسعى إلى تحقيق أهداف واضحة. والنبي ﷺ يعلم الناس كيف يعيشون الحياة من أجل أهداف نبيلة وواضحة في أذهانهم، فهذا حديثه المشهور «إنَّما الأعمالُ بالنِّيات»[5]، يذكر فيه هدفين لا ثالث لهما، هدف كبير يسير باتجاه «فهِجْرَتُه إلى الله ورسُوله»، وهدف صغير يسير باتجاه «فهجرتُه لدنيا يُصيبُها، أو امرأةٍ يتزوَّجُها»، والمؤمن يختار الهدف الأكبر ويسعى إلى تحقيقه، وحول هذا الهدف تتمحور سائر الأهداف النبيلة. وهدف الهجرة إلى الله ورسوله هو الذي دفع النبي ﷺ وأصحابه إلى التخطيط للهجرة أدق

1- صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: قول النبي ﷺ «اصبروا حتى تلقوني..» ٣ / ١٣٨١ح (٣٥٨١).
2- مستدرك الحاكم، كتاب: الرقاق ٤ / ٣٤١ ح (٧٨٤٦)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
3- سنن الترمذي، كتاب: الزهد، باب: المبادرة في العمل ٤ / ٥٥٢ح (٢٣٠٦)، وقال: حسن غريب. ورواه مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن وأشراط الساعة ٨ / ٢٠٧ح (٧٥٨٤) بلفظ "بادِرُوا بالأَعْمَالِ سِتًّا" بنحوه.
4- ينظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص ٧١-٧٤، ص ٨٤-٨٨ والرسول ﷺ لسعيد حوى ص ١٠٣-١٠٦.
5- صحيح البخاري، باب: كيف كان بدء الوحي ١ / ٣ ح (١) عن عمر.

وأحكم تخطيط عرفته النظم الحديثة[1]. ولقد حرص الصحابة الكرام على أن يسألوا رسول الله ﷺ عن نوع الهدف الذي يسعى المسلم إلى تحصيله والتخطيط له في نحو قولهم: «الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَم، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْر، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[2].

ولقد أشار القرآن إلى الهدف والغاية الواضحة التي خلق الإنسان من أجلها، والتي ينبغي أن يكون تخطيطه في ضوئها في نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦)، وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠)، وقوله: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ (هود: ٦١)، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢)، ولأن المنافقين لم تكن لهم أهداف ولا تطلعات كبرى نبيلة فقد قعدوا خلاف رسول الله ﷺ، بينما غامر الصحابة بأنفسهم وأموالهم في سبيل الهدف الأسمى، والأمة الإسلامية الآن تفتقد تلك التطلعات والرؤى الكبيرة؛ لذا فهي تخبط خبط عشواء في الوقت الذي تسعى فيه الأمم والشعوب الأخرى إلى تحقيق أهداف واضحة واحداً تلو الآخر .

وأهم تلك الموانع: الوهم وسوء الفهم: وهما من أعظم الأسباب المانعة من التخطيط لاصطباغهما بصبغة دينية في الغالب، وتنشأ عنهما التصورات الخاطئة.

ومن ذلك: تصور بعضهم أن التخطيط للمستقبل فيه نوع من التنبؤ بالغيب، وادعاء العلم بما سيكون، وهذا أمر استأثر الله تعالى بعلمه، والجواب: أنه لا تعارض بين استئثار الله بعلم المستقبل و استشراف الإنسان لهذا المستقبل والتخطيط له،

١- ينظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص ٩٠-١٠٠، وبصائر وعبر من سيرة خير البشر د. صالح أحمد رضا ص ١٨٦-١٩٨.

٢- صحيح البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٣/ ١٠٣٤ ح (٢٦٥٥).

بناءً على الظن الغالب المبني على القرائن، أو المعطيات المتاحة التي هي بمثابة المقدمات التي تؤدي إلى نتائج معلومة ـ وقد تتخلف ـ . ولعلنا نلمح ذلك من قول السيدة خديجة رضي الله عنها للرسول ﷺ في قصة بدء الوحي حين رجع يرجف فؤاده قائلاً: «قد والله خشيتُ على نفسي أن يكونَ ذلك أمراً». فقالت: «وَاللَّهِ لاَ يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»[1]. فهذا استشراف للمستقبل مبني على الظن الغالب، ودراسة الواقع، وربط الأسباب بمسبباتها، وليس تكهناً بالغيب. ومثله تنبؤ ورقة بن نوفل بهجرة النبي ﷺ وخروجه من مكة بناءً على معرفة سابقة بتجارب مشابهة في ظروف مشابهة لأناس مشابهين[2].

وقد أقسم سيدنا سليمان ﷺ أنه سيطوف على مائة امرأة تنجب كل واحدة منهن فارساً يقاتل في سبيل الله وتخلف ظنه[3]. وقد فهم العلماء من تلك النصوص ونحوها جواز الإخبار عن وقوع الشيء في المستقبل بناءً على الظن[4]. وقد أكد علماء السُنة على هذا المعني الذي ألمحنا إليه، يقول ابن الأثير وهو بصدد الكلام على التنجيم: «وعلم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكائنات والحوادث التي لم تقع وستجيء في المستقبل، وأنهم يدركون معرفتها بتسيير الكواكب وانتقالاتها واجتماعها وافتراقها، وأن لها تأثيرا اختياريا في العالم، فأما من يعرف من النجوم لمعرفة الأوقات، والاهتداء بها في الطرقات، ومعرفة القبلة وأشباه ذلك فليس به بأس... وإنما غلَّظ النبي ﷺ في أمر الأنواء لأن العرب كانت تنسب المطر إليها، فأما من جعل المطر من فضل الله تعالى، وأراد بقوله» مطرنا بنوء كذا «أي في وقت كذا»، وهو هذا النوء الفلاني «فإن ذلك جائز»، فقد قيل: إن

١- صحيح البخاري، باب: كيف كان بدء الوحي ١ / ٤ ح (٣) عن عائشة رضي الله عنها.

٢- ينظر: السابق ذاته.

٣- ينظر: صحيح البخاري، كتاب: التوحيد، باب: في المشيئة والإرادة٦ / ٢٧١٧ح (٧٠٣١) عن أبي هريرة.

٤- ينظر: إحكام الأحكام لابن دقيق العيد ص ٤٥٦.

عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه أراد أن يَسْتَسْقِيَ فنادَى بالعباس بن عبد المطلب: كمْ بَقِي من نَوْءِ الثُّرَيَّا؟ فقال: إنَّ العلماءَ بها يزعمون أنها تعترضُ في الأفُق سبعاً بعد وقوعها، فما مضَتْ تلك السبعُ حتى غِيثَ الناس(١). وأراد عمر «كم بقى من الوقت الذي جرت العادة أنها إذا كانت أتم الله بالمطر»(٢)؟

ويؤكد النووي كلام ابن الأثير في جواب سؤال وُجِّهَ إليه عن قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النمل: ٦٥)، وقول النبي ﷺ: «لا يَعْلَمُ ما في غدٍ إلا الله»(٣)، وأشباه ذلك من الآيات والأحاديث مع أنه وقع علم ما في غد في معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء فقال: معناه «لا يعلم ذلك استقلالاً وعلم إحاطة بكل المعلومات إلا الله تعالى، وأما المعجزات والكرامات فحصلت بإعلام الله تعالى للأنبياء والأولياء لا استقلالا وهكذا، كما نعلم أن الشمس إذا طلعت تبقى ست ساعات أو نحوها، ثم تزول، ثم تبقى نحو ذلك، ثم تغرب، ثم تبقى نحو مجموع ذلك، ثم تطلع، وهكذا القول في الفجر وغيره من الأمور التي يعلم وقوعها في المستقبل، وليس هو علم غيب علمناه استقلالا، وإنما علمناه بإجراء الله تعالى العادة به»(٤).

ومن تلك المفاهيم الخاطئة: تصور بعضهم أن العمل للمستقبل ينافي قصر الأمل والزهد في الدنيا، وقد دعينا إليه في نحو قوله ﷺ: «كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ - وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِك، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»(٥)،

١- مسند الحميدي ٢ / ٤٣٢ح (٩٧٩) من مرسل ابن المسيب، وإسناده إليه صحيح، وينظر معه: سنن البيهقي، كتاب صلاة الاستسقاء، باب: كراهية الاستمطار بالأنواء ٣ / ٣٥٩.

٢- جامع الأصول لابن الأثير ٧ / ٦٣٤، ١١ / ٥٧٦ "بتصرف"، وأصله في كلام الإمام الشافعي كما في سنن البيهقي ٣ / ٣٥٨-٣٥٩.

٣- صحيح البخاري، كتاب: التفسير، سورة الرعد ٤ / ١٧٣٣ح (٤٤٢٠) عن ابن عمر.

٤- الفجر الساطع على الصحيح الجامع للشبيهي ١٠ / ٢٥٧، وينظر: المعيار المُعْرِب للونشريسي ١٢ / ٣٧٦-٣٧٧.

٥- صحيح البخاري، كتاب: الرقاق، باب: قول النبي ﷺ «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ...» ٥ / ٢٣٥٨ح (٦٠٥٣).

وقوله: «مَا لي وللدنيا إنما أنا كرَاكب استظلَّ بظلِّ شجرةٍ ثم راحَ وتركَها»[1]، وعن أنس قال: «خطَّ النبي ﷺ خُطوطاً فقال: هذه الأملُ، وهذا أجلُه، فبَيْنَما هو كذلك إذ جاءهُ الخطُّ الأقربُ»[2]، وغير ذلك من الأحاديث. والجواب: أن هذه الشبهة سبيل من لم يحسن فهم كلام النبوة كما ينبغي، أما أحاديث الدعوة إلى الزهد في الدنيا وتقصير الأمل فيها فلا ينبغي أن تفهم على إطلاقها، وإلا لذهبت شمولية الإسلام وضاع معنى الكمال فيه، وإن أحسن ما تفسر به تلك النصوص القولية هو السيرة العملية لحياة الرسول ﷺ، إذ هي نموذج الكمال الإنساني الذي ينبغي أن نفهم كلامه من عمله، فقد كانت حياته كلها سعياً وعملاً وجهاداً وتدبيراً وتخطيطاً مع شدة تطلعه إلى الآخرة وزهده في الدنيا، وهذا يعني أن الزهد المنهي عنه هو ما يصرف الإنسان عن الغاية التي خلق من أجلها لتصير الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، أما الزهد بمعنى أن يملك الدنيا ولا تملكه، فيحوزها بيده، وعينه وقلبه معلقان بالآخرة، فهذا هو حقيقة الزهد الذي تؤكده الحياة العملية للرسول ﷺ وهو بهذا المعنى لا ينافي العمل للمستقبل.

وأما طول الأمل الذي ورد ذمه في الأحاديث فسبيل القول فيه هو سبيل القول في الزهد، فهو ليس مذموماً مطلقاً، وكيف يذم ما هو من خصائص البشرية؟[3]. وإنما المذموم منه ما اشتمل على الغفلة عن الاستعداد للقاء الله والتسويف في التوبة، والاسترسال في جمع الدنيا، وما أدى إلى قسوة القلب، وترك الطاعة وفعل المعصية، والاشتغال بالدنيا عن الآخرة. وأما طول الأمل المحمود فهو ما كان في طاعة الله عز وجل. قال ابن الجوزي: «طول الأمل مذموم إلا للعلماء،

١- سنن الترمذي، كتاب: الزهد، باب: بلا ترجمة ٤ / ٥٨٨ح (٢٣٧٧) عن ابن مسعود وقال: حسن صحيح.
٢- صحيح البخاري، كتاب: الرقاق، باب: في الأمل وطوله٥ / ٢٣٥٩ح (٦٠٥٥) عن أنس.
٣- كما في حديث أنس عند البخاري في: الرقاق ٥ / ٢٣٦٠ح (٦٠٥٨) مرفوعا "يكبُر ابنُ آدمَ ويكبُر معه اثنتانِ: حبُّ المالِ، وطولُ العمرِ".

ولولاه ما صنفوا»[١]. وهو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «لئن عِشْتُ إلى قابل لأَصُومَّن التاسع »[٢]، وأكده بقوله: «خيرُ الناسِ مَنْ طال عمرُه وحسُن عملُه، وشرُّ الناسِ مَنْ طال عمرُه وساءَ عملُه»[٣]، ومن طَول الأمل المحمود التمتع بمباحات الدنيا، والاستعداد والتخطيط للمستقبل بما لا ينسى معه الاستعداد للآخرة، ولا يلزم من التمتع بالدنيا الغفلة عن الآخرة، فلا تعارض بينهما[٤]، وقد توفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من شعير، وصح أنه ادخر قوت عياله سنة[٥]، مع أنه خير الزاهدين وأتقاهم لله عز وجل. قال ابن الجوزي: «وفيه جواز ادخار قوت سنة، ولا يقال: هذا من طول الأمل، لأن الإعداد للحاجة مستحسن شرعا وعقلا، وقد استأجر شعيب موسى عليهما السلام، وفي هذا ردٌّ على جهلة المتزهدين في إخراجهم من يفعل هذا عن التوكل»[٦].

ومن تلك المفاهيم الخاطئة: تصور بعضهم أن العمل للمستقبل لا يغني عن حتمية القدر التي دلت عليها نصوص الكتاب والسُنة في نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩)، وقوله: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (سورة الرعد: ٨)، وقوله: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (سورة يونس: ١٠٧)، وقوله ﷺ: «واعلَمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعُوك لن ينفعوك إلا بشيءٍ

١- ذكره ابن حجر في الفتح ١١ / ٢٣٧.
٢- صحيح مسلم، كتاب: الصيام، باب: في أي يوم يصام عاشوراء٣ / ١٥١ح (٢٧٢٣) عن ابن عباس.
٣- سنن الترمذي،كتاب:الزهد،باب: ما جاء في طول العمر للمؤمن٤ / ٥٦٦ح (٢٣٣٠) وقال: حسن صحيح.
٤- فتوى «هل التخطيط للمستقبل من طول الأمل؟» للشيخ عبد المجيد بن صالح المنصور بتاريخ ٢٨ / ١٢ / ٢٠٠٩ على الرابط: http://islamtoday.net/fatawa/services/printgues-60-175961.htm، على موقع: «الإسلام اليوم، فتوى».
٥- ينظر: صحيح البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في درع النبي ﷺ٣ / ١٠٦٨ح (٢٧٥٩) عن عائشة رضي الله عنها، وصحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير٥ / ١٥٣ح (٤٦٧٧) عن عمر.
٦- كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي ١ / ٦٣.

قد كتبهُ اللهُ لك، رُفعت الأقلامُ وجفَّت الصُحف»[١]، وقوله في حديث سبق الكتاب: «ثم يُرسلُ الملَك فيُؤمَر بكَتْبِ أربعِ كلماتٍ »[٢]، وقوله ﷺ: «ما شاءَ الله كانَ وما لم يشأ لم يكن»[٣].

والجواب: أن هذه شبهة قديمة خطرت في أذهان الصحابة رضي الله عنهم حينما حدثهم الرسول ﷺ حديث سبق الكتاب فقالوا له: فِيم العملُ ؟ فقال: «اعمَلوُا فكلٌّ مُيَسَرٌ لما خُلِق لَهُ»[٤].

وهذه قاعدة جليلة في فقه المستقبل تقرر عدة حقائق مهمة وهي أن «مستقبلنا من صنع أيدينا بعلم الله وإرادته فينا، وسبق الكتاب لا يعني ترك الأسباب، لأن عدم العلم بما سيكون في المستقبل لا يعني ترك العمل». فالطالب الذي لم تساعده المقادير في النجاح ليس له أن يترك الدراسة بحجة أنه من المحتمل إلا ينجح، وبالتالي فلا حاجة إلى استمراره في الدراسة، والتاجر الذي يتوقع كساد السوق ليس له أن يترك التجارة بناء على احتمال الخسارة، والدولة المحتلَّة لا تترك مقاومة المحتل وإن كانت نتائج المقاومة سلبية، فإنه لا اطلاع لنا علم الله يقينا لنعلم أن قدرنا هو ما ظنناه أو توقعناه، ولو ساغ لأحد ترك العمل اعتمادا علي سوابق الأقدار لبطل معني التكليف، ولم يكن لحياة البشر علي الأرض معنى ولا قيمة. على أن القضاء الإلهي نوعان: ناجز، ومعلق. فالناجز وهو المبرم يقع لا محالة، ولا ينفع فيه شيء، وإنما يجري فيه اللطف، وهو فعل إلهي محض،قد يقابله من العبد عمل صالح، أولا. وأما القضاء المعلق فينفع فيه الدعاء والعمل

١- سنن الترمذي، كتاب: صفة القيامة، باب: بلا ترجمة٤ / ٦٦٧ح (٢٥١٦) وقال:حسن صحيح. »بتصرف».
٢- صحيح البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة ٣ / ١١٧٤ح (٣٠٣٦) عن ابن مسعود.
٣- سنن أبي داود، كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح ٤ / ٤٧٩ح (٥١٧٧) عن بعض بنات النبي ﷺ، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب١ / ٩٩ح (٣٨٨).
٤- صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: سورة الليل ٤ / ١٨٩١ح (٤٦٦٦) عن علي.

الصالح، ويؤكد ذلك قوله ﷺ: «الدعاءُ ينفعُ مَّما نزَل ومما لم ينزل»[1]، وقوله: «لا يَرُدُّ القضاءَ إلا الدعاءُ»[2]، وحديث الثلاثة الذين انسدَّت عليهم الصخرة فدعوا الله بصالح أعمالهم ففرَّج الله عنهم[3]، وحديث: «مَنْ سَرَّهُ أن يُبْسط له في رزقه، ويُنْسَأ له في أثره فليصِلْ رَحِمَه»[4]، ويؤكد ذلك قوله تعالى:﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾(٣٩سورة الرعد).

وعلى ذلك فالعمل للمستقبل أمر لا مانع منه شرعا في حالتي القضاء الناجز والمعلق، حيث إنه لا علم للإنسان بما سيكون من أمره، على أنه إما أن يتغير إذا كان مشروطاً في علم الله وهو المعلق، وإما أن يقع مصحوباً باللطف وهو المبرم، وعلى فرض خلوه من اللطف فحظ المسلم عند استقباله بصبر وثبات خير من الدنيا وما فيها.

ومن تلك المفاهيم الخاطئة: تصور بعضهم أن السعي للمستقبل ينافي ما دعتنا إليه الشريعة الغراء من الصبر على البلاء والرضا بالقضاء، وما ورد فيهما من عظيم الأجر وجميل الذكر كقوله تعالى:﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٥)، وقوله: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (المائدة: ١١٩)، وقوله ﷺ: «إنَّ عِظَمَ الجزاءِ معَ عظم البلاء، وإنَّ الله إذا أحبَّ قوماً ابتَلاهُمْ، فمَنْ رَضي فلَه الرِّضا، ومن سَخط فله السُّخْطَ»[5]، وقوله: «عجباً لأمرِ المُؤْمنِ إنَّ أمرَهُ كلَّه له خيرٌ، إن أصابتْه ضَّراءُ صبرَ فكانَ خيراً له، وان أصابته سرَّاءُ شكرَ فكان خيراً له»[6].

١- سنن الترمذي، كتاب: الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ٥ / ٥٥٢ح (٣٥٤٨) عن ابن عمر وقال: غريب. وصححه الحاكم في المستدرك في كتاب: الدعاء ١ / ٦٧٠ح (١٨١٥) وأكثر مافيه أنه حسن لغيره.

٢- سنن الترمذي، كتاب: القدر، باب: لا يرد القدر إلا الدعاء٤ / ٤٤٨ح (٢١٣٩) وقال: حسن غريب.

٣- صحيح البخاري، كتاب: البيوع، باب: إذا اشترى شيئا لغيره بغير إذنه فرضي٢ / ٧٧١ح (٢١٠٢).

٤- صحيح البخاري، كتاب: البيوع، باب: من أحب البسط في الرزق٢ / ٧٢٨ح (١٩٦١) عن أنس.

٥- سنن الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء٤ / ٦٠١ح (٢٣٩٦) عن أنس وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

٦- صحيح مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير٨ / ٢٢٧ح (٧٦٩٢) عن صهيب.

والجواب: أن هذه الشبهة أقل ما يقال فيها: إنها غفلة عن المعنى الحقيقي للصبر والرضا، فإنهما يعنيان تحمل المكروه دون جزع أو تسخط مع محاولة السعي لإزالته بالأسباب المشروعة، وهذه سُنة النبي ﷺ تؤكد أنه كان سيد الصابرين على البلاء والراضين بالقضاء، وهو أيضاً سيد العاملين لإزالة أسباب البلاء، وهو القائل: «تَعَوَّذُوا باللهِ مِنْ جَهْدِ البَلاَءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ، وكان يتعوَّذُ من ذلك»[1]. وهديه في ذلك من أعظم الهدي وأنفعه في الدنيا والآخرة، فقد تداوى وأمر بالتداوي، واكتسب وأمر بالكسب، وهاجر وأمر بالهجرة، وكل هذا أخذ بالأسباب المشروعة لحل مشكلات الصحة والفقر والاضطهاد مع صبره عليها ورضاه عن الله فيها لأنها بإرادته تعالى «وكل ما يفعل المحبوب محبوب». فالذي أمرنا بالصبر على المرض هو الذي أمرنا بالتداوي، والذي أثنى على الفقراء هو الذي أثنى على الأغنياء.

وقد عقل كبار الصحابة عن النبي ﷺ هذا المعنى، فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يسن لنا سُنة «منازعة القدر بالقدر» حين قال قولته المشهورة في حديث الطاعون: «نفرُّ من قدَرِ الله إلى قَدرِ الله»[2]، فقدر الله بالنسبة لنا مجهول، فلا ندري أقدر لنا النجاة أم الهلاك، وإلقاء النفس إلى التهلكة أو إبقاؤها فيها مع إمكان الخروج منها محرم شرعاً، ولا يعنى الرضا أن نترك أنفسنا فريسة الهلاك المظنون دون أن نأخذ بأسباب النجاة الممكنة.

ولنضرب مثالاً عملياً على ذلك من السُنة النبوية في حياتنا المعاصرة، فقد أخبر النبي ﷺ في أحاديث الفتن وأشراط الساعة بفساد أغلب الأحوال، وانعكاس أكثر الأوضاع: كقلة العلم، وكثرة الجهل، وانتشار الكذب والخيانة والزنا والقتل والعقوق، وكثرة أمراء الجور المتسلطين على الأمم والشعوب الناهبين لخيرات

١- صحيح البخاري، كتاب: الدعوات، باب: التعوذ بالله من جهد البلاء٥ / ٢٣٣٦ح (٥٩٨٧) وكتاب: القدر، باب: من تعوذ بالله من درك الشقاء...٦ / ٢٤٤٠ح (٦٢٤٢) عن أبي هريرة.
٢- سبق تخريجه.

البلاد، وافتراق الأمة إلى شيع وأحزاب. فهل يعني ذلك أن نترك مثل هذه الأمور دون السعي والتخطيط لمواجهتها والعمل على الحد من انتشارها؟ إن هذا هو الجهل بعينه! وكيف ذلك والنبي ﷺ يأمرنا بالعمل عند نزول البلاء الأعظم الذي لا أعظم منه، ولا مفر منه، ولا يمكن إزالته، وهو قيام الساعة وزوال الدنيا في قوله المعجز لكل أنظمة التخطيط عند البشر: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَفْعَلْ»![1].

ومن المفاهيم الخاطئة: تصور بعضهم أن السعي للمستقبل ينافي التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، وقد مدح الله ورسوله ﷺ المتوكلين، ووعدوا على توكلهم بالثواب العظيم والمنزل الفخيم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقوله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ (الزمر: ٣٦)، وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران: ١٧٣)، وقوله ﷺ في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرْقُونَ، وَلا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وعَلَى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُون»[2]، وقوله: «لو أنَّكم كنتم تتوكلون على الله حقَّ توكله، لَرُزِقْتُمْ كما تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدو خماصا وتَرُوحُ بطانا»[3]، وقوله ﷺ لأبي بكر: «ماظنُّكَ باثنين اللهُ ثالثُهما؟»[4]، وقوله ﷺ: «إنَّ رُوح القُدس نَفَثَ في رُوعي أنه لن تَمُوتَ نفس حتى تستكمل رِزْقها وأجَلَها»[5]. والجواب عن هذه الشبهة يكمن في تحقيق معنى التوكل، فهو لا يعني طرح الأسباب وإهمال السنن الكونية، فإن الله عز وجل قد أقام الدنيا على الأسباب، كما أقام الآخرة عليها، فالإيمان والعمل

١- سبق تخريجه.
٢- صحيح البخاري، كتاب: الطب، باب: من اكتوى أو كوى...٥ / ٢١٥٧ح (٦١٧٥) عن ابن عباس.
٣- سنن الترمذي كتاب: الزهد، باب: في التوكل على الله ٤ / ٥٧٧ح (٢٣٤٤) عن عمر وقال: حسن صحيح.
٤- صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب المهاجرين٣ / ١٣٣٧ح (٣٤٥٣) عن أنس.
٥- مستدرك الحاكم، كتاب: الرقاق٤ / ٣٦١عن جابر وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

الصالح سبب لدخول الجنة، والكفر وفساد الأعمال سبب لدخول النار، والدنيا كذلك، فمجالس العلم سبب للتعلم، والعمل سبب للكسب، والتداوي سبب للشفاء، والمسلم يعمل وفق هذه السنن دون الاعتماد عليها، ويترك النتائج إلى الله، فيجمع بذلك بين التوكل والأخذ بالأسباب، والقائل «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» هو الذي خطط للهجرة أدق تخطيط و أحكمه، على أن أكثر النصوص الواردة في التوكل قد فهمها بعضهم على غير وجهها. «والحق أن الذي يتعمق في دراسة كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية، وترك الأمور تجري في أَعِنَّتها بغير ضابط ولا رابط ولا نظام، وقد بيَّن الرسول ﷺ أن التوكل على الله لا يعني اطِّراح الأسباب، أو إغفال السنن التي أقام الله عليها نظام هذا الوجود، ولا يكاد مسلم يجهل قصة الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ وترك ناقته أمام المسجد قائلاً: «يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»[1]. قال الإمام الطبري يردُّ على من زعم أن تعاطي الأسباب يؤثر في كمال التوكل: «الحق أن من وثق بالله، وأيقن أن قضاء عليه ماض، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب اتباعاً لسنته وسنة رسول الله ﷺ، فقد ظاهر ﷺ بين درعين، ولبس على رأسه المِغْفَر، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة و إلى المدينة، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك»![2].

ومن قرأ سيرته ﷺ وجد أنه كان يعد لكل أمر عدته، ويهيئ له أسبابه وأهبته، آخذا حذره، مقدراً جميع الاحتمالات، واضعاً ما أمكنه من الاحتياطات، مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله![3].

١- سنن الترمذي كتاب: صفة القيامة، باب: بلا ترجمة٤ / ٦٦٨ح (٢٥١٧) عن أنس وقال: غريب من هذا الوجه. وصححه ابن حبان ٢ / ٥١٠ح (٧٣١) من حديث عمرو بن أمية الضمري.

٢- فتح الباري ١٠ / ٢١٢.

٣- ينظر: فتوى "التخطيط للمستقبل والإيمان بالغيب" للدكتور القرضاوي منشورة بتاريخ ١٩ / ١٢ / ٢٠٠٥ على الرابط: http: / / shariaa.net / forum / showthread.php?t=3378، موقع منتديات الشريعة.

المبحث الثالث: عناصر التخطيط السليم[1]

إن التخطيط الناجح يعتمد على خمسة عناصر أو قواعد رئيسة هي:

١- تحديد الأهداف والغايات: وهى أولى خطوات التخطيط السليم، فالذي ليست لديه أهداف واضحة لن يصل إلا إلى المجهول، ومن فوائد هذا التحديد أنه يحفز الإنسان نحو المزيد من الإنجاز، وقد بينا فيما سبق طرفاً من حديث السُنة عن تحديد الأهداف عند الكلام عن غياب الأهداف والتطلعات الكبيرة من موانع التخطيط، ونضيف هنا نموذجاً آخر بنى عليه صاحبه خطته في الحياة للوصول إلى ذلك الهدف بعينه، وهو ما قصَّه علينا النبي ﷺ من أنه «كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، وَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِراً فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَلَقِيَ اللهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ»[2]. لقد كان هدف هذا الرجل النبيل أن يتجاوز الله عنه، وكان هذا الهدف واضحاً في ذهنه، حتى إنه سعى إلى تحقيقه بهذا الشكل العملي الجاد. وهذا أنس بن النضر في غزوة أحد يلوح الهدف أمام عينيه حتى إنه ليشم رائحته، بعد أن رسمه النبي ﷺ أمام أعينهم، إنه جنة عرضها السماوات والأرض، وهاهو يقاتل قتال الأُسُودِ حتى يصل إليه، ولقد وصل![3] وحياة النبي ﷺ ودعوته كلها تتمحور حول هدف واحد محدد، أعلنه منذ البداية، ولم يهادن عليه، بل كانت حياته كلها سعياً من أجل تحقيقه في مسيرة تخطيطية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً.

١- ينظر للمزيد عن تلك العناصر: مقال بعنوان "التخطيط للمستقبل" بتاريخ٢٨ / ١٢ / ٢٠٠٩على الرابط: http; / / magdah.maktoob.com / vb / magdah9304، موقع « منتديات ماجدة ».

٢- صحيح البخاري،كتاب:الأنبياء، باب:أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم.. ٣ / ١٢٨٣ح (٣٢٩٣).

٣- ينظر:صحيح البخاري،كتاب:الجهاد، باب: قول الله تعالى "من المؤمنين رجال صدقوا.." ٣ / ١٠٣٢ح (٢٦٥١).

٢- الترتيب والموازنة بين الأولويات[١]: وهي قاعدة عظيمة وهامة من قواعد التخطيط للمستقبل، وتعني: ترتيب الأهداف والأعمال والمهام بحسب الأهمية، يقدم الأهم على المهم، والعاجل قبل الآجل، والضروري قبل غيره، فهذا من شأنه الوصول إلى الهدف في أسرع وقت ممكن.

وإننا لنجد الآن بعض الدوائر الحكومية تصرف اهتمامها وميزانياتها إلى تجميل الشوارع ونظافتها، وتنفق عليها الأموال الطائلة، دون أن تكون هناك شبكة مرافق تحتية تتناسب مع هذا التجميل، بل يحدث هذا مع انتشار الفقر والبطالة والجريمة دون أن توجه تلك الميزانية الضائعة هدراً إلى علاج المشاكل الحقيقية الكبرى التي تهدد أمن الدولة وسلامتها، وذلك كله في غياب تام عن مبدأ «ترتيب الأولويات».

ولقد أصَّلت السُنة النبوية المشرفة لهذا المبدأ في كثير من الأحاديث، من ذلك قوله ﷺ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ في سَبِيلِ الله، وَدينار أَنْفَقْتَهُ في رَقَبَة، وَدينارٌ تَصَدَّقْتَ به عَلَى مِسْكِين، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْراً الَّذي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ»[٢]، وقوله لمن سأله عن ترتيب أولويات البر بالأقارب فقال: «أُمَّكَ وأَبَاكَ، ثم أُخْتَكَ وأَخاكَ، ثم أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»[٣]، وقوله ﷺ في حديث معاذ حين بعثه إلى اليمن «إنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أهلِ الكِتَاب فَادْعُهُمْ إلَى شَهَادَة أَنْ لا إلَهَ إلاَّ الله، وَأَنِّي رسولُ الله، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَد افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوات في كُلِّ يَوْم وَلَيلَة، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلك، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَد افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[٤]،

١- ينظر: دراسة المستقبل، مدخل تأصيلي، مصدر سابق. ولشيخنا العلامة القرضاوي كتاب رائع أصل فيه وفصل قاعدة " فقه الأولويات " لا يستغنى عنه مفكر ولا مخطط !

٢- صحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة على العيال... ٣/ ٧٨ح (٢٣٥٨) عن أبي هريرة.

٣- سنن النسائي، كتاب: الزكاة، باب: أيتهما اليد العليا ؟ ٥/ ٦١ ح (٢٣٤١) وصححه ابن حبان ٨/ ١٣٠.

٤- صحيح البخاري، كتاب: الزكاة، باب: أخذ الصدقة من الأغنياء... ٢/ ٥٤٤ح (١٤٢٥) عن ابن عباس.

وقوله له في الحديث الآخر في شأن القضاء، وقد رتبت فيه مصادر التشريع «كَيْفَ تَقْضي إذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ»؟ قَالَ أَقْضي بكتَاب الله. قَالَ: «فَإنْ لَمْ تَجدْ في كتَاب الله»؟ قَالَ فَبسُنَّة رَسُول اللَّه ﷺ. قَالَ: «فَإنْ لَمْ تَجدْ في سُنَّة رَسُول الله ﷺ وَلاَ في كتَاب الله»؟ قَالَ: أَجْتَهدُ رَأْيي وَلاَ آلُو[1].

بل إن مسيرة الدعوة والدولة الإسلامية كلها كانت على هذا النحو،فنجد أن مبدأ الدعوة الإسلامية كان الدعوة إلى التوحيد نبذ الشرك،حتى إذا استوعب الناس أمور العقيدة كانت الدعوة إلى شرائع الإسلام، كما أنه رتب المدعويين أيضاً على هذا النحو: فبدأ بعشيرته الأقربين، ثم بالقوم جميعاً من العرب، ثم بغير العرب من جميع أنحاء العالم، وكذا بدأ بالدعوة السرية قبل الدعوة الجهرية[2].

وحينما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة رتب أولويات بناء الدولة على هذا النحو: بناء المسجد، المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، تنظيم العلاقة مع اليهود عن طريق عقد المواطنة، فبدأ بها قبل غيرها من الأعمال. كما أنه اتجه أولاً إلى تصفية الكيان السياسي للمشركين في الجبهة الداخلية، حتى إذا أتم هذه المرحلة اتجه إلى تصفية الكيانات السياسية الكبرى في الجبهة الخارجية، فكانت حروبه مع إمبراطوريتي فارس والروم، وبهذا قامت الدعوة والدولة الإسلامية على أساس من مبدأ «ترتيب الأولويات»[3].

٣- وضع خطط عملية قابلة للتنفيذ: كي لا تتحول الأهداف إلى مجرد أحلام وأمنيات، فالخطة العملية تحدد الوسائل والأساليب العملية للوصول إلى الأهداف المحددة، وإلا فمجرد الهدف إذا لم يتبع بخطوات عملية وسعي دؤوب إلى

١- سنن الترمذي، كتاب: الأحكام، باب: ما جاء في القاضي كيف يقضي ٣/ ٦١٦ح (١٣٢٧) عن رجال من أصحاب معاذ، وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده عندي بمتصل.

٢- ينظر: الرحيق المختوم للمباركفوري ص ٨٨ وما بعدها.

٣- ينظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، مصدر سابق ص ١١٧-١٢٢، والرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقية المنصفة، مصدر سابق ص٢٨٥.

تحقيقه لا يحقق أي شيء. كما لابد أن تقسم الخطة بحسب الأهداف إلى: أهداف قريبة المدى - أو متوسطة المدى - أو بعيدة المدى. وإننا نشاهد اليوم كثيراً من الأفراد والجماعات بل والدول تضع أمام أعينها أهدافاً كبيرة تحتاج إلى جهود كبيرة وسعي متواصل، ثم إنها لا تتقدم من مكانها خطوة واحدة بسبب افتقادها لهذا المبدأ. ومما يشير إلى تأصيله قوله ﷺ لمن قال له: «يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لي في الإِسْلام قَوْلا لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»(١). فأردف القول بالعمل.

ومن نماذج الخطط العملية التي رسمها النبي ﷺ لأمته لتحقيق بعض الأهداف، قوله في تحقيق هدف العزة والاستغناء عن الناس: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ»(٢)، وقوله ﷺ في تحقيق هدف السلام الاجتماعي: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ: أَفْشُوا السَّلَام بَيْنَكُمْ»(٣)، وكذا قوله: «تَهَادَوْا تَحَابُّوا»(٤)، وقوله في حديث النعمان بن بشير في تحقيق هدف البر بالآباء عن طريق التسوية في العطاء: «أيسرُّكَ أن يكونوا لكَ في البرِّ سواء ؟ فلاَ إِذَنْ»(٥). وحياة النبي ﷺ كانت كلها تخطيطا عملياً، ولم تكن مجرد أماني أو أحلام مجردة، فمثلاً نجد أنه حينما أراد أن يهاجر بحثاً عن أرض جديدة للدعوة وضع خطة عملية محكمة، ولم

١- صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: جامع أوصاف الإسلام١ / ٤٧ح (١٦٨) عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

٢- صحيح البخاري،كتاب:الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة٢ / ٥٣٥ح (١٤٠١) عن أبي هريرة.

٣- صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون...١ / ٥٣ح (٢٠٣) عن أبي هريرة.

٤- الأدب المفرد للبخاري،باب:قبول الهدية ص٢٠٨ح (٥٩٤) وسنده جيد.قاله العراقي كما في الفيض٣ / ٣٥٧

٥- صحيح مسلم، كتاب: الهبات، باب: كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة٥ / ٦٦ح (٤٢٧٢) عن النعمان ابن بشير بهذا اللفظ، وأصله في البخاري.

ينتظر أن يهبط عليه ملك من السماء يحمله على جناحه مع أنه أحق الناس بذلك، وقل مثل هذا في جميع أمور حياته وسننه وأيامه[1].

٤- وضع خطط احتياطية بديلة لمواجهة الطوارئيء: وهو ما يسميه علماء التخطيط بـ «حماية الخطة». وهذا يعنى: أن يكون المخطط على وعي تام بما قد يطرأ على الخطة الأصلية من أمور محتملة وغير متوقعة؛ لذلك عليه أن يضع خطة للتعامل مع مثل هذه الأمور الطارئة. ومما يؤصل لتلك القاعدة قوله ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ»[2]، وقوله: «بَادِرُوا بالأعمال ستًّا»[3]، فلفت النظر إلى ما يمكن أن يطرأ على الإنسان من أمور تقتضي الاستعداد لها مسبقا،كالفقر والمرض والهرم وحتى علامات الساعة، ومن هذا القبيل سؤال حذيفة بن اليمان النبي ﷺ عن الشر مخافة أن يدركه، فيستعد له[4]، هو تأصيل للإعداد للطوارئ. ومما يؤكد ذلك عمليا من سيرة النبي ﷺ ما رأيناه في غزوة أحد حين أقعد الرماة على فم الشعب تحسباً لمجيء العدو منه، وقد كان ما حسبه لولا مخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ حين تركوا الشِّعْب سعياً وراء الغنائم[5].كما كان تخطيطه للهجرة من أبرز الأمثلة الواضحة على تقدير جميع الاحتمالات، ومراعاة جميع الفروض، ووضع الخطط المناسبة لكل ما يطرأ من أحداث ومستجدات[6]. وقد كان ذلك منه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ استجابة لتوجيه القرآن له في نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴾ (النساء: ٧١). فكان الحذر والترقب إحدى سمات التخطيط عنده، وكم هي كثيرة تلك المواقف التي كانت

١- ينظر: دراسة المستقبل، مدخل تأصيلي، مصدر سابق.

٢- سبق تخريجه.

٣- سبق تخريجه.

٤- ينظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة٣/ ١٣١٩ح (٣٤١١) عن حذيفة بن اليمان.

٥- ينظر: فقه السيرة للبوطي ص ١٩٥.

٦- ينظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، مصدر سابق ص ٩٠-١٠٠ وبصائر وعبر من سيرة خير البشر للدكتور صالح أحمد رضا ص ١٨٦-١٩٨.

تدعوه للحذر، فكان يحتاط لها ويضعها في حسابه[1].

المبحث الرابع: ضوابط التخطيط وأخلاقياتـه.

إن السُنة النبوية في إطلاقها العنان للطاقات الفكرية والإبداعية في التخطيط للمستقبل، لم تترك هذا الإطلاق دون أن تقيده بضوابط وأخلاقيات تحميه من الإفراط أو التفريط، شأنه في ذلك شأن كل صلاحية تعطى للإنسان، حتى يكون هناك توازن بين ما يمكن فعله، وما ينبغي أن يكون، وهذه الضوابط تتنوع: فمنها ضوابط إيمانية، وأخرى عملية، وثالثة شخصية.

فأما الضوابط الإ يمانية: فهي ضوابط تنبع من عقيدة المسلم وثقته بربه أنه لا يفعل به إلا خيراً،لاسيما وقد أخذ بالأسباب المشروعة والممكنة للوصول إلى أهداف نبيلة، وغايات جليلة يرضى عنها الله ورسوله،كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾(محمد: ٧) ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾(الأنبياء: ٩٤). وهذا النوع من الضوابط هو الخطوة الأولى في نجاح التخطيط، ومن بين تلك الضوابط:

- **التفاؤل وعدم التطير:** والمخطط أحوج ما يكون إلى هذا التفاؤل حتى يعمل بجد ونشاط، وقد حثنا النبي ﷺ على التفاؤل بقوله وفعله. فأما قوله فمنه: «لا عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ،وَيُعْجِبُنِي الفَأْلُ»، قالُوا: وَمَا الفَأْلُ؟ قَالَ: «كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ»[2]، وأما فعله عليه السلام فروى بُرَيْدَةُ عنه أنه كانَ لا يَتَطَيَّرُ[3]. والثابت من سيرته ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه رغم الأجواء التي كانت ملبدة بالغيوم من حوله إلا أنه كان متفائلاً بالمستقبل إلى أقصى حد، ولم تمنعه تلك الظروف الحوالك من السعي

١- هذا: وتتفاوت الأنظار في قواعد التخطيط ضيقاً واتساعاً وتعبيراً، إلا أننا اخترنا أكثرها إيجازاً وتركيزاً في هذا المبحث، ثم زدناها بسطاً وإيضاحاً في المبحث الآتي إن شاء الله تعالى.

٢- صحيح البخاري، كتاب: الطب، باب: لا عدوى٥ / ٢١٧٨ح (٥٤٤٠) عن أنس بن مالك.

٣- سنن أبي داود، كتاب: الطب، باب: في الطيرة٤ / ٢٧ح (٣٩٢٢) وصححه ابن حبان ١٣ / ١٤٢ ح (٥٨٢٧).

والتخطيط لمستقبل الإسلام والمسلمين، و أي مشهد من حياته ﷺ كافٍ لإدراك تلك الحقيقة! لقد رأيناه وقد حاصرته جيوش الأحزاب حول المدينة من فوقهم ومن أسفل من منهم، وهو يشارك أصحابه في حفر الخندق، ثم هو يبشرهم بكنوز كسرى وقيصر[1]! أي تفاؤل هذا الذي لا تشير إليه قرائن الأحوال ولا تدل عليه شواهد الأمور في ظاهر الأمر؟! إنه تفاؤل المسلم الواثق بربه مادام أنه يعمل له، ويجاهد في سبيله! إن المتشائم يعيش في ظلمات الإحباط واليأس، وليس لديه القدرة على رؤية شعاع النور في أفق المستقبل، أما المتفائل فهو أكثر أملاً وعملاً، لأنه يسعى إلى هدف يراه رغم الحجب الكثيفة!

– **الثقة في الله وحسن التوكل عليه**. إن التخطيط للهدف والأخذ بالأسباب ليس كافياً وحده للوصول إلى الهدف، ولا يعني في نظر المسلم أن يتجرد عن ملاحظة معونة الله ﷻ الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، فهو خالق الأسباب، ومقدر النتائج ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨). ومن ضوابط التخطيط وأخلاقياته ألا يثق المسلم إلا بربه، ولا يثق بأسبابه مهما كانت قوتها، وأن يفوض أمر النتائج إلى الله بعد تمام أخذه بالأسباب، وهذا أمر ليس إلا للمسلم، فغيره يتعامل مع الأسباب كأنها آلهة خالقة، تفعل و تنفعل لها الأشياء والأحداث، ثم تكون النتائج كثيرا على عكس المتوقع، وفي السُنة: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَلِ الله، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِن اجتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَم يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[2]. يعني: اقطع النظر عن ملاحظة الأسباب إلى رب الأرباب!

١- ينظر: مرويات غزوة الخندق لإبراهيم بن محمد المدخلي ص ٢٦٨ وما بعدها.

٢- سنن الترمذي، كتاب: صفة القيامة، باب: بلا ترجمة ٤ / ٦٦٧ح (٢٥١٦) عن ابن عباس.

وكم خططت الحكومات والدول لمواجهة الأزمات والكوارث، وأعلنت انتهاء زمن الكوارث، ووثقت في خططها وبرامجها، فما كان إلا أن زادت الكوارث والنكبات، وتفاقمت وتراكمت المشاكل والأزمات، وهذه هي الدول العظمى كم عانت وتعاني من مشكلات سياسية واجتماعية واقتصادية تفوق توقعها وتخطيطها المسبق المحكم، والأمثلة على ذلك فوق الحصر، ولعل آخرها الأزمة المالية العالمية التي اجتاحت الدول العظمى، وسَرَتْ عدواها إلى غيرها من الدول.

بل هناك مثال عملي في سيرة الرسول ﷺ يحكيه لنا القرآن في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (التوبة: ٢٥). والمثال العملي الأظهر الجامع بين التخطيط والتوكل على الله هجرته ﷺ التي كانت مثالاً رائعاً للتخطيط الدقيق والمحكم، الرافض لكل مظاهر الارتجال والعشوائية ابتداء من اختيار الرفيق، وخطة المبيت، ونقل الأخبار، والتمديد بالغذاء، وتعفية الآثار، ومخالفة الطريق المعتاد، وانتهاء بالتخطيط لإقامة دولة الإسلام في المدينة من خلال بناء المسجد، والمؤاخاة بين شرائح المجتمع المسلم، وعقد المواطنة مع غير المسلمين. كما كانت مثالاً عملياً على حسن التوكل على الله والثقة فيه سبحانه، وهذا يتجلى في قوله ـ عليه السلام ـ لسيدنا أبي بكر ، وقد خاف من وقوع أبصار المشركين عليهما وهما في الغار: «ما ظَنُّكَ باثنَيْنِ اللهُ ثالثُهُمَا»؟![1]، كما يتكرر الموقف ذاته في غزوة بدر، فنراه وقد أحكم خطة الحرب، وأعد لها تمام الإعداد، وأشار إلى مصارع القوم قبل بدء المعركة، نراه بعد كل هذا يبتهل إلى ربه أن ينجز له نصره الذي وعد حتى سقط رداؤه من على منكبه الشريف[2].

١- سبق تخريجه.

٢- ينظر: صحيح مسلم، كتاب: الجهاد، باب: الإمداد بالملائكة في غزوة بدر٥ / ١٥٦ح (٤٦٨٧) عن عمر.

لقد علمنا النبي ﷺ ألا نلاحظ أعمالنا ونحن نسعى إلى الهدف الأكبر، وإنما نلاحظ رحمة الله تعالى وفضله علينا، وذلك في قوله الشريف: «قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِه» قالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُول الله ؟ قَالَ: «وَلاَ أَنا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَني الله بِرَحمَةٍ مِنهُ وَفَضْلٍ»[1]. فأولى أن يكون هذا شعار المسلم وهو يخطط لدنياه!

وأما الضوابط الشخصية: فهي صفات معينة ينبغي أن يتصف بها المخطط، ووجودها ـ بالإضافة إلى الضوابط الإيمانية ـ يضاعف من احتمال النجاح بدرجة كبيرة، ومن بين هذه الضوابط:

– **الكياسة**: وفقه التخطيط يقتضي أن يكون المخطط رجلاً كيساً حكيماً، يضع الأشياء في مواضعها، ويعد لكل أمر عدته، ويقدر لكل ظرف ما يناسبه، وقد عّد النبي ﷺ الكياسة من فقه النظر إلى المستقبل في قوله: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بعدَ المَوتِ، والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواهَا وَتَمَنَّى عَلَى الله»[2].

ومما يؤصل لذلك من السيرة العملية للرسول ﷺ أنه في مسيرة التخطيط لمستقبل الدولة الإسلامية، لم يلجأ إلى الصدام المسلح طوال فترة إقامته بمكة، لأن الظرف لم يكن مواتياً آنذاك لقلة العَدد وضعف العُدد، و أيضاً لما هاجر إلى المدينة لم يبدأ اليهود بالصراع المسلح، وإنما عقد معهم موادعة حرصاً على سلامة الدولة الحديثة الناشئة، وتفادياً لخسائر الحروب، ولعدم وجود ما يستدعي الحرب آنئذ، فلما نقضوا العهد، وأعلنوا العداوة كان لابد من مواجهتهم وتطهير الجزيرة العربية من رجسهم، وكان وقت الهدنة كافياً لإعداد الجيش المسلم وتنظيمه وجعله في وضع الاستعداد للحرب. وكذلك إمساكه ﷺ عن قتل المنافقين مع

١- صحيح البخاري، كتاب: المرضى، باب: نهي تمني المريض الموت٥ / ٢١٤٧ح (٥٣٤٩) عن أبي هريرة.
٢- سنن الترمذي، كتاب: صفة القيامة، باب: بلا ترجمة ٤ / ٦٣٨ ح (٢٤٥٩) عن شداد بن أوس وقال: حديث حسن.

ظهور فتنتهم خشية أن يقال: «إِنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[١]، أيضاً خيار حكيم حتى يتألفهم في المستقبل على الدخول في الإسلام، أو على الأقل يضمن حيادهم، وحتى لا تكون هذه المقالة سبباً في نفرة الناس من قبول هذا الدين، ومن هذا القبيل تجفيف منابع العداء مع اليهود والمشركين عن طريق الزواج من بنت أحد زعمائهم وهي إحدى حكم تعدد أزواجه ﷺ[٢]؛ مما كان له أكبر الأثر في إسلام عدد كبير منهم، وما جرى أيضاً في صلح الحديبية مما رآه بعض الصحابة تنازلا، إلا أنه كان في الواقع نصرا كبيرا، وفتحا مبينا كما سماه القرآن[٣].

وهكذا يعلم الرسول ﷺ ساسة الدول وزعماء العالم فن التخطيط الاستراتيجي في معاملة الأعداء في الداخل والخارج! ولنضرب لذلك مثلاً من الواقع الدولي المعاصر: المناوشات المستمرة الآن بين إيران وأمريكا بسبب البرنامج النووي الإيراني، فإن أمريكا تقدم رجلاً وتؤخر أخرى نظراً لخطورة الموقف، حيث إن قرار الحرب في تلك الحالة قد يعرض الكون له لدمار شامل وكارثة عامة،لذلك تسعى أمريكا وحلفاؤها إلى المفاوضات السلمية تارة،والضغط الدولي تارة، والتلويح بالتهديد تارة أخرى،لاسيما مع تورطها أكثر من مرة في قرارات مصيرية خاطئة في الشرق الأوسط وغيره من المناطق.

– **نفاذ البصيرة:** وهي صفة تعنى أن يكون المتصف بها شفيف الروح، ثاقب

١- صحيح البخاري،كتاب: التفسير، باب: سورة المنافقون ٤ / ١٨٦١ح (٤٦٢٢) عن جابر.
ويعلق ابن العربي قائلا»هو إخبار عن وجه المصلحة في الإمساك عن قتلهم، لما يرجى من تأليف الكلمة بالعفو عنهم، والاستدراك لما فاتهم في المستقبل من أمرهم، توخيا لسوء الأحدوثة المنفرة من القبول للنبي ﷺ والإقبال عليه»عارضة الأحوذي١٢ / ١٤٥ومرويات غزوة بني المصطلق لإبراهيم قريبي ص ١٨٧.

٢- ينظر: الرسول ﷺ لسعيد حوى ص ١٤٩ ـ ١٥٥ والرسول ﷺ في الدراسات الاستشرافية ص ٣٤٢ ـ ٣٥٠.

٣- يقول د.الطيب النجار تعليقا علي قصة الحديبية: "وهذه الشروط التي تبدو في ظاهرها مجحفة بالمسلمين كانت موضع الرضا والقبول من رسول الله ﷺ ومن بعض أصحابه، وقد رأى رسول الله ﷺ فيها أساسا متينا يمكن أن يبني عليه المستقبل العظيم الذي يرجوه للإسلام عما قليل من الزمان». القول المبين في سيرة سيد المرسلين ﷺ ص٣١٧.

النظر، نافذ البصيرة، نقي السريرة حتى تنطبع الأشياء في مرآة قلبه، ويفيض لسانه بما انطبع فيه، ومن جملة ذلك أحداث المستقبل(١).

وعن تلك الصفة يقول النبي ﷺ: «لَقَدْ كَانَ فيما قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ في أُمَّتِي أحدٌ فإنَّهُ عُمَرُ»(٢). نعم، عمر بن الخطاب الذي كان يرى مستقبل الوضع الإسلامي كأنه يعاينه فإذا هو عند الله كما رآه ورجاه، وموافقاته من ذلك أشهر من أن تذكر «وما قَالَ لشْيءٍ أظُنهُ كَذا إلاَّ كانَ كمَا ظَنَّ»، وقال لرجل مرة: أظُنه كَاهناً، فكان كذلك!(٣)، وأخبر سيدنا أبو بكر بما في بطن زوجته من حمل، فكان كما أخبر!(٤)، ومن نفاذ البصيرة تكون الرؤيا الصالحة التي قال عنها النبي ﷺ إنها جزء من النبوة، وإنها من المبشرات(٥). قال العلماء: «وصفها بأنها جزء من النبوة لما كان فيها من الإنباء بما يكون في المستقبل على وجه يصح، ويكون من عند الله عز وجل»(٦). لقد انقطع الوحي، ولم يبق إلا تلك البصيرة النافذة، وإننا اليوم في حاجة إلى من يملك تلك البصيرة وهو يخطط لمستقبل الإسلام والمسلمين، حتى يكون حليفه التوفيق الإلهي!

- **الذكاء والقدرة على الإبداع والابتكار:** إن الذي يستشرف المستقبل فوق أنه رجل نافذ البصيرة فهو أيضاً يتسم بالذكاء والقدرة على الإبداع، الذي يمكنه من الوصول إلى الأهداف المنشودة بطرق غير مألوفة، فها هي الخطط المستقبلية بين أيدينا نلمس في آثارها مظاهر الذكاء والنبوغ والإبداع والابتكار لمخططيها، فالمخترعات الحديثة كلها قبل أن تظهر هي من إبداعات العقول الذكية غير العادية،

١- ولابد أن تخضع تلك البصيرة لبعض الضوابط التي يمكن على أساسها قبول ما جاءت به، ويمكن النظر هذه الضوابط في: الرسول ﷺ لسعيد حوى ص ٤٩-٥٠.

٢- صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر ٣/ ١٣٤٩ح (٣٤٨٦) عن أبي هريرة.

٣- صحيح البخاري، كتاب: فضائل الصحابة، باب: إسلام عمر ٣/ ١٤٠٣ح (٣٦٥٣) عن ابن عمر.

٤- ينظر: موطأ مالك (رواية يحي الليثي)، كتاب: الأقضية، باب: ما لا يجوز من النحل ٢/ ٧٥٢ح (١٤٣٨).

٥- صحيح البخاري، كتاب: التعبير، باب: المبشرات ٦/ ٢٥٦٤ح (٦٥٨٩) عن أبي هريرة.

٦- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطي ١/ ٢٣٧.

والسياسات المستقبلية العامة للدول المتقدمة تقف ورائها عقول ذكية غير تقليدية، ترسم الخطط والأهداف بدقة، وتتعامل مع جميع الفروض والاحتمالات بمقدرة فائقة.

ولعل هذا هو سر تخصيص القرآن (أولي الألباب) بالذكر في حديثه عن آيات الله في الأنفس والآفاق، وعن الإعداد للمستقبل الأخروي البعيد، وهو ما يشير إليه ما يروى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رُزِقَ لُبًّا»[1].

ومما يؤكد ذلك من السنة العملية مبتكرات أذكياء الصحابة رضي الله عنهم في حروبهم مع رسول الله ﷺ، ومن ذلك خطة الحُبَاب بن المنذر في موقع الجيش الإسلامي وتحطيم موارد العدو في غزوة بدر[2]، وخطة سلمان الفارسي بحفر الخندق في غزوة الأحزاب[3]، وخطة خالد بن الوليد في الانسحاب المنظم للجيش في غزوة مؤتة[4]، وخطة نعيم بن مسعود الأشجعي في خديعة الأحزاب والتي كانت من وسائل النصر للمسلمين[5]، وغير ذلك من المواقف المشهورة.

ومن النماذج العملية الحية تلك الخطة التي وضعها النبي ﷺ لإقلاع الشباب عن الفواحش، حين رسم لهم بذكاء بالغ صورة المستقبل السيء الذي ينتظرهم إن هم فعلوا تلك الجريمة، قائلاً لهم في شخص الشاب الذي جاء يستأذنه في الزنا: أَتَرْضَاهُ لِأُمِّكَ؟ وعدَّد محارمه، حتى قال: كذلكَ النَّاسُ لا يرضَوْنه لأمهاتهم[6].

١- شعب الإيمان للبيهقي، فصل: في فضل العقل...٤ / ١٥٩-١٦٠ح (٤٦٥٤)، وضعفه المناوي في الفيض٤ / ٦٦٦.

٢- ينظر: مستدرك الحاكم، كتاب: معرفة الصحابة، ذكر مناقب الحباب بن المنذر ٣ / ٤٨٢-٤٨٣.

٣- ينظر: مرويات غزوة الخندق لإبراهيم بن محمد المدخلي ص ١٣٣.

٤- ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٥ / ٢٢ وغزوة مؤتة لبريك بن محمد بريك ص ٣٤٦ وما بعدها.

٥- ينظر: مصنف عبد الرزاق، كتاب: المغازي، باب: وقعة الأحزاب وقريظة ٥ / ٣٦٧ح (٩٧٣٧) والسيرة النبوية لابن هشام ٤ / ١٨٨.

٦- مسند أحمد ٥ / ٢٥٦ح (٢٢٢٦٥). وقال الهيثمي في المجمع١ / ٣٤١:رجاله رجال الصحيح. «بتصرف».

لقد كان من الممكن أن يزجره النبي ﷺ ويخوفه بالنار أو غيرها من فنون الترهيب، لكنه ابتدع طريقة أخرى لتنفيره من تلك الجريمة، حيث بين له أن تلك الجريمة إنما تقع ببنت أو أم أو أخت لبعض الناس، وأنه من الممكن أن يكون مكانهم فماذا عساه أن يفعل ؟! وهنا اقتنع الشاب وانصرف وما شيء أبغض إليه من الزنا، بعد أن صاحبته بركة دعاء رسول الله صلي الله عليه وسلم!

– الصدق: وهو مفتاح كل خير، ووسيلة كل رشد، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «إنَّ الصِّدقَ يَهْدِي إلَى البرِّ، وإنَّ البر يَهدي إلَى الجَنَّة، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صدِّيقاً. وَإنَّ الكَذبَ يَهْدِي إلَى الفُجُور، وَإنَّ الفُجُورَ يَهدي إلَى النَّار، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ الله كَذَّاباً»[1]، ويقول أيضاً: «الصِّدقَ طُمَأنِينَةٌ، وَالكَذِبَ رِيبَةٌ»[2]. والمخطط رجل صادق، لذا فإن رؤاه المستقبلية لا تكذب ولا تتخلف في الغالب، «وأَصْدَقُ النَّاسِ رُؤْيا أَصْدَقهُمْ حَديثاً»[3]. والصدق يوصل إلى الأهداف النبيلة من أقرب طريق «مَنْ سَأَلَ الله تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ مَنازِلَ الشُّهَدَاء وَإنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشه»[4]، والمتجرد من الصدق لن يصل إلا إلى مستقبل مظلم «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى به وَجْهُ الله - عز وجل - لا يَتَعَلَّمُهُ إلاَّ لِيُصيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّة يَوْمَ القِيَامَةِ» يَعْنِي: رِيحَهَا[5]، «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ، وَمَنْ يُرائي يُرائِي الله بِهِ»[6].

١- صحيح البخاري،كتاب:الأدب، باب: قول الله تعالى»اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»...٥ / ٢٢٦١ح (٥٧٤٣).

٢- سنن الترمذي، كتاب: الزهد، باب: بلا ترجمة٤ / ٦٦٨ح (٢٥١٨) عن الحسن بن علي. وقال: حسن صحيح.

٣- صحيح مسلم، كتاب: الرؤيا، باب: بلا ترجمة ٧ / ٥٢ح (٦٠٤٢) عن أبي هريرة.

٤- صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: استحباب طلب الشهادة...٦ / ٤٨ح (٥٠٣٩) عن سهل بن حنيف.

٥- سنن أبي داود، كتاب: العلم، باب: في طلب العلم لغير الله ٣ / ٣٦١ ح (٣٦٦٦) عن أبي هريرة. وصححه الحاكم في المستدرك في:كتاب العلم ١ / ١٦٠ح (٢٨٨) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

٦- صحيح البخاري، كتاب: الرقاق، باب: الرياء والسمعة ٥ / ٢٣٨٣ح (٦١٣٤) عن جندب.

وأما الضوابط العملية: فهي تلك التي تصاحب عملية التخطيط والتنفيذ، وهي خطوات عملية متنوعة، تجعل احتمال النجاح أمرا أقرب إلى اليقين، لاسيما مع وجود الضوابط الإيمانية والشخصية،ومن تلك الضوابط:

- **الأخذ بالأسباب المشروعة والمتاحة**: أما المشروعة فلأن تخطيط المسلم لمستقبله وإن كان دنيوياً فلابد أن يرتكز على قاعدة الشريعة. ومبدأ «الغاية تبرر الوسيلة»لا يقره الإسلام إلا في بعض الظروف الخاصة والطارئة مثل الحرب التي قال النبيﷺ عن سياسة التخطيط لها: «الحَرْبُ خُدْعَةٌ»[1].وقد ذكر بعض العلماء أنه يمكن تعاطي ما يُحَصِّل الحل في المستقبل وإن كان ليس حلالا في الحال[2]. وهذا استثناء وليس قاعدة، والقاعدة تقول: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عليه أمرُنا فهُو رَدٌّ»[3]. وقد طبق النبي ﷺ مبدأ الاستثناء هذا في بعض خططه الحربية، ومواجهاته السياسية، كاستعانته بخديعة نعيم بن مسعود لإيقاع الفتنة في صفوف الأحزاب[4]، واستعانته بعبدالله بن أرقط وهو مشرك في طريق الهجرة[5]، كما دعا إلى تطبيقه أحياناً في قضايا السلام الاجتماعي مثل حديث الرجل وزوجته، والإصلاح بين المتخاصمين[6]، ويبقى الأصل أن ذلك أمر طارىء لا ينبغي اللجوء إليه إلا في أضيق الحدود عند تعذر الوسائل المشروعة، وقد قال ﷺ: «تَدَاوَوْا عِبَادَ اللهِ ولا تَدَاوَوْا بِحَرامٍ»[7]، وقال عن الخمر: «إِنَّها داءٌ وليسَتْ بِدَوَاءٍ»[8].

وهذه الأسباب المشروعة هي التي تميز التخطيط المستقبلي عند المسلمين عن

١- صحيح البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: الحرب خدعة٣/ ١١٠٢ح (٢٨٦٦) عن جابر.
٢- ينظر: فتح الباري ٩/ ١٥٠.
٣- صحيح مسلم، كتاب: الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة٥ / ١٣٢ح (٤٥٨٩) عن جابر بهذا اللفظ.
٤- انظر: مصنف عبدالرزاق، كتاب: المغازي، وقعة الأحزاب وبني قريظة٥ / ٣٦٧ح (٩٧٣٧) والسيرة لابن هشام ٤ / ١٨٨.
٥- ينظر: صحيح البخاري، كتاب: الإجارة، باب: استئجار المشركين عند الضرورة ٢ / ٧٩٠ح (٢١٤٤).
٦- ينظر:صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الكذب وبيان ما يباح منه ٨ / ٢٨ح (٦٧٩٣).
٧- سبق تخريجه.
٨- مسند أحمد ٤ / ٣١٧ ح (١٨٨٧٩) وصححه ابن حبان ١٣ / ٤٢٩ح (٦٠٦٥) عن وائل بن حُجْر.

غيرهم، فغيرهم لا يبالون في سبيل الوصول إلى أهدافهم أن تباد أمم وشعوب من على وجه الأرض، ولا يبالون بإلقاء ملايين الأطنان من الغذاء في المحيط مع انتشار المجاعات في العالم حتى، لا يتعرض اقتصادهم للكساد، ولا يبالون باللجوء إلى التصفية الجسدية، والاغتيالات السياسية، واستعمال الجنس والمخدرات والرشوة في سبيل الوصول إلى أهدافهم، وهذا أمر يناقض التخطيط الإسلامي تمام المناقضة.

وأما كون الأسباب متاحة فهذا من دلائل سعة التخطيط المستقبلي في الإسلام، حيث تتسم وسائل العمل للمستقبل بالمرونة وعدم التقيد بوسائل معينة، مادام ذلك كله في إطار القواعد الشرعية المرعية. وقد استعان النبي ﷺ بكل الوسائل المتاحة حتى ولو كانت منقولة عن غير المسلمين، كاستعانته بحفر الخندق نزولاً على مشورة سلمان، وهي وسيلة حربية منقولة عن المجوس عبدة النار، ولعل هذا مما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠). وهذا الضابط يدفعنا ـ نحن المسلمين ـ إلى ضرورة الأخذ بكل نافع ومفيد تستعمله الأمم والشعوب في تخطيطها للمستقبل، مع مراعاة أن يكون ذلك منسجماً مع قواعد الشريعة الإسلامية ومقاصدها، وذلك كأنظمتهم في الحفاظ على الصحة والبيئة، والتكافل الاجتماعي، وقواعد الأمن والسلامة، وبناء المدن، والجيوش، والمصانع، ووسائل التعليم إلى آخره.

ومما يجمع الأمرين معاً (المشروعية والمتاحة) قولهﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُوداً فَلاَ تَعْتَدُوهَا، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلاَ تَبْحَثُوا عَنْهَا»[1]. فهذا القسم المسكوت عنه هو في دائرة المتاح المباح قطعاً حيث لم ترد النصوص الشرعية بمنعه.

---

١ - مستدرك الحاكم، كتاب: الأطعمة ٤ / ١٢٩ عن أبي ثعلبة الخشني وسكت عنه الذهبي، وحسنه النووي في الأربعين، وينظر: جامع العلوم لابن رجب ص٢٧٦.

وأما الوسائل المنهي عنها شرعاً، كالظن المجرد عن القرائن، و اتباع العورات، والتجسس، وإتيان الكهنة والعرافين والمنجمين والخطاطين...فهذه الوسائل وأشباهها ليست وسائل شرعية لاستشراف المستقبل والتخطيط له، حيث إنها تتنافى مع العقيدة الإسلامية من جانب، كما تتنافى مع السلوك الإسلامي من جانب آخر، وقد حذرت السنة النبوية منها أشد التحذير[1].

– **حفظ الأسرار**: وهو من أهم ضوابط التخطيط وأكثرها احتياجاً إلى المراعاة، فإن انكشاف أسرار التخطيط له آثاره السلبية الخطيرة على مسيرة الخطة. وإننا لنلمح في هديه ﷺ مدى حرصه على سرية الخطط لاسيما في أوقات الصدام السياسي والعسكري بين الدول، ومن شواهد ذلك عملياً ما وقع من بعض الصحابة والنبي ﷺ يجهز لفتح مكة حين حاول حاطب بن أبي بلتعة أن يخبر أهل مكة بذلك – وكان له عذره – فبعث برسالة مع إحدى الظُّعُن، فأعلم الله رسوله ﷺ بذلك، فبعث في أثرها عليا والمقداد، فأخذا منها الرسالة قبل أن تصل بها[2]. هذا: وإن إطلاق المؤرخين على فترة الدعوة المكية ما يسمى بمرحلة الدعوة السرية أمر لا يخلو من مغزىً على ما نقول، وكان من هديه ﷺ أنه «إذا أَرَادَ غَزْوَةً ورَّى

١- من ذلك قوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيث، ولا تحسَّسوا وَلاَ تَجَسَّسُوا». رواه البخاري في: الأدب، باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابر ٥ / ٢٢٣٥ح (٥٧١٧). وقوله: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ سَحَرَ، وَلا سُحِرَ لَهُ، وَلاَ تَطَيَّرَ، وَلاَ تُطِيِّرَ لَهُ، وَلاَ تكَهَّنَ، وَلاَ تُكُهِّنَ لَهُ». رواه البزار، قال الهيثمي في المجمع ٥ / ٢٠١: «رجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة». وقوله: «مَن اقْتَبَسَ علماً مِنَ النُّجُوم، اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ ما زَادَ»، رواه أبوداود في: الطب، باب: في النجوم ٤ / ٢٢ح (٣٩٠٧) بإسناد حسن. وقوله: «العيَافَةُ، وَالطِيَرَةُ، والطَّرْقُ، مِنَ الجِبْت» رواه أبوداود ٣٩٠٩ في: الطب، باب: في الخط وزجر الطير ٤ / ٢٣ح (٣٩٠٩)، وصححه ابن حبان ١٣ / ٥٠٢ح (٦١٣١). وقوله: «مَنْ أَتَى عَرَّافا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُول فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّد ﷺ»، رواه أحمد ٩٥٣٢ في مسنده ٤ / ٦٨ح (١٦٦٨٩) بسند صحيح. والعجيب أن هذا النوع من الوسائل منتشر بصورة كبيرة في أوساط من يزعمون أنهم أرباب العلم، وآلهة الحضارة، وصناع النهضة حتى قيل: إنه من لوازم البيت الأبيض!! وينظر للمزيد عن الوسائل المشروعة وغير المشروعة في التخطيط للمستقبل: مقال بعنوان «المسلمون ودراسات المستقبل» بتاريخ ١٧ / ١٢ / ٢٠٠٩م، موقع «الشيخ الدكتور سفر الحوالي» على الرابط:
http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.showcontent&contentID=633

٢- ينظر: صحيح البخاري، كتاب: الجهاد، باب: الجاسوس ٣ / ١٠٥٩ح (٢٨٤٥) عن علي.

بِغَيْرِهَا»[1] حرصاً منه على السرية والكتمان.

وثمة مثال عملي آخر في الجانب الاجتماعي: حينما تأيمت السيدة حفصة بنت سيدنا عمر عرضها أبوها على عثمان فلم يقبل بعد تفكر، ثم عرضها على أبي بكر فصمت ولم يرد، فغضب عمر منه أكثر من غضبه من عثمان، ثم خطبها النبي ﷺ، فلقي أبوبكر عمر فقال: «لعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِيْنَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ شَيْئاً ؟ فقلتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْك فِيمَا عَرَضْتَ عَلَيَّ إِلاَّ أَنِّي كُنْتُ عَلِمْتُ أَنَّ النبيَّ ﷺ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لأُفْشِيَ سِرَّ رسول الله ﷺ، وَلَوْ تَرَكَهَا النَّبِيُّ ﷺ لَقَبِلْتُهَا»[2].

إن هذا النموذج العملي يكشف لنا السر وراء إفشال كثير من المشاريع المستقبلية على المستوى الفردي والجماعي بل على المستوى الدولي، بسبب تسريب الأنباء وعدم الالتزام بمبدأ الكتمان. ومما اشتهر على الألسنة «اسْتَعِينُوا علَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بالكِتْمَانِ»[3]. وخذ مثلاً على ذلك: حينما زلَّ لسان الرئيس الأمريكي الغابر جورج بوش، وأعلن أنه يخوض حرباً صليبية جديدة باسم الرب، كيف كان مردود هذا التصريح الخطير على مستوى العالم الإسلامي وغيره، مما اضطر بوش إلى الاعتذار! وحينما تسربت أسرار البرنامج النووي الإيراني كيف وقع الصدام بين أمريكا وأوربا من جانب، وإيران من جانب آخر، وأثر هذا جذرياً في مجريات الأحداث في العالم بأسره!

– **الاختيار المناسب**: سواء كان هذا الاختيار للشخص أو للزمان أو للمكان، فإن كثيراً من الخطط لا تنجح بسبب سوء الاختيار في هذه الأمور الثلاث، وواقع

١- صحيح البخاري، كتاب: الجهاد، باب: من أراد غزوة فورى بغيرها٣/ ١٠٧٨ح (٢٧٨٧).
٢- صحيح البخاري، كتاب: المغازي، باب: شهود الملائكة بدرا٤/ ١٤٧١ح (٣٧٨٣) عن ابن عمر.
٣- المعجم الكبير للطبراني٢٠/ ٩٤ ح (١٨٣) وشعب الإيمان للبيهقي٥/ ٢٧٧ ح (٦٦٥٥) عن معاذ بن جبل وفيه كلام كثير في تضعيفه ينظر في: فيض القدير للمناوي١/ ٦٣٠ لكن معناه صحيح، تشهد له الأصول.

بعض الحكومات التي تسيء اختيار موظفيها، أو الزمان أو المكان في مشروعات التخطيط والتنمية خير دليل على أهمية حسن الاختيار في عمليات التخطيط.

ولقد أكد النبي ﷺ على هذا الضابط - حسن الاختيار - بقوله وفعله فقال: «مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنْ عِصَابَةٍ وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مِنْ هُوَ أَرْضَى للهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللهَ وَخَانَ رَسُولَهُ وَخَانَ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ»[1]، وقال لأبي ذر: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفاً، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي. لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»[2]. كما حرص النبي ﷺ على أن يختار الرجل المناسب في المكان المناسب والزمان المناسب، مقدراً أسباب هذا الاختيار. ألم تر إلى اختياره لعناصر التخطيط للهجرة: ففدائيه ابن عمه وربيبه وهو أولى الناس بفدائه، ورفيقه صديق عمره وحبيب قلبه، ودليله رجل خِرِّيت، ماهر بالطريق، مأمون الجانب...!

وأما حسن اختياره للمكان فيتضح من أسباب اختياره للأراضي التي تمت الهجرة إليها، ومن اختياره للمواقع الحربية مثلما حدث في موقعة غزوة بدر. وأما حسن اختياره للزمان فيتجلى في المراحل المختلفة التي مرت بها الدعوة والدولة الإسلامية من حيث الإسرار بها في مرحلة لا يناسبها الإعلان، ثم الإعلان بها في مرحلة مواتية للإعلان، وكل مرحلة لها ظروفها وتقديراتها الخاصة، ومن حيث التزام السلم في مرحلة، وممارسة الحرب في مرحلة زمنية أخرى، بحسب ظروف وطبيعة كل مرحلة.

ومن القصص المعبرة عن هذا ما تقرؤه في قصة إسلام عمرو بن عبسة، فقد لقي النبي ﷺ في أول أمره بمكة، فأسلم وأراد أن يظهر إسلامه، فأرشده النبي ﷺ إلى تأجيل إعلان إسلامه حتى يظهر أمر الرسول ﷺ ويعلو شأنه فقال له - كما

١- مستدرك الحاكم، كتاب: الأحكام ٤ / ١٠٤ح (٧٠٢٣) عن ابن عباس وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

٢- صحيح مسلم، كتاب: الإمارة، باب: كراهة الإمارة بغير ضرورة٦ / ٧ح (٤٨٢٤) عن أبي ذر.

روى مسلم ـ: «إِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا أَلاَ تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ وَلَكِنِ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي» فأسلم بعد هجرة النبي ﷺ إلي المدينة[1]. يعني: أخر إعلان إسلامه بعد كتمانه. فالنبي ﷺ قد أرشده إلى تأخير إعلان الإسلام من باب السياسة الشرعية والأخذ بالأسباب، وأبعده بذلك عن مظانِّ الخطر، وادخره للمستقبل!

– **عدم تعجل النتائج**: إن التخطيط للأمور العظيمة يحتاج إلى صبر عظيم، والمخطط الجيد هو الذي يترقب النتائج بصبر وأناة، لما قد تسببه العجلة من إفشال الخطة وضياع الثمرة. وها هي كتيبة الرماة في غزوة أحد حينما رأوا الجولة الأولى لأصحابهم من المسلمين في أول الأمر تعجلوا نتيجة المعركة فتركوا أماكنهم، وهموا بأخذ الغنائم، فتغيرت دفة الصراع وصارت الجولة للمشركين.

إن بعض شباب الصحوة الإسلامية اليوم وهو يسعى إلى إقامة الدولة الإسلامية يعطلون هذا المبدأ أو يغفلون عنه، فتراهم يجاوزون كثيراً من المراحل إلى غيرها في عجلة من أمرهم ـ فيما يسمى بحرق المراحل ـ فتكون النتيجة المرة، اصطدامهم بأنظمة الحكم الفاسدة في الداخل، واستعداؤهم لجيوش الكفر في الخارج، فيرجعون إلى الوراء مئات المراحل في مقابل بضع مراحل تجاوزوها إلى غيرها، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى فقال: «وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِه، ولكنكم تَسْتَعجِلُونَ»[2]، كما قال ﷺ: «يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ: يَقُولُ: قَدْ دَعَوتُ رَبِّي، فَلَمْ يسْتَجب لي»[3]، فشرط الإجابة بعدم التعجل، فتأمل! ويكفي أن تعرف أن النبي ﷺ ظل في مكة ثلاث عشرة سنة ليخرج منها بنفر قليل ممن

١- صحيح مسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: إسلام عمرو بن عبسة ٢ / ٢٠٨ح (١٩٦٧) عن أبي أمامة.
٢- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة٣ / ١٣٢٢ح (٣٤١٦) عن خباب.
٣- صحيح البخاري، كتاب: الدعوات، باب: يستجاب للعبد ما لم يعجل٥ / ٢٣٣٥ح (٥٩٨١) عن أبي هريرة.

آمن معه دون أن يسعى إلى قلب نظام أو إحداث ثورة عسكرية في مغامرة غير محسوبة ولا متكافئة، قد تقضي على الأمة الإسلامية في مهدها!.

- **العمل الجماعي وتوزيع الأدوار**: فليس من شك أن العمل الجماعي المنظم تكون نتائجه أفضل بكثير من العمل الفردي العشوائي، كما أنه يصاحبه التوفيق الإلهي في الغالب، وهو أمر أكدته السُنة النبوية القولية والفعلية حيث يقول الرسول الكريم ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَة، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الغَنَم القَاصِيَة»[١]، كما أكد عليه قوله: «لا تَجْتَمِعُ أُمتي علَى ضَلالَةٍ»[٢]، وقوله: «يَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ»[٣]. وأما الجانب العملي لهذا الضابط فلا يكاد يخلو منه موقف من مواقف حياة الرسول ﷺ، فقد كان يحرص بصورة دائمة على العمل الجماعي، ويقوم بتوزيع أدواره على حسب الاستعدادات والمواهب الشخصية، ويتضح ذلك جلياً في خطة الهجرة، والعناصر التي تم اختيارها للقيام بالمهام التي كلفت بها على حسب طبيعتها ومواهبها كما أشرنا إليه غير مرة[٤].

ومن قواعد العمل الجماعي: الشورى، وقد كانت ملاذ النبي ﷺ فيما لم ينزل عليه فيه وحي مع أنه أشد خلق الله ذكاء وعبقرية، ولو كان أحد يستغني بعقله لكان أولى الناس بذلك رسول الله ﷺ لكنه كان يشاور أصحابه رضي الله عنهم وربما أخذ بآراء بعضهم تعليما لمن يستبدُّون بآرائهم، فيورطون أممهم وشعوبهم ويوردونهم موارد الهلكة، ومشاوراته ﷺ لا تنحصر، بل كان يطلبها من أصحابه صراحة قائلاً «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ»![٥].

١- سنن أبي داود، كتاب: الصلاة، باب: التشديد في ترك الجماعة ١ / ٢١٤ح (٥٤٧) عن أبي الدرداء وصححه الحاكم في المستدرك، كتاب: الإمامة ١ / ٣٣٠ح (٧٦٢) ووافقه الذهبي.

٢- سنن الترمذي، كتاب: الفتن، باب: لزوم السنة ٤ / ٤٦٦ ح (٢١٦٧)، وقال: غريب من هذا الوجه. والحديث حسن بشواهده.

٣- سنن الترمذي، كتاب: الفتن، باب:لزوم السنة ٤ / ٤٦٦ح (٢١٦٦)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

٤- ينظرمثلا خطته في اختيارالسفراء في: سفراء النبي ﷺ للواء الركن محمود شيت خطاب ص ٢٥٢-٣١٦.

٥- السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ١٦٢ وأصله في الصحيحين.

- **ضرورة وجود القائد والاستجابة لتوجيهاته**: إن العمل الجماعي لا يصلح إلا في ظل قيادة رشيدة تنظم العمل، وتوزع أدواره، وتحدد مهامه، يجتمع الكل حولها، ويستجيب لتوجيهاتها، ولابد لهذا القائد أن يكون من أفضل العناصر، وأن يتمتع بسمات القيادة علي النحو الذي أشرنا إليه في حسن الاختيار. وقد دعا النبي ﷺ إلى الأخذ بمبدأ القيادة قولاً وعملاً،فمن ذلك قوله: «إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ في سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»[١]، كما أمر بطاعة القائد مادام يقيم حدود الله حتى لا تتمزق وحدة الأمة، وتذهب ريحها في خضم الاختلاف والتفرق[٢]. وتضرب لنا السيرة النبوية مثلاً ظاهراً في شؤم مخالفة توجيهات القيادة في غزوة أحد، حيث خالف الرماة أمر الرسول ﷺ، وتركوا أماكنهم التي أمروا بالبقاء فيها تحت أي ظرف، وعدم مغادرتها لأي سبب من الأسباب، مما تسبب في إرباك الخطة، وتحويل دفة المعركة لصالح المشركين كما أشرنا غير مرة.

- **دراسة الواقع**: وهو من الضوابط التي تضع العلامات الهادية أمام قادة التخطيط، وتساعدهم على اتخاذ القرار في ضوء هذه الدراسة. ومن الأحاديث المؤكدة لهذا المبدأ ما دعا إليه النبي ﷺ قادة الجيوش من إلغاء قرار الحرب إذا سمعوا شعائر الإسلام في البلد التي يتوجهون إلى فتحها، ومن تخييرهم بين قرارات ثلاث بناء على خيارات ثلاث: إلغاء الحرب بناء على الإسلام، الجزية بناء على الكفر، الحرب عند رفض الخيارين[٣]. وحديث إسلام عمرو بن عبسة الذي ذكرناه آنفاً يؤكد على إرساء هذا المبدأ، حيث أرشده النبي ﷺ أن يرجئ قرار إعلان الإسلام حتى يظهر أمر الرسول ﷺ بناء على قراءته للواقع الذي تمر به الدعوة الإسلامية آنذاك، والذي لا يسمح بمثل هذا الصدام الظاهر المعلن. ولقد

١- سنن أبي داود، كتاب: الجهاد، باب: في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم ٢ / ٣٤٠ح (٢٦١٠) عن أبي سعيد وصححه الألباني في صحيح أبي داود٧ / ٣٦٣.
٢- ينظر: صحيح البخاري، كتاب: الفتن، باب: قول النبي ﷺ «سترون بعدي أمورا تنكرونها...» ٦ / ٢٥٨٧.
٣- ينظر:سنن الترمذي،كتاب:السير، باب:وصية النبي ﷺ في القتال٤ / ١٦٢ح (١٦١٧) وقال: حسن صحيح.

كانت معظم قرارات النبي ﷺ صادرة عن دراسة واعية للواقع من حوله، ورصد كل المعلومات التي تدعم عملية اتخاذ القرار، فاختياراته السياسية، وضرباته العسكرية الموفقة هي إحدى ثمرات العمل بهذا المبدأ!.

– الاستفادة من الخبرات والتجارت السابقة[1]: وهو ضابط متمم للذي قبله، ومما يساعد فى تحسين اتخاذ القرار، والمراد به: النظر في الظروف المشابهة وما تمخض عنها من أحداث ونتائج، والاستفادة من ذلك في المستقبل. وقد دعا النبي ﷺ إلى هذا المبدأ في التخطيط للأمن المجتمعي في نحو قوله: «اتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دمَاءهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»[2]، وقوله: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَة سُؤالِهِمْ، وَاخْتلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَن شَيْءٍ فَدَعُوهُ»[3]. كما دعا فى صورة موجزة جرت مجرى المثل في قوله الشريف: «لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ»[4]. ومن التجارب العملية في السيرة النبوية السياق الذي ضرب فيه النبي ﷺ هذا المثل، فقد كان رجل من المشركين يهجوه فأسره النبي ﷺ، فاعتذر إلى النبي ﷺ بأن يطلق سراحه من أجل بناته، ووعده بعدم العود إلى مثلها، فأطلق سراحه ومن عليه، ثم عاود الرجل الكرَّة فأسره النبي ﷺ، فأراد أن يعتذر، فلم يقبل منه بناء على التجربة السابقة التي أدت إلى هذا القرار بالاعتقال.

ولقد كان النبي ﷺ حريصاً على أن يستذكر تجارب إخوانه من الأنبياء عليهم السلام، ويستفيد منها، فهو القائل حيث أوذي في قسمة الغنائم: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى

١– ويسميها البعض "ذاكرة التاريخ" ينظر: مقال بعنوان "الذاكرة التاريخية والتخطيط للمستقبل" للسيد ياسين، منشور بجريدة الاتحاد الإماراتية، عدد الخميس ١٨ ربيع الأول ١٤٣١هـ الموافق ٤ مارس ٢٠١٠م.

٢– سبق تخريجه.

٣– سبق تخريجه.

٤– صحيح البخاري، كتاب: الأدب، باب: لا يلدغ المؤمن... ٥ / ٢٢٧١ح (٥٧٨٢) عن أبي هريرة.

قَدْ أُوذِيَ بأكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبر»[1]. وفي مراجعة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ له ﷺ ليلة الإسراء، وتذكيره بتجربته مع بني إسرائيل، ودعوته إلى الاستفادة منها[2]، خير دليل على أهمية رعاية هذا المبدأ. ولعل هذا هو السر في كثرة القصص القرآني والنبوي، ودعوة القرآن ﷺ إلى اقتفاء أثر إخوانه من الأنبياء السابقين في نحو قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾(الأنعام: ٩٠).

وليت الحكومات العشوائية التي غدَتْ نكبة على بلادها أن تتعلم من أخطائها التخطيطية حتى لا تهدر الأموال العامة للدولة في مشاريع فاشلة، وصفقات خاسرة، وحوادث مروعة!!.

١- صحيح البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى ٣ / ١٢٤٩ح (٣٢٢٤) عن ابن مسعود.
٢- ينظر: صحيح البخاري، كتاب: الصلاة، باب: كيف فرضت الصلاة ١ / ١٣٥ح (٣٤٢) عن أبي ذر.

الخاتمة:

وفيها أهم النتائج والتوصيات:

أولا: أهم النتائج:

١- مفهوم المستقبل في السنة النبوية أكثر اتساعاً وأعمق في الدلالة منه في غيرها حيث إنه لا نهاية له ولا حدود، فهو يمتد ليشمل الحياتين الأولى والآخرة، فحياة المسلم لا تنتهي بالموت كما هو التصور المادي للحياة، وتخطيطه للمستقبل ينطلق من هذا المفهوم، ونصوص الشريعة المطهرة تؤكد هذا في دعوتها للعمل للحياتين معاً.

٢- النظر إلى المستقبل ركيزة أساسية من ركائز الدعوة والدولة الإسلامية، يدل على ذلك سيرة النبي ﷺ وسيرة أصحابه الكرام رضي الله عنهم، فقد كان تطلع النبي ﷺ دائماً نحو المستقبل حتى في أحلك الظروف والمواقف، وقد غرس هذا في نفوس أصحابه رضوان الله عليهم فبدا ذلك واضحاً في حياتهم العملية.

٣- السنة النبوية في جل نصوصها دعوة صريحة أو ضمنية للعمل للمستقبل، حتى في نصوصها التي تحدثت عن أخبار السابقين حيث إنها جاءت بأوامر ونواه، وانطوت على ترغيب وترهيب، من أجل تحقيق الهداية والسعادة للبشرية في الحياتين الأولي والآخرة، وهذا يتطلب إعداداً للوصول إلى تلك الغاية المستقبلية، وهذا الإعداد هو حقيقة التخطيط للمستقبل .

٤- فقه التخطيط للمستقبل مبدأ أصيل من مبادئ العمل الإسلامي، وهو «محاولة التعرف على صورة المستقبل، والمشاركة في صياغتها بناء على تصور سابق محفوف بالقرائن، ومقدمات تؤدي إلى نتائج معينة في الغالب». وتسميته

بالفقه أولى من غيرها من التسميات كعلم المستقبل، واستشراف المستقبل، والتنبؤ بالمستقبل، لما يشوبها من اعتراضات ومحاذير شرعية من وجهة نظر بعض العلماء.

٥- يعتمد التخطيط المستقبلي على عدة قواعد رئيسة من أهمها: تحديد الأهداف والغايات، والموازنة والترتيب بين الأولويات، وصياغة خطة عملية قابلة للتنفيذ، ووضع خطة احتياطية بديلة لمواجهة الطوارئ. وهذه القواعد التخطيطية كلها مستفادة من منهج الرسول الكريم ﷺ.

٦- التخطيط للمستقبل - في نظر السُنة - ينبغي أن يكون في حدود الممكنات دون المستحيلات والواجبات، وتلك خاصية أصيلة تميز التخطيط الإسلامي عن غيره، وكلمة «الممكن» هنا تعني كل ما يقع في دائرة القدرة البشرية، فليس هناك خطوط حمراء، ما دام ذلك في حدود المسموح به شرعاً، وهدي السُنة النبوية في ذلك من أعظم الهدي وأنفعه. ومنهج النبي ﷺ في التخطيط للمستقبل البيئي من خير الأمثلة على ذلك.

٧- ثمة أسباب تدعو بعض الناس إلى ترك التخطيط والعمل للمستقبل لا علاقة لها بموقف الإسلام من قريب أو بعيد، وإنما هي أسباب شخصية، ومفاهيم ذاتية: كالانغلاق والتقوقع، وعدم الوعي بقضية التغير، وعدم الشعور بالمسؤولية، وغياب الأهداف، والمفاهيم الدينية الخاطئة كالزعم بأن التخطيط مناقض للتوكل، أو للرضا بالقضاء، أو لطول الأمل... وهذه كلها أسباب واهية تدفعها السنة القولية والعملية للرسول ﷺ.

٨- إن السُنة النبوية في إطلاقها العنان للطاقات الفكرية والإبداعية في التخطيط للمستقبل لم تترك هذا الإطلاق دون أن تقيده بضوابط وأخلاقيات تحميه من الانفلات والشطط، شأنه في ذلك شأن كل صلاحية تعطى للإنسان، حتى

يكون هناك توازن بين ما يمكن فعله، وما ينبغي أن يكون. وهو بهذا يختلف كثيراً عن التخطيط المستقبلي في النظم الوضعية التي لا تستند إلى مثل تلك الضوابط والأخلاقيات الصادرة عن الوحي المعصوم. ومن تلك الضوابط والأخلاقيات: المرونة في استخدام الوسائل شرط كونها مشروعة، ودراسة الواقع، والاستفادة بالتجارب والخبرات السابقة والمشابهة، والقدرة على الإبداع والابتكار، والكياسة والحكمة والصدق ونفاذ البصيرة، والعمل الجماعي، والتفاؤل، والثقة بالله وحده مع تمام الأخذ بالأسباب.

ثانيا: أهم التوصيات:

١- المزيد من الدراسات والأبحاث حول هذا الموضوع، والموضوعات المماثلة التي من شأنها أن تكشف عن عظمة المنهج الإسلامي، وصلاحيته لكل زمان ومكان، وترد دعاوى العلمانيين والملاحدة في وجوههم في زعمهم قصور الشريعة الإسلامية عن معالجة القضايا المستجدة.

٢- تغذية المؤسسات الحكومية، ومنظمات المجتمع المدني في الدول الإسلامية بنتائج مثل هذه الأبحاث التي من شأنها المساهمة في تنمية المجتمعات والنهوض بها على هدي الإسلام، بديلاً عن الحلول المستوردة التي جنت على أمتنا.

٣- الدعوة إلى إنشاء وتفعيل ما يمكن تسميته بـ «لجنة التخطيط المستقبلي وإدارة الأزمات» في كل مؤسسة حكومية أو خاصة، وتزويدها بالنماذج العملية الحية من سيرة النبي المعصوم ﷺ وسيرة السلف الصالح رضي الله عنهم، ويراعى في اختيار أعضاء تلك اللجنة ونظام عملها الشروط والأحكام الإسلامية الواردة في تلك الدراسة.

٤- إنشاء معاهد ومراكز متخصصة في «الدراسات المستقبلية» أسوة ببعض الدول الغربية، بل وتزويد مناهج التعليم بمقررات دراسية في هذا المجال وفق الرؤية الإسلامية، وقد نحت بالفعل بعض الجامعات الإسلامية هذا المنحى على نحو ما أشرنا إليه في المقدمة، ولا مانع من الاستفادة بخبرات الغرب في هذا الصدد، حيث اعتنى الغربيون بدراسة المستقبل عناية واضحة، وبلغ عدد المؤسسات المهتمة بالدراسات المستقبلية في الولايات المتحدة وحدها ستمائة مؤسسة في عام ١٩٧٦م، بل وصلت العناية بها وتقدير أهميتها إلى وضع مناهج لها ضمن المناهج الدراسية في المدارس والجامعات والمعاهد، وأصبحت الدراسات المستقبلية تصل إلى (٤١٥) مقررا دراسياً موزعا على ثمان عشرة ولاية أمريكية، وانفردت السويد بإنشاء وزارة للمستقبل تابعة لرئاسة الوزراء عام ١٩٧٣م[١].

٥- توجيه النظر إلى الكشف عن كنوز السّنة النبوية المكنونة، وإثارة الفكر في استخراجها وتجليتها وعرضها بأسلوب علمي شائق، يناسب حال المعاصرين الذين لا يفهمون إلا لغة عصرهم، وهذا واجب العلماء والمفكرين في كل عصر ومصر، ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم: ٤).

وبعد: فهذا آخر ما يسر الله لي في هذا البحث، وقد حاولت أن أقدِّم رؤية إسلامية خالصة عن منهج السنة في التخطيط للمستقبل، بعيداً عن الإغراق في الكتابات العصرية المتخصصة في هذا المجال، مع الاعتراف بالاستئناس بها أحياناً في مرحلة لاحقة على التأصيل الشرعي كنوع من الدعم والتأكيد.

١- ينظر: الدراسات المستقبلية – الإشكاليات والآفاق -، مقال للأستاذة / عواطف عبد الرحمن، مجلة عالم الفكر ص ١٣، العدد (٤) لسنة ١٩٨٨م.

مصادر البحث

أولا:

- القرآن الكريم.

ثانيا: الكتب والبحوث:

- الآحاد والمثاني، لابن أبي عاصم، تحقيق: د.باسم فيصل الجوابرة، ط١، دار الراية، الرياض، ١٤١١ هـ.
- إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، تحقيق: مصطفي شيخ مصطفي، ومدثر سندس، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- إدارة الأزمات، نعيم إبراهيم الظاهر، عالم الكتب الحديث، عمان، ٢٠٠٩م.
- الأدب المفرد، للبخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط٣ ، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، للتجاني عبدالقادر حامد، ط١، دار البشير، عمان ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- أضواء البيان في تفسير القرآن، للشنقيطي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أمثال الحديث، للرامهرمزي، تحقيق: أحمد عبد الغفار، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٩هـ.
- إنجيل متى، كنيسة الأنبا تكلا هيمانوف، الإسكندرية، مصر.
- بصائر وعبر من سيرة خير البشر، صالح أحمد رضا، النشر العلمي بجامعة

الشارقة، ٢٠٠٦م.

- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، ط دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.

- تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في كتاب الكشاف، للزيلعي، تحقيق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد، ط١، دار ابن خزيمة، الرياض، ١٤١٤هـ.

- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، للسيوطي، ط المكتبة التجارية، مصر، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

- جامع الأصول لابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، الأولى، ط دار البيان والفكر وأخرى.

- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٤١١هـ.

- الرحيق المختوم، للمبارك فوري، ط١، مكتبة الفجر، دمشق، نشر مكتبة دار السلام، ١٤١٨هـ.

- الرسول ﷺ، لسعيد حوى، ط٢، دار السلام، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- الرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقية المنصفة، محمد شريف الشيباني، ط دار الحضارة العربية، بيروت.

- زاد المعاد في هدى خير العباد، لابن القيم، ط ٢٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

- سفراء النبي ﷺ، للواء الركن محمود شيت خطاب، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

- السلسلة الصحيحة، للألباني، ط مكتبة المعارف، الرياض.
- سنن أبي داود، ط دار الكتاب العربي، بيروت.
- سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرين، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبوغدة، ط٢، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٤٠٦هـ.
- سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الفكر، بيروت.
- السنن الكبرى، للبيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٢هـ.
- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ.
- شرح صحيح البخاري، لابن بطال، تحقيق: ياسر إبراهيم، ط٢، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق: محمد بسيوني زغلول، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ.
- صحيح البخاري، تحقيق: مصطفي ديب البغا، ط٣، ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم، ط دار الجيل، ودار الآفاق الجديدة، بيروت.
- صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة،

١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

- صحيح سنن أبي داود، للألباني، ط١، مؤسسة غراس، الكويت، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

- ضعيف الترغيب والترهيب، للألباني، ط مكتبة المعارف، الرياض.

- عارضة الأحوذي شرح جامع الترمذي، لابن العربي، تحقيق: جمال مرعشلي، ط١، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

- غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، لبريك بن محمد البريك، ط١، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ط دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

- الفجر الساطع على الصحيح الجامع، محمد الفضيل، تحقيق: عبدالفتاح الزنبقي، ط١، مكتبة الرشد.

- فقه السيرة النبوية، للدكتور محمد سعيد البوطي، ط دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوى، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

- قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد رواس قلعجي، ط٢، دار النفائس، بيروت، ١٤٢٠هـ.

- القول المبين في سيرة سيد المرسلين ﷺ، محمد الطيب النجار، ط دار الندوة الجديدة، بيروت.

- كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، ط دار الوطن، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

- اللباب في الجمع بين السنة والكتاب، للمنبجي، تحقيق: محمد فضل عبد العزيز المراد، ط٢، دار القلم، دمشق.

- لمحات عامة في التفكير الإبداعي، عبد الاله بن إبراهيم الجيزان، مجلة البيان ١٤٠٣هـ / ٢٠٠٢.

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، ط دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.

- مرويات غزوة بني المصطلق، لإبراهيم بن إبراهيم قريبي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

- مرويات غزوة الخندق، لإبراهيم بن محمد المدخلي، ط١، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٢٤هـ.

- المستدرك علي الصحيحين، للحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية.

- مسند أحمد بن حنبل، ط مؤسسة قرطبة، القاهرة.

- مسند الحميدي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة.

- مسند الطيالسي، ط دار المعرفة، بيروت.

- المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤هـ.

- المعيار المعرب والجامع المغرب، للونشريسي، تحقيق: أحمد حجي وآخرين، ط وزارة الأوقاف بالمغرب، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- الموطأ برواية يحيى الليثي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار إحياء التراث العربي، مصر.

ثالثا: الجرائد والمجلات:

- جريدة الاتحاد الإماراتية، (الذاكرة التاريخية والتخطيط للمستقبل للسيد ياسين)، عدد الخميس ١٨ ربيع الأول ١٤٣١هـ الموافق ٤ مارس ٢٠١٠م.
- مجلة البيان، (دراسة المستقبل مدخل تأصيلي لأحمد عبد الرحمن الصويان)، تصدر عن المنتدى الإسلامي عدد (٨٦) السنة التاسعة شوال ١٤١٥هـ / مارس ١٩٩٥م.
- مجلة عالم الفكر، (الدراسات المستقبلية الإشكاليات والآفاق لعواطف عبد الرحمن)، عدد (٤) سنة ١٩٨٨م.

رابعا: المواقع والمنتديات:

- http: / /www.siragpal.com /vb /104370-1-post.html
- http; / /magdah.maktoob.com /vb /magdah9304
- http: / /islamtoday.net /fatawa /services /printgues-60-175961.htm

- http://shariaa.net/forum/showthread.php?t=3378
- http://www.alhawali.com/index.cfm?method=home.showcontent&contentID=633
- http://islamtoday.net/nawafeth/artshow-100-122228.htm
- http://www.alukah.net/articles/1/6299.aspx
- http://www.jameataleman.org/unv/magster/dawa/dawa/dawa1.htm
- http://www.altasamoh.net/Article.asp?Id=476

الاستشراف الإيجابيّ للمستقبل في ضوء السّنّة النّبويّة

د. الذّوّادي بن بخّوش قوميدي
جامعة باتنة، الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه وأزواجه الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد..

لقد فُطر الإنسان على حبّ التشوّف للمستقبل، والرغبة في مطالعة الغيب، فهو - منذ القدم - يتّخذ لذلك كل ما يتاح له من سبل، حتى غدا لهذا السعي علمٌ مستقل، هو علم استشراف المستقبل، وإن الدّراسات المستقبليّة - التي تأخذ مكانها بقوّة في عصرنا - تعبّر عن ولع النّاس الشديد باستكشاف الغد واستشرافه، وتطلّعهم الحثيث لضمان استمرار واقع مرضيّ، أو السعي إلى تحسينه، أو تجنّب نتائج وخيمة في الحاضر أو المستقبل.

والاستشراف الإيجابيّ الذي نقصده هو ما يقوم على الفهم الصّحيح لحقائق الإسلام، فلا يناقض عقيدة القدَر، ولا حقيقة التّوكّل، ويحسن الظن بأفعال الله تعالى، وينظر إلى الغد بمنظار الأمل، ويحترم السُّنن الإلهية، ويقدّم الأسباب وَفقها، ويمهد للتخطيط المتوازن، بعيدا عن العشوائية والسطحية والاستعجال.

وفي سُنّة النّبيّ ﷺ جملةٌ من النصوص المستقبلية، التي تؤطّر استشراف المستقبل، ليكون استشرافا إيجابيّا.

الإشكال:

والإشكال الذي تعالجه هذه الدّراسة يتعلّق بالتعامل السَّلبي مع كثير من الأخبار النّبويّة والمرويّات الصّحيحة، وهو تعامل ينظر إلى ما أخبر عنه ﷺ من

فتن في مستقبل الأمة نَظَرَ المستسلم للقدَر المحتوم، على الرغم من أنّ استعداد الإنسان لمواجهة الأزمات الحضارية هو من القدَر الذي يصنعه الإنسان بإذن الله وتقديره؛ بل هو تكليف منه سبحانه، مما عبّر عنه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ في قوله لأبي عبيدة عامر بن الجراح ﷺ إذ حاوره في الهروب من الطاعون، قال عمر: «نَفِرُّ من قدَر الله إلى قدر الله»[١].

إنّ في جواب عمر ﷺ تجسيدا للغرس النّبويّ الذي استنبته في ذهنيات الصحابة، والذي يعني مواجهة الأزمات بالعزمات، لا الفرار من زحف الحياة، بالاستسلام ثم الاتّكال على القدَر والتعلُّل به، مما شكّل جانبا من الأزمة الفكرية والحضارية لدى المسلمين، على امتداد فترات غير قليلة من ماضي أمتنا وحاضرها.

ولنتساءل على سبيل المثال: أكان النّبيّ ﷺ يدعو إلى الاستسلام للأزمات والتّعامل معها كالقدَر المحتوم حين قال في الحديث الصحيح: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها..»[٢]، أم كان عليه الصلاة والسلام يستشرف المستقبل ليُوقف أمّته على باب الحذر، ويوقظهم لإعداد أسباب القوة والمنعة والحصانة الحضارية؟

إن الفهم السَّلبي لمثل هذه الأحاديث هو الذي ولّد عند المسلمين ذلك السلوك الانهزامي التواكلي، الذي شكل مظهرا من مظاهر الأزمة الحضارية الراهنة، ولذلك يشتكي المهتمون لحاضر أمتنا ومستقبلها «من سيطرة مشاعر القلق والخوف من المستقبل، واليأس والقنوط من الحاضر، والتواكل والإهمال، وفقدان الحماس لأيّ موقف إيجابي، وسيطرة ظاهرة المواقف القائمة على رد الفعل، وترك مهمة الفعل والتأثير للغير..!»[٣].

١- صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم:٥٣٩٧، جـ٥، ص٢١٦٣.
٢- سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم: ٤٢٩٧، جـ٢، ص٥١٤. وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة، رقم٩٥٨، جـ٢، ص٦٤٧.
٣- كيف نتعامل مع السنة، د. يوسف القرضاوي، ص١٥، والكلام المنقول من تقديم أ. د. طه جابر العلواني.

أهمية الدراسة:

يلقى النظر المستقبلي -اليوم- اهتماما ورواجا، في المجتمعات الغربية، حتى غدا المتخصصون ينظرون في المستقبل كأنه تاريخ يمكن قراءتُه وتبيُّنُ اتجاهاته وتأثيراته، ومحاولةُ السيطرة عليها وتوجيهها، بوضع الخطط الملائمة للتعامل معها على المدى القريب أو البعيد.

وليس من المقبول أن يقتصر الاستشراف والتخطيط على المجتمعات الغربية؛ بل ينبغي للمجتمعات الإسلامية العناية بهذا الجانب عناية متوافقة ومتوائمة مع دينها وقيمها.

وفي مرجعيتنا المباركة - قرآنا وسنّةً - معالمُ واضحة للتعامل الإيجابي مع المستقبل، مما يجعل الباحث المتأمل يقف مشدودَ الفكر والقلب. ومن هنا كان السادة العلماء القائمون على الندوة العلمية الخامسة موفقين في اختيار موضوع الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنة، ومحاوره النافعة، التي اخترتُ منها -بعد تأملها- البحثَ في الاستشراف الإيجابيّ في السنة النبوية، الذي أراه مطلوبا، وخصوصا في هذه الآونة، لاعتبارات عدّة، أهمها:

أولا – إننا مطالبون بالتأمل الواعي في السنة النبوية، لنحسن فهمها، خصوصا أحاديث المستقبل منها، بشقيها: الأحاديث المبشرة والأحاديث المنذرة، ولن ننتفع بتلك الأحاديث إلا إذا فقهنا خطاب النبوة ومقاصده منها.

ولقد أسيء فهم أحاديث الفتن وأشراط الساعة، حتى هيمنت الفهوم الخاطئة، وأثمرت استسلاما وتواكلا وانهزامية، بل ويأسا وإحباطا لدى كثير من المسلمين، مما قتل الهمم وخدر العزائم ودمر الطموح.

وساعد على تلك النتيجة ما تسلط به علينا أعداء أمتنا من حرب متنوعة

الوسائل متجددة الأساليب، أخطرها الحرب النفسية التي تهدف إلى التيئيس من المستقبل.

ثانيا – إننا مطالبون بالدفاع الفكري عن الإسلام ضد حملات التشويه، التي تتهم الإسلام - مع المسلمين- بالتطرف والعنف والإرهاب والأصولية، وتحاصر دعوته في كلّ اتجاه.. ولا رد لهذه الحملات المعادية إلا بنشر الأمل في النصر، وإحياء الرجاء في المستقبل، وشحذ عزائم الأجيال الصاعدة للعمل للغد المشرق.

ثالثا – كما أننا ملزمون بتشخيص أسباب الفهم السَّلبي لأحاديث المستقبل، ووضع المنهجيات المساعدة على الفهم السليم، تمهيدا للتطبيق المستقيم.

رابعا – ثم إننا بحاجة إلى زرع روح الأمل في الأمة؛ لأن عوامل كثيرة أثرت تأثيرا سلبيا في الروح المعنوية لدينا، ومن عوامل التيئيس: النظرة السوداوية «هلك الناس»! والنظرة الاستعجالية «متى نصر الله»! والنظرة الإمّعيّة «إن أحسن الناس أحسنت..»!..

أهداف الدراسة:

إنّ أهمّ ما تهدف إليه هذه الدّراسة هو نفي النّظرة السَّلبية التي تركّزت في أذهان المسلمين - كثيرٍ منهم - بسبب الفهوم السَّلبية الخاطئة لجملة من النصوص النبوية، وإبراز الوجه الإيجابي بالفهم السّليم المستقيم لتلك النصوص، واستنباط أهمّ معالم الإيجابيّة في الاستشراف النّبويّ.

ولن تكون هذه الدراسة مستوعبة لتفاصيل ما يعترض نصوص السنّة من التشويه والتحريف، وإنما هي دراسة أنموذجية تستهدف الآتي:

- بيان التصور الصحيح المطلوب في فهم أحاديث المستقبل وتطبيقها.

- تبيُّن مقاصد الخطاب المستقبلي للسنّة النبوية.

- التنبيه على استثمار الخطاب المستقبلي للسنة النبوية في الاحتياط من الشرور والمفاسد، واغتنام الخيور والمصالح، سواء أكان على المستوى الفردي: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم..»[1]، أم على المستوى الجماعي: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم..»[2]، لتكون الأمّة على أهبة الاستعداد لكل الطوارئ.

- ومن أهداف البحث غير المباشرة إبراز الصورة الوضيئة للإسلام والدور الحضاري للسنة النبوية.

الإطار المنهجي:

منهج هذه الدراسة استقرائي مع ما يخدمه من التحليل والاستنتاج والمقارنة، سعيا إلى الفهم السليم للسنة النبوية، وتجنبا للعثار في تطبيقها.. ذلك أنّ الانزلاق في الفهم ينجر عنه - لا محالة - الانزلاق في التطبيق، والواجب حماية علم النبوة من أن يتعرض لتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

ولأهمية فهم السنة يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «ينبغي أن يُفهم عن الرسول مرادُه من غير غلوّ ولا تقصير، فلا يُحمَّل كلامُه ما لا يحتمله، ولا يُقْصَرُ به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان..»[3].

حدود الدراسة:

دراسة أنموذجية لجملة من الأحاديث التي تتجلى فيها الإيجابية في التشوّف

١- صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجال، رقم:٢٩٤٧ جـ٤، ص٢٢٦٧.

٢- سبق تخريجه.

٣- الروح، لابن قيم الجوزية، ص٦٢.

للمستقبل، كما تدفع الفهم السَّلبي، الذي اكتنف بعض الأحاديث، التي حملت نُذُرًا مختلفة عن مستقبل أمة الإسلام.

الدراسات السابقة:

لم أعثر - فيما اطلعت عليه - على مؤلَّف أو دراسة تتناول فكرة الإيجابية في أحاديث الاستشراف، بالبحث والتحليل والمقارنة، وبالمنحى المنهجي المطروح في هذا البحث، غير أنه وُجدت بعض الدراسات التي عُنيت بالاستشراف في السنة النبوية بشكل عام، منها:

١ - **استشراف المستقبل** في الحديث النبوي، للدكتور إلياس بلكا، العدد ١٢٦، من سلسلة كتاب الأمة، درس فيه تعامل النبي ﷺ مع المستقبل بصفته إماما وبشرا مجتهدا، ينظر في المستقبل ويعد له ويخطط ويفكر فيه..

وعلى الرغم من تقاطع دراستي مع دراسته في بعض النقاط المتناولة في البحث كأصل اعتبار المآلات، وقضية التوكل، وعلاقة المستقبل بالقدر، وأثر الفهم المنحرف لقضية القدر، إلا أن وجهتي غايرت وجهته في توظيف تلك النقاط، فبينما وظفها هو في إثبات الاستشراف النبوي عموما، وظفتها أنا في فكرة الإيجابية في الاستشراف النبوي.

واطلعت على بعض العروض على صفحات (النت)، أذكر منها:

٢ - **الاستشراف**، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير، إعداد: فهمي إسلام جيوانتو، إشراف: د. حيدر ابن أحمد الصافح، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م. بجامعة الإيمان باليمن السعيد.

مهّد الباحث بتعريف الاستشراف، ثم تناول في الأبواب الثلاثة: الأطر العقدية في استشراف المستقبل الإسلامي، ثم حكم استشراف المستقبل، ثم

وسائل استشراف المستقبل.

٣ - **الدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية**، رسالة ماجستير للطالب: عبدالله بن محمد المديفر، اسم المشرف: أ.د عبدالرحمن بن إبراهيم الجويبر. جامعة طيبة بالمملكة العربية السعودية.

تركزت على الدراسات المستقبلية وأساليبها وفوائدها للمؤسسة الدعوية الإسلامية.

فلم تتناول الرسالتان موضوع الاستشراف من الوجهة التي اخترتها في هذا البحث.

عملي في البحث:

- جمع جملة من أحاديث المستقبل، وتقسيم ما وقع عليه اختياري منها إلى: أخبار منذرة وأخبار مبشرة، وأخبار مؤسسة للتخطيط المستقبلي. ومحاولة تبيُّن مقاصد الخطاب النبوي في كلّ قسم منها.
- اختيار نماذج من أحاديث الاستشراف، ومقابلة بعض ما يتعارض منها ببعض، ومحاولة وضع تصور منهجي صحيح لفهمها. انطلاقا من وحدة المصدر التي تنفي التناقض أو التعارض الحقيقي.
- تخريج الأحاديث بالإحالة على موضع الحديث في مصادره الأصلية التي أخرجته بسنده، وبيان مرتبته عند الحاجة.

وقد أدركت وأنا في غمرة البحث ما فيه من آفاق مغرية بالتوسع والبسط، غير أن صرامة الشروط التي وضعها القائمون على الندوة المحترمون حالت دون ذلك، فلم يكن بيدي إلا أن أختصر وأعتصر ما كتبته، وأن أكتفي بالإشارة عن

طول العبارة، راجيا من الله التوفيق والسداد.

خطة البحث:

- المبحث الأوّل: استشراف المستقبل، حقيقته وأهمّيّته ووسائله.
- المبحث الثّاني: استشراف المستقبل بين الإيجابيّة والسَّلبيّة.
- المبحث الثّالث: أقسام الخطاب النبوي المستقبلي ومقاصدها.
- المبحث الرّابع: أسس الاستشراف الإيجابي ومقوماته وخصائصه في السنة النبوية.
- خاتمة: نتائج وتوصيات.

المبحث الأوّل

استشراف المستقبل (حقيقته وأهمّيّته ووسائله)

أولا: حقيقة الاستشراف.

١ – **الاستشراف في اللغة**: الشين والراء والفاء أصلٌ يدلُّ على العلوّ والارتفاع. فالشَّرَف: العُلُوّ، والشريف: الرجل العالي. ثم زيدت فيه الألف والسين والتاء، فقيل: استشرفَ الشّيءَ، إذا رفع بصره ينظرُ إليه[١]. ويتفرع من أصل كلمة الشرف معانٍ لغوية جمّة، أقربُها إلى مقصودنا ما ورد في حديث أبي طلحة ﷺ: «أنه كان حسنَ الرمي، فكان إذا رمى استشرفه النبي ﷺ لينظر إلى مواقع نَبْله»، أي يحقق نظره ويطلَع عليه، ومن الاستشراف عند العرب أن تضع يدك على حاجبك وتنظر، ويرجع إلى الشرف وهو العلو، كأنه ينظر إليه من موضع مرتفع

١- انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، جـ٣، ص٢٦٣.

فيكون أقرب لإدراكه[1].

وفي حديث عبد الله بن سلام ﵁ قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة استشرفه الناس فقالوا: قدم رسول الله، قدم رسول الله، قال: فخرجت فيمن خرج، فلما رأيت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول ما سمعته يقول: يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[2]. والمعنى استقبله الناس وتطلعوا لرؤيته ولقائه.

٢ – الاستشراف في الاصطلاح: أما المقصود باستشراف المستقبل فيما يصطلح عليه الناس اليوم فهو: فنّ وعلم استكشاف المستقبل، لأنّه يوفر مناهج وتقنيات يمكن أن تساعد في تفهم التوجهات، والتعرف على الفرص وتجنب المخاطر. كما يساعد على تفهم التطورات الممكنة في المستقبل، وفي اتخاذ قرارات أفضل وبلورة أهداف ذات قيمة وإيجاد الوسائل لتحقيق هذه الأهداف[3].

ويقول بعض الباحثين: الاستشراف مهارة عملية تهدف إلى استقراء التوجهات العامة في حياة البشرية، التي تؤثر بطريقة أو بأخرى في مسارات كلّ

١- لسان العرب، لابن منظور، مادة «شرف»، جـ٩، ص١٦٩.

- وحديث أبي طلحة في مسند أحمد بن حنبل، من مسند بني هاشم، مسند أنس بن مالك ﵁، يقول أنس: «كان أبو طلحة يَتَتَرّس مع النبي ﷺ بترس واحد، وكان أبو طلحة حسن الرمي، فكان إذا رمى أشرف النبي ﷺ ينظر إلى مواقع نبله»، رقم:١٣٨٠٠، جـ٢١، ص٣١٢. وتفسرها رواية أخرى عن أنس ﵁ أيضا، قال: »كان أبو طلحة يرمي بين يدي رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يرفع رأسه من خلفه لينظر إلى مواقع نبله قال: فتطاول أبو طلحة بصدره يقي به رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله، نحري دون نحرك». رقم:١٢٠٢٤، جـ١٩، ص٨١. وفي تعليق الشيخ شعيب الأرنؤوط على مسند الإمام أحمد: إسناده صحيح على شرط الشيخين. ويظهر من تأمل الأحاديث أن كلمة استشرف مرادفة لكلمة أشرف.

٢- مسند الدارمي، (سنن الدارمي) كتاب الصلاة، باب فضل صلاة الليل، رقم: ١٥٠١، جـ٢، ص٩١٥. قال المحقق حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

٣- موقع: معهد الإمام الشيرازي الدولي للدراسات ـ واشنطن، أروقة الكتاب، siironline.org، تقديم منى سكرية لكتاب الاستشراف – مناهج استكشاف المستقبل، لـ ادوارد كورنيش، ترجمة: حسن الشريف، الدار العربية للعلوم، http://www.siironline.org/alabwab/arweqat_alketab(20)/246.htm

فرد وكلّ مجتمع[1].

ويمكننا أن نعرّف الاستشراف - من وجهة نظرنا - بأنه: النظر الواعي المتبصّر، المعتبرُ بالسّنن الإلهية، الآخذ بالأسباب المأمورِ بها شرعا، المحتاطُ من المخاطر والآفات، الساعي إلى تحصيل مقاصد الخالق ومصالح الخلق.

٣ - التأصيل الشرعي للاستشراف.

استشراف المستقبل من العلوم التي تلزم العنايةُ بها، ويلزمُ تأصيلُها تأصيلا شرعيا، وبيان ضوابطها المعرفية عقديا وفقهيا، حتى يمتاز الاستشراف العلمي المشروع من غيره.

وأول سؤال يتبادر إلى الأذهان إزاء موضوع الاستشراف هو: هل الاستشراف ادّعاء لعلم الغيب؟ وهل هو رجم بالغيب؟

من المسلَّم به في ديننا وقرآننا أن ادّعاء علم الغيب من دون بيّنة أو برهان من الله تعالى هو محض الباطل، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء:٣٦)، وقال سبحانه: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ (الجن:٢٦-٢٧)، وقال عزّ من قائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ (لقمان:٣٤).

من هنا ندرك الفارق بين ادّعاء علم الغيب والاستشراف، فالأول مجال محظور على كلّ بشر، والخوضُ فيه خوض في باطل؛ وقد وُجدت مع بداية

١- موقع: أوروك، orook، مقال: مناهج الدراسات المستقبلية والاستشراف من منظور إسلامي، أ. محمد بن سعيد الفطيسي، 2010/05/31. http://www.orook.com/modules/AMS/article.php?storyid=7616

الإنسان على وجه الأرض تخرُّصات وخداعات مارسها الكهان والسحرة ليأكلوا أموال الناس بالباطل، ويدفعوا - بزعمهم - عن الناس قلقَهم الفطري من المستقبل، وقد حرّمت الشريعة الإسلامية تصديق العرافين والكهان؛ لما فيه من ادّعاء الغيب والتخرّص من خلال كذب الجن والشياطين.

وأما الثاني فهو علم يعتمد على أساليب علميَّة، تقوم على فَهم الماضي والحاضر، ويدرس العوامل المختلفة ذات الأثر في الحياة؛ ومن هنا لا يمكن أن تكون له علاقة بالرَّجْم بالغَيْب، أو الظنون الباطلة، أو التَخَرُّصات العشوائية.

وفي القرآن الكريم من صور استشراف المستقبل قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة:١٤٢). فإنّ فيه تنبيها على إعداد العدة الفكرية للرد على الشبهات والتشكيكات المسلطة على عقائد المسلمين ومبادئهم من الأعداء الحاسدين.

ومنه نستنبط لزوم توقع الأذى من الأعداء الحاقدين، ثم التخطيط لمواجهته بالوسائل الممكنة.

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (الحشر:٢).

نزلت هذه الآية في يهود بني النضير، كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدًا وذمّة، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم بأسه الذي لا يُردّ، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يُصَدّ، فأجلاهم النبي ﷺ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون..[١].

١- انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، جـ٨، ص٥٧.

والشاهد الذي يعنينا هنا ما جاء في ذيل الآية، ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ وهو أمر بالاعتبار، أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذّب كتابه، كيف يُحِلُّ به من بأسه المخزي له في الدنيا، مع ما يدَّخِره له في الآخرة من العذاب الأليم[1].

وفي الاعتبار منهج للنظر في المستقبل وَفق سنن الله الماضية التي لا تتبدل، فيكون النظر في الحوادث الماضية مرشدا للتخطيط للسير المستقبلي، المنجي من المهالك في الدنيا والآخرة، ذلك ما يشهد به قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب:٦٠ -٦٢)، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر:٤٣).

وفي الاحتياط من غدر المعاهَدين من الأعداء يقول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ (الأنفال:٥٨)، وبعدها بآية يأتي الأمر بالإعداد للجهاد: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال:٦٠).

ففي ما سبق - من نصوص قرآنية - تأصيل لاستشراف المستقبل، وتشريع للنظر السُّنَنيّ الذي يستقري أحداث الماضي، بمنظار الاعتبار ووَفق السُّنن الإلهية التي لا تبديل لها، تمهيدا لرسم الخطط لمواجهة ما سيحدث..

وفي السنة النبوية أدلة كثيرة على استشراف المستقبل، ستأتي في مواضعها من هذا البحث إن شاء الله.

١- انظر: المرجع نفسه.

أما الأصول والقواعد الشرعية التي تؤصل لاستشراف المستقبل، وتُعتبر بوابات مفتوحة نحوه، فأهمها:

أ- **النظر في مآلات الأفعال:** وهو من أهم الأصول التي تشهد لأهمية استشراف المستقبل، ويُعدّ بوابة للنظر المستقبلي، الذي يُبنى على التشوف إلى مقاصد الشرع ومصالح العباد، وهو «معتبرٌ مقصودٌ شرعًا»، كما يقول إمام المقاصد أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي رحمه الله[1]، وهو أصل اجتهادي مقرر بالكتاب والسنة.

ومثاله ما يروى عن التابعي الكوفي عامر الشعبي «أن أصحابًا له خرجوا من الكوفة ونزلوا قريبا يتعبدون، فبلغ ذلك عبد الله بن مسعود، فأتاهم ففرحوا بمجيئه إليهم، فقال لهم: ما حملكم على ما صنعتم؟ قالوا أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد. فقال عبد الله: لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم فمن كان يقاتل العدو؟! وما أنا ببارح حتى ترجعوا»[2]. فأصرّ ابن مسعود ﷺ على موقفه دفعا للمآل الضار الذي ينشأ عن ترك قتال العدو.

ب- **قاعدة سد الذرائع:** و«حقيقتها التوسل بما هو مصلحة إلى مفسدة»[3].
ومثال سدّ الذريعة عدم جواز سبّ آلهة الكفار حيث يكون سببا في سبّ الله سبحانه وتعالى، عملا بمقتضى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(الأنعام:١٠٨).

ويشبهه ما في صحيح السنّة عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه. قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجلُ أبا الرجلِ فيسب أباه ويسب أمّه فيسب

١- الموافقات، للشاطبي، جـ٤، ص١٩٤.
٢- الزهد والرقائق لأبي عبدالرحمن، عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي، ص٣٩٠.
٣- الموافقات، للشاطبي، جـ٤، ص١٩٨.

أمّه»[1].

ووفق هذه القاعدة كان النبي ﷺ يستشرف المستقبل، فيحتاط لسمعة الإسلام وصورته في أعين الناس، من كلّ تشويه إعلامي، فَيَكُفُّ عن قتل المنافقين لأنّه ذريعة إلى قول الكفار: إنّ محمدا يقتل أصحابه، ففي الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن النبي ﷺ في قتل عبد الله بن أُبيّ، لما قال: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فقال النبي ﷺ: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»[2].

- ويستشرف النبي ﷺ مستقبل الدعوة الإسلامية فيقدر الأولويات، فيترك هدم الكعبة وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم عليه السلام حرصاً على أولوية ترغيب الناس في الإسلام وعدم التشويش عليهم. ويقول: «يا عائشة لولا أنّ قومك حديثو عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهُدم فأدخلتُ فيه ما أُخرج منه وألزقتُه بالأرض..»[3].

ت- التجديد بوابة لاستشراف المستقبل أيضا.

نص النبي ﷺ على التجديد، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فقال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها»[4].

ومعناه: «توضيح ما أُبهم من تعاليمه، وتمكين ما زَحزح التهاونُ من أمره، وحسنُ الربط بين أحكامه وبين ما تُحدث الدنيا من أقضية، وتنزيلُ أحوال الحياة

١- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، رقم: ٥٦٢٢، جـ٥، ص٢٢٢٨.
٢- صحيح البخاري، عن جابر بن عبد الله، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة، باب قوله: ﴿سواء عليهم أستغفرتَ لهم أم لم تستغفر لهم﴾، رقم:٤٦٢٢، جـ٤، ص١٨٦١.
٣- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، رقم ١٥٠٩، جـ٢، ص٥٨٤.
٤- سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، رقم (٤٢٩١)، جـ٤، ص١٠٩، المستدرك على الصحيحين، للحاكم، رقم: ٨٥٩٣، جـ٤، ص٥٦٨. وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة، رقم: ٥٩٩، جـ٢، ص١٤٨.

المتغايرة على مقتضيات القواعد العامة، والمصالح المرسلة»[1].

وبالتجديد يمكن تأطير الحياة حسب شكل الحاجات الخاصة الواقعة والمتوقعة لدى أهل كل عصر، وحسب التحديات الواقعية التي يواجهونها.

ث- الاجتهاد آلية التجديد، وباب آخر للاستشراف:

والاجتهاد آلية التجديد في الإسلام، وهو مناط القوة والتقدم للأمة الإسلامية، والمجتهد لا ينحصر دوره في استخراج الأحكام، وإنما يتجاوز ذلك إلى العمل المستطاع في توجيه الحياة البشرية، نحو الخير والصلاح.

ثانيا: أهمّيّة الاستشراف.

تظهر أهمية الاستشراف في استعداد الإنسان للغد، وتوقع التغيرات المحتملة حتى لا يُفاجأ بها، فيضيّعَ مصالحَ، أو يتحمّلَ مفاسدَ، وهو تمهيد للتخطيط المتوازن لمواجهة الأزمات والأخطار التي تحدق بالأفراد والمجتمعات، كما تظهر أهميته في استثمار ما يتيحه المستقبل من إمكانات في تطوير الواقع وتحسينه.

وعلى قدر التغير السريع في أوضاع الحياة تزداد الحاجة إلى الاستشراف المستقبلي، كما تزداد الحاجة إلى التخطيط لتحصيل المستقبل المرغوب، ومواجهة المستقبل غير المرغوب بما يناسب من آليات.

ومن هنا يكون الاستشراف نوعا من الفعل الإيجابي الذي يسهم في التطوير والتحسين؛ فشتان ما بين الفعل ورد الفعل، وما بين من ينتظر ما يأتي به المستقبل، ومن يسارع نحو المستقبل قارئا لاحتمالاته، مستعدا له بما يلزم من الوسائل.

يقول الدكتور لؤي صافي: «تشوف المستقبل تمرين فكري مفيد رغم صعوبة العملية، وعدم ضمان النتيجة؛ لأنّه يعين على تحديد أولويات العمل، ويساعد

١- كيف نفهم الإسلام، الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، ص١٨٧.

على إعداد العدة وتهيئة القدرات وتجنب الزلات»[1].

ثالثا: وسائل الاستشراف.

أهم وسائل الاستشراف في الإسلام الاعتبار، الذي يقرأ المستقبل باستصحاب السنن الإلهية. والتي منها:

سنة الاستخلاف: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور:٥٥)، وسنة النصر: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧)، وسنة الاستبدال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ (المائدة:٥٤)، وسنة آجال الأمم: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف:٣٤)، وسنة التدافع: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج:٤٠)، وغير ذلك من السنن..

إن الاعتبار بالسنن هو الوسيلة التي يُقرأ بها الماضي، ويُستشرف بها المستقبل، ولا معنى للاعتبار ما لم تكن هناك سنن إلهية ثابتة ومطردة، تحكم أفعال البشر وسلوكهم، فلا يَندُّ عنها من ذلك شيء، قال الإمام ابن تيمية: «والسنّة هي العادة التي تتضمن أن يُفعل في الثاني مثل ما فُعل بنظيره الأول، ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (يوسف:١١١)، والاعتبار أن يُقرن الشيء بمثله فيُعلم أن حكمه مثل حكمه»[2].

١- مستقبل الإسلام في رؤية حضارية، لؤي صافي، ضمن مجموعة بحوث بعنوان: مستقبل الإسلام، ص٣٦٠.

٢- مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٣، ص٢٠.

ومن وسائله أيضا: الوعي التاريخي والتجربة الماضية، مع نفاذ البصيرة وبُعد النظر وتقدير كل الاحتمالات من أجل الاستعداد لأسوئها.

كما يعتمد الاستشراف على «البحث المنهجي الذي يعتمد السمع والبصر والفؤاد»[1]، وذلك لأجل الاستكشاف ثم التحليل والمقارنة والاستنباط..

المبحث الثّاني

استشراف المستقبل بين الإيجابيّة والسَّلبيّة

أولا: معنى الإيجابية ومعنى السَّلبية.

١ - **الإيجابية**: اسم منسوب إلى مصدر الإيجاب بمعنى الإلزام، كما هو واضح، وهو يدل على توجه النفس إلى الالتزام بالفعل النافع انطلاقا من حسن الظن بالذات، وحسن التوكل على الله والإيمان بالنجاح. وهذا يعني إلزام النفس بالوقوف في مواقع التأثير بالفعل النافع، دون مواقع التأثر والانفعال الذي ينساق مع المؤثر الخارجي.

٢ - **وتقابلها السَّلبية**، وتعني الانسياق وراء الرغبات النفسية وكل ما تميل إليه النفس من كسل وتوان وتواكل وراحة ودعة، والزهد في المواقف المؤثرة النافعة، والرضا بالعجز عن تحقيق أي نجاح، والخضوع لتوارد الأحداث التي تدخل تحت طائلة القرار الإنساني والإرادة البشرية.

وتبدو مظاهر السَّلبية في الميل العجيب إلى التكأة على الغيب، والهروب من واجب القيام بأسباب الإصلاح، والدوران في حلقة اليأس، أو السباحة في بحار الأحلام.

١- مستقبل الإسلام في رؤية حضارية، لؤي صافي، ضمن مجموعة بحوث بعنوان: مستقبل الإسلام، ص٣٦٢.

ثانيا: الإيجابية فريضة شرعية.

الأمة الإسلامية إيجابية في وحدتها وفاعليتها في قيادة الأمم إلى الخير والإصلاح، قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُو ﴾ (آل عمران:١٠٤).

والمسلمون مأمورون أفرادا بالإيجابية في الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1]. والحديث يقرن الفعل التغييري بالإيمان، ومنه نفهم فرضية الإيجابية.

وتضييع هذه الفريضة يسبب الهلاك العام، فعن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: «يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»[2].

وخطب الصديق أبو بكر ﷺ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة:١٠٥)، قال: وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب»[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإنما يتم الاهتداء إذا أطيع الله وأُدِّيَ الواجبُ

١- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم:٧٨، جـ١، ص٦٩.

٢- أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قصة يأجوج، رقم:٣١٦٨، جـ٣، ص١٢٢١، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم:٢٨٨٠، جـ٤، ص٢٢٠٧.

٣- سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم:٤٣٣٨، جـ٢، ص٥٢٥. وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: ١٥٦٤، جـ٤، ص٨٨.

من الأمر والنهي وغيرهما»[1].

فليس من الإيجابية إذًا أن نحرص على الصلاح ونقف عند ذلك الحد؛ بل الإيجابية في التطلع إلى الإصلاح.

وبسبب الإيجابية في الإصلاح وعدمها تُمدح أمة وتُذم وتُلعن أخرى، قال الله تعالى في أمة محمد ﷺ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران:١١٠)، وقال سبحانه في بني إسرائيل: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾(المائدة:٧٨-٧٩).

والإيجابية مطلوبة من المجتمع المسلم كلّه، حفظا لحدود الله وصيانة للمجتمع من الخراب العام، فعن النعمان ابن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا»[2].

فالأخذ على يد المفسد إيجابية مُنجية، والسكوت عنه سلبية مُهلكة، ولقد كان ضمور الإيجابية في واقعنا بابا مفتوحا نحو تضييع كثير من الواجبات الكفائية، خصوصا منها ما يتعلق بإيقاظ الهمم واستنهاض الأمم.

ثالثا: الاستشراف الإيجابي والاستشراف السَّلبي.

للناس لدى التعامل مع أحداث المستقبل موقفان:

١- مجموع فتاوى ابن تيمية، جـ١٤، ص٤٨٠.
٢- أخرجه البخاري، كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم:٢٣٦١، جـ٢، ص٨٨٢.

- الموقف الخاضع للتغيرات، المنتظِر للأحداث، المستسلم لها كيفما كانت، المنفعل لها. هذا موقف سلبي.

- الموقف الفاعل الذي يتوقع التغيرات ويستعد لها ويهيئ لها مسبقا ما يلزم للتعامل معها، وهذا هو الموقف الإيجابي، أو الاستشراف الإيجابي.

ويعتمد الاستشراف الإيجابي على التفكير الإيجابي، لذلك حرَص النبي ﷺ على تقويم التفكير السَّلبي، ومن شواهد ذلك:

- قوله ﷺ للذي سأل عن الساعة بإلحاح: «ويلك، ماذا أعددت لها؟»[1].

وفي رواية قال ﷺ: «وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله. قال: أنت مع من أحببت»[2].

- وفي حديث آخر قال ﷺ: «فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة»، قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[3].

فوجه النبي ﷺ اهتمام السائل – أو السائلين – إلى التفكير في الأهم، وهو الإعداد للساعة، أو الاستعداد لمواجهة ما يقع لدى قربها من ضياع الأمانات، وهذا هو التفكير الإيجابي.

وضياع الأمانة، دلالة على الاستبداد السياسي والاقتصادي والإداري، وفيه تنبيه على مواجهته، قال ابن حجر: «والمراد من الأمر جنس الأمور التي تتعلق

١- صحيح البخاري، عن أنس، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل ويلك، رقم: ٥١٥٨، جـ٥، ص٢٢٨٢.

٢- صحيح البخاري، عن أنس، كتاب مناقب الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب، رقم: ٣٤٧٥، جـ٣، ص١٣٤٩، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب المرْء مع من أحب، رقم: ٢٦٣٩، جـ٤، ص٢٠٣٢.

٣- صحيح البخاري، عن أبي هريرة ﷺ، كتاب العلم، باب من سئل علما وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل، رقم: ٥٩، جـ١، ص٣٣.

بالدين، كالخلافة والإمارة والقضاء والإفتاء، وغير ذلك»[1].

فالاستشراف السَّلبي يقف عند الانتظار المتواكِل، معتمدا على أن توسيد الأمور إلى غير أهلها علامة لقرب الساعة فحسب، أما الاستشراف الإيجابي فينفذ إلى لزوم الاحتياط التشريعي لمنع الإخلال بالأمانات.

والواقع أن الإخلال بالمسؤوليات نسبي منتشر في الأعصار والأمصار، فلو فهمنا أن تضييع الأمانة بإطلاق هو مجرد علامة لقرب القيامة، فانظر ما يترتب على هذا الفهم من التواكل والانهزام والاستسلام للواقع المعوج.

ثم كيف نفعل بالنصوص النبوية الأخرى التي تأمر بالإصلاح وتفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ كحديث أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[2].

- وعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا»[3]. وتلك إيجابية في وجه الاتكال على عموم البلوى بالفساد..

- ونهى النبي ﷺ عن أن يقول المسلم الكلمة السيئة البشعة في حق نفسه، خشية التأثر النفسي السَّلبي بمعناها، فعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي

١- فتح الباري، جـ١١، ص٣٣٤.
٢- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم: رقم:٧٨، جـ١، ص٦٩.
٣- سنن الترمذي، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الإحسان والعفو، رقم: ٢٠٠٧، جـ٤، ص٣٦٤. قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وضعفه الشيخ الألباني، ولكن قال: يصحُّ وقفُه على ابن مسعود. انظر: تعليقه على مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، رقم: ٥١٢٩، جـ٣، ص٣١٢.

ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم خَبُثَت نفسي، ولكن ليقل لَقَسَت نفسي»[1].

و«لقست وخبثت بمعنى واحد، وإنما كره ﷺ من ذلك اسم الخبث فاختار اللفظة السالمة من ذلك، وكان من سنته تبديل الاسم القبيح بالحسن»[2].

- كما حذّر النبي ﷺ من التفكير السّلبي الذي ينتج عنه إشاعة الإحباط في الأمة، وعدّ ذلك من الأمور المهلكة لصاحبها وللأمة على حدٍّ سواء، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم». قال أبو إسحاق: لا أدري أهلكَهم بالنصب أو أهلكُهم بالرفع[3].

إن التفكير الإيجابي يفضي إلى القرار الإيجابي، فإذا أضيف إليه التوكل والصبر أدّى بعون الله تعالى إلى النجاح، والذي يفكر إيجابيا يستطيع الوصول إلى القرار الإيجابي، لأنّه يركز على الإيجابيات، ولا يبالي بالسَّلبيات التي كثيرا ما تعيق عن الوصول إلى الأفضل، وعليه فالتفكير الإيجابي وثيق الارتباط بالنجاح في المستقبل، وهو عماد الاستشراف الإيجابي.

ومما يوجه إليه المربُّون من التفكير الإيجابي قولهم: بدلاً من أن تقول: لا أستطيع .. قل: سوف أحاول، وبدل قولك: لا أعتقد أنه يتحقق .. قل: إن شاء الله يتحقق، وبدل: أشعر بكسل.. قل: أحتاج إلى حركة ونشاط، وبدل: أشعر بضعف.. يجب أن أتقوّى... وهي عبارات تتساوق تماما مع التوجيهات النبوية السابقة.

وبعد التفكير الإيجابي يأتي القرار الإيجابي الذي يولِّد الفعل الإيجابي، والعكس بالعكس.

١- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا يقل: خبثت نفسي، رقم:٥٨٢٥، جـ٥، ص٢٢٨٥.

٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، جـ١٠، ص٥٦٤.

٣- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن قول هلك الناس، رقم:٢٦٢٣، جـ٤، ص٢٠٢٤.

- وأبو إسحاق هو إبراهيم بن محمد بن سفيان النيسابوري، صاحب مسلم، وراوي الصحيح عنه (ت٣٠٨هـ). سير أعلام النبلاء، للذهبي، جـ١٤، ص٣١١.

من دلائل الإيجابية في السنة النبوية:

إن سعي بني الإنسان لشتى، وكلّه سعي نحو المستقبل، سواء أفي المستقبل القريب في الدنيا أم البعيد في الآخرة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ (الليل:٤)، وقال المصطفى ﷺ: «..كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[١].

لكن الذي يبيع نفسه لله بطاعته يضمن المستقبل السعيد بحسن قراره وحسن اختياره، وإيجابية فعله، أما من يبيع نفسه للشيطان بمعصية الله فقد خاب سعيه وخسر بيعه، لأن تفكيره المستقبلي لم يكن رشيدا.

ومن دلائل الإيجابية في السنة النبوية:

١- ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان»[٢].

٢- وما رواه جرير بن عبد الله ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فعُمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعُمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء»[٣].

٣- وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل

١- حيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم: ٢٢٣، جـ١، ص٢٠٣.

- ومعنى قوله ﷺ «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها: »كل إنسان يسعى بنفسه، فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتّباعهما فيوبقها، أي يهلكها. والله أعلم«. شرح النووي على صحيح مسلم، جـ٣، ص١٠٢.

٢- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، رقم:٢٦٦٤، جـ٤، ص٢٠٥٢.

٣- صحيح مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، رقم:١٠١٧، جـ٤، ص٢٠٥٨.

المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[1].

٤- عن ابن عباس، رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[2].

وهذه إيجابية احتياطية، وتحذير للأمة من التقلبات الصحية والاقتصادية، وغيرها..

المبحث الثالث

أقسام الخطاب النبوي المستقبلي ومقاصدها

الخطاب النبوي المستقبلي ثلاثة أقسام، ولكل قسم مقاصده، ينبغي وعيُها.

أولا: الخطاب المنذر ومقاصده.

الخطاب النبوي المنذر هو الأخبار التي حملت نُذُرا كثيرة مختلفة متعلقة بما يُستقبل من فتن وأشراط الساعة وغير ذلك، مما ينبغي قراءته قراءة استشرافية إيجابية.

والقراءة الإيجابية لتلك النذُر تنبني على التحليل المقصدي لمعرفة مراد النبي ﷺ بها، وعندها لن تكون تلك النذر إخبارا عن المصائب والكوارث؛ بل تقويما للسير المستقبلي للأفراد والمجتمعات.

١- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم:١١٨، جـ١، ص١١٠.

٢- المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب الرقاق، رقم:٧٨٤٦، جـ٤، ص٣٤١. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الذهبي في التعليق عليه: على شرط البخاري ومسلم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم:١٠٧٧، جـ١، ص٢٤٣-٢٤٤.

ومن مقاصد الخطاب النبوي المنذر:

١- الدلالة على علامات النبوة وصدقها.

٢- التحذير من الشرور المستقبلية والتنبيه على تلافي أسبابها. قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «الحذر منها ومن الوقوع في الأفعال التي هي من أماراتها والرجوع إلى الله عندها»[١].

ومثاله ما رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، من تشرّف لها تستشرفه ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به»[٢].

ومعنى تشرف: «من الإشراف للشيء وهو الانتصاب والتطلع إليه والتعرض له، ومعنى تستشرفه تقلبه وتصرعه»[٣].

إن ظاهر أحاديث أشراط الساعة مثلا الإخبار عما سيحدث، ولكن فحواها إنذار وإنكار لما يحدث من التغيير من الناس، وتحذير للأمة من عواقب الاسترسال في السكوت على ذلك التغيير.

ومن أمثلة ذلك انقلاب القيم في حديث جبريل عن عمر رضي الله عنه «.. فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: «أن تلد الأَمَةُ ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رِعَاء الشاء يتطاولون في البنيان...»[٤].

١- الموافقات، للشاطبي، جـ١، ص٤٩.

٢- صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر، رقم:٢٨٨٦، جـ٤، ص٢٢١١.

٣- شرح النووي على صحيح مسلم، جـ١٨، ص٩.

٤- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم:٥٠، ج١، ص٢٧، وأخرجه مسلم واللفظ له، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم:٨، جـ١، ص٣٦.

وفي التحذير من انقلاب الموازين، وانفلات المعايير، في تقدير الأشخاص جاء حديث حذيفة، في رفع الأمانة، قال: حدثنا رسول الله ﷺ «أنّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة»، وحدثنا عن رفعها قال: «ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه» إلى أن قال: «فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلا أمينا، ويقال للرجل: ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»[1].

ويصب في مصبّه حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «سيأتي على الناس سنواتٌ خدّاعاتٌ، يُصَدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُكذَّبُ فيها الصادقُ، ويُؤتَمَنُ فيها الخائنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمينُ، ويَنْطِقُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامّة»[2].

ومن ذلك حديث أبي سعيد ﵁، أن النبي ﷺ، قال: «لتتبعن سنَنَ من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى قال: فمن؟!»[3].

ظاهر الحديث أن ذلك الاتباع حتمية، وحقيقته أنه سُنَنِيّة، وفيه تحذير من التبعية العمياء، والاستلاب للغير، وفقدان تميز الشخصية الإسلامية واستقلاليتها، والأخذ بقشور المدنيات دون لبها النافع؛ مما هو واقع بنا، وعليه فـ «نحن في حاجة إلى تربية الجيل على نمط حياة جديد، مستمدٍّ من قيمنا ومتلائمٍ مع حاجاتنا،

١- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة، رقم: ٦١٣٢، جـ٥، ص٢٣٨٢، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، رقم: ٢٣٠، جـ١، ص١٤٣.

٢- سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم:٤٠٣٦، جـ٢، ص١٣٣٩، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: ١٨٨٧، جـ٤، ص٥٠٨.

٣- صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم:٣٢٦٩، جـ٣، ص١٢٧٤، وصحيح مسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم:٢٦٦٩، جـ٤، ص٢٠٥٤.

ومتناسبٍ مع إمكاناتنا، ثائرٍ على نمط الحياة الغربية، حتى لا يعود تقليدها أكبر همه ولا مبلغ علمه، ولا محور سعيه»[1].

و«لن يتم لنا استقلال حقيقي سياسي واقتصادي، ولن نتحرر من التبعية بكل ألوانها ولن تستقل لنا شخصية، ولن يتم لنا انبعاث حضاري حقيقي نابع منا ومعبر عنا، منا مبدؤه، وإلينا منتهاه، وبنا قيامه، ولنا ثمراته، إذا ظللنا للغرب ذيولا وظلالا، منه الإرسال، ومنا الاستقبال، منه الفعل، ومنا الانفعال، منه الإنتاج، ومنا الاستهلاك، عليه أن يبدع وعلينا أن نقلد، عليه أن يغني وعلينا أن نردد»[2].

ويسبب الإعراض عن تفهم تلك المقاصد، أسيء فهم بعض الأحاديث، ومنها:

١- حديث الزبير بن عدي، قال: أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال: «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ»[3].

يُتخذ هذا الحديث وأمثاله تكأة للقعود عن الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بادعاء أنها تدل على تدهور الأمور باستمرار، وأن أوضاع الأمة لا تسير من سيء إلا إلى أسوأ، حتى تقوم الساعة على شرار الخلق.

وقد وقف علماؤنا على هذا الحديث، واستشكلوا ما فيه من عموم وإطلاق، مع أنه ثبت بيقين أن بعض الأزمنة تكون خيرا من الأزمنة التي سبقتها، وهذا ما جعل الإمام ابن حبان في صحيحه يرى أن حديث أنس السابق ليس على عمومه، مستدلا بالأحاديث الواردة في المهدي، وأنه سيملأ الأرض عدلا بعد ما ملئت

١- هموم المسلم المعاصر، للشيخ يوسف القرضاوي، ص١١٥.

٢- هموم المسلم المعاصر، للشيخ يوسف القرضاوي، ص١١٣.

٣- صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه، رقم:٦٦٥٧، جـ٦، ص٢٥٩٦.

- وقوله: «الذي بعده شر منه» يكون فيه الخير والشر أكثر منه أحيانا، وقد يكون زمان خيرا من سابقه بكثير فلا حجة في هذا ونحوه لمن يؤثرون الراحة والانهزام، فيتركون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويستسلمون للشر والفساد والظلم والطغيان. ا.هـ من كلام المحقق د. مصطفى ديب البُغا.

جَوْرا[1].

و«حمله الحسن البصري على الأكثر الأغلب، فسئل عن وجود عمر بن عبد العزيز بعد الحجّاج فقال: لا بد للناس من تنفيس، وأجاب بعضهم أن المراد بالتفضيل تفضيل مجموع العصر على مجموع العصر، فإن عصر الحجّاج كان فيه كثير من الصحابة في الأحياء، وفي عصر عمر بن عبد العزيز انقرضوا، والزمان الذي فيه الصحابة خير من الزمان الذي بعده لقوله ﷺ: «خير القرون قرني»[2].

٢- حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَن. قلت: وما دَخَنه؟ قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ فقال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلّها، ولو أن تَعَضّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[3].

قد يُتخذ هذا الحديث تكأة لاعتزال الناس، وإيثار السلامة وعدم تكلف مخالطتهم وأمرهم ونهيهم.

١- انظر: كيف نتعامل مع السنة، د. يوسف القرضاوي، ص٨٩-٩٠.
٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ج١٣، ص٢١.
- وحديث «خير القرون قرني..»، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب فضائل أصحاب النبيّ ﷺ، رقم:٣٤٥١، ج٣، ص١٣٥١. بلفظ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».
٣- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم:٣٤١١، ج٣، ص١٣١٩، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، رقم:١٨٤٧، ج٣، ص١٤٧٥.

ويفسره حديث أبي بكر «يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ (المائدة:١٠٥)، قال: وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب»[١].

٣- ومما أسيء فهمه أيضا حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن»[٢].

وظاهر الحديث دالٌّ على فضيلة العزلة عن الناس لمن خاف الفتنة في دينه، واختلف السلف في أصل العزلة، «فقال الجمهور: الاختلاط أولى لما فيه من اكتساب الفوائد الدينية للقيام بشعائر الإسلام وتكثير سواد المسلمين، وإيصال أنواع الخير إليهم، من إعانة وإغاثة وعيادة وغير ذلك..»[٣].

فالاختلاط هو الراجح لما فيه من إيجابية، ولأن العزلة في كل الأحوال، ولجميع الأشخاص سلبية عامة لا يمكن إقرارها في مقصود الخطاب النبوي، لما فيها من إهمال الصناعات التي بها قوام الأمة، وإهمال أمر الجهاد والإعداد، مما يجعل الأمة فريسة سهلة الوقوع في براثن المفسدين والغزاة.. ففي هذا إشارة إلى لزوم التكامل والتوازن بين مقومات الأمة.

٤- ومما أسيء فهمه حديث ابن عمر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[٤].

١- سبق تخريجه.

٢- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الدين الفرار من الفتن، رقم: ١٩. جـ١، ص١٥.

٣- فتح الباري، جـ١٣، ص٤٣.

٤- سنن أبي داود، كتاب البيوع، أبواب الإجارة، باب في النهي عن العينة، رقم:٣٤٦٢، جـ٢، ص٢٩٦. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: ١١، جـ١، ص٤٢.

فقد فُهم منه الذم المطلق للزرع، وهو مقيد بترك فريضة الجهاد في سبيل الله تركًا كلّيًا، لأن فروض الكفايات كلها مطلوبة من الأمة، طلبا واحدا، سواء في ذلك الصناعة والتجارة والحرب وغيرها..

ويردّ ذلك الفهمَ حديثُ أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»[1]. وحديث أنس أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»[2].

وهكذا نرى أن مقابلة الأحاديث بعضها ببعض تُوفق بين المتعارض منها ظاهريا.

ثانيا: الخطاب المبشِّر ومقاصدُه.

من شأن المبشرات أن تزيد العزائم مضاء، والقلوب طمأنينة، والأرواح تفاؤلا، فتطرد اليأس والكلال، وتعلي الهمم لطلب الكمال، فضلا عما تحمله من دلائل صدق النبوة وعلاماتها، ولهذه المقاصد جاء الخطاب النبوي المستقبلي ببشائر كثيرة، ينبغي تأملها والتطلع إلى تحقيق غاياتها.

ومن أمثلة ما بشّر به النبيّ ﷺ حديث ثوبان بن بجدد مولى رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا

١- صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، رقم:٢١٩٥، جـ٢، ص٨١٧. وصحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، رقم:١٥٥٢، جـ٣، ص١١٨٨.

٢- مسند أحمد بن حنبل، ومن مسند بني هاشم، مسند أنس بن مالك ﷺ، رقم:١٢٩٨١، جـ٢٠، ص٢٩٦. قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا»[1].

والحقيقة أن الحديث فيه بشارة ونذَارة، فالبشارة هي اتساع دولة الإسلام، بحيث تضم المشارق والمغارب، وهذا لم يتحقق من قبل بهذه الصورة، فنحن بانتظاره كما أخبر الصادق المصدوق، أما النِّذَارة فهي التحذير من الفتن الداخلية والحروب الأهلية، التي يُهلِكُ فيها المسلمون بعضهم بعضا.

- وفي التبشير ببقاء أهل الحق وظهوره إلى قيام الساعة جاء حديث ثوبان بن بجدد الهاشمي ﷺ، عن رسول الله ﷺ، قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[2].

ويؤيده حديث أبي عِنَبَة الخولاني ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته»[3].

وفي الفتوح والانتصارات على العدو جاء حديث عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله»[4].

وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: «بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولا: قسطنطينية أو

١- صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، رقم:٢٨٨٩، جـ٤، ص٢٢١٥.
٢- صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة»، رقم:١٩٢٠، جـ٣، ص١٥٢٣.
٣- سنن ابن ماجه، المقدمة، باب اتّباع سنة رسول الله ﷺ، رقم:٨، جـ١، ص٥. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: ٢٤٤٢، جـ٥، ص٥٧١. وهو في مسند أحمد بن حنبل، مسند الشاميين، حديث أبي عنبة الخولاني، رقم:١٧٧٨٧، جـ٢٩، ص٣٢٥. قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.
٤- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم:٣٣٩٨، جـ٣، ص١٣١٦.

رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولا. يعني قسطنطينية»[1].

- وفي البشارة باستتباب الأمن، وذهاب الخوف روى عدي بن حاتم، قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أُنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة، لترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله»[2].

وغير هذه البشارات كثير، يضيق عنه نطاق هذا البحث، وما ذُكر عنوان لما لم يُذكر.

وينبغي أن نفهم التبشير والإنذار كخطين متوازيين ومتوازنين لا يطغى أحدهما على الآخر.

ثالثا: خطاب التأسيس للتخطيط المستقبلي:

والمقصود به ما جاء عن النبي ﷺ من نصوص تتشوف إلى المستقبل البعيد والقريب للأمة الإسلامية، وترشد إلى وضع الخطط المناسبة لمواجهة ما يستجد من ظروف وأحوال ومشكلات وأزمات مختلفة.

من ذلك التأسيس للتخطيط الاقتصادي كما يرشد إليه قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون

١- مسند أحمد بن حنبل، ومن مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، رقم:٦٦٤٥، جـ٢، ص١٧٦. والمستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب الفتن والملاحم، رقم:٨٦٦٢، جـ٤، ص٥٩٨. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: هو كما قالا. رقم:٤، جـ١، ص٣٣.

- ورومية هي روما عاصمة إيطاليا، وقد فتحت مدينة هرقل، على يد البطل محمد الفاتح، سنة ١٤٥٣م، ونحن ننتظر فتح رومية، وهو ما نؤمن به. ومعنى هذا أن الإسلام سيعود إلى أوربا مرة أخرى فاتحا منتصرًا. إن شاء الله تعالى.

٢- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم:٣٤٠٠، جـ٣، ص١٣١٦.

الناس»[1].

وفي التحذير من التقلبات الصحية والاقتصادية وغيرها، والاستعداد لها يقول رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[2]. وهذه إيجابية احتياطية.

وفي التخطيط الصحي «الحجر الصحي»: يقول ﷺ: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه»[3]. وجوانب التخطيط كثيرة..

المبحث الرابع

أسس الاستشراف الإيجابي ومقوماته وخصائصه في السنة النبوية

أولا: التأسيس النبوي للاستشراف الإيجابي وتوريثه للصحابة.

١ – الرسول ﷺ يبث روح الاستشراف الإيجابي:

في السنة النبوية شواهد جمة على بثّ روح الاستشراف الإيجابي الذي ينظر إلى حسنات المستقبل، ليتغلبَ على مصاعب الحاضر وتهونَ معه أحزان الماضي، ومن ذلك حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عدي.. لئن طالت بك حياة لتُفتحنّ كنوز كسرى.. ولئن طالت بك حياة، لتَرَيَنَّ الرجلَ يُخرج ملءَ كفّه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه»[4].

١- صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب رثي النبي ﷺ خزامة بن سعد، رقم:١٢٣٣، جـ١، ص٤٣٥، وصحيح مسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم ٤٢٩٦، جـ٥، ص٧١.
٢- سبق تخريجه.
٣- صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم:٥٣٩٧، جـ٥، ص٢١٦٣.
٤- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم:٣٤٠٠، جـ٣، ص١٣١٦.

وظهر أثر التوجيه الاستشرافي النبوي واضحا في سلوك الصحابي حذيفة بن اليمان إذ قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني...»[1].

ومع بث روح الاستشراف الإيجابي يغرس النبي ﷺ في عقول الصحابة ملكة التخطيط للمستقبل، كالتخطيط الاقتصادي في وصيته ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، يوم استأذنه في أن يتصدق بماله أو شطره أو ثلثه، فأذن له في الثلث، وبيّن الحكمة الاستشرافية، فقال ﷺ: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»[2].

ومن تلك الحكمة استنبط بعض علماء عصرنا أنّه «لا يجوز أن يسرف جيل من الأجيال في استغلال الموارد الطبيعية، والاستمتاع بالثروة الوطنية على حساب الأجيال القادمة»[3].

٢ – الصحابة يرثون ملَكة الاستشراف الإيجابي عن النبيّ ﷺ:

وَرَّثَ النبيُّ ﷺ الصحابةَ رضوان الله عليهم منهجه في الاستشراف الإيجابي، فكانوا يستشرفون المستقبل ويخططون له، فعملا بالمبدإ ذاته في وصيته ﷺ لسعد السابقة، رفض سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه تقسيم أراضي السواد المفتوحة بالعراق، فنظر رضي الله عنه بعين الأب الرحيم إلى الأجيال القادمة.

لقد كان المألوف المعروف أن تُقَسّم تلك الأراضي قِسمةَ التخميس، ولكن عمر رضي الله عنه اجتهد فلم يقسمها تلك القسمة، فعن عبد الله بن قيس قال: «قدم عمر الجابية، فأراد قسم الأرض بين المسلمين، فقال له معاذ: والله إذن ليكونن ما تكره،

١- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم:٣٤١١، جـ٣، ص١٣١٩. وقد سبق تخريجه.
٢- سبق تخريجه.
٣- هموم المسلم المعاصر، د. يوسف القرضاوي، ص١٢١.

إنك إن قسمتها صار الريع العظيم في أيدي القوم، ثم يبيدون، فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسدًّا، وهم لا يجدون شيئا، فانظر أمرا يسع أولهم وآخرهم، فصار عمر إلى قول معاذ... قال أبو عبيد: وذلك أنه جعله فيئا موقوفا على المسلمين ما تناسلوا، ولم يخمسه، وهو الرأي الذي أشار به عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومعاذ بن جبل رحمه الله»[1].

ولا يكون هذا إلا شأن اللبيب الفطن، البصير بعواقب الأمور، الذي يحسن استشراف المستقبل ويستعد له بحزم.. فعمرُ ﵁ كما قيل:

بصير بأعقاب الأمور برأيه × كأن له في اليوم عينا على غد

وكما قيل:

يرى عزمات الرأي حتى كأنها × تخاطبه في كل أمر عواقبه[2].

وتلك لعمري هي النظرة الإيجابية التي يجب أن نستشرف بها المستقبل، فمن الخطإ العناية بهموم اليوم الحاضر والغفلة عن هموم المستقبل، ثم إلقاء الأحمال على الأجيال التالية.

ثانيا: الأسس العقدية للاستشراف الإيجابي.

١ – الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر أصل من أصول الاعتقاد، وإذا فهم بوسطية واعتدال كان له

١- الأموال لأبي عبيد، كتاب فتوح الأرضين صلحا وسننها وأحكامها، باب فتح الأرض تؤخذ عنوة، رقم: ١٥٩، جـ١، ص١٢٢، والأثر عن عمر حسن الإسناد كما ذكر محقق الكتاب الدكتور أبو أنس سيد بن رجب، وانظر: المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق للخرائطي، انتقاء الحافظ أبي طاهر الأصبهاني، رقم: ٥١٦، ص٢١٧.

٢- البيتان ذكرهما الخرائطي عقب روايته لأثر عمر ﵁، ونسب البيت الأول لبعضهم من دون تعيين، والثاني لمحمد بن الفضل الوارثي، انظر: المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق للخرائطي، ص٢١٧.

أثره الإيجابي على المسلم، أما الانحراف في سلامة المعتقد فله نتائج سلبية، كما هو حال الفهم الجبري الذي يغالي في القدر فيسلُب العبدَ قدرته واختيارَه.

لقد أثمر الفهم الجبري سَلبية واضحة لاسيما في ترك الأسباب، حتى عبر بعضهم عن تلك السَّلبية فقال:

جرى قلم القضاء بما يكون × فسيان التحرك والسكون

جنونٌ منك أن تسعى لرزقٍ × ويُرْزق في غيابته الجنين[1]

وإن لعقيدة القدر من الدافعية القلبية والنفسية مايعطي المسلم العزيمة الماضية، نحو صناعة المستقبل المنشود، متحديا للصعاب، غير هيّاب ولا وجل، قال تعالى في وصف طائفة المؤمنين بعد غزوة أُحد: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣). أي: فزادهم قول الناس تصديقا ويقينا في دينهم، وإقامة على نصرته، وقوة وجراءة واستعدادا[2].

وفي السنة النبوية اهتمام بتربية الجيل على المعاني الإيجابية لعقيدة القدر، من الطمأنينة على الرزق والأجل، والتسليم لمشيئة الله تعالى في النّفع والضرر، وكل هذا من شأنه أن يعطي المسلم مضاء العزيمة نحو الفعل الإيجابي النافع. فقد علّم النبي ﷺ عبد الله بن عباس فقال له: «.. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك..»[3].

١- القضاء والقدر، د. عمر سليمان الأشقر، ص٧٧.

٢- انظر: تفسير القرطبي، جـ١، ص٢٨٠.

٣- سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، حديث رقم:٢٥١٦، جـ٤، ص٦٦٧. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، رقم: ٥٣٠٢، جـ٣، ص١٤٩.

أما النظر إلى أحداث الحاضر أو المستقبل باستسلام وعجز، وتواكل وتكاسل، فذلك من السَّلبية، قال العلامة ابن عاشور رحمه الله: «من أكبر أخطاء المسلمين في هذا الباب خطأ اللَّجأ إلى القضاء والقدر في أعذارهم، وخطأ التخلّق بالتوكل في تقصيرهم وتكاسلهم»[1].

إن الاستعداد لمواجهة الأزمات بالعزمات لَهُوَ من القدَر الذي يصنعه الإنسان بإذن الله وتقديره؛ بل بتكليف منه سبحانه.

٢ – عقيدة التوكل:

التوكل في عبارة أبي حامد الغزالي: «عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده»[2]. وحقيقته في تدقيق الإمام ابن القيم: «اعتمادُ القلب على الله واستنادُه إليه وسكونُه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطرابٌ من تشويش الأسباب ولا سكونٌ إليها؛ بل يخلع السكون إليها من قلبه ويلبسه السكون إلى مسبِّبها»[3].

والتوكل شرط كمال الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (المائدة:٢٣)، وهو مقتضى الإقامة على الحق: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ (النمل:٧٩)، وسبب محبة الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

وحاجة كل مسلم إلى التوكل شديدة، وحاجة الدعاة المستشرفين للإصلاح له أشد، قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ (هود:٨٨).

ولاستقبال الآتي بلا خوف قال يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ

١- التحرير والتنوير، للعلامة محمد الطاهر ابن عاشور، جـ٢٢، ص٢١٣.
٢- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، جـ٤، ص٢٥٩.
٣- مدارج السالكين، لابن القيم، جـ٢، ص١٢٠-١٢١.

فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (يوسف:٦٧).

والتوكل سبب للرزق، فعن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم كنتم تَوَكّلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا»[١].

والتوكل مرتبط بالرضى بالقدر وبالثقة في الله تعالى، قال ابن القيم رحمه الله: «ومنهم من يفسره بالرضى فيقول: هو الرضى بالمقدور، قال بشر الحافي: يقول أحدهم: توكلت على الله. يكذب على الله، لو توكل على الله، رضي بما يفعل الله»[٢].

ومن عقيدة التوكل على الله الأخذ بالأسباب؛ لذلك قال ﷺ لصاحب الناقة: «اعقلها وتوكل»[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (البقرة:١٩٧)»[٤].

وقال سهل بن عبدالله التُّسْتَري: «من طعن في الحركة فقد طعن في السنة

١- سنن الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب في التوكل على الله، رقم: ٢٣٤٤، جـ٤، ص٥٧٣، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو في سنن ابن ماجه أيضا، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، رقم: ٤١٦٤، جـ٢، ص١٣٩٤. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: ٣١٠، جـ١، ص٦٢٠.

٢- مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، جـ٢، ص١١٥.

٣- سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، رقم:٢٥١٧، جـ٤، ص٦٦٨. والرواية كاملة كما في حديث أنس بن مالك ﷺ قال: «قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل». قال الترمذي: وهذا حديث غريب من حديث أنس لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وحسنه الألباني في تخريج أحاديث كتاب مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، رقم: ٢٠، ص٢٣.

٤- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾، رقم:١٤٥١، ج٢، ص٥٥٤.

ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي والكسب سُنّته، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنّته..»[1].

٣ – الثقة بالله تعالى وحسن الظن بمجاري أقداره.

من أسس الاستشراف المستقبلي الإيجابي الثقة واليقين وحسن الظن بالله وبمجاري أقداره، والمسلم يستمد ذلك من وعد الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ (الزمر:٣٦).

ولا يشتبه بالثقة بالله الغرورُ والعجزُ؛ والفرق: أن الواثق بالله قد فعل ما أمره الله به، ووثق بالله في طلوع ثمرته وتنميتها وتزكيتها، كغارس الشجرة وباذر الأرض، والمغتر العاجز: قد فرط فيما أمر به وزعم أنه واثق بالله، والثقة إنما تصح بعد بذل المجهود[2].

ودليل وجوب حسن الظن بالله قوله ﷺ: «قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني»[3].

ومن حسن الظن بالله وبمجاري أقداره، التفاؤل: من الفأل وهو الكلمة الطيبة، التي يسمعها السامع من غير قصد، فيستبشر بها، وعكسه الطِّيَرَة، قال ابن حجر: «خُصّت الطيرة بما يسوء، والفأل بما يسر، ومن شرطه أن لا يُقصد إليه فيصير من الطيرة»[4]، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا طيرة، وخيرها الفأل. قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»[5].

١- مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، جـ٢، ص١١٦.
٢- مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، جـ٢، ص١٢٤.
٣- صحيح البخاري، عن أبي هريرة، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، رقم:٦٩٧٠، جـ٦، ص١٦٩٤.
٤- فتح الباري، جـ١٠، ص٢١٥، بتصرف يسير.
٥- صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الفأل، رقم:٥٤٢٣، جـ٥، ص٢١٧١.

قال ابن بطال رحمه الله: «وقد جعل الله في فِطرة الناس محبة الكلمة الطيبة والفأل الصالح والأنس به، كما جعل فيهم الارتياح للبشرى والمنظر الأنيق، وقد يمر الرجل بالماء الصافي فيعجبه وهو لا يشربه، وبالروضة المنثورة فتسره وهي لا تنفعه»[1].

وكان النبي ﷺ يبثُّ روح التفاؤل، وكان يحب الفأل الحسن، ويستبشر به، ومن الفأل الصالح حُسن التسمية، ولذلك غيّر ﷺ أسماء بعض الصحابة، لما للاسم من أثر على نفس صاحبه، ويقول: «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة»[2].

والاستشراف الإيجابي من آثار حسن الظن بالله، والثقة به، وذاك من أسباب النصر.

وروح اليأس أو النفس المتشائمة لا يحبها رسول الله ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده، قال: وكان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعوده قال: لا بأس، طُهور إن شاء الله. فقال له: لا بأس طُهورٌ إن شاء الله. قال: قلتَ: طُهورٌ؟ كلا، بل هي حُمّى تفور، أو تثور، على شيخ كبير، تزيره القبور، فقال النبي ﷺ: فنعم إذًا»[3].

ثالثا: مقومات الاستشراف الإيجابي.

١ - زاد الثقة بنصر الله.

عن خباب بن الأرتّ رضي الله عنه، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بردةً

١- شرح صحيح البخاري، لابن بطال، جـ٩، ص٤٣٧.
٢- سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم:٤٥٥٠، جـ٢، ص٧٠٥. صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: ١٠٤٠، جـ٣، ص٣٣. وذكر الشيخ الألباني رحمه الله له شاهدا هناك عن الحسن بن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم من الأسماء بيزيد فإنه ليس أحد إلا وهو يزيد في الخير والشر والحارث فإنه ليس أحد إلا وهو يحرث لآخرته أو دنياه وهمام فإنه ليس أحد إلا وهو يهم بآخرته أو دنياه فإن أخطأتم هذه الأسماء فعبدوا»، جـ٣، ص٣٤.
٣- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم:٣٤٢٠، جـ٣، ص١٣٢٤.

له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[١]. فالواثق بنصر الله مطمئن الخطى، يغرس الشجر، ولا يستعجل قطف الثمر.

ومن المبشرات الكثيرة نستمد الاطمئنان إلى نصر الله تعالى.. ومن المنذرات نستمد العزم والحزم، ونواجه بالثقة في الله حملات التشكيك في ديننا وقيمنا، وتسلط الأعداء على ديارنا، وغزو ثقافتهم لأذهان أجيالنا..

٢ – زاد العلم.

من مقومات الاستشراف الإيجابي العناية بالعلم، أقصد كل علم نافع تحتاج إليه الأمة، ولا يخفى حثُّ النبي ﷺ على طلب العلم، لكن المناسب للمقام هنا أن نذكر واحدا من نصوص الاستشراف النبوي، فعن أنس ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم، ويكثر الجهل..»[٢].

والمقصود الحث على تعلم العلم، فإنه لا يُرفع إلا بقبض العلماء، وما دام من يتعلم العلم موجودا، فلا يحصل الرفع[٣].

وتوارُثُ أمانةِ العلم بين أجيال العلماء حقيقة ثابتة عبر القرون، قال ﷺ: «يحمل هذا العلمَ من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال

١- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم: ٣٤١٦، جـ٣، ص١٣٢٢.
٢- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل، رقم: ٨٠، جـ١، ص٤٣، وصحيح مسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، رقم: ٢٦٧١، جـ٤، ص٢٠٥٦.
٣- انظر: فتح الباري، جـ١، ص١٧٨.

المبطلين، وتأويل الجاهلين..»[1]. ولذلك حمل العلماء أحاديث رفع العلم على آخر الزمان، وقالوا إن رفعه من علامات الساعة[2]، وهو تفسير استشرافي إيجابي؛ لأنّ الحكم برفع العلم مطلقا من شأنه زرعُ اليأس من تحصيل العلم، والحديث السابق يردُّه.

٣ – حِصن الوَحدة.

الوحدة الإسلامية من أهم مقومات الاستشراف الإيجابي، وفي الارتباط الوثيق بين وَحدة الأمة والفعل الإيجابي المؤثر بالإصلاح، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾، ثم يقول في الآية التي بعدها: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٣-١٠٤).

ومن الاستشراف النبوي في ذلك ما جاء من التحذير من الاختلاف المذموم الذي يحصل بين المسلمين، كما في حديث العرباض بن سارية ﵁، أن النبي ﷺ قال: «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا..»، ثم أرشد إلى الموقف السليم والإيجابي تجاهه، وهو الاعتصام بالكتاب والسنة واجتناب البدع: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»[3].

١- السنن الكبرى للبيهقي عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري مرسلا، كتاب الشهادات، باب الرجل من أهل الفقه يسأل عن الرجل من أهل الحديث فيقول كفوا عن حديثه، جـ١٠، ص٢٠٩، والطبراني في مسند الشاميين، رقم (٥٩٩)، جـ١، ص٣٤٤. وقال العلامة ابن الوزير الصنعاني (ت٨٤٠هـ): «الظاهر صحته أو حسنه..»، وقال في آخر كلامه بعدما ذكر وجوه تقويته: «فهذه الوجوه مع تصحيح أحمد وابن عبد البر وترجيح العقيلي لإسناده مع سعة اطلاعهم وأمانتهم يقتضي جواز التمسك به». اهـ من الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، جـ١، ص٤٢-٤٤.

وقواه العلامة ابن القيم في كتابه مفتاح دار السعادة بطرقه الكثيرة، وأكد تصحيح الإمام أحمد له. جـ١، ص١٦٣-١٦٤.

٢- فتح الباري، جـ١، ص١٧٨.

٣- سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم:٤٦٠٧، جـ٢، ص٦١٠. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم:٩٣٧، جـ٢، ص٦١٠.

٤ – حراسة الدين والقيم:

ومن مقومات الاستشراف الإيجابي حراسة الدين والقيم، ومن الاستشراف النبوي في ذلك، حديث السفينة، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا»[١].

٥ – قوة الدعاء:

وبالدعاء نستشرف المستقبل، فنستلهم القوة الروحية المنبعثة من اليقين في الله والتوكل عليه وحسن الظن بمجاري أقداره، يقول النبي ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»[٢].

وفي استقبال الغد بانشراح ونشاط وقوة يعلمنا النبي ﷺ أن نقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضِلَعِ الدَّين، وغَلَبَة الرجال»[٣].

وبدعاء الاستخارة نستقبل ما يختاره الله لنا من الأقدار بالرضى والتوكل والعزم.

١- سبق تخريجه.

٢- سنن الترمذي، أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ باب جامع الدعوات عن النبي ﷺ، رقم:٣٤٧٩، جـ٥، ص٥١٧، وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وحسّنه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم: ٥٩٤، جـ٢، ص١٤١.

٣- صحيح البخاري، عن أنس ﷺ، كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبي للخدمة، رقم:٢٧٣٦، جـ٣، ص١٠٥٩.

رابعا: خصائص الاستشراف الإيجابيّ في السّنّة النّبويّة.

أ – استشراف مؤطّر بالإيمان بالقضاء والقدر والرّضى بهما.

إن المستقبل ليس كلّه قدرا غالبا، محتوم الوقوع على الإنسان، وإنما هناك مساحة واسعة من القدر يكون للإنسان يد فاعلة فيها وله التأثير المباشر عليها، يرمز إلى هذا حديث أبي خزامة عن أبيه قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أرأيت رقًى نسترقيها ودواءً نتداوى به وتقاةً نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: «هي من قدر الله»[1].

وقول عمر ﷺ لأبي عبيدة ﷺ يوم ناقشه في الفرار من الطاعون: «نفر من قدر الله إلى قدر الله..»، فلما جاء عبد الرحمن بن عوف – وكان متغيبا – قال: إن عندي في هذا علما، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه»، قال: فحمد الله عمر ثم انصرف»[2].

وفي الرضى بالقدر يُروى حديثُ أُبيّ بن كعب ﷺ، «ولو أنفقت مثل أحد ذهبا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك»[3].

ب – استشراف وَفق السُّنن الإلهية لا التّكهّنات الغيبيّة.

ويرمز إلى هذا حديث تداعي الأمم، وفيه درس استشرافي بليغ يعلمنا من خلاله النبي ﷺ كيف نحلل واقعنا تحليلا سننيا، لنصل إلى مكمن الخطر وأصل

١- الترمذي، كتاب الطب، باب الرقى والأدوية، رقم:٢٠٦٥، جـ٤، ص٣٩٩. وحسنه الشيخ الألباني، في تخريج أحاديث مشكلة الفقر للقرضاوي، رقم:١١، ص١٣.
٢- صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، رقم:٥٣٩٧، جـ٥، ص٢١٦٣.
٣- أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر، رقم:٤٦٩٩، جـ٢، ص٦٣٧، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم:٢٤٣٩، جـ٥، ص٥٦٦.

العلّة لدى الأمة، وهي علّة نفسية خلقية، قبل كل شيء، ليست مادية ولا اقتصادية، إنها علة العلل، وداء الأدواء، إنه الوَهَن الذي دخل الأنفس، فغيرها...[1].

والتحليل السننيّ يفضي إلى أن المسلمين اختاروا أن ينسحبوا من الفعل الحضاري شيئا فشيئا، وأن يتركوا الفاعلية لخصومهم، وأن يتحولوا بمرور الوقت إلى كمٍّ لا يملك القدرة الحقيقية على الصيرورة والتنامي، ولا يملك ثقله في مجابهة التحديات.. ومع الموقف الإرجائي سادت روح التقليد والاتباع، بدلا من روح التجديد والاجتهاد والإبداع التي طالما وضعت الأمة الإسلامية في الصدارة..[2].

ج - استشراف يقوم على الأمل في حسن العاقبة.

من ركائز عقيدتنا التعلق بالأمل وطرد اليأس، والأمل هو حياة النفوس، وهو أخو الروح التي تسكن الجسد فتنشر فيه الحياة، واليأس موت للأرواح، ووأد للطموح، وضيق للقلوب وحرج للصدور، قال الشاعر:

أُعَلِّلُ النَّفْسَ بالآمال أَرْقُبُها × ما أَضْيَقَ الْعَيْشَ لولا فُسْحَة الأمل[3]

والمقصود بالأمل في اللغة الرجاء، أما في الاصطلاح فهو تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل..[4].

والرجاء غير التمني، والفرق بينهما أن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك

١- انظر: السنة مصدرا للمعرفة والحضارة، د. يوسف القرضاوي، ص١٢١.

٢- انظر: مستقبل الإسلام في ضوء التحديات الراهنة، د. عماد الدين خليل، ضمن مجموعة بحوث بعنوان: مستقبل الإسلام، ص٣٢١-٣٢٢. بتصرف يسير.

٣- خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي، تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري، جـ١، ص١٨٧.

- والبيت من قصيدة لامية العجم، للطغرائي أبي إسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، مؤيد الدين، الأصبهاني، شاعر، من الوزراء الكتاب، كان ينعت بالأستاذ. توفي سنة ٥١٣هـ. انظر: الأعلام للزركلي، جـ٢، ص٢٤٦.

٤- انظر: التعريفات للجرجاني، ص١٤٦.

بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل[1].

وفي القرآن والسنة بشائر جمة لعباد الله الصالحين، تنعش القلوب وتُعلي الهمم، وتذكّر بالفرج بعد الشدة وباليسر بعد العسر، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح:٥-٦).

والنظر إلى المستقبل بروح الأمل فريضة إلهية، والانجرار مع اليأس والقنوط معصية كبيرة، وذلك من أخلاق الكافرين، ومن الضلال عن الحق: ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (الحجر:٥٦).

وإن النفوس الصغيرة التي تعلقت بالنعم وألفت التقلّب في الرخاء، سرعان ما يُظلِم في أعينها المستقبل، إذا ما ابتليت بشظف من العيش أو أصيبت بضيق بعد سَعَة، فتغرق في اليأس، وتنسى عوائد المنعم في تبديل الأحوال، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (الروم:٣٦).

وفي سنّة رسول الله ﷺ وسيرته مواقف وتوجيهات، يربينا بها على الاعتصام بالأمل وحسن الظن بالله الذي بيده أحداث المستقبل.

كان رسول الله ﷺ يستشرف المستقبل استشرافا إيجابيا، فيعظُم أملُه في حصول الخير ولو كان مستبعدا؛ ولذلك لما ردّه قومه وأنكروا دعوته، وقال له ملك الجبال: «يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ قال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»[2].

ولما عرض للصحابة في حفر الخندق حجرٌ لا يأخذ فيه المعول، واشتكوا

١- انظر: تهذيب مدارج السالكين لابن القيم، هذبه عبد المنعم صالح العلي العزي، جـ١، ص٤٧٦.

٢- صحيح البخاري، عن عائشة رضي الله عنها، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء، رقم:٣٠٥٩، جـ٣، ص١١٨٠. ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم:١٧٩٥، جـ٣، ص١٤٢٠، رقم:٤٧٥٤.

ذلك إلى رسول الله ﷺ، «جاء رسول الله ﷺ فألقى ثوبه، وأخذ المعول وقال: بسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلث الصخرة، قال: الله أكبر، أعطيت مفاتح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحُمر الآن من مكاني هذا، قال: ثم ضرب أخرى وقال: بسم الله، وكسر ثلثا آخر، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة وقال: بسم الله، فقطع الحجر، قال: الله أكبر، أعطيت مفاتح اليمن، والله إني لأبصر باب صنعاء»(١).

ومن عجيب الأمثلة على التعلّق بالأمل حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»(٢).

وفي الرجاء في الشفاء يقول النبي ﷺ: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»(٣).

إنّه من الحتم اللازم أن نبعث الأمل في النفوس و«أن نقاوم روح اليأس والانهزامية المميتة التي تشيع بين الناس، أن لا فائدة، ولا أمل في تغيير أو إصلاح، وأن ما يأتي أسوأ مما يذهب، فهذه الروح الانهزامية منافية لمنطق الحياة التي يعقب الله فيها النهار بعد الليل، والخصب بعد الجدب، ومنافية لمنطق الكفاح الذي نهضت به الأمم، وسادت به الشعوب، وهي قبل ذلك منافية لمنطق الإيمان الذي يرفض اليأس ويعتبره من دلائل الكفر ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧)»(٤).

١- السنن الكبرى للنسائي، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، كتاب السير، حفر الخندق، رقم:٨٨٠٧، جـ٨، ص١٣٣. قال المحقق الشيخ شعيب الأرنؤوط: تفرد به النسائي من بين أصحاب السنن الأربعة، ولم يعلق عليه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «وفيه ميمون أبو عبد الله وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات». رقم: ١٠١٣٨، جـ٦، ص١١٧. وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي، رقم:٣١٧٦، جـ٢، ص٣٩٧-٣٩٨. مع اختلاف في الرواية.

٢- سبق تخريجه.

٣- صحيح البخاري، عن أبي هريرة، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، رقم:٥٣٥٤، جـ٥، ص٢١٥١.

٤- هموم المسلم المعاصر، للشيخ يوسف القرضاوي، ص١٣٩-١٤٠.

وإن ما يقدمه المصلحون اليوم لإحياء الدين والأمة قد لا يؤتي ثماره عاجلا، ولكن الأكيد هو أنه لن يضيع هباءً؛ بل ستحصد ثماره الأجيال القادمة. ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ (التوبة:١٠٥).

د- استشراف لحضارةٍ محورُها الإنسان.

جاءت دعوة الإسلام خاتمة للرسالات، رحمة عامة للإنسانية، ذلك أن الإسلام يستشرف حضارة محورها الإنسان من حيث هو إنسان، فلا تتمحور حول المسلمين وحدهم..

ومن دلائل ذلك أن الله لم يهلك أمّة الدعوة المحمدية من عذاب الاستئصال الذي عذّب به الأممَ المكذِّبةَ رسلَها من قبل، فأرسل محمدا ﷺ رحمة للعالمين ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، ولذلك لم يقض على مكذّبيه قضاء عاجلاً؛ بل أمهلهم وأملى لهم ليخرج منهم من يؤمن به، كما رجا رسول الله ﷺ، ولذلك لما قالوا: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ (الأنفال:٣٢)، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ ﴾ (الأنفال:٣٣)، وقد حصل ما رجاه رسول الله ﷺ..[١].

ومن السنة حديث جابر بن عبد الله، رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «.. بعثت إلى الناس كافة»[٢].

ويوجه النبي ﷺ نداء عامّا للناس كافة، فيقول: «يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة»[٣].

١- انظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ج٧، ص١٥٢.

٢- صحيح البخاري، كتاب الصلاة، أبواب المساجد، باب قول النبي ﷺ جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم:٤٢٧، ج١، ص١٦٨.

٣- المستدرك على الصحيحين، للحاكم، عن أبي هريرة، كتاب الإيمان، رقم:١٠٠، ج١، ص٩١، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرطهما فقد احتجا جميعا بمالك بن سعير، والتفرد من الثقات مقبول. ووافقه الذهبي في التلخيص.

ماذا لو عرف غير المسلمين في عصرنا هذه القيم على طهرها وصفائها؟ لاشك أن رحمة الإسلام ستصل إلى شغاف قلوبهم، وعليه فإنه يجب ألا ينحصر الهم الإصلاحي في الإنسان المسلم، بل ينبغي أن يتحول إلى هم إنساني، يسعى إلى نشر البر والتسامح، ويرفض الدعوات إلى استعداء الشعوب، وحرب الديانات، وصدام الحضارات[1].

هـ - استشراف للصورة الحسنة الوضيئة للإسلام في أعين الغير.

من الاستشراف الإيجابي أن ننظر إلى مستقبل الإسلام ودعوته، وأن نحرص على بقاء سمعة الإسلام وضيئة في أعين غير المسلمين، ترغيبا لهم في الدخول فيه.

ومما يشهد لهذا الاستشراف حديث جابر ﷺ «أن عبد الله بن أبيّ المنافق قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟ لعبد الله، فقال النبي ﷺ: لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه»[2].

وبالمقابل ينبغي أن نحرص على أن نُجَنِّب الإسلام حربا إعلامية تشويهية مغرضة، فكم يفرح خصوم الإسلام إذا أعطاهم المسلمون فرصة لكيل التشويهات، فيطيرون بها في الآفاق، مشيرين إلى الإسلام والمسلمين بأصابع الاتهام. ويكفي ما يعانيه الإسلام اليوم من تشويه الخصوم المعاندين..

١- مستقبل الإسلام في رؤية حضارية، لؤي صافي، ضمن مجموعة بحوث بعنوان: مستقبل الإسلام، ص٣٩٠-٣٩١.

٢- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، رقم: ٣٣٣٠، جـ٣، ص١٢٩٦. وفي رواية الإمام مسلم: قال رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»، وفيها قال النبي ﷺ لعمر: «دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه». صحيح الإمام مسلم، كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما، رقم: ٢٥٨٤، جـ٤، ص١٩٩٨.

خــــاتمة

وبعد..

فقد بانت لنا صفحات مشرقة من الاستشراف الإيجابي في الخطاب النبوي المستقبلي، الذي يحسن أن نعمق فيه الدراسة بالتحليل والتعليل، لمعرفة مقاصده وآثاره في النفس والمجتمع، ودوره في بناء الشخصية المسلمة.

وينبغي أن تقوم هذه الدراسة على مبادئ الإسلام الكبرى وقواعده الكلية التي بنيت عليها الشريعة الإسلامية، حتى نصل إلى التصورات الصحيحة، ولا ننزلق إلى الأوهام والخيالات التي أخلّت ببناء الشخصية المسلمة سواء على المستوى المعرفي والمستوى السلوكي، ومما يعصم من الفهم المنحرف مقابلة الأحاديث المنذرة بالأحاديث المبشرة، لنفهم الخطاب النبوي على كماله، ولننفي عنه ما يبدو من التعارض الظاهري..

- وينبغي أن ندرك الأثر الخطير لسوء الفهم للسنة في تعطيل طاقات الفكر ومواهب العقل، والوقوع في الجبرية التاريخية، والقدرية الاستسلامية لتداعيات ما يحدث في الحاضر، وفصل النتائج عن الأسباب والمقدمات، وإقالة تامة لفاعلية الإنسان المسلم وإيجابيته في الحياة.

- وإن مرض النفس الواحدة كمرض الأمة كاملة، وقانون الطب في النفوس هو نفسه قانون الإصلاح في المجتمعات، ومن هنا فنحن في حاجة إلى قراءة سُننية لأمراض أمتنا وعلاجها، وفي سنة النبي ﷺ من النبوءات الصادقة ما يوفر علينا جهدا عظيما من النظر والبحث في تفسير أمراضنا، كما يضمن لنا السداد في اقتراح العلاج لها، إن نحن أحسنا القراءة والتدبر والتحليل والتعليل والاعتبار.

- وكم نحن في حاجة إلى التركيز على التفكير السنني، حتى لا نضيع في متاهات الواقع الأليم، وبدل أن نغرق في ضخامة المشكلات وجسامة الآلام ينبغي أن نواجهها بعلم وحزم وعزم، وبدل أن نلعن الظلام نوقد شمعة كما قيل، وتلك هي الإيجابية..

أهم نتائج البحث:

١- الاستشراف الإيجابي قيمة أصيلة من القيم الحضارية الإسلامية، وهو فريضة شرعية تفرضها نصوص الإسلام وقواعده ومقاصده، ويحتمها الواقع الراهن للمسلمين.

٢- الاستشراف الإيجابيّ للمستقبل يسهم في إعادة التشكيل الفكري والسلوكي للمسلمين، ليتوازن مع حركيّة الإسلام وطبيعته المؤثِّرة في صلاح الإنسان - فردا أو جماعة أو أمّة - بوصفه مستخلفا في الأرض.

٣- إن من قدر الله ما يصنعه الإنسان بإرادته واختياره، وإن وقوع الفتن ليس قدرا غالبا يتحتم التسليم له والرضى به؛ بل إن من الفتن ما تحكمه سنن وقوانين، وهو نتائج لمقدمات وأسباب داخلة في تكليف الإنسان.

٤- الاستشراف الإيجابيّ للمستقبل يجعلنا نتطلّع لصناعة مستقبلنا بأيدينا، ولا ننتظر أن يصنعه لنا خصومنا وأعداؤنا، أو على الأقلّ يجعلنا نقلّل من تأثير خصومنا فينا.

٥- ينبغي أن يكون استشراف المستقبل بأعين بصيرة، والتخطيط له بأيدٍ خبيرة، تفقه متطلبات المرحلة الزمنية وطبيعة البيئة المكانية، وحاجات الإنسان في الواقع.

٦- بالاستشراف الإيجابي نمهِّد لتخطيطٍ إيجابي يستوعب الحاجات الآنيّة لأجيال أمّتنا.

ومما يمكن التوصية به:

١- ينبغي لنا أن نستمد الرؤى المستقبلية من وحي النصوص الشرعية - قرآنا وسنة - بالفهم السليم المستقيم، وينبغي تشجيع الدراسات الإسلامية في هذا الجانب.

٢- العناية بتربية الجيل الإسلامي على التفكير السُّنني، والتخطيط السُّنني، من خلال المناهج التعليمية.

٣- أخطر ما يهزم الأمة (دبيب اليأس)، وأذكى ما ينهض بالأمة (روح الأمل)، لذلك يجب أن تقوم تربية الأجيال وتوعيتهم على مقاومة روح السلبية، وإذكاء روح الأمل.

وأخيرا نقول: إن الصفحة الكئيبة التي تعلو حاضر عالمنا الإسلامي اليوم ستمحوها صفحات مشرقة مضيئة، وذاك شأن تاريخنا، وتلك سُنّة إلهية، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١٤٠).

والله ولي التوفيق.

قائـمة المصادر والمـراجع

١ - القرآن الكريم برواية الإمام حفص.

٢ -إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار االمعرفة - بيروت.

٣- استشراف المستقبل في الحديث النبوي، د. إلياس بلكا، كتاب الأمة، العدد ١٢٦، مركز البحوث والدراسات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٤٢٩هـ.

٤- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، ط٥، ١٩٨٠م.

٥ -الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ)، حققه وعلق عليه أبو أنس سيد بن رجب، دار الهدي النبوي – مصر، دار الفضيلة – السعودية، ط١، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

٦- التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس، ١٩٩٧م.

٧- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٨- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، (ت٧٧٤هـ)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٩- تهذيب مدارج السالكين، لابن القيم، هذبه عبد المنعم صالح العلي العزي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٠-الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١١- حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، دار الثقافة للجميع، دمشق، ط٦، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٢-خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط١، ١٩٨٧هـ.

١٣- الروح، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

١٤- الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، الإمام العلامة السيد أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بابن الوزير الصنعاني (ت٨٤٠هـ)، تحقيق محمد علاء الدين الحصري، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

١٥- الزهد والرقائق لأبي عبدالرحمن، عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٦- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٥م.

١٧- السنة مصدرا للمعرفة والحضارة، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق – القاهرة، ط٣، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١٨- سنن البيهقي الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩م.

١٩- سنن الترمذي: الجامع الصحيح، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين.

٢٠- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، تعليق كمال يوسف الحوت، دار الفكر.

٢١- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت.

٢٢- السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق وتخريج حسن عبد المنعم شلبي، بإشراف شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

٢٣-سير أعلام النبلاء، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٩، ١٤١٣هـ.

٢٤- شرح صحيح البخاري، لابن بطال، أبي الحسين علي بن خلف بن عبد الملك، ضبط وتعليق أبي تمام ياسر بن إبراهيم. مكتبة الرشد – الرياض، ط١، ٢٠٠٠م.

٢٥- شرح النووي على صحيح مسلم، المسمى: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، لأبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

٢٦- صحيح البخاري، وهو الجامع الصحيح المختصر، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير،

اليمامة - بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٢٧-صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٨- صحيح سنن النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢٩- صحيح مسلم بن الحجاج، أبي الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٠- عون المعبود شرح سنن أبي داود، لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ.

٣١- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

٣٢- في الطريق إلى الله الكتاب الثالث (التوكل)، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة - القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٣٣- القضاء والقدر، د. عمر سليمان الأشقر، دار النفائس - الأردنّ، ط١٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٣٤- كيف نتعامل مع السنة - معالم وضوابط - د. يوسف القرضاوي، تقديم أ. د. طه جابر العلواني، منشورات دار الكتب - مطابع المطبوعات الجميلة - الجزائر.

٣٥- كيف نفهم الإسلام، الشيخ محمد الغزالي، طبعة دار الكتب، الجزائر.

٣٦- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط١، دار صادر - بيروت.

٣٧- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة ٨٠٧هـ، طبعة دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٣٨- مجموع فتاوى شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي (ت٧٢٨هـ)، تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، مكتبة ابن تيمية ـ الرياض.

٣٩- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٤٠- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م. ومع الكتاب تعليقات الذهبي في التلخيص.

٤١- مستقبل الإسلام، مجموعة بحوث لمجموعة من العلماء والمفكرين، صادرة عن دار الفكر - دمشق، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٤٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٤٣- مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني، السعودية، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٤٤- مسند الشاميين، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

٤٥- مشكاة المصابيح، لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

٤٦- مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت، ط١، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٤م.

٤٧- الموافقات في أصول الفقه، إبراهيم بن موسى الشاطبي اللخمي الغرناطي المالكي، تحقيق عبد الله دراز، دار المعرفة - بيروت.

٤٨- المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥هـ.

٤٩- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبع سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥٠- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، المعروف بابن القيم (ت٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية-بيروت.

٥١- المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق لأبي بكر محمد بن جعفر بن سهل الخرائطي، (ت٣٢٧هـ)، انتقاء الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السِّلْفي الأصبهاني، تحقيق محمد مطيع الحافظ، غزوة بدير، دار الفكر - دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٥٢- هموم المسلم المعاصر، د. يوسف القرضاوي، طبعة دار الشهاب -باتنة، الجزائر.

- انتهى بحمد الله تعالى -

النظرة الإيجابية للمستقبل
في السنة النبوية
وأثرها في تقدم الفرد والمجتمع

أ.د. محمد زرمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية/جامعة باتنة، الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تنشأ النظرة الإيجابية للمستقبل من التفكير الإيجابي السليم، الذي يتوقع الخير في الأحداث الحرجة والملمات الصعبة، ويستجمع القوى للبحث عن الحل الأنسب، وإيجاد المخرج بالتركيز على الجوانب الإيجابية في الحالة، بدل التركيز على الجوانب السلبية فيها. والنظرة الإيجابية للمستقبل هي طريق النجاح وسبيل التوفيق، ويقابلها التفكير السلبي الانهزامي الاستسلامي الذي يبرر الخضوع والخنوع والرضا بالواقع الحقير، ويثبط العزائم ويقتل الهمم، ويفسد الحاضر والمستقبل.

وللنظرة الإيجابية للمستقبل أثرها العظيم على سلوك الفرد وتوجه المجتمع، فمنها ينشأ الأمل الذي يعطي للإنسان الطاقة النفسية التي تعينه على تحمل ضغوط الواقع، وتحمله على مواجهة التحديات وتدفع به إلى الأمام لتحقيق أهدافه وتغيير أوضاعه، وتحفظ له توازنه العقلي والنفسي الذي يتيح له التفكير باعتدال واطمئنان، ومنها تستمد الأمم والمجتمعات القدرة على الصمود ومدافعة عوامل الاستلاب ومحاولات المسخ والإذابة، وتملؤها بالتفاؤل وتعينها على التمسك بأهداب الأمل، وتحفزها للعمل بجد لتغيير أوضاعها نحو الأحسن، وتجاوز مرحلة الذلة والهوان بنجاح. فحينما نتوقع الأفضل فإن هذا الشعور يخرج من أعماق الذات والمجتمعات أحسن ما فيها، ويثير القوى الإيجابية الكامنة فيها؛ فتتفجر طاقاتها وتتأهب للمواجهة والعمل وهي في أوج عطائها وقمة طموحها.

وللنظرة الإيجابية للمستقبل في القرآن الكريم ميدان فسيح، سواء تعلق الأمر بالأفراد أم بالجماعات والأمم، فبالنسبة للأفراد: يوجه الله تعالى في كتابه

العزيز نداءً رحيمًا لعباده الذين ضلوا الطريق وظلموا أنفسهم، بانتهاك المحرمات وإتيان المعاصي، حتى ضجت فطرتهم واستيقنوا الهلاك فيقول لهم: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣]. بل إنه يمد لهم في مساحة الأمل، ويعدهم وعدا صادقا إن هم أنابوا إلى الصراط المستقيم، فإن كل ما اقترفوه من السيئات سيبدل لهم حسنات زيادة من فضله وكرمه ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٧٧)، وأما الجماعات والأمم فيقطع الله على نفسه وعدا صادقا لا يتخلف لمن يبذل الجهد في نشر الخير والدعوة إلى الله، وإعمار الأرض، وإقامة الحق والعدل والصبر على الشدائد بالنصر المؤزر: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٥٥).

أما السنة النبوية فقد كانت في جميع جوانبها القولية والفعلية والتقريرية، تؤسس للتفكير الإيجابي وتغرس الأمل في النفوس المتعبة غرسا، وتستنهض الهمم في غد مشرق ومستقبل واعد، وتدعو إلى استقبال الحياة بتفاؤل مهما عظمت الخطوب واشتدت الكروب. ومن أمارات هذه الدعوة الملحة إلى التفاؤل والإيجابية أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله؛ لكي لا يبقى المؤمن أسير الإحساس القاتل بذنوبه التي ارتكبها قبل أن يعرف الحق ويأوي إليه، وأن باب التوبة مفتوح لكل ضالٍ وكل مسيء لا يغلق في وجهه ما لم يغرغر، وأن لكل ذنب كفارة من عبادات يزكي بها نفسه أو عمل اجتماعي ينفع به أمته، وأن الله جل جلاله ينزل في كل ليلة ينادي هل من تائب فأتوبَ عليه، ليظل الإنسان محافظًا على النظرة الإيجابية للمستقبل، فلا يتعثر في أخطائه، ولا يتوقف نشاطه بسبب هفواته وغفلاته. وإذا زلت به قدمه أو أخطأ التقدير فلا يستسلم للندم، بل يرضى بما قدر

الله ويستأنف الحياة بروح راضية طموحة: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»(١).

وبالنسبة للجماعات والمجتمعات، مد الرسول عليه الصلاة والسلام للمسلمين فسحة الأمل مدًا، ورسخ مبدأ التفاؤل بينهم وهم في أشد حالات الإحباط والحرج. ففي أوج المحنة التي كانت تعصف بالعصبة المسلمة القليلة التي كانت تحتضن مبادئ الدين الجديد، وعوامل الفناء تتربص بهم من كل جانب، يقف رسول الله ﷺ وسط أصحابه مقسمًا بالله ومعلنًا لهم في كل ثقة: «وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»(٢)، فتنتعش النفوس بالآمال، وتخف وطأة الضغوط، وتتجدد مصادر الطاقة، وتمتلئ القلوب بالإيمان بوعد الله الصادق، ويمتثلون أمره في عدم الاستعجال واحترام السنن الكونية التي تتحكم في التغيرات الكبرى التي تقلب أوضاع المجتمعات وتغير مسار تاريخ الإنسانية. وفي غزوة الأحزاب عندما زلزل المؤمنون زلزالاً شديدًا، وبلغت القلوب الحناجر، وحاصرهم المشركون من كل مكان، ونقض اليهود العهد وهددوا المجتمع المسلم الفتي وطعنوه في الظهر، ونشر المنافقون الأراجيف ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الأحزاب: ١٢) نزل رسول الله ﷺ جائعًا متعبًا إلى الخندق ليزيل الصخرة التي أعيت المسلمين، فضربها ثلاث ضربات، بشر المسلمين في الأولى بكنوز فارس والثانية بكنوز قيصر والثالثة بمفاتيح اليمن، فاستقرت النفوس الخائفة، وتعالت على الواقع بكل إكراهاته وسلبياته واستشرفت الغد المأمول، ووطنت نفسها على الصبر والتحمل حتى تنجلي الغمة ويزول الكرب.

١- صحيح مسلم. كتاب القدر. باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله. رقم ٤٨١٦.

٢- صحيح البخاري. كتاب المناقب. باب علامات النبوة في الإسلام. رقم ٣٣٤٣.

وفي الوقت الذي لم يكمل الإسلام انتشاره في أنحاء الجزيرة العربية، يحدث رسول الله ﷺ أصحابه بأن هذا الدين سيشمل الأرض كلها، ويصل إلى مشارقها ومغاربها: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»[1]، وفيه إحياء لآمال الأمة وتجديد لعزماتها؛ حتى لا يتسلل اليأس إلى قلوب أبنائها عندما تدور عليهم الدوائر ويتنكر لهم الزمان، فيظلون يحيون بهذا الأمل، يتلمسون في ضوئه أخطاءهم فيصححونها، ومواطن الخلل والقصور فيسدونها، ووسائل النهوض والعزة فيأخذونها بقوة، حتى يهيئوا لأنفسهم قاعدة سليمة نحو هذا الأمل البعيد الذي رسمه لهم نبيهم الكريم. ولا يستسلمون لدعاوى اليأس والإحباط التي لا تتورع عن نعي الأمة ونفض اليد منها اقتداء بقول الصادق عليه الصلاة والسلام: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ. قَالَ أَبُو إِسْحَقَ لَا أَدْرِي أَهْلَكَهُمْ بِالنَّصْبِ أَوْ أَهْلَكُهُمْ بِالرَّفْعِ»[2].

وعلى الرغم من أحاديث الفتن وافتراق الأمة إلى فرق، إلا أن النبي الكريم بشر أمته بأن ربه قد وعده ألا يسلط عليهم بذنوبهم عدوًا يستأصل شأفتهم ويستبيح بيضتهم، وإنما سيصيبهم من العنت والعذاب بقدر ما نكصوا عن واجباتهم وتخلوا عن حبل الله المتين، وهناك دائمًا بقعة ضوء تبعث الأمل وتصد أمواج اليأس ويعمل أصحابها بلا كللٍ ولا مللٍ لا يضرهم من خذلهم إلى قيام الساعة: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ»[3]، وقال عليه الصلاة والسلام:

١- مسند الإمام أحمد بن حنبل. أحمد بن حنبل. كتاب مسند الشاميين. باب حديث تميم الداري. رقم ١٦٣٤٤. ورواه الحاكم في المستدرك. رقم ٨٣٢٦. ج ٤. ص ٤٧٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٣. ج ١. ص ٣٢.

٢- صحيح مسلم. كتاب البر والصلة والآداب. باب النهي عن قول هلك الناس. رقم ٤٧٥٥

٣- صحيح مسلم. كتاب الإمارة. باب قوله لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق. رقم ٣٥٤٨.

«مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ»[1].

وتهدف هذه الورقة إلى تحديد الأبعاد والدلالات التي تحملها النظرة الإيجابية للمستقبل، وبيان أهمية هذه النظرة الإيجابية في التجربة الإنسانية عبر التاريخ ودورها في تطور المجتمعات وازدهارها، واستجلاء معالمها في ثنايا القرآن الكريم وبخاصة في حياة الأنبياء والرسل ،والتطرق للتأسيس النبوي للنظرة الإيجابية للمستقبل، ودراسة آثارها على مستوى الفرد، ثم على مستوى المجتمع والأمة في السنة النبوية، ونختم البحث بأهم النتائج والتوصيات.

وقد قسمت البحث إلى أربعة محاور، تطرقت في المحور الأول إلى الأبعاد والدلالات التي تكتسيها النظرة الإيجابية للمستقبل، وبينت في المحور الثاني أهميتها وآثارها في التجربة الإنسانية، وخصصت المحور الثالث للحديث عن التأسيس للنظرة الإيجابية في القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول والأعلى للهداية، وأفردت المحور الرابع لدراسة معالم النظرة الإيجابية للمستقبل في السنة النبوية الشريفة وأثرها في الفرد، وقد قسمت هذا المحور إلى خمسة مباحث، تناولت في المبحث الأول بناء الثقة بالذات، وفي المبحث الثاني التوبة الصادقة وتجديدها، وفي المبحث الثالث استثمار الإمكانات المتاحة في الوقت المناسب، وفي المبحث الرابع الدعاء وحسن الظن بالله، وفي المبحث الخامس مسؤولية الإنسان عن صناعة المستقبل. أما المحور الخامس والأخير فقد خصصته للنظرة الإيجابية للمستقبل في السنة النبوية وأثرها في المجتمع والأمة، وقسمته بدوره إلى أربعة مباحث، تناولت في المبحث الأول النظرة الإيجابية للمستقبل

١- السنن. الترمذي. كتاب الأمثال عن رسول الله. باب مثل الصلوات الخمس. رقم ٢٧٩٥. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه أحمد في مسنده. كتاب باقي مسند المكثرين. باب مسند أنس بن مالك. رقم ١١٨٧٨. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ج٧، ص٦: حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة. ورواه ابن حبان في صحيحه باب ذكر أوهم من لم يحكم صناعة الحديث أن آخر هذه الأمة في الفضل كأولها. ج ١٦. ص ٢٠٩، رقم ٧٢٢٦. وذيله شعيب الأرناؤوط بقوله: حديث حسن بشواهده.

وأثرها في تحقيق الانتصارات الكبرى، وفي المبحث الثاني النظرة الإيجابية للمستقبل وأثرها في تجديد الدين وإحيائه، وفي المبحث الثالث النظرة الإيجابية للمستقبل وأثرها في توخي الحذر والحيطة، وفي المبحث الرابع النظرة الإيجابية للمستقبل وأثرها في بث الأمل وشحذ العزائم، وختمت البحث بخاتمة لخصت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، وأتبعتها بجملة من التوصيات.

ويأتي هذا البحث في وقت تعيش فيه الأمة وضعًا حرجًا للغاية، وتتعرض فيه لضغوط قاسية داخلية وخارجية تكاد تسحقها تحت ثقلها. فعلى الجبهة الداخلية ما زالت الأمة تعاني منذ وقت طويل من آثار التخلف، وما يستتبعه من آفات الجهل والمرض والفقر والتبعية السياسية والاقتصادية والثقافية، وترزح تحت أثقال الآفات الاجتماعية والفساد الاقتصادي، وعلى الجبهة الخارجية تواجه الأمة غول العولمة المتوحش الذي يهدد برهن مقدراتها ومواردها المادية والبشرية، وطيها تحت جناحه العملاق، مستفيدًا من تحكمه التام في ثمار الثورة التكنولوجية التي أسلمت له قيادها. وقد تعالت أصوات من هنا وهناك، تبث الوهن في النفوس وتنشر مشاعر اليأس والقنوط، وترسم صورة سوداوية للمستقبل في ظل نظام عالمي متنفذ ومتغطرس، فكان لزامًا أن نذكر بما انطوت عليه السنة النبوية الشريفة من توجيهات وإرشادات، تحث المسلم على عدم الاستسلام للأمر الواقع، وضرورة مواجهة مصاعب الحياة ومصائبها بالصبر والتجلد والعمل الدائب المتفاني الذي لا يتوقف، وحسن الظن بالله في أن العاقبة للمؤمنين والنصر والتمكين لهذه الأمة الكريمة، وأن نجلي للناعقين بنعي الأمة والمتنبئين باندثارها، أن السنة المطهرة قد بينت بوضوح لا لبس فيه، أن ما نعيشه اليوم ليس سوى مرحلة انتقالية تدفع فيها الأمة ثمن أخطائها وانحرافاتها، وستأتي بعدها مراحل أكثر حزمًا وحسمًا يستعيد فيها المسلمون زمام الأمور ويصنعون التاريخ ويسطرون أحداثه بأفعالهم، بعد أن يتخلصوا من أمراضهم الداخلية ويستعدون لخوض الحياة بروح جديدة.

ولم أجد ضمن المراجع والمظان التي تمكنت من الاطلاع عليها دراسات سابقة تناولت هذا الموضوع بالطريقة التي عالجتها به.

أولا: النظرة الإيجابية للمستقبل: الأبعاد والدلالات.

لقد شاءت إرادة الله أن يتميز الإنسان دون سائر المخلوقات الأخرى بالقدرة على صنع أفعاله، وأن يتفرد عنها بهذه الحرية المطلقة التي تتيح له أن يختار بملء إرادته ما يشاء، وأن يسلك في الحياة السبيل الذي يراه صوابا، ويعتنق المبدأ الذي يرضي عقله ووجدانه، ومن ثَمَّ يتحمل مسؤولية أقواله وأفعاله وآثاره في الناس وفي الأرض. وهذا هو جوهر الأمانة التي تصدى لحملها منذ فجر التاريخ. قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا ﴾ (الأحزاب:٧٢): «أمانة الإرادة، أمانة المعرفة الذاتية، أمانة المحاولة الخاصة.. وهي ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله، وهي مناط التكريم الذي أعلنه الله في الملأ الأعلى... فاختصاص الإنسان بحمل الأمانة، وأخذه على عاتقه أن يعرف بنفسه، ويهتدي بنفسه، ويعمل بنفسه، ويصل بنفسه.. هذا كان، ليتحمل عاقبة اختياره، وليكون جزاؤه من عمله»[1].

فصنع التاريخ وإعمار الأرض وبناء الحضارة متوقف على حركة الإنسان؛ لأنه المخلوق الوحيد الذي يمتلك قوة التغيير والقدرة على الإنتاج: «فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ، وإذا سكن الإنسان سكن المجتمع والتاريخ»[2]، فماضي الإنسان وحاضره ومستقبله من صنع يده، ومن ثمرات تفكيره وسعيه، هو الذي يشكل ملامح هذه الأبعاد الثلاثة بناء على تصوراته واعتقاداته ومعارفه التي تتحول إلى سلوك واقعي يصنع الأحداث ويوجه الطاقات: «فقد قضت مشيئة الله وجرت سنته، أن تترتب مشيئته بالبشر على تصرف هؤلاء البشر، وأن

١- في ظلال القرآن. سيد قطب. مج ٥. ص ٢٨٨٥.
٢- تأملات. مالك بن نبي. ص ١٢٥.

تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم... وهو يحمل - إلى جانب التبعة - دليل التكريم لهذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة الله أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه»[1] مصداقًا لقوله عليه الصلاة والسلام :«كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»[2]، فالإنسان في كل أحواله كادح وساع في هذه الحياة، وحركته فيها إما أن تكون إيجابية أو سلبية، فإذا ما انسجم فيها مع سنن الأنفس والآفاق ترتب عليها الخير لنفسه ولغيره فتزدهر الحياة وتنمو ويعتق هو نفسه من العقاب ويفوز برضوان الله وجنته، وإما أن يصطدم بسنن الله في الكون ويتبع أهواءه فينتج عنها شر ووبال يطاله ويطال من حوله ويوبق نفسه بالمعاصي فتكون جهنم جزاؤه.

وما دام جهد الإنسان ينحو دائما وأبدا نحو تحقيق أكبر قدر من السعادة، وأعلى مستوى من الرفاهية، وأوفر حظ من الأمن والأمان لنفسه ولمحبيه من حوله، فإنه يتطلع دائما لأن يكون يومه خيرا من أمسه، وغده خيرا من يومه، فقد ورث هذا التطلع إلى الخير الوفير والنعمة التي لا تزول من أبيه آدم الذي أدركه ضعفه عند أول امتحان، فزلت قدمه وعصى ربه، واستسلم لإغواء الشيطان؛ لأنه حلف له كاذبا أن الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها هي شجرة الخلد والملك الذي لا يبلى ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ (طه: ١٢٠). لذلك نرى الإنسان يعد العدة ويحشد طاقاته الفكرية والنفسية والمادية ليحول حلمه في غد أفضل إلى واقع معاش، فمنهم من يخوض معركة الحياة بقوة ويتحمل مشاقها ومعاناتها حتى يصل إلى مبتغاه، ومنهم من يستسلم في أول الطريق ويلقي سلاحه عند أول امتحان، ويعيش حياته منزويا في ركن مظلم بعيدا عن ساحة الدنيا التي تموج بالحركة وتطفح بالنشاط، وهذا هو

١- في ظلال القرآن. سيد قطب. مج ٤. ص ٢٠٤٩.

٢- صحيح مسلم. كتاب الطهارة. باب فضل الوضوء. رقم ٣٢٨.

الفرق الجوهري بين صاحب النظرة الإيجابية للمستقبل الذي يمتلئ تفاؤلاً وبشرًا، وبين صاحب النظرة السلبية المتشائمة. فما هو مفهوم النظرة الإيجابية للمستقبل؟

النظرة الإيجابية للمستقبل أسلوب في التفكير يستمد قوته من طبيعة التكوين العقلي والنفسي للأفراد، وهو يرتكز في المقام الأول على جملة من المعتقدات والقناعات والتصورات، التي تتحكم إلى حد كبير في أسلوب تفكير الإنسان وطريقة تصرفه، ومواجهته للتحديات وتعامله مع القضايا والمشكلات، وما إليه من العوائق التي تعترض سيره نحو الأهداف التي سطرها لنفسه. وهذه الأفكار والتصورات تتوجه بالدرجة الأولى إلى العقل الباطن؛ لتزرع فيه المعاني الإيجابية عن الذات والحياة والناس، وتبث فيه المفاهيم المعتدلة المتوازنة التي تعين الإنسان على فهم الحياة بطريقة إيجابية، والتكيف مع تقلباتها وصعوباتها، والتعالي على تحدياتها، واستنفار الطاقة النفسية الكامنة في أعماقه لشحنه بما يلزمه من القوة للاستمرار ومواصلة السير.

والنظرة الإيجابية للمستقبل ليست وليدة الصدفة ولا هدية الطبيعة، بل هي نتيجة من نتائج التفكير الإيجابي، الذي هو بدوره ثمرة من ثمار التربية والتعليم والتدريب المنهجي، الذي يعتمد الأساليب الفكرية والنفسية المناسبة، ويعمل على صياغة هذا الجانب في شخصية الإنسان وتثبيته في أعماقه حتى يغدو جزءً صميما منه، ويتصدر ليلعب دور المرشد والموجه له أثناء ممارسته لدوره في الحياة. ويعرفه بدر الأنصاري بأنه: «يقوم على اقتناع الفرد بأن العقبات يمكن له أن يواجهها بنجاح ويتغلب عليها»[1]، بينما يذهب أحد الدارسين إلى أن التفكير الإيجابي هو «الإدراك الدقيق للواقع، تقبل الذات والآخرين والطبيعة، والتفرد والاستقلالية، والتمركز على المشكلات كموضوع خارجي وليس على الذات، والاهتمام الاجتماعي، وتكوين علاقات شخصية أكثر حبًا وعمقًا. كما يتضمن

١- التفاؤل والتشاؤم، المفهوم والقياس والمتعلقات. بدر محمد الأنصاري. ص ٥٨.

اتساق أهداف الفرد مع قيمه ومعتقداته، والتوافق مع الجماعة، وتقبل ومقاومة الضغوط، وبذل الجهد والإصرار على تحقيق الأهداف»[1].

وقد توصلت الدراسات النفسية والاجتماعية والتربوية الحديثة إلى أن طريقة تفكير الإنسان تحدد ملامح حياته كلها، وأن العقل الباطن يستمع باستمرار إلى ما يدور بالعقل الواعي ويختزنه، ثم يتحول إلى جملة من القناعات والآراء التي تدفع الإنسان إلى التصرف وفقها؛ لذلك أكد العلماء على أن الإنسان قادر على اختيار طريقة تفكيره، وقادر على ضبط مسار حياته، وتوجيه سلوكه، واتخاذ قراراته، والتخطيط لمستقبله، وليس للبيئة الخارجية سلطان عليه إلا بمقدار ما يسمح به هو: «إن العلاقة بين العقل والجسم تعمل بشكل دائم ومستمر إما لمصلحتك وإما لعكس ذلك، ويتوقف ذلك على الأفكار التي تملأ عقلك، فنحن في جوانب عديدة إنما نتعايش مع ما يحدث خارجنا انطلاقًا مما يحدث بداخلنا فتصرفاتنا في هذا العالم هي انعكاس لنظرتنا إليه»[2].

وبناء عليه، قرر الخبراء النفسانيون والاجتماعيون أنَّ تَبَنّي التفكير الإيجابي ضرورة لا غنى عنها للإنسان؛ حتى يتمكن من المحافظة على توازنه النفسي وسلامة قواه العقلية وصحته الجسمية. حيث ثبت بالتجربة والمشاهدة أن صاحب التفكير الإيجابي إنسان حيوي ونشيط ومتفاعل بقوة مع أحداث الحياة، يتحمل ضغوط الواقع ويتجاوزها، ويواجه المشاكل بشجاعة ويجتهد في حلها والاستفادة من آثارها، وإذا غلبته الصعاب وعرقلت سيره نحو هدفه غَيَّرَ طريقه واستحدث لنفسه أسلوبًا مغايرًا يرضي طموحه ويتناسب مع تطلعاته، وهذه الطريقة الفعالة في ممارسة الحياة تعطي للإنسان في كل مرة موارد للطاقة المتجددة التي تدفعه

١- مجلة علم النفس. ع ٧٦ ـ ٧٩. أكتوبر ٢٠٠٧ ـ أكتوبر ٢٠٠٨. "علم النفس الإيجابي: تعريفه وتاريخه وموضوعاته والنموذج المقترح له". محمد نجيب أحمد الصبوة. ص٢٣ ـ ٢٤.

٢- أسس الصحة النفسية. عبد العزيز القوصي. ص ٥٢، ٥٣.

إلى الأمام، وتجعله ينظر إلى المستقبل بتفاؤل وحبور، ولعلنا لا نجد شاهدًا يؤيد هذه الحقيقة العلمية أكثر من حديث رسول الله ﷺ الذي يصف فيه المؤمن فيقول: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمنِ إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلَّا للْمُؤْمنِ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1].

ذلك أن الحياة كما أخبر عنها الله سبحانه وتعالى دار ابتلاء وامتحان ودار عمل وشقاء ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ (البلد:٤) «أي لا يزال في مكابدة الدنيا ومقاساة شدائدها حتى يموت»[2]، لا ينال الإنسان فيها مبتغاه إلا بالجهد الدائم، والكد المتواصل، والسعي المستمر، ومغالبة الظروف، وهذه الحال تتطلب منه تكيفا نفسيا يتناسب معها؛ حتى لا يكون عرضة للانهيار ولا هدفًا سهلاً لليأس والاكتئاب عندما تصدمه المحاولات الفاشلة، والتحديات القاسية، والظروف المستجدة التي تخلط الأوراق، والقوى المتنافسة على الساحة، وكلها جزء مهم من خريطة الحياة، ومشهد يتكرر في كل مكان. فإذا لم يتسلح الإنسان بالقوة الفكرية والنفسية التي تعينه على تجاوز المشاق، سيسقط صريعًا تحت عجلات قطارها ويتجاوزه الزمن. ويستطيع أن يستمد هذه القوة من التفكير الإيجابي الذي يملؤه ثقة واطمئنانا ويدفعه نحو المستقبل دفعًا.

ويرتكز التفكير الإيجابي الذي تتولد عنه النظرة الإيجابية للمستقبل في الدراسات الحديثة على ثلاثة مرتكزات أساسية هي: بناء الهوية الإيجابية للذات، والنظرة الإيجابية للمجتمع، والنظرة الإيجابية للحياة، أي: «أن تحسن ظنك بذاتك، وأن تظن خيرًا في الآخرين، وأن تتبنى الأسلوب الأمثل في الحياة»[3]. وهذه الأبعاد الثلاثة تشمل المحيط الحيوي الذي يتحرك فيه الإنسان، ويمارس من

١- صحيح مسلم. كتاب الزهد والرقائق. باب المؤمن أمره كله خير. رقم ٥٣١٨.
٢- زبدة التفسير من فتح القدير. محمد سليمان عبد الله الأشقر. ص ٨٠٨.
٣- دراسات نفسية. مج١٨، ع ١، ٢٠٠٨. "الرضا عن الحياة لدى المجتمع الكويتي"، أحمد محمد عبد الخالق. ص ١٢٣.

خلاله دوره في الحياة، ونستطيع أن نضيف إليها نحن حسن الظن بالله إذ هو ملاك الأمر كله وقد قال العلماء: «إن حسن الظن هو تغليب جانب الخير على جانب الشر، وحسن الظن بالله هو أن تظن أنه سيعفو عنك ويرحمك بواسع رحمته وأنت على طاعته»[1]، فعندما يكل الإنسان أمره لله ويتوكل عليه في كل صغيرة وكبيرة يمتلئ قلبه اطمئنانًا ونفسه ثقة، ويستبشر بالخير ويتوقع الأفضل والأحسن، لأن الله تعالى وعده وعد الصدق إن هو استصحبه معه في مسيرة حياته أن يكون معه أينما حل وحيثما ارتحل. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِه ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[2]. «فالقلب المؤمن حسن الظن بربه، يتوقع منه الخير دائمًا بتوقع الخير في السراء والضراء، ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين، وسر ذلك أن قلبه موصول بالله، وفيض الخير من الله لا ينقطع أبدًا»[3].

ثانيا: أهمية النظرة الإيجابية للمستقبل في التجربة الإنسانية.

مما لا شك فيه، أن النظرة الإيجابية للمستقبل لها أثرها الواضح في الفرد والمجتمع، وتداعياتها الحسنة عليهما، وبصماتها الواضحة في مسيرتهما نحو الترقي والتطور. فقد تضافرت الدراسات والأبحاث لتؤكد أن الإنسان الذي يفكر بطريقة صحيحة، ويتبنى تصورات بناءة وينظر إلى المستقبل نظرة إيجابية ـ مهما كانت إمكاناته ـ يمتلك قدرة أكبر على ضبط النفس، والتغلب على الضغوط وحل المشكلات، ويتمتع بصحة نفسية جيدة تجعل دماغه في حالة استقرار، وتحفز جهازه المناعي على العمل بشكل أفضل، وتتيح له فرصة التفكير باعتدال وتوازن، وتوظيف

١- موسوعة أخلاق القرآن. أحمد الشرباصي. ج ٤. ص ٤٢.
٢- صحيح البخاري. كتاب التوحيد. باب ويحذركم الله نفسه. رقم ٦٨٥٦.
٣- في ظلال القرآن. سيد قطب. مج ٦. ص ٣٣١٩.

جميع الأشياء التي في داخله والمحيطة به توظيفا إيجابيا، الأمر الذي يساعده على تجديد جهوده باستمرار في مواجهة المشاكل والصعوبات والنكسات، التي يعتبرها محفزات للوصول إلى النجاح وإثبات الذات وتحقيق السعادة.

بينما يشعر صاحب النظرة السلبية إلى الحياة والمستقبل، بهبوط عام في الروح المعنوية، وتناقص مستمر في الدافعية للعمل والإنجاز، مصحوب بالحزن والتوتر والقلق وعدم الرضا عن النفس والقنوط والانسحاب الاجتماعي[1]، وإحساس حاد بالوحدة، فتسيطر عليه الأوهام ويتملكه الخوف، ويفقد الرغبة في العيش وتتمكن منه فكرة العبثية، وكلها مشاعر مدمرة وأفكار هدامة تبدد الطاقة الجسمية والنفسية، وتشتت الذهن، وتستدعي كثيرًا من الأمراض العضوية، وتكون نهايتها وقوع الفرد في براثن الاكتئاب واليأس، وسيطرة الميول الانتحارية عليه، وهذا الطراز من الناس لا يستطيع أن يجابه الحياة بمصاعبها وعقباتها، ولا يقوى على الصمود في وجه تقلباتها وتغيراتها؛ ومن ثم لا يتمكن من بناء المستقبل وصنع الحدث وتغيير التاريخ.

ولما كان المجتمع يتكون من مجموعة من الأفراد، فإنه من البدهي أن ينعكس نمط تفكيرهم وأساليب تصرفاتهم على مجتمعاتهم، فكلما غلب التفكير الإيجابي عليهم ظهرت آثاره في المجتمع، وكلما استكانوا للتشاؤم واليأس نال المجتمع نصيبه الوافر من ذلك. ويذهب كثير من المختصين إلى أن المجتمع الإيجابي المتفائل مجتمع عامل، نشيط، فعال، متفاعل بقوة مع الحياة، مؤمن بالنجاح، يسعى دائما إلى الأفضل، ويبحث دائمًا عن الجديد، ولا يفتأ يحول عقبات الحياة وتحدياتها إلى انتصارات، ومحاولاته الفاشلة إلى مشاريع ناجحة بصيغة مختلفة وطريقة مبتكرة، لا يستسلم ولا ييأس، ولا يعرف المستحيل، ومن الصعب أن تكسره المحن.

١- التفاؤل والتشاؤم، المفهوم والقياس والمتعلقات. بدر محمد الأنصاري. ص١٨.

أما المجتمع السلبي المتشائم الذي يرى أفق الحياة مسدوداً أمامه، والمستقبل مظلمًا، فهو مجتمع محبط وعاطل عن العمل، ماتت الفاعلية في أبنائه، وأقعدهم العجز والكسل وفتور الهمة عن طلب المعالي، ومقارعة الخطوب، ومغالبة الظروف المحيطة بهم، واستسلموا للواقع المتردي وأصبحوا يتحايلون عليه بأنواع الغش والخداع، وألوان النصب والاحتيال، لاستنزاف موارد الوطن البشرية والمادية لمصالحهم الشخصية، فتفشو بينهم الآفات الاجتماعية والجرائم الأخلاقية بكل أشكالها وأنواعها، ويصبحون لقمة سائغة للقوى المتنفذة، لأن الإنسان الذي لا يفكر بطريقة إيجابية لا بد أن يفكر في المقابل بطريقة سلبية، إذ لا مجال لأن يبقى العقل متوقفا عن العمل: «إن العقل لا يقبل الفراغ، فإذا لم نملأه بالأفكار الإيجابية فسوف تملؤه الأفكار السلبية»[1]، مصداقا لقول الإمام الشافعي: «نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل»[2].

وقد مر على المسلمين ـ بعد قرون التألق والحضارة ـ زمان ركدت فيه هممهم، وتعطلت عقولهم وخمدت إراداتهم، واستناموا إلى واقعهم بكل سلبياته ومآسيه، وأصبحوا يعيشون في فراغ كبير لا يشغل همهم إلا انتظار قيام الساعة؛ لأنهم زعموا أنهم بلغوا آخر الزمان الذي لا تفيد معه حيلة ولا ينفع معه عمل. وقد رسم لنا مالك بن نبي صورة حية لهذا المجتمع السلبي بالمجتمع الجزائري قبيل النهضة بعد أن سلط عليه الاستعمار عوامل الفقر والجوع والجهل والمرض والذلة والصغار، حتى فقد الإنسان الجزائري إحساسه بآدميته، ولم يعد يرى أبعد من يومه، فكان إذا سئل عن حاله يقول: «نأكل القوت وننتظر الموت»: «ولا يوجد تعبير أكثر وضوحا من هذا التعبير عن مجتمع فقد تماما مبررات الوجود»[3]، ومما

١- دراسات نفسية. مج ٩، ع ٤، ١٩٩٩ م. "مدى فعالية بعض أساليب العلاج المعرفي السلوكي في علاج بعض حالات الشره العصبي من طالبات الجامعة". زينب محمود شقير. ص ٥٢٣.

٢- تأييد الحقيقة العلية. جلال الدين السيوطي. ص ١٥.

٣- تأملات. مالك بن نبي. ص ٤٠.

زاد الطين بلة تحالف مشائخ الصوفية مع سلطات الاحتلال، لإقناع هذا الشعب الذي نزل إلى الحضيض، بأن ما يلقاه من عنت وعذاب من الاستعمار هو قضاء الله وقدره الذي لا سبيل إلى مغالبته، بل يتعين الاستسلام له والرضى به: «إذا كنا أصبحنا فرنسيين، فقد أراد الله ذلك، وهو على كل شيء قدير، وإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين فعل، وكان ذلك عليه أمرًا يسيرًا، ولكنه كما ترون يمدهم بالقوة وهي مظهر المخلصين، فلنحمد الله ولنخضع لإرادته»[1].

وهي ظاهرة سلبية تكاد تكون عامة في المجتمعات الإسلامية كلها، وقد انتقدها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بشدة، وأكد أنها سائدة لدى أغلبية المسلمين في مطلع القرن العشرين، وأنها ضاربة بأطنابها في أعماق المجتمع الجزائري فقال: «وأفكر في قومي المسلمين فأجدهم قد ورثوا من الدين قشورًا بلا لباب، وألفاظًا بلا معانٍ، ثم عمدوا إلى روحه فأزهقوها بالتعطيل، وإلى زواجره فأرهقوها بالتأويل، وإلى هدايته الخالصة فموهوها بالتضليل، وإلى وحدته الجامعة فمزقوها بالمذاهب والطرق والنحل والشيع ... وقد نسوا حاضرهم افتتانًا بماضيهم، وذهلوا عن أنفسهم اعتمادًا على أوليهم، ولم يحفلوا بمستقبلهم لأنه - زعموا - غيب - والغيب لله، وصدق الله وكذبوا، فما كانت أعمال محمد وأصحابه إلا للمستقبل، وما غرس محمد شجرة الإسلام ليأكل هو وأصحابه ثمارها، ولكن زرع الأولون، ليجني الآخرون»[2].

وسجل لنا التاريخ - في مقابل ذلك - تجارب إنسانية رائدة لشخصيات فذة، وجماعات بشرية خاضت تجربة الحياة بكل قوتها وعنفوانها، وحققت ما كان يعد في العرف العام من المستحيلات بسبب نظرتها الإيجابية للمستقبل، وإيمانها اللامتناهي في قدراتها المذخورة التي تفجرت تحت وطأة الحاجة إليها والتوظيف

١- محمود قاسم. "الإمام عبد الحميد بن باديس". مجلة الشهاب، ج ٧، مج ١٤، ص ٩٤.
٢- عيون البصائر. محمد البشير الإبراهيمي. ص ٥٤٧.

المناسب لها. ولعل في تجربة الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العربية الإسلامية في الجزائر نموذجًا حيًّا لذلك. فقد رفع هذا الرجل المتميز لواء التحدي في مرحلة حرجة جدا من مراحل التاريخ الجزائري، اطمأن فيها الاستعمار الفرنسي - بعد مرور مائة عام على احتلاله للجزائر - على وجوده فيها، وأعلن المتشائمون عن موت الأمة الجزائرية واندثارها بعد أن جفف الاستعمار منابع تراثها العربي الإسلامي، وحارب مقومات شخصيتها حربًا شعواء لا هوادة فيها، وضرب حولها طوقًا حديديًا ليقطع صلتها بباقي البلدان العربية والإسلامية، فكان الشيخ ابن باديس هو الذي أشعل شمعة وسط هذه الظلمات، وبدأ يسعى لإيقاظ الأمة وبث الروح فيها من جديد يحدوه أمل كبير في المستقبل، وإيمان ثابت بحق شعبه في الوجود، فولج جميع الأبواب، وتوسل بكل الوسائل، ولم يترك طريقة توصله إلى هدفه إلا سلكها على الرغم من اضطهاد الاستعمار ومطارداته ومصادراته وملاحقته لكل حركة نهضة أو محاولة إصلاح. وكان الشيخ ابن باديس طوال سنوات العمل الشاق الدؤوب يرى نهاية النفق ويردد على مسامع مريديه قولته المشهورة «تستطيع الظروف أن تكيفنا، ولا تستطيع بإذن الله إتلافنا»[1]، وهي عبارة تحمل جميع معاني النظرة الإيجابية للمستقبل على الرغم من كل ما كان يفرضه عليه الواقع الثقيل من تحديات وعوائق. وأمثال الشيخ ابن باديس في العالم الإسلامي كثيرون ممن نذروا أنفسهم لحماية الأمة، والحفاظ على كينونتها التاريخية ووجودها الحضاري، ومغالبة عوادي الزمن ومؤامرات الأعداء في أحلك فتراتها وأشدها ضيقا، لا يستسلمون لليأس ولا تفت في عضدهم الهزائم والنكبات، لأنهم يؤمنون برسالة هذه الأمة وضرورة مداواة جراحها وتنقيتها من عللها لتتبوأ مكانة الشهادة على الناس، يحدوهم في ذلك حديث النبي الكريم عليه الصلاة والسلام: «لَا يَزَالُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ

١- افتتاحية جريدة الشهاب. ع ١، ١٢ نوفمبر ١٩٢٥ م.

ظَاهِرُونَ»[1]، ويمدهم بالأمل الفسيح، ويرسم لهم معالم الغد المشرق، ويمنع عنهم غوائل القنوط والإحباط، حتى يأذن الله بالنصر المبين.

وتحضرنا في هذا المقام تجربة ألمانيا الغربية التي انهارت انهيارًا كاملاً بعد الحرب العالمية الثانية، ودمر الحلفاء جميع بنياتها التحتية ومنشآتها الاقتصادية، وفرضوا عليها شروطًا قاسية لتعويض المتضررين، وحاصروها من كل جانب، لكنها عادت في غضون عقود وانتفضت كالمارد الذي يخرج من تحت الرماد واستعادت عافيتها في جميع القطاعات الحيوية، وأصبح اقتصادها ينافس القوى العظمى ويتحداها. ويفسر مالك بن نبي سر المعجزة الألمانية، بأن ألمانيا عندما انهزمت وانهارت في الحرب إنما سقط فيها عالم الأشياء، بينما بقي عالم الأفكار سليمًا، بقي الإنسان الذي صنع حضارتها وقوتها قبل الحرب كما هو يحمل في ذاته حب العمل والإخلاص فيه، والتفاني في خدمة الوطن والتضحية من أجله، والإيمان بحق شعبه في الحياة والرفاهية والتطور والتميز، وهو العملة النادرة التي تنهض بها الأمم، والخميرة التي تصنع التقدم وتبني الحضارة: «لقد بدأت ألمانيا في التحرك عام ١٩٤٨ بخمسة وأربعين ماركًا وهذا مبلغ تافه في الاستثمار. أما الاستثمار الحقيقي فقد كان في رأسمال الأفكار التي هي في رأس كل ألماني، في تصميم الشعب الألماني، وفي الأرض الألمانية التي كانت فقيرة ومحتلة من الآخرين، لكنها كانت السند اللازم لكل نشاط»[2].

إن هذه الدراسات النفسية والاجتماعية التي غاصت في أعماق النفوس وأغوار المجتمعات، فاستخرجت ما يمكن أن نطلق عليه السنن والقوانين التي تحكم النفس والمجتمع في حالات القوة والضعف، والنهوض والتخلف، والبناء والخمول حديثة نسبيًا، وهي ثمرة من ثمرات الثورة العلمية التي تشهدها

١- صحيح البخاري. كتاب المناقب. باب سؤال المشركين أن يريهم النبي آية. رقم ٣٣٦٨.
٢- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. مالك بن نبي. ص ١١٦.

البشرية، والتي وفرت لها أساليب ومناهج في غاية الدقة، تمكنت من خلالها من تشريح النفس البشرية والمجتمعات الإنسانية تشريحا علميا قلما يخطئ؛ لأن التجارب التاريخية والراهنة العديدة والمتكررة تؤيدها بقوة. وقد أضحت في عصرنا الحاضر قاعدة متينة لدورات التنمية البشرية، ومرتكزًا من أهم المرتكزات التي تعتمد عليها البرامج السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتنموية في الدول الكبرى.

ومن أطرف ما فيها أنها تتناغم تناغمًا عجيبًا مع مقولات الوحي الإلهي في مصادرنا المعصومة: الكتاب والسنة لأنها وصفت بصدق ودقة هذا المخلوق منفردا ومجتمعا، كما رسمه القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولا غرو فإنه لا تعارض أبدا بين العقل الصريح والنقل الصحيح، وقد يتحد في أحيان كثيرة: «منطق الطبيعة الإنسانية الصالحة - وهي تتحسس طريقها إلى الخير - مع منطق الآيات السماوية وهي تهدي الناس جميعا إلى صراط مستقيم»[1]. لذلك يتعين على المسلمين أن يوظفوا هذا العلم النافع الذي يدخل في باب السنن النفسية، التي أشار إليها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم في تفعيل جهودهم النهضوية التي تنطلق في أساسها الأول من بناء الإنسان، كما فعل رسول الله ﷺ؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها. وفيما يلي توضيح لذلك.

ثالثا: القرآن الكريم والتأسيس للنظرة الإيجابية للمستقبل.

لقد حَرص القرآن الكريم على صياغة الشخصية المسلمة صياغة راقية، وعلى أعلى مستوى من الإيجابية والفاعلية والاتزان والتكامل. ويبدو ذلك واضحا من خلال الآيات الكريمة التي اهتمت بتشكيل الإنسان المسلم منذ الساعات الأولى للبعثة النبوية، والتي ركزت بشكل واضح على تحرير العقل - مناط التفكير -

---

١- جدد حياتك. محمد الغزالي. ص ٣.

وتكريمه، وتخليصه من السخف والسذاجة وأسر الخرافات والأساطير، وقيود الضلالات والأوهام والطواغيت والآلهة المزيفة، وتوجيهه نحو التفكير السليم المنظم والمنهجي، وتزويده بالتصورات الصحيحة الواضحة عن طبيعة الكون والحياة والإنسان، وعن شكل العلاقات السوية التي يجب أن تحكم هذه الأطراف جميعًا، حتى يتمكن الإنسان من تحقيق توازنه العقلي وانسجامه النفسي فيها دون أن تشتط به المناهج والمذاهب الوضعية، وترمي به في متاهات الفوضى والضلال.

والتفكير الإيجابي جزء صميم من أسلوب القرآن الكريم في تشكيل العقل المسلم، وتأهيله لخوض غمار الحياة بقوة وفاعلية، بما غرسه في نفوس المؤمنين من عقيدة صافية نقية، ونزوع إلى الحرية، وتربية عالية للإرادة التي تجنح إلى العمل المتواصل وتسارع إليه وتتنافس في الفوز به والتألق فيه، وشحذ مستمر للقابلية للتعلم بإشعال جذوة التشوق المعرفي الذي لا يعرف الحدود، ولا يعترف بالعوائق والتحديات، ونظرة ثاقبة إلى بواطن الظواهر المادية والاجتماعية لاستخلاص الأسباب وفقه القوانين الكونية[1].

ومن الآيات الكثيرة التي أسست لهذا المفهوم وأصلته تأكيد القرآن الكريم على أن التغيير الذي يحدث في محيط الفرد منوط بما يحدث في داخل الفرد من تغيير يوازيه، فالأول كالمرآة العاكسة للثاني، وارتباطهما ببعضهما وثيق وقوي، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ (الرعد:١١)، فدل المسلمين على أنه من مقتضيات حرية الإنسان التي يترتب عليها الثواب والعقاب، أن يكون هو صاحب المبادرة في تغيير محيطه، وترويض ظروفه وتكييف واقعه وفق ما يريد، ولا ينتظر المعجزات والخوارق التي تعطل الأسباب وتلغي عمل العقل، فإذا أراد أن يغير حاله نحو الأفضل فليغير ما بداخل نفسه، أي يستبدل الأفكار التي صنعت الواقع المتردي الذي يعيشه بأفكار أخرى تتناسب مع ما يطمح إليه، وهذه

١- راجع: حول إعادة تشكيل العقل المسلم. عماد الدين خليل. ص ٣٥ إلى ٤٨.

الآية تقرر بوضوح: «أن سلوك الإنسان وتصرفاته نتيجة لأفكاره، وبتعبير أدق لما بنفسه، فإذا تغير ما بنفس الإنسان سواء كان بجهده أو بجهد غيره، فإن سلوكه لا محالة يتغير»[1].

هذا القانون النفسي يحرر المسلم من جميع القيود التي تعوقه عن الحركة، ويضعه مباشرة أمام مسؤوليته عن مصيره، ويوضح له أبعاد قدراته اللامحدودة في صياغة مستقبله بالشكل الذي يرتضيه لنفسه: «وإنها لشرعة السماء، غَيّر نفسك تغير التاريخ»[2]، ويؤكد القرآن الكريم في موضع آخر هذه القاعدة حينما يقرر أن الله تعالى لا يظلم العباد، ولا يحرمهم من النعم السابغة التي يتقلبون فيها، ما لم يغيروا هم ما بأنفسهم من أفكار وتصورات إيجابية بأخرى منحرفة وضالة، تدفعهم إلى الكفر والفساد والطغيان، بحيث تتحول هذه النعم إلى نقم، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٥٣). يقول محمد رشيد رضا: «وأثبت لهم أن نعم الله تعالى على الأقوام والأمم، منوطة ابتداءً ودوامًا بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون لاصقة بأنفسهم، متمكنة منهم كانت تلك النعم ثابتة بثباتها، ولم يكن الرب الكريم لينتزعها منهم انتزاعًا بغير ظلم منهم ولا ذنب، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يترتب عليها من محاسن الأعمال غير الله عندئذ ما بأنفسهم وسلب نعمه منهم»[3].

وتأسيسًا على هذه القاعدة يوجه القرآن الكريم المسلم إلى السعي في مناكب الأرض، واستخراج كنوزها واستثارة مذخوراتها، واستغلال خيراتها لنشر الخير وإحقاق الحق وإصلاح البشرية، لأن الأرض إنما تعمر وتصلح بجهده. وأثناء هذا السعي يزوده بما يحتاجه من المعتقدات والتصورات التي تجعل منه إنسانا إيجابيا

١- حتى يغيروا ما بأنفسهم. جودت سعيد. ص ٩١
٢- شروط النهضة. مالك بن نبي. ص ٣٢
٣- تفسير المنار. محمد رشيد رضا. ج ١٠. ص ٤٢

بناء، قادرا على إبداع الحضارة وصنع التاريخ. فيملأ نفسه ثقة بذاته، ويعرفه مقامه السامي بين الكائنات حينما يقص عليه نبأ خلقه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، وواقعة سجود الملائكة له:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ (البقرة: ٣٤)، وتسخير الخلائق كلها له لتكون طوع أمره وتحت تصرفه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾(الإسراء:٧٠)، ثم ينبهه إلى ما حباه من نعم العقل والسمع والبصر ليستعملها في مواطنها الصحيحة ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (الملك: ٢٣).

ويلفت نظره إلى أن الحياة التي سيعيشها فوق الأرض قاسية ومتعبة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ (الانشقاق: ٦)، تتصارع فيها قوى الخير والشر صراعًا أزليًا لا هوادة فيه، غير أن العاقبة فيه للمتقين، مهما ادلهمت الخطوب وتوالت النكبات والمحن، والمطلوب منه أن يكون جنديًا من جنود الحق: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (المجادلة:٢١)، وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥)، وأن من مقتضيات حسن التعامل معها أن لا تتغلب عليه بصعوباتها ومحنها وبلاءاتها، فيقع في اليأس والقنوط الذي يرميه على هامش التاريخ ويحوله إلى كائن سلبي عاطل ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (يوسف:٨٧)، وأن يقابل ذلك كله بالصبر الجميل، الذي يتيح له فرصة التركيز والتروي ليجد المخرج المناسب، ويهتدي إلى السبيل الأقوم، ويستأنف سعيه الدؤوب، حتى يلقى وجه ربه وقد أدى حق الأمانة التي تحملها على أكمل وجه ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر:١٠)، لأن السنن الإلهية التي تحكم الكون تقتضي هذه المعاناة لتقوم الحجة على الجميع فلا يُظْلَم أحد مثقال ذرة: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال:٤٢)،

وهذه السنن ماضية في عملها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فلا يطمع طامع في أن يجني ثمرات النصر اليانعة دون أن تحرقه نيران المكابدة والمجالدة تطبيقا لمبدأ العدل الإلهي ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة:٢١٤).

هذا التكوين الإيجابي الراقي، الذي يصنع من المسلم كائنًا نشيطًا متحركًا في جميع أحواله في السراء والضراء، مندفعًا نحو تحقيق هدفه الأسمى، وهو أداء أمانة الاستخلاف كما أرادها الله منه، يستلزم بالضرورة أن تكون نظرته إلى المستقبل إيجابية أيضا؛ لأن المستقبل هو ميدان نشاطه ومزرعة سعيه المتواصل الذي لا يفتر ولا ينقطع إلا بانتهاء أجله.

هذه ومضات سريعة من منهج القرآن الكريم في بناء العقل المسلم على أساس صحيح من الإيجابية والفعالية، وإعداده ليكون قوة متحركة تصنع الحدث في ضوء الوحي الرباني والمنهج الإلهي، وتبشر بالحق والخير وتدفع الباطل، وترسم معالم المستقبل السعيد للبشرية كلها، لتحقق أمانة الشهود الحضاري التي أناطها الله بها في قوله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ (البقرة:١٣٤).

وبما أن السنة النبوية الشريفة هي رديفة القرآن في صياغة الإنسان وتأهيله، فمن البدهي أن تسير على خطاه وتستضيء بهديه، وأن تكون المترجمة الحية لمعانيه وإرشاداته. وقد جسَّد الرسول ﷺ هذه المعاني تجسيدًا واقعيًا رائعًا سجلت تفاصيله كتب السيرة ومصادر الحديث الشريف، وفيما يلي عرض لبعض الجوانب التي تجلت فيها النظرة الإيجابية للمستقبل في السنة النبوية على المستويين الفردي والجماعي.

رابعا: النظرة الإيجابية للمستقبل في السنة النبوية وأثرها في الفرد.

لقد كانت المهمة الأساسية التي تصدى لها رسول الله ﷺغداة البعثة وتفرغ لها طوال المرحلة المكية، هي صياغة الإنسان وإعداده لحمل تكاليف الرسالة الخاتمة، من خلال عملية تربوية طويلة وشاقة، كانت تهدف إلى إزالة الركام الفكري الجاهلي الذي لوث العقول والنفوس، واستبداله بتعاليم الدين الجديد التي تستمد أنوارها من وحي السماء ومشكاة النبوة، وكانت هذه العملية التربوية تقوم على ما أسماه علماؤنا بعمليتي التخلية ثم التحلية، أو التحرير ثم التنوير، أي أنه كان يفرغ عقولهم من العقائد الضالة والتصورات الجاهلية والمفاهيم الفاسدة، ثم يملؤها بالعقائد الصحيحة والتصورات السليمة والمفاهيم الواضحة، وهي الطريقة الناجعة التي تتبناها جميع الحركات التغييرية، التي تعمد إلى الإنسان فتحول وجهة تفكيره وقبلة جهوده نحو هدفها الأكبر، بإعادة تشكيل عقله وفق مرجعيتها الفكرية الخاصة بها.

إن مهمة بناء الإنسان من أسمى المهمات وأصعبها، وقد باشرها رسول الله ﷺبتوجيه من الوحي فأخرج للدنيا جيلا فريدا غَيَّر مجرى تاريخ الإنسانية، وقلب كل موازينها وأعطاها نموذجًا حضاريًا راقيا للصورة التي يجب أن تحتذيها لتسعد في الدارين.

ومن خلال هذا البناء التربوي المتكامل نلمح خاصية التفكير الإيجابي بارزة بشكل لافت للنظر، لا تكاد تغيب ونحن نطالع مسيرة الدعوة منذ البداية، إلى أن أثمرت وأينعت وآتت أكلها طيبًا مباركًا، فإذا بالمسلمين الذين كانوا بالأمس يعيشون في جاهلية جهلاء، وقبلية ضيقة متعصبة، وأمية طاغية يمتلؤون ثقة وقوة، ويتطلعون إلى تغيير العالم وإزالة الطواغيت، ونشر الخير والحق وتبليغ الرسالة الخاتمة إلى أقاصي الأرض، تحدوهم الإرادة الماضية، وتدفعهم وعود

السماء الصادقة، ولعل في موقف الصحابي الجليل ربعي بن عامر مع قائد القوات الفارسية في القادسية مثالاً رائعًا لما قلناه، حينما تخطى بعزة وشموخ زرابي ونمارق القائد الفارسي وخرقها برمحه، ليعبر له عن استهانته بكل هذه المظاهر البراقة والبهرجة الدنيوية ويجيبه حينما سأله: ما الذي جاء بكم؟ بتلك الكلمات الخالدات التي لا تزال ترن في سمع الزمن، والتي جمعت في ثناياها لب الرسالة المحمدية وجوهرها: إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام[1].

ومثله في ذلك الصحابي الجليل عقبة بن نافع الذي فتح الشمال الإفريقي، وقضى فيه على الوجود البيزنطي قضاءً مبرمًا، ووصل بجيشه الباسل إلى سواحل المحيط الأطلسي، الذي كان يطلق عليه العرب بحر الظلمات فخاض فيه بفرسه ومد بصره إلى الأفق البعيد وقال: يا رب لو أعلم أن وراء هذا البحر أرضًا لخضته مجاهدا في سبيلك[2].

والنظرة الإيجابية للمستقبل لها تجلياتها الواضحة في الشخصية المسلمة، التي شكلها الرسول ﷺ. ومن ركائزها الأساسية:

١ - بناء الثقة بالنفس: فحتى يكون الإنسان قادرًا على صنع التاريخ والتأثير في الواقع والتطلع إلى المستقبل، يجب أن يكون على جانب مهم من الثقة بالنفس والتقدير السليم لشخصيته، وهو ما يُعَبَّر عنه بالتقبل الإيجابي للذات، وقد كان للسنة النبوية في هذا الجانب آثار مشهودة، نلمحها في الثقة الكبيرة التي بثها النبي عليه الصلاة والسلام في نفوس أصحابه، حينما وضعهم أمام مسؤوليتهم

١- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك). أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. مج ٢، ص ٤٠١. راجع أيضا: التاريخ الإسلامي. محمود شاكر. ج ٣. ص ١٦١.

٢- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ابن عذارى المراكشي. ج ١. ص ١٩٨.

الحضارية الخطيرة التي انتدبهم لها، وشرح لهم أبعاد الرسالة التي يحملونها، وبيَّنَ لهم ثقل الأمانة المنوطة بهم في استنقاذ العالم من براثن الشرك والكفر والوثنية، وإعادة الشاردين إلى واحة التوحيد، وترسيخ قيم الحق والخير والعدل في العالم الذي امتلأ ظلمًا وشرًا، فسمت نفوسهم بسمو الهدف الذي حدده لهم الرسول ﷺ، وتطاولت هممهم إلى تجسيد مبادئ الدين الجديد على أرض الواقع، وأحسوا في أعماقهم أن الدعوة إلى الله قد ملأت كل فراغ في عقولهم ونفوسهم، وشغلت كل ذرة في كيانهم، واستحوذت على كل ثانية من أعمارهم فكانوا يتسابقون إلى المعالي على المستويين الفردي والاجتماعي، فيتعهدون أنفسهم بالتزكية والمحاسبة والإقبال الكبير على الله، لتقوى الإرادة وتصفو القلوب، وتشف الأرواح وتتقرب من خالقها، فتفوز برضاه وجنته، ويتعهدون مجتمعاتهم بالإصلاح على كل المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، حتى يتحقق وعد الله بالنصر المؤزر وتسود شريعته بين الناس، وتتراجع قوى الطغيان والجبروت وتكف بأسها عنهم.

ولو أن هذه التربية النبوية الرشيدة قد اقتصرت على أشراف قريش ونبلائها، لقلنا إن نفوسهم كانت مهيئة منذ الصغر لطلب المعالي والتسابق إلى الصالحات، ولكنها صاغت من ضعاف الناس الذين كانوا في أعين الملأ أراذل القوم ومنبوذيهم، ومن العبيد الذين كانوا طبقة مسحوقة تعيش عيشة مادية ونفسية أدنى من عيشة العجماوات والبهائم، رجالاً ونساءً يناطحون الصخر ويطاولون الجبال شرفا وهمة، حيث استخرجت منهم هذه الثقة الكبيرة بالنفس كل المذخورات التي كانت مدفونة في أعماقهم، فتفجرت أنهارا من الطاقة الفياضة التي صبت في نهر الدعوة، فسقتها وغسلت بها وجه الأرض من أدرانها.

إن الإنسان الذي يثق في نفسه وقدراته، ويشعر بأن له هدفًا واضحًا يجب

أن يبذل جهده ليحققه، ويحس بأهميته في المجتمع والأمة إنسان على جانب عظيم من الإيجابية التي تحفزه للتطلع إلى المستقبل، وتبعث فيه روح الطموح، وتجعله مستعدًا دائمًا لإنجاز المهمات، وتحسين مستوى الأداء والتخطيط للمستقبل ودراسة التوقعات وإعداد الوسائل، لا يقف في وجهه عائق ولا يعطل سيره نجاح مؤقت، فأنظاره دائما تتطلع إلى الأمام وتبغي الوصول إلى الكمال.

وقد صور لنا رسول الله ﷺ هذا المؤمن النشيط، الدائب الحركة في السراء والضراء فقال: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1]، فهو عنصر إيجابي في كل أحواله، إذا حقق هدفًا قريبًا حمد الله وتأهب للسير نحو هدف قادم، وإذا تعثر وأخطأ أو جاءت الأحداث بما لم يكن يتوقع من السلبيات والمساوئ، صبر لقضاء الله صبر الراضي، وأعطى لنفسه فرصة للمراجعة، ثم نفض عنه غبار التحسر والتذمر، واستعد لجولة جديدة يتفادى فيها أخطاء التجربة السابقة، ويتوسل بوسائل جديدة توصله إلى هدفه.

وفي حديث آخر يحذر الرسول ﷺ المسلمين من الوقوف طويلاً أمام التجارب الفاشلة، والاستماع لحديث النفس الذي ينحو ناحية اللوم والتقريع، واستعادة السيناريوهات الماضية، واستشعار الأسف لما مضى؛ لأن كل ذلك يفتت الإرادة، ويبعث في النفس الوهن، ويقتل فيها حب العمل والإقبال عليه، ثم إنه لا يغير شيئا فيما مضى ولا يعيد ما فات؛ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[2]، وعمل

١- صحيح مسلم. كتاب الزهد والرقائق. باب المؤمن أمره كله خير. رقم ٥٣١٨.
٢- صحيح مسلم. كتاب القدر. باب في الأمر بالقوة وترك العجز. رقم ٤٨١٦.

الشيطان ليس فيه خير للإنسان، إذ هو في مجمله تقنيط من رحمة الله، وتذكير بما فات ولا مطمع في عودته بما يعمق الحسرة في النفس، وقد يوقد نار العداوة على من أشار عليه بذلك، وقد يأكله الحسد على من كان معه في التجربة فنال مبتغاه؛ لأنه سلك سبيلا آخر، وحبائل الشيطان للإيقاع بابن آدم وصده عن العمل الصالح وتعطيله عن الطاعات والقربات كثيرة ومتلونة، ولا يستطيع الإنسان أن يسلم منها إلا بالأخذ بقول رسول الله ﷺ «استعن بالله ولا تعجز»، والرضا التام بقضاء الله، والاعتقاد اعتقادا جازمًا في عدله المطلق وحكمته الواسعة، (قدر الله وما شاء فعل)، فهذه المفاهيم الراقية تعين الإنسان على الاحتفاظ بإيجابيته، وتمده بالطاقة اللازمة لاستئناف سيره نحو المستقبل، حيث يجد متسعًا رحبًا لتصحيح أخطائه وتحقيق أهدافه.

ويمس الرسول ﷺ جانبًا آخر من هذه القضية، حينما يحث المسلم على أن يشغل نفسه على مدار اليوم والليلة بما ينفعه في دينه ودنياه، وما ينفع خلق الله في معاشهم ومعادهم، ويؤكد له أن لدى كل إنسان شيئًا يعطيه لإخوانه، فالفضل ليس مقتصرًا على أصحاب الأموال وأصحاب النفوذ والعلماء فقط، بل إن الفقير المعدم قادر على أن يضع بصمته ويترك أثره الطيب في المجتمع، فلا يحسن به وهو يحمل أمانة الإيمان، أن يفقد ثقته في نفسه، أو يحتقرها لمجرد خلو يده من متاع الدنيا، وقد صور لنا رسول الله ﷺ هذه الحالة في حديثه الرائع، الذي يكلف فيه كل مؤمن بأن يتحمل قسطه من العطاء والإنجاز الإيجابي الدائم فقال: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»[1]، فالابتسامة في وجوه الناس، ومقابلتهم بوجه بشوش مرح، لا تكلف صاحبها شيئا من مال أو متاع أو جهد، لكنها ذات أثر بعيد في المجتمع، بل إن النبي الكريم يرفع من قيمة هذه الابتسامة، ويجعلها في مرتبة واحدة مع الصدقة؛ لأنها تبهج قلب المؤمن

١- صحيح مسلم. كتاب البر والصلة والآداب. باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء. رقم ٤٧٦٠.

وتدخل عليه السرور، وتزيل عنه همه وتبعث فيه روح التفاؤل والأمل، وتحفزه إلى العمل والجد، وتتساوى في الأجر والثواب مع كل الأعمال الصالحات، التي تنفع الناس وتوثق علاقات المودة والرحمة بينهم: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنْ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»(١).

وفي حديث آخر، يعدد النبي عليه الصلاة والسلام لأبي ذر، مجالات الحياة المختلفة التي يراها الناس تافهة حقيرة، ويستطيع المؤمن من خلالها أن يضع فيها لبنة للبناء، وأثرًا طيبًا ينفع به نفسه وإخوانه، على الرغم من قلة إمكاناته ومحدودية قدراته. فعن أبي كَثِيرٍ السُّحَيْمِيِّ، عَنْ أَبِيه، قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا ذَرٍّ، قُلْتُ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلَ الْعَبْدُ بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، قَالَ: سَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فقَالَ: يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ مَعَ الإِيمَانِ عَمَلاً؟ قَالَ: يَرْضَخُ مِمَّا رَزَقَهُ اللهُ. قُلْتُ: وَإِنْ كَانَ مُعْدَمًا لاَ شَيْءَ لَهُ؟ قَالَ: يَقُولُ مَعْرُوفًا بِلِسَانِهِ، قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ عَيِيًّا لاَ يُبْلِغُ عَنْهُ لِسَانُهُ؟ قَالَ: فَيُعِينُ مَغْلُوبًا قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا لاَ قُدْرَةَ لَهُ؟ قَالَ: فَلْيَصْنَعْ لأَخْرَقَ قُلْتُ: وَإِنْ كَانَ أَخْرَقَ؟ قَالَ: فَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ: مَا تُرِيدُ أَنْ تَدَعَ فِي صَاحِبِكَ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ، فَلْيَدَعِ النَّاسَ مِنْ أَذَاهُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَذِهِ كَلِمَةُ تَيْسِيرٍ؟ فقَالَ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ عَبْدٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا، يُرِيدُ بِهَا مَا عِنْدَ اللهِ، إِلاَّ أَخَذَتْ بِيَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى تُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»(٢).

١- السنن. الترمذي. كتاب البر والصلة عن رسول الله. باب ما جاء في صنائع المعروف. رقم ١٨٧٩. انفرد به الترمذي وقال حديث حسن غريب. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد. رقم ٨٩١. ص ٣٠٧. وأورده ابن حبان في صحيحه. باب ذكر بيان الصدقة للمرء بإرشاد الضال وهداية غير البصير. رقم ٥٢٩. ج ٢. ص ٢٨٦، وذيله شعيب الأرناؤوط بقوله: حديث صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع. رقم ٢٩٠٨.

٢- صحيح ابن حبان. محمد بن حبان البستي. رقم ٣٧٣. ج ٢. ص ١٢٧. ورواه الطبراني في المعجم الأوسط بلفظ قريب منه. رقم ٥٠٨١. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب. ص ٨٧٦.

فلا يجوز لأحد بعد أن يسمع هذا الحديث البليغ، أن يتحجج بقلة ذات اليد، أو قلة العلم، أو ضعف الجسم؛ ليترك ما عليه من واجب إصلاح حال الأمة لتنهض وتقوى، وتتجاوز محنها وشدائدها، وتبلغ آمالها في التحرر والانفلات من المغلوبية الحضارية، التي تأسرها وتجعلها رهينة أعدائها. فإن هذا الهدف الكبير رهين بما تحمل نفوس أبنائها من ثقة عالية بالنفس، لا تدع لأحد عذرا للمشاركة في تحقيقه. وأمامنا بشرى رسول الله ﷺ بأن ينال كل مجتهد في العملِ والسعي على قدر نيته وإخلاصه، حتى لو أعاقته الظروف عن إتمام ما بدأ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ»[1]، قال ابن حجر: «وأبشروا: أي بالثواب على العمل الدائم – وإن قل – والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل، بأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره، وأبهم المُبَشَّرَ به تعظيماً له وتفخيماً»[2].

٢ ـ **التوبة الصادقة وتجديدها**: التوبة الصادقة باب واسع للولوج إلى المستقبل والإبداع فيه، والتخلص من أوزار الماضي وضغوطه، كما أنها علاج ناجع لكثير من الأمراض النفسية التي تصيب الإنسان بالعجز، وتشل فيه إرادة الخير، وتقعد به عن طلب الكمالات؛ لأنها تعطيه الأمل الجميل في الغد، وتمنحه فرصة التراجع عن سلبيته وتعويضها بإيجابية نافعة يظهر أثرها الطيب في عمله المستقبلي. لذلك كان لها في السنة النبوية الشريفة باع فسيح، وقد تعهد بها الرسول ﷺ المسلمين في كل آن فامتلأت نفوسهم خيرا وبشرا، وأقبلت على الأعمال الصالحة تغتنم منها ما وسعها الجهد في ذلك.

وقد رأينا مصداق ذلك مع كثير من المسلمين الذين عاشوا الجاهلية بكل

١- صحيح البخاري. كتاب الإيمان. باب الدين يسر. رقم ٣٨.
٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. مج ١. ص ٩٥.

مساوئها ونقائصها، واقترفوا الفواحش والموبقات التي كانت فاشية فيهم قبل الإسلام، فلما عرفوا دعوة الحق أدركوا البون الشاسع الذي يفصل مستنقع الرذائلَ الذي كانوا يقبعون فيه، عن النموذج الإنساني الراقي الذي رباه الرسول ﷺ، فحدثتهم نفوسهم أن هذا المرتقى صعب ومستحيل، غير أن النبي الكريم ﷺ انتشلهم من هذا الوهم الكبير وغسلهم من كل الأوضار التي لوثتهم بكلمة واحدة: أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله. قال عليه الصلاة والسلام لعمرو بن العاص حين أتاه مسلما وسأله مغفرة ما سبق منه من ذنوب: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»[1]، أي أن دخول المرء فيه يصنع منه إنسانا جديدا لأنه يسلخه من ماضيه المعتم، ويهيئ له حياة جديدة بكل حيثياتها، فكان ذلك بمثابة شهادة ميلاد جديد تسلموها من نبي الرحمة، مكنتهم من التخلص من كل الآثار السلبية التي تركها الماضي فيهم، والبدء من الصفر بداية كلها تفاؤل وأمل.

ولعل المسابقة في الخيرات التي نلمسها بوضوح في حياة الصحابة الكرام، تعبير رائع عن الأثر الطيب الذي تركته فيهم الإنابة إلى الله، والانخلاع من ربقة الجاهلية وأثقالها، وكأنهم بهذه الروح المقبلة على الحياة، تغتنم منها الصالحات، وتقتنص منها مواطن الخيرات، يريدون أن يعوضوا سنوات العمر التي ذهبت هدرا في الضياع والضلال، فهم يملؤون المستقبل آمالا عريضة، ويعدون له العدة بجد ومثابرة، ويستغلون ساعات العمر بل دقائقه بجلائل الأعمال.

والتوبة ليست قاصرة على من كانوا على غير الإسلام ثم دخلوا فيه، لكنها ألصق ما تكون بالمؤمن الذي يتربص به الشيطان، وتتعقبه أهواؤه وشهواته، وتتعرض له الدنيا بزينتها وأموالها وبهرجها وفتنتها، لذلك جاءت الأحاديث النبوية في تجديد التوبة تنضح بالأمل وتمتلئ بالرحمات، وتربأ بالمؤمن أن يستسلم

١- صحيح مسلم. كتاب الإيمان. باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج. رقم ١٧٣.

لضعفه وينساق مع خطيئته، حتى يفقد الأمل في رحمة الله فيفقد المجتمع عضوا فاعلا فيه، وتدفعه دفعًا مستمرًا للعودة إلى رحاب ربه الذي يغفر الذنوب جميعًا، والذي يتعهد عباده يوميًا بلطفه وكرمه ويدعوهم دعوة المحب المشفق إلى الإقلاع عن المعصية، والانخراط من جديد في معركة البناء والإعمار: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1]، فالباب مفتوح أمام الإنسان آناء الليل وأطراف النهار، في أية ساعة شاء ليلج باب التوبة، ويستأنف سيره نحو الله وقد تخفف من أثقال المعاصي، وتخلص من أغلال الذنوب، وسيجد ربًا رحيمًا ودودًا، يفرح بأوبته ويبارك عودته، عَنْ أَنَس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضِ فَلَاةٍ»[2].

إن تجديد التوبة بعد كل كبوة يكبوها المسلم، وهو على يقين من أن الله قد تجاوز عنه بمنه وكرمه، تمثل له فرصة جديدة ودفعة إلى الأمام يخطوها نحو المستقبل، وهو عاقد العزم على التكفير عن زلته، وإعطاء الدليل الصادق على أوبته، بمضاعفة جهده في عمله: «وإنما تجيء التوبة بعد الوقوع في الخطأ، لترأب الصدع وتعين على استئناف السير في طريق الحياة، وبقدر ما يحتاج المسلم إلى أن يواصل العمل والكفاح، يحتاج إلى التوبة، لتتعهد إرادته بالتربية والتقوية، وتعده لرسالته في الحياة»[3].

٣ ـ استثمار الإمكانات المتاحة في الوقت المناسب: تؤكد السنة النبوية في مواضع عديدة على أن أحوال الدنيا في تقلب مستمر، وأن آجال العباد بيد الله لا يدري أحدنا متى تنقضي أيامه ويخرج من هذه الدنيا، لذلك أكدت على ضرورة استغلال الوقت إلى أقصى حد، وعمارة الساعات بالخيرات ما استطاع المسلم إلى

١- صحيح مسلم. كتاب التوبة. باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة. رقم ٤٩٥٤.
٢- صحيح البخاري. كتاب الدعوات. باب التوبة. رقم ٥٨٣٤.
٣- منهج الإسلام في تربية الإرادة. د. مصطفى زيد. ص ٧٩.

ذلك سبيلاً، وتسخير جميع الإمكانات المتاحة لتحقيق الأهداف وإنجاز الأعمال، والتخطيط للمشاريع وبرمجة آليات التنفيذ دون كسل أو تسويف، وتحري كل ما ينفع الأمة ويصلح حالها. يقول الرسول ﷺ: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[1]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ»[2].

فهذا التحذير من فوات الأوان وانقضاء الوقت دون عمل صالح، يجعل المسلم يرفع من درجة فاعليته، ويظل متأهبا لا يدع مجالا بإمكانه التأثير فيه دون أن يجعل له نصيبًا من فكره وجهده، يسد مواطن الخلل ويصلح ما فسد، لذلك فهو دائما في شغل لا ينتهي، واهتمامات لا تنقضي، يبادر بالأعمال وكأنه يخاف أن تفلت من بين يديه، ينهي ما قدر عليه، وينتظر الغد بشغف ليكمل ما بدأ، ويبدأ ما كان قد خطط وبرمج، ويبادر إلى كل نافع ومفيد، لا يهمه إن أمهله الأجل وأنهاه أو تركه لمن بعده ليكمله، وإنما الذي يهمه أنه قام بما هو مطلوب منه، ليس انتظارًا للنتائج والثمرات، وإنما استجابة لنداء الواجب وطلبا للثواب عند الله وطاعة لرسوله الكريم، الذي يرشد المسلمين إلى هذا السبيل القويم في قوله ﷺ: «إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا

١- المستدرك على الصحيحين. محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. رقم ٧٨٤٦. ج ٤. ص ٣٤١. وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٧٧. وفي صحيح الترغيب والترهيب. رقم ٣٣٥٥.

٢- السنن. الترمذي. كتاب الزهد عن رسول الله. باب ما جاء في المبادرة بالعمل. رقم ٢٢٢٨. قال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث الأعرج عن أبي هريرة إلا من حديث محرز بن هارون. وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال. ج ٣. ص ٤٤٣ وقال: فيه محرز بن هارون وذكر من جرحه، وقد رُويَ الحديث بإسناد أصلح من هذا. وصححه الألباني في ضعيف الترمذي، رقم ٢٣٠٦ وقال: ضعيف. وفي ضعيف الجامع، رقم ٢٣١٥ وقال: ضعيف.

فَلْيَفْعَلْ»[١]، وقوله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعله»[٢]، وقوله ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[٣]، وقوله ﷺ: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»[٤]، حتى لا يدع المسلم بابا من أبواب الخير إلا ولجه، يستكثر بذلك من الخيرات، ويكتنز الحسنات، ويسعى في الأرض بالخير والإصلاح مغتنما دقائق العمر وساعاته، وكأنها كنز بين يديه يخاف عليها من الضياع. وقد استلهم علماؤنا من هذه التوجيهات النبوية حكمة بليغة مفادها أن عبادات الغافلين عادات، وعادات الطائعين عبادات. فالمسلم يبتغي في كل عمل يعمله وجه الله وحسن ثوابه، حتى في عاداته اليومية كالأكل والشرب والنوم ومداعبة أبنائه وتودده إلى زوجته، وما إليها من الممارسات التي يراها الناس أمرًا مألوفًا وسلوكًا عاديًا، لذلك فهو يتعهد كل ذلك بالإتقان والمداومة فيفلح في الدارين.

٤ ـ **الدعاء وحسن الظن بالله**: وهذا باب عظيم من الأبواب التي فتحتها السنة النبوية للمسلمين، حتى تظل نفوسهم سليمة من آفات اليأس والقنوط، ومعافاة من أسقام الاكتئاب والحزن، لا تستسلم لمصائب الدنيا ولا تنحني لنوائب الدهر، تتلمس بشغف ميادين العمل التي تتيحها لها قدراتها وإمكاناتها فتلجها بثقة وقوة، وتتوجه إلى رب الأرباب ومسبب الأسباب تسأله العون والتوفيق وتيسير العسير. وقد علّم الرسول ﷺ أصحابه الدعاء في كل المواطن وجميع الحالات، وغرس في نفوسهم اليقين التام بأن الله سيستجيب لدعواتهم إن هم أخلصوا النية في القول

١- مسند أحمد. أحمد بن حنبل. كتاب باقي مسند المكثرين. باب باقي المسند السابق. رقم ١٢٥١٢. ج ٣. ص ١٨٤. ورواه البخاري في الأدب المفرد. رقم ٤٧٩. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج١، ص ١١ وقال: سنده صحيح على شرط مسلم، وفي صحيح الجامع، رقم ١٤٢٤.

٢- صحيح مسلم. كتاب الإمارة. باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره. رقم ٣٩٠٥

٣- صحيح البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء. باب. ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم ٣٢٠٢

٤- السنن. الترمذي. كتاب العلم عن رسول الله. باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع. رقم ٢٥٨٠. قال الترمذي: حديث زيد بن ثابت حديث حسن. وصححه الألباني في صحيح الترغيب، رقم ٩٠، وفي السلسلة الصحيحة، رقم ٤٠٤.

والعمل مصداقا لقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة:١٨٦)، فقال ﷺ: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ»[1].

ولقنهم فن المناجاة الراقي ليظلوا على اتصال دائم بالله، وعلمهم كيف يبثون همومهم وأحزانهم إلى ربهم الرحيم، فهو مفزع المظلومين، وملجأ المستضعفين، وعون العاملين، ورفيق الخائفين، حتى لا تنكسر مقاومتهم، وتضعف أمام الضغوط والابتلاءات، وأنبأهم أن الدعاء سبب لرفع البلاء قبل نزوله، وسبب لرفع البلاء بعد نزوله، وأن الدعاء الصاعد يتلقى البلاء النازل فيعتلجان إلى يوم القيامة إكرامًا من الله لعبده الذي توجه إليه يشكو إليه ضعفه وقلة حيلته. قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»[2]، وفي هذا الحديث تعزية للمصابين والمهمومين ليكملوا مشوار الصبر والتجلد، حتى ينجلي الليل عن فجر أبلج، وبشرى للسائلين الواقفين عند باب الله ينتظرون فيض فضله وكريم عطائه.

وفي حديث قدسي آخر، يبين الرسول ﷺ للمسلمين، أن الله تعالى يعطي للعبد من نعمائه، ويسبغ عليه من أفضاله، بقدر تعلق قلب العبد بربه، وحسن

١- السنن. الترمذي. كتاب الدعوات عن رسول الله. باب ما جاء في جامع الدعوات عن النبي. رقم ٣٤٠١. انفرد به الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. ومدار الحديث على صالح بن بشير المري الذي ضَعَّفَه ابن معين والنسائي وغيرهما. لكن يشهد للحديث ما جاء في مسند أحمد، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، باب مسند عبد الله بن عمرو بن العاص. رقم ٦٣٦٨: "الْقُلُوبُ أَوْعِيَةٌ وَبَعْضُهَا أَوْعَى مِنْ بَعْضٍ فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَيُّهَا النَّاسُ فَاسْأَلُوهُ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ لِعَبْدٍ دَعَاهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ". وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٤٥.

٢- السنن. الترمذي. كتاب الدعوات عن رسول الله. باب في دعاء النبي. رقم ٣٤٧٩ وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ وَلَمْ يَرْفَعْهُ. ورواه ابن ماجه. كتاب الدعاء. باب رفع اليدين في الدعاء. رقم ٣٨٥٥. ورواه أحمد في مسنده. كتاب باقي مسند الأنصار. رقم ٢٢٦٠٠. ورواه أبو داود. كتاب الصلاة. رقم ١٢٧٣. وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري، ج ١١، ص ١٤٣ وقال: سنده جيد. وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٣٥٥٦.

ظنه به وتوقع الخير العميم منه على الدوام، واعتقاده اعتقادا يقينيا أن ما يأتي من عند الله لعبده الطائع لا يكون إلا خيرًا، حتى ولو بدا في ظاهره للناس غير ذلك. فعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي»[1]، قال ابن حجر: «أي قادر على أن أعمل به ما ظن أني عامل به... وفي السياق إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف»[2]، ويعضده الحديث الذي رواه أحمد عن واثلة بن الأسقع الذي قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَنْ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ»[3].

٥ ـ صناعة المستقبل مسؤولية الإنسان: ومن جملة المفاهيم الرائعة التي زرعتها السنة النبوية في وعي المسلم، فحفزت بها قواه للعمل الجاد، والسعي الحثيث نحو المستقبل: أن ما سيأتي به الغد هو حتما نتيجة طبيعية لمقدمات اليوم؛ لأن الكون يسير وفق نظام بديع من السنن التي لا تتخلف، لذلك يتعين على المسلم أن يتحرى الصلاح في كل شيء، ويتتبع مواطن الخير والحق، فينهل منهما ويفيض على مجتمعه وأمته من آثارهما، وهو على يقين من أن الآتي سيكون على شاكلة ما قدم تصديقا لقول الله عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ (آل عمران:١٩٥)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:١٤٣).

فهذا اليقين يجعله يتفانى في تقديم الأحسن، ليحصل على الأحسن منه، كما يحرره من عقدة الخوف من المستقبل، التي تستبد بالذين ابتعدوا عن طريق الله وقطعوا صلتهم به، فسكنتهم الهواجس والأوهام، وقتلهم القلق وهم

١- صحيح البخاري. كتاب التوحيد. باب قول الله تعالى يريدون أن يبدلوا كلام الله. رقم ٦٩٥١.
٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ج ١٣. ص ٣٨٥.
٣- مسند أحمد. أحمد بن حنبل. كتاب مسند الشاميين. باب حديث واثلة بن الأسقع. رقم ١٦٣٦٥. ورواه الدارمي في سننه. كتاب التوحيد. باب قول الله تعالى ويحذركم الله نفسه. رقم ٢٦١٥. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد. ج ٢، ص ٣٢١ وقال: رجال أحمد ثقات. وذكره السيوطي في الجامع الصغير، رقم ١٩٣٣. وصححه الألباني في صحيح الموارد. رقم ٢٠٨٨.

يترقبون أحداث المستقبل، أو يطلبونها لدى الكهنة والعرافين. فالمسلم مطمئن تمام الاطمئنان إلى أن الغيب لا يعلمه إلا الله؛ لذلك فهو يمتثل أمر نبيه الذي نهاه نهيا شديدا عن التطلع إلى الغيب من السبل المنحرفة والطرق الملتوية التي تفسد العقل وتعطل العمل، وتجعله يترك ما هو مأمور به من الكدح والسعي ليتبع خرافات وضلالات الكهنة والعرافين الذين يتلاعبون بمشاعر الناس ويمنونهم الأماني ويتحكمون في إراداتهم. فعَنْ أبي هريرة أن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[1].

وأرشد ﷺ المسلم إلى أن يتخلص أثناء سعيه في الحياة من كل المخاوف التي تصور له أن بإمكان أحد أن يضره أو ينفعه خارج إرادة ربه، ويضعه في الإطار الصحيح الذي يجب أن يتحرك فيه وفق ما تمليه عليه مرجعيته المقدسة، التي تجعل من سنة (العاقبة للمتقين) قانونًا جاريًا لا يتأخر، فلا يمالئ أحدًا على حساب دينه، ولا يداهنه على حساب مبادئه: «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[2]، كما وجهه إلى الترفع عن اعتقادات أهل الجاهلية ومفاهيمهم تجاه المستقبل، حين جعلوا للتطير حظا في حياتهم، وبنوا عليه أمر مستقبلهم، وتركوا الأشياء والحيوانات تتخذ القرارات المصيرية بدلهم في الحياة فقال ﷺ: «لَا طِيَرَةَ وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ. قَالَ: وَمَا الْفَأْلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا

١- مسند أحمد. أحمد بن حنبل. كتاب باقي مسند المكثرين. باب باقي المسند السابق. رقم ٩١٧١. وذكره الحاكم في المستدرك بسند صحيح عن أبي هريرة رقم ٦٣٩. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، وفي صحيح الجامع ، رقم ٥٩٣٩. وصححه الأرناؤوط في فتح المجيد، ص ٣٣٥ وقال: الحديث صحيح بشواهده.

٢- السنن. الترمذي. كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله. الباب منه. رقم ٢٤٤٠. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. ورواه أحمد في مسنده. كتاب مسند بني هاشم. باب بداية مسند عبد الله بن العباس. رقم ٢٥٣٧، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ٢٥١٦، وفي صحيح الجامع ، رقم ٧٩٥٧.

أَحَدُكُمْ»[1]. والفأل الذي أشار إليه النبي الكريم حيث يستبشر الإنسان بالكلمة الطيبة يسمعها، أو المنظر الجميل يراه، أو العبد الصالح يلتقيه يقابله التفاؤل والأمل، والنظر إلى الحياة نظرة إيجابية فيها إقبال على العمل، واندفاع إلى الإنجاز، وثقة في الله وتوكل كبير عليه. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الميل إلى التطير والتشاؤم من الأشياء والحيوانات، تكاد تكون موجودة في كل إنسان، غير أن المسلم ملزم بأن يتخلص منها، ويستبدلها بالتوكل على الله الذي بيده ملكوت كل شيء، لأن المخلوقات لا تضر ولا تنفع: «الطِّيَرَةُ مِنْ الشِّرْكِ وَمَا مِنَّا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»[2]، وعلمنا دعاءً جميلاً نقوله عندما نرى ما نكره، ونحس أن هذا المنظر الكريه سيؤثر على سلوكنا وأفعالنا بالسلب، ثم نمضي إلى ما كنا قد عزمنا عليه، ولا نعطل أعمالنا ومواعيدنا بسببه. قَالَ أَحْمَدُ الْقُرَشِيُّ: «ذُكِرَتْ الطِّيَرَةُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا. فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»[3].

خامسا: النظرة الإيجابية للمستقبل في السنة النبوية وأثرها في المجتمع والأمة.

ومثلما تعهد رسول الله ﷺ الفرد بالعناية والرعاية والاهتمام، كذلك فعل مع الأمة، فقد أسست السنة النبوية للنظرة الإيجابية للمستقبل على مستوى الأمة منذ فجر البعثة، فسار التكوين الفردي والجماعي جنبًا إلى جانب، وكان المسلم المستضعف في مكة يدرك بعمق أبعاد الرسالة التي يحملها، ويؤمن بصدق بعالميتها

١- صحيح البخاري. كتاب الطب. باب الفأل. رقم ٥٣١٤.

٢- السنن. الترمذي. كتاب السير عن رسول الله. باب ما جاء في الطيرة. رقم ١٥٣٩. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن كُهَيْل. ورواه ابن حبان في صحيحه. رقم ١٤٢٧. وصححه الألباني في صحيح الترمذي، رقم ١٦١٤، وفي السلسلة الصحيحة، رقم ٤٢٩.

٣- السنن. أبو داود السجستاني. كتاب الطب. باب في الطيرة. ٣٤١٨. انفرد به أبو داود. وصححه الألباني في ضعيف الجامع، رقم ١٩٩، وفي السلسلة الضعيفة، رقم ١٦١٩، وقال الأرناؤوط في تخريج كتاب التوحيد ص ١١٢: إسناده ضعيف.

وحتمية انتصارها، وهو لا يأمن على نفسه غوائل المشركين وأذاهم. وكان يعتبر نفسه جنديًا في كتيبة الإيمان، يدفع ضريبة نصر الحق، والتمكين له في الأرض من نفسه وماله، حتى يظهر دين الله على الباطل ويعلو على طواغيت البشر.

وكلما خفت نور الأمل في صدور الحفنة المؤمنة، التي كانت تلقى الأهوال، وتتجرع كؤوس العذاب من صناديد الكفر في مكة، كان النبي الكريم يعيد لمشاعر الأمل والتفاؤل تألقها، فتمتلئ القلوب عزيمة وقوة، وتوطن نفسها على استمرار المقاومة والمجالدة إلى أن يأذن الله بالنصر المبين. عَنْ خَبَّاب بْن الْأَرَتِّ قَالَ: «شَكَوْنَا إلَى رَسُول اللَّه ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ في ظلِّ الْكَعْبَة قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصرُ لَنَا؟ أَلا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ في الْأَرْض فَيُجْعَلُ فيه، فَيُجَاءُ بالْمنْشَار فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسه فَيُشَقُّ باثْنَتَيْن، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلكَ عَنْ دينه، وَيُمْشَطُ بأَمْشَاط الْحَديد مَا دُونَ لَحْمه منْ عَظْم أَوْ عَصَب، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلكَ عَنْ دينه. وَاللَّه لَيُتمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسيرَ الرَّاكبُ منْ صَنْعَاءَ إلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إلَّا اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمه، وَلَكنَّكُمْ تَسْتَعْجلُونَ»[1].

فقد لفت أنظارهم أول الأمر، إلى أن ما يلقونه من العنت والاضطهاد، سنة جارية من سنن الله التي لا تتأخر، وقد رافقت أنبياء الله جميعا وأتباعهم من بعدهم، الذين تكفلوا بتبليغ دعوة الحق، فوجدوا من الصد والجحود والنكران، ما دفع الكافرين إلى التنكيل بهم واختيار أبشع الطرق لقتلهم، فيجب أن يوطنوا أنفسهم على الخضوع لسنة الله التي تتطلب التضحية والصبر، حتى تسير الأمور وفق ما تقتضيه الطبيعة من التدرج والمرحلية، وعدم استعجال قطف الثمرة قبل نضوجها، وعدم الاعتماد على المعجزات التي تخرق السنن وتعطل نظام الكون، ثم أقسم وهو الصادق الذي لا ينطق عن الهوى أن نصر الله آت لا محالة، وأن الإسلام سيبسط سلطانه على الجزيرة العربية، حتى يسير المسافر من صنعاءَ إلى

١- صحيح البخاري. كتاب المناقب. باب علامات النبوة في الإسلام. رقم ٣٣٤٣.

حضرموتّ آمنًا مطمئنًا، لا يخشى قطاع الطرق ولا لصوص القوافل، فاطمأنت النفوس المضطربة، وهدأت القلوب الخائفة، وانطلقت تواصل رسالتها في ثقة عالية، بالمستقبل الذي يوشك أن يأتي بالنصر المبين.

وظلت هذه النظرة المتفائلة إلى المستقبل، رديفة المؤمنين الذين لم يتوانوا عن البذل والعطاء، ولم تتسرب إلى قلوبهم بذرة الشك والريبة، على الرغم مما لحقهم من المشركين واليهود من العنت والأذى، وما حاق بهم من أخطار داهمة، كانت تؤذن في كل مرة باستئصال شأفتهم، وإبادة جموعهم، وقتل الدعوة ونبيها وهي لا تزال محصورة بين مكة والمدينة، وكان الرسول ﷺ في كل مناسبة، ينعش الآمال، ويجدد العزائم، ويغرس هذا الشعور بعمق، حتى يستقر في النفوس فلا تجزع ولا تتردد، ولا تستسلم للعوائق الآنية، بل تظل مستشرفة المستقبل المشرق، بروح يملؤها البذل والعطاء.

ولعلنا لا نجد مثالاً أصدق من غزوة الأحزاب، التي وقع فيها المسلمون بين شقي الرحى، حينما حاصرهم المشركون من جهة، ونقض اليهود عهدهم واستعدوا للانقضاض عليهم من الجهة الأخرى، ودب الخوف في النفوس، وقلت المؤن، واشتد الأمر على العصبة المؤمنة، وهم ينتظرون في كل لحظة أن تطبق عليهم جيوش الكفر من كل حدب وصوب، فيسحقونهم عن آخرهم، والمنافقون يسعَون بين الناس بالشكوى والتذمر، وتثبيط العزائم وتوهين النفوس، والدعاء بالويل والثبور وقرب الهلاك. قال ابن هشام: «وعَظُمَ عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم، ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال معتب بن قشير: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»[1]. وحَدَّثَ أنس بن مالك رضي الله عنه عن الظروف العصيبة التي جرى

١- السيرة النبوية. ابن هشام. ج ٣. ص ٢٣٣.

فيها حفر الخندق من البرد والجوع فقال: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَهْ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ. فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا، عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا»[1]، وحَدَّث أيضا عن نقص المؤن، وعن المسغبة التي أصابت الصحابة وهم مرابطون عند الخندق يحفرون ويحرسون فقال: «يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنْ الشَّعِيرِ، فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ الْقَوْمِ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ، وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ»[2]. قال ابن حجر: «وقوله» بإهالة «بكسر الهمزة وتخفيف الهاء: الدهن الذي يؤتدم به سواء كان زيتا أو سمنا أو شحما. وقوله «سنخة» أي تغير طعمها ولونها من قدمها، ولهذا وصفها بكونها بشعة. وقوله: بشعة أي أنهم كان يحصل لهم عند ازدرادها شبيه بالغثى. وقوله: (ولها ريح منتن) يدل على أنها عتيقة جدا حتى عفنت وأنتنت»[3].

في هذا الجو المشحون الذي وصفه الله في القرآن وصفًا بليغًا رائعًا فقال عز وجل: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب:١١،١٠)، ينزل رسول الله ﷺ إلى الخندق، ليزيل الصخرة التي أعيت المسلمين، وأعاقت عملية الحفر، ينزل وقد أنهكه التعب، ونال منه الجوع حتى ربط على بطنه الشريفة حجرًا، فيضرب الحجر ثلاث مرات، ويكبر ثلاث مرات، ثم يخرج من الحفرة فيبشر المسلمين بفتح اليمن وفارس والشام.

عن البراء بن عازب قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ. قَالَ: وَعَرَضَ

١- صحيح البخاري. كتاب الجهاد والسير. باب التحريض على القتال. رقم ٢٦٢٢.
٢- البخاري. كتاب المغازي. باب غزوة الخندق وهي الأحزاب. رقم ٣٧٩١.
٣- فتح الباري. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. مج ٧، ص ٣٩٥.

لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنْ الْخَنْدَقِ لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ عَوْفٌ وَأَحْسِبُهُ قَالَ وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا. ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَضَرَبَ أُخْرَى، فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا. ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»[1].

ولنا أن نتصور وقع هذا الخبر السعيد على المسلمين الذين كانت تضغط عليهم الأحداث المتلاحقة، وتحاصرهم المخاوف والهموم، ويستنفذ البرد والجوع طاقاتهم، وتسلبهم شائعات المنافقين وأراجيفهم راحة البال وطمأنينة النفس. لقد أعادت إليهم هذه البشرى الأمل الذي كاد أن يفلت من أيديهم، وأضاءت جوانب نفوسهم التي غشيها الألم وهدها الجزع، وشحنتهم بدفقات غزيرة من الإيمان الذي رفع معنوياتهم إلى أعلى الدرجات، واستعادوا به حيويتهم ونشاطهم، وعادوا إلى ساحة المعركة يبذلون أقصى الجهود، وهم واثقون من نصر الله ومطمئنون إلى صدق وعده، يؤدون واجبهم في حماية الدعوة والدفاع عنها؛ ليمهدوا السبيل لتحقيق البشرى التي جاءتهم من السماء.

وفي صلح الحديبية ركب المسلمين هَمٌّ عظيم لعدم قدرتهم على أداء العمرة، ولامتعاضهم من الشروط التي تضمنها عقد الصلح، والتي رأوها مجحفة في حقهم، وعبّر عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عن تذمره من ذلك بقوة أمام

١- مسند أحمد. أحمد بن حنبل. كتاب أول مسند الكوفيين. باب حديث البراء بن عازب. رقم ١٧٩٤٦. وأخرجه النسائي من حديث البراء بن عازب، كتاب السير، باب الدعاء ثم حفر الخندق، رقم ٨٨٥٨. وذكره ابن حجر في فتح الباري، ج ٧، ص ٤٥٨ وقال: إسناده حسن. وصححه الألباني في صحيح النسائي، رقم ٣١٧٦، وقال: حديث حسن.

رسول الله ﷺ، ثم أمام أبي بكر الصديق، ورفض المسلمون الانصياع لأمر النبي بذبح الهدي وحلق الشعر، ولما رأوا النبي ﷺ يذبح هديه ويحلق: «قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا»[1]. ولما أنفذ الرسول عليه الصلاة والسلام أمر ربه، التفت إلى أصحابه الذين لم يستوعبوا مجريات الأمور، ليبث الأمل و الطمأنينة في نفوسهم، ويعيد إليهم ثقتهم في أنفسهم التي اهتزت تحت وطأة شروط المشركين وتعنتهم، فراح يتلو عليهم في طريق العودة قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ (الفتح:١). عنَ أَنَس بْنَ مَالك قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفرَ لَكَ اللهُ إِلَى قَوْله فَوْزًا عَظيمًا مَرْجِعَهُ منْ الْحُدَيْبِيَة، وَهُمْ يُخَالطُهُمْ الْحُزْنُ وَالْكَآبَةُ وَقَدْ نَحَرَ الْهَدْيَ بِالْحُدَيْبِيَة فَقَالَ: لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا جَميعًا»[2]، فاستبشر بها المسلمون وقالوا: «هَنِيئًا مَرِيئًا فَمَا لَنَا؟ فَأَنْزَلَ الله ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٥))»[3].

وعلى الرغم من أن معالم الفتح، وثمرات الصلح، التي كانت خيرًا عميمًا على الإسلام والمسلمين، لم تظهر إلا بعد فترة، إلا أن تلك الآيات طيبت الخواطر، وهدأت النفوس الثائرة، وطمأنت القلوب التي ركنت إلى وعد الله، واستنامت إلى هدوء رسوله، وثقته المطلقة في نصر ربه، وفرحت بالبشرى العظيمة التي غفر الله بها للمؤمنين شكهم وحزنهم ومعارضتهم للصلح، ووعدهم فيها بالجنة. قال الزهري: «لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام من قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين

١- صحيح البخاري. كتاب الشروط. باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب. رقم ٢٥٢٩.
٢- صحيح مسلم. كتاب الجهاد والسير. باب صلح الحديبية في الحديبية. رقم ٣٣٤١.
٣- صحيح البخاري. كتاب المغازي. باب غزوة الحديبية. رقم ٣٨٥٤.

خلق كثير، وكثر بهم سواد الإسلام»[1].

وفي الوقت الذي لم يكمل الإسلام انتشاره في أنحاء الجزيرة العربية، يحدث رسول الله ﷺ أصحابه، بأنه سيأتي يوم تفتح فيه القسطنطينية للمسلمين ويملكوها، وكانت القسطنطينية قلعة المسيحية الشرقية وعقر دار الروم البيزنطيين، والتطلع إليها في ذلك الزمان ضرب من الخيال، إن لم نقل من الجنون، ثم مد لهم من مساحة الأمل، ووعدهم بفتح روما واستقرار الإسلام فيها، وروما هي مقر المسيحية الغربية وموطن سلطان الكاثوليكية، وكانت آنذاك كالغيب بالنسبة للمسلمين، لبعدها وندرة من يرتادها من جهة الشرق، فيسأل الصحابة في شغف ولهفة وهم موقنون بصدق نبيهم: أي المدينتين تفتح للمسلمين أولا؟ فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَكْتُبُ إِذْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوَّلًا قُسْطَنْطِينِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا يَعْنِي قُسْطَنْطِينِيَّةَ»[2]، ليعدوا العدة للمستقبل الآتي، ويوطنوا أنفسهم على العمل الجاد، ويحددوا الوجهة التي يوجهون نحوها جهودهم أولا.

١ ـ النظرة الإيجابية للمستقبل وأثرها في تحقيق الانتصارات الكبرى.

لقد فعلت هذه التربية الرشيدة فعلها في الصحابة الكرام، واستوعبوها استيعابًا عميقًا، وحفرت أخاديدها في بواطن عقولهم، فأصبحوا يصدرون عنها في جميع أفعالهم وأقوالهم، ويؤمنون أن هذا المستقبل الباهر، الذي ينتظر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، بخبر الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، منوط تحقيقه بأعمالهم وجهودهم وسعيهم وكدحهم، وهذا ما دفعهم بعد وفاة

١- زبدة التفسير من فتح القدير. محمد سليمان عبد الله الأشقر. ص ٦٧٨.

٢- مسند أحمد. أحمد بن حنبل. كتاب مسند المكثرين من الصحابة. باب مسند عبد الله بن عمرو بن العاص. رقم ٦٣٥٨. ج ٢، ص ١٧٦، ورقم ٦٦٤٥ بتحقيق أحمد شاكر وقال عنه: إسناده صحيح. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد. ج ٦، ص ٢١٩ وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبي قبيل وهو ثقة. وأخرجه الدارمي. كتاب المقدمة. باب من رخص في كتابة العلم. ج ١. ص ١٢٦.

رسول الله ﷺ وانسياح جيوش الفتح في أقطار الأرض، إلى ترك دار الهجرة التي صحبوا فيها خير خلق الله، وبيت الله الحرام، وشدوا الرحال يجوبون البلاد يبلغون دعوة الله، ويجاهدون قوى الظلام، ويفسحون المجال لنور الله، ليغسل وجه الأرض ويطهرها. وقد أفادت دراسة حديثة قام بها أحد الباحثين المسلمين أن ٩٢ ٪ من صحابة رسول الله ﷺ، ماتوا خارج الجزيرة العربية، بعيدا عن مهد الدعوة ومنبع الرسالة، لأنهم أدركوا أن قدر الإسلام مرهون بحركتهم[(١)].

وهذا ما أمدهم بتلك الطاقة الجبارة، التي حملتهم على مقارعة الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية، بجيوشهما الجرارة وعدتهما وأعدادهما، والصبر على الشدائد، والاجتهاد في إعداد الخطط، وعدم الاستسلام لليأس أمام الحصون المنيعة والقلاع القوية، والإصرار على تحقيق نبوءة رسول الله ﷺ، طلبًا للأجر والثواب، وإحساسًا بالمسؤولية الثقيلة الملقاة على عواتقهم، بتبليغ كلمة الحق للعالمين.

ولعلنا نلمس هذه الروح الوثابة، التي تستشرف المستقبل في ثقة وإيمان، من خلال المحاولات الكثيرة التي قام بها المسلمون منذ وقت مبكر جدًا لفتح القسطنطينية، الذي بشر به رسول الله ﷺ في حديث عَبْد اللَّه بْنُ بِشْر الْخَثْعَمِيُّ عَنْ أَبِيه: «أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ. قَالَ: فَدَعَانِي مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِك فَسَأَلَنِي، فَحَدَّثْتُهُ، فَغَزَا الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ»[(٢)]. فقد فعل هذا الحديث فعله في المسلمين، وجعلهم يتنافسون

١- هذه الدراسة ذكرها الشيخ حازم أبو إسماعيل في سلسلة "إخراج الناس من الظلمات إلى النور "التي كانت تبثها قناة "الناس "الفضائية خلال سنة ٢٠٠٩، وذكر أن صاحبها قد بعث إليه بنسخة منها لكنه لم يذكر الاسم وعنوان الدراسة، ونحن أثبتناها في البحث لثقتنا في معلومات الشيخ.

٢- مسند أحمد. أحمد بن حنبل.كتاب أول مسند الكوفيين. باب حديث بشر بن سحيم. رقم ١٨١٨٩. وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير. ج ٢. ص ٨١. ترجمة رقم ١٧٦٠.وذكره الحاكم في المستدرك ج٤.ص٤٦٨، رقم ٨٣٠٠ وقال صحيح الإسناد وعلى شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير، رقم ١٢١٦، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، ج ٦، ص ٢٢١ ، وابن عبد البر في الاستيعاب، ج ١، ص ٢٥٠ وقال :إسناده حسن.

في فتحها، حيث بدأت هذه المحاولات عام ٤٩ هـ على يد معاوية بن أبي سفيان، الذي جهز جيشا ضخما، وشارك فيه عدد كبير من الصحابة، منهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وأبو أيوب الأنصاري وجعل عليها سفيان ابن عوف، وأخرج معه ابنه يزيد بن معاوية. وكلهم متلهفون لنيل شرف فتح هذه المدينة، للفوز بالتزكية التي منحها رسول الله ﷺ لجيش الفتح و أميره، غير أن المحاولة فشلت واستشهد فيها أبو أيوب الأنصاري ودفن تحت أسوارها، وأعقبتها محاولة أخرى من طرف مسلمة بن عبد الملك عام ٩٨ هـ، لكنها باءت هي الأخرى بالفشل، وأشهر حملة عسكرية توجهت نحو القسطنطينية خلال العصر العباسي هي تلك التي جهزها هارون الرشيد عام ١٩٠ هـ، لكنها لم تحقق هدفها. وظلت الجيوش الإسلامية تحوم حول مدينة القسطنطينية وأسوارها المنيعة، وأبراجها الحصينة، تتطلع إلى اليوم الذي تتحقق فيه نبوءة الرسول الكريم إلى أن أذن الله بذلك بعد ثمانية قرون على يد محمد الفاتح عام ٨٥٧ هـ[1].

كما نلمسها أيضا في مسارعة المسلمين إلى اقتحام ميدان الملاحة وبناء الأساطيل؛ لاستعمالها في الغزو والجهاد في سبيل الله، على الرغم من أن العرب لم يكن لهم عهد بركوب البحر وإدارة العمليات الحربية فيه، لأن أحاديث رسول الله ﷺ قد تنبأت بذلك، وعبر فيها النبي الكريم عن غبطته وسروره لهذا الإنجاز، كما في حديث أم حرام بنت ملحان التي نام عندها رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك فقالت له: «وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً في سَبِيلِ اللَّهِ، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ، مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ (شَكَّ إِسْحَاقُ). قَالَتْ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَدَعَا لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي، عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ فِي

١- راجع: تاريخ الدولة العلية العثمانية. محمد فريد. دار الجيل. ص ٦٠، ٦١.

الْأَوَّل. قَالَتْ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: أَنْتِ مِنْ الْأَوَّلِينَ فَرَكِبَتْ الْبَحْرَ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجَتْ مِنْ الْبَحْرِ فَهَلَكَتْ»[1].

فكانت أول معركة بحرية خاضها المسلمون مع الأسطول البيزنطي العريق، هي معركة ذات الصواري، التي جرت عام ٣٤هـ في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان، وثبتوا فيها ثبات الجبال أمام القوات البيزنطية العاتية، التي كان عدد سفنها يفوق ٦٠٠ مركب أمام ٢٠٠ سفينةٍ للمسلمين، حتى تحقق لهم النصر، واندحر الأسطول البيزنطي بعد أن كاد المسلمون أن يأتوا عليه كله، ثم توالت انتصاراتهم، وتعمقت خبرتهم في هذا المجال، وجاء زمان أصبح فيه البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية، تمر به السفن من جهات الأرض الأربع، فتدين بالطاعة للقوات البحرية الإسلامية وبخاصة خلال العهد العثماني، وكل ذلك ببركة رؤيا رسول الله ﷺ، ورضاه عن المجاهدين في سبيل الله في عرض البحر.

ويجدر بنا نحن المسلمين أن نحذو حذو هذا السلف الصالح، في التشبث ببشرى رسول الله ﷺ، الذي أخبر بوقوع المعركة الفاصلة بين المسلمين واليهود، وانتصار المسلمين الساحق فيها بفضل الله ومدده. ذلك أن اليهود طوال العصور الإسلامية الزاهرة، لم تكن لهم قوة يعتدون بها ولا تجمع يبعث الخوف منهم أو الرهبة من عدوانهم، لكنهم في هذا الزمان استطالوا وقويت شوكتهم وأسرفوا في سفك دماء المسلمين واستضعافهم وتأليب الأمم الكافرة عليهم، واستنزاف خيرات بلادهم، واحتلال أراضيهم، وتدنيس مقدساتهم حتى ظن ضعاف النفوس أن لا سبيل إلى استعادة الأرض الإسلامية، ولا أمل في قهر هذا الكيان الغاصب الذي تشد أزره كل القوى العالمية، لذلك فالحديث يهمنا نحن أكثر مما يهم أسلافنا، وهو صريح إلى أبعد الحدود في التأكيد على أن دولة اليهود ستزول

١- صحيح البخاري. كتاب الجهاد والسير. باب الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء. رقم ٢٥٨٠.

حتما بأيدي العصبة المؤمنة. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمْ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»[1].

وهذا هو الأمل الكبير الذي يتعين على حركات المقاومة أن تتمسك به وتستمد منه القوة والثقة في المستقبل، وتتعالى به على ضغوط الواقع الرهيبة، ومؤامرات الأعداء، وقلة الإمكانات المتاحة، وشح الموارد، وخذلان الأقربين، وتظل مرابطة على هذا الثغر تدافع الباطل وتواجه الشر، لا تستسلم ولا تيأس إلى أن يأذن الله بتحقيق وعده للمؤمنين بالنصر الكبير الذي هو آت لا محالة، وتحتسب نفسها من العصبة المؤمنة التي وصفها رسول الله ﷺ في قوله: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ»[2].

٢ ـ النظرة الإيجابية للمستقبل وأثرها في تجديد الدين وإحيائه.

ولم تقتصر جهود رسول الله ﷺ في بث روح الأمل وترسيخ النظرة الإيجابية للمستقبل على أصحابه، بل تعدتها إلى جميع المسلمين عبر العصور، فشملت أحاديثه الشريفة كثيرًا من المبشرات والمحذرات التي ترسم لهم معالم الطريق، وتهديهم السبيل القويم، وتطرد عنهم وساوس الخوف ومشاعر اليأس وشبح

١- صحيح مسلم. كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقير الرجل فيتمنى. رقم ٥٢٠٣.

٢- مسند أحمد. أحمد بن حنبل. كتاب باقي مسند الأنصار. باب حديث أبي أمامة الباهلي. رقم ٢١٢٨٦. ورواه الطبراني في المعجم الكبير، ج ٨، ص ١٤٥، رقم ٧٦٤٣ من طريق ضمرة بن ربيعة عن السيباني واسمه يحي بن أبي عمرو عن عمرو بن عبد الله الحضرمي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد، ج ٧، ص ٢٨٨: رواه عبد الله وجادة عن خط أبيه والطبراني ورجاله ثقات. وقال الألباني في السلسلة الصحيحة، ج ٤، ص ٦٠٠: وهذا سند ضعيف لجهالة عمرو بن عبد الله الحضرمي وله شاهد بنحوه.

القنوط الذي يشل قدرات الأمة ويقتل همم أبنائها ويذهب بريحها، وتثبت قلوبهم عند الفتن والشدائد وتبعث فيهم روح المقاومة والممانعة والصمود إلى أن يأذن الله بالنصر المبين.

فحتى لا يفقد المسلمون الأمل ويفرطوا في أمانة الدعوة والتبليغ والتمكين للحق في الأرض في كل زمان ومكان، أخبرنا الرسول ﷺ أن دين الله ستغشاه غاشية من التعطيل والتأويل الذي يحجب عن الناس حقيقته، ويعطل في النفوس فعاليته، ويصيب أحكامه بالتحريف والتزييف، وأن من رحمة الله بهذه الأمة التي تحمل أمانة الرسالة الخاتمة أن يقيض لها على رأس كل مائة سنة من ينفض عن الإسلام غبار السنين، وضلالات الجاهلين، وبدع المبتدعين، فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[1].

ففي هذا الحديث الشريف تقرير لسنة جارية تصيب المنظومات الفكرية بتقادم السنين، فتفقدها بريقها وتبتعد بها عن منبعها الأصلي، فتكف عن إمداد أهلها بما يعينهم على أداء دورهم الحضاري في الحياة، والإسلام ستجري عليه هذه السنة الكونية، غير أن رسول الله ﷺ يخبرنا أن الله الذي تكفل بحفظ الرسالة الخاتمة سيقيض لهذا الدين على رأس كل مائة سنة من ينفي عنه ما علق به من أهواء البشر وبدعهم وضلالاتهم، ويعيد إليه صفاءه وإشراقه، ويمكّن أهله من مواصلة مسيرتهم نحو العالمية، والتبشير به في الآفاق. وفيه تحفيز لهمم العلماء في كل عصر ومصر ليبقوا متيقظين يحرسون ثغور الدين من أن يتسلل إليها ما ليس فيها، لعلهم ينالون شرف تجديد الدين وإحياء ما اندرس من أحكامه وفضائله.

وقد ارتبط مستقبل الأمة عبر العصور بهذا الحديث الذي ظل نبراسًا يضيء

١- سنن أبي داوود. أبو داوود السجستاني. كتاب الملاحم. باب ما يذكر في قرن المائة. رقم ٣٧٤٠. وذكره الحاكم في المستدرك. ج ٤. ص ٥٢٤ وقال: رجال إسناده ثقات. ورواه الطبراني في المعجم الأوسط، ج ٦، ص ٣٢٣.. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج ٢، ص ١٥٠.

الطريق للمخلصين من أبنائها، ويبث فيهم روح الأمل وهم يغالبون الظلمات التي كانت تحاصرها من كل جانب، ولا يتأخرون عن قمع البدع والتشهير بها، ونفي الضلالات والعوائد الدخيلة على الدين، وبث الوعي بين الناس الذين غرقوا في دوامة الغفلة، وتمكنت منهم العصبيات المذهبية والجمود الفقهي، وابتلعهم تيار الصوفية المنحرف، ولم تخْلُ عصور الإسلام كلها ـ كما يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ من قائم لله بحجة[1]، وكان اللاحق يستمد من السابق صدق النية والإصرار والعزيمة، ويرجو أن يكون قد سد الثُّغرة التي أشار إليها الحديث الشريف، وذب عن دين الله ما غشيه من الغبش، ولا زالت مسيرة التجديد إلى يومنا هذا تشق طريقها نحو المستقبل الموعود، يجتهد علماء الأمة أن يستوعبوا من خلالها المستجدات المتسارعة التي تطرأ على البشرية في كل آن وحين، حتى تنسجم مع مقولات الوحي، وتمكن المسلم من معايشة واقعه دون التخلي عن قيمه ومبادئه. وأصبحوا ينظرون إلى قضية تجديد الدين نظرةً خاصةً فيها كثير من الإحاطة والشمول، والدقة والعمق، ويعدونها موضوعًا في غاية الأهمية والخطورة، ومرتكزًا أساسيًا من مرتكزات النهضة الإسلامية الحديثة، وقطب الرحى الذي تدور حوله الجهود الهادفة إلى تغيير الواقع الإسلامي نحو الأحسن.

ومن بين التأويلات التي فسر بها المحدثون معنى التجديد نذكر ما أورده عمر عبيد حسنة من أن الحركة التجديدية التي أشار الحديث الشريف إلى حدوثها على رأس كل مائة سنة يحمل لفظ التجديد فيها معاني: «كسر أسوار التقليد والركود، والتحرر من إلزام الفهوم البشرية التاريخية التي جاءت لتنزيل القيم الإسلامية على واقع معين، وإعادة الفاعلية، وتشغيل المنهجية المتجمدة، للمساهمة بالإنتاج المعرفي في ضوء قيم الكتاب والسنة، مع استحضار بعدي الزمان والمكان، واستصحاب التراث، والتوغل فيه باتجاه الينابيع الأولى، وتجديد الذاكرة،

١- جريدة السنة. س ١. ع ٤. ٦ محرم ١٣٥٢ هـ الموافق لـ١ مايو ١٩٣٣م.

وإعادة صلتها بقيم الكتاب والسنة، وتحريك آليات التغيير ومناهجه»[1]، بينما ذهب المناوي في القرن العاشر إلى شرح الحديث بقوله: «يجدد لها دينها أي يبين السنة من البدعة، ويكثّر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة ويذلهم»[2].

ومن خلال هذين النصين ندرك التغيير الكبير الذي طرأ على نظرة المسلمين عبر العصور لمفهوم التجديد الذي ورد في الحديث الشريف، حيث حاول المجددون عبر القرون تكييفه مع واقع المسلمين المتغير باستمرار حتى يحققوا الهدف منه، ويظلون مرتبطين بالأصل الأول يستلهمون منه التوجيه والإرشاد.

ويعضد هذا الحديث الشريف أحاديث كثيرة تبشر بانتشار الإسلام في كل بلاد العالم، منها ما رواه ثَوْبَانَ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»[3]. ومنها ما رواه تَمِيم الدَّارِيِّ قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»[4]، ونحن نرى في عصرنا الحاضر بوادر هذه البشارة، ونلمس آثارها فيما يرد علينا من الأخبار والإحصائيات وما يعده المتخصصون من الدراسات والأبحاث التي تشير إلى انسياح الإسلام في المشارق والمغارب، وإقبال الناس من كل الأجناس على اعتناقه، وعودة أبنائه الذين كانوا تائهين في أنظمة الشرق والغرب إلى رحابه يستمدون منه الهدي ويستلهمون الطريق القويم، وقد أشارت إحدى هذه الدراسات إلى أن الأذان يرفع في كل ثانية في مكان ما من الكرة الأرضية حتى يشملها كلها.

١- الشاكلة الثقافية. عمر عبيد حسنة. ص ١١٦.

٢- فيض القدير شرح الجامع الصغير. عبد الرؤوف المناوي. ج ٢. ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

٣- صحيح مسلم. كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض. رقم ٥١٤٤.

٤- مسند أحمد. أحمد بن حنبل. كتاب مسند الشاميين. باب حديث تميم الداري. رقم ١٦٣٤٤. وذكره الحاكم في المستدرك. رقم ٨٣٢٦. ج ٤. ص ٤٧٧، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٣. ج ١. ص ٣٢.

٣ ـ النظرة الإيجابية للمستقبل وأثرها في توخي الحذر والحيطة.

وإلى جانب هذه المبشرات التي تملأ قلب المسلم أملاً وغبطة، قدم رسول الله ﷺ لأمته جملة من التحذيرات التي تخبر بما سيلحقهم من العنت والهوان إن هم نقضوا عهد الله، وخانوا أمانة الدين، فأخبر الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى أن ما دون هذا المستقبل المتألق أهوالاً وفتنًا تعصف بالأمة، جراء تخليها عن حبل ربها المتين وعروته الوثقى، وجريها وراء المرجعيات الوضعية القاصرة، والمنظومات البشرية الضالة تنشد عندها النجاة والفلاح: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ»(١)، وأن شرودها عن منهاج الله سيصيبها بالضعف والذلة، فتتناهب خيراتها الأمم، وتستذل رقابها الجبابرة، وتستعبدها قوى الطغيان: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ. وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»(٢)، وتدب بينها الفرقة والخلاف والتنازع، فيتقاتل أبناؤها ويتناحرون على حطام الدنيا، وينسون رسالتهم وأمانة الله عندهم ووديعة رسول الله لديهم: «حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»(٣).

ثم يبث فينا الأمل مرة أخرى، وينهانا عن أن نركن إلى اليأس جراء هذا الواقع المتردي الذي ارتكست فيه الأمة بعد أن كانت عزيزة الجانب، قويةً، مهابةً،

١- صحيح البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء. باب ما ذكر عن بني إسرائيل. رقم ٣١٩٧.

٢- سنن أبي داوود. أبو داوود السجستاني. كتاب الملاحم. باب في تداعي الأمم على الإسلام. رقم ٣٧٤٥. ورواه أحمد في مسنده. رقم ٢١٣٦٣ ج ٥. ص ٢٧٨. وصححه الألباني في صحيح أبي داوود، رقم ٤٢٩٧، وفي السلسلة الصحيحة، رقم ٩٥٨، وقال: صحيح بمجموع طرقه. راجع أيضا: مجلة التمدن الإسلامي. ع ٢٤. ص ٤٢١، ٤٢٦.

٣- صحيح مسلم. كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض. رقم ٥١٤٤.

والذي نعيش فصولاً حية منه خلال أيامنا هذه، ويؤكد أنه مهما بلغت مؤامرات الأمم الظالمة من الحبكة والمكر، ومهما حشدت من الجيوش، وأنفقت من الأموال، وعقدت من الأحلاف، فلن تتمكن أبدا من القضاء على أمة التوحيد، على الرغم من كل ما شابها من الضعف والوهن والتشتت؛ لأنها مهيأة لدور طلائعي عالمي لا يقوم بأعبائه غيرها، وهو وعد قطعه الله على نفسه لنبيه الكريم: «وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا»[١].

وقد مرت بالأمة الإسلامية أحداث عظام يشيب لهولها الوِلْدان، لكنها نهضت مرة ومرة، واستعادت زمام الأمور وسارت أشواطا في مضمارها الحضاري الظافر، انسجامًا مع تلك النبوءة الكريمة. ولعلنا لا نجد نصًا يعبر عما أصاب المسلمين عند هجوم التتار على بلادهم، وما أحدثوه فيها من الفساد والتقتيل والقضاء على الخلافة من اليأس والحسرة من نص ابن الأثير الذي رأى في هذه الواقعة نهاية الأمة ووصفها بأنها: «الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله - سبحانه وتعالى - آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها»[٢]، واعتبر تسطيره لحوادثها ووقائعها نعي للإسلام والمسلمين: «لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم

١- صحيح مسلم. كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض. رقم ٥١٤٤.
٢- الكامل في التاريخ. ابن الأثير. ج ٩. ص ٣٢٩.

تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً»[1].

غير أن الأمة لملمت جراحها بعد هذه الفاجعة، واستجمعت قواها، وتداركت أخطاءها، وحملها القادة الصالحون الذين هيأهم الله لهذه المهمة الصعبة على الوحدة والتكتل في جبهة قوية، فحققت المعجزة بعد سنوات قليلة في عين جالوت، وانتصرت على التتار انتصارا ساحقًا، وأبعدت خطرهم عن بلاد الإسلام إلى الأبد، و أيضًا كانت لها مواقف تاريخية مشهودة مع الصليبيين بعد أن جثموا على بيت المقدس وديار المسلمين قرابة قرن من الزمان. ولكنها عادت فسقطت مرة أخرى وتعثرت خطاها، فانقض عليها أعداؤها انقضاض الطيور الجارحة، وهي تئن تحت وطأة هذا الواقع الأليم، وتتململ في قيودها بغية الانعتاق، ولكنها لا تزال تعاني من أمراضها الداخلية التي تفتك بها، والتي دلها رسول الله ﷺ في أحاديثه الكثيرة التي يقرر بها سنن الله في الأنفس والآفاق عليها حتى تتحاشاها، أو تنقي نفسها منها إن ابتليت بها لأنها جالبة لسخط الله وغضبه، وعائق خطير في طريق النصر والتمكين. قال ﷺ: «لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»[2].

وكل هذه الأعراض والأمراض فينا، وما لم نعكف على معالجتها وتطهير

١- المصدر نفسه. ج ٩. ص ٣٢٩.

٢- السنن. ابن ماجه. كتاب الفتن. باب العقوبات. رقم ٤٠٠٩. وذكره الحاكم في المستدرك. ج ٤. ص ٥٤٠ من طريق أبي معبد حفص بن غيلان عن عطاء بن أبي رباح وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٩٧٨، وفي صحيح الترغيب، رقم ٢١٨٧، ص ٧٦٤.

مجتمعاتنا ومؤسساتنا منها فلا سبيل إلى ذلك المستقبل الزاهر الذي رسم لنا معالمه رسول الله ﷺ في مبشراته. مما يعني أن من أوجب الواجبات التي يفرضها علينا ديننا في هذه المرحلة إصلاح حال الأمة، حتى تكون مهيأة للنهوض بالمهمة الجليلة التي تنتظرها في مستقبل الأيام، وكل عمل صالح يقربنا إلى هذا الهدف ويزيل من طريق المسلمين عائقًا يعرقل مسيرتها هو خطوة موفقة إلى الأمام، والابتعاد ما أمكن عن خطاب التشاؤم والتثبيط، وسد الأبواب أمام دعاة الاستسلام والخنوع، وشحن الأمة بما يعينها على تحمل آلامها، ومداواة جراحها حتى تتجاوز هذه المرحلة الخطيرة بسلام وتفضي إلى بر الأمان.

٤ ـ النظرة الإيجابية للمستقبل وأثرها في بث الأمل وشحذ العزائم.

إن هذه المحذرات التي قدمها رسول الله ﷺ بين يدي مبشراته، فأضاء بها الطريق للمسلمين، حتى لا تنقطع بهم السبل ويقتلهم اليأس عندما يقعوا فيها قد أردفها بالنهي الشديد عن بث روح الإحباط بين الناس. فليس من هديه عليه الصلاة والسلام ـ عند اشتداد الكرب وتوالي المحن ـ تقنيط الناس وتيئيسهم من رحمة الله، ونعي الأمة ونفض اليد منها ،والاستسلام للواقع الذي صنعه أعداؤها ليذلوها ويمرغوا به أنفها في التراب، فنهى نهيًا شديدًا عن تثبيط الهمم وتوهين العزائم. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ. قَالَ أَبُو إِسْحَقَ: لَا أَدْرِي أَهْلَكَهُمْ بِالنَّصْبِ أَوْ أَهْلَكُهُمْ بِالرَّفْعِ»[٣]، وكلتا الصيغتين تؤدي الغرض منها، لأنها تعبر عن حالة إحباط فردية أو جماعية تبث الوهن في النفوس وتبعث فيها روح الاستسلام، وتقتل الرغبة في التغيير وتكرس الرداءة والتخلف والفساد.

٣- صحيح مسلم. كتاب البر والصلة والآداب. باب النهي عن قول هلك الناس. رقم ٤٧٥٥.

بينما يؤكد رسول الله ﷺ أن الخير ماض في أمته إلى أن تقوم الساعة، فعن حُمَيْدُ بْنُ عَبْد الرَّحْمَن قَالَ: «سَمعْتُ مُعَاويَةَ خَطيبًا يَقُولُ: سَمعْتُ النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ: مَنْ يُرِدْ اللهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسمٌ وَاللهُ يُعْطي، وَلَنْ تَزَالَ هَذه الأُمَّةُ قَائمَةً عَلَى أَمْر الله لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتيَ أَمْرُ اللهِ»[1]، وأنها أمة معطاءة، لا تتوقف أبد الدهر عن إنجاب العظماء والجهابذة، وتخريج القادة والسادة الذين يقيمون أمر الدين، ويحيون شعائره وينشرون فضائله، مهما ادلهمت الخطوب واشتدت المحن. عَنْ أَنَس بن مالك قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «مَثَلُ أُمَّتي مَثَلُ الْمَطَر لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخرُهُ»[2]، وأن الله قد سبق في علمه أنها ستتفرد بين الأمم بالمجد، وتحوز مقامات الشرف العليا، وتملك الأرض ملك تمكين رباني، وهي بشرى لا تقتصر على ما مضى من تاريخ الأمة حينما عاشت قرونًا تضيء للعالم طريقه، وتهديه سواء السبيل، ولكنها بشرى مطلقة إلى أن تقوم الساعة. عَنْ أُبَيِّ بْن كَعْب عَنْ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «بَشِّرْ هَذه الْأُمَّةَ بالسَّنَاء وَالنَّصْر وَالتَّمْكين فَمَنْ عَملَ منْهُمْ عَمَلَ الْآخرَة للدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ في الْآخرَة نَصيبٌ»[3].

١- صحيح البخاري. كتاب العلم. باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين. رقم ٦٩.

٢- الترمذي. السنن. كتاب الأمثال عن رسول الله. باب مثل الصلوات الخمس. رقم ٢٧٩٥. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وأخرجه أحمد في مسنده. كتاب باقي مسند المكثرين. باب مسند أنس بن مالك. رقم ١١٨٧٨. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ج٧، ص٦ :حديث حسن له طرق قد يرتقي بها إلى الصحة. وأورده ابن حبان في صحيحه. باب ذكر أوهم من لم يحكم صناعة الحديث أن آخر هذه الأمة في الفضل كأولها. رقم ٧٢٢٦. ج ١٦. ص ٢٠٩. وذيله شعيب الأرناؤوط بقوله: حديث حسن بشواهده.

٣- مسند أحمد. أحمد بن حنبل. كتاب مسند الأنصار. باب حديث أبي العالية الرياحي عن أبي بن كعب. رقم ٢٠٢٧٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع. رقم ٢٨٢٥.

خاتمة

مما سبق يتضح لنا أن النظرة الإيجابية للمستقبل قد وجدت لها مجالاً فسيحًا في السنة النبوية الشريفة، التي أولتها اهتماما ملحوظًا، نظرًا لما تتركه من آثار إيجابية طيبة في نجاح الفرد وتطور المجتمعات ونهوض الأمم، فقد عمد رسول الله ﷺ إلى نفوس وعقول المسلمين فصاغها صياغة إيجابية متكاملة، وزودها بما تحتاجه من قوة الفكر وسمو الخلق، وصفاء النفس ومضاء العزيمة وصلابة الإرادة، ووجهها إلى العمل الصالح الدؤوب الذي يغطي جميع ميادين الحياة، ويستغرق كل النشاطات الإنسانية تصحبها الروح المعنوية العالية التي تعينها على تحمل الصعاب وتجاوز العقبات بنجاح، وتنفي عنها الفشل والإحباط واليأس، وتملؤها بالتفاؤل والأمل.

وقد ضرب الصحابة الكرام أروع الأمثلة في التشبع بالنظرة الإيجابية للمستقبل التي ملأ بها رسول الله ﷺ جوانب نفوسهم، منذ أن كانوا قلة مستضعفة في مكة المكرمة تتخطفها أيدي المشركين، إلى أن أصبحوا قوة جبارة تهابها الأكاسرة والقياصرة، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، وبدافع منها خرجوا من جزيرة العرب يحملون أمانة الدين الخاتم لا يردهم عن عزمهم شيء. وقد أورثوا هذه الروح الوثابة نحو تحقيق العالمية للإسلام والتي بشر بها رسول الله ﷺ للأجيال التي تلتهم، والتي أبلت في هذا المضمار بلاءً حسنًا وتركت ذكرها في التاريخ يعبق بالذكريات الخالدة.

ولا نبالغ إذا قلنا أن جميع أشكال النبوغ والعبقرية والإنجازات الكبرى والانتصارات العظمى في تاريخ الأمة الإسلامية الطويل كانت تجسيدا حقيقيا للنظرة الإيجابية للمستقبل التي بثها النبي الكريم في أتباعه، وبدت واضحة في أسمى تجلياتها في الميادين الدينية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية

والعسكرية وغيرها، بدليل أن المسلمين بعد أن فقدوا اتصالهم الحي بهذه المرجعية المعصومة واستبدلوها بالبدع والضلالات والأحكام الجامدة دخلوا نفق التخلف المظلم، وطغى عليهم الجمود فضاعت منهم معالم الطريق.

النتائج والتوصيات

١- لقد أولت السنة النبوية الشريفة للنظرة الإيجابية للمستقبل اهتمامًا ملحوظًا، وجعلتها مرتكزًا أساسيًا من مرتكزات التربية النفسية الفردية والجماعية.

٢- لقد تجلت معالم النظرة الإيجابية للمستقبل في السنة النبوية بكل وضوح، وكان النبي الكريم عليه الصلاة والسلام يقصدها قصدًا في ظروف وأوضاع معينة؛ لتؤدي دورها في التكوين التربوي، ولم تكن خاضعة للعفوية.

٣- أن النظرة الإيجابية للمستقبل لها أثرها الكبير في الفرد من جميع النواحي النفسية والعقلية والسلوكية، حيث توفر له التوازن النفسي والاطمئنان القلبي والسلامة العقلية التي تمكنه جميعًا من الإبداع والإنجاز والإتقان وقبول التحدي، ومقاومة العوائق وصناعة المستقبل.

٤- أن النظرة الإيجابية للمستقبل لها أثرها الواضح في حياة الأمم والشعوب، لأنها تزودها بالطاقة النفسية والإيمان الثابت الذي يعينها على الصمود والمقاومة، ودفع عوادي الزمن، ومحاولات الاستلاب والتدجين، وتدفعها إلى استلهام مرجعيتها للنهوض والأخذ بأسباب التطور والتقدم، والتخلص من مشاعر الإحباط واليأس، واستشراف المستقبل بنفس متفائلة مستبشرة.

٥- أن التربية الرشيدة التي ربى الرسول ﷺ عليها أصحابه، وشحنهم من خلالها بالتفاؤل والأمل في المستقبل الجميل قد آتت أكلها سائغًا في الجيل الأول، تشهد على ذلك موجة الفتوحات الكبرى التي جعلت من الدولة الإسلامية

التي كانت محدودة في جزء صغير من الجزيرة العربية امبراطورية مترامية الأطراف، وقد أورثوها بدورهم لمن جاء بعدهم فشيدوا بفضلها حضارة إنسانية شامخة، تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، وتتطاول أفنانها في عنان السماء، لا تزال البشرية إلى يومنا هذا تتفيأ ببعض ظلالها. ولم تخفت هذه الروح الوثابة في المسلمين إلا بعد أن تخلوا عن المصدر الذي استلهم منه أسلافهم نظرتهم الإيجابية للمستقبل.

٦- أن العناية الكبيرة التي أولتها السنة النبوية للنظرة الإيجابية للمستقبل توحي بأهميتها في حياة الفرد والأمة، وتشير إلى أن قوة المسلمين وضعفهم مرتبط إلى حد بعيد بوعيهم بهذا الأمر، وتفطنهم لضرورته في إحداث النهضة وتغيير الواقع المتردي. فكلما اتضحت نظرتهم إلى المستقبل وأدركوا مكانتهم في الحياة، واستوعبوا أبعاد الرسالة النبيلة المنوطة بهم قويت العزائم واستعلت على إكراهات الواقع واستشرفت المستقبل بهمة وعزم، وكلما تشوشت هذه النظرة وأصابها الغبش والضبابية استناموا إلى الذل والهوان، واستسلموا لتيارات المسخ والمحو، وضعفت إراداتهم عن مقاومة أساليب الاحتواء.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم: برنامج مصحف المدينة المنورة، الإصدار الأول.

١- الأدب المفرد. أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. مراجعة: محمد فؤاد عبد الباقي. دار البشائر الإسلامية. بيروت. ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

٢- أسس الصحة النفسية. عبد العزيز القوصي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ط ٥. ١٩٧٥.

٣- بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. علي بن أبي بكر الهيثمي. تحقيق عبد الله الدرويش. دار الفكر. بيروت. ١٤١٤ هـ. ١٩٩٤ م.

٤- بدائع الفوائد. ابن قيم الجوزية. تحقيق: عدنان درويش ومحمد الاسكندراني. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. ط ١. ٢٠٠٢ م.

٥- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ابن عذارى المراكشي. تحقيق ومراجعة: ج.س.كولان. وليفي بروفنسال. دار الثقافة. بيروت.

٦- تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك). أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. دار الكتب العلمية. بيروت. ط ٢. ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٧- التاريخ الإسلامي. محمود شاكر. المكتب الإسلامي. بيروت. ط ١. ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

٨- تاريخ الدولة العلية العثمانية. محمد فريد. دار الجيل. بيروت. د.ت.

٩- تأملات. مالك بن نبي. دار الفكر. بيروت.

١٠- التفاؤل والتشاؤم، المفهوم والقياس والمتعلقات. بدر محمد الأنصاري.

لجنة التأليف والتعريب والنشر. مجلس النشر العلمي. جامعة الكويت. ط ١. ١٩٩٨ م.

١١-تفسير المنار. محمد رشيد رضا. مكتبة القاهرة.

١٢-تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية. جلال الدين السيوطي. دار الفتح. القاهرة. ط ٢. ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

١٣-الجامع الصحيح. أبو الحسين مسلم بن الحجاج. دار. دار حياء التراث العربي. بيروت. ١٩٧٢ م.

١٤-جدد حياتك. محمد الغزالي. دار البعث. قسنطينة. الجزائر. ط ٣. ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

١٥-حتى يغيروا ما بأنفسهم. جودت سعيد. مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري. دمشق. ط ٦. ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤.

١٦-حول إعادة تشكيل العقل المسلم. عماد الدين خليل. كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. الدوحة. قطر. ط ١. رمضان ١٤٠٣ هـ.

١٧-زبدة التفسير من فتح القدير. محمد سليمان عبد الله الأشقر. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الكويت. ط ٢. ١٤٠٨ هـ. ١٩٨٨ م.

١٨-السيرة النبوية. ابن هشام. حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. دار القلم. بيروت.

١٩-سنن أبي داوود. أبو داوود السجستاني. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٢٠-سنن الترمذي. محمد بن عيسى الترمذي. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٢١-الشاكلة الثقافية، مساهمة في إعادة البناء. عمر عبيد حسنة. المكتب الإسلامي. بيروت. ط١. ١٤١٤ هـ-١٩٩٣ م.

٢٢-شروط النهضة. مالك بن نبي. ترجمة: عبد الصبور شاهين، وعمر كامل مسقاوي. دار الفكر. بيروت. ١٩٧٩م.

٢٣-صحيح البخاري.أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. تحقيق: د. مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير. اليمامة. ١٩٨٧ م.

٢٤-صحيح ابن حبان. محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي. ترتيب: ابن بلبان الفارسي. تحقيق: شعيب الأرناؤوط.مؤسسة الرسالة. بيروت. ط ٢. ١٤١٤ هـ-١٩٩٣ م.

٢٥-صحيح الجامع الصغير.محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. دمشق. ط٣. ١٤٠٨ هـ-١٩٨٨ م.

٢٦-صحيح الترغيب والترهيب. محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف. الرياض. ط٥.

٢٧-صحيح وضعيف موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان. علي بن أبي بكر الهيثمي. تحقيق: محمد ناصر الألباني. دار الصميعي. الرياض. ط ١. ١٤٢٢ هـ-٢٠٠٢ م.

٢٨-عيون البصائر. محمد البشير الإبراهيمي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر.

٢٩-فتح الباري شرح صحيح البخاري. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. دار المعرفة. بيروت.

٣٠-فتح المجيد شرح كتاب التوحيد. عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب النجدي الحنبلي. حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط. مكتبة دار البيان. دمشق. ط ١. ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

٣١-فيض القدير، شرح الجامع الصغير. عبد الرؤوف المناوي. دار المعرفة. بيروت. ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧٢ م.

٣٢-في ظلال القرآن. سيد قطب. دار الشروق. بيروت. ط ٧. ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م.

٣٣-الكامل في التاريخ. أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير. دار الكتاب العربي. بيروت. ط ٣. ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.

٣٤-مسند أحمد. أحمد بن حنبل. مؤسسة التاريخ العربي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ١٩٩١ م.

٣٥-المستدرك على الصحيحين. محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م.

٣٦-مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. مالك بن نبي. ترجمة: د. بسام بركة، و: د. أحمد شعبو. دار الفكر. الجزائر. دار الفكر. دمشق. ط ١. ١٤١٣ هـ. ١٩٩٢ م.

٣٧-المعجم الأوسط. سليمان بن أحمد الطبراني. دار الحرمين. القاهرة. ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م.

٣٨-مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح. ماجد عرسان الكيلاني.

كتاب الأمة. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. الدوحة. قطر. ط ١. شوال ١٤١١ هـ.

٣٩-منهج الإسلام في تربية الإرادة. د. مصطفى زيد. عناية وتعليق: د. محمد يسري. دار اليسر. القاهرة. ط١. ١٤٣٠ هـ. ٢٠٠٩ م.

٤٠-موسوعة أخلاق القرآن. أحمد الشرباصي. دار الرائد العربي. بيروت. ط ١. ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

٤١-مجلة الشهاب، ج ٧، مج١٤. الجزائر.

٤٢-جريدة الشهاب. ع ١، ١٢ نوفمبر ١٩٢٥ م. الجزائر.

٤٣-جريدة السنة. س ١. ع ٤. ٦ محرم ١٣٥٢ هـ الموافق ل١ ماي ١٩٣٣ م. الجزائر.

٤٤-دراسات نفسية. مج١٨، ع ١، ٢٠٠٨ م. رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية (رانم). القاهرة.

٤٥-دراسات نفسية. مج ٩، ع ٤، ١٩٩٩ م. رابطة الأخصائيين النفسيين المصرية (رانم). القاهرة.

٤٦-مجلة علم النفس. ع ٧٦ - ٧٩. أكتوبر ٢٠٠٧ - أكتوبر ٢٠٠٨. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة.

استشراف المستقبل والتخطيط له وحاجة الدعوة والداعية إليه دراسة تأصيلية في بيان أهميته ووسائل معرفته من خلال نصوص السنة النبوية

د. علي بن محمد عبدالله الطالب الأمين الشنقيطي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة طيبة
المدينة المنورة، السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، القائل: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ يوسف: ١٠٨، والصلاةُ والسلام على إمام الدعاة ﷺ الذي راعى الماضي، وعايش الحاضر، واستشرف المستقبل وخطط له، ووجه الدعوة والدعاة إلى ما سيقدمون عليه في قابل الأيام؛ فقال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثه لليمن: «إنك تقدم على قوم أهل الكتاب ، فليكن أوّل ما تدعوهم إليه عبادة الله..»[(١)]، ورضي الله عن صحابته الكرام الذين قاموا بواجب الدعوة إلى الله وفَقِهوها ووضعوا كل شيء في مرتبته بالعدل، فبلّغوا الرسالةَ وأدوا الأمانة، وقالوا للناس حسنًا، وبعد:

فإنّ من البصيرة في الدعوة إلى الله التي هي وظيفة الأنبياء، ورسالة الله في كتابه الحكيم؛ أن تقوم على خطط محكمة تهدي للتي هي أقوم، ولذلك كان استشراف المستقبل والتخطيط له أولى من مفاجآته دون سابق توقع وتقدير، فنجاح الداعية في الغالب متوقف على قوة أو ضعف استشرافه للمستقبل، والتخطيط له، وذلك مما لا ينبغي الزهد فيه أو الاستغناء عنه، لأنّ الوقوف وعدم تقدير الظروف، ومعرفة الخطوات القادمة، أمر غير مقبول ولا تحصل منه نتيجة، وهو فشل وتخبط: «والأجدر بأهل الحقّ أن يأخذوا بالأسباب، فيخططوا ويتوكلوا على الله، ويفرقوا بين الأمنيات والإمكانات، ولا ينطلقون من خيال، إنما من واقع مدروس»[(٢)].

١- أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، برقم (١٤٥٨)، (١ / ٤٥٠).

٢- الدعوة قواعد وأصول، جمعة أمين عبد العزيز ص (٧٢).

وموضوع المستقبل واستشرافه؛ يشترك فيه جميع البشر، فالحياة التي يعيشونها تبحر بهم إلى المستقبل، وساعاتها وأيامها تتقدم بهم دائما إلى الأمام، والعبرة في سعادة البشر هو ما تؤول إليه حياتهم في نهاية المطاف؛ لأنّ العبرة بالخواتيم، وغيابه في حياة الناس عموما والدعاة على الأخص يؤدي إلى كثير من التخبط والعشوائية في المواقف وتقدير الخطوات، بل قد يجعل الواحد يعيش في دوامة وحيرة لعدم وضوح الرؤية عنده، وللغموض الذي يسيطر على مستقبله وطموحاته، وهناك تصورات خاطئة لبعض المفاهيم الشرعية تزهّد البعض في الانطلاق والتخطيط والتفكير في المستقبل، فيعيش حياته خاملا، لا يفكر في أبعد من قدميه[1].

واستشراف المستقبل والتخطيط له أصبح في عالم اليوم من الضروريات؛ لأنّ العالم لا يستمدّ قوته من عضلاته المفتولة ولا من قدر الحديد الذي يملكه؛ لكنّه يستمدّ قوّته بالدّرجة الأولى من قوّة استشرافه للمستقبل والتخطيط له، وبعد النظر، واستحضار النظرة المستقبلية للأمور، وهذه المعاني والمعالم لا يمكن أن تستغني عنها الدعوة إلى الله «في عصر يؤسس كل شيء على العلم، ولم يعد يقبل الارتجال والغوغائية في أمر من أمور الحياة، فلا بد لأيّ عمل جاد من الدراسة قبل العزم عليه، ولا بد من الإقناع بجدواه قبل البدء فيه ولا بد من التخطيط قبل التنفيذ»[2]، ويعتبر **(استشراف المستقبل والتخطيط له والفقه فيه)** معلما مهما في نجاح الدعوة والداعية؛ لأنّه وجد من الدعاة المخلصين من تأثر بواقع المسلمين المرير، وما هم فيه من ضعف، فتحمس للتغيير، وإنقاذهم مما هم فيه، وانطلق في تنفيذ واجب الدعوة إلى الله؛ دون استشراف

١- مثل الفهم المغلوط لمعنى الإيمان بالقضاء والقدر، واستشراف المستقبل والتخطيط له؛ ليس فيه معارضة للإيمان بالقضاء والقدر والتسليم له، فالإيمان بالقدر لا يدعونا إلى التقاعس عن العبادة وعمل الخير، فنحن: "نفر من قدر الله إلى قدر الله"، مالك في الموطأ (٢ / ٨٩٥ برقم ١٥٨٧).

٢- في فقه الأولويات، د. يوسف القرضاوي ص (٧٣).

مستقبل أيامه ودون أن يخطط ويدرس حجم الواجب الذي عليه أن يؤديه، والقادم الذي ينتظره ويترتب عليه؛ فكانت النتيجة المباشرة أنّ هؤلاء الدعاة أخذوا «يرتجلون في أعمالهم وأقوالهم،ويتخبطون في منهجياتهم وأساليبهم ووسائلهم، منطلقين في ذلك من الرغبة في تحقيق واجباتهم، غاضّين النظر عن إمكاناتهم وقدراتهم»[1].

وتتأكد الحاجة للنظر إلى المستقبل واستشرافه والتخطيط له في حياة الدعوة والداعية،لأنّ العمل الدعويّ بحاجة ماسة إلى رؤية مستقبلية متكاملة وواضحة، بعيدا عن الارتجال والعشوائية والتخبط، وردّات الأفعال التي نلحظها بارزة في الأعمال الدعوية والمشاريع الإصلاحية، حتى يحصل للدعوة الاستقرار والأمان والقوة، التي هي من صميم الإعداد المأمور به شرعًا **فلنعدّ في هذا المجال ما نستطيع من قوة**[2].

والداعية إلى الله أولى الناس باستشراف المستقبل والتخطيط له، لأنّ واجبه أن: «لا يَدَعَ الأمور تجري في أعنتها من غير انتفاع بتجارب الأمس، ولا رصد لوقائع اليوم، ولا تقويم للصواب والخطأ في الاجتهادات، ولا مقدار المكاسب والخسائر في المسيرة بين الأمس واليوم،ولا معرفة دقيقة بما لدينا من طاقات وإمكانات مادية ومعنوية، ظاهرة أو كامنة، مستغلة أو مهدرة، وما هي مصادر القوة ونقاط الضعف»[3].

ولا ينبغي أن يُفهم أنّ استشراف المستقبل والتطلع لمعرفته أمر شكلي، بل

١- فقه الموازنات الدعوية معالمه وضوابطه، د. معاذ محمد أبو الفتح البيانوني، ص (٢٦٦).

٢- ولذلك "فالإسلام دين يطالب بالتخطيط في كلّ عمل، وفي كل وقت، في السلم والحرب، وفي الأمان والخوف، بل ما من شيء دعا إليه الإسلام إلا نظمه وجعل له أسلوبا جيدا في إدارته، والدعاة إلى الله تعالى عليهم عبء التخطيط والتنظيم، وحسن الإدارة ما يفارقهم أبدا، ولا يقوم به سواهم، لأنهم الميدانيون القادرون على ذلك". ينظر: فقه الدعوة إلى الله، د. على عبد الحليم محمود (١ / ٢٨١).

٣- في فقه الأولويات، د. يوسف القرضاوي ص (٧٣).

هو عين الفقه والبصيرة في الدين؛ للإحسان في الدعوة والتخطيط لها[1] الذي هو مهمة الدعاة إلى الله والباحثين، فلا ينبغي أن تقتصر دراساتهم على الأبحاث التراثية التي تستعرض الماضي وتجترّ أحداثه، أو الاكتفاء بالتعاطي مع الطوارئ والنوازل فحسب، بل لا بد أن تتجاوز البحوث والدراسات الزمان والمكان؛ لتفتح آفاق المستقبل للدعوة والداعية، حتى يرسم خطواته، ويحدد خارطة طريق دعوته بمعالم مدروسة، وفقه دعوي أصيل ومعاصر؛ معتمدا على منطلقات شرعية، ومع التقدير والاحترام لكل الماضي والحاضر لكن الاهتمام بالمستقبل لا بد أن يكون حاضرا دائما في ذهن الداعية، وظاهرا في جهوده العلمية والعملية؛ لأنه نتيجة منطقية للماضي والحاضر[2].

وسنحرص في هذه الورقات على تأصيل هذه الحقيقة، وفقه شيء من معالمها، والوقوف على أبرز الوسائل في معرفة المستقبل، بعد التمهيد لهذه الوسائل والطرق بفصل يحسن فيه التعريج على أهمية استشراف المستقبل في حياة الدعوة والداعية، غير أن موضوع استشراف المستقبل والتخطيط له؛ موضوع واسع وعلاقته بالدعوة والداعية تزيده سعة وإثراء، ولكن محور المشاركة في هذه الدراسة هو الربط بين أهمية استشراف المستقبل والتخطيط له، وبيان حاجة الدعوة والداعية إليه في العصر الحديث الذي أصبحت كل المشاريع فيه لا تقوم إلا على الدراسات المستقبلية واستشراف المستقبل، وستركز الدراسة

١- يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله مبينا أهمية الدراسات المستقبليّة ومناقشا من لا يحبذونها ويتحفظون عليها: "من الناس من يصورون الدين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل، وهذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلت العلم مقابلا للإيمان، فهما ضدان لا يجتمعان، أو خطان متوازيان لا يلتقيان، والحقيقة: أن فكرة الدين في جوهرها قائمة على أساس التخطيط للمستقبل، ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده، وبعبارة أخرى من حياته لموته، ومن دنياه لآخرته، ولابد له أن يخطط حياته، ويضع لنفسه منهاجًا يوصله إلى الغاية، وهي رضوان الله تعالى". ينظر: الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، للدكتور يوسف القرضاوي، ص(١١١).

٢- حيث تهتم أكثر البحوث بسبر أغوار التراث والماضي رغم أهميته، ولا تؤتي تلك الدراسات أكلها إلا ذا ظهرت نتيجتها بدراسة الواقع والتعاطي معه، ويكتمل مثلث الفهم والتوفيق عندما تقطف الثمرة باستجلاء المستقبل واستشرافه والتخطيط له.

في صلبها على الوسائل الشرعيّة لاستكشاف المستقبل والتعرف عليه وتجليته، كل ذلك بالتأمل في النصوص، من خلال الأحاديث الشريفة والهدي النبوي لإمام الدعاة ﷺ لتكون هذه الورقات دراسة تأصيلية من خلال نصوص السنة النبوية المطهرة لـ: (استشراف المستقبل والتخطيط له وحاجة الدعوة والداعية إليه) وتأتي تحت عنوان:

استشراف المستقبل والتخطيط له وحاجة الدعوة والداعية إليه

دراسة تأصيلية في بيان أهميته ووسائل معرفته من خلال نصوص السنة النبوية

مدخل في التعريفات:

لما كان الحكم على الشيء فرع عن تصوره كان البدء بالتعريفات أولى ما يقدم بين يدي الحديث، والمقصود من التعاريف ليس الحشو والاستطراد وإنما مقصودها تقريب المعاني، وأهم المصطلحات التي قد تحتاج إلى تعريف ومزيد بيان، وترتكز عليها الدراسة هي: (الاستشراف، والوسائل) وقبل أن نبدأ بتعريف مختصر لكل منها؛ **أقول:** إنّ الاهتمام بهذا الموضوع ليس جديدا، فقد ظهرت دراسات قديمة وحديثة مباشرة وغير مباشرة في بعض جوانبه وتفريعاته، وجاءت هذه الندوة العلمية الدولية الخامسة واختارت عنوانا موفقا هو: (الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنَّة النبويَّة) لتجمع الجهود، وتعمق تلك الدراسات[١].

١- ومن تلك الدراسات التي وقفت عليها، وأفدت منها:
- الدراسات المستقبلية من منظور تربوي، فاروق فلية، وأحمد عبد الفتاح.
- المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة، أحمد صدقي الدجاني.
- نحن والمستقبل، قسطنطين زريق.
- المستقبل الحق خطواته من الدنيا إلى الجنة، محمد جميل مصطفى.
- مناهج الدراسات المستقبلية وتطبيقاتها في العالم العربي، وليد عبد الحي.
- الدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية لعبد الله محمد المديفر (بحث ماجستير غير منشور).

أولا: تعريف الاستشراف: في اللغة [1]: أصله من شرف وأشرف وتشرّف واستشرف، يقال: شرف المكان شرفا أي ارتفع، والرجل شرف أي: علت منزلته فهو شريف، (وأشرف) الشيء علا وارتفع عليه، واطلع من فوق وقاربه، (وتشرّف للشيء) تطلع إليه، ومنه (تشرّف البناء) أي: جعلت له شرف، ومعنى الفعل (استشرف) أي: انتصب وعلا، واستشرف الشيء أي: رفع بصره ينظر إليه، وتشرّف الشيء واستشرفه: إذا وضع يده على حاجبه كالذي يستظل من الشمس حتى يبصره ويستبينه، وجاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي: «استشرف: انتصب، واستشرَفَ الشيء: إذا رفَعَ رأسَه أو بصَرَه لينظرَ إليه».

الاستشراف في الاصطلاح: ومن خلال المعاني اللغوية فإن مداره المقصود هنا المستقبل والتبصر بأحداثه والألمعية والحدس والفراسة بما سيكون فيه، والتحسس والتطلع لاستكشافه وتقدير ما يتوقع فيه، وما سيطرأ على الحاضر من متغيرات ومستجدات، فهو باختصار: (توقع ما سيحدث في المستقبل).

وقد عرّفه المتخصصون بأنّه: «اجتهاد علمي مُنظَّم، يرمي إلى صوغ مجموعةٍ من التوقُّعات المشروطة التي تشمل المعالم الرئيسة لأوضاع مجتمع ما، أو مجموعة من المجتَمَعات، في فترة زمنية مقبلة» [2].

فهناك تلازم وتكامل بين استشراف المستقبل والتخطيط له، لأنّ التخطيط هو أحد العناصر المهمَّة لإنجاح أيِّ عمل، ودراسة المستقبَل هي أحد العناصر الرئيسة لنجاح التخطيط، ولذلك اكتفيت بتوضيح معنى الاستشراف لأنّه المقصود الأصيل في عنوان البحث، والذي تدور عليه الدراسة،والذي انتهى إليه المتخصصون في العلاقة بين المستقبل والتخطيط أنّ «دراسة المستقبل خطوة سابقة لعملية التخطيط، فهو تشوف واستطلاع وريادة، أما التخطيط فهو خطوة

١- ينظر: لسان العرب، لابن منظور ٩/ ١٧١، والقاموس المحيط مادة (شرف) ص (٢٢٩).
٢- ينظر الدراسات المستقبلية من منظور تربوي، لفاروق فلية، وأحمد عبد الفتاح ص (١٧).

لاحقة، وهو توظيف لنتائج التشوف والاستطلاع، إذًا المستقبليُّ عبقريٌّ رائد، والمخططُ أكاديميٌّ عالم، وإن كان بين هذين المجالين كثير من التداخل والتشابه في معظم الأحيان»[١].

ثانيا: تعريف الوسائل: في اللغة: من الفعل (وسل) ومفردها وسيلة، على وزن فعيلة، وهي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به، وتطلق الوسيلة على عدة معان منها: (**الوصلة والقربة**) يقول الإمام ابن منظور: (الوسيلة: الوصلة والقربى، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾(سورة الإسراء:٥٧)، ومنها: (**المنزلة والدرجة**) ففي حديث الأذان: «اللهم آت محمدا الوسيلة»[٢]، وفي حديث إجابة المؤذن: «ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو»[٣]. ومنها: (**الرغبة والطلب**) كما ذكره صاحب معجم مقاييس اللغة، بقوله: «يُقال: وسل: إذا رغب، والو اسل: الراغب إلى الله عز وجل»[٤].

الوسائل في الاصطلاح: تنوعت وتعددت التعاريف الاصطلاحية للوسائل؛ فمن أبرز ما وقفت عليه من تعاريف أهل العلم المتخصصين لها، قول بعضهم إنّها: «الطرق التي يتوصل بها الداعي إلى تبليغ دعوته»[٥]. وقيل إنّها: «ما يتوصل به الداعية إلى تطبيق مناهج الدعوة من أمور معنوية أو مادية»[٦]. وقيل إنّها: «ما يتوصل به إلى دعوة الناس بطريق شرعي»[٧].

١- ينظر عن المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة، أحمد صدقي الدجاني ص (١٥).
٢- أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء، برقم (٦١٤)، (٢/ ١٧١).
٣- أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب: استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه برقم (٣٨٤)، (١/ ٢٨٨).
٤- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس (٦/ ١١٠).
٥- محمد بن الصالح العثيمين، زاد الداعية إلى الله، ص (١١).
٦- محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، ص (٤٩).
٧- عبد الرحيم محمد المغذوي، وسائل الدعوة، ص (١٦).

الفصل الأول: مقدمات في أهمية التأصيل واستشراف المستقبل والتخطيط له في حياة الدعوة والداعية.

المطلب الأول: في بيان أهمية التأصيل الشرعي للدعوة إلى الله تعالى:

- **مفهوم التأصيل وأهميته**: التأصيل كلمة جذرها (أصل): والهمزة والصاد واللام لها دلالات متنوعة في اللغة، أظهرها وهو المراد هنا: أنّ الأصل بمعنى: أساس الشيء الذي يقوم عليه، يُقال: أصَّل الشيء أي جعل له أصلا ثابتا يبنى عليه، والأصل منشأ الشيء الذي يخرج أو ينبت منه، يقال: استَأْصَلَتْ الشجرة، أي ثبت أصلها، ويقال: استَأْصَلَهُ أي قطعه من أصله، والرأي الأصيل: ماله أصل، ورجل أصيل: ثابت الرأي عاقل[1].

ومن خلال هذا المعنى اللغوي فإنّ المقصود بالتأصيل في الدعوة إلى الله هو: أن يبني الداعية دعوته وينطلق فيها من خلال الأصول المعتبرة ونصوص الكتاب والسنة، ويبني آراءه وخطواته من خلالها للوصول إلى الفقه الدعوي الذي به يحقق الصواب والنجاح، ومن هنا فإنّ مصادر الشريعة الإسلامية هي أساس الدعوة وأصلها الذي تنطلق منه، وتستند عليه، أما أن ينطلق الداعية في دعوته ويندفع بدون مستند شرعي أو أصل معتبر؛ فهذا مرفوض وهو ما أوقع كثير من الدعوات والدعاة في الانحراف وعدم التوفيق بسبب غياب التأصيل الشرعي في الميدان الدعوي أو التقصير فيه[2]، **ولذلك كان للتأصيل في الدعوة فوائده الكثيرة التي منها:**

١- ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس مادة (أصل) (١ / ١٠٩)، ولسان العرب، ابن منظور مادة (أصل) (١١ / ١٦)، والقاموس المحيط مادة (أصل) ص (١٢٤٢)، والمعجم الوسيط مادة (أصل) (١ / ٢٠).

٢- وهنا تبرز ظاهرة ليّ أعناق النصوص الشرعية، والفقه الأعوج؛ الذي يظهر عند بعض من يتصدرون للدعوة؛ ليبرروا ما قاموا به من أعمال، ويفسروا تلك النصوص والأصول على هواهم لتوافق آراءهم وأفعالهم التي قاموا بها.

١- إنّ التأصيل الشرعي في الدعوة إلى الله يحقق العبودية لله تعالى؛ لأنّ الداعية يقوم بواجب شرعي مفروض عليه، فلا بد أن يحقق هذا الواجب بما شُرع من خلال التوجيهات الربانية والسنن النبوية؛ والأصول الشرعيّة المعتبرة؛ حتى تكون دعوته وفق منهج الله، وكما يحبها الله ويرضاها، لا برغباته وهواه، فلا يعبدَ الله إلا بما شرع [١] ولذلك فلا ينبغي أن يُقدم على شيء إلا بعد أن يعرف الأصل فيه والدليل الذي يبنى عليه، يقول الإمام سفيانُ الثوريُّ رحمه الله: «إن استطعتَ أنْ لا تحك رأسكَ إلا بأثرٍ فافعل» [٢]، فكيف بأمر الدعوة إلى الله؛ وهي بالمكانة التي لا تخفى، فالنصوص الشرعيّة هي الأصل في إدراك كيفية عبادة الله والدعوة إليه، كما أنّها تحفظ الداعية من الابتداع والانحراف عن الشرع والدين، والدعوة إمّا أمرٌ بمعروف، وإما نهيٌ عن منكر، والدليل لمعرفة المعروف من المنكر والتمييز بينهما هو الكتاب والسنة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إنّ: «الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم، فمن لم يأمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، وينه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله، ويُؤمر بالمعروف الذي أمر الله به، وينهى عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله، وإلا فلا بد أن يأمر وينهى، ويُؤمر ويُنهى، إما بما يضادّ ذلك، وإما بما يشترك فيه الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي لم ينزله الله، وإذا اتخذ ذلك دينًا:كان مبتدعا ضالا باطلا» [٣].

٢- التأصيل الشرعي في الدعوة إلى الله؛ يقرب الدعاة والدعوات، ويجمعهم ويقلل الخلاف بينهم ويخفف التباين في وجهات النظر، لأنّ وحدة الأصول

١- فالدعوة إلى الله عبادة كسائر العبادات، والعبادة لابد لها من شرطين هما: الإخلاص والمتابعة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وجماع الدين أصلان: أن لا نعبد إلا الله،ولا نعبده إلا بما شرع وذلك تحقيقا للشهادتين.. ففي الأولى أن لا نعبد إلا إياه، وفى الثانية أن محمدا رسوله المبلغ عنه فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره". ينظر: مجموع الفتاوى(١٠ / ٢٣٤).

٢- ينظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (١ / ١٤٢).

٣- ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٨ / ١٦٩).

والمراجع والمنطلقات يجعل وجهات النظر والآراء متقاربة، وإن اختلفت فهناك قواسم مشتركة؛ تخفف من وطأة الخلاف والتباعد الذي قد يحصل؛ ولذلك كان الخلاف بين الصحابة قليلٌ ومحدود، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «اختلاف الصحابة لم يضر؛ لأن الأصل الذي بنوا عليه واحد، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والقصد واحد، وهو طاعة الله ورسوله، والطريق واحد، وهو النظر في أدلة القرآن والسنة وتقديمها على كل رأي وقياس وذوق وسياسة»[1].

٣- التأصيل الشرعي يمكّن الداعية من إدراك حقيقة ما يدعو إليه؛ مطمئنا لما يفعل مقتنعا به؛ فيكون بذلك متخصصا ومؤهلا في دعوته؛ لأنّ التخصص يجعل الشخص قادرا على إدراك جوانب تخصصه، بصورة أوضح من غيره، ونظرة المتخصص ليست كنظرة غيره، فهو ينظر بنظرة شاملة لجميع الجوانب، وأمّا غير المتخصص؛ وإن أدرك بعض المعاني والجوانب؛ لكنّها في الغالب تكون قاصرة، ولذلك فمهما حاول الداعية غير المتخصص، الذي لا يسير على أصول ثابتة تأصيل الدعوة وفقهها فلن ينجح في ذلك.

٤- التأصيل الشرعي في الدعوة إلى الله يجعل الداعية شخصية اعتبارية متماسكة، وصاحب سلوكيات ومواقف غير متذبذبة وغير متناقضة بالجملة، لأنّ الانطلاق من أصول شرعية واحدة، ومنطلقات مشتركة ومعتبرة؛ يكون صمّام أمان لمن يعتمد عليه وينطلق منه ويعود إليه، كلما احتاج إلى ذلك، بل ويفتح عليه من الآفاق ويجعله مبحرا في فقه واسع من المعاني والكنوز التي لا تنضب بإذن الله لأنّها من وحي الله تعالى.

١- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم (٢ / ٥١٩).

المطلب الثاني: في بيان أهمية إعداد الدعاة وتأهيلهم لما يستقبل من المتغيرات والأحداث:

فالداعية إلى الله؛ هو الركن الأول والأهم من أركان الدعوة، وهو المبلغ للإسلام، والمعلم له، والساعي إلى تطبيقه[1] ولذلك كان وجوده اختيار من الله، فلا يتصور أن تكون دعوة أو ينقل خير إلى الغير بدون ناقل ورسول يقوم بذلك، وكانت السنة الربانية ماضية في إرسال الرسل إلى الناس جميعا، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (سورة فاطر :٢٤)، ولذلك كان تأهيلهم للقيام بواجب وحمل الأمانة من أهم المهمات حتى يدخلوا في قوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (سورة السجدة:٢٤)، ومعنى أن يكون من الأئمة المهديين؛ أن يخلفوا النبي ﷺ في القيام بهذا الواجب؛ ويتحمل أعباء الدعوة ومسؤولياتها، بحسب علمه وقدرته وفقهه، ويتفاوت حكم هذا الوجوب لاعتبارات كثيرة[2]، ومن خلال هذا التفاوت يتنوع الدعاة القائمون بالدعوة، والذي يهمنا هو تنويعهم على قسمين رئيسين: (الدعاة من العامة، الدعاة من الفقهاء)، ومقصودنا بهذا التقسيم والتعرض له هو بيان أنّ موضوع **(استشراف المستقبل والتخطيط له)** هو من الفقه الدعويّ الذي لا ينبغي أن يمارسه، ولا يتعرض له إلا خاصة الدعاة المؤهلين من العلماء والفقهاء وطلبة العلم، **وللتفصيل في هذا التقسيم والتنويع نقـول:**

(١) الدعاة من العامة: فالدعوة إلى الله تعالى، رغم مكانتها وخصوصيتها، وعظيم قدرها؛ إلا أنّها واجب على الجميع ، وليست حكرا على الخاصة من أهل

١- المدخل إلى علم الدعوة، للدكتور محمد أبو الفتح البيانوني ص (٤٠)

٢- وإن كان واقع الدعوة اليوم يرجح الوجوب العيني كما قرره مجموعة من أهل العلم ومنهم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله حيث يقول: «وقد تكون الدعوة إلى الله تعالى فرض عين إذا كنت في مكان ليس فيه من يؤدي ذلك سواك، وعند قلة الدعاة، وكثرة المنكرات وغلبة الجهل كحالنا اليوم تكون الدعوة فرض عين على كل واحد بحسب طاقته». ينظر: فضل الدعوة إلى الله، لابن باز ص (١٤).

العلم والمعرفة والسلطان، بل هي حق شرعي مشاع للجميع ، فكل مسلم حتى لو كان من عامة الناس، وقليل البضاعة؛ فله أن يقوم بهذا الواجب بحسبه، وعلى قدر استطاعته[1] بشرط أن لا يقول على الله بغير علم، وأن يدعو إلى شيء يعلم حقه وصوابه ويحسن فيه؛ حتى لو كان آية واحدة أو حديث؛ فعن عبد الله بن عمرو أنه ﷺ قال: «بلّغوا عني ولو آية»[2]، فهذا النص الصريح في تبليغ الدعوة؛ جاء مراعيا لأولئك الذين لا يستطيعون فعل الكثير، بل كل واحد بأقل ما يمكن، وبحسب علمه وعلى قدر طاقته، حتى لو كان آية واحدة فقط لا غير «إنما قال: آية، أي من القرآن، ولم يقل حديثا فإن الآيات مع تكفل الله بحفظها واجبة التبليغ، فتبليغ الحديث يُفهم من باب أولى»[3] ومما يدلّ على أنّ الدعوة إلى الله حقّ للجميع حتى (العامة) قوله ﷺ: «نضر الله امْرَأً سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه»[4]، والنبي ﷺ كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه، وهذه هي مراتب العلم الأربعة، فمن قام بها دخل تحت هذه الدعوة النبويّة المتضمنة لجمال الظاهر والباطن»[5].

(٢) الدعاة من الفقهاء: فالعلم بالأحكام الشرعية ، والفقه في الدين ؛ هما أساس الدعوة ولبّها ، وهو البصيرة التي أمر الله بالأخذ بها : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ

١- يقول الدكتور عبد الكريم زيدان: "قد يتوهم البعض أنّ واجب الدعوة إلى الله لا يلزمه، لأنه ليس من رجال الدين، وأن هذا الواجب واجب كفائي يجب على العلماء فقط لا على الجميع بدليل (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...". فالمقصود: أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة بحسبه) ينظر كتابه أصول الدعوة ص(٣١٠).

٢- أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٤٦١)، (٦ / ٤٩٦).

٣- فتح الباري، لابن حجر (٦ / ٤٩٨).

٤- أخرجه أبو داود في كتاب العلم باب فضل نشر العلم برقم (٣٦٦٠)، (٤ / ٦٨) والترمذي في كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع برقم (٢٦٥٧) وقال: حديث حسن صحيح. وقال المناوي في التيسير (٦ / ٣٤٩): إسناده صحيح.

٥- مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١ / ٧١).

﴿ ٱدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف: ١٠٨) ولا تحصل هذه البصيرة المأمور بها؛ إلا بالعلم والفقه في الدين، يقول الإمام ابن القيم: «وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، ولا بد من كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي»[1] وهؤلاء الدعاة من الفقهاء؛ واجب الدعوة في حقهم، ومسؤولياتهم في التبليغ والتوجيه أكبر؛ وإدراكهم لما يستقبل من الأمور أدعى، وقدرتهم على استشراف المستقبل أوضح وأقدر؛ لفقههم بالشريعة: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء: ٨٣).

ولذلك كان الداعية الفقيه هو الأقدر على القيام بواجب الدعوة؛ لما يمتلكه من قدرات وإمكانات وسعة أفق وبعد نظر؛ أساسه العلم والتقوى؛ فنجاح الداعية في دعوته متوقف على دقة فهمه وفقهه وبصيرته، حتى تؤتي الدعوة أكلها وتظهر ثمارها؛ وخاصة ما ستُقدم عليه من خطوات وما يستقبلها من متغيرات؛ لأنّ معرفة المستقبل واستشرافه؛ فقه دقيق ومتداخل لا يستطيعه إلاّ خاصةُ (**الدعاة الفقهاء**).

ومن نصوص السنة النبوية الدالة على ذلك ما جاء في حديث معاذ بن جبل لما أرسله ﷺ لليمن في الدعوة إلى الله تعالى وقال له: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أوّل ما تدعوهم إلى أن يوحِّدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله قد افترض عليهم زكاةً في أموالهم تؤخذ من غنيِّهم فَتُرَدُّ على فقيرهم، فإذا أقرُّوا بذلك فخذ منهم، وتوقَّ كرائم أموال النّاس»[2]، والحديث

١- مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١ / ١٥٤).
٢- أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى التوحيد برقم (٧٣٧٢)، (١٣ / ٣٥٩).

أصل واضح للدعاة إلى الله الذين يكلفون بالقيام بواجب الدعوة في تقدير ما سيقبلون عليه، ومراعاة الأمر والاستعداد له قبل مباشرته؛ وهو مليء بالأحكام والتشريعات والفوائد المتنوعة المتعلقة بالدعوة على الخصوص[1]، والذي يهمنا الإشارة له في هذا السياق؛ كون الحديث جاء نصا في **بيان أهمية إعداد الدعاة وتأهيلهم لما يستقبل من المتغيرات والأحداث**، وقد أتمّ النبي ﷺ إعداده لمعاذ باستشرافه للمستقبل وتأهيله لما سيستقبله ويواجهه من المتغيرات والأحداث في تلك الأرض التي أرسله إليها، ونبهه إلى **أهمية تحديد نقطة البداية والخطوة الأولى للداعية بعد استشراف المستقبل**، لأن الداعية إلى الله يلزمه قبل أن يخوض غمار الدعوة، وقبل أن يقتحم ميدانها؛ أن يعلم ما أوّل عمل يقوم به، فيما يستقبل من أمره، وكيف تكون بدايته مع المدعوين عندما يبدأ معهم الدعوة؛ لأنّ ذلك سيؤثر على كل ما يقوم به بعد ذلك، وهذه البداية الموفقة هي المفتاح المناسب الذي يهيئ النفوس ويثيرها لقبول الدعوة؛ وإذا صلحت البدايات صلحت النهايات، وفي هذه الوصيّة لمعاذ بن جبل يبيّن النبي ﷺ طبيعة أهل اليمن، ويكشف لمعاذ واقعهم الذي سيلقاه أمامه، وسيقبل عليه، وما سيراه من المدعوين هناك في مقتبل الأيام، وما يناسب البداية به معهم وهو (الشهادتين) لأنّ ذلك سيسهل كلّ ما بعده؛ لأنّ الإنسان إذا استشعر معنى العبودية وتعرف على عظمة الخالق جل وعلا، وأنّه الواحد الأحد المستحق للعبادة، ناسب بعد ذلك أن يُكلّف شيئا فشيئا بالعبادات والأحكام والتشريعات الأخرى التي يقوم عليها الإسلام؛ كالصلاة والزكاة، فالمدعو لا يتقبل التكاليف ولا يضحي بشهواته وملذاته مالم يترسخ الإيمان في قلبه، يقول الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى: «ووقعت البداءة بهما -أي الشهادتين- لأنهما أصل الدِّين الذي لا يصح شيء إلا بهما»[2].

١- وقد أفرد الدكتور عبد الرحيم المغذوي هذا الحديث بالدراسة الدعويّة، في دراسة بعنوان: (منهج الدعوة إلى الله على ضوء وصية النبي ﷺ لمبعوثه إلى اليمن معاذ بن جبل رضي الله عنه).

٢- ينظر فتح الباري، لابن حجر (٤/ ١٢٧).

فاستشراف المستقبل، ومعرفة ما سيطرأ من أمور، ويستجدّ من متغيرات، مهم جدا في تحديد نقطة البدء، والدعوة إلى الله تعالى يجب أن تركز على الكل، وتبدأ بالأولى والأهم وهو الإيمان والتوحيد وتقدير الظرف واستشراف المستقبل الذي يدفع الداعية للبداية بما هو أنسب وتقديمه على غيره، لا يعني إهمال غيره وعدم العناية به، فليس معنى البداية بهذه الأصول والمهمات إهمال بقية أمور الدين أو التقليل من شأنها، أو دعوى أنها أمور شكلية وقشور، فدين الله عقائده وأحكامه وتشريعاته كلٌ لا يتجزأ، وكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ مهم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الحشر: ٧).

فإذا استشرف الداعية مستقبل دعوته، واتضحت الرؤية فيما سيكون، وتزاحمت عليه التكاليف والمهمات، **فسيقدر قبل الشروع في العمل والدعوة أيّ الأعمال يبدأ به**؛ لأنّ الأعمال بطبيعتها فيها تفاوت، وفيها أعلى وأدنى، وفاضل ومفضول، وركن وواجب ومستحب، وأهم ومهم، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل، والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار، والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن، والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفه، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك... والأفضل في العشر الأخيرة من رمضان: لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف، دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم،حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم وإقرائهم القرآن... فالأفضل في كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال، والاشتغال

بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه»[1].

لذلك كان من أهم ما يؤهل الدعاة لما يستقبل من المتغيرات، استشراف المستقبل واستكشاف بيئة الدعوة وأفرادها، وتقدير نقطة البدء الأولى معهم؛ لأنّ البداية غير المناسبة بداية النفور من الدعوة والانحراف بها، واضطراب غير محمود يجعل الداعية يبدأ من حيث ينبغي أن ينتهي، أو ينتهي من حيث لزمه البدء [2].

المطلب الثالث: في بيان تاريخ استشراف المستقبل والتخطيط له وأهميته في حياة الناس والعمل الدعوي:

العناية باستشراف المستقبل والاهتمام به لا يمكن أن يكون من اهتمامات المعاصرين، ووليد الحياة العصريّة ومستجداتها كما يتصور البعض؛ بل هو فطرة في النفوس البشرية، فإنّها تفكر في المستقبل، وتخطط له، وتقدر عواقب الأمور، وطوارئ الأحداث، ومتغيرات الزمان والمكان، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «النفس لها شرف إلى التطلع على الحوادث قبل وقوعها»[3]، فالرغبة في استشراف المستقبل من الغيب الذي تولع به النفوس، وتحرص عليه وتتعلق به، وقد أكّد هذه المسلّمة عالم الاجتماع والخبير بأحوال الناس ابن خلدون حيث يقول في مقدمته رحمه الله: «اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوف إلى عواقب أمورهم و علم ما يحدث لهم من حياة وموت، وخير وشر؛ سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها، فالتطلع

١- ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم (١ / ٨٨) بتصرف.

٢- يقول الأستاذ محمد قطب مشيرا إلى الخطورة إن لم تبدأ الدعوة بنقطة البدء اللازمة، وتجاوزتها إلى ما يجيء بعدها في الترتيب: "وقد أثبتت الأيام أن هذا الأمر كان في حاجة إلى مراجعة شديدة، وأن نقطة البدء كان ينبغي أن تكون هي تصحيح العقيدة ذاتها وجلاء مفهومها الحقيقي الذي غاب عن الجماهير، بل غاب عن كثير من الدعاة أنفسهم". ينظر: كتابه الصحوة الإسلامية ص (٦٠).

٣- مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢ / ١٣٩).

إلى هذا طبيعة البشر؛ مجبولون عليها ولذلك تجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك في المنام والأخبار من الكهان في قصدهم بمثل ذلك من الملوك و السوقة معروفة، ولقد نجد في المدن صنفا من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه، فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة و صبيانها وكثيرٌ من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه و المعاش والعشرة والعداوة وأمثال ذلك»[١]، فالاهتمام بالمستقبل واستشرافه والتخطيط له قديم قدم البشرية، ولكنّ ظهوره كعلم مستقل له مؤسساته ورجالاته ودراساته ظهر حديثا؛ كـ (علم للمستقبليات)[٢] وهو من أحدث العلوم عند الغرب والتي كثر فيه المتخصصون، وأنشئت من أجلها المراكز البحثية، والهيئات العلمية؛ لما يشكله المستقبل من هاجس مخيف يحسبون له ألف حساب خاصة مع نظرتهم المادية وغياب الإيمان بالغيب في حياتهم.

وتتأكد الحاجة الماسة إلى استشراف المستقبل ومعرفة وسائل ذلك في هذه الأزمان التي أصبح كلّ ما فيها يبنى على الدراسات المستقبلية، والرؤية المتوقعة، أما الزهد والاستغناء عن استشراف المستقبل والتخطيط له، وإن كان من المسكوت عنه في أزمان سابقة، فإنه في عالمنا اليوم أصبح تخلفا غير مقبول، وتغريدا خارج السرب، وهذا الاهتمام المتأخر به، هو اهتمام متقدم سبقت إليه الأمة المحمدية، وأبرزته نصوص الوحي في الكتاب والسنة، لتخطو دعوة الإسلام بخطوات واثقة إلى الأمام دائما؛ وبلهجة صادقة لا تتكدر بالمتغيرات ولا تحرفها عن سيرها

١- مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن خلدون (٢ / ٨٢١).

٢- حيث يؤرخ المعنيون لظهوره بأنّه في منتصف القرن العشرين عام ١٩٤٨م، ولكنهم يشيرون إلى كتابات ودراسات قبل ذلك بقرون تعني بالدراسات المستقبلية كما فعل أفلاطون في كتابه (الجمهورية) والفارابي في كتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) وكالكتابات في قصص الخيال العلمي ينظر للزيادة والتفصيل: نحن والمستقبل، قسطنطين زريق، ص٧٩، والدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية، عبدالله المديفر، ص٤٩.

العواصف والمفاجآت؛ حتى يرث الله الأرض ومن عليها[1].

وهذا الموضوع ليس كما يظن البعض أنّه من الرجم بالغيب أو التعدي على المستقبل، أو التأصيل للأوهام والسراب، بل هو مطلب شرعي للانتباه، ومعرفة الطريق، وتحديد الوجهة والمقصد، كما أنّه قبل ذلك وبعده علاج للبسطاء من الوقوف مكتوفي الأيدي، والعيش في دوامة الحسابات اليومية، وعدم القدرة على تجاوز ما تحت الأقدام، لتلتفت الأنظار إلى الطريق أمامها والفرص المشرعة منه، والحفر العميقة فيه؛ ليتأكد لكلّ سائر في الطريق حتمية الحياة المستقبلية، وأن كلّ ما هو آت قريب، وأنّ العمل للمستقبل ليس أمرا فطريا دنيويّا فقط، بل هو أمر دينيّ؛ فقد جاءت النصوص الشرعيّة مؤكدة الاستعداد للمستقبل، وإعداد العدة لليوم الآخر، وأنّ المصير في المستقبل مرهون بما قُدّم في الحاضر والماضي.

وللدلالة على أهمية استشراف المستقبل في حياة الدعوة والداعية نذكر ما يلي:

أولا: في استشراف المستقبل تهيئة النفوس لقبول الحق وسماعه والاقتناع به:

فتبليغ الإسلام والقيام بواجب الدعوة وحصولها والقناعة بها؛ لا يمكن أن يكون بين ليلة وضحاها، بل يحتاج إلى وقت ومراحل من التهيئة لحصوله، ولذلك استغرقت الدعوة المحمدية ثلاثا وعشرين سنة؛ لتقع موقعها، وتستقرّ في النفوس، وتكتمل حقيقتها وصورتها؛ ولتصبح بعد ذلك دين الله الذي لا يقبل الله غيره ولا يرتضي سواه، ولذلك كان من المهم عند القيام بواجب الدعوة إلى الله؛ تهيئة النفوس والأجواء لتكون مناسبة لعرضها، حتى لا تكون أوّل ردة فعل منها هي الرفض والإعراض، ولذلك كانت الحكمة واضحة من نزول القرآن منجما

١- وهذا مما يؤكد مرة بعد مرة أنّ الرسالة المحمدية الخاتمة صالحة لكل ما تمر به البشرية في مراحلها التاريخية اللاحقة وستكون قادرة على حل كل ما يعتري الإنسانية من مشاكل؛ لأنّ الواجب الذي تحملته في الدعوة والإصلاح إلى ما شاء الله، يلزمها بقيادة البشرية إلى برّ الأمان، ومنهج الإسلام لا يطالب فقط بمواكبة العصر بل يدعو لاستشراف المستقبل ومسابقة العصر، تحقيقا للواجب، وتفاعلا مع الأحداث المستجدة.

ومفرقا حسب الحوادث والوقائع والمستجدات؛ كل فترة تمّهد للتي بعدها، وبهذا الترتيب، لتستكشف وتستشرف ما بعدها، فيكون التكليف الحاضر الأول، ممهدا للذي بعده ويهيئ له؛ لتتقبله النفوس وتؤمن به وتقتنع، وهذا واضح كما أخبرت عائشة رضي الله عنها: «إنما نزل أول ما نزل من القرآن سور من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام: نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا)[1]، يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعليقا: «فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: «ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندعها»، وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف»[2].

وهو ما فعله الرسول ﷺ في مكة أولًا، وفي المدينة ثانيًا، فلقد كان ﷺ يراعي العوامل النفسية لدى المدعوين؛ ويستشرف مستقبل أيامهم ليمهد لهم لتهيئة نفوسهم للقبول بما سيطرأ عليها، ويستجدّ في حياتها من تكليفات وتشريعات، وهو نوع من التدرج واستشراف المستقبل، يقول فيه الدكتور يوسف القرضاوي: «وهذه السنة الإلهية في رعاية التدرج ينبغي أن تتبع في سياسة الناس عندما يراد تطبيق نظام الإسلام في الحياة... فإذا أردنا أن نقيم مجتمعًا إسلاميًا حقيقيًا فلا نتوهم أن ذلك يتحقق بجرة قلم أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس، أو مجلس قيادة أو برلمان، إنما يتحقق بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية وإيجاد البدائل الشرعية للأوضاع المحرمة التي قامت عليها مؤسسات عدة لأزمنة طويلة»[3].

وفي استشراف المستقبل ومراعاة المتغيرات وتوقع القادم؛ نوع من تهيئة النفوس البشرية وتغييرها لتقبل ما سيطرأ عليها، وما يستجد في حياتها مما لم

١- أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن برقم (٤٩٩٣)، (٨/ ٦٥٥).
٢- فتح الباري، لابن حجر (١٠ / ٤٨).
٣- في فقه الأولويات، القرضاوي ص (٩٢).

تتعود عليه، ويحتاج ذلك من الداعية إلى الله تعالى إلى جهد كبير ومركّز؛ للتأثير على النفوس وتغييرها تغييرا منطقيا نحو الأصلح؛ لأنه ليس من السهل أن تتخلى النفوس عن كل ما ورثته وألفته بين عشية وضحاها، فكان من ثمرات هذا الاستشراف للمستقبل تهيئتها لقبول الحق، وترك ما كانت تعودت عليه، وهذا يحتاج إلى تدرج بها حتى تتعايش مع المستقبل القادم الذي سيصير في القريب هو (الواقع) يقول العلامة الأمين الشنقيطي رحمه الله: «الله تبارك وتعالى لعظم حكمته في التشريع إذا أراد أن يشرع أمرًا شاقًّا على النفوس كان تشريعه له على سبيل التدرج، لأن إلزامه بغتة في وقت واحد من غير تدرج فيه مشقة عظيمة على الذين كلفوا به»[1]، وباستشراف المستقبل والتخطيط له تتهيأ النفوس لقبول الحق وسماعه والاقتناع به، ولا يكون عنصر المفاجأة الذي قد يؤدي للاستغراب وعدم التقبل.

ثانيا: في استشراف المستقبل تحقيق الكمال والإحكام وترسيخ المبادئ:

الذي يريد تشييد بناء متين، وصرح شاهق، يحتاج إلى خطوات مدروسة ومراحل متأنية، وأساسات متينة يبني عليها بنيانه، وفقه الداعية في استشرافه المستقبل والتخطيط له يمكّنه من غرس المبادئ وترسيخها في النفوس؛ لأنّه يبنيها مرتبةً بداية بالأولى الذي يكون مقدمة وتهيئة للثاني الذي يأتي بعده، وبهذا الفقه والتسلسل خطوة خطوة ولبنة لبنة يشيد الداعية بناء الدعوة المتين، وصرحها المتماسك، وكلّ من يريد الإعداد الجيد والإحكام التام لدعوته يحتاج أن يتعرف على واقعه بدقة، ويستشرف مستقبله بصدق، للمرور عبر بوابه التاريخ بخطوات ومراحل معلومة ومدروسة؛ وعلى ذلك قامت الدعوة الإسلامية الأولى؛ فكانت مستمرة وباقية وثمرتها وآثارها وأتباعها مستمرون إلى قيام الساعة؛ ولو أنه ﷺ أراد أن يقوم بواجب الدعوة وإنشاء الدولة دون تقدير الظروف والمتغيرات

١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي (٥/ ٧٠٠).

والطوارئ، ودون قراءة صحيحة للمستقبل، ولكل ما يحيط به وينتظره، لما بلغت دعوته ما بلغت، ولا استطاع أعداؤها وخصومها المتربصون بها إضعافها، أو القضاء عليها في مهدها، قبل أن تبلغ ما بلغ الليل والنهار، فقبول الحقّ، واستشراف المستقبل للتعرف على كيفية الثبات على الحق هو البصيرة التي تجعل الداعية واثقا من طريقه، وتجعل الدعوة راسخة ومتجذّرة في النفوس فـ: «الإنسان يطلب أولا تحصيل الخير فإذا حصّله يطلب أن يصير ذلك الحاصل ثابتًا باقيًا»[1].

وهذا التريث للوصول للكمال، وتحقيق الإحكام، وترسيخ المبادئ؛ هو نتيجة منطقيّة لقراءة المستقبل واستشرافه، وهو من العزيمة المأمور بها شرعا؛ والمبنية على أصول محكمة، أمّا التسرع والعجلة والسرعة في الخطوات نحو المستقبل، وقطع الليالي والأيام، والفيافي والقفار، دون استشراف لما سيكون فيها، وما يتوقع من أحداث ومتغيرات تطرأ؛ فهو نوع من الاندفاع غير المدروس وغير المحمود فـ: «الخطأ زاد العجول»[2].

وكلّ من يتصدر للناس، وعلى رأس القائمة الدعاة إلى الله تعالى، لا ينبغي لهم السباحة مع التيار ولا الإقدام على الفعل، واقتحام المستقبل دون المعرفة الأكيدة؛ فهذا نوعٌ من التسرع قد يترتب عليه الضرر الكبير لأنّ ذلك من العجلة التي يقول فيها الإمام ابن القيم رحمه الله: «طلب أخذ الشيء قبل وقته فهو لشدة حرصه عليه بمنزلة من يأخذ الثمرة قبل أوان إدراكها كلها؛ فالمبادرة وسط بين خلقين مذمومين، أحدهما: التفريط والإضاعة، والثاني: الاستعجال قبل الوقت، ولهذا كانت العجلة من الشيطان فإنها خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها وتجلب عليه أنواعا من الشرور وتمنعه أنواعا من الخير، وهي قرين الندامة، فقلّ من استعجل

١- التفسير الكبير، للفخر الرازي (١٠ / ١٦٨).
٢- ينظر: مجمع الأمثال، للميداني (١ / ٤٣١).

إلا ندم كما أنّ الكسل قرين الفوت والإضاعة»[1].

والتوثق وتمام الفهم ووضوح الرؤية، قبل الإقدام على المستقبل من خلال استشرافه والتخطيط له وتقدير الظروف والطوارئ والمتغيرات هو المطلوب الذي يتحقق به الكمال والإحكام، وتترسخ من خلاله المبادئ، ويعين على السلامة والتوفيق للصواب، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أُعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجلّ منهما،بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فُهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقُصودهم وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والهدى والباطل والضلال، والغيّ والرشاد»[2].

ولقد وضّح عبد الله بن عباس رضي الله عنه خطورة المسارعة والاندفاع غير المدروس حتى لو كان في الخير، فلا بد من التريث وقراءة المستقبل ومعرفته وفقهه حيث يقول: «قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل، فجعل يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا، فقال ابن عباس: والله ما أحب أن يسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة، قال: فزجرني عمر، وقال: مه، فانطلقت إلى منزلي كئيبًا حزينًا، فبينا أنا كذلك، إذ أتاني رجل فقال: أجب أمير المؤمنين، فخرجت فإذا هو بالباب ينتظرني، فأخذ بيدي فخلا بي، وقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفًا؟ فقلت: يا أمير المؤمنين: متى ما يسارعوا هذه المسارعة يحتقوا ومتى ما يحتقوا يختصموا، ومتى ما يختصموا يختلفوا، ومتى ما يختلفوا

١- الروح، لابن القيم ص (٢٥٨).
٢- إعلام الموقعين، لابن القيم (١ / ٨٧).

يقتتلوا، قال لله أبوك، والله إن كنت لأكتمها الناس حتى جئت بها»[1]، ففي هذه الحادثة يتبين وبوضوح كيف أدرك الفاروق عمر ﷺ وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ﷺ - الذي دعا له النبي ﷺ بالفقه في الدين - أنّ المسارعة غير المدروسة وبدون قراءة للمستقبل واستشراف له؛ حتى لو كانت في قراءة القرآن الكريم ودراسته، مع أهميته ومكانته التي لا تخفى وخصوصيته على غيره، ومع ذلك قد تُوقع في الخلاف، الذي قد يؤدي للقتال.

ثالثا: حماية الدعوة والداعية ووقايتهم من العثرات والزلات:

الدعوة معرضة للعثرات والزلات، وذلك عندما يتعرض الداعية لها، ولكنّ الله يحميه من ذلك ومن غيره بفقه دعوته واستشراف مستقبلها، والرؤية الواضحة في خطواتها وما ستقبل عليه، ويزيد الدعاة إلى الله حفظا وحماية لهم ولدعوتهم من العثرات والزلات إدراكُهم ما في **استشراف المستقبل والتخطيط له** من المكاسب التي تجنبهم الآثار والعواقب الوخيمة، والخطوات الارتجالية؛ البعيدة عن الحكمة والبصيرة، مما قد يوقعهم فيما لا تحمد عقباه من فشل وندم على ما فات لهم ولدعوتهم، ويقفون متأسفين على ما فعلوا، يقولون: «لو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا لما فعلنا كذا ولتهيأنا بكذا، ولسألنا عن كذا ولقدّرنا فعل كذا...».

ومن أبرز ما يحصل فيه الخطأ والخلل، ويحتاج الدعاة إلى الله إلى الانتباه له تشتيت جهود الدعوة والدعاة عن القضايا المهمة والأصيلة التي سيصل بها ومن خلالها للهدف والمقصود إلى بنيّات الطريق التي تحرفه عن الطريق وتشغله عن السير يقول محمد المبارك: «يتبين خطأ من يصرفون همهم إلى أمرٍ قد يكون في ذاته مطلوبًا أو ممنوعًا في الإسلام، ولكن في مقابلة أمرٍ أخطر منه بكثير، فالبلاد الإسلامية مبتلاة في هذا العصر بخطرين عظيمين هما: الاستعمار والإلحاد؛ فهل

١- أخرجه عبد الرزاق في المصنف برقم (٢٠٣٦٨).

يجوز في مثل هذه الحالة تقسيم المسلمين إلى من يقولون بأن التراويح ثمانية ومن يقولون بأنها عشرون وإلى القائلين بتكرار الجماعة أو عدمها... أنا لا أقول أن لا تبحث هذه الأمور بحثًا علميًا، بل أقول: إنه يجب التنبيه حينما يكون الأمر ماسًا بالعقيدة، ويحسن التنبيه للطريقة الصحيحة في العبادات، أما غير ذلك مما يحدث فتنة أو خصومةً بين المسلمين فيجب تركه لما يترتب عليه من منكرٍ أعظم في تقسيم المسلمين وتفتيت قوتهم ونكتفي عندها بالقضايا الأساسية الكبرى»[1].

واستشراف المستقبل ومعرفته يسهل على الداعية حسن التقدير لعباداته وأعماله التي يقدمها، والأكثر أجرا ونفعا لما يستقبل من الأيام، ويكون أقدر من غيره وأفقه في مواجهة الشيطان ومكايده حتى لا يزين له أمرا أدرك عدم أهميته، أو يشيّنه وقد أدرك أهمية فعله، لأنّ الشيطان يشغله «بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضي له، فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها، وسافلها، ومفضولها وفاضلها»[2].

الفصل الثاني: طرق ووسائل استشراف المستقبل والتخطيط له وحاجة الدعوة والداعية إليها:

الوسائل التي توصل إلى الغايات كثيرة ومتنوعة، وهذه الوسائل المتنوعة لها خصائص وميزات كثيرة من المهم التعرض لها وإبرازها، وذلك للتفريق بين وسائل الداعية المشروعة وغير مشروعة، ومن أبرز هذه الخصائص التي يحسن التمهيد بها قبل التفصيل في وسائل استشراف المستقبل وطرقه: (**شرعيّة هذه الوسائل**) وانضباطها والتزامها بالأحكام الإسلاميّة، وعدم خروجها عن الشريعة الإسلامية، وأن تكون نابعة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وبذلك تكسب

١- ينظر: الفكر الإسلامي الحديث للأستاذ محمد المبارك ص (٦٥).
٢- ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم (١ / ٢٢١).

مصداقيتها وتظهر أهميتها، وتثمر وتجدي في تحقيق المراد، فإن كانت الوسيلة مخالفة لنصوص الشرع وقواعده العامة فلا يشرع التوسل بها إلى المقاصد والغايات، ولن تحقق المقصود يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ليس كلّ سبب نال به الإنسان حاجته يكون مشروعًا ولا مباحًا، وإنما يكون مشروعًا إذا غلبت مصلحته على مفسدته، مما أذن فيه الشرع»[1].

والدعوة هي إلى الله، ووسائلها ينبغي أن تكون على مراد الله، والغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة، وفي ذكر هذا تمهيدٌ للوسائل والطرق المشروعة لاستشراف المستقبل[2]، وتنبيهٌ لكل أولئك المعتدون والمفتئتون الذين يحاولون استشراف المستقبل وكشف ستاره بوسائل يحظرها الشرع ويمجها العقل، فتراهم يلهثون وراء الكهان والمنجِّمين، وآخرون يعتقدون في الأبراج السماويّة، ويتلاعب بهم البطالون بالخط والرمل وقراءة الكف ونحو ذلك مما هو محرم ومحظور، مع أنّ الشريعة كشفت لهم صراحة أو ضمنا كثيرا مما يحتاجونه في مستقبل أيامهم، وأرشدتهم إلى وسائل مشروعة لاستشراف المستقبل، بل هيأ الله لهم في يقظتهم ومنامهم ما يساعدهم في ذلك، واستشراف المستقبل وحسن التخطيط له لا يحصّله إلا من أكرمه الله بالبصيرة في الدين، والفقه في أحكام ربّ العالمين، وفتح الله عليه، فليس بالأمر الهين؛ ولذلك ينبغي للداعية إلى الله أن يسير وفق طرق شرعية، ومنهج ربانيّ، وفقه دعويّ، بعيدا عن الهوى والرغبات، والطوارئ والمداخلات ليتمكن وبدقة من تحديد خطواته، ووضع خططه وترتيباته؛ ويأتي هذا الفصل الثاني ليوضّح الوسائل والطرق المقرّرة للوصول لمعرفة المستقبل وقراءته واستشرافه، **وهي كثيرة ولكني**

١- مجموع الفتاوى، ٢٧ / ١٧٧.

٢- ونحن في هذا السياق سنعرض لأبرز الوسائل والطرق في استشراف المستقبل ومعرفته التي يبني عليها الداعية معالم دعوته وخطواتها، مع ملاحظة أنّ هذه الوسائل والأسباب معرفتها للمستقبل ظنيّة لا قطعيّة، ولا يجزم بما كشفته من المستقبل، بل يستأنس بها؛ لجواز تخلّف الأسباب أو الخطأ في استشراف المستقبل؛ وذلك لأنّ "لبعض الغيوب أسبابًا قد يُستَدلّ بها عليها، لكن ليس ذلك حقيقيًا" فتح الباري لابن حجر (١٣ / ٣٦٥).

أكتفي في هذه العجالة بستة فقط، هـي:

المطلب الأول: التنصيص عليها بالوحي بورودها في القرآن والسنة:

وتقع في مقدمة وسائل وطرق معرفة ما قد يحصل في المستقبل واستشرافه؛ فهي الطريقة الأولى والمباشرة؛ أن ينصّ الوحي عليها، حيث جاءت كثيرا من النصوص الشرعيّة كاشفة للمستقبل، ومبينة بوضوح لما سيحصل ويجري فيه من أحداث ومتغيرات، فالنص على ما سيحصل في المستقبل في القرآن أو السنة طريق أصيل ومباشر في معرفته والدلالة عليه، ولذلك كان من المهم لمن يريد معرفة المستقبل واستشرافه العيش مع نصوص القرآن والسنة واستخلاص ما أشارت إليه في هذا المعنى صراحة أو ضمنا، والواجب على الدعاة إلى الله أن ينطلقوا من نصوص الوحي وأن يربطوا تخطيطهم للمستقبل به، وأن ينهلوا من دلالاته؛ لأنّ الوحي؛ هو مصدر الدعوة الأول، والوسيلة الوحيدة التي يوثق بها في قراءة المستقبل، وتوقع ما سيكون، وما سيواجهه الداعية ويتعرض له في مقتبل عمره، وقد نصّت السنة النبويّة على كثير من الأحداث المستقبلية التي ستقع، وكشفت كثيرا من المتغيرات القادمة، وحذّرت بناء على ذلك من فعل أمور، أو رغّبت في فعل أمور أخرى، وسنته ﷺ وسيرته ومنهجه مليئة بالإشارة للمستقبل وبيانه والدلالة عليه صراحة أو ضمنا، وكنوز السنة ودواوينها حافلة بالنصوص الدالة على أنّها الوسيلة الأولى والطريق الأقصر والأوثق لاستشراف المستقبل.

والنبي ﷺ أخبر عن أمور كثير أنّها ستقع، وهذه الأخبار التي تكشف المستقبل، وتبين شيئا من الوقائع والأحداث التي ستقع قبل وقوعها، ويطلق عليها المتخصصون دلائل النبوة[1]، أو أعلام النبوة، فإذا وقعت كانت علامة ودلالة

١- وفي كتاب دلائل النبوة للبيهقي رحمه الله، وغيره من كتب السير كثير من هذه النبوءات، وقد تتبع الباحث محمد ولي الله عبد الرحمن الندوي هذه النبوءات فجمع منها (١٨٨) نبوءة، منها (٢٨) نبوءة لم تتحقق بعد، ينظر كتابه: (نبوءات الرسول ﷺ ما تحقق منها وما يتحقق).

على نبوته، وهي من الغيب الذي كشفه الله تعالى لرسوله ﷺ، وأذن له في كشفه لنا، لنسترشد ونستهدي بما سيكون قبل أن يقع ، ونستعدّ له قبل وقوعه، عونا لنا وتخفيفا علينا.

يقول حسن ضياء الدين عتر: «البشر مهما بلغوا من العلم، ومهما أوتوا من الفطنة والذكاء، يظلون قاصرين عن إدراك المستقبل، واستكشاف مجاهيله، ولا يجرؤ عاقل على استصدار حكم قطعي بشأن المستقبل، إلا على سبيل الظنون والاحتمالات، وقد تكشف الأيام في زمن وجيز عن خطأ هذه الظنون والاحتمالات أو أكثرها»(١)، أمّا إخباره ﷺ بالمستقبل واستشرافه له وكشفه عنه فهو وحي أطلعه الله عليه.

ولذلك كان التنصيص على المستقبل بالوحي بوروده في القرآن والسنة الوسيلة الأولى الموثوقة، والطريق الأسلم والأحكم لاستشراف المستقبل ومعرفته، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإخباره ﷺ عن الأمور المستقبلية هو من باب العلم الخارق، كإخباره عن مملكة من أمته، وزوال مملكة فارس والروم، وقتال الترك، وألوف مؤلفة من الأخبار التي أخبر بها مذكورة بعضها في كتب دلائل النبوة، وسيرة الرسول ﷺ وفضائله ﷺ وكتب التفسير والحديث والمغازي، في مصنفات كثيرة جدا»(٢).

والنصوص والأحاديث النبوية؛ التي جاءت صريحة ومباشرة في كشف ستار المستقبل واستشرافه وذكر ما سيقع فيه من أحداث ومتغيرات، كثيرة ومتنوعة، ومن أقواله ﷺ في ذلك:

- ما جاء عن حذيفة رضي الله عنه قال: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاما ما ترك

١- المعجزة الخالدة، حسن ضياء الدين عتر ص (٦٧).

٢- ينظر مجموع الفتاوى ١١ / ٣١٥.

شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه»[١].

- ومن ذلك ما جاء عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، فبينما أنا نائم أوتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي». وقال أبو هريرة رضي الله عنه: وقد ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تنتثلونها[٢]، قال الإمام النووي رحمه الله عند هذا الحديث: «وهذا من أعلام النبوة، فإنّه إخبار بفتح هذه البلاد لأمته، ووقع كما أخبر ﷺ»[٣].

- ومن ذلك ما جاء عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله»[٤].

وأختم هذا المطلب أنّ الوحي المنصوص عليه من النبي ﷺ هو الوسيلة المضمونة والمباشرة في استشراف المستقبل، بل هي الوسيلة الأولى والطريق الواضح والمباشر والأهم لذي لا ينكر «وإنكار العقل لما يخبر به النبي ﷺ عين الجهل، ولا مستند له في إنكاره إلا أنّه لم يبلغه، ولم يصل إليه فيظنّ أنّه غير ثابت في نفسه»[٥].

المطلب الثاني: الاجتهاد من أهل العلم والكفاءة والتأهيل:

الاجتهاد ضرورة شرعيّة، وهو من لوازم التشريع التي لا يستغني عنها، ولا يخلو زمان من الأئمة المجتهدين الذين يهدون الأمة ويوجهونها، ويبيّنون لها حكمَ

١- أخرجه البخاري، كتاب القدر، باب: "وكان أمر الله قدرا مقدورا" برقم (٦٦٠٤) ٧/ ٢٦٩.
٢- أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «نصرت بالرعب" برقم (٢٩٧٧) ٤/ ١٥.
٣- يقول الإمام النووي رحمه الله: وقوله ﷺ: "وأنتم تنتثلونها"، يعني: تستخرجون ما فيها. ينظر: كتابه المنهاج ص ٤٩٨.
٤- أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب قتال اليهود، برقم (٢٩٢٦) ٣/ ٣٠٥.
٥- الصواعق المرسلة لابن القيم (٣/ ٩٥٩).

الله تعالى في كل ما يستجد من النوازل، ويبذلون الوُسع والنظر ليواكبوا جميع الأحداث الطارئة في الدعوة إلى الله، وخاصة في استشراف مستقبلها؛ لأنّه ما من مسألة تطرأ وتستجد إلا ولها في كتاب الله تعالى أو في سنَّة رسوله ﷺ أصل تُبنى عليه قد يكون واضحا وقد لا يكون واضحا، ومسؤولية المجتهد هنا هي بذل الوسع للوصول للرابط بين ما يحدث وما هو منصوص عليه، وما يتوقع حدوثه؛ يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلةٌ إلاَّ وفي كتاب الله الدَّليل على سبيل الهدى فيها»[1]، فكلُّ ما يَرِدُ ويستجد من أحوال الدعوة ونوازلها ينبغي للعلماء والدعاة الاجتهاد فيه للوصول للحكم الشرعي المناسب، ولذلك كان من فضل الله تعالى على هذه الأمة أن يبعث فيها بين الفينة والأخرى من يجدد لها أمر دينها، كما جاء في قوله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة مَنْ يجدد لها دينها»[2]، والمقصود بالأئمة المجددين في الحديث أولئك الذين يقومون بواجب الدعوة إلى الله تعالى وتجديدها، وتأصيل قضاياها وخطواتها تأصيلًا شرعيًا وفقَ كتاب الله وسنةِ رسول الله ﷺ رغبة منهم في: «إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما»[3]، والتجديد يحصل على حين فترة وضعف في الأمة، فيسخّر الله لها من يجمع أمرها، ويحفظ كلمتها، ويعلي العلم والعمل؛ وبذلك لا ينقطع سندها عن الوحي، والتأصيل والمشروعية، وهؤلاء هم ورثة النبوة[4].

وبمثل هؤلاء الأئمة والعلماء المجددين، ومن يسير على دربهم من الفقهاء

١- الرسالة، للإمام للشافعي ص (٢٠).
٢- أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، ينظر عون المعبود (١١/ ٢٣١) وصححه الألباني برقم (٥٩٩) (٢/ ١٥٠).
٣- ينظر عون المعبود (١١/ ٢٣١).
٤- قال الإمام ابن حجر عند حديث النبي ﷺ "العلماء ورثة الأنبياء": "هم أهل العلم، ووجود هؤلاء العلماء في عصور عدم الاضطرار إليهم منّة من الله تعالى على الأمة لتحسين حالها، ووجودهم في حالة اضطرار الأمة عصمة من الله، ولطف بها، لإنقاذها من التهلكة، ومساعدةً لها على حمل الرسالة الخاتمة". ينظر: فتح الباري (١٣/ ٢٦٠).

والدعاة الموثوقين؛ ونظرهم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكمال فقههم وسعة ثقافتهم[1] يُستشرف المستقبل، ويحصل الاجتهاد في ما سيطرأ وما سيقع من أحداث، حيث وجد من تشدد في مسألة الاجتهاد؛ ووضعوا للمجتهد شروطا تعجيزية حتى أغلقوه مطلقا، ومنهم من توسع فيه وجعله بابا مفتوحا على مصراعيه يدخله كلّ أحد، والخلاصة أنّه أمر ضروريّ، وباب مفتوح بحقه لمن اختارهم الله وجعلهم أهلا لذلك «فالاجتهاد ليس مفتوحا لكلّ أحد، وليس مغلقا إلى الا بد؛ وهو ماضٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لكن ليس لأيّ أحد، ولكن لمن كان مؤهلا، وتوافرت فيه الشروط اللازمة»[2]، **وهو هنا بنوعيه الفرديّ والجماعي وسيلة لاستشراف المستقبل.**

ويدخل في ذلك الاجتهاد من أهل العلم **(التشاور والتباحث وعقد اللقاءات والندوات والمؤتمرات)** في استشراف المستقبل[3]، وتوقع ما سيكون من أحداث ومتغيرات، تحتاج الدعوة والدعاة إلى معرفتها والاستعداد لها، والتهيؤ، بل والتدرب على التعامل معها؛ أما الاجتهادات الفردية في قضايا الدعوة المصيرية والنوازل المعقدة فضررها أكثر من نفعها، وهي خلاف هدي النبي ﷺ في أخذ آراء أصحابه واستشارتهم المتكررة؛ ومن ذلك جمعهم على ما يفعلُه في أسرى بدر[4]، يقول الإمام البخاري رحمه الله تعالى: «كانت الأئمّةُ بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناءَ في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها»[5].

١- الثقافة الواسعة والمتنوعة في مختلف المجالات العلمية والعملية الدينية منها والدنيوية، وتنويع مصادر الداعية ومعارفه؛ باب واسع يعزّز قدرته واجتهاده في استشراف المستقبل بدقة، وهو من الوسائل والطرق التي يطول الحديث عنها، وأصل العلوم كلها الوحي (القرآن والسنة).

٢- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم (٢/ ٥٣٠).

٣- وما هذه الندوة المباركة وبحوثها وباحثيها ومحاورها إلا نوع من هذا الاجتهاد الجماعي الذي نحن بحاجة ماسة إليه في هذا الموضوع وغيره، ولعلّ من دوافع القائمين على هذه الندوة وهذه الكلية المباركة، تحقيق ذلك فلهم الشكر والتقدير.

٤- ينظر تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٣٤٥).

٥- أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: "وشَاوِرْهم فِي الأَمْر"، معلقا في باب (٢٨) (١٣/ ٣٥١).

وعليه فمن الطرق المهمة لمعرفة المستقبل واستشرافه الاجتهاد سواء فيما كان فيه نص، أم فيما لم يكن فيه نص أصلا،وهذا (**الاجتهاد الجماعي**)[1] للوصول إلى معرفة بعض الحوادث والمتغيرات المستقبليّة؛ هو الذي ينبغي السعي إليه وتبنيه فهو أدق وأصوب، وقد أشار مجمع الفقه الإسلامي إلى ضرورته وأنّه الأصل، حيث جاء في قراراته ما نصّه: «أن يكون الاجتهادُ جماعيًّا بصدوره عن مجمع فقهيٍّ يمثّل فيه علماءُ العالم الإسلامي، وأنَّ الاجتهاد الجماعي هو ما كان عليه الأمر في عصور الخلفاء الرَّاشدين، فقد كانت تردُ عليهم المسائلُ وهم خير قرن فكانوا يجمعون أهل الحلِّ والعقد من الصَّحابة، ويتباحثون ثمَّ يفتون»[2].

المطلب الثالث: مراعاة سنن الله الكونية واعتبارها:

الكون كلّه قائم بأمر الله تعالى وفق نظام وترتيب دقيق؛ ليحصل الثبات والاستمرار في هذه الحياة فكل شيء بقدر،كما قال الله تعالى:﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾ (يس: ٣٨)، والسنن التي تحكم الكون والمخلوقات واحدة وثابتة ومقدّرة، وفق نظام دقيق ومنضبط، ومنهج رباني مرسوم، وإذا انفرط هذا الانضباط واختلطت الأمور، وتشابكت المسائل اختلت الموازين، وفسد الكون، ولم يكن للوجود معنى، والدعوة الإسلامية التي هي دين الله تعالى للناس أجمعين، تقوم على هذا النظام وعلى هذا الترتيب والتناسق، ولذلك فلا بد أن تكون خطوات الداعية مدروسة ومحكمة، وأن يضع كل شيء في موضعه، ولا يستعجل الشيء قبل

١- فالاجتهاد الجماعي؛ أنفع من الاجتهاد الفردي، ومقدم عليه؛ ونتيجته أضمن من الجماعي، والثقة به أوسع ، ونتائجه أضمن، لأنّ الثقة بالمجموع وقدرتهم للوصول إلى الصواب أولى، ولذلك كان هو الأولى في استشراف المستقبل والتعرف عليه، واستكشاف ما يتوقع حدوثه، وإدراك مآلات الأمور؛ خاصة في عصر العولمة والانفتاح؛ الذي كثرت فيه المتغيرات وتنوعت الثقافات، فتحتاج المسائل إلى تروّ أكثر، ودراسة أعمق أما الاجتهاد الفردي فيغلب على صاحبه التسرع في الغالب؛ والنزعة الفرديّة، مع تشويش الهوى وحظوظ النفس عليه.

٢- ينظر مقررات المجمع الفقهي التَّابع لرابطة العالم الإسلامي في جلسته المنعقدة في مكة المكرمة، في ربيع الآخر سنة ١٤٠٥هـ من دورته الأولى.

أوانه «فقد يكون الداعية قادرا على الشروع في الدعوة واقتحام بعض صعابها، ولكن الدعوة تحتاج إلى استمرارية وثبات لتؤثر في الأمة، فقليل دائم خير من كثير منقطع لاسيما في الدعوة»[1]، فمعرفة أين يضع قدمه؟ وما هي خطواته القادمة؟ وكيف يحدد أولوياته التي تعينه على القيام بواجب الدعوة، وتمكنه من عمارة الأرض هو المطلوب.

وقد أودع الله سبحانه وتعالى في هذا الكون سننًا ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، فينبغي للداعية إلى الله أن لا يتجاهلها، بل يقف عندها ويتدبرها، فإنّ من وراء ذلك مقاصد وحكم كثيرة على الداعية أن يتأملها ويقف عندها، فالسنن التي تحكم الكون والمخلوقات واحدة، ولذلك لزم الداعية إلى الله دراسة هذه السنن الكونية، ومحاولة إدراك حكمها؛ لتتبين له الحقائق والمعالم التي تكشف الطريق وتُعين على الصواب في دعوته ومع مدعويه؛ وخاصة السنن الكونية المتعلقة بالأمم والأفراد ممن يقصدهم الداعية بدعوته، فـ «لم يُقَصِّر المُصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم، والجمع بين النصوص التي وردت في ذلك، والحث على الاعتبار بها، ولو عُنُوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام، وقواعد الكلام، لأفادوا الأمة بما يحفظ دينها ودنياها، وهو ما لا يغني فيه التوسع في دقائق مسائل النجاسة، والطهارة والسَّلم والإجارة، فإن العلم بسنن الله تعالى في عباده لا يعلوه إلاّ العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، بل هو منه، أو من طُرقه ووسائله»[2].

١- العلاقة بين الفقه والدعوة، مفيد خالد عيد ص (١٦٧).

٢- من أقوال الشيخ محمد رشيد رضا، نقلا عن "سر تأخر العرب والمسلمين" للشيخ محمد الغزالي ص (١٠).

وهذه السنن الكونية على ضربين، مادي واجتماعي[1]، والذي يهمنا في هذا الموضوع هو الجانب الاجتماعي في سنن الله وقوانينه الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ (الأحزاب: ٣٨)، وإذا تقرّر عدم تبدلها، جاءت إمكانية الاستفادة منها في استشراف المستقبل وماذا سيكون بناء على سنة الله الكونية الاجتماعية التي لا تتغير ولا تتبدل «والله يقول الحق؛ ويعلم ماذا كان ولماذا كان، ويقص على عبيده – رحمة منه وفضلا – جانبا من أسرار سننه وقدره؛ ليأخذوا حذرهم ويتعظوا؛ وليدركوا كذلك ما وراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة؛ يفسرون بها هذا الواقع التاريخي تفسيرا كاملا صحيحا، ومن وراء هذه المعرفة يمكن أن يتوقعوا ما سيكون استنادا إلى سنة الله التي لا تتبدل، هذه السنة التي يكشف الله لهم عنها»[2]، والمقصود هنا الإشارة إلا أنّ هذه السنن ومعرفتها وسيلة مهمة ومباشرة في استكشاف المستقبل واستشرافه، لأنّ كثيرا مما سيقدره الله هو من سننه التي كشف عنها من خلال نصوص الوحي، وبعض السنن أخصّ من بعض في الدلالة على المستقبل واستشرافه، وسنكتفي في هذه العجالة بالتعريج على سنتين كونيتين تكشف لنا المستقبل، وتعرفنا بما قد سيقع فيه وهي:

١- يقول الدكتور عبد الكريم زيدان في كتابه السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ص٧ (بتصرف):
- الأول الجانب المادي: وتخضع له كل الكائنات في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية، ويخضع له كيان الإنسان المادي وما يطرأ عليه مثل نموه وحركة أعضائه ومرضه وهرمه ولوازم بقائه حيا ونحو ذلك. وهذا الوجه لا يختلف في وجوده أهل العلم بهذه الأمور المادية ولا يختلفون في خضوع الكون له. وقد دل عليه القرآن وأكد عليه ولفت الأنظار إليه ليدل على ربوبية الله تعالى وتنمية الإيمان بالله واليوم الآخر.
- الثاني الجانب الاجتماعي: الذي يتعلق بخضوع البشر له باعتبارهم أفرادا وأمما وجماعات، تخضع لهذا القانون تصرفات البشر وسلوكهم في الحياة وما يكونون عليه من أحوال وما يترتب على ذلك من نتائج كالرفاهية أو ضيق العيش، والسعادة والشقاء، والعز والذل، والرقي والتأخر، والقوة والضعف، ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا وما يصيبهم في الآخرة من عذاب أو نعيم ، [وهذا هو الذي يعنينا في بحثنا الآن].

٢- في ظلال القرآن (٢ / ١٠٨٩).

أولا: سنة الابتلاء: فالابتلاء هو مقصد من مقاصد الحياة والتكليف، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (الملك: ٢)، وعلى هذا المبدأ يكون نظام الحياة، فكل إنسان سيتعرض للبلاء حتى يتميز الناس وتظهر معادنهم، كما تقرر ذلك في الأحاديث النبوية: «**أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى المرء على قدر دينه**»[١]، وقوله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خير له**»[٢].

وتندرج تحت سنة الابتلاء بعض السنن المتفرعة منه على النحو الآتي:

(أ) **سنة التداول**: يعني أن الله تبارك وتعالى يداول أحوال الناس من شدة إلى رخاء، أو من رخاء إلى شدة، ومن نصر إلى هزيمة، أو العكس، من يسر إلى عسر، ومن عسر إلى يسر وهكذا، حتى يظهر مواقف الناس ويكشف بواطن ما في صدورهم، وإن كانت العاقبة للمتقين بلا شك، ويظهر ذلك بشكل واضح في الحاجة الماسة للعلماء الربانيين المجديين كما جاء صريحا عن النبي ﷺ في قوله: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة مَنْ يجدد لها دينها»[٣]، والمقصود بالأئمة المجددين في الحديث من يدول الأمر لهم بعد ضعف فيقومون بواجب الدعوة إلى الله رغبة منهم في «إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما»[٤]، والتجديد يحصل على حين ضعف في الأمة، فيسخّر الله لها من يجمع أمرها، ويحفظ كلمتها ويعلي العلم والعمل، ويعيد الراية بيدها، والقيادة والريادة لها.

١- أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، حديث رقم (٨٤٤٠).
٢- أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير، حديث برقم (٢٩٩٩).
٣- أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، ينظر عون المعبود (١١ / ٢٣١)، وصححه الألباني برقم (٥٩٩) (٢ / ١٥٠).
٤- ينظر: فيض القدير، محمد عبد الرؤوف المناوي (٢ / ٣٥٧).

(ب) **سنة التدافع بين الحق والباطل**: فإن الله أراد لهذه الحياة الدنيا أن تكون مسرحا للصراع والتدافع بين أهل الحق والباطل، لأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته، فلن يعيش الحق والباطل في سلم، بل الصراع بينهما محتدم ومستمر والغلبة في نهاية المطاف للحق وأهله مؤكدا.

(ج) **سنة الاستدراج للظالمين والعصاة**: ومعنى هذه السنة أن الله تعالى أمهل بعض الظالمين والعاصين مدة من الزمن ثم يأخذهم بغتة وفجأة دون سابق إنذار، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. قال: ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1]، وهذا الاستدراج يكون وجها آخر لابتلاء الكفار والظالمين؛ إذْ إنّ من سنة الله عز وجل أن يُبتلي الكفار والظالمين بالبأساء والضراء رجاء أن يتوبوا إلى الله ويتضرعوا له، فلما لم تجد هذه الابتلاءات نفعا لزجرهم وتنبيههم استدرجهم الله بالنعماء حتى يظنوا أنهم على خير، وأن المستقبل مضمون لهم، فيزدادوا إثما وطغيانا، ثم يفاجئهم العذاب البئيس بما كانوا يعملون.

ثانيا: سنة التدرج: فلقد خلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض في ستة أيام، مع أنّ أمره جلّ وعلا بين الكاف والنون، وجعل خلق الإنسان والحيوان متدرجا، عبر مراحل تصل به إلى الكمال والتمام، وإلى الأجل المسمى الذي قدّره، فلا ينبغي للداعية أن يستعجل خطوة قبل أن يحين وقتها ويبلغ أجلها؛ **فالزرع مثلا**: إذا حُصد قبل أوانه، واستعجل المزارع عليه فسد ولم يُنتفع به، وإذا كان ظاهره صالحا فإنّ في باطنه الهلاك والتخمة؛ لأنّه لم يستو على سوقه، فباستحضار هذه السنة وتناغم الداعية معها يتدرج بدعوته كما تتدرج الأحداث أمامه؛ فلا يستعجل بها، ويسير بها عبر مراحل وخطوات مدروسة يراعي في كلّ

١- أخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة، باب تحريم الظلم برقم (٢٥٨٣).

مرحلة منها أن لا يتجاوز التي قبلها، ويقدر لكل خطوة قدرها حتى يصل للخطوة التي بعدها، وبذلك ينال مبتغاه ويصل إلى نهاية الطريق، وكلما كان العمل عظيمًا كانت ثمرته بطيئة وخطواته ومراحله شاقة، ولكنّه سيقوم بنيانه صلبا ومحكما، وتبليغ دين الله والدعوة إليه وخاصة في هذا العصر يحتاج الداعية فيه إلى وقت طويل يتدرج فيه ومعه لتحقيق الهدف وقطع الطريق، بحسن تماشيه مع الحاضر، واستشرافه للمستقبل[1].

وهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تؤكد على مكانة سنة التدرج وأهميتها كمنهج عام قام عليه التشريع فتقول: «إنما نزل أول ما نزل من القرآن سور من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر قالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لاتزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا»[2]، لأنّ كل مرحلة تكشف التي بعدها، وتمهد لها، ليستشرف الداعية الخطوة اللاحقة التي يقدم عليها، وفي السنة النبوية المطهرة؛ جاء التدرج واضحا جدا عند استخدام جبريل عليه السلام له عند سؤالاته المشهورة في أركان الإيمان والإسلام والإحسان وغيرها من مهمات الدين وأصوله في الحديث المشهور[3] حيث تظهر تلك الدقة المتناهية في ترتيب الأسئلة من السائل إلى المسؤول والتدرج فيها، والبداية بالأهم ثم المهم ترتيبا علميا منطقيا من الكل إلى الجزء، ومن الأصل والأساس إلى ما يكملهما ويحليهما، ومن السهل الميسور العام وهو الإسلام؛ إلى الدقيق العزيز الخاص وهو الإحسان وهكذا.

١- يقول الدكتور القرضاوي: "ولا نعني بالتدرج هنا مجرد التسويف وتأجيل التنفيذ واتخاذ كلمة التدرج "تكأة" بل نعني بها تعيين الهدف، ووضع الخطة، وتحديد المراحل، بوعي وصدق، بحيث تسلم كل مرحلة إلى ما بعدها بالتخطيط والتنظيم والتصميم، حتى تصل المسيرة إلى المرحلة المنشودة والأخيرة التي فيها قيام الإسلام، كل الإسلام". ينظر: فقه الأولويات ص (٩٢).

٢- سبق تخريجه.

٣- أخرجه مسلم في أول كتاب الإيمان في باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، وبيان التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه، برقم (٨) (١ / ٣٦).

ومنهج النبي ﷺ وسيرته أصل من أصول التأصيل الواضح الذي يتضح فيه هذا المعلم جليا وغيره، فربط الأجيال بها، وعناية الدعاة والمصلحين بها لازم[1] ولذلك كان من المهم تَتَبُّع هذا المنهج للوقوف على ما يؤصل الدعوة ويعيد للمسلمين السيادة والريادة؛ لأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها؛ ولأنّ «دراسة الهدي النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام على معرفة الطريق إلى عز الإسلام والمسلمين، من خلال معرفة عوامل النهوض، وأسباب السقوط، ويتعرفون على فقه النبي ﷺ في تربية الأفراد وبناء الجماعة المسلمة، وإحياء المجتمع، وإقامة الدولة، فيرى المسلم حركةَ النبي ﷺ في الدعوة، والمراحل التي مر بها وقدرته على مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدعوة، وتخطيطه الدقيق في الهجرة إلى الحبشة، ومحاولته إقناع أهل الطائف بالدعوة، وعرضه لها على القبائل في المواسم، وتدرُّجه في دعوة الأنصار ثم هجرته المباركة إلى المدينة»[2]. فمنهج النبي ﷺ وسنته المطهرة وسيرته العطرة مليئة بـ(**معلم التدرج**):

١- **فمراحل دعوته ﷺ وخطواتها**: دلالاتها واضحة على التدرج؛ حيث بدأ دعوته ﷺ بالمرحلة السرية، ثم بمرحلة الدعوة الجهرية، ثم مرحلة الهجرة والمفاصلة بعد ذلك.

٢- **وأفراد دعوة النبي ﷺ وأتباعها**: تدرج معهم وبهم فبدأ بدعوة نفسه ﷺ والبدء بها، ثم دعوة أهل بيته، ثم دعوة الأقربين، ثم دعوة قومه من أهل مكة على غيرهم، وهكذا.

١- ولهذا قال علي بن الحسن بن أبي طالب رحمه الله: "كنا نُعلَّم مغازي النبي ﷺ كما نُعلَّم السورة من القرآن". ويقول الإمام الزهري رحمه الله تعالى: "علم المغازي علم الآخرة والدنيا"، وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص رحمه الله تعالى: "كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ يعدها علينا ويقول هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها". ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير (٣/ ٢٥٦) وما بعدها.

٢- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد الصلابي ص (٣).

٣- **وتشريعات دعوته ﷺ وتكاليفها**: دلالاتها واضحة على منهجية التدرج ومراعاتها؛ فالبداية بالصلاة وتقديم تشريعها، ثم بالزكاة، ثم الدعوة إلى المكارم الأخلاق وهكذا الأهم فالمهم.

٤- **ووسائل دعوة النبي ﷺ وأساليبها**: دلالاتها على مراعاة التدرج ظاهرة؛ فمرحلة الظهور والتعريف (المرحلة المكيّة) كانت الدعوة فيها بالقول والبيان،ومرحلة الانطلاق والتأسيس (المرحلة المدنيّة الأولى) كانت الأولويّة فيها للجهاد والسنان، ومرحلة الاستقرار والانتشار (المرحلة المدنيّة الثانية) كانت الكتب والرسل والرسائل والبعوث، فهو ﷺ يستخدم ما يريد منها مراعيا مناسبته للظرف الزماني والمكاني الذي يحيط به، فقدّم الأساليب والوسائل وتدرج فيها؛ لأنّ لكل مرحلة ما يناسبها من الوسائل والأساليب.

المطلب الرابع: التجربة والخبرة الدعوية الطويلة:

التجربة هي: اختيار عمل لمعرفة نتائجه وإدراك ثمراته، والرجل المجرب هو الذي يعرف الأمور ونتائجها بالاختبار[١]، وصاحب الخبرة يدرك الأمور، ويعلم بخبرته ماذا سيحدث، وماذا يمكن أن يكون، وما هو الأمر الذي سيترتب على هذا الواقع في مستقبل الأيام[٢]، ومما يدل على مكانة التجربة وقيمتها لمعرفة المستقبل واستشرافه ما جاء في السنة النبويّة من حوار موسى عليه السلام مع نبينا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج في شأن الصلاة أنه جرّب قومه في الصلاة فلم يقدروا عليها وقصّروا فيها فكانت نصيحة الخبير المجرب لنبينا ﷺ أنّ هذا العدد من الصلوات في اليوم لن يقدروا عليه، وأن يسأل ربه التخفيف: «إنّ أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جرّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدّ

١- ينظر: المعجم الوسيط (جرب) (١ / ١١٤)، والمصباح المنير، (جرب)، ص (٣٧).

٢- وهذا واضح في أمور الدنيا وهو في أمور الدعوة من باب أولى، فالطبيب المتمرس صاحب الخبرة الطويلة والتجربة هو طبيب مؤهل وقادر على علاج مرضاه؛ لأنّ يستشرف مستقبل حالتهم، يعلم بالخبرة ما سيحصل لهم، وما قد يحصل في مقتبل الأيام، وكيف تتطور حالته المرضيّة.

المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك...»[1]، فالعاقل من يردّ الأمر إلى أهل الخبرة والتجربة، وغيره يذيع الأمر ولا يرده، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٨٣)، فعلى الداعية أن يحصّل هذه الخبرة **بالتواصل مع العلماء والدعاة وأهل السابقة والخبرة**، والحرص على الاستفادة منهم ومن جهودهم؛ لينال ثقتهم، لأن ثقته بنفسه وخبرته لا تكفي بل لا بد من توثيق غيره له من أهل العلم والدعوة المعروفين بسلامة المنهج، ولذلك كان السلف الصالح لا يتصدر الواحد منهم إلا بعد الشهادة والإذن له؛ يقول الإمام مالك رحمه الله: «ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك»[2]، **كما أنّه يستطيع تحصيل هذه الخبرة الدعويّة بالممارسة الدعوية الميدانية**، والتواصل المستمر والاحتكاك مع المدعوين وتلمس احتياجاتهم ومعرفة طبيعة معاناتهم، فالداعية الفقيه الذي يرغب التبصّر في استشراف مستقبل دعوته ومدعويه ينبغي أن لا ينفصل عن محيطهم، وألا يزهد في الاحتكاك بهم للوقوف على حقيقة حالهم؛ وذلك من خلال النزول إلى ميادين الدعوة، وعدم اكتفائه بالوقوف على أبراج الوعظ والتوجيه، وتحرير المسائل؛ بل لا بد من العيش بينهم **ليستشرف لهم المستقبل ويخطط له**.

والسؤال والرجوع لأهل العلم والخبرة مما يعين الداعية على تعزيز هذه الخبرة والتجربة وتحصيلهما مما يؤكد على حسن تواصله مع أهل العلم والدعوة، ومع المدعوين والناس؛ فالسؤال هو أداة العلم والمعرفة وانتقال الخبرة، ووسيلته الأولى والمباشرة والمفيدة؛ وعدم السؤال وسكوت الإنسان قد يكلفه تجارب فاشلة وآلام ومتاعب هو في غنىً عنها، فـ«العلم خزائن تفتحها المسألة»[3]، وسئل

١- أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، برقم (٣٦٧٤)، (٣/ ١٤١٠).

٢- الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي (٢ / ٣٢٥).

٣- أخرجه الدارمي في مقدمة سننه برقم (٥٤٨).

عبد الله بن عباس رضي الله عنه: «بم أدركت العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول»[1].
والسؤال هو المفتاح الحقيقي للخبرات والتجارب، وهو الطريق الأقصر لرفع الجهل، وإزالة الحيرة والتردد للوصول إلى المطلوب، فأهل الفضل والمكانة أيّا كانوا لا يستغنون عن سؤال أهل الخبرة والسابقة، وهذا لا ينقص من قيمتهم، لأنّ الرجوع للخبير؛ مما يحتاجه الصغير والجاهل، والكبير والعالم؛ هو علامة نضج وعلم وتواضع وكما قيل: «أربعة لا يأنف الشريف منهنّ وإن كان أميرًا: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته للعالم يتعلم منه، والسؤال عما لا يعلم، وخدمته للضيف»[2].

والداعية بالأخص عليه أن يهتم بهذا في دعوته ويربي مدعويه عليه؛ حتى لا توسد الأمور إلى غير أهلها ويصدّر للناس من لا يستحق، وحتى تظل الأمة متماسكة يقودها أهل العلم ويُرجع إليهم في كل صغيرة وكبيرة، يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «إذا تعين عليه السؤال فحقّ عليه أن لا يسأل إلا من هو من أهل ذلك المعنى الذي يسأل عنه»[3]، ويتأكد هذا الأمر بل يتوجب في الأمور الشرعية والدعوية الدقيقة كالمسألة التي نحن بصددها؛ استشراف المستقبل ومعرفته والسؤال عما سيقع فيه لاحقا.

والرجوع لأهل العلم وسؤالهم طريق مهم وضروري لمعرفة المستقبل واستشرافه، والسؤال والاستفهام عن كلّ ما يجهله الإنسان باب مهم من أبواب المعرفة والأمان للإنسان عموما والداعية خصوصا؛ حيث يتعرض يوميا إن لم يكن كل ساعة إلى كثير من المواقف والحالات التي يحتاج أن يسأل فيها ويرجع إلى من يصدر عنهم ويؤخذ منهم؛ ليعرف ما الخطوة المناسبة التي يلزمه الإقدام عليها

١- ينظر: تعليم المتعلم للزرنوجي ص (١٠٦).
٢- ينظر: آداب المتعلمين للدكتور أحمد الباتلي ص (١١٩).
٣- نقلا عن الإمام الشاطبي رحمه الله، وينظر: الموافقات للشاطبي (٤ / ٢٦٢).

في المستقبل معهم[1]؟

المطلب الخامس: الرؤيا الصادقة الصالحة[2]:

والرؤيا جمع مفرده رؤية، وهي كل ما يرى في المنام[3]، وتأويل الرؤيا علم من علوم الأنبياء وأهل الإيمان «وحسبك بما أخبر الله من ذلك عن يوسف - عليه السلام - وما جاء في الآثار الصِّحاح عن النبي ﷺ وأجمع أئمَّة الهُدى من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم مِن علماء المسلمين؛ أهل السنة والجماعة على الإيمان بها وعلى أنَّها حِكمة بالغة، ونعمة يمنُّ الله بها على مَن يشاء، وهي المبشِّرات الباقية بعد النبي ﷺ»[4].

ومن دلالات أهمية الرؤيا الصالحة ومكانتها أنَّها أول هذا الدِّين وآخره[5]، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «ويكفي الاعتبار بفرْع واحد من فروعه،وهو عبارة الرؤيا، فإنَّ العبد إذا نفذ فيها،وكمل اطلاعه جاء بالعجائب، وقد شاهدْنا نحن وغيرنا من ذلك أمورًا عجيبة، يحكم فيها المعبِّر بأحكام متلازمة صادقة، سريعة وبطيئة، ويقول سامعها: هذه عِلم غيب، وإنما هي معرفة ما غاب عن غيره بأسباب انفرد هو بعلمها، وخفيت على غيره. بخلاف عِلم الرؤيا، فإنَّه حق لا

١- ولقد جاءت أحاديث نبوية كثيرة بطريقة السؤال في عرض أهم القضايا التي تهم الإنسان وتشمل جميع حياته، وتكشف له حقيقة الواقع الذي يعيش فيه، والمستقبل الذي ينتظره، ولقد توسع في أهمية السؤال للدعوة والداعية الباحث في رسالته للماجستير، التي جاءت بعنوان: (فقه السؤال والجواب وأهميته في الدعوة إلى الله تعالى دراسة تأصيلية في ضوء النصوص الشرعية).

٢- الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء ولكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على ما يراه من الشر والقبيح، ويستعمل كل واحد منهما موضع الآخر. ينظر: لسان العرب، لابن منظور (حلم) (١٢/ ١٤٥).

٣- ينظر: مفردات ألفاظ القرآن للراغب، (رأى)، ص ٣٧٥، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، (رأى)، ص ١٦٥٨.

٤- التمهيد لابن عبد البر (٢٤/ ٢٩).

٥- فإنّ أول ما بُدئ به كما جاء في الحديث المتفق عليه عن أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "الرؤيا الصادقة" كما أنّها آخر الدين، كما جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه: "إذا اقترب الزمان لم تكدْ تكذبُ رؤيا المؤمن، ورؤيا المؤمن جزءٌ من ستَّة وأربعين جزءًا من النبوة، وما كان من النبوَّة فإنَّه لا يكذب". ينظر: صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، حديث رقم (٢٢٦٣) (٤/ ١٤١٥).

باطل؛ لأنَّ الرؤيا مستندة إلى الوحي المنامي، وهي جزء من أجزاء النبوة، ولهذا كلما كان الرائي أصدقَ وأبرَّ وأعلم كان تعبيره أصحَّ، بخلاف الكاهن والمنجِّم وأضرابهما ممن هم مدد من إخوانهم الشياطين، فإنَّ صناعتهم لا تصحُّ من صادق ولا بار،ولا متعبِّد بالشريعة»[1].

فالرؤيا فيها من المنافع الكثير ومن ذلك أنّها وسيلة مباشرة في استشراف المستقبل واستكشافه والتعرف عليه، وهي من إكرام الله لعبيده؛ لأنّها «قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسرّ رائيها، وإنما يريها الله تعالى للمؤمن رفقا به ورحمة ليستعدّ لنزول البلاء قبل وقوعه»[2]، يقول في أبجد العلوم: «ومنفعتُه البشرى بما يردُ على الإنسان من خير، والإنذار بما يتوقَّعه من شرّ، والاطلاع على الحوادث في العالَم قبل وقوعها»[3].

فالنبي ﷺ رغم علاقته المباشرة بالسماء، ونزول الوحي عليه صباح مساء، وهي طرق ووسائل مباشرة وموثوقة في استشراف المستقبل؛ إلا أنّه كان بعد صلاة الفجر يلتفت إلى الصحابة فيسألهم: من منكم رأى رؤيا البارحة؟ وكان في أوقات الحرج يسألهم: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ لأنّ الرؤيا الصالحة هي أحد الوسائل والنوافذ إلى قراءة المستقبل، وهي وسيلة مهمة يستأنس بها في ذلك ولا يعتمد عليها، وقد جاءت النصوص بأن الرؤيا جزء من النبوة وأنها ما تبقى من مبشرات النبوة التي أراد الله بها أن يعرف عباده ما يقع لهم في المستقبل وما يحل ببلدانهم من أحوال قال ﷺ: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»[4]، ووصفت الرؤيا بهذا «لما كان فيها من الإنباء

١- ينظر: زاد المعاد في هَدْي خير العباد، لابن القيم (٥ / ٧٨٩).
٢- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٩ / ٨٥).
٣- أبجد العلوم، لصديق بن حسن القنوجي (١ / ١٤١).
٤- أخرجه البخاري، كتاب التعبير، باب القيد في المنام، برقم (٧٠١٧) (٨ / ٩٨).

بما يكون في المستقبل على وجه يصحُّ، ويكون من عند الله عز وجل»[1]، ويكفي للتنبيه على أهميتها وتأكيد صلتها بالوحي وكونها ما تبقى من مبشرات النبوة أنّ النبي ﷺكشف الستارة ورأسه معصوب في مرضه الذي انتقل بعده إلى الرفيق الأعلى - بأبي هو وأمي - والناس صفوف خلف أبي بكر رضي الله عنه فقال: «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له»[2].

والرؤيا الصادقة هي إطلاع الإنسان على القضاء قبل أن يتحقّق فيصبح قدرًا، وجاءت سورة يوسف حاملة مجموعة من الرؤى التي كشفت المستقبل للنبي يوسف عليه السلام، وكشفت عن غيب مستقبلي يكون بعد سنين طويلة، وقد أدّى هذا الكشف إلى ما سيحدث للابن في المستقبل، مما أثّر على أبيه في طريقة تعامله معه والشفقة عليه، وظهر ذلك منه، مما أدّى إلى تآمر إخوته عليه، فكان ذلك كله مقدّمة لسلسلة من الأحداث؛ انتهت إلى تحقق الرؤيا وحصول ما كان يتوقع من الملك والتمكين، وكشف عليه السلام لصاحبي السجن في تعبير رؤاهم ما سيقدمون عليه في المستقبل بعد خروجهم من السجن، وجاء في تعبيره لرؤيا الملك المتكررة عليه والمتواترة[3] وضع تصور لخطة مستقبلية ناضجة، وتخطيط محكم للتعامل مع المستقبل.

١- المنتقى شرح الموطأ، للباجي (٧/ ٢٧٦).

٢- أخرجه مسلم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه، قال ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث أنّ معناه أنه يقول ﷺ: "أنّ الوحي ينقطع بموتي ولا يبقى ما يعلم منه ما سيكون إلا الرؤيا". ينظر: فتح الباري (١٤/ ٤٠٣).

٣- عندما تكررت رؤيا الملك كما هو واضح في سياق [إنّي أرى] يأتي تعبيرها واضحا ليكشف عن واقع سيكون، يحصل باستشرافه ومعرفته خير كثير، ودفع لضرر كبير، وعندما تتواتر الرؤى على هذا النحو فإنها لا تكذب فقد قال ﷺ: "إذا تواترت رؤى المؤمن فإنها لا تكذب". ومن ذلك ما جاء في الحديث المتفق عليه عن ابن عمر: "أنّ رجالًا من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر".

وتتأكد الاستفادة[1] من هذه الوسيلة في آخر الزمان؛ أي في عصورنا اليوم حيث تكثر المرائي، كما قال ﷺ: «إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا»[2]، ويتأكد مع ذلك معرفة الأحكام الشرعيّة المتعلقة بالرؤيا، وضوابط تعبيرها، والشخص المؤهل للتصدر لها[3].

فبعد انقطاع الوحي؛ الذي هو الوسيلة الأولى والمصدر الموثوق لكشف المستقبل، والإخبار به، وذهاب النبي ﷺ لم يبق لنا من المبشرات والنبوة إلا الرؤيا الصالحة، يسترشد بها، ويستهدي بهديها، ويستشرف بها المستقبل، كما قال ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات قالوا وما المبشرات؟ قال الرؤيا الصالحة»[4].

وعليه يجب على الداعية أن يتحرى في الرؤى وفي تعبيرها، ويقصد الخبير الصادق في ذلك، حتى يستفيد من هذه الوسيلة في استشراف المستقبل؛ لأنّها من أهم وأظهر الوسائل وأقربها من النصوص الشرعية بشرط أن تكون رؤيا صادقة صالحة لا أضغاث أحلام، يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: «أطْبَق أهلُ المِلل على أنَّ معبِّر الرؤيا يخبر عن أمور مستقبلة، ويكون صادقًا فيها»[5]، كما أنّ عليه أن يهيأ نفسه أن تكون رؤاه صادقة، حرصا على استشراف مستقبله ومستقبل دعوته؛ يقول الإمام ابن القيم: «ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال

١- والناس في موضوع الرؤيا والاستفادة منها بين طرفين وواسطة: فمنهم من: لا يؤمن بالرؤى ولا يعترف بها أصلا، وهذا مردود بالمنقول والمعقول، ومنهم من: يستغرق في الانشغال بالرؤيا ويعتمد عليها ويبالغ في الاهتمام بها وتبنيها وهي في أحسن أحوالها تسرّ ولا تغر، ومنهم: المعتدل وخير الأمور الوسط الذي يتعامل معها ويعتبرها، لكنه لا يعتمد عليها و لا يعتقد فيها، فهو غير منكر لها، ولا مبالغ فيها.

٢- أخرجه البخاري، في كتاب التعبير، باب القيد في المنام برقم (٧٠١٧) (٤ / ٣٠٣).

٣- يقول الإمام ابن القيم رحمه الله عن قلم التعبير: "وهو قلم شريف جليل، مترجم للوحي المنامي، كاشف له وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين، وهو يعتمد على طهارة صاحبه ونزاهته، وأمانته وتحرِّيه للصدق والطرائق الحميدة، والمناهج السديدة، مع علم راسخ، وصفاء باطن، وحسٍّ مؤيد بالنور الإلهي، ومعرفة بأحوال الخلق وهيئاتهم، وسيرهم، وهو من ألطف الأقلام، وأعمِّها جولانًا، وأوسعها تصرُّفا، وأشدها تشبثًا بسائر الموجودات؛ علويها وسفليها، وبالماضي والحال والمستقبل". ينظر: التبيان في أقسام القرآن ص (٢٦٧).

٤- أخرجه البخاري، في كتاب التعبير، باب المبشرات برقم (٦٩٩٠) (١٤ / ٤٠٣).

٥- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني (٤ / ٥٢٣).

والمحافظة على الأوامر والنواهي، ولينم على طهارة كاملة، مستقبل القبلة، ويذكر الله حتى تغلبه عينه، فإن رؤياه لا تكذب البتة، وأصدق الرؤيا ما كان بالأسحار فإنه وقت النزول الإلهي، واقتراب الرحمة والمغفرة وسكون الشياطين، وعكسه رؤيا العتمة عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية»[1].

والرؤيا الصادقة وأهميتها في المعرفة واستشراف المستقبل وصناعته موضوع يحتاج إلى مزيد من الدراسة والنظر، ولعلّ في العلاقة بينها وبيّن النبوة أنّ في كل منهما أسرارا وعلوما من الغيب والمستقبل.

المطلب السادس: توفيق الله تعالى وتسديده بالدعاء والاستخارة والتوكل عليه واللجوء إليه:

وفي سياق الكلام عن توفيق الله تعالى وتسديده، وكشفه للداعية مستقبل أيامه وما سيقع من أحداث ومتغيرات، فالتأكيد هنا على أهمية الأخذ بالوسائل والأسباب[2] المادية المباشرة المحسوسة كالنصوص الشرعية، والاجتهادات العلمية من أهلها، والنظر في السنن الكونية والاعتبار بها، والتجربة والخبرة الميدانية، والرؤيا الصالحة يراها الداعية أو ترى له، فإنّ الأسباب والوسائل المعنوية لاستشراف المستقبل ومعرفته والكشف عنه ينبغي أن تكون حاضرة، وعلى رأس تلك الوسائل والأسباب المعنوية توفيق الله تعالى بصدق اللجوء إليه، وإخلاص الدعاء له، وهذه المعاني السامية لا تنافي الأخذ بالأسباب والوسائل كما يظنه البعض، بل هي قبل الأسباب، وبعد الأسباب، ومن أقوى الأسباب، وعلى رأسها الدعاء فهو العبادة[3].

١- مدارج السالكين، لابن القيم (١ / ٧٦).

٢- ينظر شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز ص (٤٥٩).

٣- قال الإمام ابن القيم: "فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة. لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به،فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سببا، ولا جعل دعاءه سببا لنيل شيء فقد وقع في الوهم الباطل، فإن الله سبحانه وتعالى قضى بحصول الشبع إذا أكل المرء، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو". ينظر: مدارج السالكين (٢ / ١١٨).

فمما يُعين الداعية إلى الله على معرفة المستقبل، ويساعده في استشرافه توفيق الله تعالى له وتسديده في ذلك؛ وذلك بحسن نيته وتصحيحها، وإخلاص مقصده، وكثرة دعائه وطلبه العون والتوفيق من الله، وذلك أنّ الدعاء هو طلب، والطلب متوجه للمستقبل، فالداعي يتلمس المستقبل ويقصده، والمستقبل المغيب هو إما نفع متوقع أو ضرّ متوقع «والدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع، ودفع المضار»[1].

والدعاء أصل مهم لتحصيل الصواب ونوال السداد، وتسهيل القادم، ووضوح الرؤية، وإدارة المستقبل ولذلك كان من دعائه ﷺ في استفتاح صلاة الليل: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك؛ إنّك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». ويؤكد الإمام ابن القيم رحمه الله هذا المعنى لكلّ من يقوم بدور مهم كالدعوة والتوجيه والفتوى ونحوها: «ينبغي للمفتي الموفق إذا نزلت به المسألة أن ينبعث من قلبه الافتقار الحقيقي الحالي لا العلمي المجرد، إلى ملهم الصواب ومعلم الخير وهادي القلوب أن يلهمه الصواب ويفتح له طريق السداد، ويدله على حكمه الذي شرعه لعباده في هذه المسألة»[2].

ويتفرع عن الدعاء من وسائل استشراف المستقبل ومعرفته «**الاستخارة**»[3] لأنّها تتعلق بالمستقبل؛ والداعية بحكم مسؤولياته وما يتصدر له من مهام وتبعات، كما أنّه كغيره من الناس، قد يعتريه القلق، وتتداخل عنده الرؤى والاجتهادات، فيقع في الخوف من المستقبل المجهول الذي يترقبه، ويتردد مرات ومرات، فهل يقدم على هذا الفعل؟ أم على غيره؟ وهل الأولى الإقدام أصلا عليه؟ أم الإحجام عنه؟ فشرع الله له في مثل هذه الحالات وعند هذه المواقف الاستخارة، لتكشف

١- ينظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز ص (٤٥٩).
٢- ينظر: إعلام الموقعين، لابن القيم (٤/ ١٣١).
٣- ينظر: إعلام الموقعين، لابن القيم (٤/ ١٣١).

له بصيصا من المستقبل الذي ينتظره، وتساعده على الاطمئنان بما سيختاره الله تعالى له، ويقدم عليه، فعن جابر ﷺ قال: «كان ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها يقول: «إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم يقول اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علاّم الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال في عاجل أمري وآجله فاقدره لي، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به ويسمي حاجته»[١]. فمن هذا الدعاء ((وعاقبة أمري)) والعاقبة هي المستقبل، فدعاء الاستخارة مسلك شرعي، وطريق سليم، ووسيلة مشروعة، تؤكد أنّ في الحلال ما يُغني عن الحرام، فقد حرم الله تعالى على عباده الاستقسام بالأزلام وعوضهم عنه بذلك الدعاء[٢].

يقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله: «لما كانت الدلائل والبينات تتعارض في بعض الأمور، والترجيح بينهما يتعذّر في بعض الأحيان، فيريد الإنسان الشيء فلا يستبين له الإقدام عليه خير أم تركه، فيقع في الحيرة؛ جعلت له السنة مخرجا من ذلك بالاستخارة حتى لا يضطرب عليه أمره، ولا تطول غمّته»[٣]. والدعاء طريق لمعرفة شيء من علم الله، ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ (البقرة:٣٢).

١- أخرج البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة برقم (٦٣٨٢) (١١ / ١٨٣).

٢- فإنّ من محاسن الشريعة الإسلامية، أنها لم تحرم شيئًا إلا عوضت خيرًا منه، مما يسد مسده، ويغني عنه، فالله تعالى، لم يضيق على عباده من جانب، إلا وسَّع عليهم من جانب آخر، من جنسه، لأنه حاشاه لا يُريد بعباده العنت والرهق، بل يُريد بهم اليُسرَ والرحمة، وقد بين ابن كثير رحمه الله أن الله حرّم الاستقسام وما شابهه، وأمر المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه. ينظر: تفسير القرآن العظيم له (٢ / ١٨).

٣- ينظر: تفسيره المنار، (٦ / ١٥٢) عند تفسيره للآية الثالثة من سورة المائدة.

نسأل الله أن يحسن خاتمتنا، وأن يجعل عاقبتنا إلى خير، وأن يجعل المستقبل لهذا الدين (آمين).

الخاتمة وأهم النتائج والتوصيات

وفي الختام أحمد الله تعالى على التمام وأسأله حسن الختام،وأن يجمعني في الجنّة مع نبينا محمد ﷺوصحبه الكرام، ومن سار على هديه واتبع سنته من الأنام، كما أسأله أن يجيب دعوتي، ويستر عورتي، ويغفر زلتي

وأخيرًا فإني أحمد الله عز وجل الذي منّ عليّ بإتمام هذا الدراسة، وحضوري في هذه الندوة المشهودة فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان والله ورسوله منه بريئان، والعذر في ما بذلته من الجهد، وقضيته من الوقت في التفرغ والجمع والتأصيل، والمطالعة والاستفادة في الكتب والمسائل، وبعد هذه الجولة الشيقة والماتعة والمتشعبة في (**أهمية استشراف المستقبل والتخطيط له وحاجة الدعوة والداعية إليه وأهم وسائل وطرق ذلك**) وتأصيل هذا الموضوع، وإبراز ما فيه من المعاني والمعالم والدلالات، فأختصر هنا أهم التوصيات التي تمخضت من خلال هذه الدراسة ونتائجها، والجهد المتواضع فيها، **وهي**[1]:

١- يوصي الباحث نفسه وطلاب العلم وجميع المسلمين بتقوى الله عز وجل، ويدعوهم إلى التمسك بدين الله، والقبض على دينهم وخاصة في هذه الأيام فإنّ القابض على دينه كالقابض على الجمر، ومن اتقى الله والتزم بأوامره ونواهيه؛ فقهه الله في الدين ووفقه لكلّ خير، وأعانه على استشراف المستقبل ومعرفته، فالعلم من الله تعالى: ﴿ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾(البقرة:٣٢). وأصل ذلك كله تحقيق الإيمان في القلوب، ومعرفة أن الله تعالى استأثر بمعرفة الغيب فلم يطلع عليه أحد إلا من ارتضى من رسول، وأنّ أيّ ادعاء بعلم الغيب مردود، مع التأكيد أنّه لا يجوز أن يجزم ببعض أمور الغيب إلا الرسول ﷺ بالوحي إليه، وكل

١- واكتفيت بسبعة تيامنا بهذا الرقم الذي ورد في كثير من نصوص السنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ والسلام.

معرفة يصل إليها غيره ﷺ فهي معرفة ناقصة وجزئية لا يقطع بها، ولا يعتمد عليها، بل يستأنس بها، ويؤكد الباحث أنّ من كمال الإيمان وتحقيقه محاربة السحر والشعوذة والكهانة والعرافة وكلّ ما يفضي إلى الشرك من الوسائل والأساليب غير المشروعة في استشراف المستقبل ومعرفته واستكشافه.

٢- يوصي الباحث نفسه وجميع الباحثين، والدعاة العاملين بزيادة الاهتمام والعناية بهذين المصدرين الجليلين والوحيين المليئين **(الكتاب والسنة)** والردّ إليهما في كلّ صغيرة وكبيرة، ليفتح الله على كلّ من يبحث ويوفق كلّ من يدعو قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء: ٨٣)، فعلمهما لا يتناهى ولا تنقضي عجائبه، ولا ينقص مع كثرة الأخذ، وفيهما الكفاية، وبالعيش معهما وخوض غمارهما، يقف الداعية بإذن الله على ما يصلح له دنياه وآخرته، وتفتح عليه كنوز العلم والمعرفة والمستقبل؛ ولا أدلّ على ذلك من تلك المعالم والمعاني والدلالات التي ظهر جزء قليل منها في دراستنا حول المستقبل والتخطيط له واستشرافه ووسائل معرفته واستكشافه، وبغير العلم الشرعي الأصيل المعتمد على الكتاب والسنة، فلا معنى للدعوة بل إنّ الخوض في غمار الدعوة وميادينها؛ بدون علم يترتب عليه من الآثار الوخيمة مالا تحمد عقباه، وإنّ تقصير الداعية في العلم والتعلم نذير خطر يهدده ويهدد دعوته، وذلك لأن: «العامل على غير علم كالسالك على غير طريق والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح»[1].

٣- يوصي الباحث نفسه وإخوانه الباحثين، والجامعات، ومراكز البحث العلمي، والمهتمين بالدراسة والتأصيل، الاهتمام بـ بالفقه في الدين عموما، والفقه في الدعوة على الخصوص لمن أراد أن يمارسها، ويقتحم ميادينها؛ لأنّه بهذا

١- مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١ / ١٣٠).

الفقه الدعوي من خلال النصوص الشرعية، والتجارب الشخصيّة، والسنن الكونيّة، يحقق البصيرة في الدعوة المطلوبة شرعا: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨)، ولا تحصل هذه البصيرة المأمور بها والتي هي علامة الإتباع إلا بالعلم والفقه في الدين، وبذلك تُثمر الدراسات الدعويّة نتائجها المرجوّة وتؤتي الجهود الدعوية أكلها المطلوب، وقبل ذلك وبعده تُحمد الطريقة، ويتمّ الاقتداء ويشكر في هذه السياق القائمين على هذه الندوة،وهذه الكلية لدورهم التاريخي والمستقبلي إن شاء الله في ذلك.

٤- يوصي الباحث نفسه وجميع العاملين في مجال الدعوة إلى الله تعالى؛ الاهتمام والتفقه في المستقبل ودراساته، لأنّ المستقبل هو الحياة القادمة كلها، وهو الوعد القريب إن شاء الله بالنصر والتمكين، ولكن العناية والاهتمام بهذا الفقه المستقبلي والدراسات الاستشرافيّة ينبغي أن يكون باعتدال، وأن يقدر بقدره، وأن لا يحصل الاندفاع والمبالغة في هذه الدراسات وهذا الاستشراف كما هو في الغرب، الذي لا تملك ثقافته الأدوات والوسائل الموثوقة لاستشراف المستقبل واستكشافه، أما في الثقافة الإسلامية؛ فلقد اهتمت نصوص الوحي به، وبقدر معلوم يدفع كل واحد منّا إلى استشراف مستقبله، والتخطيط لحياته؛ ليكون بعيد النظر، ممتدا بحياته في الدنيا إلى الحياة الأخرى، ويفتح المجال للاستشراف والتوقع المشروع المضبوط.

٥- يوصي الباحث نفسه وجميع المهتمين بالدراسات الدعويّة؛ أن يدركوا أهمية نصوص السنة النبوية ودراستها عموما، وما يخص المستقبل واستشرافه خصوصا، لأنّه أصبح اليوم ضرورة شرعية وحياتية، بل هو قبل ذلك وبعده حاجة فطرية، وسنة كونية لا يستغني عنه الجميع ، ومضامين هذا البحث كلها دالة على ذلك، وهدي الرسول ﷺ بالمستقبل واستشرافه والتشمير والتخطيط

له، كلّها تدفع لذلك؛ رغم أنّه ﷺ سيد المتوكلين، وفي ذلك وغيره تأكيد على أتباعه من الدعاة إلى الله أن يقتدوا به، وأن لا يقفوا مكتوفي الأيدي - موقفا سلبيا - من المستقبل ومتغيراته و أحداثه التي ستحل بدارهم **(وكلّ ما هو آت قريب)**.

٦- يوصي الباحث نفسه وجميع المهتمين بالعلم والدعوة الاجتماع على كلمة سواء على مائدة السنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ والسلام، للتشاور والتدارس وتبادل الخبرات حول واقع الدعوة ومستقبلها، وكل ما يهم نشر الإسلام وتمكينه، ونصرة المسلمين وعزّتهم، سائسهم ودليلهم الذي يسترشدون به في ذلك هو الوحي، والمحجة البيضاء، وليثقوا بالله تعالى، ويطمئنوا بما لاشك فيه؛ **أنّ الأمر لله من قبل ومن بعد، وأنه في نهاية المطاف ستكون العاقبة للمتقين، والمستقبل لهذا الدين**.

٧- يوصي الباحث باستشراف المستقبل والتخطيط له، وإعطائه مزيدا من النظر والمراجعة من خلال عقد مؤتمرات وندوات دوريّة في ذلك، يجمع لها أهل العلم الثقات من الفقهاء المتمكنين، والدعاة المصلحين العاملين، ليخرجوا برؤية مشتركة حول أولويات الدعوة في كلّ مجال من مجالاتها، وفي مختلف ميادينها ومشاركاتها في مستقبلها القريب والبعيد، كما يوصي الكليات الشرعية المتخصصة، وخاصة كليات الشريعة والدراسات الإسلامية والدعوة، بإعطاء مزيد من الدراسات لاستشراف المستقبل والتخطيط له، من خلال المحاضرات، والدروس، والبحوث، والمواد المقررة، والحاجة في نظري ماسّة؛ إلى تقرير مادة دراسية تعني بـ: **(استشراف المستقبل والتخطيط له وحاجة الدعوة والداعية إليه)**.

المصادر والمراجع

- أبجد العلوم، لصديق بن حسن القنوجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
- الاجتهاد الجماعي في التشريع الإسلامي، لعبد المجيد السوسوة، كتاب الأمة عدد رقم (٦٢).
- آداب المتعلمين، للدكتور أحمد الباتلي، دار القاسم، الرياض، ١٤١٨هـ.
- أساس البلاغة، للزمخشري، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.
- أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، لحمد بن ناصر العمار، دار إشبيليا، الرياض، ١٤١٨هـ.
- أصول الدعوة، لعبد الكريم زيدان، ط٥، دار الوفاء، مصر، ١٤١٢هـ.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.
- الاعتصام، للشاطبي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- إعلام الموقعين عن ربّ العالمين، لابن القيم، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٧هـ.
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
- تحفة الأحوذي، للمباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.

- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة، ط٣، دار المعاني، عمّان، ١٤١٩هـ.

- التعريفات، الشريف علي الجرجاني، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ١٤٠٣هـ.

- تفسير القرآن العظيم، للإمام ابن كثير، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ.

- التفسير الكبير المسمى (مفاتيح الغيب)، للرازي، ط٢، دار الفكر، مصر، ١٤٠٣هـ.

- تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.

- تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

- تهذيب سنن أبي داود، لابن القيم، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.

- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، ط١مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١١هـ.

- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ.

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للبغدادي، طبعة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ.

- خطبة الجمعة ودورها في تربية الأمة، لعبد الغني جبر، ط١، ١٤٢٢هـ.

- الدراسات المستقبلية من منظور تربوي، لفاروق فلية، وأحمد عبد الفتاح، دار المسيرة للطباعة والنشر، ٢٠٠٣م.
- الدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية، لعبد الله محمد المديفر (بحث ماجستير غير منشور).
- الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، لأحمد أحمد غلوش، ط٢، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
- الدعوة إلى الله (الرسالة - الوسيلة - الهدف)، لتوفيق الواعي، ط٢، دار اليقين، المنصورة، مصر، ١٤١٦هـ.
- الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة، للشيخ ابن باز، طبعة الدار السلفية، الكويت، ١٤٠٤هـ.
- الدعوة قواعد وأصول، لجمعة أمين عبد العزيز، ط٢، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٤٠٩هـ.
- دلائل النبوة، للإمام البيهقي دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- الرد على المنطقيين، لابن تيمية ص (٣٧٢)، ط١، دار ترجمان السنة، لاهور باكستان، ١٣٩٦م.
- الرسالة، للإمام للشافعي، تحقيق أحمد شاكر، ط١، مطبعة الحلبي، مصر، ١٣٥٨هـ.
- الروح، لابن القيم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.
- زاد الداعية إلى الله، لمحمد العثيمين، إعداد فهد السليمان،ط٣، دار الوطن، الرياض، ١٤١٣هـ.

- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، ط١٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ.

- سر تأخر العرب والمسلمين، للشيخ محمد الغزالي، ط١، دار القلم، دمشق، ١٤٢١هـ.

- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٩هـ.

- سنن أبي داود، للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني، طبعة دار الفكر، بيروت.

- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، الدكتور عبد الكريم زيدان.

- سنن الترمذي، للإمام أبي عيسى محمد بن سورة، ط٢، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

- سنن الدارمي، للإمام عبد الله الدارمي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.

- سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، ط٩، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ.

- شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤هـ.

- شرح صحيح مسلم، للإمام النووي، ط٣، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م

- الصحوة الإسلامية، لمحمد قطب، ط١، مكتبة السنة، القاهرة، ١٩٩٠م.

- الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، للدكتور يوسف القرضاوي، دار الشروق، ٢٠٠٢م.
- صحيح الجامع الصغير، للألباني، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٨٨هـ.
- صحيح سنن الترمذي، للألباني، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- صفات الدّاعية، لحمد بن ناصر العمار، ط١، دار إشبيليا، الرياض، ١٤١٧هـ.
- الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، ط٣، دار العاصمة، ١٤١٨هـ.
- عارضة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبي بكر بن العربي،دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.
- العلاقة بين الفقه والدعوة، مفيد خالد عيد، ط١ مكتبة دار البيان، الكويت، ١٤١٦هـ.
- عن المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة، أحمد صدقي الدجاني، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.
- عون المعبود شرح سنن أبي داوود، للعظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر، ط١، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م،.
- فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني، ط١، دار أحياء التراث بيروت، ١٤١٨هـ.

- الفروق، للإمام القرافي، دار المعرفة، بيروت.
- فضل الدعوة إلى الله، لفضل إلهي، من مطبوعات الجريسي، الرياض، ١٤٢٠هـ.
- فقه الأولويات الدعوية دراسة تأصيلية تحليلية، لعلي الطالب الشنقيطي (دراسة دكتوراه للباحث غير منشورة).
- فقه الأولويات دراسة في الضوابط، لمحمد الوكيلي، ط١، من مطبوعات المعهد العالي للفكر الإسلامي، ١٤١٦هـ.
- فقه الدعوة إلى الله، لعبد الرحمن حبنكة الميداني، ط١، دار القلم، دمشق، ١٤١٧هـ.
- فقه الدعوة إلى الله، لعلي عبد الحليم محمود، ط٣، دار الوفاء، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- فقه السؤال والجواب وأهميته في الدعوة إلى الله تعالى، لعلي الطالب الشنقيطي (دراسة ماجستير للباحث غير منشورة).
- فقه الموازنات الدعويّة معالمه وضوبطه، لمعاذ البيانوني، ط١،من مطبوعات شركة الإبداع الفكري، الكويت، ١٤٢٦هـ.
- الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام، ١٤١٧هـ.
- في فقه الأولويات دراسة في ضوء القرآن والسنة، ليوسف القرضاوي، ط٢، مكتبة وهبة، مصر، ١٤١٦هـ.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ.
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي.

- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام.
- قواعد الدعوة إلى الله، لهمام عبد الرحيم سعيد، ط٣، دار الوفاء، مصر، ١٤١٢هـ.
- لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت.
- مجمع الأمثال للميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ.
- مجموع الفتاوى، لابن تيمية، جمع وترتيب محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، طبعة مكتبة المعارف، الرباط.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- المدخل إلى علم الدعوة، لمحمد أبو الفتح البيانوني، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٤١٢هـ.
- المستقبل الحق خطواته من الدنيا إلى الجنة، محمد جميل مصطفى، ط١، دارة المنارة، جدة، ١٤١٩هـ.
- معالم السنن شرح سنن أبي داود، للخطابي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ.
- المعجزة الخالدة، حسن ضياء الدين عتر، ط٢.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، ط٤، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٤م.

- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، بتحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، للإمام ابن القيم، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
- المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني، تحقيق: محمد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- مناهج الدراسات المستقبلية وتطبيقاتها في العالم العربي، وليد عبد الحي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث.
- منهج الدعوة إلى الله على ضوء وصية النبيﷺ معاذ رضي الله عنه، لعبد الرحيم المغذوي، ط١، دار إشبيليا، الرياض، ١٤٢٠هـ.
- الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، تحقيق، عبد الله درّاز، دار المعرفة، بيروت.
- نبوءات الرسول ﷺ ما تحقق منها وما يتحقق، محمد ولي الله عبد الرحمن الندوي، ط٦.
- نحن والمستقبل، قسطنطين زريق، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت١٩٨٠، م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة.
- وسائل الدعوة، لعبد الرحيم محمد المغذوي، ط١، دار إشبيليا، الرياض، ١٤٢٠هـ.

الموارد البشرية في السنة النبوية
منهج نحو استشراف المستقبل

د. حكيمة حفيظي
كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسطنينة، الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وبعد،

فإن إدارة الموارد البشرية، تعني باختصار، الاستخدام الأمثل للعنصر البشري المتوفر، والمتوقف على مدى كفاءة هذا العنصر وقدراته وخبراته وحماسه للعمل؛ فالإنسان هذا المخلوق الذي خصّه الله سبحانه وتعالى من بين سائر المخلوقات بالتكريم، والتفضيل، والتبجيل، وجعله خليفة في الأرض يعدّ استثمارا أمثل لتحقيق عبادة الله عز وجل، وتعمير الأرض؛ إذا أحسنّا استغلاله، وتوظيف قدراته. من أجل ذلك اهتم علماء الإدارة، بوضع المبادئ، والأسس التي تساعد على الاستفادة القصوى من العنصر البشري في إدارة الأعمال والمؤسسات، هذه الأسس التي تبدأ من التخطيط، والاختيار، والتدريب، والحوافز، والتقييم، وكل ما له صلة بالعنصر البشري[1].

ونحن نشهد اليوم اهتماما متزايدا من المجتمع الدولي، بالعنصر البشري، لكونه عاملاً فعّالاً في إدارة التنمية، والإنتاج على مختلف المستويات، كما نشهد أموالا طائلة تصرف، ودورات تدريبية تقام هنا وهناك، من أجل الاستثمار الأمثل لهذا العنصر، ومن أجل دفع مسار التنمية؛ فها هي ماليزيا مثلا، بفضل اهتمامها بالفرد، تنتقل من دولة زراعية، بدائية، إلى دولة متقدمة، تحتل المرتبة التاسعة عالميا بين الدول المصدرة للتقنية العالية، وذلك بمعدل نمو سنوي يناهز ٨٪، وقد بلغ

١- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، ص ١، ٠١:٥٤، ٢١ أغسطس ٢٠١٠. بتصرف غير يسير.

الناتج القومي الخام للفرد فيها سنة ٢٠٠٣ حوالي ٣٤٠٠ دولار أمريكي[١]، وبلغ حاليا نحو ٧ آلاف دولار، وتسعى الحكومة إلى زيادته إلى ١٥ ألف دولار بحلول عام ٢٠٢٠ [٢].

وتطل علينا الندوة العلمية الخامسة، بموضوع الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية، الذي أراه يتعلق بما ذكرته سابقا إلى حد كبير؛ ذلك لأني وقفت في كتب السيرة المصطفوية، وكتب السنة المحمدية، على محطات كثيرة، وتوجيهات جليلة، يتبين لنا من خلالها، منهج النبي ﷺ في اهتمامه بالعنصر البشري؛ من حيث التربية، والتعليم، والإجازة، وتوجيه القدرات، واستثمار الطاقات، وتنمية الملكات، وترشيد المهارات...الخ.

فما الذي دفع النبي ﷺ في بداية الدعوة السرية، إلى اختيار دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه[٣]، دون غيرها من دور الصحابة؟ هل لأنها تقع على الصفا، كما جاء في كتب السيرة، أم لأن الحجيج يترددون على هذه المنطقة في مواسم الحج والعمرة، فيمر من بينهم الصحابة، دون أن يلتفت أحد من المشركين لأمرهم؟ أم لأنها تقع في موضع استراتيجي، يتناسب مع بدايات الدعوة؟

وما الذي جعل النبي ﷺ يكلف عليا رضي الله عنه، دون غيره من الصحابة

١- المرجع السابق.

٢- مقتبس من مقال «ماليزيا تسعى جاهدة لاستعادة عقولها المهاجرة، المنشور بتاريخ: ٠٤ / ١٠ / ٢٠١٠، ص١، في حين أن متوسط الفرد في سنغافورة يدور حول ٣٧ ألف دولار، ويقول نائب رئيس وزراء ماليزيا، ووزير التعليم العالي، السيد محي الدين ياسين: «إن ماليزيا بحاجة إلى تحقيق معدل نمو اقتصادي سنوي بنسبة ٦٪ خلال عشر سنوات المقبلة، لتحقيق هدفها لعام ٢٠٢٠، ويضيف: إن وجود قوة عاملة تمتلك المهارات المناسبة هو شرط مسبق.

٣- ينظر: الأنوار الكاشفة في سيرة النبي المختار، سليمان بن محمد اللهيميد، ١ / ٢١، وانظر غير مأمور صفي الرحمن المباركفوري، وهو يحلل تحليلا حسنا، نستشف منه بعض الملامح من منهج النبي ﷺ في هذا الاختيار قال: «كانت هذه الدار في أصل الصفا، بعيدة عن أعين الطغاة ومجالسهم، فاختارها رسول الله ﷺ ليجتمع فيها بالمسلمين سرا، فيتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وليؤدي المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله، وهم في أمن وسلام، وليدخل من يدخل في الإسلام، ولا يعلم به الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة»، الرحيق المختوم، ص٩٧.

لينام على فراشه[1]، ثم يؤدي عنه الودائع والأمانات، عند هجرته من مكة إلى المدينة ؟ وما الذي جعله يكلف بلالا[2] للأذان، دون غيره من المؤمنين ممن كان يتمتع بصوت ندي؟ وما الذي جعله يكلف مصعب بن عمير رضي الله عنه[3]، دون غيره من الصحابة، للقيام بمهمة الدعوة في المدينة قبل الهجرة؟ وما الذي جعله يختار السفراء الذين أرسلهم لتبليغ الدعوة إلى الملوك والأمراء، هم دون غيرهم من الصحابة؟ وما الذي دفعه إلى تأمير فلان دون فلان في هذه الغزوة أو تلك؟ ألم يتقدم أبو ذر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ليستعمله، فضرب بيده على منكبه ثم قال له: «يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»[4].

هذه وغيرها من التساؤلات، جعلتني أميل إلى المشاركة في هذه الندوة، إن شاء الله تعالى، بموضوع ، أحاول فيه إبراز ملامح من منهج النبي ﷺ في توجيه الطاقات البشرية، واستثمار القدرات الفردية، من خلال ضرب الأمثلة ببعض النماذ ج من أشبال الصحابة خاصة، ومن بين الأسباب التي دفعتني إلى الكتابة في هذا الموضوع أيضا:

١- ينظر: سيرة ابن كثير، ٢ / ٢٣٩.

٢- روى البخاري في مواقيت الصلاة، باب بدء الأذان، وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ المائدة: ٥٨، ٢ / ٧٧، وفي باب الأذان مثنى مثنى، ٢ / ٨٣، من حديث أنس قال: ذكروا النار والناقوس، فذكروا اليهود والنصارى، فأمر بلال أن يشفع الأذان وأن يوتر الإقامة. و له شاهد فيما رواه النسائي من حديث أبي محذورة قال: لما خرج رسول الله ﷺ من حنين، خرجت عاشر عشرة من أهل مكة نطلبهم، فسمعناهم يؤذنون بالصلاة، فقمنا نؤذن لنستهزئ بهم، فقال رسول الله ﷺ: «قد سمعت في هؤلاء تأذين إنسان حسن الصوت، فأرسل إلينا، فأذنّا رجل رجل، وكنت آخرهم فقال حين أذنت: تعال، فأجلسني بين يديه، فمسح على ناصيتي، فبرك علي ثلاث مرات، ثم قال: اذهب فأذن عند البيت الحرام... الحديث، كتاب الأذان، باب الأذان في السفر، ٢ / ٧، قال المباركفوري في التحفة، ١ / ٤٨١، في شرح قوله (وأمد صوتا منك): «وفيه دليل على اتخاذ المؤذن رفيع الصوت، وجهيره». إن القصد من ذكر هذه النصوص، هو التدبر، والتمعن في فعل رسول الله ﷺ وهو يختار الكفاءات، ويوجهها إلى ما يتناسب مع مهاراتها، وهو عين الاستشراف، وبعد النظر.

٣- ينظر: الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، ص ١٣٨، و فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، ص ١١٧.

٤- رواه مسلم في الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ص ٧٣٢.

- منهج النبي ﷺ في توجيه الأمة إلى الأخذ بأسباب التقدم والرقي.
- بعد النظر الذي كان يتمتع به رسول الله ﷺ وهو المؤيد بالوحي، في اختيار الكفاءات، وتوجيه الطاقات إلى ما يتناسب مع قدراتها.
- أهمية الاستشراف في الدراسات الإستراتيجية، والمستقبلية، في هذا العصر؛ ونحن نعيش في عالم تتسارع فيه الأحداث، تقتضي فلسفة النجاح فيه تحديد الأهداف، والسعي بخطى مدروسة نحو تحقيقها.
- ظهور ما يسمى اليوم بعلم إدارة الموارد البشرية، ومحاولتي النظر في أصوله في مدرسة النبوة.
- استعانة دول كثيرة في العالم اليوم، بالتخطيط المستقبلي، من أجل دفع مسارات التنمية، والنظر في أصوله في منهج النبوة.

حدود البحث: إن المتتبع منهج النبي ﷺ من خلال قراءة متأنية في كتب الرواية، وكتب السيرة النبوية الشريفة، يجد نفسه أمام منهج كامل متكامل، فيما يتعلق بالاستشراف، والتخطيط المستقبلي؛ فيما يختص باختيار الكفاءات، واستثمار الطاقات، وتوجيه القدرات، وترشيد المهارات، وغيرها، مما لا يستطيع هذا البحث إيفاءه حقه، لهذا سوف أقتصر على ذكر بعض النماذج، بالتركيز على أشبال الصحابة رضي الله عنهم خاصة، بعد التعريف بإدارة الموارد البشرية، وتاريخ ظهوره، وأهميته.

صعوبات البحث والجديد فيه: لعل أهم صعوبة واجهتني في هذا البحث، هي ندرة المراجع؛ إذ لم أقف في حدود إطلاعي على من كتب في موضوع علاقة إدارة الموارد البشرية بمنهج النبي ﷺ في استشراف المستقبل، وبيان منهجه في اختيار الكفاءات، واستثمار الموارد البشرية، وتدريبها، وتوجيهها، ومكافأتها؛

ولهذا كانت مصادري فيه، كتب السنة، وكتب السيرة، وكتب التراجم، مع الاستفادة مما كتب في إدارة الموارد البشرية، وهو كثير، ثم الاجتهاد في التنسيق، والتحليل، والربط، والاستنتاج؛ فالجديد في هذا الموضوع، يكمن في محاولة بيان منهج النبي ﷺ في صناعة الرجال، واختيار الكفاءات، وتعليمها...الخ، وفي كيفية الاستفادة من هذا المنهج، والاقتداء به في إحياء الأمة، والعودة بها إلى المسار السليم، من خلال التمسك بالقرآن والسنة النبوية الشريفة؛ لإيماني بأن آخر هذه الأمة لن يصلح إلاّ بما صلح به أولها[1]، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ»[2].

وحتى أحقق الأهداف المنشودة من كتابة هذا البحث، أو أقترب منها، قسمته إلى مبحثين:

- المبحث الأول: إدارة الموارد البشرية من حيث: تعريفها، وتاريخ ظهورها، وأهميتها. ولم أتوسع فيه، لأن البحث يهدف إلى إبراز الجوانب الاستشرافية في السنة النبوية فيما يتعلق بإدارة الموارد البشرية، ومنهج النبي ﷺ فيما يتعلق ببناء الرجال، وتسيير الكفاءات، وتوجيهها، وترشيدها.

- المبحث الثاني: الموارد البشرية في السنة النبوية منهج نحو استشراف المستقبل، وقسمته إلى العناصر الآتية:

١- صنع الكفاءات في المدرسة النبوية.

٢- تعليم الكفاءات في المدرسة النبوية.

٣- توجيه القدرات، وترشيد الكفاءات في المدرسة النبوية.

١- قول مأثور عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله، ذكره ابن عبد البر في التمهيد، ٢٣ / ١٠.

٢- طرف من حديث رواه الترمذي في العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدع، من طريق العرباض بن سارية رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، ٥ / ٤٤.

٤- اختيار القيادات في المدرسة النبوية.

٥- تحفيز الكفاءات في المدرسة النبوية

المبحث الأول: إدارة الموارد البشرية.

المطلب الأول: تعريفها في المصطلح.

عُرِّفت الموارد البشرية بتعريفات كثيرة، ومتنوعة، تتفق في نظري، في أنها عبارة عن جملة من الإجراءات، والتدابير المساعدة على تنظيم الأفراد، للحصول على أقصى فائدة ممكنة من الكفاءات البشرية، والاستغلال الأمثل لقدراتهم، من خلال وظائف التخطيط، والاستقطاب، والاختيار، والتعيين، والتدريب، والتقويم، والحوافز المادية والمعنوية[١].

عرفها الخزامي بقوله: «إنها جذب وتنمية الأفراد الذين يمتلكون المواهب، والخيال اللازمين للشركات، لكي تتنافس في بيئة متغيرة ومعقدة»[٢]، وذهب النمر وآخرون إلى القول: «هي فن اجتذاب العاملين، واختيارهم، وتعيينهم، وتنمية قدراتهم، وتطوير مهاراتهم، وتهيئة الظروف التنظيمية الملائمة من حيث الكمّ، والكيف، لاستخراج أفضل ما فيهم من طاقات، وتشجيعهم على بذل أكبر قدر ممكن من الجهد والعطاء»[٣].

المطلب الثاني: نبذة تاريخية عن إدارة الموارد البشرية.

ترجع بدايات إدارة الموارد البشرية إلى القرن الثامن عشر، عندما فكر بعض الحرفيين في تشكيل نوع من النقابات، مطالبين بتحسين ظروف عملهم، خاصة مع بداية ظهور الثورة الصناعية في أوربا، التي ساهمت في إظهار الحاجة إلى وجود

١- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، ص ٢.
٢- إدارة الموارد البشرية إلى أين التحديات التجارب والتطلعات، ص ١٧.
٣- الإدارة العامة، الأسس والوظائف، النمر سعود وآخرون، ص ٢٤٦.

إدارة الموارد البشرية في المصانع والمنشآت.

وفي الحرب العالمية الأولى، ظهرت الحاجة ماسة إلى استخدام طرق جديدة لاختيار الموظفين قبل تعيينهم، ثم أنشئت بعد ذلك أقسام مستقلة تعنى بالموارد البشرية، وبعد الحرب العالمية الثانية، اتسع نطاق الأعمال التي تقوم بها إدارة الموارد البشرية؛ حيث شملت تدريب العاملين، وتنميتهم، ووضعت برامج لتحفيزهم، وترشيد العلاقات الإنسانية فيما بينهم وبين الإدارات التي يعملون لحسابها(1).

المطلب الثالث: أهمية إدارة الموارد البشرية.

تعد إدارة الموارد البشرية في العالم اليوم، أهم عناصر العملية الإنتاجية؛ فلا بد من توفر الكفاءات الجيدة، والقادرة على الأداء، والعطاء المتميز، لذلك يمكن القول: إن توسع الإنتاج لا يكون بالتوسع الأفقي فقط (زيادة عدد الموظفين، وتقنية عالية من الآلات والمعدات)، بل التوسع العمودي للإنتاج هو مكمل للتوسع الأفقي؛ وذلك برفع مستوى الكفاءة الإنتاجية، عن طريق توفير الموارد البشرية القابلة لعمليات التأهيل والتدريب(2).

مما سبق ذكره باقتضاب، ومن خلال قراءتي بعض ما كتب حول إدارة الموارد البشرية من حيث: تعريفها، وتاريخ ظهورها، وأهميتها، وخصائصها، وغير ذلك، أخلص إلى تسجيل نتيجتين مهمتين:

١- إن أهم العوامل التي أبرزت إدارة الموارد البشرية، هو اكتشاف أهمية العنصر البشري في دفع التنمية.

٢- إن إدارة الموارد البشرية ظهرت بشكل بارز، وملح، ومتطور، في أواخر القرن الماضي، نتيجة لما أفرزته الثورة الصناعية، وظهور النقابات العمالية.

١- حاولت الاختصار والاقتضاب قدر الإمكان، وينظر تفصيل ذلك: ويكيبيديا، ص ١٢ إلى ١٦.

٢- ويكيبيديا، ص ٢٢.

والأسئلة التي يمكن طرحها بناء على ذلك هي: كيف كانت أوربا تتعامل مع العنصر البشري قبل هذه الفترة؟ وكيف كانت تستفيد من الكفاءات البشرية قبل ذلك؟ ألم ينعم العالم في ظل حكم الإسلام في هذه الأثناء، بالعدالة، والحرية، والتقدم العلمي في شتى ميادين الحياة: الفكرية، والأدبية، والطبية، والشرعية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية؟ ألا يرجع السبب في ذلك إلى الاقتداء بمنهج النبي ﷺ في التعليم، والتربية، والتوجيه، وحسن اختيار الكفاءات، والقيادات؟

هذه التساؤلات وغيرها، مع ما أراه، وأسمعه، وأقرأه من اهتمام الدول، والأفراد، والجماعات، بإدارة الموارد البشرية، في دفع مسارات التنمية، ومع ما أعلمه من أن رسول الله ﷺ لم يدخر وسعا، منذ أول لحظة نزل الوحي عليه فيها، إلى أن انتقلت روحه الطاهرة، الزكية فيها إلى الرفيق الأعلى، لبناء الرجال، ليقينه عليه الصلاة والسلام، وهو المؤيد بالوحي الإلهي، بأنهم أمل الأمة، وسرّ نهضتها.

فهل يمكننا القول: إن فن إدارة الموارد البشرية لا يدرس حقيقة إلا في المدرسة محمد ﷺ؟ وما هو منهج النبي ﷺ في التعامل مع العنصر البشري في بناء الأمة؟ وكيف يمكننا ربط هذه المسألة بإدارة الموارد البشرية، فيما يتعلق بالاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية؟

المبحث الثاني: الموارد البشرية في السنة النبوية منهج نحو استشراف المستقبل.

إذا كانت إدارة الموارد البشرية تعنى بالحصول على أقصى فائدة ممكنة من الكفاءات البشرية، والاستغلال الأمثل لقدراتهم، فقد تبين لي من خلال تتبعي لفقه السيرة النبوية، وكتب السنة المصطفوية، أن المدرسة المحمدية، اهتمت بصناعة الرجال، وبتربية الكفاءات، وترشيد القدرات، وتنمية الملكات الفردية

والجماعية، وتهذيب القيم الخلقية، وغرس المبادئ الروحية.

وإذا كانت إدارة الموارد البشرية، تهدف إلى تحقيق الأرباح الطائلة، من خلال استثمار الطاقات الفردية، ودفع مسارات التنمية، فإن المدرسة المحمدية تهدف إلى بناء الأمة الأبدية، ذات الأسس الأخلاقية، والقيم الإنسانية؛ فالحكمة، والتزكية، والتعليم، كانت الركائز المتينة في منهجه ﷺ لتحقيق هدفه، وتبليغ رسالته، وأداء أمانته، ولعل العناصر التي سأتكلم عنها فيما يأتي، تكشف لنا حقيقة ذلك:

المطلب الأول: صنع الكفاءات في المدرسة النبوية.

بدأ رسول الله ﷺ في إعداد رجال الدعوة المحمدية، في المرحلة السرية، عندما اختار دار الأرقم، مقرا سريا يتدارس فيه القرآن مع أصحابه، ويعلمهم الحكمة، وما من شك أن اختياره عليه الصلاة والسلام لدار الأرقم في هذه المرحلة، فيه حكم تفصح عن إستراتيجية هذا القائد العظيم في إعداد، وتأهيل الرجال، وتسيير شؤون هذه الدعوة الخالدة؛ من ذلك: «أن موقع هذه الدار في أصل الصفا، بعيدة عن أعين الطغاة ومجالسهم، فاختارها رسول الله ﷺ ليجتمع فيها بالمسلمين سرا، فيتلو عليهم آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وليؤدي المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله، وهم في أمن وسلام، وليدخل من يدخل في الإسلام، ولا يعلم به الطغاة من أصحاب السطوة والنقمة»[1]. فكانت جهوده عليه الصلاة والسلام في هذه

١- الرحيق المختوم، ص ٩٧، وأضاف سليمان اللهيميد في نص نسبه إلى المباركفوري، ولم أقف عليه، بعض الاستراتيجيات المهمة فيما يتعلق باختياره عليه الصلاة والسلام، دار الأرقم دون غيرها من منازل الصحابة في هذه الفترة السرية قال: "لأن الأرقم لم يكن معروفا بإسلامه، ولأنه من بني مخزوم التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم؛ إذ يستبعد أن يختفي رسول الله ﷺ في قلب العدو، ولأنه فتى صغيرا، عندما أسلم في حدود ١٦ سنة؛ إذ أنه في هذه الحال، تنصرف الأذهان إلى منازل كبار الصحابة»، الأنوار في سيرة النبي المختار، ١ / ٢١.

الفترة، بداية متميزة لصنع الرجال في المدرسة المحمدية؛ حيث لم تبدأ مرحلة الدعوة الجهرية، إلا وقد آمن بدين محمد ﷺ حوالي أربعين رجلا. ولأن دعوته عليه الصلاة والسلام، ليست آنية، ولا خاصة بقوم دون قوم، ولأنه مبعوث للناس كافة، اتبع رسول الله ﷺ مجموعة من التدابير، والإجراءات، لبناء الأمة الخالدة، وصناعة الرجال الذين فتحوا البلاد، وتركوا الأمجاد، من أهم ملامح هذه التدابير والإجراءات:

أ- التحلي بالصبر والوعد بالنصر: عانى صحابة رسول الله ﷺ أصنافا من العذاب، لم تثنهم عن عبادة الله تعالى، وتوحيده، وما بدّلوا تبديلا؛ كان رسول الله ﷺ أثناء ذلك، يعلمهم الصبر، ويعدهم بالنصر، فعن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم، يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق اثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله»[1].

ولئن كان هذا الحديث وغيره يصور للصحابة معاناة من كان قبلهم من الأمم المؤمنة، وشدة صبرهم على الإيذاء في سبيل دعوة التوحيد، ونصرة الحق، مما يسهم في مواساتهم، وتثبيتهم، فإن فيه استشرافا بمستقبل هذه الأمة؛ حيث يبشر فيه رسول الله ﷺ هذه الفئة المستضعفة، باتساع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية، كما يدفعهم إلى عقد آمال لتحقيق طموحات مستقبلية.

ثم إن الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام، لم يكن يدعو أصحابه وأمته من

١- رواه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ٦/ ٦١٩.

بعدهم إلى التحلي بهذا الخلق الرفيع، ويدع نفسه؛ إذ كان عليه الصلاة والسلام مثالا يحتذى، في الصبر على الأذى، في سبيل أداء أمانته، وتبليغ رسالته، فعلّم أصحابه، وأمته (إلى قيام الساعة) أن الصبر، وتكرار المحاولة تلو الأخرى، سبيل لأداء الرسالة، فكان يكرر الدعوة السنة، والسنتين، وثلاثا، وعشرا، وعشرين، ويستغل الأسواق، والمواسم، والفرص، لعرض نفسه ودعوته؛ فكان حصاره وعشيرته بشعاب مكة، وما انطوت عليه هجرته إلى الطائف من العذاب الواصب، من أروع الأمثلة التي ضربها لنا رسول الله ﷺ في الصبر، وكأنه بذلك كان يقول لجميع الدعاة من بعده: «اصبروا كما رأيتموني أصبر»[1].

- إن أهم ما يمكننا استخلاصه من منهجه ﷺ في تعليم أصحابه، ومن ثم أمته، خلق التحلي بالصبر، هو أن فلسفة النجاح في تحقيق الهدف المنشود، تستلزم السعي، وتكرار المحاولة تلو الأخرى، دون فشل ولا كسل، ولا ملل، مع الإيمان بوعد محقق، وعقد الآمال في نصر سيتحقق، وفي مستقبل مشرق.

ب- **أسلوب القصص للتخفيف والعبر:** كان رسول الله ﷺ يتلو على صحابته ما ينزل عليه من آيات القرآن الكريم في قصص الأنبياء، والأمم السابقة، ما يخفف عنهم آلام التعذيب، والتنكيل، والتقتيل، ويثبتهم على توحيد الله عز وجل، وما ينتظرهم من جزاء، وجنات، ونصر، ويذكرهم بحال المؤمنين، وحال الكافرين، ممن سبق من الأمم، ومعاناة الأنبياء والرسل مع أقوامهم...الخ[2]، كما كان عليه الصلاة والسلام، من خلال تفسيره القصص القرآني، يصور لهم مشاهد من صراع الحق مع الباطل، كما هو الحال في قصة أصحاب الأخدود، ومشاهد من الصبر، والإيذاء، والنصر، والعزة، في مثل ما جاء في قصة سيدنا يوسف مع

١- هذه العبارة مستلة من فقه السيرة، محمد رمضان البوطي، ص١٠١.

٢- ينظر مثلا: سورة يونس، وهود، ويوسف، والكهف، وغيرها من السور التي نزلت في مكة، وما فيها من قصص.

إخوته، ومع الملك، ومشاهد من صراع الكفر مع الإيمان، كقصة الرجل الذي قتل تسعا وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب...الخ.

من هذا الأسلوب القصصي، مع ما يحمله من وعظ، وإرشاد، وتوجيه، يمكننا اقتباس بعض الملامح التي تبرز بعد نظره ﷺ في بناء الرجال:

- الإشارة إلى الإعداد النفسي للمخاطبين، وتهيئتهم لبناء المستقبل.
- التوجيه إلى الاعتبار من القصص في تحقيق الأهداف في المستقبل.
- الدعاء: نظرًا لأن الهدف من الدعوة هو إخراج البشرية من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ونظرًا لأن الإنسان هو المحور الأساس في الدعوة الإسلامية، كان رسول الله ﷺ يدعو الله أن يخرج من أصلاب المشركين، من يعبده ويبلغ دعوته؛ فعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا و أنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ:«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»[1]، وعن جرير قال: ما

١- رواه البخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، ٦/ ٣١٢، ومسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، ص ٧١٤.

حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ضحك[1]، وقال: قال لي النبي ﷺ: ألا تريحني من ذي الخلصة - وكان بيتا في خثعم يسمى الكعبة اليمانية، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبت على الخيل، فضرب في صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري وقال: «اللهم ثبته، واجعله هاديا مهديا...الحديث»[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ضمني النبيﷺ وقال: «اللهم علمه الكتاب»[3]، ودعا رسول الله ﷺ للأنصار[4]، ودعا لغفار وأسلم[5]، ودعا لأبي عامر[6]، وغيرهم كثير، وأضرب مثالا هنا بجامع الإمام الترمذي: عقد فيه كتابا سماه «كتاب الدعوات»، روى فيه ما يزيد على مئة وثلاثة وثلاثين حديثا، في فضل الدعاء، وفضل الذكر، وفضل الدعاء في كل الأوقات، وعلى كل حال: في الليل، وفي النهار، في السفر، وفي الحضر، عند الرخاء، وعند الشدائد، عند الصحة، وعند المرض، عند الأكل، والشرب، وفي الغضب، وفي الرضا...[7].

فكانت الاستعانة بالله عز وجل، من الوسائل الدائمة التي كان يلجأ إليها رسول الله ﷺ لتصحيح المسار، وبناء الرجال، وهو بذلك يعلمنا، أن الأمر بيد الله من قبل ومن بعد، وأن النصر بيد الله، ينصر من ينصره، ويثبت من يوحّده،

١- رواه البخاري في مناقب الأنصار، باب ذكر جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، ٧/ ١٣١.

٢- رواه البخاري في المغازي، باب غزوة ذي الخلصة، واللفظ له، ٨/ ٧٠، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل جرير بن عبد الله، ص ٩٦٥.

٣- رواه البخاري في فضائل الصحابة، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، ٧/ ١٠٠، وفي العلم، باب قول النبي ﷺ: اللهم علمه الكتاب»، ١/ ١٦٩.

٤- في حديث رواه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل الأنصار، من طريق النضر بن أنس عن زيد بن الأرقم عنه ﷺ قال: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»، ص ٩٧٥.

٥- رواه مسلم من طريق عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال: قال ﷺ: «غفار، غفر الله لها، وأسلم سالمها الله»، ص ٩٧٧.

٦- في حديث طويل رواه مسلم من طريق بريدة عن أبي بردة يرفعه، ص ٩٧٣.

٧- الجامع، كتاب الدعوات، ٥/ ٤٥٥ ــ ٥٨٢.

وفيه ما يدفعنا إلى الإيمان بأن النصر بيد الله، وأن المستقبل لدين الله، متى ما حققنا شروط النصر، وتمسكنا بالقرآن والسنة، وقد تحقق النصر لسيدنا محمد ﷺ في فترة وجيزة من الزمن، فخرج من أصلاب المشركين من آمن بالله ربا واحدا.

وفي لجوئه عليه الصلاة والسلام إلى الدعاء عدة أهداف منها:

أ- الرغبة في إيمان الناس بهذا الدين.

ب- الرغبة في استمرار هذا الدين وسيادته.

ت- الرغبة في صناعة كفاءات تبلّغ هذا الدين، وتهدي إليه، على امتداد الزمان والمكان.

ث- الرجاء والأمل المستمر في أن النصر لهذا الدين.

المطلب الثاني: تعليم الكفاءات في المدرسة النبوية.

باب العلم، والتعليم، والتعلم في المدرسة النبوية، باب واسع، لهذا سوف أقتصر منه على بعض العناصر، مما أراه صالحا لخدمة هذا البحث:

أ – تعليمهم العلم مع العمل:

كان عليه الصلاة والسلام، يعلم الصحابة العمل مع العلم؛ فيتلو عليهم الآيات من القرآن الكريم، لا يتجاوزونها إلى غيرها، حتى يفقهوا معانيها، ويطبقوا أحكامها، فعن أبي عبد الرحمن السلمي[1] قال: «حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل،

١- وأبو عبد الرحمن السلمي، هو عبد الله بن حبيب بن ربيعة، من كبار التابعين، سمع من عثمان بن عفان، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وغيرهم، اختلف في وفاته، فقيل سنة ٧٢، أو بين ٧٠ و٨٠، ينظر: طبقات ابن سعد، ٦ / ١١٩، وتهذيب التهذيب، ابن حجر، ٤ / ٢٦٨ ــ ٢٦٩.

قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعا»[1].

كما كانت تأتيه ﷺ الوفود، والأفراد، يتعلمون منه الأيام والليالي، ثم يعودون لتبليغ أقوامهم أمر الإسلام، فعن مالك بن الحويرث قال: «أتينا النبي ﷺ ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين يوما و ليلة، وكان رسول الله ﷺ رحيما رفيقا، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا، أو قد اشتقنا، سألنا عمن تركنا بعدنا، فأخبرناه، قال: «ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلموهم، ومروهم، وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها، وصلوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة، فليؤذن لكم أحدكم، ثم ليؤمكم أكبركم»[2].

ولعل أهم ما يمكن اقتباسه من هذا التوجيه، فيما يتعلق باستشراف المستقبل هو:

أ- وجوب اقتران العلم بالعمل، من أجل بناء الأفراد والأمم.

ب- أن من بين الأسباب الأساسية في ازدهار أمة اقرأ، طلب العلم، والرحلة في سبيله، والاستفادة من علوم الأمم السابقة.

ج- أن العلم مع الإيمان والعمل، عوامل أساسية في ازدهار الأمم، وعوامل أساسية في عودة الأمة الإسلامية إلى أوج الازدهار والرقي؛ وعوامل أساسية في دفع عجلة التقدم، والرقي، والازدهار الحضاري، والثقافي، والروحي.

د- أن تخلف أمة اقرأ اليوم، يعود أساسا، في رأيي، إلى تخليها عن هذه العوامل الثلاثة، لأن الخيرات المادية لا تنقصها، ويصدق علينا اليوم ما جاء

١- رواه أحمد في المسند، ٥/ ٤١٠، والحاكم في فضائل القرآن، باب تعلم القرآن مع العمل عليه، ٥/ ٥٥٧، كلاهما من طريق عطاء عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتبعه الذهبي في التلخيص، ورواه الطبري في التفسير، ١/ ٨٠، وقال الشيخ أحمد شاكر معقبا في ذيله: هذا إسناد صحيح متصل»، وللحديث شاهد من طريق الأعمش عن شقيق عن ابن مسعود، رواه الطبري في التفسير، ١/ ٨٠، قال أحمد شاكرا في ذيله: «هذا إسناد صحيح، ولكنه مرفوع معنى، لأن ابن مسعود إنما تعلم القرآن من رسول الله ﷺ، فهو يحكي ما كان في ذلك العهد النبوي.

٢- رواه البخاري في الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، والإقامة، ٢/ ١١١.

في حديث رسول الله ﷺ قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

ب- مراعاة المستوى في التعليم:

من منهجه ﷺ في التربية والتعليم والتوجيه، أنه كان يخاطب الناس على قدر مستوياتهم؛ فيتكلم مع المتمدن بما يتلاءم مع بيئته، ومع البدوي بما يتلاءم مع حياته، كما كان يخاطب فيهم العواطف والمشاعر؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل من بني فزارة إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلاما أسود، فقال النبي ﷺ: «هل لك من إبل؟» قال: نعم قال: «فما ألوانها؟» قال: حمر. قال: «هل فيها من أورق؟» قال: إن فيها لورقا. قال: «فأنى أتاها ذلك؟» قال: عسى أن يكون نزعه عرق، قال: «وهذا عسى أن يكون نزعه عرق»[2]، وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، أن فتى من قريش، أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إيذن لي في الزنا، فأقبل القوم عليه وزجروه فقال: مه، مه. فقال: أدنه. فدنا منه قريبا. فقال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا والله جعلني الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، ثم سأله رسول الله ﷺ إن كان يحبه لأخته، وعمته، وخالته، والفتى يقول: لا والله جعلني الله فداك، والنبي ﷺ يرد عليه بأن الناس لا يحبونه

١- رواه أبو داود في الملاحم، باب تداعي الأمم على أهل الإسلام، ٣/ ١١٥، وصححه الشيخ الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير، ٢/ ٢١٣، رقم: ٨١٨٣.

٢- رواه البخاري في الطلاق، باب إذا عرّض بنفي الولد، ٩/ ٤٤٢، وفي الحدود، باب ما جاء في التعريض، ١٢/ ١٧٥، وفي الاعتصام، باب من شبه أصلا معلوما بأصل مبين، وقد بين النبي ﷺ حكمهما ليفهم السائل، ١٣/ ٢٩٦، ومسلم واللفظ له، في اللعان، ص ٥٧٨، ورواه أحمد في المسند، ٢/ ٢٣٩، رقم: ٧٢٦٣، وفي ٢/ ٤٠٩، رقم: ٩٢٨٧.

لهن، ثم وضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه» قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1].

من هذه النصوص نستخلص بعض المسائل المتعلقة بتكوين الرجال، وإعدادهم للمستقبل:

- استعمال أسلوب الإقناع العقلي والمنطقي في مثل هذه المواقف.
- الرفق في الحوار، وفي الأمر كله.
- علاج بعض القضايا، وحل بعض المسائل وفق المعطيات المصاحبة لها[2].

ج- تعليمهم الإيمان مع العلم:

روى جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: « كنا مع رسول الله ﷺ ونحن فتية حزاورة[3]، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، فازددنا به إيمانا»[4]، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم

١- رواه أحمد في المسند، ٥ / ٢٥٦ ــ ٢٥٧، والطبراني في المعجم الكبير، من طريق سليم بن عامر عن أبي أمامة، ٨ / ١٩٠، رقم: ٧٦٧٩، ومن طريق القاسم عن أبي أمامة، ٨ / ٢١٧، رقم: ٧٧٥٩، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: "إسناده حسن"، ١ / ١٢٩، وقال حمدي عبد المجيد السلفي، محقق المعجم الكبير للطبراني: "رجاله رجال الصحيح"، هامش المعجم الكبير، ٨ / ١٩٠.

٢- ينظر: تفعيل القيم الحضارية في السنة النبوية السبل والمعوقات د. عباس محجوب، بحث مقدم بين يدي الندوة العلمية الثالثة، القيم الحضارية في السنة النبوية، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دبي، ص ٢١٥).

٣- الحزور، والحزوّر، بتشديد الواو: الغلام الذي قد شب وقوي، لسان العرب، ابن منظور، مادة: «حزر»، ٢ / ٨٥٥.

٤- رواه ابن ماجه، في الإيمان، ص ٢٤٨٠، قال في الزوائد: «إسناد هذا الحديث صحيح، رجاله ثقات»، وصححه الشيخ الألباني، ينظر: صحيح ابن ماجه، ١ / ١٦، و صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، ١ / ١٣٣.

يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1].

- يسعفنا هذا النص، وغيره، في الوقوف على أن الإيمان هو العامل الفعال في تكوين رجال الحاضر والمستقبل تكوينا نفسيا، وتربويا، وخلقيا، من أجل إنشاء الفرد الأمثل، في مجتمع أمثل؛ فانظر إليه عليه الصلاة والسلام، وهو يعلم هذا الغلام، هذه الكلمات، مستشرفا إعداده، وإعداد غيره على امتداد مستقبل بعيد.

د- تعليمهم الحلم والتيسير:

من ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن أعرابيا بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء، أو سجلا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[2]، وما رواه أبو موسى قال: «بعثني رسول الله ﷺ ومعاذا إلى اليمن فقال: «ادعوا الناس، وبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا...الحديث»[3]، وفي رواية: «يسرا ولا تعسرا، وتطاوعا، ولا تنفرا...الحديث»[4]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»[5]، وقال عليه الصلاة والسلام: «لكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[6]، ورأى عليه الصلاة والسلام رجلا قائما

١- رواه الترمذي في صفة القيامة، ٤ / ٦٦٧، وقال:هذا حديث حسن صحيح.

٢- رواه البخاري في الأدب، باب قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»، ١٠ / ٥٢٥.

٣- رواه مسلم في الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر، وأن كل خمر حرام، ص ٧٩٧، والبخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، من طريق أبي بردة قال: بعث رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذ إلى اليمن...الحديث، ٨ / ٦٠.

٤- رواه البيهقي في السنن الكبرى، ٨ / ١٥٥، وابن عبد البر في التمهيد، ٣ / ٣٣٦.

٥- رواه البخاري في الإيمان، باب الدين يسر، وقول النبي ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»، ١ / ٩٣.

٦- رواه البخاري في النكاح، باب الترغيب في النكاح، ٩ / ١٠٤، ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ص ٥١٩.

في الشمس فقال: «ما هذا؟» قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم فقال: «مروه فليجلس وليستظل، وليتكلم، وليتم صومه»[1].

من هذه النصوص النبوية الشريفة، نقتبس من منهجه ﷺ في تعليم الكفاءات ما يأتي:

أ- تعليمه الصحابة، ومن ثم الأمة، أن الحلم، والرفق، والتيسير، ما كانوا في أمر إلا زانوه.

ب- وتوجيههم إلى أن العنف، والإرهاب، والغلول ما كانوا في شيء إلا شانوه، وهذا مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام، «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، و ما لا يعطي على ما سواه»[2]، وقوله لعائشة رضي الله عنها: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»[3]، وقوله: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[4].

ج- التوجيه إلى أن التخول بالموعظة، والحلم والتيسير، ومراعاة المستويات، يساعد في تدريب المهارات، وتطوير الكفاءات[5].

د- التوجيه إلى أن التكاليف والأحكام الشرعية، مشروط، على امتداد الزمان

١- رواه البخاري في الأيمان والنذر، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية، ١١ / ٥٨٦.
٢- رواه مسلم في البر والصلة، باب فضل الرفق، ص ١٠٠٢.
٣- رواه البخاري في الأدب، باب الرفق في الأمر كله، ١٠ / ٤٤٩..
٤- رواه مسلم في البر والصلة، باب فضل الرفق، ص ١٠٠٣.
٥- لكن مع الأسف، ففي الوقت الذي نرى فيه أمتنا قد تخاذلت، وتراجعت خطوات كبيرة، وابتعدت مسافات غير يسيرة عن هذا المنهج، نجد كثيرا من الدول المتقدمة اليوم، استفادت من هذا المنهج في دفع عجلة التنمية الاقتصادية، والسياسية، والعلمية، إلى أن وصلت إلى ما هي عليه من تقدم مادي، وإن كانت تفتقر إلى الجانب الإيماني، الذي ينمي الجانب الروحي ويقويه، وفي المقابل فإن الأمل في أمة الإسلام يظل قائما، ونستبشر خيرا ببعض الدول الإسلامية مثل ماليزيا، وهي تسير بخطى ثابتة نحو ركب التقدم، نتيجة تطبيقها هذا المنهج.

والمكان، بالممكن من العلم، والقدرة[1].

المطلب الثالث: توجيه القدرات وترشيد الكفاءات في المدرسة النبوية:

اخترت الكلام في هذا المطلب عن بعض المسائل، بدت لي أساسية في خدمة هذا الموضوع هي: التوجيه، وتصويب الخطأ، والاستئمان على الأسرار، والوقوف عند حدود الله، والإجازة.

أ- التوجيه: عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب اليهود، وقال: «إني والله ما آمن يهود على كتابي»، فتعلمته، فلم يمر إلا نصف شهر، حتى حذقته، فكنت أكتب له إذا كتب، وأقرأ له إذا كتب إليه»[2]، وفي حديث لابن عمر رضي الله عنهما، قال: جمعت القرآن كله في ليلة، فقال رسول الله ﷺ: «إني أخشى أن يطول عليك الزمان، وأن تمل فاقرأه في شهر» فقلت: دعني أستمتع من قوتي وشبابي.قال: «فاقرأه في عشرة». قلت: دعني أستمتع من قوتي وشبابي. قال: «فاقرأه في سبع». قلت: دعني أستمتع من قوتي وشبابي، فأبى[3]، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أخبر رسول الله ﷺ أنه يقول: لأقومنّ الليل و لأصومنّ النهار ما عشت، فقال رسول الله ﷺ: «آنت الذي تقول ذلك؟» فقلت له: قد قلته يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر» قال: قلت: فإني أطيق أفضل

١- ينظر: مجموعة الفتاوى، ابن تيمية، قال: «الأمر والنهي، الذي يسميه بعض العلماء التكليف الشرعي، هو مشروط بالممكن من العلم والقدرة؛ فلا تجب الشريعة على من لا يمكنه العلم، كالمجنون والطفل، ولا تجب على من يعجز كالأعمى والأعرج...»، ١٠ / ٢٠٠.

٢- رواه أبو داود في العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، ٢ / ٥٢٤، وقال الألباني، حسن صحيح، ٢ / ٦٩٥. وفي مناهج تعليم اللغات الأجنبية اليوم، تعد ستة أشهر أقل مدة يتعلم فيها الإنسان لغة القوم، فسبحان الله، عندما نقارن مدة نصف شهر بستة أشهر، نقف على نوعية الكفاءات في المدرسة النبوية، والمهارات التي كانوا يتمتعون بها.

٣- رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة، باب في كم يستحب أن يقرأ القرآن، ١ / ٤٨، وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، ١ / ٢٢٥.

من ذلك، قال: «صم يوما وأفطر يومين» قال: قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك يا رسول الله. قال: «صم يوما وأفطر يوما، وذلك صيام داود عليه السلام، وهو أعدل الصيام» قال: قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال رسول الله ﷺ: «لا أفضل من ذلك» قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إلي من أهلي ومالي[1]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرأهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا وإن لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[2]، وقال عليه الصلاة والسلام: «أفرض أمتي زيد بن ثابت»[3]. من هذا التوجيه النبوي الشريف، يمكننا اقتباس ما يأتي فيما يتعلق بالاستشراف والتخطيط للمستقبل:

أ- بعد نظره عليه الصلاة والسلام، وامتداده إلى المستقبل البعيد في: معرفة ميزات الموارد البشرية، وتوجيهها التوجيه الحسن بما يفيد مصلحة الأمة في الحاضر والمستقبل.

ب- يعد تعلم اللغات في هذا العصر، وسيلة ضرورية للتبادل المعلوماتي، وانتقال التكنولوجيات.

١- رواه البخاري في الصوم، باب صوم الدهر، ٤ / ٢٢٠، ومسلم في الصيام واللفظ له، باب النهي عن صوم الدهر، ص ٤١٩.

٢- رواه الترمذي في المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبيّ، وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم، ٥ / ٦٦٥، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في فضائل الصحابة، ص ٢٤٨٦، وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، ١ / ٣١.

٣- رواه الترمذي من طريق أنس بن مالك، في لفظ طويل، وقال: "هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث قتادة إلا من هذا الوجه..."، ٥ / ٦٦٤، والحاكم في المستدرك، كتاب الفرائض، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتبعه الذهبي في التلخيص، ٤ / ٣٣٥، وصححه الشيخ الألباني في تذييله على جامع الإمام الترمذي بتحقيق الشيخ أحمد شاكر، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب، ٢ / ٥٣٧ ــ ٥٤٠.

ج- يعد تعلم اللغات من أساسيات تبليغ الدعوة الإسلامية.

د- أن تعلّم لغة قوم، يساعد على أمن مكرهم، وتجنب شرهم، والاطلاع على علومهم، وتجاربهم، وتاريخهم، وخططهم.

ب- **تصويب الخطأ**: كان رسول الله ﷺ حريصا على تصويب أخطاء الصحابة، وتوجيههم نحو السلوك السليم، من ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ مرّ برجل يبيع طعاما، فسأله كيف تبيع، فأخبره، فأوحي إليه، فأدخل يده، فإذا هو مبلل، فقال رسول الله ﷺ: «ليس منا من غش»[1]، وفي حديث جابر رضي الله عنه، ما يدل على أنه ﷺ كان يمنعهم من الفتوى عن غير علم، قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجل منا حجر فشجه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة، وأنت تقدر على الماء، فاغتسل، فمات، فلما قدمنا على النبي ﷺ وأخبر بذلك قال: «قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم، ويعصب جرحه بخرقة، ثم يمسح عليها، ويغسل جسده»[2]، وفي قصة الصحابي الذي بعثه النبي ﷺ لجمع الصدقات، دليل آخر يوضح منهجه ﷺ في التوجيه، والتصويب، فعن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلا من الأَسْد يقال له ابن اللُتْبية، قال عمرو وابن أبي عمر، على الصدقة، فلما قدم قال: «هذا لكم وهذا أهدي لي» قال: فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه، أو في بيت أمه حتى ينظر أَيُهدى إليه أم لا، والذي نفس محمد بيده، لا ينال أحد منكم منها شيئا

١- رواه أبو داود في الإجارة، باب النهي عن الغش، ٢ / ٤٧٩، وأحمد في المسند، بتحقيق الشيخ أحمد شاكر، ١٣ / ١٨، وابن ماجه، ص ٢٦١٠، وصححه الشيخ الألباني، صحيح ابن ماجه، ١ / ٤٤، رقم: ٢٢١٥

٢- رواه أبو داود في الطهارة، باب في المجروح يتيمم، ١ / ١٣٥، حسنه الشيخ الألباني، دون قوله: «إنما كان يكفيه...»، صحيح وضعيف سنن أبي داود، ١ / ٣٣٦، وحسنه الحسين آيت سعيد، محقق بيان الوهم والإيهام، لابن القطان الفاسي، هامش ٢ / ٢٣٦.

إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، بعير له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تيْعَر[1]»، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ثم قال: «اللهم هل بلغت»، مرتين[2].

- ففي هذه النصوص النبوية، توجيه مستقبل الأمة إلى تحريم كل ما من شأنه تهديد الأمن، والاستقرار النفسي، والاجتماعي، والخلقي فيها؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام، لم يقر هذا الصحابي على تصرفه، رغم أنه لم يخف ما أهدي إليه، ووجه الأمة إلى أن ذلك من الأفعال المحرمة التي سيحاسب عليها منتهكها حسابا شديدا يوم القيامة.

- وفيها توجيه مستقبل الأمة إلى الحرص على تحريم كل ما من شأنه المساس بالأعراض؛ وحفظ العرض، كما نعلم، من مقاصد الشريعة المثلى.

ج- **الاستئمان على الأسرار**: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أسرّ إليّ نبي الله ﷺ سرا، فما أخبرت به أحدا بعد، ولقد سألتني عنه أم سليم، فما أخبرتها به[3]، وعنه أيضا أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الجمل قال: يا معاذ بن جبل. قال: لبيك وسعديك. قال: «يا معاذّ قال: لبيك وسعديك، ثلاثا. قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار». قال: يا رسول الله، أفلا أخبر الناس فيستبشروا؟ قال: «إذن يتّكلوا»، وأخبر بها معاذ عند موته تأثما[4]. فالنبي ﷺ يعلم أصحابه أن كتمان السر أمانة، وإفشاءه خيانة، وفي ذلك بعد نظر منه، ورؤية مستقبلية، لإعدادهم الإعداد السوي نحو مستقبل أمين و آمن.

١- يَعَرَت العنز، تَيْعِرُ، بالكسر، يُعارا، بالضم: صاحت، لسان العرب، ابن منظور، ٦ / ٤٩٦٢.
٢- رواه مسلم في الإمارة، باب تحريم هدايا العمال، ص ٧٣٤.
٣- رواه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل أنس بن مالك، ص ٩٦٧.
٤- رواه البخاري في العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا وقال علي: حدثوا الناس بما يعرفون، ١ / ٢٢٦، وكان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه صاحب سر النبي ﷺ سئل عنه علي بن أبي طالب فقال: «كان أعلم الناس بالمنافقين»، المستدرك، الحاكم، ٣ / ٣٨١.

د- **الوقوف عند حدود الله:** كان ﷺ لا يتهاون في حد من حدود الله، ولا يسمح لأحد أن يشفع فيه، ولو كان من أقرب الناس إليه، وأحبهم إلى قلبه، وهو بذلك يعلّم أصحابه، حرمة هذه الحدود، ويحذرهم من عاقبة اقتحام حمى الله عز وجل، من ذلك ما رواه أسامة بن زيد، حبّ رسول الله ﷺ وابن حبّه زيد بن حارثة، رضي الله عنهما، قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلا، فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟» قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفا من السلاح. قال: «أفلا شققت على قلبه، حتى تعلم أقالها أم لا»، قال: فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ...الحديث[1]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها، أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة، حبّ رسول الله ﷺ ؟ فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله؟»، ثم قام فاختطب فقال: «أيها الناس، إنما هلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها»[2].

إن هذه العناصر، تكشف لنا عن صفات سيدنا محمد ﷺ صاحب النظرة الممتدة إلى الآفاق، وإلى المستقبل البعيد، فانظر إلى هذا الهدي وهو يربط حاضر الأمة بماضي الأمم، ومستقبلها، في قوله: «أيها الناس، إنما هلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد...الحديث»، وفي قوله: «ليس منا من غش»، ردع صارخ، يمتد على مدى

١- رواه البخاري في المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، ٧ / ٥١٧، ومسلم، بهذا اللفظ، في الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، ص ٥٦.

٢- رواه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ٥٤ من غير عنوان، ٦ / ٥١٣، ورواه مسلم واللفظ له، في الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، ص ٦٦٨.

الزمان والمكان، إلى قيام الساعة، في ارتفاع الإيمان عن كل من يغش، وفي أي نوع من أنواع الغش.

هـ- الإجازة: تنادي اليوم منظمات دولية، مثل اليونيسيف[1]، وهيئات الدفاع عن حقوق الإنسان، بعدم استغلال القصّر في عالم الشغل، حيث تشير أحدث التقديرات الصادرة عن منظمة العمل الدولية التي تضمنها تقريرها الذي جاء بعنوان: «تسريع وتيرة إجراءات مكافحة عمل الأطفال»، إلى أنه لا يزال هناك ٢١٥ مليون طفل منخرطين في عمالة الأطفال، وقد انخفض عدد الأطفال العاملين خلال الفترة ٢٠٠٤-٢٠٠٨ من ٢٢٢ مليونا أي بواقع ٣٪ [2]. وها هي مدرسة محمد ﷺ تقر هذا المبدأ منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا؛ جاء في سيرة ابن هشام، أن رسول الله ﷺ أجاز سمرة بن جندب الفزاري، ورافع بن خديج، وهما ابنا خمس عشرة سنة، وكان قد ردهما قبل ذلك، فقيل: يا رسول الله، إن رافعا رام، فأجازه، ورد أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت[3]، والبراء بن عازب[4]، وعمرو بن حزم[5]، وأسيد

١- المنظمة الدولية الوحيدة للدفاع عن حقوق الأطفال في العالم، تابعة لهيئة الأمم المتحدة، مقرها في نيويورك، ينظر، وكيبيديا، الموسوعة الحرة موقع المنظمة هو www.unicef.org/french/.

٢- مستل من مقال: «استغلال الأطفال في العمالة الرخيصة حول العالم، لميرل ديفيد كلرهالس، المحرر في موقع أميركا دوت غوف، في ١٦ يونيو ٢٠١٠.

٣- هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري النجاري، يقال: إنه كان في حين قدوم رسول الله ﷺ، المدينة، ابن إحدى عشرة سنة. قال الواقدي: استصغر رسول الله ﷺ، يوم بدر جماعة، فردهم، منهم: زيد بن ثابت، كان أحد الصحابة، الجلة، الفراض، قال رسول الله ﷺ: «أفرض أمتي زيد بن ثابت»، الاستيعاب، ٢ / ٥٣٩.

٤- هو البراء بن عازب الأنصاري الحارثي الخزرجي، روي أنه قال: استصغرت أنا، وابن عمر، يوم بدر، نزل الكوفة، ومات بها بعد ما شهد مع علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، الجمل، وصفين، والنهروان، الاستيعاب، ١ / ١٥٥ ـــ ١٥٧.

٥- هو عمرو بن حزم بن زيد بن لودان الخزرجي البخاري، من بني مالك بن النجار، استعمله رسول الله ﷺ، على أهل نجران، وهم بنو الحارث بن كعب، وهو ابن سبع عشرة سنة، ليفقههم في الدين، ويعلمهم القرآن، ويأخذ صدقاتهم، وذلك سنة عشر، بعد أن بعث إليهم خالد بن الوليد، فأسلموا، وكتب له كتابا فيه الفرائض، والسنن، والصدقات، والديات، مات بالمدينة سنة ٥١ هـ، وقيل سنة ٥٣، الاستيعاب، ٣/ ١١٧٢- ١١٧٣.

بن ظهير[١]، ثم أجازهم يوم الخندق، وهم أبناء خمس عشرة سنة[٢]، قال الواقدي فيما نقله عنه ابن عبد البر: «استصغر رسول الله ﷺ يوم بدر جماعة منهم: البراء بن عازب، وعبد الله بن عمر، ورافع بن خديج، وأسيد بن ظهير، وزيد بن ثابت، وعمير بن أبي وقاص، ثم أجاز عميرا، فقتل يومئذ»[٣]. كما كان رسول الله ﷺ يستعرض غلمان الأنصار في كل عام، فمر به غلام فأجازه في البعث، وعرض عليه سمرة بن جندب من بعده، فرده، فقال سمرة: يا رسول الله، قد أجزت غلاما ورددتني، ولو صارعته لصرعته. فقال رسول الله ﷺ: «فصارعه». قال: فصارعته، فصرعته، فأجازني رسول الله ﷺ في البعث[٤].

من هذه النصوص والأفعال النبوية الشريفة، يمكننا اقتباس مسائل هامة تتعلق بالتخطيط للمستقبل هي:

أ- أن رسول الله ﷺلم يكن يسمح بالاشتراك في الغزو، والحرب إلا لمن كان في الخامسة عشر، وهذا هو الأصل.

ب- أنه عليه الصلاة والسلام، أذن لمن كان دون ذلك، ممن كان يتمتع بقدرات بدنية تؤهله لذلك، كما هو الحال بالنسبة لسمرة بن جندب رضي الله عنه.

ج- أن هذه السن هي المثلى لتكليف القدرات الشبابية بمختلف الأشغال البدنية،

١- هو أسيد بن ظهير بن رافع الأنصاري الحارثي، كان من المستصغرين يوم أحد، توفي في خلافة عبد الملك بن مروان، الاستيعاب، ١/ ٩٥ ــ ٩٦.

٢- السيرة، ٣/ ٢٩.

٣- الاستيعاب، ١/ ١٥٧.

٤- الاستيعاب، ابن عبد البر، بهامش الإصابة في تمييز الصحابة، ٢/ ٦٥٥. وقال ابن هشام: «أجاز رسول الله ﷺ، يومئذ سمرة بن جندب الفزاري، ورافع بن خديج، أخا بني حارثة، وهما ابنا خمس عشرة سنة، وكان قد ردهما، فقيل: يا رسول الله، إن رافعا رام. فأجازه، فلما أجاز رافعا قيل له: يا رسول الله، فإن سمرة يصرع رافعا، فأجازه. ورد رسول الله ﷺ، أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، أحد بني مالك بن النجار، والبراء بن عازب، أحد بني حارثة، وعمرو بن حزم، أحد بني مالك بن النجار، وأسيد بن ظهير، أحد بني حارثة، ثم أجازهم يوم الخندق، وهم أبناء خمس عشرة سنة». ينظر: السيرة، ٣/ ٢٩.

والمسؤوليات الإدارية، وقبل ذلك، توجه طاقاتهم نحو التربية العلمية والخلقية.

د- أن المدرسة المحمدية كان لها فضل السبق إلى منع استغلال الأطفال، وهذا هو الأصل، ويستثنى منه من كان يتمتع بقدرات بدنية أو عقلية، تؤهله للقيام ببعض الأشغال، أو بعض المهارات.

هـ- أن القوانين الوضعية استفادت بشكل أو بآخر من هذا الإجراء، في منع التشغيل قبل هذه السن.

المطلب الرابع: اختيار القيادات في المدرسة النبوية.

أقتصر في هذا العنصر على الكلام عن بعث السفراء إلى الأمراء والملوك، وتأمير القادة، وتعيين القضاة والمعلمين.

أ- إرسال السفراء: ذكر ابن سعد في طبقاته، أن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية، في ذي الحجة، سنة ست، أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتبا، فقيل: يا رسول الله، إن الملوك لا يقرؤون كتابا إلا مختومان فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ، خاتما من فضة، نقشه ثلاثة أسطر: «محمد رسول الله»، وختم به الكتب؛ فخرج ستة نفر في يوم واحد، وذلك في المحرم سنة سبع، وكان كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم، فكان أول رسول بعثه رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فأخذ كتاب رسول الله، فوضعه على عينيه، ونزل من سريره، فجلس على الأرض تواضعا، ثم أسلم، وشهد شهادة الحق وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته[1]، وبعث دحية الكلبي إلى هرقل ملك الروم، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وبعث الحارث بن عمير الأزدي إلى عظيم بصرى من قبل الروم، شرحبيل بن عمرو الغساني.

١- الطبقات، ٢ / ٢٣، بتصرف.

تكمن علاقة هذا العنصر بموضوع الاستشراف في السنة النبوية، في أن اختيار رسول الله ﷺ هؤلاء السفراء، لم يكن عشوائيا، أو عاطفيا، أو قبليا، بل كان اختيارا مدروسا، ومخططا؛ حيث إن كل سفير من هؤلاء، كان خبيرا بلغة القوم الذين أرسل إليهم، زيادة على ما كان يتمتع به من إيمان، وعلم، وقوة، وهو منهج نتعلم منه شروط اختيار الكفاءات البشرية للتمثيل الدبلوماسي، قال الشيخ ابن باديس رحمه الله: الحكم يدور مع العلة فنحن اليوم، وقد ربطت بيننا وبين أمم أخرى مصالح، علينا أن نعرف لغتهم وخطهم، كما عليهم أن يعرفوا لغتنا وخطنا[١].

ب- **تأمير القادة**: بعث رسول الله ﷺجيش الأمراء يوم مؤتة، وقال: «عليكم زيد، فإن أصيب فجعفر، فإن أصيب جعفر، فابن رواحة»، فوثب جعفر وقال: بأبي أنت وأمي، ما كنت أرهب أن تستعمل زيدا عليّ، قال: «امضوا، فإنك لا تدري أي ذلك خير»، فانطلق الجيش، فلبثوا ما شاء الله، ثم إن رسول الله ﷺ صعد المنبر، وأمر أن ينادى، الصلاة جامعة...الحديث[٢]، وكان لواء رسول الله ﷺ بيد علي بن أبي طالب في مواطن كثيرة، وكان يوم بدر بيده، على اختلاف في ذلك، ولما قتل مصعب بن عمير، يوم أحد، وكان اللواء بيده، دفعه رسول الله ﷺ إلى علي، وهو الذي تصدى يوم الخندق لعمرو بن عبد ود الذي اخترق الخندق ودعا إلى البراز، فقام إليه علي بن أبي طالب فبارزه، وقتله[٣]، وقال رسول الله ﷺ يوم خيبر: «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله؛ ليس بفرار، يفتح الله على يديه، ثم دعا بعلي وهو أرمد، فتفل في عينيه، وأعطاه الراية، ففتح الله عليه[٤]، ولما اختار رسول الله ﷺ لغزو الروم قبيل

١- مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ص ٧٢، في معرض شرحه لهذا الحديث. «بتصرف».
٢- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، ١ / ٢٤٢، وتفصيل القصة في سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١ / ١٥١ ـــ ١٥٧.
٣- الطبقات الكبرى، ابن سعد، ٢ / ٦٧، والاستيعاب، ٣ / ١٠٩٦.
٤- الاستيعاب، ٣ / ١١٠٧.

وفاته بأيام، أسامة بن زيد، وكان رضي الله عنه شابا، وجد بعض الناس شيئا في صدورهم، من إمارته، وكان ذلك بإيعاز من المنافقين، خرج رسول اللهﷺ وقد عصب رأسه، وخطب فيهم قائلا: «إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة، و إن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده»[١]، وبعث رسول الله ﷺ سرية فيها سعد بن أبي وقاص إلى جانب من الحجاز، يدعى رابغ، وهو من جانب الجحفة، فانكفأ المشركون على المسلمين، فحماهم سعد يومئذ بسهامه، فكان هذا أول قتال في الإسلام[٢]، ولم يختلف أهل السير، فيما نقله ابن عبد البر، في أن راية رسول الله ﷺ يوم بدر، وأحد، كانت بيد مصعب بن عمير رضي الله عنه، فلما قتل يوم أحد، أخذها علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٣].

ليس القصد من ذكر هذه الأحداث، هو سرد سيرة هؤلاء الرجال، وغيرهم ممن لم أذكر، فإن سيرهم ومناقبهم، مبثوثة في كتب السير، والطبقات، وأبواب المناقب، والمغازي، والفضائل، من كتب السنة النبوية، إنما القصد هو كيفية ربط هذا الاختيار، بصناعة الكفاءات في مدرسة النبوة، وأسس ذلك فيها، فهل كان اختيار رسول اللهﷺ لبعض هؤلاء من أجل حب يكنه لهم؟ أم كان اختياره بسبب قرابة تربطه بهم، كما قد يتبادر إلى ذهن البعض؟

والجواب في نظري، هو أن اختياره عليه الصلاة والسلام، لم يكن بسبب القرابة يقينا، وإلا لأمّر على جيش مؤتة جعفر بن أبي طالب قبل زيد بن حارثة، وانظر إلى مشهد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو يخاطب رسول الله ﷺ

١- رواه البخاري في المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد...،٨/ ١٥٢.
٢- هو أول من رمى بسهم في سبيل الله، في أحد، ما جمع رسول الله ﷺ أبويه لأحد قبله، قال سعد: ورأيته وإنه ليقول لي: يا سعد ارم فداك أبي وأمي، وإني لأول المسلمين رمى المشركين بسهم، شهد بدرا وما في وجهه شعرة واحدة يمسحها بيده، سير أعلام النبلاء، ١ / ٦٥ ـــ ٦٦.
٣- الاستيعاب، ٤ / ١٤٧٦.

بكلام لطيف، يظهر منه السمع والطاعة لأمر الله ورسوله: «بأبي أنت وأمي، ما كنت أرهب أن تستعمل زيدا عليّ»[1]، كما لم يكن تأمير أسامة بن زيد في غزو الروم، من أجل حب يكنه له، ولأبيه بالدرجة الأساس، وفي الصحابة مثل عمر، وخالد، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم، وإنما لكونه كان خليقا بها، كما كان أبوه خليقا بها، فانظر إلى قوله ﷺ: «وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة، و إن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده»[2]، وفي رواية أنه ﷺ قال لأسامة: «سر إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فأغر صباحا على أهل أبنى[3]، وحرق عليهم... الحديث»[4].

قال ابن الجوزي رحمه الله محللا بعد النظر الذي كان يتلمح إليه رسول الله ﷺ وهو يأمر أسامة رضي الله عنه على هذا الجيش: «اعلم أن النظر إلى صورة الأشياء غلب على أكثر الناس، وكان النبي ﷺ يتلمح المعاني؛ فالقوم نظروا إلى أن أسامة حدث السن، وأنه ابن مولى، والنبي ﷺ رآه صالحا للإمارة، خصوصا في هذه السرية التي بعثه فيها إلى موضع مقتل أبيه، وكذلك أمّر عمرو بن العاص على جيش فيه أبو بكر، وعمر، لا لفضله عليهم، ولكنه كان أبصر بالحرب، وهذه

١- رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب المناقب، فضل زيد بن حارثة، ٥ / ٧١، رقم: ٨٢٤٩، وأحمد في المسند، ٥ / ٣٠٠، رقم: ٢٢٦١٩، قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في ذيله على المسند: "صحيح لغيره، وهذا إسناد جيد".

٢- رواه البخاري في المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد رضي الله عنهما في مرضه الذي توفي فيه، ٨ / ١٥٢، وفي الأيمان والنذور، باب قول النبي ﷺ: «وأيم الله»، ١١ / ٥٢١. ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي الله عنهما، ص ٩٤٧. والترمذي في المناقب، باب مناقب زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقال: هذا حديث حسن صحيح، ٥ / ٦٧٦.

٣- أبنى: بضم الهمزة ثم موحدة ثم نون مفتوحة مقصورة اسم موضع بين عسقلان والرملة، وفي كلام السهيلي رحمه الله، هي قرية عند مؤتة التي قتل عندها زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، ٣ / ٢٢٧.

٤- هذا النص ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام، ٢ / ٧١٣، وابن حجر في فتح الباري، قال: «وكان ابتداء ذلك قبل مرض النبي ﷺ فندب الناس لغزو الروم في آخر صفر، ودعا أسامة فقال: «سر إلى موضع مقتل أبيك... الحديث»، ٨ / ١٥٢، ولم أجده في كتب الرواية، وذكره ابن سعد في الطبقات الكبرى، ٢ / ١٨٩.

السرية التي أمر فيها أسامة، كانت إلى أهل أبنى فقال له: «سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل... الحديث»[1].

وانظر قوله في شأن إمارة علي رضي الله عنه: «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله؛ ليس بفرّار، يفتح الله على يديه»[2]، روى أبو رافع رضي الله عنه قال: خرجنا مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن، خرج إليه أهله، فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود، فطرح ترسه من يده، فتناول علي بابا عند الحصن، فتترّس به عن نفسه، فلم يزل في يده، وهو يقاتل، حتى فتح الله علينا، ثم ألقاه، فلقد رأيتنا ثمانية نفر، نجهد أن نقلب ذلك الباب، فما استطعنا أن نقلبه[3]، وذكر ابن عبد البر فيما رواه من طريق عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، يصف علي بن أبي طالب قال: «كان له البسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والعهد لرسول الله، والفقه في المسألة، والنجدة في الحرب، والجود في الماعون»[4]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أرى أن تأميره ﷺ هؤلاء الأشبال من الصحابة، على رأس كبارهم، يدل على نظرته المستقبلية الثاقبة، في ضرورة فسح المجال للكفاءات الشبابية، واستثمار طاقاتهم، واستغلال قدراتهم في التسيير، والتعليم، والتبليغ، والرئاسة، كما يدل أيضا على اهتمام المدرسة

١- كشف المشكل من حديث الصحيحين، ١ / ٦٥٧.

٢- رواه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه وقال النبي ﷺ لعلي: «أنت مني وأنا منك» وقال عمر: «توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض»، ٧ / ٧٠.

٣- رواه أحمد في المسند، ٦ / ٨، والبيهقي في دلائل النبوة، ٤ / ٢١٣، كلاهما من طريق محمد بن إسحاق، حدثني عبد الله بن الحسن عن بعض أهله، عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: «خرجنا مع علي... الحديث»، ولعله من أجل هذا الإبهام قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في ذيل المسند: «إسناد ضعيف»، ورواه أيضا ابن هشام في السيرة النبوية من هذا الطريق، ٣ / ٢٨٧، وهو أيضا عند الذهبي في سير أعلام النبلاء، تحقيق محمود شاكر، ١ / ٤٠٦.

٤- رواه الخلال في السنة، من طريق سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص عن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، ٢ / ٣٤٢، وذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق، في آباء من اسمه علي، ١٢ / ٤١٧، والسيوطي في تاريخ الخلفاء، ١ / ١٥٠، وقال عطية الزهراني محقق السنة للخلال: «إسناده ضعيف»، وينظر أيضا: الاستيعاب، ٣ / ١١٠٧.

المحمدية بالقدرات الفردية، وتشجيع المؤهلات الذاتية.

ج– تعيين القضاة والمعلمين: بعث رسول الله ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى المدينة، قبل الهجرة، وبعد بيعة العقبة، يقرئ المسلمين القرآن، ويفقههم في الدين، فكان يدعى القارئ والمقرئ، ويقال إنه أول من جمع الجمعة بالمدينة(١)، ولما انتشر أمر الإسلام في شبه الجزيرة العربية، كان لزاما أن يبعث رسول الله ﷺ الرسل لتعليم الناس مبادئ الإسلام وتعاليمه، وأحكامه، فأرسل أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل إلى اليمن، ووصاهما بقوله: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا»(٢)، وبعث علي بن أبي طالب إلى اليمن، وهو شاب ليقضي بينهم، فقال، يا رسول الله، إني لا أدري ما القضاء، فضرب رسول الله ﷺ بيده صدره وقال: «اللهم أهد قلبه، وسدد لسانه»، قال علي رضي الله عنه: «فو الله ما شككت بعدها في قضاء بين اثنين»(٣)، واستعمل رسول الله ﷺ عمرو بن حزم على أهل نجران، وهم بنو الحارث بن كعب، وهو ابن سبع عشرة سنة، ليفقههم في الدين، ويعلمهم القرآن، ويأخذ صدقاتهم، وذلك سنة عشر، بعد أن بعث إليهم خالد بن الوليد، فأسلموا، وكتب له كتابا فيه الفرائض، والسنن، والصدقات، والديات(٤).

تلكم هي أوصاف القادة الذين أمّرهم رسول الله ﷺ والقضاة الذين عينهم، والأعلام الذين دربهم؛ على أسس من: حب الله ورسوله، والعهد لله ولرسوله، والكفاءة، والقوة، والكرّ، والشجاعة، والإقدام، والفقه، والعلم، والنجدة،

١- سير أعلام النبلاء، ٤ / ١٤٧٣.

٢- رواه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، واللفظ له، ٨ / ٦٢، ومسلم في الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، ص ٦٨٩.

٣- الاستيعاب، ٣ / ١١٠٧، وفي رواية عن علي رضي الله عنه قال: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن، وأنا حديث السن، ليس لي علم بالقضاء، فضرب صدري وقال: «اذهب فإن الله سيهدي قلبك، ويثبت لسانك» قال: فما شككت في قضاء بين اثنين بعد، رواه ابن ماجه في الأحكام، باب ذكر القضاء، ص ٢٦١٥.

٤- الاستيعاب، ٣ / ١١٧٢ ــ ١١٧٣.

والتجربة، والخبرة...الخ. وهي كما نرى، صفات مثالية، ومحفزة، وملهمة للحماس، واضحة الغرض، ثابتة الاتجاه، تربط الحاضر بالمستقبل، وأختم هذا المطلب بالكلام عن ثلاث نقاط مهمة:

- صانع الكفاءات، أو بعبارة أخرى، وحدة القيادة، ممثلة في شخص القائد رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي، والمهيأ من الله عز وجل لحمل الرسالة وتبليغ الأمانة، صفاته مجيدة، وأخلاقه حميدة.

- الكفاءات التي يراد لها أن تصنع، ممثلة في صحابة رسول الله ﷺ من آمنوا برسالته، وجاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الحق، الذين بلغوا الرسالة بعده، هم عدول الأمة، وخير القرون فيها[1]، مرجعيتهم واحدة؛ كلما واجهتهم مسألة، إلا وعادوا فيها إلى رسول الله ﷺ يطبقون أوامره، وينتهون عن نواهيه.

- وحدة الهدف؛ فالقائد والمقود، يعملون كلهم، ويجاهدون، من أجل إعلاء كلمة الإسلام، على امتداد الزمان والمكان.

المطلب الخامس: تحفيز الكفاءات في المدرسة النبوية.

إذا كانت إدارة الموارد البشرية تهدف إلى الحصول على أقصى فائدة ممكنة من الكفاءات البشرية، والاستغلال الأمثل لقدراتهم من خلال وظائف التخطيط، والاستقطاب، والتدريب، والحوافز المادية والمعنوية، فإن الدعوة المحمدية، تهدف إلى بناء الأمة الخالدة الأبدية، من خلال بناء القدرات النفسية، والعضلية، والمادية، والعاطفية، والروحية للإنسان؛ لهذا كانت المكافآت والحوافز في

١- قَالَ تَعَالَى:(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) آل عمران: ١١٠، وسئل عليه الصلاة والسلام، أي الناس خير قال: «قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...الحديث»، رواه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ص ٩٨٣.

الشريعة الإسلامية، منحا ربانية تعطى للمستحق لها، دون تمييز بين ذكر وأنثى، أو بين صغير وكبير، أو بين غني وفقير، أو بين أسود وأبيض.

وإذا كانت الحوافز والمنح في إدارة الموارد البشرية، لا تتجاوز حد العطاءات المالية، والمكافآت المعنوية مقابل قدرات الفرد وكفاءاته المادية والعلمية، والمعنوية، فإن المدرسة المحمدية توجه الموارد البشرية إلى الحصول على نوعين من المنح والعطاءات التحفيزية:

النوع الأول: المنح والعطاءات المالية، والمعنوية العاجلة، العائدة من الفيء، والغنائم، وبيت مال المسلمين...الخ؛ والتي توزع على أفراد الأمة وفق مخطط دقيق، ليس له مثيل في أي شرعة غير الإسلام[1]، وأستعين في بيان شيء من فقه هذه القضية، بما ذكره الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، وهو يستلهم فقه السيرة من غزوة بدر الكبرى قال: «عالجت الحكمة الإلهية تجربة رؤية الغنائم، والأموال مع الحاجة والفقر، بوسائل تربوية دقيقة، جاءت في وقتها المناسب، وقد تجلى أثر هذه التجربة في مشهدين، على أعقاب هذه الغزوة.

المشهد الأول[2]: حينما انهزم المشركون، وتركوا وراءهم أموالهم المختلفة؛ فقد تسابق بعض المسلمين إليها، واختلفوا بعضهم مع بعض في كيفية استحقاقهم لها، وكادوا يشتجرون على ذلك، ولم يكن قد نزل بعد حكم توزيع الغنائم بين المقاتلين، فراحوا يسألون النبي ﷺ وينهون إليه خصومتهم في الأمر، وعندئذ نزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١)، فالآية توجه المسلمين توجيها غير مألوف عند العرب قبل ذلك؛ إذْ تؤكد لهم مورد الأنفال، بأنها لله ولرسوله، و

١- ينظر تفصيل ذلك في أبواب الفيء، والغنائم، من كتب السنة، وكتب السيرة، والتاريخ الإسلامي، والخراج، وغيرها.

٢- فقه السيرة، ص ١٦٥ – ١٦٦.

توجههم إلى طاعة الله والرسول، وإصلاح ذات بينهم، ثم تنزل بعد ذلك آيات تقرر كيفية تقسيم الغنائم[1].

النوع الثاني: الحوافز الإلهية والعطاءات الربانية الآجلة، التي وعد الله بها عباده المتقين في الدار الآخرة، بمقدار العمل، الذي قدمه كل واحد منهم في الحياة الدنيا، وبمقدار إخلاصه في إنجازه، سواء ما تعلق منه بالعبادات، أو بالمعاملات، أو بالسلوكيات الأخلاقية.

١- هذا الكلام مستل من فقه السيرة، ص ١٦٥ ـــ ١٦٦، وله أصل في كتب التفسير، ففي تفسير القرآن العظيم لابن كثير، في سبب نزول هذه الآية، عن أبي أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال فقال: «فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين، وفي رواية عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرا، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر، يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، فليس لأحد فيها نصيب. وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، ٢ / ٣٧٦ ـــ ٣٧٧.

الخاتمة

إذا كانت إدارة الموارد البشرية، هي فن اجتذاب العاملين، واختيارهم، وتعيينهم، وتنمية قدراتهم. وإذا كانت إدارة الموارد البشرية، تهدف إلى الحصول على أقصى فائدة ممكنة من الكفاءات البشرية، والاستغلال الأمثل لقدراتهم.

وإذا كان العالم المتقدم، لم يكتشف أهمية العنصر البشري، إلا في القرن الثامن عشر، نتيجة لما أفرزته الثورة الصناعية، وظهور النقابات العمالية، المطالبة بزيادة الأجور، ونبذ الاستغلال، وتحفيز العمال...الخ، فإننا توصلنا من خلال هذا البحث إلى نتائج متميزة، خاصة بفن إدارة الموارد البشرية في السنة النبوية، وفن صناعة رجال الحاضر والمستقبل على امتداد الزمان والمكان، من ذلك:

- أن للمدرسة النبوية فضل السبق في صناعة الكفاءات، وتدريب المهارات، وتنمية القدرات، وترشيد الطاقات.
- أن المدرسة النبوية هي المعيار الأكمل، والأنموذج الأمثل لإعداد الرجال، وصناعة الكفاءات.
- أن خريجي المدرسة النبوية، ضربوا أمثلة خالدة لنوع الكفاءات البشرية التي حملت هذا الدين إلى مشارق الأرض ومغاربها.
- أن فن اجتذاب الموارد البشرية، واختيارهم، وتعيينهم، وتنمية قدراتهم، يعد واحدا من المقاييس المقررة في الجامعة النبوية.
- أن القيم الخلقية، هي السبيل الأمثل، والمنهج الأكمل في الجامعة النبوية لإعداد الكفاءات، وإدارة الموارد البشرية؛ فبالإضافة إلى المقاييس المذكورة في النتيجة السابقة، فإن الإيمان بالله ورسوله، وحب الله ورسوله، والعهد لله ولرسوله، والكفاءة، والقوة، والكرّ، والشجاعة، والإقدام، والفقه،

والعلم، والعمل، والنجدة، والتجربة، والخبرة، والإخلاص، والصدق، والحلم، والجمع بين الإيمان والعلم والعمل...الخ، هي الصفات المثالية، المحفزة، البينة الأهداف، الواضحة الغرض، الثابتة الاتجاه، في ربط الحاضر بالمستقبل في هذه الجامعة؛ فهي المعايير الناجعة التي تعكس تميز هذا الدين، وتوضح كماله.

- أن البعد الاستشرافي، والنظر المستقبلي في الإسلام، لا ينتهي عند الحياة الدنيا، بل يمتد إلى الحياة الخالدة بعد الموت؛ فالمؤمن في هذه الدنيا يعبد، ويعمل خيرا، ويدعو لدين الله، ويجاهد في سبيله...الخ، طمعا في رضوان الله، والفوز بالجنة، وهي قمة الجزاء الذي يطمح إليه كل مؤمن.
- أن المدرسة المحمدية لا تهدف إلى الاستغلال الأمثل للطاقات البشرية، ولا إلى الحصول على أقصى قدر ممكن من الكفاءات البشرية، كما هو الحال في علم إدارة الموارد البشرية اليوم، بل إنها الجامعة التي تخرّج الكفاءات، والمصنع الذي يعدّ الطاقات، ويوجهها، ويحفزها، ويشجعها، ويدفعها قدما نحو مسارات التنمية المادية، والمعنوية، والروحية على امتداد المستقبل البعيد، بعد الزمان والمكان إلى قيام الساعة، وإلى ما بعد ذلك.

ولعل مشهد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو يخاطب النجاشي ملك الحبشة، بعد هجرة المسلمين إليها من مكة، يمثل صورة حية لنوعية الكفاءات البشرية التي تخرجت من الجامعة المحمدية، وفي فترة زمنية وجيزة، عندما قال له: «أيها الملك، إنا كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولا منّا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه؛ فدعانا إلى عبادة الله وحده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق

الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، فصدقناه وآمنا به، فظلمنا قومنا وعذبونا.....»[1].

إن هذا النص الخالد، دليل واضح، في التعبير على تغير هؤلاء الرجال من حال إلى حال: من حال الجهل، والشرك، والقتل، والنهب، وإتيان الفواحش، وقطع الرحم، وسوء الجوار، والظلم، إلى عبادة الله الواحد، وقول الصدق، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وغيرها، فهل يوجد في القوانين الوضعية، والأعراف الدولية، من غير شريعة الإسلام، منهج يصنع الكفاءات على مثل هذه القيم، وفي مثل هذه المدة؟

و أنهي هذا البحث، بحديث لعدي بن حاتم رضي الله عنه، يرفعه، يبشر فيه رسول الله ﷺ أصحابه بمستقبل امتداد هذا الدين، ويصف لهم الأمل القادم، في ازدهار الأمة، وسيادة الفضائل، والمكارم بين أفرادها، وما أشبه اليوم بالبارحة، قال: «لعلك يا عدي، إنما يمنعك من دخولك في هذا الدين، ما ترى من حاجة أهله، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم، حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها، حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم»، فدخل الإيمان في قلب عدي، فأسلم، وكان يقول: «فرأيت اثنتين: الظعينة، وكنت في أول خيل أغارت على كنوز كسرى، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة»[2].

١- السيرة، ابن هشام، ١ / ٣٦٢.

٢- ذكره ابن كثير في السيرة النبوية، ٤ / ١٢٣، وفي البداية والنهاية، ٥ / ٧٧، وابن هشام في السيرة، ٢ / ٥٨١، وابن الجوزي في المنتظم في التاريخ، ٦ / ٥٠ن ولم أجده في كتب الرواية.

وها هي الأمة الإسلامية تبدأ بمحمد ﷺ لتصل اليوم إلى أكثر من مليار نسمة؛ ولئن تخللتها فترات من الضعف حينا، ومن الخذلان حينا آخر، ولئن تداعى الأمم عليها كما تداعى الأكلة إلى قصعتها[1]، فإن في أبواب الملاحم، والفتن، من كتب السنة النبوية الشريفة، ما يبشر بأن المستقبل لهذا الدين، بإذن الله، وأن النصر للمسلمين، متى ما نصروا الله، ومتى ما تمسكوا بالكتاب والسنة، مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبدا حبشيا؛ فإنه من يعش منكم بعدي، فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ... الحديث»[2].

إن الصحابة فهموا المعاني السامية، والراقية لهذا الدين، وكانوا صادقين في الاستجابة لأمر الله، وأمر رسول الله، وكانوا أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وما على الأجيال المتعاقبة بعدهم، وإلى قيام الساعة، إلا التمسك بالكتاب والسنة، بالفهم السليم الذي كان عليه سلف الأمة؛ لأن الإسلام يمثل حاضرهم ومستقبلنا، ويمثل حاضرنا ومستقبل من سيأتي بعدنا، ويمثل المستقبل الأبدي لكل البشر.

وصلى الله على سيدنا محمد، والحمد لله رب العالمين.

١- طرف من حديث رواه ثوبان عن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»، رواه أبو داود في الملاحم، باب تداعي الأمم على أهل الإسلام، ٣/ ١١٥، وصححه الشيخ الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير، ٢/ ٢١٣، رقم: ٨١٨٣.

٢- رواه أبو داود في السنة، باب لزوم السنة، ٣/ ٢٠٦، وصححه الألباني، صحيح وضعيف الجامع الصغير، ١/ ٢٤١، رقم: ٢٥٤٩.

قائمة المصادر والمراجع

- أخلاق الحرب، مروان شيخ الرياض، دمشق، دار غار حراء، ط١، ٢٠٠٨.
- الإدارة العامة الأسس و الوظائف، نمر سعود وآخرون، الرياض، مطابع الفرزدق، ١٩٩٤.
- إدارة الموارد البشرية إلى أين، الخزامي، القاهرة، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٩٩٢.
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ط١، ١٣٩٧-١٩٧٧.
- بيان الوهم والإيهام الواقعين في كتاب الأحكام، ابن القطان الفاسي، تحقيق: الحسين آيت سعيد، المملكة العربية السعودية، دار طيبة، ط١، ١٩٩٧.
- تاريخ الإسلام، الذهبي، تحقيق: د. عمر عبد السلام التدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٧-١٩٨٧.
- تاريخ الخلفاء، السيوطي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، ط١، ١٣٧١-١٩٥٢.
- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، عبد الرحمن المباركفوري، بيروت، دار الكتب العلمية.

- تفسير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠-٢٠٠٠.

- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، المغرب، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٣٨٧هـ.

- تهذيب التهذيب، ابن حجر، دار الفكر، ط١، ١٩٩٥.

- الثقات، ابن حبان، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، دائرة المعارف العثمانية، الهند، حيدرآباد.

- الجامع، الترمذي، القاهرة، دار الحديث.

- الجامع، الترمذي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، تذييل الشيخ الألباني.

- الجامع الصحيح، البخاري، ومعه فتح الباري لابن حجر، بيروت، دار المعرفة.

- دلائل النبوة، البيهقي، بيروت + القاهرة، دار الكتب العلمية + دار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٨-١٩٨٨.

- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، الجزائر، دار البصائر، ط١٩، ١٤٢٨-٢٠٠٧.

- السنة، الخلّال، تحقيق: عطية الزهراني، الرياض، دار الراية، ط١، ١٤١٠.

- السنن، أبو داود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٦.

- السنن، ابن ماجه، موسوعة الكتب الستة، الرياض، دار السلام للنشر والتوزيع.
- السنن، النسائي، بيروت، دار الكتب العلمية.
- السنن الكبرى، النسائي، مراجعة: عبد الغفار سليمان البنداري، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١-١٩٩١.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي، بيروت، دار التراث، ط١، ١٤٢٧-٢٠٠٦، وطبعة مصر، دار المعارف، تحقيق: محمود محمد شاكر.
- السيرة النبوية، ابن كثير، دون معلومات.
- السيرة النبوية، ابن هشام، دار الكتاب العربي، ط٣، ١٩٩٠.
- صحيح مسلم، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠١.
- صحيح وضعيف الجامع الصغير، الألباني، المكتب الإسلامي، ١٤٠٨ هـ.
- الطبقات الكبرى، ابن سعد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠-١٩٩١.
- فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، ط١١، ١٩٩١.
- كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي، تحقيق: علي حسن البواب، الرياض، دار الوطن، ١٤١٨-١٩٩٧.
- مجالس التذكير من حديث البشير النذير، عبد الحميد بن باديس، الجزائر: دار البعث، ط ١، ١٩٨٣ م.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، القاهرة: مكتبة القدسي.

- مجموعة الفتاوى، ابن تيمية، المنصورة: دار الوفاء، ط ٢، ١٤٢١-٢٠٠١.
- المسند، أحمد بن حنبل، دار الفكر.
- المسند، أحمد بن حنبل، مذيل بأحكام الشيخ شعيب الأرناؤوط[القاهرة: مؤسسة قرطبة.
- المستدرك، الحاكم النيسابوري، بيروت: دار الكتب العلمية.
- المعجم الأوسط، الطبراني، الرياض: مكتبة المعارف، ط ١، ١٩٩٥.
- المعجم الكبير، الطبراني، ط ٣.
- معرفة التذكرة في الأحاديث الموضوعة، ابن طاهر المقدسي، مؤسسة الكتب الثقافية.
- لسان العرب، ابن منظور، القاهرة: دار المعارف.
- لسان الميزان، ابن حجر، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ٢، ١٣٩٠ هـ.

المقالات:

- استغلال الأطفال في العمالة الرخيصة حول العالم، لميرل ديفيد كلرهالس[المحرر في موقع أميركا دوت غوف، America.gov.
- ماليزيا تسعى جاهدة لاستعادة عقولها المهاجرة، من غير مؤلف، منتدى الإدارة العامة، ومجموعة الموارد البشرية، HRMGroup، http://hrm-group.com.

المواقع الإلكترونية:

- الأنوار في سيرة النبي المختار بطريقة سؤال وجواب، سليمان بن محمد اللهيميد، موقع مكتبة صيد الفوائد http://www.said.net/book/index.php.
- البداية والنهاية، لابن كثير، موقع يعسوب، إعداد موقع روح الإسلام، www.islamicspirit.com.
- سيرة ابن هشام، http://www.al_islamic.com.
- المنتظم في التاريخ، لابن الجوزي، موقع شبكة مشكاة الإسلامية، http://www.almeshkat.net.
- وكيبيديا، الموسوعة الحرة، http://ar.wikipedia.org/wiki/.

اهتمام السنة بالاستشراف و التخطيط في التنمية الاقتصادية و الاجتماعية

أ.د. كايد يوسف قرعوش
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة العلوم التطبيقية الخاصة – الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد بن عبدالله، النعمة المهداة، والرحمة المسداة، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن اتبع هداهم إلى يوم الدين، وبعد،،،

الزمان ماض وحاضر ومستقبل، وليس الحاضر الذي نعيش هو منتهى سؤلنا ولا مبلغ علمنا. وإذا كان الاشتغال بالحاضر عما سواه، هو دأب الحيوان الأعجم، فإن الإنسان العاقل يعيش حاضره وعيناه في نظر يستوعب الزمان من أطرافه، يرقب الماضي معتبراً بما فيه، ويرنو إلى المستقبل متأملا كيف يكون، وما يمكن أن يحمل من مفاجآت. واستطلاع المستقبل ومعرفة مستجداته موضع اهتمام لطائفتين من الناس:

- حكماء يستشرفون المستقبل عن وعي وبصيرة، يؤسسون لمعرفة الآتي بالنظر في أحداث الماضي، معتبرين بما كان، متأملين فيما سيكون، ولهم في تفهم السنن الاجتماعية حظ وافر.
- ومتبطلون تعجلوا حظهم منه بالحدس الأجوف والتخمين الزائف، لم يؤتوا حظا من علم المستقبل، وإن كانوا أوتوا قدرا من الدهاء يمكنهم من التلاعب بعقول البسطاء، ما بين كاهن زريّ، أو منجم دعيّ، أو عابث بالرمل أو ما داناه، يستمطرون علم الغيب، وما علموا أن الله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الجن:٢٦).

هكذا فإن استشراف المستقبل علم يتهادى بين عالم ومتعالم، والعالم ذو

معرفة وبصر، أما المتعالم فـ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (سورة المدثر: ١٩،١٨)، وكل ذلك في حدود ما تعارفه الناس أو عرفوه.

لكن للأنبياء وضعاَ خاصا في استشراف المستقبل، للوحي النصيب الأوفى منه، ولقد كان للنبي ﷺ نبوءات في هذا المقام، ولكنها نبوءات تأتي في زمانها كفلق الصبح، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، كما أن لتدبر السنن الإلهية نصيبا آخر.

ولقد كان للقضايا الاقتصادية والاجتماعية المستقبلية نصيب وافر من اهتمام السنة النبوية، ولم تزل هذه القضايا هاجس الناس عبر الزمان والمكان، ما حضر منها وما ينتظر، كما انها ما زالت شاهدا على صدق نبوته ﷺ. وموضوع اهتمام السنة النبوية بالقضايا التنموية في المجالين الاقتصادي والاجتماعي مما حفلت به المصنفات القديمة، ولا يكاد يجمع قضاياها كتاب أو باب، وإن كانت بعض الكتب أجمع لبعض مباحثها من أخرى، مثل كتاب (دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للبيهقي)، وكتاب (دلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني).

أما الدراسات الحديثة فمنها:

- استشراف المستقبل في الحديث النبوي / د. إلياس بلكا.
- استشراف المستقبل في الحديث النبوي الشريف / د. أحمد إبراهيم الدسوقي.
- الإعجاز العلمي في السنة النبوية / د. صالح بن أحمد رضا.

هذا فضلا عن أعمال هذه الندوة العلمية الدولية الخامسة التي اتخذت لها عنوانا «الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية» وحددت محاورها حول التنمية الاجتماعية والاقتصادية بصورة عامة، ومنها الدعوة والتربية والتعليم والصحة والبيئة وإدارة الأزمات.

وقد وقع اختياري على الكتابة في موضوع «اهتمام السنة بالاستشراف والتخطيط في التنمية الاجتماعية والاقتصادية» وقسمت البحث فيه إلى ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: مصطلحات البحث.
- المبحث الثاني: صور من الاستشراف النبوي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وقد تناول هذا المبحث بالبيان مظاهر تحقق الرفاه في العصور اللاحقة، وازدهار التجارة والزراعة والعمران، مع بيان أن استدامة التنمية رهن بشكر الله تعالى.
- المبحث الثالث: صور من التخطيط النبوي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وأحسب أن الجديد في دراستي هذه يكمن في المبحثين الثاني والثالث، وبخاصة في تنظيم المادة العلمية على نحو يبرز جوانب التنمية الاقصادية والاجتماعية، سواء تعلق الأمر بتحقيق الرفاه والعدالة الاجتماعية، أو بالتوسع في أعمال الزراعة والتجارة والعمران، إضافة إلى التخطيط في نطاق التوازن الاقتصادي وحماية المستهلك، فإن كنت أحسنت فمن الله وحده، وإن لم أكن فلا تثريب عليّ، وحسبي أنني سددت وقاربت، والله وحده المستعان وعليه التكلان.

المبحث الأول: مصطلحات البحث.

بين يدي بحثنا في «اهتمام السنة بالاستشراف والتخطيط في التنمية الاقتصادية والاجتماعية» لا بد من تحديد مصطلحات البحث الأساسية، نأخذها من عنوان البحث نفسه، فنتكلم عن المصطلحات الآتية في مطالب ثلاثة:

- المطلب الأول: الاستشراف.

- المطلب الثاني: التخطيط.

- المطلب الثالث: التنمية.

المطلب الأول: الاستشراف.

الاستشراف لغة: لفظ مشتق من «شرف» والشرف الحسب بالآباء، والشرف أعلى الشيء، والشرف كل نشز من الأرض قد أشرف على ما حوله، وجبل مشرف أي عالٍ، والشرف من الأرض المكان العالي، وأشرف الشيء على الشيء علاه[1]. إن الاستشراف في أصل وضعه اللغوي لفظ يراد به النظر من علو نظر المحقق المدقق المستبصر، لا يحول دون رؤيته حائل.

أما الاستشراف اصطلاحاً: فهو ذو صلة بما يسمى (علم المستقبل)، وقد عرفه بعضهم بأنه «مجموعة المناهج والأبحاث حول التطور المستقبلي للإنسانية، أو لقسم منه، أو لقضية من قضاياها، تمكن من استخلاص عناصر التوقع»[2].

إن الاستشراف وفقاً لهذا المعنى ليس رجما بالغيب، أو تكهنا يعتمد على القراءة العشوائية لوقائع الأحداث، ولكنه ضرب من التحليل المستقبلي الذي لا يتقيد بأسلوب معين أو منهجية محددة. إنه «نوع من (الحدس التاريخي) المستند إلى قاعدة علمية، يوجه فيه الجهد إلى اكتشاف آفاق المستقبل ودروبه بهدف رسم خرائط للملاحة الصعبة في بحاره»[3]، وامتلاك هذه المكنة أشبه بامتلاك بوصلة لتحديد أنماط التطورات التاريخية والتحولات المستقبلية المحتملة، وبلورة السياسات التي توصل إلى تحديد إمكانات المناورة والتخطيط للتعامل مع

١- لسان العرب، ابن منظور، مادة (شرف)، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير الجزري، ٢ / ٤١٤.

٢- استشراف المستقبل في الحديث النبوي، إلياس بلكا، ص ٢٧.

٣- الجهود العربية في مجال استشراف المستقبل، د. محمود عبد الفضيل، بحث منشور في مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد(يناير، فبراير، مارس)، ١٩٨٨، ملخص الصفحات ٥١-٥٥.

الأحداث والأزمات.

وإن كان ثمة ما يسمى فقه الواقع ، فإن الاستشراف نوع من فقه المتوقع المبني على العلم والقدرة على التحليل.

إن النظرة الاستشرافية أشبه بالوقوف على ربوة عالية تمكن صاحبها من مطالعة أبعاد الزمن الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، والتعرف إلى القوانين والسنن الناظمة لحركة المجتمعات، وليست دعوة القرآن الكريم للاعتبار بقصص الأقدمين إلا رافدا من روافد هذا الموضوع ، «والاعتبار إنما هو نوع من المقايسة والمقارنة والبصيرة والقدرة على قراءة المستقبل من خلال ما يمنح الماضي من معرفة هذه السنن»[1].

المطلب الثاني: التخطيط.

التخطيط لغة: لفظ مشتق من (خطّ)، والخط الطريق المستطيلة في الشيء، أو الطريق الخفيف في السهل. وخط الأرض واختطها أن يضع عليها خطا علامة على أنه حازها ليبنيها دارا، ومنه خطط البصرة والكوفة، ومن هنا سمى المقريزي كتابه (الخطط). والخطة (بالضم): الأمر والقصة، وفي حديث الحديبية: «لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»[2].

أما التخطيط اصطلاحا فيعني: «تحديد أهداف معينة يجب أن يحققها المجتمع خلال مدة معينة، مع تحديد الوسائل والأدوات اللازمة لتحقيق هذه الأهداف، ووضع هذه الوسائل والأدوات موضع التنفيذ»[3].

١- من مقدمة السيد عمر عبيد حسنة لكتاب (استشراف المستقبل في الحديث النبوي) للدكتور إلياس بلكا، ١٥.

٢- السنن، أبو داود، كتاب الجهاد باب في صلح العدو، رقم ٢٧٦٥، والحديث صحيح.

٣- موسوعة السياسة، د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون، ١ / ٧٠١.

والعلاقة بين المعنيين -فيما أرى- أن التخطيط يستهدف رسم خطوط وطرق واضحة يسير عليها المجتمع ومؤسساته، بحيث يكون البناء على أرض واضحة ومحددة المعالم، دون التخبط في تحديد المنطلقات ووضع الأولويات عند التنفيذ.

ولأهمية التخطيط فقد أصبح من المعهود أن تخصص له في أغلب الدول وزارة تحمل اسم «وزارة التخطيط» بصفته مقدمة ضرورية لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، حتى ساغ لبعضهم تعريفه بأنه «إعداد الخطط من أجل التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بحيث ترسم الكيفية للاستفادة من الموارد التي تتمتع بها الدول على أفضل وجه، وتوزيعها على كافة الحاجات من أجل إمكان الحصول على منفعة قصوى لصالح الجماعة»[1]. هذا وللتخطيط ارتباط وثيق باستشراف المستقبل، فهو منهج علمي ينأى عن التخبط والتنبؤ بالغيب والدخول إلى عالم المستقبل من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

المطلب الثالث: التنمية.

التنمية لغة: لفظ مشتق من «ما ينمي وربما قالوا (نما ينمو)، والنماء الزيادة، وأنميت الشيء ونميته جعلته ناميا، والأشياء كلها على وجه الأرض نام وصامت، فالنامي مثل النبات والشجر، والصامت كالحجر والجبل، والنماء الريع، ونما الإنسان سمن، والنامية من الإبل السمينة»[2].

أما اصطلاحا: فهي «عملية تغيير في البنية الاقتصادية والاجتماعية وفي الأنشطة والسلوكيات الاجتماعية والاقتصادية، تغيير يمتد إلى جوانب متعددة من الحياة المجتمعية بناء وحركة»[3]. والتنمية مفهوم يتجه الذهن عند إطلاقه إلى التنمية

١- معجم المصطلحات الاقتصادية والاسلامية، علي بن محمد الجمعة، ١٧٢.
٢- لسان العرب، ابن منظور، مادة (نمي).
٣- دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، جمال عبده، ٤١.

الاقتصادية ابتداء، لكن تحقيق التنمية الاقتصادية يؤدي بالضرورة إلى تنمية اجتماعية بصورة من الصور، ومن اللافت للنظر أن لفيفا من الدول النامية تحاول الوصول إلى التنمية من جانبها الاقتصادي حصرا، ظنا منها أن عملية التنمية والرقي تنحصر في هذا الإطار[1] وهذا خداع للنفس وقصور في التصور، ذلك أن التخلف في المجال الاقتصادي إن هو إلا مظهر للتخلف في المجالات الأخرى من سياسية واجتماعية وثقافية وغيرها.

أما التنمية الاقتصادية فهي عبارة عن تحقيق معدل سريع للتوسع الاقتصادي تنتقل به الدولة المتخلفة من معيشة الكفاف إلى مستويات متقدمة من الرفاه الاقتصادي، وتزداد به المعدلات الحالية للنمو في الدول المتقدمة[2]. وعرفها آخرون بأنها «عمليات استخدام الموارد الاقتصادية المتاحة للمجتمع في تحقيق زيادات مستمرة في الدخل القومي تفوق معدلات النمو السكاني، بما يؤدي إلى إحداث زيادات حقيقية في متوسط نصيب الفرد من الدخل»[3].

أما التنمية الاجتماعية فقد عرفها هيجنز Higgins بأنها عملية استثمار إنساني تتم في المجالات أو القطاعات التي تمس حياة البشر مثل التعليم والصحة العامة، والإسكان، والرعاية الاجتماعية، بحيث يوجه عائد تلك العملية إلى النشاط الاقتصادي[4]. وليس يخفى ما هناك من ارتباط بين التنمية بوجهيها الاقتصادي والاجتماعي، فإن نجاح التنمية الاقتصادية رهن بإحداث تنمية اجتماعية تستهدف تغيير القيم والعادات والتقاليد التي تشكل أنماط السلوك في المجتمع . والتنمية الاجتماعية، كما الحال في التنمية الاقتصادية، مدارها على تحقيق العدالة الاجتماعية، والعدالة الاجتماعية تعني في أبسط صورها إحلال اليسر بدل

١- التنمية الاقتصادية في المنهج الإسلامي، عبد الحق الشكيري، ٩.
٢- موسوعة المصطلحات الاقتصادية، د. حسين عمر ٧٩.
٣- الاقتصاد الإسلامي، د. محمد عبدالمنعم عفر، ١ / ٢٧٩.
٤- التعليم وإشكالية التنمية، حسن إبراهيم الهنداوي، ٧٧.

العسر، وتحقيق كرامة الإنسان وتنمية شخصيته، والحيلولة دون الظلم والجور، وتحقيق الرفاه العام[1].

وهذه التنمية تقتضي تدعيم القيم والاتجاهات الاجتماعية الإيجابية مثل الصبر والتعاون وصدق الالتزام. وتدعيم الحياة الأسرية وزيادة تماسكها واستقرارها، والقضاء على المعوقات الاجتماعية كالعصبية، والثقافية كالنظر إلى العمل نظرة سلبية، والاقتصادية كضعف استغلال الموارد الطبيعية المتوافرة، وما إلى ذلك من معوقات. وتعد التربية أساس التنمية وركيزتها.

المبحث الثاني: صور من الاستشراف النبوي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

لا بد قبل المضي في بيان صور الاستشراف النبوي لآفاق التنمية، في بعديها الاقتصادي والاجتماعي، من التأكيد مجددا على ما هنالك من علاقة جدلية بين هذين البعدين، وأن الجانب الاقتصادي من التنمية يصب في النهاية في الجانب الاجتماعي منها، لذا ورد الحديث عن هذين الجانبين معا في كثير من الأحاديث الشريفة ذات الصلة بهذا الموضوع. كما لا بد من التنويه إلى أن هذه الأحاديث، وهي تتحدث عن التحولات الاجتماعية، ترسم لنا خطا بيانيا صاعدا لا يلبث أن ينكفئ ويبدأ في النزول، ليشكل ما يشبه دورات تاريخية متعاقبة، تحقيقا لسنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا. ويظهر لنا من تتبع نصوص السنة النبوية في مراجعها الأصلية مظاهر الاستشراف النبوي في حقل التنمية، نبين أهمها في المطالب الآتية:

- المطلب الأول: تحقق الرفاه الاقتصادي والاجتماعي.
- المطلب الثاني: يشمل ازدهار الزراعة والتجارة والعمران.
- المطلب الثالث: التنمية المستدامة رهن بشكر النعمة.

١- العدالة الاجتماعية، فؤاد العادل، ١٨.

المطلب الأول: تحقق الرفاه الاقتصادي والاجتماعي.

تخبرنا الأحاديث الشريفة أن الظروف المادية الصعبة التي مر بها المجتمع المسلم في عصر النبوة ستشهد تحولات واسعة ينتقل بها المجتمع إلى حالة من الرفاه في مراحل زمنية مختلفة. و من مظاهر هذا الرفاه:

١- كثرة المال بين أيدي الناس:

عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قام في أصحابه فقال: الفقر تخافون أو العوز، أو تهمكم الدنيا؟ فإن الله فاتح لكم أرض فارس والروم، وتصب عليكم الدنيا صباً حتى لا يزيغكم بعدي إن أزاغكم إلا هي»[١]. وفي حديث آخر عن عوف بن مالك الأشجعي قال: أتيت النبي ﷺ فسلمت عليه فقال: عوف؟ فقلت: نعم، فقال: ادخل. قال قلت: كلي أو بعضي؟ قال: بل كلك، قال: اعدد يا عوف ستاً بين يدي الساعة: أولهن موتي، قال: فاستبكيت حتى جعل رسول الله ﷺ يسكنني. قال: قلت: إحدى. والثانية فتح بيت المقدس، قلت: اثنين. والثالثة: موتان يكون في أمتي يأخذهم مثل قعاص الغنم، قال: ثلاثاً. والرابعة فتنة تكون في أمتي وعظّمها. قل: أربعاً. والخامسة يفيض المال فيكم فيضا حتى إن الرجل ليعطى المائة دينار فيتسخطها. قل: خمسا. والسادسة هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر يسيرون إليكم على ثمانين راية تحت كل راية اثنا عشر ألفا، فسطاط المسلمين يومئذ في أرض يقال لها: الغوطة في مدينة يقال لها: دمشق»[٢].

واللافت للنظر في هذين الحديثين الشريفين التعبير عن سعة الرزق بقوله ﷺ: «وتصب عليكم الدنيا صباً»، وقوله: «يفيض المال فيكم». وكل منهما يوحي بأن هناك ثراء فاحشاً ينتظر هذه الأمة بعدما عانى الأولون ما عانوا من الجوع والمسغبة.

١- مسند أحمد بن حنبل، ص ١٧٨٣، رقم ٢٤٤٨٢.

٢- مسند أحمد بن حنبل، ص ١٧٨٣، رقم ٢٤٤٨٥. قال الارناؤوط: إسناده صحيح. والقعاص داء يصيب الغنم.

يقول الدكتور صالح بن أحمد معقباً على العبارة الأخيرة: «كلمة الإفاضة تعني الكثرة الزائدة جداً، حتى وكأنها فيضان يزيد عن الحد المعتاد»[1]. وهذا الفيض المنصب من الأموال يتمثل في رؤوس الأموال الضخمة التي تملأ ساحتنا العربية والإسلامية، حتى أضحى الحديث عن أصحاب الملايين لا يثير فضول أحد، نظراً لكثرتهم، بل تجاوز الأمر ذلك إلى أصحاب البلايين الذين أخذت أعدادهم تزداد يوماً عن يوم.

يعزز هذا المعنى أيضاً ما ورد في حديث أبي نضرة قال:كنا عند جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً لا يعده عداً». قال: قلت لأبي نضرة وأبي العلاء: أتريان أنه عمر بن عبد العزيز، فقالا: لا»[2]، والحثو لفظ ينبئ عن المبالغة والكثرة[3].

٢- القضاء على الفقر الموجب لاستحقاق الصدقات:

يخبرنا الرسول ﷺ أن ظاهرة الثراء الواسع في هذه الأمة لن تكون حكراً على فئة دون أخرى، بل إن نعمة المولى عز وجل عليها ستكون سابغة، حتى إنه ليعز وجود فقراء يستحقون صدقات الآخرين.

ففي حديث معبد بن خالد قال: سمعت حارثة بن وهب قال: «سمعت النبي ﷺيقول: «تصدقوا فإنه يأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها، يقول الرجل: لو جئت بها بالأمس لقبلتها فأما اليوم فلا حاجة لي بها»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى

١- الاعجاز العلمي في السنة النبوية، صالح بن أحمد بن رضا، ١ / ٩٥٣.
٢- صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل....، رقم ٢٩١٣.
٣- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير الجزري، ١ / ٣٢٧.
٤- صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد، ٢ / ١٣. وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب كل نوع من المعروف صدقة، رقم: ١٠١١.

يكثر فيكم المال فيفيض، حتى يُهم ربَّ المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي»[1].

وفي حديث رواه عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: «بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة».... وورد في الحديث قوله ﷺ لعدي: «ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحداً يقبله منه»[2].

وقد تأول بعض العلماء حالة عدم وجود فقراء يقبلون الصدقة بعهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وبذلك جزم البيهقي. وقد ورد عن عبدالرحمن بن يزيد بن الخطاب قال: إنما ولي عمر بن عبدالعزيز ثلاثين شهراً. ألا والله ما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله يتذكر من يضعه فيه فلا يجده، قد أغنى عمر الناس[3].

والذي أرجحه أن حالة استئصال الفقر من المجتمع المسلم قابلة للتكرار بتكرار ظهور الخلافة الراشدة، بدلالة ما ورد في حديث أبي نضرة عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، الذي سبق ذكره، إذ ورد فيه قوله ﷺ: «يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً...». ومن المعلوم أن الزمن قد تقدم بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وليس هو من خلفاء آخر الزمان.

وأنى كان من أمر فإن حالة استئصال الفقر تشكل ظاهرة فريدة في التاريخ الإسلامي، بل في التاريخ الإنساني، ولعلها حالة غير مسبوقة بل لا يمكن اللحاق بها لدى أرقى المجتمعات، فهذه المجتمعات الغربية في أوروبا وأمريكا قد أوتيت

١- رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل الرد، ٢ / ١١٤. ومسلم في الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، رقم ١٥٧.

٢- رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٤ / ١٧٥.

٣- فتح الباري بشرح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ٧/ ٤٢٤-٤٢٣.

حظاً من الرفاه الاقتصادي والاجتماعي يتمناه الكثيرون، ولكنه رفاه يخص ولا يعم، رفاه يخفي وراءه حالة من البؤس لفئات كثيرة تحيا دون حياة الكفاف، فلطالما رأينا في عواصمهم التي تخلب بتقدمها الأبصار، فئات من المعدمين يتخذون من الأرصفة والأنفاق مأوى لهم، ينشدون ما يسد رمقهم من عابري السبيل وحاويات القمامة.

٣- شيوع ظاهرة استقدام العمال والخدم:

الأصل في الأشياء أن يتولى المرء قضاء حاجاته بنفسه، ومع ذلك فهو لا يستغني عن خدمات الآخرين، وكما قال الشاعر:

الناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

غير أن التوسع في استخدام الآخرين، وإن كان يشكل ظاهرة تبدو في الظاهر شارة على التقدم الاقتصادي والاجتماعي، إلا أنها تعد من وجه آخر ظاهرة غير صحية على المدى البعيد. ولقد سبق لابن خلدون الحديث عن هذه المسألة في فصل عنوانه (في أن الخدمة ليست من الطبيعي) قال فيه: «فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته، أو أن يكون عاجزاً عنها لما ربي عليه من خلق التنعم والترف، فيتخذ من يتولى ذلك له، ويقطعه عليه أجراً من ماله، وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان، إذ الثقة بكل أحد عجز، ولأنها تزيد في الوظائف و الخرج، وتدل على العجز و الخنث الذي ينبغي في مذاهب الرجولية التنزه عنهما، إلا أن العوائد تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها»[١].

يخبرنا الرسولﷺعن ظاهرة الترف، بما فيها الركون إلى الخدم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتي بالمطيطاء، وخدمها

١- مقدمة ابن خلدون، ص٢٨٤.

أبناء الملوك، أبناء فارس والروم، سلط شرارها على خيارها»[1].

وليست ظاهرة استقدام الخدم قاصرة على الذكور منهم، ولكن للنساء الأجنبيات دوراً لابد آتياً لخدمة نساء المسلمين، فقد ورد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قوله: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على سروج كأشباه الرجال، ينزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف، العنوهن فإنهن ملعونات، لوكان وراءكم أمة من الأمم خدمهن نساؤكم كما خدمكم نساء الأمم قبلكم»[2].

وكل من هذين الحديثين يحمل في تضاعيفه من أنباء الغيب ما يثبت به قلوب المؤمنين، فليس الحديث عن خدمة أبنائهم ونسائهم للأسر الإسلامية إلا دلالة أولى على سقوط الامبراطوريات المجاورة لدولة الإسلام الناشئة، وخضوعها للسيادة الإسلامية، ولن تتم هذه الخدمة دون وجود تباين في المستوى الاقتصادي والاجتماعي بين المجتمع الاسلامي في صورته الموعودة وبين تلك المجتمعات في قادم الأزمان، الأمر الذي يدفع بأبناء تلك المجتمعات وبناتهم إلى التماس أسباب العيش في بلادنا التي تشهد ازدهارا يغري أولئك بالعمل والخدمة فيها، وتتنوع صور هذه الخدمة، فقد يعمل هذا طبيبا خاصا، أو مربيا لأبناء أسرة، أو سائس خيل في اصطبلات المنعمين أو سائقا، أو مدربا، أو مدبرة منزل، أو غير ذلك.

١- رواه الترمذي في الفتن، باب رقم ٧٤. و قال: هذا حديث غريب، ورقمه ٢٢٦١ وصححه الألباني. والمقصود ب(المطيطاء) مشية التكبر والتبختر. و انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمي، ١٠ / ٢٣٧.

٢- مسند أحمد، ٢ / ٢٩٩، رقم ٧١٠٢. وصحيح ابن حبان، رقم ٥٧٥٣، ١٣ / ٦٤، قال الأرناؤوط: إسناده ضعيف. وانظر: مجمع الزوائد للهيثمي، ٥ / ١٣٧. و المستدرك ، كتاب الفتن والملاحم، ٤ / ٤٨٣، رقم ٨٣٤٦.

٤- التأنق في المأكل و المسكن:

لا يخفى على أحد ما لقيه المسلمون من ضنك العيش في بواكير الدعوة الإسلامية، و لربما عزف بعضهم عن تناول الطيبات ورعاً، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه تورع عن كثير من طيبات المآكل و المشارب، و تنزه عنها و هو يقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله فيهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ (سورة الاحقاف:٢٠)، توبيخا و تقريعا لهم[١].

ويطالع الرسول ﷺ صحابته بما تخبئه لهم الأيام من رغد في العيش، وتأنق في المأكل والمشرب و المسكن. عن طلحة البصري قال: قدمت المدينة مهاجراً، وكان الرجل إذا قدم المدينة فإن كان له بها عريف نزل به وإن لم يكن له عريف نزل الصّفّة، فقدمتها وليس لي بها عريف فنزلت الصفة، وكان رسول الله ﷺ يرافق بين الرجلين ويقسم بينهما مدا من تمر، فبينا رسول الله ﷺ ذات يوم في صلاته إذ ناداه رجل فقال: يا رسول الله أحرق بطوننا التمر، وتخرقت عنا الخنف. قال وإن رسول الله ﷺ حمد الله وأثنى عليه و ذكر ما لقي من قومه، ثم قال: لقد رأيتني و صاحبي مكثنا بضع عشرة ليلة ما لنا طعام غير البرير - و البرير تمر الأراك - حتى أتينا إخواننا من الأنصار، فآسونا من طعامهم وكان جل طعامهم التمر، و الذي لا إله الا هو لو قدرت لكم على الخبز و اللحم لأطعمتكموه، سيأتي عليكم زمان - أو من أدركه منكم - يلبسون مثل أستار الكعبة، ويغدا ويراح عليهم بالجفان. قالوا: يا رسول الله، أنحن يومئذ خير أو اليوم؟ قال: بل أنتم اليوم خير، أنتم اليوم إخوان، وأنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض»[٢].

وفي حديث سعيد بن أبي هند قال: قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «تكون

١- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٦٠.

٢- مسند أحمد، ٣/ ٤٨٧. و الصفة هي المكان المظلل من المسجد، والخنف جمع خنيف. وهو لباس يصنع من الكتان الرديء، (النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ٨٠).

إبل للشياطين وبيوت للشياطين. فأما إبل الشياطين فقد رأيتها يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها، فلا يعلو بعيرا منها و يمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله، و أما بيوت الشياطين فلم أرها (كان سعيد يقول: «لا أراها» إلا هذه الأقفاص التي تستر الناس بالديباج»[1].

هذه الصور المتقابلة التي ترسمها الأحاديث الشريفة بين الواقع المرير والمستقبل الواعد تغنينا عن التعليق عليها، غير أنها تجعل للتنمية في بعديها الاقتصادي والاجتماعي إطاراً أخلاقيا توجه الأغنياء من خلاله إلى الشعور بحال البؤساء حتى لا تستحيل التنمية وبالاً على أصحابها، يضرب بعضهم رقاب بعض، وحتى يبرأوا من أن يكونوا شياطين أو إخواناً للشياطين.

٥- استتباب الأمن والاستقرار السياسي:

يعد استتباب الأمن في المجتمع ركيزة أساسية في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وبالأمن يمكن للاستثمار أن يجد البيئة المناسبة، ولرؤوس الأموال أن تستقر، أما الفوضى السياسية فلا يتصور أن يكون معها استقرار ولا استثمار، كما أنها مباءة للتخلف الاقتصادي والاجتماعي، والحيلولة دون تحقق التنمية مهما كان نوعها.

ورد في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: بينا أنا عند النبيﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله. قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعّار طيىء الذين قد سعروا البلاد؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى؟ قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى ابن هرمز، ولئن طالت بك

١- سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الجنائب، رقم ٢٥٦٨ وضعفه الألباني.

لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد احداً يقبله منه....» قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يخرج ملء كفه»[1].

وفي حديث لخباب بن الأرت رضي الله تعالى عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالميشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[2].

هكذا فإنه أمام هذا الجزع الذي يستبد بالنفوس، نتيجة لافتقاد الأمن الغذائي والسياسي، يطمئن الرسول ﷺ أصحابه على المستقبل الآتي، فإنه سيسود الأمن الجزيرة العربية طولاً وعرضاً، ويرتفع الخوف على الأنفس والأعراض، فتقطع المرأة المسافة من الحيرة إلى الكعبة و يذرع الراكب المنطقة من صنعاء إلى حضرموت دون خوف أو وجل.

والمتأمل في الحديث الشريف الأول يلحظ بوضوح مسألة الربط بين التحول الاقتصادي بحيازة الكنوز وبذل الصدقات من جانب، وبين سيادة الأمن حتى تخرج المرأة وتقطع المسافات الطويلة دون أن تخشى أحداً على حياتها أو عرضها، من جانب آخر.

١- رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ٤ / ١٧٥.
٢- رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٤ / ١٧٩. والميشار شئ كالخوص يخرج في السلم والطلح، (النهاية في غريب الحديث والأثر. ابن الأثير الجزري، ٤ / ٢٨٤).

المطلب الثاني: ازدهار التجارة والزراعة والعمران.

لا نستطيع تصور وجود تنمية اقتصادية أو اجتماعية دون أن يكون للتجارة أو الزراعة أو إعمار الأرض دور فاعل في إحداثها ابتداء وبقاء.

ولا نكاد نعلم أن المجتمع الإسلامي خلا يوماً من الأنشطة التجارية أو الزراعية، فالمجتمع المكي مثلاً كان يعتمد غالباً على التجارة، أما المجتمع المدني فكان جل اعتماده على الزراعة، وأما البلاد المجاورة للجزيرة فكانت تعتمد على الزراعة والتجارة معاً نظراً للظروف السائدة فيها.

وتطالعنا الأحاديث النبوية الشريفة موضحةً التحولات الاقتصادية المرتقبة التي تتسم بالعمق والإنتاجية العالمية، وتترك بصماتها على المجتمع المسلم حينذاك، ومن ذلك:

أولاً – في القطاع التجاري:

يخبرنا الرسول ﷺ عن ازدهار الوضع التجاري الذي سيكتنف المجتمع في العصور المتأخرة، عن عمروبن تغلب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يفشو المال ويكثر، وتفشو التجارة، ويظهر العلم ويبيع الرجل البيع فيقول: لا حتى أستأمر تاجر بني فلان»[1].

وفي رواية «أن بين يدي الساعة تسليم الخاصة، وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الارحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهور القلم»[2].

١- رواه النسائي كتاب البيوع، باب التجارة، رقم ٤٤٥٦، وصححه الألباني. والمستدرك على الصحيحين للحاكم، ٤ / ٤٩٣، رقم٨٣٧٨، والمسند للإمام أحمد بن حنبل، ٢ / ٧٥، رقم ٣٨٧٠.

٢- المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

وواضح أن الحديث الشريف لا يحدثنا عن مطلق التجارة، وإنما عن فشوها وانتشارها بصورة ملحوظة، حتى إن النساء سيشاركن الرجال في هذا النشاط، يقول السيد محمد فتح الله كولن: «يصف هذا الحديث أيامنا الحالية وصفاً لا يحتاج إلى أي تأويل أو تفسير، ستروج التجارة إلى درجة أن مقادير هائلة من رؤوس الأموال بالملايين وبمئات الملايين، بل بالمليارات من الدولارات تستخدم فيها، إذ إن الملايين تصرف في الإعلانات وحدها، وكثيراً ما تستخدم المرأة في هذه الإعلانات، وأحياناً تكون المرأة شريكة مباشرة في التجارة فتنزل إلى الأسواق وإلى المعارض «إلى أن يقول» سيزداد تقدير القلم، أي التأليف والكتابة، وستعمل المطابع ليل نهار لتخرج مئات وآلاف الجرائد والمجلات والكتب، وستقوم دور النشر والطبع بطبع ونشر الكتب ودوائر المعارف، وستمتلئ رفوف المكتبات بآلاف من مختلف الكتب، وستنقلب الكتابة إلى مهنة رائجة، ويحترم الكتاب والمؤلفون»[1].

ثانياً – في القطاع الزراعي:

يعد الماء عصب الحياة الزراعية، ولم تزل قضية المياه مثار تنازع بين الدول، مثلما كانت مثار تنازع بين القبائل البدوية قديماً. والناظر في خريطة الجزيرة العربية يدرك مدى شح المياه فيها، الأمر الذي يحد من انتشار الزراعة في أرضها الصحراوية. ومع ذلك فقد بدأنا نشهد بداية تحولات واسعة في القطاع الزراعي اعتماداً على المياه الجوفية، لكن هذا ليس هو ما تحدثنا عنه كلمات رسول الله ﷺ، إنها تتحدث عن تغيير شامل في البنية الاقتصادية والاجتماعية إذ ستتحول الصحارى الممتدة إلى جنات تشقها الأنهار، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»[2].

١- النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، محمد فتح الله كولن، ص١٠٥، ١٠٤.

٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٢ / ٣٧٠. ومجمع الزوائد للهيثمي، ٧ / ٣٣٤. وكنز العمال للمتقي الهندي، ١٤ / ٢٣٨، رقم ٣٨٥٤٩، ٣٨٥٤٧.

وعن طلق بن عدي قال: «بينا نحن عند رسول الله ﷺ فقال لنا: يوشك أن يجيء قوم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، طوبى لمن قتلهم، وطوبى لمن قتلوه، أما إنهم سيخرجون بأرض قومك يا يماني، يقاتلون بين الأنهار! قلت: بأبي وأمي ما بها أنهار! قال: إنها ستكون»(١).

وفي حديث أخر: «يوشك يا معاذ إن طالت بك الحياة أن ترى ما ههنا قد ملىء جناناً»(٢). وقد كان هذا الحديث الشريف قد قيل في أثناء وجود الرسول ﷺ في تبوك.

ويستوقفنا أمام هذا الاستشراف النبوي لمستقبل الجزيرة العربية أمور منها:

١- قول الرسول ﷺ: «تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»، مما ينبىء عن أمرين في غاية الأهمية:

أما أولهما فهو أن الجزيرة العربية كانت أرضاً خصبة تموج بالخيرات والأنهار، وهذا ما كشفت عنه التكنولوجيا الحديثة، فقد نشرت الصحف أنه تم بواسطة الاقمار الصناعية تصوير مجرى نهر يشق جزيرة العرب بأكملها تحت الربع الخالي.

وثانيهما: أن للتاريخ دورة تعود فيها أرض الجزيرة كما كانت أرضاً زراعية، وإننا لنلاحظ في أيامنا هذه بداية تغيرات مناخية تتهيأ فيها المنطقة لاستقبال ما أنبأ به الرسول ﷺ، وليس هذا القول من باب الكهانة أو عمل المنجمين، بل هو ما يقرره العلماء الطبيعيون.

يذكر الشيخ عبدالمجيد الزنداني أنه التقى البروفسور الألماني (ألفريد

١- المعجم الكبير، الطبراني ٧/ ٣٩٦، رقم ٨١٨١. و مجمع الزوائد، الهيثمي ٦/ ٢٣٢. وقال: رواه الطبراني من طريق علي بن يحيى بن إسماعيل عن أبيه، ولم أعرفهما. كنز العمال للهندي، ١١/ ٢٠٨، رقم ٢٠٦/ ٣.

٢- رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، رقم ٢٢٨١. وكنز العمال للمتقي الهندي، ١١/ ٣٧٩، رقم ٣١٨١٤.

كرونر) وهو من أشهر علماء الجيولوجيا في العالم، وأجرى حواراً معه بشأن الحديث الشريف المذكور، أثبته كما أورده الشيخ الفاضل.

«سألته: هل كانت بلاد العرب بساتين وأنهاراً؟ أجاب كرونر: نعم: إنها حقيقة علمية. وعندما سألته عن الأدلة قال: احفر ستجد بقايا عظام الحيوانات وبقايا النباتات موجودة تحت الصحراء، وكذلك مجاري الأنهار التي جفت. قلت: وهل ستعود بلاد العرب بساتين وأنهاراً؟ قال كرونر: حقيقة علمية كذلك. تساءلت: كيف تكون حقيقة علمية والأمر غيب يتعلق بالمستقبل، وبلاد العرب ما تزال صحراء قاحلة؟ قال كرونر: كانت بلاد العرب بساتين وأنهاراًفي أثناء العصر الجليدي الأخير، والآن يبدأ عصر جليدي جديد، ونحن نراقبه يزحف كل عام في فصل الشتاء، بل إن بعض المناطق في باكستان التي لم يسبق للثلج أن سقط فيها بدأ يظهر فيها الآن. قلت: ما رأيك في أن ما تعده حقيقة علمية جاء به نبينا ﷺ قبل ألف وأربعمائة عام حين قال: «لا تقوم الساعة...» الحديث، فمن أخبر محمداً ﷺ بأن أرض العرب كانت مروجاً وأنهاراً؟ قال كرونر: الرومان. قلت: ومن أخبره أنها ستعود مروجاً وأنهاراً؟ تلفت البروفسور كرونر قليلاً ثم أجاب قائلاً: هذا لا يمكن أن يكون إلا وحياً[1].

٢- إنه ستتشكل أنهار جديدة في ضوء التغيرات المناخية القادمة، بدلالة قوله ﷺ لليماني: «إنها ستكون». والحرب الأهلية التي ستكون بين الأنهار لن تكون في أرض مكشوفة، وإنما هي أرض تظللها الغابات والأحراش والبساتين، وكل ذلك آت بإذن الله، وكل آت قريب.

هذا عن أرض الجزيرة العربية، أما فيما جاورها من بلاد الشام وما إليها فستبلغ الثورة الزراعية في آخر الزمان حداً مدهشاً بفضل التقنية والخبرة، فقد

١- الإعجاز العلمي في علوم الأرض، الشيخ عبدالمجيد عزيز الزنداني، منشورات جامعة الإيمان اليمين، ص ٨٦، ٨٧.

ورد في الحديث الصحيح الذي ينبئ عن ظهور يأجوج ومأجوج، وما يحل بهم من عقوبة إلهية تستأصلهم، والذي يرويه النواس بن سمعان الكلابي عن رسول الله ﷺ: «ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرِّسل، حتى إن اللقحة من الإبل، واللقحة من البقر، لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس»[1].

ونحن، إن كنا رأينا في أيامنا هذه من الأبقار ما يكاد يفي لبنها بحاجة القبيلة المتوسطة، فإنا نرتقب تطويراً نوعياً في الإنتاج الزراعي، تكفي فيه الرمانة الواحدة لجماعة كبيرة من الأشخاص حتى إن ما يتبقى من مقعر قشرها، بعد أن يؤكل الحب منها، يمكن أن يظلل تلك الجماعة.

٣- في القطاع العمراني:

اتخذ الرسول ﷺ من المدينة المنورة موطناً له، وقد كانت المدينة في عهده متواضعة في سعتها وانتشارها. ويخبرنا الرسول ﷺ عما ينتظر المدينة من امتدادات في العمران تسلكها في عداد المدن الكبرى في هذه الأيام، روى زهير عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تبلغ المساكن إهاب أو يهاب». قال زهير: قلت لسهيل: فكم ذلك من المدينة؟ قال: كذا وكذا ميلاً»[2].

١- رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال، رقم ٢٩٣٧. والترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في علامة الدجال، رقم ٢٢٤٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. ومعنى يكن: يمنع. والزلفة بمعنى المرآة والصحفة. والعصابة: الجماعة، والقحف: مقعر قشرها، والرسل: اللبن، واللقحة: القريبة العهد من الولادة.

٢- صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم ٢٩٠٣.

ويبلغ الاستشراف النبوي مداه وهو يطالعنا بما نشهده نحن في أيامنا هذه من تطاول في العمران، حتى لا تكاد تميز بعض عواصمنا ومدننا الإسلامية عن أرقى المدن الغربية في الطراز العمراني، والتباري في بناء ناطحات السحاب. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، وهوالقتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض، حتى يُهم ربَّ المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي فيه، وحتى يتطاول الناس في البنيان»[1].

المطلب الثالث – التنمية المستدامة رهن بشكر النعمة:

إن تحقيق التنمية الشاملة، ومنها الاقتصادية والاجتماعية، نعمة كبرى، وإن الحفاظ على ديمومتها واستمرارها يستوجب شكر المنعم، وإلا كانت هذه النعمة سحابة صيف عن قريب تقشع.

وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلاً على ما قدمنا، صورة لمجتمع زراعي متقدم وأخرى لمجتمع تجاري، لم يقدرا نعمة الله عليهما، فكانت عاقبة أمرهما خسراً.

أما المجتمع الزراعي فمجتمع سبأ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ (سبأ: ١٥ – ١٧).

وأما المجتمع التجاري فهو تلك القرية التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ

١- رواه البخاري في كتاب الفتن، باب خروج النار، ٨/ ١٠١.

﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل: ١١٢).

هكذا كان الجزاء من جنس العمل، تدميراً لكل ما حققته تلك المجتمعات من صور التنمية في الحقلين الزراعي والتجاري، ما بين سبيل جارف يأخذ الأخضر واليابس في حق الأولين، وبين افتقاد للأمن أورث الجوع والخوف في حق الآخرين.

هذا مما قدمه لنا القرآن الكريم، فماذا قدمت لنا السنة النبوية من أنباء عن مصائر تلك المجتمعات التي ازدهت بما قدمت، وحققت من صور النمو ما حققت، ولكنها عتت عن أمر ربها، وجنفت بعيداً عن منهج الحق؟

جواب ذلك ما سبق لنا تقديمه من قوله ﷺ: «إذا مشت أمتي بالمطيطاء وخدمتها أبناء الملوك، أبناء فارس والروم، سلط شرارها على خيارها».

إنها النهاية المتوقعة، فماذا يمكن أن يقدم الكبرالأجوف لأهله؟ وهل يتوقع أرباب الرؤوس الفارغة إلا أن تتمرغ أنوفهم على أيدي من هم أقل منهم شأناً؟ ستدول دولة أولئك المترفين لصالح أناس آخرين قد لا يكونون أمثالهم، وسيدفع أولئك المترفون الثمن غالياً من سيادتهم، حتى يصبحوا هدفاً سهلاً للأعداء الطامعين، لا تدفع عنهم كثرتهم استبداد الآخرين بهم. عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

١- رواه أبو داود في كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم ٤٢٩٧. وصححه الألباني. ورواه أحمد في مسنده، ٨/ ٣٢٧، رقم ٢٢٤٦٠. وورد في مجمع الزوائد ٧/ ٢٨٧ وقال: وإسناد أحمد جيد.

والتعبير (كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) مشعر بأطماع الأعداء الغزاة في البلاد التي لم يحسن المترفون التعامل معها، كما لم يحسنوا الدفاع عنها إذ نزعت منهم الحمية وحب الجهاد والتضحية دفاعاً عن البلاد والعباد، يذكرنا حالهم بحال ذلك الخليفة الأندلسي الذي قالت أمّه له عندما سلم غرناطة للإسبان باكياً:

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

المبحث الثالث: صور من التخطيط النبوي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

للتخطيط مظاهر شتى، قد يكون رسم الخطط لعلاج مشكل قائم أحد هذه المظاهر، وقد يكون برسم خطط مستقبلية خمسية أو عشرية أو غيرها، وكل ذلك ممكن سواء منه ما كان لأمور واقعة أو متوقعة.

والمتتبع لهديه ﷺ يتبين له بصورة جلية فنون التخطيط وأساليبه في بناء المجتمع الجديد، ومعالجة ما يجد من قضايا و معوقات على طريق البناء. ولا أدل على ذلك من أن الرسول ﷺ طلب في أول عهده بعد الهجرة إجراء إحصاء سكاني للمسلمين، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل، فقلنا: نخاف ونحن ألف وخمسمائة؟ فلقد رأيتنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصلي وحده وهو خائف»[١].

وورد في رواية مسلم عن حذيفة قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: «احصوا لي كم يلفظ الإسلام، قال: فقلنا: يا رسول الله، أتخاف علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة، قال: إنكم لا تدرون لعلكم ان تبتلوا..»[٢].

ووجه الجمع بين الروايتين ما ذكره النووي من قوله: «لعلهم أرادوا بقولهم ما

١- رواه البخاري في الجهاد، باب كتابة الإمام الناس، ٤ / ٣٣،٣٤.
٢- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الاستسرار بالإيمان للخائف، رقم ١٤٩..

بين الستمائة والسبعمائة رجال المدينة خاصته، وبقولهم «فكتبنا له الفاً وخمسمائة» هم مع المسلمين حولهم»[1].

وكائناً ما كان الأمر فإن هذا الأمر النبوي بإجراء الإحصاء السكاني يؤسس لمبدأ العمليات الإحصائية من أجل التخطيط المستقبلي في غير موضوع.

وسأكتفي من صور التخطيط النبوي في موضوعنا هذا بإيراد ثلاث صور أعرضها في ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: التخطيط في تنظيم النسل.
- المطلب الثاني: التخطيط لتحقيق التوازن الاجتماعي.
- المطلب الثالث: التخطيط لحماية المستهلك.

المطلب الأول: التخطيط في تنظيم النسل.

تمثل الأسرة الوحدة الأولى في بناء المجتمع، وإن من مقاصد الشريعة الإسلامية الحفاظ عليها، إذ كان الحفاظ على النسل أحد هذه المقاصد، وقد دعا الإسلام إلى الزواج، وندب إلى أن تكون الزوجة ولوداً لهذا الاعتبار. عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال: لا. ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم...[2].

ومع إدراكنا لهذا التوجه العام في الشريعة الإسلامية يرد سؤال: هل يجوز اللجوء إلى تنظيم النسل لسبب يتعلق بصحة المرأة والأولاد؟ أو لسبب

١- صحيح مسلم بشرح النووي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ٢ / ١٧٩.

٢- رواه أبو داود في كتاب النكاح، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء، رقم ٢٠٥٠، ورواه النسائي في النكاح، باب كراهية تزويج العقيم رقم ٣٢٢٧، وقال الألباني: حسن صحيح.

يتعلق بالحسابات الاقتصادية؟ أو لاستبقاء جمال المرأة، أو لأسباب أخرى يراها الزوجان؟

يمكننا الإجابة على هذه الأسئلة من خلال الحديث عن حكم العزل، وحكم الغيل، وما يتبع ذلك من حديث عن اتخاذ موانع أخرى تحول دون الحمل، وهي الوسائل التي يمكن اللجوء إليها لتنظيم النسل، باعتبار ذلك ضرباً من ضروب التخطيط.

أولاً: حكم العزل:

يعرف العزل بأنه «عزل الماء عن النساء حذر الحمل»[1]، أو «أن ينزع الرجل بعد الإيلاج لينزل خارج الفرج»[2].

وقد اختلف العلماء في حكمه ما بين مانع ومبيح وقائل بالإباحة المشروطة.

١- فذهب ابن حزم إلى القول بالتحريم مطلقاً، استدلالاً بحديث جدامة بنت وهب، أخت عكاشة، قالت: حضرت رسول الله ﷺفي أناس وهو يقول: لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس، فإذا هم يغيلون أولادهم، فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً. ثم سألوه عن العزل فقال رسول الله ﷺ: ذلك الوأد الخفي - زاد عبيد الله في حديثه عن المقرئ - وهي ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾(التكوير: ٨)[3]، وجعل هذا الحديث ناسخاً لأحاديث الإباحة[4].

٢- وذهب الغزالي، من فقهاء الشافعية، إلى القول بالإباحة مطلقاً، استدلالاً بما يلي:

١- النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣/ ٢٠٨.
٢- سبل السلام، الصنعاني، ٣/ ١٤٥.
٣- صحيح مسلم، كتاب النكاح باب جواز وطء المرضع وكراهة العزل، رقم ١٤٤٢.
٤- المحلى، ابن حزم، ١٠/ ٧٠،٧١.

- حديث جابر رضي الله عنه قال: «كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺوالقرآن ينزل»[1].

- وحديث أبي سعيد الخدري قال: «أصبنا سبياً فكنا نعزل، فسألنا رسول الله ﷺ فقال: أو إنكم لتفعلون؟ قالها ثلاثاً، ما من نسمة كائنة إلى يو م القيامة إلا وهي كائنة، وفي رواية : «لا عليكم أن لا تفعلوا فإنما هو القدر»[2]. وعزز الغزالي مذهبه بالقول: «وإنما قلنا لا كراهة بمعنى التحريم والتنزيه، لأن إثبات النهي إنما يكون بنص أو قياس على منصوص، ولا نص ولا أصل يقاس عليه، بل ههنا أصل يقاس عليه، وهو ترك النكاح أصلاً، أو ترك الجماع بعد النكاح، أو ترك الإنزال بعد الإيلا ج، فكل ذلك ترك للأفضل»[3].

٣- وذهب الجمهور إلى الإباحة بشرط إذن الزوجة، ودليلهم ما ورد عن عمر بن الخطاب قال: نهى رسول الله ﷺ أن يعزل عن المرأة إلا بإذنها[4].

حتى إن ابن عبدالبر ادعى الإجماع على ذلك، لأن الجماع من حقها، ولها المطالبة به، وليس الجماع المعروف إلا ما لا يلحقه العزل[5].

وهكذا فإنه، بناء على رأي الجمهور، يمكن القول إن العزل يشكل آلية مناسبة من آليات التخطيط لتنظيم الأسرة لا غبار عليه.

١- رواه البخاري في كتاب، باب العزل، ٦ / ١٥٣ ورواه مسلم في كتاب النكاح، باب حكم العزل رقم ١٤٣٨، ١٤٤٠.

٢- المرجعان السابقان، نفس الأجزاء والصفحات.

٣- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ١٩٦٧م، ٢ / ٦٥.

٤- رواه ابن ماجة في كتاب النكاح، باب العزل، رقم ١٩٢٨ وضعفه الألباني، وقال: وله شاهد من حديث ابن عمر، ومن حديث ابن عباس، رواهما البيهقي منفرداً بهما عن أصحاب الكتب الستة.

٥- فتح الباري بشرح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ١١ / ٢٢٠. وانظر نيل الاوطار للشوكاني ٦ / ٢٢٢.

ثانياً – الغيل:

تقدم معنا قبل قليل حديث جدامة: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس، فإذا هم يغيلون أولادهم، فلا يضر أولادهم ذلك شيئاً».

والغيلة في اللغة تأتي بمعنيين:

- أولهما: أن يجامع امرأته وهي مرضع، أي خلال فترة الإرضاع المقدرة بسنتين.
- ثانيهما: أن ترضع المرأة وهي حامل[١].

قال العلماء: سبب همه ﷺ بالنهي عن الغيلة أنه يخاف منها ضرر الولد الرضيع، وكان الأطباء يقولون إن ذلك اللبن داء، والعرب تكرهه وتتقيه[٢]. وقد جاء الحديث الشريف لينفي هذا الضرر اعتماداً على ما يلاحظ من أحوال فارس والروم، فهم يغيلون دون أن يلحق ضرر بأولادهم، والمسألة – كما ترى – مبنية على الاجتهاد، ولذا قال النووي: «وفيه جواز الاجتهاد لرسول الله ﷺ»[٣]، وليس للحديث الشريف تعلق بالوحي، ومن ثم فإن وقفنا عند قوله تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ (سورة الاحقاف: ١٥)، وقلنا بمنع الغيل هذه الفترة فإن معنى ذلك أنه يمكن استقبال مولود جديد كل ما يقارب ثلاث سنوات، وهذا تخطيط جيد، بدلاً من أن تلقي الزوجة بمولود كل عام أو عامين، وقد يفضي ذلك إلى أضرار صحية تلحق بالوالدة والمولود على حد سواء.

١- لسان العرب، ابن منظور مادة (غيل)، والنهاية في غريب الحديث والأثر.
٢- صحيح مسلم بشرح النووي ١٠ / ١٦، وسبل السلام ٣ / ١٤٥.
٣- صحيح مسلم بشرح النووي ١٠ / ١٦،١٧.

ثالثاً – تعاطي المرأة ما يقطع الحبل من أصله.

حكم هذه المسألة كحكم تعاطي العزل كما قال ابن حجر[1]، وتعد هذه الوسيلة من أكثر الوسائل شيوعاً في هذه الأزمنة، ويمكن للزوجين التفاهم على استخدام أي الوسائل أجدى لتنظيم النسل.

المطلب الثاني– التخطيط لتحقيق التوازن الاجتماعي.

نعلم أن المهاجرين قد وصلوا إلى المدينة مخلفين أموالهم وديارهم في مكة، وها هم يعيشون بين إخوانهم في العقيدة من الأنصار، ولكن مع تباين في الأوضاع المعيشية لا يخفى على أحد. فباشر الرسول ﷺ بإعداد خطة لإعادة التوازن بين فئات المجتمع المسلم، من مهاجرين وأنصار، عبر سلسلة من التشريعات المرحلية، أهمها:

١– المؤاخاة:

الأخوة الإسلامية أمر يقرره الإسلام بين أتباعه، قريبهم وبعيدهم، أنى كانوا ومهما كانوا، فبمجرد اعتناق المرء الإسلام يصبح أخاً لكل مسلم. ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠)، إنها أخوة العقيدة. بيد أن المؤاخاة غير الأخوة، إنها أمر قرره الرسول ﷺ فيما بين المهاجرين والأنصار غداة وصول المهاجرين إلى المدينة، بحيث تصبح أخوة العقيدة بمثابة أخوة النسب، يتقاسم المهاجري مع الأنصاري الرزق، ويتوارثان بعد الموت، وقد بقي هذا التشريع إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴾ (الأنفال:٧٥) ألغى التوارث فيما بينهم[2].

إن المؤاخاة، وفقا لما قدمنا، هي عبارة عن تدابير استثنائية قصد بها تصحيح

١– فتح الباري ١١ / ٢٢٢، سبل السلام ٣ / ١٤٦.

٢– زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، ٢ / ٥٦.

الوضع الاجتماعي، وتحقيق التوازن بين فئات المجتمع الواحد على النحو الذي يريده الإسلام.

وتؤسس هذه التدابير لما يمكن تسميته بمبادئ السياسة الشرعية التي يمكن لولي الأمر اللجوء إليها من أجل تصحيح الوضع عند وجود اختلالات اقتصادية واجتماعية في الأمة، متخذاً من تشريع المؤاخاة أصلاً يبني عليه.

٢- وقف التعامل بالمزارعة:

كان الأنصار، وهم أصحاب الأرض، يعطون أرضهم لإخوانهم من المهاجرين على سبيل المزارعة، وربما قنع بعضهم بهذا اكتفاء بما يدرّه عليه عقد المزارعة من دخل. وبالرغم من أن في هذه الصورة من التعامل من دعم نوعي للمهاجرين، إلا أن هذا كان أدنى مما كان الرسول ﷺ يأمله من الأنصار، عن جابر رضي الله عنه قال: كانوا يزرعونها بالثلث والربع والنصف، فقال النبي ﷺ: «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها، فإن لم يفعل ليمسك أرضه»[1].

واضح أن هذا المنع إنما هو إلى حين تستوي أوضاع المجتمع المسلم الاقتصادية والاجتماعية، ولا يصح ما ذهب إليه الحنفية من فساد عقد المزارعة، ذلك أن المسلمين- كما قال النووي- مستمرون على العمل بالمزارعة في جميع الأعصار والأمصار، وقد صنف ابن خزيمة كتاباً في جواز المزارعة استقصى فيه الأحاديث الواردة بشأنها وأجاب عن أحاديث النهي إجابة جيدة[2].

٣- تخصيص المهاجرين بفيء بني النضير:

كان اليهود يتحينون الفرص للإيقاع بالرسول ﷺ، وما هي إلا أن أتاهم رسول الله ﷺ يطالبهم بالتزامهم بالمشاركة مع المسلمين في دفع دية شخصين

١- رواه البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب (١٨)، ورواه مسلم، باب كراء الأرض، رقم ١٥٤٥.
٢- صحيح مسلم بشرح النووي، ١٠/ ٢١٠، ٢١١.

من المشركين قتلهما أحد المسلمين، حتى وجدوها مناسبة لمحاولة اغتياله، فقام الرسول ﷺ بمحاصرتهم حتى استسلموا، وتم الاتفاق على إجلائهم من المدينة لتكون أموالهم فيئا للمسلمين، وفي ذلك تنزلت سورة الحشر، مبينة حكم هذا الفيء. وجعلته للرسول ﷺ يضعه حيث يشاء، فقسمه على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلا رجلين من الأنصار كان بهما فاقة، هما سهل بن حنيف وأبو دجانة[1].

ويذكر أصحاب السير أن الرسول ﷺ قال للأنصار: ليست لإخوانكم من المهاجرين أموال، فإن شئتم قسمت هذه، وأموالكم بينكم وبينهم جميعا، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة. قالوا: بل قسم هذه فيهم، واقسم لهم من أموالنا ما شئت. فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (سورة الحشر:٩). فقال أبو بكر: «جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً».[2]

هكذا فإننا نرى أن الرسول ﷺ يتحرك في تصحيح المعادلة وفق خطة مرسومة، ولن تفهم بعض الأحاديث الشريفة إلا في ضوء ورودها، والوقوف على الملابسات العامة التي اكتنفت خطابه ﷺ، مستذكرين أن هذه التشريعات التي تتوالى في فترة زمنية ليست متباعدة، إنما تخدم هدفاً محدداً، وسياسة مرسومة بعيدة عن التخبط أو التحيز والهوى.

وإن الخلل المتمثل في وجود فروقات صارخة بين فئات كثير من مجتمعاتنا العربية لجدير بأن تضعه حكوماتنا على رأس أولوياتها لإعادة التوازن، مع الأخذ بالاعتبار أن تحقيق التوازن لا يستدعي تحقيق المساواة بين تلك الفئات.

١- سنن أبي داود، كتاب الخراج، باب في خبر النضير، رقم ٣٠٠٤، وصحح الألباني إسناده. والمصنف، الصنعاني ٥ / ٣٦٠،٣٦١. وانظر سيرة ابن هشام، ٣ / ١٩٣، والسيرة النبوية، ابن كثير، ٣ / ١٤٨.

٢- فتوح البلدان، البلاذري، ص٣٣، ٣٤. وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، الصالحي الشامي، ٤ / ٣٢٥.

المطلب الثالث– التخطيط لحماية المستهلك:

الحفاظ على أمن المواطن، وحمايته من الاستغلال، بعض مما يفترض في الدولة أن تضطلع به، وبخاصة عند شح الدخول، وقلة العرض ووفرة الطلب. وقد وضع الرسول ﷺ نصب عينيه، وهو في المدينة، أن يحقق الأمن الغذائي لأتباعه، وأن يجنبهم محاولات العابثين للتحكم في أقواتهم، فقام بعدد من الإجراءات أهمها:

١– فتح سوق للمسلمين:

كان بالمدينة في الجاهلية عدة أسواق منها سوق حباشة وسوق بني قينقاع، وسوق بالقصبة، وسوق مزاحم [١]. ولما كانت هذه الأسواق لا تتأبى عن التعامل بالمحرمات من غبن وغش وربا واحتكار واتجار بالخمور وما شابه، وتمكيناً للمسلمين من أن يكون لهم أسواقهم الخاصة المنضبطة بشرع الله، فقد قرر الرسول ﷺ أن ينشئ للمسلمين سوقاً حدد لهم مكانه، وضبط التعامل فيه بميزان الشرع.

روى الطبراني أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي، إني قد رأيت موضعا للسوق، أفلا تنظر إليه؟ قال: بلى، فقام معه حتى جاء موضع السوق، فلما رآه أعجبه، وركض برجله وقال: نعم سوقكم هذا، فلا ينتقص ولا يضربن عليه خراج»[٢].

حدث أبو أسيد أن رسول الله ﷺ ذهب إلى سوق النبيط فنظر إليه فقال: «ليس هذا لكم بسوق، ثم ذهب إلى سوق فنظر إليه فقال: ليس هذا لكم بسوق، ثم رجع إلى هذا السوق فطاف فيه ثم قال: هذا سوقكم، فلا ينتقصن ولا يضربن عليه خراج»[٣].

١– أحكام السوق في الإسلام، الدريويش، ص ٣٣.

٢– المعجم الكبير، الطبراني، رقم ١٥٩٢٩.

٣– رواه ابن ماجة، كتاب التجارات، باب الأسواق ودخولها، رقم ٢٢٣٣، والحديث ضعيف.

إن حسن اختيار موقع للسوق لا يقل أهمية عن تأسيس السوق نفسه، ولقد عاين الرسول ﷺ المواقع المختلفة، حتى قر قراره على الموقع الأخير، ثم إنه أعفى المستثمرين فيه من أية تبعات ضريبية، تحفيزا للمواطنين لارتياده، وتخفيفا عليهم من ارتفاع الأسعار.

٢- حماية المستهلك من الاستغلال:

استكمل الرسول ﷺ تدابيره السابقة فعززها بعدد من التشريعات لحماية المستهلكين منها:

أ- النهي عن بيع حاضر لبادٍ:

عن عبد الله بن عمر-رضي الله عنهما- قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لبادٍ». وبه قال ابن عباس[١]. وفي رواية قال طاوس لابن عباس: ما قوله حاضر لباد: قال: لا يكن سمسارا. وصورة هذا البيع تتمثل في أن يقدم غريب من البادية أو من بلد آخر، بمتاع تعم الحاجة إليه، ليبيعه بسعر يومه، فيقول له البلدي: اتركه عندي لأبيعه على التدريج بأعلى. وهذا البيع حرام لما فيه من رفع السعر على المواطنين، حتى إن بعض المالكية قضوا بفسخ البيع[٢].

ويلحق بالحكم شراء الحاضر للبادي، وقد بوّب البخاري لذلك في صحيحه فقال: «باب لا يشتري حاضر لبادٍ بالسمسرة».

ب- النهي عن تلقي الركبان:

عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال: «لا تلقوا الركبان ولا يبيع حاضر

١- رواه البخاري في كتاب البيوع، باب (٦٩) ومسلم في كتاب البيوع، باب تحريم بيع الحاضر للبادي، رقم ١٥٢٠.

٢- صحيح مسلم بشرح النووي، ١٠ / ١٦٤، وفتح الباري بشرح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ٥ / ٢٧٥.

لباد»[1]. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تلقوا الجلب، فمن تلقاه فاشترى منه فإذا أتى سيده السوق فهو بالخيار»[2]. والمراد (بسيده) هنا مالكه الذي باعه.

قال النووي: «قال العلماء: وسبب التحريم إزالة الضرر عن الجالب، وصيانته ممن يخدعه. قال الإمام أبو عبدالله المازري: فإن قيل: المنع من بيع الحاضر للبادي سببه الرفق بأهل البلد، واحتمل فيه غبن البادي، والمنع من التلقي أن لا يغبن البادي، ولهذا قال ﷺ: «فإذا أتى سيده السوق، فهو بالخيار»، فالجواب أن الشرع ينظر في مثل هذه المسائل إلى مصلحة الناس، والمصلحة تقتضي أن ينظر للجماعة على الواحد، لا للواحد على الواحد، فلما كان البادي إذا باع بنفسه انتفع جميع أهل السوق واشتروا رخيصا، فانتفع به جميع سكان البلد، نظر الشرع لأهل البلد على البادي، ولما كان في التلقي إنما ينتفع المتلقي خاصة، وهو واحد في قبالة واحد، لم يكن في إباحة التلقي مصلحة، لا سيما وينضاف إلى ذلك علة ثانية، وهي لحوق الضرر بأهل السوق في انفراد المتلقي عنهم بالرخص، وقطع المواد عنهم، وهم أكثر من المتلقي، فنظر الشرع لهم عليه، فلا تناقض بين المسألتين بل هما متفقتان في الحكمة والمصلحة[3].

١- رواه البخاري في كتاب البيوع، باب تحريم بيع الحاضر للبادي، رقم ١٥١٩.
٢- رواه مسلم في كتاب البيوع، باب تحريم بيع الحاضر للبادي، رقم ١٥١٩.
٣- صحيح مسلم بشرح النووي، ١٠ / ١٦٣.

خاتمة البحث

قدمت في ما مضى إضاءات أعدها إسهامات متواضعة في موضوع الاستشراف النبوي والتخطيط في مجال التنمية بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية، يمكن تلخيصها في الآتي:

١- إن الاستشراف عملية تتأتى معها مطالعة المستقبل، مطالعة الخبير بمجرياته وتفاعلات أحداثه، حتى لكأنما ينظر إلى ما ينتظر عياناً، وهو علم تجديدي له أسسه ومنطلقاته.

٢- إن الاستشراف من حيث المبدأ يقوم على الحدس التاريخي القائم على معطيات علمية، ولكنه في حق الرسول ﷺ يتجاوز حدود الحدس إلى حدود اليقين. أما ذاك الذي يطالعنا به الكهان والمنجمون وضاربو الرمل وقارئو الفنجان فلا يعدو أن يكون شعوذة ودجلاً لا يبنى عليه، وهو خارج حدود الإطار العلمي.

٣- التنمية عملية تستهدف إحداث تغييرات في البنى الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، وهي تجري بصورة متكاملة. ولا مطمع في الحديث عن التنمية الاقتصادية بمعزل عن التنمية الاجتماعية.

٤- اهتمام الرسول ﷺ بتجلية النظرة المستقبلية للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للأمة الإسلامية، وما يعتريها من طفرات تنموية متعاقبة تتمثل في وفرة المال، واضمحلال الفقر، واستقدام العمالة الأجنبية، وسيادة الأمن الداخلي، وازدهار الوضع التجاري والزراعي والعمراني، مما نشهد لأكثره في أيامنا هذه صوراً واقعية.

٥- إن ديمومة التنمية في الميزان الإسلامي، كما تظهر الأحاديث الشريفة، رهن

بالتزام المنهج الشرعي، والمواظبة على شكر النعمة، وأن الترف والأشر والبطر، تشكل عوامل هدم ومعاول تدمير.

٦- إن التخطيط سمة سائدة في السنة النبوية بعامة، لا يستثنى منها مجال، نجده مبثوثا في برنامج الدعوة إلى الله، وفي تنظيم الحملات العسكرية، وفي إدارة العمليات الحربية، وفي تنظيم الأسرة والمجتمع، وفي الفعاليات المتعلقة بتنظيم شؤون الدولة، وغير ذلك كثير. وقد أبرز البحث ثلاثة نماذج من التخطيط في تنظيم النسل وفي تحقيق التوازن الاجتماعي، وفي حماية المستهلك على وجه الخصوص.

التوصيات

توصلنا هذه الدراسة إلى التوصيات التالية:

١- تعزيز الدراسات في علم الاستشراف، بحيث يمتد إلى موضوعات أخرى تتصل بمستقبل الأمة، والوحدة الوطنية وغير ذلك من موضوعات تمس حياتنا المعاصرة، وتوجيه طلبة الدراسات العليا للكتابة في هذا الفن.

٢- الارتقاء بعلم الاستشراف في عالمنا العربي والإسلامي، وتجريده من الدجل والشعوذة، ودعوة المؤسسات الرسمية والشعبية لمحاربة استطلاع المستقبل عبر الكهانة والتنجيم وقراءة الفنجان، إلخ...

٣- دعوة الحكومات إلى الإفادة من منهجه ﷺ في التخطيط لمعالجة الأزمات. وبخاصة ما يتعلق منها بتحقيق التوازن الاجتماعي وحماية المستهلك من ضروب الاستغلال والغبن.

٤- تعزيز ثقة الأجيال بقدرتها على التغيير تأسيسا على وعد الله تعالى لهذه الأمة بالتمكين وتحقيق تطلعاتها للوصول إلى التنمية المستدامة، مما تحدثت عنه

السنة النبوية في غير موضع.

٥- تعزيز هذه الندوة بندوات أخرى مماثلة تستكمل فيها البحوث والدراسات في هذا الموضوع.

هذا وأسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا، ويعلمنا ما ينفعنا، ويزيدنا علما، والحمد لله رب العالمين.

ثبت المراجع والمصادر

- القرآن الكريم.
- إحياء علوم الدين، أبوحامد محمد بن محمد الغزالي، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، ١٩٦٧م.
- أحكام السوق في الإسلام وأثرها في الاقتصاد الإسلامي، أحمد بن يوسف الدريويش، دار عالم كتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٩م.
- استشراف المستقبل في الحديث النوي، د. إلياس بلكا، كتاب الأمة، الدوحة، العدد (١٢٦) السنة، (٢٨)، ٢٠٠٨م.
- الإعجاز العلمي في السنة النبوية، د. صالح بن أحمد رضا، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
- الإعجاز العلمي في علوم الأرض، الشيخ عبدالمجيد الزنداني، جامعة الإيمان، اليمن.
- الاقتصاد الإسلامي، د. محمد عبدالمنعم عفر دار البيان العربي، جدة، ١٩٨٥م.
- التعليم وإشكالية التنمية، حسن إبراهيم الهنداوي، كتاب الأمة، الدوحة، العدد(٩٨).
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار إحياء الكتب العربية.
- التنمية الاقتصادية في المنهج الاسلامي، عبد الحق الشكيري، كتاب الأمة، الدوحة، العدد(١٧).

- جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير الجزري، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، ١٩٦٩م.
- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت.
- الجامع المختصر من السنن عن النبي ﷺ، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٩م.
- الجهود العربية في مجال استشراف المستقبل، د. محمود عبد الفضيل، بحث منشور في مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد (يناير-مارس)، ١٩٨٨م.
- الدر المنثور، عبدالرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد بن الحـ البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
- دور المنهج الإسلامي في تنمية الموارد البشرية، جمال محمد عبده، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٤م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، رئاسة إدارات البحوث العلمية والأفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.
- سبل السلام، محمد بن إسماعيل الصنعاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٦٠م.

- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م.
- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٩٩٩م.
- سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٩٩٩م.
- سنن النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٩٩٩م.
- سيرة النبي ﷺ، أبو محمد عبد الملك بن هشام، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.
- صحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتب الإسلامي، استانبول، ١٩٧٩م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، الإمام علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.
- صحيح مسلم بشرح النووي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت.
- العدالة الاجتماعية، فؤاد العادل، دار الكاتب العربي، دمشق، ١٩٦٩م.
- فتح الباري بشرح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٧٢م.
- فتوح البلدان، أبو الحسن البلاذري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

- فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٢م.
- القاموس الاقتصادي،محمد بشير عطية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،١٩٨٥م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٧٢م.
- كنز العمال، علاء الدين علي المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥.
- لسان العرب المحيط، ابن منظور، إعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢م.
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
- المسند أحمد بن حنبل الشيباني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٠م. ودار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٣م.
- معجم المصطلحات الاقتصادية والإسلامية، علي بن محمد الجمعة، مكتبة العبيكان، الرياض، ٢٠٠٠م.
- المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، دار العربية للطباعة،

بغداد، ١٩٧٩م.

- مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- موسوعة السياسة، د. عبدالوهاب الكيالي وآخرون، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

- موسوعة المصطلحات الاقتصادية، د. حسين عمر، دار الشروق، جدة، ١٩٧٩م.

- نظام الحكومة الإدارية المسمى التراتيب الإدارية، عبد الحي الكتاني، دار الكتاب العربي، بيروت.

- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

- النور الخالد محمد ﷺ مفخرة إنسانية، محمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة،٢٠٠٩م.

السنة النبوية ورسم أحوال العمران البشري
استشراف المستقبل من
منظور الرؤية الكونية التوحيدية

«إحالة خاصة إلى بعض معالم منهجية ابن خلدون»

د. صالح بن طاهر مشوش
كلية علوم الوحي والعلوم الإنسانية
الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا

بسم الله الرحمن الرحيم

«اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوّق إلى عواقب أمورهم، وعلم ما سيحدث لهم من حياة أو موت، أو خير أو شر، سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا، أو معرفة مُدَد الدول وبقائها. فالتطلُّع إلى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها»[1].

تمهيد:

الاستشراف ظاهرة إنسانية تضرب بجذورها في الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي فعل ونشاط مركب يستخدم فيه الإنسان محصوله المعرفي والخبرة المتراكمة قصد تمديد بصيرته لمعرفة الصور والأشكال التي تظهر بها الوقائع والأحداث والأحوال الممكنة في المستقبل القريب أو البعيد. يساند هذا التحديد الإجرائي الدلالة اللغوية لكلمة «أشرف». فقد جاء في شرح ابن منظور للكلمة أن «الإشراف هو: الانتصاب،... وأشرف الشيء على الشيء: علاه، وتشرّف عليه: كأشرف. وأشرف الشيء: علا وارتفع،... والشرفة: ما يضع على أعالي القصور والمدن،... أشرف لك الشيء: أمكنك، وشارف الشيء: دنا منه وقارب أن يظفر به. وفي قول علي رضي الله عنه: «أمرنا بالأضاحي أن نستشرف العين والأذن»[2] معناها: أن نتأمل سلامتها من آفة تكون بها»... وفي حديث أبي طلحة رضي الله عنه : «أنه

١- المقدمة، ابن خلدون، ج٢، ص١٤٩.

٢- السنن، الترمذي، كتاب الأضاحي، باب ما يكره من الأضاحي، ج٤، ص٨٦، رقم الحديث ١٤٩٨، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح؛ السنن، النسائي، كتاب الضحايا، باب المقابلة، ج٧، ص ٢١٦، رقم الحديث ٤٣٧٢؛ السنن، ابن ماجة، كتاب الأضاحي، باب ما يكره أن يضحى به، ج٢، ص١٠٥٠، رقم الحديث ٣١٤٣؛ المسند، أحمد بن حنبل، ج٢، ص١٣٦، رقم الحديث ٧٣٢، وقال الشيخ شعيب: إسناده حسن.

كان حَسَنَ الرمي فكان إذا رمى استشرفه النبيّ ﷺ، لينظر إلى مواقع نبله»[1]، أي يحقق نظره ويطلع عليه. والاستشراف: أن تضع يدك على حاجبك وتنظر، وأصله من الشرف أي العلوّ كأنه ينظر إليه من موضع مرتفع فيكون أكثر لإدراكه[2].

ولأهمية هذا النمط من المعرفة فقد اهتم به العلماء وأصحاب الملك والسلطان منذ القدم؛ وذلك باتخاذه وسيلة من وسائل الحفاظ على الملك بالتشوف إلى التقلبات والحروب التي تغير مجرى تاريخ الأمم والحضارات. وقد لخّص ابن خلدون مقاصد الناس في اهتمامهم بمسألة الاستشراف في أربعة أغراض تشمل: تحقيق الكسب، والجاه، والعشرة، والعداوة[3]. وحسب محمد بن عدنان السنان، فإن أهمية الاستشراف تقوم على ثلاثة اعتبارات وهي: قراءة السنن الكونية والاستفادة منها، ورسم تخطيط متميز، وفقه السياسة الشرعية بما في ذلك من فهم لسنن الأنظمة، واتخاذ القرارات السياسية الشرعية، والعلاقات الدولية، والشؤون الاقتصادية، والشؤون الأمنية[4]، مع إضافة الحالة الدينية للمجتمع المسلم، وهو الجانب الأولى فيما ذكر.

إن اعتماد عملية الاستشراف على قرائن مادية ومعنوية، ووسائل ومناهج مختلفة لتحقيق مقاصد متنوعة جعل طبيعتها من جنس ذلك التنوع، وتعدت بذلك حدوده العملية والمعرفية لأي نشاط إنساني خاص، لتصبح وعياً شاملاً منظماً يضم بالإضافة إلى تحليل القرائن والمعطيات المادية والأحوال المعنوية للمجتمع؛ أحوال الإنسان الروحية والنفسية المكتسبة كالإيمان، والرجاء، والخوف. وهذا الشمول والامتداد جعل طبيعة وماهية عملية الاستشراف تتجاوز العديد من

١- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب المجن ومن يتترس بترس صاحبه، ج٣، ص١٠٦٣، رقم الحديث ٢٧٤٦؛ المسند، أحمد بن حنبل، ج٢١، ص٣١٢، رقم الحديث ١٣٨٠٠.

٢- لسان العرب، ابن منظور، مادة: "شرف" ج٧، ص٩٠-٩٤.

٣- المقدمة، ابن خلدون، ج٢، ص١٥٥.

٤- من معالم الاستشراف والتخطيط المستقبلي في الدعوة في ضوء السنة النبوية: الهجرة إلى الحبشة أنموذجاً، محمد بن عدنان السنان، ص٦.

التعريفات التي حاول أصحابها فيها تقليد تصورات الغربيين، أو تبني أفكارهم كلياً أو جزئياً، والتي غالباً ما تطغى عليها وجهات ورؤى مادية في تفسير المعرفة الإنسانية، وهي الميزة التي جعلتها تبعد أثر الأبعاد الروحية والنفسية الأخرى في الإنسان. وهذا التأثير للاتجاهات المادية يمكن ملاحظته بوضوح في التعريف الذي وضعه كل من فاروق عبده فلية وأحمد الفتاح الزكي، واللذين ركزا فيه على تقديم الشكل المادي للعملية من الجهد العلمي، والتنبؤات المشروطة، والزمن، والمتغيرات، والقرارات، دون ماهيتها المعنوية، فاعتبروا أن الاستشراف «جهد علمي منظم، يرمي إلى صياغة مجموعة من التنبؤات المشروطة، التي تشمل المعالم الرئيسية لأوضاع مجتمع معين أو مجموعة من المجتمعات، عبر مدة زمنية معينة، تمتد لأكثر من عشرين عاماً، وذلك عن طريق التركيز على المتغيرات التي يمكن تغييرها بواسطة القرارات، أو التي قد تتغير بفعل أحداث غير مؤكدة»[1].

وهناك من حاول إبراز هذا الفرق في تحديد ماهية «الاستشراف» خاصة إذا كانت لا تعتمد فقط على القدرات الإنسانية البحتة كما هو في المنظومات الفكرية الوضعية، بل يلجأ فيها الباحث إلى الاستعانة بمصادر عليا كالوحي. فقد حاول المقري إدخال عناصر جديدة، أو إضافية في تحديد معنى الاستشراف كمفهوم التلقي والبشارة والوحي واليقين والإيمان، حين اعتبر استشراف المستقبل كـ«معرفة انزعاجية تتحرك فيها المعرفة لتلتقي ببشارة يقينية، وهي معرفة استنباطية تعتمد على استخراج المعاني من إشارات الوحي، ومن خلال إعمال الذهن فيها، وهي أيضا معرفة يقينية دعامتها في قراءة الوحي وقوة الإيمان، ثم هي معرفة إجمالية تتميز باحتمال القراءة المتعددة»[2].

١- الدراسات المستقبلية: منظور تربوي، فاروق عبده فلية، وأحمد الفتاح الزكي، ص١٧.

٢- استشراف المستقبل في التراث الفقهي الأندلسي: ابن الزبير الغرناطي أنموذجاً، بدر المقري (وجدة: ٣١، أوت ٢٠٠٩).

إن الملحوظة الأولية التي نخرج بها من هذا التمهيد هي أن عملية استشراف المستقبل «علم مركب وعمل حكيم» يدخل في تشكيله الإنسان الباحث في كليته مستنداً إلى مصادر معرفة خارجية تحددها المنظومة العلمية والحضارية التي ينتمي إليها أو يتبناها. وبناءً على هذا المنطلق نحاول في هذا البحث بيان شكل من هذا التركيب في ضوء رؤية إسلامية لممارسة وبناء رؤى استشرافية حول المجتمع بالعودة إلى مصدر الوحي النبوي الشريف. ومن أجل تحقيق هذا الغرض اعتمدنا في هذا البحث على فرضية مفادها أن كل علم أو فعل استشرافي يقصد إليه الإنسان سواء أكان عالماً أم باحثاً أم إنساناً عادياً إنما يقوم ذلك من خلال الرؤية الكونية التي يؤمن بها، ويعتمد عليها في ربط المسائل وتنظيمها في إطارها الأصولي الكلي. بحيث كلما كانت هذه الرؤية صحيحة كان نتيجة استشراف المستقبل أقدر على صياغة الرؤية المتوقعة، وأقرب إلى الحقيقة الممكنة، وكلما كانت هذه الرؤية الكونية ناقصة أو محدودة أو خاطئة كانت إمكانية الاستشراف من خلالها أبعد من المتوقع الفعلي؛ ومهما حاول أصحابها اصطناع مسالك التأويل والتضليل وسد الفجوات بالتضييق على الممكنات العديدة الأخرى في تفسير الواقع، تبقى استشرافاتهم دائماً صوراً جزئية مخالفة لحقيقة الحدث العيني. أما الجزء الثاني من الفرضية فهو أن كمال الرؤية الكونية عند الإنسان لا يكون إلاّ بالاعتماد على مصادر عليا أو الوحي السماوي؛ لأن ذلك يعد معرفة وعلماً مطلقاً يعلو على الزمان والمكان ويحويهما. وبناءً على هذا، نحاول أولاً بيان معنى الرؤية الكونية التوحيدية، ثم نعرض مقوماتها من خلال السنة النبوية الشريفة، وأخيراً نقوم بعرض نماذج من الاستشرافات عند ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ)؛ لأسبقيته في توظيف مصادر الوحي لغرض معرفة طبائع المجتمع البشري وحركته.

١- الرؤية الكونية التوحيدية: مصدرها وخصائصها ووظيفتها في عملية الاستشراف

تنضمّ الرؤية الكونية إلى تلك النعم والملكات والمؤهلات والأدوات التي سخرها الله للإنسان كمدعمات أساسية تساعده على القيام بدوره في عبودية الله والاستخلاف والتعمير والإصلاح. إن أصل الرؤية الكونية في الإنسان يرجع إلى مرحلة ما قبل «هبوطه إلى الأرض»، وهذا تؤكده حادثة تعليم الله لآدم «الأسماء» ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ التي ذكرها الله في القرآن الكريم[١]. ومضمون هذه «الأسماء» متنوع يشمل كل ما يحتاجه آدم ليس فقط لتسيير حياته والحفاظ عليها فوق الأرض، بل كذلك لأداء رسالته كخليفة. وهنا نقل بعض ما ذهب إليه المفسّرون في بيان معنى الأسماء التي علمها الله آدم بـ: «التسميات»، و»عرض الأشخاص» أو ما ذهب إليه كل من ابن عباس وقتادة ومجاهد بتفسيرها بتعليم آدم «اسم كل شيء من جميع المخلوقات دقيقها وجليلها»، إضافة إلى الذين خصصوا طبيعة هذه الأسماء في إشارتها إلى «النجوم» و «الملائكة»، أو «أسماء ذرية آدم» أو كلا من «أسماء الملائكة وأسماء ذريته» كما فسّره الطبري، أو كما قال آخرون «علمه أسماء الأجناس، كالجبال والخيل والأودية ونحو ذلك»، وكذا ما ذهب إليه ابن قتيبة في تفسير «الأسماء» بتعليم «أسماء ما خلق في الأرض»[٢] إلى شيء أوسع وأعمق من هذا كله، وهو بيان العلاقات الكونية التي تنظم كل هذه الأشياء، وهي التي عبّر عنها القرآن بـ «سُنَّة الله»[٣] و«صبغة الله»[٤]. والعلاقات الكونية عند الإنسان تشمل علاقته مع الله تعالى، والعالم الخارجي الظاهري، وعالم الغيب، والكائنات الحية الظاهرة والخفية. وأن كيفية صياغة هذه العلاقة

١- البقرة: ٣١.
٢- انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥.
٣- الإسراء: ٧٧؛ فاطر: ٤٣؛ غافر: ٨٥.
٤- البقرة: ١٣٨.

وممارستها هي التي تعطي رؤيته لوناً مختلفاً قد يكون في اتجاه صحيح وقد يكون غير ذلك إذا انحرفت عن الرؤية الكونية التوحيدية التي هي المعتقد الصحيح للوجود الإنساني على الإطلاق.

في بداية العصر الحديث بدأ اهتمام المفكرين والعلماء بالرؤية الكونية وأثرها في صياغة المعرفة الإنسانية، ففي الغرب ارتبط ظهورها بالعلوم العقلية والطبيعية المجردة كالفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية التي كانت حاجتها إلى الصورة الكونية الكلية للعالم أكثر، ثم بدأت تتوسع أكثر في أعمال علمية غير تلك العلوم المجردة بسبب ما تحمله تلك الصورة الكلية من معان وآثار مختلفة على حياة الإنسان بشكل عام. بالعودة إلى بعض تلك التعاريف نجد أن الرؤية الكونية عندهم تشمل معان عديدة منها: أنماط فكرية، سلوك وانطباع شامل، بعد زماني، مجموعة من الانفعالات، تحديد الذات والشعور بها، صورة الكون، بنية الأشياء...، وبذلك فهي تتجلى في أشكال مختلفة من أنماط المعرفة الإنسانية. فهي أي «الرؤية الكونية» نظرة للوجود، و«نظرة المستقبل»، ونظرية الفعل والممارسة، ونظرية المعرفة، والمنهجية، ونظرية القيم.[1]

كذلك لم تكن أهمية الرؤية الكونية غائبة في أعمال العلماء المسلمين، بل كانت بارزة، ولكن طريقة استخدامهم للمفهوم يحمل الميزات الدينية، والتراث العلمي، ومميزات المجتمع وتصوراته. لقد منَّ الله على الأمة الإسلامية بمصادر الوحي التي قدمت لهم كل ما يحتاج إليه الإنسان من التصورات الكلية التي تشكل حياته الممتدة من خلق آدم إلى مرحلة ما بعد الموت، والقيامة والخلود. فلهذا كانت الرؤية الكونية التوحيدية هي العصب الذي يربط كل العلوم والمعارف التي أنتجها وطوّرها العقل المسلم حول الإنسان والعالم والمخلوقات

1- See، James W. Sire، Naming the Elephant: wordview as a concept (Illinois: InterVarsity Press، 2004)، pp. 23-51.

التي أودعها الله فيه. لذلك نجد على سبيل المثال أن مؤلفات المؤرخين المسلمين عمدت في عمومها إلى عرض الرؤية الكونية التوحيدية في بدايات فصول تحمل عناوين من قبيل: «كتاب التاريخ»، «بداية الخلق»، «بداية الخليقة»، «بداية خلق العالم»، وكذلك المؤرخون[1] خاصة حين تناولهم مسألة خلق آدم وخلافته وعلمه التي جاء ذكرها في (سورة البقرة: ٣١-٣٧)، بل ذهب بعضهم إلى إفراد كتب تتناول مسائل أساسية لموضوع الرؤية الكونية[2]، ويلحقهم في ذلك بعض علماء الحديث.

إن البحث عن الطريقة التي سلكها العلماء في مختلف التخصصات بأساليبهم الاجتهادية للاستفادة من مصادر الوحي والرؤية الكونية التوحيدية وتنمية قدراتهم في توظيف تلك العلوم اليقينية ذو أهمية بالغة، لأنه يساعد على تقييم أهمية تلك الجهود التي تهتم بقضايا الإنسان، وتحقق إمكانية امتحان معلوماتها للتأكد من صحتها أو خطئها بعرضها على تلك المصادر العليا. بهذا المعنى يمكن الاستنتاج بأن الرؤية الكونية التوحيدية هي رسم شامل لحياة الإنسان بمختلف انتماءاته وتنوع حركته وفق عقيدة التوحيد الإسلامية، وهذا بالذات ما يمثّل مجال نظريات الاستشراف، ولذلك يصبح من غير الممكن لأي باحث أن يخطو خطوات نحو استشراف دون استصحاب رؤيته الكونية الخاصة. إذاً الاستشراف فعل واعي مقصود يصدر عن رؤية كونية محددة. وهذا يجعل تقويم الاستشراف واعتماده يمر على امتحان الرؤية الكونية للباحث.

تقوم الرؤية الكونية التوحيدية على أربعة مبادئ أو مقاصد نصت عليها نصوص الوحي وهي: **أولاً**: العبودية لله وحده؛ **ثانياً**: ممارسة الاستخلاف

١- انظر على سبيل المثال، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك؛ عز الدين أبو الحسن علي ابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ أبو زيد أحمد بن سهل البلخي (ت٣٢٢هـ)، البدء والتاريخ؛ أبو الفرج عبد الرحمان بن علي ابن الجوزي (٥١٠-٥٩٧هـ)؛ المنتظم في التاريخ.

٢- انظر: ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، بداية الخلق.

الفعلي، **ثالثاً**: تشييد العمران والتعمير الخادم للمقصد الأول والثاني، **رابعاً**: ممارسة عملية الإصلاح للحفاظ على المتحقق من تلك المقاصد. وهذه المبادئ هي نفسها التي تكوّن آفاق الاستشراف ومجالاته الكبرى ودعائمه ومقاصده من المنظور الإسلامي. وتتميز الرؤية الكونية التوحيدية الإسلامية عن غيرها من الرؤى الكونية الوضعية؛ القائمة على التجربة الإنسانية الخالصة التي يكون منطلقها معرفة وتجربة فردية أو جماعية، أو معتقدات قد تكون صحيحة أو خاطئة أو ديناً منحرفاً أو موضوعاً، بما يلي:

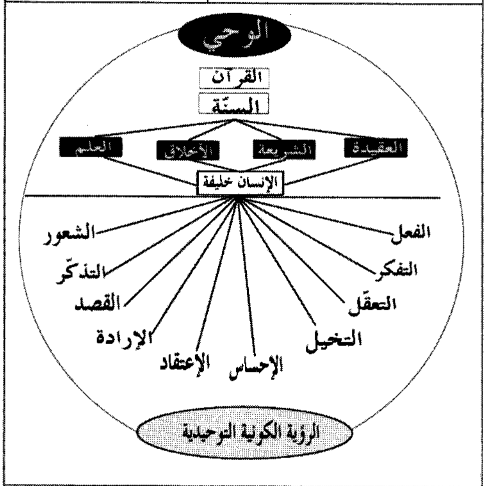
- أولاً: مبادئ كلية شاملة عملية مصدرها الوحي.
- ثانياً: مبادئ يقينية مستقرة وثابتة.
- ثالثاً: مبادئ مفهومة تدخل في نظام «سنة الله» في الخلق.
- رابعاً: مبادئ تنظيمية دقيقة، تستغرق كل أحوال الإنسان بعمق ودقة متناهية.
- خامساً: مقاييس متعالية تقويمية لنشاط الإنسان في العالم ونتائجها في العالم الأخروي.

بالإضافة إلى كون الرؤية الكونية التوحيدية تزوّد الباحث بتلك الأدوات القبلية والبعدية التي تنير له الطريق لتحصيل العلم وفهم طبيعة الأشياء حوله؛ فإنها كذلك توجّه كل الملكات الذهنية والقدرات الإدراكية والشعورية للباحث وفق نظام دقيق وشامل ومتكامل، كما يوضحه الشكل الأول. وهذا يعني أن طبيعة التصورات التي يصدرها الباحث وينسجها في إطار نظرية استشرافية لأحوال المجتمع ستتلون حتماً بصبغة تلك الرؤية الكونية. وهذا الأمر هو الذي جعل مفهوم العلم ومقاصده يختلف من حضارة إلى أخرى، وإن كانت تتقاسم مجموعة لا يستهان بها من التصورات المشتركة بسبب كونها حقائق كونية موضوعية

وثابتة، قابلة للبرهنة والاستدلال عليها وفق الخطوات العلمية المعروفة.

إذا كانت بنية الرؤية الكونية التوحيدية بهذه المكونات، فما الدور الذي تؤديه في عملية استشراف مستقبل المجتمع؟

الشكل رقم: ١



مصادر الرؤية الكونية التوحيدية، وأثرها على العلميات الذهنية والإدراكية.

مما لا شك فيه، أن استشراف المستقبل عملية مركبة تسهم فيها مجموعة من القدرات والمعارف والتجارب الإنسانية المتراكمة، وقدرات أخرى تنظم كل تلك العناصر وتوجهها إلى موضوع واحد، وهذه العملية الأخيرة هي التي تجعل الاستشراف ممكناً ونتائجه معقولة، وتؤدي إلى تعيين وقائع وأحداث المستقبل. إن جمع العناصر الجزئية في ذاتها تبقى عملية ناقصة، وبالتالي يصعب رؤية الحال التي يكون عليها المجتمع في ظرف زماني غير كائن من خلالها، وإن كانت صورها قد تكون واضحة في ذهنية الباحث وتصوره. إن قطاعات ومجالات المجتمع البشري مترابطة بعضها ببعض، فمعرفة جانب منها يتطلب معرفة الجوانب الأخرى المتبقية بنسب متفاوتة تحدده مقاصد عملية الاستشراف ذاتها، بحيث بقدر ما تكون معرفة الدوائر المجاورة متوفرة -والتي تخص القطاعات الأخرى المستخدمة- صحيحة بقدر ما تكون عملية الاستشراف أوثق وأقرب إلى الممكن الحقيقي، والمقصد الذي يهدف إليه الباحث وراء حصول تلك المعطيات أو المعرفة المستقبلية لأحوال المجتمع. ولكي يضمن الباحث حصوله على قاعدة أصولية معرفية مستقرة حول المجال الذي يريد أن

يستشرف فيه المستقبل، فلابد له أن يستند إلى نوع من المعرفة الكلية الشاملة التي تجرد جزئيات ذلك المجال وتعرضها في صورة كلية واضحة ومنظمة وخالية من التناقض والتفاوت والنقصان. وهذه الوظيفة لا يقوم بها أي علم تخصصي وجزئي إلا الرؤية الكونية التي يتبناها الباحث ويجتهد في تنميتها بالمعارف والوحي وعلوم العمران الطبيعي والإنساني والعمل بها وتعميق دورها في بحثه العلمي، وإن ادعى البعض أن الفلسفة-التي لقبت يوماً «أم العلوم»- تقوم بهذا الدور.

فالعمل الرئيس الذي تقوم به الرؤية الكونية في هذه المرحلة من البحث العلمي هو ربط مسائل موضوع البحث بموضوعات مجاورة تكون معرفتها ضرورية لتحقيق شروط الاستشراف العلمي لأحوال المجتمع. والذي يساعد الرؤية الكونية التوحيدية على أداء هذه الوظيفة وقيامها على قوانين كونية التي سماها الله في القرآن الكريم بـ «السّنن».

إن الشمولية وارتباطها الشديد بالإنسان، وإبراز الكليات، وضمّ الجزئي إلى الكلي؛ كلها مميزات تبين أن للرؤية الكونية التوحيدية موقعاً وظيفياً لا يمكن تهميشه في أي عملية استشرافية للمجتمع الإسلامي، بل والمجتمع الإنساني ككل. إن مكونات الرؤية الكونية التوحيدية وقوة مقاصد الشريعة التي تتحقق من خلالها، تمكن الباحث المسلم من تمديد بصيرته إلى آفاق يعجز غيره عن الوصول إليها لافتقاده لتلك الرؤية.

إن الرؤية الكونية التوحيدية تقدم للباحث المسلم «معرفة يقينية مستقرة» بواسطتها يتمكّن من متابعة المتغيرات التي يجب تنظيمها، وربط بعضها ببعض كشرط لاستكشاف أحوال المجتمع المستقبلية، وأي فشل يحدث في جمع العناصر الجزئية والربط بينها يؤثر في نسبة صحة ذلك الاستشراف، وبالتالي فهو

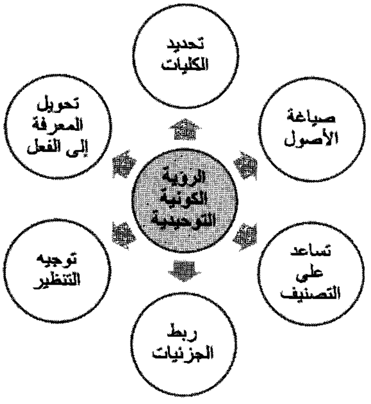
يتحوّل إثر ذلك إلى «معرقل» بدلاً من «معين إيجابي» لما يحدث من النتائج في الحياة العملية. إن الاستشراف بهذا المعنى لا يعني أبداً نوع من الرياضة العقلية يمتحن فيه الباحث قدراته الذهنية ومصداقية تجاربه الحياتية، بل هو حياة وأحوال معرفية وعقلية، وإلهامات وبصيرة وتفقه في أحوال العمران ومعرفة السنن التي تمكنه بعد حصول المعطيات المادية حول أي مسألة عمرانية ما من الانتقال بتصوره إلى مجال ما بعد المعطى لينظر في نافذة الإلهام إلى رسوم الحقائق المستقبلية. وهكذا فإن الاستشراف الذي يمارس تحت سلطة الرؤية الكونية التوحيدية هو نوع من المعرفة العلمية العملية التي يتحرك بها المجتمع ككل إلى غاياته الكبرى. من هذا نفهم أن الدور الآخر الذي تقوم به الرؤية الكونية التوحيدية هو التوجيه والتحقيق العملي للاستشراف، ووضع مناعة تقي الباحث من الوقوع في استشرافات غريبة عن حقائق العمران البشري وطبيعته، وذلك بإبعادها عن التأملات المجردة والقراءات المنحرفة لحاضر المجتمع ومستقبله، والتي يكون أثرها في سياسة شؤون المجتمع وإدارتها كبيراً.

إن من الوظائف التي تقوم بها الرؤية الكونية التوحيدية في عملية الاستشراف ما يلي:

أ- تحديد كليات الموضوع ومساحة مجالاته البحثية.

ب- تقديم الأصول المعرفية التي تقوم عليها النظرة الحق، وهي أصول مانعة تبصّر الباحث بحدود الحقيقة وتبعده عن الخوض في الاستدلال الباطل.

الشكل رقم: ٢



وظائف الرؤية الكونية في عملية الاستشراف عند الباحث

ت- تساعد على تصنيف مسائل الموضوع وأحواله الواقعية والممكنة.

ث- ربط جزئيات الموضوع بقوانين سننية كالسببية الأفقية.

ج- توجيه الباحث في عملية التنظير، ووضع الفروض، والتحقق منها، وامتحانها وترتيب نتائج بحثه.

ح- تُعِين الباحث على وضع آليات وخطوات عملية لتحويل المعرفة من صورتها النظرية المجردة إلى فعل عمراني فعّال يحلّ مشكلات واقعية وفق مقاصد الشريعة الإسلامية.

إن المبادئ المشار إليها تعتمد كثيراً على معرفة الباحث لعلوم الوحي وعلوم العمران في آن واحد، وبقدر ما يفقد الباحث أحدها بقدر ما يكون تعريفه للرؤية الكونية ناقصاً وإن ادعى التزامه بها. وهذا الجمع بين النوعين من المعارف هو من صميم المعرفة الإسلامية في استشراف أحوال المجتمع، وبدونها لن يكون إلا تقليداً مباشراً أو غير مباشر لنظريات فكرية غريبة أثبت تاريخ العلوم فشلها في فهم المجتمع المسلم وأحواله المختلفة.

٢- الاستشراف والمقومات الأساسية للرؤية الكونية التوحيدية في السنة النبوية

من المميزات الأساسية التي تنفرد بها مصادر الوحي؛ أنها تحمل معرفة مميزة تتجاوز القدرات الطبيعية التي منحها الله للإنسان لإدراك الأشياء حوله وفهم العلاقات التي تربط بعضها بعضاً. ومن طبيعة هذه المعرفة كونها يقينية ثابتة ممتدة في الزمان أو مطلقة، وهي الخاصية التي يمكن تبسيطها إلى احتواء ثلاثة أبعاد معرفية وهي استرجاع حوادث ماضية، وبيان وقائع حالية وتبصير بأحوال مستقبلية. لقد أرشد الله الإنسان في القرآن الكريم إلى ممارسة أنواعٍ مختلفة

من التفكير وصل عددها إلى واحد وعشرين نمطاً؛ حتى يتمكّن من الاستفادة أكثر من مخزون العلم والحكمة التي تحمله تلك المصادر. وبحكم ارتباط السنة النبوية البياني والتفسيري والتشريعي بالوحي؛ فهي كذلك تحمل خصائص من جنس تلك التي يتميز بها القرآن في عرض الحقائق حول الله، والإنسان، والدين، والعالم، وكل ما يتعلق بهم. وهذا يعني أن العلم الذي تحمله السنة النبوية يمكن كذلك تقسيمه من الناحية النظرية إلى ثلاثة أنواع وهي: بيان ما كان (الماضي)، وما هو كائن ويجب أن يكون (الحاضر)، وما سيكون (المستقبل).

لقد اجتهد العلماء المسلمون عبر العصور للاستفادة من تلك العلوم التي تحملها السنة النبوية، وأبدعوا في استحداث علوم جديدة تعينهم على ذلك، وإن كان ذلك بصورة متفاوتة، بحيث إن الجهود التي بذلت حتى الآن لتوسيع دائرة استنباط العلم الثالث الخاص بالمستقبل لا يزال في مراحله الأولى إذا حاولنا أن نقيم أثره المادي في توجه المجتمع المسلم وأحواله الراهنة.

لقد انحصرت معرفة مستقبل المجتمع الإسلامي في الدوائر العلمية في استحضار أحاديث الفتن التي جمعها أئمة علم الحديث في أبواب خاصة يسهل الرجوع إليها، وقد يكون لهذا الوضع مبرراته الموضوعية؛ لأن أحاديث الفتن كذلك تضمن جملة من الحقائق المستقبلية التي ذكرها رسول الله ﷺ حول أحوال المسلمين والعالم الذي يعيشون فيه، ولكن هل هذا يعني أن الاستشراف من خلال السنّة النبوية محصور في دراسة ذلك الصنف من الأحاديث الصريحة المبوّبة تحت عنوان «الفتن» وربطها بالواقع الراهن، أم أن هناك صيغاً أخرى لا تزال غير مستثمرة في خدمة السنة النبوية والمجتمع المسلم لمواجهة مشاكله الكبرى؟

الذي يطلع على ثروة الحديث يدرك بسهولة أن هناك كماً هائلاً من ذلك العلم لم يستثمر بعد في تفسير أوضاع العمران البشري وتحسين أحواله الروحية

المادية. وبناءً على هذه القناعة نحاول في هذا البحث عرض محاولة تمهيدية في توظيف أوسع للسنة النبوية في استشراف أحوال المجتمع المسلم وفهم العراقيل التي تبطئ حركته نحو تنمية شاملة وفق المنظور الإسلامي. ومنطلقات هذه المحاولة تقوم على أربعة أسس، وهي:

١- تجنب التفسيرات السلبية لمستقبل المجتمع والأمة الإسلامية التي تعتمد على عزل جملة من الأحاديث التي تعين حوادث ذات طبيعة سلبية كـ: «الهرج»، والحوادث الطبيعية التي تظهر قبل قيام الساعة عن باقي المبشرات التي تحملها الأحاديث الأخرى.

٢- ضرورة اعتبار الخصوصيات في التعامل مع بعض أحاديث النبوية التي تنبأت بوقوع جملة من الأحداث الكبرى في آخر الزمان حين استشراف أحوال المجتمع المسلم، وذلك لأنها من طبيعة خاصة، أي أنها تعلو عن التخطيط البشري لامتدادها إلى العالم الأخروي، وهي جزء من الحكمة الإلهية في الخلق والاستخلاف.

٣- الاجتهاد في استيعاب الأصول والعلاقات الشرطية والمواد العلمية الأخرى التي تحويها السنّة النبوية إضافة إلى نص الخبر. وهذا السعي العلمي يمكّن بلا شك الباحث المسلم من تصميم نظرية استشرافية بناءة، وقريبة من الواقع الممكن، وعملية المآل؛ لأن الاجتهاد في استشراف أحوال المجتمع المسلم يبقى لا معنى له إن لم يدعم بخطط إصلاحية وتنموية تؤثر في اتجاه وكيفيات وأحوال ذلك الواقع الممكن.

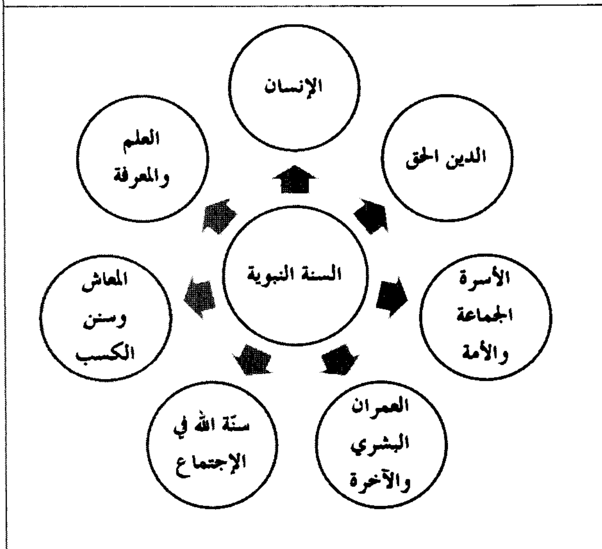
٤- إن نجاح الباحث المسلم في قراءة وفهم أحوال العمران البشري بما في ذلك أحوال المجتمع المسلم الحاضرة والممكنات المستقبلية في ضوء ما تحويه السنّة النبوية من معرفة حول الإنسان والدين والمجتمع، هو في حد ذاته استهداء

وتأس بذلك المصدر، والعودة إليه؛ لأن النتائج المترتبة عن البحث لا تكون خارجة عن أطر هدي السنة النبوية الشريفة.

لا شك أن كون السنة النبوية مصدراً ثانٍ للوحي، وكونها شارحة ومبينة لكتاب الله، يجعلها تتضمن بيان وشرح لتلك الحقائق الكلية والتفصيلية التي يتضمنها القرآن حول الخالق والإنسان والكون. وقد بيّنت السنة النبوية كذلك المفاهيم والتصورات الكبرى التي تشكل في مجملها الصورة الكونية التوحيدية وجزئياتها العملية التفصيلية التي يكون عليها حال الجماعة والأمة المسلمة، وعلاقاتها مع الأمم الأخرى، والعمران البشري الذي تعيش فيه. يمكن أن نذكر على سبيل المثال مفهوم الزمن، ومفهوم الأمة، والأحوال الإنسانية في التدين والاجتماع والتغلب، وهي تتضمّن حقائق حول أصناف الناس كبيان أحوال المؤمن، وأنماط النظم السياسية التي تسييس شؤونه، وحالته المادية، ووضع العلم والاستفادة منه، والعلماء ونوعيتهم، والعلاقات بين الناس، وعلاقة الأمة بالجماعات الدينية الأخرى كأهل الكتاب. وهكذا جاء رسم السنة النبوية لأحوال الإنسان بشكل عام، والمسلم بشكل خاص في غاية الدقة والعمق والشمول، فلا تجد جانباً من جوانب كينونته إلا وفي السنّة النبوية كلام يوضّح طبيعته الثابتة وأحواله المتغيّرة على السواء.

لبيان أهمية السنة النبوية في استشراف أحوال المجتمع المسلم، يصبح تصنيف وترتيب تلك الحقائق الكثيرة التي تحملها السنّة النبوية وفق المواد التي تكوّن الرؤية الكونية التوحيدية، التي أكدنا على ضرورتها القصوى في بناء أي نظرية علمية وموضوعية حول مستقبل المجتمع المسلم، ضرورة منهجية. وحرصاً على استغراق أكبر عدد ممكن من تلك الحقائق النبوية، عمدنا إلى إبراز سبع دوائر أساسية كما يوضحها الشكل رقم: ٣ ، وهي تشمل: الإنسان خليفة؛ والدين الحق؛

الشكل رقم: ٣



المجالات الكبرى للسنة النبوية في بناء مجتمع الخلافة

والجماعة والأمة؛ والدنيا أو العمران البشري والآخرة؛ وسنة الله في العمران البشري؛ والعلم والمعرفة؛ والمعاش، وسنن الكسب.

إن معرفة الباحث لهذه المحاور الكبرى التي حملتها السنة النبوية إلى الإنسان، تجعلها أقرب ما يكون إلى معرفة الطبيعة الحقيقية التي يكون عليها المجتمع في فترة معينة من تاريخه، وهي الخطوة التي تمكّن الباحث كذلك من تصميم الجزء الهام من عملية الاستشراف، وهو «صياغة المستقبل الإيجابي الممكن» على ضوء معرفته للنواقص التي أتاحت له السنّة النبوية معرفتها عبر علم يقيني يعلو على تأثير المكان والزمان. والحقائق التي تقدمها السنّة النبوية في هذه الحالة ليس كما يعتقد الكثير أنها في جملتها تشكل قواعد الإنسان الكامل، أو المجتمع المثالي، أو الأمة الخيرية. وإضافة إلى هذا، فمخزون المعرفة والحكمة في السنة النبوية يقدم كذلك أسباب التنزيل على الواقع ضمن «الحالات غير العادية»، و«حالات الانحراف»، و«حالات الفوضى وعدم التوازن»، و«حالات الضعف»، و«حالات الضلال والضياع».

لم تكن السنّة النبوية مصدراً لعلم استشرافي بالمفهوم التقليدي الذي يتوقف عند حد القدرات البشرية والظروف التي تخضع لها، بل تعدت إلى كونها وحي

إلهي صادق؛ فالرسول الله ﷺ كان يستشرف مستقبل أحوال الأمة الإسلامية من زوايا مختلفة اعتماداً على الوحي. إن استشرافات الرسول ﷺ لم تترك أي مجال حيوي إلا أتت عليه، ولذلك نجد أنها تضم مجالات التشريع، والسياسة، والاجتماع، والاقتصاد، والدين، وقضايا السلم والحرب أو العسكرية، والدعوة، والمعرفة، والأحداث الغيبية التي تأتي على العمران البشري عند يوم القيامة ونهاية العالم.

أولاً: الإنسان الخليفة:

تعد مسألة الإنسان من أهم القضايا التي عنت بها السنة النبوية، وهذا يتناسب مع مقاصد الوحي الذي جعله الله تعالى هداية للإنسان في الدنيا إلى السعادة الأخروية. وبالرجوع إلى مصدر السنّة النبوية تبين أنه لا شيء يهم الإنسان في خلقه وسلوكه وأفعاله وأخلاقه وطبائعه وفكره إلا ذكرت كلياته اليقينية، وتفاصيله الضرورية[1]. فالسنة النبوية بدأت بتعريف الإنسان وهو في عالم الغيب، وأخبرت بأطوار خلقه وهو في بطن أمه. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوما، نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات: فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أم سعيد. ثم ينفخ فيه الرّوح. فإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتّى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنّة، وإن الرّجل ليعمل بعمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النّار فيدخل النّار»[2].

١- انظر: معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنّة، سميح عاطف الزّين.

٢- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر الملائكة وخلق آدم وذريته، ج٢، ص٤٥١، رقم: ٣٣٣٢.

ولأجل الوقوف في وجه التأويلات الفلسفية والمذاهب الفكرية المنحرفة لماهية الإنسان، والتي يعد فهمها شرطاً من شروط الاستشراف العلمي، اعتنت السنة النبوية بتحديد وبيان كل أبعاده، وأعلنت أن خلق الإنسان لا يفسره شيء خارج مبدأ «فطرة الله» المذكورة في الآية: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٣٠). وفي الحديث الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُود يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أَوْ يُنَصِّرَانِه أَوْ يُمَجِّسَانِه كَمَثَلِ الْبَهِيمَة تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ». [١] إن الباحثين في طبيعة النفس الإنسانية وأصل مكوناتها، يعرفون مقدار أهمية حديث الفطرة، الذي يحميهم من الكثير من الفلسفات المادية التي لا ترى له أصلاً إلا وجوده المادي والاجتماعي وفق قوانين الصراع والقوة وما يتعلق بهما من الاعتقادات التي يصعب الاستدلال عليها. ولأهمية هذا المفهوم القرآني، فقد انتبه إليه العلماء المسلمون ووظفوه في مجالات علمية عديدة، كعلم العقيدة، وعلم الكلام، وأصول الفقه، والفقه، وعلم الأخلاق، والسياسة، وعلم العمران.

لقد تعمقت السنّة النبوية في عنايتها بالإنسان، وهي تتوغل في مكوناته الظاهرة والخفية التي تحمل أحوالاً مختلفة من الإيمان، والطبائع، والإرادات، والقدرات، والشعور، والوعي، والتفكير. فعلى سبيل المثال بين الحديث الذي رواه عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّات وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَة يَنكحها فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْه»[٢]. علاقة مهمة بين أحد مكونات الشخصية الإنسانية وهي «النية» أو «القصد»، وقيمة الفعل. وكذلك الحديث الذي بيّن أثر صحة الصفاء الروحي

١- المصدر السابق، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ج١، ص٤٢٤، رقم الحديث: ١٣٨٥.
٢- الصحيح، البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى الرسول ﷺ، ج١، ص١٣، رقم الحديث: ١.

والتوازن النفسي على صحة الإنسان حين أخبرنا رسول ﷺ بوظيفة القلب عند الإنسان بقوله ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ في الْجَسَد مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[1]. فلا شك أن الشخص الذي يعرف أحوال القلب الروحية والنفسية، والتي لا تنفك عن الأعمال الظاهرية، يملك بلا شك نافذة استشرافية مهمة تسمح له بمعرفة ما يصير إليه سلوك ذلك الشخص واتجاه نمو شخصيته بناء على تحليل تلك الأحوال سواء كانت إيجابية أم سلبية.

لقد فسرت السنة النبوية معاني ودلالات لكثير من الأحوال الشخصية التي تتردد على الإنسان بصفة عامة، والمسلم بصفة خاصة. فعلى سبيل المثال جاءت أحاديث عديدة تبين أحوال ذاتية وعوارض تخص ماهية الشخص كما هو الحال عند تحديده لمفهوم «المسلم»، و«المؤمن»، و«العالم»، و«المهاجر»، و«المجاهد»، و«الكيس»، و«المفلس»، و«البخيل».

وثمة أنواع أخرى من الأحاديث التي جاءت في صورة استشرافية واضحة، أولى فيها رسول الله ﷺ الاهتمام إلى مآل الفعل وما ينتج عنه أو استعداد لمواجهة موقف محتمل الوقوع في المستقبل القريب أو البعيد. فعلى سبيل المثال أمر الرسول ﷺ بالتفريق بين الأولاد والبنات في المضاجع في السن السابع استشرافاً لما قد يقع من الاطلاع على العورات. وفي حديث آخر أمر الرسول ﷺ رجلين من الأنصار أن يرجعا إليه بعدما مرّا به و كان حينها برفقة أم المؤمنين صفية بنت حيي ليلاً، مخاطباً لهما «تعالا إنّها صفيّة بنت حيي» قالا: سبحان الله يا رسول الله، قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدّم، وإنّي خشيت أن يلقي في أنفسكما شيئًا».[2]

١- المصدر السابق، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ج١، ص٣٤، رقم الحديث: ٥٢.

٢- المصدر نفسه، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، ج٢، ص٧١٧، رقم الحديث: ١٩٣٠؛ المسند الصحيح، مسلم، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤى خاليا بامرأة أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليرفع ظن السوء به، ج٢، ص١٠٣٩، رقم الحديث: ٢١٧٤.

وكذلك كان النبي ﷺ يقوم بالاستشراف على المستوى الفردي، فالكثير من الأحاديث تبين أنه وجّه سلوك الصحابة وإراداتهم خلاف ما يطلبونه استشرافاً إيجابياً لما سيقع إذا واصلوا في طلب ما يقصدون إليه. على سبيل المثال ردّ رسول الله طلب أبي ذر الغفاري للإمارة بناءً على ضعف كفايته وقدراته لإدارتها. فعن أبي ذر أن الرسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذرّ إني أراك ضعيفاً، وإني أحبّ لك ما أحبّ لنفسي؛ لا تأمّرن على اثنين ولا تولين مال يتيم»[1].

ثانيا: ظهور الدين الحق على الدين كله:

مما لا شك فيه أن السنة النبوية تابعة للوحي الإلهي في حفظ الدين وبيان معالمه وتجلياته في المجتمع البشري مع بيان تفصيلات وجزئيات خاصة شديدة العلاقة بالحياة الدينية للجماعة المسلمة[2]. إن الدين الحق الذي عنت به السنة النبوية، لا يشكل جزءاً من مستقبل الأمة الإسلامية والإنسانية جمعاء فحسب، بل هو في الحقيقة يرسم وجودها الكلي بماضيها وحاضرها ومستقبلها. وهذا بالفعل ما يمكن ملاحظته بسهولة عند قراءة وتحليل أي ظاهرة إيجابية أو سلبية عرفها المجتمع المسلم أو المجتمع الإنساني، وبيان عللها الأولى، فالباحث الموضوعي لا ينفك أن يقدم عللاً بعد علل إلى أن يصل إلى السبب الرئيس، وهو «الحالة الدينية» للأفراد والجماعات، والتي تحدّد في الحقيقة كيفيات وأثر العوامل الأخرى. هذا الموقع الذي يتخذه الدين في تشكيل أحوال وأعراض وتقلبات المجتمع الإنساني، جعل فهمه وإمكانية معرفة تجلياته وعوارضه وعوائقه بمثابة الوقوف أمام نافذة استشرافية أساسية تقوي بصيرة الباحث والعالم والمفكر، وتختزل أمامه المسافات

١- المسند الصحيح، مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ج٢، ص٨٨٥-٨٨٦، رقم الحديث: ١٨٢٦؛ السنن، أبو داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء في الدخول في الوصايا، رقم الحديث: ٢٨٦٨.

٢- لقد أحسن أبو الحسن الماوردي (ت ٤٥٠هـ) عرض بعض الجوانب من هذه المسألة في فصل: «أدب الدين» من كتابه «أدب الدنيا والدين».

الزمنية، وتأخذه إلى جذور الأحداث وعمق السنن التي تتحكم فيها، وتعينه على إدراك الممكنات المستقبلية التي قد تحل على الجماعات والمجتمعات التي هي تحت قيد الدراسة.

إن ما تحمله السنة النبوية من العلم والتكاليف والأوامر والبيان والمبشرات والإنذارات والتحذيرات تدخل كلها ضمن كلية حفظ الدين والقيام به. ولقد جاءت بعض الأحاديث صريحة لبيان أن الدين الحق سيظهره الله على الدين كله. ومثال ذلك ما رواه ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»[1]. وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعِزِّ عزيز، أو بذُلِّ ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر»، فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخيرَ والشرفَ والعزَّ، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية[2].

لم تكتف السنة النبوية بإبراز هذا الجانب، بل أشارت كذلك إلى ما يقابله من أحوال الجماعة المسلمة والظروف التي تمر بها ضمن سنن العمران البشري. وفي هذا الاتجاه أشارت السنة النبوية إلى ما يصيب الناس من الضعف في التدين وميلهم إلى زينة الحياة الدنيا والسعي إلى إشباع النفس من مغرياتها. ومن الأحاديث التي أشارت إلى هذه الظاهرة ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنْ اللِّينِ أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنْ السُّكَّرِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ

١- المسند الصحيح، مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، ج٢، ص١٣٣١، رقم الحديث: ٢٨٨٩.

٢- المسند (٤ / ١٠٣)، وقال الهيثمي في المجمع (٦ / ١٤): «رجال أحمد رجال الصحيح».

وَجَلَّ أَبِي يَغْتَرُّونَ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا»[1]. وكذلك عن أنس أَنّ رسول ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ اللهُ اللهُ»[2]. ومنها ما رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يَخْرُجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، أَوْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، أَوْ حُلُوقَهُمْ. سِيمَاهُمْ التَّحْلِيقُ. إِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ، أَوْ إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ»[3].

إن من بين الفوائد العلمية التي يمكن استنتاجها من هذه الأحاديث -التي تبدوا وكأنها بعيدة عن موضوع الاستشراف- بناء نفسية الباحث الذي يستشرف أحوال المجتمع، وفي هذه الحالة فإن «ظهور الدين» والاعتقاد به لا شك أنه يؤثر في سيطرة التصورات الإيجابية حول الدين وما يشكله في المجتمع منها: الإيجابية والتفاؤل والفعالية والحركة والإبداع، وهي كلها عناصر تدخل في نظرة الباحث المتفائل لمستقبل أفضل. ولو جاء في السنة النبوية شيء يقابل ذلك لكان الباحث المسلم في استشراف شؤون المجتمع على عكس ذلك تماماً، أي أنه يطغى على تفكيره السلبية، والتشاؤم، والركود الذهني...حتى يبدو وأن ملكاته الذهنية والإدراكية قد تعطلت. فتاريخ علوم العمران البشري أو الاجتماعي والإنساني بلغة الغرب، يحمل نماذج كثيرة من هذا النمط من التفكير خاصة مع ذلك النمط من المفكرين الذين ابتعدوا عن هدي الوحي ومصادره.

١- السنن، الترمذي، باب ما جاء في ذهاب البصر، ج٤، ص٦٠٤، رقم الحديث: ٢٤٠٤، ولم يذكر فيه حكما، وذكر شاهدا له من حديث ابن عمر ثم قال: هذا حديث حسن غريب من حديث ابن عمر لا نعرفه إلا من هذا الوجه. والحديث حكم عليه الألباني بالضعف الشديد. انظر: ضعيف سنن الترمذي، الألباني، ج١، ص٢٧١.

٢- المسند الصحيح، مسلم، كتاب الإيمان، باب ذهاب الإيمان آخر الزمان، ج١، ص٧٨، رقم الحديث: ٢٣٤.

٣- السنن، ابن ماجه، المقدمة، باب في ذكر الخوارج، ج١، ص٤٧، رقم: ١٧٥،. وقال الشيخ الألباني: الحديث صحيح.

أما الأحاديث الذي تخبر بضعف تمسك الناس بالدين، فهي كذلك جد مهمة في عملية الاستشراف لأنها تمكن الباحث من تفسير علل كثير من الظواهر السلبية التي تظهر في المجتمع . ومعرفة هذا الجانب خطوة أساسية في قراءة المستقبل، لأن نجاح نظرية ما في الاستشراف متوقف في أحد جوانبه على مدى قدرة الباحث على تحليل الأقطاب المتقابلة التي تنتمي إليها الجماعات. ولهذا يصبح معرفة ثقل الجماعة المتدينة وأثر الجماعات التي تقابلها، والتي تعاني من ضعف التدين مفتاح أساسي في تحديد صورة المجتمع في المستقبل في مختلف أنشطة حياة العمران والمجتمع، وخاصة الجوانب التي تبرزها مقاصد الشريعة في الحفاظ على النفس (الروح)، والعقل (الفكر والفعل)، والعرض (كرامة الإنسان)، والمال (المعاش)، والنسل (الأسرة)، والتي بدورها تستلزم شرط إقامة النظام الرباني العادل في السياسة والملك.

ثالثاً: الجماعة والأمة:

من مميزات الإسلام الاهتمام ببناء الفرد والجماعة في توازن دقيق محكم لا يطغى أحدهم على الآخر. وجاء خطابه عالمياً متجهاً إلى المجتمع الإنساني بكليته، وهذا التوجّه لا يناسبه إلاّ رفع خطاب بناء الأمة بحجم ذلك الخطاب، لذا تجاوز الإسلام «دائرة الأتباع» إلى «دائرة الأمة الواحدة والوسطية والخيرية»، وهي النقلة التي حققتها الرسالة والنبوة الخاتمة. ولما كان هذا هو الكيان الكلي الذي يجمع أتباع محمد ﷺ، جاءت في القرآن سنن ذهبية تبين مواد هذا الكيان وتحدّد نظامه الداخلي، وشروطه، ووظيفته، وطبيعة أجزائه أو أفراده؛ حتى يصبح أمر بنائه والاحتفاظ به من الأمور التي يتوقف عليها الاستخلاف.

وتبعاً لطبيعة الدين الإسلامي كان اهتمام السنة النبوية بمسألة الجماعة والأمة أمراً بارزاً، حيث عرضت مفهوم الجماعة والأمة بكل أبعادها التكوينية التي تمثل

أبعاد الإنسان ذاته، والتي تشمل كل من البعد التكويني، والنفسي، والديني، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والتربوي، والعلمي. أما البعد التكويني فكان اهتمام السنة النبوية به بتحديد غاية خلق الإنسان وأهمية الجماعة في إقامة العبودية لله الواحد. ففي صحيح البخاري على سبيل المثال ورد باب بعنوان «كيف الأمر إذاَ لم تكن جماعة». وهو يعرض تساؤلات الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان أمام رسول الله ﷺ حول مستقبل الجماعة. وعن إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشرٍّ فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم» قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم وفيه دخنٌ» قلت: وما دخنه؟ قال: «قومٌ يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر». فقلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاةٌ على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها». فقلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: «هم قومٌ من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا». فقلت: يا رسول الله فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم». قلت: فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمام! قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتَّى يدركك الموت وأنت على ذلك»[1].

والبعد الروحي والنفسي للجماعة اعتنت به السنة النبوية بهداية المسلم إلى إقامة تعاليم الدين الإسلامي في الاجتماع، والتي لم تترك شيئاً إلا جاءت به مفصلاً وفق ما تقتضيه حكمة التنزيل. في هذه المسألة يكفي ملاحظة كيفية اهتمام السنة النبوية ببيان أصل، وماهية، وطبيعة، وفرائض، وشرائع، وحدود، وسنن، ومستويات الإيمان وعوائقه، وكيفية بناءه والحفاظ على مقداره ومستواه

١- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، ج٦، ص ٢٥٩٥، رقم الحديث ٦٦٧٣.

والعمل على تقويته لحظة بلحظة. والأبواب التي عقدها الإمام البخاري في كتاب «الإيمان» كلها تبين ذلك. وهنا يكفي الإشارة على سبيل المثال إلى الحديث الذي رواه أبو هريرة الذي قال فيه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ رجل فَقَالَ: مَا الْإِيمَانُ»؟ قَالَ ﷺ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ» قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ» قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْأَمَةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ. ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) -الْآيَةَ- ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ ﷺ: رُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ ﷺ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ»، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: «جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ»[1].

أما البعد الاجتماعي للجماعة فقد حددته السنة النبوية في التعاون والتنافس في عمل الصالحات والخيرات، كما كانت السنة النبوية أشد حرصاً في الحفاظ على الكيان الاقتصادي للجماعة وتوازن حياتها المادية، وذلك ببيان مفهوم الرزق الحلال، وقواعد المعاملات المالية التي يكون العمل بموجبها هو تحقيق مؤكد للأمان، والرخاء، والعدالة، والمحافظة على كرامة الإنسان، وضمان حقوقه الحياتية المادية. أما ما يتعلق بالبعد السياسي فيكفي أن نشير إلى اعتماد رسول الله ﷺ على مبدأ الشورى وبيانه لمفهوم الولاء والطاعة لأولي الأمر، ومفهوم المسؤولية السياسية. أما ما يتعلق بالبعد التربوي فقد أولت السنة النبوية اهتماماً خاصاً بتحديد مفهوم العلم وشروطه، وسبل تحصيله والأوجه الصحيحة في

١- المصدر السابق، كتاب الإيمان، باب سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ، ج١، ص٢٧، رقم ٥٠.

صرفه واستعماله لخدمة مقاصد الخلق في العبودية والاستخلاف والتعمير. كما أخبرت عن بعض الأحوال التي تخصه كقبض العلم بقبض العلماء.

ولم تكتف السنة النبوية بوضع رسم كامل لمفهوم الأمة والجماعة، بل تعدته إلى بيان التحولات التي تطرأ عليها في ظروف عالمية تتشكل عبر تاريخ حركتها كالتكتلات السياسية الكبرى، والنظم الجائرة التي تفرضها على الشعوب والأمم المستضعفة. لقد أشارت أحاديث نبوية عديدة إلى الأحوال السلبية التي تواجهها الأمة الإسلامية في خضم هذه التحولات في العمران البشري، منها ضياع قيادة وسيادة العالم، وتكالب الأمم الأجنبية عليها؛ وهو الاستشراف النبوي الصادق الذي ورد فيما رواه ثوبان -مولى رسول الله-، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ قَالَ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ اللهُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ قَالَ قُلْنَا وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ».[1] يقول عبد العزيز برغوت في بيان دلالة الحديث في عملية الاستشراف: «إن هذا الحديث النبوي الشريف يعتبر من المداخل الأساسية التي يمكنها أن تعيننا على التحديد الصحيح، والدقيق لنقطة الانطلاق في التغيير الحضاري الراهن للعالم. فللحديث منطقية منهجية خاصة في تفسير الظاهرة الاجتماعية. فقد تجاوز المراحل التمهيدية، لما يسمونه البحث العلمي، ثم تخطى مرحلة التجربة، وتوصل إلى استخراج القانون الذي يحكم الظاهرة الإنسانية. وهذا التوصل ليس ضرباً من التكهن الخرص، بل وعي مستوعب في عالم الأسباب، وفهم مستنير للسنن الإلهية، واستخدام ناجح للمنهج الذي يشكل وعياً تاريخياً مستقبلياً، ينتج عن الإدراك العميق للنفوس البشرية وللحركة الاجتماعية عموماً»[2].

١- المسند، أحمد، ج٣٧، ص٨٢، رقم الحديث: ٢٢٤٥٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده حسن.
٢- المنهج النبوي والتغيير الحضاري، برغوث عبد العزيز، ص٧٨.

ومن الأعراض المرضية لهذا الوضع الذي تعيشه الأمة أو الجماعة المسلمة، التبعية العمياء والاستهلاك المادي والمعنوي لما تنجزه أمم أخرى -ذكر في الحديث: الروم، والفرس، اليهود، والنصارى- وهي الظاهرة التي يلاحظها كل مسلم في وقتنا الحالي، بل للأسف الشديد، أصبح لهذا انعكاساً أشد سلبية على ذهنية وتصور الكثير من المسلمين حين اعتبروها حتمية كونية لا مخرج معين على تجاوزها. جاء في حديث رسول الله ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ: «فَمَنْ»[1].

السلبية الأخرى التي أشارت إليها السنة النبوية فيما يخص «الجماعة»، تتمثل في التفرقة والفرقة، والخلاف وتشكل الأحزاب والجماعات، وأشكال أخرى من التنظيمات المتطفلة على المفهوم الحقيقي للجماعة المسلمة التي تولى بناءها رسول الله بنفسه وفق الوحي الإلهي. روى أبو هريرة أنّ رسول اللّه (ﷺ) قال: «تَفَرَّقَت الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ أَو اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»[2]. وقد ذهب معظم المحققين إلى أن الحديث الذي رواه أبو هريرة في هذه المسألة حديث «حسن صحيح» باستثناء ابن حزم[3].

رابعاً: الدنيا والعمران البشري والآخرة:

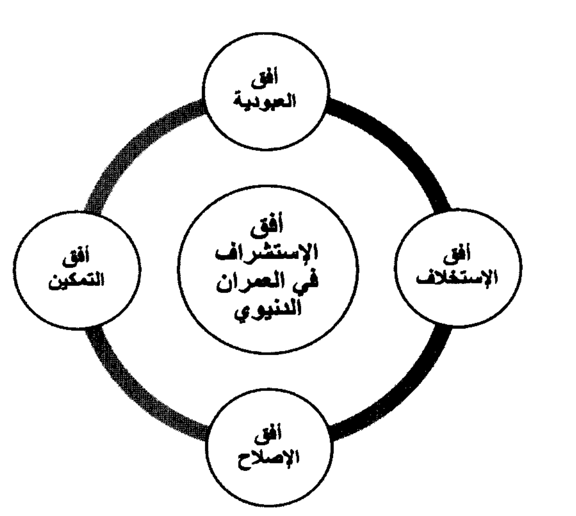
إن الحياة الدنيا في الإسلام محطة مؤقتة لإتمام حكمة الله في الخلق، وهي لا تقاس بمقدار الزمان الذي تستغرقه، بل تُقيّم بقيمة العبودية وأحوالها والأفعال التي

١- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ج٢، ص٤٩٢، رقم الحديث: ٣٤٥٦.

٢- السنن، الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، ج٥، ص٢٥، رقم الحديث: ٢٦٤٠. وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

٣- انظر أضواء على حديث افتراق الأمة، عبد الله بن يوسف الجديع، ص٢٣.

الشكل رقم: ٤



الآفاق المستقبلية للاستشراف من منظور الرؤية الكونية التوحيدية الإسلامية

تترتب عليها، والتي يحققها الناس أفراداً وجماعات وفق هدى الأنبياء والرسل.

إن أهمية الحياة الدنيا تقدر بأهمية الغاية التي يتّجه إليها الإنسان وهو يستنفذ العمر الذي قدّره الله له؛ فإذا كان ذلك موافقاً للوحي الإلهي وهديه عقيدة وشريعة، فسعيه وحياته وموته فلاح بإذن الله، وأما إذا كان الأمر غير ذلك فلا قيمة لحياته مهما كسب من الإنجازات المادية التي جرت الناس إلى المنافسة والصراع الشديدين في وقتنا الحاضر. وبسبب هذه الأهمية نجد أن القرآن قد قدّم تفاصيل شاملة ومتكاملة وكافية لاستيعاب وفهم السنن التي تسير عليها تلك الحياة الدنيوية، وكل ما يتعلّق بمكوناتها المادية التي تنتمي إلى عالم الشهادة وأبعادها المعنوية التي تمتد إلى عالم الغيب. ولقد ورد ذكر الدنيا في القرآن في (١١٥) موضعاً، وهي نسبة عالية مقارنة بالحجم الذي تشغله نصوص الوحي. وكذلك في السنة النبوية فقد حذّر رسول الله ﷺ المسلمين من غرورها أي معضلة «حب الدنيا» وبيّن مسالك التحكم فيها واستغلالها، وتوظيف ما يتحصل منها من النعم لنيل رضا الله والفوز بالجنة. وكما جاءت الدنيا في القرآن في صورة تقابل الآخرة، فكذلك السنة النبوية عرضت الدنيا في السياق نفسه أي التقابل، وهي أقرب صورة بيانية لإعانة الناس على رؤية الحق واستيعابه بأعلى قدر من الوضوح واليقين ليَكون دافعهم

الأول ومقصدهم الأخير لأفعالهم وما يتعلق بها من الأحوال[1].

إن القضايا الكلية التي وردت في الدنيا وحياة الإنسان والمجتمع يمكن حصرها على ضوء ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية في أربعة آفاق كما يظهرها الشكل رقم: ٤، وهي المقاييس الكلية التي يقدّمها الوحي أمام الباحث المؤمن قصد ممارسة الاستشراف ضمن أطر علمية صحيحة مدعمة بمصادر ما فوق طاقة العقل البشري، وهي مما يسمى بعملية الاستمداد من مصادر الوحي.

أ. أفق العبودية

وهو العامل والمتغير والمقياس الذي يدل الباحث على أحوال الناس والمجتمع بأسره بدرجة أكثر عمقاً، وأقوى في الدلالة على الحقيقة. بل أكثر من ذلك فإن أفق العبودية، يسمح للباحث أن يتجاوز مرحلة الوصف والتخمين بإرسال العقل والوعي إلى المستقبل إلى فعل تغيير الحاضر لبناء المستقبل الأقرب إلى المراد والمقصود والمحبوب الذي يسعى إليه المجتمع. لقد جاء في السنة النبوية كم هائل من الأحاديث التي اعتنت بهذا الجانب، وبصيغ مختلفة تضم الأمر، والنهي، والتحذير، والنصح والتحفيز، والإعلام، والبيان، والإخبار. فعن معاذ بن جبل قال: قال النبي ﷺ:»يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده؟ قال: الله ورسوله أعلم: قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقهم عليه؟ قال: الله ورسوله أعلم: قال ألا يعذبهم»[2]. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»[3].

١- لقد ذكر الإمام البخاري أحاديث من هذا النوع في كتاب الرقاق.

٢- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب التوحيد، باب إرداف الرجل خلف الرجل، ج٥، ص٢٣٨٤، رقم الحديث ٦١٣٥.

٣- المصدر السابق، كتاب الرّقاق، باب: قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺكُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، ج٥، ص٢٣٥٨، رقم الحديث ٦٠٥٣.

ب. أفق الاستخلاف والتعمير

التعمير هو البناء المادي للمحيط العمراني لغرض توفير الشروط المادية المساعدة للقيام بأمانة عبادة الله. وبهذا المعنى يكون العمران الإسلامي، وكل نشاط يقوم به المسلم في هذه الدائرة ملزماً بمراعاة المبدأ الأول الذي خلق الله الإنسان من أجله. وبناءً على هذا المبدأ نجد أن أهم المؤسسات التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، هي: المسجد، المدرسة، والمستشفى، وبيت المال، ونظام الوقف، والحسبة. إن أفق التعمير الذي تعرضه السنة النبوية في جملة من الأحاديث هو أحد المقاييس الذي يجب أخذها بعين الاعتبار في عملية الاستشراف، وهو مقياس كامل؛ لأنه يحمل في ذاته الاتجاه والوسائل، وطرق الممارسة. أما الاتجاه فيتمثل في تحقيق العبودية في أكمل الوجوه، وهذا على سبيل المثال يستلزم بناء مؤسسات تعليمية كافية كماً ونوعاً؛ لأن الدين الإسلامي قائم على العلم، فكلما كان العلم مزدهراً وكاملاً كان التدين أقوى وأرسخ. بينما الوسائل فتتمثل في المؤسسات النابعة من الروح الدين الإسلامي التي ذكرناها، ثم تأتي طرق العمل التي تؤطرها نظم تلك المؤسسات التي لا يجب أن تخرج على القانون الكلي الذي وضعته الشريعة الإسلامية لتنظيم حياة المسلم. قال رسول الله ﷺ: «أَجْمِلُوا في طَلَبِ الدُّنْيَا فَإِنَّ كُلاًّ مُيَسَّرٌ لَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنْهَا»[1]، وقال كذلك: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَفِتْنَةَ النِّسَاءِ»[2].

ت. أفق الإصلاح

يمثل هذا الأفق الجانب الحركي من العمران البشري؛ لأن من خلاله تشرف

١- السنن، ابن ماجة، كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة، ج٢، ص٧٢٥، رقم الحديث ٢١٤٢. وقال الشيخ الألباني: حديث صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجة، الألباني، ج٢، ص٦.

٢- المسند الصحيح، مسلم، كتاب الرقاق، باب أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْفُقَرَاءُ وَأَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ النِّسَاءُ وَبَيَانِ الْفِتْنَةِ بِالنِّسَاءِ، رقم ج٢، ص١٢٥٦-١٢٥٧، الحديث: ٢٧٤٢.

الجماعة على ثلاث مهام عمرانية وهي: المحافظة، والتنمية، والتحسين. أما في المحافظة فهي تعتني بحماية المكتسبات الحقيقية للمجتمع والتي تتضمن القيم، والعلم، والمنشآت، وسنن عملية في مجملها تمثل الماهية الكلية للمجتمع . وفي عملية التنمية ينصب جهد المجتمع على توسيع القيم، وتطوير تلك المكتسبات وفق مقياس الحاجة والجودة، وهي تحاول أن تتحرك بمكتسباتها من دائرة الضرورة إلى الكمال، ثم بعدها إلى دائرة التحسين كما تحدده المقاصد الشرعية. ولقد ورد في السنة النبوية حديث عظيم يعكس بدقة هذا الأفق؛ «أَوَّلُ مَنْ بَدَأَ بِالْخُطْبَةِ يَوْمَ الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ الصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ فَقَالَ قَدْ تُرِكَ مَا هُنَالِكَ فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَّا هَذَا فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[1].

ث. أفق التمكين

إن التمكين هو بمثابة ثمرة تحقيق الآفاق الثلاث المذكورة، وهو بذلك يعد مركب العبودية والاستخلاف والإصلاح، وبالتالي فالتمكين[2] لا يتحقق إلا بتحقق شروطه الثلاث. والتمكين هو السيادة والقدرة على قيادة المجتمع البشري بشريعة الله. فالمجتمع المسلم منوط به أن يكون أحسن مثال وقدوة للمجتمعات الأخرى في أهم المجالات التي تتعلق مباشرة بالإنسان، وهذه تشمل النظم والقوانين، والمؤسسات العلمية والاجتماعية السياسية والمعاشية. فهذا الظهور هو الدليل المادي الأمثل الذي يضعه المسلم أمام غيره للدلالة على صدق

١- المسند الصحيح، مسلم، كتاب الإيمان، باب بَيَانِ كَوْنِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الإِيمَانِ، ج١، ص٥٠، رقم الحديث ١٨٦.

٢- فالتمكين كما جاء في القرآن مجاله المعاش (الأعراف:١٠)، إدارة الملك والحكم وتوفير أسباب القوة (يوسف:٢١)، القدرة على إنجاز الأعمال (الكهف:٩٥)، العبودية وإقامة الدين وشروطه من الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الحج:٤١)، القدرات الإدراكية وما تقوم به وتكتسبه من العلم والمعرفة (الأحقاف: ٢٦).

رسالة النبي محمد ﷺ.

ولم تكتف السنة النبوية برسم هذه الآفاق التي تتعلق بحياة المسلم والإنسان بصفة عامة في الحياة الدنيا، بل كذلك، حملت تحذيرات قوية لتضع بين أعين المسلم العراقيل التي ستواجهها الجماعة المسلمة في سعيها لتشييد تلك الآفاق، ومثال هذا التحذير الأثر الذي قد يتركه بسط الدنيا على المسلمين جراء التنافس المؤدي إلى التهلكة كما جاء في حديث أبي عبيدة لما قدم بمال من البحرين، فسَمِعَتْ الأنصار بقدومه فوافقت صلاة الصبح مع النبي ﷺ، فلمَّا بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم وقال: «أظنّكم قد سمعتم أنَّ أبا عبيدة قد جاء بشيءٍ» فقالوا: أجل يا رسول الله. قال: «أبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تُبْسَط عليكم الدنيا كما بُسطَت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتُهْلكَكم كما أهلَكَتهم»[1].

خامساً: سنة الله في الاجتماع

إن من المعاني الأساسية التي يحملها مصطلح «السنّة» في مصادر الوحي نظام إلهي يفسّر العلاقات التي تربط بين المخلوقات فيما بينها وغيرها. فلا شك أن القيام بشروط الأمانة التي أسندت إلى الإنسان في إطار جماعي يتطلب قواعد وقوانين وسنن تضم الإرادات والأفعال والتصورات التي من طبيعتها السلبية التناقض والنقص والخطأ، وسلوك العدوان والتعدي والطغيان والظلم بالإضافة إلى طبائعها الإيجابية المتمثّلة، في التكامل، والصواب، والتعاون، والنصرة، والصحبة، والإصلاح والصلاح... وغيرها من المعاني الإيجابية التي يحب الإنسان فعلها بناءً على قواعد فطرته أو اهتداء بالهدي النبوي. إن سنة الله في

١- الصحيح، البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، ج٥، ص٢٣٦١، رقم: ٦٠٦١.

الاجتماع هو المقياس الكلي المتعال الذي يمكن الباحث في اكتساب بصيرة بعيدة المدى زماناً ومكاناً وعلماً؛ لأن العودة إلى سنّة الله وتوظيفها في البحث هو بمثابة اختصار للجهد والزمن العلمي، الذي يستغرقه الباحث للوصول إلى النتيجة التي تقدمها «سنة الله» في قضية من قضايا الإنسان والعمران البشري.

لقد عرض الحديث الذي رواه النّعمان بن بشير مثالا لإحدى سنن العمران البشري التي وضعها الله كشرط لاستمرار الجماعة وامتداد الحياة السليمة للمجتمع؛ وهي سنة النهي عن المنكر، والذي قال فيه رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»[1].

سادساً: العلم والمعرفة

الإسلام دين مبني على العلم[2]، فنسبة الإيمان ودرجته تزداد وتنقص بنقصان العلم أو زيادته مع استصحابه للعمل الذي لا يجب أن يفارقه، لقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد:١٩). إن حالة العلم في المجتمع الإسلامي هو متغير آخر لا يمكن تجاهله في ممارسة عملية استشراف أحواله وحركته ونموه وتوجّهه نحو المستقبل بكل ما يحمله من المكوّنات والمؤسسات وما تربطه من العلاقات مع غيره من المجتمعات التي تكوّن العمران البشري.

ولأهمية هذا الجانب نجد أن السنة النبوية أولت اهتماماً خاصاً بالعلم ونشأته،

١- المصدر السابق، كتاب الشَّرِكَةِ، باب هَلْ يُقْرَعُ فِي الْقِسْمَةِ وَالِاسْتِهَامِ فِيهِ، ج٢، ص٨٨٢، رقم الحديث ٢٣٦١.

٢- العلم المقصود به في الفقرة هي«علوم الوحي» التي أبدع العلماء المسلمون في استخراجها من مصادرها.

وتطوّره، وتجلياته، والعراقيل التي تواجهه تحت تأثيرات العمران البشري وتقلباته. ولم تكن عناية السنة النبوية بهذا العامل من باب التوجيه العام، بل وفق متابعة عن كثب، وتعريف دقيق، وتحفيز قوي، وتحصين مانع. وهذه الخصائص يستنتجها الباحث من الهدي النبوي المتعلق بهذا الجانب. فعلى سبيل المثال، نجد أن حرص الرسول ﷺ على عدم الإذن للصحابة بكتابة الحديث في مرحلة معينة من تاريخ نزول الوحي كان أحد أهدافه المحافظة على مكانة القرآن الكريم وتمييزه عن الحديث النبوي. فقد روى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «لا تكتبوا عنّي، ومن كتب عنّي شيئاً غير القرآن فليمحه، وحدّثوا عنّي، ولا حرج، ومن كذب عليّ -قال همام: أحسبه قال: متعمداً فليتبوأ مقعده من النّار»[1]. كما اعتنى النبي بمكوّنات العلم وما يشكّله في ذاته وخارجه، وذلك بداية من تصميم النية في طلبه، ومضمون العلم، وممارسته، واستخدامه في تحقيق الأغراض المادية، إذ لم تجعل السنة النبوية العلم يوماً مجرد معرفة صورية أو آلة مطلقة، بل وضعته في إطار ديني أخلاقي متماسك تسانده الشريعة الإسلامية بأكملها، فالعلم إذا لم يخدم مقاصد الشريعة التي تقتضي المحافظة على الدين، والنفس، والعرض، والنسل، والمال، والكون، يعد جهلاً وجاهليةً وضلالاً ودعاوى كاذبة. لقد حذرت السنة النبوية من الأنماط الدعوية الجاهلية الكاذبة التي تدعي العلم بغير شروطه ولا مقاصده، والتي يمارسها الدجّالون والكذابون. فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ يَأْتُونَكُمْ مِنْ الْأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ لَا يُضِلُّونَكُمْ وَلَا يَفْتِنُونَكُمْ»[2]. وظهور هذه الفئة المفسدة في العلم فسر سببها حديث آخر بيّن أن العلم يرفع ويقبض حين تقترب الساعة بموت العلماء، وحينئذ يظهر الجهل والفتن والهرج. فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو

١- الصحيح، مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب التثبيت في الحديث وحكم كتابة العلم، ج٨، ص٢٢٩، رقم ٧٧٠٢.

٢- المصدر السابق، المقدمة، باب النهي عن رواية الضعفاء والاحتياط، ج١، ص٩، رقم الحديث: ١٦.

بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

ومن شدة حرصه ﷺ، ومعرفته الدقيقة بأحوال العلم والمعرفة في الإنسان، أرشد عبد الله بن عمرو إلى مراعاة قدراته المعرفية في قراءة القرآن، وأمره بختمه في سبعة أيام لا أقل من ذلك. فعن عبد الله بن عمرو قال: «جمعت القرآن فقرأته كله في ليلة، فقال رسول الله ﷺ: «إنّي أخشى أن يطول عليك الزّمان وأن تمل فاقرأه في شهر». فقلت: دعني استمتع من قوتي وشبابي. قال ﷺ: «فاقرأه في عشرة» قلت: دعني استمتع من قوتي وشبابي. قال ﷺ: « فاقرأه في سبع » قلت: دعني استمتع من قوتي وشبابي، فأبى»[2].

سابعاً: المعاش وسنن الكسب

مما لاشك فيه أن الجانب الاقتصادي من حياة المسلم أو كما سمّاه ابن خلدون «المعاش» يمثل كذلك جزءاً مهماً من حياته، وخاصة حين ينظر إليه وفق سنن الله الكونية في العمران البشري التي تضم «الابتلاء»، و«التعاون»، و«المشاركة»، و«التدافع»، و«التنافس»، و«التداول»، و«السخرية» -من التسخير- وغيرها من السنن الجارية التي تنظّم العلاقات بين الناس والجماعات البشرية بصفة عامة والمسلمين خاصة.

لقد اتخذ عامل المعاش من المنظور الإسلامي موقعاً نسبياً خاصاً، وجاء دوره محدداً في تحوّل المجتمعات وتشكيل ماهياتها وصورها الواقعية والمثالية

١- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، ج١، ص٥٠، الحديث رقم: ١٠٠.
٢- السنن، ابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة، باب: في كم يستحب ختم القرآن، ج١، ص٤٢٨، رقم الحديث: ١٣٤٦؛ المسند، أحمد، ج١١، ص٤٥٩، رقم الحديث ١٣٤٦، وقال الشيخ شعيب: حديث صحيح لغيره.

المجردة التي غالباً ما تتبناها الخطابات الإيديولوجية التابعة للنظم السياسية. إن عامل المعاش لم ترفع أثره مصادر الوحي ليكون حاسماً بالدرجة نفسها مع العامل الروحي كما فعلت الكثير من النظريات المادية التي تفسر أحوال العمران وتقلباته المعاشية والسياسية والحضارية بشكل عام. وعليه فإن عملية استشراف الأحوال المستقبلية للمجتمع المسلم وفق مصادر الوحي تصبح لها مميزاتها تجعلها أقرب إلى حقيقة الإنسان عن غيرها من المسالك البحثية التي تتجه نحو الهدف نفسه؛ أي معرفة شروط حياة المجتمعات واتجاهاتها في التحول والتغيير.

يصعب في هذا المقام أن نعرض الكثير مما جاء في السنة النبوية في تنظيم المعاش وتقديم كيفياته وتجلياته وآثاره، وطرق معرفة مستقبلياته بناءً على معطيات موضوعية مركبة، تتكون من جنس «الظرف المعاشي»، و»الظرف غير المعاشي»[1]. ورغم ذلك فلابد أن نشير إلى أن السّنة النبوية قد عرضت ما فيه إنارات وهداية كافية للمكونات الأساسية لهذا المجال، وبيّنت المعاملات الشرعية والمحرمة المتعلقة به تحت ظروف العمران البشري، وهذه تمثل الاستهلاك وآدابه، والمعاملات التجارية وقواعدها، وشروط العقود بين المنتج وصاحب المال أو التاجر وأحكام السوق. إن الحقائق التي عرضتها السنة النبوية تمثل حقاً مفاتيح العلم لبناء نظريات استشرافية تكون أقرب إلى الصور التي تتخذها وتتجلى من خلالها المجتمعات المدروسة. ولكن قد يصعب على الكثير من الباحثين فهم علاقة تلك الحكمة النبوية بالاستشراف وعلومه، وهذا طبعاً يعود أساساً إلى نمط التفكير الذي يتبناه الباحث. فإذا كان هذا الأخير مصاباً بعضال العلمانية أو التفكير اللاديني (secular) مثلاً، فإنه يصعب عليه حينئذ فهم الصلة التي تجمع

١- ينظر كتاب: النصوص الاقتصادية من القرآن والسنة، منذر قحف. من خلال نصوص الوحي (القرآن والسنة) استطاع صاحب الكتاب أن يستخرج مباحث شاملة تشمل جملة من جوانب النشاط الاقتصادي، منها: أهداف السلوك الاقتصادي، وأسسه، والقوانين، والاستهلاك، والإنتاج، ونظام السوق، والاقتصاد الكلي، والدولة والاقتصاد، والمالية العامة.

بين الحكمة والأحاديث النبوية وقراءة معطيات المجتمع واتجاه حركته وما يلزم على الباحث القيام به لخدمة ذلك المجتمع الذي يدرسه.

وبالعودة إلى الأبواب التي عقدها الإمام البخاري على سبيل المثال في تبويب الأحاديث النبوية الشريفة في هذا المجال، يتبين للباحث المسلم أن السنة النبوية لم تترك شيئاً إلا وأتت عليه بداية من ركن الزكاة الذي كان أداؤها شرطاً من شروط بناء «اقتصاد أو معاش الماعون» القائم على العدل في توزيع الثروة، والحفاظ على كرامة الانسان كما دعا إلى ذلك الوحي وركزت عليه مقاصد الشريعة الإسلامية، ويقابله «اقتصاد السحت» الطاغي على المعاملات المالية في العالم الحالي، والقائم على أكل أموال الناس بالباطل. بالإضافة إلى ذلك فقد تطرقت السنة النبوية إلى مسائل أخرى تبين فيه أحكام النشاطات المختلفة التي تشكل هذا المجال، منها: السلّم، والشفعة، والإجارة، والحوالات، والكفالة، والوكالة، والمزارعة، والمساقاة، والاستقراض، والخصومات، واللقطة، والمظالم، والشّركة، والرهن، والهبة، والشروط، والنفقات، والأطعمة، والأشربة. إن تبيان الوحي النبوي لهذه المجالات الخاصة بالمعاش، لم يكن ليصف واقعاً نسبياً بقدر ما هو بناء متين لواقع معاشي صحي حقيقي، يجب أن يعيشه المجتمع المسلم كأفراد وجماعة؛ كجزء من رسالتهم في العبودية والاستخلاف. وهكذا نجد أن الأحاديث التي تعرضت لهذه المسائل في جملتها لم تقتصر على تفسيرات وبيان صيغها ومسائلها الفرعية، بل تعدّت إلى وضع مقاييس سننية لمعرفة وتقويم الأحوال الآنية، واتجاهات تلك النشاطات المعاشية في المستقبل. وهذه المقاييس يمكن استنتاجها بسهولة بالاعتماد على عملية ربط وتصنيف الأحاديث النبوية حسب الدلالات العملية المشتركة التي تعالج حتماً مسألة واقعية محددة تنتمي إلى المجال الذي يريد الباحث أن يستشرف ممكناته المستقبلية. على سبيل المثال جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «من أخذ أموال النّاس

يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»[1]. وهذا الحديث يحمل في متنه قياس أداء الأموال والتعامل بها وفق قواعد الشرع، وهو مقصد «إرضاء الله».

ولو سأل الباحث ما هي الشروط التي تحقق هذا القصد، فسيجد إنارات وقواعد وآداب شاملة وكاملة توجّهه لتحديد الغرض، وبيان نماذجه الفعلية والممكنة بالتفصيل. كما أن هناك نوعاً آخر من الأحاديث التي جاء على شكل جمل شرطية كما جاء في الحديث الذي رواه أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرّه أن يبسط له رزقه أو ينسأ له في أثره فليُصل رحمه»[2]. فهذا الحديث يحمل «عامل مقياس» جاءت صيغته شرطية يمكن صياغته كما يلي: «إذا وصلت الأرحام بسط الرزق». ومن هنا يجد الباحث المسلم في بيان الأحوال المستقبلية للمجتمع المسلم أمامه مسالك جديدة كمسلك دراسة صلة الرحم، وهي مقاييس غير تقليدية وغير معتبرة عند النظم الفكرية الأخرى في مباحث المعاش لمعرفة أحواله في المجتمعات واتجاهاتها المستقبلية.

٣- مرجعية السنة النبوية في استشراف أحوال المجتمع الإسلامي المعاصر

الذي نعنيه من مرجعية السنة النبوية ليس مجرد اعتراف بمصدريتها في المعرفة الإنسانية، لكن القصد هو كيفية الرجوع إلى ذلك المصدر، جعل تلك العملية جزءاً لا يتجزأ من خطوات البحث العلمي من المنظور الإسلامي. ويكون التقويم العلمي لكل مشروع عملي في العمران لغرض الإصلاح أو التنمية أو تطوير المجتمع مبنياً على هذا المبدأ، فيكون بذلك الاحتجاج بالسنة، وبناء الفروض، وتركيب القوانين باللغة الطبيعية، وتفسير الأسباب، وتحديد العلل،

١- الصحيح، البخاري، كتاب الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس يريد أداؤها أو إتلافها، ج٢، ص٨٤١، رقم ٢٢٥٧.

٢- المصدر السابق، كتاب البيوع، باب من أحبَّ البسط في الرزق، ج٢، ص٧٢٨، رقم الحديث ١٩٦١.

وتفسير الأعراض والعلاقات، وتجريد الصور والتنظير؛ كلها عمليات يقوم بها الباحث انطلاقاً وموافقة لمصادر الوحي (القرآن والسنة النبوية). وفي حالة غياب تلك العلاقة والنسبة في البحث يكون هذا الأخير ناقصاً وبالتالي فهو يعد معرفة لا تناسب علاج أو خدمة المجتمع المسلم. إن اعتماد مرجعية السنة النبوية بهذا المعنى لا شك أنها تمكّن الباحث المسلم من رؤية آفاق الأحوال التي تكتنف المجتمع بجميع مكوناته الثابتة والمتغيرة. وهكذا يبدو جلياً أن تشييد التواصل بين الهدي النبوي والمجتمع المسلم والمعرفة العلمية المتداولة فيه، أصبح أمراً ضرورياً لا يمكن تجاهله، ولكن كيف ومن أين يبدأ الباحث لإتمام هذه الحلقة من البحث العلمي في فهم العمران والتأثير في اتجاهاته المستقبلية؟

إن اللبنة الأولى التي يجب أن توضع في هذا الاتجاه تتمثل في ضرورة التمييز بين مجموعتين من التصورات والعوامل، الأولى تضمن ما يمكن تسميته «الأحوال» أو «المتغيرات» التي يحملها «الواقع والمنتظر»،[1] ويقصد بها كل ما يشكل شخصية الإنسان وأوضاع المجتمع الذي من طبيعته التكيف والتغير، والنمو، والارتداد. وهذه الفئة قد نالت عناية واهتمام خاص من قبل علماء المسلمين في صياغة مشاريعهم الإصلاحية وآرائهم الاستشرافية حول المجتمع الإسلامي، وهو الأمر الذي يمكن ملاحظته بكل سهولة في الخطاب العلمي الخلدوني حول المجتمع البشري. لقد قام ابن خلدون بتوزيع هذه الأحوال على دوائر كبرى حصيلتها تشكل ماهية هذا العمران، وتميزه عن غيره. هذه الدوائر تشمل الآتي: التدين أو الحالة الدينية، والسياسة، والمعاش، والعلوم والصنائع، والتربية، والتواصل؛ وهي الدوائر التي جمع عناصرها الجزئية في قوله: «ولم أترك شيئاً في أولية الأجيال والدول، وتعاصر الأمم الأوّل، وأسباب التصرف الحِوَل في القرون الخالية والملل، وما يعرض في العمران من دولة وملة،

١- انظر: ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص١١.

ومدينة وحلة، وعزّة وذلّة، وعلم وصناعة، وكسب وإضاعة، وأحوال متقلبة مشاعة، وبدو وحضر، وواقع ومنتظر، إلاّ واستوعبت جمله، وأوضحت براهينه وعلله»[1].

إن التغيير الذي يطرأ على هذه الفئة من التصورات والأحوال لا ينقص شيئاً من أهميتها، لأن ذلك يمثل في الأخير «الثابت» في خلق الله وسنته في العمران البشري والطبيعي، وكذلك إن هذا «المتغير» هو عمود وأساس يدخل في تحقيق شروط «العبودية لله»، وهي «الاستخلاف الفعلي»، و«الإصلاح الممكن»، و«التعمير المتوازن». يقول الله سبحانه وتعالى في تحديد أهمية «المتغير» الذي مثلته «النفس البشرية: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٥٣) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ (الرعد: ١١).

أما الفئة الثانية من التصورات فهي تشمل «الثوابت»؛ وهي تمثل المكونات التي تحمل طبائع مقدورة، ثابتة؛ لا تخضع للتغير ولا التحوّل. وهي تشكّل الجانب السنني الذي ذكره الله تعالى في موضوع «سنة الله». فعلى الرغم من أن ظهور هذا المفهوم في القرآن الكريم، جاء متّصلاً بتحديدات أخرى منها تعلّق السنة «بالأولين»، أي ﴿ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٨)؛ و﴿ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ ﴾ (الأحزاب: ٣٨)، و«المرسلين» أي ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ (الإسراء: ٧٧)، لكن الله تعالى حدّد ماهيتها في الاستقرار والثبات بنفي «التحوّل»: ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٧). والتبديل وهو التغيير الجذري: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٦٢). ويلاحظ في الآيتين عناية الله في تحديد درجة النفي، فجاء في التحويل باستعمال الأداة «لا»، لكن في احتمال وقوع تغير جذري على الثوابت، جاء نفيها بأشد أداة تحقق الغرض وهي «لن».

١- ابن خلدون، المصدر نفسه، ج١، ١١.

إن أهم عوامل النجاح في بناء نظرية استشرافية علمية للواقع تتمثل أساساً في اكتساب الفن والقدرة على التمييز وتحديد نسب وقياسات دقيقة بين ما هو ثابت وما هو متغير من الكينونات والتصورات والأعراض والأحوال التي تتجلى فيها ماهية العمران البشري بكليته. إن ورود كلمة «تجد» تستلزم وجود «أناس تبحث»، وهذه إشارة إلى اتجاه معين في استشراف المستقبل لا يحسن أصحابه الفصل بين الفئتين، بل الأخطر من ذلك، فهم يحاولون تحويل «المتغير» إلى «الثابت» و»الثابت إلى «المتغير» تحت أضعف المبررات وأبعدها عن الواقع الذي يقصدون تفسيره. إن أهمية مصدرية وحجية السنة النبوية في بناء المعرفة الإنسانية والاستفادة منها كاستشراف أحوال العمران البشري، تفرضها حاجة الباحث المسلم إليها للوقوف على الثابت والمتغير في معرفة تلك الأحوال. إن السنة النبوية تحمل من صفات الكمال واليقين والشمول والدقة والعمق والإطلاقية ما يجعلها قادرة على استغراق كل ما يعرض إليه الإنسان في العمران. وهكذا يمكن أن نلاحظ أن مصدر السنة النبوية بهذا الخصوص يتميز بالخصائص الآتية:

أولاً: أن السنة النبوية لم تترك شيئاً يستحق ذكره وبيانه حول الإنسان وخصائصه وأحواله، وأبعاده الظاهرة والخفية والغيبية؛ إلا ذكرته وبينته حسب ما يقتضيه الوحي الإلهي (القرآن)، وهذه الإحاطة تعد وجهاً من وجوه الكمال والشمول الذي تتمتع به السنة النبوية.

ثانياً: أن كل ما ذكرته السنة النبوية حول الإنسان والعمران البشري تمثل حقائق يقينية مطلقة، فهي تصور المجتمع الإنساني تعييناً، وليس تمثيلاً، أو تنظيراً أو تأملاً، وتخميناً احتمالياً.

ثالثاً: إن المعرفة التي تحملها السنة النبوية حول المجتمع البشري كل متكامل، لا يمكن فصل بعضه عن البحث؛ لأن تكامله قائم على سنة تكامل شخصية الإنسان

ذاته. فالذين يحسنون جمع وربط مادة الحديث وموضوعاتها الظاهرة والخفية بعضها ببعض تتكون لديهم قدرة عجيبة على استشراف أحوال المجتمع المسلم وغيره بقدر كبير من الصواب والدقة، حتى يعجز البعض عن تفسيرها فيصنفها ضمن المعرفة اللدنية أو الإلهامات أو الإشراقات التي تعلو عن التفسير العادي للمعرفة الإنسانية.

رابعاً: إن الجهل بتلك المعرفة التي تحملها السنة النبوية حول الإنسان والعمران البشري المسلم أو تجاهلها وعدم الأخذ بها، هو سبب رئيس وراء المخلفات السلبية التي تتركها النظريات والفكر الوضعي المنفصل عن الوحي، والذي يحاول فهم المجتمع المسلم بمعرفة دخيلة ومستوردة من الخارج.

٤- توظيف ابن خلدون للسنة النبوية في فهم واستشراف أحوال العمران البشري والمجتمع المسلم.

ثمة نقص شديد في الدراسات التي تتناول جهود العلماء المسلمين في توظيف مصادر الوحي لصياغة مناهجهم وطرقهم العلمية في دراسة الإنسان والمجتمع واستشراف أحوالهما المستقبلية. ومن بين هؤلاء العلماء ابن خلدون الذي ألّف «المقدمة»، وهو يعدّ أول كتاب علمي منهجي متكامل في دراسة العمران البشري، حيث وضع بعض العلوم التي تخدم ذلك الغرض. إن عرض بعض جهود ابن خلدون ووسائله المنهجية في موضوع الاستشراف كان لسببين، الأول: نجاحه في اكتشاف جملة من السنن والقوانين التي تتحكم في أحوال العمران البشري، وهو الأمر الذي ساعده في استشراف أحواله المستقبلية، وتأسيس فكر علمي وقائي يمكن استخدامه وتوظيفه في توجيه وتخطيط مستقبل المجتمع المسلم. والأمر الثاني: يتمثل في توفيقه الكبير في الجمع بين معارف الوحي وعلوم العمران البشري، أي أنه تمكن من الجمع بين القراءتين؛ قراءة

كتاب الوحي، وكتاب العمران البشري في نظام أكسيومي هرمي تعلوه معارف الوحي برؤية كونية توحيدية وكليات يقينية متجهة إلى عالم العمران البشري لاستغراق أحواله وأعراضه وطبائعه المستقرة والمتغيرة.

الذي يطلع على محتويات «المقدمة» يعرف أن موضوع «الاستشراف» لم يكن مجالاً غريباً عن ابن خلدون، بل إن وعي هذا الأخير بتقنيات وطرق الاستشراف كان كبيراً. ففي حديثه عن «حدثان الدول والأمم»[1] أشار ابن خلدون إلى أصناف «الاستشراف» المعروفة في عصره والقائمين بها (الكاهن، والمنجم، والولي، والحاسب، وضارب المندل)، وطرقها، ومناهجها، وموضوعاتها (الكسب، والجاه، والعشرة، والعداوة)، واتجاهاتها، وانتقد البعض منها الذي لا يستند إلى أصل علمي. كما تطرق كذلك إلى صنف من «الحدثان» أو الكلام في أحوال الدول المستند على الأثر، وقد أشار في ذلك إلى حديث حذيفة بن اليمان الذي قال فيه: «وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَصْحَابِي أَمْ تَنَاسَوْا؟! وَاللَّهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَائِدِ فِتْنَةٍ إِلَى أَنْ تَنْقَضِيَ الدُّنْيَا يَبْلُغُ مَنْ مَعَهُ ثَلَاثَ مِائَةٍ فَصَاعِدًا إِلَّا قَدْ سَمَّاهُ لَنَا بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَاسْمِ قَبِيلَتِهِ»،[2] وكتاب «الجفر» الذي كان هارون بن سعيد العجلي -وهو رأس الزيدية- يرويه عن جعفر الصادق، وهو يذكر أن ما جاء فيه ليس كله صحيحاً بل الكثير مما يحويه ملفق، أو كما قال «وهذا الكتاب لم تتصل روايته، ولا عُرِف عينه، وإنما تَطِير شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل»[3].

إضافة إلى ذلك، فإن منهجية ابن خلدون -في الكتاب المذكور- وترتيب أفكاره حول العمران البشري، يدلان على دراية ابن خلدون في ربط الوقائع

١- ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص: ١٤٩-١٦٨.

٢- السنن، أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها، ج٤، ص١٥١، رقم الحديث ٤٢٤٥، وحكم الألباني على هذا الحديث بالضعف، انظر: ضعيف سنن أبي داود، الألباني، ج١، ص٤٢٠، رقم الحديث ٩١٣.

٣- ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص١٥٥.

والأحوال والأسباب العمرانية وما ينتج عنها بالمستقبل، وخاصة في قراءة تاريخ مستقبل الدولة الإسلامية أو العربية كما سمّاها. فالمعروف عن أسلوب ابن خلدون العلمي تنظيم المقدمات وربطها بالنتائج، ثم امتحانها بالمحاكمة إلى الظواهر التي تسير وفق تلك العلاقة؛ حتى يتأكد من وجود وجه من المطابقة والذي من خلاله يصح إطلاق اسم العلم على المعرفة المحصّل عليها. إن ابن خلدون لم يقف عند هذا الحد، لكن في كثير من الأحوال نجده يحاول أن يمدد نتائجه العلمية مكاناً وزماناً حتى تكون الاستفادة منها أكثر. وهي بعينها عملية الاستشراف.

إن الباحث في «المقدمة» يجد أن الاستشهاد بنصوص القرآن والسنة النبوية، لم يكن كثيفاً كما هو معروف في كتب العلماء المسلمين في المجالات الأخرى من العلوم الشرعية إلى درجة أن بعض الباحثين في الفكر الخلدوني الذين وقعوا تحت تأثير الفكر المادي والوضعي، اعتقدوا أن ورود تلك النصوص لا أثر لها في بناء منطقية النصوص وجملها الخبرية والاستدلال عليها، وبالتالي فهي ليست إلا أسلوب دبلوماسي حاول من خلاله التغطية على الآراء المنحرفة التي يحملها.[1] لكن هل غياب الاستدلال الكثيف بنصوص الوحي قرآناً وسنةً، يعني أن ابن خلدون لم يتقيد بأساسيات الأصولية الإسلامية في بناء نظرياته العلمية في العمران البشري؟ طبعاً الإجابة هي «لا». ودليل ذلك هو ما نورده من الأمثلة الواضحة التي كان فيها ابن خلدون يستشرف أحوال العمران البشري خاصة المجتمع المسلم في ضوء مصادر الوحي. بحيث إن جل الفروض والاستدلالات والقوانين التي اعتمدها ابن خلدون في فهم حركة العمران البشري واستشراف أحواله المستقبلية، كان مصدرها الأول القرآن والسنّة النبوية ومدعمة بهما. وللوقوف على نماذج من هذه الاستشرافات وخصائص منهجيته، نحاول عرض مسألتين أساسيتين باختصار، وهما: مفهوم الإنسان والجماعة، وعوامل انهيار العمران البشري وخرابه.

١- منطق ابن خلدون في ضوء حضارته و شخصيته، علي الوردي، ص١٤-١٥.

أولاً: الإنسان والجماعة

كانت بداية ابن خلدون في الاستعانة بالسنة النبوية لفهم واستشراف أحوال العمران البشري بالاعتماد عليها في تحديد المفاهيم الكلية التي استخدمها فيما بعد كنواظم في تحليل ومناقشة تلك الأحوال، وعرض آراء العلماء والمدارس الفكرية في القضية التي قصد دراستها. على سبيل المثال، لقد رجع ابن خلدون إلى مصدر السنّة النبوية،[1] أثناء عرضه وتحليله لمفهوم الإنسان -الذي كان فهم كيانه شرطاً أساسياً في عملية الاستشراف- في فصل خصّه لبيان خصائص البدو، وهي المجموعة البشرية التي تعتمد على نمط معيشي بسيط يسبق وجودها تشييد أي مجتمع حضاري مركب، وذكر حديث الرسول ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُود إلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَة، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانه أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانه، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ».[2] وجعل مفهوم الفطرة التي بيّنها المصدر النبوي من المقاييس الأساسية والتصورات التي يجب فهم أبعادها ومكوناتها وسننها ومختلف أحوالها تحت ظروف شرطية يمليها العمران الطبيعي والبشري الذي تنتمي إليه. وقد أبدع ابن خلدون في استعمال الفطرة لتفسير جملة من ظواهر العمران البشري الخاصة في مجال السياسة والملك، والمعاش، والتربية والتعليم. وباتخاذ مفهوم الفطرة كمقياس، استطاع كذلك رسم صور استشرافية حول أحوال مستقبلية بناءً على سنن الفطرة التي اكتشفها من خلال القرآن والسنة النبوية.

لم تتوقف استفادة ابن خلدون من السنة النبوية إلى هذا الحد في المسألة، بل تعدت إلى دائرة أوسع لينتقل إلى مجال دراسات الإرادات الجماعية عوض الإرادات والأفعال الفردية التي كانت الموضوع المفضّل لدى الفقهاء. لقد وعى

١- ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص١٩٧.

٢- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب لا تبديل لخلق الله، ج٣، ص٢٧٥، رقم الحديث ٤٧٧٥؛ والمسند الصحيح، مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، ج٢، ص١٢٢٦، رقم الحديث ٢٦٥٨.

ابن خلدون قوة ودلالة مفهوم «الفطرة» التي زوّدته إياه مصادر الوحي حين خاض به تجربة البحث عن سنن العمران البشري بكليته وأبعاده الثلاث: الماضي (التاريخ)، والحاضر (السياسة والمعاش)، والمستقبل (العلم والتربية)، وركز على دراسة الإنسان في إطاره الجماعي أي باعتبار انتماءه إلى جماعة.

وللجماعة» في الإسلام طبيعتها، ومكوناتها وقوانينها وأهدافها، وأحوالها الخاصة في التعاون والتدافع مع غيرها من الجماعات الإنسانية الأخرى. ولقد وردت في القرآن الكريم مجموعة من المفاهيم تبين الأصناف الخارجية أو الموضوعية لهذه التشكلات الإنسانية. إن معرفة كينونة الجماعة شرط من الشروط الضرورية التي تساعد الباحث على وضع استشراف أقرب ما يكون إلى «الحقيقة المستقبلية الممكنة»، وبالتالي فهي تساعده على بناء الجزء الثاني من عملية الاستشراف، وهو التخطيط ثم التعمير والإصلاح، وهي كلها عمليات مرتبطة بعضها ببعض لتحقيق مسؤولية الاستخلاف الفعلي والممكن بشروط معارف الوحي ومصادره. لقد جاءت إنارات كثيرة في السنة النبوية حول طبيعة الجماعة المسلمة وخصوصياتها وأحوالها ضمن العمران البشري كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وهو الأمر الذي نبّه علماء المسلمين من بينهم ابن خلدون إلى أهميته في فهم العمران البشري.

إن وعي ابن خلدون بموقع الجماعة وأهميتها في القرآن والسنة النبوية، سمحت له أن يبدع أكثر في فهم طبيعة العمران البشري وتقلباته بما اعتمد عليه من تحليل فئات عمرانية مختلفة جمعت كل العناصر التي تكونه، وهذه تتمثل في «الإنسان وأصنافه العمرانية والدينية، والجماعة، والعصبية، والفئات، والدولة، والخلافة، والحضارة. إن إسهام ابن خلدون في هذا المجال يخص انتقاله من الفقه الفردي إلى الفقه الجماعي الذي كان فهمه واستيعابه يمثل شرطاً علمياً ضرورياً لبناء رؤى استشرافية أقرب ما يكون إلى الممكن والمتحقق. ففي توظيفه للعصبية

على سبيل المثال، لجأ ابن خلدون إلى ما يمكن تسميته بالتحليل المتوازي، وهو نوع من الجهد العلمي الذي يتابع فيه الباحث معطيات مصدرين من المعرفة في آن واحد.

كيف كانت استفادة ابن خلدون من السنة النبوية في تحديد مفهوم العصبية، الذي كثيرا ما فسّر ونوقش وانتقد فيه وفق رؤى تجزيئية تفتقد إلى أصول علمية، وبيان وظيفتها في العمران البشري، وكيف استخدمها في استشراف وفهم اتجاه حركة المجتمع من الوجهة السياسية والتغلبات التي شكلت تلك الحركة؟

حاول ابن خلدون في فصل «انقلاب الخلافة إلى الملك»، وهي من المسائل الشائكة في الفكر السياسي الإسلامي، التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، من خلال تحديد عامل «العصبية» كمتغير مستقل تترتب عليه أحوال عديدة تُكَوِن ما يمكن تسميته باللغة المعاصرة بأبعاد «الحدث السياسي».

لقد شعر ابن خلدون بعمق مفهوم العصبية والحساسية التي يحملها، لهذا كان بصيراً منذ البداية بضرورة إيجاد صيغة للتركيب المشروح، ونحت دلالته بالاعتماد على التحليل التركيبي للمسافات المفهومية التي تجمع بين العصبية، والتشكيل السياسي للمجتمع، والدعوة الدينية، وإقامة الدين؛ وانتقل فيه عبر عدة خطوات تتمثل في الآتي:

١. تحديد شرعية المفهوم الموضوعي والمستقل

وهو الشرط الذي حققه حين برهن على أن العصبية ليست حالة عرضية أو اختيارية في المجتمع البشري، بل «هي ضرورية الوجود وترتيبية،... وأن الشرائع والديانات وكل أمر يُحمل عليه الجمهور فلا بد له من العصبية»[1].

١- المقدمة، ابن خلدون، ج١، ٣٤٦.

١ . امتحان المفهوم بالعودة إلى مصادر الوحي

وهي الخطوة الأصلية الثانية التي تدعم الفكرة الأولى أو تدحضها. بمعنى لو أن في المصادر شيئاً ينكر جذرياً فكرة العصبية لم يكن أمام ابن خلدون إلاّ إهمالها لكونها تصوراً غير علمي. في هذه الخطوة كان على ابن خلدون أن يبذل جهدًا في تلخيص المفهوم من تصورات أنتجتها الأعراف الفكرية، وأثر التجارب العملية المتراكمة التي تتابعت فيها تجليات سلبية للمفهوم في حركة الجماعات البشرية. هنا يبدأ ابن خلدون بتأسيس نظريته هذه، التي أصبحت فيما بعد أحد آلياته الفعالة في استشراف أحوال العمران البشري، برفع دلالة هذا المفهوم الإيجابي الذي ورد في حديث رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا في مَنَعَة من قومه»، وهو حديث رواه أبو هريرة عَنْ النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «قَالَ لُوطٌ: (لَوْ أَنَّ لي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيد)[١] قَالَ قَدْ كَانَ يَأْوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيد وَلَكِنَّهُ عَنَى عَشِيرَتَهُ فَمَا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَهُ نَبِيًّا إلَّا بَعَثَهُ في ذُرْوَة قَوْمه» قَالَ أَبُو عُمَرَ: «فَمَا بَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيًّا بَعْدَهُ إلَّا في مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِه»[٢]. وهو الحديث الذي شجع ابن خلدون إلى القول بأن «العَصبية ضرورية للملة، وبوجودها يتم أمر الله منها»[٣]. وذكر هذا الحديث بمثابة عملية الوصل التي تجعل استخدام المفهوم خطوة علمية مشروعة لارتباطها بمصدر الوحي.

بعدها أتبع ابن خلدون هذه العملية بعملية أخرى تعاكس الأولى، وهي: الفصل، والتمييز، والتنقية؛ وفي هذه الخطوة كان ابن خلدون بحاجة ماسة إلى التخلص من الدلالة العرفية المتراكمة التي تسلب مفهوم العصبية قيمته العملية الإيجابية. لقد وجد ابن خلدون سنداً ودليلاً قوياً في حديث آخر رواه أبو هريرة،

١- هود: ٨٠.

٢- المسند، أحمد بن حنبل، ج٢، ص٥٣٣، رقم الحديث ١٠٩١٦، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح وهذا إسناد حسن.

٣- المقدمة ابن خلدون، ج١، ٣٤٦.

وهو الحديث الذي أسقط فيه رسوله ﷺ شرعية الألوان السلبية التي كان الناس يوظفون من خلالها شعورهم بانتمائهم العصبي. وجاء الحديث ليسقط التفاخر بالقوم، وهي الظاهرة التي سماها بـ: «العُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّة». عن أبي هريرة أنّ النّبيّ ﷺ قال: «لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَام إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْم جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنْ الْجِعْلَان الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ»، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ النَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»[1].

في المرحلة الأخيرة من هذه الخطوة لجأ ابن خلدون لتحليل شرعية «العصبية» وسلطتها إلى إجراء المقارنة بينها وبين مفهوم «المُلك»، فوجد أن ثمة تشابهاً بينهما، وهو الأمر الذي يسهل أكثر إبراز الجانب الشرعي والإيجابي الذي تقوم به العصبية إذا تقيدت بمقاصد الشرع. يقول ابن خلدون: «وكذلك الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح، وإنما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات».[2] ودعم ابن خلدون فكرته هذه بدعوة النبي سليمان طالباً للملك كما وردت في القرآن: (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) (ص: ٣٥). لم يكن اهتمام ابن خلدون مقتصراً على إبراز التشابه بين طبيعة العصبية والملك؛ بل بين وجود العلاقة السببية بينهما، لهذا السبب عقد ابن خلدون فصلين في المقدمة بعنوان «أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك»، و»أن الملك والدول العامة إنما تحصل بالقبيلة والعصبية».

١- السنن، أبو داود، كتاب الأدب، باب في التفاخر في الأحساب، ج٤، ص٤٩٢، رقم الحديث ٥١١٨؛ السنن، الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الحجرات، ج٥، ص٣٨٩، رقم الحديث ٣٢٧٠، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن بن عمر إلا من هذا الوجه؛ المسند، أحمد بن حنبل، ج١٤، ص٣٤٩، رقم الحديث ٨٧٣٦، وقال الشيخ شعيب: إسناده حسن.

٢- المقدمة، ابن خلدون، ج١، ٣٤٧.

٢. اعتماد التعليل المقاصدي في تأسيس الصورة الإيجابية للمفهوم

للقيام بهذه الخطوة، قام ابن خلدون باسترجاع أحد مبادئ الرؤية الكونية التوحيدية، و«العلاقة بين الحياة الدنيا والآخرة» الذي يمثل الميزان الإلهي الذي يقسّم الناس إلى فئتين: «الذين يريدون الدنيا»، و«اللذين يرجون الآخرة»، وأعمال الفئتين تحت أي شرط عمراني يكون ملوّناً بهذا المقصد. وضّح ابن خلدون العلاقة الإيجابية بين الدائرتين اللتين حددهما الشارع في صيغة أحادية واضحة لا تقبل أوجهاً واحتمالات أخرى، أو كما قال: «واعلم أن الدنيا وأحوالها كلها عند الشارع مَطِية للآخرة، ومن فقد المطية فقد الوصول».[1] لقد ساعد ابن خلدون على إبراز الجانب المقاصدي في أصل آخر وهو العودة إلى الفطرة البشرية، بحيث بيّن أن العصبية بمعناها الإيجابي جبلة في الإنسان فلا يمكن اجتثاثها أو إهمالها بالكلية، بل طبيعتها فيه تشبه قوة «الغضب» التي هذّبها الشرع ولم يدع إلى استئصالها، لأنه بفقدان الغضب يفقد الإنسان الانتصار للحق، ويبطل الجهاد وإعلاء كلمة الله به. إذاً فإن الأمر الممكن في هذه الحال هو ما سماه بـ «تصريفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة، حتى تصير المقاصد كلها حقا وتتحد الوجهة»[2]. وفي هذه المسألة رجع ابن خلدون إلى حديث رسول الله ﷺ المشهور «من كانت هجرته إلى الله ورسوله»[3].

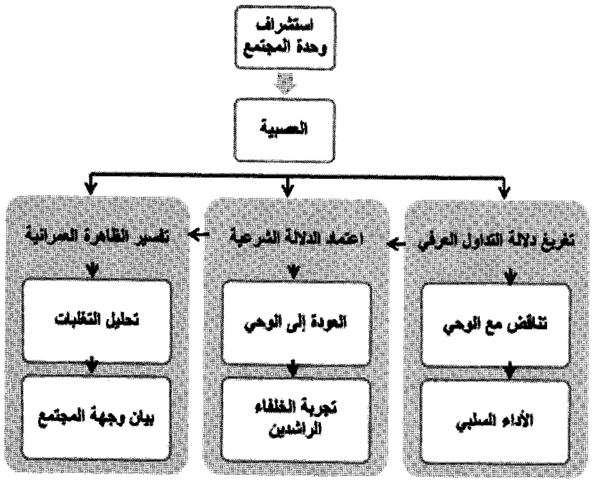
٣. قراءة التاريخ البشري على ضوء نظرة توحيدية خالصة

إن ابن خلدون كان واعياً تماماً بأهمية مفهوم العصبية وبقية المفاهيم التي تبناها لاستشراف أحوال المجتمع المسلم، لهذا نجده أخذ احتياطات منهجية شديدة في بنائها وربط بعضها ببعض؛ حتى تكون معيناً موضوعياً لبناء نظريته حول مستقبل

١- ابن خلدون، المصدر نفسه، ج١، ٣٤٦.
٢- ابن خلدون، المصدر نفسه، ج١، ٣٤٧.
٣- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ما جاء أن الأعمال بالنية الحسنة ولكل امرئ ما نوى، ج١، ص٣٠، رقم الحديث ٥٤.

المجتمع المسلم. لاستكمال هذا الاحتياط رجع ابن خلدون إلى قراءة التاريخ لتحديد التجليات السياسية والدينية والمعاشية، وتلك العلاقة التي تجمع بين العصبية والملك، وكذا صورها عبر حقب تاريخية مختلفة. لذلك نجد على سبيل المثال ابن خلدون يحلل أحوال الصحابة في تسييس الرعية وإقامة الدين، ومسألة انتقال الخلافة إلى الملك في عهد معاوية، والفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية، كما ذكر أحوال وأوصاف فئة من الملوك والخلفاء الذين جاءوا من بعدهم كيزيد، ومروان بن الحكم، وعمر بن عبد العزيز، وهارون الرشيد، مستعينا بذكر بعض الروايات التي نقلها المسعودي.

الشكل رقم: ٥



بعض الخطوات المنهجية التي اعتمدها ابن خلدون في استشراف وحدة المجتمع

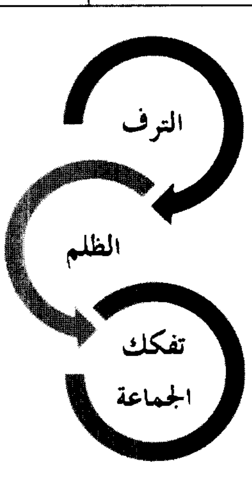
ولتحقيق قدر كاف من الإحاطة العلمية للحصول على صورة استشرافية أقرب ما يمكن إلى الحقيقة المستقبلية فقد اجتهد ابن خلدون في استكمال العمليات الفكرية التحليلية الأربع كما يوضحها شكل رقم: ٥. وهي تحديد العامل المستقل، تفريغ دلالته العربية لعدم مناسبتها مع المقصد، واستبدالها بالدلالة الشرعية والتركيز عليها، وأخيرا بدأ في تفسير الظاهرة في أبعادها الكلية بتوظيف جميع المعطيات، والمحصول المعرفي، وتجربته الخاصة.

ثانياً: استمرار ونهاية العمران البشري وانكماشه

إن من بين إسهامات ابن خلدون الكبرى في العلم تفسيره النسفي الشامل لقيام الحضارات وتطورها واندثارها بسبب عوامل ذاتية أو خارجية. بذل الكثير من الباحثين والاتجاهات المادية كل جهودهم لعقود من الزمان لفك الارتباط بين الفكر العلمي الخلدوني وجذوره بمصادر الوحي، حتى جعلوا منه صورة العالم المادي والوضعي الذي انغمس في العمران الطبيعي، ولم يرفع نظره إلى السماء قط. لكن الحقيقة سرعان ما تتجلى، مخالفة تماماً لما يفترونه، حين يحاول الباحث امتحان الرؤية الكونية التي كان ابن خلدون ينظر من خلالها إلى العمران البشري والطبيعي على السواء. لقد دلّت كل جزئيات الفكر العلمي الخلدوني ومنجزاته على أنها تسبح في فلك الرؤية الكونية التوحيدية الإسلامية وما تحمله من المعتقدات والتشريعات والعلوم.

إن اعتماد ابن خلدون على السنة النبوية في استشراف مسألة استمرار العمران أو انكماشه مسألة لا شك فيها لتوافر أدلة كثيرة تدعمها. فإذا أخذنا جزءاً من هذه المسألة، وهي انكماش العمران، نجد أن ابن خلدون دعم نظريته في تفسير الظاهرة بجمع جملة من العوامل السلبية التي وردت في مصادر الوحي (القرآن الكريم والسنة النبوية). هنا نحاول الإشارة إلى ثلاثة عوامل مستقلة وردت بكثرة في نصوص ابن خلدون أثناء تحليله وتفسيره لأسباب انهيار العمران، وهي: عامل الترف، وتفكك الجماعة، والظلم كما هي في شكل رقم: ٦.

الشكل رقم: ٦



ثلاث عوامل حاسمة في استشراف خراب العمران عند ابن خلدون

ظهرت كلمة «الترف» ومشتقاتها في ثمان مناسبات في القرآن الكريم[1] لتعطي تميّزاً فاصلاً بين توازن سلوك «النفس المؤمنة»، وانحراف «النفس الكافرة». قد يكون عدد الأحاديث التي وردت فيها كلمة «الترف» ليست كثيرة كحديث الشفاعة الذي ورد فيه ذكر قصة إبراهيم في مصر مع ملكها الذي وصفه الحديث بـ»جَبَّارٍ مُتْرَفٍ»[2]، إلا أن الأحاديث التي أشارت إلى معاني الترف وأسبابه، وحملت تحذيرات مع بيان مغريات الحياة الدنيا التي هي أصله وسببه الأول، فقد كان عددها كبيراً.

يعد الترف وأصنافه في القياسات التنظيرية المادية إنجازاً، وحضارةً، وقوةً، واستحقاقاً، وفضيلةً، وإنسانيةً، ونجاحاً، وحضاً، وحقاً، وحياةً، وتاريخاً، إلى

١- القرآن الكريم (هود: ١١٦؛ الإسراء: ١٦؛ الأنبياء: ١٣؛ المؤمنون: ٣٣، ٦٤؛ سبأ: ٣٤؛ الزخرف: ٢٣؛ الواقعة: ٤٥).

٢- وهو الحديث الذي رواه أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال:»يحشر المؤمنون يو م القيامة فيهتمون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبونا، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك»، قال: «فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب أكله من الشجرة، وقد نهي عنها، ولكن ائتوا نوحا، أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، قال: فيأتون نوحا، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته سؤاله الله بغير علم، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب ثلاث كذبات كذبهن، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا وأتى على جبار مترف ومعه امرأته، فقال: أخبريه أني أخوك فإني مخبره أنك أختي، ولكن ائتوا موسى عبدا كلمه الله تكليما، وأعطاه التوراة، وقال: فيأتون موسى، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب قتله الرجل، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه، فيأتون عيسى، فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمدا عبد الله ورسوله، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، قال: «فيأتوني فأستأذن على ربي في داره، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفع رأسك محمد، وقل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعط»، «فأرفع رأسي فأحمد ربي بثناء وتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حدا، فأخرج فأدخلهم في الجنة»، قال همام: وسمعته يقول: «فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أستأذن على ربي الثانية، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفع رأسك محمد، وقل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعط»، قال: «فأرفع رأسي، فأحمد ربي بثناء وتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حدا، فأخرج فأدخلهم الجنة - قال همام وأيضا سمعته يقول: فأخرجهم من النار فأدخلهم الجنة - قال: ثم أستأذن على ربي الثالثة، فإذا رأيته وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفع محمد،، وقل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعط، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بثناء وتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حدا، فأخرج فأدخلهم الجنة - قال همام وسمعته يقول: فأخرجهم من النار فأدخلهم الجنة - فلا يبقى في النار إلا من حبسه القرآن». انظر: المسند، أحمد بن حنبل، ج٢١، ص١٨٦، رقم الحديث ١٣٥٦٢، وقال الشيخ شعيب: حديث صحيح.

غير ذلك من الأوصاف الإيجابية التي تكدست بها مؤلفات التفسيرات المادية لتاريخ الحضارة الإنسانية؛ لكن تفكير ابن خلدون جاء على عكس هذا الاتجاه تماماً؛ بحيث اعتبر عامل الترف من بين العوامل الحاسمة التي تقف وراء سقوط المجتمعات ونهاياتها المحتومة، وعدّه كذلك من أصعب العوامل التي يمكن علاجها؛ لأن نمو هذه الظاهرة التدريجي في العمران البشري القائم على ارتفاع حاجيات الناس مع تلبية التحسينيات بإفراط لا تواجه مقاومة مباشرة في بدايتها كما يحدث عند ظهور عوامل أخرى: كالظلم، وتفكك الجماعة، والفتن الداخلية. إن الترف بناءً على ذلك يتصدر العوامل الهدامة التي تأتي بالعمران البشري إلى نهايته الحتمية بما يهيئه من التسهيلات لوقوع عوامل سلبية أخرى أكثر شدة وسلبية على حياة الإنسان أو المسلم. ولقد سمى القرآن الكريم أصحاب الجماعات البائدة بـ«مترفين»، وهذا دليل على أثر الترف في استحقاق تلك الجماعات البشرية المنحرفة لتلك النهايات السيئة التي أشار إليها القرآن الكريم.

لقد عرف ابن خلدون أهمية عامل الترف ومظاهره ودوره في التصور المادي للملك، ولهذا السبب نجده اقترب كثيراً إلى المعنى الواقعي للمفهوم، واعتبر أن بدايته في المجتمع يشكل عاملاً من عوامل استعراض قوة الدولة والنظام الذي تفرضه على الناس، وبعبارة ابن خلدون: «إن الترف يزيد الدولة قوّة في أولها».[1] واعتمد في استدلاله على هذه الفرضية على متتالية تربط بين مجموعة من الجمل أو العوامل الحاسمة، وهي مرتبة على النحو التالي: كثرة التناسل والولد والعمومية، وكثرة العصابة، واستكثار الموالي والصنائع، وتوفير الرفاه والنعيم للجيل. والترف بهذا المعنى مرتبط كذلك بزيادة العمران واستنباط الصنائع وكثرة الأسواق، بحيث يقول ابن خلدون: «ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية. ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته. واستنبطت الصنائع

١- المقدّمة، ابن خلدون، ج١، ص٢٩٤.

لتحصيلها فزادت قيمها، وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية، ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول»[1].

لم يقف ابن خلدون عند هذا الحد المادي في تفسيره لظاهرة الترف، بل تعداها إلى مرحلة أعلى منها، وهي امتحان الظاهرة بميزان الرؤية الكونية التوحيدية ومصادرها ليستكمل بذلك الخطوات العلمية اللازمة لدراستها. وهنا نجده يربط بين حالتين عمرانيتين متلازمتين، وهما: انتشار الترف ومذاهبه، وحدوث ما سماه بـ «خنث الحضارة»، وهي نمط من العمران البشري الذي يكون فيه الإنسان أبعد ما يكون من نموذج «الفطرة الأولى»، أو «النفس السليمة»، وأقرب إلى نموذج «النفس المتلوّنة» بمذاهب الفساد. وبذلك اعتبر الترف «مفسداً للخُلُق، بما يحصل في النفس من الشّر والسفسفة، وعوائدها -كما يأتي في فصل الحضارة- فتذهب منهم خلال الخير التي كانت علامة على الملك ودليلاً عليه، ويتّصفون بما يناقضها من خلال الشرّ، فتكون علامة على الإدبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته، وتأخذ الدولةَ مبادئ العَطَب، وتتضعضع أحوالها، وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يُقضى عليها.[2] إن وصول ابن خلدون إلى الجزء الخفي من أثر الترف على العمران البشري كان نتيجة استخدامه لمصادر الوحي (القرآن والسنة النبوية) في بناءه لنظرية الاستشراف التي اعتمد عليها في كل ما قدمه في علم العمران البشري معتمداً على منهجية تقوم على قاعدتين: **الأولى**: استيعاب الوجود الواعي للظاهرة ثم امتحانها بميزان معارف الوحي. **والثانية**: وضع قوانين وترجمتها إلى لغة البرهان الطبيعي. وبسبب الآثار السلبية لهذه الظاهرة على استمرار المجتمع، حاول ابن خلدون أن يفسر أسرارها ليكون الباحث المسلم على وعي تام بجذورها وخلفياتها، بحث جاءت طريقته في وضع

١- المصدر نفسه، ج٢، ص٢٠٨.

٢- المقدمة، ابن خلدون، ج١، ص٢٨٥.

نظرته الاستشرافية المفسرة للعلاقة بين الترف وعمر العمران قائمة على الخطوات الآتية:

١- ملاحظة ظاهرة الاتباع للغير (أهل الأندلس، والجلالقة Galician).

٢- عرض وتحليل حديث الرسول في اتباع المسلم لغير المسلم (حديث جحر الضبّ)[١].

٣- صياغة القانون الذي يفسر الظاهرة وفق قانون السببية، وجاء نصه: «إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده»[٢].

٤- تفسير الظاهرة وبيان أشكالها (اعتقاد النفس في كمال حقيقي يملكه غالبها أو التغالط يسببه جهل في تفسير سبب الغلب، وإحالته إلى أسباب غير طبيعية التي من صوره اللجوء إلى الاعتقاد في كمال الغالب). أنواعه: الانقياد، الاقتداء، والاتباع، والتقليد. وصيغه (الأبناء مع آبائهم، أهل القطر مع الحمية والجند، أهل الإسلام مع غير المسلمين).

٥- بيان آثارها (إذا حصل الغلب على أمة سارع إليها الفناء)، وهي النهاية التي تأتي بتدرج، وقد فسره ابن خلدون بالعوامل الآتية: (حصول الكسل في النفوس، قصر الأمل وضعفه، وتأثر النسل والعمران، وذهاب العصبية، وتناقص العمران، وتلاشي المكاسب والمساعي، والعجز في المدافعة عن النفس).

١- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب الوصايا، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ج٣، ص١٢٧٤، رقم الحديث ٣٢٦٩؛ الصحيح المسند، مسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، ج٨، ص٥٧، رقم الحديث ٦٩٥٢.

٢- المقدمة، ابن خلدون، ج١، ص٢٤٢.

والعامل الآخر يتمثل في تفكك الجماعة، وهي الظاهرة التي تعني في لغة ابن خلدون ضعف وتلاشي العصبية في العمران الحضري بعدما كانت قوية في العمران البدوي الذي يقتضي في رأيه «المسامحة، وحسن المكارم وخفض الجناح والتجافي عن أمور الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر».[1] إن اعتماد ابن خلدون على مفهوم العصبية أساء فهمه الكثير من الباحثين خاصة الذين طغت عليهم التوجهات المادية، الذين حصروا واختزلوا دلالة العصبية على علاقة الدم والقربة بين أفراد يجمعهم هدف تحقيق مصالح خاصة. وهذا تفسير لا يمكن الاعتماد عليه أو تعميمه؛ لأنه ليس إلا جزء بسيط من الحدود التي قيد بها المصطلح وتفسيراته للظاهرة في «المقدمة».

لم يكتف ابن خلدون بما قد يحدده العرف العلمي المتداول لمفهوم العصبية، بل اجتهد وانتقل إلى مرحلة امتحان ومناقشة مشروعية المفهوم في ضوء معارف الوحي ومصادرها، وتوصل إلى نتيجة أن «العصبية» مفهوم متصل بطبيعة الإنسان وفطرته التي خلقها الله، فلا يمكن اجتثاثها أو عزلها عن شعوره وفكره وسلوكه، وإنما يجب توجيهها إلى مجالات التوظيف الإيجابي التي يستطيع فيها المسلم أن يحقق المقاصد الشرعية التي دعا إليها الدين الإسلامي في الاستخلاف، والتعمير، وسياسة الملك.

إن معرفة ابن خلدون لأحاديث كثيرة وردت في بيان أهمية الجماعة، وتحذر من الانفكاك عنها، وخطورة استحداث جماعات تسبب ظاهرة التفرقة، دفعته بلا شك إلى تتبع أحوال العمران واستشراف رسومه المستقبلية لا على مستوى إرادات وسلوك الأفراد فقط، بل على نطاق جماعي وهو المجال الذي رآه أنجع لتفسير الأحداث الكبرى التي تتعدى الإرادات الفردية إلى جملة منها. ولهذا نجد أن معظم المفاهيم التي اعتمد عليها كأدوات لتفسير ظواهر العمران البشري

١- المقدمة، ابن خلدون، ج٢، ص٦٧.

توحي بهذا التوجه. فمفهوم «البدو» و»الحضر» و»العصبية» و»المدن» و»البلدان و»الأمصار» و»الأمم» و»النحل» و»المذاهب» و»الدولة» كلها تدعم هذا الرأي.

أما الظلم فمفهوم مركب، وظاهرة خطيرة، حذرت مصادر الوحي من وقوعه في المجتمع؛ لأن ظهوره يعد سبباً كافياً لدخول ذلك المجتمع دائرة: «الْقَرْيَةِ الظَّالم أَهْلُهَا»[1] ومرحلة الانهيار المحتوم الذي لا يرفع ولا يقاوم ولا يتجنب. وأدلَةَ تحريم الظلم من القرآن والسنّة كما قال ابن خلدون «كثيرة، أكثر من أن يأخذها «قانون الضبط والحصر»،[2] ومنها آيات كثيرة وصريحة توعد الظالم بأنواع من العقوبات في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة. وفي الحديث القدسي عن أبي ذرٍّ عن النّبيّ ﷺ فيما يروي عن ربّه عزّ وجلّ: «إِنِّي حَرَّمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي أَلَا فَلَا تَظَالَمُوا»[3]. وفي حديث عن عبد الله بن عمر عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّهَا الظُّلُمَاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[4].

إن الوقوف عند مصدر القرآن والسنة النبوية حول الموضوع لا شك أنه يولد تصوراً مميزاً حول تفسير أسباب استمرار المجتمعات ونموها وتحقيقها لما ذكره القرآن من مكاسب في الدنيا والآخرة مثل: الفَلَاح، والهداية، ونيل حب الله، وتحقيق الأمن، والوقاية من الفتن، واستحقاق النصرة، وتوفير أنواع من الطيبات، ونيل المغفرة، والاستمرار، والتمكين... كلها مقاصد استحقاقية مبنية على محاربة أشكال الظلم، وتجنب الوقوع فيه أو الإعانة، أو الركون إلى أقوام يعملون به ويمارسونه. وهذا التصور الذي تحدده مصادر الوحي لا يمكن أن ينفك عن التنظير الذي يمارسه الباحث في استشراف أحوال المجتمع الذي يدرسه.

١- سورة النساء: ٧٥.
٢- المقدمة، ابن خلدون، ج٢، ص٨٢.
٣- المسند الصحيح، مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ج٨، ص١٧، رقم الحديث ٦٧٤٠.
٤- المسند، أخرجه بن حنبل، ج١٠، ص٣٤٠، رقم الحديث ٦٢٠٦، وقال الشيخ شعيب: حديث صحيح، وهذا سند حسن.

وهذا ما حدث بالفعل لابن خلدون، وهو يلاحظ ويتابع الأحداث الواقعة في المجتمع المسلم.

كانت بداية ابن خلدون في الاستعانة بمصادر الوحي (القرآن، والسنة النبوية) في المسألة تتمثل في تحديد الدلالة الأساسية للمفهوم الضابط للتفسيرات والمعطيات التي يجمعها من خلال ملاحظاته الكثيرة للمجال الاجتماعي الذي يقع فيه الظلم. وهكذا عمد ابن خلدون كعملية منهجية أساسية في البحث العلمي وفق الرؤية الكونية التوحيدية إلى تقييد وصف أي فعل فردي أو جماعي بالظلم بقواعد الشرع، وحينها عرّفه بـ: «كل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق من الشرع فقد ظلمه. فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمنتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة»[1].

لقد حاول ابن خلدون إبراز أصناف الظلم التاريخية والواقعة في العمران البشري باتباع طريقة متميزة سماها البرهان الطبيعي، وهو نوع من التعليل يعتمد على ضم مجموعة من المتتاليات للوصول إلى النتيجة النهائية المرجو إثباتها بناءً على الفرضية المشهورة التي وضعها، والتي مفادها «إن الظلم مؤذن بخراب العمران»[2]. فالظلم كما فسّره عبارة عن جملة من الأوضاع المرضية أو المنحرفة ناتجة من سوء استعمال أشكال السلطة. تفرز هذه الظاهرة أعراضاً سلبيةً في نفوس الأفراد وسلوكهم العمراني، وينتقل هذا الأثر من مستوى إلى مستوى أوسع نطاقاً من الأول؛ حتى يصل إلى الهيكل الكلي للعمران وهو الدولة. إن فساد العمران وخرابه وما يتبعه من انقطاع النوع البشري هي الحكمة التي تقف وراء تحريم الشرع للظلم حسب رأيه.

١- المقدمة، ابن خلدون، ج٢، ص٨٢.

٢- المصدر نفسه، فصل ٤١، من الباب الثالث، ج٢، ص٨٠-٨٥.

وعلى الرغم من تركيز ابن خلدون على عرض نمط خاص من الظلم، وهو الظلم الذي يقع على أموال الناس، وهذا جزء بسيط من المعنى الشامل للظلم الذي بينته مصادر الوحي، إلا أنه استطاع أن يفسّر أثر الظلم في انقباض العمران البشري، وحاول بلغة علم العمران أن يترجمها كمياً إلى نسبة مفادها أن «على قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب»[1]. اعتمد ابن خلدون في نظريته الاستشرافية التي بناها على عامل الظلم بمجموعة من عوامل أخرى وسطى أو ثانوية، فسّر بها الانتقال التدريجي لأثر الظلم من النفس إلى المجتمع ثم أخيراً إلى الدولة، وهذه الوسائط تتمثل في الظواهر التالية: ذهاب الآمال، وانخفاض السعي، وانقباض الكسب وكساد الأسواق، ونقصان العمران، ثم اختلال الدولة، وخراب العمران.

من خلال هذه الأمثلة تبينت لنا بعض من المكونات الأصولية لمنهجية ابن خلدون في استشراف أحوال المجتمع المسلم التي صاغها وفق الرؤية الكونية التوحيدية، وهذه المميزات تتمثل في الآتي:

١- إثبات أولية مصادر الوحي وسيادتها في كل مراحل البحث العلمي وتجنب الإسقاطات المتسرعة التي تتجاوزها.

٢- استخراج الضوابط والنواظم على شكل تعريفات، ومفاهيم كلية، وقواعد جزئية، ونواقض...، من مصادر الوحي في المرحلة الأولى من البحث.

٣- حسن انتقاء المسائل والظواهر الجزئية من العمران البشري للدراسة، والابتعاد عن التعميم المخل بقيم العلم.

٤- وضع القوانين وشرحها بلغة العلم ومفرداته؛ بعيداً عن الوصف الأدبي والجمالي للظاهرة.

١- المصدر نفسه، ج٢، ص٨٠.

٥- إعطاء تقرير واقعي وبناء تنظير استشرافي لما ينتج عن الظاهرة المدروسة وأثرها في العمران.

٦- اعتماد التفكير العلمي الفعال؛ الذي يتجاوز الوصف المادي والتفسير النظري إلى تحويل المعرفة إلى فعل وخطوات عملية لمواجهة مشكلات حقيقية يعاني منها المجتمع المسلم.

نتائج البحث:

لقد تناول البحث ثلاثة مسائل أساسية تتمثل في: دور السنة النبوية في استشراف أحوال المجتمع المسلم، والرؤية الكونية التوحيدية، وعرض مختصر لملامح منهجية ابن خلدون في استخدام مصدر السنة النبوية في استشراف أحوال العمران البشري بصفة عامة وأحوال العالم الإسلامي بصفة خاصة. أما نتائج المبحث الأول فتتمثل في النقاط الآتية:

أولاً: أن عملية الاستشراف عملية مركبة يمارسها الإنسان باستخدام كل قدراته الإدراكية وتجاربه مع المعطيات التي يجمعها عن الواقع وطبيعة المجتمع الذي يقصد استشراف أحواله.

ثانياً: تتخذ النظرة الكونية في هذا المركب موقع العنصر التكويني، فالإنسان العادي والباحث، كل واحد منهما يبني تصورات استشرافية انطلاقا من الصورة الكلية للحياة التي يؤمن بها. وهذا يترتب عنه أن قدراً كبيراً من مصداقية نظريات الاستشراف تتوقف على مدى صدق وصحة تلك النظرة.

ثالثاً: أن السنة النبوة مصدر لحكمة تضم أخباراً وحقائق يقينية متنوعة ومبشرات وتحذيرات وأنماطاً من التفكير المنهجي، وتصورات وأصولاً لصياغة نظريات استشراف تعنى بإدارة شؤون المجتمع المسلم تحت ظروف العمران البشري

الفعلية والممكنة. وكذلك تقدم للباحث معرفة يقينية بصورها المتنوعة، بحيث تضع أمامه فرصة تجاوز النمط التقليدي المادي لممارسة الاستشراف بإدخال أبعاد ومقاييس ومناهج التحليل، وبناء القرائن، وتحديد الأسباب، وصياغة الفروض والممكنات، واتخاذ القرارات...وغيرها؛ مما يشكل المعرفة العلمية للعمران البشري.

رابعاً: إن السنة النبوية تزود الباحث بسبل ومخارج عملية قويمة لتجاوز الاستشراف النظري الحصولي المجرد إلى استشراف عملي أو فعلي، بحيث تحمي الباحث من السلبية وتحوله إلى عنصر فعال يساهم في البناء والإصلاح بما يعرف أو يتوقع من الأحوال المستقبلية، بإدارتها والاستعداد لمواجهتها على المستوى الفردي والجماعي، وخاصة إذا كانت تلك الأحوال تضر بحياة المسلم ودينه وعمرانه، كانتشار الفساد، والترف، والجهل، والفرقة، والفتن، والصراعات حول الملك، والظلم... وغيرها من الأحوال التي تسبب انهيار المجتمع وتفككه.

مصادر البحث

- ابن عطية، المحرر الوجيز، تحقيق وتعليق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري؛ السيد عبد العال السيد إبراهيم (القاهرة: دار الفكر العربي، ط٢، د.ت).

- ابن منظور، لسان العرب، صححه: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، د.ت).

- أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، شرح وتعليق: محمد كريم راجح (بيروت: دار إقرأ، ط٤، ١٩٨٥).

- أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي (مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، ط١، ١٣٤٤هـ).

- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، البخاري، الجامع الصحيح، اعتنى به: محمد زهير بن ناصر الناصر (بيروت: دار طوق النجاة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٢هـ).

- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، البخاري، الجامع الصحيح، تعليق: مصطفى ديب البغا (بيروت: دار ابن كثير، ط٣، ١٩٨٧م).

- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون (مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٩٩).

- الألباني، صحيح سنن ابن ماجة، (الرياض: مكتبة المعارف، ط١، ١٩٩٧م).

- الألباني، ضعيف سنن أبي داود، (الرياض: مكتبة المعارف، ط١، ١٩٩٨م).

- الألباني، محمد ناصر الدين، ضعيف سنن الترمذي (الرياض: مكتبة المعارف، ط١، ٢٠٠٠م).

- بدر المقري، استشراف المستقبل في التراث الفقهي الأندلوسي: ابن الزبير الغرناطي (٦٢٧- ٨٠٧ هـ) أنموذجاً (محاضرة ألقاها في مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (OSHREC) (وجدة: ٣١، أوت ٢٠٠٩).
- برغوث عبد العزيز، المنهج النبوي والتغيير الحضاري (سلسلة كتاب الأمة: رقم ٤٣، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١، ١٩٩٥).
- الحافظ أبي الحسين، مسلم، صحيح مسلم، اعتنى به: أبو قتيبة نظر محمد الفريابي (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٦).
- الحافظ أبي عبد الله محمد يزيد، ابن ماجة، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، د.ت).
- الحافظ محمد بن عيسى بن سورة، التّرمذي، جامع التّرمذي، راجعه: صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ (الرياض: دار السلام للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٩).
- سليمان بن الأشعث، أبو داود، سنن أبي داود، تحقيق: محمد عوامة (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية بيروت: مؤسسة الريان، ط١، ١٩٩٨).
- سميح عاطف الزّين، معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنّة (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٩١).
- صالح أحمد الشامي، الوافي بما في الصحيحين (دمشق: دار القلم، ط١، ٢٠٠٧).
- عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: عبد السلام الشدادي (الدار البيضاء: بيت الفنون والعلوم الآداب، ٢٠٠٥).

- عبد الرحمن عبد اللطيف قشوع، استشراف المستقبل في الأحاديث النبوية (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٥).
- علي الوردي، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته و شخصيته (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٧).
- عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن كثير، بداية الخلق، تحقيق: إبراهيم محمد الجمل (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٨٨).
- فاروق عبده فلية وأحمد الفتاح الزكي، الدراسات المستقبلية: منظور تربوي (عمان: الدار المسيرة، ط١، ٢٠٠٣).
- محمد بن عدنان السنان، من معالم الاستشراف والتخطيط المستقبلي في الدعوة في ضوء السنة النبوية: الهجرة إلى الحبشة أنموذجاً (الرياض، ١٤٣٢ هـ، دراسة تم تنزيلها من شبكة السنة النبوية وعلومها).
- منذر قحف، النصوص الاقتصادية من القرآن والسنة (جدة: مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، ١٩٩٥)

المراجع

- برغوث الطيب، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكّيّة (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٦).
- فاروق حمادة، العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي (دمشق: دار القلم، ط١، ٢٠٠٥).
- محمد بن فتوح الحميدي، الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: علي حسين البواب (بيروت: دار ابن حزم، ط٢، ٢٠٠٢).
- مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٩٩٢).

أ. المقالات:

- أكرم ضياء العمري، مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها، (المؤتمر العالمي الثالث للسنة النبوية: الدوحة، ١٤٠٠هـ) مراجعة: عبد الله الأنصاري (بيروت: منشورات المكتبة العصرية).
- سعيد بن صالح الرقيب، أسس التفكير الإيجابي وتطبيقاته تجاه الذات والمجتمع (منشورات: المؤتمر الدولي حول تنمية المجتمع: التحديات والآفاق، كولالمبور- ماليزيا، ٢٠٠٨).
- عبد الحميد أحمد أبو سليمان، الإسلام ومستقبل الإنسانية وحاجتها إلى الضوابط الدقيقة من الكتاب وصحيح السنة، (المؤتمر العالمي الثالث للسنة النبوية: الدوحة، ١٤٠٠هـ)، مراجعة: عبد الله الأنصاري (بيروت: منشورات المكتبة العصرية).

التدبير الوقائي في السنة النبوية
نحو منهج مناسب لفهم الأحاديث الواردة
في موضوع الفتن

د. محمد البشير ناصيري
مؤسسة دار الحديث الحسنية
الرباط/المملكة المغربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أزاح جهل الإنسان بوحيه، وأنقذه من عواقب شهواته وأهوائه بتحذير أنبيائه، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد،

فإن التدبير الوقائي في السنة النبوية مقصد أصيل، وهو من أعظم المداخل لفهم كثير من السنن فهما يحقق مقاصد رسالات الله ويؤكدها، ويحتضن روحها الضامنة لاستمرارها، بما يهدي إليه ويلهم من التدابير والتشريعات والنظم الجديرة بجعلها من أولويات البحث.

فرسالة الإسلام من أهم مقاصدها إنشاء نظام عالمي بقيم ربانية مطلقة عن الزمان والمكان، يسود فيه الأمن والعدل وينفى عنه الفقر والجهل، عمل النبي ﷺ بمقتضياتها فأخرج أمة أعيت الحيل أصحابها أن يخرجوا مثلها: علما وأمنا وعدلا ورخاء، مؤكدا بذلك واقعية مبادئ هذه الرسالة وقيمها؛ فهذه الرسالة تلبي حاجات الأفراد وترقيهم، وتهتم بطبيعة الاجتماع وما يقتضيه.

وإن من بالغ حكمة الله تعالى حفظه **للمنهج** الذي اتبعه نبيه ﷺ في تنزيل مقتضيات رسالاته، واعتباره جزءا منها، لا ينفك عنها أبدا؛ إمعانا في إقامة دواعي تدبره والتفكر فيه، وإمضاء للحجج الساطعة على الخلق، وهذا المنهج في التطبيق هو السنة النبوية الطاهرة.

فإذا كانت السنة بهذه المكانة في بناء المجتمع الإنساني الذي ينشده أولو الحلم والنهى، فإن تدبرها واستخلاص القوانين وشروط النجاح وعوائقه وطرق

تجاوزها، واجب شرعي، وضرورة علمية.

ولقد قادني التدبر في السنة انطلاقا من كونها منهجا لتطبيق رسالات القرآن إلى الوقوف على المقصد الوقائي السالف الذكر، الذي تلتقي عنده دلالات طائفة من السنن وردت في صورة الخبر، كأحاديث الفتن والملاحم، زال لي به ما يشكل من دلالاتها الظاهرة عندما أستحضر مقاصد القرآن القطعية، أو الوقائع التاريخية، أو الواقع المشاهد، فقد اتضح لي أنها خرجت مخرج التدابير الوقائية، استشرافا للمستقبل، وفتح في زعمي مدخلا عظيما يمكن من خلاله إغناء الفكرين الإسلامي والإنساني بما يحررهما من القيود السلبية، ويرقيهما على هدى من الله.

و سأعرض في هذا البحث بحول الله مفهوم هذا المقصد الوقائي الذي جعلت له عنوان "التدبير الوقائي في السنة"، وخصائصه، ومنهج فقهه، ونماذج تطبيقية له، في ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: مفهوم التدبير الوقائي في السنة: خصائصه وتأصيله

المطلب الأول: مفهوم التدبير الوقائي.

أولا: لغة:

أ- **التدبير**: قال ابن فارس في المقاييس: «الدال والباء والراء. أصل هذا الباب أنَّ جُلّه في قياس واحد، وهو آخر الشَّيء وخَلْفُه خلافُ قُبُله». والتدبير: «أنْ يُدبِّر الإنسانُ أمرَه، وذلك أنَّه يَنظُر إلى ما تصير عاقبتُه وآخرُه، وهو دُبُره»[1]. وفي مختار الصحاح: «والتدبير في الأمر: النظر إلى ما تؤول إليه عاقبته»[2].

ب- **الوقائي**: قال ابن فارس في المقاييس: «الواو والقاف والياء: كلمةٌ واحدة

١- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس مادة (د ب ر) ج٢ / ص٣٢٤.
٢- مختار الصحاح، الرازي مادة (د ب ر) ص١٠١.

تدلُّ على دَفْع شيءٍ عن شيءٍ بغيره. والوِقاية: ما يقي الشَّيء»[1]. وفي مختار الصحاَح: «وقاه الله وقاية بالكسر، أي حفظه»[2].

ونستخلص من هذه المعاني أن معنى «التدبير الوقائي» لغة هو النظر إلى عواقب الأمور من أجل اتخاذ ما يحفظ من المكاره، فالتدبير يطلق على الأسلوب الذي به تقع إدارة الأمور للوصول إلى أحسن النتائج، ويطلق على العاقبة المتصورة ذاتها، ويطلق على القرار المناسب بعد تصور العواقب للحصول على ما يرضي ودرء ما يكره، وهذان الإطلاقان الأخيران ينطبقان على ما تدل عليه طائفة من الأخبار النبوية على ما سنرى. وقد ارتبط التدبير في الاستعمال بهذا المعنى قال الجرجاني: «التدبير النظر في العواقب بمعرفة الخير»[3].

ثانيا: اصطلاحا:

لم أعثر في كتب التراث، في حدود تتبعي، على مفهوم محدد للتدبير الوقائي، وإن كانت معانيه متداولة بوجه من الوجوه لأسباب، أهمها:

- **أولا**: غياب فن التنظير للقضايا المستقبلية، إلا في النادر، كما صنع الجويني رحمه الله في كتابه «غياث الأمم في التياث الظلم».

- **ثانيا**: ندرة الدواعي العلمية والمشاهد الواقعية لمثل هذا النظر والتدبر في كثير من جوانب الحياة؛ فقد كان الزمان الأول يغلب على أهله الدين والورع والأمانة فلم تفتح مثل هذه الموضوعات للبحث، فبقيت موضوعات جزئية يقع تناولها بين الحين والآخر في رسائل وأجزاء، كبعض رسائل ابن أبي الدنيا، فلم تحظ بالتطوير والاجتهاد.

١- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس مادة (و ق ي) (٦ / ١٣١).
٢- مختار الصحاح، الرازي، مادة (و ق ي) ص٣٤٤.
٣- التعريفات، الجرجاني ج١ / ص٧٦.

- **ثالثا**: طغيان الاهتمام بالتشريع العام وإحكام مداركه، وفروعه؛ لأنهم كانوا يعتبرون الأخذ بالشرائع العامة أهم وسيلة لاتقاء المكاره، والمحاذير، فاتجهت العناية إلى إحكام طرق تحصيل هذه المعرفة خاصة.

- **رابعا**: ارتباط التدبير الوقائي بالمعنى المقصود هنا، كما سيأتي تحريره، بالسنن النبوية، والسنن لم يقع جمعها والإحاطة بها جملة إلا مع نهاية القرن الثالث تقريبا، ولذلك فشروح الحديث بالمعنى المنهجي الخاص تأخرت في الظهور إلى القرن الرابع الهجري. ومع ذلك وقع تناول هذا الموضوع بالتبع لا بالأصالة، فجاءت المعاني متفرقة لا يحكمها ناظم واضح[1].

ولما استقر عند دارسي القانون أن فكرة التدبير الوقائي هي وليدة المدرسة الوضعية في القرن الثامن عشر التي رأت عجز القواعد الأساسية عن التنظيم المطلوب، فاهتدت إلى هذا النوع من التدابير، اعتقدوا خلو التشريع الإسلامي من هذا التدبير الذي يعكس اهتمام المشرع بالتخطيط للمستقبل، وتنظيم العمل، وتوقع المعوقات، فلم يتناولوا تاريخ الفكرة وتطبيقاتها في الفكر والتشريعي الإسلاميين.

ثم جاء الباحث الدكتور أحمد صالح، وخص الموضوع بأطروحة دكتوراه بعنوان: التدابير الوقائية للحماية من الجريمة في الشريعة الإسلامية (دراسة مقارنة)، فخلص إلى أن الشريعة شرعت أصلا وهي تحمل المعنى الوقائي. وفي الموضوع الجنائي قدم تعريفا للتدبير الوقائي فقال: «مجموعة وسائل وأحكام تخاطب كافة أفراد المجتمع وفئاته لتحميهم من الوقوع في الجريمة ابتداء».

ولأنني لم أطلع على الكتاب بكامله، وإنما وقفت على خاتمته، فسوف لن

١- فتح الباري، ابن حجر، ج١٣ الصفحتان ٤و٤٩ حيث أشار مثلا إلى أن الأمانة ترفع بسبب من المكلف وهو مخالطة أهل الخيانة، وعليه فلابد من الابتعاد عنهم حتى لا تحصل هذه الرذيلة.

أستطرد في مناقشة التعريف، لكنني أؤكد قصوره عن الدلالة على المفهوم الذي أقصده.

والتعريف المختار الذي أراه يدل على مفهوم «التدبير الوقائي في السنة»، بعدما استخلصت خصائصه وأهدافه، هو: «ما يضاف إلى النبي ﷺ من العلامات الدالة على مقدمات الفتن أو وقوعها، أو مظاهرها، أو أسبابها، أو المبشرات، إخبارا بما يجب العناية به عملا وتنظيما وتشريعا وإعدادا وتربية؛ مما هو من واجبات العلماء والحكام، والأفراد كل فيما يخصه، وقاية من المكروه وتحصيلا للمرغوب».

ويمكن القول: «ما تضمنته السنة النبوية من محاذير ومكاره، تعترض الحضارة الإسلامية في أطوار الإنشاء أو في طريق الثبات والاستمرار مما يجب اتقاؤه، والانتباه إلى مخاطره»، ويقابله في فن التخطيط اليوم توقع المعوقات وقاية للمخطط من الفشل، أو المبشرات التي يجب الإعداد لها. و هو أمر مرتبط بالتخطيط المستقبلي في جانب توقع الأزمات والتخطيط لإدارتها، والتطلعات والإعداد لها.

المطلب الثاني: خصائص التدبير الوقائي في السنة النبوية.

انطلاقا من التعريف الآنف الذكر، يمكن استخلاص الخصائص المميزة لمفهوم التدبير الوقائي في السنة النبوية:

الخاصية الأولى: كونه تدبيراً نبويا: فقولنا: «ما يضاف إلى النبي ﷺ» يتضمن ما قاله ﷺ وحيا عن علام الغيوب، وما أخبر به اعتبارا بحال الأمم السابقة، ومراعاة لطبيعة الإنسان والاجتماع. فما كان وحيا فلا خلاف في وقوعه إذا توفرت شروطه وانتفت موانعه، وما كان من قبيل الاعتبار فإن الدلائل الشرعية والعقلية تنادي

بإلحاقه من حيث الوقوع بسابقه، لأنه لا يقول: إلا عن علم. وهنا تكمن أهمية هذه التدابير، فهي بعيدة عن الظنون والاشتباه.

ولا يخفى الداعي إلى هذا النوع من التدبير: فرسالات القرآن اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون آخر الرسالات وخاتمتهن، ومقاصدها مطلقة في الزمان والمكان، ولا تكفي خبرة حامليها وتجربتهم لمواجهة التحديات؛ لأن محاذير كثيرة يصعب الاهتداء إليها وبعضها يقع التلاعب بها، إما عمدا أو خطأ، وبعضها يكتم وهي مما يجب أن يعمم.

الخاصية الثانية: ارتباط التدبير الوقائي في السنة بالفتن والملاحم: فقولنا: «العلامات الدالة على مقدمات الفتن أو وقوعها، أو مظاهرها، أو أسبابها، أو المبشرات» قيد تخرج به سائر الأحاديث التي خرجت مخرج التشريع أصالة، فينحصر الكلام فيما خرج مخرج الخبر مما له صلة بالفتن أو الملاحم أو ما يلحق بهما من الأخبار، مثل أوصاف المرأة.

وهنا يثار سؤالان: الأول منهما: ما مفهوم الفتنة وما علاقتها بالملحمة في السنة؟. والجواب: لا ينفصل مفهوم الفتنة في السنة عن مفهومها في القرآن وقد عرفه الطاهر بن عاشور في تفسيره بقوله: «الفتنة لفظ يجمع معنى مرج واضطراب أحوال أحد وتشتت باله بالخوف والخطر على الأنفس والأموال على غير عدل ولا نظام وقد تخص وتعم بحسب ما تضاف إليه، أو بحسب المقام، يقال: فتنة المال وفتنة الدين»[1]. وهو في هذا التعريف لا يتعارض مع من جعل الفتنة في القرآن الكريم تشمل المعاني الأربعة التي منها الاختبار، لأن المكلف عند الاختبار يقع له بعض ما ذكر في التعريف، ثم قد تكون عاقبته إلى خير وقد تكون إلى شر.

١- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ١ / ٤٦٣.

وبتتبع نصوص السنة وجدت مفهوم الفتنة يتضمن المعاني التالية:

- الوقائع والخصومات بين طوائف المسلمين، عندما يصير أمرهم إلى شيع متحاربة.
- التنازع حول الإمارة والإمامة والخلافة.
- تعطيل شرع الله وعدم الاحتكام إليه.
- الظلم الذي يقع من الحكام، أو بسبب تقصيرهم.
- الجهر بالمعاصي وفشوها.
- الإكراه على العقائد الباطلة، ومسبباتها.
- اختلاف أحوال الناس عما عهده الصحابة زمن النبوة.
- الاختلاف في الحياة الزوجية وتبعات مسؤولية التربية.
- الاختلافات اليومية بين الناس.
- تسلط أعداء الإسلام من الأمم الأخرى على أمة الإسلام، أو الدخول معهم في الاختلاف.

وهنا تتصل الفتن بالملاحم. ففي السنة وردت أخبار عن ملاحم مع أمم أخرى، وعندها تكون فتنة واضطراب وحاجة إلى قوانين خاصة، وإن كان مآل بعض هذه الملاحم إلى النصر، مثل ما ذكر عن الترك حيث فتحت القسطنطينية.

وبهذا فإن المفهوم شامل لكل مناحي الحياة: الفردية والجماعية، الدينية والدنيوية.

والسؤال الثاني: لماذا ارتبط التدبير الوقائي في السنة بحال الفتن والملاحم؟

والجواب: إن استقامة حال الأمم هي جزاء من الله على التزام الشرع والعدل. وعادة الله في ابتلاء خلقه بالنعم تولد الطغيان والعدوان وهما أصل الفتن؛ وهي حالة ناتجة عن الغفلة عن سبب الاستقامة الأولى. ولما كان قضاء الله تعالى أن تستمر شهادة أمة الإسلام، فإنه أتى على لسان نبيه بما ينبه من الغفلة حتى لا تستفحل الفتن، وبما يعيد الأمور إلى نصابها.

ومن جهة أخرى فإن رسالة الإسلام رسالة عالمية عامة. وعليه فلابد من الاحتكاك بالأمم الأخرى لنشر هذه الرسالة، مما يترتب عليه وجود ظروف سنة التدافع، التي ينجم عنها عدم الاستقرار، وهو صورة من صور الفتن.

الخاصية الثالثة: رصد العلامات والمظاهر الدالة على بداية الفتنة أو وقوعها، أو أسبابها: ويقصد بها ما جاء في هذه الأحاديث من المظاهر والأحداث على أنها فتن أو مقدمات لفتن، أو أسباب لها. وفائدة هذه الخاصية أنه لما أصبح للفتنة مفهوم شرعي، وللأمن مفهوم شرعي؛ فقد تكفل الله تعالى على لسان نبيه ﷺ بالتنصيص على علامات الفتنة ومظاهرها، وأسبابها، فأبعدها عن تقدير أهواء المكلفين، وضيق نظرتهم، وتزاحم مصالحهم الخاصة. لا سيما أن بعض القرارات في حال الفتنة بالمفهوم الشرعي لا توافق أهواء العامة التي بيدها قوة العدد، أو لا توافق أهواء الحاكم الذي بيده قوة العدة.

والأمر الآخر أن الحكم الذي يستمد قوته من الدين يحتاج إلى ضبط أكثر دفعا لانتحال المبطلين وأهل الأهواء. **فتصير المؤشرات والمظاهر والأسباب بمثابة الشروط التي تقتضي العمل بأحكام حالة الفتنة ومواقفها.**

وقولنا «أو أسبابها» يقصد به ما دلت عليه هذه الأحاديث من أسباب الفتن

كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو عدم الحزم في منع أهل الفواحش حتى يجاهروا بها، أو وجود طباع مكروهة في أحد الزوجين، مما يجب تجنبه درءا للفتنة، أو الاستعداد له لعدم إمكان الاستغناء كما في الحياة الزوجية، أو ذكر صفات في سياق التحذير أو الذم كوصف من يكون هلاك الأمة على يديه من الحكام بـ «الأغيلمة» للدلالة على خطر فساد التدبير والسياسة على نظام الحكم، وبالتالي ضرورة جعل مؤسسة الرئاسة في وضع موضوعي بعيدا عن ذاتية الحاكم.

الخاصية الرابعة: إرشاده إلى القضايا ذات الأثر العام التي تحتاج إلى سياسة محكمة تتطور بتطور الأوضاع والوسائل: فهذه العلامات والمظاهر والأسباب والمبشرات هي القضايا التي يجب أن تعنى بها القيادة السياسية من العلماء والحكام، عناية خاصة: تشريعا، وتنظيما، وضبطا، وتربية وتنفيذا؛ لكي لا تقع، فإن وقعت كبعض الطباع البشرية غير المرغوبة وضعت لها البرامج المناسبة للحد من أثرها، كما يجب الإعداد لتحقيق المبشرات. لا أن تبقى الأمة تنتظر وقوعها لتستدل على صدق النبوة؛ بينما هي دليل تنكب عن منهج النبوة. وتجدر الإشارة إلى أن هذه القضايا قد لا تؤخذ من ظواهر النصوص ولكن هي معان لازمة أو متضمنة كما سيأتي توضيحها في الشق التطبيقي.

الخاصية الخامسة: بيان واجبات العلماء والحكام والأفراد: فقولنا: «**مما هو من واجبات العلماء والحكام، والأفراد كل فيما يخصه**»: يقصد به ما تضمنته هذه الأحاديث من الأحكام المتعلقة بالعلماء مما يجب عليهم فعله، وما يجب عليهم تركه، سواء أكان ذلك ديانة، كالقيام بواجب التغيير باللسان، أو اعتزال الفتنة، أي: هجر المتسبب في الفتنة وعدم موالاته. أو تحت سلطة القضاء. وكالقيام بما يجب عليهم من الاجتهاد في التنظيم والتشريع، وما ذكرناه في الخاصية الرابعة.

وكذلك الأحكام المتعلقة بالحكام مما يجب عليهم فعله كإبعاد قرابتهم من الجبايات. أو كإبعاد المبايع الثاني من الحكام، ولو بمقاتلته مالم يكن ذلك مذكيا لنار الفتنة إذا حصلت شرعية الأول بما تثبت به شرعية الحاكم، أو التنازل كما حصل مع الحسن بن علي رضي الله عنهما.

وكذلك الأحكام المتعلقة بالأفراد مما يكون التزامه ديانة، أو تحت سلطة القضاء أو الإدارة كالشرطة. فقد تضمن هذا النوع من السنن تدابير خاصة بالأفراد تزيد على ما تضمنته القوانين الوضعية، كالإجراءات الراجعة إلى سلطة المرجعيات الاجتماعية كالعلماء.

ويعتبر ما تضمنه التدبير الوقائي في السنة من سلطة أدبية للعلماء وقادة الرأي والفكر خاصية مميزة عما لدى أرباب القوانين الوضعية.

فهذا المعنى يعم كل جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية، فكل مأمورات الشرع الأصلية والتبعية ذكر النبي ﷺ لجنسها ما يحفظها من الاختلال وما يدل على الإخلال بها، أو يكون سببا في ذلك، وما تتحقق به من جديد؛ إذ كان قوام الدنيا لا يتحقق إلا بالدين، وسلامة الدين لابد لها من أمن الدنيا.

المطلب الثالث: تأصيل مفهوم «التدبير الوقائي في السنة».

لقد جاء القرآن بأسلوب في التحذير ممتع وشيق يرسخ ثقافة الوقاية من الأفعال الفاسدة، والسياسات الظالمة، هذا الأسلوب هو الإخبار عن الأمم الغابرة والأفراد، ويمكن تسميته بـ «التذكير الوقائي»، قال ابن عاشور: «وَمِنْ عَادَاتِ الْقُرْآنِ أَنْ يَذْكُرَ أَحْوَالَ الْكُفَّارِ إِغْلَاظًا عَلَيْهِمْ، وَتَعْرِيضًا بِتَخْوِيفِ الْمُسْلِمِينَ، ليكرّه إِيَّاهُم لأحوال أَهْلِ الْكُفْرِ. وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاس: كُلُّ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذَمِّ أَحْوَالِ الْكُفَّارِ فَمُرَادٌ مِنْهُ أَيْضًا تَحْذِيرُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مِثْلِهِ فِي الْإِسْلَامِ»[1]، وهذا يناسب

١- التحرير والتنوير، ابن عاشور ج٣ / ص٨١.

وضع القرآن الذي جاء لعرض الكليات، دون الخوض في تفاصيل المستقبل، ومن الحكمة الربانية جاءت السنة بالتدبير الوقائي أي النظر إلى العواقب، فكان هذا الكمال والجمال في رسالة الإسلام، فالقرآن وظف وقائع الماضي، والسنة وظفت وقائع المستقبل، وإذا كان التذكير الوقائي مقررا في القرآن فإن التدبير الوقائي في السنة يحتاج إلى تأصيل مفهومه السابق. ويتوقف تأصيل هذا المفهوم على أمرين: الأول منهما: أصل اعتبار ما تضمنته هذه الأحاديث أنه تدابير وقائية.

والثاني منهما: أصل اختيار أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة مصدرا للتدبير الوقائي دون سواها من الأحاديث وسنذكره في المبحث الثاني.

أ- **أصل اعتبار مفهوم الوقاية:** أما أصل اعتبار ما تضمنته هذه الأحاديث من فقه عبارة عن تدبير وقائي: فهو ما افتتح به البخاري كتاب الفتن وهو قوله: باب قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (الأنفال: ٢٥)، وما كان النبي ﷺ يحذر أمته من الفتن[١]، ويتركب من الآية والتحذير من الفتن، أن التحذير إنما كان من أجل الوقاية، وأن الفتن المذكورة إنما خرجت مخرج التنبيه والتحذير وأخذ الاحتياط حتى لا تقع، وكذا الضبط والتمييز للمفردات المكونة لقاموسها، وليس لأجل الإخبار والاستدلال على صدق النبوة.

وقد أخذنا هذا المفهوم أيضا من ذات جنس هذه الأحاديث، ومن ذلك: قول رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَم يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِه جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُول: الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فيقول: الْمُؤْمِنُ هَذِهِ هَذِهِ فَمَنْ أَحَبَّ

١- صحيح البخاري مع فتح الباري، ابن حجر ج١٣ / ص٣.

أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِه مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ»[١].

ومحل الشاهد من هذا الحديث هو قوله: «حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ»، ووجه الدلالة منه، هو أن علمه بالشر وتوقعه له، مع خوفه عليهم من الوقوع فيه، دعاه إلى بيانه وقاية لهم أن يقعوا فيه.

فهذا الحديث دليل على وجود هذا المقصد الوقائي، وهو يدل على أن حال الأنبياء كلهم مع أقوامهم هو أن يدلوهم على طريق الخير ويحذروهم من سبل الشر، وإنما التحذير من الشر وقاية لهم حتى لا يقعوا فيه، أو يدركهم؛ وقد قال حذيفة رضي الله عنه أنه كان يسأل النبي عن الشر مخافة أن يدركه. وقال الشاعر:

عَرَفتُ الشَــرَّ لا لِلشَــرِ لَكِن لِتَوَقّيهِ   وَمَن لَم يَعرِفِ الشَرَّ مِنَ الخَيرِ يَقَع فيهِ[٢].

ب ـ **أصل اعتبار الشمول:** وأما أصل شمولية هذا المقصد فهو: الواجبات الثلاثة التي وقع التنبيه عليها في هذا الحديث، فالاقتصار على ذكرها إشارة إلى أنها أصول الفتن إذا وقع الإخلال بها، فهي إما فتنة المرء في نفسه، أو فتنة العامة، أو فتنة الحكم والسياسة، وهذا من جوامع الكلم.

كما دل الحديث على أقسام الواجبات التي على الإنسان أداؤها ولو فسد الزمان؛ لأنه بتراكم تلك الواجبات يحفظ المجتمع من الهلاك، وتنكشف الفتن حسب السياق. فمن هذه الواجبات ما يتعلق بخصوص نفس المرء، وهو قوله: «فلتأته منيته وهو يؤمن ...» ومنها ما يتعلق بحقوق الناس والمجتمع وهو قوله:

١- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإمارة بَاب وُجُوبِ الْوَفَاءِ بِبَيْعَةِ الْخُلَفَاءِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، ح١٨٤٣، ج١٢/ ص٤٧٤.

٢- هو أبو فراس الحمداني، انظر كتاب الحماسة المغربية، الجراوي نقلا عن الموسوعة الشعرية الإلكترونية، النسخة الثالثة.

«وليأت إلى الناس ...» ومنها ما يتعلق بحق العامة وهم الحكام وهو قوله: «ومن بايع ...».

وللمنهج الوقائي النبوي مقاصد أخرى، منها: إعداد المكلفين نفسيا للتعامل مع بعض الطبائع والسجايا التي لا ينفك عنها الإنسان؛ ومما يظهر فيه هذا الأمر جليا قول النبي عليه السلام: «لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»[1].

وهذا الحديث قانون نفسي وسنة ربانية في النفس البشرية، فالمرأة -أو الرجل- إذا كان طبعها حادا وهي شديدة، فكما يرضيك حزمها في المسؤولية، وأخذها الأمور بقوة، يجب أن تصبر على شدتها وحدتها في العشرة، واللين- بتشديد الياء-كما يعجبك في لين جانبه وحسن عشرته، فلتصبري على عدم حزمه في أموره ومسؤولياته.

فالصفات الخلقية قدر الله لها أن تعمل بهذه الصرامة، لكن تروض الطباع والسجايا، على أفضل الأخلاق لتعمل وفق الشرع. فإذا زرعت خصلة الحب، اطردت في كل الحياة. وإذا زرع التمرد، فسيطال كل شيء، فيما يرضيك وفي غيره.

ووجه الدلالة من الحديث أن النبي عليه السلام، بما علمه من اتساع رغبة الإنسان، وضعف خلقه، وقصور الطبع عن بلوغ الكمال، نبه الزوجين إلى قطع النظر عن الحصول على الكمال في الحياة الزوجية، ولكن يتسلى المرء عما يكره بما يعجبه. وفيه أيضا الاهتمام بما يرضي من الأخلاق بدل التركيز على ما لا يرضي؛ وهذا منه عليه السلام حماية للأسرة ولقادتها من الضياع في البحث عن المستحيل، وتعطيل وظيفة حفظ الدين والنسل المنوطة بها.

١- صحيح مسلم مع شرح النووي، كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء ح ١٤٦٩ ج١٢ / ص٣١١.

وبهذا المنهج يفسر ما ورد من أوصاف للذكور أو الإناث في السنة، فإن كل ذلك إنما جاء على سبيل التعريف بهذا الإنسان إعدادا للأطراف للتعايش السليم، فهو منهج وقائي شامل.

ج- **أصل اعتبار علامات ظهور الفتن، وعلل السقوط الحضاري:** «ومن الأحاديث التي جاءت بعلامات الإخلال بالواجبات، واعتبرها الصحابة دليلا على التقصير مما دعاهم إلى الإصلاح ما أخرجه البخاري عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ عَامَ حَجَّ عَلَى الْمِنْبَرِ فَتَنَاوَلَ قُصَّةً مِنْ شَعَرٍ وَكَانَتْ فِي يَدَيْ حَرَسِيٍّ فَقَالَ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَيْنَ عُلَمَاؤُكُمْ؟ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَنْهَى عَنْ مِثْلِ هَذِهِ وَيقول: إِنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذَهَا نِسَاؤُهُمْ»[1]. ومحل الشاهد من الحديث هو قول معاوية رضي الله عنه، يرفعه: «إنما هلكت بنو إسرائيل».

ووجه الدلالة أن معاوية لما رأى القصة علم أن الناس يجهلون حكمها. ولما كان تعليم حكمها من مسؤولية العلماء، خاطبهم مباشرة معلما إياهم بهذا التقصير وبنتائجه، وهو يحضهم على القيام بالواجب.

فالحديث تضمن مظاهر سلوكية تدل على مقدمات أزمة أو خلل. وتضمن تدبيرا وقائيا، وهو التعليم، وإثارة العلماء للقيام بوظيفتهم.

ومع أن تعليم الشرائع كان دأب الصحابة ومن عاش في زمانهم، إلا أن القصد هنا هو إعادة النظر في الأولويات كتدبير وقائي درءا للفتن والسقوط الحضاري.

فتبين مما سبق واجبات كل من العلماء والحكام إزاء هذه الفتنة، أو بالأحرى

١- صحيح البخاري مع فتح الباري، ابن حجر، كتاب اللباس باب الوصل في الشعر ح ٥٤٧٧، وصحيح مسلم، مع شرح النووي في اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة ح ٣٩٦٨.

إزاء علاماتها؛ فقام كل من معاوية رضي الله عنه بدوره، وأمر العلماء بالقيام بدورهم وحثهم على التركيز على هذه المسألة بعينها كإجراء وقائي بوضع هذا الجنس من المعرفة ضمن الأولويات، وعليه ستتغير الأولويات في التعليم لتحقيق أغراض الرسالة.

د- **عمل الصحابة بمفهوم التدبير الوقائي**: أدرك الصحابة -رضي الله عنهم- هذا المقصد الوقائي من حرص الأنبياء على بيان طرق الخير والشر؛ فقد قال أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ إِنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يقول: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»[1]. أي: يدركه ولا يدري الموقف المناسب الذي يتخذه، والحكم المناسب الذي يلزمه.

وما ثبت عن حذيفة رضي الله عنه هنا جملة، وقع مفصلا لدى كثير من الصحابة، بل ولدى المشركين. أما الصحابة فإنهم كانوا يصدقون بأن قول النبي ﷺ وحي، وأما المشركون فإنهم يقطعون بصدق النبي فيما يخبر به. وهذه آثار السلف من الصحابة الدالة على اعتبار التدبير الوقائي بشموليته.

١- **تطبيق مقتضيات التدبير الوقائي المتعلقة بالحكم**: فهذا عبد الله بن عامر وابن سمرة، لعلمهما بما قاله النبي عليه السلام في حق الحسن، أشارا على معاوية زمن فتنة منصب الخلافة، بأن يعرض على الحسن رضي الله عنهما الصلح. فقد أخرج البخاري بسنده إلى سُفْيَانُ حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ أَبُو مُوسَى وَلَقِيتُهُ بِالْكُوفَةِ وَجَاءَ إِلَى ابْنِ شُبْرُمَةَ فَقَالَ أَدْخِلْنِي عَلَى عِيسَى فَأَعِظَهُ فَكَأَنَّ ابْنَ شُبْرُمَةَ خَافَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَفْعَلْ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ قَالَ: لَمَّا سَارَ الْحَسَنُ بْنُ

١- طرف من حديث أخرجه البخاري، مع فتح الباري، ابن حجر في المناقب باب علامات النبوة ح ٣٣٣٨. وصحيح مسلم، مع شرح النووي في الإمارة باب وُجُوبِ مُلازَمَةِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وَفِي كُلِّ حَالٍ وَتَحْرِيمِ الْخُرُوجِ عَلَى الطَّاعَةِ وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ ح ٣٤٣٤.

عَلِيٍّ رَضي الله عَنهمَا إلَى مُعَاوِيَةَ بِالْكَتَائب قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِمُعَاوِيَةَ: أَرَى كَتِيبَةً لا تُوَلِّي حَتَّى تُدْبِرَ أُخْرَاهَا، قَالَ مُعَاوِيَةُ: مَنْ لِذَرَارِيِّ الْمُسْلِمِينَ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ عَامِر وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَمُرَةَ نَلْقَاهُ فَنَقُولُ لَهُ: الصُّلْحَ، قَالَ الْحَسَنُ: وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرَةَ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ جَاءَ الْحَسَنُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ[1].

ومحل الشاهد هو قوله: لعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين، يعني متقاتلتين، ففي الخبر تحذير من فتنة تقع بين المسلمين. وفيه مخرج من هذه الفتنة إن وقعت، وهذا المخرج هو الحسن ابن علي رضي الله عنهما. وابن عامر وابن سمرة لعلمهما بهذا الأمر، أشارا على معاوية رضي الله عنهم بالصلح حيث تحقق شرطه من جهة الخبر.

٢- **العدول عن المواقف والإجراءات السياسية المتخذة بناء على علامات مكروهة دلت عليها أحاديث الفتن:** فقد أخرج الإمام أحمد بسنده إلى قَيس بن أبي حازم قَالَ: «لَمَّا أَقْبَلَتْ عَائِشَةُ، بَلَغَتْ مِيَاهَ بَنِي عَامِرٍ لَيْلًا نَبَحَت الْكِلَابُ، قَالَتْ: أَيُّ مَاء هَذَا؟ قَالُوا: مَاءُ الْحَوْأَبِ، قَالَتْ: مَا أَظُنُّنِي إِلَّا أَنِّي رَاجِعَةٌ، فَقَالَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهَا: بَلْ تَقْدَمِينَ فَيَرَاكِ الْمُسْلِمُونَ فَيُصْلِحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، قَالَتْ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ: كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ؟»[2].

ووجه الدلالة منه أن عائشة رضي الله عنها لما سمعت نباح الكلاب وعلمت أنها بالحوأب، وهو المكان الذي سمعت من النبي عليه السلام التحذير منه قررت الرجوع وقاية لنفسها من الوقوع في المحظور، وما يترتب عليه، وعلمت حينها

١- صحيح البخاري، مع فتح الباري، ابن حجر، في الفتن باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ إِنَّ ابْنِي هَذَا لَسَيِّدٌ وَلَعَلَّ الله أَنْ يُصْلِحَ به بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ح ٦٥٧٦.

٢- المسند، الإمام أحمد (٤٠/ ٢٩٩) وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح. و صحيح ابن حبان(ح٦٧٣٢) ج١٥ / ص١٢٦ وقال الحافظ ابن حجر: سنده على شرط الصحيح فتح الباري ١٣ / ٦٩.

بأن ما أقدمت عليه لم تكن موفقة فيه. وهو عين ما وقع، فرضي الله عن الجميع.

٣- **التزام الأفراد مقتضيات التدبير الوقائي:** أخرج البخاري عَنِ الْحَسَنِ - عن الأحنف بن قيس في رواية عمر بن شبة- قَالَ: «خَرَجْتُ بِسِلَاحِي لَيَالِيَ الْفِتْنَةِ فَاسْتَقْبَلَنِي أَبُو بَكْرَةَ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أُرِيدُ نُصْرَةَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَكِلَاهُمَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، قِيلَ: فَهَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ»[١].

ووجه الدلالة منه أن أبا بكرة منع الأحنف من نصرة إحدى الطائفتين بدليل الوعيد الذي ذكره النبي عليه السلام للمسلمين المتقاتلين، وهو المحذور الذي نبه أمته من الوقوع فيه لما يترتب على المناصرة من الزيادة من نار الفتنة، وإراقة الدماء.

ونأخذ من هذا الفهم أن رسول الله ﷺ توقع ما يؤول إليه أمر الأمة من اختلاف، إما وحيا وإما قياسا واعتبارا لحال الأمم، وأتباع الرسل. فدبر هذا المتوقع بهذا الترهيب الشديد حتى ينكف الناس، ويردعوا، وهذا الحكم يصدق على حالة الوقوع. أما ما يؤخذ من الحديث في جانب الوقاية فهو أن وصف المتقاتلين بالإسلام يشير إلى خلل أدى إلى هذه المواجهة، وهو التباس الصواب بالخطأ أو الحق بالباطل. ووصول الاختلاف إلى حد التقاتل أمر لا بد من مواجهته بالقواعد والقوانين، وقطع أسبابه من خلال الدراسات المتابعة لتطور النقاش بين أفراد المجتمع؛ لأن من شأن استمرار الخلاف الشديد غالبا أن يترتب عليه قتال كما دل عليه هذا القانون المأخوذ من هذا الحديث وغيره.

ويمكن أن نأخذ من مجموع النصوص الواردة في موضوع الاقتتال عدم جدوى حل الخلافات السياسية والتشريعية بوسيلة قوة السلاح. وأن الواجب

١- صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب الفتن باب إذا التقى المسلمان بسيفيهما ح٧٠٨٣ ج١٣ / ص٣٩.

على الأمة اتخاذ كل التدابير الراقية الواردة في السنة لتدبير الاختلاف. أما قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات: ٩)، فمحمول على حالة البغي، التي يجب ضبطها ضبطًا محكماً، حتى لا تتخذ ذريعة للفتنة.

وقد أفردت لهذا الموضوع رسالة هامة سميتها: «ظاهرة الاختلاف في المجتمع النبوي: مظاهرها، صفاتها، طرق تدبيرها».

٤- **عمل الكفار بالمنهج الوقائي الثابت في السنة:** قال البخاري رحمه الله بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حدث عن سعد بن معاذ أنه قال: «كان صديقا لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا، فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة، لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبا من نصف النهار فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فو الله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنهم قاتلوك، قال: بمكة، قال: لا أدري، ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك، قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة، قال: لا

أدري، فقال أمية: والله لا أخرج من مكة، فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس، قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان إنك متى ما يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ غلبتني فو الله لأشترين أجود بعير بمكة، ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني، فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي. قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبا. فلما خرج أمية أخذ لا ينزل منزلا إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر»[1].

وهذا الحديث يدل على أن أمية سعى للحذر ممن قال النبي ﷺ أنهم قاتلوه، حيث توفرت شروط وقوع ذلك، فكأنها كانت هدية له من جهة الخبر، لكن لا يغني حذر من قدر، إذ بدل أن يسلم اكتفى بالأدنى وهو الحرص على الحياة.

ووجه الدلالة هنا هو أن المواجهة بين كفار قريش وأصحاب النبي ﷺ قائمة، ووسيلتها السيف، فإذن كل فريق حريص على قتال الآخر، وعند المواجهة كل شيء محتمل، لكن لما خص أمية بأنه سيقتل، علم أن خبر رسول الله ﷺ لا يكذب، فاتخذ الاحتياطات لذلك، ولم يجازف لولا قدر حتفه.

والخلاصة: إن المفهوم المشار إليه مفهوم أصيل من دلالات السنة، ومن عمل الصحابة، ومن فهم علماء الأمة الذين دونوا السنة ورأوا هذا الملحظ فخصوه بكتاب، قسموه إلى أبواب يستشف منها هذا المنهج. فانظر إلى تقسيم البخاري حيث عرض المادة عرضا منهجيا مميزا فيه بين الفتن العامة والخاصة، وما يجب فعله إزاءها. وانظر أيضا إلى أبي داود كيف بوب تبويبات رائعة لكتاب الفتن تنم على هذا الملحظ. لكن الفقه المطلوب الذي تمليه ظروف التجربة واختلاف

١- صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ح ٣٣٦٠.

خصائص الأزمنة هو ما سنتناوله في المبحث الآتي.

المبحث الثاني: مظان التدبير الوقائي من أبواب السنة، والمنهج في فقهها.

المطلب الأول: مظان التدبير الوقائي من أبواب السنة.

إن مظان التدبير الوقائي في السنة هي أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة وما في معناها من الأحاديث، فإن الناظر يلحظ أنها أخبار استشرافية تعرض عواقب الأمور وما ستؤول إليه، ولذلك سميتها تدابير، ووصفتها بالوقائية لأنه المعنى الذي يدفع عنها التناقض بينها وبين المعاني الكلية لرسالة الإسلام ومقاصدها العامة.

و أصل اختيار هذه الأحاديث يرجع إلى نتائج أنظار أئمة الفقهاء المحدثين كالبخاري ومسلم و أبي داود والترمذي وأضرابهم، فكل منهم قد خص هذا النوع بكتاب في صورة تصنيف موضوعي، مما يؤكد اشتراك هذه الأحاديث في موضوع يجمع معانيها، ويؤكد اقتناعهم بأهميته وخصوصيته التي لأجلها نطق بها الذي لا ينطق عن الهوى، صلى الله عليه وآله وسلم.

فلم يوردوها في أبواب دلائل النبوة فقط كما فعل بعضهم. وعقدوا الأبواب وترجموا لمعانيها بما يدل على المفهوم الذي اشرنا إليه، وبنظرة إلى هذه الكتب يمكن استنتاج هذه المعاني.

المطلب الثاني: المنهج في فقهها.

اختلف نظر أهل العلم فيما تفيده أحاديث الفتن من الفقه، ثم جاء الباحثون المعاصرون ونحوا مناحي مختلفة أيضا. ويمكن رصد المذاهب الكبرى التالية في فقه أحاديث الفتن:

- أولا: مذهب من ينكر نسبتها إلى النبي ﷺ.
- ثانيا: مذهب من يرى أنها أخبار بأمور مستقبلية، أي: قدر حتمي، لابد من وقوعه.
- ثالثا: مذهب من يرى أنها محاذير يجب توقيها، ومنع وقوعها
- رابعا: مذهب من يرى أنها أخبار يجب الإعداد لها، ومحاذير يجب توقيها، ومنع وقوعها.

أولا: مذهب من ينكر نسبتها إلى النبي ﷺ.

يعتبر هذا الفريق ما ورد من أحاديث الفتن من قبيل الموضوع الباطل الذي وجد مع تغير الأحوال والنزاع حول الحكم، ومواجهة العدو الخارجي، لاسيما الأحاديث التي تذكر أحداثا بعينها كفتح القسطنطينية مثلا، وكذكر دمشق وغير ذلك، وقد استدلوا بما يجدونه باطلا في بعض هذه الكتب، ومن هؤلاء الدكتور سهيل زكار الذي يقول: في مقدمة تحقيقه لكتاب الفتن لنعيم بن حماد: «ويتساءل الإنسان عندما يقرأ كتاب الفتن لابن حماد عن الدوافع لاختيار هذا العنوان وجمع مواده الكبيرة، ثم إنه متى تجمع هذا التراث الهائل واخترع ونسب إلى النبي ﷺ أو إلى أصحابه، ومن الذي اخترعه، والأهم من هذا كله كيف توفرت الأجواء لقبوله ورواجه؟ قسم كبير من مواده شامية، وبعضها يعكس مشاكل آنية اجتماعية وسياسية، وبعضها الآخر يعبر عن مطامع المسلمين العظيمة في فتح القسطنطينية وروما، ولا شك أن هذا كله له علاقة بما حدث في العصر الأموي وبالسياسة الدفاعية التي اتخذتها الدولة العباسية تجاه بيزنطة وبما عاناه العرب من التمزق والعصبيات، وتبقى قضية الخداع الذاتي للعقل ومسخ القناعات والهروب، من أخطر الإشكاليات التي تثيرها مواد هذا الكتاب»[١].

١- الفتن، نعيم بن حماد ج ١ / ص ٤.

ولا شك أن هذا الرأي فيه مجافاة كبيرة، ذلك أنه خرج بحكم عام انطلاقا من هذا الكتاب وحده غير معتبر للمنهج الذي ألف به أهل الحديث كتبهم، وهو أنه ما لم يشترطوا التأليف في الصحيح السرد أو ما فوق الموضوع، فإنهم يجمعون مروياتهم ويعرضون أسانيدهم إليها لمن يريد الاستفادة منها ليعمل بما صح، ويترك ما لم يصح، ولهذا لم يعب النقاد على من صنف مروياته إذا ذكر أسانيده. إنما يتتبعون بالنقد والتمحيص الذين اشترطوا إخراج الصحيح، كما فعلوا مع الصحيحين، وغيرهما ممن اشترط الصحيح. بل يعيبون الاحتجاج بما في هذه الكتب دون تفتيش، ومعرفة الصحيح من السقيم، ومن هنا فتساؤل الدكتور سهيل حين يقول:: «ويتساءل الانسان عندما يقرأ كتاب الفتن لابن حماد عن الدوافع لاختيار هذا العنوان ...الخ»يبقى تساؤل من لم يخبر منهج المحدثين في التأليف والتصنيف، ولم يدر أنه لا تمكن الاستفادة من هذا الكتاب إلا بعد مرحلة النقد الإسنادي أولا، نعم يمكن للنقاد أن يستفيدوا من الطرق كما هو مبين في علم الحديث.

وعليه فإن الكر على ما في الكتاب جملة وتفصيلا بالتكذيب، وتسفيه مصنفه ومن يقبل ذلك، لم يصادف محلا، لأنه لا أحد يسلم بكل تلك الأحاديث ولا المؤلف نفسه، أما التعميم في كل ما له صلة بالموضوع، فمما لا يسلم منهجيا.

ثانيا: مذهب من يرى أنها أخبار بأمور مستقبلية، وأنها قدر حتمي لابد من وقوعه.

وهذا المذهب يمكن أن ندرج فيه جميع العلماء إذا ما اعتبرنا شروحهم لهذه الأحاديث، ولهذا المذهب مسوغاته الشرعية والواقعية. **أما المسوغ الشرعي** فإنه إذا اعتبرنا هذه الأحاديث أخبارا نبوية خالية من جانب الطلب الشرعي، أو كونها مشروطات تابعة لتوفر شروطها، فإنه لا انفكاك عن القول بحتمية وقوعها لصدق

المعصوم. وهذا مسوغ شرعي، ينضاف إليه ما ثبت من تنزيل بعض الصحابة لهذا النوع من الأحاديث على وقائع وأحداث معينة. ولسنا هنا بصدد تقييم تلك المواقف لأن فهم الصحابة يبقى حجة على بقية الأمة. كما أننا لسنا أمام إجماع منهم. فإذا وجد من اعتزل[1] لما رأى الفتن بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، فقد وجد من خالط الناس وسعى لدرء الفتن بما تيسر من الوسائل والمؤسسات القائمة حينها. **وأما المسوغ الواقعي** فهو الواقع المشاهد من الأحداث عبر التاريخ الإسلامي.

ومع أن كل الشراح في حدود علمي وجدت في كلامهم ما يدل على الاعتقاد بحتمية وقوع ما أخبر به النبي ﷺ في أحاديث الفتن، فإني وجدت لهم ما يفيد انتزاع المعاني الوقائية، واعتبار جانب التحذير. وكتاب فتح الباري عند شرح «كتاب الفتن» من الصحيح طافح بهذا.

وقد أدى هذا الاعتقاد إلى تناقضات بين تفسير النص والواقع، اضطر العلماء إلى رفعها بتأويلات كثيرة. قال الحافظ ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم: "وظاهر هذا الحديث -حديث قتال الترك- يقتضي أن يكون هذا من أشراط الساعة، فإن كانت أشراط الساعة لا تكون إلا بين يديها قريباً فقد يكون هذا أيضاً **واقعاً مرة أخرى** وقعة عظيمة بين المسلمين وبين الترك، حتى يكون آخر ذلك خروج يأجوج ومأجوج كما سيأتي ذكر أمرهم، وإن كانت أشراط الساعة أعم من أن تكون بين يديها قريباً منها فإنها تكون مما يقع في الجملة ولو تقدم قبلها بدهر طويل، إلا أنه مما وقع بعد زمن النبي ﷺ، وهذا هو الذي يظهر بعد تأمل الأحاديث الواردة في هذا الباب كما سترى ذلك قريباً إن شاء الله تعالى"[2].

١- كعبد الله بن عمر وسلمة بن الأكوع والأحنف بن قيس رضي الله عنهم، وقد ذكرت لهم مسوغات لمواقفهم غير أحاديث اعتزال الفتن.

٢- الفتن والملاحم، ابن كثير ج١ / ص١١.

ومحل الشاهد هنا قوله بوقوع ملحمة الترك مرة أخرى، وجعل ما ذكر من الأحداث هو مما يقع بين يدي الساعة، أي: قبل وقوعها مهما طال الزمن، وليس مما تكون الساعة مباشرة بعد وقوعه.

ومع هذا فقد وقع في مخالفة للواقع في تأويل خبر: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده»[1]. فقال: «وفي هذا الحديث بشارة عظيمة لأهل الشام وهي أن يد ملك الروم لا تعود إليها أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى يوم الدين»[2]. فالتاريخ أكد أن يد الروم قد امتدت إلى الشام بعد ذلك، وفي يومنا هذا لا يسع العاقل أن ينكر ما يرى؟

ولو أن هذه الأحاديث اعتبرت بشارات وعلامات لتفعيل التدبير الوقائي ما كانت الحاجة إلى هذه التأويلات المتناقضة.

ويندرج في هذا المذهب من اعتبر هذه الأحاديث جزءا من دلائل النبوة، بل جمهورهم اعتبرها كذلك، ومع أن هذا الأمر مستساغ يدل عليه الواقع، بل إن بعض الأحاديث المدرجة في هذه الكتب خرجت هذا المخرج كالتبشير بفتح القسطنطينية، وكبلوغ الإسلام مدى معينا. فإن السؤال العلمي الذي نراه مناسبا لعظمة رسالة الإسلام ومقاصدها هو: لماذا لم تستثمر مادة هذه الأحاديث لدرء تلك الفتن على نحو ما سنفصله بناء على المنهج الوقائي؟ فتكون دلائل للنبوة من جهتين: الأولى: تحقيق الشروط التي ذكرها النبي ﷺ لنتائجها، والثانية: درء الفتن أو إدارة الأزمات المترتبة عليها؛ مما يدل على عظمة هذا الدين وقيمه، لأن أمته بقيت قائمة رائدة.

١- صحيح مسلم مع شرح النووي، كتاب: الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء ح٢٩١٨ ج١٨ / ص٢٥٧.
٢- الفتن والملاحم، ابن كثير ج١ / ص٤.

إن توظيف التبشير بالفتن والخراب لأمة الإسلام على أنه من دلائل النبوة، لا يستقيم إلا مع المؤمنين، وهم في غنى عنه إلا من قبيل زيادة الإيمان. أما غيرهم فكيف يقبل الالتحاق بدين مصيره هكذا؟ إلا إذا علم مخارج الأحاديث جيدا على نحو ما قررناه.

ثالثا: مذهب من يرى أنها محاذير يجب توقيها، ومنع وقوعها، ولم تخرج مخرج الخبر.

ويرى أهل هذا المذهب أن ما ذكره النبي ﷺ من الفتن خرج مخرج التحذير لا مخرج الخبر، وممن أفصح بوضوح عن هذا المذهب هو الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه فقه السيرة، قال رحمه الله تعالى: «وكان محمد عليه الصلاة والسلام خبيرا بالنفوس ومعادنها، والدنيا وأطوارها، والزمان وتقلبه، والأديان الأولى وما عانت وعانى رجالها وهم يشقون طريقهم في الحياة... إن هذا يجعله أشد الناس تقديرا للواقع وانتظارا لما يفد به لذلك كثر كلام الرسول -ﷺ- عن الفتن، **وليس القصد الإخبار عنها، بل التحذير منها**. تحدث عن الفتن التي تلحق الأشخاص من اختلاف أفكارهم وتنافر أمزجتهم،..وتحدث عن الفتن التي تصيب القلوب من إقبال الدنيا والتحاسد عليها...»[1].

ويستشف من كلامه على أن ما جاء في موضوع الأمور التي بين أصولها، لم يكن من قبيل الوحي، بل من قبيل الاعتبار والقياس بحال الأمم السابقة، ولئن كان هذا صادقا على كثير من الأحداث، فإن هذا الأصل ينخرم في بعض الأمور التي ذكرت بالتعيين؛ كتقدم فتح القسطنطينية على روما مثلا، أو ذكر مقتل عمار رضي الله عنه، فالموت قدر لا يعلمه إلا الله تعالى، إلا أننا نؤكد على أهمية جانب التحذير الذي أخذ من هذه النصوص.

١- فقه السيرة، محمد الغزالي ص ٥١ "بتصرف".

ولولا أن الإمام البخاري ذكر بعض الأحاديث في علامات النبوة، لكان تقديمه لكتاب الفتن بالآية والحديث كما مر، دليلا قاطعا على أنه يرى أن تلك الأحاديث خرجت مخرج التحذير، وليس مخرج الخبر الذي ينتظر وقوعه.

رابعا: مذهب من يرى أنها أخبار يجب الإعداد لها، ومحاذير يجب توقيها، ومنع وقوعها.

يرى هذا المذهب أن ما ذكر من أحاديث الفتن والملاحم فيه ما هو وحي، وما هو من قبيل الاعتبار بأحوال الأديان والأمم السابقة، مع احتمال كونه وحيا. وعليه فجانب الإخبار فيه محقق، ويبقى البحث فيما تفيده هذه الأخبار، أما ما كان من قبيل الاعتبار فهو تحذيري لا محالة.

والذي أراه هو أن النبي ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، وكلامه وحي في التشريع والغيبيات المطلقة، وأيضا بينت السيرة مدى اعتباره بأحوال الأمم السالفة[1] واعتماده القياس في هذا الأمر، وهو ليس يخرج عن أحد أمرين: إما خير يعلمه فينبه أمته عليه، أو شر يعلمه يحذر أمته منه، وأدلة هذا قد تقدمت، فإذا تقرر هذا فإن النظر في هذا الضرب من السنن يجب أن يتجه إلى اعتبار ما ورد فيها تدبيرا نبويا –بالمفهوم اللغوي للتدبير- بقصد الوقاية، فيستنبط الخير الذي ترشد إليه، والشر الذي تحذر منه، على ضوء ما تقدم في مفهوم التدبير الوقائي، لتوجيه البحث والدراسة إليهما.

فتوضع الخطط التي تحقق البشارات والتطلعات، والخطط التي تدرأ المحاذير والشرور، وتحجمها.

١- منها قوله ﷺ لمن قالوا له اجعل لنا ذات أنواط "الله أكبر إنها السنن، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون. ثم قال رسول الله ﷺ: إنكم لتركبن سنن من قبلكم. أخرجه ابن حبان (بترتيب بلبان ١٥ / ٩٤) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه الترمذي في السنن بنحوه وقال: حسن صحيح.

وبهذا المنهج نتمكن من صياغة القوانين والسنن الإلهية التي تحكم الحياة الفردية والجماعية، الكونية، ونرى أن تفعيل ذلك يفتح فرصا أكثر للنهوض الحضاري، وتجنب السقوط، والضعف، بأقل تكلفة، وأكبر ربحية.

ولسنا هنا نقصد الاقتصار على الفوائد المبثوثة في كتب الشروح على أهميتها[1]، ولكننا نقصد استخلاص المفاهيم ذات الأبعاد السياسية والشرعية، وضبطها ضبطا فقهيا على طريقة الحدود الفقهية وتنسيقها لتنتظم في وحدات متجانسة غير متنافرة. ونرى هذا لازما لإبعاد التوظيف السيئ خطأ أو قصدا. كمفهوم «الفتان»، ومفهوم «الباغي»، ومفهوم «الإمام الجائر»، وأسباب وقوع الجور، ومفهوم «التغيير ووسائله»، و«حدود الصبر على الحاكم»، ومفهوم «الأثرة وطرق الحد منها»، والصفات التي وردت من أجلها أحاديث هلاك الأمة على يد «أغيلمة» ومدى تداركها، لكونها كما تكون في الصغير قد تكون في الكبير، وسائر ما ورد في أحاديث الفتن من المفاهيم.

إن الالتباس في هذه المفاهيم أدى إلى أخطار كثيرة في تاريخ الأمة، وقد تنبه العلماء مبكرا إلى هذا الخطر، يقول: الطبري فيما نقله عنه ابن حجر: «لو كان الواجب في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهرب منه بلزوم المنازل وكسر السيوف، لما أقيم حد ولا أبطل باطل، ولوجد أهل الفسوق سبيلا إلى ارتكاب المحرمات من أخذ الأموال وسفك الدماء وسبي الحريم بأن يحاربوهم، ويكف المسلمون أيديهم عنهم، بأن يقولوا: هذه فتنة وقد نهينا عن القتال فيها، وهذا مخالف للأمر بالأخذ على أيدي السفهاء انتهى»[2].

١- ومع هذا فإنه لا ينكر أن الشراح تكلموا مثلا عن دواعي عصيان الحاكم وتنفيذ الإطاحة به عندما شرحوا "إلا أن تروا كفرا بواحا"، حيث غلبوا معنى الكفر على الجور البواح المنتشر المنكشف الذي لا يخفى على الجميع. ومع ذلك لم يتخذ هذا البيان قواعد إجرائية. انظر فتح الباري ج ١٣ / ص١٠.

٢- فتح الباري، ابن حجر ١٣ / ٤٢.

كما أن التنظير لبناء المؤسسات -التي تنتظم بها شؤون الأمة، وتجعل أمر الأفراد والنظم الحاكمة أكثر وضوحا وانضباطا- الذي لم يكن قد نضج، جعلنا لا نلمس منهجا واضحا ومطردا في تفسير هذه الأحاديث، رغم أن الإمام البخاري مثلا في كتابه الصحيح كانت له رؤية فيما جمع من أحاديث الفتن من السهل ملاحظتها وإدراكها.

إننا أمام ذخيرة من المفاهيم الدقيقة التي يمكن أن تفتح أبوابا لتخصصات علمية هامة، فقد خرجت في زمان تميز بفشو الدين والورع والأمانة، مما جاز معه أن تبقى تلك المفاهيم موكولة لديانة المكلفين، لكن سرعان ما خفتت هذه الصفات بعد ذهاب قرن الصحابة، فصار لزاما أن تعوض بالمؤسسة المناسبة، التي تقوم مقام «الدين والورع والأمانة»، وتعطى تلك المفاهيم العناية الكافية لصياغتها صياغة إجرائية تكون معها قابلة للتطبيق بوضوح دون تحريف، أو تأويل معيب.

ونرسم لهذا الفقه المطلوب الذي يحقق مفهوم التدبير الوقائي الخطوات التالية:

- **أولا**: وضع موسوعة علمية لهذه الأحاديث، لا سيما ما له صلة بالتدبير الوقائي، ونقدر أهمية ما قام به الدكتور همام سعيد وابنه على أن يتمم العمل، وفق ذلك المنهج الرصين.

- **ثانيا**: أن تدرس وفق وحدات موضوعية حتى تكون نتيجة الاستنباط محكومة بنسقية، تجتمع بها المعاني التي تسهم في تصور ما يقع من الفتن، وتفسرها تفسيرا سليما، مع وضعها في رؤية الخطة التي تحكم رسالة الإسلام تبعا لمراحل الأمة، أي خطط البعث واليقظة، خطط البناء، خطط الانتشار والبيان والدعوة، خطط الحفاظ على الريادة.

- **ثالثا**: العناية بتحرير القضايا التي أثارتها أحاديث الفتن مما يترتب عليه عمل جماعي، تحريرا إجرائيا، لا نظريا، كتحرير معنى البغي، ومعنى الخلافة الراشدة، ومعنى الملك، ومعنى الجماعة، وغيرها.

- **رابعا**: صياغة القوانين الاجتماعية، والقواعد التشريعية التي تضبط أسباب الفتن وتنظمها، كالهوى المتبع، الذي نراه نتيجة قصور في إدراك وسائل تحصيل الحقيقة العلمية مثلا، والأثرة التي هي نتيجة أنظمة الرقابة، والمحاسبة.....وضبط شروط القيادة السياسية ووضع السياسات التي تؤهل فيها انطلاقا من حديث هلاك الأمة على يد «أغيلمة».

- **خامسا**: استخلاص مبادئ القانون الدولي وشروط علاقة دولة المسلمين بغيرها، من أحاديث الملاحم، من مثل حديث ترك إثارة الحبشة لأن دمار الكعبة على يد منتسب إليهم.

المبحث الثالث: تطبيقات المنهج في السياسة والاقتصاد والأمن.

نظرا لكثرة الأحاديث التي يمكن استفادة المنهج الوقائي منها، فسأقتصر على دراسة بعضها، يكون نموذجا لغيرها، أرجو الله تعالى تيسير جمع كتاب شامل في الموضوع، نظرا للقواعد المهمة التي اشتملت عليها هذه الدراسة المختصرة.

وأنطلق من الرؤية المستقبلية النبوية لواقع الأمة المنشود، وهي بمثابة الإستراتيجية المؤسسة على عقيدة الإسلام ومبادئه وقيمه. هذا الواقع الذي ضبطته بثلاث علامات دقيقة، واضحة وواقعية:

- **العلامة الأولى**: الأمن بحيث لا يبقى خوف على النفس من أي شيء إلا من الله تعالى، وأعطى له صورة وهي أن تسير المرأة وحدها من الشام إلى مكة ولا يساورها خوف.

- **العلامة الثانية**: الاقتصاد بحيث يتحقق الاكتفاء الذاتي لجميع أفراد الأمة، وأعطى له مظهرا واقعيا وهو أن لا يبقى أحد مستحقا للزكاة.

- **العلامة الثالثة**: استقرار النظام السياسي ونظام الحكم بالذات، وأعطى له تجليا وهو تداعي الأنظمة الكبرى نظرا لقوة هذا النظام ونموذجه في الحكم، طلبا للاحتماء به، ولهيبته.

وقد أخذنا هذه العلامات من حديث عدي بن حاتم لما قدم على النبي ﷺ. أخرج البخاري عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: يَا عَدِيُّ هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟ قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا قَالَ: فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ. قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلَادَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى؟ قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، قَالَ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ ... قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنْ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ. وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ. حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ أَخْبَرَنَا سَعْدَانُ بْنُ بِشْرٍ حَدَّثَنَا أَبُو مُجَاهِدٍ حَدَّثَنَا مُحِلُّ بْنُ خَلِيفَةَ سَمِعْتُ عَدِيًّا كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ»[1].

ومحل الشاهد أن النبي ﷺ لما قدم عليه عدي -وكان قد فر إلى الروم بالشام وهو رئيس في قبيلته- ورأى عنده من يشكو قلة الأمن ومن يشكو الفاقة، وضح له مقاصد هذا الدين ورسالة القرآن. فقال له إن الرؤية التي نريد تحقيقها هي

١- صحيح البخاري مع فتح الباري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ح٣٥٩٥ ج٦/ ص٧٥٧-٧٥٨.

الأمن إلى الدرجة المشار إليها، والرخاء الاقتصادي، بل والتبشير بامتداد الرسالة إلى بقية الأمم، وهذا لن يكون إلا بنظام حكم قوي وعادل، ومهيب يرتدع به العدو الخارجي، والمفسد الداخلي.

ومما لا شك فيه أن الانتقال من الحال التي رآها عدي إلى الحالة الأخرى المبشر بها، سوف يكون وفق خطة وقواعد دقيقة. فما هي عوائقها وما هي القواعد التدبيرية الوقائية المتعلقة بها؟

المطلب الأول: نظام الحكم.

ونبدأ بالعروة الأولى وهي الحكم، فقد حذر النبي ﷺ من فساده لأن فساده يترتب عليه فساد كل شيء. أخرج ابن حبان عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ : لتنتقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضا الحكم، وآخرهن: الصلاة"[1]. وبوب عليه ابن حبان «باب ذكر الإخبار بأن أول ما يظهر من نقض عرى الإسلام من جهة الأمراء: فساد الحكم والحكام»[2]. ونحن نقول بناء على منهجنا «باب التحذير من فساد الحكم والحكام».

ونتناوله في أسس شرعيته، وخصائص النظام القوي، وأسباب الضعف والسقوط، ومن خلالها يتضح منطلق القوة و النهوض.

أولا– أسس شرعية النظام.

أ– العدل والتدبير المطلوب عند طغيان الجور هو منازعة الحاكم، بالطرق الشرعية.

١– صحيح ابن حبان ح٦٧١٥، ج١٥ / ص ١١١، والمسند، الإمام أحمدح٢٢١٦٠ ج٣٦/ ص٤٨٥ وقال الأرنؤوط: إسناده جيد.

٢– صحيح ابن حبان ١٥ / ١١١.

لقد قررت السنة أن شرعية الحاكم متوقفة على إقامة العدل، فإن طفح منه الجور وقامت البينة والبرهان عليه -سدا لذريعة التأويل- وجب على أهل العلم وقادة الفكر منازعته وإزاحته.

فعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: «دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ. فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[١]. نقل الحافظ بن حجر اختلاف العلماء في تحرير شرط التدبير الوقائي الذي هو إزاحة الحاكم المستبد الجائر، ومن المؤهل للقيام بذلك، وكان الأكثر هو عدم اعتبار ظاهر قوله ﷺ: «كفرا بواحا»، وأن المقصود هنا هو «الجور». قال ابن التين عن الداودي قال: «الذي عليه العلماء في أمراء الجور أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم، وجب، وإلا فالواجب الصبر»[٢].

إن هذا الشرط يحتاج إلى وضع التشريعات الرقابية القابلة للتطبيق، والتي تمنع من وقوع الجور والأثرة، وأيضا التشريع لشرعية منازعة الحاكم الجائر، ببيان الوسائل المسموح بها ولو في أصولها.

بـ- التزام مرجعية القرآن الدستور.

فخروج الأئمة والقادة عن مرجعية القرآن سبب وقوع البأس بين الناس، واختلال النظام، والمقصود هو أن تكون للجماعة مرجعية يحتكم إليها عند الاختلاف، ومتفق عليها في الحد الأدنى.

فقوله ﷺ: «و ما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله و يتخيروا مما أنزل الله إلا جعل

١- صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب الفتن باب قول النبي ﷺ: "سترون بعدي أمورا تنكرونها"، ح٧٠٥٦. ج١٣ / ص٦.

٢- فتح الباري، ابن حجر ج١٣ / ١٠.

الله بأسهم بينهم»[1]، يدل على أن شدة البأس بين أفراد وجماعات المسلمين سببه عدم الحكم بكتاب الله لأن كتاب الله هو الذي يرسخ وحدة مصدر التلقي ووحدة الشعور، فتتقارب الأذواق وتتواصل الطباع، ويحصل الألفة ويرتفع التنافر. وبعبارة مناسبة لمصطلحات عصرنا نقول: إن تعدد المرجعية أو غيابها في الحكم والسياسات في جماعة معينة، تضيع معه الحقيقة، ويضعف بسبب هذا الضياع احترام القانون فيختل النظام وتعم الفوضى، لأن كل متبوع يدعي الحق معه. لكن إذا تم التوافق على المرجعية وتم احترامها، يمكن تدبير الخلافات بالاحتكام إليها، وهذا سبيل لا بد منه لتحقيق العدل ورفع الظلم.

إن هذا القانون يحتاج إلى بسط لخطورته، فإنه من أهم أسباب اضطراب السياسات في العالم الإسلامي منذ عقود، وربما قرن من الزمن غياب التوافق على المرجعية؛ وهذا الحديث بعبارته «و ما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله» يشير إلى استمرار الإيمان بكتاب الله، لكن السياسات لا تشتم منها مرجعية ثابتة وواضحة، والتعبير بكتاب الله جاء مناسبا لظروف الحكم حينئذ، وهي كلمة جامعة، لأن كتاب الله يتضمن التصورات، والهدى العام، ويرشد إلى اعتماد الخبرة في التفاصيل وهذا ما كان عليه رسول الله ﷺ، فقد كان يرجع إلى رأي أهل الخبرة في التفاصيل والتنزيل، وقد بسطت هذا الموضوع في كتابي «ظاهرة الاختلاف في المجتمع النبوي».

ثانيا- خصائص النظام القوي

تمدنا أحاديث الفتن والملاحم بأسس النظام القوي، مشرعة أمامنا باب التنافس والتطوير وتبادل الخبرات بين الأمم. هذه الخبرات التي تسعى الأمم إلى

١- السنن، ابن ماجة كتاب الفتن باب العقوبات ح ٤٠٩١ وفي الزوائد هذا حديث صالح للعمل به. وقد اختلفوا في ابن أبي مالك وأبيه ج٢ / ص ١٣٣٢. وقال الشيخ الألباني: حسن، صحيح سنن ابن ماجة ج٣/ ص٣١٦.

تطويرها في إطار سنة التدافع. فمن التدابير الوقائية الاستفادة من أسباب قوة الأمم. وهنا خبر نبوي عن قوة الروم الحاصلة بأسبابها.

أخرج مسلم بسنده قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ. فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ. قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالاً أَرْبَعًا، إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ». وفي رواية أخرى أَنَّ الْمُسْتَوْرِدَ الْقُرَشِيَّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقولَ: تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ. قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تُذْكَرُ عَنْكَ أَنَّكَ تَقُولُهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ لَهُ الْمُسْتَوْرِدُ: قُلْتُ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَقَالَ عَمْرٌو لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ وَأَجْبَرُ النَّاسِ عِنْدَ مُصِيبَةٍ وَخَيْرُ النَّاسِ لِمَسَاكِينِهِمْ وَضُعَفَائِهِمْ[(١)].

ومحل الشاهد في الحديث بالروايتين، في الأسباب التي ذكرها عمرو بن العاص لقوة الروم، فهو لم يلتفت إلى الساعة وغير ذلك، لكن التفت إلى ما ينفع من جهة العمل، فذكر الخصائص التي ستعطيهم القوة والكثرة، التي وإن لم يرفعها فإنها تؤكد شروط النهوض الحضاري العامة بعد السقوط. فذكر:

١ – **أحلم الناس عند فتنة، والحلم**: التأني، والصبر، وعدم الاستجابة والتسرع للاستفزاز، بل تؤخذ المواقف والقرارات بعد دراسة الجدوى، والتمحيص بما يعود عليهم بالنفع. قال عبد الله بن قيس:

مجرب الحزم في الأمور، وإن خفت حلوم بأهلها حلما

١- صحيح مسلم مع شرح النووي كتاب الفتن وأشراط الساعة باب تقوم الساعة والروم أكثر الناس ح٢٨٩٨. ج١٨ / ص٣٩-٢٤٠.

٢- **أسرعهم إفاقة بعد مصيبة، أو أجبر الناس عند مصيبة**، فالمصائب تزيدهم قوة لأنهم يجندون الخبراء في المجال من ثقافتهم، لمعرفة الأسباب المباشرة وإيجاد الحلول العاجلة، وهذا ما يزيد من عمرهم، وإن لم يلتزموا المنهج الرباني، الذي فيه علاج أصول المصائب، لكن استعاضوا عن هذا بمضاعفة الجهود، ومتابعة المشاكل، والمتابعات اليومية لأخبار الغرب تؤكد هذا في كل المظاهر التي عندنا من الفواحش، ومع ذلك يتم إنقاذ المجتمع من السقوط بهذه الخصلة. وهذا ما أخر نبوءة كثيرين من أهل العلم بالغرب كوول ديورانت، لأنه جهل هذا الأمر.

٣- **أوشكهم كرة بعد فرة**، وهذا عنوان يقظتهم وشعورهم بقيمتهم فهم لا يقبلون بالذوبان في الغير، ولا يستسلمون لضعف مرحلي، ولكن يستعدون للمواجهة، للحفاظ على كينونتهم[1].

٤- **وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف**، وهذا لا شك فيه، يقومون به ثقافة لا تدينا، وإن كان أصله كذلك، وإذا كانت ثقافة الحداثة قد أثرت بترسيخ مبدأ النفعية في السلوك، فإن القوانين والمؤسسات سبق وجودها وجود ثقافة الحداثة التي تزن الأشياء بقيمة مردوديتها المادية.

٥- **أمنعهم من ظلم الملوك**: وهذه ترجع إلى العدل فيما بينهم، لا جرم أنهم أهل كتاب، وبقاياه في الثقافة مبثوثة، وقد قال العلماء: إن الله ينصر الملك العادل الكافر، على الملك الظالم المسلم. إن هذا الأمر يؤكد قوة شرعية القوانين واحترامها بما يجعلها فوق الجميع، لا فرق بين رئيس ومرؤوس.

إن هذه القواعد تفسر النجاح الذي حققته الدولة الغربية، والفشل الذي تعيشه الدولة المسلمة، وقد قال ﷺ: «إنه لا قدست أمة، لا يأخذ الضعيف فيها حقه،

١- وقد أشارت إلى هذا الأطروحة التي قدمها الدكتور أحمد العماري في الموضوع: «المواجهة والمراجعة».

غير متعتع»[1]، وقال: «ابْغُونِي ضُعَفَاءَكُمْ فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ»[2].

ثالثا: علامات فساد نظام الحكم، والتدابير الوقائية

١- الاستئثار، أو غصب المال العام

والتدبير الوقائي: أداء الجميع لواجباته، ومراقبة ثروة الحاكم، وأصحاب الولايات.

فالحرص على مراكمة الثروة والاستئثار ملازم للحكم كما أخبر النبي ﷺ، إنما قد يقل وقد يكثر، وبقيام الأمة بواجباتها يحصل تراكم لحقوق الغير، الذي يندفع به الظلم والجور العام، وهو تدبير وقائي مستمر واجب على العموم، لكن هذا الاستئثار بالثروة ليس حتمي الوقوع إذا ما توفرت الرقابة المطلوبة من قبل المرجعيات الاجتماعية والسياسية أو قواعد الرقابة التنظيمية، بالنصح والتقويم؛ وهذا واجب العلماء وقادة الرأي.

أخرج البخاري عَنِ ابْنِ مَسْعُود عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَتَكُونُ أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ»[3].

ووجه الاستدلال من الحديث، أن قول النبي عليه السلام تؤدون الحق الذي عليكم، ولم يقل تقاتلونهم، أو ما يدل على المنازعة، يدل على أن المطالبة بالحق

١- السنن، ابن ماجة، كتاب الصدقات باب لصاحب الحق سلطان. ح ٢٤٢٦ ج٢ / ص٨١٠. قال المحقق فؤاد عبد الباقي: في الزوائد هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وصححه الألباني صحيح الجامع ١ / ٤٧٦ ح٢٤٢١.

٢- السنن، أبو داود مع عون المعبود، العظيم أبادي كتاب الجهاد باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة ح٢٥٧٧ ج٧ / ص٢٥٦. و السنن، الترمذي مع تحفة الأحوذي، المباركفوري كتاب الجهاد بَاب مَا جَاءَ فِي الاسْتِفْتَاحِ بِصَعَالِيكِ الْمُسْلِمِينَ قَالَ أَبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ح١٧٥٤ ج ٥ / ص٢٩١ وَنقلَ المبَاركفَوري فِي شَرحه عَن المنذري قَال: رواته رواة الصحيح. و المستدرك، الحاكم ٢ / ١٠٦ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي صحيح.

٣- صحيح البخاري مع فتح الباري، ابن حجر في المناقب باب علامات النبوة ح٣٦٠٣. ج٦ / ص٧٥٩.

يأتي بعد أداء الواجب أولا، لتعلق حق آخر به. ومن الحقوق: قيام العلماء وأهل الرأي ببيان الخلل للحكام ومن في المسؤولية، والرقابة عليهم. بينما عامة الناس لا يجوز لهم الامتناع عن أداء الواجبات، لتعلق الحقوق بها. وبهذا تندفع الفوضى؛ أي إذا صدق أهل العلم وقادة الرأي، وتقوت بطانة الخير. ويؤخذ هنا ضرورة وضع التشريعات التي تمكن من مراقبة ثروة الحكام وسلوكهم. وقد أخذ بهذه الأمور أنظمة الغرب الدستورية وقوانينها التشريعية. والدليل على هذا المعنى أن الإسلام لا يمكن أن يقر الفساد والظلم. فهذا مما لا يتم الواجب إلا به.

٢- الوعود بالامتيازات الخاصة في الانتخابات السياسية، والتدبير الوقائي تشديد الرقابة، وتقنين العملية بما يحد من إفسادها.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ كَانَ لَهُ فَضْلُ مَاء بِالطَّرِيقِ فَمَنَعَهُ من ابْنِ السَّبِيلِ، **وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطِه مِنْهَا سَخِطَ**، وَرَجُلٌ أَقَامَ سِلْعَتَهُ بَعْدَ الْعَصْرِ» فَقَالَ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَقَدْ أَعْطَيْتُ بِهَا كَذَا وَكَذَا فَصَدَّقَهُ رَجُلٌ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا)[١]، وفي رواية مسلم وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا وَفَى وَإِنْ لَمْ يُعْطِه مِنْهَا لَمْ يَفِ[٢].

ومحل الشاهد منه قوله: «وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَا فَإِنْ أَعْطَاهُ مِنْهَا رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطِه مِنْهَا سَخِطَ»، ووجه الاستدلال منه أن الوعيد الذي أوعد من بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا، هو لما يترتب على هذا القصد، من هشاشة الرابطة بين

١- صحيح البخاري مع فتح الباري كتاب المساقاة باب إثم من منع ابن السبيل من الماء ح ٢٣٥٨ ج٥/ ص٤٣. وصحيح مسلم مع شرح النووي كتاب الإيمان باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ح١٠٨ ج٢ / ص٤٧٦-٤٧٧.

٢- وهي رواية مسلم.

الحاكم والمحكوم، حيث ينحل العقد بانتفاء الشرط، وينفلت الزمام، وتقع الفتن. ولما يؤدي إليه من الجور في حق بقية المجتمع وقد تكون هذه الوعود امتيازات جبائية أو تواطؤا في أسعار الخدمات. بينما إذا كانت الرابطة كما قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِه وَيُتَّقَى به فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَلَ كَانَ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرٌ وَإِنْ يَأْمُرْ بِغَيْرِهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْه»[1]، فإن الرابطة تكون أمتن، ووجه المتانة أن المسلم يرى في حاكمه وقاية من الفوضى والاضطرابات وضياع الأمن.

فإذا كانت شروط العقد هو الرباط المقدس، وهي: توفر الإمارة والقيادة، التي تحرس الدين وتقيمه، وتسوس الدنيا وتعدل فيها، فلابد أن تكون المنافع الدنيوية بعد ذلك: كل وكفاءته، وكل وحاجته.

والوعيد هنا يتجه إلى ما يعد به المرشح بعض الأفراد من المجتمع من امتيازات دون غيره من ناخبيه وأمته، فهذه في حكم رشوة، تنقلب ضد الفائز وأمن البلد والأمة متى قصر في الوفاء بالوعد، وتظهر الحكمة من الحديث إذا كان الحاكم أو الفائز صالحا، فرفض أن يخص واحدا بامتياز دون غيره.

إن ما يظهر من سيطرة أصحاب المصالح وجماعات الضغط على الانتخابات من أكبر أسباب الفساد والظلم، بل من أهم أسباب حماية الفساد والظلم.

ولخطورة النظام والأمن السياسي، فقد أخرج البخاري عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[2].

١- صحيح البخاري مع فتح الباري كتاب الجهاد والسير بَاب يقاتل مِنْ وَرَاء الْإِمَام وَيُتَّقَى بِه ح٢٩٥٧ ج٦/ ص١٤٣ وصحيح مسلم مع النووي في الإمارة بَاب الْإِمَامُ جُنَّةٌ يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهَ وَيُتَّقَى بِه ح١٨٤١.

٢- صحيح البخاري، مع فتح الباري، ابن حجر كتاب الفتن بَاب قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا ح٧٠٥٤. وصحيح مسلم مع شرح النووي في الإمارة بَاب وُجُوب مُلَازَمَة جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وَفِي كُلِ حَالٍ وَتَحرِيمِ الْخُرُوجِ عَلَى الطَّاعَةِ وَمُفَارَقَة الْجَمَاعَةِ ح١٨٤٩.

وفي رواية أخرى: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[١]. وفي رواية مسلم: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[٢].

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث أنه لا يجوز للإنسان أن يخرج من الطاعة بمجرد أن يرى ما يكرهه هو من حاكمه، أو حكامه، بل يجب أن يكون ما وجده قد وجدته العامة حتى يصير ذلك المكروه بواحا، فيكون ذلك له قضاء خاص. وإنما ما دام يجد ما يعرف من المعروف من هذا الحاكم، وهو أكبر مما ينكر وأكثر، فعليه بالجماعة، وهي عامة الأمة التي تحت سلطة هذا الحاكم، لأن العامة إذا خرجت عن السلطة بمجرد وجود كل واحد ما يكرهه، تقع الفوضى ويختلط الصراع عن السلطة والحكم بالتدافع بين الحق والباطل، فيضيع الحق في زحمة هذه الفتن، ويصعب إرجاع الناس إلى النظام.

والتدبير الوقائي المستنبط هو تشديد الرقابة على وسائل التعاقد بين الحاكم والشعب بالتشريعات والمؤسسات والأنظمة، حتى لا يتلاعب به أصحاب المال، والمصالح الخاصة الفئوية والخارجية، فإن فترة التعاقد إما تكون فترة بناء أو فترة هدم. **ثم لا بد من عدم ترك ذلك للأفراد بل لابد من توكيله للمؤسسات.**

٣- إثارة العصبيات والموت من أجلها

تعتبر هذه الظاهرة علامة على فساد الحكم، **والتدبير الوقائي** هو العدل بين مكونات المجتمع بلا تمييز في الحقوق والواجبات.

١- تقدم تخريجه.
٢- صحيح مسلم مع شرح النووي في الإمارة، باب: وُجُوب مُلَازَمَة جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وَفِي كُلِّ حَالٍ وَتَحْرِيمِ الْخُرُوجِ عَلَى الطَّاعَةِ وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ ح ١٨٥١.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»[1].

ووجه الدلالة من الحديث أن إيراد ذكر العصبيات القومية والعرقية وما في معناها، في سياق الاقتتال، مقرونة بالحديث عن الجماعة والطاعة، يفيد خطورة الولاء لهذه العصبيات مهما زينها أئمتها، لما يفضي إليه من فساد النظام. وعليه فإن الأئمة الداعين إلى هذه العصبيات، هم من المضلين المفرقين لأمر الأمة المجموع.

وفي مقابل وصف دعاة العصبيات بالمضلين، منع الحكام وأهل السلطان من الجور، وأن يضيعوا أهل العهد، ومن في معناهم كالقوميات والأعراق أو يميزوا في العدل بينهم، لما يترتب على ذلك من الانكفاء إلى العصبيات، والحديث يدل استنباطا على أن التقصير في الوفاء بعهود المعاهدين مدخل شيطاني لإشعارهم بالظلم، وتوظيف وضعهم لتفريق الشمل والفتنة.

والتدبير الوقائي: القضاء على أنواع التمييز بين أفراد الأمة فيما يشتركون فيه من الحقوق بالتشريعات الكفيلة بضمان ذلك، والعناية أكثر بالأقليات كيفما كان لونها وعقيدتها درءا لاستغلالها، وإشعارها بوظيفتها.

٤- الأنظمة الأجنبية متربصة دائما بالدولة الإسلامية ونقض العهود سبب في تسلطها

وقوله: «ولم ينقضوا عهد الله و عهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من

١- صحيح مسلم في الإمارة، بَاب: وُجُوبِ مُلَازَمَةِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وَفِي كُلِّ حَالٍ وَتَحْرِيمِ الْخُرُوجِ عَلَى الطَّاعَةِ وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ ح١٨٤٨.

غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم»[1]

وفي رواية الحاكم «ما نقض قوم العهد قط إلا كان القتل بينهم، و ما ظهرت فاحشة في قوم قط إلا سلط الله عز و جل عليهم الموت، و لا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر»[2]

ووجه الدلالة أن نقض العهد مع الله ومع رسوله في حمل رسالة الإسلام، وبين البشر، دليل على الانشغال بالنفس وإصلاح دنياها، والانكفاء عليها، فيؤدي هذا إلى التقاتل على الدنيا والتنازع فيحصل الضعف، فيطمع العدو، فيأخذ بعض ما في اليد من أرض، ويقع الذل .

كما أن الناس لا يحصل لهم اجتماع تحفظ به مصالح الجماعة والأفراد إلا في إطار عهود ومواثيق تؤخذ من جميع أفراد الجماعة، ومادامت العهود والاتفاقيات محترمة فإن مصالح الجماعة تبقى قائمة وتتطور إلى الأحسن، وأي إخلال سيؤثر على مصالح الجماعة فيتشتت الشمل ويوجد الخائن، فتخترق الجماعة من قبل العدو. فظاهرة نقض العهد دليل على التعسف في استعمال الحرية الشخصية، والتفكك الاجتماعي، والإفراط في تلبية الرغبات الخاصة.

وفيه دليل على أن العدو متربص دائما، مهما ادعى حسن الجوار؛ يتحين فرصة الانشغال بالنفس، أو الغفلة، أو وجود المارق من الجماعة المؤثر للزعامة بغير وجه حق، ولا يردعه العدو ويمنعه إلا اليقظة الدائمة والاستعداد المستمر، ولذلك قال ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من

١- السنن، ابن ماجة، كتاب الفتن باب العقوبات ح٤٠١٩ ج٢ / ص١٣٣٢-١٣٣٣ وقال محققه: في الزوائد: هذا حديث صالح للعمل به. وانظر هامش ٣٣.

٢- المستدرك، الحاكم ٢ / ١٢٦. وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة - ١ / ١٠٦.

نفاق»[1]، والحديث يدعو لبناء قوة رادعة ترهب، نعم لا تستعمل إلا في الدفاع ورد العدوان لحرمة الاعتداء والاستعداء. لقوله ﷺ: «دعوا الحبشة ما ودعوكم، واتركوا الترك ما تركوكم»[2].

ووجه الدلالة منه أن هاتين القوتين الكبيرتين طلب النبي من أمته ألا يتسببوا في استعدائهم، بل يتجنبوا الدخول معهم في حرب، ويقاس عليهما غيرهما، لما في الحرب من الضرر.

وهي السياسة التي مورست من قبل غير المسلمين مهما تظاهرنا لهم بحسن النية، فعبر التاريخ إما أن تكون في الهجوم أو تكون تحت الاحتلال، وقد ألف الدكتور أحمد العماري كتابا سماه المواجهة والمراجعة بين الجامعة الإسلامية والجامعة اللاتينية، يؤكد فيها بالشواهد والوثائق هذا الأمر.

وعليه فإن تسلط العدو دليل على نقض العهد، وتفكك الروابط الاجتماعية، ونشوب الخلاف، ولا يرد العدو إلا بالوفاء بهود من وقعت معهم العهود كأهل العهد من غير المسلمين من جديد.

المطلب الثاني: الأمن الاجتماعي

لقد علمنا أن الأمن الاجتماعي بالوصف المذكور في الحديث مقصد أساس لرسالة الإسلام، وهنا نسوق ما يدخل ضمن التدابير الوقائية المتعلقة به.

أولا: وسائل تحقيق الأمن

١- العلم الشرعي أول مدخل للأمن

١- صحيح مسلم، مع شرح النووي، في الإمارة باب ذَمِّ مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ وأبو داود في الجهاد باب كَرَاهِيَةِ تَرْكِ الْغَزْوِ ح ١٩١٠.

٢- السنن، أبو داود، مع عون المعبود للعظيم أبادي في الملاحم بَاب في النَّهْيِ عَنْ تَهْيِيجِ التُّرْكِ والْحَبَشَةِ ح ٤٢٨٠ ج١١ / ص٤٠٩، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته ح ٣٣٨٤ ج١ / ص٦٣٨.

- لما كان العلم أول قيمة من قيم السمو والبناء وترقية الإنسان، حذر من غيابه أو انحرافه عن رسالته، أو التقصير في بذله. فأعطى علامات انحرافه، وقواعد تدبيرية للوقاية من غوائل الانحراف.

فقال ﷺ وقاية للمجتمع من تضليل الجهال، وغياب العلم، الذي يسبب التنازع: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

ووجه الاستدلال به هو أن الجهل يتسبب في الضلال، والضلال يؤدي إلى الفوضى وهي سبب الفتنة وغياب الأمن.

فذكر المحذور وهو وقوع الضلال، وذكر علته وهو غياب العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء كما ثبت.

ويستنبط منه الأهمية الكبرى لوظيفة العلماء في القيادة، لا أن يكونوا تابعين تحت الطلب.

ويؤكد هذا الأمر شواهد الحاضر، إذ ما من دولة تحترم نفسها، وتقدر دورها إلا أسست للعلم قلاعا، وأعطت للعلماء سلطانا، وأنزلتهم منازلهم، وجعلت للقرار قرارا مكينا، لا يصدر إلا بموافقة حملة المذهب الذي اتخذته الأمة وحماته. بل العلماء هم من يجلي المرجعية التي هي أفضل أسلوب لتدبير الخلافات، فتعميم العلم البناء يجعل أفراد الأمة يزنون الأفكار والقيم والسياسات التي تعرض عليهم بما تتضمنه الفكرة أو السياسة من قيمة عملية وأثر واقعي من ذات الفكرة والسياسة، لا من خارجها، أو بمن صدرت عنه. وهكذا نقلل من اثر

١- صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب العلم باب كيف يقبض العلم ح١٠٠، وصحيح مسلم، مع شرح النووي، كتاب العلم باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ح٢٦٧٣.

العاطفة والمزاج في تقدير الأشياء، فالحقيقة العلمية والمعلومة الصحية هما ما دل الدليل على صحتهما، فإن كانت غيبا فمن مصادر الغيب الموثوقة، وإن كانت مما يخضع للتجربة والحس فيجب أن يكون الدليل هو التجربة والحس، وهنا تبرز قيمة المرجعية في النظر إلى الأشياء وتقييمها، فمن يدعي الإيمان بالقرآن لا بد أن يقبل ما دل عليه من علم وهدى، ومن كان لا يؤمن فعليه أن يظهر ذلك، لنعامله في الإقناع بالأسلوب المناسب له، لأننا مطالبون بأن نتعايش معا، وأن يقنع بعضنا بعضا بما يراه صوابا.

وحذر من انحراف العلم عن رسالته ومقاصده، فقال ﷺ: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ»[١].

وذكر علة هذا الانحراف وهو ابتغاء غير وجه الله بالعلم، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». يَعْنِي رِيحَهَا[٢].

وهنا أشير إلى خطر ابتغاء التفوق بالعلم، فقد نشر صاحب كتاب أنوثة العلم وهو أحد أعداد سلسلة عالم المعرفة الكويتية، أن عددا من الأبحاث التي سجل أصحابها بها براءة اختراع لم تخضع للتحقق المطلوب، والتجريب الكافي لمعرفة صدق النتائج، وبعضها ثبت عدم صحتها مع الزمن.

إن هذا الشأن يؤدي إلى إيذاء البشرية خصوصا إذا تعلق الأمر بدواء، أو لقاح، وهنا تظهر حكمة هذه العقوبة الأخروية، والتي يجب أن توازيها عقوبة دنيوية زاجرة، لأن عدم الإخلاص نتيجة الشره وحب السبق والزعامة، أو ابتغاء الترقية وغير ذلك هو سبب المأساة.

١- السنن، ابن ماجة المقدمة ح ٢٥٣ ج١ / ص٩٣ صحيح ابن ماجة للألباني وحسنه ج١ / ص١٠٠.
٢- السنن، ابن ماجة المقدمة ح ٢٥٢ ج١ / ص٩٢، صحيح ابن ماجة، الألباني وصححه ج / ١ / ص٩٩- ١٠٠.

وذكر سبيل تحصيله فقال ﷺ: «العلم بالتعلم»[1]. وبهذا على الأمة بذل ما في الوسع للتعليم، وجعله من أولى الأولويات؛ لأنه وسيلة إدراك الحقيقة بأدلتها، لا بقائلها.

والخلاصة من هذه النصوص أن وجود المخالفات والضلال سببه غياب العلم واقعا أو حكما، وذلك إذا كان العالم يريد بعلمه غير الآخرة، أو حظوظ نفسه، ودل الحديث على أنه سيوجد، من العلماء من يريد به الزعامة والظهور، والتعالي على الناس، ونيل المناصب، ودل وقائيا لما ذكر هذه الصفات على تربية المتعلم على ضدها بترغيبهم في الآخرة، وسن القوانين التي تحد من هذا المرض.

٢- النظام والانضباط

وهما مظهران للتدين والصلاح، وسبيل للقوة والإنتاج؛ ولذلك نهى رسول الله ﷺ عن التمرد والفوضى، ورغب في النظام، والانضباط، في أبسط الأمور إلى أكبرها، فقال :ﷺ «إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»[2].

ولأن العقد الذي ترتبط به الأمة لا يسمح بالحرية الشخصية المطلقة بل تحت ضابط الأوامر والنواهي الإلهية، وما تقتضيه أحوال الاجتماع، من تنازلات في المباح المشترك للتعايش، وقد أرشد سيدنا عمر إلى ضرورة النظام والاجتماع والطاعة للأمير، لإقامة الدين، فعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ قَالَ: «تَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبِنَاءِ فِي زَمَنِ عُمَرَ فَقَالَ عُمَرُ: يَا مَعْشَرَ الْعُرَيْبِ الْأَرْضَ الْأَرْضَ إِنَّهُ لَا إِسْلَامَ إِلَّا بِجَمَاعَةٍ وَلَا جَمَاعَةَ إِلَّا بِإِمَارَةٍ وَلَا إِمَارَةَ إِلَّا بِطَاعَةٍ، فَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى الْفِقْهِ كَانَ حَيَاةً لَهُ وَلَهُمْ، وَمَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْهٍ كَانَ هَلَاكًا لَهُ وَلَهُمْ»[3].

١- طرف حديث معلق في صحيح البخاري كتاب العلم، باب: العلم قبل القول والعمل.

٢- السنن، أبو داود، مع عون المعبود، للعظيم أبادي في الجهاد باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم ح٢٥٩١ ج٧/ ص٢٦٧. وقال الألباني حسن صحيح وقال في إرواء الغليل صحيح ٨/ ١٠٦.

٣- السنن الدارمي في المقدمة باب في ذهاب العلم١/ ٢٨٣.

ولهذه الخطورة نرى الحرص من قبل القوى الاستعمارية على تشجيع التمرد المسلح، في الشعوب الإسلامية على الأنظمة، فذلك يتحقق به هدفان تمزيق الروابط وإضعاف القوة، والتسلط بعد ذلك، والهدف الثاني تعطيل الشعائر التي هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها جمع الشمل وتوحيد الصف واسترجاع القوة، وإعادة الأمن، وواقع الأمة يحكي القصة اليوم، فإن الدول التي أسقطت أنظمتها لم تتمكن من استرجاع عافيتها واستحر فيها القتل وعم الأخضر واليابس.

لهذا جاءت السنة بالترغيب والترهيب في حمل العلماء على تحمل مسؤولية إعانة الحكام على المعروف، والمحكومين على الطاعة، قبل أن يطفح الظلم فلا يعود للعالم مكان في قلب العامة، ولا أهمية لدى الحكام.

وجاءت بالأمر بالالتجاء إلى العلماء والتمسك بهم، لا سيما علماء الشريعة الإسلامية، قال ﷺ حين ذكر له رَجُلَان أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ: «فَضْلُ الْعَالِم عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ». قَالَ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضَ: «عَالِمٌ عَامِلٌ مُعَلِّمٌ يُدْعَى كَبِيرًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ»[1]. لكن اشترط لهذا الأمر شرطَ وهو الزهد في دنيا الناسَ، وفيما في أيديهم، فعنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ»[2].

١- السنن، الترمذي، مع تحفة الأحوذي للمباركفوري كتاب العلم بابٍ في فضل الفقه على العبادة ح٢٨٢٥ ج٧/ ص٣٧٩ وقال أبو عيسَى فيما نقله شارحه عن نسخته: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ. وصححه الألباني في الجامع الصغير ٢ / ٧٧٦ ح٤٢١٣.

٢- السنن ابن ماجة في الزهد بَاب الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا ح٤١٠٢، ج٢ / ص١٣٧٣-١٣٧٤ وقال المحقق: في الزوائد في إسناده خالد بن عمرو وهو ضعيفٌ مُتفق على ضعفه، واتهم بالوضع. وأورد له العقيلي هذا الحديث وقال ليس له أصل من حديث الثوري، لكن قال النووي عقب هذا الحديث رواه ابن ماجة وغيره بأسانيد حسنة. والمستدرك، الحاكم ٤ / ٣١٣ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبي خالد بن عمرو وضاع وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢ / ٦٦١ وانظر دراسته هناك وصححه في الجامع الصغير ١ / ٢٢٠ ح٩٢٢.

٣- أداء الواجبات

فأداء الواجبات أعظم وسيلة لوقاية النفس والمجتمع من الفتن كما أخبر النبي ﷺ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[١].

وعَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ قَالَ: «أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنَ الْحَجَّاجِ فَقَالَ: اصْبِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ»[٢].

حديث أنس يدل على أن كل لحظة تمر على الإنسان هي أفضل من التي بعدها، أي أن التي بعدها أكثر فتنة من التي قبلها، وحديث أبي هريرة يدل على المبادرة بالعمل الصالح قبل حلول الفتن، وفيه معنى قاله المباركفوري وهو أن المبادرة هي المسارعة بإدراك الشيء قبل فواته أو بدفعه قبل وقوعه[٣]، وهو عنوان المسألة فنقول:

إن تعجيل العمل الصالح بمعنى أوسع من القربات المحضة، بل كل عمل نافع للأمة، هو الحل لدرء الفتن والفساد، ومجموع الحديثين يدل على أن أي سوء توظيف لعمر الإنسان -الذي حقيقته تدرك بمردوديته في الواقع، من قربات وعمل نافع، أو قيامه بأعمال نفعها قاصر ومتعد- إنما هو مضاعفة للفتن التي اقتضت حكمة الله أن تتكاثر كلما ابتعدنا من زمن النبوة ونورها، وقد قال الخليفة عمر بن عبد العزيز لأحد عماله لما أراد أن يؤجل عمل يوم إلى غده حينما طعنوا

١- صحيح مسلم مع شرح النووي في الإيمان باب الْحَثِّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ بِالْأَعْمَالِ قَبْلَ تَظَاهُرِ الْفِتَنِ والترمذي في الفتن باب مَا جَاءَ سَتَكُونُ فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ح١١٨ ج٢ / ص٤٩٢-٤٩٣.

٢- صحيح البخاري مع فتح الباري، ابن حجر في الفتن باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه ح٧٠٦٨.

٣- تحفة الأحوذي، المباركفوري ٦ / ٣٦٤.

في الليل ولم يكملوا، كيف بنا إذا أضفنا هذا العمل على عمل الغد، وكذلك عمر الإنسان قد جعله الله مناسبا لما كلفه به، وأي تقصير في مرحلة من المراحل في تلك الواجبات فإنما هو مضاعفة في الشغل وإعانة على الفتن، وزيادة منها، وتأخير في البناء. وقد قالوا: إن الحضارة هي تراكم في الواجبات، يحصل بها فائض عن الحاجات، يصرف في تحسين ظروف الحياة.

ثانيا: أسباب الفتنة الداخلية

١- الصراع على الحكم وتولي السلطة

تعتبر الرغبة في السلطة غريزة تجب مقاومتها، لأنها سبب الفساد العظيم إذا لم تنضبط بقوة رادعة.

ولقد تعددت الأحاديث الصحيحة التي تناولت الحكم والسلطة، وقضاياها، واللافت أن عامة هذه الأحاديث تناولت الموضوع بالمنهج الوقائي، على ما وقع تعريفه، أخرج البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ»[١].

ووجه الدلالة من الحديث أن النبي حذر من الحرص على السلطة لما يفضي إليه من الاقتتال، والفتنة والفساد، والتباغض والتدابر، الذي إنما جعلت السلطة لمنعه؛ فيضيع الهدف ويقع التمسك بالوسيلة.

ولفظ الحديث يدل على أن الحرص رغبة واقعة، لا محالة، فيجب منع ما يترتب عليها، وذلك بوضع مرجعيات للتداول عل السلطة، تشمل الجميع ولا تستثني إلا ما يسلم به أهل الفطر السليمة وما يعززه البرهان الواقعي.

١- صحيح البخاري مع فتح الباري، ابن حجر، كتاب الأحكام باب ما يكره من الحرص على الإمارة ح٧١٤٨.

كما أن ذم الحرص يدل على أن الغاية تتحقق بأي حاكم، وعلى هذا يجب الحرص، أي الأسباب التي تحقق الغاية من الولاية والحكم.

ولو كان الحكم فرديا فإنه سبق القدر بغريزة الرغبة في البطانة، وهو أصل الحكم الجماعي.

أخرج البخاري عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى»[1]، وفي رواية أخرى للبخاري قَالَ ﷺ: «مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ». وفي رواية أحمد: «مَا مِنْ نَبِيٍّ وَلَا وَالٍ إِلَّا وَلَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَبِطَانَةٌ لَا تَأْلُوهُ خَبَالًا وَمَنْ وُقِيَ شَرَّهُمَا فَقَدْ وُقِيَ وَهُوَ مَعَ الَّتِي تَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنْهُمَا».

ووجه الاستدلال من الحديث أن وجود بطانة الخير إلى جانب كل من ولي من أمر المسلمين شيئا مهما طغى أصل لوجود أسباب العدل في حكام المسلمين وأعظمها العلماء لاسيما الطائفة التي ستبقى حارسة على قيمه، وهذا شيء قدري بالنص، لكن كيف يتم تدعيم بطانة الخير وتقويتها على بطانة الشر؟. هذا هو المطلوب من المكلفين بدل اتباع السبل ذات النتائج السيئة، وهو الخروج واستعمال القوة، أو الحديث عن الفساد والمفسدين، بلا فعل يذكر.

وفي الحديث أصل للإدارة الجماعية، بل حكم المؤسسات، بل ووجود المعارضة، لأن أقصى تطرف في الرأي حيث ينقلب شرا على عامة الناس يتمثل في بطانة الشر وهي بما تبديه من رأي فإنها تفيد في إغناء الأفكار، وتطوير الأساليب، في إطار قانون التدافع بين الحق والباطل، ولولاها قد لا تنتبه بطانة

١- صحيح البخاري مع فتح الباري، ابن حجر، كتاب الأحكام باب بطانة الإمام وأهل مشورته ح ٧١٩٨.

الخير إلى الشرور، التي تحتاج إلى علاج، ومواجهة. ولا يلزم من هذا الاستنتاج أن تكون المعارضة هي بطانة الشر، بل بطانة الشر نوع من المعارضة السيئة التي يمكن ان تكون في المجتمع.

وقد قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا بِلَالُ قُمْ فَأَذِّنْ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ»[1].

ووجه الاستدلال من هذا الحديث أنه قد يفيد الرجل الفاجر من حيث إنه لا يقصد، بإثارة فكرة، أو بعمل نافع يريد الظهور به والمدح، وهو تنبيه من الله تعالى للمسلم أن يبحث عن المخرج في أضيق السبل، وأشد الأحوال.

٢- إخلال العلماء وقادة الرأي بواجب الرقابة على الحكام

فالوفاء بالطاعة للحكام، مشروط بتقديم العلماء النصح الشرعي للحكام منعا لهم من الظلم، ودرءا لثورة العامة وحدوث الفتن.

أخرج البخاري بسنده عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «بَايَعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَلَقَّنَنِي فِيمَا اسْتَطَعْتُ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»[2].

ووجه الاستدلال من الحديث أن السمع والطاعة حق للحكام، يحميه العلماء وقادة الرأي لهم إلى جانب أنظمة الضبط، والنصح لكل مسلم حق للمواطنين في مواجهة الحكام، وميزان عدل يصان به الحكم من الجور والطغيان. وذلك أن الله تعالى حرم الاقتتال على السلطة، وذم الحرص عليها، ومقابل استتباب الأمر للحكام، ألزم العلماء وقادة الرأي بأداء واجب المراقبة، وألزم الحكام بالسمع،

١- صحيح البخاري مع فتح الباري كتاب القدر باب العمل بالخواتيم ح٦٦٠٦ ج١١/ ص٦٠٩-٦١٠ وصحيح مسلم مع شرح النووي كتاب الإيمان بَاب غلظ تحريم قَتْل الإنسان نَفْسَهُ وَأَنَّ مَنْ قتل نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُذِّبَ به في النَّارِ وَأَنَّهُ لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ ح١١١ ج٢/ ص٤٨٢-٤٨٣.

٢- صحيح البخاري، كتاب الأحكام باب: كيف يبايع الإمام الناس ح ٧٢٠٤ وصحيح مسلم، مع شرح النووي، كتاب الإيمان بَاب بيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ ح٥٦ ج٢/ ص٣٩٩.

ويبقى الفصل للبطانة التي تتمكن: إما بطانة الشر أو بطانة الخير. وقد رغب الرسول ﷺ في قول الرأي الصواب للحكام ترغيبا في الانتساب لبطانة الخير، وحضا على إيجادها، وقاية للأمة من الهلاك، قال ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة عدل (و في رواية: حق) عند سلطان جائر»[1]. وهذا ما يؤكد أهمية العلم والعلماء وتكثير سوادهم لو علم الحكام. وهذا ما قام به جرير بن عبد الله، بعد وفاة المغيرة بن شعبة الوالي. فقد أخرج البخاري عَنْ زِيَادِ بْنِ عِلَاقَةَ قَالَ سَمِعْتُ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِاللهِ يقول: «يَوْمَ مَاتَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَامَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِاتِّقَاءِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ حَتَّى يَأْتِيَكُمْ أَمِيرٌ، فَإِنَّمَا يَأْتِيكُمُ الْآنَ ثُمَّ قَالَ: اسْتَعْفُوا لِأَمِيرِكُمْ فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ الْعَفْوَ. ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ قُلْتُ: أُبَايِعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَشَرَطَ عَلَيَّ: وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، فَبَايَعْتُهُ عَلَى هَذَا، وَرَبِّ هَذَا الْمَسْجِدِ إِنِّي لَنَاصِحٌ لَكُمْ ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَنَزَلَ»[2].

٣- الأئمة المضلون أسباب للفتن

فظهورهم دليل على ضعف اثر أئمة الهدى، الذين لا ينعدمون، وتأثيرهم دليل على تفشي الجهل بطرق تمييز الحق من الباطل والصواب من الخطأ.

أخرج أبو داود عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ أَوْ قَالَ: إِنَّ رَبِّي زَوَى لِيَ الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَلَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ،

١- السنن، أبو دود، مع عون المعبود كتاب الملاحم بَاب الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ح٤٣٢٢ ج١١ / ص٤٩٩ .والسنن، الترمذي مع تحفة الأحوذي، المباركفوري. في الفتن، بَاب: مَا جَاءَ أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ ح٢٢٦٥ وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ج٦ / ص٣٢٩-٣٣٠. والحاكم ٤ / ٥٠٥-٥٠٦ وقد صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» ١ / ٨٠٦ وانظر الدراسة التي قام بها حوله.

٢- صحيح البخاري مع فتح الباري، ابن حجر كتاب، الإيمان بَاب: قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ الدِّينُ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ ح٥٨.

وَإِنَّ رَبِّي قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ / وَلَا أُهْلِكُهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ وَلَا أُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ أَقْطَارِهَا، أَوْ قَالَ: بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَحَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَسْبِي بَعْضًا وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي. وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ، قَالَ ابْنُ عِيسَى: ظَاهِرِينَ ثُمَّ، اتَّفَقَا لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ»[1].

ومحل الشاهد في الحديث قوله: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ». ووجه الدلالة منه أن تنبيهه على الأئمة في سياق الفتن يدل على خطورة هذه الفئة، والإمامة هنا بمعنى أعم من الحاكم، بل كل من يتزعم رأيا، أو يتقدم فئة من الناس، هو معني هنا، ووصف الأئمة المخيفين بالضلالة تحذير من قادة الرأي والعلم، إذ ليس كل من تكلم يكون مصيبا، وخصوصا زمن الفتنة الذي ألزم الله العلماء أن يمنعوا وقوعه، فأئمة الضلالة وهم جزء من بطانة الشر إذا صارت لهم القوة في صناعة الرأي العام والتأثير فيه كان ذلك دليلا على ضعف طائفة أهل الحق والهدى، وقد قدر الله تعالى أن لا ينقطع دال على الخير في كل زمان، بهم يتميز الحق من الباطل، ويعرف أئمة الهدى من أئمة الضلالة، وتنكشف الغمة. وفيه دليل على وجود من يسهم في إذكاء نار الفتن السياسية.

١- السنن، أبو داود مع عون المعبود، العظيم أبادي، كتاب الفتن والملاحم باب ذكر الفتن ودلائلها ح ٤٢٣٢ ج١١ /ص ٣٢٢-٣٢٤ .والسنن، الترمذي، مع تحفة الأحوذي، المباركفوري، في الفتن بَاب مَا جَاءَ فِي الأَئِمَّةِ الْمُضِلِّينَ ح ٢٣٣٠ مختصرا، وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ ج٦ / ٤٠١. والمستدرك، الحاكم ٤ / ٤٤٩ وقَالَ صَحِيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤ / ١٠٩.

ووقاية لا بد من الحرص على وضع سياسة تعليمية، تولي عناية لمناهج تلقي المعرفة العلمية لتحقيق التعلم الذاتي، والتقليص من الحاجة إلى الوصاية، لأن تمكن أفراد المجتمع من وسائل تمييز الصواب من الخطأ والحق من الضلال، يمنع من تأثير ما يلبس به أهل الباطل، كما أن انضباط المرجعية لدى العامة يمنع من تلاعب أهل الأهواء بالمصالح العامة.

المطلب الثالث: المنهج الوقائي في الاقتصاد.

الأمة الإسلامية: أمة واحدة سياسيا في تنوع، مكتفية ذاتيا في تكامل اقتصاديا، كل هذا في القدر الأزلي لو يعلمون.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ: الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ: إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، أَوْ قَالَ: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[1].

محل الشاهد من هذا الحديث قوله "سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ"، ووجه الدلالة منه، أن الله إذا سلط القحط على جهة من جهات البلاد الإسلامية، فإنه تغاث جهات أخر فيستفيد المقحطون، بما يأتيهم من الجهة التي أغيثت، وفيه دعوة للتجارة البينية بين الدول الإسلامية، لأن الله تعالى هيأ الأمر هكذا.

١- صحيح مسلم مع شرح النووي، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ح٢٨٨٩.

وهذا أمر يؤكده قوله ﷺ لما بعث مُعَاذًا رَضي اللَّهم عَنْه إلَى الْيَمَن فَقَالَ: «ادْعُهُمْ إلَى شَهَادَة أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لذَلكَ فَأَعْلمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَد افْتَرَضَ عَلَيْهمْ خَمْسَ صَلَوَات في كُلِّ يَوْم وَلَيْلَة، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لذَلكَ فَأَعْلمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهمْ صَدَقَةً في أَمْوَالهمْ تُؤْخَذُ منْ أَغْنيَائهمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائهمْ»[1].

ووجه الدلالة منه أنه أخبرهم ما يكون من مال في البلاد إذا خرج منه حق الله تحقق به الاكتفاء الذاتي، وهكذا عن طريق التعميم، فإن مال الأمة الإسلامية إذا حسن تدبيره سدت به الخلل، وكسيت حضارة الإسلام الحلل، وكثرت النعم وأبيدت النقم.

وقد حذر من الاعتماد على الخارج في العيش ووسائله، بهذه الإشارات، لما يترتب على ذلك من المخاطر بسبب العداء الوجودي الذي قد يخفت، وقد يظهر، ومن ذلك مسألة الديون، لأن ما يأتي من البلاد التي ليست إسلامية، لن يكون إحسانا وتفضلا، ولكن مقايضة واستدراجا، وقد جاء التصريح بالنهي حيث قال النبي ﷺ: «إنا لا نستعين بمشرك»[2]، وفي حديث آخر: «إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين»[3]. فالحديث الأول دليل على عدم الحاجة إلى الاستعانة على العيش، وما يتصل بالمال بالأجنبي، بل الواجب أن تدبر الأمور أولا بأغنياء المنطقة، فإن لم تسد الحاجة استعين بمن خارج المنطقة داخل الرقعة الإسلامية، وأي دعوى بعدم الكفاية فقد كذبتها الأحاديث، لأنه لن تكون يد الأمة سفلى إلا إذا انخرمت شروط صفتها الإسلامية بوجه ما.

١- صحيح البخاري مع فتح الباري، ابن حجر كتاب: الزكاة باب: وجوب الزكاة ح١٣٩٥ ج٣/ ص٣٣٣.
٢- المسند، أحمد ج٤٠/ ص٤٥٠، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
٣- أخرجه أحمد ٢٥ / ٤٣. وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده ضعيف دون قوله: «فلا نستعين بالمشركين على المشركين»، فهو صحيح لغيره. والحاكم، وصححه ٢ / ١٢٣-١٢٢ عن خبيب. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣ / ٩٢.

أما الحديث الثاني فيمكن تنزيله على السياسة الدفاعية المتعلقة بالأعداء الخارجيين، وعليه تنزل التحذيرات الواردة من أن التعاون بين جيش مسلم وآخر غربي- من الروم كما في الحديث- على عدو ثالث، يثمر انتصارا تعقبه معركة بين المتحالفين، ولما كانت الحروب مذمومة، فإنه لابد من الحذر منها.

وهما يتضمنان تحذيرا أكده الواقع والتاريخ، وهو ضنانة الأجنبي بما عنده، واستغلاله للحاجة، وفي نفس الوقت يحضان على استغلال الفرص التي هي متاحة لتحقيق الاستغناء، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام رغب الأفراد في الاستغناء عن الغير فإنه من باب أولى أن تكون الأمة بكاملها مخاطبة بهذا الترغيب.

نعم، دلت عمومات الأحاديث وسيرة السلف على جواز التعاون في مجال العلم الذي أكدت السنة على طلب الريادة فيه في كل الفنون، إلا أن الغربيين يفرضون احتكارا فيه لمعرفتهم أنه هو المدخل للسيطرة والصدارة، وهو يؤكد ما مضى.

خاتمة

إن السنة النبوية نور في دياجي الظلمات والجهل، وهدى عند فقدان الطريق، ووحي بعد انقطاع الوحي، ونبوة بعد انقطاع النبوة، صدق رسول الله ﷺ حين قال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وسنتي». فهي نبوة ترافق المؤمن في الشدة ليصير إلى الرخاء، وفي الضيق ليخرج إلى السعة وفي الخوف ليأمن، وفي الحيرة ليهتدي.

لقد خلص هذا البحث إلى نتائج أظهرت إعجاز السنة في النفس والمجتمع، في التدبير والتحذير، والوصف.

وأكد أن التدبير الوقائي الذي تضمنته السنة، إذا أعمل، فكل السنة تعمل -بضم التاء-، ويجاب به على أخطر الشبهات التي لطالما تثار حولها.

واتضح أن الأمة فوتت فرصا للتمكين، والاستمرار، والتخلص من أسباب الفتن والضعف، بسبب إغفال هذا المنهج في التفقه.

ولست أنكر الفوائد التي يذكرها الشراح عبر تاريخ فقه الحديث، لكن أؤكد أن عدم صياغتها صياغة عملية، وعرضها كما تعرض القوانين الفقهية منظمة ومتناسقة في وحدات حسب حاجة الأمة، أفقدها إمكانية التطبيق، وأرى أن عدم قيام فئة من أهل العلم بهذا الأمر في شكل منظم، اضعف تأثير الطائفة الظاهرة على الحق.

ثم إن البحث أكد لي أهمية الفكرة، وضرورة صياغتها صياغة موعبة وشاملة يتكامل من خلالها النظر من السنة إلى آفاق البناء الحضاري، وسبل التمكين والنصر والسناء والرفعة، حيث العمل للآخرة، في أمن الدنيا.

ومن التوصيات: جمع الأحاديث الواردة في الفتن ودراسة المحاذير الواردة

فيها، ومظاهر الفساد والمفاسد، التي استشرفها النبي ﷺ، وكذا المبشرات، ثم التدابير الوقائية التي ذكرت في ثنايا الأحاديث الخاصة بتلك المكاره، والمبشرات. وكذا ما يستفاد منه، لرسم خطط الوقاية منها، والإعداد للريادة، بدل تشقيق الكلام في البحث في مصاديقها.

وجمع القضايا التي تميز الأمة الإسلامية مما ذكره النبي ﷺ، باعتبارها قوانين ثابتة وضمانات، مثل ما دلت عليه أحاديث الزكاة من وجود الاكتفاء ضرورة إذا أحسن التدبير، والأحاديث التي تؤكد وجود بطانتين لدى الحاكم، وأحاديث عدم وجود جفاف عام في أمة الإسلام. والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- إرواء الغليل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٥هـ.

- إصلاح المال، ابن أبي الدنيا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ.

- التعريفات، الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي- بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

- التمهيد أبو عمر بن عبد البر، تحقيق: سعيد أعراب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية.

- الجامع الصحيح، البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري مع فتح الباري، أحمد بن علي بن حجر، تحقيق: ابن باز، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ

- الجامع، الترمذي أبو عيسى، مع شرح تحفة الأحوذي محمد عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ.

- ذم الثقلاء، محمد بن إسحاق، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن.

- السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين، المكتب الإسلامي.

- السنن، أبو داود، سليمان بن الأشعث مع شرح عون المعبود محمد شمس الحق العظيم آبادي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر ، ط٣، ١٣٩٩هـ.

- السنن، ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني، دار الفكر.

- السنن، النسائي، أحمد بن شعيب مع شرح السيوطي عبد الرحمن بن

الكمال، دار الفكر، ١٤١٥هـ.

- السنة لابن أبي عاصم عمرو بن أبي عاصم، تحقيق: ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٠هـ.

- السنن الواردة في الفتن، عثمان بن سعيد الداني، دار العاصمة، ط١، ١٤١٦هـ.

- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: عمر العمروي، دار الفكر، ط١، ١٤١٧هـ.

- صحيح سنن ابن ماجة، الشيخ ناصر الألباني، مكتبة المعارف للنشر-الرياض، ط٤، ١٩٩٧م / ١٤١٧هـ.

- الصحيح، أبو حاتم ابن حبان، بترتيب بلبان علاء الدين، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٨هـ.

- صحيح الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني – والجامع الصغير لعبد الرحمن السيوطي-، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٨هـ.

- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج مع شرح النووي يحيى بن شرف النووي، مراجعة: خليل الميس، دار القلم.

- العزلة، حمد بن محمد الخطابي، المطبعة السلفية، ط٢، ١٣٩٩هـ

- الفتن، نعيم بن حماد، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع -بيروت، ١٩٩٣م-١٤١٤هـ.

- لسان العرب، جمال الدين بن منظور، دار صادر، ط٦، ١٤١٧هـ.

- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية-بيروت، ط١، ١٩٩٦م-١٤١٦هـ.

- مداراة الناس، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٨هـ.

- المستدرك، الحاكم محمد بن عبد الله، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ.

- المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١م-١٤٢١هـ.

- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

- النهاية في غريب الأثر، مجد الدين بن الأثير، تحقيق: محمود الطناحي وطاهر الزاوي، دار الفكر.

- النهاية في الفتن والملاحم، عماد الدين ابن كثير، تحقيق: الأستاذ عبده الشافعي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- النسخة الإلكترونية الثالثة للموسوعة الشعرية.

نصوص قواعدية في السنة النبوية لإدارة الأزمات عرضا وتطبيقا

د. يحيى بلال
جامعة الطائف
باحث بمعلمة زايد للقواعد الفقهية والأصولية سابقا – السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبةُ للمتقين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد المبعوث رحمةً للعالمين، الذي أُوتي جوامعَ الكلم ونوابغَ الحِكم وسماحةَ الدِّين؛ وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فإن موضوع إدارة الأزمات يُعدّ من الثغور الفكرية التي تُلقِّح العقل وتُمدّه بنضج فكري وتوقِظه من سُبات الخمود والجمود؛ ذلك أن الأزمة هي لحظةُ صدقٍ للإنسان مع نفسه، ومع خالقه، ومع البيئة التي يعيش فيها بمتغيراتها المختلفة، فما إنْ تقعُ -أو تكون على خطر الوقوع- إلا وينبعث العقل للتفكير العميق الجادّ في أسبابها وسُننها الإلهية التي أوجدتْها، ومن ثَمّ التفكير في حلّها عن طريق الأخذ بتلك السنن والأسباب نفسها، لا عن طريق انتظار حدوث الخوارق والكرامات.

وعلى الرغم من كون هذا الموضوع يُعدّ أحدَ المفاهيم الإدارية الحديثة نسبياً، فإن أصوله موجودة في التراث الإسلامي، فمثلاً: إن دراسة كيفية إدارة النبي ﷺ للأزمات التي مرّت به، سوف تكشف للباحث عن أصولٍ منهجية عديدةٍ لهذا الموضوع، سَبَقت بها مصادر السنّة النبوية والسيرة العطرة[1].

وانطلاقاً من هذا المحور، أُلِّف هذا البحث بعنوان «نصوص قواعدية من السنة النبوية لإدارة الأزمات، عرضاً وتطبيقاً»، ليكشف عن نموذجٍ لتأصيل السنة

١- ينظر: إدارة الأزمة، مقاربة التراث والآخر د.عبد الله الكيلاني، تقديم الأستاذ عمر عبيد حسنة ص ١٢، ٢٣، ٢٥، ٢٩. وإدارة الأزمات: الوسيلة للبقاء، منى شريف (المقدمة). وإدارة الأزمات في حياة الدعاة لمحمد بن علي شماخ ص ٢.

النبوية لمبادئ هذا الموضوع وعناصره.

إن هذا الموضوع تناوله غيرُ واحد من الباحثين من خلال بعض العناوين الآتية:

- إدارة الأزمات في علم الإدارة المعاصر وانعكاساتها في السنة النبوية، للدكتور مشعل الحداري.
- إدارة الأزمات الاقتصادية، مواقف من حياة الرسول ﷺ، للدكتور حسين حسين شحاتة.
- إدارة الأزمات، مقاربة التراث والآخر، للدكتور عبد الله إبراهيم الكيلاني.
- إدارة الأزمات من منظور إسلامي، للدكتور أحمد بن عبد الله الزهراني.
- نحو نموذج إسلامي لإدارة الأزمات، لمحمد عاصم شقرة.
- إدارة الأزمات في التشريع الإسلامي لرضا عبد الحكيم رضوان.

فتلك العناوين السابقة وإن كان أصحابها تناولوا فيها الموضوع من خلال السنة النبوية، كما لاشك أنهم تطرقوا فيها إلى بيان أن أصول هذا الموضوع وجذوره موجودة في السنة النبوية، إلا أن الأمر الجوهري الذي يهدف إليه هذا البحث، هو عرض الموضوع من خلال نصوص السنة النبوية (عرضاً قواعدياً)، ولذلك اختيرت فيه نصوص من السنة النبوية، كلُّ نص منها جاء في (صيغة قاعدية) دالة على فكرةٍ تتعلق بإدارة الأزمات، وجُعلت تلك (النصوص القواعدية) منطلقاً لعرض الموضوع نظرياً وتطبيقياً. هذه هي الميزة الجوهرية التي يبدو أنها من الجديد الذي يختلف فيه هذا البحث عن غيره من بحوث هذا الموضوع، لأنه لا يهدف إلى مجرد إبراز أصالة الموضوع في السنة النبوية، فذلك موجودٌ من قبلُ،

وإنما يهدف إلى عرض صيغ تقعيدية من السنة النبوية في الموضوع.

وبناء على ما سبق، فقد اختيرت في البحث سبعُ قواعد من السنة النبوية لإدارة الأزمات، مع عرض تطبيقاتها من السنة النبوية، وذلك في قسمين رئيسين:

- **القسم الأول: قواعد من السنة النبوية لإدارة الأزمات**. وهو عرض نظري لسبع قواعد حول هذا الموضوع.
- **القسم الثاني: شواهد تطبيقية من السنة النبوية لإدارة الأزمات**. ويحتوي على سبعة مباحث، كلُّ مبحث يختص بتطبيقات قاعدةٍ واحدة من القواعد السبع.

أما الخطة العامة للبحث، فهي كالتالي:

- وضع عنوان لكل عنصر، مكوّنٍ من النص الحديثي الذي اختير للدلالة عليه، ثم تذييله - في داخل العنوان نفسه- بعنوان الفكرة التي يدل عليها ذاك النص، من أفكار إدارة الأزمات.
- في القسم الأول، عُرضت النصوص الحديثية عرضاً نظرياً، يُوضِّح دلالتها على الفكرة التي اختير النص من أجلها، من أفكار إدارة الأزمات.
- في القسم الثاني، اختيرت شواهد من السنة النبوية، تُعبِّر عن تطبيقاتٍ لإدارة أزمات تلك النصوص القواعدية نفسها والتي سبقت في القسم الأول.

هذا ومما يجدر ذكرُه أن غاية هذا البحث، تقديم نموذج لِما في السنة النبوية من (تأصيل قواعدي) لموضوع إدارة الأزمات، على غرار ما اشتهر من نصوص السنّة القواعدية في موضوعات أخرى، مثل «إنما الأعمال بالنيات» و «لا ضررَ ولا ضِرارَ» و«الخراج بالضمان» و «البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر».

ومن أجل ما ذُكر، فقد روعي في اختيار النصوص الحديثية هنا، أن تكون أقربَ ما تكون للسّمة القواعدية، وإلا فهناك نصوص أخرى قد تكون أصح وأقوى إلا أنها لم تأتِ على شاكلة الصيغ القواعدية المطلوبة في البحث.

كما يحسن التنبيه إلى أنه قد استُفيد في البحث من كتاباتٍ عديدة منشورة على الإنترنت، لكن لم يُعزَ إليها في داخل البحث؛ وإنما اكتُفي بذكرها في (قائمة المصادر والمراجع) مع الإحالة إلى مواقعها الإلكترونية.

وختاماً، أسأل الله أن يُيسِّر لنا الآخِرة والأولى، وأن يُيسِّرنا لليُسرى ويُجنّبنا العُسرى، والحمد لله رب العالمين.

القسم الأول: قواعد من السنة النبوية لإدارة الأزمات.

تمهيد:

في هذا القسم عرضٌ نظريٌّ للقواعد التي أُخذت من نصوص السنة النبوية لموضوع إدارة الأزمات، والتي بُني هذا البحث عليها، وهي كما يلي:

- **القاعدة الأولى**: لا عقلَ كالتدبير؛ التفكير أساس التخطيط للأزمات.
- **القاعدة الثانية**: لا تستشرفوا البليّة؛ التفكير الإيجابي في الأزمات.
- **القاعدة الثالثة**: ليس الشديد بالصُّرَعة؛ الضبط والتحكم في الأزمات.
- **القاعدة الرابعة**: ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أَيْسَرَهُما؛ مرونة التفكير في حال الأزمات.
- **القاعدة الخامسة والسادسة**: ما خاب من استخار ولا ندم من استشار؛ الاستشارة والاستخارة في الأزمات.

- **القاعدة السابعة**: الدعاء سلاح المؤمن؛ الدعاء تدبير وقائي للأزمات.

أما المنهج العام لعرض هذه القواعد، فكما يلي:

- استهلال كل قاعدة بالنص التقعيدي الذي اختير لها، مع كتابة النص بخط مكبّرٍ بارز ليتركز نظرُ القارئ عليه من أول وهلة، وينسجم فكره مع السِّمة القاعديةً التي قُصد إبرازها في اختيار ذاك النص. وقد رُوعي في اختيار تلك النصوص، أن تكون دالةً -من قريبٍ أو بعيدٍ- على أفكار إدارة الأزمات.
- عزو تلك النصوص (في الهوامش) إلى مصادرها الحديثية، باختصارٍ يفي بالغرض في مثل هذا المقام. وفيما يتعلق بالكلام على تلك النصوص وبيان درجتها، اقتُصر على ما يكفي في مثل هذا المقام. وقد جاءت بعض النصوص ضعيفةً، لكن بُيِّن في التعليق عليها أن ضعفها ينجبر بما يقوِّيها من الشواهد الأخرى.
- التعليق على النص بما يُوضِّح اشتماله على المعاني التي تتعلق بالفكرة التي اختير هذا النص لها، من أفكار إدارة الأزمات. وقد استُفيد في ذلك مما ألمح إليه الباحثون المعاصرون الذين تناولوا هذا النص من محور الموضوع نفسه المتعلق بإدارة الأزمات.

هذا، وبعد أن ينتهي هذا القسم، سوف تُعرض - في القسم الثاني - شواهد تطبيقية لهذه القواعد من السنة النبوية. وبذلك يتم الترابط بين قِسمَي البحث (النظري والتطبيقي).

القاعدة الأولى: لا عقلَ كالتدبير؛ التفكير أساس التخطيط للأزمات.

«لا عقلَ كالتدبير»[1]: هذا نص من مأثورات الحِكم وجوامع الكلم[2]، وهو يعبّر عن عنصر جوهري في التخطيط، ويُعدّ أساساً ومنطلقاً له بعامّة، ومن ثَمّ لإدارة الأزمات بخاصّة، وهو عنصر (التفكير)، وذلك من خلال مدلول لفظ «التدبير» الوارد في الحديث، فإنه يعني: التفكير في عواقب الأمور عموماً وما يترتب عليها من نتائج وآثار، فيؤدي ذلك إلى التأني والتثبت في الإقدام أو الإحجام[3].

إن (مبدأ التخطيط) عموماً في كافة جوانب الحياة، ينطلق من عنصر (التفكير) الذهبي؛ إذ إنه يحمل الإنسانَ على النظر في واقعه الحالي، ومن ثَمّ التخمين والتقدير بما سيكون عليه المستقبل، والسعي لتحقيق:ه والاستعداد لمواجهته.

ويؤيد هذا الذي قلناه من دور التفكير في عموم التخطيط وأنه منطلق أساسي له، أنه أبرِز هذا العنصر ونُص عليه بخصوصه في بعض تعريفات التخطيط، مثل قول بعضهم: التخطيط بشكل عام هو: عمل ذهني يعتمد على التفكير العميق والرؤية الصائبة التي يستخدمها المخطط في رؤية حاضره ومواجهة مستقبله.

وإذا كان عنصر التفكير هو الانطلاقة للتخطيط لأي أمر في الحياة، فلا شك

١- أخرجه ابن ماجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه ٢: ١٤١٠، وإسناده ضعيف كما في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبوصيري ٤: ٢٤٠. وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٢: ٧٦-٧٩ بإسناد آخر ضمن حديث طويل لأبي ذر رضي الله عنه، لكن إسناده أيضاً ضعيف جداً كما قاله محققه الشيخ شعيب الأرناؤوط، ولكن ابن حبان أخرج في موضع آخر من صحيحه ٢: ١٩٤، جزءاً من هذا الحديث الطويل بدون إيراد هذه الجملة فيه وهي "لا عقلَ كالتدبير"، وإسناد هذا الطريق جيد كما قاله ابن الملقن في البدر المنير ٦: ٧٤٢، وقال الشيخ شعيب عنه: حديث صحيح.
فيظهر أن الحديث ينجبر ضعفه لا سيما بالطريق الجيد لابن حبان، هذا بالإضافة إلى أن للحديث شاهداً حَسَناً من حديث «اعقلها وتَوَكّلْ» الآتي في التعليق على النص.

٢- أورده صاحب كنز العَمال ١٦: ٤٧ رقم ٤٤١٣٦ في (كتاب المواعظ والحكم- الباب الثالث في الحكم وجوامع الكلم)، وكذا اختاره الشيخ ابن سعدي في كتابه بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (الحديث السبعون).

٣- ينظر التعريفات للجرجاني ص ٧٦ (معنى "التدبير").

في أنه يكون من الركائز الأساسية في مواجهة الأزمات أيضاً، لأن التفكير يُعد بمثابة الشرارة التي تُحفّز قوى الإنسان الذهنية لمواجهة الأزمات والاستعداد لها؛ إما بالتفكير في تجنبها وعدم مواجهتها ابتداءً، أو بالبحث عن حلول للخلاص والنجاة، والخروج منها بنجاح على فرض مواجهتها.

وبناء على ماسبق، فإن هذا النص يؤكِّد أهمية عنصر التفكير في إدارة الأزمات، بالنظر في عواقبها والحيلولة دون وقوعها، أو التقليل من أضرارها وخسائرها.

ومما يؤيِّد مضمونَ هذا النص، حديثُ: «اعْقِلْها وتَوَكَّلْ»[1]، الذي يدل على التدبير من خلال التخطيط للأزمة والاستعداد للتعامل معها من قبل وقوعها.

ومن البلاغة في لفظ «التدبير»، أن هذا اللفظ يجمع في طيّاته صفات (التفكير الإبداعي) المطلوب للنجاح عموماً، والمطلوب بخاصة في الحالات الحرجة كإدارة الأزمات، وذلك لأن التفكير المطلوب للنجاح، ليس هو مجرد التفكير السطحي، بل هو التفكير العميق الموصِل إلى نتيجة خيّرة إيجابية حسنة، ليمكن الإقدام عليها باطمئنان وثقة، فلفظُ «التدبير» في النص يعطي هذا المدلول[2]، ولهذا جاء في تفسير الحديث عند بعض الشرّاح، أن معناه: لا عقلَ كالعقل الذي يصحبه التدبير، وهو الذي ينظر في دُبُر الأمر وعاقبته، وفي المصالح من المفاسد، ويميِّز ما يُحمد ويُذمّ في الآخرة[3].

١- أخرجه ابن حبان ٢: ٥١٠ من حديث عمرو بن أمية الضمري قال: قال رجل للنبي ﷺ: أُرسل ناقتي وأتوكل؟ قال: "اعْقِلْها وتَوَكَّلْ". قال الشيخ شعيب: حديث حسن. وعزاه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٢: ١١٣١ (٤٠٩٧) لابن خزيمة والطبراني بإسناد جيد من حديث عمرو بن أمية الضمري بلفظ"قَيِّدْها". وينظر مجمع الزوائد ١٠: ٣٠٣.

٢- جاء في فيض القدير ٦: ٤٣٥ في بيان معنى"التدبير": أنه التثبت والنظر في جميع ما يَرِدُ على العقل من الخواطر. وفي التعريفات للجرجاني ص ٧٦ "التدبير: النظر في العواقب بمعرفة الخير". وقال قبل ذلك مفرِّقاً بين (التدبر) و(التفكر): "التدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر إلا أن التفكر تصرف القلب، والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب بمعرفة الخير".

٣- مرقاة المفاتيح للملا علي القاري ٩: ٢٦٣.

وختاماً، فإن هذه القاعدة إذا كانت تُعبر عن أصل مبدأ التفكير ومدى ضرورته في إدارة الأزمات والتخطيط لها، فمن مكمّلات ذلك أن يكون الشخص صاحبَ تفكير إيجابي في عموم أموره، وبخاصّة في حال الأزمات، ليَصِل إلى هدفه المنشود في التخلص من الأزمة والخروج منها بنجاح؛ ولهذا كان عنصر (التفكير الإيجابي) مبدأً حيوياً آخَرَ استقرت كلمة خبراء علم إدارة الأزمات على أهميته فيها. وهذا ما يتناوله البحث في القاعدة الثانية.

القاعدة الثانية: لا تَسْتَشْرِفُوا البَلِيّة؛ التفكير الإيجابي في الأزمات.

«لا تَسْتَشْرِفُوا البَلِيّة، فإنها مُولَعَةٌ بمَن تَشَرَّف لها»[١]: هذا النص يُعبِّر عن نمط من التفكير المسمى بـ(التفكير الإيجابي) الذي يُعرف لدى خبراء النجاح بـ(قانون التوقعات)، وله أثر فعال في النجاح في الحياة عموماً، لأنه جزء من التفكير الاستراتيجي المطلوب في التخطيط (بما في ذلك التخطيط لإدارة الأزمات). هذا القانون يعني، أنّ ما نتوقعه أن يحدث، يتحقق الكثير منه؛ إذ يصبح سبباً للاتجاه نحو ما توقّعناه، ولذا فمن المهم أن نتوقع شيئاً ممتازاً[٢].

هذا النمط من التفكير الإيجابي هو الذي يرشد إليه الحديث المشهور: «أنا

١- المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها للخرائطي ص ٩٦ من طريق الثوري عن حماد عن إبراهيم النخعي قال: قال عبد الله بن مسعود: "لا تستشرفوا البليّة، فإنها مُولعةٌ بمن تَشَرَّف لها. إن البلاء مُولعٌ بالكلم...". وأخرجه وكيع في الزهد (ح ٣١٢) قال: حدثنا سفيان (وهو الثوري) عن حماد عن إبراهيم قال: قال عبد الله: "البلاء موكّل بالقول". وكلاهما مرسل، إلا أن مراسيل النخعي قوية معتبرة في الجملة عند بعض أئمة الحديث، وبخاصة ما يُرسله النخعي عن ابن مسعود لا سيما إذا جَزَم في الإرسال عنه كقوله "قال عبد الله بن مسعود" كما في هذا الموضع، فحينئذ يقوى القول بقبول الرواية. يراجع جامع التحصيل للعلائي ص ١٤١. ولهذا صحح الشيخ الألباني هذا النص بإسناد وكيع المذكور آنفا، لأنه مما أرسله النخعي جازماً عن ابن مسعود، كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة ٧: ٣٩٥. وقد اختار الشيخ تصحيح وتحسين مراسيل أخرى أيضا للنخعي الجازمة عن ابن مسعود كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة ١: ٦٤٢ و٢: ١١٦. وبجانب ما تقدم، فحديث ابن مسعود هذا، له شواهدُ صحيحة من السنة كما سيأتي قريبا في قصة الأعرابي الذي أصابته الحمّى. ومما يشهد له أيضا (حديث اللعان) كما يستفاد من فتح الباري ٩: ٤٤٩ و٩: ٤٦٢.

٢- ينظر علم نفس النجاح، برايان تريسي، ترجمة الدكتور عبد اللطيف الخياط ص ١٥- ١٦.

عند ظن عبدي بي»[1]. وفي رواية: «أنا عند ظن عبدي بي، إنْ ظَنَّ خيراً فله، وإنْ ظَنَّ شرًّا فله»[2]. «ففي هذا الحديث المعجز جرعة إيجابية نفسية مذهلة. إنه يقول لك باختصار: إذا أبقيتَ آمالَكَ مُشْرَعةً، ونفسيّتَك منشرحةً، ومزاجَك إيجابياً، وتوقعاتك طيبةً، فإن الله تعالى سيكافئك جزاء هذا العمل... أن ييسِّر الخير لك ويحوِّله إلى واقع في حياتك»[3].

إن هذا المعنى للإيجابية هو الذي يدل عليه نص ابن مسعود رضي الله عنه، الذي اختير هنا ليكون نصاً تأصيلياً يُعبِّر عن هذا المبدأ من التفكير، إذ إنه يرشد المسلم ألاَّ يكون تفكيره سلبياً تشاؤمياً يستشرف الأزمات والبلايا والكوارث، لأنه إن فَعَل ذلك فإن البلايا والأزمات ستقع له حسب توقعه «فإنها مُولَعَةٌ بمن تَشَرَّف لها» أي أن من شَغَل بالَه بها وصارت هاجسَه، وحَصَر تفكيرَه فيها، فإنها ستأتي إليه وتقع له.

ومما يشهد لهذا النص المأثور، نصُّ حديثي آخر مرفوع صحيح، يخبر فيه النبي ﷺ عن فتن ستقع في المستقبل، ويحذِّر من الاستشراف لها بقوله: «ومن يُشرِفْ لها تَسْتَشْرِفْهُ»[4]؛ أي أنّ من تَطَلَّع لها دَعَتْه إلى الوقوع فيها. والتشرُّف: التطلُّع، وأصله مأخوذ من: صعد شَرَفاً أي مُرتفَعاً لينظر إلى شيء ما. فالمعنى: أن من قَرُب من تلك الفتن ونَظَر إليها، نَظَرَتْ إليه الفتن[5].

إن هذا النمط من التفكير، هو الذي يُعبَّر عنه بالنظرة التفاؤلية «وهي طريقة

١- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. صحيح البخاري ٦: ٢٦٩٤ (٦٩٧٠) و٦: ٢٧٢٥ (٧٠٦٦)، وصحيح مسلم ٤: ٢٠٦١ و٤: ٢٠٦٧ و٤: ٢٠٩٩.

٢- صحيح ابن حبان ٢: ٤٠٥ من حديث أبي هريرة. وقال محققه الشيخ شعيب: إسناده صحيح على شرط مسلم.

٣- التغيير من الداخل للدكتور أيمن أسعد عبده ص ٦٩.

٤- صحيح البخاري ٣: ١٣١٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٥- ينظر مرقاة المفاتيح ١٠: ١٣ وشرح النووي لصحيح مسلم ١٨: ٩ وفتح الباري ١٣: ٣١ وعمدة القاري ١٦: ١٣٨.

إيجابية في التفكير» التي كان يحبها النبي ﷺ، وفي مقابل ذلك كان يكره ﷺ التشاؤم، «وهي النظرة السلبية للأمور التي تُوحِي للنفس توقُّع حدوث المكروه وما يخاف منه الشخص في مستقبله»[1]. «وإنما أَحَبَّ ﷺ الفألَ، لأن الإنسان إذا أَمَّل فائدة الله تعالى وفضلَه عند سبب قويٍّ أو ضعيف، فهو إلى خيرٍ في الحال وإن غلط في جهة الرجاء، فالرجاءُ لَه خير. وأما إذا قَطَع رجاءه وأمَلَه من الله تعالى فإن ذلك شرٌّ له، والطيرةُ فيها سوء الظن وتوقع البلاء»[2].

وتنبع أهمية هذا النمط من التفكير في إدارة الأزمات، من جهة أن التفكير في الأزمة بالاتجاه السلبي، يُعدّ أحد الأخطاء الفادحة المتعلقة بالأزمات؛ إذ إن هنالك جوانب إيجابية في الأحداث الحرجة، وهذا أمر مهم ينبغي إدراكه والتعاطي معه.

هذا ومن أهم آثار الإيجابية لدى صاحب التفكير الإيجابي، أنه يكون متصفا بالضبط والتحكم في ردود أفعاله تجاه الأزمة، وبذلك يتمكن من التعرف على الجوانب الإيجابية فيها وتحديد ما ينبغي عمله تجاهها، وإلا فبدون الضبط والتحكم سوف يقع الشخص في أخذ القرارات بتسرع وانفعالية لا تكون في صالح الأزمة. ومن هنا كانت صفة الضبط والتحكم من العناصر المهمة لإدارة الأزمات، وهو ما ننتقل للكلام عليه في القاعدة الثالثة.

القاعدة الثالثة: ليس الشديدُ بالصُّرَعَة؛ الضبط والتحكم في الأزمات.

«ليس الشديدُ بالصُّرَعَة، إنما الشديدُ الذي يملك نفسه عند الغضب»[3]: هذا النص الحديثي التأصيلي يعبِّر عن مبدأ جوهري لا غِنى عنه للنجاح في إدارة الأزمات وحُسن إدارتها والسيطرة على آثارها، وهو ما يسمى بـ(قانون الضبط

١- صحيح البخاري ٥: ٢١٧٨ وصحيح مسلم ٤: ١٧٤٦. وينظر كتاب: زدني علماً، د.أحمد البراء الأميري ص ١٤.
٢- ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٤: ٢١٩.
٣- متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. صحيح البخاري ٥: ٢٢٦٧ وصحيح مسلم ٤: ٢٠١٤.

والتحكم) أو (الاتزان النفسي) أو (الاتزان الانفعالي)[1]. ويعني هذا القانون أنه ينبغي أن لا يتصرَّف المرء الواقع في الأزمة تصرُّفاً انفعالياً يوقعه في فخّ الاستدراج لاتخاذ قرارات ومواقف متسرِّعة بدون أن يَعِي ما يصدُرُ عنه من ردود أفعالٍ لا تكون في صالح حلّ الأزمة، وإنما ينبغي أن يضبط مشاعره حتى يمنح نفسه القدرة على التفكير والتعامل مع الموقف، ويتحول من مرحلة تلقي الحدث إلى مرحلة التعامل مع الحدث؛ وإلا فقد يترتب على عدم التمكن من السيطرة على المشاعر وعدم تجنّبِ الغضب والانفعالِ، التسرعُ في الحكم وسوءُ تقدير العواقب.

ووفقاً لهذا القانون، فإن الإنسان المتصف بالضبط والتحكم لا يكون مثل (برنامج الكمبيوتر) الذي تصدُر عنه ردودُ أفعالٍ هي مبرمجةٌ فيه مسبَقاً لكل ما يُعطى له من أوامر، وإنما يختار ردّة الفعل المناسبة لكل موقف. فهو إذا غَضِبَ -مثلاً- لا ينقلب آليّاً فور لحظة الغضب، فيغدو إنساناً فاحشاً متفحشاً بذيءَ اللسان فاقداً التحكّم في أعصابه، مما ينعكس على أقواله وتصرُّفاته سلباً، بل إنه يتأنّى ويضبط مشاعره، ويفكّر بإيجابية في التصرف المناسب الذي ينبغي أن يفعله تجاه ما أَغضَبه، ثم يقرر الإقدام على ذلك التصرف برزانة وحُسن رَوِيّة[2].

هذا المعنى الجوهري للضبط والتحكم تفطّن إليه أحد خبراء النجاح المعاصرين وعَبَّر عنه بقوله: بين «الفعل» و «ردّ الفعل»، مساحة، تسمى «الاختيار»، وبصيغة أكثر اختصاراً «هناك فجوة بين المؤثِّر والردّ»[3].

إن ما سبق عرضه عن مبدأ (الضبط والتحكم)، تلخصه هذه القاعدة النبوية

١- ينظر: علم نفس النجاح لبرايان تريسي ص ١٣.

٢- ينظر: التغيير من الداخل للدكتور أيمن عبده ص ٥٩.

٣- ينظر: العادات السبع للناس الأكثر فعالية، لاستيفن كوفي ص ٩٨، والتغيير من الداخل للدكتور أيمن عبده ص ٥٢. يقول استيفن كوفي -وهو قائل هذه العبارات-: "لقد علّمتْني تلك الكلمة فلسفة القرار الذاتي، فبدأتُ أحاول أن أقف في تلك الفجوة عند ما أتعرض إلى المؤثرات، فأنظر إلى المؤثِّر، وأختار ردّة الفعل المناسبة".

في جملة واحدة بليغة: «إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».

ففي هذه الجملة يبيّن النبي ﷺ معنى القوة الحقيقية التي لا يكاد يَلحظها الناس، وهي وثوق الإنسان وإرادتُه في تملك نفسه والسيطرة على انفعالاته وردود فعله عند الغضب، ولهذا جاء في إحدى روايات هذا الحديث: «الصُّرَعَة كلّ الصُّرَعَة، الصُّرَعَة كلّ الصُّرَعَة؛ الرجلُ الذي يَغضب فيشتدّ غضبُه ويحمرّ وجهُه ويقشعرّ شعرُه، فيَصرَع غَضَبَه»[1]. فمن أهم صفات الإنسان الواثق من نفسه أنه لا يعطي من نفسه الفرصةَ لاستيلاء الغضب عليه؛ لأنَّ تحكُّم الغضب من نفس المرء دليل على ضعف نفسه ونقص إرادته، لذا فقد جَعَل الله تعالى من صفات المؤمنين المتقين أنهم يسيطرون على أعصابهم فلا يسترسلون مع غضبهم، فقال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

إن من أهم سمات الأزمة، المفاجأة، وهي عند ما تقع لا يستطيع إلاّ قلةٌ من الناس التعاملَ معها بهدوءٍ ورباطة جأش، ولاشك أن أنجح وسيلة وأسهلها وأرخصها لمواجهة الأزمات، هو الصبر. والصبر يعني كبحَ جماح الغضب، والتصرفَ وفقاً لما يقتضيه الموقف ويقدر عليه المتعرض للأزمة. إنه ضد الغضب والاستعجال وليس استسلاماً للواقع ؛ فعندما يفاجأ الصابر بأيّة أزمة فإنه يبدأ أولاً بمقاومة مشاعره غير المنضبطة، وبعد ذلك يبحث عما يساعده على فهم ما حدث، وبذلك يكون قادراً على تحديد ما ينبغي عمله للتقليل من الآثار الضارة للأزمة، والتعرف على أيّة جوانب إيجابية فيها.

هذا، وإذا كانت صفة (الضبط والتحكم) ركيزةً أساسيةً في التعامل مع الأزمات، فإنها تقود إلى صفة أخرى جوهرية أيضاً في إدارة الأزمات، وهي

١- مسند أحمد ٣٨: ١٩٧ (ط.الأرناؤوط) وأفاد محققه أنه بمجموع طرقه صحيح لغيره.

صفة (المرونة)؛ وذلك لأن الأمر -كما يقول خبراء النجاح- أنه كلما كانت ردودُ أفعالك هادئةً ومتّزنةً، كانت قدرتُك على المرونة في التعامل مع المواقف أعلى، ولهذا قيل: **إن المرونة هي التحكم، فالشخص الأكثر مرونةً في أسلوبه يكون تحكُّمه في الأشياء أكبرَ**. وبهذا يكون الكلام قد تَمَهَّد لعرض ما يتعلق بقاعدة (مرونة التفكير في الأزمات).

القاعدة الرابعة: ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلا اختارَ أَيْسَرَهُمَا؛ مرونة التفكير في حال الأزمات.

ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أَيْسَرَهُمـا[1]: يعبِّر هذا المبدأ الحديثي عن المرونة في التفكير، الذي يُعدّ جزءاً مهما من عناصر (التفكير الاستراتيجي)، وبهذا المعطى نجدُ هذا المبدأ من ضرورات إدارة الأزمات وحلّها، ووجه دلالة الحديث عليه أن كل مشكلة توجد لها حلولٌ متعددة، إلا أن بعض تلك الحلول ربما تكون صعبةً في التطبيق وتؤدِّي إلى إحداث مشكلة جديدة، أو إلى تأزّم المشكلة الواقعة أكثرَ مما كانت عليه من قبلُ، فلو كان الشخص يتمتع بالمرونة الذهنية في تفكيره لوازن -عند إدارته للأزمات- بين الحلول المختلفة، فيختار أسهلَها في حلّ المشكلة، وذلك ما كان يفعله ﷺ بموهبته التفكيرية المَرِنة.

ومما يدل على أهمية هذا المبدأ في التخطيط عموماً، وفي إدارة الأزمات خصوصاً، أن «المفكِّر الذي تسيطر عليه مقولة: (إما هذا وإما هذا)، لن يخرج غالباً بشيء، ولن يستطيع الاستمرار في التفكير، وإنما سيأخذ في النهاية إجازة مفتوحة!»[2]، لذا ينبغي على المخطط أن يكون لديه - منذ البداية بدائل متعددة، وأن يكون هناك احتمال وافتراض لكل موقف، وإلا فإنه سيفشل في أول تغيير يمكن أن يحدث، ذلك لأن ثبات الحال من المحال.

١- صحيح مسلم ٤: ١٨١٤ رقم ٢٣٢٧.
٢- فصول في التفكير الموضوعي لعبد الكريم بكار ص ٣٩.

والمرونة لا تعني اختيارَ أيّ حلٍّ سهلٍ ميسورٍ ولو كان يؤدي إلى التنازل عن المبادئ والقيم الدينية والخُلُقية، فليس هذا من المرونة ولا من الشهامة والرجولة التي يبنيها الدين في شخصية الإنسان المسلم، بل هي تعني أن لا يقتصر الإنسان في فهمه وتعامله على جانب واحد من جوانب الحق لا يتعدّاه إلى غيره من الجوانب، وإنما تكون عنده موهبة الاستجابة العقلية التي تمكّنه من التكيف الإيجابي مع مواقف الحياة المختلفة، سواء أكان هذا التكيف بالتوسط، أم القابلية للتغير، أم الأخذ بأيسر الحلول[1].

ويستخلص مما سبق، أن المرونة هي لُيونةٌ ضمن دائرة الحق؛ أي أنها حركة مفتوحة، إلا أنها مقيدة ومحصورة فيما هو حق وصواب، فهي (حركة وثبات معاً).

وخير مثال محسوس يوضّح مفهوم المرونة هذا، الحبلُ المفتول من الحرير؛ فهذا الحبل يمكن ليّه وطيّه بسهولة كيفما أردت! أمّا نقضُه من أصله، فمن الصعوبة بمكان![2].

ومعنى هذا أن المرونة هي السعة والانفتاح في الأخذ والعطاء لحلول مختلفة (وهو معنى ليّ الحبل الحريري) لكن يجب أن تكون تلك الحلول ضمن الثبات على المبدأ، أما إذا وصل الأمر إلى التخلي والتنازل عنه كلية (وهو معنى نقض الحبل الحريري) فلا يمكن قبوله والأخذ به.

إن ما سبق في توضيح مفهوم المرونة بأنها (ليونة ضمن دائرة الحق)، جاء بإيجاز بليغ في النص الحديثي المذكور، فقد أفادت روايات الحديث أن النبي ﷺ كان يُبدي (المرونة) ما دام الاختيار يقع بين أمور كلها تدور في دائرة الحق والمباح، ففي الصحيحين: «ما خُيِّر رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلا أَخَذ أَيْسَرَهُما ما

١- انظر المرونة للأحمدي ص٣-٤.

٢- ملفوظات حكيم الأمة (باللغة الأردوية) ٤: ٢٠٢ (ملفوظ ٢٦٠).

لم يكن إثماً»[1] «أي ما لم يكن الأسهلُ مقتضياً للإثم»[2]، فإن كان كذلك، فإنه ﷺ كان يطبِّق حينئذ (مبدأ الثبات) الذي هو جزء من المرونة أيضاً، فيختار الأشد[3].

وأخيراً فإنَّ المرونة الذهنية هي «التي تُوجِد للإنسان مساحاتٍ للحركة يوازن فيها بين الخير والشر، وأنواع الخير وأنواع الشر، فيحاول من خلالها النفاذ إلى تحقيق: خيرِ الخيرين ودفع شرّ الشرّين، كما يحدد علاقته بذلك الموضوع وما يمكن تجاوزه منه وما لا يمكن»[4].

هذا، ومن المجالات التي يبرُز فيها الأثر الواضح لتطبيق صفة (المرونة)، مجال (الاستشارة والاستخارة) -الآتي في القاعدة التالية-، وذلك من جهة أن هذين المجالين يعبّران عن أن الشخص الواقع في أزمةٍ ما، والذي يريد الخلاص منها، لن يستبدّ ويستمسك بحلٍّ معيّنٍ بذاته لا يَحيد عنه، وإنما يكون منفتحَ الذهن مرناً لقبول أيّ حلٍّ بديلٍ مناسبٍ يُوفّقً إليه عن طريق الاستشارة أو الاستخارة.

القاعدة الخامسة والسادسة: ما خابَ مَنْ استخارَ، ولا نَدِمَ مَنْ استشارَ. الاستشارة والاستخارة في الأزمات.

«ما خابَ مَنْ استخارَ، ولا نَدِمَ مَنْ استشارَ»[5]: هذا النص يُعبِّر عن مبدأَيْ (الاستخارة والاستشارة) اللذين لا تخفى أهميتهما وأثرهما في الاستشراف

١- صحيح البخاري ٥: ٢٢٦٩ وصحيح مسلم ٤: ١٨١٣. وينظر تبويب النووي في شرح صحيح مسلم ٤: ١٨١٣.

٢- فتح الباري ٦: ٥٧٥.

٣- ينظر فتح الباري ٦: ٥٧٥.

٤- فصول في التفكير الموضوعي لبكار ص ٥٦.

٥- أخرجه الطبراني في الأوسط ٦: ٣٦٥ من حديث أنس رضي الله عنه. وإسناده ضعيف جدا. ينظر مجمع الزوائد ٨: ٩٦ وفتح الباري ١١: ١٨٤ ولكن يشهد له ما ورد من الأحاديث الصحيحة في الاستخارة والاستشارة، مثل حديث الاستخارة المشهور في صحيح البخاري ١: ٣٩١، ومثل حديث "المستشار مؤتمن" أخرجه ابن ماجه ٢: ١٢٣٣ من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه. وصحح إسنادَه البوصيري في مصباح الزجاجة ٤: ١٢٠، وله شاهد عن أبي هريرة عند أصحاب السنن الأربعة.

المستقبلي، تخطيطاً ووقايةً في حدود الإمكان. وكلاهما من الآليات المهمة التي تساعد في إدارة الأزمات بكفاءة، وتُسهِّل مهمة اتخاذ قرار مستقبلي ناجح.

إن القيمة الحضارية للمشورة تكمن في أنها تدبير وقائي لمقاومة أهم الشرور في نفوسنا ونفوس من حولنا، ألا وهو (غفلة الفكر)، فالمشورة تُعبِّر عن يقظة الفكر والخروج من الغفلة، وذلك من أهم مقاييس النجاح في الحياة؛ إذ الغفلةُ هي ترك المشورة، حيث يقود الغرور والإعجاب بالرأي إلى الاستبداد، وعندها فلا شورى ولا حوار، وهو ما يقود إلى الهلاك كما بيّنه الرسول ﷺ بقوله: «ثلاثٌ مُهلِكاتٌ: شُحٌّ مُطاع، وهوى مُتَّبَع، وإعجابُ كل ذي رأي برأيه»[1].

إن مبدأ التشاور هو ما يُعبّر عنه بالانفتاح على الآخرين. وقد تطور هذا المبدأ في الواقع المعاصر، فظهر ما يسمى بأسلوب التشاور المتميز (دِلْفِي)[2]، وهو الذي ينصح أهل الاختصاص بتطبيقه في المؤسسات الإسلامية الكبيرة، مثل إدارات الإفتاء، ومَجْمَعَيْ الفقه الإسلامي في مكة المكرمة وجدة.

هذا، وأما الاستخارة فتأتي أهميتها وقيمتها في نجاح القرار -خصوصاً في الأزمات- من جهة أن (فن اتخاذ القرار) يعد من أهم المهارات الإدارية التي يحتاجها الإنسان في حياته، وبخاصة عند الأزمات. ومن أساسيات هذه المهارة أن الإنسان كلما كانت لديه معلومات أكثر دقة عن البدائل المتاحة لاتخاذ القرار،

١- مسند البزار ١٣: ٤٨٦ وهو بمجموع أسانيده حسنٌ كما في الترغيب والترهيب للمنذري ١: ١٧٤.

٢- ينظر: الدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية لعبد الله بن محمد المديفر ص ١٥٧. وأسلوب (دلْفِي) هو أسلوب استشاري يُعقد في اجتماع غيابي لا يكون أعضاء الاجتماع فيه موجودين وجهاً لوجَه. وتتلخص خطواته في: ١- تحديد المشكلة محل الاستشارة. ٢- تحديد أعضاء الاجتماع من الخبراء وذوي الرأي. ٣- تصميم قائمة الأسئلة عن المشكلة وبدائل حلّها، وإرسالها إلى الخبراء كلٍ على حدة لمعرفة رأيهم. ٤- تحلّل الإجابات الواردة من الخبراء، وتُصنَّف في مجموعات متشابهة، وتكتب في شكل تقرير مختصر. ٥- ثم يُرسل هذا التقرير المختصر للخبراء مرة ثانية لمعرفة ردّ فعلهم بالنسبة لتوقعاتهم عن المشكلة وحلولها. ٦- عند ما تأتي إجابات الخبراء عن هذا التقرير المختصر: تُعاد الخطوة الرابعة مرة أخرى وكذلك الخطوة الخامسة. ٧- ثم تُجمع الآراء النهائية وتُوضع في شكل تقرير نهائي عن أسلوب حل المشكلة بالتفصيل.

فإن ذلك يزيد من نسبة الوصول إلى القرار الصحيح.

والإنسان مهما بلغت قدراتُه العقلية قوةً، وخبراته العملية اتساعاً، فستبقى هناك جوانب مستترة ربما تؤثر في عواقب القرارات. وتلك الجوانب المستترة تجعل الإنسان بحاجة إلى من يعينه في اتخاذ قراراته بعلم أوسع من علمه، وقوةٍ تفوق قوته، وهنا يلجأ المؤمن إلى الله تعالى ذي العلم المحيط والقدرة الكاملة، الذي يعلم جميع ما في مضمون القرار من العواقب الحسنة والسيئة، فيستلهم من الله أن يوفّقه للقرار الصحيح.

وتظهر صلة الاستخارة بالأزمات - تخطيطاً ووقايةً- من جهة:

- أن الاستخارة: استشراف مدروس للمستقبل، فهي تأتي بعد بذل جهود تفكيرية جادّة في اتخاذ القرار، ولهذا فهي تنبئ عن تحمل المسؤولية في اتخاذ القرار. وبهذا يبطل كلام من يظن أن الاستخارة هي هروب من تحمل المسؤولية وتعويدٌ على الاتكالية وتثبيطٌ للقوى العقلية[1].

- ما جاء في دعاء الاستخارة من الجامعية في طلب النتائج الإيجابية والحماية من النتائج السلبية من جميع الجوانب التي يمكن أن يتصورها الذهن البشري (من حيث الدين والدنيا والآخرة والمعاش)[2]، كل ذلك يعطي لدعاء الاستخارة معنى (التخطيط المستقبلي، والتدبير الوقائي للأزمات) بشمولية لا يمكن أن يَصِلَ إليها إلا من أوتي جوامعَ الكلم ﷺ.

وأخيراً، فإذا كانت الاستخارة نوعاً خاصاً من الدعاء للنجاح فيما يُستخار لأجله، والوقاية من أزماته، فإن الدعاء بعمومه سلاحٌ فعّالٌ في مجال الحماية

١- ينظر لما سبق من الكلام عن الاستخارة: مقال "وقفات مع حديث الاستخارة" للدكتور أيمن عبده.

٢- ينظر ألفاظ دعاء الاستخارة في الحصن الحصين لابن الجزري ص ٨٨- ٩٠ ففيها ما يشمل هذه الجوانب كلها.

للإنسان وتحقيق: أمنه، فمهما بلغ العقل البشري من الذكاء والدهاء، فهو عرضة للزلل والإخفاق. وقد تمر بالمسلم مواقف يعجز فيها عن التفكير والتدبير تمامًا، فليس له مخرج منها سوى أن يجأر إلى الله بالدعاء، ليجد له فرجًا ومخرجًا[1]. وهذا ما نأتي عليه من البيان في القاعدة التالية «الدعاء سلاح المؤمن»، وهي القاعدة الأخيرة من قواعد هذا البحث.

القاعدة السابعة: الدعاء سلاح المؤمن؛ الدعاء تدبير وقائي للأزمات.

«**الدعاء سلاح المؤمن**»[2]: هذا النص تعبير بليغ عن كون الدعاء وقاية لدفع الأزمات[3]، «ففيه تشبيه الدعاء بالسلاح الذي يقاتِل به صاحبُه العدوَّ، فإن هذا الداعي كأنه بالدعاء يقاتل ما يعتوره من المصائب، وما يخشاه من سوء العواقب»[4].

قال الإمام الغزالي: «الدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن التُّرس سببٌ لرد السهم، والماءُ سببٌ لخروج النبات من الأرض؛ فكما أن التُّرس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يعتلجان. وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يُحمل السلاح، وقد قال تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾»[5].

١- ينظر كتاب: في السيرة النبوية، قراءة لجوانب الحذر والحماية للدكتور إبراهيم علي محمد أحمد ص ٦٥.

٢- مسند أبي يعلى ٣: ٣٤٦ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وفي إسناده محمد بن أبي حُميد وهو ضعيف، كما في مجمع الزوائد ١٠: ١٤٧. ومن شواهده حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من سرَّه أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليُكثر الدعاء في الرخاء". أخرجه الحاكم في المستدرك ١: ٧٢٩ وقال: حديث صحيح الإسناد. وأقره الذهبي كما قال الشوكاني في تحفة الذاكرين ص ٣٧. وكذلك من شواهده حديث ابن عباس رضي الله عنهما: "تعرَّف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة". مسند أحمد (ط.الأرناؤوط) ٥: ١٩ وقال محققه الشيخ شعيب: إسناده صحيح. ومما يشهد له أيضا حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح مسلم ٤: ٢٠٦٧ "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني".

٣- ينظر: الجواب الكافي لابن القيم ص ٣-٤، وكتاب: كيف تكون مستجاب الدعاء لأمير بن محمد المدري اليمني ص ٣٩.

٤- تحفة الذاكرين للشوكاني ص٣٨ وينظر فيض القدير ٣: ٥٤٠.

٥- إحياء علوم الدين ١: ٣٢٨. والآية هي رقم ١٠٢ من سورة النساء.

قال المناوي: «وللدعاء مع البلاء ثلاث مقامات: أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه، أو يكون أضعف منه فيَقْوَى عليه البلاء فيصاب به العبد لكنه قد يخففه، أو يتقاومان فيَمنع كلٌّ منهما صاحبه. فبَيَّن المصطفى ﷺ بتنزيله (الدعاء منزلة السلاح) أن السلاح يضارَب به لا بحدّه فقط؛ فمتى كان السلاح تاما لا آفة به، والساعد قوي، والمانع مفقود: حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من الثلاثة تخلف التأثير. فإذا كان الدعاء في نفسه غيرَ صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه، أو كان ثمة مانع من الإجابة لم يحصل التأثير»[١].

إنه وإن كان المطلوب من المؤمن أن يلجأ إلى الله في كل حوائجه، إلا أن مواقف الأزمات تكشف عن الضعف الإنساني وتدفع العاقلَ إلى الوقوف بباب الله يطلب العافية ويرجو رحمة ربه، وعند ما يقف الإنسان في إطار ضعفه أمام ذي العزة والملكوت فإنه يعود مليء اليدين بالخير[٢].

لهذا ففتحُ باب الدعاء على العبد عند نزول البلاء مقامٌ جليل؛ إذ لو رجع العبد إلى ربه في أيام الرفاهية لأكرم في وقت نزول المصائب بالرضا، ولكنه لما لم يكن له في أوقات الرفاهية رجوعٌ إليه، ردَّه في حال المصائب والمِحن إلى الدعاء والالتجاء. فالمحروم من يرجع فيما يُبتلى به من المصائب والضروريات إلى العبيد، ويقطع قلبه عن ربه؛ فمصيبته في إعراضه عن ربه أكثر من مصيبته بنزول البلاء عليه[٣].

ومِن جوامع الأدعية النبوية التي تنفع في الوقاية من الأزمات المستقبلية: «اللهم أَصْلِحْ لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأَصْلِحْ لي دنياي التي فيها

١- فيض القدير ٣: ٥٤٠.

٢- ينظر فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء لمحمد الغزالي ص ٧٢-٧٣ واستثمر صراعاتك في تنمية ذاتك ص ١٨٠-١٨١

٣- مستفاد بتصرف من تفسير السُّلمي ص٢٩٦.

معاشي، وأَصْلِحْ لي آخرتي التي فيها مَعَادي، واجعل الحياةَ زيادةً لي في كل خير، واجعل الموت راحةً لي من كل شر»[1]. وكذلك قوله ﷺ: «دعوات المكروب: اللهم رحمتَك أرجو، فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عينٍ وأَصْلِحْ لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت»[2].

فحريٌّ بكل من أَشكَل عليه أمرٌ أو حارَ في اتخاذ قرار في شأن من شؤون حياته، ونشأ صراع في داخله نتيجة ذلك، أن يلجأ إلى الله بهذا الدعاء، عسى أن يفرّج الله كربته ويزيل ما اعتراه من هم، ويلهمه اتخاذ القرار الصحيح، ويهيئ له السبيل لما فيه الخير، ويصرف عنه ما فيه شر في دينه ودنياه[3].

وبالجملة، فالدعاء فعلٌ وفاعلية، وليس سلاحَ العاجز وتكريساً للعجز، ذلك أن الدعاء يُغذِّي الإيمان بأن مع العسر يسراً، وذلك يصل بالإنسان إلى الأمل والرجاء، ويَشحذ فاعليّته وهمّته للصمود والقدرةِ على المواجهة المستندة إلى بارئ الكون صاحب القدرة المطلقة على الهداية إلى الحلّ، ويحُول دون السقوط والانكسار أمام الأزمة، بل يؤدي إلى القدرة على تجاوزها، والارتقاء والمناعة المستقبلية[4].

وأخيراً، فمن عجيب أمر «الدعاء»، أنه مع كونه سلاحاً عزيزاً لا يملكه إلا المؤمنون، فقد تنبّه له -في الوقت الحاضر- خبراءُ النجاح من غير المؤمنين، وصاروا يتنادون به واللجوء إليه لدفع الأزمات والشدائد[5].

١- صحيح مسلم ٤: ٢٠٨٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٢- سنن أبي داود ٤: ٣٢٤ من حديث أبي بكرة رضي الله عنه. وإسناده حسن كما في مجمع الزوائد ١٠: ١٣٧.
٣- ينظر: استثمر صراعاتك في تنمية ذاتك ص ١٨١-١٨٢ والوسائل المفيدة للحياة السعيدة لابن سعدي ص ٨-١١.
٤- ينظر: تقديم الأستاذ عمر عبيد حسنة لكتاب إدارة الأزمة للدكتور عبد الله الكيلاني ص ١٣ و٢٤.
٥- ينظر: كيف تكون مستجاب الدعاء لأمير بن محمد المدري ص ٧، و"دَعْ القلق" لديل كارنيجي ص ١٤٠-١٤٦.

القسم الثاني: شواهد تطبيقية من السنة النبوية لإدارة الأزمات.

تمهيد:

بعد أن تقررت -في القسم السابق- مجموعة من القواعد المأخوذة من نصوص السنة النبوية لموضوع إدارة الأزمات، سوف تُعرض في هذا القسم شواهد تطبيقية لتلك القواعد.

وهذه الشواهد مأخوذة أيضا من الوقائع الواردة في كتب السنة النبوية، والتي سيتبين من خلالها صلة تلك القواعد السبع بموضوع إدارة الأزمات، وبذلك تعزِّز الشواهد من أهمية القواعد وقيمتها، وتنقلها من حيز التنظير إلى ميدان التطبيق العملي المتصل بالواقع.

وقد عُرضت هذه الشواهد في سبعة مباحث، كلُّ مبحث يختص بتطبيقات قاعدة من القواعد السبع، وذلك على النحو الآتي:

- المبحث الأول: شواهد تطبيقية لقاعدة: التفكير أساس التخطيط للأزمات.
- المبحث الثاني: شواهد تطبيقية لقاعدة: التفكير الإيجابي في الأزمات.
- المبحث الثالث: شواهد تطبيقية لقاعدة: الضبط والتحكم في الأزمات.
- المبحث الرابع: شواهد تطبيقية لقاعدة: مرونة التفكير في حال الأزمات.
- المبحث الخامس: شواهد تطبيقية لقاعدة: الاستشارة في الأزمات.
- المبحث السادس: شواهد تطبيقية لقاعدة: الاستخارة في الأزمات.
- المبحث السابع: شواهد تطبيقية لقاعدة: الدعاء تدبير وقائي للأزمات.

أما منهج عرض الشواهد، فعلى النحو الآتي:

- وضع عنوان لكل شاهد يكشف عن كونه تطبيقاً للقاعدة التي اختير هذا الشاهد من أجلها.

- إيراد الشاهد من كتب السنة النبوية إما نصاً، أو مضموناً.

- التعليق على الشاهد بما يبيّن صلته بالفكرة المتعلقة بإدارة الأزمات التي من أجلها سيق هذا الشاهد.

المبحث الأول: شواهد تطبيقية لقاعدة: التفكير أساس التخطيط للأزمات.

إن سيرته ﷺ -ما قبل بعثته أيضا-، تدل على أنه ﷺ «كان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظًا وافرًا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة»[1]. ولا يتسع المجال هنا لسرد شواهد تتعلق بموهبة التفكير لديه ﷺ في حياته -عموماً-، وإنما يمكن الاجتزاء ببعض الشواهد المهمة التي تلتقي مع جوهر موضوع البحث، وهو التفكير المتعلق بالتخطيط وإدارة الأزمات. فمن ذلك ما يلي:

١- عدم إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم عليه السلام: نموذج للتفكير في عواقب الأزمة.

ورد في الحديث الصحيح المشهور أن النبي ﷺ كان يتمنى أن لو يَنقُضَ الكعبةَ ويبنيها من جديد على قواعد إبراهيم عليه السلام[2]، لكنه ﷺ عَدَل عن ذلك، لأنه نظر إلى أن عاقبة هذا التصرف والنتيجة المترتبة عليه ستؤدي إلى أزمة، وهي إثارة التشويش على الناس، واضطرابهم، ودخول الشك إلى بعضهم، فاجتنب ﷺ هذا التصرف حين خاف ما يترتب عليه من المفسدة مستقبلاً.

١- الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري ص ٧١-٧٢.

٢- وهو ما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: "لولا حداثةُ عهد قومك بالكفر لنقضتُ الكعبة ولجعلتُها على أساس إبراهيم" الحديث. صحيح البخاري ٢: ٥٧٤ وصَحيح مَسلم ٢: ٩٦٨واللفظ له.

هذا التصرف من النبي ﷺ، لا يخفى أنه لم يصدر إلا بعد تفكيرٍ عميقٍ واعٍ لملابسات الأحداث والظروف القائمة آنذاك، التي رأى فيها ﷺ بفكره الاستراتيجي أن أي تغيير فيها سيؤدي إلى نفرة قلوب قريش[١] (وذلك سيؤدي إلى أزمة مستقبلية)، ولهذا رأى أن الحكمة هنا هي إبقاء ما كان على ما كان، رعايةً لقلوبهم[٢].

٢- حَلّ مشكلة وضع الحجر الأسود: موهبة التفكير لتجنب مخاطر الأزمات[٣].

هذا الحدث مشهور في السيرة النبوية، وخلاصته أن قريشاً قامت بتجديد بناء الكعبة قبل بعثة النبي ﷺ، وهو يومئذ شاب (عام خمس وثلاثين من مولده)، فلما بلغ البنيانُ موضعَ الحجر الأسود تشاجروا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واشتد النزاع حتى كاد يتحول إلى حربٍ ضروسٍ في أرض الحرم، ثم تشاوروا واتفقوا على أن يضعه أوّلُ مَنْ يدخل من بابٍ المسجد (باب بني شيبة)، فكان أوّلَ داخلٍ هو النبي ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهمٍ أخبروه الخبر، فطلب رداءً فوضع الحجر في وسطه، ثم طلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسك كل منهم بطرف من الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا بلغوا به موضعه، وَضَعه هو ﷺ بيده[٤].

هذا الحدث ينبئ عن اكتمال نضج التفكير لديه ﷺ؛ إذ استطاع في غضون لحظات (لا تتجاوز مدة دخوله من باب المسجد إلى إبلاغه بخبر الواقعة) أن يصل إلى الحل الحصيف الذي رضي به القوم كلهم، وخلّصهم من الأزمة التي كانوا وقعوا فيها[٥].

١- كما في رواية للحديث نفسه: "ولولا أن قومَك حديثٌ عهدُهم في الجاهلية فأخاف أن تُنكر قلوبُهم، لنظرتُ أن أدخل الجَدْرَ في البيت وأن ألزِق بابَه بالأرض". صحيح البخاري ٢: ٥٧٣ وصحيح مسلم ٢: ٩٧٣ واللفظ لَه.

٢- ينظر فتح الباري ٣: ٤٤٤ و٤٥٧.

٣- ينظر الرسول ﷺ لسعيد حوّى ص ٢٠٦ (قدرته الكاملة ﷺ على حل المشاكل الطارئة).

٤- المستدرك ١: ٦٢٨ وصححه على شرط مسلم. وينظر عمدة القاري ٩: ٢١٧ والرحيق المختوم ص ٧٠.

٥- ينظر الرسول ﷺ لسعيد حوّى ص ٢٠٦، والأساس في السنة وفقهها، له أيضاً ١: ١٧٥ (فصل في رجاحة عقله ﷺ...).

إن هذه السرعة في اتخاذ القرار تُسمّى بسرعة البديهة، وهي جزء مهم من عناصر التفكير الاستراتيجي، وتعتمد على الإحساس المُرهَف وليس على المعلومات في التفكير واتخاذ القرار.

لقد أَثبَت الرسول ﷺ بإدارته لهذه الأزمة (كما يمكن أن يسمى باللغة المعاصرة): «**إن دعم السلام وتجنُّب مخاطر الحرب لا يحتاج إلى القوة الحربية، بل يلزمه ذهنٌ ثاقب**»[1].

المبحث الثاني: شواهد تطبيقية لقاعدة: التفكير الإيجابي في الأزمات.

في السنة المطهرة –على صاحبها الصلاة والسلام- روائع من تطبيقات هذا المبدأ، وفيما يلي بعضها:

١– حديث بدء الوحي[2]: التفاؤل بحُسن عاقبة الأزمات.

هذا الحديث المشهور يُعدُّ من أبرز الأمثلة على التوقع الإيجابي في الأزمات، وذلك من جهة ما حصل للنبي ﷺ من فزع بسبب هذه الحادثة، وما كان من الموقف الإيجابي الرائع لخديجة رضي الله عنها في التعامل معها، والذي تمثل في كلماتها البليغة التي دلت على «كمالها وجزالة رأيها وقوة نفسها وثبات قلبها وعظَم فقهها»[3]، وهي قولها: «والله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لَتَصِلُ الرَّحِم، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتَحمِلُ الكَلَّ، وتكسِب المعدوم، وتَقْرِي الضيفَ، وتُعين على نوائب الحق»[4].

١- رحمة للعالمين ﷺ (باللغة الأردوية) للقاضي محمد سليمان المنصور فوري، ترجمة د. سمير إبراهيم ص ٢٩.

٢- صحيح البخاري ١: ٤ وصحيح مسلم ١: ١٤١.

٣- شرح النووي على صحيح مسلم ٢: ٢٠٢ وطرح التثريب ٤: ١٨٢.

٤- صحيح البخاري ٤: ١٨٩٤ وصحيح مسلم ١: ١٤١واللفظ له. وفي لفظ آخر لهما: "أَبْشِرْ فو الله لا يخزيك الله أبداً".

قال ابن بطال: وقولها: «كلا والله، ما يخزيك الله أبدًا، إنك لَتَصِلُ الرَّحِم، وتَحمِلُ الكَلَّ» إلى آخر الحديث، إنما هو قياسٌ منها على العادات والأكثرِ في الناس: في حُسن عاقبة مَنْ فَعَل الخيرَ[١].

٢- الرحلة الدعوية إلى الطائف: النظرة التفاؤلية لمستقبل الأزمة.

هذه الرحلة أيضاً من أروع نماذج التفكير الإيجابي. ففيها أنه ﷺ لما خرج إلى الطائف سنة عشر من النبوة رجاء أن يجد هناك أرضا خصبة للدعوة، ولكنه قُوبل بأشد مما كان يلاقي في مكة، فرجع من هناك وقد أَخَذ الهمُّ منه كل مأخذ، فأَرسَل الله تعالى إليه مَلَك الجبال يقول له: يا محمد إن الله قد سمع قول قومكَ لكَ، وأنا مَلَك الجبال، وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرك فما شئتَ. إن شئتَ أنْ أُطْبِق عليهم الأخشبَين[٢].

هنا، في مثل هذا المشهد البائس الذي لا يُبشِّر بأي أمل في مستقبل هؤلاء الذين فعلوا هذه الأفاعيل، كان موقف النبي ﷺ في غاية الإيجابية والنظرة التفاؤلية لمستقبل هذه الأزمة، فقد أجاب بقوله: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبُد اللهَ وحده لا يشرك به شيئاً»[٣]. إنه جواب كله تفاؤل وأمل، وبُعد نظر، واستشراف عميق للمستقبل[٤].

٣- من قلب رحِم الفتنة -في غزوة الخندق- ينطلق الصوت الكريم بالتفاؤل.

الخوف مدخلٌ للأزمات، وبه يَخترق العدوّ عيوبَنا وضَعفَنا، ولهذا تتأكد

١- شرح صحيح البخاري لابن بطال ١: ٣٨ وينظر شرح النووي على صحيح مسلم ٢: ٢٠٢.

٢- صحيح البخاري ٣: ١١٨٠ وصحيح مسلم ٣: ١٤٢٠ والأخشبان: أبو قبيس وقعيقعان. عمدة القاري ١٥: ١٤٢.

٣- حيح البخاري ٣: ١١٨٠ وصحيح مسلم ٣: ١٤٢٠ واللفظ له. وينظر السيرة النبوية لمحمد أبو شهبة ١: ٤٠١-٤٠٤ والرحيق المختوم ص ١٣١-١٣٣ وص ١٤٢-١٤٤ والتغيير من الداخل ص ٨٣-٨٤.

٤- التفاؤل حياة، لفيصل بن علي البعداني - مجلة البيان، العدد ٢٢٨.

أهمية التحصين ضد الخوف في فترة الأزمة خصوصاً[1]، وهذا ما نلحظه في غزوة الخندق، فلما رأى رسول الله ﷺ ما فيه الناس من البلاء والكرب، وقد نافق ناسٌ كثيرون وتكلموا بكلام قبيح، جَعَل ﷺ يبشّرهم ويقول: «والذي نفسي بيده ليُفرَّجَنّ عنكم ما ترون من الشدة والبلاء، فإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً، وأن يَدفع الله عز وجل مفاتحَ الكعبة، ولَيُهلِكنّ الله كسرى وقيصر، ولَتُنفَقنّ كنوزُهما في سبيل الله»[2].

تلك شواهد تتعلق بما كان عليه الأمر عند النبي ﷺ من التصور الذهني الإيجابي والنظرة التفاؤلية في معمعة الأزمات والوقائع.

وفي مقابل ذلك، فإن عدمَ الرؤية الإيجابية للمستقبل واستشرافَ البلية وتوقّعَ الأزمة يزيد من احتمالية وقوع الأمر في الواقع الخارجي حسب هذا التوقع، ومما يدل عليه: (قصة الأعرابي الذي أصابتْه الحمّى)، وهي على النحو الآتي:

٤- قصة الأعرابي الذي أصابته الـحُمّى: استشراف وتوقع للأزمة.

هذه القصة وقعت لأعرابي أصابتْه الحُمّى، ودخل عليه النبي ﷺ يعُودُه، فقال له: «لا بأس، طَهُورٌ إن شاء الله»، **فقال الأعرابي: قلتَ: «طَهُورٌ»!؟، كلا! بل هي حُــمّى تفور أو تثور، على شيخ كبير تُزيرُه القبور.** فقال النبي ﷺ: «فنَعَمْ إذاً»[3]. ففي هذا الحديث أن الرجل لم يقبل الرؤية الإيجابية التي تضمنتها دعوة النبي ﷺ له، بل ردَّها عليه وتوقَّع بخلاف ذلك رؤيةً سلبيةً لنفسه، فكان الأمر كذلك فعلاً، فقد مات الأعرابي وَفْق ما قاله كما جاء في رواية الطبراني لهذا الحديث، ففيه أن النبي ﷺ قال: «أما إذا أَبيْتَ فهي كما تقول، وما قَضَى الله فهو

١- ينظر إدارة الأزمة، مقاربة التراث والآخر للدكتور الكيلاني ص ١١٤، ١١٧.
٢- سنن البيهقي ٩: ٣١.
٣- صحيح البخاري ٣: ١٣٢٤ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كائن». قال: فما أمسى من الغد إلا ميتاً[1].

المبحث الثالث: شواهد تطبيقية لقاعدة: الضبط والتحكم في الأزمات.

١- قصة صلح الحديبية: تربية مثالية للضبط والتحكم في الأزمات.

إن كل دارس لهذه القصة، يعلم ما أَقدَم عليه مفاوضُ قريشٍ من وضع شروط قاسية في حق المسلمين تثير مشاعرهم غيظاً وحَنَقاً تجاه ما يرونه - في ظاهر النظر- ظلماً وجَوراً واضحاً في حقهم، وبالرغم من ذلك كله فإن النبي ﷺ لَقَّن أصحابَه من خلال الموافقةِ على جميع تلك الشروط بمنتهى الحِلم وضبط النفس -مهما كانت مؤلمةً-؛ لقَّنهم أدبَ ضبط النفس وكبح زمامها وعدم الانجرار وراء ردود الأفعال؛ فصاحبُ المشروع الواثقِ من نفسه ينأى عن أي انزلاق قد يصرفه عن غايته، ولهذا يظهر في هذه القصة بوضوح أنه بقدر ما سَعَتْ قريش لإشعال الفتنة، تَحَلَّى الصف الإسلامي بغاية المتانة والوقار، بنباهةٍ وفطنةٍ خَيَّبتْ مساعي قريش.

لقد كان النبي ﷺ من أشجع الناس، ولكنه كان يراعي موازين القوى ويضبط نفسه في مقابل الطرف المواجِه له، ولم يكن ينجرّ إلى الوقوع في استفزازات تكون عائقاً له عن مبادئه وغاياته السامية من نشر الدين وإعلاء كلمة التوحيد.

٢- رحلة الطائف: موهبة الضبط والتحكم الفريدة لدى النبي ﷺ في الأزمات.

إن رحلة الطائف -التي سبق الحديث عنها- تُعدّ من النماذج الفريدة في تطبيقات صفة (الضبط والتحكم) في الأزمات. فعلى الرغم مما لقيه ﷺ فيها من الأذى، كان في غاية الضبط والتحكم حيث لم يَشْكُ ذلك لأحدٍ، وإنما توجّه بإظهار

١- المعجم الكبير للطبراني ٧: ٣٠٦ وقال الهيثمي في المجمع ٢: ٣٠٧: "وفيه من لم أعرفه". وينظر عمدة القاري ١٦: ١٤٩.

الشكوى إلى الله تعالى وحده قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي...»الخ[1].

ثم بلغت موهبة (الضبط والتحكم) قمة النموذجية والمثالية في هذه القصة، حين بَعَث الله إلى النبي ﷺ مَلَكَ الجبال، ليأمره ﷺ بما شاء من إنزال العقوبة بهؤلاء الناس. «هنا مرّ ذلك الفؤاد العظيم بأعظم اختبار؛ أن يختار ما يُرضي النفس من الانتقام والتشفي، أو أن يَضبطها ويتحكم في ردّة الفعل السريعة، ويتصرف بناء على ما ارتضاه لنفسه من رسالة، وما اختطّه لنفسه من طريق، فكان الاختيارُ العظيم: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبدُ اللهَ وحده لا يشرك به شيئاً»»[2].

المبحث الرابع: شواهد تطبيقية لقاعدة: المرونة في إدارة الأزمات.

من أجلى صور تطبيق المرونة التفكيرية في حال الأزمات، الآتي:

١- صلح الحديبية: المرونة في تقديم تنازلات هامشية في سبيل تحقيق: مصالح كبرى.

إن مبدأ المرونة في هذه القصة ينطلق من أصل قول النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألونني خُطّةً يُعظِّمون فيها حرماتِ الله إلا أعطيتُهم إياها»[3]. هذا القول، قاله النبي ﷺ حين بَرَكتْ ناقتُه فجأةً قبيل الحديبية، وأراد الناس أن يقيموها فألحّت على البروك، فقالوا: خَلَأَتْ القصواءُ خَلَأَتْ القصواءُ (أي بَرَكَتْ من غير علة، وحسبوا أنه بسبب تَعَبها أو أنه من عادتها)[4]، فقال النبي ﷺ: «ما خَلَأَتْ القصواءُ - أي للعلة التي تظنونها - وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حَبَسها حابسُ الفيل»، ثم قال:

١- أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد ٦: ٣٥ وقال الهيثمي: "وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات". وأخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ٩: ١٧٩.

٢- ينظر: التغيير من الداخل ص ٨٤.

٣- صحيح البخاري ٢: ٩٧٤.

٤- ينظر: مرقاة المفاتيح ٧: ٥٥٨ وطبقات ابن سعد ٢: ٩٦.

«والذي نفسي بيده لا يسألونني خُطّةً يُعظِّمون فيها حرماتِ الله إلا أعطيتُهم إياها» ثم زجرها فوثبت. الحديث.

فبروك الناقة فجأةً، يمثِّل أزمةً. والنبيُّ ﷺ عرف أن ذلك لم يحدث بغير سبب، وإنما وراء ذلك حِكَمٌ ومصالحُ تتعلق بما هو قادمٌ عليه من دخول مكة، ولهذا أعلن فوراً إعلاناً يتّسم بالمرونة، وهو أنه مستعد للتفاوض مع قريش في كل ما يريدونه ويطلبونه، ما دام ذلك لا يخرج عن دائرة تعظيم حرمات الله وحرمة بيته الحرام (وهذه هي المرونة مع الثبات على المبدأ).

وقد أبدى النبي ﷺ غاية المرونة، عند ما كان يوافق بأَرْيَحيّة تامة وبهدوء وسكينة، على كل ما كانت تطلبه قريش من البنود والشروط، لأنه ﷺ رأى بنور النبوة أنها تنازلات هامشية في سبيل تحقيق: مصالح ذات أثر أكبر[٥].

إن المرونة في هذه الواقعة، تكشف عن إحدى مهارات إدارة الأزمة، وهي أن تنفيذ الهدف يحتاج إلى دراسة كُلفته، والموازنة بين المصالح والخسائر المتوقعة منه. ومن المعايير التي تُوضع نصب العين عند إجراء هذه الموازنة: أن الجوهر مقدّم على الشكل، وأن المصلحة ذات الامتداد الزماني والمكاني مقدّمة على المصلحة الآنية[٦].

٢- الهجرة النبوية: المرونة في الاستفادة من الخبرات التخصصية أياً كان مصدرها.

من أعجب نماذج المرونة النبوية في إدارة الأزمات، أن النبي ﷺ استأجر عند هجرته، رجلاً اسمه عبد الله بن أُرَيْقِط الليثي -وكان على دين كفار قريش-، ليستعين بخبرته في الخروج من مكة من طريقٍ آخر سرّيٍّ غير الطريق المعروف

٥- ينظر: إدارة الأزمة، مقاربة التراث والآخر للكيلاني ص ١٠٦.
٦- ينظر: إدارة الأزمة للكيلاني ص ١٠٢، و١٠٦-١٠٧.

المعتاد للمدينة، فقد كان هذا الرجل ماهراً خرّيتاً في معرفة الطرق، وكان مع ذلك مأمونَ الجانب من جهة الغدر بالنبي ﷺ أو إفشاء سرِّه[1].

وهذا يدل على أنه لا حرج في الاستفادة من خبرات المشركين إذا أُمن حالهم، ولم يكن لهم شوكةٌ في التأثير على القرار، وعُرفوا واشتهروا بما يراد منهم، ولم يكن أحدٌ من المسلمين يسدّ هذه الوظيفة، وكانت عاداتهم وتقاليدهم تفرض عليهم الأمانة في أداء تلك المهمة[2].

إن هذا الاختيار للدليل المشرك، رُوعيتْ فيه مهارة الدليل وخبرته بالطرق، بغض النظر عن كونه مسلماً أو مشركاً، لأن القصد هو الاستخفاء، وما كان ذلك ليتحقق إلا برجل ماهر في معرفة الطرق. فقد نَظَر ﷺ في هذا الاختيار إلى الكفاية وحدها، فإذا اكتملت في أحدٍ ولو كان مشركاً استخدمه وانتفع بموهبته. وهذه مرونةٌ في التخطيط لبلوغ الهدف الذي أراده النبي ﷺ[3].

المبحث الخامس: شواهد تطبيقية لقاعدة: الاستشارة في الأزمات.

إن الوقائع التطبيقية لهذا المبدأ في حياة النبي ﷺ كثيرة جدا؛ بل إن ما حوتْه كتب السنة النبوية والسيرة، من تطبيقات هذا المبدأ في الأزمات خاصة، وتحويلها إلى مكاسب للنجاح وفرص للتوفيق، قد يستحق أن يُفرَد ببحث مستقل، لذا سأكتفي هنا بعرض بعض تلك التطبيقات المتعلقة بإدارة الأزمات.

١ - قصة بدء الوحي: نموذج أوّلي يُبرز القيمة الحضارية للاستشارة في الأزمات.

هذه القصة -كما سبق الحديث عنها في موضوع التفكير الإيجابي- كانت

١- يراجع حديث الهجرة في صحيح البخاري ٢: ٧٩٠ و٣: ١٤١٧.

٢- ينظر: الهجرة ومقدماتها للدكتور يحيى إبراهيم اليحيى ص ٢٠٧. وبَوَّب الإمام البخاري في صحيحه ٢: ٧٩٠ (باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام) ثم أخرج فيه هذا الجزء من حديث الهجرة.

٣- ينظر: فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ١٧١.

أزمةً بالنسبة للنبي ﷺ قبل أن يعرف حقيقتها وكُنهها، ولهذا أصابه ما أصابه من الخوف والرعب الشديد منها، كما هو معلوم مشهور. وكان لمضمون الاستشارة فيها (وهو ما دار بين النبي ﷺ وخديجة رضي الله عنها)، أثرُها البالغ في التخفيف عن النبي ﷺ، وبعث السكينة والاطمئنان إلى قلبه وجوارحه ﷺ.

وقد أبانت خديجة رضي الله عنها عمّا وَهَبها الله من حَصَافة ولَبَاقة، بما تصرَّفت به حينئذ قولاً (بكلماتها الرائعة) وعملاً (باصطحابها النبي ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لاستشارته في هذا الموضوع).

وانطلاقاً من هذا التبادل الاستشاري بين النبي ﷺ وخديجة رضي الله عنها، أَرشَدَ أهل العلم إلى أهمية تطبيق الاستشارة في الأزمات، فقالوا: «من نزلت به مُلِمّةٌ، ينبغي له أن يشارك فيها من يثق بنصحه ورأيه ومعرفته»[١].

٢- حادثة الإفك: دروس استشارية تتعلق بعلم إدارة الأزمات.

في حادثة الإفك (وكانت من أنكى الأزمات على المجتمع كله) برزت عدد من الاستشارات التي طبّقها النبي ﷺ بغرض جمع المعلومات للوصول إلى علاج هذه الأزمة[٢].

فقد شاور ﷺ علياً وأسامة فيما رمى به أهلُ الإفك عائشةَ، فسمع منهما، حتى نزل القرآن، فجَلَد الرامين[٣]. ثم إن علياً رضي الله عنه أشار على النبي ﷺ بأنه يمكنه -إن أَحَبّ- أنْ يستشير بَرِيرَةَ رضي الله عنها (وهي كانت تخدم عائشة رضي الله عنها)، وإنما أشار عليٌّ رضي الله عنه بذلك «لأنه كان يتحقّق أن بَريرة

١- طرح التثريب ٤: ١٨١ (حديث نزول الوحي).

٢- ينظر: إدارة الأزمات في حياة الدعاة، دراسة على حادثة الإفك لمحمد بن علي شماخ. مجلة البيان، العدد ١٦٢ ص ٣٣.

٣- صحيح البخاري ٦: ٢٦٨٢ (باب قول الله تعالى وأمرهم شورى بينهم...).

لا تُخبره إلا بما عَلِمَتْه، وهي لم تَعْلَم من عائشة إلا البراءة المحضة»[1]. ثم هناك استشارة ثالثة، وهي أنه خرج ﷺ إلى الناس (الجمهور) يستشيرهم فيما ينبغي أن يُفعل بمَن آذاه في أهله، فقال: «ما تُشيرون عليّ في قوم يسبّون أهلي؛ ما علمتُ عليهم من سوء قط»[2].

ومن خلال تطبيق هذه الاستشارات العديدة في هذه الأزمة، تُستفاد عدد من الدروس المتعلقة بإدارة الأزمات:

- يحتاج القائد في وقت مواجهة الأزمة إلى أن يستخدم ما يتوفر لديه من مهارات الابتكار والمرونة في الاستفادة من مشاركة الآخرين بالرأي والمشورة.
- طلب الرأي والمشورة عن طريق أشخاصٍ ذوي مصداقية ممن مرُّوا بخبرات مشابهة.
- تعليم القادة عدم التسرع في الحكم بالتعديل أو التجريح عند الاستشارة، وليكن لدينا هذا الردّ الإجمالي الجميل: «لا نعلم إلا خيراً».
- إذا سُئلتَ واستُشرت فيما يتعلق بموضوع الأزمة، فقُلْ ما تعلمه فقط فيما يتعلق بأحداثها، ولا تقل أكثر مما تعرف (كما يُلحظ في أجوبة الصحابة الذين استشارهم النبي ﷺ في هذه الأزمة).
- لا شك في أن للإعلام أهمية بالغة في التأثير في الرأي العام، ولذا يجب عدم التسرع في توجيه أي رسالة إلى الإعلام دون الرويّة والهدوء. ومن هنا نجد الرسول ﷺ لم يتعجل في توجيه أيّ خطاب إلى المجتمع إلا بعد السؤال والاستشارة، فقال: «يا معشر المسلمين! من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي ؟».

١- فتح الباري ٨: ٤٦٨.
٢- صحيح البخاري ٦: ٢٦٨٣.

وأخيراً، ففي تطبيق مبدأ الاستشارة في هذه الحادثة، سرٌّ عجيب! إذ يتبادر إلى الذهن سؤال مهم، هو: ما وجه حاجة النبي ﷺ إلى الاستشارة أصلاً في هذه الحادثة ؟مع أنه «كان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين»[1]!

يجيب عن هذا العلامة ابن القيم، ويكشف عن الأسرار التي كانت وراء هذه الاستشارة، فيقول رحمه الله: «فإن قيل: فما بالُ رسول الله ﷺ تَوَقَّف في أمرها وسأل عنها وبَحَث واستشار ؟! وهو أعرفُ بالله وبمنزلته عنده وبما يليق به! وهلاّ قال: «سبحانك هذا بهتان عظيم» كما قاله فضلاء الصحابة ؟! فالجواب: أن هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سبباً لها وامتحاناً وابتلاءً لرسوله ﷺ ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقواماً ويَضَع بها آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيماناً، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً،.... **ولتتمَّ العبودية المرادة من الصدّيقة وأَبَوَيْـها، وتَتِمّ نعمةُ الله عليهم، ولتشتدّ الفاقةُ والرغبة منها ومن أَبَوَيْـها، والافتقارُ إلى الله والذلّ له وحسن الظن به والرجاء له؛ ولينقطع رجاؤها من المخلوقين وتيأس من حصول النصرة والفرج على يد أحدٍ من الخلق. ولهذا وَفَّتْ هذا المقامَ حقَّه لـمّـا قال لها أبواها: «قومي إليه»وقد أنزل الله عليه براءتها؛ فقالت: «والله لا أقوم إليه ولا أحمدُ إلا الله؛ هو الذي أنزل براءتي!»**[2].

٣- حفر الخندق: أثر الاستشارة في مواجهة الأزمة باستراتيجية جديدة.

من العناصر المهمة في إدارة الأزمات، الاستفادة من قدرات فريق العمل وخبراتهم فيما يقترحونه من حلول لحلّ الأزمة، ولا يتحقق ذلك إلا بالاستشارة. وهذا ما فعله النبي ﷺ باستشارته الصحابة في مواجهة أزمة غزوة الخندق، فقد

١- زاد المعاد ٣: ٢٦٣.
٢- زاد المعاد ٣: ٢٦١-٢٦٢.

تمخَّضت الاستشارة فيها عن حلٍ ذكيٍّ طريفٍ واستراتيجية جديدة لمواجهة هذه الأزمة لم تكن بحُسبان قريش! ألا وهي (حَفرُ الخندق) بناء على رأي سلمان رضي الله عنه، وكان هذا الرأي من أنجع الاقتراحات لحلّ الأزمة وتحقيق: مصلحة البلد والفريق بما لا يخالف الشريعة الإسلامية[1].

المبحث السادس: شواهد تطبيقية لقاعدة: الاستخارة في الأزمات.

الاستخارة -كما سبق- هي إحدى آليات تحويل الأزمة إلى فرصة للنجاح، وذلك لأن الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه واستخارته، سبب مهم للتوفيق والبركة والسداد واختصار الوقت والجهد؛ إذ ما خاب من استخار، وستكون الخِيرة (أي الخيرُ كلُّه) فيما اختاره الله، وهذا معنى ما يجري على الألسن «الخيرة فيما اختاره الله»[2]، ويستأنس له بقوله تعالى:﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾[سورة القصص: ٦٨][3].

أما من حيث تطبيق هذا المبدأ في الأزمات، فحديث الاستخارة المشهور يدل أنه ﷺ علَّم الصحابة الاستخارة في الأمور كلها، ولا شك أن الأزمات من أهم المهمات التي تتطلب الاستخارة. ومن الوقائع التي نقلتها كتب السنة النبوية لتطبيق الاستخارة في الأزمات:

١- الاستخارة قبل الزواج: تدبير مهم للوقاية من أزمات الحياة الزوجية.

من القرارات المهمة في حياة المرء التي يترتب عليها مستقبل طويل ذو تعريجات وتشعبات مختلفة في الحياة، ربما لا تنتهي إلا بالموت: قرار الزواج.

١- ينظر: الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر ص ١٧٩-١٨٠ وإدارة الأزمة للكيلاني ص ١٢٤-١٢٦.

٢- وقد اشتهر على الألسن كونه حديثاً نبوياً، وليس كذلك، بل هو قول من الأقوال ولا أصل له في الحديث، ومعناه صحيح. كشف الخفاء للعجلوني ١: ٤٧٨-٤٧٩ (١٢٧٣و١٢٧٦).

٣- ومن هنا أرشد بعض أهل العلم إلى قراءة هذه الآية في صلاة الاستخارة. ينظر فتح الباري ١١: ١٨٥.

وربما يؤدي التفريط في الاستخارة في مثل هذا القرار المهم، إلى عدم التوفيق في اختيار شريكٍ صالحٍ للحياة الزوجية، فتغدُو الحياة الزوجية بعد ذلك أزمةً خطيرةً.

ولهذا أرشدت السنة النبوية إلى الاستخارة على وجه الخصوص في أمر هذا القرار، فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اكتُم الخِطبة (وفي لفظ عند الإمام أحمد: اكتُم الخِطيبة)، ثم توضأ فأحسِنْ وضوءك، ثم صلِّ ما كتب الله لك، ثم احْمَدْ ربَّك ومَجِّدْه ثم قُلْ: اللهم إنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب، فإن رأيتَ في فلانة -وتُسمِّيها باسمها- خيراً لي في ديني ودنياي وآخرتي فاقدُرها لي، وإن كان غيرُها خيراً لي منها في ديني ودنياي وآخرتي فاقض لي ذلك»[1].

ومن الوقائع التطبيقية في السنة النبوية لهذا الموضوع:

استخارة أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، حين عَرَض عليها النبي ﷺ الزواج منها بعد طلاق زيد بن حارثة رضي الله عنه لها. ففي «صحيح مسلم» أن زينب رضي الله عنها حين بلغها أن رسول الله ﷺ يذكرها (أي للزواج منها)، قالت: «ما أنا بصانعةٍ شيئا حتى أُوامر ربي، فقامت إلى مسجدها. ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن»[2]. قال النووي في شرح قولها: «ما أنا بصانعةٍ شيئا حتى أُوامر ربي...»: «فيه استحباب صلاة الاستخارة لمن هَمَّ بأمر، سواءً كان ذلك الأمر ظاهرَ الخير أم لا...». قال: «ولعلها استخارت لخوفها من تقصير في حقه ﷺ»[3]. وقال القرطبي: «لما وَكَلَتْ أمرَها إلى الله وصحّ تفويضُها

١- مسند أحمد ٥: ٤٣٢ وقال عنه الشيخ شعيب: "صحيح لغيره...". وأخرجه ابن حبان ٩: ٣٤٨ (الأمر بكتمان الخطبة واستعمال دعاء الاستخارة)، والبيهقي في السنن الكبرى ٧: ١٤٧ (باب الاستخارة في الخِطبة وغَيرها).

٢- صَحيح مسلم ٢: ١٠٤٨.

٣- شرح النووي لصحيح مسلم ٩: ٢٢٨.

إليه، تولَّى الله إنكاحها...، ولهذا كانت زينب تُفاخر نساءَ النبي ﷺ وتقول: «زَوَّجكنّ آباؤكنّ، وزَوَّجني الله تعالى»[1].

٢- أثر الاستشارة والاستخارة في تخفيف أزمةٍ واقعةٍ بأحد الأقوام السابقة.

من فرائد ما ورد في السنة النبوية من تطبيق مبدأَيْ (الاستشارة والاستخارة) في أزمة واحدة خطيرة، وما كان لهما من أثر في تخفيف الأزمة على من حَلَّت بهم: ما رواه صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذَكَرَ لهم -أيام غزوة حنين- قصة نبي من الأنبياء، أنه أُوحي إليه: اختر لقومك بين إحدى ثلاث: إما أن أُسلِّط عليهم عدواً من غيرهم، أو الجوعَ، أو الموتَ. قال: فاستشار قومَه في ذلك، فقالوا: أنت نبي الله نَكِلُ ذلك إليك، فخِرْ لنا. قال: فقام إلى صلاته، قال: فكانوا يفزعون إذا فزعوا إلى الصلاة، قال: فصلَّى. قال: أمَّا عدوٌّ من غيرهم فلا، أو الجوعُ فلا؛ ولكن الموتُ. قال: فسُلِّط عليهم الموت ثلاثة أيام، فمات منهم سبعون ألفاً، الحديث[2].

فأفاد هذا الحديث أن (أزمةً مُفزعةً) كانت واقعة بهؤلاء الناس لا محالة، ولكن الذي خَفَّف من وقع تلك الأزمة وجَعَلها تقع في أهون صورها (وهو الموت)، هو بسبب الاستشارة والاستخارة معاً. وفعلاً يَحِقّ أن يقال -بالنظر إلى ما أفادته الاستشارة والاستخارة في أمر هذه الأزمة- أنه: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار».

المبحث السابع: شواهد تطبيقية لقاعدة: الدعاء تدبير وقائي للأزمات.

إن موضوع الدعاء في السنة النبوية موضوع ذو شجون، خصوصاً ما يتعلق

١- تفسير القرطبي ١٤: ١٩٣ وحديث مفاخرتها أخرجه البخاري ٦: ٢٦٩٩ من حديث أنس رضي الله عنه.
٢- مسند أحمد ٤: ٣٣٣ والأحاديث المختارة للضياء المقدسي ٨: ٦١ وقال: إسناده صحيح. وأخرجه ابن حبان ٥: ٣٧٤ و١١: ٧٢ بدون إيراد القصة.

منه بموضوع هذا البحث (الأزمات)، فقد تناولت الأدعية النبوية هذا الموضوع من جوانب مختلفة، وربما لم تَتْرُك شيئاً من صنوف الأزمات أو ما يؤدي إليها من الأسباب، إلا وقد احتوته[1].

ومما لا يحتاج إلى بيان، أنه كان من هَدْي النبي ﷺ اللجوءُ إلى الله تعالى في الأزمات بالدعاء؛ كيف وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبه أمرٌ فَزِع إلى الصلاة. وفيما يلي من السطور، تُعرض بعض الوقائع الكبرى من حياته ﷺ التي ينطبق عليها مفهوم الأزمات، وأثرُ الدعاء في رفعها:

١ – دعاؤه ﷺ يوم بدر: حشد المدد الرُّوحي في المعركة.

من المهارات المطلوبة للتعامل مع الأزمة: الحشد والإعداد لها بما يستطاع من قوة. وهي مهارة يُقصد بها –في علم الإدارة–: جمع كل القوى الممكنة في سبيل تجاوز الأزمة، ويشمل ذلك مختلف القدرات المادّية والمعنوية اللازمة للنجاح. ومن تطبيقات هذا الحشد والإعداد، ما نلحظه في سيرة رسول الله ﷺ يوم بدر، إذ حَشَد كل العناصر اللازمة للمعركة، ومن ذلك: المدد الرُوحي بالدعاء ومناشدة الله تعالى في إنجاز الوعد[2].

ففي «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عباس قال: حدّثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر، نَظَر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابُه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستَقبَل نبيُّ الله ﷺ القبلةَ، ثم مَدَّ يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أَنْجِزْ لي ما وعدتَني، اللهم إني أَنشُدك عَهْدَك ووَعْدَك، اللهم إنْ تهلكْ هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض». فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبلَ القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءَه فألقاه

١- تُنظر هذه الأدعية المتعلقة بصنوف الأزمات، في كتب الأدعية والأذكار.

٢- يُنظر: إدارة الأزمة، مقاربة التراث والآخر للكيلاني ص ١١٠-١١٢.

على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كذاك مناشدتك ربَّك[1]، فإنه سيُنجز لك ما وَعَدك، فأنزل الله عز وجل:﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال:٩]. فأمدّه الله بالملائكة...الحديث»[2].

وقوله في الحديث: «فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبلَ القبلة»: قال أبو العباس القرطبي: «هذا منه ﷺ قيامٌ بوظيفة ذلك الوقت من الدُّعاء والالتجاء إلى الله تعالى، وتعليمٌ لأمته ما يلجأون إليه عند الشدائد والكُرَب الواقعة بهم، فإن ذلك الوقت كان وقت اضطرار وشدة، وقد وَعَد اللهُ المضطرَّ بالإجابة، حيث قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦٢]؛ يعني: عن المضطر عند الدُّعاء، فقام بعبادة ذلك الوقت. ولا يلزم من اجتهاده في الدعاء في ذلك الوقت، أن يكون ارتاب في أن الله سيُنجز له ما وَعَدَه به...، لكنه قام بحق العبودية من إظهار الفاقة وامتثالِ العبادة؛ فإن الدعاء مخّ العبادة»[3].

٢- دعاؤه وابتهاله ﷺ يوم الخندق، وأثره في هزيمة الأحزاب.

في غمرة الشدائد والخوف، يوم الأحزاب، كان النبي ﷺ وأصحابه لا ينفكّون عن الدعاء. ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا يوم الأحزاب فقال: «اللهم مُنْزِلَ الكتاب سريعَ الحساب اهزم الأحزاب. اللهم اهزِمْهم وزَلْزِلْهُم»[4]. وفي المسند عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال: نعم، اللهم استر عوراتِنا وآمِنْ رَوْعاتنا. قال فضَرَب الله عز وجل وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم الله عز وجل

١- هكذا وقعت هذه الجملة لجماهير رواة صحيح مسلم"كذاك"(بالذال). وهي من باب الإغراء، كما يقال: إليك. ورواها بعضهم: "كفاك". وضبطوا أيضا لفظ"مناشدتك" برفع التاء وفتحها، كما في شرح النووي ١٢: ٨٥ والمفهم للقرطبي ٣: ٥٧٤.

٢- صحيح مسلم ٣: ١٣٨٣ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر.

٣- المفهم للقرطبي ٣: ٥٧٤-٥٧٥.

٤- صحيح البخاري ٤: ١٥٠٩ وصحيح مسلم ٣: ١٣٦٢-١٣٦٣والسيرة النبوية لمحمد أبو شهبة ٢: ٢٨٧-٢٨٨.

بالريح[1]. وقد سمع الله دعاء رسوله والمؤمنين، فقد دَبّت الفرقة في صفوف المشركين وسرى بينهم التخاذل، وأرسل الله عليهم ريحاً شديدة في ليلة شاتية باردة، فهَدَمَتْ خيامَهم وكَفَأَتْ قُدورَهم وأَطفَأَتْ نيرانَهم، وأَرسَل جنداً من الملائكة يزلزلونهم فامتلأت قلوبهم رعباً وخوفاً، وساد الهرج والمرج والجلبة والصياح، وتنادوا بالرحيل، وما أَصبَحَ رسولُ الله ﷺ إلا وقد ارتحل القوم، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكَفَى الله المؤمنينَ القتالَ، فصَدَق وعدَه، وأعزَّ جندَه، ونصر عبدَه، وهَزَم الأحزاب وحده[2].

روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دعا في مسجد الفتح ثلاثاً، يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، فاستُجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين، فعُرِف البِشْرُ في وجهه. قال جابر: فلم ينزل بي أمر مهم غليظٌ إلا توخيتُ تلك الساعة، فأدعو فيها، فأعرف الإجابة[3].

٣- الدعاء النبوي البليغ يوم الطائف، وأثره في فرج الأزمة الفوري.

من فرائد الأدعية النبوية في الأزمات، دعاؤه ﷺ البليغ المؤثر يوم الطائف، وذلك عند ما لَحِق به منهم أشدّ أنواع الأذى، فلجأ ﷺ إلى الله بدعائه المشهور: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي...الخ»[4]. فما أن انتهى من الدعاء، حتى جاءت الإجابة من السماء مع جبريل ومَلَك الجبال[5]. وليس من شك في أنه كانت لهذه الإجابة الإلهية الفورية، أثرُها الكبير في نفس رسول الله ﷺ، فإذا كان

١- مسند أحمد ٣: ٣ ورجاله ثقات كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠: ١٣٦ وقال الشيخ شعيب في تعليقه على المسند ١٧: ٢٧ (١٠٩٩٦): إسناده ضعيف. وأصل الدعاء المذكور، له شاهد من حديث ابن عمر في المسند أيضاً ٨: ٤٠٣ (٤٧٨٥) وإسناده صحيح كما قاله الشيخ شعيب.

٢- ينظر: الرحيق المختوم ص ٣٥٠ والسيرة النبوية لمحمد أبو شهبة ٢: ٢٨٧-٢٨٨.

٣- مسند أحمد ٣: ٣٣٢ وإسناده جيد كما قاله المنذري في الترغيب والترهيب ٢: ١٤٣. وفي طبقات ابن سعد ٢: ٧٣"فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين الظهر والعصر".

٤- أخرجه الطبراني كما سبق العزو إليه في الشواهد التطبيقية لقاعدة (التفكير الإيجابي في الأزمات).

٥- ينظر كتاب: في السيرة النبوية، قراءة لجوانب الحذر والحماية ص ٦٥.

الناس قد تنكّروا له وآذوه وطردوه، فإن الله معه وناصرُه، وبهذا وَجَد الرسول ﷺ تأييدًا ربانيًا، أفاض على قلبه سكينةً وطمأنينةً كان أحوجَ ما يكون إليها في مثل تلك الظروف الحَرِجة[1]. ويجدر الوقوف على بعض مظاهر الفرج الربّاني، التي أَعقَبتْ هذا الدعاءَ النبوي المتبتّل الخاشع، وهي كما يلي:

- الاستجابة الفورية للإسلام -في الموقع نفسه- من الغلام النصراني (عدّاس) بعد رفض الكثيرين له. وهدايةُ شخصٍ واحدٍ خيرٌ من الدنيا وما عليها.

- في عودته ﷺ من الطائف إلى مكة، ساق الله إليه نفرًا من الجن يستمعون القرآن، فأحسنوا الاستماع والإنصات وآمنوا، ثم وَلَّوا إلى قومهم داعين منذرين.

- ثم في موسم الحج من العام نفسه الذي وقعت فيه قصة الطائف، استجاب لدعوة النبي ﷺ عددٌ من أشراف مختلف قبائل العرب وساداتهم، وآمنوا به ﷺ.

- ثم في موسم الحج من العام القادم، أجاب لدين الإسلام ستةُ نسماتٍ طيبة من أهل يثرب، وهم الذين كانوا بعد ذلك طلائعَ لتمكين دعوة الإسلامٍ في المدينة (وهم أسعد بن زرارة رضي الله عنه، وجماعته).

- وأخيراً: يُعدّ من أعلى مظاهر التأييد الرباني للنبي ﷺ إثر واقعة الطائف: حادثة الإسراء إلى بيت المقدس، والمعراج إلى الملأ الأعلى[2].

١- ينظر كتاب: في السيرة النبوية، قراءة لجوانب الحذر والحماية ص ٦٥ والرحيق المختوم ص ١٤٤.

٢- ينظر: الإسراء والمعراج، مقدمات وأحداث ونتائج للدكتور صلاح سلطان، والرحيق المختوم ص ١٤٢-١٥٥والأساس في السنة لسعيد حوّى ١: ٢٨٨.

الخاتمة

هذا البحث – على ضآلته- يكشف عن نتائج، لعل من أهمها الآتي:

- إن لـ «علم المستقبليات» قيمةً حضاريةً كبيرة في الواقع المعاصر، بَيْدَ أن أصول هذا العلم موجودة في السنة النبوية، ومن ذلك ما كَشَف عنه هذا البحث فيما يتعلق بـ «علم إدارة الأزمات» الذي يُعدّ جزءاً ضئيلاً من «علم المستقبليات». من هنا لا بد من مواصلة الجهود لاستنباط الأصول الحضارية الأخرى المتعلقة بالمستقبليات، من خلال نصوص السنة النبوية. ولعل مما يساعد على هذا:

  - أولاً: استخلاص نصوص السنة النبوية التي تدل على هذا العلم (المستقبليات).
  - ثانياً: تبويبها تبويباً معاصراً، بحيث تأتي تلك النصوص تحت العناوين المعاصرة لعلم المستقبليات حسب ما هي عليه عند أصحاب هذا العلم.

وبذلك يسهم هذا العمل بالكشف عن وجوه الإعجاز في السنة النبوية فيما يتعلق بهذا العلم المعاصر «علم المستقبليات».

- إن القرآن الكريم والسنة المطهرة يحويان كل الأصول والقواعد التي تُسعد الإنسانية في جميع مجالات الحياة. وهذا البحث مما يبرهن على ذلك؛ إذ أنه يقدِّم نموذجاً تطبيقياً مصغراً فيما يتعلق بـ «علم إدارة الأزمات» الذي يُظن به أنه وليدُ خبراتٍ معاصرة، وليس الحال كذلك؛ بل إن جذوره موجودة في نصوص تقعيدية من جوامع الكلم النبوية.

- إن موضوع «إدارة الأزمات» لا شك تناولتْه بحوث عديدة من خلال السنة النبوية، لكن الذي هَدَف إليه هذا البحث وتقصَّده، هو عرض الموضوع

عرضاً قواعدياً مبني على نصوص السنّة. وهذه هي قيمة هذا البحث وجوهرُه الذي يمكن أن يتميز به عن غيره من البحوث المعدّة في هذا الموضوع.

- إن موضوع (القواعد الفقهية)، قد شاع التأليف فيه كما لا يخفى. أما (قواعد السنة النبوية) فالجهود التأليفية فيه قليلة، ولهذا يمكن أن يُعدّ من ميزات هذا البحث أنه خطوةٌ في هذا الجانب، أي في (التصنيف القواعدي لنصوص السنة النبوية).

المصادر والمراجع

- الأحاديث المختارة للضياء المقدسي، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٠.

- إحياء علوم الدين للغزالي، دار المعرفة، بيروت.

- إدارة الأزمات: الوسيلة للبقاء. منى صلاح الدين شريف. البيان للطباعة و النشر، القاهرة ١٩٩٨.

- إدارة الأزمات في حياة الدعاة، دراسة على حادثة الإفك، لمحمد بن علي شماخ. مجلة البيان، العدد ١٦٢، صفر ١٤٢٢.

- إدارة الأزمة، مقاربة التراث والآخر، للدكتور عبد الله إبراهيم الكيلاني، تقديم عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، العدد ١٣١ جمادى الأولى ١٤٣٠ السنة التاسعة والعشرون، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر.

- الأدب المفرد للبخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٣، ١٤٠٩.

- الأساس في السنة وفقهها، لسعيد حوّى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣، ١٤١٦.

- استثمر صراعاتك في تنمية ذاتك، لعبد الله بن عواد الرويلي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٣٠.

- استشراف المستقبل في الحديث النبوي، إلياس بلكا، (كتاب الأمة السادس والعشرون بعد المائة)، ضمن سلسلة كتاب الأمة، إصدار وقفية الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني للدراسات والمعلومات، قطر.

- الإسراء والمعراج: مقدمات وأحداث ونتائج، لصلاح سلطان، العدد الثاني من سلسلة قضايا اجتماعية وإسلامية، التي يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ مملكة البحرين.
- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، لابن الملقن، تحقيق: مصطفى أبو الغيط وعبدالله بن سليمان وياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٥-٢٠٠٤.
- بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، لابن سعدي، مكتبة المعارف، الرياض، ط٣، ١٤٠٤.
- الترغيب والترهيب للمنذري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧.
- تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، للشوكاني، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٤.
- تخريج أحاديث الإحياء، للعراقي، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض ١٤١٥.
- التعريفات للجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري. دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥.
- التغيير من الداخل، أيمن أسعد عبده، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٦.
- التفاؤل حياة، لفيصل بن علي البعداني، مجلة البيان العدد ٢٢٨، شعبان ١٤٢٧، السنة ٢١.
- تفسير السلمي (حقائق التفسير) لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن

موسى الأزدي السلمي، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤٢١- ٢٠٠١.

- تفسير القرطبي، دار الشعب، القاهرة.

- جامع التحصيل في أحكام المراسيل، للعلائي، تحقيق: حمدي السلفي، دار عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٧.

- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

- الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين ﷺ، لابن الجزري، تحقيق: خير الله الشريف، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢١.

- الدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية لعبد الله بن محمد المديفر، رسالة ماجستير، جامعة طيبة بالمدينة المنورة، كلية التربية والعلوم الإسلامية، بإشراف أ. د. عبد الرحمن بن إبراهيم الجويبر، ١٤٢٧هـ

- الدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البر، تحقيق: د. شوقي ضيف، وزارة الأوقاف المصرية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤١٥.

- دع القلق، ابدأ الحياة، ديل كارنيجي، ترجمة د. زينب منصور حبيب، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط١، ٢٠٠١.

- الدعاء للطبراني، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣.

- رحمة للعالمين ﷺ (باللغة الأردوية) للقاضي محمد سليمان المنصور فوري،

ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط١.

- الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ط٦، ١٤١٨.

- الرسول ﷺ، لسعيد حوّى، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٤١٠.

- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة- مكتبة المنار الإسلامية، بيروت - الكويت، ط١٤، ١٤٠٧ - ١٩٨٦.

- زدني علماً، لأحمد البراء الأميري، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٧.

- الزهد، لوكيع، نشر مكتبة الدار بالمدينة المنورة، دون تاريخ.

- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، لمحمد ناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٢.

- سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر، بيروت.

- سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

- سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة ١٤١٤- ١٩٩٤.

- سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- السيرة النبوية لمحمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٢.
- شرح البخاري لابن بطال، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤٢٣- ٢٠٠٣.
- شرح صحيح مسلم للنووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢.
- صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤ - ١٩٩٣.
- صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى البغا، دار ابن كثير ، اليمامة، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.
- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- طبقات ابن سعد، دار صادر، بيروت.
- طرح التثريب في شرح التقريب، للعراقي، تحقيق: عبد القادر محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.
- العادات السبع للناس الأكثر فعالية، ستيفن ر. كوفي، مكتبة جرير، ط١٤، ٢٠٠٧.
- علم نفس النجاح، برايان تريسي، ترجمه: عبد اللطيف الخياط، دار الثقافة للجميع ، دمشق، ط٢، ١٤١٩.
- عمدة القاري للعيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- فتح الباري لابن حجر، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.
- فصول في التفكير الموضوعي: منطلقات ومواقف، لعبد الكريم بكار، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٤٢٦-٢٠٠٥.
- فقه السيرة لمحمد الغزالي، دار إحياء التراث العربي، ط٧، ١٩٧٦.
- فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء لمحمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط٥، ١٤٢١.
- في السيرة النبوية: قراءة لجوانب الحذر والحماية، د. إبراهيم علي محمد أحمد، سلسلة كتاب الأمة: الكتاب الرابع والخمسون.
- فيض القدير للمناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦.
- كشف الخفاء للعجلوني، تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٥.
- كنز العمال لعلي المتقي، تحقيق: محمود الدمياطي. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩- ١٩٩٨.
- كيف تكون مستجاب الدعاء، لأمير بن محمد المدري اليمني، إمام وخطيب مسجد الإيمان، اليمن، عمران.
- مجمع الزوائد للهيثمي، دار الريان للتراث / دار الكتاب العربي، القاهرة ، بيروت ١٤٠٧.
- مرقاة المفاتيح، للقاري، تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢- ٢٠٠١.

- المرونة، لأنس سليم الأحمدي، مؤسسة الأمة للنشر والتوزيع، الرياض، جدة.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١
- مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠٤ - ١٩٨٤.
- مسند أحمد، مؤسسة قرطبة، مصر. وطبعة مؤسسة الرسالة بتحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط٢، ١٤٢٠.
- مسند البزار، تحقيق: عادل بن سعد، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٦.
- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، للبوصيري، تحقيق: محمد الكشناوي، دار العربية، بيروت، ط٢، ١٤٠٣.
- المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥.
- المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي السلفي، مكتبة الزهراء، الموصل، ط٢، ١٤٠٤ - ١٩٨٣.
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي، تحقيق: محيى الدين مستو وآخرين، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، ط١، ١٤١٧.
- ملفوظات حكيم الأمة (باللغة الأردوية)، نشر إدارة التأليفات الأشرفية،

مُلتان، باكستان ١٤٢٣.

- المنتقى من كتاب مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، للخرائطي، تحقيق: أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦.

- الوسائل المفيدة للحياة السعيدة، لابن سعدي، دار الوطن.

الإنترنت:

١- الإبداع يخنق الأزمات، رؤية جديدة في إدارة الأزمات لعبد الله عبد الرحمن البريدي، (تلخيص)

http://vb.maharty.com/showthread.php?t=12283 05/12/2008.

٢- الاتصالات أثناء الأزمات.) http://www.america.gov/st/freepress-arabic/2008/May/20081229170830ssissirdile0.3197901.html ٢٩ أيار / مايو ٢٠٠٨

٣- إدارة الأزمات، بقلم البروفيسور سيف مهيوب العسلي.

http://www.26sep.net/articles.php?id=2283 30/12/2010

٤- إدارة الأزمات: علم البقاء (١)، مقال بقلم المحاسب صابر سلطان.

http://aiaday.maktoobblog.com/8/ 5/2/2010

٥- الأزمات والمواقف الطارئة في الحياة، كيف نواجهها؟ إبراهيم رمضان الديب.

http://al7ewar.net/forum/showthread.php?p=83289 مايو 2009

٦- استشراف المستقبل للدكتور طارق السويدان http://www.naseh.net
04/09/2003

٧- اتخاذ القرار، موقع المهندس عوض بن عبد الله المالكي.

http://staff.kfupm.edu.sa/DCC/amalki/awad/decission.htm

٨- التخطيط الجنائي الإسلامي في عهد الرسول r بقلم المقدم الركن عبد الله متعب بن ربيق. http://www.shbabq.com/moltqa/showthread.php?t=3486 12/6/2009

٩- التخطيط للأزمة والتعامل معها، متى نبدأ؟ بقلم جهاد صعيليك.

http://www.arabianbusiness.com/arabic/530787 11/09/2008

١٠-التفكير الاستراتيجي (برنامج تدريبي في التخطيط الاستراتيجي) إعداد وتقديم الدكتور عبد الله المفلح، المدرب المتعاون مع مركز النافع للتدريب- جامعة أم القرى مكة المكرمة ١٤٣٠.

http://docs.google.com/viewer

توجيه الانفعالات، بقلم صخر عبد الله الغزالي

http://www.bunyaan.com/ar/isticharat_show.php?id_a=74&id_t=70 30/3/2009

١١-الدراسات المستقبلية وأهميتها للدعوة الإسلامية لعبد الله بن محمد المديفر. ينظر عرض تلخيصي لها بقلم عبد العزيز بن حمد الداود، في موقع الألوكة. /http://www.alukah.net/Library/0/18665

١٢-دور القائد المسلم في إدارة الأزمات بقلم هناء يماني.

http://www.qassimedu.gov.sa/edu/showthread.php?t=1806 26/2/1426

١٣-صلح الحديبية: بوابة النصر والتمكين-منتديات الدكتور طارق السويدان، المنتديات الإسلامية، السيرة النبوية. http://www.suwaidan.com/vb1/showthread.php?t=39677 8/2/2010

١٤-صلح الحديبية من الشروط المؤلمة إلى الفتح والانتصار والغنائم- منتديات الشبارقة، المنتدى الإسلامي.

http://www.alshabarga.com/vb/showthread.php?t=1857 25/10/2010

١٥-فن اختيار شريك الحياة، بقلم الدكتور محمد المهدي استشاري الطب النفسي. http://www.elazayem.com/a(10).htm

١٦-فن إدارة الأزمات في المؤسسات الخيرية، بقلم وائل رمضان.

http://www.islamselect.com/mat/82546. 11/12/2010

١٧-مقال: فن الجماعية ١٠..كن مرنا واصفح عن الآخرين. http://www.islammemo.cc/fan-el-edara/fkr-Edary/2010/11/06/110499.html 6/11/2010

١٨-ما هو أسلوب دلفي في اتخاذ القرارات، كيف أطبقه، مزاياه، عيوبه. بقلم محمد أحمد إسماعيل المشرف العام للمنتدى العربي لإدارة الموارد البشرية.

http://www.hrdiscussion.com/hr13579.html 6/9/2010

١٩-محاضرة إدارة الأزمات-مادة إدارة وتخطيط.

http://www.alalwani.net/vb/showthread.php?t=282251
12/6/2010

٢٠-المسلم والثقة بالنفس للدكتور بدر عبد الحميد هميسه.

http://www.saaid.net/arabic/242.htm

٢١-معايير الصحة النفسية، بقلم سائد صلاح.

http://saai.elaphblog.com/posts.aspx?U=2906&A=29983
13/11/2009

٢٢-مفهوم إدارة الأزمات في المنظمات الخيرية، بقلم د. محمد بن علي شيبان العامري.

http://www.sst5.com/readArticle.aspx?ArtID=196&SecID=42
18/9/1431

٢٣-مفهوم التخطيط للدكتور محمد المحمدي الماضي، أستاذ إدارة الاستراتيجية، لكلية التجارة، جامعة القاهرة- http://www.almohamady.com/articles/article.php?id=6&back=aW5kZXgucGhw

٢٤-مقدمة كتاب إدارة الأزمات-مدخل متكامل للدكتور يوسف أحمد أبو فارة (عرض عن الكتاب بقلم أكرم سالم- جريدة الصباح ٤/ ١٢/ ٢٠١٠).
http://www.alsabaah.com/paper.php?source=akbar&mlf=copy&sid=92044

٢٥-وقفات مع حديث الاستخارة، للدكتور أيمن أسعد عبده.

http://www.shatharat.net/vb/showthread.php?t=17026
1/8/2010

٢٦-يقظة الفكر والخروج من الغفلة، للدكتور حسن الشريف. - http://almo lim.net/node/124663 13/3/1431

الخطب:

- خطبة: الحاجة إلى التفاؤل للشيخ عبد الباري الثبيتي إمام وخطيب المسجد النبوي، أُلقيت في المسجد النبوي بتاريخ 1427/6/18. - http://www.m taba.org/vb/showthread.php?t=5438

استراتيجيات النبي ﷺ في إدارة أزمة الحصار العسكري واستشراف المستقبل غزوة الأحزاب أنموذجا

د. محمود أحمد يعقوب رشيد
كلية الشريعة/الجامعة الأردنية
المملكة الأردنية الهاشمية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله أجمعين، ورضي الله عن صحابته الغر الميامين. وبعد:

فشهد القرن الماضي الكثير من الأزمات العسكرية التي أبيد فيها الملايين من البشر بأشد الأسلحة فتكا، ومُني العالم فيها بخسائر اقتصادية وثقافية وعلمية فادحة، ولا تزال الدول المحتلة المعتدية تختلق الأزمات العسكرية، وتستخدم أسلوب الحصار العسكري- برا وجوا وبحرا- ضد دول أخرى بهدف إضعافها وإخضاعها لسياساتها، فإن استسلمت وخضعت أذلتها بالمعاهدات والشروط المهينة، وإن لم تخضع لها حاصرتها مدة طويلة، ثم هاجمتها عسكريا بكل الأسلحة، ودمرت ثقافتها ومدنيتها. ولذا يعد الحصار العسكري من أخطر الأزمات التي تواجه الأمم، لأنه يجر معه أزمات اجتماعية، وسياسية، واقتصادية تتفاقم كلما امتدت فترة الحصار.

إن دراسة أزمات الحصار العسكري التي مرت بها الأمم والشعوب في الماضي والحاضر يساعد القادة العسكرين على وضع الخطط، وتبني الاستراتيجيات التي تسهم في منع حدوث الأزمات، أو التصدي لها بكفاءة واقتدار، وبما يخفف من آثارها السلبية، وكثير ما يستخدم منهج (القياس التاريخي) في دراسة الأزمات الماضية حيث يتم استفادة الدروس والعبر من الأزمات التي حدثت في الماضي للتعامل مع أزمات قائمة، فتقاس الأزمة القائمة على أزمة ماضية.

جاء هذا البحث لدراسة أزمة الحصار العسكري التي حدثت في غزوة الأحزاب، وذلك لاستخلاص منهج النبيﷺ في إدارة أزمة الحصار العسكري

من خلال استراتيجيات: التخطيط، والاستبشار، واستشراف المستقبل وغيرها. وجديد هذا البحث أنني زاوجت فيه بين الأصالة والمعاصرة حيث طبقت فيه مبادىء (علم إدارة الأزمات) على أزمة الحصار العسكري في غزوة الأحزاب، وثمرة هذا البحث تقديم خدمة لسيرة رسول الله ﷺ، وتقديم تجربة من حياة النبي ﷺ تخدم المسلمين في عصرنا الحاضر، وحسب اطلاعي لم أجد من أفرد أزمة الحصار العسكري في غزوة الأحزاب ببحث مستقل ضمن مفهوم (علم إدارة الأزمات).

أقدم شكري وتقديري لندوة الحديث الشريف، والقائمين عليها الذين أتاحوا لي الفرصة للمشاركة في المؤتمر الدولي الخامس، والله أسأل أن يجزيهم خير الجزاء على جهودهم العظيمة المباركة التي يبذلونها لخدمة الحديث النبوي الشريف وعلومه.

ولتحقيق أهداف البحث رأيت تقسيمه إلى تمهيد، وعدة مطالب جاءت على النحو الآتي:

- **التمهيد**: والتعريف بأبرز مفاهيم البحث.
- **المطلب الأول**: استراتيجية الاستخبار وجمع المعلومات الدقيقة.
- **المطلب الثاني**: استراتيجية الاستثمار الأمثل للإمكانات البشرية وتعبئتها.
- **المطلب الثالث**: استراتيجية الصدمة المؤثرة.
- **المطلب الرابع**: استراتيجية استثمار الموارد المتاحة.
- **المطلب الخامس**: استراتيجية الحفاظ على الأمن الداخلي.
- **المطلب السادس**: استراتيجية التحفيز المستمر لمواجهة الأزمة.

- **المطلب السابع**: استراتيجية الاختراق وتفريغ الأزمة.
- **المطلب الثامن**: استراتيجية تصدير الأزمة.
- **المطلب التاسع**: استراتيجية الاستبشار.
- **المطلب العاشر**: استراتيجية استشراف المستقبل والتطوير.
- **النتائج والتوصيات.**
- **المصادر والمراجع.**

تمهيد:

يلاحظ المتتبع لأحداث السيرة النبوية أن منهج النبي ﷺ في معالجة الأزمات قائم على التخطيط الواضح والدقيق المبني على صدق التوكل على الله، وعلى الأخذ بأسباب النجاح والنصر، وسلوك سبيل الحكمة البالغة في التعامل مع كل مستجدات الدعوة الإسلامية، وكلما مرت الدعوة الإسلامية بأزمة جديدة، وحالة من التوتر والترقب مع الأعداء في الداخل أو الخارج كان النبيﷺ يرى تلك الأزمات أمرا طبيعيا في خط سير الدعوة الإسلامية، ويتخذ من تلك الأزمة سبيلا لاستشراف مستقبل فيه المزيد من الترقي في التخطيط، والتوقي من مكر الأعداء.

بداية لا بد من تعريف بعض المفاهيم الواردة في البحث، وأولها تعريف الأَزْمة لغة: تدل كلمة الأزمة في اللغة على ظروف صعبة يمر بها الفرد أو المجتمع، كالحروب والكوارث والفتن، أو سنين القحط التي يهلك فيها الناس والزروع والدواب، قال ابن فارس في معنى الأزمة: «(أزم) وأما الهمزة والزاء والميم فأصلٌ واحد، وهو الضِّيق وتَداني الشيء من الشيء بشدّةٍ والتِفَافٍ»[1]، وجاء

١- مقاييس اللغة، أحمد بن فارِس ١ / ١٠٩.

في المعجم الوسيط: «الأزمة: الشدة و القحط، والأزمة: الضيق و الشدة، يقال: أزمة مالية، وأزمة سياسية و أزمة مرضية، والقحط»[1].

وأما بخصوص تعريف الأزمة، وإدارة الأزمة اصطلاحا، فإنه يمكن القول بأن تعريفات الأزمة تكاد تجمع على أنها حالة طارئة، تشكل خطرا أو تهديدا لمنحى، أو أكثر من مناحي الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو جميعها، ولا بد من التعامل معه بمنتهى الجدية، فمن تعريفات الأزمة اصطلاحا أنها: «تَعرّض الفرد أو الجماعة أو المنظمات أو المجتمعات إلى مواقف حساسة وحرجة ومؤلمة...، وقد ينجم عن الاهمال خطر الموت، وفقدان الحياة ويحتاج الأمر إلى اتخاذ قرار لمعالجة الموقف»[2].

أما تعريف الأزمة العسكرية- والتي عليها مدار هذا البحث- فإن يذكر في سياق تعريف الأزمة السياسية، فبعد فشل الحلول السياسية السلمية قد يلجأ بعض الأطراف إلى التدخل العسكري، لذا تعرف الأزمة السياسية بـ: «الموقف الذي يؤدي إلى استخدام القوة العسكرية في المواجهة أو التوصل إلى حل بين الأطراف»[3]، فالأزمة العسكرية هي: استخدام للقوة العسكرية، أو التهديد باستخدامها لتحقيق أهداف معينة.

أما إدارة الأزمات فإنها تعني: «هي تلك الأدارة التي تبحث في تحديد المخاطر، وإمكانية التعرض لها، وصياغة الاستراتيجيات الكفيلة بمنعها، أو تخفيفها إن وقعت، والتقليل من آثارها السلبية إلى أقصى درجة ممكنة»[4]. ومن أساليب الأزمات العسكرية الحصار العسكري الذي يهدف إلى إضعاف قوة العدو، ودفعه إلى الاستسلام بدون قتال، وإملاء الشروط عليه، وإنهاء قوته، والسيطرة عليه.

١- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون ١ / ٣٤.
٢- إدارة الأزمات، زيد عبوي ١٩.
٣- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ١٤.
٤- إدارة الأزمات، يوسف أبو فارة ٦١.

وأما **الاستراتيجية:** (strategy) تعريب شائع لمصطلح يوناني قديم (strategia) «هي كلمة يونانية الأصل تعني: فن أو علم القيادة العامة»[1]، و في مجال العلم العسكري: «هي علم وفن يختصان بإدارة الحرب، والاستعداد لها، وقيادة الصراع المسلح مع العدو، وتوفير الظروف المناسبة لخوض هذا الصراع»[2]، فاستراتيجية النبيﷺ في أزمة الحصار تعني: الاستراتيجيات العسكرية التي استخدمها النبيﷺ في إدارة الأزمة الداخلية، والخارجية في حصار الأحزاب لصدها، أوالتخفيف من آثارها قبل انقضائها، وأثناء ذلك، وبعد انتهائها.

كانت غزوة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة من أشد أزمات الحصار العسكري التي واجهت الدعوة الإسلامية حيث حل بالمسلمين أزمتين: خارجية وداخلية، الخارجية فيها ثلاثة أعداء هم: قريش والأعراب واليهود، وعدُّوان من الداخل هما: المنافقون ويهود بني قريظة، وقد بلغت القلوب الحناجر من الخوف، وكان ظن المسلمين أن الله ناصرهم، وكان ظن المنافقين بالله أسوء الظن، ثم انجلت أزمة الأحزاب عن نصر للمؤمنين، وخذلان للأحزاب وبني قريظة والمنافقين.

لقد أظهرت غزوة الأحزاب الجهد العظيم الذي بذله المسلمون لمواجهة الأحزاب قبل الأزمة وأثنائها وبعد انتهائها، ولقد انبنى ذلك الجهد على الإيمان الصادق والمصابرة، والترقب والحذر وجمع المعلومات، والتخطيط الدقيق، والتنظيم للموارد المتاحة، والتنفيذ مع الانضباط التام، والتقويم للتجربة بعد انتهاء الأزمة، والاستبشار، واستشراف مستقبل جديد مبني على استراتيجية الهجوم لا الدفاع، ولقد قام النبيﷺ بإدارة أزمة الحصار العسكري في هذه الغزوة من خلال تنفيذ الاستراتيجيات الآتية:

١- المعجم السياسي، وضاح زيتون ٢٦.

٢- الموسوعة العربية، محمد الجلاد وهيثم كيلاني ٢/ ١١٩.

المطلب الأول: استراتيجية الاستخبار وجمع المعلومات الدقيقة.

يُعد الحذر الدائم من المهمات الرئيسة للقيادة العسكرية الناجحة، فالعدو لا يمكن إغفال عداوته، ولابد من جمع أدق المعلومات عن خططه وتحركاته، والنبي ﷺ لم يغفل عن الأعداء الذين يتربصون بالمسلمين شرا، فلقد كانت الصحراء حول المدينة موحشة، تسعى على رمالها فتن ومؤامرات تثيرها قوى الشرك واليهود، فكان من استراتيجياتهﷺ الحذر والترقب؛ لأن من أهم مراحل إدارة الأزمة:» اعتماد مبدأ الوقاية والحيطة والحذر»[١]، وقد كان النبي ﷺ يتوقع الأزمات قبل وقوعها، ويستشعرها من خلال مؤشرات عامة كان يرصدها يقول د.يوسف: «تكون هناك بوادر تلوح في الأفق تنذر بأخطار غير معروفة، وغير محددة المعالم تماما»[٢]، و بعد التنبؤ باحتمال حدوث أزمة يبدأجمع المعلومات الدقيقة عنها قبل وقوعها، وأثناء حدوثها، وحتى انقضائها، ولقد اتسمت استراتيجية النبيﷺ في الاستخبار، وجمع المعلومات في غزوة الأحزاب بعدة سمات كان من أهمها:

السمة الأولى- الاستطلاع والجمع المستمر للمعلومات عن الأعداء: كان رسول اللهﷺ يعلم حجم الخطر المحيط بالمجتمع الإسلامي الناشئ في المدينة، فكان حريصا على الاستمرارية في جمع المعلومات عن الأزمات القادمة قبل حلولها، فمن أخطر الأمور في إدارة الأزمات «ضعف القدرة على التنبؤ بالأحداث المستقبلية، وعدم توفر المعلومات الدقيقة في الوقت المناسب عنها»[٣]، ولذا اتخذ النبيﷺ من العباس بن عبد المطلب عينا له في مكة «يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ»[٤]. واتخذ من بني خزاعة جيران قريش قاعدة متقدمة للإنذار المبكر ترصد تحركات قريش، وتزود المسلمين بها. قال البيهقي: «كانت خزاعة

١- إدارة الأزمات، يوسف أحمد ٢٣٩.
٢- إدارة الأزمات، يوسف أحمد ٣٥.
٣- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ٤٠.
٤- الاستيعاب، ابن عبد البر ١ / ٢٤٥.

مسلمهم وكافرهم عيبة[1] رسول الله ﷺ بتهامة، صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئا كان بها»[2].

واستمر النبيﷺ بجمع المعلومات عن الأحزاب بعد خروجهم من مكة، فبعث بالاستطلاع ليأتيه بتحركات الأحزاب. قال أبونعيم: «إن رسول اللهﷺ بعث سليطا، وسفيان بن عوف الأسلمي طليعة يوم الأحزاب، فخرجا، حتى إذا كانا بالبيداء التحفت عليهم خيل لأبي سفيان، فقاتلا فقتلا، فقدم بهما، أو فعلم بهما رسول الله ﷺ، وقد قبرا في قبر واحد، وهما الشهيدان القرينان»[3].

ولما نقضت بنو قريظة العهد مع المسلمين لم يغفلﷺ أمرهم بل بعث من يأتيه بتحركاتهم وأخبارهم، قال خَوّاتُ بْنُ جُبَيْر: «دَعَاني رَسُولُ اللّٰه ﷺ وَنَحْنُ مُحَاصِرُون في الْخَنْدَق، فَقَالَ: «انْطَلِقْ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَانْظُرْ هَلْ تَرَى لَهُمْ غُرّةً[4] أَوْ خَلَلًا مِنْ مَوْضِعٍ فَتُخْبِرُنِي»[5].

واستمر النبيﷺ أثناء الأزمة بجمع المعلومات عن نوايا الأحزاب، وتفاعلات مواقفهم، فقد بعث النبيﷺ حذيفة ابن اليمان في آخر ليلة للأحزاب ليتعرف على ما سيفعلوا بعد أن هبت عليهم الريح الباردة، قَالَ حُذَيْفَةُ قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ رَجُلٌ يأتيني بخَبَرِ الْقَوْم جَعَلَهُ اللّٰه معي يَوْمَ الْقِيَامَة»، فَسَكَتْنَا فَلَمْ يُجِبْهُ مِنَّا أَحَدٌ- ثلاث مرات- فَقَالَ: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ»[6].

ولابد أن تكون شبكة نقل المعلومات على تواصل وثيق مع القيادة تزودها بكل جديد ومستجد عن الأزمة، للتجنب المفاجأة التي تحدث بسبب «قصور

١- موضعُ سرّه والذين يأمَنُهم على أمره. ينظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ٤ / ١٥٦.
٢- دلائل النبوة، البيهقي ٣ / ٣٨٨، برقم: ١٢١٤.
٣- معرفة الصحابة، لأبي نعيم الأصبهاني ١٧ / ٢٨٢.
٤- الخديعة والنقصان، انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥ / ١١.
٥- المغازي، الواقدي ١ / ٤٦٠.
٦- الجامع الصحيح، مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، برقم:٤٧٤١.

المعلومات، أو عدم دقة تقييمها وتقديرها، أو عند عدم رفعها في التوقيت المناسب إلى متخذ القرار»[1].

السمة الثانية– السرعة في إيصال المعلومة: سرعة وصول المعلومات إلى القيادة قبل حلول الأزمة أمر ضروري، لأنه يعطي قيادة الأزمة وقتا كافيا لوضع الخطط، واتخاذ الإجراءات والاحتياطات المناسبة، لذا يجب أن يتميز نظام الاتصال في الأزمات بالقدرة على «تحقيق الاتصال الفاعل والسريع بين المستويات الإدارية المختلفة وبين الطواقم المكلفة بالتعامل مع الأزمة»[2]. لقد وصلت المعلومات إلى النبيﷺ عن تجمع الأحزاب بسرعة فائقة. وقال الحلبي: «ولما تهيأت قريش للخروج أتى ركب من خزاعة في أربعة ليال حتى أخبروا رسول اللهﷺ»[3].

وعندما نقضت بنو قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ سارع عمر بن الخطاب بإبلاغ رسول اللهﷺ بذلك، فقال عمر بن الخطاب: «يَارَسُولَ اللّٰهﷺ بَلَغَنِي أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ نَقَضَتْ الْعَهْدَ وَحَارَبَتْ»[4]، وكان أي طارئ يحدث في المدينة المنورة يُزود به النبي ﷺعلى وجه السرعة ليتم اتخاذ الإجراءات المناسبة، قال الواقدي: «هَمّتْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَنْ يُغَيّرُوا عَلَى بَيْضَةِ الْمَدِينَةِ لَيْلًا، فَأَرْسَلُوا حُيَيّ بْنَ أَخْطَبَ إلَى قُرَيْشٍ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مِنْهُمْ أَلْفُ رَجُلٍ، وَمِنْ غَطَفَانَ أَلْفٌ فَيُغِيرُوا بِهِمْ، فَجَاءَ رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ الْخَبَرُ بِذَلِكَ فَعَظُمَ الْبَلَاءُ»[5].

وقد كان الزبير بن العوام يتردد إلى مراقبة بني قريظة، وقال عبدالله بن الزبير: «نَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِالزّبَيْرِ عَلَى فَرَسِه، يَخْتَلِفُ إلَى بني قُرَيْظَةَ مَرّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَلَمّا رَجَعْتُ قُلْتُ يَا أَبَتِ رَأَيْتُكَ تَخْتَلِفُ إلى بني قريظة، قَالَ كَانَ رَسُولُ اللّٰهﷺ

١- إدارة الأزمات، زيد عبوي ١٤٤.
٢- إدارة الأزمات، يوسف أحمد ١٤٨.
٣- السيرة الحلبية، الحلبي ٥ / ٢٣.
٤- المغازي، الواقدي ١ / ٤٤٥.
٥- المغازي الواقدي ١ / ٤٦٠.

قَالَ: مَنْ يَأْت بني قُرَيْظَةَ، فيأتيني بخَبَرهِمْ، فَانْطَلَقْتُ، فَلَمَّا رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ اللهِﷺ أَبَوَيْه، فقَالَ: فِدَاكَ أَبِي وأمي»[١].

السمة الثالثة– دقة المعلومات: من واجبات قائد أزمة الحصار العسكري «توخي الدقة فيما تجمعه إدارة الأزمة من بيانات ومعلومات تتعلق بالأطراف المختلفة»[٢] للأزمة الداخلية والأزمة الخارجية، ولقد ترتب على الأزمة الخارجية للأحزاب أزمة داخلية تمثلت بنقض يهود بني قريظة العهد مع رسول اللهﷺ، فبعث النبيﷺ الزبير بن العوام ليتأكد من دقة الخبر قبل اتخاذ أي إجراء ضدهم. قال الواقدي: «فَاشْتَدّ ذَلِكَ عَلَى رَسُول اللّهِﷺ وَقَالَ مَنْ نَبْعَثُ يَعْلَمُ لَنَا عِلْمَهُمْ؟ فَقَالَ عُمَر الزّبَيْرُ بْنُ الْعَوّام، فَكَانَ أَوّلَ النّاس بَعَثَ رَسُولُ اللّهِﷺ الزّبَيْرُ بْنُ الْعَوّام رضي الله عنه، فَقَالَ: اذْهَبْ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَذَهَبَ الزّبَيْرُ فَنظَرَ، ثُمّ رَجَعَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّه ﷺرَأَيْتهمْ يُصْلِحُونَ حُصُونَهُمْ وَيُدْرِبُونَ طُرُقَهُمْ، وَقَدْ جَمَعُوا مَاشِيَتَهُمْ»[٣].

ولم يكتف النبيﷺ بذلك بل بعث وفدا من الصحابة ليسألوا وليتأكدوا من أن بني قريظة نقضوا العهد فعلا، وأنهم مصرون على ذلك. قال ابن إسحاق: «فَلَمّا انْتَهَى إلَى رَسُول اللّهِﷺ الْخَبَرُ، وَإِلَى الْمُسْلمينَ بَعَثَ رَسُولُ اللهِﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذ بْن النّعْمَان، وَهُوَ يَوْمَئذ سَيّدُ الْأَوْس، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ بْن دُلَيْم، أَحَدَ بَني سَاعدَةَ بْن كَعْب بْنِ الْخَزْرَج وَهُوَ يَوْمَئذ سَيّدُ الْخَزْرَج وَمَعَهُمَا عَبْدُ اللّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، أَخُو بَنِي الْحَارث بْن الْخَزْرَج، وَخَوّاتُ بْنُ جُبَيْر، أَخُو بَنِي عَمْرو بْنِ عَوْف، فَقَالَ: انْطَلِقُوا حَتّى تَنْظُرُوا، أَحَقّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْم أَمْ لَا؟»[٤].

السمة الرابعة– التكتم على بعض المعلومات: القدرة على كتم المعلومة أو

١- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الزبير بن العوام، برقم:٣٧٢٠.
٢- إدارة الأزمات، يوسف أحمد ٢٣٧.
٣- المغازي، الواقدي ١ / ٤٥٤.
٤- السيرة النبوية، ابن هشام ٢ / ٢٢١. الحديث الإسناد منقطع : ضعيف.

نشرها أو تأخير نشرها يرجع إلى قدرة قيادة الأزمات العسكرية على تشخيص المصلحة في ذلك. يقول د.الصيرفي: «يمكن القول بأن ممارسة السرية في التعامل مع المعلومات في ظروف الأزمة عادة ما تكون على درجات، كما يمكن أن يتباين بين فترة وأخرى»[١]. فمن التكتم في بداية الأمر أن النبيﷺعندما بعث سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، ومعهما عبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير، وقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم، فتنظروا أحق ما بلغنا عنهم، فإن كان حقاً فالحنوا لى لحناً أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد المسلمين، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس»[٢].

وكما أن سرية المعلومات وكتمها أمر ضروري، وإفشائها ربما ولَّد أزمات جديدة، أو أطال عمر الأزمة القائمة، وربما زاد من تعقيدها، لذلك تسعى إدارة الأزمات إلى حصر التصريحات بواحد من فريق العمل، وإذا سرب أحد أعضاء فريق العمل معلومات خطيرة يعاقب ويعزل، فعندما وكَّل النبيﷺ أبا لبابة لقتال بني قريظة، وأخبرهم أن النبيﷺ قرر قتلهم بإشارة إلى عنقه عزلة النبيﷺ. قال الواقدي: «فَلَمّا أَحْدَثَ مَا أَحْدَثَ عَزَلَهُ، وَاسْتَعْمَلَ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ»[٣].

المطلب الثاني: استراتيجية الاستثمار الأمثل للإمكانات البشرية وتعبئتها.

يلزم قائد أزمة الحصار العسكري أن يضع المجتمع بالصورة الحقيقية للأزمة القادمة، والهدف من ذلك تحفيز المجتمع على توليد الأفكار الإبداعية التي تؤدي إلى منع حدوث الأزمة، أو التخفيف من آثارها، وهذا ما يسمى بـ(العصف الذهني). ويرى المختصون بإدارة الأزمات أن من أهم متطلبات قيادة الأزمة: «مواجهة العاملين بالحقائق والمعلومات»[٤]. وقد أطلع النبي ﷺ المسلمين على

١- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ٧٤.
٢- السيرة النبوية، ابن هشام ٤ / ١٧٩. الحديث منقطع الإسناد: ضعيف.
٣- المغازي، الواقدي ١ / ٥٠٨. الحديث منقطع: ضعيف.
٤- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ٤٥.

أمر الأحزاب، وحفزهم إلى بذل أقصى الجهود العقلية والبدنية لمواجهت الأزمة القادمة؛ لأن «إدارة الأزمات هي مسؤولية جماعية...، تتداخل فيه أدوار ونشاطات أجهزة وكيانات متعددة»[١]. ولذا بدأ استثمار الموارد البشرية وتعبئتها بدقة وإحكام قبل وصول الأحزاب، واقتضى هذا الأمر القيام بالأمور الآتية:

أولاً– تشكيل فريق عمل الأزمة: يختار قائد الأزمة فريق عمل مناسب يدير الأزمة معه، فيقوم هذا الفريق بواجبات التخطيط، والتنظيم، والتنفيذ، والمراقبة الدقيقة لسير أزمة الحصار العسكري، فينسق مع: «القيادة العليا، والقائد الميداني المباشر للأزمة، ويقوم باستقبال البيانات والمعلومات التي تسعى للحصول عليها وتحليلها، ويقدم النصح والإرشاد من خلال القائد»[٢].

يلاحظ المتتبع لسير أحداث غزوة الأحزاب ظهور فريق عمل رئيسي كان يدير أزمة الحصار مع النبيﷺ، وقد تشكل من شخصيات بارزة كان من أهمها: زعيم الأوس سعد بن عبادة، وزعيم الخزرج سعد بن معاذ، وعمربن الخطاب، وسلمان، وعلي، وحذيفة بن اليمان، وخوات بن جبير، والزبير بن العوام، وعباد بن بشر ، وقد نجح هذا الفريق في إدارة الأزمة بكل ثقة واقتدار، وتحمل للمسؤولية على أكمل وجه، ونفذ المطلوب منه بإتقان عال إلى أن تحقق النصر، وتراجعت الأحزاب خائبة.

ثانياً–إحصاء الموارد البشرية وتوظيفها: تحتاج قيادة أزمة الحصار العسكري إلى توظيف كافة الإمكانات البشرية، وتعبئتها في مواجهة الأزمة. يقول د. يوسف أحمد: «وينبغي توفير وحشد القوة بجانبيها المادي والمعنوي...، والقوة تتضمن إحداث التأثير الفاعل في الأزمة، والسيطرة عليها»[٣]. ويلاحظ في غزوة

١- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ٢٨.
٢- إدارة الأزمات، زيد عبوي ٤٤.
٣- إدارة الأزمات، يوسف أحمد ١٦٨.

الأحزاب أن النبيﷺ استثمر كافة الموارد البشرية التي بين يديه، ووزع المهمات عليها بحيث تستطيع تأدية دورها باستقلالية تامة في مواجهة كل مستجدات الأزمة. وبناءً على ما سبق قام النبي ﷺبالأمور الآتية:

١- **حصر أعداد المقاتلين عددا وسنًّا**: لقد باشر النبي ﷺ هذه المهمة بنفسه لما لها من أثر فاعل في حشد الطاقات، فلم يجز النبي ﷺ للقتال إلا من وصل سن البلوغ. قال الحلبي: «فلما التحم الأمر أمر من لم يبلغ خمس عشرة سنة أن يرجع إلى أهله، وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة، فممن أجازه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وأبا سعيد الخدري، والبراء بن عازب»[(١)].

٢- **تقسيم الأفراد إلى فرق عمل**: تقسيم الأفراد إلى فرق عمل يدفعهم إلى التفاني في إنجاز العمل، ولقد قسم النبيﷺ الصحابة في حفر الخندق إلى مجموعتين متجانستي الانتماء، فقد جعل المهاجرين في مجموعة، والأنصار في مجموعة أخرى. قال الواقدي: «وَوَكّلَ رَسُولُ اللّهﷺ بِكُلّ جَانِبٍ مِنْ الْخَنْدَقِ قَوْمًا يَحْفِرُونَهُ فَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَحْفِرُونَ مِنْ جَانِبِ رَاتِجٍ إلَى ذُبَابٍ، وَكَانَتْ الْأَنْصَارُ تَحْفِرُ مِنْ ذُبَابٍ إلَى جَبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ»[(٢)]، ثم قسم كلتا المجموعتين إلى فرق عمل كل فرقة مكونة من عشرة أفراد يحفرون عشرة أذرع. قال ابن كثير: «وخط رسول الله ﷺ الخندق لكل عشرة أناس عشرة أذرع»[(٣)]، فتم إنجاز الخندق في زمن قياسي، وسرعة فائقة قبل وصول الأحزاب، وهذا مايسمى في إدارة الأزمات: «حشد الطاقات الكامنة لأداء أعمال غير روتينية»[(٤)].

٣- **تنظيم القوات العسكرية وتحديد مهامها**: بعدما تم إنجاز الخندق والتحصينات حوله، واختيار مقر للقيادة على سفح جبل سلع، قام النبيﷺ

١- السيرة الحلبية، الحلبي ٥ / ٢٨.
٢- المغازي، الواقدي ١ / ٤٤٦. الحديث ضعيف في إسناده أبو بكربن بن سبرة: ضعيف.
٣- السيرة النبوية، ابن كثير ٣ / ١٩٢.
٤- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ١٩٠.

بتقسيم العسكر إلى ثلاثة أقسام، وتحديد القادة، والمهمات على النحو الآتي:

أ- حراسة مقر القيادة: يكون مقر القيادة في أزمة الحصار العسكري مستهدفا من القوات المعادية، فلا بد من تأمين حمايته، وتشديد الحراسة عليه، وقد كلف النبيﷺ مجموعة من الصحابة يرأسهم عباد بن بشر بالحراسة، فقد نادى النبيﷺ مرة عباد بن بشرؓ، فقال: «يَا عَبّادَ بْنَ بِشْرٍ، فَقَالَ عَبّادٌ: لَبّيْكَ قَالَ: أَمَعَك أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ أَنَا فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي كُنّا حَوْلَ قُبّتِك»[1].

ب- تحديد القادة ومهماتهم: تحديد القيادات المتميزة، وحصر المهامات التي تقوم بها من أهم الأولويات التي يقوم بها قائد أزمة الحصار، ففي غزوة الأحزاب قام النبيﷺ بتحديد القادة ومهماتهم. قال الحلبي: «وأعطىﷺ لواء المهاجرين لزيد بن حارثة، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة، وبعث مسلمة بن أسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة»[2]. وقال الحاكم: «وكان لواء الأوس معه-أي مع سعد بن عبادة- يوم الخندق»[3].

ج-توزيع قوات الحجابات على امتداد الخندق: والحجابات قوات مواجهة للعدو على أهبة الاستعداد لردعه، والاشتباك معه، وإشغاله، ومنع تسلله، وقد حدثت مواجهات بين قوات الحجابات والأحزاب حينما حاول خالد بن الوليد وفرسان معه اجتياز الخندق، فهاجمتهم قوات المسلمين، وطاردتهم حتى انهزموا عائدين. قال الواقدي: «ثُمّ اتّبَعُوا الْخَنْدَقَ عَلَى حَافَتَيْهِ، وَتَبِعْنَاهُمْ وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى مَحَارِسِهِمْ، فَكُلّمَا نَمُرّ بِمَحْرِسٍ نَهَضَ مَعَنَا طَائِفَةٌ وَثَبَتَ طَائِفَةٌ»[4].

د- توزيع المناويات: فقد كان المسلمون يتناوبون على حراسة الخندق. قال

١- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٦٧.
٢- السيرة الحلبية، الحلبي ٥ / ٢٩.
٣- المستدرك، الحاكم، كتاب المناقب، باب مناقب سعد بن معاذ، برقم:٤٩١٩.
٤- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٦٦.

الواقدي: «وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَتَنَاوَبُونَ الْحِرَاسَةَ وَكَانُوا فِي قُرٍّ شَدِيدٍ وَجُوعٍ»[1]. قال كذلك: «وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى خَنْدَقِهِمْ يَتَنَاوَبُونَ مَعَهُمْ بِضْعَةٌ وَثَلَاثُونَ فَرَسًا»[2].

هـ- الخفارات: وهي دوريات من الفرسان تتفقد قوات الحجابات لتطمئن على سلامتهم وعلى تيقظهم في الحراسة. قال الوقدي: «وَالْفُرْسَانُ يَطُوفُونَ عَلَى الْخَنْدَقِ مَا بَيْنَ طَرَفَيْهِ يَتَعَاهَدُونَ رِجَالًا، وَضَعُوهُمْ فِي مَوَاضِعَ مِنْهُ»[3].

و- الشعار أو كلمة السر التي ينادي بها: وكان التحذير يتم بالنداء من المناوبين بصوت عال ليحذروا ويستنفروا قوات المسلمين لصد الهجوم، فقد سمع النبيﷺ صوت نداء في الليل، فسأل عَبَّادُ بن بشر، فقال: «يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ هَذَا صَوْتُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، اللَّيْلَةَ نَوْبَتُهُ يُنَادِي: يَا خَيْلَ اللهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَعَلَ شِعَارَ الْمُهَاجِرِينَ «يَا خَيْلَ اللهِ»[4]، وجعل النبيﷺ شعارهم في الليل حتى لا تقتتل دوريات المسلمين مع بعضها، فقال لهمﷺ: «إِنْ بُيِّتُّمْ فَلْيَكُنْ شِعَارُكُمْ حم لاَ يُنْصَرُونَ»[5].

٤- دور القيادة في إدارة الأزمة: كان النبي ﷺ كان مثال القدوة لأصحابه في التيقظ والتضحية والبسالة. قالت أم سلمة: «وَكَانَ يَحْرُسُ بِنَفْسِه فِي الْخَنْدَقِ، وَكُنَّا فِي قُرٍّ شَدِيدٍ فَنَظَرَ سَاعَةً، فَأَسْمَعُهُ يَقُولُ: «هَذِهِ خَيْلُ الْمُشْرِكِينَ تُطِيفُ بِالْخَنْدَقِ مَنْ لَهُمْ»[6]، وشارك النبيﷺ أصحابه في صد هجوم خيل غطفان وقريش، تقول أم سلمة: «فَلَبِسَ دِرْعَهُ وَرَكِبَ فَرَسَهُ ثُمَّ خَرَجَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ إِلَى تِلْكَ الثُّغْرَةِ، فَلَمْ يَأْتِنَا حَتَّى كَانَ السَّحَرُ»[7].

١- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٦٥. من الأمور المتفق عليها أن أيام الخندق شديدة البرد واشتد فيها الجوع على المسلمين.

٢- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٥٤.

٣- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٥٤.

٤- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٦٦.

٥- السنن، أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الرجل ينادي بالشعار، برقم:٢٥٩٩

٦- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٦٣.

٧- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٦٧.

المطلب الثالث: استراتيجية استثمار الموارد المتاحة.

أولاً– الاستثمار الأمثل للخبرات والتجارب السابقة: يستفيد القادة في حل الأزمات أو التقليل من أخطارها من منهج القياس التاريخي، والذي يعني: «أن هنالك تجارب تاريخية، وخبرات واسعة، ومتعددة يمكن الاستفادة منها في إدارة الأزمات، والتعامل معها»[1]، ففي غزوة الأحزاب استفاد النبي ﷺ من تجاربه السابقة، ومن خبرات أصحابه في التعامل مع أزمة الأحزاب، ومن تلك الخبرات:

١– خبرات الفرس: استشار النبي ﷺ أصحابه في وضع خطة لمواجهة الأحزاب القادمين إلى المدينة، وهذا الأسلوب من الشورى يعرف بـ(العصف الذهني)، وتشير كتب السير ة أن النبيﷺ أشار عليهم إما بالخروج لقتال الأحزاب خارج المدينة، أوبحفر خندق حولها، فوافق رأي النبيﷺ ما عند سلمانمن خبرة فارس في حفر الخنادق. قال الواقدي: «وَكَانَ رَسُولُ اللهِﷺ يُكْثِرُ مُشَاوَرَتَهُمْ فِي الْحَرْبِ، فَقَالَ: أَنَبْرُزُ لَهُمْ مِنْ الْمَدِينَةِ، أَمْ نَكُونُ فِيهَا وَنُخَنْدِقُهَا عَلَيْنَا، أَمْ نَكُونُ قَرِيبًا وَنَجْعَلُ ظُهُورَنَا إلَى هَذَا الْجَبَلِ؟ فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: نَكُونُ مِمّا يَلِي بُعَاثَ إلَى ثَنِيّةِ الْوَدَاعِ إلَى الْجُرْفِ. فَقَالَ قَائِلٌ: نَدَعُ الْمَدِينَةَ خُلُوفًا، فَقَالَ سَلْمَانُ: يَا رَسُولَ اللهِﷺ إنّا إذْ كُنّا بِأَرْضِ فَارِسَ، وَتَخَوّفْنَا الْخَيْلَ خَنْدَقْنَا عَلَيْنَا، فَهَلْ لَك يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ نُخَنْدِقَ؟ فَأَعْجَبَ رَأْيُ سَلْمَانَ الْمُسْلِمِينَ»[2].

٢–الاستفادة من خبرات الأنصار: ما دخل عدو المدينة إلا هزم، وهذا الأمر معروف عند أهل المدينة، ونبه عليه كبراء الأنصار، وكان هذا رأي زعيم المنافقين. قال ابن إسحاق: «قال عبدالله بن أبي سلول: يا رسول الله لا تخرج إليهم، وَمَا خَرَجْنَا إلَى عَدُوّ قَطّ إلّا أَصَابَ مِنّا، وَمَا دَخَلَ عَلَيْنَا قَطّ إلّا أَصَبْنَاه»[3].

١- إدارة الأزمات، زيد عبوي ٨٠.
٢- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٤٥.
٣- السيرة النبوية، ابن كثير ٣ / ٦٢.

٣- الاستفادة من المواقف السابقة: كانت غزوة أحد حاضرة في فكر النبيﷺ والصحابة، فقد مني المسلمون فيها بخسائر فادحة، فكان رأي النبيﷺ وكبار المهاجرين، والأنصار مقاتلة قريش داخل المدينة، فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺقال لأصحابه: «لو أنا أقمنا بالمدينة، فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم»[١]، فلما أشار سلمان بحفر الخندق، ووافقه النبيﷺ على ذلك سارع الصحابة إلى الموافقة. وقال الواقدي: «فَأَعْجَبَ رَأْيُ سَلْمَانَ الْمُسْلمينَ، وَذَكَرُوا حِينَ دَعَاهُمْ النَّبِيّ ﷺيَوْمَ أُحُدٍ أَنْ يُقِيمُوا وَلَا يَخْرُجُوا، فَكَرِهَ الْمُسْلِمُونَ الْخُرُوجَ وَأَحَبّوا الثّبَاتَ فِي الْمَدِينَةِ»[٢].

٤- الاستفادة من إمكانات المواطنين: عاش اليهود في المدينة المنورة بسلام وأمان ضمن حقوق المواطنة التي كفلها الإسلام لهم، فالعلاقة بين سكان المدينة مبنية على التعاون، وحفظ الأمن، ولذا طلب النبي ﷺ منهم إعارة المسلمين بعض الآلات لحفر الخندق. قال الواقدي: «وَاسْتَعَارُوا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ آلَةً كَثِيرَةً مِنْ مَسَاحِي، وَكَرَازِينَ وَمَكَاتِلَ يَحْفِرُونَ بِهِ الْخَنْدَقَ»[٣].

ثانياً- الاستثمار الأمثل لعنصر الوقت: يعد الوقت عنصراً أساسياً في إدارة الأزمات العسكرية، إذ أنه يساعد القيادة في رسم الخطط، واتخاذ القرارات بتمهل، وأخذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة الأزمة بمنعها، أو بالتخفيف من آثارها. يقول د. يوسف أحمد: «إن عنصر الوقت هو من العناصر المهمة التي تحدد نجاح فريق إدارة الأزمة في التعامل مع الأزمة، والتعاطي معها، وإدارتها بكفاءة وفاعليته»[٤]. ومن صور استثمار الوقت، أن أهل المدينة نشطوا في حفر الخندق ليلا ونهارا، صغارا وكبارا قبل أن يصل الأحزاب إلى المدينة. وقال الواقدي:

١- المسند، أحمد بن حنبل ٣/ ٦٦٤، برقم: ١٤٨٢٩. قال الأرنؤوط: صحيح لغيره.
٢- المغازي، الواقدي ٢/ ٤٤٥.
٣- المغازي، الواقدي ١/ ٤٤٦.
٤- إدارة الأزمات، يوسف أحمد ٧٣.

«فَعملَ ﷺيَوْمَئذ في الْخَنْدَق، وَنَدَبَ النّاسَ فَخَبّرَهُمْ بدُنُوّ عَدُوّهِمْ، وَعَسْكَرَهُمْ إلَى سَفْح سَلْع، وَجَعَلَ الْمُسْلمُونَ يَعْمَلُونَ مُسْتَعْجلينَ يُبادرُونَ قُدُومَ الْعَدُوّ عَلَيْهِمْ، وَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ يَعْمَلُ مَعَهُمْ في الْخَنْدَق ليُنَشّطَ الْمُسْلمينَ»[1]. وقد عمل في حفر الخندق كل من يستطيع العمل من الرجال والصبيان. قال الحلبي: «وعرض ﷺالغلمان وهو يحفر الخندق، وكانوا بأجمعهم من بلغ، ومن لم يبلغ يعملون فيه»[2].

ونبه جبريل عليه السلام النبيﷺ إلى استغلال الوقت لغزو بني قريظة، فقال جبريل عليه السلام:» وَضَعْتَ السِّلاَحَ، فَوَاللَّه مَا وَضَعْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «فَأَيْنَ؟ قَالَ هَا هُنَا، وَأَوْمَأَ إِلَى بَني قُرَيْظَةَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ»[3]، واستنفر النبيﷺ الصحابة للإسراع في الخروج إلى بني قريظة، واغتنام الوقت لحصارهم، وإنزالهم على حكم الله، فقالﷺ: «لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِى بَني قُرَيْظَةَ»[4]، وأرسل النبي عليا رضي الله عنه أمامه يحمل لواء المسلمين. وقال أبو قَتَادَةَ: «انْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ فَلَمّا رَأَوْنَا أَيْقَنُوا بِالشّرّ وَغَرَزَ عَلِيّ -عَلَيْهِ السّلاَمُ- الرّايَةَ عِنْدَ أَصْلِ الْحِصْنِ»[5]، وتلاحق المسلمون حتى أحاطوا بحصون بني قريظة وحاصروها.

ثالثاً: الاستفادة من التضاريس الجغرافية: يولي قائد أزمة الحصار العسكري في خطته الدفاعية اهتماما كبيرا للتضاريس الجغرافية للمنطقة التي ستقع عليها الأزمة العسكرية، لأن هذه التضاريس تشكل عوائق طبيعية تمنع الاختراق، وتحد من حركة القوات المعادية، وتساعده في اختيار التحصينات الصناعية اللازمة

١- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٤٦.
٢- الحلبي، السيرة الحلبية ٥ / ٢٨.
٣- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب مرجع النبي من الأحزاب، رقم: ٢٨١٣.
٤- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الصلاة، باب صلاة الطالب والمطلوب، رقم: ٩٦٤ .
٥- المغازي، الواقدي ٢ / ٥٠٠.

لخطته، وتوظيف» ظروف الأرض وعناصرها لتدعم جهود إدارة الأزمات، وفريق إدارة الأزمات في مواجهة الأزمة، والتغلب عليها بنجاح»[1]. ولذا تنبه النبيﷺ إلى أهمية التحصينات في غزوة الأحزاب، فجعلها على نوعين:

أ- **التحصينات الطبيعية**: وتشتمل على الحرَّات والأودية والجبال، ومما يميز المدينة المنورة أنها محاطة من ثلاث جهات بحرّات يصعب اختراقها والسير فيها، لخشونة سطحها، ووعورة أرضها، وارتفاع جبالها، ففي الشرق حرة واقم، وفي الغرب حرة الوبرة، وفي الجنوب الحرة الجنوبية وجبل عير، و كذلك الكثير من الأودية مثل: وادي رَانُوناء، ووادي مُذَيْنِب، ووادي مهزوز، ووادي بطحان المتصل بجبل سلع إلى أن يصل ثنية الوداع، ومجمع الأسيال في شمال المدينة، ولكل ما سبق اختار الأحزاب الدخول إلى المدينة من الجهة الشمالية، ولذلك حفر المسلمون الخندق في تلك الجهة.

واتخذ النبيﷺ من جبل سلع، مقرا للقيادة، ومكانا حصينا لقوات المسلمين، ومرصدا لمراقبة الأحزاب وبني قريظة. وقال الواقدي: «أَنَّ رَسُولَ اللهِﷺ رَكِبَ فَرَسًا لَهُ، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِه مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَارْتَادَ مَوْضِعًا يَنْزِلُهُ فَكَانَ أَعْجَبَ الْمَنَازِلِ إلَيْه أَنْ يَجْعَلَ سَلْعًا خَلْفَ ظَهْرِه ...، وَعَسْكَرَهُمْ إلَى سَفْحِ سَلْع»[2]. وكان الصحابة يراقبون المدينة من فوق جبل سلع خاصة بعدما نقضت بنو قريظة عهدها مع المسلمين. قال الواقدي: «فَكَانَ أَبُو بَكْرِ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ:» لَقَدْ خِفْنَا عَلَى الذَّرَارِيّ بِالْمَدِينَة مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَشَدَّ مِنْ خَوْفِنَا مِنْ قُرَيْش وَغَطَفَانَ، وَلَقَدْ كُنْت أُوفِي عَلَى سَلْعٍ فَأَنْظُرُ إلَى بُيُوتِ الْمَدِينَة، فَإِذَا رَأَيْتهمْ هَادِينَ حَمِدْت اللهَ عَزّ وَجَلّ»[3].

١- إدارة الأزمات، يوسف أحمد ١٥٨.
٢- المغازي، الواقدي ١ / ٤٤٦.
٣- المغازي، الواقدي ١ / ٤٦٠. انظر خارطة غزوة الأحزاب آخر البحث.

ب- تحصينات صناعية: يسعى القادة في أزمات الحصار العسكري إلى بناء شبكة من التحصينات الصناعية، كوسيلة لحماية المدافعين من هجمات الأعداء وضرباتهم، ولمنع اختراقات القوات المعادية لجبهات القتال، وقد تكونت تحصينات المدينة من الخندق، وسواتر ترابية، وحجارة، وأبنية، ومزارع متشابكة كانت كالآتي:

١- حفر الخندق في الجهة الشمالية من المدينة: بدأ المسلمون بحفر الخندق كتحصين صناعي يصد جموع الأحزاب عن المدينة في الجهة الشمالية للمدينة، لأن الجهة الشمالية مدخل واسع ورحب للمدينة، وكان الخندق يمتد ما بين حرتي واقم من الشرق، وحرة الوبرة في الغرب، وعن مقاسات حفر الخندق. يقول الدكتور شوقي أبو خليل: «فكان حفر الخندق شمالي المدينة...، طوله٥٥٤٤م، ومتوسط عرضه٤٦٢سم، ومتوسط عمقه٣٢٣سم»[١].

٢- التحصين بالأتربة والحجارة: وضع المسلمون ما أخرجوه من تراب، وحجارة من الخندق في جهتهم، ليمنعوا الأحزاب من ردم الخندق واجتيازه، وليستفيدوا منها في الرصد والتصدي للأحزاب، وجلبوا الحجارة كذلك من جبل سلع لرمي المشركين. قال الواقدي: «كَانَ الْمُهَاجِرُونَ، وَالْأَنْصَارُ يَنْقُلُونَ عَلَى رُءُوسِهِمْ فِي الْمَكَاتِلِ، وَكَانُوا إِذَا رَجَعُوا بِالْمَكَاتِلِ جَعَلُوا فِيهَا الْحِجَارَةَ يَأْتُونَ بِهَا مِنْ جَبَلِ سَلْعٍ ، وَكَانُوا يَجْعَلُونَ التّرَابَ مِمّا يَلِي النّبِيّ ﷺ، وَأَصْحَابَهُ وَكَانَ يَسْطُرُونَ الْحِجَارَةَ مِمَّا يَلِيهِمْ كَأَنّهَا حِبَالُ التّمْرِ وَكَانَتْ الْحِجَارَةُ مِنْ أَعْظَمِ سِلَاحِهِمْ يَرْمُونَهُمْ بِهَا»[٢]. وقد رد المسلمون بالحجارة والنبل خيل المشركين التي قادها ضرار بن الخطاب. قال الواقدي: «هَذَا ضِرَارُ بْنُ الْخَطّابِ فِي خَيْلٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مَعَهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ فِي خَيْلِ غَطَفَانَ عِنْدَ جَبَلِ بَنِي عُبَيْد، وَالْمُسْلِمُونَ يُرَامُونَهُمْ بِالْحِجَارَةِ وَالنّبْلِ»[٣].

١- أطلس السيرة النبوية، شوقي أبو خليل ١٣٦.
٢- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٦٦.
٣- المغازي، الواقدي ١ / ٤٦٧.

وكان لرمي المهاجمين بالحجارة أثر كبير صد هجوم المشركين، وقتل بعضهم، حيث قتل في الخندق رميا بالحجارة نوفل بن عبد الله، قال الواقدي: «إِلَّا أَنَّ نَوْفَلَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ وَقَعَ بِهِ فَرَسُهُ فِي الْخَنْدَقِ، فَرُمِيَ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى قُتِلَ»[1]، ورد المسلمون بالرمي بالحجارة والنبل هجوما لعمرو بن العاص ومائة فارس معه. وقال الواقدي: «فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ عَلَيْهَا بِأَصْحَابِهِ، فَرَمَوْهُمْ بِالْحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ حَتَّى أَجْهَضُوا عَنَّا وَوَلَّوْا»[2]، وكذلك رد الصحابة خيلا لأبي سفيان، وقال الواقدي: «فَرَمَوْهُمْ بِالْحِجَارَةِ وَالنَّبْلِ...، حَتَّى أَذْلَقْنَاهُمْ بِالرَّمْيِ فَانْكَشَفُوا رَاجِعِينَ إِلَى مَنْزِلِهِمْ»[3].

٣- تشابك البنيان: وقد كانت الجهة الجنوبية من المدينة ضيقة المدخل، ومتشابكة المباني، وكثيرة المزارع عدا ما فيها من حصون بني قريظة، ويعد ذلك من التحصينات الصناعية التي تعيق حركة قوات الأحزاب، ويدخلها في حرب عصابات تستنزف طاقاتها، وتضعف معنوياتها، وتكبدها خسائر فادحة. وقال الواقدي أثناء حديثه عن غزوة الأحزاب: «وَكَانَ سَائِرُ الْمَدِينَةِ مُشَبَّكًا بِالْبُنْيَانِ»[4]. وقد أشار الحلبي إلى تشابك البنيان في المدينة في غزوة أحد، فقال قال النبي ﷺ لأصحابه: «وإن هم دخلوا علينا قاتلنا فيها-أي فأنا أعلم بها منهم- وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فهي كالحصن»[5]. لذلك توجه المسلمون إلى حفر الخندق في الجهة الشمالية من المدينة.

المطلب الرابع: استراتيجية الحفاظ على الأمن الداخلي.

يضطرب الأمن الداخلي في أوقات الأزمات نتيجة التوتر والتخوف من العدو الخارجي، ونتيجة بعض الأعمال التخريبية أو الإشاعات التي يقوم بها

١- المغازي، الواقدي ١ / ٤٦٩.
٢- المغازي، الواقدي ١ / ٤٦٣.
٣- المغازي، الواقدي ١ / ٤٦٣.
٤- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٤٦.
٥- المغازي، الواقدي ١ / ٢١٠.

المنافقون، لذا من المهمات الرئيسة المناطة بقيادة أزمة الحصار الحفاظ على الأمن الداخلي، فسلامة الجبهة الداخلية وتماسكها يوازي حماية الجبهة الخارجية، لذا قام النبيﷺ بعدة أمور للحفاظ على أمن المجتمع المدني كان منها:

أولاً- منع أسباب النزاع الداخلي، والتخفيف من حدة التوتر: أزمة الحصار العسكري تولد توترا شديدا في المجتمع، والقائد الحكيم يسعى إلى تهدأة النفوس، وبث السكينة والهدوء، وتطييب الخواطر، والبعد عن إثارة الخصومات، ومنع كل ما يثير الضغينة، كالعبث والمزاح المفرط، لأنها تولد الإحباط، واستنفاذ القوة في الخصومة والرعونة. وقد نبه د. الصيرفي على ذلك، فقال: «التخفيف من حدة التوتر والقلق الذي يصيب العاملين أثناء الأزمة»[1]. وقد اعتمد النبيﷺ في منع التوتر بين المسلمين في أزمة حصار الأحزاب على الأساليب الآتية:

١- ملاطفته لأصحابه: تطيب الخواطر بالملاطفة والرفق، والتماس العذر في الضعف الذي يعتري النفوس بسبب الحصار، ورد الحق إلى صاحبه من الأشياء التي تخفف التوتر، فبعدما رد النبي ﷺ السلاح على زيد بن ثابتﷺ، **دعاه وقال** له مداعبا: «يَا أَبَا رُقَادٍ نِمْت حَتّى ذَهَبَ سِلَاحُك»[2].

٢- منع ما يثير العداوة: بتغيير مجرى الحديث عما يثير العداوة إلى الثناء على الشخص الذي وجه إليه كلام يزيد توتره وحنقه، فقد تذكر سعد بن معاذصرعه لثابت بن الضحاك في يوم بعاث، وكان زيد بن ثابت ﷺجالسا مع النبيﷺ، فقال سعد بن معاذ: «الْحَمْدُ لله يَا رَسُولَ اللهﷺ الّذي أَبْقَاني حَتّى آمَنْت بِك: إنّي عَانَقْت أَبَا هَذَا يَوْمَ بُعَاثَ، ثَابتَ بْنَ الضّحّاك، فَكَانَتْ اللّبْجَةُ – الصرعة- بِه، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَمَا إنّهُ نِعْمَ الْغُلَامُ»[3]. فأنهى النبيﷺ التوتر بكلمة واحدة.

١- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ١٩٠.
٢- المستدرك، الحاكم، كتاب المناقب، باب مناقب زيد بن ثابت، برقم:٥٧٧٧.
٣- المستدرك، الحاكم، كتاب المناقب، باب مناقب زيد بن ثابت، برقم:٥٧٧٨.

٣- حمل الأمور على إحسان الظن: يفقد الإنسان أحيانا في أزمة الحصار العسكري القدرة على التفاهم مع الطرف الآخر نتيجة ما يمر به سائر أفراد المجتمع من شد أعصاب وتوتر، وقد تُحمَّل بعض الألفاظ بسبب التوتر أكثر مما تحتمل، وتفسر بسوء ظن، لذلك قال النبي ﷺ للصحابة في أزمة حصار الأحزاب: «لَا يَغْضَبُ أَحَدٌ مِمّا قَالَ صَاحِبُهُ لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ سُوءًا»(١).

٤- حل الخلاف وإنهائه: لا شك أن الأزمات العصيبة كالحصار، ترفع من وتيرة الحدة والتنافس بين الناس، والقيادة الحكيمة تلجأ إلى التهدئة، وإنهاء التنافس المضر. قال الواقدي: «وَتَنَافَسَ النّاسُ يَوْمَئِذ في سَلْمَانَ الْفَارِسِيّ، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: سَلْمَانُ مِنّا وَكَانَ قَوِيّا عَارِفًا بِحَفْرِ الْخَنَادقِ، وَقَالَتْ الْأَنْصَارُ: هُوَ مِنّا وَنَحْنُ أَحَقّ به! فَبَلَغَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَوْلُهُمْ فَقَالَ: «سَلْمَانُ رَجُلٌ مِنّا أَهْلَ البيت»(٢). «وَلَقَدْ كَانَ يَوْمَئِذٍ يَعْمَلُ عَمَلَ عَشَرَةِ رِجَالٍ»(٣). لذا يعتبر الصراع بين فريق العمل من أسباب تفاقم الأزمة الداخلية، وانعدام الثقة والانسجام بينهم. يقول محمد الصيرفي في الأسباب الداخلية للأزمة: «ويتسبب ذلك في سيادة روح الأنانية، وعدم الاعتراف بالأخطاء، وتزايد الصراع بين العاملين»(٤).

٥- منع ترويع المسلم بأخذ سلاحه: لابد من الامتناع عن ترويع المحاصرين ولو على سبيل المزاح، والأولى والأنفع إدخال الطمأنينة والأمان إلى النفوس، فلقد نام زيد بن ثابت في الخندق من التعب والإرهاق، فجاء عمارة بن حزم فأخذ سلاح زيد، فلما استيقظ ولم يجده أصابه الخوف، فقام رسول الله ﷺ على الفور، وقال: «مَنْ لَهُ عِلْمٌ بِسِلَاحِ هَذَا الْغُلَامِ؟ فَقَالَ: عُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ: أَنَا يَا رَسُولَ

١- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٤٧.

٢- المستدرك، الحاكم، كتاب المناقب، باب مناقب سلمان الفارسي، برقم:٦٥٤١. وقال الذهبي: سنده ضعيف.

٣- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٤٦.

٤- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ٣٩.

اللهﷺ وَهُوَ عِنْدِي. فَقَالَ: فَرُدَّهُ عَلَيْهِ، وَنَهَى رَسُولُ اللهِﷺ أَنْ يُرَوَّعَ الْمُسْلِمُ أَوْ يُؤْخَذَ مَتَاعُهُ لَاعِبًا وَجَادًّا»[١].

٦- **المواساة حال وقوع الخطأ:** قائد أزمة الحصار هو المرجع في أي خلاف داخلي، يجمع الكلمة، ويوحد الصف، ويواسي الناس، فقد وقع قتال بالخطأ بين دوريتين من المسلمين، ووقع بينهم قتلى وجرحى، فأرجعوا الأمر إلى رسول اللهﷺفقال: «جِرَاحُكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ. فَكَانُوا بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا دَنَا الْمُسْلِمُونَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ نَادَوْا بِشَعَارِهِمْ لِأَنْ يَكُفَّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلَا يَرْمُونَ بِنَبْلٍ وَلَا بِحَجَرٍ»[٢].

ثانياً- تأمين الأمن والحماية للأطفال والنساء: يعتري الجنود في أزمة الحصار الخوف على أولادهم وأهليهم، ولذا لا بد من تأمين ذراري الجنود وسائر النساء والأطفال في أماكن حصينة بعيدة عن الأخطار، وتشكيل حراسات عليها، وتوفير ما يحتاجونها فيها، وفي حصار الأحزاب للمدينة المنورة «رَفَعَ الْمُسْلِمُونَ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ فِي الْآطَامِ، وَرَفَعَتْ بَنُو حَارِثَةَ الذَّرَارِيَّ فِي أُطُمِهِمْ وَكَانَ أُطُمًا مَنِيعًا، وَكَانَتْ عَائِشَةُ يَوْمَئِذٍ فِيهِ، وَرَفَعَ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ النِّسَاءَ وَالذُّرِّيَّةَ فِي الْآطَامِ، وَخَنْدَقَ بَعْضُهُمْ حَوْلَ الْآطَامِ بِقُبَاءَ وَحَصَّنَ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَلَفُّهَا، وخَطْمَةُ وَبَنُو أُمَيَّةَ، وَوَائِلٌ وَوَاقِفٌ فَكَانَ ذَرَارِيُّهُمْ فِي آطَامِهِمْ»[٣].

ثالثاً- تنظيم دوريات الأمن الداخلي: عند حدوث الأزمة الداخلية لا بد من تكثيف الدوريات الأمنية لنشر الطمأنينة، وإحكام السيطرة على الأمنية على الجبهة الداخلية، وإرهاب أصحاب الأنفس المريضة، ولقد زاد خوف المسلمين على ذراريهم من بني قريظة، أكثر من خوفهم من الأحزاب. قال أبو بكر: «لَقَدْ

١- المستدرك، الحاكم، كتاب المناقب، باب مناقب زيد بن ثابت، برقم:٥٨٠٦.
٢- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٤٧.
٣- المغازي، الواقدي١ / ٤٥٠.

خفْنَا عَلَى الذَّرَارِيّ بِالْمَدِينَة مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَشَدّ مِنْ خَوْفنَا مِنْ قُرَيْش وَغَطَفَانَ،... فَكَانَ مِمّا رَدّ اللّهُ بِه قُرَيْظَةَ عَمّا أَرَادُوا أَنّ الْمَدِينَةَ كَانَتْ تُحْرَسُ»[1]. وهذا ما أكده جَابِر بْنِ عَبْد اللّه قَائلاً: «كَانَ خَوْفُنَا عَلَى الذّرَارِيّ بِالْمَدِينَة مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَشَدّ مِنْ خَوْفِنَا مِنْ قُرَيْش»[2]. وكانت الدوريات مزودة بالخيول سريعة الحركة، وكانت الدوريات تجوب المدينة بالليل والنهار تملأ الطرقات تكبيرا بالليل، وتأمينا بالنهار، وَكَانَ النبيﷺ يبعث سريتين، الأولى: يقودها سَلَمَةَ بْنَ أَسْلَمَ الْأَشْهَلِيّ مكونة من مائتي رجل، والثانية: يقودها زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ مكونة من ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة، وكانوا «يُظْهِرُونَ التّكْبِيرَ خَيْلُ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا أَصْبَحُوا أَمّنُوا»[3]. وقالت أم سلمة رضي الله عنها: «وَأَنّ قُرَيْظَةَ لَا نَأْمَنُهَا عَلَى الذّرَارِيّ، وَالْمَدِينَةُ تُحْرَسُ حَتّى الصّبَاحِ يُسْمَعُ تَكْبِيرُ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا حَتّى يُصْبِحُوا»[4].

رابعاً- إشعار الأعداء في الجبهة الداخلية بالقدرة على ردعهم: إن من شروط نجاح إدارة الأزمة أن يشعر الطرف المهاجم أن لديه من القدرات ما يستطيع به تدمير عدوه. يقول د. الصيرفي:«فإن على مدير الأزمة أن يقنع الطرف المستهدف بقدرته على تكبيده خسائر فادحة في حالة الصراع»[5]. لقد وقعت اشتباكات بين دوريات المسلمين، وفئات من بني قريظة، فقد خرج نَبّاشُ بن قيس القرظي ومعه عشرة من اليهود، وهم يقولون: «عَسَى أَنْ نُصِيبَ مِنْهُمْ غُرّةً، فَانْتَهَوْا إلَى بَقِيعِ الْغَرْقَد، فَيَجِدُونَ نَفَرًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَصْحَاب سَلَمَةَ ابْن أَسْلَمَ بْن حَرِيش، فَنَاهَضُوهُمْ فَرَامُوهُمْ سَاعَةً بِالنّبْلِ ثُمّ انْكَشَفَ الْقُرَيْظِيّونَ مُوَلّينَ»[6]. ولم يكتفِ سلمة بن أسلم بذلك بل سار إلى حصونهم، ودار حولها، وأوقع الرعب في

١- المغازي، الواقدي ١ / ٤٦٠.
٢- المغازي، الواقدي ١ / ٤٦٠.
٣- عيون الأثر في سيرة سيد البشر، ابن سيد الناس ٢ / ٣٧.
٤- المغازي، الواقدي ١ / ٤٦٧.
٥- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ٢٦.
٦- المغازي، الواقدي ١ / ٤٦٢.

قلوب ساكنيها. قال الواقدي: «فَجَعَلُوا يُطِيفُونَ بِحُصُونِهِمْ حَتّى خَافَتْ الْيَهُود، وَأَوْقَدُوا النّيرَانَ عَلَى آطَامِهِمْ، وَهَدَمُوا قَرْنَيْ بِئْرٍ لَهُمْ، وَهَوّرُوهَا عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا يَطْلُعُوا مِنْ حِصْنِهِمْ، وَخَافُوا خَوْفًا شَدِيدًا»[1].

خامساً– منع التواصل بين الأعداء في الخارج والداخل: وقد نجحت الدوريات في منع إمدادات اليهود لقريش، فقد غنمت دورية للمسلمين قافلة طعام أرسلتها بنو قريظة إلى قريش. قال الحلبي: «إن دورية مسلحة من الأنصار خرج رجالها ليدفنوا ميتاً لهم، فصادفوا قافلة من عشرين بعيراً محملة تمراً وشعيراً وتبناً، فأخذها المسلمون وخفف الله بها عليهم من ضائقة المجاعة التي كانوا يعانونها»[2]، وكان لدوريات المسلمين شعار ينادون به في الليل: «حم لَا يُنْصَرُونَ»[3]، واختار النبيﷺ شعارا للمهاجرين للنفير هو: «يا خيل الله»[4].

سادساً– نشر الوعي الأمني بين المواطنين: الأمن الشخصي لأفراد المجتمع أمر مهم في أزمات الحصار العسكري، ولا بد من ثلاثة أمور لسلامتهم:

١– حظر التجول إلا للضرورة: قال الواقدي: «فَكَانَ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الْعَوَالِي يَطْلُعُونَ إلَى أَهْلِيهِمْ، فَيَقُولُ لَهُمْ رَسُولُ ﷺ: إنّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِذَا أَلَحّوا فِي كَثْرَةِ مَا يَسْتَأْذِنُونَهُ»[5] يأذن لهم.

٢– حمل السلاح للدفاع عن النفس: فكان النبيﷺ يقول لمن يأذن له بزيارة أهله: «مَنْ ذَهَبَ مِنْكُمْ فَلْيَأْخُذْ سِلَاحَهُ فَإِنّي لَا آمَنُ بَنِي قُرَيْظَةَ هُمْ عَلَى طَرِيقِكُمْ»[6].

٣– تحديد الطرق الأكثر أمنا لقضاء الحاجات الضرورية: وكان الطريق التي

١– المغازي، الواقدي ١ / ٤٦٠.
٢– الحلبي، السيرة الحلبية ٢ / ٣٢٣.
٣– السنن، أبو داو كتاب الجهاد، باب الرجل ينادي بالشعار، برقم: ٢٢٥٩.
٤– السنن، أبو داو كتاب الجهاد، باب في النداء عند النفير، برقم: ٢٥٦٠.
٥– المغازي، الواقدي١ / ٤٦٠.
٦– المصدر السابق.

يسلكها من يريد زيارة أهله في عوالي المدينة، ما ذكره الواقدي بقوله: «وَكَانَ كُلّ مَنْ يَذْهَبُ مِنْهُمْ إنّمَا يَسْلُكُونَ عَلَى سَلْعٍ حَتّى يَدْخُلُوا الْمَدِينَةَ، ثُمّ يَذْهَبُونَ إلَى العالية»[1]، ومن أراد أن يرصد حركات بني قريظة يسلك الطريق التي سلكها خوات بن جبير؛ قال رضي الله عنه: «قَالَ فَخَرَجْت...، فَتَدَلّيْت مِنْ سَلْعٍ،... ثُمّ خَرَجْت حَتّى أَخَذْت فِي رَاتِجٍ، ثُمّ عَلَى عَبْدِ الْأَشْهَلِ، ثُمّ فِي زُهْرَةَ، ثُمّ عَلَى بُعَاثَ، فَلَمّا دَنَوْت مِنْ الْقَوْمِ قُلْت: أَكْمُنُ لَهُمْ، فَكَمَنْت وَرَمَقْت الْحُصُونَ سَاعَةً»[2].

المطلب الخامس: استراتيجية التحفيز المستمر لمواجهة الأزمة.

التحفيز مأخوذ من الفعل الثلاثي (حَفَزَ)، قال ابن فارس: «تدل على الحث وما قرب منه»[3]، وتتعدد- بعد ذلك- التعريفات الاصطلاحية (للحوافز). يقول الدكتور عاطف عبيد: «كل الأساليب المستخدمة لحث العاملين على العمل المثمر»[4]. سواء أكانت هذه الحوافز مادية أم معنوية، ويعد التحفيز من مهام قائد الأزمات. ويضع د. الصيرفي التحفيز في أول مهام القائد أثناء الأزمة، فيقول: «تحفيز ودفع العاملين للمشاركة في مواجهة الأزمة»[5]. ولقد استخدم النبيﷺ العديد من الأساليب في تحفيز المسلمين في غزوة الأحزاب، لتبقى هممٍ عالية في مواجهة الأحزاب، ومقاومتة هجمتهم، ومن تلك الأساليب:

أولاً– التحفيز بالقدوة: القائد قدوة لجنوده في العمل والصبر وتحمل المشاق، ومما يحفز الجنود على البذل والتضحية الصادقة رؤيتهم لقائدهم وهو يشاركهم في الأعمال والآمال، وكما أن الأزمات محك لاختبار الجنود هي كذلك محك لاختبار القائد، ولقد كان النبيﷺ قدوة لأصحابه في الرخاء والشدة، وكان يبادر

١- المصدر السابق.
٢- المصدر السابق.
٣- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس ٢٧٤.
٤- الإنسان والإدارة، منصور فهمي ٣٢٦.
٥- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ١٩٠.

إلى أعمال الخير قبل أصحابه ليقتدوا به في العمل والإنجاز، ويبذل جهدا مضاعفا في العمل ليحفز أصحابه على العمل المتقن الدؤوب.

وكان النبيﷺ في غزوة الأحزاب مثال القائد القدوة في إسهامه في حفر الخندق، ونقل التراب منه. فعن البراء قال: «كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغبر بطنه»[1]. وعلى القائد أن يكون على استعداد دائم لحل العقبات التي تحدث في تنفيذ الخطط لمواجهة الأزمات، لذا نجد أن الصحابة لجأوا إلى النبيﷺ في كل شدة اعترضت حفر الخندق كالصخرة التي لم يستطيعوا كسرها، فاستعانوا بالنبيﷺ. قال البراء بن عازب: «لما أمرنا رسول ﷺأن نحفر الخندق عرض لنا فيه حجر لا يأخذ فيه المعول، فاشتكينا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسول اللهﷺ: فألقى ثوبه وأخذ المعول،... فقطع الحجر»[2].

وقد نقل الصحابة لنا صورا عن القائد القدو ة النبيﷺ التي يشارك مجتمعه الآمال والآلام. يقول الصحابي أبو واقد الليثي: «كُنْت أَرَى رَسُولَ اللّٰه ﷺ وَإِنّهُ لَيَضْربُ مَرّةً بِالْمعُول، وَمَرّةً يَغْرِفُ بِالْمِسْحَاة التّرَابَ، وَمَرّةً يَحْملُ التّرَابَ فِي الْمِكْتَلِ، وَلَقَدْ رَأَيْته يَوْمًا بَلَغَ مِنْهُ–التعب–، فَجَلَسَ رَسُولُ اللّٰهﷺ ثُمّ اتّكَأَ عَلَى حَجَرِ عَلَى شَقّه الْأَيْسَر فَذَهَبَ بِه النّوْمُ، فَرَأَيْت أَبَا بَكْر وَعُمَرَ وَاقِفَيْنِ عَلَى رَأْسه يُنَحّيَانِ النّاسَ أَنْ يَمُرّوا بِه، فَيُنَبّهُوهُ، وَأَنَا قَرّبْت مِنْهُ، فَفَزِعَ، وَوَثَبَ، فَقَالَ: أَلَا أَفْزَعْتُمُونِي، فَأَخَذَ الْكَرْزَنَ [3] يَضْرِبُ بِه»[4].

والقائد الناجح لأزمة الحصار العسكري ينبغي عليه أن يشاطر أصحابه مصاعب الحصار، كما يشاركهم أفراح الانتصار، فقد كان النبيﷺ قدوة

١- الجامع الصحيح، البخاري،كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، برقم: ٤١٠٤.
٢- السنن الكبرى، النسائي،كتاب المغازي، باب حفر الخندق، برقم: ٨٨٥٨.
٣- الكرْزنُ والكرْزينَ بالكسرَ: فأس، وقال ابن سيده: الفأس لها رأسٌ واح وقيل: الكِرْزِينُ نحوُ المِطْرَقة. انظرَ: لسان العرب، ابن منظور ١٣ / ٣٥٨.
٤- المغازي، الواقدي ١ / ٤٥٤.

لأصحابه في الصبر على الجوع والتعب. قال جابر: «لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بالنبيﷺخَمَصًا[1] شَدِيدًا»[2]. وقال جابر: «قام رسول اللهﷺ وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً»[3].

ولابد لقائد أزمة الحصار من أن يشارك جنوده في الترقب والحراسة وهو في قبته. قالت أم سلمة رضي الله عنها: «وَكَانَ يَحْرُسُ بنَفْسه في الْخَنْدَق، وَكُنّا في قُرّ شَديد، فَنَظَرَ سَاعَةً، فَأَسْمَعُهُ يَقُولُ: «هَذه خَيْلُ الْمُشْركينَ تُطِيفُ بالْخَنْدَق مَنْ لَهُمْ»[4]، وشارك النبيﷺ أصحابه في صد هجوم لخيل غطفان. قالت أم سلمة: «فَدَخَلَ رَسُولُ الله فَلَبسَ درْعَهُ وَمغْفَرَهُ وَرَكبَ فَرَسَهُ وَخَرَجَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ حَتّى أَتَى تلْكَ الثّغْرَةَ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَجَعَ وَهُوَ مَسْرُورٌ، فَقَالَ:»صَرَفَهُمْ اللهُ وَقَدْ كَثُرَتْ فيهِمْ الْجِرَاحَةُ»[5]، ونهض مرة أخرى في صد هجمة لغطفان وقريش. تقول أم سلمة رضي الله عنها:«فَلَبسَ درْعَهُ وَرَكبَ فَرَسَهُ ثُمّ خَرَجَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ إلَى تلْكَ الثّغْرَة، فَلَمْ يَأْتنَا حَتّى كَانَ السّحَرُ فَرَجَعَ، وَهُوَ يَقُولُ: رَجَعُوا مَفْلُولينَ قَدْ كَثُرَتْ فيهِمْ الْجِرَاحَةُ»[6].

ثانياً– التحفيز بالثناء على الأشخاص: الثناء العاطر من قائد الأزمة على فريق العمل، وإطلاق الألقاب المشعرة بالمدح على من قام بمهمات صعبة منهم أسلوب من أساليب التحفيز على العمل، ففي غزوة الأحزاب أطلق النبيﷺ على حذيفة لقب (حواريِّ) فقد قَالَ النبيﷺ: «مَنْ يأتيني بخَبَرِ الْقَوْم...، قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ يأتيني بخَبَرِ الْقَوْم»، قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنا، فَقَالَ النبيﷺ: «إنَّ لكُلِّ نبي حَوَاريًّا، وحواري الزُّبَيْرُ»[7].

١- الجائعُ الضامرُ البطن. لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٢٩.
٢- الجامع الصحيح، البخاري،كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، برقم: ٤١٠٢.
٣- الجامع الصحيح، البخاري،كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، برقم: ٤١٠١.
٤- المغازي، الواقدي ١ / ٤٦٤.
٥- المغازي، الواقدي١ / ٤٦٧.
٦- المغازي، الواقدي١ / ٤٦٧ .
٧- الجامع الصحيح، البخاري،كتاب المغازي، باب فضل الطليعة، برقم: ٢٨٤٦.

ولما رجع عبد الله بن الزبير من عند بني قريظة، وأتى النبي ﷺبأخبارهم قال له رَسُولُ اللَّهِﷺ: «فِدَاكَ أَبِي وأمي»(١)، وأثنى النبيﷺ على سيد الأوس سعد بن معاذ- الذي جرح في سبيل الله- فقال:«قُومُوا إِلَى خَيْرِكُمْ أَوْ إِلَى سَيِّدِكُمْ»(٢).

ثالثاً- التحفيز بالمشاركة في اتخاذ القرارات: يجب أن تكون العلاقة بين القائد وفريق العمل مبنية على المرونة والمسؤولية، وعليه أن يستشير فريق إدارة الأزمة في كل القرارات خاصة تلك القرارات الخطيرة التي ينبني عليها أمورا سيادية، وهذه هي طبيعة إدارة الأزمات إذ ينبغي أن تكون مبنية على: «منظومة تتفاعل فيها نشاطات وجهود كل الكيانات والخبرات ذات العلاقة بإدارة الأزمة، وأن يتسم بالمرونة بالقدر الذي يسمح له بالتكيف مع التغييرات التي تستجد معها الأزمة»(٣). وهذا ما نبه عليه كذلك د. عبوي بقوله: «فالقائد يجب عليه أن يكون مستعدا لإظهار المرونة، وأن يكون منفتحا على الاقتراحات، والصيغ والوسائل حول كيفية التعامل مع الأزمة، وإيجاد الحلول المناسبة لها»(٤)، فلما جاء الحارث الغطفاني إلى المدينة وفاوض النبيﷺ على الرجوع عن حصار المدينة بشرط أن يشاطرهم تمر المدينة، لم يوافق النبيﷺ مباشرة على ذلك بل شاور أصحابه، فقال: «حَتَّى أَسْتَأْمِرَ السُّعُودَ، فَبَعَثَ إِلَى سَعْدِ بن مُعَاذٍ، وَسَعْدِ بن عُبَادَةَ، وَسَعْدِ بن الرَّبِيعِ، وَسَعْدِ بن خَيْثَمَةَ، وَسَعْدِ بن مَسْعُودٍ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَإِنَّ الْحَارِثَ يَسْأَلُكُمْ أَنْ تُشَاطِرُوهُ تَمْرَ الْمَدِينَةِ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَدْفَعُوا إِلَيْهِ عَامَكُمْ هَذَا، حَتَّى تَنْظُرُوا فِي أَمْرِكُمْ بَعْدُ»(٥).

١- الجامع الصحيح، البخاري،كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الزبير بن العوام، برقم: ٣٧٢٠.
٢- الصحيح، ابن حبان، رقم: ٧٠٢٦.
٣- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ٤٠.
٤- إدارة الأزمات، زيد عبوي ٤٨.
٥- المعجم الكبير، الطبراني، برقم: ٥٢٧١.

فكان رد الصحابة مهذبا، ورفضوا عرض الحارث الغطفاني، فقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّه، أَوَحْيٌ مِنَ السَّمَاء، فَالتَّسْلِيمُ لأَمْرِ اللَّه، أَوْ عَنْ رَأْيِك، أَوْ هَوَاك، فَرَأْيُنَا تَبَعٌ لِهَوَاكَ ورَأْيِكَ؟ فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ الإِبْقَاءَ عَلَيْنَا، فَوَ اللَّه لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَإِيَّاهُمْ عَلَى سَوَاءٍ مَا يَنَالُونَ مِنَّا تَمْرَةً إِلا بِشِرًى، أَوْ قِرًى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هُوَ ذَا تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُونَ»[1].

رابعاً– التحفيز بتفويض الصلاحيات: لابد لقائد أزمة الحصار من تفويض بعض الصلاحيات التي تخصه إلى فريق العمل الذي يشاركه في التصدي للأزمة لأن ذلك يسهم في تخفيف ضغط المهام على القائد، ويسهم في تحمل فريق العمل مسؤولياتهم، وتدريبهم من خلال الأزمة لمواجهة أزمات المستقبل قادة وفريق عمل، لذلك كان من منهج النبي ﷺ في الأزمات تكليف بعض أصحاب الكفاءة في مهمات يتقنونها للمساهمة في حل الأزمة، ومن صور ذلك:

١– **تفويض نائب عنه:** فمن منهجه ﷺ أنه كان يستخلف صحابيا على المدينة إذا خرج لسفر أو جهاد إلى أن يعود، وقد استعمل النبي ﷺ ابن أم مكتوم على المدينة في غزوة الأحزاب. يقول ابْنُ هِشَام: «وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ»[2].

٢– **تفويض من يفاوض:** وبعث سيدا الأوس والخزرج إلى بني قريظة عندما أشيع خبر نقضهم للعهد لأن هذين السيدين لهما مكانة عظيمة عند المسلمين واليهود، وفوضهما النبي ﷺ في مخاطبة ومجادلة بني قريظة. يقول ابن إسحاق: «بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ...، وَسَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ...، وَمَعَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ...، وَخَوَّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ...، فَقَالَ: انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا، أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا؟...، قَالَ: فَخَرَجُوا حَتَّى أَتَوْهُمْ، فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ، فنالوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالُوا: مَنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ

١– المعجم الكبير، الطبراني، برقم: ٥٢٧١.

٢– السيرة النبوية، ابن هشام ٢ / ٢٢٠.

مُحَمّد وَلَا عَقْد»[1]، فشتمهم سعد بن معاذ ولعنهم.

٣- تفويض للخدعة والمراوغة: وفوض النبيﷺ نعيم بن مسعود في أن يفتن بين الأحزاب وبني قريظة، وأن يقول مايشاء. قال الواقدي:«قال نعيم بن مسعود: فَمُرْني بِمَا شِئْت يَا رَسُولَ اللّهِﷺ، فَوَاَللّهِ لَا تَأْمُرُنِي بِأَمْرٍ إلّا مَضَيْت لَهُ قَوْمِي لَا يَعْلَمُونَ بِإِسْلَامِي وَلَا غَيْرُهُمْ. قَالَ: مَا اسْتَطَعْت أَنْ تُخَذّلَ النّاسَ فَخَذّلْ، قلت: أفعل، ولكن يَا رَسُولَ اللّهِﷺ أَقُولُ فَأْذَنْ لِي، قَالَ: قُلْ مَا بَدَا لَك فَأَنْتَ فِي حِلّ»[2].

٤- تفويض شخصية اعتبارية في المجتمع: وعندما اضطربت غوغاء الناس من الأوس يطالبون رسول اللهﷺ أن يعفوا عن بني قريظة حلفائهم في الجاهلية، كما عفا عن بني النضير حلفاء الخزرج في الجاهلية، ففوض النبيﷺ الأمر فيهم إلى سعد بن معاذ فقبلت اليهود وغوغاء الأوس ذلك. قال ابن حبان: «عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ، أَنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ، نَزَلُوا عَلَى حُكْم سَعْد بْن مُعَاذ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى سَعْد، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: قُومُوا إِلَى خَيْركُمْ أَوْ إِلَى سَيِّدكُمْ، قَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمك، قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذُرِّيَّتُهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْم الله»[3].

خامساً- التحفيز بالمكافئة المادية: تدرك القيادة الفذة الفروق الفردية بين أفراد فريق عمل الأزمات، فقد ينال بعض الأفراد مكافئات مادية على قيامهم بأعمال بطولية مميزة عجز عنها غيرهم، وهذا المكافئات عدل وصواب، ومن تلك المكافئات أن يأخذ المقاتل سلب من يقتله. قال النبيﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً لَهُ عَلَيْه بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ»[4]، وقد قتل علي عمرو بن ودَّ في هذه الغزوة، فقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطّاب رضي الله عنه:«هَلّا سَلَبْته دِرْعَهُ، فَإِنّهُ لَيْسَ فِي الْعَرَبِ دِرْعٌ خَيْرٌ مِنْهَا، فَقَالَ إنّي حِينَ ضَرَبْته

١- السيرة النبوية، ابن هشام ٢ / ٢٢١.

٢- الواقدي، المغاري ٢ / ٤٨١.

٣- صحيح، ابن حبان، بترتيب ابن بلبان، رقم: ٧٠٢٦

٤- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب، برقم: ٤٣٢١

اسْتَقْبَلَنِي بسوءته، فَاسْتَحْيَيْت - ابْنَ عَمّي - أَنْ أَسْتَلِبَهُ»[1].

المطلب السادس: استراتيجية الصدمة المؤثرة.

تشكل الصدمة ضربة قوية للقوات المهاجمة تضعف قوتها، وتربك صفوفها. يقول د. يوسف أحمد: «تُعبِّر الصدمة عن موقف حاد ينجم عن حادث غير متوقع، وتؤدي إلى شعور فجائي بالخداع والغدر»[2]. وقد حقق المسلمون عدة صدمات للأحزاب وبني قريظة كان من أهمها:

أ- الصدمة بحفر الخندق: أمَّا الأحزاب فقد أصابتهم الصدمة، والذهول عند رؤية الخندق، وما حوله من الاستعدادات، والتحصينات المحكمة. قال الحلبي: «ولما نظر المشركون إلى الخندق، قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها»[3]، لقد حققت الصدمة أهدافها النفسية: فقد أصابت الخيبة والفشل قوات الأحزاب، وعجزوا عن التفكير، وعن اتخاذ القرارات السليمة، وأصابهم ذهول، إذ كيف لم يصلهم خبر حفر الخندق؟ وكيف تم إنجازه في زمن قياسي؟ وما عساهم يفعلون؟.

لقد حققت الصدمة أهدافها المادية في تجنب الصراع المباشر بين المسلمين والأحزاب. يقول د. الصيرفي:«في كل الأحوال يظل الهدف النهائي لإدارة الأزمات عدم تحويلها إلى صراع سافر»[4]، فقد شل الخندق تقدم قواتهم. يقول شوقي أبو خليل: «وإنها فكرة مجربة عند الفرس تشل حركة الخيل، وهي - الخيل- قوة فاعلة عند قريش»[5]، ولم يستطيعوا الالتحام مع قوات المسلمين، تغدو قواتهم إلى الخندق تصول وتجول ولا يقع بينهم وبين المسلمين إلا مناوشات

١- الروض الأنف، السهيلي ٦ / ٢١٣.
٢- إدارة الأزمات، يوسف أحمد ٥٠.
٣- السيرة الحلبية، الحلبي ٢ / ١٥٦.
٤- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ٢٦.
٥- الخندق، شوقي أبو خليل ٧٤.

قليلة. قال الحلبي: «فلا يزالون يجيلون خيلهم، ويتفرقون مرة، ويجتمعون أخرى، ويناوشون أصحاب رسول الله ﷺ... ولم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى»[1].

ب- الصدمة بسرعة حصار المسلمين لبني قريظة: وضعت الحرب أوزارها بانسحاب كامل لقوات الأحزاب عن الخندق، بعد حصار دام أياما طويلة أمضاها المسلمون في رباط ومصابرة، وخوف أتعب النفوس، و أرهق الأبدان، ثم انكشفت الغمة، ومالت النفوس إلى الراحة، فجاء جبريل يأمر النبيﷺ بالتوجه إلى بني قريظة، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺ لَمَّا رَجَعَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَوَضَعَ السِّلاَحَ وَاغْتَسَلَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ الْغُبَارُ، فَقَالَ وَضَعْتَ السِّلاَحَ، فَوَاللَّهِ مَا وَضَعْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَيْنَ؟ قَالَ هَا هُنَا، وَأَوْمَأَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، قَالَتْ: فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»[2]، واستنفر النبيﷺالصحابة للإسراع للخروج، فقالﷺ:«لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»[3].

صدم يهود بني قريظة عندما وصلهم خبر انسحاب الأحزاب عن إحصار المدينة، وتيقنوا أن نقضهم للعهد مع المسلمين لن يمر دون عقوبة. قال الواقدي: «لَمّا انْصَرَفَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ الْخَنْدَقِ، وَخَافَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ خَوْفًا شَدِيدًا، وَقَالُوا: مُحَمّدٌ يَزْحَفُ إلَيْنَا»[4]، وكانت الصدمة الأقوى عندما وصلت طليعة المسلمين التي يقودها علي بن أبي طالب إلى حصونهم. قال أبو قَتَادَةَ: «انْتَهَيْنَا إلَيْهِمْ فَلَمّا رَأَوْنَا أَيْقَنُوا بِالشّرّ وَغَرَزَ عَلِيّ - عَلَيْهِ السّلاَمُ - الرّايَةَ عِنْدَ أَصْلِ الْحِصْنِ»[5]، ثم تتابع توافد المسلمين، وحاصروا الحصون حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ.

١- السيرة الحلبية، الحلبي ٢ / ١٥٦.
٢- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب مرجع النبي من الأحزاب، رقم:٢٨١٣.
٣- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الصلاة، باب صلاة الطالب والمطلوب، رقم:٩٦٤.
٤- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٩٧.
٥- المغازي، الواقدي ٢ / ٥٠٠.

المطلب السابع: استراتيجية الاختراق وتفريغ الأزمة.

ومن أساليبها هذه الاستراتيجية قدرة القيادة على الأمور الآتية:

١- تحليل طبيعة العدو وأهدافه: من مهمات قائد أزمة الحصار العسكري معرفة عدوه بدقة كبيرة، ومعرفة معتقداته وأفكاره وأهدافه وموروثه الحضاري؛ لأنَّ هذه المعرفة تعطي القيادة القدرة على التخطيط، ووضع الاستراتيجيات وتعديلها، وكان النبيﷺ يعلم طبيعة قريش وأهدافها، وطبيعة اليهود وأهدفهم، وطبيعة غطفان وأهدافها، وهذا ما يسمى في علم إدارة الأزمات بـ(الاختراق) الذي يهدف إلى: «فهم الأزمة والتعرف عليها ومعرفة أسبابها ودوافعها وعناصرها ومتغيراتها وثوابتها وجميع القوى المؤثرة فيها»[1]، و هذا أفضى إلى:

أولاً- عدم تجانس الأحزاب في تشكيلتهم البشرية وفي أهدافهم: فقد تكونت الأحزاب من عدة أطراف لا تجمعهم قيادة واحدة، ولا مقاصد متفق عليها، فكانت الأحزاب مكونة من ثلاثة أطراف هي:

الطرف الأول: أعراب جفاة تقوم استراتجيتهم على الكر والفر، والسلب والنهب، والرضا بالمغنم اليسير السريع. يقول محمود شيت خطاب: «يحتاج الحصار إلى قوات مدربة لها أهداف معلومة، وقيادة مسيطرة، أما القبائل فلا صبر لها على الحصار...، لذلك تذمر الأعراب من طول مدة الحصار على قصرها، وآثروا الارتحال»[2]، تم جلبهم إلى معركة بثمن تم التعاقد به مع اليهود على نصف ثمار خيبر لمدة عام واحد، وهذه الفئة متى عرض عليه عرض جديد بضمانات جيدة ستنسحب من أرض المعركة وهي التشكيل الأكبر من جيش الأحزاب حيث كانوا يشكلوا أكثرمن نصف الأحزاب وعددا يساوي ستة آلاف، لذلك

١- إدارة الأزمات، يوسف أحمد ٢٩١.

٢- الرسول القائ محمود شيت خطاب ١٥٦.

استخدام استراتيجية طول النفس و عنصر الزمن بطول فترة الحصار حول المدينة سبب في ضعفهم ورضوخهم للتفاوض، وإذا رضخوا للتفاوض فهذا دليل على أن أسلوب (تفريغ الأزمة) والذي يعني: «محاولة استقطاب كل طرف بما يناسبه، والعمل على امتصاص وتذويب الأزمة، وإزالة شدتها، وحدتها»[1]، فإذا قبلوا التفاوض والمساومة دل على أن الأزمة بلغت الذروة في غطفان، التي طال عليها المغنم، وقل بين يديها الطعام وعلف إبلها وخيلها. يقول محمود خطاب: «والقبائل تريد الأسلاب بالدرجة الأولى من أي مصدر كان، ولو وقعت أموال أحلافهم بني قريظة بيدهم لأخذوها أيضا»[2].

وأما الطرف الثاني: فيتمثل في قريش التي ضعفت قوتها العسكرية بعد معركة بدر، ومناوشاتها مع المسلمين، كما أن اقتصادها ضعف نتيجة الحصار الذي فرضته حركة البعوث والسرايا على طرق تجارة قريش، وليس لدى قريش جيش منظم ومدرب يتحمل فترة طويلة حصارًا للمسلمين، فقد تسرب إليهم الملل بطول فترة الحصار، ونقص الطعام وعلف دوابهم، ومن اقتحم الخندق من فرسان قريش إنما دفعه إلى ذلك: الملل من طول الانتظار، ولكنهم واجهوا قوة ردع شديدة من المسلمين، وكان قائدهم أبو سفيان يؤثر دائما السلامة والمعافة من ملاقاة المسلمين كما حدث في غزوة بدر، وفي فراره في غزوة السويق وغيرها، وهو الذي أشار بالرجوع إلى مكة عندما هبت الريح يوم الأحزاب.

وأما الطرف الثالث: فهم اليهود الذين شكلوا هذا التحالف، واستنهضوا حقد قريش للثأر من المسلمين، والقضاء عليهم، وضموا إلى جانبهم الأعراب بتطميعهم بتمر خيبر، فكان حقدهم وعدواتهم لدين الإسلام ورسوله ﷺ هو المحرك، والمسير للأحزاب. يقول محمود خطاب عن اليهود: «يريدون القضاء

١- إدارة الأزمات، يوسف أحمد ٢٧٨.

٢- الرسول القائد محمود شيت خطاب ١٥٥.

على المسلمين بدماء قريش والقبائل الأخرى»[1]. وعند اليهود نفس طويل في الحروب، والمخادعة والتآمر والمكر، فعندما بدأ اليأس يتسلل إلى نفوس قريش، وقاموا بالاتصال ببني قريظة لينقضوا عهدهم مع رسول اللهﷺ حتى لا يعودوا دون تحقيق أهدافهم من هذه الحملة، وتمَّ لهم ما أرادوا.

ولذا استخدم النبيﷺ استراتيجيتين بناهما على فهمه للعدو، وأهدافه:

الأولى: استراتيجية دفاعية جديدة لا تنسجم مع قريش وغطفان وهي حفر الخندق، وتحصين المدينة المنورة. يقول محمود خطاب: «لقد كان حفر الخندق مباغتة تامة للأحزاب، فلم تكن العرب تعرف هذا الأسلوب، كما لم تكن تعرف أسلوب القتال المناسب للتغلب على هذا الموقف»[2].

والثانية: استراتيجية الاختراق. فقد استغل النبيﷺ عدم الثقة بين قوى الأحزاب في اختراقهم. يقول محمود خطاب: «وهكذا انعدمت الثقة بينهم لتفرق الأهداف والمقاصد»[3]، وإيقاع الفتنة بين الأحزاب وبين بني قريظة عندما أرسل نعيم بن مسعود الغطفاني، وقد قام نعيم بن مسعود بدوره خير قيام. يقول محمود خطاب: «كانت الثقة بين الأحزاب أنفسهم من جهة، وبين اليهود من جهة أخرى واهنة جدا، بل لم تكن هناك ثقة بينهم على الإطلاق»[4].

ثانياً– عدم وجود قيادة واحدة للأحزاب: لا شك أن قائد إدارة أزمة الحصار العسكري لابد أن يعرف عناصر القوة والضعف في عدوه، ليسهل عليه توظيفها في التصدي للأزمة، وقد تنبه النبيﷺ إلى أن الأحزاب لا تجمعهم قيادة وحدة، بل هنالك عدة قيادات متنافرة تسعى كل قيادة إلى الاستئثار بالنصر والشهرة

١- الرسول القائد، محمود شيت خطاب ١٥٦.
٢- الرسول القائد، محمود شيت خطاب ١٥٥.
٣- الرسول القائد، محمود شيت خطاب ١٥٦.
٤- الرسول القائد، محمود شيت خطاب ١٥٥.

والغنائم، فكان قائد قريش أبو سفيان، وقائد غطفان عيينة بن حصن الفزاري، وقائد بني مرة الحارث بن عوف، وقائد أشجع أبا مسعود بن رُخيلة، وقائد بني أسد طليحة بن خويلد الأسدي[1]. وقد استغل النبيﷺ فرقة القيادات للتفاوض الفردي مع غطفان على عودتهم إلى مضاربهم مقابل نصف ثمار المدينة. يقول محمود خطاب: «كان لكل قبيلة قائد بل عدة قواد، ولم يستطع هؤلاء القادة تنظيم خطة موحدة للهجوم على المسلمين، وكان من المستحيل اتفاقهم على قائد منهم ليسيطر على الجميع، لأن هذا القائد سينال شرفا عظيما يمتاز به على الآخرين، ولا يمكن للآخرين أن يقبلوا بهذا الامتياز»[2].

المطلب الثامن: استراتيجية تصدير الأزمة.

كان النبيﷺ يعلم أن قريشا ومن معها من الأعراب لن يتحملوا الانتظار خارج المدينة لفترة طويلة، وأن حالة شد الأعصاب، وحالة التذمر والتوتر التي تسود أجواء الأحزاب ستسرع بالفرج، وقد نبه النبيﷺ صحابته على هذا المعنى في غزوة أحد، فقال: «وقالﷺ لأصحابه: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلنا فيها»[3].

لقد بدأت آثار استراتيجية تصدير الأزمة التي انتهجها النبي ﷺ في تعامله مع الأحزاب تظهر بصور متعددة كان منها:

أ- التذمر من قلة الطعام والماء وعلف الدواب: لم تكن الأحزاب قد أعدت نفسها لفترة حصار طويلة للمدينة لظنهم أن المعركة لن تدوم إلا يوما واحدا، وينتهي الأمر بالقضاء على الإسلام والمسلمين، والفوز بالغنائم الوفيرة، لذلك لم يحملوا معهم إلا القليل من الطعام، ولا يوجد مصدر قريب لتزويدهم بالطعام

١- انظر أسماء القادة في: المغازي، الواقدي ٢ / ٤٤٣.
٢- الرسول القائد، محمود شيت خطاب ١٥٥.
٣- السيرة الحلبية،الحلبي ٤ / ٩٣.

حتى ببذل المال، وأما ما كان معهم من دواب فقد أطلقوها للرعي في أرض مجدبة، وأمّا زرع أهل المدينة خارج حدود الخندق فقد تم حصاده، وإدخاله الحبوب والتبن إلى المدينة. قال الواقدي: «وَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تُسَرِّحُ رِكَابَهَا في وَادي الْعَقِيقِ في عِضَاهِه...، وَسَرَّحَتْ غَطَفَانُ إِبِلَهَا إِلَى الْغَابَةِ في أَثْلِهَا وَطَرْفَائِهَا في عِضَاهِ الْجُرُفِ، وَقَدِمُوا في زَمَانٍ لَيْسَ في الأَرْضِ زَرْعٌ، فَقَدْ حَصَدَ النَّاسُ قَبْلَ ذَلِكَ بِشَهْرٍ، فَأَدْخَلُوا حَصَادَهُمْ وَأَتْبَانَهُمْ، وَكَانَتْ غَطَفَانُ تُرْسِلُ خَيْلَهَا في أَثَرِ الْحَصَادِ، وَكَانَتْ الْمَدِينَةُ لَيَالِيَ قَدِمُوا جَدِيبَةً»[1]، وما حملوه معهم من علف لدوابهم قليل، وبدأ ينفد. قال الواقدي: «وَلَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ لِلْخَيْلِ إِلَّا مَا حَمَلُوهُ مَعَهُمْ مِنْ عَلَفٍ، وَكَانَ عَلَفُهُمْ الذُّرَةَ»[2].

ب- الشعور بالحرج والضيق: لقد أحس أبو سفيان بالحرج والضيق الذي أصاب الناس في أنفسهم، ودوابهم من طول فترة الحصار، فبعث وفدا إلى بني قريظة يدعوهم إلى مهاجمة المسلمين، وإنهاء الحصار والانتظار. قال ابن هشام: «أَرْسَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَرُءُوسُ غَطَفَانَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ في نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ، فَقَالُوا لَهُمْ إِنَّا لَسْنَا بِدَارِ مُقَامٍ، قَدْ هَلَكَ الْخُفُّ وَالْحَافِرُ، فَاغْدُوَا لِلْقِتَالِ حَتَّى نُنَاجِزَ مُحَمَّدًا، وَنَفْرُغَ مِمَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ»[3]، ولكن بني قريظة لم توافقهم على ذلك.

وحاول يهود بني قريظة تزويد الأحزاب بالطعام، والتبن والشعير لدوابهم، لكن الدوريات المكثفة داخل المدينة كشفت القافلة، وتم الاستيلاء عليها جميعها. قال الحلبي: «إن دورية مسلحة من الأنصار خرج رجالها ليدفنوا ميتاً لهم، فصادفوا قافلة من عشرين بعيراً محملة تمراً وشعيراً وتبناً، فأخذها المسلمون

١- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٤٤.
٢- المغازي، الواقدي ٢ / ٤٤٤.
٣- السيرة النبوية، ابن هشام ٢ / ٢٣٠.

وخفف الله بها عليهم من ضائقة المجاعة التي كانوا يعانونها»[1].

ج- اتخاذ القرارات الأحادية المتسرعة: بدأ الملل يصيب غطفان، فتوجهت لمفاوضة النبيﷺ على نصف ثمار المدينة لعام واحد مقابل رجوعها عن مقاتلة المسلمين، وقد كان من تأييد الله لرسولهﷺ وللمسلمين أن بعث الله ريحا باردة شديدة كانت سببا في هزيمة الأحزاب. وقال حذيفة: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الْأَحْزَابِ وَأَخَذَتْنَا رِيحٌ شَدِيدَةٌ وَقُرٌّ»[2]، وقرر أبو سفيان الانسحاب من حصار الخندق دون إعلام بني قريظة، أو باقي الأحزاب، قال أبوسفيان: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْش، إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَام لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَالْخُفّ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمْ الّذي نَكْرَهُ وَلَقِينَا مِنْ شِدّة الرّيح مَا تَرَوْنَ مَا تَطْمَئِنّ لَنَا قِدْرٌ، وَلَا تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلَا يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنّي مُرْتَحِلٌ»[3]، وهذا ما يسميه (slatter) الانهيار التنظيمي بمعنى: «فقدان القدرة على اتخاذ إجراءات المعالجة»[4].

المطلب التاسع: استراتيجية الاستبشار[5].

من المهمات الرئيسة لقائد أزمة الحصار العسكري الاهتمام بالروح المعنوية لفريق العمل الذي يقوده، وأن يُشعرهم بالثقة بنجاحهم في إدارة الأزمة، فهذه الروح تبعث الأمل في النفوس، ويعد الاستبشار من أهم ركائز الناحية المعنوية، فالاستبشار يرفع المعنويات، ويحفز على العمل والتضحية، ويوحد الصف، ويقلل خطر الإشاعات، ويدفع القلق والخوف والاضطراب. يقول (كلاوزفتز):

١- السيرة الحلبية، الحلبي ٢ / ١٠٧.
٢- الجامع الصحيح، الإمام مسلم، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، برقم: ٣٣٤٣.
٣- السيرة النبوية، ابن هشام ٢ / ٢٣٢.
٤- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ٦٠.
٥- قال ابن فارس: "بشر الباء والشين والراء أصلٌ واحد: ظهور الشّيء مع حُسْنٍ وجمال"، مقاييس اللغة ١ / ٢٣٧.

«إن القوة المعنوية بمثابة الروح التي تسيطر على مجموعة العمليات»[1].

لقد وضع النبيﷺ في غزوة الأحزاب منهجا واضحا لقادة الأزمات العسكرية في الاستبشار والتفائل عند مواجهة الأزمات، وكان النبي ﷺ يبشر أصحابه في كل مراحل الأزمة العسكرية من بدايتها وحتى نهايتها، وكلما اشتد الكرب، وتكاثرت الأعداء كان النبيﷺ يبشرهم بقرب النصر والتمكين، ومن صور ذلك:

١- **الاستبشار بجودة التخطيط قبل حدوث الأزمة**: لقد استبشر النبيﷺ خيرا بحفر الخندق، وبقدرة أصحابه على إنجازه، فشارك أصحابه في الحفر، وأنشد الشعر معهم. قال البخاري: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ، فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ فِى غَدَاةٍ بَارِدَةٍ...، فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ، قَالَﷺ:» اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ، فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ»[2].

٢- **الاستبشار عند البدء بالتنفيذ**: كلما صعب أمر على المسلمين لجئوا إلى رسول اللهﷺ، فقد شكى الصحابة اعتراض صخرة لحفرهم في الخندق فكسرت المعاول، فلجئوا إلى رسولﷺ « فَأَخَذَﷺ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، وَقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَضَرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ الْمَدَائِنَ، وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَضَرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ،فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا»[3]. فكأن أزمة الأحزاب عقبة بسيطة ستنجلي عن مبشرات عظيمة تشتمل على الفتوح التي سيكرم الله المسلمين في مستقبل الأيام.

١- العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، عقيد فرج ٢٢٢.
٢- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم:٤٠٩٩.
٣- السنن الكبرى، النسائي،كتاب المغازي، باب حفر الخندق، رقم: ٨٨٥٨.

٣- الاستبشار عند اشداد الأزمة الخارجية: اشتد البلاء والكرب على المسلمين بازدياد أيام الحصار، ومع ذلك يزداد تبشير النبيﷺ للمسلمين بالنصر، وانتهاء الأزمة. قال ابن اسحاق: «فَلَمَّا رَأى رَسُولُ اللهﷺ مَا فيه النَّاسُ منَ الْبَلاَء وَالْكَرْب جَعَلَ يُبَشِّرُهُمْ، وَيَقُولُ: وَالَّذي نَفْسي بيَده لَيُفرَّجَنَّ عَنْكُمْ مَا تَرَوْنَ منَ الشِّدَة وَالْبَلاَء فَإنِّي لأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بالْبَيْت الْعَتيق آمنًا وَأَنْ يَدْفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلَيَّ مَفَاتيحَ الْكَعْبَة وَلَيُهْلكَنَّ اللهُ كسْرَى وَقَيْصَرَ وَلَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا في سَبيل الله»[1].

٤- الاستبشار عند حدوث أزمة داخلية مترتبة على الخارجية: نقض بنو قريظة العهد مع المسلمين، فقد بعث رسول اللهﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير رضي الله عنهم إلى بني قريظة ليكلموهم، فلما لم ينجحوا في منعهم من نقض العهد، أخبروا رسول اللهﷺ بذلك «وانصرف رسول الله ﷺإلى أصحابه، وهم في بلاء شديد يخافون أشد من يوم أحد، فقالوا حين رأوا رسول الله ﷺ مقبلا: ما وراءك يا رسول الله ﷺ؟ قال: «خير، فأبشروا»، ثم تقنع بثوبه، فاضطجع، ومكث طويلا، واشتد عليهم البلاء، والخوف...، ثم إنه رفع رأسه، فقالﷺ: «أبشروا بفتح الله ونصره»[2].

٥- الاستبشار عند انتشار الإشاعات في الجبهة الداخلية: ازداد خوف الناس بظهور إرجاف المنافقين، وتكذيبهم لما يبشرهم به النبي ﷺ من النصر خاصة بعد أن اجتازت فرقة من المشركين الخندق، وانشغل النبيﷺ والمسلمون بقتالها من صلاة العصر حتى دخول وقت المغرب، فقال ﷺ: «وَالَّذى نَفْسى بيَده لَيُفَرَّجَنَّ عَنْكُمْ مَاتَرَوْنَ منَ الشِّدَة وَالْبَلاَء، فإني لأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بالْبَيْت الْعَتيق آمنًا، وَأَنْ يَدْفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلَيَّ مَفَاتيحَ الْكَعْبَة، وَلَيُهْلكَنَّ اللهُ كسْرَى وَقَيْصَرَ، وَلَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا في سَبيل الله»[3].

١- دلائل النبوة، البيهقي ٣/ ٤٢٨.
٢- السيرة النبوية، ابن كثير ٣/ ٢٠٠.
٣- السنن الكبرى، البيهقي، كتاب الجهاد، باب من ليس للإمام أن يغزو به بحال، رقم: ١٨٣٢٠.

٦- الاستبشار بانتهاء أزمة الحصار العسكري: تزداد ثقة النبيﷺ والصحابة بالله، ويملأ قلوبهم الظن الحسن بقرب النصر، وانتهاء الحصار، وجلاء الأحزاب، وينزل جبريل عليه السلام مبشرا للنبيﷺ بالفرج، وبإرسال الريح والملائكة على الأحزاب تقلع الخيام، وتزلزل القلوب، فيشكر النبيﷺ ربه على البشرى. قال الحلبي: «فأتاه جبريل عليه السلام، فبشره أن الله يرسل عليهم ريحاً وجنوداً، وأعلم رسول الله ﷺ أصحابه بذلك، وصار يرفع يديه قائلاً: شكراً شكراً»[١].

المطلب العاشر: استراتيجية استشراف المستقبل والتطوير.

من المهمات الأساسية لقيادة الأزمة العسكرية القدرة على استشراف المستقبل، وتبني استراتيجيات مستقبلية تقلل من وقوع الأزمات، أو تحد من آثارها إن وقعت، وتسمى هذه المرحلة في أدبيات إدارة الأزمات (مرحلة التطوير)، والتي تمثل: «النظرة المستقبلية، والاستفادة من التجربة المريرة التي مررنا بها، ومن ثم فإن علينا أن نطور امكاناتنا المادية والبشرية، ونتعلم أن علينا أن ننجح في مواجهة الأزمة قبل تفاقمها»[٢]، فلابد في هذه المرحلة من أمرين:

١- الاستفادة من الأزمات السابقة من حيث معرفة أسبابها، وطرق التعامل معها، وتحييدها، والتخفيف من آثارها، وذلك بوضع الخطط الوقائية، والاستباقية للأزمات قبل حدوثها.

٢- استشراف المستقبل المبني على اهتمام القيادة بالتخطيط، وحشد الموارد لدعم الاستراتيجيات الجديدة لتحقبق النجاح والتفوق.

لقد انتهى حصار الأحزاب للمدينة المنورة، ولا بد من تقييم هذه الأزمة بسلبياتها وإيجابياتها، فالمخاطر التي تهدد المسلمين لم تنته، وقد تواجه المسلمون

١- الحلبي، السيرة الحلبية ٥/ ٤٤.
٢- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي ٢٠١.

أزمات وتحالفات أشد من الأحزاب جمعا وعددا وسلاحا، وهل سيبقى المسلمون ينتظرون الحملات والغارات العسكرية توجه إلى المدينة؟ وهل سيبقى خطر المنافقين وإرجافهم في إزدياد، إن هذا المشهد لم يكن غائبا عن النبيﷺ بل رأه بعينه. فالمستقبل يحتاج إلى استشراف ببصيرة، واستراتيجيات لتفادي الأزمات من جديد.

لقد تبنى النبيﷺ استراتيجية الضربات الاستباقية الوقائية، واستراتيجية الهجوم لا الدفاع، وتصنيع الأزمات وتصديرها إلى الأعداء بعد انتهاء أزمة الأحزاب، وإشغالهم بالدفاع بدل التفكير بالهجوم، فرفع النبيﷺ شعار هذه الاستراتيجية الجديدة، يقوله سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَد. سَمِعْتُ النَّبِيَﷺ يَقُولُ حِينَ أَجْلَى الأَحْزَابُ عَنْهُ: «الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ»[١]. وهذا الاستشراف للمستقبل باستراتيجيات جديدة يتطلب من قيادة الأزمات القيام بإجراءا ت عملية مخطط لها.

إن المطلع على كتب السيرة يجد أن النبيﷺ طبق هذه الاستراتيجية مباشرة بعد انتهاء حصار الأحزاب، فنجد أن مجموع الغزوات والسرايا في السنة الخامسة والسادسة قد زادت على العشرين غزوة وسرية كان أولها وأهمها تصفية يهود الغدر والخيانة، وإزالة أخطر وآخر بؤر التوتر اليهودي داخل المدينة المنورة، وهم يهود بني قريظة، فحاصرهم المسلمون خمساً وعشرين ليلة، ثم نفَّذ فيهم حكم الله. قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: «فَخَنْدَقَ بها خَنَادق، ثُمّ بَعَثَ إلَيْهِمْ فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ في تِلْكَ الْخَنَادِقِ يُخْرَجُ بِهِمْ إلَيْهِ أَرْسَالًا، وَفِيهِمْ عَدُوّ اللّهِ حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ، وَكَعْبُ بْنُ أَسَدٍ»[٢]. ولقد وفرت السرايا لمن يشارك فيها خبرة واسعة في التدريب المستمر، والقدرة على مواجهة الأزمات.

١- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم: ٤١١٠.
٢- السيرة النبوية، ابن هشام ٢ / ٢٤٠.

وكان من أهم الاستراتيجيات الوقائية المستقبلية التي وضعها النبي ﷺ استئصال زعامات اليهود والمشركين المثيرة للفتن والأزمات التي تستهدف أو استهدفت أمن المسلمين سابقا، ومن تلك الزعامات:

١- سَلّامِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ: كان سلام بن أبي الحقيق قد ساهم في حشد الأحزاب لغزو المدينة، فبعث النبي ﷺ إليه من يقتله وهو في خيبر. وقال ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَلَمَّا انْقَضَى شَأْنُ الْخَنْدَقِ، وَأَمْرُ بَنِي قُرَيْظَةَ وَكَانَ سَلّامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ وَهُوَ أَبُو رَافِعٍ فِيمَنْ حَزَّبَ الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ الْأَوْسُ قَبْلَ أُحُدٍ قَدْ قَتَلَتْ كَعْبَ ابْنَ الْأَشْرَفِ فِي عَدَاوَتِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ...، وَتَحْرِيضِهِ عَلَيْهِ اسْتَأْذَنَتْ الْخَزْرَجُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي قَتْلِ سَلّامِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ، وَهُوَ بِخَيْبَرَ فَأَذِنَ لَهُمْ»[١].

٢- الْيَسِيرِ بْنِ رِزَامٍ: بعد مقتل سلام بن الحقيق ولَّى يهود خيبر اليسير بن رزام عليهم، وقد بدأ يحرض غطفان على غزو المدينة، فوجه النبي ﷺ إليه من يقتله. قال ابن إسحاق: «كَانَ بِخَيْبَرَ يَجْمَعُ غَطَفَانَ لِغَزْوِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ»[٢]، فأخذوه بالحيلة حتى أخرجوا خارج خيبر فقتلوه ومن معه اليهود.

٣- خَالِدَ بْنِ سُفْيَانَ بْنِ نُبَيْحٍ الهذلي: كان قد عزم على تجميع الأعداء من غطفان وغيرها لغزو المدينة بعد انتهاء غزوة الأحزاب، فبعث النبي ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُنَيْسٍ لقتله «وَهُوَ بِنَخْلَةَ أَوْ بِعُرَنَةَ يَجْمَعُ لِرَسُولِ ﷺ النَّاسَ لِيَغْزُوهُ، فَقَتَلَهُ»[٣].

٤- محاولة تصفية أبي سفيان بن حرب: فقد بعث أبو سفيان أعرابيا لقتل النبي ﷺ، وأعطاه ناقة ونفقة، فلما وصل إلى المدينة كشف المسلمون أمره،

١- الجامع الصحيح، البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع، برقم: ٤٠٣٨.

٢- السيرة النبوية، ابن هشام ٢ / ٦١٨.

٣- المسند، لأبي عوانه ١٣ / ٤٧٩ برقم: ٥٦١٦.

وأخبر الأعرابي النبيﷺ بأن أبا سفيان أرسله. قال ابن سعد: «وبعث رسول الله ﷺعمرو بن أمية، وسلمه بن أسلم إلى أبي سفيان بن حرب، وقال: إن أصبتما منه غرة فاقتلاه، فدخلا مكة ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلاً، فرآه معاوية بن أبي سفيان فعرفه، فأخبر قريشاً بمكانه فخافوه وطلبوه، وكان فاتكاً في الجاهلية، وقالوا: لم يأت عمر لخير؛ فحشد له أهل مكة، وتجمعوا وهرب عمرو وسلمة»[1].

وقد استمر توجه المسلمين إلى الهجوم لا الدفاع، والسير إلى العدو لا انتظار قدومه، وتحقيق ضربات استباقية وقائية مع تجذير الإسلام في كل مكان يصلوا إليه، يقول محمود خطاب: «وانتقلت المبادأة إلى يد المسلمين بعد هذه الغزوة، ولم يتركوها حتى شمل الإسلام الجزيرة العربية كلها»[2]. وقال ابن إسحاق: «لَمَّا انْصَرَفَ أَهْلُ الْخَنْدَقِ عَنْ الْخَنْدَقِ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺفِيمَا بَلَغَنِي: لَنْ تَغْزُوَكُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، وَلَكِنّكُمْ تَغْزُونَهُم، فَلَمْ تَغْزُهُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ ذَلِكَ وَكَانَ هُوَ الّذِي يَغْزُوهَا، حَتّى فَتَحَ اللّهُ عَلَيْهِ مَكّةَ»[3]. وفي رواية «الآن نغزوهم ولا يغزونا»[4].

ويعد التسليح من الإجراءات الضرورية لمواجهة مخاطر المستقبل، ووسيلة ضرورية للوقاية من الأزمات العسكرية. قال الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠)، ولذلك رأى النبيﷺ أن من الضروري شراء الأسلحة، والخيل اللازمة لتنفيذ هذه الإستراتيجية، ولتعزيز قوة المسلمين، فسارع إلى جعل حصته من غنائم بني قريظة لشراء السلاح، والخيل. قال ابن إسحاق: «بعث

١- غزوات النبي وسراياه، ابن سعد ١ / ٤٧.
٢- الرسول القائد، محمود شيت خطاب ١٥٦.
٣- السيرة النبوية، ابن هشام ٢ / ٢٥٤.
٤- المسند، أحمد بن حنبل ٦ / ٤٠٩ رقم: ٢٧٢٥٠. قال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

النبيﷺ سَعْدَ بْنَ زَيْدِ الْأَنْصَارِيّ أَخَا بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ بِسَبَايَا مِنْ سَبَايَا بَنِي قُرَيْظَةَ إِلَى نَجْدٍ، فَابْتَاعَ لَهُمْ بِهَا خَيْلًا وَسِلَاحًا»[1].

تمَّ بحمد الله، وتوفيقه

١- السيرة النبوية، ابن هشام ٢ / ٢٤٤.

النتائج والتوصيات

١- الاستخبار وجمع المعلومات المسبقة عن الأزمة بسرعة عالية، ودقة متناهية، والاستمرارية في ذلك يسهم في تجنبها، أو في التخفيف من آثارها.

٢- الحفاظ على أمن الجبهة الداخلية في أزمة الحصار العسكري واجب ديني على القيادة، وواجب على كل مواطن مسلم أو غير مسلم في المجتمع أن يقف في صف أمته ووطنه ضد أي عدو خارجي أو داخلي يهدد أمنه وسلامته.

٣- الحذر الدائم من العدو، وعدم الاطمئنان إليه، ومراقبة تحركاته العسكرية، وفهم طبيعته الفكرية، واستراتيجياته العسكرية، وأهدافه، تساعد على إعداد خطط وقائية قبل حدوث الأزمة العسكرية، والقيام بضرب تحالفاته، وقواته ضربات وقائية استباقية تمنعه من افتعال الأزمات.

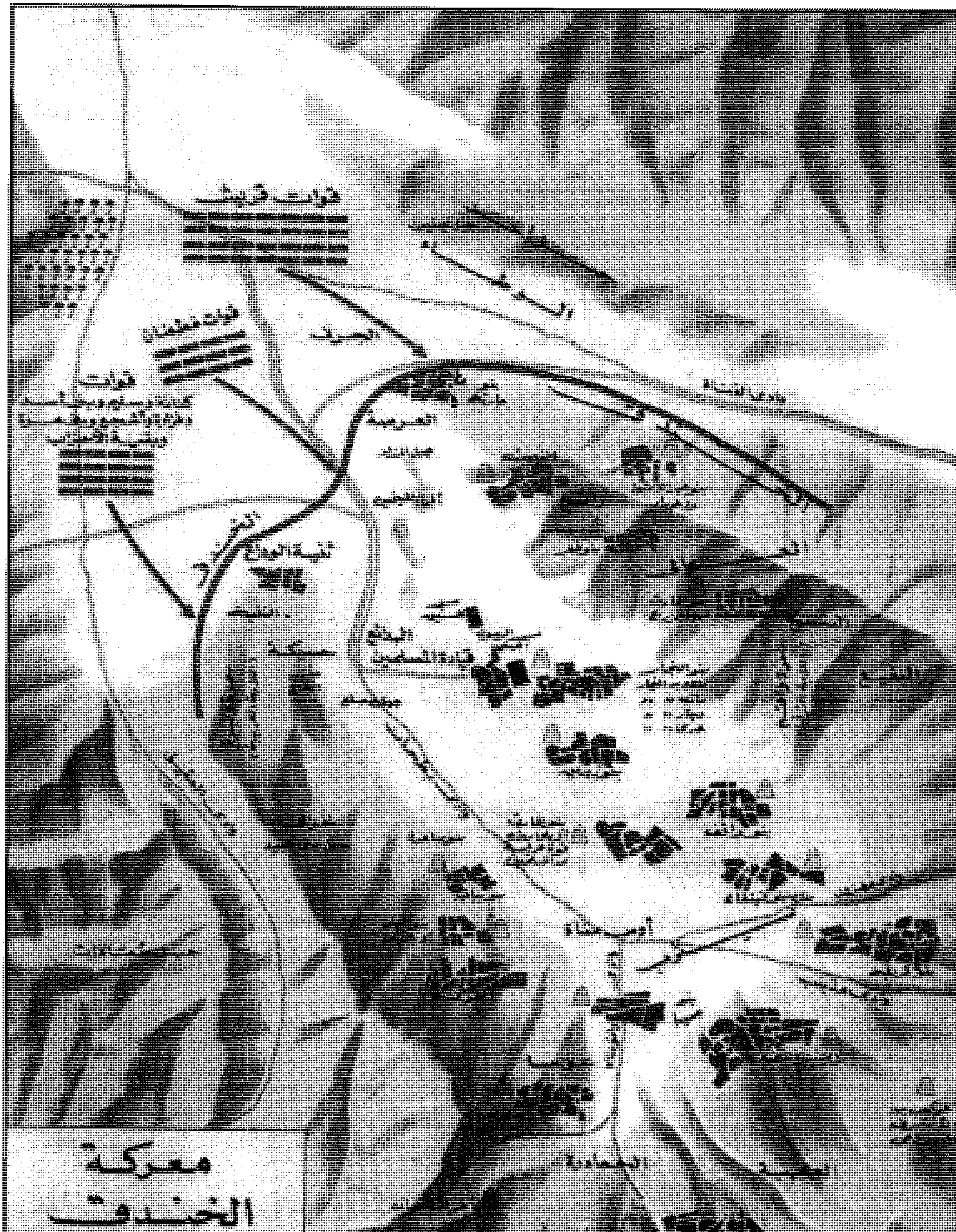
٤- التحفيز ماديا أو معنويا لفريق العمل في أزمة الحصار العسكري، والثقة بالله، والاستبشار بتحقيق النصر، والغلبة على الأعداء من الاستراتيجيات المهمة التي ترفع من معنويات المحاصرين، فيزدادوا صبرا وتضحية وثباتا.

٥- إدارة الأزمات تحتاج إلى قائد يتمتع بالذكاء، والموهبة، والخبرة، والاستجابة السريعة لكل المتغيرات التي تحدث قبل الأزمة، وأثنائها، وبعد انقضائها، وأن يكون قدوة لفريق العمل بالبذل، والعطاء والصبر، والمبادرة إلى العمل والتضحية.

٦- استشراف المستقبل مبني على المعلومة الصحيحة الدقيقة، وعلى التخطيط السليم، وعلى توظيف إمكانات الواقع كلها في سبيل وضع رؤية واضحة للمستقبل.

٧- السيرة النبوية مصدر من مصادر المعرفة التاريخية للمسلم، ومعين لا ينضب من الخبرات والتجارب التي تسفيد منه أمتنا، لذا أوصي بالمزيد من الدراسات التحليلية للسيرة النبوية في ضوء ما يستجد من علوم إنسانية، ووفق الضوابط التي وضعها علماء الأمة.

مصدر الخريطة[1]



١- السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي ٢٥٨.

المصادر والمراجع

- إدارة الأزمات، محمد الصيرفي، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٥م.
- إدارة الأزمات، زيد عبوي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠٠٦م.
- إدارة الأزمات مدخل متكامل، يوسف أحمد أبو فارة، إثراء للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٩م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
- أطلس السيرة النبوية، شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م.
- الإنسان والإدارة، منصور فهمي، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ١٩٨٢م.
- الجامع الصحيح، البخاري محمد بن إسماعيل، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، المطبعة السلفية، القاهرة ١٤٠٠هـ.
- الجامع الصحيح. مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الخندق، شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٢م.
- دلائل النبوة، البيهقي أحمد بن الحسين، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ١٩٦٩م.

- الرسول القائد، محمود شيت خطاب، دار مكتبة الحياة، بغداد، ط٢، ١٩٦٠م
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، السهيلي عبد الرحمن بن عبدالله، تحقق: عمر عبد السلام، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- السنن، أبو داود سليمان بن الأشعث، المكتب الاسلامي، بيروت، ١٩٩١.
- السنن الكبرى، البيهقي أحمد بن الحسين، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م.
- السنن الكبرى، النسائي أحمد بن شعيب، تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.
- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، الحلبي علي بن برهان الدين، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.
- السيرة النبوية، ابن كثير إسماعيل بن عمر، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٠م.
- السيرة النبوية، محمد بن هشام، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
- السيرة النبوية، أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق ط٤، ٢٠٠٧م.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر أحمد بن علي، تحقيق: محمد

فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٨٦م.

- فن القيادة في الإسلام، أحمد عبدربه بصبوص، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٩٨٨م.
- قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد رواس قلعة جي، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- لعبقرية العسكرية في غزوات الرسول، محمد فرج، مطابع الدار القومية، مصر.
- عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ابن سيد الناس، دارالقلم، بيروت، ١٩٩٣م.
- غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم، سعد الفنيسان، دار إشبيليا، ط١، ١٩٩٧م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
- المذهب العسكري الإسلامي، بسام العسلي، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- المسند، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٦م.
- المسند، ابو عوانة يعقوب بن إسحق، دار طيبة، الرياض، ١٩٩٠م.

- المعجم السياسي، وضاح زيتون، دار أسامة ودار المشرق للنشر، الأردن، ط١، ٢٠٠٦م.
- المعجم الكبير، الطبراني سليمان بن أحمد، تحقيق: حمدي السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط٢، ١٩٨٣م.
- المعجم في مقاييس اللغة، أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٢م.
- المعجم الوسيط، أحمد الزيات و آخرون، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٣، ١٩٩٨م.
- معرفة الصحابة، الأصبهاني أبو نعيم أحمد بن عبد الله، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ١٩٨٨م.
- المغازي، الواقدي محمد بن عمر، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت.
- الموسوعة العربية، محمد الجلاد وهيثم كيلاني، هيئة الموسوعة العربية الجمهورية العربية السورية، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.

استشراف أسرار تغير الظاهرة الحضارية من خلال الحديث النبوي الشريف

أ.د. أحمد عثمان رحماني
كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي
جامعة باتنة، الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مجتمعات وأمم تنمو وتزدهر، وأخرى تسقط وتندحر، تلك صورة التاريخ البشري تسري على المجتمعات والمدنيات والحضارات، وعلى الأنظمة والدول جميعا، حتى لتكاد تلك الصور تعيد نفسها. فما سر ذلك؟ والجواب عن ذلك هو الأمر الذي يغري بالبحث في استشراف أسرار تلك التغيرات من خلال الحديث، بل لذلك يكون البحث عن الاستشراف حالة طبيعية في البشر، يقول ابن خلدون: «اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوف إلى عواقب أمورهم، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر، لا سيما الحوادث العامة كمعرفة ما بقي من الدنيا، ومعرفة مدد الدول أو تفاوتها. والتطلع إلى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها. ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوفون إلى الوقوف على ذلك»[1].

ومعناه أن الاستشراف يهدف إلى البحث في:

١- أسباب عواقب الحياة الفردية والدولية.

٢- أسباب عواقب الموت الفردية والجماعية.

٣- معرفة مدد الدول.

٤- معرفة أسباب تفاوت الدول.

٥- معرفة أسباب إقامة الحضارات، وأسباب سقوطها.

١- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص١٨٣.

وهذه بالتأكيد مسائل مهمة جدا في حياة البشرية، بحثت ولا تزال تبحث في ضوء المناهج الوضعية، ولكن نعتقد أن المنهج الذي يتخذ من الوحي مرجعيته ويعتمد في التحليل والتفسير تأثير أنساق الكليات الدينية وأنظمتها مثل التي عينها الشاطبي، سيكون بحكم ارتباطه بالنبوة، أوثق في التعبير عن أهداف الاستشراف من المنهج القائم على النظرة الاجتهادية القائمة على التجارب الوضعية القاصرة؛ لأن أعمار الدول والحضارات لا تقاس بأعمار الأفراد، ولا بأحوالهم، وأن ما يؤثر فيها إنما يؤثر بالكليات المتناسقة العناصر، وما يحكم عناصرها من أنساق سلبا وإيجابا[1]، مما يجعل البحث عن أسباب سقوط الدول والحضارات من خلال المصادر الدينية وهي القرآن والسنة، أدق من البحث عنها من خلال التجارب البشرية وحدها، ولعل القواعد السننية، والقصص الاعتبارية، الواردة في القرآن، خير مثال على ذلك، إذ تبين أن ما يلحق المجتمعات من تغير لا تفسره الجزئيات الطارئة على أحوالها، وإنما تفسره أنساق الكليات.

ومن هنا نسأل: هل تكشف الأحاديث النبوية الشريفة عن السنن الاجتماعية والأسرار القانونية التي تتحكم في الحركة التاريخية للحضارات والأنظمة والدول وأحوالها؟ وهل يمكن لمن يقوم باستقراء الحديث الشريف أن يكشف عن قواعد الاستشراف، التي تدل على معرفة القوانين والسنن التي تتحكم في تغير الظواهر الاجتماعية والحضارية نموا وازدهارا، وسقوطا واندحارا؟

لقد ذهب بعض الباحثين إلى أن «الحاضر نتيجة وثمرة للسياسات الماضية، وعلى أساس من فهم الحاضر وسياسته واتجاهاته يمكن تصور المستقبل وحسابه وتوقعاته وهذا ما يسمى بالتخطيط المستقبلي»[2] والحق أن ذلك قد يكون صحيحا للاعتبار والتوجيه، ولكن الفرق كبير بين استشراف من خلال مشكاة النبوة،

١- نعني بالنسق: الترابط المحكم بين العناصر الثقافية، بحيث يصبح أي خلل في العلاقة بين تلك العناصر المتناسقة تفقد الكلية فعاليتها.

٢- حسين مؤنس، الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، ص٦٣.

واستشراف من خلال واقع البشرية وأحداثها التاريخية، لأن الدين يحيل على الأنساق الفاعلة، والتجارب تحيل على مبهم يتطلب الملاحظة، والتجربة قد تستعصي في هذا المجال.

تلك تساؤلات وفرضيات منهجية نريد أن ندخل منها لدراسة موضوع «استشراف أسرار تغير الظاهرة الحضارية من خلال الحديث النبوي الشريف» لنجيب عن ثلاثة أسئلة كبيرة في ضوء مفهوم إسلامي للاستشراف مفاده أن الاستشراف الإسلامي الناجح هو الذي يقوم بدراسة الظواهر الحضارية والاجتماعية في ضوء الإمكانات المعرفية المستمدة من الكتاب والسنة، والمعطيات الواقعية والتجارب التاريخية وفق خطة عملية تعتمد على **قوانين السببية طبقًا للأنساق الثقافية الفاعلة في الكليات**، ووضع فرضيات علمية غايتها التطلع إلى معرفة مآلات الظواهر للتحكم في نتائجها بتهيئة الأسباب، استجلابا لخيراتها المستقبلية وتجنبا لشرورها المتوقعة، بعيدا عن أطراف التناقض الثلاثة: الارتجال، والتواكل، والغرور، امتثالا لقول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾[الأعراف: ١٨٨].

وهذه الأسئلة هي:

- أولا: هل اعتنت السنة النبوية بما يكشف عن التحولات الحضارية والاجتماعية والعوامل والسنن التي تؤثر فيها بالخلل الذي يلحق بعض أنساقها الثقافية أو كلها؟
- ثانيا: هل كشفت تلك الأحاديث عن الأنساق الثقافية التي تحكم أسباب توجه السهم الحضاري نحو التحول السلبي بعد تجاوزه؟
- ثالثا: كيف نستفيد من هذه الأحاديث الاستشرافية لنخطط لتفادي أنساق أسباب السقوط الحضاري والاجتماعي، والتحول السلبي؟

وتترتب على كل سؤال أسئلة مكملة ومفصلة منها: «هل يمكن أن يكون للدين والأخلاق أثر في الفضاء الحضاري من الوجهة المادية صلاحا وفسادا؟ هل يخضع ذلك البعد الديني لقاعدة الأكثرية مثلا؟ ككثرة الخبث أو الطيب النفسيين؟ أم أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها»[1]؟ ألا تتحكم في السنن عناصر ومؤثرات أخرى ذات قوة وفعالية خارجية اقتصادية واجتماعية ليس بالضرورة أن تكون كثرة أو دينا؟

سنحاول أن نجيب عن هذا الإشكال المعقد في ثلاثة مباحث تتناول استشراف التحولات الحضارية والاجتماعية، وأسباب تدهورها، وعوامل إنقاذها مستفيدين من منهج الشاطبي في اعتماد أنساق الكليات أساسا في التأثير على البنيات الاجتماعية والحضارية سلبا وإيجابا، إذ معلوم لدى الأصوليين «أَنَّ مَعْرِفَةَ الْأَحْكَامِ الْجُزْئِيَّةِ بِأَدِلَّتِهَا التَّفْصِيلِيَّةِ مَوْقُوفَةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْأَدِلَّةِ الْكُلِّيَّةِ»[2].

المبحث الأول: التحولات الحضارية والاجتماعية وعوامل تغيرها كما يستشرفها الحديث الشريف.

النص الأساسي: إن الحديث الذي نريد اعتماده أساسا في استشراف ما يطرأ على البنيات الاجتماعية والحضارية من تحولات، باكتشاف أنساق العوامل المؤثرة في تلك البنيات، رواه الشيخان واللفظ للبخاري: عن أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ يَقُولُ: **«كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟**

١- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٧٨.

٢- شرح التلويح على التوضيح، ج١ / ص١٦.

قَالَ: نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ، قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ، قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[1].

فهل في هذا الحديث الشريف استشراف يكشف عن طبيعة التحولات الاجتماعية والحضارية وعلاماتها، وأنساق العوامل المؤثرة في بنياتهما؟ وهل يمكن اعتماد تلك العلامات للاستشراف والتخطيط للتحكم في سنن الظاهرة الحضارية للاستفادة من خيرها وتجنب شرها؟

ظل هذا الحديث الشريف يستثير أسئلة استشرافية حول تقلبات اجتماعية وحضارية كبيرة عبر تاريخ الفكر الحضاري عند المسلمين، حتى رتبه البخاري في باب (علامات النبوة)، ووضعه البيهقي في كتاب (دلائل النبوة)، وما ذلك إلا لما لمساه فيه من قواعد استشراف ذات قوة نبوية، ولذلك ظلت التفاسير العلمية التي عنيت به تحوم حول المحطات التاريخية للتقلبات الحضارية في العالم الإسلامي، فقد ظلت الأسئلة تتردد في صور مختلفة. ولمعالجة مقاصد الحديث سنقسم الدراسة هنا إلى ثلاثة مطالب، نعالج فيها مفاهيم وردت في الحديث، وطبيعة التحولات الاجتماعية والحضارية التي سردها، وأنساق العوامل المؤثرة فيها.

المطلب الأول: مدخل إلى النص وتحديد مفاهيم ألفاظه الأساسية.

من الواضح أن الحديث يشير إلى قضية كبيرة هي التقلبات الحضارية،

١- صحيح البخاري باب علامات النبوة، ورقمه ٣٦٠٦ ورقمه الثاني ٧٠٨٤، ودلائل النبوة للبيهقي ج٧/ ص٤١١ بزيادة يستنون بغير سنتي، ومسلم: باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن. ورقمه ٤٨١٢.

وقد استخدم في ذلك ألفاظا يعدها مفكرو العالم أساسية هي: الخير والشر[1]، والجاهلية، والاعتزال، والتزام الجماعة، والموت، فماذا تعني هذه الألفاظ من منظور التفكير الحضاري الذي يتميز بالشمولية كما بين ذلك الشاطبي؟ تيسيرا للفهم سنعمل على بيان تلك المفاهيم مرتبطة بالتحولات وعلاماتها مراعين في ذلك ترتيبها في النص كما يلي:

ـ مدخل إلى دلالة النص الأساسية ومفرداته: (**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي**)، إن الأمر الذي يخيف الصحابي هنا ليس أمرا فرديا إنما هو هم جماعي، يتمثل في ما يهدد الوحدة العضوية للمجتمع المسلم، هذه الوحدة العضوية التي شرحها قوله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[2]، ومعناه أن المجتمع قوي بتماسك كلياته أو بنيته[3]، وقوة بنيته ذات طرفين متكاملين؛ القدرة والاستقامة[4]، فإذا دخل الشر نسقا من أنساق الكلية، هدد بالخراب بنيتها، وعليه فهاهنا مشكلة يتوقف فهمها على إدراك ألفاظ تعبر عن مفاهيم أساسية في الإقلاع الحضاري ونموه، وتراجعه

١- عند الفلاسفة الخير والشر مفهومان أخلاقيان... ولم يظهر للشر والخير معنى إلا عندما قطع الإنسان مراحل واسعة في تقدمه واستقرت أحواله وانتظمت جماعاته.. أما يقظة الضمير والشعور بالخير والشر والتفريق بينهما فقد نشأ عنه قيام إحساس بضرورة حماية الخير ومقاومة الشر / الحضارة وعواملها: ص٩٠ـ٩١.

٢- صحيح مسلم، باب تراحم المؤمنين، ورقمه: ٤٦٨٥، ج١٢ / ص٤٦٨.

٣- يستخدم القدماء مصطلح البنية بمعان عميقة؛ ففي أسرار البلاغة، ج١ / ص١٤٧: "الاعتبارات اللغوية تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم، وما يقتضيه ظاهر البِنْيَة وموضوع الجبِلّة". وفي الصحاح في اللغة، ج١ / ص٥٥ فلان صحيح البِنْيَة، أي الفطرة. وفي المَخصص، ج٤ / ص٤٦: "والبِنْيَة في الحَسَب على لفظ البِنْيَة في البُنْيان". وفي الفروق اللغوية، ج١ / ص٣٢٤، وإنما الهيئة تستعمل في البنية وفيه ج١ / ص٤٢٠، القتل هو نقض البنية الحيوانية. وفي تهذيب كتاب الأفعال، ج١ / ص٩ الاعتلال في الأفعال: مخالفة أصل البنية.

٤- القدرة؛ وتشمل القدرة الطبيعية والقدرة الصناعية والقدرة البشرية والقدرة العلمية والاستقامة؛ وتشمل الاستقامة في التعامل مع الطبيعة ومع الإنسان، بمستوياتها الثلاثة: الاستقامة الدينية والاستقامة الخلقية والاستقامة العملية إتقان العمل.

أو هلاكه، ويأتي على رأسها ثنائية (الخير والشر) وطرفاها هما مدار الحديث، وسر التحول الحضاري وقوة وحدة المجتمع العضوية أو ضعفها، لذا تعين التساؤل عن دلالتيهما العميقتين؟

١- **الْخَيْر**: أما (الخير) فيعبر هنا عن الإسلام من حيث هو نظام حياة شامل يقوم على العلم النبوي بمصدريه القرآن والسنة خاصة، لقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [آل عمران ١٠٤]، قال الطبري والبغوي وأبو حيان الأندلسي: (الخير) يعنى الإسلام وشرائعه[١].

ونستنتج من ذلك أن الخير مفهوم كلي يعبر عن مجموع القيم والمبادئ التي تعمل في نسق لتحقق نظام حياة يتميز بالأمن والاستقرار، في ضوء الكتاب والسنة، ويعمل على تشكيل الحضارة بالتأثير الإيجابي على الوحدة العضوية في بعديها الأساسيين: **القدرة والاستقامة**، ويقع في مقابل الشر.

٢- **الشَّرّ**: **الأصل في الشر ما يلحق بالإنسان الضرر**، و(الشر) هنا يعبر عن الجاهلية من حيث هي نظام حياة شامل يقوم على الجهل والفوضى، ويؤدي إلى الفساد في قدرات المجتمع واستقامته، وقد يفسر الشر بما يحققه من سبب كالصراع السياسي، قَالَ ابن حجر: «وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الْمُرَاد بِالشَّرِّ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ فِي حَدِيث أُمّ سَلَمَة» : مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَة مِنْ الْفِتَن وَمَاذَا أُنْزِل مِنْ الْخَزَائِن «فَأَشَارَ بِذَلِكَ إِلَى الْفُتُوح الَّتِي فُتِحَتْ بَعْدَهُ فَكَثُرَتْ الْأَمْوَال فِي أَيْدِيهمْ فَوَقَعَ التَّنَافُس الَّذِي جَرَّ الْفِتَن، وَكَذَلِكَ التَّنَافُس عَلَى الْإِمْرَة، فَإِنَّ مُعْظَم مَا أَنْكَرُوهُ عَلَى عُثْمَان تَوْلِيَة أَقَارِبه مِنْ بَنِي أُمَيَّة وَغَيْرهمْ حَتَّى أَفْضَى ذَلِكَ أَنْ قَتله، وَتَرَتَّبَ عَلَى قَتْله مِنْ الْقِتَال بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَا اُشْتُهِرَ وَاسْتَمَرَّ»[٢].

١- تفسير الطبري ٧/ ٩٠، وتفسير البغوي ٢/ ٨٥، والبحر المحيط ٣/ ٣٤٤، هو الإسلام، أو العمل بطاعة الله.

٢- فتح الباري لابن حجر، ج٢٠/ ص١٤٨.

نستنتج من ذلك أن الشر هنا مفهوم يشير لمجموع الصفات السلبية التي تعمل في نسق لتسقط الحضارة بالتأثير السلبي على وحدتها العضوية في بعديها الأساسيين: القدرة والاستقامة؛ لأنه على حد تعبير ابن خلدون «إذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه، فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾[يونس / ١١] يجمع اللفظين معا ويعبر بهما عن أثرهما في الفعل الحضاري ببعديه، ولذلك ربط المسألة بالأجل، وهو هنا يعني الهلاك، «وهو إجمال ينبئ بأن الله جعل نظام هذا العالم على الرفق بالمخلوقات واستبقاء الأنواع إلى آجال أرادها، وجعل لهذا البقاء وسائل الإمداد بالنعم التي بها دوام الحياة، فالخيرات المُفاضة على المخلوقات في هذا العالم كثيرة، والشرور العارضة نادرة ومعظمها مسبب عن أسباب مجعولة في نظام الكون وتصرفات أهله، ومنها ما يأتي على خلاف العادة عند محل آجاله التي قدرها الله تعالى بقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس: ٤٩]»[2]، وبقدر انتشار أنساق أحد الضدين في البنية العضوية للمجتمع يتحقق التحول الاجتماعي والحضاري سلبا أو إيجابا كما سيتبين لاحقا.

المطلب الثاني: تحديد طبيعة التحولات الاجتماعية، وعوامل تغيرها من خلال تحليل نص الأحوال التي تتعاقب على المجتمعات.

أود الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون كان قد تحدث عن مراحل الحضارة وبين أن الحضارات تمر بثلاث مراحل هي الميلاد والنضج والانحدار، قال: «هذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد إلى سن الوقوف، ثم إلى سن الرجوع»[3]، والناس جروا على فهم الأمر على ذلك، ولكن الحديث سيحيلنا على الأحوال

١- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٢١٠.
٢- التحرير والتنوير، ج٦ / ص٤٣٥.
٣- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٨٥-٨٦.

المتقلبة للحضارات والمجتمعات، تبعا للخير والشر مما يبين مفارقة الأمر لما ذهب إليه ابن خلدون، وتلك الأحوال العجيبة يعرضها حديث الرسول ﷺ في فقرات على شكل فرضيات خطيرة وتوقعات استشرافية تخضع للأنساق كما سبق، ويمكن ترتيبها رقميا كما يلي:

أولا: حالة تجربة الشر: تعبر عنها الفقرة: (١ـ قلت: يا رسول الله إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ) وهي حالة يتبين منها الجمع بين الحالة وهي (الشر)[١]، وسببها أو أنساق العامل المؤثر فيها هو (الجهل) لأن «**المراد بالجاهلية الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى الموجبة للميل والمداهنة**»[٢].

ونرى أنه عندما قال: (كنا في جاهلية وشر) كان قد جمع بين الجاهلية من حيث هي مقدمة، والشر من حيث هو نتيجة، وبذلك يكون قد جمع بين الشيء وسببه، فالجاهلية إذن مفهوم يطلق على صفة لطبيعة الثقافة المبنية على الهوى والمداهنة؛ أي أن الفقرة السابقة تعبر عن الشر بوصفه نسقا بكل مواصفاته، من ظلم وجوع وقهر وفاحشة وكفر، وسببه الأساس وهو الجهل. وقد تعد كلمة جعفر بن أبي طالب أمام ملك الحبشة خير بيان لشر الجاهلية وخير الإسلام[٣]، إذ كانت تختصر الصفات السلبية التي إذا نزلت بقوم حالت بينهم وبين الإقلاع الحضاري، لأنها تعمل على تفتيت وحدة المجتمع، على جميع الأصعدة، وعندما نتتبع الحديث في كل جزئياته يتبين لنا من قول جعفر: «فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ

١- ينبغي أن نتذكر أن الشر مفهوم يشير لمجموع الصفات السلبية التي تتحرك في نسق لتسقط الحضارة بالتأثير على بعديها الأساسيين: القدرة والاستقامة.

٢- تفسير الألوسي، ج٥ / ص١٤.

٣- صحيح ابن خزيمة، رقم ٢٢٦٠، ج٤ / ص٩، باب ذكر البيان أن فرض الزكاة كان قبل الهجرة إلى أرض الحبشة إذ النبي ﷺ مقيم بمكة قبل هجرته إلى المدينة، ومسند أحمد رقم: ١٦٤٩، وتفسير ابن كثير ٦ / ٢٩٠.

مِنْ **الْخَبَائِثِ**»[1]، أن الذي فر منه القوم هو (**استحلال الخبائث**)، وسنرى من بعد كيف يكون الخبث بوصفه نسقا سبب (الشر) والانحدار الحضاري، إذ هو لفظ جامع لنسق كل السلبيات، التي من شأنها أن تقعد بالأمة دون الإقلاع الحضاري الذي سنلمس أسبابه في الحال الموالية.

ثانيها: حالة التمتع بالخير المطلق بسبب الدين[2]: وهو ما تترجمه الفقرة التالية من حديث حذيفة، إذ قال: (**٢ـ فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ**)، والإشارة هنا لحال مرحلة النبوة، حين يكون الخير مطلقا، إذ (الخير) هنا هو الأثر العظيم المترتب عن الإسلام، من حيث هو كلية شاملة تتحرك عناصرها في نسق ثقافي بديع، النسق الذي هو العلم القائم على الوحي كله كتابا وسنة، وما حققه من تغير على مستوى النفس والعقل، بنقد العقل البشري من جذوره، و تغير على مستوى السلوك والحياة الاجتماعية والمدنية، من عدل وأمن واستقامة، بسبب نشر العلم بمعناه المطلق ليغير الأنساق الثقافية البائدة، عبر عنه جعفر بن أبي طالب أمام ملك الحبشة بما يكشف عن مقومات الإقلاع الحضاري؛ بدءا بالتوحيد، والصدق، والأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، وتجنب الفواحش، وقول الزور، والعدل، وكف الألسنة عن الأعراض[3]، فكل ذلك صفات جوهرية في الإقلاع الحضاري، ما تمسكت بها أمة إلا وسمت بها نفسها للخير العام الذي ينهض بها ليمنحها الوجود كأمة[4].

إن هذه المقومات الأخلاقية التي أمر الرسولﷺ بها قومه، ليخرجهم من الجاهلية والشر، ويدخلهم إلى الإسلام والخير، إنما هي مقومات الإقلاع

١- مسند أحمد، ورقم: ١٦٤٩، ج٤ / ص١٧٣.

٢- نتذكر هنا أن الخير مفهوم كلي يعبر عن نسق الصفات الإيجابية التي تتحرك لتبني الحضارة بالتأثير على بعديها.

٣- تفسير ابن كثير، ج٦ / ص٢٩٠.

٤- تفسير ابن كثير، ج٦ / ص٢٩٠.

الحضاري، التي من أجلها قال ملك الحبشة حين سمع تلك الأوصاف: «ولولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أحمل نعليه»[1].

وقد كشف ابن خلدون في ضوء الكتاب والسنة فعالية الدين في إقامة الدولة مبيناً «أَنَّ الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك.. أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق، وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال / ٦٣]، وسرُّه أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة"»[2].

فالدين بطبيعته النسقية ـ التي تحكم كل العناصر لتجعلها في نسق منتظم الحركة والأثر ـ طريق إلى الحياة السعيدة بسبب ما يحققه من عوامل الرقي والازدهار لا تتخلف، ولكن استمرار ذلك مشروط بالتحكم في الموازنة بين المتطلبات الروحية التي تحقق الاستقرار، ومن ثم الغنى، وبين المتطلبات المادية وما قد تسوق إليه من سوء التصرف في الناتج من ذلك بالتوجه إلى إشباع الغرائز والتنافس في المادة والتهالك عليها، ولذلك كان الرسول ﷺ يقول: «إِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ ثُمَّ ذَكَرَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا»[3]. إذ يعدُّ ذلك انفلاتا من النسق الذي يحكمها، وينسق بين مداراتها وحركاتها.

١- سنن البيهقي الكبرى، ٦٨٢٢، وسنن أبي داود، باب في الصلاة على المسلم، رقم: ٣٢٠٧، قال الألباني: ضعيف.

٢- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٧٨.

٣- صحيح البخاري، الحديث رقم: ٢٦٣٠، باب فضل النفقة في سبيل الله.

ولا شك أن التوازن بين الروحي والمادي هو ميزة عهد الرسول ﷺ كما يفهم مما جاء في حديث آخر يبين فعالية الدين في إقامة العنصر البشري الذي هو محور الحضارة في البدء والنهاية فقال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي[1]×، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَه»[2]، «فجعل الخيرة، وهي العدالة مختصة بالقرن الأول»[3].

ثالثها: **حالة الردة والخوف من عودة الشر بعد الخير**: أي حالة الانقلاب الاجتماعي على الوجه وحصول الانحدار بعد الازدهار، إذ قال: (**٣- فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ نَعَمْ**)، وفي رواية سنن أبي داود زيادة: «**قُلْتُ فَمَا الْعِصْمَةُ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: السَّيْفُ**»[4]. فهذا استشراف في حالته الثالثة، يطرح فيها السؤال توقع تقلب الأمور وعودة الناس إلى الشر بعد أن ذاقوا حلاوة الخير، على الرغم من مرارة الشر، وذلك لأن الطبيعة البشرية في الغالب كثيرة النسيان، وأكثر ما ينسيها انغماسها في (الترف) مما يبين أن الناس سيفقدون الوعي بقيمة(**نسق الخير**) مرة أخرى نتيجة إهمالهم لأسباب الذكر فينخرطون في (**نسق الشر**) فيهلكون.

ومن ثم يتضح كيف كان الخير في حال مرحلة الرسول ﷺ أقوى وأنصح وأوضح وأبين منه في الأحوال اللاحقة، لدرجة أن الردة بعده يمكن استئصالها بالقوة، لأن المرتد ليس له من مشكل في العقل، إذ قد بلغته الدعوة تماما، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾

١- الْقَرْن الطَّبَقَة مِنْ النَّاسِ الْمُجْتَمَعِينَ فِي عَصْر وَاحِد، وَمِنْهُمْ مَنْ حَدّه بِمِئَة سَنَة وَقِيلَ بِسَبْعِينَ، وَقِيلَ بِغَيْرِ ذَلِكَ. وقيل: "اَلْقَرْن كُلّ أُمَّة هَلَكَتْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهَا أَحَد، فتح الباري لابن حجر، ج١٠/ ص٣٦٥.

٢- صحيح البخاري، باب لا يشهد شهادة الزور، ورقمه: ٢٤٥٨، و٣٦٥١.

٣- قال ابن خلدون: في المقدمة، ١/ ١١٣: »هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين، فهم خيار الأمة، وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة، والنبي ﷺ يقول: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثا ثم يفشو الكذب"، فجعل الخيرة، وهي العدالة مختصة بالقرن الأول والذي يليه".

٤- سنن أبي داود، باب ذكر الفتن ودلائلها، ورقمه:٤٢٤٦، ج٤/ ص١٥٣.

(التوبة: ٦) لكنه فضل أن يركب رأسه تجاهلا وعنادا لا جهلا، ويدل على ذلك الحديث: «خير الناس قرني».

رابعا: حالة الدخن والفساد العلمي: الفقرة الرابعة تطرح مشكلا أكثر تعقيدا هو (حال الدخن) **قال**: (**٤ ـ قُلْتُ وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**)، هذه مرحلة خير، لكن فيها دخن!! والدَّخَن فساد في القلب من باقي عداوة.[1] والدخن في الأصل الفساد والاختلاف تشبيها بدُخان الحطب الرطب لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصَّلاح الظاهر، ولعل شرح العلماء لبيان الرسولﷺ للدخن يمكن أن يكون تعريفا اصطلاحيا، إذ سئل: وَمَا الدخن؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، قال ابن حجر: «هُوَ الْحِقْد، وَقِيلَ: الدَّغَل، وَقِيلَ: فَسَاد فِي الْقَلْب، وَمَعْنَى الثَّلَاثَة مُتَقَارِب. يُشِير إِلَى أَنَّ الْخَيْر الَّذِي يَجِيء بَعْدَ الشَّرّ لَا يَكُون خَيْرًا خَالِصًا بَلْ فِيهِ كَدَر»[2].

ونستنتج أن الدخن لفظ استعمل هنا للدلالة على الفساد الثقافي، الذي يصيب البنية العضوية للمجتمع، بسبب الخلط بين المعرفة الدينية الصحيحة والمعرفة القائمة على الظن والهوى، فهي حال ثقافية متغيرة غير صافية ولا ناصعة، فيها خبث وكدر وصلاح مشوب بفساد، مما يبين أن العقل في مثل هذه الحال بحاجة إلى نقد وتقويم، كي يرجع إلى صوابه، لأنه حين يصاب العقل في مرحلة من مراحل التاريخ بالغرور فيتجاوز حدود إمكانياته، أو بالكسل فيعجز عن القيام بدوره، تتعطل حركة الحضارة، ويصبح نقده وتقويمه فرضا عينيا. **لذلك فسرها ﷺ حين سئل: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي»**، أي يهدون بثقافة فيها كدر.

١- جمهرة اللغة، ج١ / ص٣٠٣ ثم ص٣٧١.
٢- فتح الباري لابن حجر، ج٢٠ / ص٨٩.

والآن، ما سبب ذلك الدخن؟ يمكن أن يفهم من ذلك أن المرحلة تفتقر إلى (الإخلاص)، هل يكون الوعي المهيمن في هذه الحالة إذن **وعيا مزيفا**؟ «لعله هو الذي يفهم من الحديث الذي رواه أبو يعلى» عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تعمل هذه الأمة برهة بكتاب الله، ثم تعمل برهة بسنة رسول الله، ثم تعمل بالرأي، فإذا عملوا بالرأي فقد ضلوا وأضلوا»[١]، وحين ينتشر مثل هذا يتعين انتقاده كما الحال في العالم الغربي المعاصر حيث «العقل هو المفهوم المركزي للحضارة الغربية، وأي نقد لهذه الحضارة لا بد أن يبدأ من نقد العقل»[٢]، ذلك لأنه «ما دام العقل المعاصر يجنح نحو التسلط والسيطرة، حتى أصبح هم الإنسان هو الهيمنة، في ظل الظروف الاجتماعية والسياسية، فإن الحضارة الإنسانية يقودها العقل نحو التدمير الذاتي»[٣]

وما أجمل تعبير الفقهاء «إن المكلف لا يقدِم على فعل حتى يعلم حكم الله فيه»[٤]، لدلالته على قيمة المرجعية الدينية في تحديد مجال حركة العقل.

خامسا: حالة دعاة جهنم وهيمنة الملاحدة: وهي أشد خطرا، إنها حالة دعاة التضليل: والفقرة التي تبين ذلك هي: (**٥- قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ نَعَمْ دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**) وفي رواية سنن أبي داود بزيادة «فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ صَمَّاءُ عَلَيْهَا دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ النَّارِ فَإِنْ تَمُتْ يَا حُذَيْفَةُ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلٍ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتَّبِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ»[٥].

١- مسند أبي يعلى الموصلي ورقم الحديث ٥٧٢٣، قال في مجمع الزوائد: رواه أبو يعلى وفيه عثمان بن عبد الرحمن الزهري متفق على ضعفه، وقال في إتحاف المهرة: باب الإيمان: إسناده ضعيف، وقال الألباني في السلسلة: ضعيف.

٢- الأسس الفلسفية لنظرية أدورنو الجمالية د. رمضان بسطاويسي، ص٧.

٣- الأسس الفلسفية لنظرية أدورنو الجمالية د. رمضان بسطاويسي، ص١.

٤- التحرير والتنوير، ج١٣ / ص٤٩٩.

٥- سنن أبي داود، باب ذكر الفتن ودلائلها، رقم: ٤٢٤٨، ج٤ / ص١٥٥.

إن الحال التي تعبر عنه هذه الفقرة أخطر، لأن ترتيب الأحوال هنا كان تصاعديا، ويتوقف فهم الفقرة على دلالة مفاهيم ثلاثة: الدعاة، وأبواب جهنم، والألسنة. وأصل الداعي هو كل من يدعو الناس لحضور أمر أو للعمل بأمر، (ودُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ) هم أولئك الذين يكسبون لسبب ما السلطة الكلامية، إما لقدرة في الجدل وإما لجاه، فيغتر الناس بذلك فيستجيبون لهم، لما يسوقهم إلى الشر المؤدي إلى جهنم، وحال هؤلاء كحال شعراء الرذيلة الذين بين الله أنهم ممن (يتبعهم الغاوون) ولذلك قال معقبا على تفسيره (مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا)، ولفظ (الألسنة) بالجمع كانت منذ القديم تطلق على اللغات التي تميز قومية من القوميات، فهي عنصر من العناصر المميزة للأمة. وقد جاء في التنزيل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، أي أن اللسان وسيلة تواصل بين المتكلم المصلح المرسل، وبين المجتمع المستقبل الذي يرجى صلاحه، وعليه فاللسان مهم جدا في البناء الحضاري للأمة، فإذا استخدم ممن يتقن استخدامه فقد تمكن من بلوغ أهدافه، إن إيجابا وإن سلبا، لذلك ورد في حديث معاذ قوله بعد ذكر الإسلام والجهاد والصلاة: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ قُلْتُ بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»[1].

هذه الفقرة تتكون من سؤالين، كالفقرة السابقة؛ لذلك تميزت ببيان الحالة في الإجابة الأولى وهي (الشر)، وبيان صفات عواملها في الإجابة الثانية، وهي (الانبراء للدعوة لأبواب جهنم)، وصيغة الجمع (أبواب) لها دلالة قوية، ويبدو أن أهل هذه الحالة أشد خطرا على المسلمين فهي (دعوة عمياء صماء)؛ «والمراد بكونها عمياء صماء أن تكون بحيث لا يرى منها مخرجا، ولا يوجد دونها مستغاثا، أو أن يقع الناس فيها على غرة من غير بصيرة فيعمون فيها ويصمون عن تأمل قول الحق واستماع النصح،... ويمكن أن يكون وصف الفتنة بهما كناية عن ظلمتها،

١- سنن الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وعدم ظهور الحق فيها، وعن شدة أمرها، وصلابة أهلها، وعدم التفات بعضهم إلى بعض في المشاهدة والمكالمة»[1].

ولا شك أنهم أعداء الحق في كل زمان ومكان، وعلى رأسهم الجهلة، والملحدون والعلمانيون، وسيستمر الحال كذلك بوصفه سنة إلى أن تقوم الساعة، لاسيما إذا كنا نريد أن ننظر بعين الناقد إلى الحياة المعاصرة، إذ «الإنسان بدلا من السيطرة على الطبيعة، استخدم العقل والطبيعة في السيطرة على الإنسان، وهكذا أصبحت كل المكتسبات التكنولوجية، وكل التقدم الواضح الذي أمكن إحرازه عاجزا عن خلق التوازن المعقول بين الفرد والكلية الاجتماعية، وظهر لنا بؤس الغالبية وتفتت وتناثر الجوهر الإنساني»[2].

إذن هنا أمام المشكل المعقد فعلا، يصبح السؤال عن الصفات ضروريا، لذلك طلب حذيفة من الرسولﷺ أن يصفهم لنا فقال: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**»، إذن هم ليسوا من خارج الدائرة اللسانية التي تستخدم في سياق التواصل اللغوي في المجتمع ،قال العيني «أراد أنهم في الظاهر مثلنا معنا وفي الباطن مخالفون لنا في أمورهم»[3].

سادسا: حالة لزوم الجماعة الصالحة والاستعداد والتحفز لمحاولة التغيير:
وهي التي تكشف عنها الفقرة(٦ـ) التالية: «**قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ**»، وأصل (الالتزام) هو الملازمة، ويقصد هنا ملازمة جماعة مميزة بخصائص إسلامية في وسط ثقافي واجتماعي مختلف، يمثل السواد الأعظم من الناس. وذلك للحفاظ على الخصوصيات الإسلامية؛ لأن العادة من شأنها أن تؤثر في الإنسان، فتتكون له صبغة متمكنة فيه، يصعب أن يعدل عنها.

١- ابن الجوزي،كشف المشكل من حديث الصحيحين، ج١ / ص٢٥٣.
٢- الأسس الفلسفية لنظرية أدورنو الجمالية د. رمضان بسطاويسي، ص٨.
٣- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج٢٤ / ص١٦٦.

وهذه هي حالة البحث عن سبل الاستعداد والتحفز لإيجاد مخرج النجاة الجماعية، وأعتقد أنها الحالة المتميزة بمحاولة التغيير؛ لأن المرض قد استفحل، والسواد الأعظم من المجتمع قد غاص في المنكرات، ولأن الخلل لم يعد صفة في السلوك وحسب، بل صار ملتبسا بأنساق الثقافة والمعتقدات، بسبب دخول العقل الجماعي في التيه؛ إما بتجاوز حدود إمكانياته، وإما بالكسل الذي أصاب الأمة، ويوشك أن يتحول إلى أنساق ثقافة مهيمنة على المجتمع، ومنها إلى تكوين **صبغة** المجتمع المنحرف، وعندئذ لم يعد للإنسان من حيث هو فرد في المجتمع قدرة على المقاومة، فكان لابد أن يبحث عن «جماعة المسلمين وإمامهم» ليمارس من خلالها التغيير، قال ابن بطال: «وقال آخرون: الجماعة التي أمر النبي ﷺ بلزومها هي جماعة أئمة العلماء، وذلك أن الله جعلهم حجةً على خلقه، وإليهم تفزع العامة في دينها، وهي تبع لها، وهم المعنيون بقوله ﷺ: «إن الله لن يجمع أمتي على ضلالة»[1].

ومعناه أن هذه الحالة تكشف عن المخرج الذي يمكن أن يكون عن طريق جماعة صالحة، قد تكون الأغلبية، وقد تكون الأقلية، فالأمر إلى الصلاح، لأنها يمكن الاستئناس بها وبإمامها، لما فيها من علم يورث العصمة، ولو كانوا أقلية، دفعا للفتنة، ما دام السواد الأعظم قد استفحل فيه الفساد والضلال، وفقدت بنية المجتمع والحضارة مقوماتها في أنساق بعديها الأساسيين وهما: القدرة والاستقامة.

سابعا: حالة الاعتزال والهروب إلى الطبيعة انتظارا للحل: هذه هي الفقرة الأخيرة (٧) وتعبر إذن عن آخر حالة وأدقها، فيقول: «**قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ**»[2].

١- شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ج١٩ / ص٤٠.
٢- صحيح البخاري باب علامات النبوة ودلائل النبوة للبيهقي، ج٧/ ص٤١١، بزيادة يستنون بغير سنتي، ومسلم باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن.

ويتراءى لنا هنا استشراف لمستقبل ما بعد الفشل في تحصيل الجماعة، وقد يتوقع ازدياد الحال ظلاما بسبب خلوها من الجماعة الصالحة، وغياب العلماء والوعاظ والأئمة الصالحين، وعلى هذا لابد أن نفهم أولا دلالة لفظ الاعتزال، ولفظ (الموت) لنفهم مقصود الحالة الأخيرة ومواصفاتها.

إن أصل الاعتزال هو تجنب المخالطة، وقوله: (فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ) معناه تجنب مخالطتها. والاعتزال بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، يعني تجنب مخالطة السواد الأعظم من الناس الذين اختلت أنساق ثقافتهم فانكسرت مقوماتهم الخلقية والدينية، وتعذر إصلاحهم، فصارت مخالطتهم مؤذية في الدين والخلق. ويمكن أن نقف على هذا المثال من الاعتزال في تاريخ المسلمين زمن عثمان رضي الله عنه، قال ابن العربي: «وقع بين أبي ذر ومعاوية كلام بالشام، فخرج إلى المدينة، فاجتمع إليه الناس، فجعل يسلك تلك الطرق، فقال له عثمان:» لو اعتزلتَ «معناه: إنك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس، فإن للخلطة شروطا وللعزلة مثلها، ومن كان على طريقة أبي ذرّ فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه»[1].

فالموت هنا استخدم بمعنييه؛ الحقيقي وهو مفارقة الروح للجسد والمجازي الذي يقصد به الموت الحضاري والاجتماعي، وهو موت القيم والمبادئ والكرامة، والعلاقة بينهما هو كون المجتمع الذي يفقد مقومات كرامته من حيث هو إنسان يعد كالميت الذي فقد الحياة، ومن ثم يصبح البحث عن الحضارة هو بحث عن الحياة[2]، وينطبق هذا التصور للحياة بمعنييها الحقيقي والمجازي على الظاهرة الحضارية، وعليه فإن الموت الاجتماعي والحضاري يعني أن يفقد المجتمع مقوماته التي بها يكون له وجود في الوسط البشري، ويمكن حصر المقومات الحضارية في أنساق بعديها: القدرة والاستقامة، ويكون حلول الخلل في أحدهما بداية للتأثير

١- العواصم من القواصم، لأبي بكر بن العربي، في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، ١ / ٨٦.
٢- التحرير والتنوير، ج١ / ص١٩٥.

السلبي في الحضارة، فهو مؤذن بمرض قد يفضي بالمجتمع إلى الموت.

ومن هنا كان الصراع الحضاري من أجل الوجود كالصراع الفردي من أجل إثبات الذات، وأعتقد أن هذا هو المقصود في الحديث: «وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[1]، لأن السياق ليس سياق الموت الحقيقي، وإنما هو سياق الصراع الحضاري، وسيأتي بيان ذلك في دراسة أسباب التحولات الحضارية وأنساقها.

والحق أن شراح الحديث قد تعرضوا بدقة لمشكلين مترتبين عن طبيعة المرحلتين الأخيرتين، حالة الاعتزال التي تتطلب النجاة من الفتنة، وحالة الاستعداد والتحفز التي كانت قبلها تتطلب الاندماج والمخالطة لإيقاف نزيف الفتنة، وساعد الشراح على ذلك وجود أحاديث متعددة تتناول ثنائية الاعتزال والانسجام في المجتمع، ومن الطبيعي أن يعتمدوا في فهم الظاهرة على أحاديث شريفة منها ما يؤكد فكرة الاعتزال، ومنها ما يطرح حلولا أخرى؛ منها الاندماج الاجتماعي والثقافي. قال ﷺ: «ألا أخبركم بخير الناس منزلة» ؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: «رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، حتى يقتل أو يموت، ألا أخبركم بالذي يليه؟ رجل معتزل في شعب، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويشهد أن لا إله إلا الله»[2]، فهذا الحديث يؤكد فكرة الاعتزال ويضعها في المرتبة الثانية بعد العجز عن التغيير، ولكن الحديث التالي يدعو إلى الصبر على الأذى مع المخالطة وهو قوله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»[3].

١- سبق تخريجه.

٢- المستدرك على الصحيحين للحاكم، رقم،٢٣٤٠، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وانظر الموطأ للإمام مالك، والترمذي لكنه قال: حسن غريب من هذا الوجه.

٣- سنن ابن ماجه، ١٢ / ٣٩ صححه الألباني، وتعليق الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

خلاصة المبحث الأول: يمكن أن نستنتج في نهاية تحليل حديث حذيفة الأساسي في مجال الاستشراف المتعلق بأحوال تغير المدنيات والحضارات وفق الأنساق الثقافية المتسببة فيها ما يلي:

١- لقد تبين أن الاستشراف المدني و الحضاري كان يمثل بعدا مهما من أبعاد الحديث الشريف.

٢- الأحاديث الشريفة قد استوعبت التحولات الحضارية المتعددة وبينت أساليبها وكشفت عن طرق مواجهتها، والتصرف فيها لكي نتحكم في بعديها الأساسيين وهما:

أ- القدرة؛ وتشمل(القدرة الطبيعية والقدرة الصناعية والقدرة البشرية والقدرة العلمية).

ب-الاستقامة؛ وتشمل(الاستقامة في التعامل مع الطبيعة ومع الإنسان، بمستوياتها الثلاثة: الاستقامة الدينية والاستقامة الخلقية والاستقامة العملية (إتقان العمل).

٣- تبين أن الاعتزال ليس سوى نهاية سبع حالات اجتماعية ومدنية تتحكم فيها أنساق عوامل فعالة، وهي أحوال ليس بالضرورة أن تكون مراحل متتالية زمنيا، يمكن أن يتعرض لها المجتمع ، وقد عرضها الحديث على التوالي تبعا للعوامل المؤثرة فيها:

١- حالة شر الجاهلية.

٢- حالة خير الإسلام.

٣- حالة شر الردة.

٤- حالة دخن الجهلة والمتعالمين وربما العلمانيين.

٥- حالة دعاة جهنم وهيمنة الملحدين.

٦- حالة لزوم الجماعة والأقلية إن وجدت استعدادا لمحاولة التغيير.

٧- حالة الاعتزال والهروب إلى الطبيعة لقرب الأجل الحضاري القائم، انتظارا للحل في الدورة الحضارية الجديدة.

ذلك لأن «من بين أنصار أنماط الحياة القابلة للنماء، فإن الاعتزاليين وحدهم هم الذين لا يلقون لوما، لأنهم لا يشتركون في صراعات الحياة الاجتماعية»[1]. ولكن مع ذلك فقد لاحظنا من خلال الحديث النبوي الشريف لا سيما عبارة (فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا)[2] ما يشير إلى إمكان اتخاذ المعتزلي أسلوب الاعتزال كخطوة استراتيجية، لبناء الذات ريثما تأكل الفتنة بعضها ثم يعود للإصلاح قدر الطاقة البشرية.

٤- مقياس التغير الحضاري في ميزان الحديث الشريف هو الخير والشر، إذ الشر والخير هما الصفتان البارزتان في التعبير عن تغير أحوال المجتمعات، والجهل والعلم هما العاملان الأساسيان في توجيه مؤشر التغير، ومع ذلك فإن كل حالة من أحوال التغير المدني والاجتماعي والحضاري تتميز بخصائص وأنساق عوامل تحكم النوع، وتعبر عن صفاته. ومنها الجهل بالدين الحق، والدخن، والتبجح بإنكار قيم الخير.

٥- يقدم الحديث حلين للخروج من المأزق المدني والحضاري حين يهيمن الشر، وهما على التوالي:

١- نظرية الثقافة، ميشيل تومبسون وآخران ص١٠٩.

٢- صحيح البخاري، باب علامات النبوة ودلائل النبوة للبيهقي، ج٧/ ص٤١١ بزيادة يستنون بغير سنتي، ومسلم باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن.

أ- البحث عن الجماعة الخيرة والانضمام إليها لمقاومة أنساق الشر، ومواجهة أسبابه.

ب- الاعتزال ويكون إما تجنبا للذوبان أو الخضوع لمبدأ الإمعة، طبقا لقوله تعالى: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة:١٠٥]، أو انتظارا للحظة ظهور بشائر الخير طبقا لحديث (من يجدد للأمة أمر دينها).

المبحث الثاني: استشراف أسباب (الهلاك) و السقوط الحضاري والاجتماعي كما يرصدها الحديث.

انتهينا في المبحث السابق إلى أن الحديث يرسم لنا معالم الأحوال الست التي تتداول الحركة التاريخية و تتعاورها[1]، ونود أن نقف في هذا المبحث على أنساق أسباب الهلاك والانحدار، لاسيما وأن الاستقراء التاريخي يفيد أن الدول والحضارات تتعاقب عليها صور الازدهار والانحدار، وربما الهلاك بمعنييه؛ السقوط الذي ينتج عن خلل في قدرة البنية الفوقية (النظام) واستقامتها فقط، والاستئصال الذي ينتج عن فساد في قدرات البنية الكلية للمجتمع واستقامتها، وحتى إن كانت صورة ذلك في الدول والمجتمعات غير صورتها في الحضارات والأمم، فالقاعدة التاريخية العامة تفيد أن كلا منها لابد أن يتعثر، وقد يتجدد، وقد يؤول إلى الزوال، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[آل عمران:١٤٠]، وقال بشأن عاد وثمود: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾[الحاقة:٨]، فسنة التداول والاستئصال قائمة، تشهد عليه أحداث التاريخ وتؤكد الدراسات المعاصرة[2]، فما أسباب توجه السهم الحضاري أو

١- بمعنى تعاوَرت الرياحُ رَسْمَ الدار أي تَداوَلَتْه جَنوباً وشَمالاً و قَبُولاً و دَبُورًا. لسان العرب (عور) ج٤/ ص٦١٢.

٢- الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، حسين مؤنس، ص٤٢.

الاجتماعي أو الدولي نحو حالة الشر والسلب بعد حالة الخير والعمران وما القواعد التي تتحكم فيها؟

تعددت الآراء حول أسباب السقوط الاجتماعي والحضاري فردها ابن خلدون إلى الترف[1]، حينا وإلى العصبية والمال أخرى مبينا أن «الخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين»[2]، وحصرها بعض المعاصرين في «نظام الحكم وأخلاق أهله»[3]. وذهب (البارون هولباخ) إلى أن **الجهل هو رأس الأخطاء والشرور**[4]، وردها توينبي إلى توقف فكرة التحدي والاستجابة، كما ردها علماء الاجتماع المعاصرون إلى (**الركود** الثقافي) في مقابل التقدم المادي الذي يضر بالإنسان ويخرجه عن طبعه[5].

تلك مجموعة من الآراء حول مشكل التحولات الاجتماعية والحضارية، ونرى مبدئيا أنها تمثل ظواهر ولكنها لا تمثل كلية إسقاط، لأن إسقاط الدول والحضارات لا يتم إلا وفق أنساق فهل هي صحيحة؟ لقد سجلنا من خلال نتائج تحليل الحديث في المبحث السابق أن تردي الأحوال والعودة إلى الشر يرجع إلى نسق ثقافي ذي ثلاثة مظاهر: (الجهل) و(الدخن) و(دعاة جهنم بلسان عربي)، فكيف ذلك؟ وما الكلية الجامعة لتلك الأنساق؟

حين نسبر أغوار الأحاديث النبوية التي تعالج مشكل (الهلاك الحضاري والاجتماعي) سنجدها تشير إلى عامل رئيس فعلا هو (**كثرة الخبث**) لقوله ﷺ وقد سئل: «**أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»[6]،

١- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٧٣، قال: «الملك يخلقه الترف ويذهبه».
٢- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص١٥٩.
٣- الحضارة، م س، ص٤٨.
٤- الحضارة وعواملها ص٢٥٧.
٥- الحضارة وعواملها ص٣١٠، ٣١٣.
٦- موطأ مالك، بَاب مَا جَاءَ فِي عَذَابِ الْعَامَّةِ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، رقم: ٣٦٣٥، ج٥ / ص١٤٤٢

فهل يمكن أن يكون كثرة الخبث هو الكلية التي تجتمع فيها تلك الأنساق؟ وما معنى الإهلاك[1] بواسطة الخبث؟

للإجابة عن ذلك لابد أن نتساءل عن معنى (**الخبث**)؟ وكيف **يتضخم في مجتمع ما** حتى يكون نسقا يضرب البنية الاجتماعية أو الحضارية في بعديها الأساسيين؛ القدرة والاستقامة، فيتحقق زوالها، تاركة وراءها شواهد وجود وأسباب فناء[2]؟ فهل كان تضخم الخبث **محصورا** فعلا في مظاهر السياسة، والترف، أو توقف التحدي أو انتشار الجهل أو سوء علاقة القوانين بالبيئة، إلى غير ما ذكر؟ أم أنه يعود إلى عوامل أخرى روحية ومعنوية؟ وهل يكفي مظهر واحد لتحقق الهلاك؟ ثم ما أنواع الهلاك التي يمكن أن تحدث؟ وما أسباب اختلافها؟ ذلك ما نود الوقوف عنده في هذا المبحث لنتساءل عن الأسباب المؤذنة بالانحدار، مجتمعة في (نسق الخبث)، تلك التي يمكن حصرها من خلال استقراء الحديث الشريف، وسنلاحظ هنا ملاحظتين:

أولاهما: أن للخبث ـ وهو مفهوم كلي يعني فساد إنسانية الإنسان بالكلية في القدرات والاستقامة ـ صورتين:

أ- الخبث الروحي وأبرز مظاهره: الكفر، والاستهتار بالقيم، وسيادة الجهل

ب- والخبث المادي، ومن أبرز مظاهره: الظلم، والاستبداد، والتطفيف، والترف، والصراع الداخلي، وإسناد الأمر لغير أهله، والمؤامرة.

وثانيتهما: أن الهلاك، وهو مفهوم كلي كذلك يعني فساد البيئة الاجتماعية

١- الإهلاك أعم من الإعدام لأنه قد يكون ينقض البنية. الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ج١ / ص٨٤.

٢- شواهد الحضارات تختلف من حيث قوتها بين المادي والمعنوي، فشواهد اليونانية فكرية فلسفية، وشواهد الحضارة الإسلامية علمية تشريعية، وشواهد الفرعونية والأمازيغية، وثمود مادية تظهر إما في أبنية الأضرحة، وإما في الرسوم.

بالكلية لتمس الوحدة العضوية للمجتمع كله أو بالجزئية لتمس البنية الفوقية وحدها؛ ثم هناك نوعان من الهلاك؛ هلاك استئصالي وهلاك سقوطي. وسنعالج في ضوء ذلك مشكلات الهلاك بصورتيه: السقوط والاستئصال، من خلال المطالب التالية لنبرهن على أن النظريات السابقة كلها كانت تنظر من زاوية ضيقة للمشكلات الحضارية التي تمثل مظهرا واحدا من مظاهر (نسق الخبث) الذي يتوقف تأثيره على النسق القائم بين مجموع المظاهر المشكلة للخبث، وذلك سر الخلاف الحاد بين تلك النظريات وما نستنتجه من الحديث الشريف السابق واللاحق، وبذلك يكون الحديث قد وضع فعلا يدنا على السر، فما هو هذا السر؟ وما مظاهره؟ وما آثاره؟

المطلب الأول: فعالية الخبث في إهلاك البنيات الحضارية والاجتماعية:

توطئة: لقد قلنا إن كثرة الخبث يعني كونه نسقا من مظاهر الشر، ولكي نعالج هذا السبب ومظاهره وآثاره الخطيرة يتعين أن نقسمه إلى فرعين: نخصص الأول لطبيعة (الخبث) بوصفه نسقا مرضيا اجتماعيا خطيرا، ونجعل الثاني لتحليل الأثر الناجم عن نسق الخبث، لأن القدماء أنفسهم لاحظوا أن المجاهرة بالمنكر - مثلا - لا تعني سوى تواطؤ الناس على الشر، ومن ثم تضخم (الخبث) ليصير نسقا، فقالوا: «إنَّ لِلْمُجَاهَرَةِ بِالْمُنْكَرِ مِنْ الْعُقُوبَةِ مَزِيَّةً مَا لَيْسَ لِلاسْتِتَارِ بِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ عَاصُونَ مِنْ بَيْنِ عَامِلٍ لِلْمُنْكَرِ وَتَارِكٍ لِلنَّهْيِ عَنْهُ وَالتَّغْيِيرِ عَلَى فَاعِلِهِ إلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُنْكِرُ لَهُ مُسْتَضْعَفًا لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ فَيُنْكِرُهُ بِقَلْبِهِ فَإِنْ أَصَابَهُ مَا أَصَابَهُمْ كَانَ لَهُ بِذَلِكَ كَفَّارَةٌ وَحُشِرَ عَلَى نِيَّتِهِ»[1].

وسنعتمد في دراسة هذا المرض على النص الأساسي، في هذا السياق وقد ورد في موطأ مالك «أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ

١- المنتقى، شرح الموطأ، ج٤ / ص٤٦٠.

أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»[1] وعلل القرآن الكريم إهلاك آل فرعون بالكفر بآيات الله وكثرة الخبث الذي عبر عنه بجمع لفظ (الذنب) الذي كان دأبهم، فقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢]، وروي عَنْ زَيْنَبَ ابْنَة جَحْش أَنَّ رَسُولَ الله - ﷺ- دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا فَزِعًا يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إلاَّ الله، وَيْلٌ لِلْعَرَب مِنْ شَرٍّ قَد اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْم يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذه». وَحَلَّقَ بِإِصْبَعَيْه الإِبْهَام وَالتي تَليهَا. قَالَتْ زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْش: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله: أَفَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخُبْثُ»[2].

الفرع الأول: معنى الخبث وعلاقته بالهلاك: فسر الْخَبَثُ بالْفِسْق وَالْفُجُور[3]، ولكن عند تتبع الشراح يمكن أن نفهم الخبث بوصفه نسقا من الأمراض الاجتماعية، ومفهوما كليا يعني **فساد إنسانية الإنسان بالكلية، في القدرات والاستقامة**، وذلك من شأنه أن يعطل الحركة الاجتماعية من جهة قدراتها ومن جهة الإقدام على العمل، وهو ما يفسره ابن خلدون في النص التالي: «إن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك... والحضري بما قد فقد من خلق البأس بالترف والمربى في قهر التأديب والتعليم، فهو لذلك عيال على الحاميه التي تدافع عنه. ثم هو فاسد أيضاً في دينه غالباً بما أفسدت منه العوائد وطاعتها، وما تلونت به النفس من ملكاتها كما قررناه، إلا في الأقل النادر. وإذا فسد الإنسان في قدرته ثم في أخلاقه ودينه، فقد فسدت إنسانيته وصار مسخاً على الحقيقة»[4]، وهذا **المسخ على الحقيقة هو ما عبر عنه الحديث ب(كثرة الخبث). ويختلف عن**

١- موطأ مالك بَاب مَا جَاءَ في عَذَابِ الْعَامَّةِ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ رقم٣٦٣٥.
٢- صحيح البخاري ورقمه٧١٣٥.
٣- شرح السنة، ج١ / ص١٠٠٣.
٤- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٢١٠.

(**الغفلة**) في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام / ١٣١]، ويقابله (الصلاح) كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾[هود / ١١٧].

في الحديث التالي يمكن أن نتبين كيف يهيمن نسق الخبث، من خلال مظاهره، وكيف يضرب الحضارة في أبعادها الأساسية فينزل بها البلاء، قال ﷺ: «إذا عملت أمتي خمس عشرة خصلة، حل بها البلاء». قالوا: يا رسول الله وما هي؟ قال: «إذا كان الفيء دولا، والأمانة مغنما، والزكاة مغرما، وأطاع الرجل زوجته، وعق أمه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وبر الرجل صديقه، وجفا أباه، وأكرم الرجل مخافة شره، وكان زعيم القوم أرذلهم، واتخذت القيان، والمعازف، وشربوا الخمور، ولبسوا الحرير، فانتظروا مسخا، وخسفا»[1].

فالمظاهر الثلاثة الأوائل (الفيء دولا، والأمانة مغنما، والزكاة مغرما) مظاهر تترجم (نسق الترف) وتضرب (القدرة) الحضارية، والبقية مظاهر تترجم خلل (الاستقامة العملية) على المستوى السياسي والاجتماعي والأخلاقي للمجتمع، وهكذا يتبين أن الحديث يشير إلى **هيمنة الخبث** على المجتمع[2]، وهو فساد الإنسان بالكلية، بالفسق والفجور جملة، لقلة الصالحين فيه، مما يهدد الوجودين الدولي والحضاري، إذ قد لا يمكن لتلك القلة أن تشكل حزام الأمن والوقاية من الأخطار المحدقة به، لاسيما إذا لم تكن صاحبة القرار؛ بسبب كثرة أهل الخبث وهيمنتهم على مقاليد الأمور، سلطة أو ضغطا، حتى لو كان المجتمع من حيث الانتساب مجتمعا إسلاميا؛ لأن العبرة بفعالية تضافر مظاهر طبيعة الأنساق، لا بالانتساب الشكلي، ولعل هذا ما يترجم مقولة الطهطاوي الناجمة عن الصدمة

١- المعجم الأوسط للطبراني، ج١ / ص٤٧٥ ورقمه، ٤٧٦، باب من اسمه أحمد، والمعجم الكبير برواية ابن مسعود ورقمه ١٠٥٥٦.

٢- يذكر في إغاثة اللهفان، ج١ / ص٢٦٢ ما يكشف عن معنى هيمنة الخبث"قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، المعجم الأوسط للطبراني ورقمه، ٤٧٦، باب من أسمه أحمد ٤٦٩.

الحضارية: (وجدت ببلاد الغرب إسلاما بلا مسلمين، وفي بلاد الإسلام وجدت مسلمين بلا إسلام)، وهي مقولة صادقة في أنسقة الأنظمة الغربية، كاذبة في أنسقة السلوك الفردي؛ لذلك سنسأل: كيف يمكن فهم دلالة الحديث في ضوء التجارب التاريخية، وما توصلت إليه نتائج بحث مشكلات التداول الدولية والحضارية؟

يبدو لي في البداية أن **أهل الخبث إذا هيمنوا** ـ سلطة أو ضغطا ـ على مقاليد الأمور، فسيصبح القرار خارج أيدي الطيبين والصالحين، سواء أكانوا في سدة الحكم وكرسي العرش، حيث يفترض أن ينجز القرار، أم في غيره، والسبب في ذلك أن القرار الذي يمكنه أن يضع حدا للخبث هو القرار النافذ، والقرار النافذ فعلا قد يكون أحيانا في غير كرسي الحكم، وهو ما يسمى **(ضغط الكتل)**[1]؟

بل لعل الانقلابات الكثيرة التي حدثت في العالم تفيد أن زحزحة العروش ليس سوى نتيجة للتعارض القائم بين وجهتي نظر الأقلية الحاكمة والأكثرية التي انتزعت منها الحكم، والدليل على ذلك أن بعض الأنظمة التي جاءت بديلا ظلت أسوأ، وصار التاريخ يسجل مراجعة هامة لما قد حدث من كذب وبهتان ووعود كاذبة، فدل ذلك على أن الفكر السائد هو الذي يغلب الشعوب على أمرها في النهاية، بغض النظر عن صلاحه أو فساده، وأن الانقلابات كانت في الغالب ارتجالية، لا تقوم على أي دراسة حقيقية للخبث، بل **لعل هيمنة الخبث ـ وقد قلنا قبل إنه فساد الإنسان من ضعف في القدرات والأخلاق والدين وما ينجر عنها من فسق وفجور وضعف في الأداء ـ هو الذي أفرز النظام الجديد بطرق مختلفة أسوأها الانتهازية، التي تعد من أقوى طرق العلمانيين والشيوعيين في الاستيلاء.**

١- يمكن ملاحظة ذلك مثلا في تصريح بلير مثلا بأنه خان ضميره في قضية العراق.

وحتى لو كان الحاكم صالحا والرعية فاسدة فإن القاعدة المتحكمة هي التي يعبر عنها الحديث «كما تكونوا يول عليكم»[1]؛ أي أن مصير الحاكم سيصير لأحد أمرين؛ إما أن يندمج في الفساد، إرضاء للمفسدين للمحافظة على الكرسي، حتى تأتي السنة فتهلك الجميع، وإما أن يدعوهم فيستجيبوا فيصلح حالهم، وإما أن يقاومهم فيتغلبوا عليه بالمكر والدهاء فيغتالوه ويتسلطوا، فيكثر الفساد فيعجل الله بالهلاك. والحديث التالي يبين ذلك فعن صعصعة بن صوحان، قال: «خطبنا علي رضي الله عنه حين ضربه ابن ملجم، فقلنا: يا أمير المؤمنين، استخلف علينا، فقال: أتركبكم كما تركنا رسول الله ﷺ، قلنا: يا رسول الله، استخلف علينا، فقال: «إن يعلم الله فيكم خيرا يول عليكم خياركم»، قال علي: «فعلم الله فينا خيرا فولى علينا أبا بكر رضي الله عنه»[2].

ونستنتج من ذلك أن هيمنة أنساق الخبث وهو فساد إنسانية الإنسان بالكلية في القدرات والاستقامة مقدمة حتمية للسقوط، أي أن الهلاك هو مصير بنية السلطة أو الدولة أو الأمة إذا كثر الخبث فيها، وكون أنساقا، فكيف نعرف درجة نسق الخبث المهلك؟

المطلب الثاني: مظاهر نسق الخبث المهلك: قلنا قبل: إن (كثرة الخبث) تعني وجود نسق من الأمراض وتتجلى في نوعين من المظاهر تشكل نسقا يعمل بانتظام؛ مظاهر الخبث الروحية، ومظاهر الخبث المادية:

الفرع الأول: أبرز مظاهر الخبث الروحي: الكفر، والاستهتار بالقيم، «وسيادة الجهل:

١- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، أخرجه ابن جميع في "معجمه" من حديث أبي بكرة، والبيهقي في "الشعب" من حديث يونس بن أبي إسحاق عن أبيه قال: هذا منقطع. وجعله الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة ١ / ٤٩٠.

٢- المستدرك على الصحيحين للحاكم،[كنز العمال ٣٦٥٦٢] جامع الأحاديث للسيوطي:٣٣٣٣٢.
تعليق الذهبي قي التلخيص: حذفه الذهبي من التلخيص لضعفه، وقال النسائي وجماعة متروك.

١- **الكفر وعصيان الأنبياء:** يعد الكفر وعصيان الرسل ومخالفتهم من أبرز العناصر التي تستوجب غضب الله ومن ثم التعجيل بالهلاك إما استئصالا وإما إسقاطا بسبب ما يترتب على العصيان من خلل في قدرات بنية الحضارة واستقامة خطها، فعَن النبي - ﷺ- قَالَ: «دَعُوني مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيء فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[١]. وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل / ١١٢]، ويرتبط بعامل الكفر ومخالفة الأنبياء عامل الغلو في الدين إذ قال: «وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ»[٢]، ومنه يتبين أن الكفر والعصيان من أبرز مظاهر نسق الخبث المهلك.

٢- **الاستهتار بالقيم والرضا بالفساد و دورهما في التعجيل بالهلاك:** هذا بعد قوي من أبعاد مظاهر الهلاك والسقوط، يتمثل في فساد الجانب الروحي في الإنسان حتى صار وجدانه يستلذ المنكر فلا ينهي عنه، وقد حذر الله تعالى منه في معرض وصف بني إسرائيل فقال: ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة / ٧٩]، فنحن هنا أمام مظهر آخر من مظاهر (نسق الخبث) هو ما يسمى «المشاركة الوجدانية في تكريس الفساد»، وهو من أمراض العصر الناجمة عن قلة التقوى والطمع في الناس. وفي الحديث التالي يتبين أن الرضا بالمنكر ولو في القلب يبوئ الإنسان مكانة فاعل المنكر، ويسري عليه ما يسري على فاعل الفساد، فعن جابر قال: قال ﷺ: «أوحى الله عز و جل إلى جبريل عليه السلام: أن أقلب

١- صحيح البخاري، رقم الحديث ٧٢٨٨، ج٢٤ / ص٨٢ وكذلك رقم ٦٧٤٤ عن أبي هريرة.
٢- مسند أحمد، ج٤ / ص٢٨٦ ورقمه ١٧٥٤.

مدينة كذا و كذا بأهلها قال: فقال يا رب إن فيهم عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين قال: فقال: اقلبها عليهم فإن وجهه لم يتمعر في ساعة قط»[1]. قال الملا القاري: «وفيه توسعة للإشعار بأنه لو غضب عليه مرة لله لسومح في بقية أوقات عمره»[2].

٣- **سيادة الجهل ودوره في الهلاك**: ورد في صحيح البخاري «بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ أَيَّامُ الْهَرْجِ، يَزُولُ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرُ فِيهَا الْجَهْلُ»[3]. وإذا عرفنا أن بعضهم فسر الهرج بأنه يعني القتل والفتن واضطراب الأمور، عرفنا أن من أقوى أسبابها زوال العلم وانتشار الجهل، ولم يتوقف العلماء عند دور (الجهل) من حيث هو مظهر من مظاهر نسق الخبث، وإنما تجاوزوه إلى بيان طبيعة العلة وهي طريقة ارتفاع العلم ونزول الجهل فروى البخاري قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا، يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[4].

وخلاصة القول في المظاهر الباطنية، فإن التحذير من أسباب الهلاك كان مدار الأحاديث السابقة على مدار ثلاثة مظاهر معنوية باطنية هي: الكفر والعصيان، والاستهتار بالقيم، وسيادة الجهل، وأن هذه مجتمعة تشكل **نسق الخبث الروحي** الذي من شأنه أن يخرب ضمير الإنسان، ويدفعه إلى الفساد المادي حيث يتضخم الخبث المادي، ويكثر الفساد فتسقط الدولة أو الحضارة بفساد بعديها الأساسيين القدرة والاستقامة، وسيتبين لنا ذلك في العنصر التالي حيث نعالج مظاهر الخبث المادي.

١- شعب الإيمان البيهقي، ورقمه ٧٣٣٣، والمعجم الأوسط للطبراني برقم: ٧٨٧٦، مجمع الزوائد باب فيمن لم يغضب لله ورقمه: ١٢١٥٦. الألباني في السلسلة: ضعيف جدا وأورده الذهبي في الضعفاء وقال الدار قطني: متروك.

٢- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج١٥ / ص٣٦، روى البيهقي الأحاديث الثلاثة في شعب الإيمان.

٣- صحيح البخاري، ورقمه ٧٠٦٦، ج٢٣ / ص٢٥٢. الهرج: القتل والفتن واضطراب الأمور.

٤- صحيح البخاري، رقم ١٠٠، ومسلم في الصحيح، رقم ٤٨٢٨، وابن حبان في الصحيح برقم ٤٥٧١.

الفرع الثاني: الخبث المادي، ومن أبرز مظاهره: الظلم، والاستبداد، والتطفيف، والترف، والصراع الداخلي، وإسناد الأمر لغير أهله، وانتشار الفواحش، والمؤامرة.

١ـ **الظلم والاستبداد:** يمثل هذان الأمران مظهرين لشيء واحد يرسم طريقا واحدا للذل والفوضى «والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران»[١]، فعَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها أنه ﷺ خطب فقالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَأَيْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[٢]. فالذين أهلكوا قبل مجيء الإسلام، إنما قد أهلكوا وسقطت دولهم، وانطفأت شعلتهم بسبب فشو الظلم والاستبداد،ومن هنا كانت: «الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم، هو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه»[٣].

معنى ذلك أن تحريم الظلم كان بهدف حفظ البنية العضوية للمجتمع من نسق من أنساق الخبث؛ ذلك لأن «حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه»[٤]، وهذا يطرح سؤالا مهما، وهو: كيف نرى بعض المجتمعات يكثر فيها الظلم ولا نرى للخراب أثرا ؟ فهل يكون الظلم المشار إليه هو الظلم الداخلي الذي يمس البنية الداخلية في المجتمع الواحد؟ أم أن الظلم هنا شامل يصدق على العلاقات الدولية ليشمل البنية البشرية كلها كما يصدق على البنية الداخلية للدولة والمجتمع ؟

الواقع أن ابن خلدون يرد تلك الحيرة، وذلك الظن، لعدم دقة نظر المحللين، وقلة الاستعداد للفحص الاجتماعي والافتقار لأدوات القياس، لأن الخراب يتم

١- المقدمة ج١ ص٧٤.
٢- صحيح البخاري، ورقمه: ٣٤٧٥ ج١٢ / ص١٩٣.
٣- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص١٥٦.
٤- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص١٥٤.

بالتدرج، تبعا لنسبة الكثافة العمرانية، وعلى هذا فإن أثر الاعتداء والظلم في المجتمعات الكبرى لا يتبين إلا بعد حين[1] كما يبين أننا «**إنما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لا تعارضها قدرة، فهي المؤذنة بالخراب**»[2]، وهو ما يترجم حال معظم سلطات الأمة الإسلامية في العصر الحديث.

وتتدرج أسباب التعجيل بالخراب تبعا لنوع الظلم الذي ينتشر في المجتمع، ولعل أساليب التسخير الخاطئ تعد من أقوى الأساليب المؤذنة بتعجيل الخراب والهلاك، لقول النَّبِيِّ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»[3]، فهذه الأحوال الثلاثة ترتبط بالظلم الحاصل من **جهة التسخير**، وتفسير ذلك أن «من أشد الظلامات وأعظمها في إفساد العمران تكليف الأعمال **وتسخير الرعايا بغير حق**...وإن تكرر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العمارة، وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى إلى انتقاض العمران وتخريبه»[4].

٢- **الصراع الداخلي**: عندما يقول الرسول ﷺ في موقف مهيب بحجة الوداع «أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلَّالًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ أَلَا لِيُبْلِغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ»[5]، فيضمِّن الخطابَ وصيةَ التبليغ بهذا النهي الصريح عن التنازع والشقاق، فإنما غرضه الدلالة على التحذير من خطورة أمر الصراع الداخلي في حياة المجتمعات والدول والحضارات؛ وهو ما يؤكده قول الله ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦] ويرد

١- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص١٥٤.
٢- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص١٥٦.
٣- صحيح البخاري، باب إثم من منع الأجير حقه، ورقمه: ٢١٠٩، ج٨ / ص٣٦.
٤- مقدمة ابن خلدون ج١ ص١٥٧.
٥- صحيح البخاري، حديث رقم ٦٨٩٣، وانظر رقم: ١٦٢٣، ١١٨ وفي رواية: «وَيْلَكُمْ أَوْ وَيْحَكُمْ انْظُرُوا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»، صحيح البخاري برقم:٤٠٥١.

ابن خلدون أسباب البأس البيني إلى التنازع على الحكم بدافع شهوة السلطة «فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة»[1]، ومعناه أن تضخم الأنانية وحب الذات، مما يعمي البصر عن المصلحة العامة.

٣- **مظهر الترف**: ذكرنا سابقا أن ابن خلدون يعد الترف سببا رئيسا في إهلاك الأمم، بل له تأثيره المزدوج، لذلك قال: «الملك يخلقه الترف ويذهبه»[2]، وبينا أنه مجرد مظهر من مظاهر الخبث، ينحصر دوره في كونه عنصرا في نسق الكلية، وعليه فنحن هنا نتناوله من هذه الزاوية، فقد روى البخاري في حديث جبريل ما يكشف عن أشراط الانهيار الحضاري حيث سأل: «قَالَ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتِ الْأَمَةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ»[3]، وعن عمر بن عوف الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[4]، فهذا الحديث لا يكتفي ببيان دور الترف، بل يكشف علة العلة وهي التنافس المؤدي إلى **التفكير الطبقي** الذي يدفع إلى الهلاك. وهكذا يتبين أن الترف مظهر في نسق.

إن قول ابن خلدون «الملك يخلقه الترف ويذهبه»[5]، وقوله: «اعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما. فالأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند، وإقامة ما يحتاج إليه الملك من

١- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٧٦.
٢- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٧٣.
٣- صحيح البخاري، ورقمه: ٤٨، ج١ / ص٨٧.
٤- صحيح البخاري،٣١٥٨، ج١١ / ص٢٧٤ ومسلم ورقمه ٢٢٩٦.
٥- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٧٣.

الأحوال. والخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين»[1]، يكشف عن عاملين هامين في أسباب السقوط، ولكننا نجد باحثا يرفض الترف فيقول: «إن طائفة قليلة جدا من أفراد الأمة تصل إلى هذا الغنى المفرط الذي يؤدي إلى الفساد في غالب الأحوال، وهذه الجماعة القليلة لا ينتقل فسادها إلى كتلة الشعب حتى لو كانت هذه الجماعة القليلة هي السلطة الحاكمة»[2]، وفي الواقع رفض نظرية (الترف) لابن خلدون كلية ليس أمرا سهلا؛ لأنها تقوم على تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء / ١٦، ١٧] إنما يتعين توجيهها بصورة تتناسب مع السنن، من جهة، ووضعها في إطار النسق الذي يضم أسباب السقوط من جهة أخرى، فالنصوص القرآنية تشير إلى العلاقة بين الترف والهلاك، ولكن لا تجعله السبب كما تصور ابن خلدون، وإنما تحصر السبب في تأمير المترفين، ومعناه أن المشكل في الفشو الطبقي، الناجم عن الجمع بين السلطة والمال، ذلك ما يتبين بقوة من دلالة الآية، لذلك قلنا: إن الترف ليس هو السبب الأساس وإنما هو مظهر من مظاهر **نسق الخبث المتشكل من مجموع المظاهر**.

٤ـ **إضاعة الأمانة بإسناد الأمور لغير أهلها**: هذا مظهر من أكبر مظاهر (الخبث) التي تنخر البنية الحضارية والاجتماعية، وهي أظهر في المجتمعات العربية المعاصرة خصوصا، ولعله أن يكون بابا من أهم الأبواب التي يحصل بها انتكاس مجتمعاتنا، ولا شك أن الأحاديث الشريفة تكشف عن جوانب قوية بهذا الصدد، وقد روي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أنه ﷺ سئل: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ». قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ

١- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص١٥٩.

٢- الحضارة وعواملها، ص٤٨.

إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[1].

هاهنا مظهران لنسق الخبث مترابطان أشد الترابط، يتوقف أحدهما على الآخر، وكلاهما له خطره في الحياة، وأي استهانة بأحدهما يؤدي حتما إلى تورم نسق الشر ومن ثم خراب المجتمع، وضياع أهله، وهما: ضياع الأمانة، وعطل القيادة، وقد علل ابن رجب الحنبلي ذلك بكون الرجل الذي أسندت له الأمانة لم يكن مهيأ علميا لرعايتها، فكان اهتمامه بغيرها فضاعت، «وإذا كان مع هذا جاهلاً جافياً، فسد بذلك الدين؛ لأنَّه لا يكون له همة في إصلاح دين الناس ولا تعليمهم، بل همته في جباية المال واكتنازه، ولا يُبالي بما فسد من دينِ الناسِ، ولا بمن ضاعَ من أهل حاجاتهم»[2].

٦ـ **انتشار الفواحش والموبقات**: الحديث الشريف قد يربط قيام الساعة بانتشار الموبقات، وهي الأمور المهلكة للحضارات، بوصفها نسقا من مظاهر الخبث، لشدة أثرها في البنية الاجتماعية كلها، فعن أنس قال: سَمعْتُ النبي ﷺ يَقُولُ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ - وَإِمَّا قَالَ منْ أَشْرَاط السَّاعَة - أَنْ يُرْفَعَ الْعلْمُ وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِلْخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ»[3]. فهذه مظاهر متعددة لنسق الخبث ولا شك أن التعبير بكلمة (ظهر) يعني الهيمنة والكثرة، ويذكر البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النبي - ﷺ - قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبقَات». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّه، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْس الَّتي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيم، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ»[4]، إن كلمة (الموبقات) تعني المهلكات، قَالَ

١- صحيح البخاري، ورقمه ٥٩، ج١ / ص١١٤.
٢- جامع العلوم والحكم، ج٤ / ص٦٦.
٣- صحيح البخاري، ورقمه: ٦٨٠٨، ج٢٢ / ص٣٤٠.
٤- صحيح البخاري، باب رمي المحصنات ورقمه: ٦٨٥٧، شعب الإيمان للبيهقي حديث رقم ٢٨٣.

الْمُهَلَّب: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لأَنَّهَا سَبَب لإِهْلَاكِ مُرْتَكِبِهَا.

٧ـ **المؤامرة:** نظرية المؤامرة ذات بعد مهم في الثقافة الإسلامية، وقد نبه القرآن الكريم عليها لخطورتها فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص / ٢٠، ٢١]. فهي من أوائل النظريات التي التفت المسلمون لدورها الكبير في إسقاط العرش، وهي في الغالب تكون من أصحاب المصالح الشخصية الذين يفتعلون الإصلاح ويتآمرون على قدرات الدولة أو الأمة أو القيادات الصالحة ليخلو لهم الجو للعبث وقد: أخرج ابن ماجه في مقدمة سننه عن أم المؤمنين عائشة أن رسول الله ﷺقال لعثمان: «يا عثمان إن ولاك الله هذا الأمر يومًا فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمصك الله فلا تخلعه» يقول ذلك ثلاث مرات[1]، وقد بين علي آنئذ أنها مؤامرة وقصتها موضحة في كتاب العواصم من القواصم لابن العربي[2].

خلاصة المبحث الثاني: تشير نتائج تحليل الحديث الرئيس في أسباب الهلاك وما يستتبعه من أحاديث شارحة إلى:

١ـ قد تجلى لنا أن الخبث مفهوم كلي يعني (فساد إنسانية الإنسان بالكلية، في القدرات والاستقامة) وبهذا المعنى كانت نتائجه هي إهلاك المجتمعات وتدمير بنيتها، إما على المستوى الفوقي، وإما على المستوى الكلي، إما تأديبا وإما استئصالا، وأن لهذا الخبث مظاهره الروحية والمادية.

١- ابن ماجه في مقدمة سننه رقم ١١٢، ج١ص٤١، وفي مسند الإمام أحمد رقم: ٢٣٣٢٦. قال الألباني: صحيح.

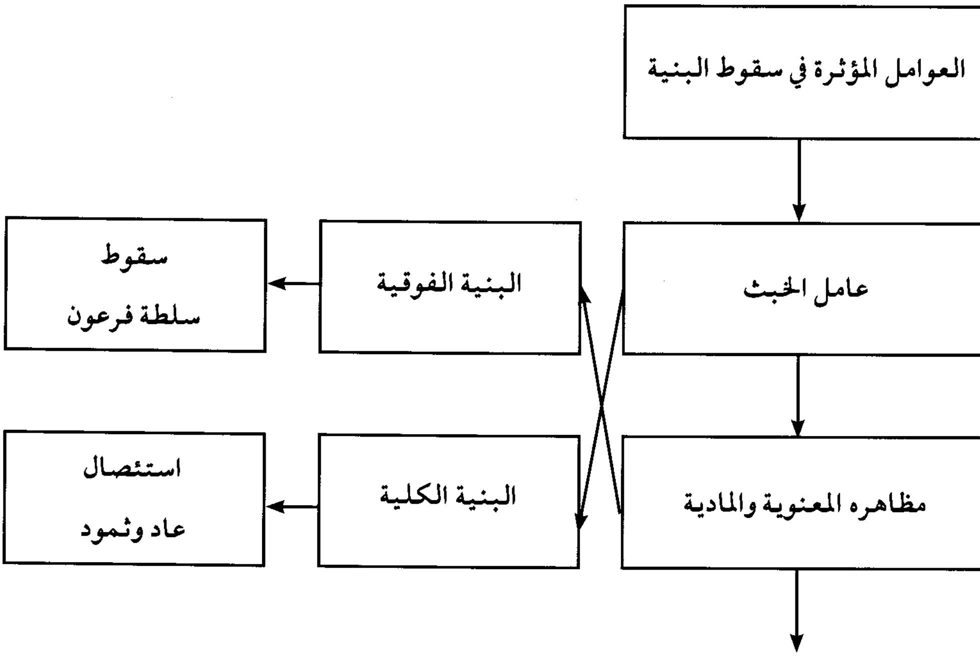
٢- ابن العربي، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي، ج١ / ص١٠٣.

٢- السبب الأساس للتدهور والهلاك هو نسق (الخبث) وليس (الترف) كما اعتقد ابن خلدون ولا (التحدي) كما قال توينبي، ولا (عدم انسجام القوانين مع البيئة) عند منتسكيو[1]، بل العامل الفاعل في هلاك الحضارات والدول والمجتمعات هو (هيمنة نسق الخبث بمظهريه الروحي والمادي)؛ إذ لما كان الخبث هو فساد إنسانية الإنسان بالكلية روحا ومادة، فإن ذلك كان هو السبب الرئيس في تدهور الحضارات، أما العوامل التي ذكرها العلماء قبل، فليست سوى مظاهر لا تصنع ذلك إلا حين يتشكل منها نسق الخبث، ومعناه أن المعادلة التي تحكم الحركات الاجتماعية والتاريخية، تتجاوب تجاوبا طرديا مع العنصر الغالب، بحيث إذا كثر الخبث وشكل نسقا توجه السهم إلى السقوط، وإذا غلبت الطيبة وصارت نسقا، توجه السهم نحو النمو، كما سنرى في المبحث الموالي.

٣- ونتيجة ما يؤول إليه المجتمع إذا هيمن عليه الخبث بنوعيه هو (التعجيل بالشر والهلاك) وهو نوعان يتحركان في التاريخ تبعا لنسبة الخبث، فإما أن يكون الهلاك إسقاطا، إذا كان الخبث على مستوى البنية الفوقية وحدها كما جرى لفرعون وقارون، وإما أن يكون استئصالا، إذا كان الخبث عاما، والنهي عن المنكر غائبا، كما الحال في قوم عاد و ثمود إذ قال تعالى: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٨]، وقد لاحظ البحث أن لا محاباة مع السنن إذ للسنن الاجتماعية كما للسنن الكونية قوانين صارمة لا تحابي أحدا، **فإذا هيمن** السوء نزل البأس **حتى لو وجد في الأمة أهل الطاعة مادام الخبث كثيرا والسوء هو المسيطر** لأنه: «**إذا استحكمت الصبغة عسر نزعها**»[2].

١- عالم الحضارة، ٢٥٨.

٢- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٢٢٧.



المظهر	قوته	النتيجة
الكفر	روحية	
الاستهتار	روحية	
الجهل	روحية	
الظلم	مادية	
الصراع	مادية	
الترف والتطفيف	مادية	
ضياع الأمانة الكبرى	مادية	
الفواحش	مادية	
المؤامرة	مادية	

بيان المخطط: ولعل الملخص التالي يبين قواعد الاستشراف، التي تدل على معرفة القوانين والسنن التي تتحكم في تغير الظواهر الاجتماعية والحضارية سقوطا وانحدارا، ويكشف عن صورها الأربع كما سيكشف عن صور أحوال النجاة والإقلاع في **المبحث** اللاحق:

١. إذا ظهر الخبث في البنية الفوقية(النظام) وحدها، ظهر التدافع بوسائله المختلفة، فسقطت كحال (فرعون وملئه) ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾[النازعات: ٢٥ – ٢٦]، ومثال الأنظمة الحديثة كثير.

٢. إذا هيمن **الخبث** على البنية الاجتماعية كلها استؤصلت أو سخرت أو استبدلت كحال(عاد وثمود) ﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر / ٦–١٤] وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾[محمد / ٣٨].

٣. وإذا هيمن **الخبث** وظهر على البنية التحتية (الاجتماعية) وحدها، تطلب الأمر الإصلاح من جهة البنية الفوقية (النظام)، كما في قوم يونس ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس / ٩٨].

٤. قد تقع حالة استثنائية وهي حال المؤامرة وهذه لها قواعد مختلفة كما في عهد عثمان رضي الله عنه

المبحث الثالث:استشراف موانع الهلاك الحضاري وأسباب إنقاذه من خلال الحديث النبوي الشريف:

قلنا قبل إن الأصل في بنية المجتمع الإسلامي هو الوحدة العضوية، الناتجة عن التكاتف والتراحم والتضامن والتعاون فهو بنية واحدة في تماسكها، فإذا

دخلها الخلل كان لابد على المؤمنين أن يبحثوا عن أسلوب للإنقاذ، لمنع المجتمع من الهلاك، والحضارة من الخبث، وقد بينا كيف عبر الحديث الشريف عن قوة تماسك البنية الإسلامية وقوة التحفز لمنعها من الهلاك تعبيرا رائعا فيما روى مسلم عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[1]، فهذا تعبير قوي عن مفهوم البنية المتماسكة، وشروط عملها، وأسلوب تحفيزها لإنقاذ الذات من التهلكة، ولما كانت كل بنية متماسكة لا تنفرط عناصرها إلا بافتقاد أسباب التماسك، فإن هذه البنية المتماسكة الحية، قد يعتريها شيء من الخلل إذا ضعفت بعض أسباب تماسكها فتأخذ في الانحلال، وهنا تتحفز عناصر الإنقاذ الاجتماعي من داخلها آليا لكون البنية حية، كما تتحفز عناصر بنية الجسم للدفاع عنه بلا تدخل خارجي، وقد تكون ضعيفة فتفشل، وعندئذ يستمر ذلك الخلل في التورم فيكثر الخبث فتفسد البنية وتهلك، إنْ على مستوى البنية الفوقية (النظام) وحدها، وإنْ على مستوى البنية الاجتماعية كلها، إما تأديبا، وإما استئصالا، وقد تنجح فتدافع عن البنية ويتم الإنقاذ، وقد رأينا قبل أن الرسول ﷺ قال: «سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا»[2]، ومعناه أن الأمة الإسلامية قد لا يمسها الاستئصال، وإنما إذا ظلمت نفسها أدبها الله، ثم يقيض لها من ينقذها، بإحياء أسباب تماسكها من جديد، وأعتقد أن المنع في قوله ﷺ: «وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا» ليس بسبب عدم الاستحقاق، ولكن لأن بقاء البأس البيني فيه خير، لأنه يؤول بالمجتمع إلى التدافع على اختلاف وسائله، فليس البأس البيني أمرا ساذجا يأتي ارتجالا، إنما هو فعل يدخل في صميم طبائع المجتمعات ليبعد عنها الاستبداد حين ينحرف المجتمع عن الجادة، فالبأس

١- صحيح مسلم، باب تراحم المؤمنين، ورقمه: ٤٦٨٥، ج١٢/ ص٤٦٨.

٢- صحيح مسلم حديث رقم: ٥١٤٥.

البيني في طيه أسف في طيه نعم.، وفي الواقع إن ارتفاعه قد يكون مذموما إذا ما فهم حديث ثوبان في الغثائية والوهن على أساس ضرورة دفع أنساق الخبث[1].

لذلك نعد ذلك التحفز مانعا من موانع الهلاك، وسببا من أسباب الإنقاذ، وهنا نتساءل: ما طبيعة موانع الهلاك وأسباب الإنقاذ؟ وما الأحاديث التي ترشد لطرق الاستشراف لتفادي أسباب السقوط؟ وكيف نستفيد منها للتخطيط لتفادي التدهور الحضاري؟ وهل يمكن للدولة العادلة أن تستمر قائمة حتى لو كانت كافرة؟ أيكون إصلاح العقل الجماعي هو السبيل لإصلاح المجتمعات؟ أم لابد من إصلاح البنية الفوقية(النظام)؟ أم أن قاعدة الإمام مالك رضي الله عنه التي يقول فيها «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»[2]، ستظل هي القاعدة الأساس؟

قد لاحظنا في المبحث السابق أن العامل الرئيس في فساد الحضارة هو (أنساق مظاهر الخبث) الذي يضرب الحضارة في بعديها الأساسيين وهما: (القدرة والاستقامة)، فهل نجد عاملا ينقذ الحضارة من السقوط ويمنعها من التدهور، وإذا وجد فما هو؟ وما مظاهره؟

إن الحديث «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»[3]، يكشف عن عامل هام في الحفاظ على الاستقرار على (البيضاء)، لكن ما المقصود بالبيضاء التي بالتمسك بها ننجو من الهلاك؟ أيكون هو معنى

١- سنن أبي داود، باب تداعي الأمم على الإسلام ورقمه: ٤٢٩٩، عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا". فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ". فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ". قال الألباني: صحيح.

٢- إغاثة اللهفان، ورقمه ج١ / ص٢٠٠.

٣- سنن ابن ماجه، باب اتباع سنة الخلفاء، ورقمه٤٣، ج١ / ص٥٠، قال الألباني: صحيح، أخرجه أحمد ٤ / ١٢٦، رقم ١٧١٨٢، والطبراني ١٨ / ٢٤٧، رقم ٦١٩.

الحديث «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ اللَّهِ»[1]،من الواضح أن العامل المانع من الهلاك هو (الوحي) مصدر الدين، ولكن ما فعالية الدين في حفظ المجتمع من السقوط، والحضارة من التدهور؟ وما مظاهره التي تسهم في منعهما من الانحدار؟

ذلك ما سنعرضه عبر مطلبين نتناول في الأول فعالية أنساق العامل الديني في الإنقاذ، وفي الثاني أنساق مظاهر هذا العامل الديني.

المطلب الأول: فعالية العامل الديني: وعظ الرسول ﷺ في حجة الوداع المجتمع الإسلامي موعظة تمس صميم ما نحن بصدد معالجته، فقال: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاء لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا **لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدي إلَّا هَالِكٌ** مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»[2]؟ معنى الحديث أن البنية الاجتماعية في زمن الرسول ﷺ قد بلغت قمة الحضارة، واستوت على أساسيها وهما القدرة، إذ أظهرها الله على الكفار، فدان لها طغاة الجزيرة العربية كلها، والاستقامة، إذ صار ليل تلك البنية كالنهار في الوضوح والصفاء بواسطة الالتزام بالدين، والدين: حقيقته في الأصل الجزاء، ثم صار حقيقة عرفية يطلق على: مجموع عقائد، وأعمال يلقّنها رسولٌ من عند الله ويعد العاملين بها بالنعيم والمعرضين عنها بالعقاب. ثم أطلق على ما يشْبه ذلك مما يضعه بعض زعماء الناس من تلقاء عقله فتَلتزمه طائفة من الناس. وسمّي الدين ديناً لأنّه يترقب منه مُتَّبِعُهُ الجزاءَ عاجلاً أو آجلاً، فما من أهل دين إلاّ وهم يترقّبون جزاء من رب ذلك الدين، قال الله تعالى تعليماً لرسوله: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون:٦]، ونستنتج من الحديث أن اضطراب البنية الاجتماعية سنة في الحياة، وأن المخرج منها يكمن في الدين، وعليه فإن المجتمع

١- صحيح مسلم، باب حجة النبي، ورقمه ٢١٣٧، ج٦ / ص٢٤٥.
٢- سنن ابن ماجه، باب اتباع سنة الخلفاء، ورقمه٤٣، ج١ / ص٥٠.

لا يستقيم حاله إلا بقوانين قيمة يدين بها، فإذا خرج عن هذه المقومات فقد تعرض لأسباب الهلاك سواء في بنيته الفوقية أو الاجتماعية أو الحضارية، ولا شك أن الدين هنا يعني نسقا من المبادئ والقيم والأوامر والأحكام التي باشتغالها نسقا تعد دينا قيما بواسطته تحفظ الحضارة من الزوال، وأشدد هنا على (النسق) لأن الدين يعمل بطبيعته هكذا، لذلك أغلظ الله القول لمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض وتوعد عاقبته بالخزي في الدارين ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة / ٨٥].

ثم إن الآيات القرآنية تبين أن الله تعالى قد بنى هذا العالم على قاعدة أساسية هي الإيمان والعمل الصالح، فمن حافظ عليهما فقد ألم بأسباب بقاء البنية، ومن أخل بهما فقد استجلب أسباب الهلاك، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر ١-٣] والآيات في هذا كثيرة[1].

وإذا تتبعنا القرآن والحديث وجدنا أسباب موانع الهلاك، ذات طبيعة سننية ودينية، على اختلاف أساليب النجاة، وأحوال الذين استحقوا الإنقاذ، فالثابت دائما هو السبب الديني إما من طبيعة التشريع الذي يحكم أنساق البنية وانتظامها العملي الاجتماعي، أو من طبيعة الدعاء والتضرع الروحي الذي يرفع الغبن عن المجتمع قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ [الأنعام / ٤٣]، والدعوة إلى التضرع في آية الأنعام هذه عند رؤية البأس طريق روحي من طرق النجاة، وقد كانت النجاة في معظم الأحوال من عذاب استئصالي طبيعي. ولكن نجد آية أخرى تعبر عن عامل آخر فاعل في النجاة، غير التشريع والتضرع هو (الاستضعاف) وهو أمر تلفتنا إليه بشدة الآية: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ

١- انظر: لأنبياء / ٨٨، هود / ٥٨، ٦٦، ٦٧، ٩٤، ٩٥.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان / ٣٠-٣٢]

إن الآية هنا تعبر عن نجاة من عذاب مهين، قد تسلط على بني إسرائيل من الطغاة المسرفين، لكن ما يلفت الانتباه هنا هو أن نجاتهم لم تعلل بالتشريع والإيمان، وإنما قد اختار الله الذين نجاهم على علم وقصدٍ هو أعلم به، ولذلك لم يعلل النجاة بالتقوى أو التشريع أو الإيمان، ومعناه أن الله سبحانه وتعالى، يرفع الذل عن المستضعفين؛ لا لإيمانهم، ولا لعملهم بالتشريع، ولكن لاستضعاف غيرهم لهم.بل حتى عندما ورثهم دار الظالمين لم يذكر الإيمان، وإنما ذكر الاستضعاف[1]. فقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾[الأعراف / ١٣٧].

وقد تكون هذه الحالة استثنائية، لأن الأساس الواضح هو أن إنقاذ المجتمع، إنما يتحقق بأخذ أسباب الحضارة ببعديها؛ القدرة والاستقامة، ويؤكد ذلك قصة نوح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة ١١-١٢]، حيث الإشارة إلى بعدي الحضارة: القدرة متمثلة في صناعة سفينة النجاة، والاستقامة متجلية في إتباع النبي عليه السلام[2]، وبذلك نجا من كان معه من هلاك محقق وكان الغرق نهاية من فقد البعدين، بما في ذلك ابنه وزوجته[3].

من هنا نكرر إن العامل الرئيس في الحفاظ على البنية الاجتماعية من التفكك والضعف هو (الدين) من حيث هو نسق من الأحكام والأوامر الشاملة الصالحة

١- التحرير والتنوير، ج٥ / ص٤٣٦.
٢- نظم الدرر للبقاعي، ج٩ / ص١٤٩ قال: «هذه الفعلات العظيمة من إنجاء المؤمنين بحيث لا يهلكٍ منهم بذلك العذاب أحد وإهلاك الكافرين بحيث لا يشذ منهم أحد، وكذا السفينة التي حملنا فيها نوحاً عليه السلام ومن معه بإبقائها آية من آياته وأعجوبة من بدائع بيناته وغريبة في الدهر من أعجوباته».
٣- هود ٤٥-٤٧.

المتكاملة المتعاضدة؛ فلكي تتحرك المجتمعات بأفعالها في اتجاه واحد، تتوحد فيه الطاقة ببعديها (القدرة والاستقامة)، فتثمر حضارة، لابد من الالتزام بعامل (نسق الدين)، إذ هو عامل البناء، و الحفظ، والإنقاذ من الهلاك، والمانع من السقوط، أي أن الالتزام به مقدمة حاسمة بما فيه من فاعلية، لوضع خطة عملية تعتمد على قانون السببية لتحديد أهداف مستقبلية، لذلك قال الفقهاء: «إِنَّ الْأَوَامِرَ (الدينية) وَرَدَتْ لِتَحْصُلَ عِنْدَ امْتِثَالِهَا الْمَصَالِح وَإِنَّ النَّوَاهِيَ وَرَدَتْ لِتَرْتَفِعَ عِنْدَ امْتِثَالِهَا الْمَفَاسِد»[1]. وهو هدف القوانين الوضعية الجادة، التي إذا روعيت حققت على المستوى المادي نتائج بناءة كما في الغرب، حتى شبه الطهطاوي نتائج الالتزام بها بالإسلام، وإذا أهملت نشأ عن ذلك فوضى واضطراب.

وقد كان ابن خلدون يرى أن عامل تنشيط البناء الحضاري هو العصبية والمال، ومالك بن نبي يحصره في الفكرة التي يلتف حولها الناس، وأعتقد أن الفكرة المجردة قد تكون مهمة، ولكن إذا خلت من العقيدة الصحيحة فإنها ستكون كالعصبية عامل هدم كما كانت عامل بناء، ويكفي الالتفات لفكرة الاشتراكية كيف تهافتت مجتمعاتها تهافتا غريبا، فأصبحت موضع خجل لمن كان يدافع عنها.

وعليه فالاستشراف من منظور التصور الإسلامي لا يكتفي بالأخذ بالأسباب المادية، بل يركز أساسا على الأسباب الروحية، من هنا قلنا إن العامل الديني أهم سبب للحفاظ على بعدي البنية الاجتماعية الفوقية والكلية، لما فيه من تكامل بين تقوية الضمير والتقوى الباطنية، والضوابط الشرعية الخارجية.

وقد جاء في الحديث ما يبين العلاقة السببية بين العبادات وتحقق الخير للمجتمعات، وتسمى هذه العبادات عندئذ أبواب الخير، ومنها الصوم والصدقة

١- أنوار البروق في أنواع الفروق، ج٣/ ص٤٥١ وانظر إلى قيمة الإخلاص في إصلاح العقول التي بصلاحها يصلح العمل كما يتبين من قوله ﷺ: "مَنْ أَخْلَص لله أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ". مصنف ابن أبي شيبة كتاب الزهد، مسند الشهاب باب من أخلص لله.

وقيام الليل، روى الترمذي «عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل أن الرسول ﷺ قال: "أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ قَالَ ثُمَّ تَلَا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

وقد بين الكشميري: «أن كون الصلاة برهانًا، والصيامُ جُنَّةً ليس جزافًا، ومجازًا بنوع تَخَيُّلٍ فقط، بل الصلاة أَوْلَى أن تُسَمَّى بالبرهان، والصيامُ بالجُنَّة للمعنى المختصِّ بهما. فَرَاعه، ولا تَعُدَّه تافهًا، فإن الحديث قد أدَّى فيه سرًّا عظيمًا»[2]، وقد فسر ابن خلدون فعالية العامل الديني في حفظ البنية الاجتماعية تفسيرا حسنا فقال: «إن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق، وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة. وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال:٦٣]، وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد، واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة»[3].

وهكذا تتعين فعالية العامل الديني في بنى المجتمعات الملتزمة كلها، ويمكن أن نستأنس في فهم الكيفية التي تتم بها حصانة الظاهرة الحضارية والاجتماعية على هذا الوجه بتحليل ابن خلدون الذي يرجع فيه قوة الدولة إلى العامل الديني،

١- سنن الترمذي، باب ما جاء في حرمة الصلاة ورقمه ٢٥٤١، وقال: حديث حسن صحيح.
٢- فيض الباري شرح البخاري الكشميري ١٣٥٢،١٢٩٢، ج٤ / ص٢٩٧.
٣- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٧٨.

بوصفه سببا في توحيد الطاقات وتحريرها لتحقيق الرفاه والازدهار يقول «إن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على **قوة** العصبية التي كانت لها من عددها، والسبب في ذلك.... **أن الصبغة الدينية** تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم **الاستبصار** في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم، وهم مستميتون عليه»[1].

تلك هي نتيجة فعالية العامل الديني من حيث هو نسق متكامل، من التشريعات القائمة على الحق، والإيمان الذي يربط المجتمع بربه، ونعتقد أن الالتزام بالتشريعات الجادة حتى لو كانت وضعية سر نجاح الغرب، لأنه وضع قوانين جادة والتزم بها، فمكنت للأسباب المادية بتوفير الاستقامة العملية، ولكن يبقى النقص قائما في الشطر الثاني المتعلق بالتضرع، لأن سببه الإيمان، وهذا نقص روحي له سننه.

وقد نلاحظ لاحقا أن فعالية الدين تختلف عن فعالية ما ذكره العلماء من أسباب؛ لأن الأخيرة لا تمثل نسقا، والآن نود أن نتحدث عن المظاهر الأساسية، التي يتجلى من خلالها النسق الديني من حيث هو عامل رئيس في الإقلاع الحضاري، والحفاظ عليها، ولاشك أن النسق الديني تتجلى فعاليته من خلال مظاهر متعددة، تعبر عنها أحاديث كثيرة[2]، وهذه المظاهر بعضها روحي وبعضها مادي، ولكنها مجتمعة كلها في التمسك بكتاب الله، وهو المعبر عنه بعامل الدين. فما هي هذه المظاهر الأساسية التي يمكن أن نركز عليها كمؤشرات لحفظ الحضارة، والمجتمع من التدهور؟

١- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٧٩.
٢- موطأ مالك، ورقمه: ٣٣٣٨ سنن أبي داود، ورقمه ٤١٨ ومسند أحمد، رقم ٢٥٦٠٠.

المطلب الثاني: مظاهر العامل الديني في حفظ الحضارات من التدهور:

لعل حديث معاذ بن جبل التالي يكون أكثر احتواء لمظاهر العامل الديني من حيث هي نسق متكامل، لذلك كان أكثر العوامل دلالة على الفعالية في حفظ الحضارات من التدهور ووقاية البنيات الاجتماعية من السقوط، روى الترمذي: عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنْ النَّارِ؟ قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، قَالَ ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ... (حَتَّى بَلَغَ) يَعْمَلُونَ﴾، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[1].

يمكن أن نستنتج من الحديث كثيرا من مظاهر العامل الديني التي وردت هنا بالتدرج وفق ثلاثة مستويات:

١- مستوى الأركان التي تقوم عليها تربية النفس والوجدان والعقل، للقيام بالبناء الحضاري وإصلاحه.

١- سنن الترمذي، باب ما جاء في حرمة الصلاة ورقمه ٢٦١٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

٢- مستوى أبواب الخير[١]، التي من خلالها يلج الناس لتحقيق الأهداف الاجتماعية للحضارة «لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله، وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله، ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس»[٢].

٣- مستوى رأس الأمر كله، ويعني العامل الأساس في الوعي الحضاري وهو الدين جملة.

٤- مستوى السلوك اللغوي، وهو الوسيلة الأساسية للتواصل الاجتماعي الذي به يتم التفاهم بين عناصر المجتمع ليحقق مشروعه.

ويمكن أن نستنتج من مستويات هذا النص، ومن النصوص التي ستأتي، المظاهر الأساسية للعامل الديني، وهي:

١- **مظهر البيئة×الثقافية الصالحة**: سندخل هذا العامل من البحث بواسطة حديث رواه مسلم بخصوص المدينة المنورة إذ قال ﷺ: «إِنَّهَا طَيْبَةُ يَعْنِي الْمَدِينَةَ وَإِنَّهَا تَنْفِي الْخَبَثَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْفِضَّةِ»[٣]، ومعناه: «تنفي الرجال، أي من لا يصلح لها كما ينفي الكير خبث الحديد، أي يخلص رديئه من جيده»[٤]، فنحن هنا أمام علاقة تبادلية بين الإنسان والبيئة، حيث يكون الإنسان صانعا للبيئة، وتكون حياته فيها مرهونة بالانسجام الثقافي معها، وهذه من المعادلات الصعبة في الحياة.

١- جامع العلوم والحكم، ج٢٦ / ص٧ وخرّج ابن حِبّان في "صحيحه"... قالَ: إنَّ أبواب الخير لكثيرةٌ: التسبيحُ....، والنَّهيُ عن المنكر...، وتدُل المستَدل على حاجته.....

٢- تفسير الرازي، ج١١ / ص١٥٦.

٣- صحيح مسلم، باب المدينة تنفي شرارها ورقمه:٢٤٥٤، وجاء أيضا في صحيح مسلم، ورقمه ٥١٤٨.
نظرية البيئة ترد الاختلاف في طبائع الخلائق إلى الظروف المناخية والجغرافية، ونظرية الأجناس ترد اختلاف الطبائع إلى اختلاف الهيئة البدنية الحضارة وعواملها ص٣٤.

٤- كشف المشكل من حديث الصحيحين، ج١ / ص٣٧٥.

وهنا نتساءل: تُرى ما الذي يرمي إليه الحديث؟ وهل يمكن تعميم معناه ليعبر عن أثر البيئة في تربية الإنسان؟ أيكون القصد من نفي الخبث هو نفي أنساق الخبث جملة من البيئة؟

هذا الحديث يقدم تشبيها رائعا لبيان فعالية المدينة الفاضلة في تنقية المجتمع، بحيث تطهره من أنساق الخبث، وكل أسباب التدهور الحضاري كما يطهر الكير المعادن من العناصر غير المنسجمة معها!! ومن البديهي أن يكون القصد بالمدينة البعد الثقافي لا المكاني؛ لأنه العنصر الفعال في تحويل النفوس، ومن ثم تغيير المواقف وما يتبعها من سلوك مؤثر على البيئة؛ لأن «الثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته»[٥].

وهذه الفكرة التي صارت اليوم نظرية من النظريات الكبرى في التربية هي التي عبر عنها القرآن تعبيرا دقيقا يعزز فهمنا للبيئة في الحديث الشريف بقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف / ٥٨].

وقد «مُثل هنا باختلاف حال إخراج النّبات من الأرض اختلافُ حال النّاس الأحياءِ في الانتفاع برحمة هُدى الله،...، فالمقصود من هذه الآية التّمثيل، وليسَ المقصود مجرّد تفصيل أحوال الأرض بعد نزول المطر، لأنّ الغرض المسوق له الكلام يجمع أمرين: العبرةَ بصنع الله، والموعظَة بما يماثل أحواله»[٦]، فالنص يضعنا أمام بيئتين تماثلت قواهما في الفعالية واختلفتا في النوع والاتجاه، البيئة الطيبة تعمل في الإيجابي فتنفي الخبث وتستقبل الخير، والبلد النكد يتحرك في السالب ليستقبل الفاسد ويطرد الصالح.

٥- شروط النهضة مالك بن نبي ص٨٩.
٦- التحرير ج٥ / ص٣٣٦.

والحق أن المتتبع لأسباب قول الحديث يمكن أن يفهم عمق الدلالة الحضارية وأسباب قوتها التي يشير إليها الرسول ﷺ، فقد روي «عن جابر بن عبد الله؛ أن أعرابيا بايع رسول الله ﷺ. فأصاب الأعرابي وعك بالمدينة. فأتى النبي ﷺ فقال: يا محمد! أقلني بيعتي. فأبى رسول الله ﷺ. ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي. فأبى. ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي فأبى. فخرج الأعرابي. فقال رسول الله ﷺ: «إنما المَدِينَةُ كالكِيرِ. تَنْفِي خَبَثَها ويَنْصَعُ طِيبُها»[1]؛ فالحديث بهذه الرواية الثانية يرشح سببين من أسباب الوقاية من التدهور الحضاري يعودان لمظهر واحد هو البيئة و السببان هما تخلية البيئة وتحليتها:

أ- **التخلية البيئية**: وهي المعبر عنها هنا بقوله (تنفي خبثها) أي تعمل على تنقية بنى المجتمع الفوقية والاجتماعية من الشوائب، والعناصر المفسدة، من جهة الفساد العقلي كفساد التصورات والأفكار، وصور الإبداع، وفساد السلوك العملي كالفتن السياسية، وتعاطي المخدرات والرشاوى والفواحش... ويكون ذلك طواعية، وقد يكون بطرق مدروسة[2] تحددها النصوص الشرعية والقانونية، كتجديد التربية، وتنمية أساليب الوعي.

ب- **التحلية البيئية**: وهي المعبر عنها هنا بقوله: «يَنْصَعُ طيبُها» أي يزداد من فيها من الطيبين نصاعة وإخلاصا؛ لأن الناصع هو الخالِصُ من كلِّ شيءٍ ونصع لَوْنُه اشْتَدّ بَياضُه، والنَّصيعُ: الصافي[3]. وإنما تُكْتَسَبُ هذه **الصبغة الناصعة** بسبب الانسجام التام ببيئتها الطاهرة والانصهار فيها، والاندماج في بيئتها كما بين ابن بطال[4]،وأكده ابن حجر: «وَالْمُرَاد أَنَّهَا لَا تَتْرُك فِيهَا مَنْ

١- صحيح مسلم، باب المدينة تنفي شرارها، ورقم: ١٣٨٣، وفي سنن الترمذي باب ما جاء في فضل المدينة بلفظ: إِنَّمَا الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَتُنَصِّعُ طَيِّبَهَا ورقمه: ٣٨٥٥، وقال: حديث حسن صحيح.

٢- من المهم هنا الإشارة لنجاح الغرب في تنقية البنية الفوقية في أنظمته، بحيث تطهر ممن فيهم شوائب كما فعلت مع الوزراء.

٣- القاموس المحيط نصع ج٢ / ص٣٣١ ومختار الصحاح نصع، ج١ / ص٣١٤.

٤- شرح صحيح البخاري، ابن بطال، ج٨ / ص١٥٤.

فِي قَلْبه دَغَل، بَلْ تُمَيِّزُهُ عَن الْقُلُوب الصَّادِقَة وَتُخْرِجهُ كَمَا يُمَيِّز الْحَدَّاد رَدِيء الْحَدِيد مِنْ جَيِّده»[1].

٢ـ **مظهر العدل**: قيل العدل أساس الملك، فهل يمكن أن تكون المقولة معبرة عن حقيقة دينية؟ أيكون العدل هو العامل الفعال في إنقاذ الأمم من الهلاك، أم هو مظهر من مظاهر النسق الفاعل؟ روى البخاري «عَنْ جَابِر بْن عَبْد اللَّه – رضي الله عنهما – قَالَ بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّه – ﷺ- يَقْسِمُ غَنِيمَةً بِالْجِعْرَانَة إِذْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: اعْدِلْ. فَقَالَ لَهُ: "شَقِيتَ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ»[2]. فما دلالة الشقاوة في هذه العبارة؟ وما دلالة الويل والخسران في قوله من رواية مسلم: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ»[3]؟ ما دلالتهما عندما نضعهما في السياق الحضاري الذي يعدُّ الدين العاملَ الأساس فيه؟

من الواضح أن الهدف هو بيان فعالية العدل في بنية المجتمع بحيث تسعد المجتمعات بظهوره وتشقى بغيابه!! فمفهوم العبارتين: إذا لم أعدل أنا من حيث إني حاكم فقد شقيتَ أنت وخسرتَ من حيث إنك محكوم، وهذا يدل على فعالية العدل في دفع الخسران والهلاك، فالمجتمع الذي لا يعدل هو مجتمع مرشح للفوضى والاضطراب، ثم انتشار الأنانية وحب الذات، ثم الانتقام الذي يجر البنى الاجتماعية إلى الهلاك، فوقية كانت أو تحتية، حيث «لا سبيل للعمارة إلا بالعدل»[4]، والآيات في الأمر بالعدل كثيرة[5]، لكن العدل، وإن تشدد العلماء بكونه أساس الملك، فإنه ليس سوى نسق من أنساق مظاهر الدين بمقاصده الشرعية والقانونية. فالعدل مظهر فعال في النسق بمقاصده.

١- فتح الباري لابن حجر، ج٦/ ص١٠٠.
٢- صحيح البخاري، بَاب وَمِن الدَّلِيل عَلَى أَنَّ الْخُمُسَ لِنَوَائِب الْمُسْلِمِينَ، ورقمه: ٣١٣٨.
٣- صحيح مسلم، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ورقمه:١٧٦١.
٤- مقدمة ابن خلدون، ج١/ ص١٥٥.
٥- قال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ النحل ٩٠، وانظر: النساء ٥٨.

٣- **مظهر جبر النقص عن طريق التدافع**: إن الحديث «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[١]، يضيف عنصرا لنسق البناء، ويبين أن هناك حالات من أحوال البشرية، قد تزيغ فيها عن الحق، قديما أو حديثا، لكن هذا الانحراف قد يزول بواسطة صورة من صور التدافع المتعددة[٢]،، فقد يجبر بواسطة العلماء والدعاة المخلصين، وقد يجبر بجماعة النهي عن المنكر، وقد يجبر بحراك عام ناجم عن ضجر الخلق من الظلم، وهذا معنى قول ابن خلدون: «وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من أصلها قبل خراب المصر وتجيء الدولة الأخرى، فترفعه بجدتها، وتجبر النقص الذي كان خفياً فيه، فلا يكاد يشعر به، إلا أن ذلك في الأقل النادر»[٣].

إذن جبر النقص أمر أساسي في استمرار الحضارة، والدولة، وقد يسمى هذا الجبر (سنة التدافع)، وابن خلدون يرى أن العمدة في الجبر هو تجديد العصبية [٤]،والحق أن دراسة الحديث تبين أن العمدة في ذلك الجبر هم العلماء المصلحون، فهم السلطة العقلية القادرة على تغيير معادلة الصراع بين الخير والشر في نفوسهم، من حيث هم العقل الفاعل بقوة في العقل الجماهيري المنفعل، لكي تتغير الثقافة في الواقع المعيش، فيتغير معها نمط المعيشة، وهذا معنى التغيير في نص الحديث. فالعلماء هم الذين يمكن أن يتحكموا في معادلات التغير والنهايات تحكُّما صحيحا يحقق للمجتمع النجاة، هذه الفعالية هي التي تكشف عن معنى الآية التي تصوغ قاعدة التدافع بوصفه سنة البقاء كما تعبر عنه الآية: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[البقرة / ٢٥١]، فالتدافع سنة في حياة الخلق لحماية المصالح

١- سنن أبي داود، باب ما يذكر في قرن المئة، برقم: ٤٢٩٣، وقال الألباني: صحيح، والمستدرك على الصحيحين برقم: ٨٥٩٢.
٢- من وسائل التدافع: الحوار، التظاهرات، المسيرات،... المقالات، وسائل الإعلام،......الثورات....
٣- .المقدمة ج١ ص١٥٥.
٤- مقدمة ابن خلدون، ج١ / ص٨٥.

العامة، وبغيره ينتشر الفساد، ويعم الباطل فتهلك البنية الاجتماعية جزئيا أو كليا، وقد يكون التدافع في أي صورة من صوره نتيجة حتمية ليقظة الشعوب، أو لشعورها بالظلم، فتثور على السلطة السياسية، وقد تضلل الشعوب فتتسبب في كوارث، وقد يظهر على سطح المجتمع من يتصور إمكان جبر النقص دون أن يتهيأ له الوعي الكافي بالمشكلات، ودون أن يتحقق له من القدرات ما يكفي، وما يناسب الوضع، فيؤدي إلى نقص أفدح، وخلل أعظم، ولذلك حرم الفقهاء تغيير المنكر بمنكر أبشع منه كما حدث في الفتنة الكبرى. ولعل الحربين العالميتين كانتا بسبب سوء التصور من جهة، وسوء تقدير القدرات، وغياب مبدأ الاستقامة، وقريب منها كثير من الحركات الإصلاحية التي لم تنجح في اعتماد سنة التدافع؛ لأنها لم تلتزم بالمبدأين الأساسيين وهما (القدرات والاستقامة)، وأعتقد أن صيغة الديموقراطية طريق شريف من طرق التدافع الجميل، إذا وضعت قواعده وفق استشارة العلماء المخلصين.

إن الأصل في التدافع مهما كانت صورته أن يقوم على الدراسة العلمية للأسباب ليبني عليها تصوره للنتائج، فإذا افتقر الإنسان إلى ذلك، فعليه ألا يغامر بالمجتمعات والدول والحضارات[1]، صحيح أن النص القرآني يبين أن حفظ المقومات الأساسية للحضارة تقوم على التدافع، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾([الحج / ٤٠]، ولكن من الخطأ الفادح أن يظن الناس أن المقصود هنا الارتجال، والغوغائية، وإنما المقصود التدافع المدروس، القائم على التخطيط، لذلك لا ينبغي أن يتخلف أُولو النهي عن دورهم للغوغاء الذين ينشطون باسم الانتماء السياسي فيتسببون في هلاك

١- يمكن النظر هنا في بعض الحركات المعاصرة التي استخدمت القوة دون دراسة علمية فظل فعلها كفعل طفل عنيد يقلق ولا يغير شيئا، وقد بين ابن خلدون ذلك كما سيأتي لاحقا.

الأمم،فالتدافع مهما كانت صوره سنة اجتماعية، لكن آية السنن ينبغي أن تقرأ قراءة علمية قائمة على قواعد الاستشراف الصحيح ويمكن أن نسجل هنا قراءتين مختلفتين في **طبيعة الاستشراف تاريخية، وروحية، ويتبين ذلك مما يلي:**

أ- إن القراءة التاريخية كقراءة ابن كثير[1]، تربط الإنقاذ الحضاري بتحفيز قوى التغيير المادي، عن طريق تحريك الرغبة في الأفعال؛ لتنطلق الطاقات النائمة نحو التغيير الفعلي للأوضاع الاجتماعية المتسببة في التدهور الحضاري، وهذا ما يؤيده الحديث المعبر عن آلية التغيير في صورة **معدلات التغير والنهايات** كما يتجلى في حديث السفينة مثلا،وقد يتحقق ذلك التغيير عن طريق التدافع ، بكل صوره بدءا بالصورة العلمية، إلى الصورة الاحتجاجية، إلى الصورة الثورية، وقد تكون أسباب الثورة المباشرة أقوى كلما كانت الأسباب غير المباشرة أكثر تعقدا كما حدث في ثورات مطلع العام ٢٠١١. وقد تكون القدرة غير كافية فتفشل الحركة، كما بين ابن خلدون ذلك بوضوح[2].

ب- أما القراءة الروحية، كقراءة ابن عباس[3] فتربط إنقاذ الأمم والحضارات من التدهور عن طريق تنمية القوى الروحية بالعبادات التي يقوم بها الخاصة من الناس، وبذلك يدفعون الأذى باستدرار رحمة الله بالخلق، فبذلك الدعاء والصلاة يؤخرون التدهور فينقذون الحضارات من السقوط، وهذا يفتح

١- تفسير ابن كثير، ج٥ / ص٤٣٥.

٢- مقدمة ابن خلدون ج١ / ٧٩ قال: «وفي الحديث الصحيح كما مر»ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه» وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد، فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة في الغالب بغير عصبية، ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء. فإن كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه،والأمر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله، فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء، ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك، وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين، لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم، وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه».

٣- شعب الإيمان،باب أحاديث في وجوب الأمر بالمعروف... ورقمه:٧٣٣٥ دار الكتب العلمية ٨/ ٩٤

المجال لبيان دور التقوى في دفع أسباب التدهور، وكأن القراءة الروحية تبحث عن أسباب الأسباب، وعلة العلل، وهي إصلاح القلوب.

ولا شك أن القراءتين متكاملتان، لكن المشكل في فقه الأولويات[1]، وامتلاك الحكمة لاختيار الطريق المناسب في الوقت المناسب، وهذا هو المشكل الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

٤ـ **العامل العلمي ودوره في تثبيت صبغة مقاومة الشر**: إن استقراء الحديث الشريف يبين أن العامل الفاعل في تمكين الملكات والطبائع في عمق المجتمع حتى تصير صبغة المجتمع التي تحفظ بعدي الحضارة هم نسق العلماء، وهنا يتبين دور العلم في نسق البناء الحضاري، ويمكن فهم ذلك من الحديث الشريف التالي: «قال الإمام أحمد:قال عمر، رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب قومًا ويضع به آخرين»[2]، وهذا هو المقصد الذي يتحقق من قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة / ١١] فالرفعة الناجمة عن العلم هنا ليست قصرا على الأفراد إنما هي في الأمم أوضح لاقتداء الناس بالعالم، قال الرازي: «لا شبهة أن علم العالم يقتضي لطاعته من المنزلة مالا يحصل للمؤمن، ولذلك فإنه يقتدي بالعالم في كل أفعاله، ولا يقتدي بغير العالم، لأنه يعلم من كيفية الاحتراز عن الحرام والشبهات، ومحاسبة النفس مالا يعرفه الغير، ويعلم من كيفية الخشوع والتذلل في العبادة مالا يعرفه غيره، ويعلم من كيفية التوبة وأوقاتها وصفاتها مالا يعرفه غيره، ويتحفظ فيما يلزمه من الحقوق مالا يتحفظ منه غيره، وفي الوجوه كثرة، لكنه كما تعظم منزلة أفعاله من

١- نيل الأوطار ٤ / ٢٠٩، قال: "وَيَكْفِي فِي دَعْوَى الْأَوْلَوِيَّةِ حَدِيثُ أَنَّهُ ﷺ كَانَ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ فِي تَنَعُّلِهِ وَتَرَجُّله وَطُهُورِه وَفي شَأنه كُلِّه".
٢- تفسير ابن كثير، ج٨ / ص٤٩.

الطاعات في درجة الثواب، فكذلك يعظم عقابه فيما يأتيه من الذنوب، لمكان علمه حتى لا يمتنع في كثير من صغائر غيره أن يكون كبيراً منه»[1].

نستنتج من ذلك أن العلم طاقة فعالة في نسق أسباب الإقلاع الحضاري، لاسيما إذا كان مصدره هو (الكتاب المنير) فعلم الكتاب سر التحضر، والجهل به سر التدهور، لأن علم الوحي مناط الاستقامة التي تؤهل لبقية العلوم، وتحدد صورة الاستفادة منها، وصورة الضرر فيها[2]، فتحديد طبيعة علاقة الأمة بالعلم هي المؤشر الصحيح للاستشراف، وواقع البشرية اليوم يبرهن بنفسه على هذه الحقيقة، إذ بواسطة اعتناء الغرب بالعلم التكنولوجي صار له **(قدرة)** لم يعهدها الناس. وباعتنائه بالقوانين صارت له **(استقامة عملية)** قوية، لكن بسبب إهماله للعلم الديني نزلت قيمة **التقوى** الفردية، فالعلم هو المصفاة التي تنقي النفوس من الأنانية وحب الذات، وتفتح المجال لحركة العمل لصالح الأمة، وقد لخص ذلك أبو الدرداء ﷺ فقال: «إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء وإن كان عمله تبعا لعلمه فيومه يوم صالح»[3]. أي أن التطور الحضاري يتوقف على قوة العلاقة بين العلم والعمل، كما أن التخلف يتوقف على قوة العلاقة بين العمل والهوى.

٥- **تضافر العاملين الروحي والاقتصادي**: في حديث رواه البيهقي ما يجمع أسباب بناء الحضارات، وأسباب تدهورها، في عاملين: الدين وهو خلفية الأخلاق الفعالة، والاقتصاد وهو مظهر الفعالية، فقد روى البيهقي أن الرسول ﷺ قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد والتقوى، وهلاك آخرها

١- تفسير الرازي، ج١٥ / ص٢٧٦.
٢- يمكن الاطلاع على آراء العلماء في نتائج الإشعاع النووي في مفاعلات اليابان المتفجرة بتسونامي مارس٢٠١١.
٣- الجامع، القرطبي١٦ / ١٦٨-١٧٦.

بالبخل والفجور»[1] وفي رواية قال: «بالزهد واليقين، وهلاك آخرها بالبخل والأمل»[2]، وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ [الأنعام / ٤٣].

هذان مظهران يبدو أنهما متضافران، أي أن إصلاح المجتمعات يقوم على مراعاة العلاقة بين التسيير الاقتصادي وتقوى القلوب، فإذا كان التسيير الاقتصادي وفق مبدأ التقوى، فذلك يعني أن مؤشر الحضارة في صعود؛ لأن التكافل الاجتماعي سيحمي البنية الاجتماعية من التفكك لتحقق مبدأ التعاون الذي بينا سابقا عند تحليل الآية ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم﴾ أنه الأساس في الحفاظ على سلامة البنية من الخبث. أما إذا تحرك الاقتصاد بعيدا عن عامل التقوى أو حراسة الضمير، أو رقابة الأمة، فإن الاقتصاد سيتحول إلى وسيلة هدم، لأنه سيؤدي إلى الصراع الطبقي، ولذلك كان القرآن الكريم يحث على مراعاة توزيع المال، لئلا يبقى متداولا بين أيْدٍ محدودة، فيؤدي ذلك إلى التراكم المالي الذي هو طريق الترف المؤدي إلى الفساد ثم الهلاك.

وعلى هذا يعد التضافر بين العلم بالدين والاقتصاد مظهرا أساسيا لاستمرار مؤشر الصعود الحضاري، وقد ذكر الجبرتي في عجائب الآثار خبر وفاة عالمين كانا يعدان صمام الأمان للمجتمع المصري، وما نتج عن موتهما من تغير في المجتمع، حيث بموتهما «ملك علي بك وفعل ما بدا له فلم يجد رادعاً أيضاً، ونزل البلاء حينئذ بالبلاد المصرية والشامية والحجازية ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وأقطار الأرض، فهذا هو السر الظاهري وهو لا شك تابع للباطني»[3].

٦- **مظهر النهي عن المنكر بوصفه مؤشرا لاستمرار الخير**: النهي عن المنكر، مبدأ أساسي في الثقافة الإسلامية، نص عليه القرآن الكريم وطبقته السنة

١- شعب الإيمان للبيهقي باب في الجود والسخاء ورقمه:١٠٤٣٠، ج١١ / ص٦. الفجور: اسم جامع لكل شر، أي الميل إلى الفساد والانطلاق إلى المعاصي.
٢- شعب الإيمان للبيهقي، باب في الجود والسخاء ورقمه:١٠٤٣٠.
٣- عجائب الآثار، الجبرتي، ج١ / ص١٧٨.

النبوية الشريفة، التي حذرت من السكوت على المنكر، وإنما كان ذلك كذلك؛ لأن النهي عن المنكر إن هو إلا طريق أساس لاستمرار الخير، هو مظهر ديني من مظاهر الحفاظ على البنية الاجتماعية من التسوس ونشوب أظفار الخَبَث. إذ روى البخاري أن النبي - ﷺ - قال: «مَثَلُ الْمُدْهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً، فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلاَهَا، فَكَانَ الَّذِي فِي أَسْفَلِهَا يَمُرُّونَ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلاَهَا، فَتَأَذَّوْا بِهِ، فَأَخَذَ فَأْسًا، فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: مَا لَكَ؟ قَالَ: تَأَذَّيْتُمْ بِي، وَلاَ بُدَّ لِي مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ، وَإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ»[1].

قال في المرقاة: «عبر عن فائدة ذلك المنع بنجاة الناهي والمنهي، وعبر عن عدم نهي النهاة بالترك، وعبر عن الذنب الخاص للمداهنين الذين ما نهوا الواقع في حدود الله بإهلاكهم إياه وأنفسهم، وكأن السفينة عبارة عن الإسلام المحيط بالفريقين وإنما جمع فرقة النهاة إرشادا إلى أن المسلمين لا بد وأن يتعاونوا على أمثال هذا النهي»[2].

يطرح نص هذا الحديث مشكلا معقدا جدا، إذ يشير إلى آلية عجيبة في قيمة النهي عن المنكر بوصفه وسيلة فعالة في حفظ البنية الاجتماعية من (نسق الخبث) الذي هو الطريق المؤدي إلى (الهلاك)، وحديث السفينة بالجملة يعالج على اختلاف رواياته مشكلا أساسيا واحدا هو «قيمة النهي عن المنكر في استشراف أسباب حفظ الحضارة من التدهور ووقاية المجتمع من السقوط»[3]... وهذا معنى قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾[4].

١- صحيح البخاري، باب القرعة في المشكلات ورقمه: ٢٤٨٩.
٢- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج١٥ / ص١٠.
٣- مناهج تفسير الحديث الشريف: أحمد عثمان رحماني، الفصل٣.
٤- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح الملا علي القاري ج١٥ / ص٩.

٧- **مظهر الاعتبار**: هل تعرض الحديث الشريف لقاعدة الاعتبار من سير الأمم الزائلة؟ هل يمكن باعتماد سبل الاقتداء بسيرة الرسول ﷺ والأجيال المنتصرة من بعده تجنب السقوط الحضاري؟

قد بين الله تعالى للناس - بعد عرض القصص - الهدف منها فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[يوسف / ١١١]. والاعتبار: النظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها. وهو افتعال من العبرة، وهي الموعظة[١]، وضرب الله لنا مثلا حيا ببني إسرائيل حين تسببوا في خراب بيوتهم بأيديهم ثم أعقبه بتوجيهنا إلى الاعتبار فقال: ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر / ٢]، ومعنى قوله:(فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ): فاتعظوا يا معشر ذوي الأفهام بما أحلّ الله بهؤلاء اليهود الذين قَذف في قلوبهم الرعب، وهم في حصونهم من نقمته، واعلموا أن الله وليّ من والاه، وناصر رسوله على كلّ من ناوأه، ومحلّ من نقمته به نظيرَ الذي أحلّ ببني النضير. وإنما عنى بالأبصار في هذا الموضع أبصار القلوب، وذلك أن الاعتبار بها يكون دون الإبصار بالعيون[٢].

ومن ذلك يتبين أن العبرة مظهر مهم في إنقاذ المجتمعات من الهلاك بنوعيه، السقوط والخزي، بالنسبة للسلطة والاستئصال بالنسبة للمجتمع . «ووجه التعليل أن الاعتبار بالقصة لا يحصل إلا إذا كانت خبراً عن أمر وقع ، لأن ترتب الآثار على الواقعات ترتّب طبيعي فمِن شأنها أن تترتب أمثالُها على أمثالها كلما حصلت في الواقع ، ولأن حصولها ممكن إذ الخارج لا يقع فيه المحال ولا النادر»[٣]. وقد يطرح الاعتبار من جهة البنية الفوقية وحدها كما الحال في قصة فرعون[٤].

١- التحرير والتنوير، ج١٤ / ص٤٨٢.
٢- تفسير الطبري، ج٢٣ / ص٢٦٦.
٣- التحرير والتنوير، ج٧ / ص٣٢٩.
٤- ينظر سورة النازعات ١٧- وما بعدها.

وهكذا يتبين أن العبرة قد تكون من أجل إصلاح المجتمع كله، كما لاحظنا في المثال الأول بخصوص يهود المدينة، الذين ساقهم الله عبرة للمجتمعات، وقد تكون من أجل البنية الفوقية كما الحال في المثال الثاني بخصوص الطاغية فرعون، إذ ساقه الله ليكون عبرة للسلطة.

٨- **الشورى**: مما يبين دور البطانة في الاستشارة قوله ﷺ: «مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ تَعَالَى»[١]، وروي عن أنس بن مالك ما يكشف عن قيمة الاستشارة في الحياة السياسية وغيرها، قال: قال ﷺ: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد»[٢]، وعن سهل بن سعد الساعدي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شقي عبد قط بمشورة، وما سعد باستغناء برأي»[٣]، يقول الله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى / ٣٨] وأمر النبي وهو نبي بذلك فقال: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران ١٥٩]، وبين ﷺ قيمة ذلك فقال: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»[٤]، و قال ﷺ: «إِذَا اسْتَشَارَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيشِر عليْه»[٥]، وأعتقد أن صيغة الشورى بالمجالس والبرلمانات أعلى صورها وأهمها بدليل عمل الصحابة بها في اختيار الخليفة، «وإذ قد كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب، وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصَّة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان وأيُّ أمر أعظم من أمر الإيمان»[٦].

١- صحيح البخاري، باب بطانة الإمام، ج٢٢ / ص١٣٨.
٢- المعجم الصغير للطبراني، ورقمه: ٩٧٧، والمعجم الأوسط للطبراني، ورقمه: ٦٨١٦ ج١٤ / ص٣٩٤.
٣- مسند الشهاب، القضاعي، ورقمه: ٧٢٢، ج٣ / ص١٩٦.
٤- سنن ابن ماجة برقم ٣٧٤٦، وقال البوصيري في الزوائد ٣ / ١٨١: "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات".
٥- سنن ابن ماجة برقم ٣٧٤٧.
٦- التحرير والتنوير ١٣ / ١٣٩.

وخلاصة القول: إن الحضارات والمجتمعات تتعرض ولا بد لأنواع من الأمراض، وأن هذه الأمراض متفاوتة التأثير، ونتيجة لذلك يصبح إنقاذها من السقوط واجبا، وأن هذا الواجب هو الذي يفرض علينا النظر في توجيهات الحديث الشريف ـ بوصفها تطبيقات نبوية للأوامر القرآنية ـ للوقوف على استشراف أسباب الإنقاذ الاجتماعي أو الإقلاع الحضاري، وقد تجلى لنا من الأحاديث النبوية الكثيرة التي عولجت بواسطتها فكرة الاستشراف أن رأس الأمر هو الدين، لأنه مجمع العوامل الفاعلة في تشكيل إنسانية الإنسان، ويتجلى عامل الدين في تكوين نسق من مظاهر متعددة منها: تطهير البيئة الثقافية، ومنها نشر العدل والحفاظ على قيم الحق، ومنها جبر النقص عن طريق إحياء ثقافة التدافع التي تبدأ أساسا من العلماء والحكماء، ومنها المظهر العلمي ودوره في صبغة المقاومة للشرور ومنها تضافر العاملين الروحي والاقتصادي، ومنها مظهر النهي عن المنكر كمؤشر لاستمرار الخير، ومنها مظهر الاعتبار ومنها مبدأ الشورى.

وتلك هي نتيجة فعالية أنساق العامل الديني من حيث هو عمدة في البناء الحضاري، ووقاية للممالك من السقوط، وقد لاحظنا أنها تختلف عن فعالية التحدي عند توينبي، والفكرة المجردة، عند مالك بن نبي، والعلاقة بين القوانين والطبيعة عند منتسكيو، والعلم التجريبي عند التيار المعاصر، وذلك لأن العامل الديني هنا يقدم من حيث هو كلية متناسقة لمجموعة من المظاهر المتضافرة، وقد عبرت النظريات السابقة عنها مجزأة، فظنت أن الإقلاع أو الإنقاذ أو السقوط إنما يقع بسبب مظهر واحد كالترف أو التحدي، وهو ظن باطل، إنما الصواب هو أن التأثير في الحضارات ـ سلبا وإيجابا ـ إنما يتم بواسطة التأثير في بعديها القدرة والاستقامة، وهذا لا يتم إلا بتضافر نسق من العناصر التي تشكل كلية متينة. عبر عنها الحديث في الإيجاب بـ(الدين) ومقاصده وفي السلب بـ(كثرة الخبث) وبذلك يمكن أن نقرر أن الاستشراف الصحيح إنما هو ذلك الذي يقوم

على البحث في الأسباب المتضافرة كلها؛ الديني منها والمادي، ذلك لأن تغيير النفوس، ومحلها القلب، وأداة تغييرها العقيدة هو المؤثر الأساس في تغيير السلوك، الذي هو الطريق السليم لبناء الحضارة. ومن ثم نخطئ حين نبحث في أسباب النجاة من السقوط خارج الأسباب الروحية من حيث هي مقدمة حتمية للتحكم في الأسباب المادية، كما نخطئ حين نبني نتائج الاستشراف على تجليات جزئية لعوامل مادية فقط أو روحية فقط مهملين الأساس الذي تعد تلك العوامل تجليات له، مما يتسبب في نتائج استشراف غير صحيحة. ولكن هناك ما يلفت الانتباه وهو وجود حالات استثنائية، تعد سبب استدرار رحمة الله وهو الاستضعاف الذي يمارسه الطغاة على المستضعفين من الناس، مما يعجل برحمة الله لتدرك أولئك الضعفاء، وقد لاحظنا ذلك في بني إسرائيل مع فرعون، ومنه نستنتج أن موانع الهلاك تتحقق بالالتزام بشرع الله؛ وقد تكون رحمة استحقاق بسبب الإيمان، وقد تكون رحمة (غيرة) بسبب استضعاف.

ولعل الملخص التالي يبين قواعد الاستشراف، التي تدل على معرفة القوانين والسنن التي تتحكم في تغير الظواهر الاجتماعية والحضارية نموا وازدهارا، ويكشف عن صورها الأربع كما كشف عن صور أحوال السقوط في المبحث السابق:

- **الصورة ١**: إذا (هيمن) الدين وظهر على بنيتي المجتمع الفوقية والتحتية معا أنتج حضارة ولا ريب مثل: (مجتمع الرسول ﷺ).
- **الصورة ٢**: إذا (هيمن) الدين على البنية الفوقية فقط تعين الإصلاح كما في (مجتمع يونس عليه السلام).
- **الصورة ٣**: إذا (هيمن) الدين على البنية الاجتماعية التحتية دون السلطة أنتج التدافع كالصراع بين (موسى وفرعون).

- **الصورة ٤**: قد لا يظهر الدين في البنية التحتية، لكنها تكون مستضعفة فينتقم الله لها بسبب الاستضعاف، فيهيئ لها من ينقذها ويحييها بعد الموت الحضاري لعلها حالها يصلح بعد خلل.

قائمة المصادر والمراجع

- تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، ط١، ١٩٧٠م، دار الجيل، بيروت.

- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤م.

- تخريج مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩.

- تفسير الرازي (مفاتيح الغيب)، محمد بن عمر بن الحسن التيمي الرازي، بيروت، دار الفكر، ١٩٨١.

- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الفكر المصري، مطبعة الحلبي.

- تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة.

- الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، حسين مؤنس، سلسلة عالم المعرفة الكويت، ١٩٧٨م.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الكتاب العربي، بيروت ط/ ٤/ ١٤٠٥

- دلائل النبوة للبيهقي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر ببيروت، سنة ١٤١٨هـ.

- شرح صحيح البخاري، ابن بطال، تحقيق: ياسر ابن إبراهيم أبو تميم، الرياض، مكتبة الرشيد، ١٤٢٠ هـ.
- شرح النووي على صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢.
- شعب الإيمان البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الكتب العلمية، بيروت، ط١٤١٠،١.
- صحيح البخاري، تحقيق: مصطفي ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، القاهرة، مكتبة الحلبي، ط١، ١٩٧٢م.
- العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، أبو بكر العربي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٩هـ.
- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- في الآداب السلطانية، الفخري محمد بن علي (ابن الطقطقا)، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، لبنان.

القاموس المحيط – الفيروزابادي.

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٦، ١٩٩٦.

- كشف المشكل من حديث الصحيحين عبد الرحمن ابن الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن، الرياض، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦م.

- مختار الصحاح، زين الدين الرازي، القاهرة، دار الحديث،ط١، ١٩٩٩م.

- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي القاري.

- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفي عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

- مسند أحمد ابن حنبل، مؤسسة قرطبة – القاهرة، الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط.

- مسند عبد الله بن الزبير الحميدي، بيروت، عالم الكتب للطباعة والنشر، ١٩٦١.

- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبوالقاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط٢، ١٤٠٤ – ١٩٨٣.

- المقدمة، ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.

- المنتقى شرح الموطأ، الباجي، بيروت، دار الكتاب، ١٩٨٥م.

- الموطأ، مالك بن أنس، تحقيق: محمد مصطفي الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

- الوسيط في التفسير، لسيد طنطاوي – المكتبة الشاملة.

إدارة الأزمات والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية الهجرة وبناء الدولة الإسلامية الأولى: أنموذجاً

د. نوال بنت عمر بن عبد الله باسعد
جامعة الملك عبد العزيز بجدة فرع كلية البنات
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي المصطفى الأمين محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن المتأمل في حادثة هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة يجد أن التخطيط[1] المستقبلي جزء من السنة النبوية، بل جزء من التكليف الإلهي الذي يطالب المسلم بالقيام به من باب الأخذ بالأسباب من ابتداء الهجرة إلى نهايتها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها، رغم ما كان يكتنفها من صعاب وعقبات، لكن التخطيط ساعد في إنجاح الهجرة بأعلى المستويات، ولا غرابة فقد كانت هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة حدثا عظيما في تاريخ الإسلام كله، ولم يشهد التاريخ له مثيلا، ولهذا استحق أن يؤرخ به، ليكون درسا بارزا للأمة المحمدية من بعده في تحقيق الأهداف والوصول إليها بأعلى مستويات النجاح[2]، فالتخطيط كان أبرز أسباب نجاح حادثة الهجرة بعد معونة الله، لاسيما مع وضوح الهدف المتمثل في حماية النواة الأولى من المسلمين لقيام الدولة الإسلامية.

١- التخطيط لغة: من الأصل اللغوي (خط)، وخط الكتاب بيده، يخطه خطه: كتبه، والخطة (بالكسر): الأرض التي لم تمطر، وخطها الرجل لنفسه: أعلم عليها، والخطة (بالضم): الأمر والقصة، يقال: جاء وفي رأسه خطة: أي حاجة قد عزم عليها، وخطة ثانية: أي مقصد بعيد، ومن معاني التخطيط: التوطيد، والتخطيط في الاصطلاح العام: تحديد أهداف المنظمة، وتقرير أفضل السبل لتحقيقها ينظر لسان العرب لابن منظور (٧/ ٢٨٧) القاموس المحيط للفيروزآبادي (٢/ ٣٥٨)، وينظر مبادئ إدارة الأعمال لأحمد الشميمري (ص/ ٧٢).

٢- ينظر أثر التخطيط النبوي في بناء المجتمع المدني لمحمد السامرائي (ص/ ١٣٢).

ويشمل البحث على: مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، وستكون كالتالي:

المبحث الأول: التخطيط المستقبلي ووضع التدابير قبل حادثة الهجرة، وفيه مطالب:

- المطلب الأول: التخطيط لإعداد أنصار للنبي ﷺ في أرض الهجرة من خلال بنود بيعة العقبة الأولى والثانية.
- المطلب الثاني: التخطيط لإعداد المهاجرين والتمهيد لهم بالهجرة.
- المطلب الثالث: التخطيط لإرجاع الحقوق ورد الأمانات إلى أهلها، مع التخطيط للفدائي الذي سيحل مكان النبي ﷺ للنوم في فراشه.

المبحث الثاني: التخطيط المستقبلي ووضع التدابير أثناء حادثة الهجرة.

- المطلب الأول: التخطيط للرفيق.
- المطلب الثاني: التخطيط للطريق.
- المطلب الثالث: التخطيط للدابة.
- المطلب الرابع: التخطيط للمخبأ.
- المطلب الخامس: التخطيط للدليل الذي سيدلهم على طريق الهجرة.
- المطلب السادس: التخطيط لآلية رصد الأخبار من مكة.
- المطلب السابع: التخطيط لآلية التمويه والكتمان.
- المطلب الثامن: التخطيط لفريق الخدمة، مع تحديد المهام لكل منهم.

المبحث الثالث: التخطيط المستقبلي ووضع التدابير بعد حادثة الهجرة لبناء الدولة الإسلامية.

- المطلب الأول: التخطيط السياسي.
- المطلب الثاني: التخطيط الاقتصادي.
- المطلب الثالث: التخطيط الإداري.
- المطلب الرابع: التخطيط التعليمي.
- المطلب الخامس: التخطيط النفسي والاجتماعي.

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات.

ويعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي الذي يحلل بعض الأحاديث الواردة في حادثة الهجرة من كتب السنة النبوية، مع الاستعانة بكتب السير في تدوين بعض أحداث الهجرة التي لم أجدها في كتب السنة[1].

الدراسات السابقة: أهم الكتب التي اعتمدت عليها في استقراء التخطيط النبوي لحادثة الهجرة ما يأتي:

- كتب السنة النبوية، لاسيما الكتب الستة، وكتب شروح الحديث كفتح الباري لابن حجر العسقلاني، وعمدة القاري للعيني، وغيرها.
- كتب السيرة النبوية، سواء من كتب المتقدمين مثل: السيرة النبوية لابن هشام، زاد المعاد لابن القيم، أو كتب المتأخرين مثل: السيرة النبوية عرض

١- معلوم أن كتب السير لم يلتزم مؤلفوها ما التزمه المحدثون في رواية الأحاديث من التشدد في شروط رواية الأحاديث، وقد أورد عبد الحي العكري في شذرات الذهب(٢ / ٩٧) ما يؤكد هذا من أقوال العلماء كقول الإمام أحمد بن حنبل إمام الحفاظ: "إذا جاء الحديث في فضائل الأعمال وثوابها وترغيبها تساهلنا في إسناده، وإذا جاء الحديث في الحدود والكفارات والفرائض تشددنا فيه".

وقائع وتحليل أحداث لعلي الصلابي، أو فقه السيرة لزيد الزيد.

- كتب التاريخ مثل: تاريخ الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الإسلام للذهبي.
- وثمة مواقع إلكترونية أفدت منها كما يظهر في البحث، وقائمة المراجع.

وفي حدود إطلاعي لا أعلم دراسة استقرت حادثة الهجرة بعينها بمراحلها الثلاث، وأفضل الدراسات التي تعرضت للتخطيط النبوي: كتاب (أثر التخطيط النبوي في بناء المجتمع المدني) لمحمد صالح السامرائي، لكنه لم يسلط الضوء على التخطيط أثناء الهجرة، أي إبراز تخطيط النبي ﷺ في المرحلة الثانية.

ويكمن جديد البحث في تسليط الضوء على حادثة هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة،واستقراء صور التخطيط في كل مرحلة من مراحل الهجرة، سواء قبل حادثة الهجرة أو أثناء حادثة الهجرة، أو بعد الهجرة ببناء الدولة الإسلامية، فلكل مرحلة أدواتها ومعطياتها، ووسائل نجاحها، وأهدافها المراد الوصول إليها.

المبحث الأول: التخطيط المستقبلي ووضع التدابير قبل حادثة الهجرة.

المطلب الأول: التخطيط لإعداد أنصار للنبي ﷺ في أرض الهجرة من خلال بنود بيعة العقبة الأولى والثانية.

ظل النبي ﷺ أكثر من عشر سنوات في مكة يعرض الإسلام على القبائل، في أسواقهم وأنديتهم، ويتلو عليهم آيات من القرآن الكريم[1]، ولم يجد من أهلها إلا الاستجابات الفردية، والعداوة الجماعية، حتى أذن الله أن تأتي النصرة له من

١- المتأمل لقصص إسلام كثير من الصحابة يجد أن كثيرا منهم أسلم بسماع آيات من القرآن الكريم،كعمر بن الخطاب، وسويد بن الصامت، و الطفيل بن عمر الدوسي، وجبير بن مطعم الذي عبر عن هذا التأثير السريع بعد سماعه من النبي ﷺ آيات من سورة الطور في صلاة المغرب بقوله: كاد قلبي أن يطير، وهذا يثبت أن قراءة القرآن أثناء عرض الإسلام لها أثرٌ عجيبٌ في دخول الإيمان إلى القلوب واستقراره فيه، ينظر فقه السيرة لزيد الزيد (ص٢٦٧).

خارج مكة، فإذا به يلتقي بفئة من الأنصار، ستة نفر من الشباب[1]، قليلي العدد، كثيري البركة،كتب الله على أيديهم التغيير، وجعلهم نواة البشائر الأولى، وبذرة الخير الذين ساندوا الدعوة إلى الله وناصروا رسول الله ﷺ، فكانوا نعم الظهر والسند للمسلمين، فأي شرف هذا؟ وأي اصطفاء ذاك؟ وعلى الرغم من كونهم شبابا فقد كانت لهم بصمة واضحة على قبائلهم كبارهم وصغارهم، نسائهم ورجالهم، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ، وقد سجل التاريخ لهؤلاء الستة الذين جمعوا بين العقل والحكمة هذا التغيير، وجعل ما فعلوه محل تأمل.

قال ابن إسحاق: «فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيهﷺ، وإنجاز موعده له، خرج رسول اللهﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا»[2]. وكان ذلك في السنة الحادية عشر من البعثة، وقد سمع النبيﷺ أصوات رجال يتكلمون، فلحقهم وعرض عليهم الإسلام، فقال لهم: «من أنتم؟ فقالوا: نفر من الخزرج[3]، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم، قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام»[4].

١- وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث بن رفاعة، ورافع بن مالك بن العجلان، و قطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبد الله بن رئاب، ينظر: تاريخ الطبري(١ / ٥٥٨)، صفة الصفوة لابن الجوزي (١ / ١٢٠).

٢- ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٢٧٦).

٣- الأوس والخزرج أخوان لأم وأب، وقعت بينهم العداوة ونشبت الحرب بينهم مئة وعشرين سنة إلى أن أطفأها الله بالإسلام وألف بينهم برسول الله ﷺينظر مختصر السيرة لمحمد بن عبد الوهاب (ص٨٥).

٤- ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢ / ٢٧٦) بإسناد حسن، قاله أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة (١ / ١٩٦) وكذا حسن إسناده العودة في السيرة النبوية لسلمان العودة (ص٣٣١) فقد رواه ابن إسحاق من حديث عاصم بن عمر عن أشياخ من قومه، ورجح العودة أن هؤلاء الأشياخ من الصحابة الذين يروي عنهم عاصم أمثال: جابر ومحمود بت لبيد.

وقال ابن إسحاق: «وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام[1] أن يهودا كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: لهم إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه للنبي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا[2]». ولما كان العام المقبل جاء منهم اثنا عشر رجلاً[3]، فبايعهم النبي ﷺ بالعقبة الأولى[4].

١- هناك سبب آخر اصطنعه الله لهم، و ميزة ميز أهل المدينة بها على بقية القبائل والبلدان؛ حسن الرد مع النبي ﷺ، فنالوا من ثمرات الأدب معه بأن فتح الله عليهم بالإسلام، بل اصطنع الله لهم سببا آخر وهو يوم بعاث الذي أدى إلى تمهيد أفئدة أهل المدينة لقبول الإسلام، وأزال الله الرؤساء الذين قد يكون في بقائهم معارضة كبيرة لدعوة للإسلام في المدينة. ينظر: فقه السيرة لزيد الزيد (ص٢٨١)، وقد قالت عائشة: "كَانَ يَوْمُ بُعَاثَ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ ﷺ فَقَدِمَ رسول الله ﷺ وقد افْتَرَقَ ملأهم، وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ، وَجُرِّحُوا فَقَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ في دُخُولِهِمْ فِي الْإِسْلَامِ". أخرجه: البخاري، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة باب مناقب الأنصار (٣/ ١٣٧٧) ح (٣٥٦٦). ومعنى سَرَوَاتُهُمْ: أشرافهم. ينظر: النهاية في غريب الأثر لابن الأثير (٢/ ٣٦٣).

٢- ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٢٧٦) بإسناد حسن، قاله أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٩٦) وكذا حسن إسناده العودة في السيرة النبوية لسلمان العودة (ص٣٣١)، ينظر تاريخ الطبري (١/ ٥٥٨)، دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٣٤)، تاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٢٩٠) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٤٨).

٣- وهم: الستة الأول خلا جابر بن عبد الله، ومعهم: معاذ بن الحارث بن رفاعة، و ذكوان بن عبد القيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التيهان، و عويمر بن مالك، والعباس بن عبادة بن نضلة. ينظر دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٤٣٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٥٠).

٤- بنود البيعة ظاهرة في قوله ﷺ: «بَايِعُونِي على أَنْ لَا تُشْرِكُوا بالله شيئا ولا تَسْرِقُوا، ولا تَزْنُوا، ولا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، ولا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بين أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، ولا تَعْصُوا في مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وفى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ على الله، وَمَنْ أَصَابَ من ذلك شيئا فَعُوقِبَ في الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ له، وَمَنْ أَصَابَ من ذلك شيئا ثُمَّ سَتَرَهُ الله فَهُوَ إلى الله إن شَاءَ عَفَا عنه، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ فَبَايَعْنَاهُ على ذلك». أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان باب علامة الإيمان حب الأنصار (١/ ١٥) ح (١٨)، وقد كانت هذه البيعة على مضمون بيعة النساء نفسها التي نزلت بعد فتح مكة. ينظر: السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف للسهيلي (٢/ ١٨٥).

وهكذا برزت روعة تخطيط النبي ﷺ لكل الأمور، وبأعمق التفاصيل في إعداد الأنصار قبل الهجرة إلى المدينة بسنتين، رغم كونه ﷺ مازال في مكة، بل أكمل إعدادهم لما رجعوا المدينة بإرسال أول سفير في الإسلام إلى المدينة، وهو: مصعب بن عمير الذي اجتمعت فيه مواصفات السفير الناجح بحكمته وحسن أسلوبه وعرضه، وكان من السابقين إلى الإسلام، فمن كمال تخطيطه ﷺ اهتمامه بعملية الانتقاء والاختيار، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب، بل وتحديده ﷺ لمسؤوليات سفيره في:

١- تعليم المسلمين الجدد شرائع الإسلام، وتفقيههم في الدين.

٢- تبليغ الدعوة إلى الله لمن لم يسلم بعد[١].

٣- الدراسة الميدانية لأحوال المدينة ليطمئن على صلاحيتها لإقامة الدولة الإسلامية[٢].

ولما حقق مصعب الهدف المنشود لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها مسلمون، عاد بعدها إلى مكة ليزف البشرى لرسول الله ﷺ بأن المدينة أصبحت ذات قوة ومنعة وانتشر فيها الإسلام[٣]. وفي العام الثالث عشر في موسم الحج حضر من الأنصار بضع وسبعون رجلاً ليبايعوا رسول الله ﷺ، فخطط رسول الله ﷺ لإنجاح هذا اللقاء بغاية الإحكام والدقة، لاسيما أنه كان سيتم في ظروف صعبة، وكان يمثل تحديا خطيرا وجريئا لقوى الشرك، فكان تخطيطه ﷺ لهذا اللقاء من عدة جهات:

١- ينظر الكامل في التاريخ للشيباني (١ / ٦١٢).
٢- ينظر أثر التخطيط النبوي في بناء المجتمع المدني لمحمد السامرائي (ص٣٢).
٣- ينظر الكامل في التاريخ للشيباني (١ / ٦١٢).

١- خطط للسرية التامة فيما يلي:

- السرية التامة بخصوص اجتماع النبيﷺ بالأنصار، بحيث لم يعلم به سوى العباس الذي جاء يستوثق للنبيﷺ من الأنصار، وعلي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق اللذين كانا عينين للمسلمين ولم يعلم غيرهم بهذا الاجتماع.

- سرية الحركة واللقاء مع الخروج المنظم، لاسيما أن وفد المبايعة كان عددهم بضعا وسبعين رجلا وامرأتين؛ ما جعل حركتهم وانتقالهم صعبا إلى موعد الاجتماع ومكانه، فكانوا متسللين مستخفين، ويؤيد هذا رواية كعب بن مالك الذي قال: «فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مع قَوْمِنَا في رِحَالِنَا حتى إذا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ، خَرَجْنَا من رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رسول الله ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا، حتى اجْتَمَعْنَا في الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلاً وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ من نِسَائِهِمْ»[(١)].

٢- خطط لتحديد الزمان:

- بعد ثلث الليل حيث كان النوم قد ضرب على أعين القوم، ومن ثَمَّ هدأت الحركة.

- في أوسط أيام التشريق، أي: ثاني أيام التشريق ليلة الثالث حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم الثالث من ذي الحجة، ومن ثَمَّ تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم إذا انكشف الأمر[(٢)].

٣- خطط لتحديد مكانه:

- عند جمرة العقبة الأولى، بعيدا عن أعين من يستيقظ من النوم لحاجة؛ تمويها لقريش[(٣)].

١- أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٣/ ٤٦٠) ح (١٥٨٣٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٤٥): "رواه أحمد ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن اسحق وقد صرح بالسماع".

٢- ينظر السيرة النبوية عرض ووقائع لعلي الصلابي (١/ ٢٧٠).

٣- ينظر المصدر السابق (١/ ٢٧٠).

وخطط كذلك لبنود البيعة التي كانت تحمل في طياتها العمق والشمولية في كافة الأحوال، وتحقق أهدافا محددة ومدروسة[1]، وبعد هذا الإبرام، وهذه المعاهدة رأى رسول الله ﷺ أن من زيادة التنظيم والتخطيط انتخاب اثني عشر نقيبا،وحدد مهامهم الملقاة على عاتقهم، وهي: كفالة المسؤولية في تنفيذ بنود المبايعة على قومهم ومتابعتها، وقد روي عنه قوله ﷺ: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم، وتم انتخابهم فورا وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وقال لهم: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم»[2].

المطلب الثاني: التخطيط لإعداد المهاجرين والتمهيد لهم بالهجرة.

لم تكن الهجرة نزهة أو رحلة يروح الإنسان فيها عن نفسه، بل كانت مغادرة الأهل والوطن وتنازلا عن المصالح الشخصية، والممتلكات والأموال من أجل الله ورسوله، ومن أجل قيام دولة إسلامية، لاسيما مع تكبد المؤمنين للعذاب والاضطهاد من قبل كفار قريش؛ ما أوصلهم إلى قناعة تامة بعدم إمكانية الجمع بين الإسلام والمقام في مكة.

وكان التخطيط لإعداد المهاجرين له سمة التدرج من خلال:

١- تنويه القرآن بالهجرة ولفت الأنظار إلى أن أرض الله واسعة في قوله تعالى:

١- أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الفتن، بَاب قَوْل النبي ﷺ سَتَرَوْنَ بَعْدي أُمُورًا تُنْكِرُونَهَا (٦ / ٢٥٨٨) ح (٦٦٤٧) حديثا بلفظ: "بَايَعَنَا عِلى السَّمْعَ وَالطاعَة فِي مَنْشَطِنَا وَمكرَهنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إلا أَنْ تروا كُفرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ من اللَّه فيه بُرْهَانٌ". وأخرج مسلمَ في صحيحه، في كتاب الأمارة باب وجوب طاعة الأمراء (٣/ ١٤٧٠) ح (١٧٠٩) بلفظ: "بَايَعْنَا رَسُولَ الله ﷺ علِى السَّمْعِ وَالطَّاعَة، فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَه، وَعَلى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَىَ أَنْ نَقُولَ بالحَقِّ أَيْنَمَا كنا لا نَخَافُ في اللَّه لَوْمَةَ".

٢- أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٤٤)، ح (٣٧١٠١)، والحديث ضعيف لإرساله، وقد ضعفه الألباني في تحقيق كتاب فقه السيرة للغزالي (١/ ١٥٠)، وينظر السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٢٩٥).

﴿ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾[1].

٢- نزول سورة الكهف بقصة الفتية الذين آمنوا بربهم، وهاجروا من بلدهم من أجل عقيدتهم، فاستقر في أذهان الصحابة ضرورة ترك الأهل والوطن من أجل العقيدة.

٣- التصريح بأجر الهجرة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

٤- التدريب العملي بترك الأهل والوطن بالهجرة إلى الحبشة:

كان تدريب النبي ﷺ للمسلمين بترك الأهل والوطن من خلال الهجرة الأولى إلى الحبشة التي كانت في رجب من السنة الخامسة من النبوة[3]، بعد ما اشتد البلاء على المسلمين حبساً وتعذيباً وضرباً وتجويعاً، ثم رجعوا إلى مكة بعد أن وصلهم خبر إسلام حمزة وعمر بن الخطاب اللذين أعز الله بهما الإسلام، فزادتهم قريش تنكيلاً باستخدام المقاطعة الاقتصادية؛ ما أدى إلى هجرة المسلمين مرة أخرى إلى الحبشة[4]. وتقدر مدة مكث المهاجرين في الحبشة خمس عشر سنة، فمن السنة الخامسة من النبوة، أي: قبل الهجرة إلى المدينة بثماني سنوات تقريباً، إلى السنة السابعة من الهجرة حين افتتح النبي ﷺ خيبر، ويؤيده الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه بسنده المتصل عن أبي مُوسَى رضي الله عنه قال:بَلَغَنَا مَخْرَجُ النبي ﷺ: «وَنَحْنُ بِالْيَمَنِ فَرَكِبْنَا سَفِينَةً فَأَلْقَتْنَا سَفِينَتُنَا إلى النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ، فَوَافَقْنَا جَعْفَرَ بن أَبِي طَالِبٍ، فَأَقَمْنَا معه حتى قَدِمْنَا فَوَافَقْنَا النبي ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ، فقال

١- سورة الزمر آية (١٠)، سورة مكية.
٢- سورة النحل آية رقم (٤١)، سورة مكية.
٣- ينظر فتح الباري (٧/ ١٨٨).
٤- ينظر السيرة النبوية عرض ووقائع للصلابي (١/ ٢٧٤).

النبي ﷺ: «لَكُمْ أَنْتُمْ يا أَهْلَ السَّفِينَةِ هِجْرَتَانِ»[1]، وهذه مكافأة النبي ﷺ للمهاجرين إلى الحبشة.

المطلب الثالث: التخطيط لإرجاع الحقوق وردّ الأمانات إلى أهلها، مع التخطيط للفدائي الذي سيحل مكان النبي ﷺ للنوم في فراشه.

رد الودائع والأمانات إلى أهلها أخذت حيزا من تفكيره واهتمامه وأولوياته ﷺ، حتى وهو منشغل بالتخطيط لحادثة الهجرة من مكة إلى المدينة رغم خطورتها وأهميتها وسريتها، ولو أخر رد الأمانات لكان في حكم المضطر، لكن لا غرابة فقد كان يُسمَّى بـ (الصادق الأمين) قبل البعثة، ورشح النبي ﷺ لهذه المهمة علي بن أبي طالب الذي ظل في مكة ثلاث ليال ليرد الودائع[2]، وهذا من كمال تخطيطه ﷺ، فإذا علمت قريش بهجرته اطمأنوا على أماناتهم فلا يستطيل أحدهم بالتشكيك في نزاهة النبي ﷺ، رغم أنهم في الحقيقة جمعوا بين المتناقضات، فكيف يكون النبي ﷺ في نظرهم الأمين الذي أمنوه على الودائع والأمانات، مع أنه في نظرهم أيضا العدو[3]؟! وبعد اتفاق قريش على مؤامرة قتل النبي ﷺ باشتراك عدد من القبائل القرشية فيضيع دمه بين القبائل، ولا يتمكن بنو هاشم من المواجهة، جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وقال له: «لا تبت هذه الليلة في فراشك الذي كنت تبيت عليه»، فلما كانت عتمة من الليل اجتمعت قريش على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب: «نم على فراشي، وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»[4].

١- أخرج البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة باب هجرة الحبشة (٣/ ١٤٠٧) ح (٣٦٦٣).

٢- ينظر السيرة الحلبية لعلي الحلبي (٢/ ٢٣٣) وقال ابن الملقن في البدر المنير (٧/ ٣٠٤): كانت عنده ودائع فلمَّا أراد الهجرةَ سَلَّمَهَا إلى أمِّ أيمن، وأمر عليًّا بردِّها.

٣- ينظر فقه السيرة لزيد الزيد (ص/ ٣٠٤).

٤- ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٣/ ٨) بإسناد صحيح إلى محمد بن كعب القرظي لكنه مرسل، قاله د. أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٠٧).

ولاشك أن تخطيط النبي ﷺ لمن ينام في مكانه، واختياره لعلي بن أبي طالب كان تخطيطا ذكيا بكل المقاييس، فقد ضلل القوم وخدعهم، وصرفهم عنه ﷺ حتى خرج في جنح الليل، تحرسه عناية الله، وظلت أبصارهم معلقة بعد يقظتهم بمضجعه، وما شكوا أنه ما زال نائما، بل ومسجى في بردته، في حين أن النائم هو: علي بن أبي طالب ﷺ(١).

والمتأمل في هذه الكلمات يجد أن التخطيط ومواجهة الأزمات برز في عدة جهات:

١- **من جهة اختيار النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب** دون غيره من الصحابة، فهناك أسباب أهلت عليا للنوم في فراش النبي ﷺ، منها:

- شجاعته الجمة، فقد عرض نفسه للخطر ليفدي رسول هذه الأمة، فصبوا جام(٢) غضبهم عليه وأوسعوه ضربا، وسحبوه إلى الكعبة(٣).

- ثباته وقوة عزيمته الجمة، فقد حبسوه ساعة لعله يتكلم وهو لا يزداد إلا ثباتا وتكتما لخبر رسول الله ﷺ(٤).

- قربه الجم للنبي ﷺ، فقد تربى على يد النبي ﷺ، وفي بيته، ولن يشعر أحد بدخول ضيف غريب على البيت، فبيت رسول الله ﷺ بيت له أيضا، وقد صرح النبي ﷺ بقربه منه حيث قال: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ من مُوسَى»(٥). وفي رواية قال له: «أنت مِنِّي وأنا مِنْكَ»(٦).

١- ينظر السيرة النبوية عرض ووقائع وتحليل أحداث للصلابي (ص/ ٣٠٨).
٢- الجام هو: إناء من فضة ينظر لسان العرب لابن منظور (١٢ / ١١٢)، وهذا من باب التشبيه.
٣- ينظر الرحيق المختوم للمباركفوري (ص/ ١٤٩).
٤- ينظر الرحيق المختوم للمباركفوري (ص/ ١٤٩).
٥- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب علي بن أبي طالب (٣/ ١٣٥٩) ح(٣٥٠٣).
٦- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي بَاب عُمْرَةِ الْقَضَاءِ (٤/ ١٥٥١) ح(٤٠٠٥).

٢- **استخدام أسلوب التمويه والتعمية**، حين أمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب بالتغطي ببرده الحضرمي الذي كان يتغطى به عند نومه، فحقق بهذه الوسيلة مراده في التمويه، فكانوا يرونه نائما فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائما عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، بل أعطى عليا الضمان النبوي بأنه لن يخلص إليه شيء يكرهه[١]، وهو من لا ينطق عن الهوى.

٣- **الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله**، فقد أخذ رسول الله ﷺ حفنة من تراب ونثره على رؤوس الجالسين، ثم تلا قوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[٢]، فأخذ الله على أبصارهم فلم يجعلهم يرونه. وقد نجح هذا التخطيط كما أراده رسول الله ﷺ، حتى جاءهم رجل ممن لم يكن معهم فسألهم: ما تنتظرون؟ قالوا: محمدا، فقال: خبتم وخسرتم، قد والله مر بكم، وذر التراب على رؤوسكم، وانطلق لحاجته، قالوا: والله ما أبصرنا [٣].

١- ينظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨)، عمدة القاري للعيني (١٧/ ٤٦)، فقه السيرة لزيد الزيد (٢٩٣).

٢- سورة يس آية (٩)، سورة مكية.

٣- ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٣/ ٨) بإسناد صحيح لكنه مرسل عن محمد بن كعب القرظي، وقد أخرج أحمد بن حنبل في مسنده (١/ ٣٤٨) ح (٣٢٥١) حديثا بلفظ: "تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ لَيْلَةً بمكة، فقال بَعْضُهُمْ: إذا أَصْبَحَ فَأَثْبِتُوهُ بِالْوَثَاقِ يُرِيدُونَ النبي ﷺ،وقال بَعْضُهُمْ: بَل اقْتُلُوهُ،وقال بَعْضُهُمْ: بَلْ أَخْرِجُوهُ فاطلع الله عز وجل نَبِيَّهُ على ذَلكَ فَبَاتَ علي على فِرَاش النبي ﷺ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَخَرَجَ النبي ﷺ حتى لَحِقَ بِالْغَارِ، وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ يَحْرُسُونَ عَلِيًّا يَحْسَبُونَهُ النَّبِي ﷺ فلما أَصْبَحُوا ثَارُوا إليه، فلما رَأَوْا عَلِيًّا رَدَّ الله مَكْرَهُمْ، فَقَالُوا: أَيْنَ صَاحِبُكَ هذا؟ قال: لاَ أدري." . والحديث حسنه ابن حجر في فتح الباري (٧/ ٢٣٦).

المبحث الثاني: التخطيط المستقبلي ووضع التدابير أثناء حادثة الهجرة

المطلب الأول: التخطيط للرفيق.

توالى المسلمون مهاجرين من مكة إلى المدينة، وكلما تهيأ أبو بكر للخروج واستأذن رسول ﷺ في الهجرة قال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلكَ فَإنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لي، فيقول أبو بكرٍ: أو ترجوه بِأَبِي أنت، قال: نعم، فَحَبَسَ أَبو بَكْرٍ نَفْسَهُ على النبي ﷺ لِصُحْبَتِهِ»[1]، وروي عنه أيضا: «لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبا»[2]، فيطمع أبو بكر أنْ يكون هو. والمتأمل لأسباب اصطفاء النبي ﷺ واختياره لأبي بكر دون غيره من الصحابة يجد أن أبا بكر الصديق توفرت فيه صفات أهلته لهذا الاختيار الذي اصطفاه الله به دون غيره، ومن أهم هذه الصفات:

١- **الحب الجم** لرسول الله ﷺ الذي ظهر في جميع مواقف حادثة الهجرة، وتؤيده ما روي بلفظ: لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار، ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ،فقال: يا أبا بكر مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي، فقال: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك، فقال: يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟ قال: نعم والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من ملمة إلا أن تكون بي دونك، فلما انتهيا إلى الغار، قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى استبرىء لك الغار، فدخل واستبرأه حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الحجرة، فقال: مكانك يا رسول الله ﷺ حتى استبرىء الحجرة فدخل و استبرأ»[3].

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب اللباس باب التقنع (٥ / ٢١٨٧) ح (٥٤٧٠).

٢- أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٢ / ١٧٧) ح (٤٦٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٦٢): "رواه الطبراني، وفيه جابر الجعفي وهو: ضعيف".

٣- أخرجه الحاكم في مستدركه في كتاب الهجرة باب ذكر عمر بعض فضائل أبي بكر رضي الله عنه (٣ / ٧) ح (٤٢٦٨) وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين لولا إرسال فيه ولم يخرجاه)، وقال الذهبي في التلخيص (٣ / ٧) ح (٤٢٦٨): (صحيح مرسل).

٢- **الأدب الجم**: كان أبو بكر الصديق لا يكاد يتكلم عن رسول الله ﷺ غيبة أو شهادة إلا ويقول: (بأبي أنت وأمي، أو بأبي أنت، بأمي أنت) أدبا وتوقيرا رغم أن رسول الله ﷺ رفيق الصبا، وصديق الطفولة والشباب والكهولة، وعلى طول فترة الصحبة لم يسقط شيئا من الأدب؛ لأنه كان يعلم مكانه ﷺ من الله فحفظ له هذا هيبة ووقارا واحتراما. بل يظهر هذا جليا إذا تأملنا حديثا روته السيدة عَائِشَةَ، كرر أبو بكر الصديق فيه عبارة: (بأبي أنت وأمي) أربع مرات، سواء في شهادته ﷺ أو غيبته. قالت عائشة: «وَتَجَهَّزَ أبو بَكْرٍ مُهَاجِرًا، فقال النبي ﷺ: على رِسْلِكَ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لي، فقال أبو بَكْرٍ: أَو ترجوه بِأَبِي أنت، قال نعم، فَحَبَسَ أبو بَكْرٍ نَفْسَهُ على النبي ﷺلِصُحْبَتِه، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، قال عُرْوَةُ: قالت عَائِشَةُ فَبَيْنَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ في بَيْتِنَا في نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فقال قَائِلٌ لأَبِي بَكْرٍ: هذا رسول اللَّهِ ﷺ مُقْبِلًا مُتَقَنِّعًا في سَاعَةٍ لم يَكُنْ يَأْتِينَا فيها، قال أبو بَكْرٍ: فدًا له بِأبي وَأُمِّي، والله إن جاء بِهِ في هذه السَّاعَةَ لأَمْرٍ، فَجَاءَ النبي ﷺ، فَاسْتَأْذَنَ فَأَذِنَ له فَدَخَلَ، فقال حين دخل لأَبِي بَكْرٍ: أَخْرِجْ من عِنْدَكَ، قال: إنما هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أنت يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: فَإِنِّي قد أُذِنَ لي في الْخُرُوجِ، قال: فَالصُّحْبَةُ بِأَبِي أَنت وَأُمِّي يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: نعم، قال: فَخُذْ بِأَبِي أنتَ يا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ»(١).

٣- **العطاء الجم**: إن جميع تفاصيل حادثة الهجرة تثبت فضل أبي بكر الصديق وعطاءه، وقد صرح رسول الله ﷺ بذلك إذ قال: «إِنَّ أَمَنَّ الناس عَلَيَّ في صُحْبَتِه وَمَاله أبو بَكْرٍ، وَلَوْ كنت مُتَّخِذًا خَلِيلًا من أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ»(٢). وقال في رواية: «ما لأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إلا وقد

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب اللباس باب التقنع (٥/ ٢١٨٧) ح(٥٤٧٠).
٢- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة بَاب الْخَوْخَةِ وَالْمَمَرِّ في الْمَسْجِدِ (١/ ١٧٧) ح(٤٥٤).

كَافَيْنَاهُ ما خَلَا أَبَا بَكْر فإن له عِنْدَنَا يَدًا يكافئه الله بها يوم الْقِيَامَة، وما نَفَعَنِي مَالُ أَحَد قَطُّ ما نَفَعَنِي مَالُ أبي بَكْرٍ، وَلَوْ كنت مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»[1].

والتمويل المالي لحادثة الهجرة كان صاحب الفضل فيها أبا بكر الصديق، الذي دعم حادثة الهجرة وأعطى دون أن يطلب منه، بل أنفق ماله كله ويؤيده رواية بلفظ: فلَمَّا خَرَجَ رسول الله ﷺ، وَخَرَجُ معه أبو بَكْر احْتَمَلَ أبو بَكْر مَالَهُ كُلَّهُ معه خَمْسَةَ آلَافِ دِرْهَم أو ستَّةَ آلَافِ دِرْهَم، قالت: وَانْطَلَقَ بها معه، قالت: فَدَخَلَ عَلَيْنَا جدي أبو قُحَافَةَ وقد ذَهَبَ بَصَرُهُ، فقَال: والله إني لَأَرَاهُ قد فَجَعَكُمْ بِمَالِهِ مع نَفْسِهِ[2]، بل إن فريق الخدمة كلهم من آل بيت أبي بكر، وهذا ما سنقف عليه.

وقد قدم أبو بكر الصديق أعلى وأرقى وأفضل أنواع الخدمة لرسول الله ﷺ في حادثة الهجرة، وهاهو يحكي رحلته يوم الهجرة قائلا: «ارْتَحَلْنَا من مَكَّةَ فَأَحْيَيْنَا، أو سَرَيْنَا لَيْلَتَنَا وَيَوْمَنَا حتى أَظْهَرْنَا، وَقَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ فَرَمَيْتُ بِبَصَرِي هل أَرَى من ظِلٍّ فَآوِيَ إليه؟ فإذا صَخْرَةٌ أَتَيْتُهَا فَنَظَرْتُ بَقِيَّةَ ظِلٍّ لها فَسَوَّيْتُهُ، ثُمَّ فَرَشْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فيه، ثُمَّ قلت له: اضْطَجِعْ يا نَبِيَّ الله، فَاضْطَجَعَ النبي ﷺ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ أَنْظُرُ ما حَوْلِي هل أَرَى من الطَّلَبِ أَحَدًا؟ فإذا أنا بِرَاعِي غَنَم يَسُوقُ غَنَمَهُ إلى الصَّخْرَةِ يُرِيدُ منها الذي أَرَدْنَا، فَسَأَلْتُهُ فقلت له: لِمَنْ أَنت يا غُلَامُ، قال: لِرَجُلٍ من قُرَيْشٍ سَمَّاهُ فَعَرَفْتُهُ، فقلت:هل في غَنَمِكَ من لَبَنٍ؟ قال:نعم، قلت: فَهَلْ أَنت حَالِبٌ لبنا لنا، قال: نعم، فَأَمَرْتُهُ فَاعْتَقَلَ شَاةً من غَنَمِه، ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْفُضَ ضَرْعَهَا من الْغُبَارِ، ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْفُضَ كَفَّيْهِ، فقال: هَكَذَا ضَرَبَ إِحْدَى كَفَّيْهِ بِالْأُخْرَى،

١- أخرجه الترمذي في سننه في كتاب المناقب باب في مناقب أبي بكر الصديق (٥/ ٦٠٩) ح(٣٦٦١) وقال أبو عيسَى: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ من هذا الْوَجْه.

٢- أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٦/ ٣٥٠)ح(٢٧٠٠٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٥٩): رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحق، وقد صرح بالسماع.

فَحَلَبَ لي كُثْبَةً[1] من لَبَنٍ، وقد جَعَلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِدَاوَةً[2] على فَمِهَا خِرْقَةٌ، فَصَبَبْتُ على اللَّبَنِ حتى بَرَدَ أَسْفَلُهُ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ إلى النبيِّ ﷺ، فَوَافَقْتُهُ قد اسْتَيْقَظَ، فقلت: اشْرَبْ يا رَسُولَ اللَّهِ فَشَرِبَ حتى رَضِيتُ»[3].

فالمتأمل لتفاصيل هذه الرواية يظهر له حرص أبي بكر الصديق على خدمة رسول الله ﷺ أرقى أنواع الخدمة، فتسويته للصخرة وفرشه للنبي ﷺ عليها من جهة، وطلبه لأنواع من الخدمات المقدمة في حلب اللبن من جهة ثانية، وحرصه على تقديمه لرسول الله ﷺ مبردا من جهة ثالثة، بل بلغ إحساس أبي بكر الصديق بالنبي ﷺ أنه جعل ارتواء النبي ﷺ من اللبن ارتواء له، فقد قال بعد شرب رسول الله ﷺ: فشرب حتى رضيت»، فلا عجب بعد ذلك من اصطفاء رسول الله ﷺ له وتشريفه بهذه الصحبة.

المطلب الثاني: التخطيط للطريق.

خطط رسول الله ﷺ للطريق الذي سيسلكه بذكاء شديد وحيطة بالغة من عدة جهات:

١- اختار رسول الله ﷺ طريقا غير معهودة لم يألفها الناس، ولم يسلكها أحد إلا نادرا زيادة في التمويه فلم يخرج من الطريق المعهودة من مكة إلى المدينة شمالا[4].

٢- اختار رسول الله ﷺ طريقا معاكسا للهدف بخلاف المتوقع فلم يتجه شمالا بل جنوبا نحو اليمن، أي: «بعيدا عن الهدف الذي كان متمثلا في المدينة

١- الكثبة: كل قليل جمع من طعام أو لبن ينظر لسان العرب لابن منظور (١ / ٧٠٣).
٢- الإداوة بالكسر: إناء صغير من جلد يتخذ للماء، وقيل: المَطْهَرَةُ، وتكونُ من جِلْدَيْن قُوبِلَ أَحَدُهُما بالآخَرِ، و إداوة الشيء: آلته ينظر المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٩ / ٤٥١) لسان العرب لابن منظور (١٤ / ٢٥) عمدة القاري للعيني (٤ / ٢٩).
٣- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب باب علامات النبوة (٣ / ١٣٢٦) ح (٣٤١٩).
٤- ينظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لأبي شهبة (١ / ٤٧٧).

التي تقع شمال مكة، ثم اتجه شمالا على مقربة من شاطئ البحر الأحمر على الساحل[1]، وتثبته رواية البخاري بلفظ: فَأَخَذَ بِهِمْ أَسْفَلَ مَكَّةَ وهو طَرِيقُ السَّاحِلِ»[2].

المطلب الثالث: التخطيط للدابة.

ترتب على اختيار النبي ﷺ لأبي بكر رفيقا للهجرة، تجهيز أبي بكر للدابة التي ستحملهم في الهجرة إلى المدينة، قبل الهجرة بأربعة أشهر، وكان يعلفها ورق السمر[3]، وهذا ثابت في رواية أخرجها البخاري في صحيحه بلفظ: فَحَبَسَ أبو بَكْرٍ نَفْسَهُ على رسول اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ»[4]، واشترط رسول الله ﷺ في أخذها بالثمن، كما في رواية البخاري بلفظ: قال أَبو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أنت يا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قال رسول اللَّهِ ﷺ: بِالثَّمَنِ»[5]، وقيل: إن الحكمة من ذلك؛ لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله تقربا إلى الله[6].

المطلب الرابع: التخطيط للمخبأ.

المخبأ الذي اختبأ فيه رسول اللهﷺ هو: غار ثور، وقد تم اختياره بدراسة من النبيﷺ، من قبل الاختباء فيه، بدليل أنهما واعدا دليلهما ابن أريقط بعد ثلاث ليال عند غار ثور، ويؤيد هذا رواية أخرجها البخاري بلفظ: وَاسْتَأْجَرَ رسول اللَّهِ

١- ينظر المصدر السابق.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإجارة بَاب اسْتِئْجَارِ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ أو إذا لم يُوجَدْ أَهْلُ الْإِسْلَام وَعَامَلَ النبي ﷺيَهُودَ خَيْبَرَ (٢/ ٧٩٠) ح (٢١٤٤).

٣- ووَرَق السَّمُر: بفتح المهملة وضم الميم، هو الخبط بفتح المعجمة والموحدة، أي: ما يخبط بالعصا فيسقط من ورق الشَجر، وقيل: كل ماله ظل ثخين، ينظر المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٨/ ٢٠٩)فتح الباري لابن حجر(٧/ ٢٣٥).

٤- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الكفالة بَاب جِوَارِ أبي بَكْرٍ في عَهْدِ النبي ﷺوَعَقْدِهِ(٢/ ٨٠٣) ح (٢١٧٥).

٥- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة باب هجرة النبي ﷺ(٣/ ١٤١٩) ح (٣٦٩٢).

٦- ينظر الروض الأنف للسهيلي (٢/ ٢٣٠).

ﷺ وأبو بَكْرٍ رَجُلًا من بَنِي الدِّيل هَادِيًا خرِّيتًا، وهو على دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ فَدَفَعَا إليه رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ فأتاهما بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ»[1].

فالتخطيط للاختباء جاء من جهات عدة:

١- أن الغار يقع على الطريق الجنوبي من مكة[2]، وعلى جبل شامخ وعر، صعب المرتقى، فالاختباء فيه زيادة في التعمية والتمويه.

٢- تقدير الفترة الزمنية المخطط للاختباء بها، وهي: ثلاثة أيام، ليخف عنهما حدة الطلب.

٣- مواعدة عامر بن فهيرة، والدليل عبد الله بن أريقط مع الراحلتين عند غار ثور بعد انقضاء ثلاث ليال[3].

المطلب الخامس: التخطيط للدليل الذي سيدلهم على طريق الهجرة.

خطط رسولﷺ للدليل الذي سيرشدهم على الطريق، واهتم أن تكون فيه أعلى مواصفات الخبرة والمهارة بالطرق، لاسيما مع سلوكهم طريقا غير معهودة، بل لا تسلك إلا نادرا، ومع خطورة وسرية الهجرة، ويؤيد ذلك رواية البخاري بلفظ: وَاسْتَأْجَرَ رسول الله ﷺ وأبو بَكْرٍ رَجُلًا من بَنِي الدِّيلِ، وهو: من بَنِي عبد بن عَدِيٍّ، هَادِيًا خرِّيتًا - وَالْخِرِّيتُ: الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ - قد غَمَسَ حِلْفًا في آلِ الْعَاصِ بن وَائِلٍ السَّهْمِيِّ وهو على دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إليه رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، فأتاهما بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإجارة بَاب إذا اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا لِيَعْمَلَ له بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أو بَعْدَ شَهْرٍ أو بَعْدَ سَنَةٍ جَازَ وَهُمَا على شَرْطِهِمَا الذي اشْتَرَطَاهُ إذا جاء الْأَجَلُ (٢/ ٧٩٠) ح (٢١٤٥)"

٢- ينظر الأنس الجليل للسهيلي (١/ ١٨٩).

٣- ينظر الروض الأنف للسهيلي(٢/ ٣١٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٨٤)، زاد المعاد لابن القيم (١/ ١٠١) ٢٣١).

بن فُهَيْرَةَ، وَالدَّلِيلُ فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ»[1]، والرواية تظهر فضل أبي بكر الصديق في استئجار الدليل.

المطلب السادس: التخطيط لآلية رصد الأخبار من مكة.

أرسى النبي ﷺ مبدأ وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، فكان النبي ﷺ عند توزيعه المهام ينظر إلى مهارات المرء وقدراته ليكون أقدر على أداء عمله المناط به، ولكي ينهض بتبعات العمل على أكمل وجه، وهذا ينطبق على اختيار النبي ﷺ للأشخاص في مهمة رصد الأخبار في مكة، حيث أوكل عبد الله بن أبي بكر الصديق في مهمة سماع الأخبار من مكة، وتبليغها له في غار ثور، الذي كان من أبرز صفاته: (شاب لقن ثقف)، وقد قال ابن حجر: (ثقف - بفتح المثلثة وكسر القاف، ويجوز إسكانها وفتحها وبعدها فاء -: الحاذق، لقن - بفتح اللام وكسر القاف بعدها نون - اللقن: السريع الفهم)[2]. وهذا ظاهر في حديث أخرجه البخاري بلفظ: «ثُمَّ لَحِقَ رسول الله ﷺوأبو بَكْر بغَار في جَبَل ثَوْر، فَكَمَنَا فيه ثَلَاثَ لَيَال يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عبدالله بن أبي بَكْر، وهو غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ من عِنْدِهِمَا بِسَحَر فَيُصْبِحُ مع قُرَيْش بمَكَّةَ كَبَائِت، فلا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ به إلا وَعَاهُ، حتى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذلك حين يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ»[3].

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإجارة، بَاب إذا اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا لِيَعْمَلَ له بَعْدَ ثَلَاثَة أَيَّام أو بَعْدَ شَهْر أو بَعْدَ سَنَة جَازَ وَهُمَا على شَرْطِهِمَا الذي اشْتَرَطَاهُ إذا جاء الْأَجَلُ (٢ / ٧٩٠) ح (٢١٤٥)، وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٦ / ١٩):
"وَالحديث فيه دَلِيلٌ على جَوَاز اسْتِئْجَار الْمُسْلم لِلْكَافر على هِدَايَة الطَّرِيق إذَا أَمِنَ إلَيْه، وقد ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ هذا الحَدِيث في كِتَاب الإجَارَة وَتَرْجَمَ عليه بَابُ اسْتِئْجَار الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وإذا لم يُوجَدْ أَهْلُ الْإِسْلام، فَكَأَنَّهُ أَرَادَ الْجَمْعَ بين هَذا وَبَيْنَ قَوْلِهِﷺ: "فَلَنَ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِك". أَخْرَجَهُ مُسْلم في صحيحه في كتَاب الجهاد و السير، بَاب كَرَاهَة الاستعانة فِي الْغَزْو بكافر (٣/ ١٤٤٩) ح (١٨١٧).

٢- ينظر فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢٣٧)، وقال ابن الأثير: ثقف لقن: أي حاذق فهم ذو فطنة وذكاء، والمراد: أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، وقال ابن السكيت: رجل ثقف إذا كان ضابطا لما يحويه قائما به، ويقال: ثقف الشيء: سرعة التعلم. ينظر: النهاية في غريب الأثر، لابن الأثير: (١ / ٢١٦)، ولسان العرب لابن منظور (ثقف) (٩ / ١٩).

٣- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه (٣ / ١٤١٩) ح (٣٦٩٢).

المطلب السابع: التخطيط لآلية التمويه والكتمان.

علَّم النبي ﷺ أمته منهجية وضع الآليات لتحقيق الأهداف المنشودة من خلال حادثة الهجرة النبوية، فكان الحدث يستدعي منه الأخذ بمبدأ الكتمان والتمويه، فنجده ﷺ يضع الآليات المقننة لتفعيل هذا المبدأ، ويظهر فيما يأتي:

١- **اختيار زمان مناسب**: خطط النبي ﷺ لزمن خروجه من بيته، ومجيئه لأبي بكر الصديق في وقت غير معهود، والمعهود منه ﷺ أنه كان يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة[١]، وقد صرحت بذلك عائشة قالت: فَبَيْنَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ في بَيْتِنَا في نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فقال قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هذا رسول اللَّهِ ﷺ مُقْبِلًا مُتَقَنِّعًا في سَاعَةٍ لم يَكُنْ يَأْتِينَا فيها، قال أبو بَكْرٍ: فِدًا له بِأَبِي وَأُمِّي، والله إنْ جاء بِهِ في هذه السَّاعَةِ لِأَمْرٍ»[٢].

٢- **المجيء إلى يبت أبي بكر الصديق متقنعا**: خرج رسول الله ﷺ من بيته إلى بيت أبي بكر متقنعا، وقد أخرج البخاري في كتاب اللباس باب التقنع حديثا بلفظ: فقال قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هذا رسول اللَّهِ ﷺ مُقْبِلًا مُتَقَنِّعًا في سَاعَةٍ لم يَكُنْ يَأْتِينَا فيها[٣]». والتقنع هو: تغطية الرأس وأكثر الوجه برداء أو غيره[٤].

٣- **استخدام أسلوب المعاريض والتورية**[٥]: للحديث الذي أخرجه البخاري بسنده المتصل عن أَنَسِ بن مَالِكٍ قال: أَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إلى الْمَدِينَةِ وهو مُرْدِفٌ

١- ينظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠)، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله لسليمان الكلاعي (١ / ٣٣٧).

٢- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب اللباس باب التقنع (٥/ ٢١٨٧) ح (٥٤٧٠).

٣- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب اللباس باب التقنع (٥/ ٢١٨٧) ح (٥٤٧٠).

٤- ينظر فتح الباري لابن حجر (١٠ / ٢٧٤)، وقال ابن حجر: "ويؤخذ من التقنع بأنه ﷺ لم يتقنع إلا لحاجة". وقال العيني في عمدة القاري (٢١ / ٣٠٨): "والتقنع للرجل عند الحاجة مباح".

٥- المعاريض: خلاف التصريح، وهي التورية بالشيء عن الشيء، وهو: كلام له وجهان يطلق أحدهما والمراد لازمه. ينظر: لسان العرب لابن منظور: (٧/ ١٨٣)، وفتح الباري لابن حجر: (١٠ / ٥٩٤).

أَبَا بَكْرٍ، وأبو بكر شَيْخٌ يُعْرَفُ وَنَبِيُّ الله ﷺ شَابٌّ لَا يُعْرَفُ، قال: فَيَلْقَى الرَّجُلُ أَبَا بَكْرٍ، فيقول: يا أَبَا بَكْرٍ من هذا الرَّجُلُ الذي بين يَدَيْكَ، فيقول: هذا الرَّجُلُ يَهْدِينِي السَّبِيلَ»، قال أَنس بن مالك معلقا: «فَيَحْسِبُ الْحَاسِبُ أَنَّهُ إنما يَعْنِي الطَّرِيقَ، وَإِنَّمَا يَعْنِي سَبِيلَ الْخَيْرِ»[1].

٤- **الخروج من باب صغير خلفي في ظهر بيت أبي بكر:** كان خروج النبي ﷺ وأبي بكر الصديق من خوخة[2] صغيرة، وهي: باب خلفي صغير في ظهر بيت أبي بكر[3]، وقد ذكر ابن حجر أنهما خرجا من خوخة في ظهر بيت أبي بكر[4]، وقال: «الخوخة هي: باب صغير قد يكون بمصراع وقد لا يكون وإنما أصلها فتح في حائط»[5]، وقال صاحب تحفة الأحوذي: «والخوخة طاقة في الجدار تفتح لأجل الضوء، ولا يشترط علوها، وحيث تكون سفلى يمكن الاستطراق منها لاستقراب الوصول إلى مكان مطلوب، وقيل: لا يطلق عليها باب إلا إذا كانت تغلق»[6].

٥- **طلب النبي ﷺ من أبي بكر إخراج من كان متواجدا في بيته** رضي الله عنه آنذاك، لما دخل النبي ﷺ لبيت أبي بكر الصديق يبلغه بخبر الإذن بالهجرة والصحبة، طلب منه طلبا يرسخ مبدأ الكتمان والسرية في الأمور، وهو: أن يخرج من كان في بيته من ضيوف أو غيره، وهذا يؤيده رواية أخرجها البخاري في صحيحه بسنده المتصل عن عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ لِأَبِي

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه (٣/ ١٤٢٣) ح (٣٦٩٩).
٢- الخوخة: باب صغير النافذة الكبيرة وتكون بين بيتين ينصب عليها باب. ينظر: النهاية في غريب الأثر لابن الأثير (٢/ ٨٦).
٣- ينظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٢) تاريخ الطبري (١/ ٥٦٩) زاد المعاد لابن القيم (٣/ ٥١) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٧٨) عمدة القاري (١٧/ ٤٦).
٤- ينظر فتح الباري لابن حجر: (٧/ ٢٣٦)، نقلا عن الواقدي.
٥- ينظر فتح الباري لابن حجر: (١/ ٥٥٨).
٦- ينظر تحفة الأحوذي للمباركفوري: (١٠/ ١٠١).

بَكْرٍ: أَخْرِجْ من عِنْدَكَ»[1].

٦- **خروجهم من الغار في وقت الظهيرة** عند خلو الطريق من المارة: كان اختيار النبي ﷺ لوقت الظهيرة توقيتا للخروج من الغار، أبرز دقة تخطيطه ﷺ وحسن اختياره؛ فهو الوقت الذي يخلو الطريق فيه من المارة فيكون أقرب للتعمية، وهذا ثابت في حديث أخرجه البخاري بسنده المتصل عن أبي بكر قال: أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة[2]، وخلا الطريق لا يمر فيه أحد»[3].

المطلب الثامن: التخطيط لفريق الخدمة، مع تحديد المهام لكل منهم.

انتقى رسول اللهﷺ فريق الخدمة، وراعى أن تكون مهامهم في حدود قدراتهم، ووفق مهاراتهم؛ ليكونوا أقدر على أداء أعمالهم الموكلة إليهم على أكمل وجه. ومن أبرز الأسماء في هذا الفريق: أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها، وكانت مهامها كالتالي:

١- **مهمة التموين وتوفير الطعام للنبي ﷺ** وأبي بكر، منذ لحظة الانطلاق عندما كانا في بيت أبي بكر الصديق، حتى وقت المكوث في غار ثور وسط جنون المشركين في البحث عن النبي ﷺ ليقتلوه، ويؤيد هذه المهمة في وقت الانطلاق ما أثبتته أسماء رضي الله عنها في رواية أخرجها لها البخاري إذ قالت: صَنَعْتُ سُفْرَةَ رسول اللَّه ﷺ في بَيْت أبي بَكْر حين أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إلى الْمَدِينَة، فلم نَجِدْ لسُفْرَته ولا لسقَائه ما نَرْبطُهُمَا به، فقلت لأبي بَكْر: والله ما أَجِدُ شيئا أَرْبطُ به إلا نطَاقي، قال: فَشُقِّيه باثْنَيْن، فَارْبطيه بوَاحد السِّقَاءَ،

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة باب هجرة النبي ﷺوأصحابه (٣/ ١٤١٩) ح(٣٦٩٢).

٢- قائم الظهيرة: نصف النهار وسمي (قائما) ؛ لأن الظل لا يظهر حينئذ ينظر فتح الباري لابن حجر: (٦/ ٦٢٣).

٣- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب باب علامات النبوة (٣/ ١٣٢٣) ح(٣٤١٩).

وَبِالْآخَرِ السُّفْرَةَ، فَفَعَلْتُ، لِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النطاقين»[1]. بل لازالت تلك مهمتها حتى وهما في الغار، وقال ابن إسحاق: «ثم إذا أمسى في الغار، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما»[2].

٢- **مهمة إخفاء سر رسول الله ﷺ** وأبي يكر الصديق عن الأعداء، والصمود في وجه أشد أعداء الإسلام؛ إذ لما: خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الهجرة أتاهم نفر من قريش فيهم: أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟ قالت: لا أدري والله أين أبي، ثم رفع أبو جهل يده، وكان فاحشا خبيثا، فلطم خدي لطمة طرح منها قرطها، ثم انصرفوا، قالت: ومكثنا ثلاث ليال لا ندري أين توجه رسول الله ﷺ»[3].

٣- **مهمة تسكين قلب جدها** - أبي قحافة - وبث الطمأنينة في قلبه: وهذه المهمة أظهرتها رواية بلفظ:فَلَمَّا خَرَجَ رسول اللَّه ﷺ، وَخَرَجُ معه أبو بَكْرٍ احْتَمَلَ أبو بَكْرٍ مَالَهُ كُلَّهُ معه خَمْسَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ أو سِتَّةَ آلَافِ دِرْهَمٍ، قالت أسماء رضي الله عنها: وَانْطَلَقَ بها معه، قالت: فَدَخَلَ عَلَيْنَا جدي أبو قُحَافَةَ، وقد ذَهَبَ بَصَرُهُ، فقال: والله إني لأَرَاهُ قد فَجَعَكُمْ بِمَالِه مع نَفْسه، قالت: قلت كَلاَّ يا أَبَت إنه قد تَرَكَ لنا خَيْراً كَثيراً، قالت: فَأَخَذْتُ أَحْجَاراً فتركها فَوَضَعْتُهَا في كُوَّةٍ[4] لبيت كان أَبِي يَضَعُ فيها مَالَهُ، ثُمَّ وَضَعْتُ عليها ثَوْباً، ثُمَّ أَخَذْتُ بيده، فقلت: يا أَبَتِ ضَعْ يَدَكَ على هذا الْمَالِ، قالت: فَوَضَعَ يَدَهُ عليه، فقال:

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد والسير بَاب حَمْلِ الزَّادِ في الْغَزْوِ (٣/ ١٠٨٧) ح (٢٨١٧).

٢- ينظر السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ١٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله للكلاعي (١ / ٣٣٨).

٣- ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٣ / ١٤) بإسناد منقطع ،وكذا الطبري في تاريخه بإسناد منقطع (١ / ٥٧٠).

٤- هي الخوخة في البيت تؤدي إليه الضوء ينظر المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى، ولأحمد الزيات، وحامد عبد القادر ومحمد النجار (١ / ٢٦١).

لَا بَأْسَ إن كان قد تَرَكَ لَكُمْ هذا فَقَدْ أَحْسَنَ، وفي هذا لَكُمْ بَلَاغٌ قالت: لا والله ما تَرَكَ لنا شَيْئاً، ولكني قد أَرَدْتُ أن أُسْكِنَ الشَّيْخَ بِذَلِكَ»[1].

ومن فريق العمل أيضا عامر بن فهيرة، ومن مهماته:

١- **سقي النبي ﷺ وأبي بكر الصديق من اللبن**: ويؤيده رواية البخاري بلفظ: «يَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بن فُهَيْرَةَ مولى أبي بَكْرٍ مِنْحَةً[2] من غَنَم، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حين تَذْهَبُ سَاعَةٌ من الْعِشَاء، فَيَبِيتَان في رِسْلٍ، وهو لَبَنٌ مِنْحَتِهِمَا، وَرَضِيفِهِمَا[3] حتى يَنْعِقَ[4] بها عَامِرُ بن فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ[5]، يَفْعَلُ ذلك في كل لَيْلَةٍ من تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ»[6].

٢- **إعفاء آثار أقدام النبيﷺ وأبي بكر الصديق**، وأقدام أسماء عندما كانت تأتيهم بالطعام وأقدام عبد الله المكلف برصد الأخبار وكشف تحركات العدو.
قال ابن إسحاق: «وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر، فاحتلبا وذبحا، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة اتبع عامر ابن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفي عليه»[7].

١- أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٦/ ٣٥٠)ح(٢٧٠٠٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٥٩): رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحق وقد صرح بالسماع.
٢- المنحة: أي منحة من غنم فيها لبن بعد أن يريح الغنم يحلب منها ينظر النهاية في غريب الأثر (٤/ ٣٦٤) مشارق الأنوار للقاضي عياض (١/ ٣٨٤) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢٧٤).
٣- رضيفهما ــ بفتح الراء وكسر المعجمة بوزن رغيف ــ أي: اللبن المرضوف أي التي وضعت فيه الحجارة المحماة بالشمس أو النار لينعقد وتزول رخاوته ينظر المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (٨/ ١٨٢) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢٣٧).
٤- النعيق: صوت الراعي إذا زجر الغنم. ينظر: تاج العروس للزبيدي (٢٦/ ٤٢٨) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٢٣٧).
٥- الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح. ينظر: النهاية في غريب الأثر لابن الأثير (٤/ ٣٧٧).
٦- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه (٣/ ١٤١٩).
٧- ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٣/ ١٢) بدون إسناد.

٣- مواعدة النبي ﷺ بعد مكوثهم في غار ثور ثلاثة أيام والانطلاق بهم، مع الدليل عبد الله بن أريقط إلى طريق الساحل المخطط له، ويؤيده رواية البخاري بلفظ: ووعداه غَارَ ثَوْر بَعْدَ ثَلَاث لَيَال فَأَتَاهُمَا بِرَاحِلَتَيْهِمَا صَبِيحَةَ لَيَال ثَلَاث فَارْتَحَلَا، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بن فُهَيْرَةَ، وَالدَّلِيلُ الدِّيلِيُّ فَأَخَذَ بِهِمْ أَسْفَلَ مَكَّةَ وهو طَرِيقُ السَّاحِلِ»[١]. ومن فريق العمل أيضا: عبد الله بن أبي بكر الصديق[٢].

بعد تخطيط النبي ﷺ لكل هذه الأمور وأخذه بالأسباب، لم يغفل النبي ﷺ عن عبادة التوكل على الله حتى في المواقف التي هي مظنة الهلاك، كوجوده في غار ثور مختبئا شريدا طريدا، بل وسكن روع أبا بكر الصديق لما قال له: لو أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا، بقوله: «ما ظَنُّكَ يا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا»[٣]. وهذا الموقف يعد آية من آيات الله، اثنان أعزلان يتحديان قريشاً بكاملها بعدها وعددها، فيخرجان تحت ظلال السيوف، ويدخلان الغار، ويأتي الطلب على فم الغار بسيوف مصلتة وآذان مرهفة، ويرد رسول الله ﷺ على أبي بكر وهو في غاية الطمأنينة ومنتهى السكينة والنظرة الإيجابية للأمور حتى وهو في أهلك الأمور[٤].

المبحث الثالث: التخطيط المستقبلي ووضع التدابير بعد حادثة الهجرة لبناء الدولة الإسلامية

المطلب الأول: التخطيط السياسي.

١- تسمية الدولة الإسلامية: كانت التسمية جزءا من تخطيطه ﷺ، فإن ميلاد المدينة الإسلامية بدأ بإعطائها صفة المدينة الحضارية، فقد سمى النبي ﷺ

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإجارة بَاب اسْتِئْجَار الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ أو إذا لم يُوجَدْ أَهْلُ الْإِسْلَام وَعَامَلَ النبي ﷺ يَهُودَ خَيْبَرَ (٢/ ٧٩٠) ح (٢١٤٤).

٢- قد تقدم الوقوف على عمله في رصد الأخبار من مكة.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب المهاجرين (٣/ ١٣٣٧) ح (٣٤٥٣).

٤- ينظر أضواء البيان للشنقيطي (٨/ ١٩).

يثرب بـ (المدينة)، وهو اسم يليق بمكانتها وأهميتها، بعد أن كان اسمها يثرب نسبة إلى أول من سكنها من العرب[1]، وقال ابن حجر: «من معاني التثريب: التوبيخ والملامة، أو من الثرب، وهو: الفساد وكلاهما مستقبح؛ لذا غير النبي ﷺ يثرب إلى المدينة»[2]. وقال النبي ﷺ عنها قبل الهجرة إليها: «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى يَقُولُونَ: يَثْرِبُ وَهِيَ الْمَدِينَةُ تَنْفِي النَّاسَ كما يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»[3]، وقال النووي شارحا: «أمرت بالهجرة إليها واستيطانها»[4].

٢- **بيان حدود الدولة الإسلامية ومركزها:** أصدر النبي ﷺ بيانا يظهر فيه حدود المدينة الإسلامية من جهاتها الأربع[5]، فقد أخرج البخاري حديثا بلفظ: «حُرِّمَ ما بين لَابَتَيْ[6] الْمَدِينَةِ على لِسَانِي»[7]، وآخر بلفظ: «المدينة حرم مابين عير إلى ثور»[8]. وكذلك حدد مركزَ القيادة ببناء المسجد في موقع وسط من المدينة، ومن ثم يسهل ارتياده من جميع أطراف المدينة، فكان مقرا لعقد الاستشارات، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون والانطلاقات، ومنتدى تآلف وتعارف، وجامعة علمية يتلقى المسلمون فيها العلوم الشرعية[9].

٣- **تحديد الحقوق والواجبات** لجميع شرائح المجتمع من خلال وثيقة المدينة. لما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة، كتب وثيقة عرفت في المصادر القديمة باسم

١- ينظر معجم البلدان للحموي (٥/ ٤٣٠).
٢- ينظر فتح الباري لابن حجر (٤/ ٨٧).
٣- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل المدينة بَاب فَضْلِ الْمَدِينَةِ وَأَنَّهَا تَنْفِي النَّاس (٢/ ٦٦٢) ح (١٧٧٢).
٤- ينظر شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ١٥٤).
٥- ينظر أثر التخطيط النبوي في بناء المجتمع المدني للسامرائي (ص/ ٤٩).
٦- قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٤/ ٢٧٤): اللابة: الحرة وهي الأرض ذات الحجارة السود التي قد ألبستها لكثرتها وجمعها: لابات.
٧- أخرجه البخاري في صحيحه في أبواب فَضَائِلِ الْمَدِينَةِ بَاب حَرَمِ الْمَدِينَةِ (٢/ ٦٦١) ح (١٧٧٠).
٨- عير وثور: جبلين بالمدينة. ينظر: النهاية في غريب الأثر لابن الأثير (٣/ ٣٢٨). والحديث أخرجه: البخاري في صحيحه في كتاب الفرائض بَاب إِثْمِ من تَبَرَّأَ من مَوَالِيهِ (٦/ ٢٤٨٢) ح (٦٣٧٤).
٩- ينظر الرحيق المختوم للمباركفوري (ص/ ١٦٧) بتصرف.

(الكتاب) أو(الصحيفة)، وأسماها الكتاب المحدثون بـ (الدستور) أو (الوثيقة)، ففيها أسس تنظيم الدولة الإسلامية[1]، من الناحية التشريعية، و تعرضت بنود هذه الوثيقة لكافة شرائح المجتمع من سكان المدينة مسلمين ويهود ومشركين، موضحا حقوقهم وواجباتهم، ولم تعرف دولة قط قبلها قامت منذ أول عهدها على أساس دستور مكتوب غير دولة المدينة، فلم يكد ينتهي العام الأول من الهجرة حتى تحدد شكل الدولة الإسلامية بهذه الصحيفة[2]. وقد رفع النبيﷺ مبدأ التعايش السلمي والانفتاح على الآخرين من رعايا الدولة الإسلامية، ومبدأ التضامن الاجتماعي بين سكان المدينة والدفاع عنها في وجه أي عدوان، ومشاركة الجميع في حفظ الأمن، وبهذا يتحقق السلام في ربوع المدينة[3]. ومن الأحاديث المظهرة لبعض البنود حديث أخرجه النسائي في سننه بسنده المتصل عن عَلِيٍّ قال: «ما عَهِدَ إِلَيَّ رسول الله ﷺ بِشَيْءٍ دُونَ الناس إلا في صَحِيفَةٍ فِي قِرَابِ[4] سَيْفِي، فلم يَزَالُوا به حتى أَخْرَجَ الصَّحِيفَةَ فإذا فيها: الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ على من سِوَاهُمْ لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، ولا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ»[5].

المطلب الثاني: التخطيط الاقتصادي.

من أهداف النبي ﷺ التي سعى إلى تحقيقها تكوين اقتصاد مستقل للمجتمع الإسلامي في المدينة، وذلك من خلال عدة أمور:

١- ينظر فقه السيرة لزيد الزيد (ص ٣٤٤).
٢- ينظر أثر التخطيط النبوي في بناء المجتمع المدني للسامرائي (ص/ ١٧٨).
٣- المصدر السابق (ص/ ١٨٩).
٤- قراب السيف: جفْنُهُ وهو وِعَاءٌ يكون فيه السَّيْف بغِمْده وحمَالَته. ينظر: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم للحميدي(١/ ١٢٨)، تاج العروس للزبيدي (٤/ ٩).
٥- أخرجه النسائي (المجتبى) في سننه في كتاب القسامة باب سُقُوطُ الْقَوَدِ من الْمُسْلِم لِلْكَافِرِ (٨/ ٢٤) ح(٤٧٤٥) وقال المقدسي في المحرر في الحديث (١/ ٦٠٠): ورجاله رجال الصحيحين.

١- **توفير فرص العمل للمهاجرين**: وكان هذا عندما عرض الأنصار على النبيﷺ بساتينهم، وقالوا:اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ النَّخْلَ، قال: لَا، قال: تكفوننا الْمؤُونَةَ وتشركوننا في التَّمْرِ، قالوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»[1]. فأراد النبيﷺ أن تبقى بساتين الأنصار لهم، ويقومون هم بإدارتها، ويشاركهم المهاجرون في العمل من سقي وغيره، مقابل إشراكهم في الثمر[2].

٢- **تأمين مأوى لمن لا مأوى له**: اهتم النبيﷺ بتوفير مَأْوًى يأوي إليه من لا مأوى له من المهاجرين والمغتربين من أهل الصفة، ويؤكد هذا رواية أبي هريرة بلفظ: كان أَهْلُ الصُّفَّة أَضْيَافُ أَهْلِ الْإِسْلَام لَا يَأْوُونَ على أَهْلٍ ولا مَال، والله الذي لَا إِلَهَ إلا هو إِنْ كنت لَأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي على الأرض من الْجُوعِ، وَأَشُدُّ الْحَجَرَ على بَطْنِي من الْجُوعِ، وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا على طَرِيقِهِمْ الذي يَخْرُجُونَ فيه، فَمَرَّ بي أبو بَكْرٍ، فَسَأَلْتُهُ عن آيَةٍ من كِتَابِ الله ما أَسْأَلُهُ إلا لِيُشْبِعَنِي فَمَرَّ ولم يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بي عُمَرُ فَسَأَلْتُهُ عن آيَةٍ من كِتَابِ الله ما أَسْأَلُهُ إلا لِيُشْبِعَنِي فَمَرَّ ولم يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ أبو الْقَاسِمِ ﷺ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآنِي، وقال: أَبَا هُرَيْرَةَ، قلت: لَبَّيْكَ يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: الْحَقْ وَمَضَى فَاتَّبَعْتُهُ وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَاسْتَأْذَنْتُ فَأَذِنَ لي، فَوَجَدَ قَدَحًا من لَبَنٍ، فقال: من أَيْنَ هذا اللَّبَنُ لَكُمْ؟ قِيلَ: أَهْدَاهُ لنا فُلَانٌ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: أَبَا هُرَيْرَةَ، قلت: لَبَّيْكَ، فقال: الْحَقْ إلى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُمْ، وَهُمْ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ لَا يَأْوُونَ على أَهْلٍ ومال، إذا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بها إِلَيْهِمْ ولم يَتَنَاوَلْ منها شيئا، وإذا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ فَأَصَابَ منها وَأَشْرَكَهُمْ فيها»[3]. قال ابن حجر: «الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل، أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل، وكانوا يكثرون فيه

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة بَاب إِخَاءِ النبي ﷺبين الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ (٣/ ١٣٧٨) ح (٣٥٧١).

٢- ينظر أثر التخطيط النبوي في بناء المجتمع المدني للسامرائي (ص/ ١٦٤).

٣- أخرجه الترمذي في سننه في كتاب صفة القيامة تحت باب (مجردا من الترجمة) (٤/ ٦٤٨) ح (٢٤٧٧)، وقال أبو عِيسَى هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

ويقلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر»[1].

٣- **مواساة الأنصار للمهاجرين ماليا:** كان من ثمرات اهتمام النبي ﷺ بالمؤاخاة، مواساة الأنصار للمهاجرين ماليا، ويؤيد هذا رواية عبد الرحمن ابن عَوْفٍ الذي قال:لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رسول الله ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْد بن الرَّبِيعِ ، فقال سَعْدُ ابن الرَّبِيعِ : إني أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا ، فَأَقْسِمُ لك نِصْفَ مَالي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لك عنها فإذا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، قال: فقَالَ عبد الرحمن: لَا حَاجَةَ لي في ذلك هل من سُوقٍ فيه تِجَارَةٌ؟ قال: سُوقُ قَيْنُقَاعٍ »[2]. وتظهر في الرواية آثار تربية النبي ﷺ على عزة النفس وحرصهم على العمل والكد بأنفسهم، وعدم الاعتماد على الآخرين.

المطلب الثالث: التخطيط الإداري.

كان رسول الله ﷺ شخصية إدارية فذة قادرة على إدارة البشر بشتى طباعهم، وقادرا على إدارة الأزمات بأقوى مراحلها، وإدارة الحياة بأصعب ابتلاءاتها، وبرز هذا من خلال كتابة النبي ﷺ للكتاب، أو الصحيفة التي توضح التزامات جميع سكان المدينة من يهود أو مهاجرين أو أنصار، قال ابن إسحاق: «وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود، وعاهدهم وأقرهم على دينهم، وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم»[3].

ومن أهم الأنظمة الإدارية فيها:

١- **تحديد المرجعية في الجهاز الإداري للدولة الإسلامية في المدينة:** وذلك

١- ينظر فتح الباري لابن حجر (٦/ ٥٩٥).

٢- سوق قينقاع: قينقاع بطن من يهود المدينة أضيف السوق إليهم وهو: بفتح القاف وضم النون وقد يكسر ويفتح، ينظر ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى للطبري (١/ ١٢٢). والحديث أخرجه: البخاري في صحيحه في كِتَاب الْبُيُوعِ ، بَاب ما جاء في قَوْلِ اللهِ تَعَالَى:) فإذا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا في الأرض(، (٢/ ٧٢٢) ح(١٩٤٣).

٣- ينظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣١).

بالرجوع إلى الله ورسوله عند الخلاف، ويظهر فيما روي عنه ﷺ قوله: «وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فمرده إلى الله وإلى محمد ﷺ»[1].
والمغزى من ذلك تأكيد سلطة عليا دينية، تهيمن على المدينة، وتفصل الخلاف منعا لقيام اضطرابات من تعدد السلطات من جهة، ومن جهة أخرى تأكيد على رئاسة الرسول ﷺ على الدولة الإسلامية[2].

٢- **تحديد مفهوم الأمة الإسلامية** من مهاجرين وأنصار ومن تبعهم أو لحق بهم وجاهد معهم، أمة واحدة، فنقلهم رسول الله ﷺ من مفهوم القبلية والعصبية إلى شعار الأمة التي تضم كل من اعتنق الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[3]، وذكر رسول الله ﷺ أن: «المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس»[4].

المطلب الرابع: التخطيط التعليمي.

برز اهتمام النبي ﷺ بهذا النوع من التخطيط من أول مقدمه ﷺ إلى المدينة، والذي برز من خلال بنائه للمسجد النبوي كمركز تعليمي، فقد كان أول عمل قام به رسول الله ﷺ فور وصوله إلى المدينة، بل وقبل أن يبني لنفسه مسكنا؛ لتظهر شعائر الإسلام التي طالما حوربت[5]، وهاهو يدخل المدينة راكبا راحلته، فما يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا حطام راحلته قائلين: «هلم إلى العدد والعدة والمنعة، فكان يقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة»، فلم تزل سائرة به حتى

١- ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٣/ ٣٤) بدون إسناد.
٢- ينظر السيرة النبوية لعلي الصلابي (١/ ٣٥٩).
٣- سورة الأنبياء آية رقم (٩٢)، سورة مكية.
٤- أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٨/ ١٠٦) ح (١٦١٤٧) وفي إسناده أحمد بن عبد الجبار، الذي قال فيه ابن حجر في تقريب التهذيب (١/ ٨١): ضعيف وسماعه للسيرة صحيح، وذكر هذا الحديث ابن هشام في السيرة النبوية (٣/ ٣٢) بدون إسناد.
٥- ينظر فقه السيرة للغزالي (ص/ ١٣٦)، فقه السيرة للبوطي (ص/ ١٢٦).

بركت في موضع المسجد النبوي حاليا فقال رسول الله ﷺ مقررا لموقع المسجد: «هذا إن شَاءَ الله الْمَنْزِلُ، ثُمَّ دَعَا رسول اللَّهِ ﷺ الْغُلَامَيْنِ فَسَاوَمَهُمَا»[1]، وهذا يثبت أن اختيار موقع المسجد النبوي كان باختيار من الله، فقد ألهم الله الراحلة أن تبرك في هذا الموقع.

وراعى النبي ﷺ في بناء المسجد النبوي عدة أمور منها:

١– **أنه كان النبي ﷺ أول من شرع في بناء المسجد مع أصحابه،** وأول من ضرب معولاً في حفر الأساس، وشارك أصحابه في عملية البناء كاملة، فكان يحمل الحجارة، وينقل على صدره وكتفيه، وتعلوه غبرة فيقول أسيد بن خضير: يارسول الله أعطنيه؟ فيقول: اذهب واحتمل غيره، فإنك لست بأفقر إلى الله مني، فيزدادوا نشاطا واندفاعا، فيزيدهم حماسا بقوله: لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة»[2].

٢– **اهتم النبي ﷺ بالخبرة والاختصاص،** فقد أوكل خلط الطين لمن يحسنه فقال له: «ألزم أنت هذا الشغل فإني أراك تحسنه»[3].

٣– **إبراز فضل التعلم والتعليم في المسجد النبوي،** للحديث الذي أخرجه الحاكم في مستدركه عن رسول الله ﷺ قال: «من دخل مسجدنا هذا ليتعلم خيرا أو يعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله، ومن دخل لغير ذاك،كان كالناظر

١– أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه. (٣/ ١٤٢١) ح (٣٦٩٤).

٢– أخرجه أحمد في مسنده (٢ / ٣٨١) ح (٨٩٣٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢ / ٩): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

٣– قد ذكر صاحب السيرة الحلبية علي الحلبي (٢ / ٢٧٣) أنه: قد قدم رجل من أهل اليمامة عند الشروع فى بناء المسجد يقال له: طلق من بني حنيفة، وقد قال: قدمت على النبي ﷺ وهو يبني مسجده والمسلمون يعملون معه فيه، وكنت صاحب علاج الطين، فأخذت المسحاة وخلطت بها الطين، فقال لي يعني رسول الله ﷺ: "رحم الله امرأ أحسن صنعته، وقال لي: ألزم أنت هذا الشغل فإني أراك تحسنه"، وفى لفظ: (إن هذا الحنفي لصاحب طين)، وفى لفظ: "قربوا اليماني من الطين، فإنه أحسنكم له مسكا وأشدكم منكبا"، وفى لفظ: "دعوا الحنفي والطين فإنه من أصنعكم للطين".

إلى ما ليس له»[1].

المطلب الخامس: التخطيط النفسي والاجتماعي.

وصف الله عز وجل رسوله ﷺ بقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، ومن أصدق من الله قيلا، وقد برزت رحمته ورأفته بالمؤمنين، وحرصه عليهم من خلال عدة أمور منها:

١- **تلبية الحاجات النفسية والاجتماعية بالمؤاخاة**: ساهم نظام المؤاخاة في ربط المسلمين وتأصيل المودة بين المهاجرين والأنصار، وتمكينها في نفوسهم، فهو نوع من السبق النفسي والاجتماعي للإسلام. فلما قدم النبي ﷺ المدينة اختلفت شرائح المجتمع عن المجتمع المكي، فهناك الأنصار من أهل المدينة في أرضهم وديارهم وأموالهم، سواء من الأوس أو الخزرج، وكان بينهم عداء مستحكم منذ أكثر من مئة وعشرين عاما، وهناك المهاجرون من أهل مكة الذين تركوا أموالهم، وبيوتهم، وأهليهم من أجل الله ورسوله، وليس لهم ملجأ يأوون إليه، ولا عمل يعملونه، ولا مال يكون قواما لعيشهم، فقد تغيرت حياتهم جملة وتفصيلاً، وكان عددهم يزداد يوما بعد يوم، وما كانت المدينة ذات ثروة طائلة فتزعزع ميزانها الاقتصادي، أضف إلى ذلك المقاطعة الاقتصادية التي قامت بها القوات المعادية للإسلام، وحتى لا يشعروا بالغربة آخى النبي ﷺ بينهم على المواساة والتضحية والإيثار والود، في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلا، وهو من أروع ما سجله التاريخ، فكانت حكمة فذة، وسياسة صائبة حكيمة، وحلا رائعا لكثير من المشكلات الاجتماعية

١- أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين في كتاب العلم باب من جاء المسجد لتعلم الخير (١ / ١٦٩) ح (٣١٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين فقد احتجا بجميع رواته ثم لم يخرجاه ولا أعلم له علة، وسكت عنه الذهبي في التلخيص (١ / ١٦٩) ح (٣١٠).

٢- التوبة: ١٢٨.

والاقتصادية التي كان يواجهها المسلمون[١]، بأسهل طريق إذ لم يكونوا قادرين على مهارة الصناعة والزراعة وهما عنصران أساسيان في اقتصاد المدينة[٢]. وكان أهم حقوق المؤاخاة: المواساة بين المتآخين، وهي كلمة مطلقة تعني كل وجه من العون المادي أو المعنوي كالنصيحة والمحبة والتزاور، والمؤانسة من الغربة، ومفارقة الأهل والعشيرة، بل ما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة تنافسا منهم في اكتساب الفضل، فكان لهذا أثرٌ كبيرٌ على المهاجرين، أزال عنهم مشاعر الوحشة، وأذاقهم طعم المودة والمحبة، بل جعل الإسلام بينهم التوارث دون ذوي الأرحام، حتى ترقى العلاقات بينهم إلى مستوى أعلى من أخوة الدم، لفترة إلى أن نسخ هذا الحكم[٣].

وقد سطر التاريخ للأنصار تفاعلهم مع المؤاخاة تفاعلا لم يشهد التاريخ له مثيلا، وأنزلوا إخوانهم منزل القلب من الجسد، وقد وصف الله عز وجل مستوى هذه المحبة والمودة، بقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٤]، ومن أصدق من الله حديثا.

٢- **تلبية الشعور بالانتماء الوطني:** علَّم النبي ﷺ أصحابه حب الوطن، والولاء له، فهاهو لما خرج من مكة مسقط رأسه وموطنه الأول قال: «والله إِنَّك لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إلى اللَّهِ،وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْك ما خَرَجْتُ»[٥]. ولما هاجر النبيﷺ إلى المدينة، وأصبحت لهم دارا وموطنا، ووجد الصحابة قد اشتاقوا إلى مكة دعا لهم: «اللهم حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمدِينَةَ كَحُبِّنَا

١- ينظر: الرحيق المختوم للمباركفوري ص(١٦٧، ١٦١).
٢- ينظر: أثر التخطيط النبوي في بناء المجتمع المدني للسامرائي (ص/ ١٦٠).
٣- ينظر: أثر التخطيط النبوي في بناء المجتمع المدني للسامرائي (ص/ ١٦٢).
٤- الحشر:٩.
٥- أخرجه الترمذي في سننه في كتاب المناقب بَاب في فَضْلِ مَكَّةَ (٥/ ٧٢٢) ح(٣٩٢٥) قال أبو عِيسَى: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ صَحِيحٌ.

مَكَّةَ أو أَشَدَّ، اللهم بَارِكْ لنا في صَاعِنَا وفي مُدِّنَا وَصَحِّحْهَا لنا»[1].

٣- **مراعاة النبي ﷺ لنفسية أصحابه**: من كمال خلق رسول الله ﷺ ورأفته بالمؤمنين مراعاته لنفسياتهم وشعورهم، وظهر ذلك في حسن رده واعتذاره ﷺ من الأنصار الذين دعوه إلى النزول في بيوتهم، بعد دخوله ﷺ المدينة، فرحين مستبشرين، قائلين: «هلم إلى القوة والمنعة» فرد رسول الله ﷺ معتذرا إليهم؛ لكيلا يجرح شعور الداعين، ولا يشعرهم أن غيرهم أفضل منهم، فيما روي عنه قوله: الرجل مع رحله[2]؛ لأن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه قد احتمل رحل النبي ﷺ، فكان حسن رده من كمال خلقه ﷺ [3].

١- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل المدينة باب كراهية النبي أن تعرى المدينة (٢ / ٦٦٧) ح (١٧٩٠).

٢- أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤ / ٣٥) ح (٣٥٤٤) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦ / ٦٣): رواه الطبراني في الأوسط وفيه: صديق بن موسى، قال الذهبي عنه في المغني في الضعفاء (١ / ٣٠٨): ليس بالحجة، وينظر تاريخ الطبري (٢ / ٨) مختصر زاد المعاد لابن القيم (١ / ١٨٩).

٣- ينظر فقه السيرة لزيد الزيد (ص/ ٣٣٣).

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد، فمن خلال دراسة حادثة الهجرة النبوية يمكن استخلاص النتائج التالية:

- تأصيل السنة النبوية للتخطيط المستقبلي، وثراء النصوص النبوية لكل مجالات التخطيط السياسة أو الاقتصادية أو التعليمية أو الإدارية أو النفسية والاجتماعية.

- التخطيط المستقبلي عند النبي ﷺ بلغ أعلى مقاييس الجودة والدقة التفصيلية لكل الأمور صغيرها وكبيرها، الذي كان يختلف باختلاف مراحل حادثة الهجرة، فكل على حسب الأدوات والاحتياجات المختلفة في كل مرحلة.

- حادثة الهجرة كانت الفيصل الذي يفصل بين عهد الضعف وعهد القوة بإقامة دولة إسلامية مستقلة قادرة على بناء نفسها سياسيا و اقتصاديا و تعليميا و إداريا و نفسيا و اجتماعيا.

- اهتمام النبي ﷺ بغرس القيم والمبادئ في نفوس المسلمين،وتربيتهم على العطاء والتضحية والإيثار، وبناء حس المسؤولية لديهم صغارا وكبارا، إناثا وذكورا.

- ترسيخ مبدأ وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، فقد راعى النبي ﷺ في توزيع المهام في حادثة الهجرة أن تتناسب مع قدراتهم ومهاراتهم وسمات شخصياتهم.

- إن الاهتمام بمبدأ الأخذ بالأسباب لا يغني المؤمن عن مبدأ التوكل على الله الذي يعطيه الشعور بالطمأنينة، والسكينة ويجعله صاحب نظرة إيجابية متفائلة حتى وهو في أهلك الأمور، بل تأتيه الكفاية الربانية.

ومن خلال دراسة حادثة الهجرة النبوية ظهرت لي بعض **التوصيات:**

- دراسة بقية مراحل السيرة النبوية وكشف مجالات التخطيط عند النبي ﷺ سواء في العهد المكي في مرحلة الدعوة السرية أو مرحلة الدعوة الجهرية، أو في مرحلة العهد المدني سواء في مرحلة القلاقل والفتن التي بدأت ببداية العهد المدني إلى صلح الحديبية، أو مرحلة الهدنة، ودعوة الملوك إلى الإسلام أو مرحلة توافد القبائل إلى المدينة ودخول الناس في دين الله أفواجا، ففي كل مرحلة خطط النبيﷺ لتحقيق أهداف مختلفة.

- إقامة دورات تدريبية من قبل مؤسسات المجتمع الرسمية وغير الرسمية في تعليم الناس التخطيط المستقبلي، وكيفية إدارة الأزمات و الإفادة من نصوص السنة في ذلك.

- ترجمة هذا البحث إلى اللغة الإنجليزية، ونشره في المجلات العالمية لإثبات أسبقية السنة النبوية في تأصيل علم التخطيط المستقبلي بأعلى مقاييس الجودة.

وأخيرًا أسال الله عز وجل أن يفتح للبحث القبول و يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن يجعله من العلم الذي ينتفع به فيلحقني أجره بعد الممات و انقطاع العمل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المراجع والمصادر

- أثر التخطيط النبوي في بناء المجتمع المدني، محمد صالح جواد السامرائي، دار ابن حزم، بيروت، ط١، عام ١٤٢٣هـ.

- الإدارة في الإسلام، د. أحمد إبراهيم أبو سن، دار الخريجي، الرياض، ط٧، ١٤٢٧هـ.

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ط عام ١٤١٥هـ، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.

- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين علي.

- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين الحنبلي العليمي، مكتبة دنديس، عمان، ١٤٢٠هـ، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة.

- البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف، بيروت.

- البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي المعروف بابن الملقن، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ، تحقيق: مصطفى أبو الغيط و عبد الله بن سليمان.

- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار

الهداية، تحقيق: مجموعة من المحققين.

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري.

- تاريخ الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت.

- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا، دار الكتب العلمية، بيروت.

- الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.

- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ، تحقيق: د. محمود الطحان.

- الحدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي، دار الحاوي، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، تحقيق: محمد غسان نصوح عزقول.

- دلائل النبوة، البيهقي.

- ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري، دار الكتب المصرية، مصر.

- الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، المكتبة العصرية، بيروت، ط عام ١٤٢٨هـ.

- الروض الانف، السهيلي.

- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبوعبدالله، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت ط١٤، ١٤٠٧ هـ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط.

- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

- السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة، بيروت،١٤٠٠هـ.

- السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٣٠ هـ.

- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمد الصلابي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ.

- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد أبو شهبة، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.

- السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري أبو محمد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، دار بن كثير، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط،

محمود الأرناؤوط.

- الصحاح في اللغة والعلوم، هاشم يحي الملاح، دار الحضارة العربية، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.

- صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، دار ابن كثير، بيروت، ط٣، ١٤٠٧ هـ، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا.

- شرح النووي لصحيح مسلم، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢ ، ١٣٩٢هـ.

- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

- صفة الصفوة، عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩ هـ، تحقيق: محمود فاخوري، د.محمد رواس قلعه جي.

- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: محب الدين الخطيب.

- فقه السيرة لزيد بن عبد الكريم الزيد، دار التدمرية، الرياض، ط٤، ١٤٣٠هـ.

- فقه السيرة لمحمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٨م.
- فقه السيرة لمحمد سعيد البوطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.
- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الكامل في التاريخ، أبوالحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ، تحقيق: عبد الله القاضي.
- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبوبكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ، تحقيق: كمال يوسف الحوت.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط١.
- مبادئ إدارة الأعمال لأحمد الشميمري، مكتبة العبيكان، الرياض، ط٢، ٢٠٠٥م.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.
- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، تحقيق: عبد الحميد هنداوي.
- مختصر السيرة، محمد بن عبد الوهاب، مطابع الرياض، الرياض، ط١، تحقيق: عبد العزيز بن زيد الرومي، د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب.

- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.
- المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم، أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الهراني الأصبهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، عام ١٤١٧هـ، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي.
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي المالكي، المكتبة العتيقة ودار التراث.
- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، دار الفكر، بيروت.
- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، مكتبة الزهراء، الموصل، ط٢، ١٤٠٤هـ، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.
- معرفة السنن والآثار عن الإمام أبي عبد الله محمد بن أدريس الشافعي، الحافظ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: سيد كسروي حسن.
- موسوعة القيادة في الإسلام، محمد فتحي، دار أجيال، ط١، ١٤٣٨هـ.
- نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدرارية، الشيخ عبد الحي الكتاني،

دار الكتاب العربي، بيروت.

- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي.

- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الجيل، بيروت ط عام ١٩٧٣م.

المواقع الإلكترونية المستفاد منها:

- موقع منتديات التقوى الإسلامية / مقالة: «التدابير العلمية في الهجرة النبوية»، بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا، تاريخ النشر: ٢٧ آذار (مارس) ٢٠١٠. الرابط:

altqwa.com / showthread.php?t=3481

- موقع نوافذ / مقالة: «الهجرة النبوية والدروس التربوية والدعوية»، بقلم محمد عبد الله السمان، تاريخ النشر: الاثنين ٢٩ ذو الحجة ١٤٢٦هـ، الموافق ٣٠ يناير ٢٠٠٦. الرابط:

net / nawafeth / artshow-43-6780.ht.

- موقع هدي الإسلام / مقالة: «دروس من الهجرة ضرورة التخطيط»، بقلم: أد. عبد الحي الفرماوي، تاريخ النشر: ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ٢٠١٠. / الرابط:

www.hadielislam.com / arabic / index.php?pg...id=3162

التخطيط الصحي في الهدي النبوي

د. رابح دفرور
جامعة أدرار، الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد،

كثيرة هي الأسباب التي تدعونا للبحث في إستراتيجية التخطيط الصحي في الهدي النبوي، ومعرفة جمله الأهداف التي يرمي إليها، وبيان الأسس التي يرتكز عليها لتحقيق الأهداف الصحية المنشودة، والوقوف على المستويات التي تقوم عليها تدابيره الصحية و إجراءاته العملية، ومعرفة مدى فعاليته في النهوض بالمستوى الصحي من كل جوانبه، ومن تلك الأسباب ما يأتي:

أولا: أهمية الصحة في حياة الإنسان، فهي غايته ومطمحه، ولا يمكن تحقيقها إلاّ عبر تخطيط محكم يتنبأ بالمستقبل الصحي تنبؤا صحيحا، ويُعد التدابير اللازمة: التشريعية والتنفيذية والقضائية من أجل رعايتها، ويحدد الأساليب والوسائل الكفيلة بالحفاظ على سلامتها.

ثانيا: القصور الحاصل في المفهوم العام للصحة، بحيث قصرت على البعدين: العضوي والعقلي، وأهملت الأبعاد النفسية والأخلاقية والاجتماعية، فأفرز ذلك القصور فشلا في التخطيط الصحي عالميا، حيث لم يعن بكثير من الأسباب التي تشكل خطرا على صحة الفرد والمجتمع .

ثالثا: الانفصام الواقع بين الحقائق الصحية والممارسات العملية، حيث نجد التقارير العلمية قد أثبتت الأضرار الصحية الناتجة عن الكحول، والتدخين، والعلاقات الجنسية المحرمة، ولكن ذلك لم يتحول إلى إلزام عملي بما تقتضيه

تلك التقارير، مما يستدعي النظر في تفعيل أسس أخرى تضمن التوافق بين الحقائق والممارسات.

رابعا: عدم صيانة إجراءات التخطيط الصحي بتدابير عقابية كفيلة بضمان تنفيذها، وعدم السماح للأفراد بخرقها، مما جعل التخطيط الصحي – عالميا- لا يحقق أهدافه المرجوة على المستويين: الفردي والاجتماعي.

وتهدف هذه المداخلة إلى بيان إستراتيجية التخطيط الصحي في الهدي النبوي، وإبراز أهم الدعائم التي تقوم عليها، وإيضاح كيفية الاستفادة منها في التخطيط للعناية بالصحة العامة، ومكافحة الأمراض والأوبئة في هذا العصر، الذي تفشت فيه الأمراض التي لم تعرف من قبل، وظهرت فيه أوبئة فتاكة بسبب الإهمال الصحي، والتنكر للإرشادات النبوية، وغياب الوازع الديني، والضمير الخلقي. وذلك من خلال تتبع التدابير الصحية والإجراءات العملية التي جاءت بها السنة النبوية.

ومن الدراسات السابقة على هذه الدراسة جملة من البحوث أهمها:

- النظرية الطبية الإسلامية في الوقاية والعلاج للدكتور إبراهيم الصياد، وتناول فيه مفهوم الصحة في ضوء مفهوم الاستخلاف في الأرض، ونظرة الإسلام إلى كيفية العناية بها من خلال مستويات ثلاثة.

- التربية الوقائية في الإسلام للدكتور فتحي يكن الذي تناول فيه أبعاد التربية الوقائية ومجالاتها وآثارها في القرآن الكريم والسنة النبوية،

- الطب الوقائي في الإسلام للدكتور راغب السرجاني الذي أوضح فيه جملة من الإجراءات العملية لمنع حدوث الأمراض، وانتشارها.

- السنة النبوية وتوجيه المسلم إلى الصحة النفسية للدكتورة هناء يحيى أبو شهبة، وهو بحث مقدم إلى مؤتمر السنة النبوية والدراسات المعاصرة ١٧-

١٨ إبريل ٢٠٠٧م، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة اليرموك، اربد، الأردن، وكانت قد تناولت فيه أساليب وطرق توجيه المسلم إلى التوازن النفسي في السنة النبوية.

وجاء هذا البحث لبرز البعد التخطيطي في الجانب الصحي في الهدي النبوي من خلال استقراء مظاهر الرعاية الصحية التي جاءت في السنة النبوية، وبيان كيفية الاستفادة من أسس التخطيط الصحي في الهدي النبوي للتصدي لخطر الأمراض المتفشية حديثا، وإظهار مدى نجاعة إجراءاته في ضمان السلامة الصحية للفرد والمجتمع.

وانتهجت في دراستي لهذا الموضوع المنهج الاستقرائي التحليلي، واعتمدت على ما جاء في السنة النبوية من أحاديث تضمنت أبعاد التخطيط الصحي وإجراءاته في الهدي النبوي. وطريقتي في ذكر الأحاديث هي الاعتماد على ما جاء في الصحيحين، أو ما أورده أصحاب السنن والمسانيد مع التنصيص على صحته بما جاء في كتب التخريج المعتمدة، على أن يكون التخريج من كتابين فأكثر. وتناولت الموضوع وفق الخطة الآتية:

- مقدمة
- مدخل: وفيه تناولت مفهوم مصطلحات العنوان: التخطيط، الصحة، التخطيط الصحي تركيبا.
- المبحث الأول: التخطيط الصحي في الهدي النبوي: أهدافه وأسسه.
- المبحث الثاني: مستويات التخطيط في الهدي النبوي.
- المبحث الثالث: صور من التخطيط الصحي في الهدي النبوي.
- الخاتمة: وتضمنت أهم النتائج المتوصل إليها.

مدخل: مفهوم مصطلحات العنوان: التخطيط، الصحة، التخطيط الصحي تركيبا.

قبل الخوض في تفاصيل التخطيط الصحي وأهدافه في الهدي النبوي يجدر بنا أن نقدم تعريفا موجزا لمصطلحات العنوان: التخطيط، الصحة، التخطيط الصحي تركيبا. ولأن مفهوم التخطيط قد أفردت له محاور في هذه الندوة فلا أتعرض له وأكتفي بتعريف المصطلحين الآخرين.

أولا: مفهوم الصحة.

الصحة لغة: العافية وهي خلاف السُقم، وذهاب المرض والسلامة من النقص والعيب، يقال: أصح القوم إذا كانت قد أصابت أحوالهم عاهة ثم ارتفعت[1].

واصطلاحا: عرفت الصحة بأنها غياب المرض الظاهر، وخلو الإنسان من العجز والعلل[2]. وهذا التعريف نجده يحصر الصحة في انتفاء العجز والمرض، وهو يعني أن المريض الذي لا يشعر بمرضه، أو العليل الذي لا يحس بعلته هو إنسان صحيح، وهذا ما يجعل هذا التعريف غير دقيق.

وقد عرفت الصحة أيضا بأنها حالة السلامة والتحسن الجسمي والنفسي والاجتماعي والعقلي الكامل، وليست مجرد غياب المرض والعجز[3]. وهذا تعريف اتسم بالشمولية لكل مظاهر السلامة الصحية.

وعرفها العالم (بركنز) بأنها حالة التوازن النسبي لوظائف الجسم، الناتجة عن تكيف الجسم مع العوامل الضارة التي يتعرض لها، وأن هذا التكيف هو عملية إيجابية تقوم بها قوى الجسم للمحافظة على توازنه[4]. وهذا التعريف نراه

١- اللسان: ٢ / ٥٠٧ مادة (صحح)، ومختار الصحاح: ١ / ١٥٠، مادة (صحح).
٢- الصحة العامة بين البعدين الاجتماعي والثقافي، ص: ١٧.
٣- المرجع نفسه.
٤- المرجع نفسه.

يحصر الصحة في القدرة على التكيف مع العوامل الضارة المحيطة بالإنسان، وهو أمر مطلوب في السلامة الصحية، لكنه لا يكفي وحده لتحقيقها.

ومن هذه التعاريف فإنه يستخلص أن مفهوم الصحة يعني تحقق الأمور الآتية:

١- انعدام المرض الجسمي والنفسي، وانتفاء العجز الناتج عنهما، وبهذا تتحقق السلامة الصحية الظاهرية.

٢- القدرة على التكيف مع البيئة المحيطة به، بما تحتويه من عوامل ضارة، وهذا يعني التمتع بجهاز مناعي دفاعي سليم. وهذا ما يمثل السلامة الصحية الداخلية.

٣- القدرة على التفاعل الاجتماعي، بأن يكون الإنسان مندمجا في مجتمعه، مؤثرا فيه ومتأثرا بشكل إيجابي. وهذا ما يمثل السلامة النفسية.

ثانيا: مفهوم التخطيط الصحي (تركيبا).

من خلال تعريفي المصطلحين: التخطيط والصحة فإنه يمكننا تعريف التخطيط الصحي بأنه مجموعة التدابير والإجراءات الموجهة بقرارات قيادية، والمستلهمة من خلال استشراف المستقبل الصحي، المعتمد على بيانات علمية صحيحة، و المستخدمة للإمكانات المادية والمعنوية المتاحة أحسن استخدام؛ لتحقيق السلامة الصحية للفرد والمجتمع، على المدى القريب والبعيد.

فالتخطيط الصحي يرسم للفرد وللمجتمع كيفية مكافحة الأمراض، والوقاية منها، والحفاظ على سلامة الإنسان جسميا ونفسيا وعقليا واجتماعيا، وذلك باستخدام أصح وأحدث البيانات العلمية الكفيلة بتحقيق هذه الغاية. وهو عملية مستمرة مع استمرار الوجود الإنساني في هذا الكون، وبهذا فهو تخطيط

إستراتيجي بعيد المدى، غير متقيد بزمن دون آخر؛ ذلك لأن الصحة غاية كل إنسان، وإن الأمراض والعلل تتربص به في كل حين لتنازعه صحته وعافيته.

والتخطيط الصحي بهذا المفهوم يتطلب الأمور الآتية:

١- التحليل الدقيق للوضع الصحي المستقبلي الذي يرجى الوصول إليه.

٢- التنبؤ الصحيح بالمستقبل الصحي، وذلك بالحصول على أحدث البيانات العلمية وأصحها.

٣- معرفة الإمكانات المادية والبشرية المتاحة، واستخدامها بشكل يسمح بتحقيق الأهداف المرصودة.

٤- تحديد الأهداف الكلية والجزئية ممكنة التحقيق بشكل واضح ودقيق.

٥- تحديد الإجراءات والتدابير المقررة من طرف القيادة، والكفيلة بتحقيق الأهداف المرجوة.

المبحث الأول: التخطيط الصحي في الهدي النبوي: أهدافه وأسسه.

إن التخطيط الصحي لا يكون ناجحا وفعالا إلا بقدر دقة أهدافه، ومدى وضوحها، وقوة أسسه ومدى قدرتها على تفعيل الإجراءات المتخذة، وتحقيق الأهداف المرجوة. وإن أهم الأهداف والأسس التي بني عليها التخطيط الصحي في الهدي النبوي تتبين من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: أهداف التخطيط الصحي في الهدي النبوي.

يهدف التخطيط الصحي في الهدي النبوي عموما إلى النهوض بالمستوى الصحي العام: جسميا ونفسيا وعقليا واجتماعيا، من خلال تحصين الفرد المسلم من الأمراض قبل ظهورها، ووقاية المجتمع من الأوبئة قبل تفشيها واستفحالها،

وإسعاف الذين نال منهم المرض بعلاج يعيد لهم صحتهم وعافيتهم. ولا يمكن لهذا الهدف العام أن يتحقق، ولا لهذه الغاية الأساس أن تتجسد إلا بتحقيق الأهداف الجزئية والغايات الفرعية المتمثلة فيما يأتي:

أولا: توعية جماهير المسلمين بأهمية السلامة الصحية العامة للفرد والمجتمع، وبضرورة الاهتمام بالصحة البدنية والصحة النفسية، وبإدراك أن قيمة الإنسان بسلامة بدنه وسمو روحه، وإنه من غير ذلك لا يمكنه القيام بمهمة الاستخلاف في الأرض من عبادة لله، وجهاد في سبيله، وتحقيقا لسعادة الدنيا والآخرة. فقد أخبر النبي ﷺ بأن الإنسان كثيرا ما يغفل عن نعمتي: الصحة والفراغ، ولا يستشعر قيمتهما إلا بعد فقدهما فقال: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[1]. وبين النبي ﷺ أن سعادة الإنسان تكمن في سلامة جسده من الأسقام والبلايا والآفات، وكان يدعو الله ويسأله -كل صباح ومساء- معافاة البدن، وحفظ الصحة، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات، حين يمسي، وحين يصبح، «اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عورتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»[2].

ولتحقيق الاهتمام بالجسد والعناية به بين النبي ﷺ أن له حقوقا على صاحبه فقال: «فإن لجسدك عليك حقا»[3]، وإن من حق البدن على صاحبه أن يسعى

١- رواه البخاري: ٥ / ٢٣٥٧، ك: الرقاق، ب: ما جاء في الصحة والفراغ، رقم: ٦٠٤٩. والترمذي / ٤ / ٥٥٠، ك: الزهد، ب: الصحة والفراغ، رقم: ٢٣٠٤، وكلاهما عن ابن عباس.

٢- رواه أبو داود: ٤ / ٣١٨، رقم: ٥٠٧٤، ك: الديات، ب: ما يقول إذا أصبح. وابن ماجة: ٢ / ١٢٧٣، رقم: ٣٨٧١، ك: الدعاء، ب: ما يدعو به الرجل إذا أصبح وأمسى. وهو صحيح (صحيح أبي داود: ٣ / ٩٥٧، رقم: ٤٢٣٩).

٣- رواه مسلم: ٢ / ٨١٣، ك: الصيام، ب: النهي عن صوم الدهر، رقم: ١١٥٩، والبخاري: ٢ / ٦٩٧، ك: الصوم، ب: حق الجسم في الصوم، رقم: ١٨٧٤، وكلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

لسلامته، فيطعمه إذا جاع، وينظفه إذا اتسخ، وأن يداويه إذا مرض، وأن يريحه إذا تعب، وألا يرد به موارد الوباء فيهلكه.

ثانيا: نشر الوعي الغذائي بين جمهور المسلمين؛ ذلك لأن معظم الأمراض والعلل التي تصيب الإنسان إنما هي نتيجة اضطراب في الجانب الغذائي من حيث الإفراط في الأكل، أو التفريط في النافع منه، أو أكل ما يضر البدن ولا يقيمه.

وعملا على تحقيق هذا الهدف بُينت في الهدي النبوي مجموعة الأغذية والأشربة الضارة والتي حرمها، فقد قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣). وقال النبي ﷺ: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام»[١]، وكان النبي ﷺ قد حرم أكل الحُمُر الأهلية وكل ذي ناب من السباع وكل ذي ظفر من الطير، فقد روى ابن عباس أن النبي ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، وعن لحوم الحُمُر الأهلية، وعن المجثمة[٢]، وعن الخليسة[٣]، وأن توطأ الحبالى حتى يضعن ما في بطونهن[٤]. وحين سئل عن البحر قال: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته»[٥].

١- رواه مسلم مختصرا: ٣ / ١٥٨٨، ك: الأشربة، ب: بيان أن كل مسكر خمر، رقم: ٢٠٠٣، والترمذي: ٤ / ٢٩٠، ك: الأشربة، ب: ما جاء في شارب الخمر، رقم: ١٨٦١. وكلاهما من حديث ابن عمر.

٢- المجثمة هي كل حيوان ينصب ويرمى ليقتل، ويكثر في الطير والأرنب وشبهه. (تحفة الأحوذي: ٥ / ٣٩).

٣- الخليسة هي المأخوذة من السبع فتموت قبل أن تذكى. (تحفة الأحوذي: ٥ / ٤٠).

٤- رواه مسلم: ٣ / ١٥٣٤، ك: الصيد والذبائح، ب: تحريم أكل كل ذي ناب، برقم: ١٩٣٤، والترمذي: ٤ / ٧١، ك: الأطعمة، ب: كراهية أكل المصبورة، برقم: ١٤٧٤ وكلاهما عن ابن عباس.

٥- رواه الترمذي: ١ / ١٠١، ك: أبواب الطهارة، ب: ما جاء في ماء البحر، برقم: ٦٩، وقال: حسن صحيح، والحاكم في المستدرك، ١ / ٢٣٧، وكلاهما من حديث أبي هريرة، وإسناده صحيح (صحيح الترمذي: ١ / ٢٤، رقم: ٥٩).

ثالثا: نشر الثقافة الجنسية بين أفرد المجتمع الإسلامي، وبيان أن كل علاقة جنسية يقوم بها المسلم خارج علاقة الزواج الشرعية لا تؤمن مخاطرها وأضرارها على الصحة البدنية والنفسية للإنسان، وبالآتي لا مناص من الابتعاد عنها تحقيقا للسلامة الصحية والعافية البدنية، فنهى عن الزنا والشذوذ الجنسي، والسحاق وما يدعو إليهما من نظر إلى العورات، وعري وتكشف. فقال النبي ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد، ولا المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»[١]. كما نهى عن إتيان النساء في أدبارهن لما فيه من أذى بالغ على صحة الطرفين، فقد قال النبي ﷺ: «لا تأتوا النساء في أدبارهن»[٢].

رابعا: نشر الوعي البيئي وثقافة المحافظة على المحيط، والتأكيد على ضرورة تخليصه من كل ما يشوبه من أوبئة وعوامل تساعد على الإضرار بالصحة الفردية أو الجماعية، ويأتي التأكيد على هذا الهدف لأن الكثير مما يصيب الإنسان من أمراض إنما سببه تلك الجراثيم والميكروبات والطفيليات التي تنتشر في المحيط الذي يعتبر مجاله الحيوي الذي ينشط فيه، ويشمل ذلك لباسه، ومكان جلوسه، وطريق سيره، وفناء بيته، ومواضع استراحته، والهواء الذي يستنشقه، والحيوانات التي تعيش معه.

وتحقيقا لهذه الثقافة ونشرا لهذا الوعي أمر بنظافة أفنية البيوت فقال النبي ﷺ: «طهروا أفنيتكم؛ فإن اليهود لا تطهر أفنيتها»[٣]. وجاء عنه أيضا النهي عن

١- رواه مسلم: ١ / ٢٦٦، ك: الحيض، ب: تحريم النظر إلى العورات، برقم: ٣٣٨، أبو داود: ٤ / ٤١، ك: الحمام، برقم: ٤٠١٨، وأبو يعلى: ٢ / ٣٧٣ برقم: ١١٣٦، وكلهم من حديث أبي سعيد الخذري.

٢- رواه الترمذي: ٣ / ٤٦٨ ك: الرضاع، ب: كراهية إتيان النساء في أدبارهن، برقم: ١١٦٤، وقال فيه: حديث حسن. ورواه ابن حبان: ٦ / ٨، برقم: ٢٢٣٧، وكلاهما من حديث علي بن طلق الحنفي، وإسناده جيد (الترغيب والترهيب: ٣ / ١٩٨).

٣- رواه الطبراني في الأوسط بلفظه: ٤ / ٢٣١، برقم:٤٠٥٧، أبو يعلى بمثله: ٢ / ١٢٢، رقم: ٧٩١، وكلاهما من حديث عامر بن سعيد عن أبيه، وإسناده صحيح (سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم: ٢٣٦، ١ / ٤٧٢).

تلويث المياه وأماكن جلوس الناس بالبول والغائط فقال :ﷺ «اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطرق، والظل»[1].

ومما جاء في توجيهاته ﷺ أيضا حول كيفية التعامل مع لعاب الكلب الذي نهى عن اتخاذه إلا للصيد والحراسة قوله: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فيريقه وليغسله سبعا، أولهن بالتراب»[2]. وهذا الحديث يبرز حقيقة ذات علاقة بالجانب الصحي للإنسان، أرشد إليها الهدي النبوي، وهي أن لعاب الكلب يحتوي على نجاسة غير عادية، فهي لا تزول بالغسل بالماء مرة أو مرتين كما هو الأمر مع بقية النجاسات الأخرى، كما إنها نجاسة بالغة الضرر على جسم الإنسان؛ ولذا يظهر أن النبي ﷺ يخص هذه النجاسة بطهارة خاصة تتمثل في غسلها سبع مرات إحداها بالتراب. ولقد أثبتت البحوث العلمية المعاصرة صحة وسلامة هذا التوجيه النبوي[3].

إن هذه التوجيهات النبوية ومثيلاتها لكفيلة بإيجاد وعي بيئي يجعل البيئة التي يعيش فيها الإنسان بيئة نظيفة صالحة، ويجعل الإنسان ذاته مدركا لقواعد التعامل مع المكونات البيئية بما يصلح حاله ولا يفسده، ويحمّله مسؤولية فساد البيئة وتلوثها؛ لأن ذلك غالبا ما يكون نتيجة لجهل الإنسان، وسوء استخدامه لعناصر البيئة. قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم:٤١).

١- رواه أبو داود: ١ / ٧، ك: الطهارة، ب: المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، برقم: ٢٦، والحاكم في المستدرك: ١ / ٢٧٣، برقم: ٥٩٤، وكلاهما عن معاذ بن جبل، وإسناده حسن (مجمع الزوائد: ١ / ٢٠٤).

٢- رواه مسلم: ١ / ٢٣٤، ك: الطهارة ب: حكم ولغ الكلب، برقم: ٢٧٩، والحاكم بمثله: ١ / ٢٦٤، برقم:٥٦٩، وكلاهما عن أبي هريرة.

٣- ينظر: موقع كنانة أون لاين، مقالة: ما هو داء الكلب؟ د.عبد الرحمن إبراهيم زنزنى، تاريخ: ٢٩ / ٠٤ / ٢٠١٠م.الرابط:
http://kenanaonline.com/users/Drzanouny/topics/65410/posts/122677

خامسًا: ترجمة الحقائق الصحية النظرية إلى أنماط سلوكية فردية، ومظاهر عادات اجتماعية، فينشأ عليها أبناء المجتمع المسلم، ويتوارثها الأبناء عن الآباء جيلا بعد جيل، وذلك من خلال ربط تطبيق النظريات الصحية بقيم الإيمان بالله، وبمقتضى العبادة الصحيحة، فقد جاء في الحديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[1].

ومما يتجلى فيه هذا المعنى أيضا ربط صحة الصلاة وكمالها بنظافة الجسم، فقد جاء في الحديث: «إن الله لا يقبل صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»[2]. وأيضا: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[3]. وكذلك كان النبي ﷺ يستنجي بالماء إذا دخل الخلاء فعن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ يدخل الخلاء فأحمل أنا وغلام نحوي إداوة من ماء وعنزة، فيستنجي بالماء»[4].

وإن هذه النصوص التي تعتبر أن من مقتضيات الإيمان أن يكون المسلم نظيفا في نفسه وبدنه ولباسه ومكان جلوسه. وألا يقبل بالأذى يكون في طريق الناس، وأن صلاته التي يؤديها أكثر من خمس مرات في اليوم والليلة لا تقبل منه إلا إذا كان على طهارة، تجعل نظافة الأبدان والأفنية والطرق والمجالس، تصير سلوكا فرديا ومظهرا اجتماعيا يتسابق إلى فعله المسلمون كلهم، تقربا إلى الله، وطمعا في مثوبته.

سادسا: نشر الوعي الوقائي، وثقافة الابتعاد عن أسباب الأمراض والأسقام،

١- رواه مسلم: ١ / ٦٣، ك: الإيمان، ب: عدد شعب الإيمان، برقم: ٣٥، وابن حبان: ١ / ٤٢٠، وكلاهما عن أبي هريرة.

٢- رواه مسلم: ١ / ٤٠٤، ك: الطهارة، ب: وجوب الطهارة للصلاة، برقم: ٢٢٥، والبخاري: ٦ / ٢٥٥١، ك: الإكراه، ب: في الصلاة، برقم: ٦٥٥٤، وكلاهما عن أبي هريرة.

٣- رواه مسلم: ١ / ٢٢٠، رقم: ٢٥٢، ك:الطهارة، ب: السواك. والبخاري:١ / ٣٠٣، رقم:٨٤٧، ك:الجمعة، ب: السواك.

٤- رواه مسلم: ١ / ٢٢٧، رقم: ٢٧٠، ك: الطهارة، ب: الاستنجاء بالماء من التبرز. وأحمد: ٣ / ١٧١.

واجتناب مواضع العدوى، وتقديم الوقاية على العلاج؛ ذلك لأن الوقاية من المرض مما يملكه الإنسان، فيقدر على إعمالها، ويقطع بذلك دابر المرض، لكن الشفاء من المرض لا يملكه، فإذا ما حل به فقد يهلك. ولهذا تكون المعافاة مع الشكر خير من البلاء مع الصبر.

ولعل من توجيهات النبي ﷺ التي تبين عنايته بالثقافة الوقائية ما جاء في حديثه حين قال: «إن هذه النار إنما هي عدو لكم، فإذا نمتم فأطفئوها عنكم»(1). وحديثه أيضا: «إياكم والدخول على النساء»(2).

ومن خلال هذه الأحاديث يتضح مدى حرص النبي ﷺ على أن يقي أصحابه من شر محتوم، وضرر أكيد باتخاذهم مبدأ الوقاية أساسا في التعامل مع مسببات الأمراض البدنية والنفسية والاجتماعية، وأن يكون ذلك ملهما لهم بأن يتحلوا بهذا الثقافة الراشدة. فإن ترك الخمر وقاية من الآثام الناتجة عنها من هذيان وافتراء وزنا وعلل بدنية؛ فهي أم الخبائث. وعدم الدخول إلى البيوت وقاية من شر الزنا والبهتان ومظنة السوء بالأنساب وأمراض جنسية.

سابعا: تحقيق الرعاية الصحية لجميع أفراد المجتمع، وذلك عن طريق إنشاء مراكز استشفائية تقوم باستقبال المرضى، وتقدم لهم ما يمكن من الإسعافات الطبية، وعلى الرغم من أن هذا لم يكن معروفا في الأزمان الغابرة إلا أن الهدي النبوي جسده بما أتيحت له من إمكانات، فقد كانت تقام خيام خاصة لعلاج جرحى الحروب، ويُجعل فيها النساء يقمن بعمليات تضميد الجروح، وجبر الكسور،

1- رواه مسلم: ٣ / ١٥٩٦، ك: الأشربة، ب: الأمر بتغطية الإناء وإطفاء السراج، برقم: ٢٠١٦، والبخاري: ٥ / ٢٣١٩، ك: الاستئذان، ب: لا تترك النار في البيت ثم النوم، برقم: ٥٩٣٥، وكلاهما عن أبي موسى الأشعري.

2- رواه مسلم: ٤ / ١٧١١، ك: السلام، ب:تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، برقم: ٢١٧٢، والبخاري: ٥ / ٢٠٠٥، ك: النكاح، باب: لا يخلون رجل بامرأة، برقم: ٤٩٣٤، وكلاهما عن عقبة بن عامر.

وإسعاف المرضى وإرجاعهم إلى المدينة إذا اقتضى الأمر، فقد جاء في حديث الرُّبيع بنت معوذ أنها قالت: «كنا نغزو مع النبي ﷺ فنسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة»[1]. وقد قام ﷺ بمداواة أناس من عُرينة حينما قدموا إلى المدينة المنورة وهم مرضى حتى شفوا، بعدما شربوا من ألبان إبل الصدقة وأبوالها[2]. وقد كان لأول ممرضة في العهد النبوي رفيدة بنت سعد السلمية مركز استشفائي متنقل مع المعسكر الإسلامي من أجل تقديم الخدمات الصحية للجرحى والمرضى من المسلمين، فقد روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق، رماه رجل من قريش في الأكحل (كوع اليد أو الوريد المتوسط في اليد) فأمر الرسول ﷺ رفيدة أن تقيم خيمة في المسجد، تداوي بها الجرحى، وقال: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب»[3].

وإن هذه الشواهد لهي أبلغ دليل على أن من أهم أهداف التخطيط الصحي التي عني بها الهدي النبوي تحقيق الرعاية الصحية لجميع من يحتاجها من أفراد المجتمع الإسلامي.

المطلب الثاني: أسس التخطيط الصحي في الهدي النبوي.

إن القيم الاجتماعية، والمبادئ الدينية، والاتجاهات الفلسفية، تعتبر أهم الدعامات والأسس التي ينبني عليها التخطيط الصحي في أي دولة في العالم، فإن كانت تلك القيم والمبادئ والاتجاهات صحيحة سليمة كان التخطيط الذي بني عليها ناجحا، وتحققت أهدافه المرجوة على أكمل وجه، وإن كانت غير ذلك فشل

١- رواه البخاري: ٣ / ١٠٥٦، كتاب الجهاد، باب رد النساء القتلى والجرحى برقم: ٢٧٢٧، وأحمد: ٦ / ٣٥، واللفظ لهما من حديث الربيع بنت معوذ.

٢- الحادثة رواها مسلم: ٣ / ١٢٩٧، ك: القسامة والمحاربين، ب: حكم المحاربين، برقم: ١٦٧١، والبخاري: ١ / ٩٢، ك: الوضوء، ب: أبوال الإبل، برقم: ٢٣١، وكلاهما عن أنس بن مالك.

٣- رواه البخاري في الأدب المفرد: ١ / ٣٥، وفي التاريخ الصغير: ١ / ٢٢، والطبري في التفسير: ٢١ / ١٥٢، عن محمود بن لبيد، وإسناده صحيح (الإصابة: ٧ / ٦٤٦).

التخطيط، وضاعت نتائجه. قال الشيخ الطاهر بن عاشور: «أعمال العاملين تجري على حسب معتقداتهم وأفكارهم، فجدير بمن صلحت عقائده وأفكاره أن تصدر عنه الأعمال الصالحة»[1]. وإن التخطيط الصحي في الهدي النبوي بنيت أسسه ودعائمه على مبادئ الإسلام وقيمه، فتمثلت فيما يأتي:

أولا: ربط التخطيط الصحي: أهدافا وتدابير وإجراءات بقيم الإيمان بالله (سبحانه) والتصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان؛ ذلك لأن غاية الإنسان المسلم لا تقف عند هذه الدنيا، بل تمتد إلى الدار الآخرة، مبتغيا وجه الله تعالى وطالبا رضاه. وإن قيم الإيمان بالله تعتبر طاقة موجهة للإنسان نحو السلوك الأفضل والخلق الأحسن، وتجنب السلوك السيئ والمنحرف والشاذ. وبهذا يضمن النبي ﷺ من أفراد المجتمع الإسلامي الدقة في تطبيق القواعد الصحية، والحرص في أداء الإجراءات العملية.

قال الشيخ الطاهر بن عاشور: «لا جرم أن العقيدة أساس التفكير، وهي الفكرة الأولى للإنسان فيما هو خارج عن حاجاته، فإذا ربي العقل على صحة الاعتقاد تنزه عن مخامرة الأوهام الضالة، فشب على سبر الحقائق والمدركات الصحيحة، فنبا عن الباطل، وتهيأ لقبول التعاليم الصالحة، والعمل للحق»[2].

ولا عجب أن يمكث النبي ﷺ طيلة الفترة المكية وهو لا يهتم إلا بغرس عقيدة التوحيد في نفوس أصحابه، ويربيهم على قيمها؛ لأنه كان مدركا لهذه الحقيقة الكبرى، حقيقة ما يفعله الإيمان بالله والاعتقاد الصحيح في سلوك الفرد. ولعل ربط إجراءات التخطيط بعقيدة المسلمين يعد أهم العوامل التي جعلت التخطيط الصحي في الهدي النبوي يحقق أهدافه على الوجه الأكمل، بينما نجد التخطيط عند من يفتقدون لهذا الأساس لا يكاد يخرج من عثرة حتى يقع في عثرة أخرى.

١- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص: ١٠٨.
٢- المرجع نفسه، ص: ٨٨.

وإن من أهم ما يمثل لهذا الأساس: ربط النظافة بالإيمان بالله تعالى وبقيمه تأكيدا على أهميتها، وترغيبا في القيام بها، قال النبي ﷺ: «إن السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»[1]، وقال أيضا: «الطهور شطر الإيمان»[2].

واعتبر النبي ﷺ الإيمان قوة مانعة من اقتراف ما يضر بالصحة الجسمية والنفسية والاجتماعية، والمؤمن قوي الإيمان يقيه إيمانه من ارتكاب المعاصي، كالزنا والخمر، فعن رسول الله ﷺ قال: «لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن.»[3]

وحين أراد النبي ﷺ أن يبرز أهمية التنزه عن البول لما في إهماله من ضرر بالغ على الصحة الفردية، وهو مما يستهين به كثير من الناس، ولا يعتبرونه أمرا ذا بال، أخبر أنه من أسباب عذاب القبر، فقد روي عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنه قال: مرّ النبي ﷺ بقبرين، فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير؛ أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين، فغرز في كل قبر واحدة. فقالوا: يا رسول الله لم فعلت هذا ؟ قال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»[4].

ثانيا: ربط التدابير الصحية وإجراءاتها العملية بالعبادة المفروضة، وذلك لضمان استمرارية تنفيذ الإجراءات الصحية والمداومة عليها، فلما كان للنظافة

١- رواه البخاري :٢ / ٦٨٢، ك: الصوم، ب: السواك، رقم: ١٩٣١، وأحمد: ٦ / ١٢٤، رقم: ٢٤٩٦٩، عن عائشة.

٢- رواه مسلم: ١ / ٢٠٤، ك: الطهارة، ب: فضل الوضوء، رقم: ٢٢٣، وأحمد: ٥ / ٣٤٤، عن أبي مالك الأشعري.

٣- رواه مسلم: ١ / ٧٦، ك: الإيمان، ب: نقصان الإيمان بالمعاصي، رقم: ٥٧، والبخاري: ٥ / ٢١٢٠، ك: الأشربة، وكلاهما عن أبي هريرة.

٤- رواه مسلم:١ / ٢٤٠، ك: الطهارة، ب: الدليل على نجاسة البول، رقم: ٢٩٢، والبخاري: ١ / ٨٨، ك: الوضوء، ب: ما جاء في غسل البول، رقم: ٢١٥، وكلاهما عن ابن عباس.

والاحتراز عن الأوساخ والقاذورات أهمية صحية كبرى جعل النبي ﷺ صحة الصلاة وقبولها مرهونين بالطهارة من الحدثين: الأكبر والأصغر، وبطهارة بدن المصلي، ولباسه، ومكان صلاته من كل أنواع النجاسات، فقال: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»[١]، وأوجب الاغتسال ليوم الجمعة فقال: «غسل الجمعة واجب على كل محتلم»[٢].

ولعله لأهمية الصيام ودوره الفعال في وقاية الصحة الجسمية، وتنمية الصحة النفسية، وتربية خلق الصبر، وضبط النفس عن الملذات والشهوات والانفعالات السلبية؛ جعله النبي ﷺ عبادة إلزامية طيلة شهر رمضان، وعبادة تطوعية في غيره، فقد جاء عن طلحة بن عبيد الله أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله اخبرني عما فرض الله علي من الصيام، قال: «شهر رمضان»، قال: هل علي غيره؟ قال: لا، إلا أن تطوع »[٣]. وللتأكيد على أهمية الصوم في الوقاية من الأمراض الجسمية والنفسية، ومضاعفاتها، وآثارها، قال النبي ﷺ: «الصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ولا يجهل، فإن شاتمه أحد فليقل: إني صائم»[٤].

قال ابن القيِّم: «وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحمايتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة، التي إذا استولت عليها أفسدتها. واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحَّتها؛ فالصوم يحفظ على

١- رواه مسلم: ١ / ٤٠٤، ك: الطهارة، ب: وجوب الطهارة للصلاة، برقم: ٢٢٥، والبخاري: ٦ / ٢٥٥١، ك: الإكراه، ب: في الصلاة، برقم: ٦٥٥٤، وكلاهما عن أبي هريرة.

٢- رواه مسلم: ٢ / ٥٨٠، ك: الجمعة، ب: وجوب غسل الجمعة، رقم: ٨٤٦، وأحمد: ٣/ ٦٠، عن أبي سعيد الخذري.

٣- رواه مسلم: ١ / ٤٠، ك: الإيمان، ب: الصلوات، رقم: ١١، والبخاري: ١ / ٢٥، ك: الإيمان، ب: الزكاة من الإسلام، رقم: ٤٦، وكلاهما عن طلحة بن عبيد الله.

٤- رواه مسلم: ٢ /٨٠٧، ك: الصيام، ب: فضل الصيام، رقم: ١١٥١، والبخاري بمثله: ٢/ ٦٧٠، ك: الصوم، ب: فضل الصوم، رقم: ١٧٩٥، وكلاهما عن أبي هريرة.

القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات»[1].

ثالثا: الاعتماد على معرفة الواقع المرضي، والتنبؤ المستقبلي الصحيح؛ ذلك لأن سوء معرفة المرض، والتنبؤ الخاطئ بمستقبل الحالة الصحية يفرز قرارات وإجراءات تتبعها نتائج خاطئة، لا تتفق مع الأهداف المخطط لها صحيا. وإن النبي ﷺ حين وضع قاعدة السلامة من مرض الجذام كان يدرك خطر هذا المرض، وسرعة عدواه المنتقلة بملامسة صاحبه ومقاربته ومخالطته، ولذا حذر من الاقتراب من صاحبه فقال موجها: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»[2]، وامتنع عن مصافحة مجذوم ثقيف الذي جاء ليبايعه، وقال له: «ارجع فإنا قد بايعناك»[3].

إن الأخذ بالنظرة السببة للأمور، وحسن الإفادة من الأحداث التاريخية من أهم الأسس التي يبنى عليها التنبؤ الصحيح، فالأحداث الكونية كلها مبنية على أساس قانون السببية، و الأحداث التاريخية إذا ما جردت عن أفرادها وزمانها ليست إلا أسبابا ونتائج تتكرر في كل زمان ومكان. قال تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ (فاطر:٤٣).

قال الدكتور محمد أمزيان: «إن الحوادث التاريخية إذا نظرنا إليها من وجهة النظر التاريخية سنجد أنها حوادث فردية وفريدة، ولا تتكرر على شكل مماثل. لكن إذا نظرنا إلى الأسباب التي أدت إلى حدوثها، وإلى النتائج التي انتهت إليها، وحاولنا أن نجردها من فرديتها، وننظر إليها في كليتها سنجد أن مضمون

١- زاد المعاد: ٢ / ٢٩.

٢- رواه البخاري: ٥ / ٢١٥٨، ك: رآه، ب: الجذام، رقم: ٥٣٨٠، وأحمد: ٢ / ٤٤٣، رقم: ٩٧٢١، عن أبي هريرة.

٣- رواه مسلم:٤ / ١٧٥٢، ك: السلام، ب: اجتناب المجذوب ونحوه، رقم: ٢٢٣١، والبيهقي في الشعب: ٢ / ١٢٢، رقم: ١٣٥٧، وكلاهما عن عمرو بن الشريد عن أبيه.

هذه الوقائع – ليس شكلها – قابل للتكرار والاطراد، ويكشف عن علاقة سببية مطردة بين ظاهرة وأخرى. وهذا الترابط يتيح لنا استخلاص القانون العام الذي تخضع له هذه الوقائع التاريخية، فكلما توافرت أسباب معينة في ظروف معينة إلا ارتبطت بها نتائج معينة»[1].

وانطلاقا من هذا الفهم لقانون السببية في الوقائع التاريخية فإننا نكاد نجزم أن القصص القرآني لم يأت لعرض أحداث تاريخية عن الأقوام السابقة فحسب، بل الغرض منه أخذ العبرة، والتحذير من توافر أسباب الهلاك في مجتمعاتنا؛ لأن توافر السبب لابد أن يوجد نتائجه المقدرة بقانون السببية.

قال الإمام ابن تيمية تعليقا على الآية بأنها: «دليل على أنه (سبحانه) يقضي في الأمور المتماثلة بقضاء مماثل، لا بقضاء مخالف ولفظ السنة يدل على التماثل، فإنه (سبحانه) إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم، فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول. ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار، والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره»[2].

إن التخطيط الصحي في الهدي النبوي استند كثيرا إلى هذا القانون السببي وأعملَه، فكان يتنبأ بمهالك صحية إذا ما توفرت أسبابها، وبنى على ذلك كثيرا من الإجراءات والتدابير الصحية للوقاية منها فآتت أكلها ضعفين. فقد قص الله على عباده المؤمنين في كتابه قصة قوم لوط بأنهم لم يكونوا ينتهون عن فعل الفاحشة المقيتة، فكان مصيرهم أن عوقبوا بأشد أنواع العذاب، وما كان هذا الجزاء ليخطئ قوما ارتكبوا الفعل نفسه؛ ولذا ختم الله سبحانه الحدث التاريخي بقوله: ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (هود: ٨٣). وبناء على هذا نجد

١- منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، ص: ١٨٨.
٢- جامع الرسائل، المجموعة الأولى، ص: ٤٩- ٥٦. نقلا عن منهج البحث الاجتماعي، ص: ٢٨٨.

النبيﷺ يتخذ موقفا حاسما من الشاذين جنسيا – فاعلين ومفعول بهم- فكانت خطته تخليص المجتمع الإسلامي وتطهيره منهم، فقال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[1]؛ لأن بقاء هؤلاء الذين فسدت فطرتهم وانحطت أخلاقهم لا ينتج عنه إلا الهلاك والإهلاك.

رابعا: الأخذ بمبدأ التكامل والشمولية في مفهوم الصحة، فالهدي النبوي لا يقدم اهتماما لجانب صحي على الجوانب الأخرى، فهو يراعي الصحة الجسمية كما يراعي الصحة النفسية، ويراعي الصحة الاجتماعية كما يراعي الصحة العقلية؛ إذ كل مجال من هذه المجالات الصحية مكمل للمجالات الأخرى، وتجمع بينها علاقة متبادلة، من حيث الصحة والمرض، فلا وجود للسلامة الصحية مع وجود علل نفسية، أو أمراض جسدية، أو آفات اجتماعية، أو اختلالات عقلية. فالآفات الاجتماعية من فقر وبطالة وحرمان من الرزق، وانعدام الأمن يحرم الإنسان من التمتع بالملذات الحسية والمعنوية، وقد يسهم في سوء تغذيته، وفي حيرة نفسه، وهو ما يفرز آثارا سلبية على الجانبين: النفسي والبدني. والسلوكات النفسية السلبية كالحقد والحسد وحب الانتقام لا محالة مؤثرة سلبا على الجانبين: الجسمي والاجتماعي.

وتأكيدًا بأهمية هذا المبدأ المفتقد في التخطيط الصحي لدى كثير من الدول المتقدمة المعاصرة، أشار النبي ﷺ إلى الأسباب الرئيسة للسعادة فجمعها في ثلاثة أمور: الأمن في المجتمع، والعافية في الجسد، والأمن على النفس من ضيق العيش وانعدام القوت[2]، فقال: «من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»[3].

١- رواه الترمذي: ٤ / ٥٧، ك: الحدود، ب: حد اللوطي، رقم: ١٤٥٥، وعبد الرزاق في مصنفه: / ٣٦٤، رقم: ١٣٤٢٩، وكلاهما عن ابن عباس، وإسناده صحيح (صحيح أبي داود: ٣ / ٨٤٤، رقم: ٣٧٤٥).

٢- يراجع: السنة النبوية وتوجيه المسلم إلى الصحة النفسية، ص: ٣٨.

٣- رواه البخاري في الأدب المفرد: ١ / ١١٢، رقم: ٣٠٠، والبيهقي في الشعب: ٧ / ٢٩٤، رقم: ١٠٣٦٢، عن سلمة بن عبيد الله عن أبيه، وإسناده صحيح (صحيح ابن ماجة: ٢ / ٣٩٩، رقم: ٣٣٤٠).

خامسا: صيانة التدابير الصحية وإجراءاتها العملية بتشريع عقوبات حسية وأخرى معنوية كفيلة بضمان التنفيذ، وعدم السماح للأفراد بخرقها؛ وذلك لأن الإجراء السليم لا يحقق أهدافه إلا بصيانته بتشريع يمنع تعطيله، وإن ترتب على ذلك إيقاع أقسى العقوبات على مريض النفس الذي يرفض الامتثال للإجراءات القانونية، ولم تمنعه الزواجر النفسية والاجتماعية. فلما كان للخمر أضرار صحية بليغة على الجسم والنفس والمجتمع لم يقف الهدي النبوي عند تحريمها فقط، بل أوجب العقوبة على متعاطيها. فعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ أتي برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدتين نحو أربعين[1].

ولما كانت الأضرار الناتجة عن الزنا تستهدف الصحة الجسمية والنفسية والاجتماعية لم يكتف الهدي النبوي بتأثيم فاعلها فحسب، بل أوجب عقوبة غاية في القسوة والردع على من ارتكبها، فقد جاء في
عني، قد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»[2].

وإن الهدي النبوي حين شرع هذه العقوبات القاسية، التي تصل إلى الموت رجما في حالة الإحصان، إنما كان يراعي تلك الأضرار الصحية البليغة، والآثار الاجتماعية الخطيرة، الناتجة عن الزنا، من انتشار للأمراض السرية واختلاط الأنساب، والجناية على النسل، وانحلال الأسرة، ولا سبيل للنجاة من ذلك إلا بردع مريض النفس الذي لم يردعه خوف من الله، أو تأنيب من الضمير، أو استحياء من المجتمع.

١- رواه مسلم: ٣/ ١٣٣١، رقم: ١٧٠٦، ك: الحدود، ب: حد الخمر. والنسائي في السنن الكبرى: ٨/ ٣١٩.

٢- رواه مسلم: ٣/ ١٣١٦، ك: الحدود، ب: حد الزنا، رقم: ١٦٩٠، وأحمد: ٥/ ٣١٣، رقم: ٢٢٧١٨، وكلاهما عن عبادة بن الصامت.

المبحث الثاني: مستويات التخطيط الصحي في الهدي النبوي.

إنه من يتأمل الأهداف الصحية التي توخى النبي ﷺ تحقيقها في المجتمع الإسلامي، ويتفحص التدابير والإجراءات التي اتخذها سبلا ووسائل للنهوض بالمستوى الصحي العام، يجد أن التخطيط الصحي في الهدي النبوي كان يستهدف غايته من خلال مستويات أربعة، وهي التي ستتضح من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: مستوى بناء الجسم وتحسين الصحة

لم يكن التخطيط في الهدي النبوي يهدف إلى الحفاظ على الصحة الفردية والجماعية بعد تكوينها ونشأتها، ويدرأ عنها خطر الأمراض والأوبئة فحسب، بل كانت تدابيره وتوجيهاته – بداية– تسعى إلى بناء الجسم وتحسين الصحة، وترشد إلى كيفية تشكيلها لتكون في مستوى القوة المطلوبة التي أشاد بها النبي ﷺ في قوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»[1]. وإن من أهم الإجراءات والتدابير العملية التي اتخذت لهذا المستوى الصحي ما يلي:

أولا: العناية بالرضاعة الطبيعية.

إن الأهمية البالغة للرضاعة الطبيعية في تكوين صحة الطفل، ومدها بالقوة المناسبة، وتزويدها بالمناعة الضرورية ضد الأمراض والأوبئة، أظهرت العناية بها بشكل فائق في الهدي النبوي، فأرشد إليها، وبين فترة نفعها، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ (البقرة: ٢٣٣). وفي هذه الآية إرشاد إلى الأمهات بأن يقمن بإرضاع أبنائهن؛ وذلك لما للرضاعة الطبيعية من أثر مهم في تحقيق النمو الطبيعي للناحية الجسمية، وللناحية النفسية

١– رواه مسلم: ٤ / ٢٠٥٢، ك: القدر، ب: الأمر بالقوة، رقم: ٢٦٦٤، وأحمد بمثله: ٢ / ٣٦٦، وكلاهما عن أبي هريرة.

أيضا، حيث تكسب الرضاعة الطبيعية الطفل الغذاء الكامل المتوازن الذي يبني جسمه، كما تكسبه معاني الحب والأمن والانتماء الاجتماعي التي تشكل فيه الجانب النفسي السوي[1].

وبين النبي ﷺ أن الرضاعة النافعة للطفل - وهي التي تحرم ما يحرم بالنسب- إنما هي تلك الرضاعة التي تنبت اللحم، وتشد العظم، ولا يكون ذلك إلا قبل الفطام، فقال: «لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي، وكان قبل الفطام»[2].

ثانيا: العناية بالتغذية السليمة.

تعتبر التغذية السليمة التي تتنوع فيها العناصر الغذائية وتتكامل من أهم مقومات بناء الجسد، وتطوير قدراته الجسمية والعقلية والاجتماعية التي تؤدي إلى تحسين المستوى الصحي العام لأفراد المجتمع[3]. والهدي النبوي لم يؤكد على ضرورة التغذية؛ لأن الإنسان يلبي حاجاته الجسمية الفطرية بدافع داخلي، واستجابة لغريزة الجوع عنده، ولكن توجيهاته وإرشاداته توجهت نحو تعديل السلوك الغذائي نحو الأفضل، والحث على التزام القواعد الصحية للتغذية السليمة التي تجعل الغذاء نافعا للجسم، بانيا لخلاياه، وليس سببا في مرضه وسقمه. ومن أهم التوجيهات النبوية في الصحة الغذائية ما يأتي:

١- عدم الإسراف في الأكل لما لزيادة الغذاء على قدر الحاجة من أضرار صحية، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١). وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن السمنة الناتجة عن الإفراط في الأكل تعد

١- ينظر التغذية وصحة المجتمع، ص: ١٢.

٢- رواه الترمذي: ٣/ ٤٥٨، ب: الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر، ك: الرضاع. والنسائي في الكبرى: ٣/ ٣٠١، رقم: ٥٤٦٥. وكلاهما عن أم سلمة. والحديث صحيح (صحيح سنن الترمذي، ١/ ٣٣٨، رقم: ٩٢١).

٣- المرجع نفسه، ص: ٨١.

من أخطر أمراض العصر، إذ ينشأ عنها العديد من الأمراض التي تهدد صحة الإنسان، وتعرض حياته للهلاك، مثل أمراض السكر، وارتفاع ضغط الدم، وتصلب الشرايين[1]؛ ولهذا فإننا نجد النبي ﷺ يضع لأصحابه قانون الاعتدال في الغذاء بما يحقق الغاية من الطعام، ولا يتسبب في المتاعب الصحية فيقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن، بحسب ابن آدم أُكُلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه»[2].

٢- تخصيص بعض الأطعمة ذات الأهمية الصحية الكبرى، والقيمة التغذوية المعتبرة، فقال الله تعالى في شأن العسل: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(النحل:٦٨-٦٩)، وفي شأن التمر قال النبي ﷺ: «بيت لا تمر فيه جياع أهله»[3]، وفي شأن اللبن الذي خصه النبي ﷺعن بقية الأغذية بدعاء خاص كان يقول عند شربه: «اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وزدنا منه»[4].

٣- المنع من تناول الأغذية الضارة، فقد جاء في الهدي النبوي تحريم الخمر والميتة ولحم الخنزير والدم. فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٣). وجاء في الحديث: «كل مسكر خمر، وكل خمر

١- بوابة داء السكري، diabetes. تاسمنة وباء العصر، الدكتور: أحمد أمين. تاريخ: ١٠ / ٠٥ / ٢٠٠٩م. الرابط: http://www.diabetes-edu.net/ar/news_view_19.html

٢- رواه الترمذي: ٤ / ٥٩٠، ك: الزهد، ب: كراهية كثرة الأكل، والحاكم: ٤ / ١٣٥، رقم: ٧١٣٩، وكلاهما عن مقدام بن معدي كرب، وإسناده صحيح (سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٥ / ٣٣٦، رقم: ٢٢٦٥).

٣- رواه. مسلم: ٣ / ١٦١٨، ك: الأشربة، ب: إدخال التمر ونحوه من الأقوات للعيال، رقم: ٢٠٤٦، وأحمد: ٦ / ١٧٩، رقم: ٢٥٤٩٨، عن عائشة رضي الله عنها.

٤- رواه الترمذي: ٥ / ٥٠٦، ك: الدعوات، ب: ما يقول إذا أكل طعاما، رقم: ٣٤٥٥، وأحمد: ١ / ٢٢٥، رقم: ١٩٧٨، عن ابن عباس. وإسناده حسن (صحيح ابن ماجة: ٢ / ٢٣٣، رقم: ٢٩٨٣).

حرام»[1]، ولقد ورد أيضا تحريم أكل لحوم السباع ذات الأنياب، والطيور ذات المخالب، فقال النبي ﷺ: «حرم على أمتي كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي ناب من السباع»[2]. وليس هناك من علة لتحريم هذه الأطعمة والأشربة إلا مضرتها بالصحة الجسمية والعقلية والاجتماعية[3].

٤- ضرورة توفير الأمن الغذائي لجميع أفراد المجتمع تحقيقا للكفاية الغذائية، ولذلك نهى النبي ﷺ عن احتكار المواد الغذائية، والتلاعب بأسعارها، فقال: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس»[4]، وأوجب الصدقة للفقراء سدا لحاجتهم، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (المعارج: ٢٤-٢٥).

ثالثا: العناية بالرياضة البدنية.

الرياضة مجموعة من التمارين والحركات يقوم بها الإنسان فتزيد في قدرة جسمه، ومرونته، وحيويته، وتحقق له لياقة بدنية تساعده على القيام بكثير من الوظائف الجسمية التي يعجز عنها غيره، ولأهمية هذا النشاط في تحسين الصحة البدنية وترقية أدائها الجسدي كانت محل اهتمام وعناية في الهدي النبوي فجعل ممارسة الفروسية، وتعلم السباحة، وإجادة الرمي. من جملة التدابير التحسينية للصحة الفردية، فقد جاء في الحديث: «كل شيء ليس من ذكر الله فهو لهو أو سهو إلا أربع خصال مشي الرجل بين الغرضين (للرمي) وتأديبه فرسه وملاعبته

١- سبق تخريجه.

٢- سبق تخريجه.

٣- ينظر: الموقع الإلكتروني: الأحياء العربية، www.arabianbio.com/ . حوار علمي بين الشيخ الزنداني االبروفيسور نيلسون، تاريخ: ١٢ / ١٢ / ٢٠٠٩م. الرابط:- www.arabianbio.com/vb/showthread.php?t=69.

٤- رواه ابن ماجة: ٢ / ٧٢٩، ك: التجارات، ب: الحكرة والجلب، رقم: ٢١٥٥، وأحمد: ١ / ٢١، رقم: ١٣٥، وكلاهما عن عمر بن الخطاب، وحسن إسناده ابن حجر (فتح الباري: ٤ / ٣٤٨).

أهله وتعليمه السباحة»[1]، وقد كان عليه الصلاة والسلام يمارس المصارعة والمبارزة والسباق وغير ذلك من الرياضات الأخرى تقوية لجسمه، وإبرازا أهمية ذلك في تحسين الصحة الجسمية. ومما جاء عنه في ذلك مسابقته لزوجه عائشة رضي الله عنها فقد روت أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر، قالت: فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: «هذه بتلك السبقة»[2].

رابعا: العناية بالصحة النفسية.

إن هناك تأثيرا متبادلا بين الصحتين: النفسية والجسمية، من حيث السلامة والاعتلال، ومن حيث القوة والضعف، فكل منهما يؤثر في الآخر، وكلما كانت النفس أكثر صحة كان الجسم كذلك، واعتبارا لهذا أرسى الهدي النبوي قواعد إنماء الصحة النفسية، ونهى عن تعاطي أسباب الأمراض التي تجعل النفس عليلة. ويمكن إجمال تدابير التخطيط في الهدي النبوي لتحقيق صحة نفسية لدى أفراد المجتمع في أمرين، أولهما: تعليم السيطرة على الانفعالات والعواطف السلبية، كالغضب والحسد. وثانيهما: تعليم الخصال التي تحدث لديهم التوافق النفسي، ثم التوافق الاجتماعي، كالثقة بالذات، والاعتماد على النفس، والشعور بالمسؤولية.

ومما جاء في الهدي النبوي من ذلك إرشاد النبي ﷺ إلى ضرورة ضبط النفس عند الغضب - وهو انفعال سلبي- لتتقى آثاره الضارة على الصحة الجسمية والنفسية، فعن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: أوصني، قال: «لا تغضب» فردد مرراً قال: «لا تغضب»[3]. وعن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه:

١- رواه البيهقي في الكبرى: ١٠ / ١٥، ك: السبق والرمي، والطبراني في الكبير: ٢ / ١٩٣، رقم:١٧٨٥، وكلاهما من حديث جابر بن عبد الله، وصححه الألباني (غاية المرام، ص: ٢٢٢، رقم: ٣٨٩).

٢- رواه أبو داود: ٣ / ٢٩، ب: السبق على الرجل، ك: الجهاد، والبيهقي في الكبرى: ١٠ / ١٨. والحديث صحيح (صحيح أبي داود: ٢ / ٤٩٠، رقم: ٢٢٤٨).

٣- أخرجه البخاري: ٥ / ٢٢٦٧، ك: الأدب، ب: الحذر من الغضب، رقم: ٥٧٦٥، وأحمد بمثله: ٢ / ٣٦٢، رقم: ٨٧٢٩، عن أبي هريرة.

«ما تعدون الصرعة فيكم؟ قالوا: الذي لا تصرعه الرجال. قال: لا، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»[1]. ويدعو النبي ﷺ الغضبان إلى القعود ليخفف عنه ذلك من غضبه فيقول: «لا تساب وأنت صائم، إن سبك أحد، فقل: إني صائم، وإن كنت قائما فاجلس»[2].

ومن خلال هذه الأحاديث ندرك أهمية التحكم في الغضب في حياة المؤمن؛ فهو قيمة عظيمة من قيم مجاهدة النفس، فمن يستطيع أن يملك نفسه عند الغضب، يستطيع كذلك أن يملك نفسه في مواجهة شهوات نفسه وأهوائها، ومغريات الدنيا وملذاتها، فضلا عما يحققه تملك النفس عند الغضب من حسن العلاقات مع الآخرين، وهنا يكمن المعنى الجديد للقوة الذي يريد النبي ﷺ أن يعلمه لأصحابه وأتباعه[3].

ومما جاء أيضا في الهدي النبوي توجيه النبي ﷺ إلى ضرورة ترويض النفس على ترك الحسد، واستشعار أن ما عند الآخرين نعمة من الله تعالى يمن بها على من يشاء من عباده، فعن أنس بن مالك أن الرسول ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال»[4].

وفي هذا الحديث إشارة إلى ضرورة التخلص من عاطفة الحسد السلبية، لأنها مرض نفسي يعصف بالروابط الأخوية بين أفراد المجتمع فيقطعها، ناهيك

١- أخرجه مسلم: ٤ / ٢٠١٤، ك: البر والصلة والآداب، ب: فضل من يملك نفسه، رقم: ٢٦٠٨، وأحمد: ١ / ٣٨٢، رقم: ٣٦٢٦، وكلاهما عن ابن مسعود.

٢- رواه البخاري بنحوه: ٢ / ٦٧٠، رقم: ١٧٩٥، ك: الصوم، ب: فضل الصوم، وابن حبان في صحيحه بلفظه: ٨ / ٢٦٠، رقم: ٣٤٨٣. والنسائي في الكبرى بلفظه: ٢ / ٢٤١، رقم: ٣٢٥٩. وكلهم عن أبي هريرة.

٣- ينظر: النبوية وتوجيه المسلم إلى الصحة النفسية للدكتورة: هناء يحيى أبو شهبة، ص: ٢٥-٢٦.

٤- رواه مسلم: ٤ / ١٩٨٣، ك: فضائل الصحابة، ب: تحريم التحاسد والتباغض، رقم: ٢٥٥٩، وأبو يعلى بمثله: ٦ / ٢٩٤، رقم: ٣٦١٢، عن أنس بن مالك.

عما يحدثه الحسد في صاحبه من إرهاق عصبي، وألم نفسي، ولا شك أن هذا لا يخلو من آثار سلبية على الصحة الجسدية.

وفي مجال تعليم الخصال التي تحدث التوافق النفسي والاجتماعي كان النبي ﷺ يربي أصحابه تربية تبعث فيهم الثقة بأنفسهم، وتخلصهم من الشعور بالنقص والضعف والخوف، وتدفعهم إلى الاعتزاز بالنفس، وتروضهم على الشجاعة في إبداء الرأي، والتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم دون خشية من الناس، فعن أبي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال: «لا يحقر أحدكم نفسه. قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمرا لله عليه فقال، ثم لا يقول فيه، فيقول: الله عز وجل له يوم القيامة ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول خشية الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى»[1].

وقد كان النبي ﷺ يعلم أصحابه الاعتماد على ذواتهم، وتولي شؤونهم بأنفسهم، وعدم الاتكال على غيرهم في قضاء حوائجهم. فعن ثوبان أن الرسول ﷺ قال: «من يكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً وأتكفل له بالجنة؟» فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحداً شيئا»[2]، وفي هذا الحديث إشارة واضحة إلى أن الاعتماد على النفس، والزهد فيما عند الناس، من الخصال الحميدة التي تفرز ارتياحا نفسيا، ومحبة الآخرين في الدنيا، وتحقق الفوز بالجنة في الآخرة.

المطلب الثاني: المستوى الوقائي

الوقاية قيمة صحية جليلة، تقطع الطريق على كل علة قبل وقوعها، وتصون الصحة الفردية والجماعية عن كل مرض قبل تمكنه، وتتحقق بأن يجتهد الإنسان

١- أخرجه ابن ماجة: ٢ / ١٣٢٨، ك: الفتن، ب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم:٤٠٠٨، وأحمد: ٣ / ٣٠، رقم: ١١٢٧٣، عن أبي سعيد الخدري، وإسناده صحيح (مصباح الزجاجة: ٤ / ١٨٢).

٢- أخرجه أبو داود: ٢ / ١٢١، أبواب الصلاة، ب: كراهية المسألة، رقم: ١٦٤٣، وأحمد: ٥ / ٢٧٦، رقم: ٢٢٤٢٨، عن ثوبان، وإسناده صحيح (صحيح أبي داود: ١ / ٣٠٩، رقم: ١٤٤٦).

في القيام بالسلوكات الصحية التي تثمر المداومة عليها آثارا إيجابية على الجوانب الصحية، وأن يجتهد في الإقلاع عن تلك السلوكات التي تؤدي إلى آثار سلبية عليها.

وإن كثيرا من السلوكات السلبية التي يمارسها الفرد في حياته تورثه أمراضا بدنية جسيمة، وعللا نفسية معقدة، قد يطول علاجها بالدواء، وربما استحال ذلك، وصار الداء مزمنا ملازما لصاحبه طوال حياته، وقد يخطئ المرء حين يدع المجال للأمراض لتنال من صحته، وهو قادر على سد الطريق عليها، ومنعها من الوصول إليه عن طريق الوقاية؛ ذلك لأن كلفة العلاج - إن وجد - أكثر بكثير مما تكلفه الوقاية، ولأن الوقاية تضمن السلامة الصحية أكثر مما يضمنه العلاج. ولذا قيل في المثل: درهم وقاية خير من قنطار علاج.

واعتبارًا لأهمية الوقاية في السلامة الصحية، كان أهم أهداف التخطيط الصحي في الهدي النبوي نشر الوعي الوقائي، وثقافة الابتعاد عن مسببات المرض، والحفاظ على الصحة وقائيا قبل الحاجة للعلاج. وتحقيقا لهذا الهدف الهام في الحفاظ على الصحة اتخذ النبي ﷺ جملة من الإجراءات الكفيلة بوقاية الأفراد والمجتمع من كل مرض قبل ظهوره، وأهم تلك الإجراءات ما يأتي:

أولا: ضرورة النظافة الدائمة والشاملة.

تعتبر النظافة العامل الرئيس الذي يحول دون نمو البكتريا والجراثيم والمكروبات وتكاثرها على جسم الإنسان، وهي أعظم خطر يهدد صحته. كما تعتبر عاملا مساعدا على النجاح في علاقة الإنسان مع الآخرين، وارتباطه بهم، حيث يرتاح الناس إلى مجالسته والاقتراب منه، في حين ينفرون من الأشعث الأغبر المتسخ. ولما كانت النظافة ترتبط بالصحية ارتباطا وثيقا، وسبيلا أساسا للحفاظ عليها، جعلت في الهدي النبوي أهم إجراءات التخطيط الصحي

الوقائي، فقال تعالى ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (المدثر: ٤-٥). واعتبرت نصف الإيمان، فقال النبي ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»[١]، كما جعلت من أسباب حب الله للعبد، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢). وإن من أهم الإجراءات المتخذة لتحقيق النظافة الشخصية:

١- نظافة الأسنان والفم، حيث سن النبي ﷺ المضمضة في الوضوء، والسواك عند الصلاة، تقوية لها وإزالة لروائحها، وحماية لها من التسوس، وأمراض اللثة، ولذا جاء في الحديث: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[٢]. وقال النبي ﷺ أيضا: «إن السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»[٣].

٢- نظافة الجسم بالغسل وجوبا بعد الجنابة والحيض والنفاس، وفي غير ذلك مرة كل سبعة أيام، على الأقل للحديث: «حق على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوما يغسل فيه رأسه وجسده»[٤]. ونظافته مما يخرج منه من بول وغائط ودم بالاستنجاء وغسل موضع النجاسة، وقد حذر النبي ﷺ من عدم التنزه من النجاسة خاصة البول لكثرته وسيلانه فأخبر أنه من أسباب عذاب القبر، فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثر عذاب القبر من البول»[٥]. ونظافة الأيدي من الأوساخ، وضرورة غسلها

١- رواه مسلم: ١ / ٢٠٣، ك: الطهارة، ب: فضل الوضوء،برقم: ٢٢٣، وأحمد: ٥ / ٣٤٤، عن أبي مالك الأشعري.

٢- رواه مسلم: ١ / ٢٢٠، ك: الطهارة، ب: السواك، رقم: ٢٥٢، والبخاري: ١ / ٣٠٣، ك:الجمعة، ب: السواك يوم الجمعة، رقم: ٨٤٧، كلاهما عن أبي هريرة.

٣- رواه البخاري :٢ / ٦٨٢، ك: الصوم، ب: السواك، رقم: ١٩٣١، وأحمد: ٦ / ١٢٤، رقم: ٢٤٩٦٩، عن عائشة.

٤- رواه. البخاري: ١ / ٣٠٥، ك: الجمعة، ب: هل على من لم يشهد الجمعة غسل، رقم: ٨٥٦، والبيهقي في الكبرى: ١ / ٢٩٧، وكلاهما عن أبي هريرة.

٥- رواه ابن ماجة: ١ / ١٢٥، رقم: ٣٤٧، ك: الطهارة، ب: التشدد في البول. وأحمد: ٢ / ٣٨٩، رقم: ٩٠٤٧. وهو صحيح (مصباح الزجاجة: ١ / ٥١).

عند الوضوء، وبعد الأكل، وبعد قضاء الحاجة، فقد أكَّد النبي ﷺ على غسل اليدين بعد الأكل وقبل النوم فقال: «إن الشيطان حساس، فاحذروا على أنفسكم، من بات وفي يده غمر[1] فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه»[2]. وقد كان النبي ﷺ يخص يده اليمنى للطعام والشراب والتناول والمصافحة، ويخص يده اليسرى للاستنجاء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كانت يد رسول الله اليمنى لطهوره وطعامه، واليسرى لخلائه وما كان من أذى"[3]. وفي هذا الهدي النبوي تخطيط صحي يضمن عدم وصول الأذى – حال وجوده – إلى الفم أو إلى أيدي من يصافحهم، حيث لا يستعمل اليد اليسرى المخصصة للاستنجاء -والتي غالبا ما يعلق بها مكروبات وجراثيم- للأكل فيضر نفسه، ولا للمصافحة فيضر غيره.

٣- تخصيص مخابئ الأوساخ في الجسم بنظافة خاصة، وهي تلك المواضع التي يصعب وصول الماء إليها فلا تزال النجاسة التي فيها إلا بأمور أخرى. فقد أمر النبي ﷺ بحلق العانة، ونتف الإبط، لأن كثافة الشعر فيهما تجعلهما مرتعا للجراثيم والمكروبات، وتصعب إزالتها بالماء. وسن تقليم الأظافر؛ لأنها إذا طالت تخفي تحتها من الجسيمات الضارة ما لا يمكن للماء إزالتها. وحث على ختان الرجال، لأنه يزيل الجلدة التي تعتبر مجمعا لكثير من الفطريات الضارة، ويصعب غسلها بالماء. فقد جاء في الحديث: «خمس من الفطرة الختان والاستحداد ونتف الإبط وتقليم الأظافر وقص الشارب»[4].

١- الغمر: بفتحتين أي دسم ووسخ وزهومة من اللحم. (تحفة الأحوذي: ٥ / ٤٨٤).

٢- رواه الترمذي: ك: الأطعمة، ب: كراهية البيتوتة وفي يده ريح غمر، ٤ / ٢٨٩، رقم: ١٨٥٩، وأحمد: ٢ / ٥٣٧، رقم: ١٠٩٥٣، وكلاهما عن أبي هريرة. وإسناده صحيح (صحيح ابن ماجة: ٢ / ٢٣٠، رقم: ٢٦٦٦).

٣- رواه أبو داود: ١ / ٩، ك: الطهارة، ب: كراهية مس الذكر باليمين في الاستبراء، رقم: ٣٣، والبيهقي في الكبرى: ١ / ١١٣، رقم: ٥٤٧، عن عائشة رضي الله عنها، وإسناده صحيح (صحيح أبي داود: ١ / ٠٩، رقم: ٢٦).

٤- رواه مسلم: ١ / ٢٢١، ك: الطهارة، ب: خصال الفطرة، رقم: ٢٥٧، والبخاري: ٥ / ٢٢٠٩، ك: اللباس، ب: قص الشارب، رقم: ٥٥٥٠، وكلاهما عن أبي هريرة.

ثانيا: ضرورة حماية البيئة والحفاظ على صلاحها.

البيئة هي ذلك الوسط الذي يعيش فيه الإنسان، ويحيط به من كل جانب، ويستمد منه مقومات حياته، والبيئة بهذا المعنى تشتمل على الأرض التي يعيش عليها، والماء الذي يحيى به، والهواء الذي يتنفسه، وكل ما يحيط به من كائنات حية وجامدة[1].

وكل تخطيط يعنى بالسلامة الصحية للإنسان لا يحقق أهدافه إلا باتخاذ إجراءات عملية تحافظ على البيئة، وتهتم بصلاحها، لئلا تكون العناصر البيئية: الجراثيم والفيروسات والحشرات مصدر أمراض وأوبئة تعجز مناعة الإنسان الذاتية عن دفعها. ولأجل ذلك اهتمت منظمة الصحة العالمية منذ تأسيسها بموضوع البيئة وصحة الإنسان، وأنشأت برنامجا خاصا يضم العديد من الباحثين والخبراء في هذا الميدان.

وإن التخطيط الصحي في الهدي النبوي لم يكن غافلا عن هذه المسألة، فقد أولى صحة البيئة عناية كبيرة، واهتماما بالغا، وبين مدى تأثيرها على الإنسان، وأرشد إلى سبل الحفاظ عليها، ووضع جملة من الإجراءات العملية التي تضمن الصحة البيئية، وتفاعلها الإيجابي مع صحة الإنسان، فلا تكون سببا في أمراضه وهلاكه. ومن تلك الإجراءات المتخذة على هذا المستوى ما يلي:

١- ضرورة الحفاظ على صلاحية المياه المستعملة؛ ذلك لأن الماء (المادة الحيوية الأكثر استعمالا عند الإنسان) يعتبر من أهم العوامل الناقلة للجراثيم والمكروبات، والسبب الرئيس في كثير من الأمراض التي تصيبه، ولضمان السلامة الصحية من استعمال المياه عني الهدي النبوي بأمرين أساسين هما:

١- ينظر حماية الهواء والتربة من منظور إسلامي، مقال للباحث قدم في ملتقى حماية البيئة من منظور إسلامي، ص: ٦٧.

أ- منع تلويث المياه بالجراثيم والطفيليات والسموم، حيث نهى النبي ﷺ عن البول والغائط في الماء الراكد، قليل التجدد، وفي المستحمات أيضا، فقال النبي ﷺ: «لا يبولن أحدكم في الماء الراكد»[1]، وعن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه أن النبي ﷺ نهى أن يبول الرجل في مستحمه[2]، ونهى أيضا عن الملاعن الثلاث فقال: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[3]، وهذه المواضع هي ما يقصدها الناس طلبا لراحتهم، وهي ما يكثر فيها تجمعهم. وجاء النهي أيضا عن غمس اليد في الماء بعد الاستيقاظ من النوم خشية تلويث الماء فقال النبي ﷺ: «إذا استيقظ أحدكم فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا، فإنه لا يدري أين باتت يده»[4]؛ وذلك لأن النائم لا يدري ما مست يده من نجاسات وأشياء أخرى أثناء نومه.

ب- منع استعمال الماء الملوث بمواد سامة، فقد نهى النبي ﷺ عن الاغتسال بالماء الراكد الملوث ببول فقال: «لا تبل في الماء الراكد ثم تغتسل منه»[5]، بل نهى عن استعمال الماء لمجرد كونه راكدا فقال: «لا يغتسلن أحدكم في الماء الدائم وهو جنب»[6]؛ لأن الماء الراكد مظنة لوجود جراثيم وطفيليات وتكاثرها فيه، واستعمال الماء بهذه الحالة يوقع ضررا على مستعمله. وقد سئل النبي

١- رواه الترمذي:١ / ١٠٠، ك: الطهارة، ب: كراهية البول في الماء الراكد، ك: ب: رقم: ٦٨، وأبو داود: ١ / ١٨، ك: الطهارة، ب: البول في الماء الراكد، رقم: ٦٩، عن أبي هريرة. إسناده صحيح (صحيح ابن ماجة: ١ / ٦١، رقم: ٢٧٤).

٢- رواه الحاكم:١ / ٢٧٣، وأحمد: ٥ / ٥٦، عن عبد الله بن مغفل. إسناده صحيح (صحيح الترمذي: ١ / ٨، رقم: ٢٠).

٣- رواه والحاكم: ١ / ٢٧٣، رقم: ٥٩٤، والطبراني في الكبير: ٢٠ / ١٢٣، رقم: ٢٤٧، وكلاهما عن معاذ بن جبل. وإسناده حسن (صحيح أبي داود: ١ / ٨، رقم: ٢١).

٤- رواه مسلم: ١ / ٢٣٣، ك: الطهارة، ب: كراهية غمس المتوضئ يده، رقم: ٢٧٧، وأحمد: ٢ / ٢٤١، رقم: ٧٢٨١، وكلاهما عن أبي هريرة.

٥- رواه مسلم: ١ / ٢٣٥، ك: الطهارة، ب: النهي عن البول في الماء الراكد، رقم: ٢٨١، وأحمد: ٢ / ٣١٦، عن أبي هريرة.

٦- رواه مسلم: ١ / ٢٣٦، ك: الطهارة، ب: النهي عن البول في الماء الراكد، رقم: ٢٨٣، وأحمد بمثله: ٢ / ٤٣٣، رقم: ٩٥٨٩، وكلاهما عن أبي هريرة.

ﷺ عن الماء فيه القذاة[1] فقال: «اهرقه»[2].

وبهذين الإجراءين الصحيين يكون الإنسان في منأى عن الإصابة بما تسببه المكروبات والجراثيم والطفيليات المتنقلة عن طريق المياه. وتتحقق له الوقاية منها.

٢- ضرورة منع الرذاذ من الانتشار؛ ذلك لأن الهواء الخارج من الرئتين، وما يحتوي عليه من رذاذ يعتبر أهم وسيط ناقل للفيروسات النشطة على مستوى الجهاز التنفسي للإنسان كالأنفلونزا، والربو، وللوقاية من خطر هذه الفيروسات النشطة عند الإنسان المريض، ومنعها من الانتشار حتى لا تصير وباء عاما، كان النبي ﷺ ينهى عن أن يتنفس في الإناء أو أن ينفخ[3]، وكذلك كان النبي ﷺ يمنع الرذاذ الناتج عن العطاس من الانتشار بتغطية الفم والأنف، فقد ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ «كان إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه، وخفض أو غض بها صوته»[4].

و اتخذ النبي ﷺ هذا الإجراء لأن التنفس والنفخ في الإناء، والرذاذ المتطاير عند العطاس، تعتبر أهم العوامل المساعدة على نقل فيروسات الجهاز التنفسي إلى الطعام والشراب والفضاء الخارجي، وقد يكون ذلك مؤذيا للإنسان نفسه ولغيره ممن يشاركه طعامه وشرابه ومجال تنفسه.

٣- ضرورة تنظيف المحيط الذي يوجد فيه الناس، وإزالة ما يجلب لهم مضرة

١- القذاة كل ما يقع في العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك. (لسان العرب (قذي) ١٥ / ١٧٤).

٢- رواه الدارمي: ٢ / ١٦١، رقم: ٢١٢١، والحاكم: ٤ / ١٥٥، برقم: ٧٢٠٩، عن أبي سعيد. وإسناده حسن (سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١ / ٧٣٩، رقم: ٣٨٥).

٣- رواه مسلم: ١ / ٢٢٥، ك: الطهارة، ب: النهي عن الاستنجاء باليمين، رقم: ٢٦٧، عن أبي قتادة. والحاكم: ٤ / ١٥٥، رقم: ٧٢٠٦، عن أبي هريرة.

٤- رواه الترمذي: ٥ / ٨٦، ك: الآداب، ب: ما جاء في خفض الصوت، رقم:٢٧٤٥، والحاكم: ٤ / ٢٣٥، رقم: ٧٧٩٦، وكلاهما عن أبي هريرة، وإسناده صحيح (صحيح أبي داود: ٣ / ٩٤٨، رقم: ٤٢٠٧).

جسمية أو نفسية، ولقد اعتبر النبي ﷺ ذلك من أحسن ما يقدم المرء من أعمال صالحة، وأن تحقيقها يحقق درجة من درجات الإيمان بالله (سبحانه)، فقد جاء في الحديث: «إماطة الأذى عن الطريق صدقة»[1]، وأيضا قوله ﷺ «عرضت علي أعمال أمتي: حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها: الأذى يماط عن الطريق، ووجدت في مساوئها النخامة تكون في المسجد لا تدفن»[2].

ولا شك أن القاذورات والجيف والنفايات قليلة كانت أم كثيرة إذا ما وجدت في محيط الناس تلحق بهم أضرارا جسمية، وتقزز نفسي.

٤- التحذير من تلوث الطعام والشراب، حيث نهى رسول الله ﷺ عن التسبب في ذلك، فقال: «أوكوا الأسقية، وخمروا الطعام والشراب»[3]. ولا شك أن الطعام المكشوف والسقاء المفتوح لا يؤمن عليهما من التلوث من جراء سؤر حيوان أو سقوط بعض الحشرات السامة، أو الجراثيم الضارة، فتفسد الغذاء وتسمه، وبذلك تؤذي الصحة.

٥- ضرورة أخذ الاحتياطات اللازمة في الأمور العامة، فلا يترك المرء نفسه يتعرض لمهالك صحية بسبب إهماله للجوانب الوقائية، فقد برئ النبي ﷺ ممن بات على سطح لا جوانب له فقال: «من بات على ظهر بيت ليس له حجار فقد برئت منه الذمة»[4]. وأمر بتفقد ما تحت الفراش عند النوم، ربما وجدت

١- أخرجه البخاري في الباب عن أبي هريرة: ٢ / ٨٧١، ك: المظالم، وأحمد: ٧ / ١٧٨، رقم: ٢١٥٨٨، عن أبي ذر.

٢- رواه مسلم: ١ / ٣٩٠، ك: المساجد، ب: النهي عن البصاق في المسجد، رقم: ٥٥٣، وأحمد: ٥ / ١٧٨، رقم: ٢١٥٨٩، وكلاهما عن أبي ذر الغفاري.

٣- رواه البخاري: ٥ / ٢٣٢٠، ك: الاستئذان، ب: غلق الأبواب بالليل، رقم: ٥٩٣٨، والبيهقي بمثله في الشعب: ٥ / ١٢٨، رقم: ٦٠٦٢، وكلاهما عن جابر بن عبد الله.

٤- رواه أبو داود: ٤ / ٣١٠، ك: الديات، ب: النوم على محجر، برقم: ٥٠٤١، من حديث علي بن شيبان، وإسناده صحيح (صحيح أبي داود: ٣ / ٩٥١، رقم: ٤٢١٥).

عقرب سامة، أو حشرة ضارة، أو أمر مريب، فقال: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه»[1]. ونهى أيضا عن ترك المصابيح موقدة، والأبواب مفتوحة، والأسقية مكشوفة أثناء النوم، لأن النائم لا يأمن على هذه الأمور أن تبقى على الحال الذي تركت عليه، فربما عبثت الريح أو حيوانات البيت بها فأشعلت حريقا، أو لوثت ماء، أو أفسدت طعاما. فقال: «أطفئوا المصابيح إذا رقدتم، وغلقوا الأبواب، وأوكوا الأسقية، وخمروا الطعام والشراب»[2].

ثالثا: اتقاء مصادر العدوى.

العدوى هي انتقال مسبب المرض من فيروس أو بكتيريا أو طفيلي، من مريض إلى سليم، فيحدث فيه المرض نفسه، ولم تكن العدوى بالأمراض معروفة أسبابها من قبل، لأن مسببات الأمراض المعدية لا ترى بالعين المجردة، ولكنها ترى بالميكروسكوب الذي لم يستخدم في هذه الأغراض إلا في القرن الثامن عشر وما بعده[3]. وفي هذا المجال اتخذ الهدي النبوي الإجراءات الوقائية الآتية:

١- ضرورة الابتعاد عن المصاب بمرض معد، فلا يقربه أحد، ولا يلامسه آخر، فقد جاء في الحديث: «لا يورد ممرض على مصح»[4]، وحذر النبي ﷺ من الأمراض المنتقلة بالاقتراب من المريض كالجذام. وجسد هذا الأمر مع مجذوم ثقيف الذي جاء ليبايعه، فلما سمع به أرسل إليه: «ارجع فقد

١- رواه البخاري: ٥ / ٢٣٢٩، ك: الدعوات، ب: التعوذ، رقم:٥٩٦٠، وأحمد: ٢ / ٢٨٣، رقم: ٧٧٩٨، عن أبي هريرة.

٢- رواه البخاري: ٥ / ٢١٣٢، ك: الأشربة، ب:تغطية الإناء، رقم: ٥٣٠١، وأبو يعلى: ٣ / ٣٦٨، وكلاهما عن جابر.

٣- ينظر: موقع إشراقة، :www.ishraqa.com. من الإعجاز العلمي في الحديث الشريف، أ.د. أحمد شوقي إبراهيم، الرابط: http://www.ishraqa.com/newlook/art_det.asp?ArtID=321&Cat_ID=13

٤- رواه مسلم: ٤ / ١٧٤٣، ك: السلام، ب: لا عدوى...، رقم: ٢٢٢١، والبخاري:٥ / ٢١٧٧، ك: رآه، ب: لا هامة، رقم: ٥٤٣٧، وكلاهما عن أبي هريرة.

بايعناك»[1].

ومن خلال هذا الإجراء تتضح قاعدة هامة اعتمدها التخطيط الصحي في الهدي النبوي، وهي تقديم مصلحة الصحيح على مصلحة المريض، و مصحة الجماعة على مصلحة الفرد، فإن كان الفرد مريضا، ويحمل سبب العدوى التي تنقل المرض إلى الجميع وجب عزله عن المجتمع، تقديما لمصلحة المجتمع على مصلحته، ولا شك أنه سيعاني من جراء العزلة ألم المرض الجسدي، وألم الإبعاد النفسي، لكن مصلحة الجماعة أهم.

وانطلاقا من هذا فعلى المريض مرضا معديا بالملامسة أو المقاربة أو الرذاذ أن يجتنب مجالس الناس، وأن يكف عن التعامل المباشر معهم من بيع وشراء، وأخذ وعطاء، وكل ما من شأنه أن يكون واسطة لانتقال العدوى، ولا شك أن في محافظته على صحة الآخرين يكون مأجورا أجرا عظيما.

٢- الإقرار بمبدأ العدوى، وأثرها الخطير على الصحة العامة، وضرورة تجنب مظانها، وقد تبين ذلك من خلال الأحاديث النبوية السابقة.

وهذا الإقرار لا يتنافى مع حديث النبي ﷺ «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول»[2]؛ لأن حقيقة هذا الحديث ليس نفيا للعدوى، وإنما هي تصحيح لمفهوم صحي خاطئ كان شائعا عند القوم آنذاك، فقد كانوا يعتقدون أن الأمراض المعدية تسري من جسد إلى آخر بطبعها، دون أن يكون هناك أسباب أو وسائل أو ظروف تنقلها، ولا يصح هذا الاعتقاد، بل الصحيح هو أن العدوى تنتقل بتقدير الله بناء على ما أودعه فيها من سنة كونية[3]، ومن أراد السلامة من

١- سبق تخريجه.

٢- أخرجه مسلم: ٤ / ١٧٤٢، ك: السلام، ب: التداوي..، رقم: ٢٢٢٠، وأحمد: ٢ / ٢٦٧، وكلاهما عن أبي هريرة.

٣- ينظر فتح الباري: ١٠ / ١٥٨.

العدوى عليه بمعرفة قانونها الكوني، فلا يقرب مواضعها، ولا يتعاطى أسبابها. وفي هذا تصحيح لمفاهيم صحية خاطئة، وتحقيق للوعي الصحي، وترشيد للسلوك العام تجاه هذه القضية، ولعل هذا من أبرز أهداف التخطيط الصحي في الهدي النبوي.

٣- منع العلاقات الجنسية الشاذة والمنحرفة، وهي تلك العلاقات التي تكون خارج إطار الزواج الشرعي، وذلك لخطورة الأمراض المتنقلة عبر الممارسة الجنسية، وقدرتها الفائقة على الفتك بالصحة الجسمية والنفسية والاجتماعية، وفي سبيل الوقاية من ويلات هذه الأمراض اتخذ النبي ﷺ الإجراءات الآتية:

أ- تجريم الممارسة الجنسية خارج إطار الزواج، زنا كانت أم لواطا، وتشريع عقوبة الجلد والقتل رجما على مرتكبيها، فقد قال الله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (النور: ٢)، وجاء في حديث النبي ﷺ: «قد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة والنفي، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»[١].

ب- النهي عن مباشرة المرأة في أيام الدورة الشهرية لما ثبت من أضرار جسيمة على الرجل والمرأة من جراء ذلك، فقال الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

ج- النهي عن إتيان المرأة في دبرها، لأن الأذى الناتج عن ذلك أشد وأخطر من الاتصال الجنسي مع المرأة حال الحيض، فقد جاء في الحديث: «من أتى امرأته في دبرها فقد كفر»[٢].

١- سبق تخريجه.

٢- رواه الترمذي بمثله: ١ / ٢٤٣، ك: أبواب الطهارة، ب: كراهية إتيان الحائض، رقم: ١٣٥، وأحمد: ٢ / ٤٧٦، رقم: ١٠١٧٠، و كلاهما عن أبي هريرة، وإسناده صحيح (صحيح ابن ماجة: ١ / ١٠٥، رقم: ٥٢٢).

رابعا: الحجر الصحي.

يعتبر الحجر الصحي أهم وسيلة للحد من استفحال الأمراض الوبائية الخطرة، سريعة الانتشار، واسعة الإهلاك، كالطاعون والكوليرا والأنفلونزا الوبائية. وقد كان للهدي النبوي فضل السبق في حسن التعامل الوقائي مع هذه الأمراض، فوضع أسس الوقاية منها، وبين كيفية حصارها، والتقليل من ضحاياها، وذلك من خلال الإجراءات الوقائية الآتية:

١- توعية جماهير المسلمين بخطورة هذا النوع من الأمراض، وبكيفية انتقاله، فهي أمراض وبائية بالغة الخطورة، وإذا حلت بأرض أتت على الكثير من أهلها، وهو مرض ينتقل عن طريق العدوى السريعة، ولا تمكن السلامة منه إلا عن طريق حصار مكان المرض، وعزل ضحاياه. فقد جاء عن النبي ﷺ بيان بأن الأمراض الوبائية هي من أعظم وسائل الهلاك في الأمة فقال: «فناء أمتي بالطعن والطاعون[1]»، فقلت (أي عائشة): يا رسول اللهِ هذا الطعن قد عرفناه فَمَا الطاعون؟ قال: «غُدَّةٌ كَغُدَّة الإبل المقيم فيها كالشهيد، والفار منها كالفار من الزحف»[2]. وذكر أيضا أنه من الأمراض التي أصابت بعض بني إسرائيل فقال: «الطاعون رجس، أرسل على طائفة من بني إسرائيل»[3].

٢- منع الدخول إلى أرض الوباء؛ وذلك لأن من دخلها انتقلت له العدوى، وأصيب بالمرض، وحمل فيروسه، فقال النبي ﷺ: «إذا سمعتم به بأرض فلا

١- الطاعون لغة من الطعن وعدلوا به عن أصله، ووضعوه دالا على الموت العام كالوباء. (فيض القدير: ٤ / ٢٨٦).

٢- رواه أحمد: ٦ / ٢٥٥، وأبو يعلى: ٧ / ٣٧٩، وكلاهما عن عائشة. قال فيه ابن حجر: إسناده حسن (فتح الباري: ١٠ / ١٨٨)، وقال فيه المنذري: رواه أحمد بسند حسن. (الترغيب والترهيب: ٢ / ٢٢١). وقال العراقي: رواه أحمد بإسناد جيد (تخريج أحاديث الإحياء: ٥ / ١١٦، رقم: ٢١١٦).

٣- رواه البخاري: ٣ / ١٢٨١، ك: الأنبياء، ب: أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم، رقم: ٣٢٨٦، عن أسامة بن زيد، ورواه البزار: ٨ / ١٦، عن أبي موسى الأشعري.

تقدموا عليه»[1].

٣- منع الخروج من أرض الوباء بالنسبة لمن كان بها؛ لأنه بخروجه وهو حامل للإصابة – ظاهرة كانت أم لا تزال خفية- سيخرج الوباء، وينقله إلى أرض أخرى سالمة، وسيزيد في عدد الضحايا، فقد جاء في الحديث: «وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارا منه»[2]. وتحقيقا لهذين الإجراءين، وضمانا لتنفيذهما شبه النبي ﷺ الخارج من أرض الوباء هروبا منه كالفار من أرض المعركة، كما وعد الماكث بأرض الوباء، الصابر فيها بأجر الشهيد فقال: «الفار من الطاعون كالفار من الزحف، ومن صبر فيه كان له أجر شهيد»[3].

ومن خلال جملة هذه التدابير الوقائية العامة، والإجراءات الصحية الشاملة، والوسائل المتخذة لضمان تنفيذ الإجراءات، يتبين مدى اهتمام التخطيط الصحي في الهدي النبوي بالجانب الوقائي، ومدى عنايته بها، واعتباره الأساس الأول في حماية صحة الفرد والمجتمع ، وإن هذا الأساس هو الذي يضمن السلامة للصحة العامة حاضرا ومستقبلا، وإن أي تخطيط صحي لا يولى اهتماما للجانب الوقائي لن يحقق أهدافه الصحية، مهما كانت الوسائل والإمكانات التي يضعها للجانب العلاجي.

ولعل إطلاق العنان لحرية الفرد في العالم الغربي، وعدم القدرة على تقييدها بالصالح العام، جعله لا يستجيب لمتطلبات الوقاية الصحية، فأفرط في الاستعمال السيئ للمكونات البيئية، والتعاطي بنهم وشغف للممارسات الجنسية المنحرفة والشاذة، والإهمال للنظافة الشخصية وهذا السلوك الذي لا يراعي وزنا للوقاية

١- رواه مسلم: ٤/ ١٧٤، ك: السلام، ب: الطاعون، رقم: ٢٢١٨، وأحمد: ١/ ١٩٤، رقم: ١٦٧٩، والطبراني في الكبير: ١ / ١٣١، وكلهم عن عبد الرحمن بن عوف.

٢- التخريج السابق نفسه.

٣- رواه أحمد:٦/ ٢٥٥، وأبو يعلى: ٧ / ٣٧٩، وكلاهما عن عائشة، وإسناده حسن (الترغيب والترهيب: ٢ / ٢٢٢).

الصحية فوت على أصحابه لذة الاستمتاع بالحياة؛ حيث أفرز أمراضا غريبة، وعللا جسيمة، حيرت الأطباء، وعطلت العقاقير، وخيمت بظلالها السلبية على الصحة الجسمية والصحة النفسية، وغدت شريحة هامة من شباب المجتمع تعيش في حالة عجز دائم، واستسلام كلي للمرض، وفي هذا الواقع إنذار بمستقبل مظلم لهذا العالم وحضارته.

المطلب الثالث: مستوى العلاج

إن الهدي النبوي يجعل من حقوق البدن على صاحبه، أن يعالجه إذا مرض، وأن يتعاطى لأجله الدواء إذا اعتل، فقال النبي ﷺ: «وإن لجسدك عليك حقا»[1]، وفي تقرير هذا الواجب عملٌ على إعادة الصحة للفرد بعدما اعتراه المرض، وعودة السلامة له من بعد ما أصابه السقم. وتحقيقا لهذا الهدف، وضمانا للعلاج من غير مضاعفات اتخذت الإجراءات الآتية:

١- تخليص الطب من السحر والكهانة والشعوذة والعرافة بعدما اختلطت به، وصار لا يدَّعي الطب إلا من كان ساحرا أو كاهنا. واعتبر النبيﷺ أن اعتقاد ذالك يتنافى مع صريح الإيمان وكماله، فقال: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»[2]. وقال أيضا: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»[3] وأيضا: «من علق تميمة فقد أشرك»[4].

وهذه النصوص النبوية تجعل العلاج بالسحر والكهانة وما كان على نحوها من نواقض الإيمان بالله تعالى، وهي بدورها تعمل على ترسيخ حقيقة أن القادر

١- سبق تخريجه.
٢- رواه أحمد: ٢ / ٤٢٩، رقم: ٩٥٣٢، والطبراني في الأوسط: ٢ / ١٢٣، كلاهما عن أبي هريرة، وإسناده جيد (الترغيب والترهيب: ٤ / ١٩).
٣- رواه الطبراني في الكبير: ١٠ / ٢١٣، وأبو يعلى: ٣ / ١٣٣، عن ابن مسعود، وإسناده صحيح (غاية المرام، ص: ١٨٢، رقم: ٢٩٨).
٤- رواه أحمد: ٤ / ١٥٦، والطبراني في الكبير: ١٧ / ٢٩٧، وكلاهما عن عقبة بن عامر الجهني. وإسناده صحيح (سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١ / ٨٨٩، رقم: ٤٩٢).

على النفع والضر، وتخليص المريض من علته إنما هو الله وحده الذي جعل لكل شيء سببا، ووضع لكل داء دواء. وفي هذا التوجيه النبوي تحقيق لهدف سام من أهداف التخطيط الصحي ألا وهو تصحيح المفاهيم الصحية الخاطئة لدى الفرد المسلم، فيدفع الداء بطلب الدواء، ويسأل من الله الشفاء، وما السحر والكهانة إلا من تلبيسات الجاهلية وإشاعات الوثنية، ولا علاقة لها بالعلاج.

٢- ضرورة التداوي بما يحقق للمريض ذهاب علته، وإعادة صحته، فقال النبي ﷺ: «تداووا فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواءً، غير داء واحد وهو الهرم»[١]، وينبغي أن يراعى في هذه المسألة تجنب التداوي بالمحرمات، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم»[٢]. ولقد جمع النبي ﷺ أصول العلاج في ثلاثة أمور: العسل والحجامة والكي بالنار، فهي مصدر كل شفاء، ومنها يستمد كل دواء، فقال: «الشفاء في ثلاثة في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنا أنهى أمتي عن الكي»[٣].

٣- قصر مهنة علاج المرضى على ذوي الخبرة، وأهل التخصص في الطب، إذ ليس كل من ادعى طبا أذن له بمزاولة علاج المرضى، ومن مارس الطب وهو ليس أهلا له، ولا خبرة له فيه، وجب عليه ضمان ما أصاب في المريض، فقد ورد في حديث النبي ﷺ «من تطبب ولم يكن معروفا بالطب، فأصاب نفسا فهو ضامن»[٤].

١- رواه أبو داود: ٤ / ٣، ك: رآه، ب: الرجل يتداوى، رقم: ٣٨٥٥، والحاكم: ٤ / ٤٤٢، وكلاهما عن أسامة بن شريك وإسناده صحيح (غاية المرام، ص: ١٧٨، رقم: ٢٩٢).

٢- رواه البخاري: ٥ / ٢١٢٩، ك: الأشربة، ب: شرب اللبن بالماء، رقم: ٥٢٩٠، والحاكم: ٤ / ٤٥٥، رقم: ٨٢٦٠، وكلاهما أخرجاه موقوفا عن ابن مسعود.

٣- رواه البخاري: ٥ / ٢١٥٢، ك: رآه، ب: الشفاء في ثلاثة، رقم: ٥٣٥٧، والبيهقي في الشعب: ٢ / ٦٠، رقم: ١١٦٤، وكلاهما عن ابن عباس.

٤- رواه أبو داود: ٤ / ١٩٥، ك: الديات، :ب: من تطبب بغير علم، رقم: ٤٥٨٦، والحاكم: ٤ / ٢٣٦، رقم: ٧٤٨٤، وكلاهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه، وإسناده حسن (صحيح ابن ماجة: ٢ / ٢٥٧، رقم: ٢٧٩١).

٤- دعوة ذوي الخبرة وأهل الاختصاص في الطب إلى اكتشاف ما يجهلون من وسائل العلاج، والبحث عن أسباب الأمراض التي لم تعرف بعد، وكان الهدي النبوي قد فتح الباب على مصراعيه تحقيقا لهذه المسألة، وبعثا للأمل لدى كل من المريض والطبيب في إيجاد دواء مهما استعصى الداء، فقد جاء في الحديث: «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله»[1]. قال ابن القيم مبرزا بعض فوائد هذا الحديث: «تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث على طلب ذلك الدواء، والتفتيش عليه، فإن المريض إذا شعرت نفسه أن لدائه دواء يزيد تعلق قلبه بروح الرجاء، وبرد من حرارة اليأس، وانفتح له باب الرجاء. وكذلك الطبيب إذا ما علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه، والتفتيش عليه»[2].

١- إرساء قواعد الطب وأصول العلاج على قاعدة السببية، فلكل داء سبب يوجده، وعلة توقعه، فإذا ما عرف السبب وأزيل، وانكشفت العلة وأزيحت وقع الشفاء بإذن الله تعالى. فقد قال النبي ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أصيب داءً دواءٌ برئ بإذن الله»[3]. قال ابن القيم: «قد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها»[4].

ومن خلال هذه الإجراءات والآثار التي جاءت في سياق العلاج يتبين أن النبي ﷺ لم يبعث طبيبا ليعالج أمراض الناس وعللهم الجسدية، وإنما بعث ليقدم للبشرية جوامع ما تقوم به حياتهم من إرشادات وتوجيهات صحية قائمة على أساس من الوحي، والتجربة النبوية، وما أُلهم إليه من الله تعالى، فأرشد أصحابه

١- رواه أحمد: ١/ ٤١٣، رقم: ٣٩٢٢، والطبراني في الأوسط: ٧/ ١٢١، رقم: ٧٠٣٧، وكلاهما عن ابن مسعود، وإسناده صحيح (غاية المرام، ص: ١٧٨، رقم: ٢٩٢).

٢- زاد المعاد: ٤/ ١٧.

٣- رواه مسلم: ٤/ ١٧٢٩، ك: السلام، ب: لكل داء دواء، رقم: ٢٢٠٤، وأحمد: ٣/ ٣٣٥، رقم: ١٤٦٣٧، وكلاهما عن جابر بن عبد الله.

٤- المصدر نفسه: ٤/ ١٤.

إلى أصول الطب السليمة، وجوامع قواعده المتينة، فعليها يرتكز المخططون، ومنها ينطلق الباحثون.

المطلب الرابع: مستوى التأهيل.

إن الهدف الأساس من التأهيل هو تخليص المريض من وطأة الإعاقة التي يسببها له المرض، أو التخفيف منها على الأقل، وهذه الوطأة هي نقص في قدرة المريض على مزاولة نشاطه اليومي، وأداء واجباته الدينية أو الاجتماعية،، وهو ما يولد لديه إحساسا نفسيا بأنه عاجز، وهذا الذي يجعل نفسيته تسوء وتضطرب، وقد يكون هذا سببا في نشوء أمراض جسدية لم تكن عنده من قبل.

ودرءا لهذا الشعور النفسي بالعجز والضعف اتخذ الهدي النبوي في حق المريض الإجراءات الآتية:

١- الترخيص للمريض بأن يزاول العبادة على الوجه المقدور عليه، فيصلي قاعدا إن عجز عن الصلاة قائما، ويصلي مستلقيا إن عجز على ذلك قاعدا، وإن عجز عن الصيام أفطر ثم قضى، وإن يئس أفطر وتصدق، فقد جاء في حديث عمران بن الحصين أنه قال: ثم كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ فقال: «صل قائما، إن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب»[(١)]. وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(البقرة: ١٨٤): ليست منسوخة، هي للشيخ والمرأة الكبيرة، لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكينا»[(٢)].

١- رواه البخاري: ١ / ٣٧٦، أبواب تقصير الصلاة، ب: إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب. وابن ماجة: ١ / ٣٨٦، ك: إقامة الصلاة، ب: ما جاء في صلاة المريض.

٢- رواه البخاري: ٤ / ١٦٣٨، ك: التفسير، ب: قوله أياما معدودات.

٢- الترخيص للمريض باستعمال بعض الممنوعات التي حرمت في حالة السلامة الجسدية؛ ليتمكن من مزاولة حياته الاجتماعية، وأداء مهامه اليومية بشكل عادٍ، فقد أذن النبي ﷺ لعبد الرحمان بن عوف والزبير بن العوام أن يلبسا الحرير لحكة شديدة كانت بهما منعتهما من اللباس العادي[1]، وكان النبي ﷺ أيضا قد رخص لعرفجة بن أسعد لما قطع أنفه يوم الكلاب أن يتخذ أنفا من الذهب[2]. وقياسا على هذا فإنه لا مانع من استعمال الأعضاء الصناعية التي ترفع من عجز المريض، وتجعله مؤهلا للقيام بالواجبات الدينية والاجتماعية وغيرها، وتجعله يحظى بارتياح نفسي في المجتمع، كالرجل واليد والعين والأنف الصناعية.

وإن الهدي النبوي في اتخاذه لهذه الإجراءات يكون قد سعى إلى تحسين الجانب النفسي عند المريض، فإن أداء المريض واجباته الدينية على الوجه المقدور عليه دون أن ينقص ذلك من الأجر شيئا يخلّص المريض من عبء نفسي يشعره بالإحباط والتقصير والعجز، كما أن ظهوره في أوساط الناس بشكل ملائم لا يبعث على النفرة منه، والاشمئزاز من منظره - كمعدل الأنف المبتور مثلا- يساعده على الارتياح النفسي والاندماج الاجتماعي. ومن هنا تظهر أهمية تأهيل المرضى والزمني في التخطيط الصحي في الهدي النبوي.

المبحث الثالث: صور من التخطيط الصحي في الهدي النبوي.

لقد عمل النبي ﷺ انطلاقا من كمال شخصيته وحسن تفكيره، ودقة تدبيره، واهتداءً بالوحي على أن يخطط للمجتمع الإسلامي كل شؤون حياته بكفاءة

١- رواه البخاري: ٣/ ١٠٦٩، ك: الجهاد والسير، ب: الحرير في الحرب، رقم: ٢٧٦٢، وأحمد: ٣/ ١٢٧، رقم: ١٢٣١٠ عن أنس بن مالك.

٢- رواه أبو داود: ٤/ ٩٢، ك: الخاتم، ب: ربط الأسنان بالذهب، رقم: ٤٢٣٢، والطبراني في الكبير: ١٧/ ١٤٦، رقم: ٣٧٠، وكلاهما عن عرفجة بن أسعد، وإسناده صحيح (صحيح أبي داود: ٢/ ٧٩٦، رقم: ٣٥٦١).

ونجاح، ومن ذلك التخطيط للشؤون الصحية، رغم انعدام الوسائل المتطورة، وقلة الخبرة الطبية، ووسائل العلاج آنذاك. وكان تخطيطه الصحي يهدف إلى تأمين مستقبل صحي يحفظ على المسلمين سلامتهم الجسدية والنفسية، من خلال إجراءات لتحسين الصحة العامة، وإجراءات لتفعيل سبل الوقاية من الأمراض، وإجراءات علاجية وأخرى تأهيلية للرفع من مستوى كفاءة الجسم المصاب بالمرض.

ولم يكن هذا التخطيط محددا بالفترة التي عاشها النبي ﷺ مع أصحابه فحسب، بل كان تخطيطا استراتيجيا بعيد المدى، تتحقق نتائجه في أية بيئة إنسانية، وتمتد صلاحيته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهنا يظهر الجانب الإعجازي في التخطيط النبوي من حيث وضوحُ أهدافه، ودقةُ نتائجه، ونجاعةُ إجراءاته وتدابيره، وشموليته للزمان والمكان، فكل من اعتمد أسسه، وعمل بإجراءاته لم تخطئه نتائجه، مهما كان العصر الذي يعيش فيه، ومهما كانت البيئة التي يرعى فيها؛ ذلك لأن التخطيط الصحي في الهدي النبوي ينطلق من القواعد الكلية الصحيحة التي تحكم الإنسان جسما وروحا، ومن العلاقة التي بينه وبين البيئة المحيطة به في إطار قانون الأسباب ونتائجها.

ولقد شهد المجتمع الإسلامي في العهد النبوي صورا شتى، ونماذج كثيرة للتخطيط الصحي أظهرت للمسلمين خاصة والعالم أجمع مدى نجاعة التخطيط النبوي في إيجاد مستقبل زاهر بالصحة والعافية، خال من الأمراض المستعصية، والأوبئة الفتاكة. ولعل من أهم تلك الصور والنماذج ما يلي:

المطلب الأول: التخطيط للوقاية من الأمراض الجنسية[1]

لم تكن الأمراض الجنسية - كالزهري والسيلان والإيدز..- معروفة في العهد النبوي، وإنما كانت أسبابها لا تخفى على عاقل بأنها أسباب لا تحمد عواقبها، وإن جهلوا نوع الأمراض التي تسببها، ولما كانت هذه الأمراض تنتقل عن طريق الممارسات الجنسية الشاذة والمنحرفة اعتمد الهدي النبوي في عملية التخطيط لاستئصال هذه الأمراض واجتثاثها على الأسلوب الوقائي فاتخذ الإجراءات الآتية:

أولا: إيجاد الاستعداد النفسي، والقابلية لتلقي الأوامر، وتنفيذ الإجراءات الصحية دون رقابة بشرية، ولا يكون ذلك إلا باعتماد الأساس العقدي، وتفعيل قيم الإيمان بالله، والتسليم والرضى بشريعته، واليقين بأنها تحقق المصلحة الفردية والجماعية في الدنيا والآخرة. ولعل هذا الإجراء هو سر نجاح التخطيط النبوي؛ ذلك لأن استجابة الإنسان لمن يؤمن به، ويعظمه، ويعبده ويخشاه، ولا يغيب عنه أبدا غير استجابته لرجل القانون خوفا من عقوبة بشرية محدودة يمكن خداعها،

١- يأتي مرض الإيدز في مقدمة الأمراض الجنسية الخبيثة، والأوبئة الفتاكة التي تهدد صحة الأفراد، والمجتمعات البشرية، وذلك لأن هذا المرض يفقد الإنسان مناعته المكتسبة، فيصير عاجزا عن الدفاع ضد أي مرض مهما كان بسيطا، فيعجل في أجله. وكان ظهور هذا المرض في بداية أمره سنة ١٩٨٣م في أوساط الشاذين جنسيا، مما يؤكد أن السبب الرئيس في ظهور هذا المرض هو الشذوذ الجنسي (اللواط)، ثم صار شائعا بين المدمنين على المخدرات بواسطة الحقن، والأجنة في بطون الأمهات المصابات، وحسب إحصائيات سنة ٢٠٠٧م فقد بلغ عدد ضحاياه عالميا ٧٠مليونا، توفي منهم ٤٠ مليونا، وظل ٣٠ مليونا يصارعون المرض، في انتظار الموت ما لم يسعفوا بدواء. وبفضل الجهود الصحية التي قدمتها منظمة الصحة العالمية لأجل مكافحة هذا المرض تراجع عدد المصابين به، فبلغ ٣٣,٣ مليون مصاب في العالم وفق آخر إحصائية في آخر سنة ٢٠٠٩م. (ينظر: - موقع دارج، darg31.com. الإيدز: الوقاية والعلاج، الدكتور عبد الجليل، تاريخ: ١٠ / ٠٨ / ٢٠١٠م. الرابط: http://www. darg3l.com/archive/index.php/t-35658.html

- منظمة الصحة العالمية، www.who.int. مكافحة الإيدز والعدوى بفيروسه، تاريخ: ١٠ / ١٢ / ٢٠٠٩م. الرابط: /http://www.who.int/topics/millennium_development_goals/diseases/ar index.htm)

أو التحايل عليها[1]. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (آل عمران:٠٥).

ثانيا: توعية المجتمع بقبح وفحش ممارسة الشذوذ الجنسي وبعواقبه الوخيمة على الفرد والمجتمع، وذلك من خلال عرضه لقصة قوم لوط (عليه الصلاة والسلام) الذين تمادوا في هذا الفعل القبيح، ولم يتعظوا لمَّا نهاهم عنه نبيهم، فكان مصيرهم الهلاك في أبشع صوره، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ (الأعراف:٨٠-٨٤).

وإن هذا الحدث التاريخي بالنظر إليه من حيث كونه سببا ونتيجة حتمية له يمكن اعتباره سنة كونية مستمرة عبر التاريخ، تظهر نتائجها بتوفر أسبابها، ولا تستثني أحدا من البشر. ومن هنا وجب الاعتبار بما حدث لقوم لوط، حتى تقع السلامة مما أصابهم وأهلكهم.

وكانت التوعية أيضا من خلال استشراف النبي ﷺ وتنبئه بعواقب هذه الآفة على الصعيد الصحي في إطار الأسباب والنتائج فحذر من الشذوذ الجنسي وإشاعة الفاحشة في المجتمع؛ لأن ذلك سبب لظهور أمراض وعلل صحية لم تعرف عند الأسلاف، فقال: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم»[2]. وفي هذين النصين: القرآني والنبوي تأكيد بخطورة هذه الأعمال الدنيئة، ورفع لمستوى الوعي

١- موقع الدعوة، التربية الوقائية في الإسلام، فتي يكن، الرابط: http://www.daawa-info.net/books1.php?parts=170&au=%DD%CA%CD%ED%20%ED%DF%E4

٢- رواه ابن ماجة: ٢ / ١٣٣٢، ك: الفتن، ب: العقوبات، رقم: ٤٠١٩، والبيهقي في الشعب: ٣ / ١٩٧، رقم: ٣٣١٥، وكلاهما عن عبد الله بن عمر، وإسناده صحيح (صحيح ابن ماجة: ٢ / ٣٧٠، رقم: ٣٢٤٦).

الصحي تجاهها، وتأكيد على أن هذا الأمر العقابي هو سنة جارية، ونظام لا يتخلف عن أي قوم، مهما كانت جنسيتهم، أو ديانتهم، وبعد كل هذا فإنه لا يتصور من عاقل الأقدام على هذا الفعل.

ثالثا: توجيه المجتمع إلى إشباع الرغبات الجنسية في إطار علاقة الزواج الشرعي، فقال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج»[٣]، وحث على تسهيل الزواج لمن أراده وطلبه إذا كان على خلق ودين، وحذر من انتشار الفساد الخلقي والفتن الاجتماعية من جراء منع ذلك وتعطيله، فقال: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[٤].

رابعا: النهي عن تعاطي أسباب الإثارة الجنسية، فقد جاء في القرآن حث على غض البصر، وحفظ العورات، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور: ٣٠)، ونهى النبي ﷺ عن التعري والتكشف لما في ذلك من تحريك للشهوة وإثارتها، فقال لرجل سأله عن كشف العورة: «احفظ عورتك إلا من زوجتك وما ملكت يمينك، فقال: الرجل يكون مع الرجل، قال: إن استطعت ألا يراها أحد فافعل، فقال: والرجل يكون خاليا، قال: فالله أحق أن يستحيى منه»[٥]. وكل هذه الإجراءات لأجل سد جميع المنافذ التي تؤدي إلى انتشار هذه الآفات الخطيرة التي لا تحمد عواقبها.

٣- رواه مسلم: ٢ / ١٠١٨، ك: النكاح، ب: استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم: ١٤٠٠، وأحمد: ١ / ٤٢٥، رقم: ٤٠٣٥، وكلاهما عن عبد الله بن مسعود.

٤- رواه الترمذي: ٣ / ٣٩٥، ك: النكاح، ب: إذا جاءكم من ترضون دينه، رقم: ١٠٨٥، والطبراني في الأوسط: ٧ / ١٣١، رقم: ٧٠٧٤، وكلاهما عن أبي هريرة، وإسناده صحيح (صحيح الترمذي: ١ / ٣١٥، رقم: ٨٦٦).

٥- رواه الترمذي: ٥ / ٩٧، ك: الأدب، ب: حفظ العورة، رقم: ٢٧٦٩، وأحمد: ٥ / ٤، عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده. وصححه ابن حجر إلى بهز، (تغليق التعليق: ٢ / ١٦٠)، وحسنه الألباني (سلسلة الأحاديث الضعيفة: ١ / ٤٧٦، رقم: ٣٠٦).

خامسا: تشريع سنة الختان التي تعمل على التقليل من الأمراض المنتشرة بواسطة الممارسة الجنسية، حيث يعتقد أن الخلايا التي تزال عند عملية الختان سريعة التأثر بالفيروسات، كما أنها خلايا أكثر حساسية مما يجعلها أكثر عرضة للنزيف أثناء العملية الجنسية، وهذا ما يزيد من احتمال الإصابة بالعدوى، فقال النبي ﷺ: «خمس من الفطرة: الختان والاستحداد ونتف الإبط وتقليم الأظافر وقص الشارب»[١].

وهذا التحليل هو ما أظهرته الدراسات العلمية الحديثة مؤخرا التي أجريت في ثلاث دول إفريقية: كينيا، أوغندا، جنوب أفريقيا، وأكدت الدراسة أن الختان يؤدي إلى نقص احتمال الإصابة بفيروس الإيدز بنسبة ٦٠٪، وهذا ما جعل منظمة الصحة العالمية تدرج ختان الرجال ضمن إستراتيجيات الوقاية من مرض الإيدز[٢].

سادسا: تشريع عقوبة القتل على كل من يأتي فاحشة اللواط؛ لأنه بعد كل هذه الإجراءات الوقائية الوجيهة، وتصريف الشهوة الجنسية في إطار الزواج لم يعد للإنسان العاقل من مبرر يدفعه نحو هذا العمل الخبيث، ويعد إتيانه مرضا في النفس، وشذوذا في السلوك واضطرابا في الشخصية، ولا يمكن علاجه إلا عن طريق سن هذه العقوبة التي تردع فاعلها، وتجنب المجتمع مخاطر صحية حتمية. فقد جاء في حديث النبي ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[٣].

وعقوبة القتل قد تبدو لأول الأمر عقوبة قاسية، وغاية في الشدة، ولكن بعد ظهور وباء الإيدز، ومشاهدة عدد ضحاياه الأبرياء الذين بلغوا الملايين، يتضح

١- سبق تخريجه.

٢- موقع المصراوي، www.almassrawy.com. الصحة العالمية تعتمد الختان وسيلة للوقاية من الايدز، تاريخ: ٢٨ / ٠٣ / ٢٠٠٧م.

٣- سبق تخريجه.

أنها السبيل الوحيد لوقاية المجتمع البشري من وباء حتمي، وهلاك محقق؛ لأنه بهذه العقوبة يقضى على حاضن الفيروس وناشره في المجتمع، وبهذه العقوبة أيضا يكون الهدي النبوي قد أوجد لأفراد المجتمع وسطا خاليا من عدوى هذا المرض، فيعيشون فيه بأمان.

المطلب الثاني: التخطيط للوقاية من الأمراض الوبائية[1]

لقد عني بالأمراض الوبائية في الهدي النبوي، فكان النبي ﷺ يخطط لإنقاذ البشرية منها، ويضع التدابير الوقائية للحيلولة دون انتشارها واستفحالها، وتحولها إلى وباء عام يصعب حصاره والسيطرة عليه، وقد تمثلت إجراءات التخطيط النبوي فيما يأتي:

أولا: تفعيل قيم الإيمان بالله وتقوية الوازع الديني لدى الفرد المسلم؛ لأنه بذلك ضمان لتنفيذ الإجراءات الوقائية الكفيلة بعدم انتشار المرض على الوجه الأكمل، وضمان لتحقيق أهداف التخطيط الصحي بشكل قياسي. وهذا ما جعل النبي ﷺ يربط جميع الإجراءات الصحية وغيرها بهذا الأساس المتين الذي إن فقد ضاعت فعالية الإجراءات ونجاعة التخطيط. وقد فصل في هذا سابقا.

ثانيا: توعية أفراد المجتمع الإسلامي بأهمية غسل اليدين في إزالة الجراثيم والمكروبات التي تعلق بهما، ومنهما تنتقل إلى أجهزة جسم الإنسان نفسه، وربما إلى غيره عن طريق التماس، ولمس حاجات الآخرين، فقد أمر النبي ﷺ بغسل اليدين عند الوضوء، وعند الاستيقاظ من النوم، وعند لمس نجاسة، وبعد الانتهاء من الأكل، وقد عرضنا جملة الآثار التي جاءت دالة على ذلك في المبحث

١- لعل من أهمها مرض الأنفلونزا الذي ينتقل بواسطة الهواء الناتج عن التنفس والعطس، والمحمل بالرذاذ. ولعل من أخطر أنواعه ما أثار – هذه الآونة- ضجة إعلامية عالمية، وهو أنفلونزا الطيور وأنفلونزا الخنازير. وعلى الرغم من أن هذا المرض لم يحصد ضحايا كثيرين حتى أيامنا هذه، فإنه يبقى شبحا يهدد الصحة البشرية إذا ما تحول إلى وباء كاسح، ولأجل هذا عملت منظمات الصحة العالمية على التخطيط لمنع استفحال خطر هذا المرض.

السابق. وقد أوضح أحد خبراء المناعة أن غسل اليدين يعتبر أفضل وأرخص دواء للوقاية من العدوى بأنفلونزا الخنازير؛ ذلك لأن تضاريس اليد تسمح للمكروبات بالاستيطان بها، وإن هناك خمسة ملايين مكروب على الأقل يوجد على يد كل إنسان، وتستطيع العيش لعدة ساعات. وأوصى بضرورة غسل اليدين قبل الطعام وبعده، وبعد العطاس، ومن جراء تغيير حفاظات الأطفال، ولمس الأنف أو الرأس أو ملامسة المرضى.[1]

ثالثا: منع الرذاذ المتطاير من الفم والأنف عند العطاس والتثاؤب؛ إذ يعتبر ذلك من أهم الوسائل الناقلة للعدوى من شخص إلى آخر، ويتم ذلك المنع بتغطية الأنف عند العطاس، وتغطية الفم عند التثاؤب، وبمنع التنفس والنفخ في آنية الشرب أو الأكل. وقد سيقت الأحاديث الدالة على ذلك في المبحث السابق.

رابعا: ضرورة الابتعاد عن المرضى وعدم مخالطة ناقلي العدوى؛ ذلك لأن الاحتكاك بالمريض كفيل بنقل العدوى، واستشراء المرض، فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: «لا يوردن ممرض على مصح»[2]، وقوله: «فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»[3].

خامسا: ضرورة إقامة الحجر الصحي على منطقة المرض إذا تفشى وصار وباء يهدد البشرية، وذلك بالإعلان عن المنطقة الموبوءة، ومنع الدخول إليها، والخروج منها؛ إذ بذلك يحاصر الوباء قدر الإمكان، ويمنع انتشاره، فقد جاء في حديث النبي ﷺ: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض

١- موقع مصراوي، محاضرة حول أنفلونزا الخنازير، الدكتور مجدي بدران. تاريخ: ١٠ / ٠٢ / ٢٠٠٩م. للرابط:- http://www.masrawy.com/News/Egypt/Politics/2009/october/2/han washing.aspx

٢- سبق تخريجه.

٣- سبق تخريجه.

وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فرارا منه»[1].

وهكذا نجد النبي ﷺ قد أحكم خطته بغاية من الدقة، فأعمل قواعد الوقاية في أبسط صورها عندما يكون المرض غير خطير، فبين أهمية غسل اليدين، وكيفية توقي خطر الرذاذ، كما أعمل قواعد الوقاية في أجل صورها حينما ينقلب المرض إلى وباء كاسح يهدد البشرية جمعاء، فنهى عن مخالطة ناقلي العدوى، وإقامة الحجر عليهم حتى يظهر شفاؤهم وتخلصهم من الوباء.

١- سبق تخريجه.

الخاتمـة

بعد هذا العرض الموجز لأهداف التخطيط الصحي في الهدي النبوي وأسسه التي يقوم عليها، ومعرفة مستوياته الصحية نخلص إلى جملة النتائج الآتية:

أولا: يهدف التخطيط الصحي في الهدي النبوي عموما إلى النهوض بالمستوى الصحي العام: جسميا ونفسيا وعقليا واجتماعيا، من خلال ما يلي:

- توعية جماهير المسلمين بأهمية السلامة الصحية العامة للفرد والمجتمع، وبضرورة الاهتمام بالصحة البدنية والصحة النفسية، لما بينهما من تكامل، وتأثير إحداهما في الأخرى.

- نشر الوعي الغذائي، والثقافة الجنسية بين أفراد المجتمع؛ لأن انعدامهما سبب لأغلب الأمراض والعلل.

- نشر الوعي البيئي، وثقافة المحافظة على المحيط، لما في ذلك من أهمية بالغة على الصحة العامة.

- ترجمة الحقائق الصحية النظرية إلى أنماط سلوكية فردية، ومظاهر عادات اجتماعية.

- تحقيق الرعاية الصحية لجميع أفراد المجتمع، وذلك بإنشاء المراكز الاستشفائية العامة.

ثانيا: يعتمد التخطيط الصحي في الهدي النبوي على الأسس الآتية:

- ربط التخطيط الصحي: أهدافا وتدابير وإجراءات بقيم الإيمان بالله تعالى؛ ذلك لأنها تعتبر طاقة موجهة للإنسان نحو السلوك الأفضل، وتجنب السلوك المنحرف. وهذا ما يحقق الدقة في تطبيق القواعد الصحية، والحرص في

أداء الإجراءات العملية.

- ربط التدابير الصحية وإجراءاتها العملية بصحة العبادة وكمالها، وذلك لضمان استمرارية تنفيذ الإجراءات الصحية والمداومة عليها.

- الاعتماد على التنبؤ المستقبلي الصحيح للأوضاع الصحية؛ ويعتمد في ذلك على النظرة السببية للأمور، وحسن الإفادة من الأحداث التاريخية.

- صيانة التدابير الصحية وإجراءاتها بتشريع عقوبات تضمن تنفيذها، ولا تسمح للأفراد بخرقها.

ثالثا: إن التخطيط الصحي في الهدي النبوي يستهدف غايته من خلال المستويات الآتية:

- بناء الجسم وتحسين الصحة لترتقي إلى أعلى مستويات القوة المطلوبة، وذلك بالعناية بالرضاعة الطبيعية، والتغذية السليمة، والرياضة البدنية، والصحة النفسية.

- الوقاية من الأمراض والأوبئة من خلال النظافة الدائمة والشاملة، وحماية البيئة، واتقاء العدوى.

- إرساء أصول العلاج على القاعدة السببية بعد تخليصه من السحر والكهانة والشعوذة.

- تأهيل المريض وتخليصه من وطأة الإعاقة بسن الرخص الشرعية الممنوعة في حالة السلامة الجسدية؛ ليتمكن من مزاولة حياته الاجتماعية، ومهامه اليومية.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قائمة مصادر البحث

- القرآن الكريم، المصحف الشريف برواية حفص عن عاصم. (مصحف المدينة النبوية للنشر الحاسوبي).

- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط (٣) ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- الإصابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط(١) ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، تخريج وتوثيق: محمد الطاهر ميساوي، دار النفائس، الأردن، عمان، ط (١)، ١٤١١هـ، ٢٠٠١م.

- التاريخ الصغير، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمود زايد، دار الوعي، حلب، ط(١) ١٣٩٧هـ.

- تحفة الأحوذي، أبو العلا محمد عبد الرحمان المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت.

- الترغيب والترهيب، عبد العظيم المنذري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط(١)، ١٤١٧هـ.

- التغذية وصحة المجتمع، فوزية العوضي، مراجعة د. إبراهيم الصياد، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط (٢) سنة: ١٩٩٠م.

- تغليق التعليق، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: سعيد القزقي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط(١) ١٤٠٥هـ.

- تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، طبع سنة: ١٤٠٥.

- حماية الهواء والتربة من منظور إسلامي، مقال للدكتور: رابح دفرور قدم في ملتقى حول حماية البيئة من منظور إسلامي، في: ٠٤/ ٠٥/ ٢٠٠٤م بجامعة أدرار.

- زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط (١٥) سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط(٤)، ١٩٨٤م.

- سلسلة الأحاديث الضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط(١).

- السنة النبوية وتوجيه المسلم إلى الصحة النفسية، أ.د. هناء يحيى أبو شهبة، بحث مقدم إلى مؤتمر السنة النبوية والدراسات المعاصرة ١٧-١٨ إبريل ٢٠٠٧ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة اليرموك، بأربد، الأردن.

- سنن البيهقي الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، طبع سنة: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمان الدارمي، تحقيق: فواز

زمرلي، وخالد السبع، دار الكتاب العربي، بيروت، ط(١) ١٤٠٧هـ.

- سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكر.

- سنن ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، مطبعة عيسى بابي الحلبي.

- شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط (١) سنة: ١٤١٠هـ.

- الصحة العامة بين البعدين الاجتماعي والثقافي، الدكتور: عبد الحي محمود حسن صالح، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط (٣) سنة: ١٤٠٧هـ/ م١٩٨٧.

- صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م.

- صحيح ابن حبان، محمد بن حبان التميمي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(٢) ١٤١٤هـ.

- صحيح أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط(٣) ١٤٠٩هـ.

- صحيح ابن ماجة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي، الرياض، ط(٣) ١٤٠٨هـ.

- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد

الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط(٣)، ١٤٠٥هـ.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، طبعة الحلبي، القاهرة.

- فيض القدير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط(١) ١٣٥٦هـ.

- كشف الخفاء، إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق: أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(٤) ١٤٠٥هـ.

- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، بيروت، ١٣٤٤هـ-١٩٦٨م.

- مجمع الزوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، القاهرة، سنة ١٤٠٧هـ.

- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي الحنفي، دار الرسالة، الكويت، طبع سنة: ١٩٨٣م.

- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط(١) سنة: ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

- مسند أحمد، أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر.

- مسند البزار ٤-٥، أبو بكر أحمد بن عمرو البزار، تحقيق: د. محفوظ الرحمان زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط(١) ١٤٠٩هـ.

- مسند أبي يعلى، أحمد بن علي أبو يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط(١) ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- مصباح الزجاجة، أحمد بن أبي بكر الكناني، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية، بيروت، ط(٢) ١٤٠٣هـ.

- مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمان الأعظمي، المكتب الإسلامي، ط(٢) ١٤٠٣هـ.

- المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله، وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، طبع سنة: ١٤١٥هـ.

- المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد الحميد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط(٢) ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

- منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، الدكتور محمد محمد امزيان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الوليات المتحدة الأمريكية، طبع سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

المواقـــع الإلكترونيـــة:

- موقع كنانة أون لاين، kenanaonline. ما هو داء الكلب؟ للدكتور: عبد للرحمان إبراهيم زنزنى،تاريخ: ٢٩ / ٠٤ / ٢٠١٠م.الرابط: - http://ken naonline.com/users/Drzanouny/topics/65410/posts/122677

- موقع الأحياء العربية، www.arabianbio.com/. حوار علمي بين الشيخ الزنداني والبروفيسور نيلسون، تاريخ: ١٢ / ١٢ / ٢٠٠٩م. الرابط: /vb

showthread.php?t=69. /. / www.arabianbio.com

- موقع إشراقة، www.ishraqa.com. من الإعجاز العلمي في الحديث الشريف، أ.د. أحمد شوقي إبراهيم، الرابط: http://www.ishraqa.com/newlook/art_det.asp?ArtID=321&Cat_ID=13

- موقع الدعوة، daawa. التربية الوقائية في الإسلام، فتحي يكن، الرابط: http://www.daawa-info.net/books1.php?parts=170&au=%DD%CA%CD%ED%20%ED%DF%E4

- موقع منظمة الصحة العالمية، www.who.int.مكافحة الإيدز والعدوى ففيروسه، تاريخ: ١٠ / ١٢ / ٢٠٠٩م. الرابط: - http://www.who.int/topics/millennium_development_goals/diseases/ar/index.ht

- موقع المصراوي، www.almassrawy.com. الصحة العالمية تعتمد الختان وسيلة للوقاية من الايدز، تاريخ: ٢٨ / ٠٣ / ٢٠٠٧م. الرابط: http://www.almassrawy.com/forum/showthread.php?2600-

- موقع مصراوي، www.masrawy.com. محاضرة حول أنفلونزا الخنازير، الدكتور مجدي بدران. تاريخ: ١٠ / ٠٢ / ٢٠٠٩م. الرابط: http://www.masrawy.com/News/Egypt/Politics/2009/october/2/hand-washing.aspx

- موقع دارج، darg31.com. الإيدز: الوقاية والعلاج، الدكتور عبد الجليل، تاريخ: ١٠ / ٠٨ / ٢٠١٠م. الرابط: http://www.darg3l.com/archive/index.php/t-35658.html

الجلسة الختامية

كلمة الأستاذ الدكتور أحمد حساني/ عميد كلية الدراسات العربية والإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم وبه أستعين وأصلي وأسلم على سيدنا محمد النبي الأمين.

معالي جمعة الماجد الموقر

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة

أيها العلماء الأجلاء

الحضور الكريم

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركته

إنها إضافة معطاء تُدَوَّنُ بكل ارتياح في سجل الإنجازات الكبرى لكلية الدراسات الإسلامية والعربية، وهي تحتفل هذه السنة بمرور ربع قرن على تأسيسها بترشيد سديد من معالي جمعة الماجد رئيس مجلس أمنائها الذي تكرم بمنح هذه الندوة الدولية المباركة رعايته السامية، وهي الرعاية التي تدل على عنايته الكريمة بمصير الأمة استحضارا لماضيها، وتمثلا لحاضرها، واستشرافا لمستقبلها الأفضل. نشكر له جهده ومسعاه في هذا السبيل الذي هو بشأنه لصالح الدين والعلم واللسان العربي المبين.

أيها العلماء الأجلاء،

لقد امتطيتم الأجواء السحيقة، وتحملتم الصعاب، مع ما في ذلك من العَنَتِ والمشقة من أجل أن تكونوا اليوم بيننا بفكركم النَّيِّر لنعيش معا هذه اللحظة السعيدة من لحظات الجهد الفكري المتميز الذي تنصرف إليه الأنظار إعجابا وتقديراً، وتُشَدُّ إليه الأذهان شدا قويا، فهي وقفة تأملية واعية منكم أيها العلماء الأفاضل صنعتها

كلمتكم بمنطوقها ومفهومها، وقفة بين الماضي والحاضر ،بين التأصيل والتجديد، بين المحلي والعالمي،بين الثابت والمتغير لربط الصلة بين الأجيال المتعاقبة في مسار البناء الحضاري للإنسان في أصفى تجلياته.

إن الانصراف إلى مقاربة إشكالية الاستشراف والتخطيط المستقبلي في هدي السنة النبوية في هذا الظرف بالذات من تاريخ الأمة الإسلامية لهو شعور منكم جميعا بالمسؤولية الملقاة على عاتق العلماء والمفكرين والدعاة في استنباط القيم الحضارية والمبادئ التنظيمية للحياة من بيئتها الدينية الأصيلة لحل مشاكل الإنسان الآنية والمستقبلية، وفق استراتيجيات ذات معالم واضحة، وإنقاذ الأمة من الهزات الانتكاسية، وتجنيبها تلك الإخفاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تُعَطِّلُ حضورها، وتُضْعِفُ حُمُولَتَهَا، وتَعُوقُ سبيلها في مسايرة التحولات المتسارعة التي يشهدها العالم في رحاب تشكل الحضارة الإنسانية الجديدة.

تسعى هذه الندوة العلمية المباركة إلى اتخاذ جميع السبل والوسائط المتاحة لاستثمار المرتكزات الإسلامية النصية والفعلية لترقية الوعي المنهجي الاستشرافي، وترسيخ قيم ثقافة التخطيط الاستراتيجي، وهي الثقافة التي تفتقر إليها الأمة في زمن لا مجال فيه للعشوائية والانكفاء على الذات وردود الأفعال الاعتباطية والنزعات الاستسلامية، وهو الأمر الذي يستدعي منا جميعا إعادة تشكيل تصوراتنا لمفهوم التنمية البشرية بجميع روافدها دون إقصاء أو تحييد أو تغييب لأي عنصر من عناصرها الفاعلة وفق منهج استشرافي أصيل.

وإن كان الأمر كذلك فلا مناص لنا حينئذ من تعميق المبادئ الإنسانية الراقية للدراسات المستقبلية، وإبراز أثرها في رقي الإنسانية وتطورها، ووضع الآليات الكفيلة بعولمتها؛ أي الانتقال بها بيسر من المحلية إلى العالمية، والحرص الشديد على تعزيزها وتحيينها وتحديثها باستمرار في هدي تعاليم الدين الإسلامي بأبعاده

الحضارية السامية لصالح الإنسانية جمعاء.

وما قَدَّمْتُمُوهُ من مقاربات ومداخلات وأوراق بحثية يندرج بكل وضوح ضمن مشروع حضاري هادف يسعى إلى تأسيس رؤية استشرافية إسلامية لإدارة المستقبل والتخطيط العلمي للتغيير المأمول نحو الأفضل، والتكيف مع المستجدات، والتهيؤ الدائم لاحتوائها وترقيتها وتحسينها، لإيجاد البدائل الممكنة، وتأطير التداعيات الحقيقية أو الافتراضية، وهذا لا يتحقق إلا بتهيئة الأرضية لإمكانية وجود علم مستقبلي إسلامي (وهو ما يسمى الآن بعلم المستقبليات الذي ازدهر وتطور لدى الأمم الأخرى) والذي أضحى يُعَوَّلُ عليه في مراكز البحوث الاستراتيجية العلمية والهيئات والمنظمات الأممية للتخطيط والدراسات المستقبلية.

سَيُمَكِّنُنَا هذا العلم إن وجد بمرجعيته الإسلامية المتوخاة، وبمنهجه الاستكشافي والاستهدافي المتميز و المنشود، أقول سَيُمَكِّنُنَا من وضع جميع الآليات الناجعة للتخطيط الشامل لنهضتنا، ومحاورة المستقبل انطلاقا من خصوصياتنا الدينية والحضارية، ومن اهتماماتنا الاستشرافية الراهنة، بوعي منهجي وعلمي عميق يستمد أسسه و شرعيته من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والعمل على عولمة هذا المشروع ليسهم في تطوير الدراسات الاستراتيجية المستقبلية انطلاقا من منظور الإسلام لسعادة البشرية على المستوى الروحي والمادي على حد سواء.

أملنا كبير في أن تُثَمَّنَ هذه التوصيات وأن تُعَزَّزَ هذه النتائج المحققة، وأن تُفَعَّلَ بوعي عميق وبروح مَسْؤُولَةٍ عالية، لتجد لها حَيِّزًا يمكن لها أن تحتله بجدارة في منظومة الدراسات الاستراتيجية الكبرى للنهوض بالدراسات المستقبلية العربية والإسلامية وتعزيز حضورها في المشروع النهضوي الإنساني الذي يشهده العالم الجديد.

ومما لا يغرب عن أحد هو أن نجاح فعاليات هذه الندوة الهادفة يعود فيه الفضل إلى تلك الجهود المضنية التي ما فتئ يبذلها سعادة مدير الكلية، وهي جهود تستحق منا الثناء والتثمين. والتقدير كل التقدير إلى الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف بجميع أعضائها، وإلى كل من أسهم من قريب أو بعيد، بإرادة ومثابرة وعطاء لاحدّ له من أجل تهيئة جميع الظروف المواتية لتحقيق الأهداف المنشودة التي نتوخاها جميعا، ونترقب نتائجها في حاضر الأمة ومستقبلها إن شاء الله.

وفي ختام هذه الكلمة تكون البداية لكلمة أخرى لموعد قريب نترقب معالمه في مستقبل أفضل، يَحْدُونَا في ذلك الأمل والتفاؤل بفضل جهود الخيرين والمخلصين والصادقين من أبناء هذه الأمة، ونشكر أهل الفضل كلهم ونثمن جهودهم ونقدرها، ونضرب للجميع موعدا آخرنستشرف بشائره التي تلوح في الأفق بدءا من هذه اللحظة التي نفترق فيها لنلتقي، فهي حينئذ النهاية البداية.

والله المستعان والهادي إلى سواء السبيل

كلمة الأمانة العامة

أ.د. أحمد معبد عبد الكريم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،،،

حقيقةً ما قدمه فضيلة عميد الكلية أنا أعتقد أنه كاف عنا جميعا، لكن إذا كان لي من كلمة فهي كلمة الشكر والتقدير لكل من شرفنا في هذا الحفل الكريم حول مائدة السنة المطهرة من أساتذتنا الأفاضل وإخواننا المفكرين الذين أثروا هذه الندوة بما أبدوه من أفكار يحدوهم فيها الصدق، والإخلاص، وبنفس الصدق والإخلاص ــ شهد الله ــ أننا نتقبلها وبرحابة صدر، ورحم الله امرءا أهدى إلينا عيوبنا.

كذلك نشكر الأستاذات، أستاذات الجامعات اللاتي شرفننا من المملكة العربية السعودية ومن الجزائر ونشكر لهن تجشمهن هذه الرحلة التي لا شك أنها أصعب عليهن من الأساتذة، فقد أصطحب بعضهن أزواجهن أو أبنائهن، فنحن نشكرهم أن ساعدوهم في هذا المجال، لأننا وحدنا لا نكفي، وإن رسالة المرأة في خدمة السنة النبوية هي رسالة لا نقول مكملة، بل نقول إنها محورية، لأن ما يمكن أن نصل نحن الرجال إليه من بناتنا، هن يصلن إليه بأعمق، إنهن يعلمن السلوك قبل أن يعلمن المعلومات، ونحن نعتبر أن هذه رسالة كل أستاذة في موقعها، نسأل الله أن يجعلها في موازين حسناتهن جميعًا، وكذلك زملاؤنا الأفاضل من الجامعات وأساتذة الكليات والعمداء وضيوفنا الكرام جميعا الذين قطعوا مسافات وأوقات حتى يشاركونا، ويتفضلوا علينا بالتوجيه ،فهذا بلا شك هم مأجورون عليه ونحن نشكرهم عليه كذلك.

أيضًا معالي الشيخ جمعة الماجد ــ حفظه الله ــ راعي هذه الندوة، نحن نسأل الله تعالى له المزيد من التوفيق وأحسن الثواب، وأنا شخصيا بحكم سني

وتعاملي مع كثير من المؤسسات التي رعت السنة النبوية ولم يكن لها أي إشكال إلا تدخل النفوس غير المخلصة التي جعلتها تتحول أو تتوقف، أو تنمحي نهائيًا بعد أن آتت ثمارها، نسأل الله أن يحفظ هذا المَعْلَم وهذه الكلية والقائمين عليها، ولابد لنا وليس إلا من باب تقرير الحقيقة أن نقرر أن أخانا الفاضل سعادة الدكتور محمد عبد الرحمن مدير الكلية كان ولا يزال سندا فاعلا لهذه الكلية ولندوة السنة الشريفة بالذات، نسأل الله أن يجعله في موازين حسناته، وإن لم نستطع أن نكافئه فندعو الله له بأحسن الجزاء وبذلك نُحيله على صاحب الفضل العميم الذي يقدر على مجازاته بقدر ما نشهد له في جهوده من إخلاص ودعم، وأن يجعله سندا لهذه الندوة حتى تواصل مسيرتها، ويجعل هذا الصرح يقترب بقدر ما يستطيع من إفادة الجميع، وأيضا يصل بهذه الرسالة إلى مدرج الكمال.

ونشكر كذلك طلبة هذه الكلية الذين قاموا بواجب استقبالنا وضيافتنا وصحبتنا، وكذلك الطالبات اللاتي حضرن هذه الجلسات، نسأل الله أن يوفق الجميع.

واسمحوا لي أن نشكر باسمكم جميعًا وباسم أعضاء ندوة السنة الشريفة الأستاذ الدكتور حمزة المليباري رئيس الندوة، والذي تحمل أعباء متعددة ونحن بعيدا عن هذا المكان بحيث إنه رجل متعدد المواهب راضيا و محتسبا، فهو عندما تضطرنا ظروفنا للتقصير يكون هو البديل الأمثل والرجل الذي يعمل في صمت ابتغاء وجه الله تعالى.

أما مساعده وتلميذه النجيب الأخ الدكتور عبد السلام أبوسمحة فلا ننسى ما ظهر له من إسهامات داعمة، في التجهيز والإعداد لأعمال هذا الندوة في دورتها الخامسة.

نسأل الله أن يكثر من أمثال الجميع. ونشكر لكم هذا المسعى الجميل.

وصل الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

توصيات الندوة العلمية الدولية الخامسة

«الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية»

د. عبد السلام أبو سمحة / مساعد الأمين العام للندوة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه الغر الميامين. وبعد:

فقد انعقدت – بحمد الله وتوفيقه – الندوة العلمية الدولية الخامسة بعنوان: «الاستشراف والتخطيط المستقبلي في السنة النبوية» في رحابِ كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي بتاريخ السادس عشر إلى السابع عشر من جمادى الأولى لعام اثنين وثلاثين وأربعمائة وألف من الهجرة، الموافق التاسع عشر والعشرين من شهر أبريل لعام أحد عشر وألفين من الميلاد، وشارك فيها نخبة من العلماء والباحثين والضيوف وبحضور من طلبة الكلية، وقدمت فيها بحوث علمية رصينة ومتنوعة، كانت مجالاً واسعًا للمناقشات والمداخلات والتعقيبات.

ومن خلال الأبحاث المقدمة والمناقشات التي أعقبتها واستنادا إلى استمارة التوصيات والاقتراحات المستلمة من المشاركين والحاضرين، وبعد اجتماع الأمانة العامة للندوة، تم التوصل إلى التوصيات الآتية:

- **أولاً**: ضرورةُ إنشاءِ موسوعةِ الأحاديثِ النبويةِ المتعلقةِ بالاستشراف والتخطيط المستقبلي.
- **ثانياً**: تبويبِ نصوص السنة النبوية في الاستشراف والتخطيط المستقبلي بعناوين معبرة تخدم الواقع المعاش وتبشر وتؤمل بمستقبل واعد.

- **ثالثًا**: الاعتناءِ بدراسة مراحل السيرة النبوية المختلفة برؤية استشرافية تخطيطية؛ تكشف مجالات التخطيط عند النبي ﷺ في مراحلها المتنوعة.

- **رابعًا**: الحثِ على إثراء التأليف والكتابة في موضوع الاستشراف والتخطيط المستقبلي ومقارنة المنهج الإسلامي بغيره من المناهج، وذلك من خلال الرسائل الجامعية والجوائز الإسلامية العالمية.

- **خامسًا**: ضرورةِ أن يفتح الباحثون آفاق البحث في الاستشراف والتخطيط المستقبلي لدى الصحابة رضوان الله عليهم وغيرهم.

- **سادسًا**: أن تهتم المناهج التعليمية بتربية الأجيال على الاستشراف والتخطيط وفق الهدي النبوي.

- **سابعًا**: مناشدةِ الجامعات العربية والإسلامية لاعتماد مقررات دراسية جامعية تعنى بالاستشراف والتخطيط المستقبلي في الإسلام.

- **ثامنًا**: إنشاءِ معاهد ومراكز متخصصة في «الدراسات المستقبلية وإدارة الأزمات».

وتوصي الأمانة العامة للندوة الباحثين بتطوير بحوثهم وإثرائها والوصول بها إلى مشاريع متكاملة.

كما تحث الجهات الرسمية وغيرها على تبني تمويل هذه المشاريع ونشرها.

وختاماً، فإن الأمانة العامة لتتقدم بالشكر الوافر والامتنان العطر لمعالي جمعة الماجد، رئيس مجلس أمناء الكلية وراعي هذه الندوة المباركة، على جهوده المبذولة في خدمة السنة النبوية ونشرها والذب عنها.

كما تتقدم بشكرها الجزيل إلى سعادة مدير الكلية الدكتور محمد عبد

الرحمن على اهتمامه ومتابعته عن كثَب، سير أعمال الندوة وتذليل الصعاب التي واجهتها.

والشكر موصول إلى جميع أساتذة الكلية وطلابها وطالباتها النجباء على تفاعلهم مع الندوة تنظيما وحضورا ومشاركة.

كما لا يفوت الأمانة العامة أن تنوه وتشيد بحكومة دبي الراشدة على التسهيلات المقدمة وكرم الضيافة، وإلى الرعاة الذين أسهموا في رعاية الندوة وإنجاحها بدعمهم المادي والمعنوي.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

قصيدة شعرية من بحر الكامل التام تلقى في ختام
الندوة العلمية الدولية الخامسة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية- دبي

تأليف أ.د. محمد عبدالله سعادة/ مساعد العميد للدراسات العليا

بعنوان: «سنن الهدى»

عمر الزمان يطوف في مرآتي ... ما بين قلب حائر وهداة
وأمامنا التاريخ يسجد خاشعا ... للحق من سنن الهدى الغايات
لكنني أودعت في أعناقكم ... قرآن ربي سنتي وحياتي
لا لن تضلوا إن تمسّكتم به ... بالحق والتنزيل والآيات
وأرى حشود الحق في صيحاتكم ... فعلى هداكم قد علت راياتي
هذي الجموع تواصلت غاياتها ... من كل نهر بينها وفرات
وأرى الوجوه وقد أضاء جلالها ... بالبحث والتنقيب والنفحات
الله أكبر والوفود مواكب ... من كلّ لون قادم ولغات
الله وحّدكم على سنن الهدى ... رغم اختلاف الجنس واللهجات
جئتم فرادى تحملون بحوثكم ... بالحق تكتب أروع الصفحات
من سنة أحيت مواتا قبلنا ... هل يستوي الأحياء بالأموات
هي سنة استشرفت واستقبلت ... تخطيط أزمان بلا عثرات

برسالـة شقّـت طريقـا نيّـــرا		بهدايـة في كل فـــــجـر آت
هـي قـدوة للعالمـين وقـد حوت		مـن كل نهـج شرعـة لحياتـــي
ويصيح فينا أن غايـة ديننــــا		تمجيـد سنّتـه بغـير غـــلاة
ورسالتـــي فيكم بمـلء سماحـة		والعدل نـور الله في الظلمــات
لا تقربــوا بدعـاً وخلفـا إنهـــا		رأس الضلال وآفـة الآفـــات
جمعتنــا في كل شــيء كلمــا		نادى المـؤذّن داعيـا لصـــلاة
أنا في رحابك جئـت أحمل صفحة		فاضـت على جنباتهـا كلماتـــي
الله خالــق كلّ شــيء فاجمعــوا		قـرآن سنتكم بغـير شتــــات
فإذا بـدا في الأفق غيـم حالك		صلوا عليه وأكثروا الصلـوات
في ساحـة العلمـاء لحـن دائم		كليـة في نـدوة بثبــــــات
كلية قد سابقـت أقرانهــــــا		في كل عام زهـرة بنبـــــات
من جمعة الماجـد تحيته سـرت		في كل نحو بينكم وجهــــات
من عبد رحمـن تحايــــا جمة		تسعى لكم دوما ودون فـــوات
وجهود حمـزة في رجـال حولـه		ضبط مراجعة بحسن أنــــاة
صاحــت دبي إمارتــي رحبت بكـم		هلا أراكم في اللقـاء الآتــــي